موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

القرآن الكريم

تفسير سورتي الفاتحة والبقرة

www.nabulsi.com

info@nabulsi.com

تفسير سورة الفاتحة

التفسير المطول - سورة الفاتحة 001 - الدرس (1-2) :تفسير الآيات 1-2 ، كيفية الحمد
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1985-09-06

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآنُ الكريم جُمع في الفاتحة:

سوف نفسِّر إن شاء الله تعالى سورةَ الفاتحة، لأن هذه السورة عظيمة القدر، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب))

[مسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه]

سماها النبي عليه الصلاة والسلام أساس القرآن، وسماها أم القرآن، وسماها فاتحة الكتاب، ولها عشرة أسماء، وقد جُمع القرآنُ في الفاتحة، لهذه الأسباب كلّها رأيت من المناسب أن أفسر سورةَ الفاتحةِ بعد السورِ القصيرة الأخيرة التي خُتم بها القرآن الكريم.

أولاً يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98))

(سورة النحل)

أجمع العلماء أن كلمة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ليست آية، لكن النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يقرأ القرآن الكريم إلا ويتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، امتثالاً لقوله تعالى:

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98))

(سورة النحل)

العلماء قالوا مندوب أن نقرأها في غير الصلاة وواجب أن نقرأها في الصلاة، فيجب أن نتعوذ بالله من الشيطان الرجيم في الصلاة ولكن سراً، تقول: سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك، سراً، ثم تتعوذ بالله من الشيطان الرجيم سراً.

النبي عليه الصلاة والسلام كان دائماً يتعوذ بالله ولاسيما في السورتين الأخيرتين:

أما البسملة فالأكثرُ على أنها تُقرأ جهراً، وأبو حنيفة رضي الله عنه يرى أن تُقرأ أيضاً سراً، ومذهبُه رضي الله عنه يبدأ القراءة بقوله: الحمد لله رب العالمين، لكن الأكثرَ على قراءة البسملة جهراً، أما التعوذ فيجمعون على أنه يُقرأ سراً وهذا في الصلاة.

((اسْتَبَّ رَجُلانِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ، وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغْضَبًا، قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ))

[البخاري عن سُلَيْمَانُ بْنُ صُرَدٍ]

إذا سافر عليه الصلاة والسلام وأدركه الليل ونزل في أرض فإنه كان يقول:

((يا أرض، ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك ومن شر ما فيك وشر ما خلق فيك، وشر ما يدب عليك، أعوذ بالله من أسد وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن شر ساكن البلد، ووالد وما ولد))

[رواه أبو داود عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما]

النبي عليه الصلاة والسلام كان دائماً يتعوذ بالله ولاسيما في السورتين الأخيرتين:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5))

(سورة الفلق)

وأيضاً:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6))

(سورة الناس)

الأسماء الحسنى كلها جمعت في كلمة "الله":

قال بعضهم: العوذ هو الالتجاء لقوي كي تتقي به الشر، وأما اللوذ بمعنى لاذ به، الاحتماءُ بقويٍّ من أجل أن يجلب لك الخير، عاذ به، ولاذ به، عاذ اتقاء للشر، ولاذ طلب الخير، فربنا سبحانه وتعالى يأمرنا أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وأما كلمة الله فهي اسم الله الأعظم الجامع

للأسماء الحسنى كلها، وهو عَلَمٌ على الذات، وأكبر أسماء الله اسم الله الأعظم، يجمع كل أسمائه، أعوذ بالله، يعني أعوذ بالله الرحيم، أعوذ بالله الحكيم، أعوذ بالله اللطيف، أعوذ بالله القوي، أعوذ بالله الغني، أعوذ بالله العادل، أعوذ بالله الفرد، الصمد، الواحد، الأحد، القهار، الجبار، أعوذ بالله الودود، إذا قلت: الله، فإن الأسماء الحسنى كلها جمعت في كلمة الله، لو قال قائل: أعوذ بالرحيم، والأمر محتاج إلى قوة، فهذه الاستعاذة لا تصح، أما أعوذ بالله إن كنت تخاف شيئاً قوياً فَعُذْ بالله فهو القوي، وإن كنت بحاجة إلى رحمة فعذ بالله فهو الرحيم، وإن كنت بحاجة إلى إمداد فعذ بالله فهو رب العالمين، وإن كنت بحاجة إلى لطف فعذ بالله فهو اللطيف الخبير، وإن كنت بحاجة إلى علم فعذ بالله فهو العليم الخبير، فكلمة أعوذ بالله يعني أنا ألتجئ إلى الذات الكاملة التي جمعت الأسماء الحسنى كلها، قال تعالى:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(180))

(سورة الأعراف)

الله سبحانه وتعالى حينما خلقنا رسم لنا منهجاً:

لِمَ سُمِّي الشيطان شيطاناً ؟ لأنه شَطَنَ، بمعنى ابتعد وخرج عن طريق الحق، والله سبحانه وتعالى حينما خلقنا رسم لنا منهجاً، قال تعالى:

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

وقال:

(قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

(سورة طه)

وقال:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30))

(سورة فصلت)

ما دمت على المنهج الإلهي فلا تخف ولا تحزن:

ما دمت على المنهج الإلهي فلا تخف ولا تحزن، قال تعالى:

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (16))

(سورة المائدة)

إذا اتبعت رضوان الله سبحانه وتعالى يهديك بمنهجه إلى سبل السلام، سلام في بيتك، سلام في صحتك، سلام في أولادك، سلام في تجارتك، سلام في عملك، سلام في ماضيك، سلام في حاضرك، سلام في مستقبلك، سلام في خريف عمرك:

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (16))

(سورة المائدة)

الشيطان هو ذلك المخلوق الذي خرج عن المنهج القويم الذي رسمه الله لعباده المؤمنين:

عندما يطبق الإنسان المنهج الإلهي يَسلَم، وللإيضاح أضرب مثلاً بآلة ثمينة جداً، معها تعليمات دقيقة جداً من خبراء الشركة، إذا اتبعتَ التعليمات فإن هذه الآلة تخدمك إلى أمد طويلٍ طويل، وإذا خالفتَ التعليمات فسوف تصاب بالعطب، وتخسرها، وتخسر ثمنها، إذاً مَن هو الشيطان ؟ ذلك المخلوق الذي خرج عن المنهج القويم، الذي رسمه الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين، لذلك قال الله تعالى:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً(9))

(سورة الإسراء)

من منا لا يحب أن يعيش حياةً سعيدة فيها سلام، وفيها رضا، فيها طمأنينة، وفيها ثقة بالله، من منا لا يحب أن ينجو من الخوف، وأن ينجو من القلق، أن ينجو من القهر، وأن ينجو من الألم:

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (16))

(سورة المائدة)

كل مخلوق خرج عن المنهج الإلهي فهو شيطان:

إذاً الشيطان ذلك المخلوق الذي خرج عن المنهج الإلهي، وكل مخلوق خرج عن المنهج الإلهي فهو شيطان، هناك شياطين الإنس، وهناك شياطين الجن، قال تعالى:

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76))

(سورة القصص)

يعني خرج عن طريقتهم الصحيحة، قال تعالى:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43))

(سورة طه)

الطغيان خروج عن طريق الحق، والبغي خروج عن طريق الحق، والشطن خروج عن طريق الحق، والفسق خروج عن طريق الحق، قال الله سبحانه وتعالى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ(1))

(سورة الأنعام)

وقال:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (1))

(سورة الكهف)

يُحمد الله مرتين ؛ مرةً على خلق السماوات والأرض، ومرة على هذا المنهج القويم الذي أنزله على أنبيائه.

ما دمت في طاعة الله فأنت في ظلّ الله وذمته:

ملخص الكلام أن لله في الأرض منهجاً، وأن لله في الأرض قرآناً، وشرَعَ لنا شرعاً، فما دمت ضمن الشرع فأنت في سلام، في حياتك الدنيا، ويوم تقوم الساعة، ويوم تقوم القيامة، وأنت في جنات عدن خالداً فيها إلى أبد الآبدين، ما دمت وفق هذا المنهج، فإذا خرجت عنه تدفع الثمن، ما دمت في طاعة الله فأنت في ظل الله وذمته، فإذا خرجت عن طاعته خرجت من حيّز ظله، تحمَّل المتاعب حينئذٍ، جاء أعرابي النبي عليه الصلاة والسلام فقال: يا رسول الله عظني وأوجز، قال: قل آمنت بالله ثم استقم، قال: أريد أخفَّ من ذلك، قال إذاً فاستعد للبلاء.

قضية واضحة كالشمس، إما أن تطبق التعليمات، وإما أن تستعد للبلاء، قل أعوذ بالله من الشيطان، هذا المخلوق الذي طغى، والذي غوى، والذي بغى، والذي شطن بمعنى ابتعد، وبعضهم قال: الشيطان من شاط، بمعنى احترق، احترق بنار البُعد، شقي بالبعد، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((.. فالناس رجلان رجل بَرٌّ تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله..))

[الترمذي والبيهقي عن ابن عمر]

أي لو أن في الأرض إنساناً واحداً بعيداً عن الله، وهو يعيش سعيداً رغْمَ بُعْدِه عن الله لكان هذا الدين باطلاً، ولو أن إنساناً واحداً كان متصلاً بالله، وهو شقي في حياته رغمَ طاعته وتقواه لكان هذا الدين باطلاً، قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

(سورة طه)

وقال:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97))

(سورة النحل)

آيات في كتاب الله تَعِدُ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله بالتعويض الجزيل:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، الرجيم أي البعيد، والأصح من كلمة البعيد المُبعَد لأنه خرج عن طريق الحق، وشطن ابتعد فاحترق فأبعد، قال تعالى: الشيطان يعدكم الفقر، الشيطان يخوفكم، الشيطان يأمركم بالفحشاء من طريق الأمر بالفحشاء، يغريك بالمعاصي، يزين لك المعاصي، يعدك بالفقر، يوسوس لك إذا أنفقت مالك تبقى فقيراً، ثماني آيات في كتاب الله تَعِدُ الذين ينفقون أموالهم بالتعويض الجزيل قال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (245))

(سورة البقرة)

وقال:

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (39))

(سورة سبأ)

وقال:

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (77))

(سورة النساء)

الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم في الصلاة واجبة:

إذاً:

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ (98))

[سورة النحل]

إذا قرأته خارج الصلاة فهذا مندوب، أما إذا قرأته في الصلاة فهذا واجب، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يعوذ بالله من كل شيء، من دار يدخلها، ومن دابة يركبها، كان إذا ركب دابة يقول:

((أعوذ بالله، اللهم إني أسألك خير هذه الدابة، وخير ما خُلقت له، وأعوذ بك من شرها، وشر ما خلقت له.))

[ورد في الأثر]

الاستعاذة بالله من دابة، من بيت، من عمل لا يرضي الله عز وجل، من رفقاء السوء، من نزهة قد تكون فيها النهاية الوبيلة.

الإنسان المؤمن من علامة إيمانه أنه دائماً يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم أنْ يضله، أو أن يغريه، أو أن يفسده، أو أن يفتنه، أو أن يحمله على معصية، أو أن يوسوس له، أو أن يبعده عن أهل الحق، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

هناك معنيان للبسملة:

أما كلمة

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

فلها حديث طويل، يقول الله سبحانه وتعالى في سورة النمل:

(إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30))

(سورة النمل)

النبي عليه الصلاة والسلام من سنته المطهرة أنه كان يبدأ كل أفعاله ببسم الله الرحمن الرحيم، ونحن نرى على مقدمة الكتب بسم الله الرحمن الرحيم، وفي أكثر المجالات بسم الله الرحمن الرحيم، وأصبحت تقليداً، قد يكون الكتاب يتحدث عن نظرية داروين، ويبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم، البسملة خلاف المضمون.

الموضوع في

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

أن هذه الباء حرف جر، أي أبدأ بسم الله، وأسماء الله كلها حسنى، الرحمن الرحيم، كأن الكلام ناقص، هناك فعل يتعلق بهذه الباء، يعني أبدأ عملي بسم الله، آكل بسم الله، أؤلف هذا الكتاب بسم الله، أصدر هذا الحكم كقاضي بسم الله، فما معنى بسم الله ؟

إذا أردت أن تأكل، وقلت:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

هناك معنيان لهذه البسملة:

1- المعنى الأول أن طعامك وشرابك وغير ذلك إنما هو من نعم الله عز وجل:

أن هذا الطعام الذي تأكله إنما هو من نعم الله عز وجل، فكل هذا الطعام باسم الرزاق، كل هذا الطعام باسم المغني، بسم المقيت، بسم المجيد، بسم الواهب، بسم اللطيف، بسم الله، الله كما قلت قبل قليل: اسم جامع لأسماء الله الحسنى، فإذا قلت: باسم الله فالبسملة بحسب الموضوع الذي أنت بصدده، فإذا أكلت، وقلت: بسم الله الرحمن الرحيم، يعني أنك آمنت بأن هذا الذي تأكله من صنع الله فهل فكرت في ذلك ؟ وأن الله سبحانه هو الرزاق، قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71))

(سورة يس)

إذا شربت كأس ماء وقلت بسم الله الرحمن الرحيم، هل فكرت في أن هذا الماء أصله شمس سُلطت على بحار شاسعة، فتبخر ماؤها، وتقطر، وأصبح بخاراً عالقاً في الجو، واجتمع سحباً ساقته الرياح إلى أرض عطشى، أنزله الله بفضله وبقدرته ماءً ثجاجاً أنبت به الزرع والزيتون، أودعه في الجبال، فجره ينابيع، أساله أنهاراً، فالشمس ساهمت في هذا الكأس، والمجرات، والأنواء، والمناخ، والرياح، والحرارة، والبرودة، والجبال، فإذا قلت:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

أي هل فكرت بسم الرزاق، باسم المعطي، باسم الواهب، باسم الغني،

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

يعني أشرب الكأس بسم الله الرحمن الرحيم.

2- المعنى الثاني أن لله في خلقه سنةً:

أن لله في خلقه سنةً، في شرب الماء إذا قلت:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

فلا ينبغي أن تشرب الماء خلاف السنة، أن تشربه مصاً، ولا تعبه عباً، أن تشربه على ثلاث مراحل، أن تشربه وتحمد الله عز وجل، أن تبعد الإناء عن فيك، ألا تتنفس في الإناء، هذه سنة النبي المطهرة، نهانا عن التنفس في الإناء.

الآن ثبت أن هناك أمراضاً تنتقل عدواها عن طريق الزفير الذي يختلط بالماء المشروب، فقال عليه الصلاة والسلام:

((أبِنْ القدح عن فيك.))

[رواه البيهقي وسمويه عن أبي سعيد الخدري]

بين الشربتين أبِنْ القدح عن فيك، لئلا يختلط النَفَس بالماء، وكان عليه الصلاة والسلام قد قال:

((مصوا الماء مصاً ولا تعبوه عباً، فإن الكباد من العب.))

[رواه ابن السني والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها]

مرض الكبد يأتي من عب الماء، وكان عليه الصلاة والسلام إذا شرب حمد الله وكل هذا من سنته المطهرة، إذا قلت:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

لها معنيان، الأول: هل فكرت في هذه النعم ؟ والثاني: هل أنت مطبق سنة رسول الله في شرب الماء ؟ هذا في الشرب.

على الإنسان أن يحمد الله ويشكره على نعمه في كل حركاته وسكناته:

في الطعام، قال تعالى:

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ((31)

(سورة الأعراف)

كلوا واشكروا له:

((الحمد لله الذي أطعمني فأشبعني، وسقاني فأرواني.))

[أبو يعلى عن عبد الله بن قيس]

((إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها.))

[رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه]

ليرضى عن العبد، يعني إذا أكل الإنسان وشبع فليقل: الحمد لله، فإذا قلت: بسم الله فهذه التسمية تعني أنْ فكّر في هذه النعم، وأنها من رزق الله تعالى، وطبق أمر الله في الطعام، وإذا دخلت البيت وقلت:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا (27))

(سورة النساء)

إذاً بيوتكم أولى بالسلام على مَن فيها، والنبي صلى الله عليه وسلم قال فيما معناه: إن الرجل إذا دخل بيته ولم يسلم على أهله قال الشيطان وجدنا المبيت، فيبيت الشيطان في المنزل، ويعيث فيه فساداً ما شاء له أن يعبث تلك الليلة، إذاً إن هذا أمر الله، وهو أن تسلم إذا دخلت المنزل، وإذا قلت: بسم الله، وفتحت باب المنزل، فلتقل أيضاً: الحمد لله الذي آواني، فكم من الناس من لا مأوى له، هل شعرت أن هذه نعمة، نعمة المأوى كبيرة جداً ؟ كم ممن لا مأوى له، في أكثر دول شرقي آسيا ينام الناس على الأرصفة، يتخذون بيوتاً قوارب في الأنهار، في بعض الدول الفقيرة تشاهد الآلاف ينامون هم وزوجاتهم وأولادهم على الرصيف، وصار ذلك منظراً مألوفاً جداً في بلادهم، فإذا كنت في بيت وفتحت باب البيت وقلت:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

فمعنى ذلك: الحمد لله الذي آواني، وتذكرت كم من الناس مَن لا مأوى له.

بسم الله تجعلك على بصيرة من الأمر:

هل رأيت نعم الله عز وجل ؟ إذا فتحت الماء لتتوضأ، وقلت: بسم الله الرحمن الرحيم، هل عرفت أن هذه نعمة لا تُقدر بثمن، نعمة الماء داخل المنزل، الآن إذا دخلت إلى البيت وقلت: بسم الله الرحمن الرحيم، يعني:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ (19))

(سورة النساء)

((أكرموا النساء فو الله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، ويغلبهن لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً.))

[ورد في الأثر]

يعني البسملة، إذا قدت سيارتك وقلت: بسم الله الرحمن الرحيم، فليبادر ذهنك إلى أين أنت ذاهب ؟ هل أنت ذاهب إلى مكان لا يرضي الله عز جل، فيتناقض ذلك بين البسملة وبين هذا المكان، فتنثني عن ذهابك عندئذٍ وتعود إلى صوابك.

هل تشكر الله على نعمة المركب ؟ هل تسخرها لعباد الله ؟ هل تعين بها الضعيف ؟ هل تنقذ بها المريض ؟ القضية واسعة جداً، النبي عليه الصلاة والسلام، قال:

((كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر.))

[أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة]

يعني: مقطوع الخير، ألّفت كتاباً، هل تذكر في الكتاب شيئاً باطلاً، فإذا كتبت في صدر صفحاته بسم الله، فإنك تدقق: هل هدفك من هذا التأليف خالص لوجه الله أم تبتغي به السمعة والرفعة، بسم الله تجعلك على بصيرة من الأمر.

العلماء حاروا في الفرق بين الرحمن والرحيم:

هذه البسملة تضعك أمام شيئين، تذكرك بنعم الله عز وجل، وأن هذا من نعمة الله، وتذكرك بأمر الله في هذا الموضوع، في الطعام، في الشراب، في دخول المنزل، في الخروج إلى السوق، وكان النبي الكريم يعوذ بالله من صفقة خاسرة إذا دخل السوق، ويمينٍ فاجرة، يقول لك البائع: الله وكيلك بعتُك برأسمالها، وهو يكذب، لقد باع دِينَه كله بكلمة واحدة، النبي كان يعوذ بالله من يمين فاجرة، ومن صفقة خاسرة، فإذا جمع الإنسان مالاً من حرام فإنّ الله عز وجل يريه أن هذه الصفقة فيها ربح وفير فيشتريها، ويكون إفلاسه عن طريقها، هذا الذي جمعه من حرام أذهبه الله في صفقة خاسرة، فإذا دخل الإنسان إلى السوق فهناك بسملة، إذا دخل بيته فهناك بسملة، إذا ركب في مركبة فهناك بسملة، إذا شرب الماء، إذا تناول الطعام، حتى إذا التقى مع أهله فهناك بسملة، لئلا تأتيك ذرية سيئة، بسم الله، فهذه الباء تعني التجئ وألوذ بسم الله، آكل بسم الله، أتزوج بسم الله، أدخل إلى بيتي بسم الله، دائماً هذه البسملة تذكرك بأسماء الله الحسنى، وتذكرك بأوامره المثلى،

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

وبعد فالحقيقة إن العلماء حاروا في الفرق بين الرحمن والرحيم.

قال بعضهم: الرحمن بخلقه جميعاً، والرحيم بالمؤمنين.

وقال بعضهم: الرحمن بجلائل النعم، والرحيم بدقائقها.

وقال بعضهم: الرحمن في الأولى، والرحيم في الآخرة.

وقال بعضهم: الرحمن في ذاته، والرحيم في أفعاله.

وهذا الأخير من أوجه التفسيرات، لأنك قد تلتقي بطبيب يرى مريضاً فيسرع إلى إنقاذه أمام ملأ من الناس، فإنقاذُ هذا المريض يكسب الطبيبَ سمعة طيبة، فنقول: هذا الطبيب رحيم، لكن الطبيب لا ينطوي على رحمة في قلبه، بل فعَلَ هذا ابتغاء السمعة، فهو رحيم، لكنه لم ينطلق في عمله من رحمة في قلبه.

الرحمة الشيء الذي يرتاح له الإنسان فالله سبحانه وتعالى خلقنا ليرحمنا:

رحمة الله تتجلى برحمة خلقه

هناك فرق بين الرحمن والرحيم، الرحمن في ذاته، والرحيم في أفعاله، ذاته رحيمة، وأفعاله رحيمة، الرحمن الرحيم، والرحمة شيء يبعث الراحة في النفس، فالمطر من رحمته، تهطل الأمطار فتمتلئ الينابيع، وينبت النبات، وتثمر الأشجار، ونأكل، وترخص الأسعار، فهذا من رحمته، والأبناء من رحمته، يبدلون سكون البيت حركة وحياة، ويبعثون الأنس في البيت، وإذا كبر الابن يعين والديه، فالابن رحمة من الله، قال تعالى:

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ (84))

(سورة الأنعام)

وهبنا له، فالرحمة كل شيء يرتاح له الإنسان، فأن تعمل هذه الأجهزة عملاً منتظماً فهو من رحمة الله، وأن تأكل طعاماً لذيذاً فهو من رحمة الله، وأن تشرب ماءً عذباً فراتاً فهو من رحمة الله، وأن تسكن إلى زوجة، تطيعك إذا أمرتها، وتسرك إذا نظرت إليها، وتحفظك إذا غبت عنها، فهو من رحمة الله، وأن ترى طفلاً كالملاك يتحرك في البيت، فهو من رحمة الله، وإن كان لك عملٌ يدرُّ عليك دخلاً فهو من رحمة الله، وإذا ذهبت إلى بستان فمتعت النظر بجماله فهو من رحمة الله، وإذا هبت نسمات لطيفة عَطّلت عمل المكيفات، وأوقفته فهو من رحمة الله، وإذا كان الدفء فهو من رحمة الله، فالرحمة الشيء الذي يرتاح له الإنسان، فالله سبحانه وتعالى خلقنا ليرحمنا قال تعالى:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119))

(سورة هود)

ليرحمنا في الدنيا، ويرحمنا في الآخرة، أما أن يقول الإنسان: سبحان الله، خلقنا الله ليعذبنا، هذا كلام الشيطان، ما خُلقت يا أخي للعذاب بل خُلقت للرحمة، كي يسعدك في الدنيا والآخرة.

الله تعالى خلقنا ليرحمنا هذا هو الهدف الإلهي الكبير:

في الدنيا إذا آمنت بالله يمتعك إلى حين ويؤتي كل ذي فضل فضله، حتى في الدنيا فيها سعادة، وفيها سرور لمن أطاع الله عز وجل:

(مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ (147))

(سورة النساء)

خلقنا ليرحمنا هذا هو الهدف الإلهي الكبير، ولكن العذاب الذي يعذبنا الله به من صنع أيدينا، من معاصينا، من ضلالنا، من انحرافنا، من طغياننا، مِن بُعْدِنا، ومن تقصيرنا، حتى الهمُّ يهتم له الإنسان إنه انعكاس لأعماله الزائغة. بعضهم قال: هذه البسملة ينبغي أن تدور مع الإنسان في كل نواحي حياته، وفي كل نشاطاته، إذا قام ليتوضأ، إذا دخل البيت، إذا قام ليأكل، إذا قام ليشرب، قمت لتأكل فقلت بسم الله الرحمن الرحيم، النبي أمرنا بالوضوء قبل الطعام، ووضوء الطعام ليس وضوءاً كاملاً، غسل اليدين والفم فقط:

((وبركة الطعام الوضوء قبله، والوضوء بعده.))

[أبو داود والترمذي عن سلمان]

أجمع العلماء على أن وضوء الطعام غير وضوء الصلاة، وضوء الطعام غسل اليدين والفم، كنت في الطريق، غبار، صافحت إنساناً، أمسكت بحذائك، يعني هذه اليد أمسكت بأشياء كثيرة، بركة الطعام الوضوء قبله، فلو قمت إلى الطعام فقلت: بسم الله الرحمن الرحيم، قف اذهب واغسل يديك وفمك، هذا معنى

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

تسمية الفاتحة بعدة أسماء:

قال تعالى:

(الحمد لله رب العالمين(2))

(سورة الفاتحة)

الآن نبدأ بالفاتحة، الفاتحة سماها النبي عليه الصلاة والسلام الصلاة، لقوله:

((لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب.))

[متفق عليه عن عبادة بن الصامت]

شيء آخر سُميت الفاتحة بسورة الحمد لأنها مصدرة بالحمد لله رب العالمين، وسميت فاتحة الكتاب لأن القرآن الكريم افتتح بها، وسميت أم الكتاب، وأم الشيء أصله، ربنا عز وجل قال:

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ (7))

(سورة آل عمران آية 7)

آيات الفاتحة كلها آيات محكمات، الفاتحة سماها النبي عليه الصلاة والسلام أم الكتاب، وسُميت أم القرآن، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((الحمد لله أم القران وأم الكتاب والسبع المثاني.))

[الترمذي عن أبي هريرة]

سميت الشفاء، لأنه عليه الصلاة والسلام قال:

((في فاتحة الكتاب شفاء من كل داء.))

[البيهقي عن عبد الله بن جابر]

سُميت الأساس، أساس الكتاب القرآن، يعني أساس الكتب السماوية القرآن، وأساس القرآن الفاتحة، وسُميت الوافية، وسميت الكافية، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((أم القرآن عوض عن غيرها، وليس غيرها عوضاً عنها.))

[الحاكم عن عبادة بن الصامت]

وقد ورد في تفسير القرطبي: **" إن جميع القرآن فيها ".**

أذكر حديثاً روى عن الحسن البصري ـ رحمه الله ـ أنّ الله أنزل مئة كتاب وأربعة كتب، جمع سرّها في الأربعة، وجمع سرّ الأربعة في القرآن، وجمع سرّ القرآن في الفاتحة، وجمع سرّ الفاتحة في هاتين الكلمتين:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها.))

[مسلم عن أنس بن مالك]

الحمد على النعمة أفضل من النعمة نفسها:

سأتلو عليكم حديثاً شريفاً يبعث في أنفسكم الطمأنينة هو:

((الحمدُ على النعمة أمانٌ لزوالها.))

[الديلمي عن عمر]

أية نعمة تحمد الله عليها لن تزول، ولن تضيع، وأن تقول الحمد لله على النعمة أمان من زوالها، وهناك حديث دقيق جداً يقول الحسن: " ما من نعمة إلا والحمد لله أفضل منها." كيف ؟

يعني إذا أعطاك الله نعمة الصحة، وكنت شديداً عتيداً قوياً نشيطاً كالحصان، لا بد من سنوات تمضي وتمضي حتى يأتي الأجل، ويموت الإنسان فأين هذه النعمة ؟ زالت، لكنك إذا حمدت الله عليها، وارتقت نفسك في مدارج الحمد، وسَمَتْ سعدت بحمدك إلى الأبد، إذاً الحمد على النعمة أفضل من النعمة نفسها قال الحسن: **"ما من نعمة إلا والحمد لله أفضل منها ".**

لو أنك وهبت زوجة صالحة، فأعانتك على متاعب الحياة، وحصنتك، وسكنت إليها، فلا بد من ساعة تفارقها، أو تفارقك، إما أن تفارقها أولاً، وإما أن تفارقك أولاً، لكنك إذا حمدت الله على نعمة الزوجة الصالحة فإنّ هذا الحمد تسعد بثوابه إلى أبد الآبدين.

الحمد لله على النعمة أمان من زوالها:

لذلك لقي أحدُهم شريحاً القاضي، فقال: يا شريح كيف حالك في بيتك ؟ قال: منذ عشرين سنة لم أجد ما ينغص حياتي، أو يعكر صفائي، قال: وكيف ذلك ؟ قال: خطبت امرأة من أسرةً صالحة، فلما خلوت بها، صليت ركعتين شكراً لله على نعمة الزوجة الصالحة، فلما سلمت وجدتها تصلي بصلاتي، وتسلم بسلامي، وتشكر بشكري، فلما دنوت منها قالت: على رسلك يا أبا أمية، إني امرأة غريبة، لا أعرف ما تحب، ولا ما تكره، فقل لي ما تحب حتى آتيه، وما تكره حتى أجتنبه، ويا أبا أمية لقد كان لك من نساء قومك من هي كفء لك، وكان لي من رجال قومي من هو كفء لي، ولكن كنت لك زوجة على كتاب الله وسنة رسوله، فاتق الله فيّ، وامتثل قوله تعالى:

(الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آَتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (229))

(سورة البقرة)

قال: ثم قعدتْ، يعني هذه الزوجة الصالحة تنتظر ردّ زوجها، ذكرت هذه القصة للإفادة مما فيها من عِبر، فالقاضي شريح، حينما دخل على زوجته الصالحة صلى ركعتين صلاة الشكر، إذاً الحمد على النعمة أمان من زوالها، أية نعمة، نعمة الصحة لن تزول، يمتعك الله بسمعك، وبصرك، وعقلك، وقوتك ما أحياك، هل تغض الطرف عن محارم الله هذه العين لن تُفجع بها، هل تمسك أذنك عن سماع أي صوت لا يرضي الله، هذه الأذن لن تفجع بها، هل ينطق لسانك بالحق، ولا ينطق بالباطل، هذا اللسان لن تُفجع به، هذه الذاكرة، تستخدمها لماذا ؟ بالحق أم بالباطل ؟ إن استخدمتها في حفظ كتاب الله، وحفظ أحكام الله، وحفظ الأحاديث الشريفة، فإن الله سبحانه وتعالى لن يفجعك بها، وهذه اليد، وهذه القوة وغير ذلك من النعم، فالحمد لله على النعمة أمان من زوالها.

كلمة الحمد لله أفضل عند الله من الدنيا وما فيها:

قال عليه الصلاة والسلام:

((ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذي أعطاه أفضل مما أخذ))

[ابن ماجة عن أنس بن مالك]

العبد ماذا أعطي ؟ هذه الكلمة، كلمة الحمد لله، هذه الكلمة التي أعطاها العبد لربه أفضل عند الله مما أخذ، لو أخذ بيتاً ثمنه خمسة ملايين، وقال: يا رب لك الحمد، فكلمة الحمد لله أفضل عند الله من هذا البيت، لأن هذا البيت مصيره إلى الخراب، لكن هذا الحمد يسعد به الإنسان إلى الأبد، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((لو أن الدنيا كلها بحذافيرها بيد رجل من أمتي ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضل من ذلك كله.))

[الديلمي وابن عساكر وابن النجار عن أنس]

الدنيا بحذافيرها يعني بيوتها الفخمة، وبساتينها النضرة، ومالها الوفير، ونساءها الجميلات، ومراكبها الفخمة، كلمة الحمد لله يعني أنك تعرف الله، وإذا عرفته عرفت كل شيء وإذا فتّه فاتك كل شيء، لو أن الدنيا بحذافيرها بيدك وقلت: الحمد لله، فكلمة الحمد لله أفضل عند الله من الدنيا وما فيها.

لذلك العلماء حاروا أيهما أفضل، الحمد لله، أم لا إله إلا الله ؟ هناك أقوال تقول: إن الحمد لله أفضل، وبعضهم قال: لا إله إلا الله أفضل، لكن كلمة الحمد لله هي الحمد الأولى في كتاب الله تبارك:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3))

(سورة الفاتحة)

أما الحمد، لِمَ لم يقل الله عز وجل حمداً لله رب العالمين، بل قال سبحانه: الحمد لله ؟ قالوا: هذه الألف واللام لاستغراق الحمد كله، يعني الحمد كله بحذافيره كله، وجزؤه ـ مهما كان حجمه ـ صغيره وكبيره لله عز وجل.

أرحم الخلق بالخلق النبي عليه الصلاة والسلام:

لا يوجد جهة أخرى تستحق الحمد إلا الله، أبداً، أصغ سمعك إلى قول ربنا عز وجل:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159))

(سورة آل عمران)

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أرحم الخلق بالخلق، لو جمعت رحمة أمهات الأرض منذ آدم إلى يوم القيامة لا تعادل رحمة النبي بأمته، قال تعالى:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(128))

(سورة التوبة)

((أرحم أمتي بأمتي أبو بكر وأشدهم في أمر الله عمر...))

[أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم والبيهقي عن أنس]

أما أرحم الخلق بالخلق النبي عليه الصلاة والسلام، يعني أرحم بك من نفسك، ومع ذلك قال الله عز وجل:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159))

(سورة آل عمران)

الرحمة كلها من الله والنبي عليه الصلاة والسلام أوتي طرفاً منها:

قال ربنا عز وجل:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً (58))

(سورة الكهف)

ما الفرق بين "رحمة" المُنكَرة في آية آل عمران، و"الرحمة" المُعرَّفة في آية سورة الكهف ؟ قال هذه الرحمة الثانية، هذه ليست أل التعريف، إنما للاستغراق، يعني الرحمة كلها من الله، والنبي عليه الصلاة والسلام أوتي طرفاً منها.

الآن الحمد كله لله، ذكرت قصة قبل شهر أو أكثر أن الحَجَّاج أمر بضرب أعناق عشرة رجال، فأذن المغرب، وبقي رجل لم تضرب عنقه، فقال لأحد وزرائه: خذه إلى بيتك وائت به غداً، هذا الرجل في الطريق قال له: والله لم أخرج على طاعة الأمير، وما آذيتُ أحداً من المسلمين، فهل تأذن لي أن أذهب لأهلي فأوصي قبل أن أموت وأرى أولادي، واكتب وصيتي، فضحك هذا الوزير وقال: أو مجنون أنا ! فقال: عهداً لله إن أطلقتني لأعودَنَّ إلى بيتك قبل الفجر، فما زال هذا الرجل يقنعه حتى سمح له، فلما سمح له شعر بضيق لا يُحتمل، قال: نمتُ أطول ليلة في حياتي، لأنه سيموت مكانه غداً ـ مكان الرجل ـ إن لم يرجع، ما إن أذن الفجر حتى طُرق الباب، وجاء هذا الرجل الذي عاهده على أن يعود، جاء ليموت، فلما كان الغد ذهب به إلى الحجاج فقال له: سأنبئك بما حصل البارحة، فلما أنبأه قال له الحجاج: أتحب أن أهبه لك، قال: نعم، قال: إذاً هو لك، يعني ما دام عنده هذا الوفاء عَفَوْنا عنه، فلما خرج قال له: يا هذا اذهب لوجهك، فهذا الذي عُفي عنه لم يتكلم، ولم ينظر إليه، ولم يشكره، ولم يقل كلمة، إلا أنه توجه إلى السماء، وقال: الحمد لله.

هذا الذي سعى بإطلاق سراحه وتخليصه من الموت المحتم تألم ! لو أنه شكرني، قال: ثم جاءه بعد ثلاثة أيام و قال: أحمدك على عملك، ولكنك حين قلت لي: اذهب لوجهك كرهت أن أحمد مع الله أحداً.

الحمد لله رب العالمين أساس معرفة العبد بربه:

الإنسان أحياناً يلوح له شبح مصيبة، كأن يصاب بورم لم يعرف أهو خبيث أم غير خبيث ؟ أجرى تحليلاً، فإذا هو ورم طبيعي، أول شيء عليه أن يقول: الحمد لله رب العالمين، ولا تحمد مع الله أحداً.

هناك التهاب في السحايا على وشك الوفاة مع الابن الأصغر، فنجا من الموت بتوفيق الله وقدرته، لا تقل: واللهِ إنّ الطبيب لا يفهم، قال لي: اجرِ تحليلاً في وقت مبكر قل: الحمد لله رب العالمين، فلذلك الحمد لله رب العالمين أساس معرفة العبد بربه، هناك حديث دقيق جداً، يقول عليه الصلاة والسلام:

((الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده.))

[عبد الرزاق والبيهقي عن ابن عمرو]

قال بعضهم: الحمد حالة نفسية، والشكر سلوك، فليس هناك سلوك شاكر إلا على أساس حالة حمد، فإذا لم يكن عند الإنسان حالة حمد فسلوكه باطل، وهو في حالة نفاق ومداهنة:

((الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده.))

[عبد الرزاق والبيهقي عن ابن عمرو]

الحمد أولاً والشكر ثانياً، قال تعالى:

(اعْمَلُوا آَلَ داود شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (13))

(سورة سبأ)

الشكر عمل

(اعْمَلُوا آَلَ داود شُكْراً)

أما الحمد فهو حالة نفسية، أحياناً يقدم لك إنسان خدمة تحس أنك ممتن من أعماقك منه، تعبر عن الامتنان أحياناً بخدمة، أحياناً بكلمة طيبة، أحياناً بقولك جزاك الله عني كل خير، ولكن هذا الكلام أو هذه الخدمة أساسها حالة نفسية شعرت بها هذا هو الحمد.

نعمة الرضا أكمل نعمة:

أنت في الصلاة تصلي الفرض، الفروض فقط في اليوم سبعة عشر ركعة، ومثلها سنن، يعني تقول: الحمد لله في الصلاة حوالي أربعين مرة، هل أنت في مستوى هذه الآية ؟ يعني راض عن الله عز وجل، راض عن صحتك، عن دخلك، عن ضيقك، عن عملك، راضٍ وأنت من أصحاب الدخل المحدود، أم ترى نفسك دائماً أنك محروم، إذا كان دخل الرجل محدوداً مثلاً يقضي عمره كله غير راضٍ، بينما يجد بائع فلافل دخله خمسة آلاف وهو أميّ، يقول صاحب الدخل المحدود: أنا حائز على شهادة ليسانس، ودخلي فقط ألف ومائتان بالشهر تقريباً، فهو دائماً غير راضٍ، أما إذا كان مؤمناً وقال: الحمد لله رب العالمين، فليس عنده حرمان أبداً، إن نعمة الرضا أكمل نعمة، لو جاءك مئة مليون في الشهر وأنت على ضلال فالنهاية إلى جهنم، أما المؤمن فكلمة الحمد لله رب العالمين تدل على أنه راضٍ عن الله عز وجل: يا رب هل أنت راضٍ عني ؟ قال: يا عبدي هل أنت راض عني حتى أرضى عنك.

هل أنت راض عن الله عز وجل ؟ هل تقول الحمد لله من أعماقك، من أعماق أعماقك ؟ أراضٍ، وليس عندك إلا بنات فقط، وليس عندك ولا ذكر واحد، فهل أنت راضٍ ؟ هل رأيت حكمة الله عز

وجل أنه يحبك على هذا، ليس عندك أولاد إطلاقاً، بل عقيم راض عن الله عز وجل، عندك زوجة سيئة الخلق، فهل أنت راض بها ؟ هل ترى أن الله شاءت حكمته أن تكون كذلك ؟ لك عمل محدود دخله، أنت في مرض عضال مزمن بشكل مستمر تعاني من بعض الأمراض هل تقول الحمد لله رب العالمين ؟ هذه البطولة.

ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتق الله البطل

***

الحمد لله في السراء والضراء ، في الغنى والفقر ، في القوة والضعف ، في إقبال الدنيا وإدبارها ، في الرفعة والضعة ، في العز والذل ، الحمد لله على كل حال ، الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه ، المكروه نعمة ، لكنه نعمة باطنة .

الله سبحانه وتعالى أمرنا أن نحمده وألا نحمد أحداً معه :

الله سبحانه وتعالى أمرنا أن نحمده ، وأمرنا ألا نحمد أحداً معه كيف ؟ قال تعالى :

(الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (32))

(سورة النجم)

مثلاً نراك تحاضر محاضراتٍ كثيرة عن زيد وعبيد ، وقد تكون مجانباً الحق في كثير مما تحاضر ، إذاً فإنه لا يستحق الحمد إلا الله ، وإذا سئلت تقول : الله أعلم بحاله ذلك علمي به ، وعن الصديق تقول : ذلك علمي به ، فإن بدل وغير فلا أعلم الغيب ، لم اختار سيدنا أبو بكر سيدنا عمر ؟ ألم يقل : لا أعلم من هو خير منه ؟ وقال : ذلك علمي به فإن بدل وغيّر فلا أعلم الغيب ، الله قال :

(فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (32))

(سورة النجم)

هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله ، كان النبي عليه الصلاة والسلام عند صحابي متوفى ، كشف عن وجهه فقبله ، سمع امرأة تقول :

((هنيئاً لك أبا السائب الجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وما يدريك يا أم معاذ ؟ أما هو فقد جاءه اليقين ولا نعلم إلا خيراً .))

[الطبراني عن سالم أبي النضر]

(فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (32))

(سورة النجم)

الحمد أنواع وقد جُمع كل هذا في الفاتحة :

لذلك الحمد لله وحده ، أما البشر فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ، كانوا قديماً إذا كلفوا إنساناً ليزكي إنساناً آخر لزواج أو لشهادة يكتب : أعلم منه الصلاح والتقى ، والله أعلم ، معنى والله أعلم قد يكون غير ذلك ، قد يكون منافقاً ، والله أعلم ، فالإنسان ليس مكلفاً ليقيّم الآخرين ، وليس أهلاً لذلك ، ولا يملك الأداة الصحيحة ، قال عليه الصلاة والسلام :

((احثوا في وجه المداحين التراب .))

[رواه ابن عياش عن عبد الله بن عمرو]

((إن الله يغضب إذا مدح الفاسق في الأرض .))

(البيهقي عن أنس رضي الله عنه)

مثلاً رجل يشرب الخمر تقول عنه : أكابر ، أخلاقه عالية ، لبق جداً ، ما معنى قولك لبق جداً ؟ أيُّ لباقة هذه على شرب الخمر ، وعلى ترك الصلاة ؟ فهذا الذي يقوله الناس عن بعض الناس رغم شربهم للخمر ، ورغم تركهم للصلاة ، ورغم أكلهم للربا ، إنّ أخلاقه عالية ، لبق ، هذا كلام باطل :

((إن الله يغضب إذا مدح الفاسق في الأرض .))

(البيهقي عن أنس رضي الله عنه)

العلماء قالوا : هناك حمد لذات الله ، وهناك حمد له لنعمة سبقت منه ، وهناك حمد له لنعمة ترجوها منه ، وهناك حمد له خوفاً منه ، إذاً الحمد أنواع ، وقد جُمع كل هذا في الفاتحة .

الحمد لله لذاته ، فالإنسان أحياناً تحمده من دون أن يصيبك من خيره شيء ، وقف موقفاً أخلاقياً أمامك من شخص آخر ، هذا الموقف الأخلاقي تحمده عليه ، مع أنك لست معنياً بهذا الموقف ، وقد ينعم عليه فتحمده ، الحمد لله لذاته ، رب العالمين لنعمه ، الرحمن الرحيم لما نطمع من رحمته ، مالك يوم الدين خوفاً منه .

الحمد في بادئ الأمر إنشاء وفي نهاية الأمر واقع ثابت :

بعضهم قال : ربنا عز وجل بدأ قرآنه الكريم بالحمد لله رب العالمين ، وآخر كلمة يقولها الناس وهم يدخلون الجنة :

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10))

(سورة يونس)

أُمَرنا أن ننشئ الحمد كما هو الحال في الفاتحة ، وفي نهاية الحياة كان الحمد واقعاً كما في آية سورة يونس السابقة ، أحياناً يقول لك أحد الناس : اشكرني ، ويعاملك معاملة سوء ، أي شكر هذا ؟

أساء لك المعاملة ، ويطلب منك أن تحمده ، لكن ربنا عز وجل أمرك أن تحمده وبعد أن اتصلت به، وسعدت بقربه تحمده ، تحمده على نعمه التي وقعت ، إذاً الحمد في بادئ الأمر إنشاء ، وفي نهاية الأمر واقع ثابت .

شيء آخر ، الحمد لله على أنه أوجدنا ، والحمد لله على أنه بث فينا الروح ، والحمد لله على أنه أمدنا بالطعام ، والشراب ، وكل ما نحتاج ، والحمد لله على أنه قومنا ، الأمراض ، والهموم ، والمتاعب ، والأحزان ، هذه كلها ألفاظ خفية من أجل التقويم ، هناك نعمة الإيجاد ، ونعمة الخلق ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الرزق ، ونعمة الحياة الروحية ، ونعمة الهدى ، ونعمة التقويم .

نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى ، ونعمة التقويم أربع نعم كبرى .

الله سبحانه وتعالى شعر بعجزنا عن حمده فعلمنا كيف نحمده :

هناك شيء آخر ، الحمد لله على ما أعطى ، أن تعرف أن هذه النعمة من الله عز وجل ، أن تعرف من أعطاك ، وأن ترضى بما أعطاك ، وألا تعصي الله فيما أعطاك ، هذا من معاني الحمد ، آخر شيء في الحمد ، مع أن هذه الآية تنقضي الأيام ، ولا ينقضي شرحها ، ولكنّ أخذ القليل خيرٌ من تركِ الكثير :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ(1))

(سورة الأنعام)

وقال :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (1))

(سورة الكهف)

إنّ نعمة الهدى كما في آية الكهف تعادل نعمة الخلق كما في آية الأنعام ، والحمد لله الذي له ما في السماوات والأرض ولم يكن لغيره ، إن الإنسان لئيم ، فلو كان الأمر والخلق لغيره لمُنع الناس القطر ، ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمنا أن نحمده الحمد لله الذي له ما في السماوات والأرض .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

قالوا : جمعت هذه الآية نعمة الهدى ، ونعمة الإمداد ، وأكبر نعمة هي أن الله سبحانه وتعالى علمنا كيف نحمده :

((قال موسى : يا رب كيف شكرك ابن آدم ؟ فقال : علم أن ذلك مني فكان ذلك شكره .))

[الحكيم عن الحسن مرسلاً]

نحمد الله بطريقة علمنا إياها الله سبحانه وتعالى ، شعر بعجزنا عن حمده فعلمنا كيف نحمده .

الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين :

كلمة الحمد لله يقولها الناس في اليوم آلاف المرات ، كيف حالك ؟ يكون ملحداً ويقول : الحمد لله ، وهي من فلتات اللسان عنده ، لكن إذا وقفت على معانيها تماماً تذوب محبة لله على كل شيء ، فإذا كان فهمك عميقاً جداً تحمده على المصيبة :

((إذا أحب الله عبده ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، فإن رضي اصطفاه .))

[ورد في الأثر]

تعاني من مصيبة مزعجة ، ولعلمك برحمة الله ، وحكمته ، ولطفه ، وحرصه على هدايتك ، وحرصه على إسعادك ، ففي أثناء المصيبة تقول : الحمد لله رب العالمين على هذه المصيبة ، إنها عناية من الله ، وأحياناً يقسو المعلم على تلميذه كي يكون الأول في الصف ، فإذا صار الأول يحمده على قسوته لا على جوائزه ، نعم بحمده على قسوته ، كذلك إذا عرفت الله حق المعرفة تحمده على المصائب ، قال سيدنا علي كرم الله وجهه : " الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين " .

أعلى درجة في اليقين برحمة الله أن ترضى بمكروه القضاء ، القضاء الذي لا تحبه ، الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين ، والحمد لله تعني معرفة الله ، علامة أنك تعرفه ، وأنك تحمده، تعرفه فتحمده ، أما إذا كنت لا تعرفه فلا تحمده .

التفسير المطول - سورة الفاتحة - 001 - الدرس (2-2) : تفسير الآيات 2-2 ، الحمد والتوحيد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-09-1985

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد حالة نفسية مبنية على معرفة بفضل الله عز وجل:

أيها الأخوة المؤمنون لا زلنا في سورة الفاتحة، وفي الدرس الماضي وضحت بتوفيق الله عز وجل معنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ومعنى بسم الله الرحمن الرحيم، وشرحنا طرفاً من قوله تعالى الحمد لله رب العالمين، كلمة الحمد كما قال عليه الصلاة والسلام:

((الحمد رأس الشكر ما شكر اللهَ عبدٌ لا يحمده.))

[عبد الرزاق والبيهقي عن ابن عمرو]

الحمد حالة نفسية مبنية على معرفة بفضل الله عز وجل، فالكلمة الأولى في الإسلام "الحمد لله"، "الحمد لله" على إيجادنا، فأول نعمة هي نعمة الإيجاد، فلان الفلاني ابن فلان وُلِد في دمشق عام كذا، من أخرجك إلى هذا الوجود، قال تعالى:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1))

(سورة الإنسان)

إذا ولدت عام ثمانية وثلاثين فأين كنت عام ستة وثلاثين ؟ إذا وقع تحت يديك كتاب طُبع عام ثلاثين أين كنت حينما طُبع هذا الكتاب ؟ لم تكن شيئاً مذكوراً، "الحمد لله" على نعمة الإيجاد، و"الحمد لله" على نعمة الإمداد، أمدنا بكل ما نحتاج، و"الحمد لله" على نعمة الإرشاد، الإيجاد، والإمداد، والإرشاد، قال تعالى:

(وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7))

(سورة الحجرات)

الحمد مقياس للقرب من الله عز وجل:

كلمة "الحمد لله" إحدى أكبر شعارات المؤمن، "الحمد لله" على السراء وعلى الضراء، على الصحة وعلى المرض، على إقبال الدنيا وعلى إدبارها، على الغنى وعلى الفقر، على الزواج، وقبل الزواج، وبعد الزواج، "الحمد لله" تعني أنك تعرف أن لهذا الكون إلهاً عظيماً، هو على كل شيء قدير، فإذا حرمك من شيء فهذا حرمان معالجة لا حرمان عجز، "الحمد لله" تعني أن الذي خلقك يحبك، يحبك أكثر مما تحب نفسك لذلك يعالجك ولولا المعالجة لما اهتديت.

موضوع "الحمد لله" موضوع واسع جداً، لكن علماء البلاغة قالوا: الحمد مسلَّم به، لكن لمن ؟ ربنا قال: لله، كلمة الحمد تقتضي وجود نِعَم، والنِّعم ظاهرة لا ينكرها جاحد، حتى الذي ينكر وجود الله لا ينكر النعم، يقول لك: الطبيعة، استثمار المياه في الطبيعة، استثمار الخيرات، تحسين النسل، هذه موضوعات يعالجها الكفرة أيضاً، فالنعم لا ينكرها أحد، حتى الذين أنكروا وجود الله عز وجل لا يستطيعون إنكار النعم، الهواء، الماء، الطعام، الشراب، النبات، الأسماك، الأطيار، الأزهار، هذه الشروط الدقيقة جداً التي خلقها الله عز وجل موافقةً لطبيعتنا، هذه نِعم لا ينكرها أحد، ولكن المشكلة في الآية أن الحمدَ لله فقط، أما أهل الدنيا فإنهم يحمدُ بعضهم بعضاً ويشكرُ بعضهم بعضاً.

"الحمد لله" ؛ فصار الحمد أمراً مؤكداً لا يمكن أن تحمد الله إلا إذا عرفته، وقبل أن تعرفه لا تحمده، بل تحمد أنداداً له، تحمد شركاء تظنهم شركاءه، فالحمد تقتضي المعرفة، لذلك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سُمي محمداً لأنه أحمد الخلق قاطبةً، ما من مخلوق خلقه الله سبحانه وتعالى حمده أكثر منه عليه الصلاة والسلام، كأن الحمد مقياس للقرب من الله عز وجل، سيد الحامدين هو سيد الخلق، فاسم أحمد، ومحمد، وحامد، هذه كلها من الحمد، والله سبحانه وتعالى خلق لنا النِّعم، وعلمنا كيف نحمده عليها، سبحانك لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، كيف أثنى الله على نفسه ؟ بقوله تعالى:

(الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2))

لذلك فإن النبي الكريم قال:

((عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له.))

[مسلم عن صهيب]

الفرق بين المؤمن وغير المؤمن حالة الحمد التي يعيشها المؤمن:

((كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا أتاه الأمر يسره قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: الحمد لله على كل حال.))

[البيهقي عن عائشة]

إذا أردت فرقاً أساسياً بين المؤمن وغير المؤمن لا أقول: كلمة الحمد التي يقولها الناس جميعاً، بل حالة الحمد، المؤمن يعيش حالةً دائمةً من الحمد لله عز وجل، فهو شاكر، جاء من أسرة فقيرة "الحمد لله"، رزقه الله زوجة ليست صالحة، كيف يفهم هذا الأمر ؟ يفهم هذا الأمر أن الله سبحانه وتعالى رزقه هذه الزوجة ليصلحها، ويكسب بها أجراً عند الله كبيراً، رزقه الله أولاداً ذكوراً "الحمد لله"، وإن رزقه إناثاً "الحمد لله"، ذكوراً وإناثاً "الحمد لله"، جعله الله عقيماً "الحمد لله"، له وظيفة متعبة "الحمد لله"، مريحة "الحمد لله"، دخلها قليل "الحمد لله"، كبير "الحمد لله"، ولكن هناك نقطة

دقيقة جداً، إياكم أن تفهموا من هذا الكلام أنه في أي وضع تحمد الله عليه ولا تحاول تحسين هذا الوضع، لا، هذا يتنافى مع أخلاق المؤمن، هو يحاول تحسين وضعه المادي، يحاول تحسين وضعه العلمي، يحاول رفع مستواه في كل الميادين، فإذا بذل كل طاقته، ووصل إلى هذا المستوى، وليس في إمكانه أن يتجاوزه فيقول: "الحمد لله"، هنا "الحمد لله".

قدم طالبٌ امتحاناً ولم ينجح "الحمد لله"، إذا كنت باذلاً جهدك كله فقل "الحمد لله"، لكن إذا ما درست فهذا جزاء التقصير، ليس له علاقة بالحمد، هذا جزاء التقصير، عندما يبذل الإنسان كل جهده، ولا يُحقق مطلبه عندئذ "الحمد لله" على كل حال.

كأني أقول: إن الفرق بين المؤمن وغير المؤمن، لا أقول كلمة الحمد، بل حالة الحمد التي يحياها، المؤمن لِمَ يحمد الله ؟ لأن الله بيده كل شيء، لا إله إلا الله، وهو الغني، لم تهطل أمطار "الحمد لله"، وهو القدير على كل شيء، ليس لله عز وجل أندادٌ يمنعونه من أي تصرفٍ، صغيراً كان أم كبيراً، وهو الغني والقدير.

النعم لا ينكرها أحد ولكن المشكلة في أن هذه النعم تُعزى لغير الله:

أنت تعمل في دائرة مثلاً، المعلومات تصل إلى من هو فوقك غير صحيحة، يثنى على المقصر، ويذم المجتهد، أما العلم الصحيح فهو عند الله، لأنه سبحانه عليم، هو الغني، هو القدير، هو العليم، هو السميع، وهو القريب، تكلمت أم لم تتكلم يعلم السر وأخفى، لماذا "الحمد لله" ؟ لأنه لا إله إلا الله أولاً، لا إله إلا الله الغني،

قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21))

(سورة الحجر)

إله إلا الله القدير، هو الواحد القهار، والله يحكم لا معقب لحكمه، القاضي مثلاً يحكم في قضية ثم ترفع إلى قاض آخر أعلى منه فينقض حكمه، لكن الله سبحانه يحكم لا معقب لحكمه، "الحمد لله" لأنه لا إله إلا الله، و"الحمد لله" لأنه غني، و"الحمد لله" لأنه قوي، و"الحمد لله" لأنه سميع، و"الحمد لله" لأنه بصير، و"الحمد لله" لأنه عليم، و"الحمد لله" لأنه رحيم، فلِمَ لا تحمد الله عز وجل ؟

الحقيقة إذا عرفت أسماء الله فلا تحزن أبداً على أي حال كنت، لأنك لا ترى إلا حكمة بالغة في تصرفات الله عز وجل، فالآية في مبدئها تشير إلى أن النعم التي أسبغها الله علينا ظاهرة، وجلية، وواضحة، وناصعة، وهي كالشمس، لا يستطيع أحد على ظهر الأرض أن ينكرها، ولكن المشكلة أن هذه النعم تُعزى لغير الله، جاء قوله تعالى:

(الحَمْدُ لِلَّهِ (2))

((إن الجن والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلي العباد نازل، وشرهم إليّ صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إليّ بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي)).

[الجامع الصغير عن أبي الدرداء بسند ضعيف]

النعم لا ينكرها أحد، ولكن المشكلة في أن هذه النعم تُعزى لغير الله:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106))

(سورة يوسف)

المؤمن كلما تفتحت بصيرته يرى أن كل من يقدم له خدمة في الحياة إنما هي بفضل الله:

قد يرى بعضهم أن فلاناً الفلاني بيده نفعه وضره، هذا إشراك، قد يرى أن هذه الزوجة ملجأ له وملاذ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى جعلها سكناً لك، ولولا أن الله سبحانه وتعالى ألقى في قلبها محبتك، أو ألقى في قلبها رجاءك لَمَا خدمتك، فالمؤمن كلما تفتحت بصيرته يرى أن كل من يقدم له خدمة في الحياة إنما هي بفضل الله، وبإذن الله، والحمد لله وحده، فلذلك نعمة الصحة نعمة كبرى، وليس العجب أن يمرض الإنسان، بل العجب ألا يمرض، لأن هناك آلاف الآلاف من الشروط التي تتوافر جميعها كي تقول صباحاً: "الحمد لله رب العالمين"، الأجهزة لديك تعمل، جهاز الهضم، بدءاً من الفم، إلى اللعاب، إلى البلعوم، إلى لسان المزمار، إلى المريء، إلى المعدة، إلى البنكرياس، إلى الإثني عشر، خلايا الامتصاص في الأمعاء الدقيقة، الأمعاء الغليظة، جهاز التصفية البولية إلى الكليتين، جهاز القلب إلى الرئتين، العضلات، العظام، الجلد، هذا كله يعمل بانتظام، الجهاز الودي النظير، الجهاز العصبي، الجهاز الهرموني، الغدة النخامية، الغدة الدرقية، غدة الكظر، البنكرياس كله يعمل بانتظام، "الحمد لله"، هذه معجزة، أن تستيقظ صباحاً وتحس أنك بصحة تامة "الحمد لله".

أكلت طعاماً، مَن خَلَقه ؟ من سخره ؟ من جعله مناسباً لنا ؟ طعماً، ولوناً، ورائحة، وقواماً، ومضموناً، وغذاءً، من نَوَّع هذه الأغذية ؟ البروتينات، والفيتامينات، والسكريات، والمواد الدسمة، من وزعها على هذا الطعام الذي بين أيدينا ؟ إذا أكلت لقمة خبز فمن خلق القمح ؟ الأرض، والقمر، والشمس، والبحار اشتركت في صنع هذا الرغيف، إن شربت كأس ماء من سخره لك ؟ إن لترَ الماء المحلى في دول النفط يكلف ثلاثة ريالات، أيْ عشر ليرات سورية تقريباً، هذا الينبوع ينبوع عين الفيجة الذي سخره الله لنا، والذي بلغني مؤخراً أن حوضه الجيولوجي يمتد إلى حدود كبيرة جداً، من سخره لنا ماءً عذباً فراتاً ؟ "الحمد لله" على كأس الماء، "الحمد لله" على رغيف الخبز، "الحمد لله" على هذه التفاحة التي تأكلها، إياك أن تظن أنك دفعت ثمنها لا، دفعت ثمن خدمتها، لو اجتمع أهل الأرض لا يستطيعون صنع تفاحة واحدة، من جعل هذه الكميات بكميات معقولة، لو كان

التفاح قليلاً جداً لكان ثمن الكيلو مئتي ليرة، من يأكله إذاً ؟ من الذي عمل تناسباً بين الإنسان ومتطلباته ؟ لو أن الدجاجة تبيض في السنة بيضة لكان ثمنها ألف ليرة، أما إذا كانت تبيض كل يوم بيضة فثمنها نصف ليرة هذه معقولة، إذاً "الحمد لله"، الحليب، البيض، الجبن، اللحوم، هذه كلها من نعم الله، فهذه النعم لا يستطيع أحد أن ينكرها، لكن المشكلة في أن أهل الأرض معظمهم يعزونها إلى غير الله فجاء قوله تعالى:

(الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2))

"الحمد لله" كلمة تعني الله المسير:

كلما تعمقت في الإيمان بالحركة تحمده بالسكون، فإذا نظرت إلى ابنك قلت: "الحمد لله"، من جعله بهذه الصورة الحسنة، إذا نظرت إلى زوجتك، أو دخلت إلى بيتك، وأشعلت المدفئة، وأدرت المروحة، من سخر هذه القوى ؟ من أودع في الأرض هذه المادة التي تُسمى الطاقة، وعن طريقها تولدت الكهرباء ؟ "الحمد لله".

"الحمد لله" كلمة تعني الله المسير، هناك خالق ورب وإله، فالخالق الذي خلق، والرب هو الممد، والإله هو المسير، وتقريباً لأذهانكم أقول: هذه السيارة لها معمل صنعها، وتحتاج إلى إمداد مستمر بالزيت والوقود، وما إلى ذلك، وتحتاج إلى من يقودها، فالذي يسيرها اسمه المسِّر، والذي يمدها اسمه الرب، والذي صنعها اسمه الخالق، فإذاً "الحمد لله" لأن أموركِ جميعها، صغيرها وكبيرها، عظيمها وحقيرها، دقيقها وكبيرها، بيد الله عز وجل، إليه يُرجع الأمر كله، هذا هو التوحيد.

إذا كنت تريد أن تلخص الإسلام في كلمات ففي كلمة " لا إله إلا الله"، وكلمة "الحمد لله" هو كل شيء، ويحمد على كل شيء، وهو الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، يحمد على كل شيء، و"الحمد لله" الذي لا يُحمد على مكروه سواه.

ما من حادث يقع، ما من مصيبة تقع، ما من فقر ينزل بإنسان، ما من مرض يلحق بجسم إنسان إلا بأمر الله، قال تعالى:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22))

(سورة الحديد)

وقال:

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (166))

(سورة آل عمران)

هذا هو التوحيد، وهذا هو الحمد، وكأنني بهذه الآية أدرك أن عبارة "الحمد لله" جمعت لا إله إلا الله والحمد لله.

الدين كله توحيد وحمد:

"الحمد لله" جمعت التوحيد والحمد، وهذا هو الدين كله، توحيد وحمد، وبعد النظر إلى المشركين تجد الشركَ وسخطَ الكافر السماتِ العميقة بتفكيره وتصرفاته، أول شيء لديه الشرك، فلان، وفلان، وفلان، يرجو فلاناً، يخاف فلاناً، يتمنى رضاء فلان، يحسب لفلان حساباً، يعيش بدوامة الشرك، قلبه فارغ، يكاد ينفطر خوفاً من فلان، يكاد يذوب حباً بفلان، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً.))

[البخاري والبيهقي عن ابن عباس]

ليس هناك إنسان أحبَّ إنساناً على وجه الأرض كحبِّ سيدنا أبي بكر لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك "الحمد لله"، من سخر هذا الصديق لهذا النبي العظيم ؟ الله عز وجل، لو خُلِق الصِّديق عام ألف وخمسمئة وخمسين لما التقى معه، من جعله بعصره ؟ الله عز وجل، إذاً الحمد لله رب العالمين.

نسأل كل واحد منا: من جمعك بهذه الزوجة ؟ الله سبحانه وتعالى هو الذي قدَّر وجمع، من رزقك هؤلاء الأولاد ؟ الله سبحانه وتعالى، من أعطاك هذا الذكاء فحصلت، وأصبحت لك خبرات ترتزق منها؟ الله سبحانه وتعالى، طبيب، محامٍ، مهندس، مدرس، خبير ببعض الحاجات، بيده مصلحة بأعلى مستوى تدر عليه أرباحاً طائلة، "الحمد لله"، لو أن نقطة دم كرأس الدبوس تجمدت في أحد شرايين الدماغ لفقدت كل ذاكرتك وخبراتك.

الكافر دائماً ساخط على كل شيء ويشك في حكمة الله:

فلان خبير بهذه المصلحة، عمله نظيف جداً، حتى تتمكن من إنجاز عمل عنده تحتاج إلى شهرين، الفضل لمن ؟ لله عز وجل، إن كنت طبيباً ناجحاً، أو مدرساً ناجحاً، أو تاجراً ناجحاً، أو صاحب معمل ناجحاً، أو كان عندك مشروع زراعي ناجحٌ، أو كنت أباً ناجحاً أو كنت موفقاً في زواجك فـ "الحمد لله" رب العالمين، هذا هو الدين كله توحيد وحمد، الكافر يحيا في شرك وسخط، الكافر دائماً ساخط على كل شيء، متشائم، دائماً يشك في حكمة الله، أحياناً يقول لك: فلان ليس أهلاً للنعمة، يستكثر نعمة الله على بعض عباده، ويستقلها على آخرين، كأنه شاك في حكمة الله، مع أنك لو تعمقت في الأمور وكُشف الغطاء، وأطلعنا الله على كل شيء لكان هذا هو الصواب و لقلنا: الحمد لله رب العالمين، قال تعالى:

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ "الحمد لله" رَبِّ الْعَالَمِينَ (10))

(سورة يونس)

تحدث في الأرض زلازل، وفيضانات، وبراكين، وأعمال عنف، وهناك قوي وضعيف، فيها صحة، فيها فقر مدقع، فيها مجاعات، الحمد لله رب العالمين، لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع.

لكن المشكلة أن هذه الحياة الدنيا بالنسبة إلى الدار الآخرة لا شيء، لذلك ربنا سبحانه وتعالى قد يضحي بها من أجل الهداية، فإذا أغلق صاحب المحل محله مثلاً والصانع نسي شمعة مشتعلة، وفي الساعة الثانية ليلاً أبلغوه أن المحل احترق، المحل فيه بضاعة بثلاثة ملايين، فإذا أخذ يصلي على أثر هذا الحريق فهذا عند الله حكمة بالغة، أما عند الناس فماذا يقولون ؟ ليت هذا الصانع لم ينس الشمعة مشتعلة، هي عند الله حكمة بالغة، لأن هذا المحل بكل هذه البضاعة التي احترقت إذا أثمر احتراق المحل توبة لصاحبه فهذا خير كبير لا يعلمه إلا عند الموت.

لو كُشفت للإنسان الحقائق لما اختار إلا أن يكون كما كان:

قال تعالى:

(يَومَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42))

(سورة يونس)

أي يُكشف عن كل شيء ساقه الله إليك،

(وَيُدْعَونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)

خجلاً، وصغاراً، وشعوراً بالخزي، والعار، وكانوا يدعون إلى السجود من قبل وهم سالمون، فـ"الحمد لله" رب العالمين، وقع هنا بعض العلماء في حيرة، أيهما أفضل كلمة "لا إله إلا الله" أم "الحمد لله" ؟

ملخص الملخص قال الإمام الغزالي: **" ليس في الإمكان أبدع مما كان "**، بعضهم فهمَ هذا الكلام فهماً مغلوطاً ؛ والصواب في فهم العبارة: ليس في إمكان المخلوق أبدع مما أعطاه الله عز وجل، الذي أعطاك الله عز وجل هو أنسب شيء إليك، ولو كُشفت لك الحقائق لما اخترت إلا أن تكون كما كنت.

بعض الناس يتمنى الغنى، بعض الناس يتمنى الصحة، لو كُشفت لك الحقائق لن تتمنى إلا أن تكون كما كنت لأن الله عز وجل يعلم ما كان، ويعلم ما يكون، ويعلم ما سيكون، ويعلم ما لم يكن، لو كان كيف كان يكون ؟ لذلك ليس في الإمكان أبدع مما كان.

هذه الزوجة أنسب امرأة لك، يقول معترضاً: لأن الحق على أمي، لا ليس الحق على أمك، خطبتها بسرعة، كانت مستعجلة، رأوها في الليل، وقعوا في الغش، ليس في الإمكان أبدع مما كان، علامة واحدة تصير مهندساً، ليس في الإمكان أبدع مما كان، اسمي ورد في القائمة، آخر اسم، كنت سأوفد في بعثة، ليس في الإمكان أبدع مما كان، لو نظرت إلى الأمور بعين التوحيد لرأيت أن الله وحده بيده كل شيء، قدَّم وأخر، سمح ومنع، يسَّر وعسَّر، اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً:

((إن الله إذا أحب إنفاذ أمر سلب كل ذي لب لبه.))

[الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس]

الذي ساقه الله إليك مبني على علم وحكمة وخبرة ورحمة:

قال تعالى:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11))

(سورة الرعد)

وقال:

(يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (2))

(سورة فاطر)

"الحمد لله" رب العالمين كلما تعمقت في الإيمان ازددت تمثلاً بهذه الآية، كم جزئية في حياتك ؟ أعتقد أن في حياة أحدنا خمسين ألف أو مئة ألف جزئية، نوع بيته، ذاكرته ضعيفة قليلاً، "الحمد لله" أنسب شيء معلوماته، ما عنده إمكانية لدخول فروع علمية، هكذا خلقني الله، أنا أحب الحفظ عند مذاكرة الدروس، الحمد لله رب العالمين، يعني إمكاناتك الفكرية والجسدية قدرُك، جعلك طويلاً وقوياً، أو جعلك ضعيفاً، جعلك من أسرة غنية، من أسرة فقيرة، جعلك في بيئة راقية في بيئة متخلفة، كله ليس في الإمكان أبدع مما كان، يعني ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني، هذا الذي أعطاك الله عز وجل، لو كُشف لك الغطاء لما اخترت غيره، وقد يكون هذا الشيء طريقك إلى الجنة، الفقر هو الهادي، قال تعالى:

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7))

(سورة الرعد)

يهتدي إنسان عن طريق الفقر، ويهتدي آخر عند موت أحد أقاربه، وثالث يهتدي بمصيبة مؤلمة، أو بإكرام كبير، هذا الذي ساقه الله إليك مبني على علم، وحكمة، وخبرة، ورحمة، "الحمد لله"، الله المسير الذي لا إله إلا الله، لا مسير غيره، لا رافع، ولا خافض، ولا معز، ولا مذل، ولا معطي، ولا مانع، ولا قابض، ولا باسط إلا الله عز وجل، الحمد لله رب العالمين.

كل إنسان يتلقى من الله عز وجل تربيتين ؛ تربية لجسمه، وتربية لنفسه:

الإله نفسه رب العالمين، الممد، هذا عطاؤنا، المياه من عطاء الله عز وجل، نهر الأمازون ثلاثمئة ألف متر مكعب بالثانية ، نبع الفيجة أحياناً بأيام الخير يفيض، يلبي حاجة دمشق بكاملها ويفيض عن حاجتها، نصف كثافته يرفد بها نهر بردى، ربنا ممد فأمدنا بالماء.

أحياناً يكون هناك شح في الماء، ترى النباتات صفراء، قال لي صديق: والله دفعت في الأسبوع الماضي خمسمئة ليرة، كل أربعة أيام أدفع خمسمئة ليرة ثمن ماء لسقي المزروعات في المزرعة، الأمر صعب جداً وإلا تموت الأشجار، فالذي أمدنا بالماء هو الله سبحانه وتعالى، نهر الفرات يبلغ عرضه أحياناً في أيام الفيضانات أحد عشر كيلو متراً، بعمق كبير جداً، الآن إذا مشى الإنسان فيه لا يتجاوز مستوى الماء ركبتيه، الحمد لله رب العالمين على عطائه، وعلى منعه، عطاؤه عطاء، ومنعه عطاء، الحمد لله رب العالمين، المُمِدُّ بكل نعمة، لكن ربنا عز وجل يمد هذه الأجسام بكل ما تحتاجه من الهواء، إلى الماء، إلى الطعام، إلى الشراب، إلى كل شيء، سواء أكان هذا الشيء أساسياً أو ثانوياً، الأساسي الطعام والشراب، والثانوي الأزهار هل تؤكل هذه ؟ لا، هذا الجمال الذي بثه الله في الأرض، هذه السماء التي زينها بالنجوم، هذه الأماكن الجميلة التي جعلها منتجعاً لنا كلها من عطاء الله، الحمد لله رب العالمين.

لكن معنى الربوبية يشمل التربية النفسية أيضاً، فكل أنواع المصائب مشتقة من قولـه تعالى: الحمد لله رب العالمين، الأب مثل مصغر، يمد ابنه بكل ما يحتاج، حاجاته، أدواته، كتبه، دفاتره، ألبسته الصيفية والشتوية، غرفته بما فيها من تدفئة، طاولة إنارة، سرير، وسائد مثلاً، فرش وثيرة، أغطية مناسبة صيفية وشتوية، هذا إمداد، فإذا ضبطه يكذب فقد يضربه، والضرب أيضاً تربية، فالتربية لها معنيان ؛ معنى الإمداد بما تحتاجه من مواد، والمعنى الثاني التربية النفسية، فكل إنسان يتلقى من الله عز وجل تربيتين ؛ يتلقى تربية لجسمه، ويتلقى تربية لنفسه، فكل ما يحدث لك فهو من الله عز وجل، بناءً على واقعك، وعلى نفسيتك، الحمد لله رب العالمين.

الله سبحانه وتعالى رحمن رحيم ؛ رحمن في ذاته، رحيم في أفعاله:

في درس سابق قلت لكم: إن كلمة "رب" تقتضي العلم، وتقتضي الخبرة، وتقتضي الغنى، وتقتضي الإشراف الدائم، وتقتضي الحكمة، وتقتضي الرحمة، لا بد أن يكون رب العالمين قوياً، وغنياً، وحكيماً، وعليماً، وخبيراً، ورحيماً، وقيوماً، دائم الإشراف، لا يُسمى المربي ناجحاً إذا غاب عن الذي يربيه، لا يُسمى المعلم ناجحاً إذا تغيب عن الطلاب، لا بد أن يكون رب العالمين قوياً، وغنياً، وقديراً، وحكيماً، ورحيماً، ودائم الإشراف، وقيوماً، الحمد لله رب العالمين.

كلمة "رب" فيها عطاء، ربنا عز جل ما قال: الحمد للإله، ما قال: الحمد للخالق، بل قال: الحمد لله رب العالمين، أي أن لك رباً، ذات مرةٍ سمعت في الطريق رجلاً يقول وهو في حالة غضب: مَنْ ليس له أب ليس له رب ؟ تأثرت بهذه الكلمة، قد ينشأ أحدنا يتيماً ولا أب له، لكن الله موجود.

وإذا العناية لاحظتك جفونـها   نم فالمخاوف كلهن أمان

***

إذا أعطاك فمـن يمنعـه   ثم من يعطي إذا ما منعك

***

كن مع الله تر الله معـك واترك الكل وحاذر طمعك

***

(الحمد لله رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3))

الرحمن في ذاته، الرحيم في أفعاله، ذاته رحيمة، هناك تطابق كامل بين أفعاله وبين ذاته، أحياناً تكون هناك مسافة بين الإنسان وبين أفعاله وبين نفسيته، هناك مسافة بين أفعاله وبين نفسيته، قد يفعل عملاً فيه رحمة ولكن قلبه قاس كالحجر، الظروف اضطرته لذلك، ذكاؤه أرشده لذلك، لكن الله سبحانه وتعالى رحمن رحيم ؛ رحمن في ذاته، رحيم في أفعاله.

الرحمن يعذب أما الرحيم لا يعذب:

قال سبحانه حكاية سيدنا إبراهيم:

(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً (45))

(سورة مريم)

الرحمن يعذب أما الرحيم لا يعذب، انظر إلى دقة الآية السابقة، ربنا عز وجل رحمن في ذاته، تقتضي رحمته أن يسوق لعبده بعض الشدائد، هذه الشدائد تُسمى شدائد، أما الرحمة فهي رخاء، لذلك قال ربنا عز وجل:

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147))

(سورة الأنعام)

انظر الإعجاز أي تقتضي رحمته ألا يرد بأسه عن المجرم، قال تعالى:

(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً (45))

(سورة مريم)

الرحيم صفة أفعاله، أما الرحمن صفة ذاته، ماذا بقي ؟ هو الإله، وهو الرب، وهو الرحمن الرحيم، والرحمن الرحيم اسم جامع لأسماء الله الحسنى، فقوته من رحمته، ولطفه من رحمته، وبطشه من رحمته، وأفعاله نابعة من رحمته، لذلك هناك أسماء جامعة، الرحيم من الأسماء الجامعة.

إذا جاء يوم الدين فلا اختيار لك وكل شيء أصبح ملكاً لله وحده:

لكن:

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4))

لو عقلنا معناها لارتعدت فرائصنا، أنتم الآن مخيرون ما دام في القلب حياة، ما دام القلب ينبض فأنت مخير، كل شيء ممكن الآن، الإصلاح ممكن، والتوبة ممكنة،

قال تعالى:

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى (82))

(سورة طه)

لكن:

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4))

إذا جاء يوم الدين فلا اختيار لك، هذه الأمانة التي أودعها الله فيك، هذا التكليف وهذا الاختيار الذي منحك الله إياه، هذا الكون الذي وهبه الله لك، هذا العقل والفكر الذي ميزك الله به كله انتهى،

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4))

وهو في الدنيا مالك، وأنت مختار، لكنه في الآخرة ملك كل شيء، وملك اختيارك، إذاً لا تستطيع أن تفعل شيئاً يوم الدين، يوم الجزاء، الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، قال عليه الصلاة والسلام:

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي والبيهقي عن جابر]

افعل ما شئت، أعط أولا تعط، اعدل أو اظلم، أحسن أو لا تحسن، اعملوا ما شئتم فإن يوم الدين هو يوم الجزاء، عاملت زوجتك بالإحسان، فهو لك، وإن أسأت فعليك، أنفقت مالك في سبيل الله فهو لك، لم تنفق فمغبة البخل عليك.

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (286))

(سورة البقرة)

وقال:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44))

(سورة الروم)

الآية التالية تحض على العمل الصالح:

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4))

إذا جاء ملك الموت انتهى كل شيء، الاختيار انتهى، والأمانة انتهت، والشهوات نزعت، والكون طوي، والفكر تعطل، كل شيء انتهى، يوم الدين يوم الجزاء والله مالكه، أما الآن فأنت تملك الاختيار، مخير أن تتوب أو لا تتوب، أن تسيء أو تحسن، لكن يوم الدين ينتهي فيه الاختيار، كأن هذه الآية تحضك على العمل الصالح، فإياك أن تصل إلى هذا اليوم وليس لك عمل صالح تلقى الله به، لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102))

(سورة آل عمران)

يوم الدين يوم جزاء، نحن الآن في يوم عمل، في العام الدراسي مثلاً، الطالب يأتي للمدرسة، يحب أن يدرس أو لا يدرس، يجتهد أو لا يجتهد، يراجع أو لا يراجع، يذاكر أو لا يذاكر، يكتب وظائفه أو لا يكتبها أو ينقلها من رفاقه، يستطيع لأنه مخير، لكن إذا قُرع جرس الامتحان في آخر العام وطرحت الأسئلة هذا اليوم يوم الجزاء، وفي الامتحان يكرم المرء أو يهان، أما في أثناء العام الدراسي فلا إهانة للكسول، معه مهلة، أُعطي فرصة، ونحن الآن كذلك، الآن نحن في فرصة، أنت حر، تحب أن تأتي إلى هذا المجلس أو لا تأتي، هناك من يسهر وراء جهاز لهو، يقول لك: والله هذه المحطة أمتع، لكن تلك المحطة ناشفة وبرامجها هزيلة، اليوم دار عمل، لكن الآخرة دار جزاء، قالوا: الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف، في الآخرة انتهى الاختيار وانتهى التكليف، انتهت كلمة حرام وحلال، أنت في جنة عرضها السماوات والأرض، لا غض بصر في الآخرة، ولا استيقاظ لصلاة الصبح باكراً، وليس هناك بذل مال، ولا مشي في الشمس، ولا حر، في جنة عرضها السماوات والأرض.

جزاء المؤمن يوم الدين كما وردت في بعض آيات الذكر الحكيم:

قال ربنا عز وجل:

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (56) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (57) سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58))

(سورة يس)

هنيئاً لهم، هذا الوقت:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61))

(سورة الصافات)

وقال:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26))

(سورة المطففين)

وقال:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19))

(سورة الذاريات)

وقال:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24))

(سورة الحاقة)

جمع القرآن في الفاتحة:

نحن الآن في دار عمل، ويوم الدين دار جزاء وحساب، أما إذا وصل الإنسان إلى يوم الدين فقد انتهى كل شيء، انتهى اختياره، وانتهت الفرص كلها، أمّا الآن فالفرص كلها مفتحة، أبواب الرحمة مفتحة، أبواب التوبة مفتحة، أبواب الاستقامة مفتحة، أبواب العمل الصالح مفتحة، لكن إذا جاء يوم الدين انتهى كل شيء، انتهت حرية الاختيار، انتهت الدنيا، ليس التعامل هناك بالأموال بل بالحسنات والسيئات، يؤخذ من حسنات المسيء ويعوض بها عما اغتصبه:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

بعد هذه المقدمة:

(الحَمدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5))

حينما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((جمع القرآن في الفاتحة))

[ورد في الأثر]

والله معه الحق، لأن كل شيء في الفاتحة، الألوهية، والحمد، والربوبية، واسم الله الأعظم:

(الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

والمصير الذي لا مفر منه،

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

الآن موقفك المنطقي ؛

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

لو أن الله عز وجل قال: نعبد إياك لاختلف الأمر، إذا سبق المفعول به الفعل فهذا أسلوب الحصر ؛ أيْ نعبدك ولا نعبد أحداً معك، لو قال: (نعبد إياك) شيء، و(إياك نعبد) شيء آخر، لذلك فإن أعلى مرتبة يبلغها الإنسان في الأرض أن يدرك أن حق العبادة لله وحده، وأعلى مقام بلغه النبي أنه كان عبداً لله، عبداً حقيقياً، فتطابقَ اختياره مع أمر الله تماماً، نحن أحياناً لا يتطابق اختيارنا مع أمر الله، نطبق مثلاً تسعين بالمئة، وهناك مثلاً عشرة بالمئة لم تطبقها في عملك، فلست إذاً عبداً كاملاً، أما العبودية الكاملة أن يكون اختيارك موافقاً مئة بالمئة لما أمر به الله عز وجل، إذاً أنت عبد لله، وإن لم تكن عبداً لله فلا بد أن تكون عبداً لشهواتك:

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ))

[البخاري عن أبي هريرة]

إن لم تكن عبداً لله فأنت عبد لشهوتك، وإن لم تكن عبداً لشهوتك فأنت عبد لعبد من عبيد الله، فأنت عبد لعبد لئيم، كن للهِ عبداً فعبد الله حر.

العلة الكبرى لخلق الإنسان على وجه الأرض أن يعبد الله:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ)

إن العبادة طاعة تامة، مبنية على معرفة، ومنتهية بسعادة، التعريف الدقيق: طاعة تسبقها معرفة، وتعقبها سعادة، وإلا لما كانت لها هذه الأهمية، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات)

العلة الكبرى لخلق الإنسان على وجه الأرض أن يعبد الله، أي أن يعرفه فيطيعه ويسعد بقربه،

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ)

لا نعبد إلا إياك، قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25))

(سورة الأنبياء)

التوحيد والعبودية لله عز وجل قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25))

(سورة الأنبياء)

وقال:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16))

(سورة طه)

والله هذه الآية تكفي، الكافر عنده أمل طويل.

الركوع هو الإعلان عن الخضوع لله والسجود هو طلب العون منه:

قال تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28))

(سورة الكهف)

نهيٌ إلهيٌ عظيم جداً

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

قال تعالى:

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5))

لكن العبادة لله عز وجل تحتاج إلى عون من الله عز وجل، فأنت في الركوع تعلن عن خضوعك لله، وفي السجود تطلب العون منه، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((لكل سورة حظها من الركوع والسجود.))

[البيهقي عن أبي العالية]

تقول:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)

الأنبياء الصديقين، الصالحين، المؤمنين، أهل العقل، أهل اللب الطيب، وذوي النفوس الزكية.

الفرق بين " المغضوب عليهم" و "الضالين":

قال تعالى:

(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

هناك أناس عرفوا وعصوا هؤلاء الذين غضب الله عليهم، وهناك أناس ما عرفوا الله عز وجل فهؤلاء هم الضالون:

(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

يقول لك الله عز وجل وكأنه يخاطبك في الصلاة:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(30))

(سورة النور)

في الركوع تقول: "سبحان ربي العظيم"، أي خضوعاً لك يا رب بهذا الأمر، أنا خاضع لك، أنا مطيع لك، في السجود تقول: "سبحان ربي الأعلى"، يا ربي أعني على تنفيذ هذا الأمر، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((لكل سورة حظها من الركوع والسجود.))

[البيهقي عن أبي العالية]

آيات من الذكر الحكيم عن ضعف الإنسان:

كل آية تقرؤها في الصلاة لها ركوع خاص بحسب مضمونها، ولها سجود خاص بحسب مضمونها، تبدأ:

(الحمد لله رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

لا نعبد إلا إياك، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، لكننا ضعاف:

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً (28))

(سورة النساء)

وقال:

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33))

(سورة يوسف)

إذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

على عبادتك، إذا أراد ربك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك.

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5))

عندئذ تتوجه إلى الله عز وجل:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)

هؤلاء الناجحون، هؤلاء المفلحون، هؤلاء المؤمنون السعداء في الدارين، الذين عرفوك، وأطاعوك، وتقربوا إليك، وعقلوا عنك، وسعدوا بقربك،

(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)

من يطع الله ورسوله يحشره الله عز وجل مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

هؤلاء الذين عرفوا الله، وحادوا عن شريعته، سمعنا وعصينا، هذا الذي يقول: نحن عبيد إحسان ولسنا عبيد امتحان، وثمة أدعية من صنع أحدهم: أمرتنا فما ائتمرنا، ونهيتنا فارتكبنا، ولا يسعنا إلا فضلك، هؤلاء مغضوب عليهم.

(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

البطولة أن تقرأ الفاتحة وأنت متمثل لمعانيها:

عرفت الله وتعصيه، قال رجل لابن الأدهم: ائذن لي بالمعصية، قال: أشياء خمس إذا فعلتها لن تضرك المعصية، قال: وما هي ؟ قال: إذا أردت أن تعصيه فلا تسكن أرضه، قال: وأين أسكن إذاً ؟ قال: فكيف إذاً تسكن أرضه وتعصيه ؟ قال: الثانية ؟ قال: إذا أردت أن تعصيه فاجهد ألا تأكل من رزقه، قال: وماذا آكل إذاً ؟ قال: كيف إذاً تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه ؟ قال: هات الثالثة، قال: إذا أردت أن تعصيه فاجتهد ألا يراك، قال: وكيف لا يراني وهو رب العالمين ؟ قال: تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه، ويراك ؟! لذلك:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

نختم هذا الدرس بقوله عليه الصلاة والسلام:

((القرآن كله في الفاتحة))

[ورد في الأثر]

تقرؤها في كل ركعة:

((لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب))

[متفق عليه عن عبادة بن الصامت]

البطولة أن تقرأ الفاتحة، وأنت متمثل لمعانيها.

(الحمد لله رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5)
اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7))

الإنسان عندما يطيع الله عز وجل وهو مفتقر إليه يعينه على طاعته:

عند إياك نعبد، وإياك نستعين بدأ موقفك العملي، ما دام الله سبحانه وتعالى رب العالمين، وهو الرحمن الرحيم، الذي لا إله إلا هو، يُحمد على كل شيء، فماذا تنتظر ؟!!

تفسير سورة البقرة

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس(01- 95): مقدمة عن اسم السورة ـ الآيات المكية والمدنية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-06-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

كل شيءٍ في الدنيا زائل إلا عملاً يتصل بالآخرة:

اليوم نبدأ تفسير سورة البقرة، ولكن أقدِّم لكم هذه الحقيقة، أي شيءٍ في الدنيا زائل إلا عملاً يتصل بالآخرة، وكل واحد من الأخوة الحاضرين إذا لم يكن له عمل متعلق بالآخرة فهناك خسارة كبيرة؛ الدنيا تمضي، البيوت تزول، لاحِظوا: الميت ترك كل شيء إلا عملاً صالحاً ينزل معه في قبره، فالله عزَّ وجل يقول:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي (108))

(سورة يوسف)

كُلُّ من يتبع نبي الله صلى الله عليه وسلم يجب أن يدعَو إلى الله بطريقةٍ أو بأخرى، وقلت لكم من قبل: استقيموا يُسْتَقَم بكم، الموقف الصادق دعوة، الموقف الأمين دعوة، الوَرَع دعوة، الصدق دعوة، الإتقان دعوة، قد يكون لكل واحد عمل طيّب، هذا العمل يُسَبب اتساع دائرة المسلمين، فالدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، والدعوة إلى الله في حدود ما تعلم ومع من تعرف، وكل

إنسان جلس في مجلس علم، واستمع إلى تفسير صار مؤاخذاً، صار مسؤولاً، صار مكلّفاً أن ينقل هذا إلى الآخرين إما بلسانه، أو بشريط، أو بلقاء، لا بدَّ أن تُلْقي بعد أن استمعت، لا بد أن تعطي بعد أن أخذت، وهذا الذي يبقى، الذي يحَرِّك المؤمن في الدعوة إلى الله حديثٌ لرسول الله،

والله أيها الأخوة لو تلوت هذا الحديث على مسامعكم آلاف المرات لا أشبع منه:

((لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها))

[البخاري عن سهل بن سعد]

((فوَ اللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

[متفق عليه عن سهل بن سعد]

((خير له مما طلعت عليه الشمس))

[أخرجه الطبراني عن أبي رافع]

الجهاد الدَعَوي من أكبر أنواع الجهاد:

الجهاد كما تعلمون ذِروة سنام الإسلام، ومن مات ولم يجاهد، ولم يحدِّث نفسه بالجهاد مات على ثلمةٍ من النفاق.

الجهاد الدَعَوي من أكبر أنواع الجهاد، والدليل قال تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (52))

(سورة الفرقان)

جميل جداً أن يمتلئ المسجد بطلاّب العلم، والأجمل من هذا أن ينتشر هذا العلم خارج المسجد، جميل جداً أن يفكِّر كُلٌ منا كيف ينْقل الحق إلى أخيه، إلى صديقه، إلى جاره، إلى موظفي محلّه، إلى زملائه، إلى أقربائه، لأننا جميعاً كل الأخوة الحاضرين طرفٌ واحد، ولكن البطولة أن تُدخل إلى هذا المجموع الطيِّب إن شاء الله أطرافاً جديدة، فكل واحد مكلف أن يبحث من أقربائه، من زملائه، من جيرانه، من أتباعه، ممن هم دونه، ممن هم فوقه، بطريقةٍ أو بأخرى لنشر هذا الحق، هذا الذي يبقى، وترون كيف يموت الناس ولا يأخذون معهم شيئاً، إلا عملاً صالحاً ابتغوا به وجه الله عزَّ وجل، فتعليم العلم من أعظم الأعمال الصالحة، نشر الحق صنعة الأنبياء:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33))

(سورة فصلت)

كلما اتسع الحق صارت الاستقامة سهلة:

بدأ هذا الدرس أيها الأخوة في عام 1976 بأربعة أشخاص فقط، وترون هذا الإقبال ـ وهذا من فضل الله عزَّ وجل ـ هؤلاء الذين يأتون لطلب العلم، ولمعرفة كلام الله عزَّ وجل، وسنة رسوله، هؤلاء يبتغون وجه الله عزَّ وجل، فالبطولة أن تتعلم، وأن تُعلِّم، وأن تستمع، وأن تُلقي، وأن تتلقَّى، وأن تعطي، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((خيركم من تعلم القرآن وعلمه))

[البخاري عن عثمان]

على الإطلاق، خيرية مطلقة، وكلما اتسعت دوائر الحق ضاقت دوائر الباطل، وكلما اتسع الحق صارت الاستقامة سهلة، قال تعالى:

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31))

(سورة النور)

وقال تعالى:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا (103))

(سورة آل عمران)

الفضل لله عزَّ وجل، وهذا القرآن الكريم مائدة الله، وهذا القرآن الكريم حبل الله المتين، دستوره القويم، الصراط المستقيم، المنهج الصحيح، هذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هذا الكتاب فيه نبأ من قبلكم وذكر مَن بعدكم، فيه الأمر، فيه النهي، فيه الحلال، فيه الحرام، فيه أخبار الأمم السابقة، فيه مشاهد من يوم القيامة، فالحقيقة الفضل لله عزَّ وجل أن سورة يونس والتي بعدها مُفَسَّرَةٌ بشكلٍ مفصل إلى نهاية المصحف، ومسجَّلة بأشرطة واضحة جداً، واليوم نبدأ الثلث الأول لهذا الكتاب الكريم، ونبدأ بسورة البقرة.

النقطة الأولى سميت هذه السورة بسورة البقرة تأكيداً على الإيمان باليوم الآخر:

قبل أن نبدأ في شرح هذه السورة لا بد أن نسأل هذا السؤال: لماذا سميت سورة البقرة، مع أن البقرة ليست حيواناً مألوفاً في الجزيرة العربية ؟ الحقيقة أن هذه البقرة التي سُمِّيَت بها السورة الأولى في القرآن الكريم بعد الفاتحة، هذه البقرة لها قصة ؛ كان هناك رجل غني جداً من بني إسرائيل، كان ثرياً جداً، ولم يكن له أولاد، فقتله ابن أخيه، وألقى الجثة بعيداً على مشارف قريةٍ بعيدة، واتُّهِمَ أهل هذه البلدة بقتل هذا الرجل، ونَشِبَ خلافٌ بين القرية الأولى والقرية الثانية، إلى أن جاء أولياء القتيل ليسألوا موسى عليه السلام عَن الذي قتل هذا الرجل، فربنا عزَّ وجل في الآية الثالثة والسبعين من هذه السورة الكريمة ذكر قصة هذه البقرة، فقال:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً (67))

الأمر الإلهي أن يذبح بنو إسرائيل أيَّة بقرة، فإذا أخذوا أحد أعضائها، وضربوا به هذا القتيل يحيى، ويقف، ويقول: فلان قتلني، أي كأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يُثْبِت لبني إسرائيل الحياة بعد الموت ؛ نقف قليلاً لننتقل إلى موضوع اليوم الآخر.

الحقيقة الكبرى أيها الأخوة أنه بعد الإيمان بالله ـ وهو الرُكن الأول ـ أن تؤمن باليوم الآخر، لأن الحياة الدنيا من دون إيمانٍ باليوم الآخر غابة يأكل القوي فيها الضعيف، يستغلُّ الغني الفقير، وهذا ما يجري في العالم اليوم، هو عالم لا يؤمن باليوم الآخر، فالقوي هو الذي يسحقُ الضعيفُ، والغني هو الذي يستغلُّ الفقير، والأقوى هو الذي يعتدي على الأضعف.

لم ينجح مجتمع على وجه الأرض إلا مجتمعاً آمن بالله واليوم الآخر:

الأحداث كلُها تشير إلى أنه لن تقوم حياةٌ إلا أن تؤمن باليوم الآخر، وكل ما يقال من كلامٍ لا معنى له ؛ ضمير يقِظ، وازع داخلي، هذا كلُّه إن لم يُدَعَّم بالإيمان باليوم الآخر لا جدوى منه، ولم ينجح مجتمع على وجه الأرض إلا مجتمعاً آمن بالله واليوم الآخر ؛ فربنا سبحانه وتعالى من خلال قصة البقرة أراد أن يبيّن لبني إسرائيل أن هذا الذي تراه ميتاً سوف يُحْييه الله يوم القيامة لينال جزاء عمله، فماذا فعل بنو إسرائيل ؟ هذا الأمر لم يتلقَّوه بالقبول، ولم يستقبلوه بالرضا، ولم يستقبلوه بالانصياع، بل استقبلوه بالتشكيك والسخرية:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67))

نبيٌ كريم يستهزئ ؟! يمزح !!

(قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ(68))

هنا..

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً (67))

وانتهى الأمر.

الذي يموت ذاتُهُ باقية وسوف يحاسب:

أية بقرةٍ تُجْزِئكم، وأية بقرةٍ لو أخذتم أحد أعضائها وضربتم به الميت لقام، وتكلّم، وقال: قتلني فلان، ولكن بني إسرائيل شددوا على أنفسهم:

(قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا (72))

كل طرفٍ ألقى التهمة على الطرف الآخر:

(وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73))

يقول الناس عن الذي يموت: الفقيد الفلاني، هذا الذي يموت خلع ثياباً فقط، أما ذاتُهُ فباقية، وسوف يحاسب، وسوف يعيش حياةً أبدية في جنةٍ يدومُ نعيمها، أو في نارٍ لا ينفد عذابها.

تدل الآيات التي نزلت في أول الدعوة الإسلامية على شيئين:

اخواننا الكرام تُلحُّ الآيات التي نزلت في أول الدعوة الإسلامية على شيئين ؛ أن تؤمن بالله، وأن تؤمن باليوم الآخر، لأن الإيمان بالله لا معنى له من دون أن تؤمن أنَّه مطلعٌ عليك، وسيحاسِب، وسيعاقِب، لن تستقيم على أمر الله إن لم تؤمن أنه مطلعٌ عليك، وسيحاسب، وسيعاقب، قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (12))

(سورة الطلاق)

أي إنك تستقيم حينما تعلم أن الله يعلم، وأنَّك في قبضته وسيحاسب ؛ ولن تجد إنساناً مستقيماً إلا بسبب أنه يُدْخل في حساباته اليوم الآخر ؛ والذي يثير العجَبَ أن الإنسان حينما يأكل المال الحرام، وحينما يعتدي على أعراض الآخرين، وحينما يتفلَّت من منهج الله عزَّ وجل، كيف ينام الليل ؟ كيف يتوازن مع نفسه ؟ إذا قرأ قول الله تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

خصوصية هذه الدنيا أن النعم التي أنت فيها لا بدَّ أن تفارقها عند الموت:

حينما يوقن الإنسان المؤمن أن كل حركةٍ، وكل سكنة، وكل تصرفٍ، وكل عطاءٍ، وكل منعٍ، وكل وصلٍ، وكل قطعٍ، وكل زيارةٍ، وكل نظرةٍ، وكل كلمةٍ سوف تَدْخُل في ميزان أعماله، وسوف يُسأل عنها يوم القيامة، عندئذٍ يستقيم الإنسان على أمر الله، ولن تجد في الأرض إنساناً مستقيماً إلا إذا كان إيمانه باليوم الآخر عظيماً، هذه الدنيا فيها نِعَم، وفيها مُتَع، وفيها شهوات، وفيها حظوظ، ما الذي يحصل ؟ هذه الحظوظ، وهذه الشهوات، وهذه المُتع، وهذه النِعم بشكل عام إما أن تفارقك وأنت حي، وإما أن تفارقها عند الموت ؛ لا بدَّ من الفراق، لأنّ خصوصية هذه الدنيا أن النعم التي أنت فيها لا بدَّ أن تفارقها عند الموت، وقد تفارقك قبل الموت ؛

من هنا كان دعاء النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهم أمتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا))

[رزين عن نافع مولى ابن عمر]

أما الدار التي لا تفارقك فيها النعم ولا تفارقها هي الدار الآخرة.

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61))

(سورة الصافات)

وقال:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26))

(سورة المطففين)

هناك قلق في الدنيا، الإنسان قَلِق على صحته وكلما تقدَّم به العمر يزداد هذا القلق، يا ترى أأصاب بالمرض الفلاني ؟ أو بالمرض الفلاني ؟ والأمراض كثيرة جداً، هذا أكبر قلق، قلقٌ على الصحة ؛ يوجد قلق على الدخل، هل يبقى هذا الدخل أم يتقلّص ؟ هل أبقى في هذه الوظيفة ؟ هل تبقى لي هذه التجارة ؟ هل يبقى لي هذا الدخل ؟ الحياة الدنيا مشحونة بالقلق، لأنك لا بدَّ أن تُغادر الدنيا، إذاً سوف تفارق كل النعم ؛ وأوضح شاهد إذا تَبِعْتَ جنازةً، ورأيت الميت كيف يدفن، كان ساكناً في بيت، قد تكون مساحته مئتي متر، قد يكون أربعمئة متر، قد يكون بيت بأحياء دمشق الراقية، قد يكون بيتاً له إطلالة جميلة، له شرفات ومُعْتَنى به، غرف للنوم، غرف للاستقبال، غرف للجلوس ؛ فيه كل شيء، فيه تدفئة، تكييف، أين مصير صاحب هذا البيت ؟ تحت أطباق الثرى، في حفرةٍ صغيرة ؛ هذا مصيرُ كل حي.

أكثر ركنين متلازمين من أركان الإيمان هما الإيمان بالله واليوم الآخر:

هذه النعم، لا بدَّ أن تفارقها بالموت، وقد تفارقُكَ قبل الموت ؛ أما الآخرة فحياةٌ أبديةٌ سرمدية، حياةٌ لا نغص فيها، ولا شيخوخة فيها، ولا حُزْنَ فيها، ولا قلق فيها، ولا برد، ولا حر، ولا مرض، ولا فقر، ولا غنى، ولا قهر.

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61))

(سورة الصافات)

وقال:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26))

(سورة المطففين)

إذاً أراد الله جلَّ جلاله حينما جعل هذه السورة تحمل اسم سورة البقرة أن يذكّرنا باليوم الآخر، وأن الإيمان باليوم الآخر يأتي بعد الإيمان بالله تماماً، ولو تتبعت الآيات التي تذكر الإيمان لوجدت أن أكثر ركنين متلازمين من أركان الإيمان هما الإيمان بالله واليوم الآخر ؛ والحياة الدنيا من دون إيمان باليوم الآخر غابة ؛ يأكل القوي الضعيف، يستغل الغني الفقير، شعوبٌ تُقْهَر، شعوبٌ تموت

من الجوع، وشعوبٌ تُطعِم كلابها من اللحم ما لا تأكله شعوب بأكملها في جنوبي آسيا، هناك محلات، وهناك رَفاه لكلابهم يفوق رفاه بعض الشعوب ؛ حياةٌ القوي فيها هو المسيطر، والضعيف مسحوق، هذه حياةٌ دُنيا من دون يوم آخر، انظر إلى مجتمع إيماني صغير، أفراده مؤمنون باليوم الآخر، تجد الإنسان يأخذ ما له ويدع ما ليس له، قلت مرةً في موضوع الزواج: لماذا ينجح الزواج الإسلامي ؟ لأن الله بين الزوجين، لأن كل طرفٍ يخشى أن يظلم الطرف الآخر، يخشى الله، يخاف من الله أن يظلم الطرف الآخر، وكل طرفٍ يرجو رحمة الله بخدمة الطرف الآخر، فكلا الزوجين يرتقيان إلى الله، ويزداد التفاهم والوئام بينهما بسبب إيمانهما بالله واليوم الآخر.

فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه:

أنا أُلِحُّ على الإيمان باليوم الآخر ؛ يجب أن يدخل هذا اليوم ـ اليوم الآخر ـ في الحسابات اليومية، وقال لي أخ: في الحسابات الساعيّة، والأصح أن يدخل هذا اليوم في الحسابات اللحظيَّة، كل لحظة، كل عملٍ سوف تحاسب عليه.

(يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (49))

(سورة الكهف)

الإنسان المؤمن شخصية فذَّة ؛ ذكرت مرة أن الشخصية الفَذَّة فيها درجة علمية، من هو المؤمن ؟ المؤمن عرف الحقيقة الكُبرى في الكون، عرف الله، هذا أكبر عالم لأنه عرف الله ـ دققوا في هذا القول ـ فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، القرآن الكريم هذا الكتاب وازن بينه وبين أي كتابٍ آخر، المسافة بينهما كما بين الله وهذا المؤلّف، لأن هذا كلام الله ؛ وازن بين من عرف الدنيا، وبين من عرف الله، بينهما كما بين الله وخلقه ؛ هذا الذي عرف الله إنسان كبير جداً، عرف الحقيقة العظمى وانسجم معها فسعد في الدنيا والآخرة، والإيمان درجة أخلاقية، لأن المؤمن محكوم بمنظومة قيمٍ أخلاقيةٍ كثيرةٍ كبيرةٍ جداً، ففي حياته نهج دقيق تفصيلي، وذكرت سابقاً أنه ما وصل المسلمون إلى ما وصلوا إليه اليوم إلا لأنهم توهَّموا أن الإسلام مجموعة عبادات شعائرية فقط، هي الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، بينما يحوي الإسلام ـ وأرجو ألا أبالغ ـ مئة ألف بند تقريباً ؛ بنود في

كسب المال، بنود في إنفاق المال، بنود في الزواج، بنود في الطلاق، بنود في المجالس، بنود في أداء الحِرَف، بنود في السفر، بنود في الإقامة، بنود في تربية الأولاد، منهج كامل ؛ حينما فهم المسلمون أن الإسلام بضعة عبادات شعائرية كانوا خلف الأمم جميعاً، أما حينما فهم الصحابة الكرام أن الدين هو الحياة كما أرادها الله عزَّ وجل ساروا وفق المنهج التفصيلي، لذلك طلب العلم فرضٌ على كل مسلم، في حياة المسلمين لا شيء يعلو على طلب العلم ؛ إنَّك بالعلم تعرف من أنت، وتعرف موقعك بين الناس، وتعرف ماذا بعد الموت، وماذا قبل الموت، وما المنهج الذي ينبغي أن تسير عليه ؟ فلذلك حينما يؤمن المؤمن باليوم الآخر تنتهي مشاكله.

الدين كله محاسبة ذاتية:

هذه قصة نموذجية أرويها دائماً ؛ أخ من إخواننا يعمل في لف المحركات قال لي: أنا قبل أن أصطلح مع الله يأتيني محرك محروق، طبعاً أجرة لفِّ المحرك خمسة آلاف تقريباً، قال لي: أفتحه، فإذا به قَطْع بسيط جداً في خط خارجي، يُصلَّح في دقيقة، قال لي: قبل الصلح مع الله أُصلِّح هذا المحرِّك وآخذ خمسة آلاف عداً ونقداً، لأن صاحب المحرك لا يعرف ماذا حدث ؟ يعرف أن المحرك واقف عن العمل، إذاً هو محروق، وجاء به للفّه، قال لي: بعد أن عرفت الله عزَّ وجل أقول له: كلّف خمساً وعشرين ليرة، مع أن الشرط خمسة آلاف، دخل بالمحاسبة الذاتية، هذه هي القصة كلّها.

الدين كله محاسبة ذاتية، الدين كله كما قال هذا الأعرابي، هذا البدوي لسيدنا عمر، قال له: بعني هذه الشاة وخذ ثمنها، فقال له: ليست لي، قال له: قل لصاحبها ماتت، ليست لي، خذ ثمنها، ليست لي، ثم ألحّ عليه، قال له: والله إنني في أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها: ماتت، أو أكلها الذئب لصدَّقني، فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله ؟ هذا الدين كله، الدين كله أن تؤمن باليوم الآخر، ضبطْتَ لسانك، ضبطت كسبك للمال، ضبطت إنفاقك للمال، ضبطت عَيْنَك، ضبطت أذنك، ضبطت يدك، ضبطت حركاتك وسكناتك.

أيها الأخوة الكرام سُمِّيت هذه السورة التي هي أطول سورةٍ في القرآن، سميت بالبقرة لأن البقرة دليلٌ لبني إسرائيل على اليوم الآخر، كيف أن الله سبحانه وتعالى أحيا هذا الميت الذي قال: فلان قتلني.

هذه واحدة، فلذلك الإنسان عندما يعصي الله عزَّ وجل يجب أن يعلم أن إيمانه باليوم الآخر ضعيف ؛ لو كان إيمانه باليوم الآخر قوياً لما عصى الله أبداً ؛ مستحيلٌ أن يعصي الله إذا كان مؤمناً أنه سيحاسب ؛ إذا ذهبت إلى بلد مجاور، ووجدت في أثناء الذهاب تفتيشاً دقيقاً جداً، وأنه لا يمكن لشيء أن يمر إلا بمحاسبة دقيقة، هل تشتري شيئاً هناك ؟ أبداً، شيء طبيعي، ما دام هناك حساب دقيق لا تشتري شيئاً، يقول لك رخيصة: ليست المشكلة أنها رخيصة، ولكن كيف سأنقلها إلى بلدي

؟ لا تمر، والمؤمن كذلك، أي شيء، قد لا يوجد عليه رقابة، أنت موثوق، الطبيب موثوق، المهن الراقية كلها موثوق بأصحابها، لو قال طبيب لمريض: تحتاج إلى تحليل، عشرة تحاليل، هل يستطيع المريض أن يناقش الطبيب ؟ لا يستطيع، تحتاج إلى التحليل الفلاني، انتهى ؛ من الذي يعلم أن هذا التحليل ضروري أو غير ضروري؟ هو الله وحده، إذا قال لك المحامي: الدعوى رابحة، وهي خاسرة حتماً، هل بإمكانك أن تناقشه ؟ من يعلم ذلك ؟ الله وحده، والله أيها الأخوة لو صح إيمان المسلمين باليوم الآخر لأغلق قصر العدل أبوابه.

الدين منهج كامل وليس عبادات شعائرية فحسب:

بقي سيدنا عمر وزير عدل مع سيدنا الصديق سنتين، ولم يَرفع له أحد قضية، لو أنصف الناس لاستراح القاضي ؛ نحن مشكلتنا الإيمان باليوم الآخر، وأنك سوف تُسأل.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

مرة ثانية يا اخواننا الكرام، أكبر وهم نتوهمه أن الذي يأتي إلى المسجد ويصلي هو صاحب دين ؛ تأتي إلى هنا لتأخذ تعليمات الصانع فقط، وتعود مرة ثانية لتقبض الثمن، دينك بعملك، دينك بدكّانك، دينك بمكتبك، دينك بعيادتك، دينك بشركتك، دينك بالحقل، دينك بالمعمل، دينك مع أولادك، هنا تأخذ تعليمات الصانع، وتعود إلى الحياة كي تُمارس هذه التعليمات ؛ وأوضح شيء كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيت الله عزَّ وجل يقول:

((اللَّهمَّ افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللَّهمَّ إني أسألك من فضلك))

[مسلم عن أبي حميد]

يا رب أشعرني بقربي منك، أما إذا خرج من المسجد يقول:

((اللَّهمَّ إني أسألك من فضلك))

[مسلم عن أبي حميد]

العمل خارج الجامع، هناك الدين، هناك الاستقامة، هناك ضبط اللسان، هناك ضبط الدخل، هناك ضبط الإنفاق ؛ نحن حينما فهمنا الدين خمس عباداتٍ شعائرية صرنا في مؤخَّرة الأمم، ولكننا يجب أن نفهم الدين منهجاً كاملاً، لهذا أكبر شيء يشغل المؤمن: ما حكم الشرع في هذا الموضوع ؟

الله عزّ وجل قادر أن يُعيدَنا جميعاً مرةً أخرى:

سميت سورة البقرة لأن الله أمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة ليضربوا ببعضها هذا المقتول، فيعيد الله جل جلاله له الحياة فيقف، ويقول: فلان قتلني ! أي أن الله عزّ وجل قادر أن يُعيدَنا جميعاً مرةً أخرى، وهذا الذي ذكره القرآن الكريم .

الشيء الثاني: كان في بني إسرائيل رجل صالح، وكان مستقيماً ورعاً مخلصاً، لم يَدَع لأهله إلا بقرة ؛ هذه كل ثروته في الدنيا لابنه الوحيد، هذه الصفات التي في سورة البقرة:

(صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69))

انطبقت جميعها على هذه البقرة، فلم يرض صاحبها (ابن هذا الصالح) بثمن أقل من أن يُملأ جلدها ذهباً فكانت ثروةً طائلة ؛ يستنبط من هذا: أن الإنسان إذا كان صالحاً تولّى الله مِن بعده رعاية أولاده ؛ يقول الله عزّ وجل في الأثر القدسي:

((عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ يقول هذا العبد: يا ربِ أنفقته على كل محتاج ومسكين لثقتي بأنك خيرٌ حافظاً وأنت أرحم الراحمين ـ يقول الله عزّ وجل في هذا الأثر القدسي ـ عبدي أنا الحافظ لأولادك من بعدك)).

[ورد في الأثر]

معنى ذلك: تحرّ الحلال، ولا تأخذ ما ليس لك، ولا تَخْشَ على أولادك من بعدك، الله وليُّهم هو الحافظ الأمين، هو الذي يرعى لك أولادك بعد موتك، هو الذي يسترهم، هو الذي يرزقهم، هو الذي يحفظُهم، هو الذي يُكرمهم ؛ كم من أبٍ ترك ملايين طائلة لأولاده كسبها بالحرام من أجلهم، فكانت النتيجة أنهم بدّدوا هذه الأموال في وقتٍ قصير وعاشوا فقراء ؛ وكم من أبٍ خاف الله عزّ وجل في كسبه فتولّى الله من بعده رعاية أولاده، لا تقلق على أولادك، اقلق على شيء واحد هو: أن تقع في معصية ؛ هذا الذي مَكّنك الله منه ؛ معظم الناس الآن يكسبون المال الحرام من أجل أولادهم، من أجل بناء مستقبل أولادهم، شراء بيوت، تزويج أولادهم، يكسبون المال الحرام، ما الذي يحدث ؟ هذا المال الذي كسبوه حراماً يبدَّد، ويذهب كما أتى، ويبقى أولادهم فقراء، تتمة الأثر القدسي يقول الله لعبدٍ آخر:

((عبدِ أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ يقول: يا ربِ لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، يقول الله عزّ وجل: إن الذي خشيت على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم))

[ورد في الأثر]

النقطة الثانية احرص على الدخل الحلال وعلى طاعة الله والله سيتولى أولادك من بعدك:

هي بقرة مباركة، لأن الأب كان صالحاً:

(وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً (82))

(سورة الكهف)

بنى سيدنا الخضِر الجدار لأن أباهُما كان صالحاً، فلذلك الحقيقة الثانية في هذه السورة: احرص على الدخل الحلال، احرص على طاعة الله، ولا تفكر في مصير أولادك، لأن الله سيتولى أمرهم، إذا كنت أباً صالحاً سيحفظ الله لك أولادك من بعدك، وسيتولى أمرهم ؛ والله كم من قصة مؤثرةٍ ؛ رجل اتقى الله فكان أولاده من بعده أعلاماً، قمماً، وكم من رجل لم يتق الله في كسب المال، ترك أيضاً ملايين طائلة فرأى صديق المتوفى ابن صديقه في الطريق فقال له: إلى أين أنت ذاهب ؟ قال بالحرف الواحد: إنني ذاهبٌ لأشرب الخمر على روح أبي، روح الميت تُرفرف فوق النعش، تقول: يا أهلي، يا ولدي، لا تلعبَن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلَّ وحرم فأنفقته في حله وفي غير حله فالهناء لكم والتبعة علي.

النقطة الثانية: أن هذه البقرة التي جاءت صفاتها مفصَّلة انطبقت على تلك البقرة التي كانت لرجلٍ صالح فأبى ولده ثمناً لها إلا مِلءَ جلدها ذهباً، أحياناً يَدَعُ أب صالح قطعة أرض، بيتاً، دُكّاناً صغيرة، تدرّ هذه الدكان على أولاده من بعده خيراً كثيراً، لأنه كان صالحاً، لا تقلق على أولادك، اقلق على دخلك، حلال هو أم حرام ؟ أنت لست مكلفاً أن تُطعم أولادك المال الحرام، هذه النقطة الثانية.

النقطة الثالثة أن هذه السورة سورة مدنية :

النقطة الثالثة في هذا الدرس: أن هذه السورة سورة مدنية ؛ طبعاً القرآن الكريم كما تعلمون مكيٌّ ومدني، والعلماء اختلفوا هل الآية التي نزلت في مكة مكية، والتي نزلت في المدينة مدنية إطلاقاً ولا علاقة للزمن بها، مراعين المكان فقط ؟ فالنبي عليه الصلاة والسلام بعد فتح مكة أُنزل عليه القرآن، فالآيات التي أُنزلت عليه في مكة مكيةٌ أم مدنية ؟ هناك علماء راعوا الزمن فقط، فكل آيةٍ نزلت بعد الهجرة في أي مكان فهي مدنية، وكلُّ آيةٍ نزلت قبل الهجرة في أي مكان فهي مكية، هذا مقياس زمني، ويوجد مقياس مكاني ؛ فكل آيةٍ نزلت في مكة بأي وقت فهي مكية، وكل آية نزلت في المدينة فهي مدنية.

الذي يعنينا أن القرآن المكي له خصائص، والمدني له خصائص ؛ يركّز القرآن المكي على الإيمان بالله عن طريق الآيات، ويركّز على اليوم الآخر، اِقرأ سورة من الأجزاء الأخيرة من القرآن الكريم، سورة عمَّ، النازعات، المرسلات، يركّز على الإيمان بالله، وعلى الإيمان باليوم الآخر،

لأنهما أصلا العقيدة، يركز على الرد على الكفار والملحدين، والمشركين والمنكرين، وعلى ذكر الجنة والنار، تكاد هذه القواسم تتجاذب السور المكية، الإيمان بالله من خلال الآيات، الإيمان باليوم الآخر، الرد على المشركين والكفار والملحدين، ذكر الجنة والنار، لو انتقلت إلى البقرة، إلى آل عمران، إلى النساء، إلى الأنعام، يختلف الأمر، تجد آيات التشريع اِفعل ولا تفعل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ (282))

(سورة البقرة)

شيء جميل، تشريع.

كل دعوةٍ إلى الله لا بد أن تمر بمرحلتين:

يوجد منافقين..

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا (120))

(سورة آل عمران)

صار هناك طبقة منافقين، لم يكن في مكة منافقون لأن الإسلام كان مُضطَهَدَاً، فلا داعي لأحد أن ينافق؛ إذا أعلن الكفر يمشي على عرض الطريق، كان المسلمون مضطهَدين، لذلك لم يكن نفاق في مكة، أما حينما أسس للمسلمين دولة قوية في المدينة صار هناك نفاق ؛ تجد في السور المدنية حديثاً عن التشريع، وحديثاً عن المنافقين ليحذِّر المؤمنين، وحديثاً عن علاقة المسلمين بغيرهم، هذا في المدينة.

ما الذي يعنينا ؟ الذي يعنينا هو أن كل دعوةٍ إلى الله لا بد أن تمر بمرحلتين: مرحلة التعريف بالله واليوم الآخر، ومرحلة التعريف بالمنهج، وأية دعوةٍ إلى الله غَفَلَت عن تعريف أتباعها بالله واليوم الآخر دعوةٌ عرجاء، دعوةٌ لا تنجح، فأنت حينما تأمر الإنسان أن يصلي، يصلي لمن ؟ تأمره أن يستقيم، يستقيم خوفاً مِن مَن ؟ لا يعرف الله !! وكنت أقول دائماً: إذا عرف الإنسان الأمر، ولم يعرف الآمر تفنن في التفلُّت من هذا الأمر، وهذا حال المسلمين اليوم أعظم من أن يُخفى، مغنية تسأل عالماً: إنني تبت فهل يوجد مانع أن أغني ؟ لا يوجد مانع بموضوعات دينية ؟ صار الغناء مسموحاً، والاختلاط مسموحاً، والبنوك مسموحة في مصر، لم يعد هناك شيء، كل شيء له فتوى، وكنت أقول متحسّراً: إنَّ لكل معصيةٍ فتوى.

إذا عرف الإنسان الأمر ولم يعرف الآمر تفنن في التفلت من هذا الأمر، وهذا حال المسلمين ؛ صار الإسلام فلكلوراً، مظاهراً، لباساً إسلامياً ؛ آيات قرآنية نزين بها البيت، وتوجد سهرات لا ترضي الله في هذا البيت، توجد أجهزة لا ترضي الله في هذا البيت، توجد علاقات لا ترضي الله في هذا البيت، أما كله آيات قرآنية، وصورة الكعبة، وآية الكرسي ؛ بقي الإسلام مظاهراً، مؤتمرات إسلامية، كتباً فخمة جداً، العنوان على عرض الكتاب، أناقة بالطباعة، أشرطة مرئية ومسموعة، ومكتبات، وكل شيء في أعلى درجة، لكن لا توجد استقامة، لا يوجد التزام ، وكأن الله عزّ وجل تخلّى عنا.

الآيات المكية تُعرفنا بالآمر بينما الآيات المدنية تُعرفنا بالأمر الإلهي:

ذكرت هذا فيما مضى، أن شخصاً سألني فقال لي: لِمَ ندعو الله فلا يستجيب لنا ؟ قلت له: سُئل الإمام إبراهيم بن الأدهم هذا السؤال مرةً في البصرة فقيل له: إن الله تعالى يقول:

(ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ (60))

(سورة غافر)

ونحن ندعو الله فلا يستجيب لنا ؟ قال: " لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء ؛ ادعيتم أنكم آمنتم بالله ولم تنصاعوا لأمره، قرأتم القرآن فلم تعملوا به، ادعيتم حب نبيِّكم فلم تعملوا بسنَّته، قلتم: إن النار حق فلم تتقوها، قلتم: إن الجنة حق فلم تعملوا لها، دفنتم موتاكم فلم تعتبروا.." ذكر اثني عشر بنداً، وقال: فكيف يُستجاب لكم ؟!!

الذي أريده ما دام هناك مّكي ومدني، معنى ذلك أن القرآن المكي يدعوك إلى الإيمان بالله واليوم الآخر عن طريق الآيات، وأيَّة دعوةٍ إلى الله تُغفل هذا الشطر الكبير من الدين فهي دعوةٌ عرجاء لا تنجح، والآن ترى أننا اعتنينا بالفقه على حساب العقيدة، يجب أن نعتنيَّ بالفقه والعقيدة معاً، والشيء الدقيق أن الإنسان حينما يؤمن بالله إيماناً صحيحاً، هو يبحث عن أمره ونهيه، يبحث بشكلٍ حثيث، لذلك المؤمن الصادق شغله الشاغل ما حكم الشرع في هذا ؟

أنت أحياناً موظف في شركة، نُحِّيَ المدير العام السابق عن عمله وجاء مدير جديد، أنت تسأل: من هو؟ فلان، ما ثقافته ؟ ما أخلاقه ؟ ما طبيعته ؟ ما طباعه ؟ بعد أن عرفت شيئاً عن شخصيته الآن تنتظر الأوامر والنواهي ؛ سلوك طبيعي جداً أن تعرف الآمر أولاً، ثم الأمر ثانياً ؛ فنحن في المكّي عرفنا الآمر، الآن في المدني يجب أن نعرف الأمر ؛ لذلك أيُّ أمرٍ لم يسبقه تعريفٌ بالآمر هذا الأمر لا قيمة له، لأن شرف الرسالة من شرف المُرسل، وقيمة الأمر من قيمة الآمر، وكلّما عرفت الله أكثر وَقَّرْتَ أمره أكثر، وكلّما عرفت الله أكثر صدَّقْتَ بوعده أكثر، وكلّما عرفت الله أكثر صدَّقتَ بوعيده أكثر ؛ القضية دقيقة جداً، لذلك لا تحاول أن تُملي على الناس الأوامر الإلهية دون

أن تعرِّفهم من أمر بها ؛ ماذا عند الله لو أطعته ؟ وماذا عنده لو عصيته ؟ إذا لم يكن هناك فكرة واضحة ماذا ينتظر الطائع، وماذا ينتظر العاصي فلا تعبأ لا بالأمر ولا بالنهي.

بالكون تعرف الله وبالشرع تعبده:

هذا درس بليغ لنا، فلذلك أنا حاولت في أول التفسير أن أبدأ بالقسم المكي أي بالثلث الأخير ثم بالثلث الثاني، ورجوت الله عزّ وجل أن يُمَكّن الإيمان بالله في قلوب الأخوة المؤمنين.

الآن يأتي التشريع تاجاً يتوَّج به المؤمن ؛ أنت حينما تعرف الله تبحث عن أمره ونهيه تبحث عما يرضيه، لذلك بالكون تعرفه وبالشرع تعبده ؛ هذان الخطّان في عهد النبي ؛ الخط الأول: التعريف بالآمر، والثاني: التعريف بالأمر ؛ الحد الأدنى الآن أن يسير الخطّان معاً، لذلك لا بد من درسٍ تعرف الله فيه، التفكُّر في خلق السماوات والأرض هذا الخط الأول، كل إنسان يأكل، ويشرب، ويتزوج، وينام، ويستيقظ، ويتأمَّل، وينظر، يجب أن تعلم أن أرقى عبادة على الإطلاق تتقرَّب بها إلى الله أن تتفكَّر في خلق السماوات والأرض، من أجل أن تزيد معرفتك بالله، من أجل أن يكون أمر الله عندك عظيماً:

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (14) ﴾

(سورة نوح)

إذا فكّرت في خلق الإنسان أطواراً ترجو لله الوقار، من أين يأتي الوقار ؟ يأتي إذا فكّرت في خلق الله عزّ وجل:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾

(سورة فاطر: الآية 28)

أيها الأخوة الكرام، علمتنا كلمة مكي ومدني أن الدعوة ينبغي أن تمر بمرحلتين ؛ مرحلةٍ نتعرف فيها إلى الآمر، والمرحلةٍ الثانية نتعرف بها إلى الأمر الإلهي.

النقطة الرابعة يُعَلّمنا الله جلَّ جلاله أن التوجيه غير المباشر أبلغ أثراً من التوجيه المباشر:

هذه السورة أيها الأخوة ـ سورة البقرة ـ من أطول سور القرآن الكريم، فيها خاصة ثالثة أسأل عنها دائماً، هذه الخاصة: حديثٌ طويل عن بني إسرائيل وما علاقتنا ببني إسرائيل:

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ (134) ﴾

(سورة البقرة)

صفحات طويلة، سيدنا موسى، وعلاقته بفرعون، وعلاقته بقومه، وكيف نجَّاه الله من فرعون ؟ وكيف انتقل إلى سيدنا شعيب ؟ الحديث عن بني إسرائيل له مغزى هو: أن الأسلوب التربوي الحكيم ينطلق من هذه المقولة: " إيَّاكِ أعني واسمعي يا جارة "، يُعَلّمنا الله جلَّ جلاله أن التوجيه غير المباشر أبلغ أثراً من التوجيه المباشر، فكل الأمراض التي وقعت بها بنو إسرائيل المسلمون مرشَّحون لأن يقعوا بها، فأيُّ مرضٍ من أمراض بني إسرائيل نحن مُرشَّحون لأن نقع فيه:

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80))

(سورة البقرة)

هذا يعتقده المسلمون اليوم، يعتقدون بمفهومٍ ساذج للشفاعة، اِفعل ما شئت، والنبي عليه الصلاة والسلام يشفع لك:

(فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24))

(سورة المائدة)

هذا مرضٌ أصاب المسلمين:

(قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا (93))

(سورة البقرة)

لو تتبعت أمراض بني إسرائيل لوجدت أن كل هذه الأمراض قد تلبَّسنا بها ؛ فإذا قرأنا قصة بني إسرائيل نقرأها كي نتعظ، كي نعتبر من هؤلاء القوم الذين خرجوا عن منهج ربهم فاستحقوا لعنة الله عزّ وجل، هذه النقطة الثالثة.

ملخص لأهم نقاط الدرس:

نعيد ملخص هذه النقط:

الأولى: سميت هذه السورة بسورة البقرة تأكيداً على الإيمان باليوم الآخر، وأن الناس جميعاً سيحاسبون حساباً دقيقاً جداً، ومن حاسب نفسه في الدنيا حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيراً:

((ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم..))

[ابن سعد والبيهقي والديلمي عن أبي البجير]

العبرة باليوم الآخر.

الشيء الثاني: أن الذي يحيا حياةً مستقيمة ينبغي ألا يقلق على أولاده من بعده، لأن الله عزّ وجل هو الذي سيحفظ له أولاده من بعده، أي عليك أن تستقيم وانتهى الأمر:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66))

(سورة الزمر)

وقال:

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آَتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144))

(سورة الأعراف)

النقطة الثالثة: هي أن هذه السورة مدنية، والسور المدنية فيها تشريعات، والتشريع مكانه الطبيعي بعد معرفة المُشَرِّع، الأمر مكانه الطبيعي بعد معرفة الآمر، فإذا عرفنا الآمر وعرفنا الأمر تكاملنا، ولا تنسَ أن الله سبحانه وتعالى جعل التشريع نصف الدين تماماً.

والنقطة الرابعة في سورة البقرة: أن كل قصص بني إسرائيل بأمراضهم، وتقصيرهم، وانحرافاتهم تنطبق علينا، ذكرت مرة أنّ هؤلاء الذين نسوا:

(حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ (14))

(سورة المائدة)

معنى ذلك متى تكون بيننا العداوة والبغضاء ؟ إذا نسينا حظاً مما ذُكرنا به، كأن للعداوة والبغضاء قانون.

في مجتمعنا قواسم مشتركة كبيرة جداً ومع ذلك هناك عداوة وبغضاء:

قال تعالى:

(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ (91))

(سورة المائدة)

وقال:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ (14))

(سورة المائدة)

معناها في مجتمعنا قواسم مشتركة كبيرة جداً، ومع ذلك عداوة وبغضاء مع هذه القواسم المشتركة، وصف الله عزّ وجل بني إسرائيل فقال:

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى (14))

(سورة الحشر)

يحوي المجتمع عشرات العوامل المشتركة، ومع ذلك عداوةٌ وبغضاء ما بعدها من عداوةٍ وبغضاء، هذا قانون ثالث، فأردت من هذا الدرس أن يكون مقدمةً للدروس القادمة التفصيلية، اسم البقرة، والأبُ الصالح، وبنو إسرائيل، لماذا كثر ذكرهم في هذه السورة ؟ والشيء الرابع المكي والمدني.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (02- 95):تفسير الآيتان 1 - 2، فضل القرآن الكريم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-07-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

اللغة من تكريم الله للإنسان وهي أداة اتصالٍ راقية جداً:

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثاني من سورة البقرة.

(الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2))

أيها الأخوة الكرام... الكتاب هو الذي يُحْفَظ في السطور، ويُقرأ مدى الدهور، والقرآن هو الذي يُحفظ في الصدور، ويُقرأ، يغلب على القرآن أنه يُقرأ، إذاً يحفظ في الصدور، ويغلب على الكتاب أنه يكتب، ويحفظ في السطور ؛ فالقرآن والكتاب اسمان لشيءٍ واحد ؛ لكن هذا يُذكّرنا بقوله تعالى:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

البيان اللُّغة، واللغة من تكريم الله للإنسان ؛ أداة اتصالٍ بين أفراد النوع، أداة اتصال راقية جداً، أداةٌ يعبِّر بها الإنسان عن فكره وشعوره، أداةٌ اجتماعية ؛ يتَّصل الإنسان مع الآخرين عن طريق اللغة ؛ لو أن اللغة تُقرأ، لو أن اللغة تقتصر على أن تُلقى، وأن تُسمع، لما انتقلت ثقافة من جيلٍ إلى جيل، ولا من أمةٍ إلى أمة، لذلك قال تعالى:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4))

(سورة العلق)

البيان من أخص خصائص الإنسان:

اللغة حديثٌ واستماع، واللغة كتابةٌ وقراءة ؛ حينما مَكَّنَ الله الإنسان من أنْ يكتب اللغة، ومن أن يقرأ المكتوب، معنى ذلك أن هذه العلوم التي بين يدي الإنسان انتقلت من جيلٍ إلى جيل، ومن عصرٍ إلى عصر، وعن طريق الترجمة من أمةٍ إلى أمة ؛ فالإمام القُرطبي مثلاً صاحب التفسير المشهور، لو لم يكن هناك كتابة أين علمه ؟ ضاع بموته، فأيُّ عالمٍ صَبَّ علمه في كتاب، فهذا الكتاب انتفع به أبناء عصره الذين لم يلتقوا به، وانتفع به الذين جاؤوا بعده إلى يوم القيامة، وانتفعت به الأمم الأخرى عن طريق الترجمة، إذاً معنى قوله تعالى:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

البيان من أخص خصائص الإنسان، وهو من تكريم الله للإنسان ؛ علَّمك أن تنطق، وعلَّمك أن تفهم الكلام الذي ينطقه غيرك، وعلمك أن تكتب، وعلمك أن تقرأ المكتوب ؛ فلذلك الكتاب محفوظٌ في السطور، ويقرأ على مدى الدهور، والقرآن محفوظٌ في الصدور، ويُقْرَأ بلسانٍ عربيٍ مبين.

فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه:

أيها الأخوة... أما كلمة الكتاب.

(ذَلِكَ الْكِتَابُ (2))

هذه (أل) العهد، أيْ: هذا الكتاب الذي يتميَّز عن كتب أهل الأرض من آدم إلى يوم القيامة، أيُّ كتابٍ ألّفه إنسان، أُدخل إلى أضخم مكتبةٍ في العالم، كل هذه الكتب في كفة، وهذا القرآن في كفةٍ أخرى؛ إنه كلام الله، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه ؛ لذلك هذا الكتاب، هو كتابنا المقرر، هو أساس سعادتنا، هو منهجنا، هو دستورنا، هو حبل الله المتين، هو الصراط المستقيم، هو النور المبين ؛ لا تنس هذه المقولة " فضل كلام الله على كلام خلقه، اِقتنِ أعلى كتاب ألَّفه إنسان في العالم، المؤلف إنسان لكن هذا القرآن من عند خالق الأكوان.

دخل مغنٍ بريطاني شهير إلى مكتبة في إيطاليا فرأى فيها القرآن الكريم، فسأل صاحب المكتبة: من مؤلّف هذا الكتاب ؟ رفع صاحب المكتبة يده إلى السماء، وأشار إلى الله عزَّ وجل، استهزأ هذا المغنِي بهذه الكلمة، واشترى الكتاب ليقرأه، ولينتقده، وليوبِّخ صاحب المكتبة على هذا الادعاء ؛ فلما قرأه آمن به، وترك الغناء، وصار من دعاة الإسلام، واشترى بثروته الطائلة، كل تسجيلاته، وأحرقها ؛ فهذا الكتاب كتاب خالق الأكوان، هذا كتابنا، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((خيركم من تعلم القرآن و علمه)).

[البخاري عن عثمان]

خيركم على الإطلاق.

الجهاد الكبير هو نشر كتاب الله و تبيانه و شرحه و حَمْل الناس على تطبيقه:

الجهاد ذِرْوة سنام الإسلام، أعلى شيء في الإسلام الجهاد، وسمَّى الله نشر هذا الكتاب وتِبيانَه للناس، وتفسيره، وشرحه، و حَمْل الناس على تطبيقه سمَّى ذلك: جهاداً كبيراً، فقال تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52))

(سورة الفرقان)

والشقي كلُّ الشقي الذي جاء إلى الدنيا، وخرج منها، ولم يفهم كلام الله.

(ذَلِكَ الْكِتَابُ (2))

هذه (أل) العهد، أيْ: كتاب الله، هذا الكتاب متميِّز عن كتب بني البشر قاطبة ؛ فما من كتابٍ على وجهِ الأرض إلا فيه خطأ، وفيه صواب، أما الكتاب الذي لا ريب فيه فهو هذا الكتاب، فلن تجد في هذا الكتاب حرفاً ثبت أنه خطأ، لأنه كلام خالق البشر.

ابتعاد القرآن الكريم عن الخلل لأنه كلام خالق البشر:

أنا أقول لكم هذه الكلمة: مهما كان المؤلف عظيماً، قد تكون معطيات العصر الذي ألّف فيه الكتاب واضحة، فإذا قرأت كتابه بعد مئة عام وجدت فيه خللاً ؛ هذا الكتاب الذي أنزله الله على النبي صلى الله عليه وسلم منذ أربعة عشر قرناً، هل في تقدُّم العلوم المُذهل في كل أنواع العلوم ؛ في الفلك، وفي الطب، وفي علم القارَّات، وفي الجيولوجيا، وفي التاريخ، هل هناك حقيقة علمية قاطعة صدَمت آية قرآنية ؟ مستحيل، لأنه كلام خالق البشر ؛ وليس هذا الكلام من عند النبي عليه الصلاة والسلام. مثلاً: قال تعالى:

(وَالْخَيْلَ (8))

والخيل أمام النبي..

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً (8))

(سورة النحل)

هذا الشيء موجود في الجزيرة العربية، لو كانت هذه الآية من صنع النبي، لانتهت عند هذا الحد..

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

لم يكن في عهد النبي طائرة، لم يكن في عهد النبي سيَّارة، ولم يكن في عهد النبي حَوَّامة، ولم يكن في عهد النبي مركبة فضائية، لكنه كلام خالق الكون، قال تعالى:

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

(سورة النحل)

فالذي يركب طائرةً ويقرأ هذه الآية يرى أن الطائرة دخلت في هذه الآية، والذي يركب مركبة فخمة ويقرأ هذه الآية يرى أن المركبة دخلت في هذه الآية، لأنه كلام خالق البشر.

من استوعب كلام خالق البشر سعد به في الدنيا والآخرة :

يقول الله عزَّ وجل:

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27))

(سورة الحج)

الإنسان يعجَب، لِمَ لَمْ يقل الله عزَّ وجل:

(من كل فج بعيد)

القصد أن الفج بعيد، لكن لأن الأرض كرة فإنك كلما ابتعدت عن إحدى نقاطها صار البعد عمقاً..

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ (28))

(سورة النحل)

إذاً هذا الكتاب غير كتب أهل الأرض، وما أتعس الذي أمضى حياته مع كتبٍ من صنع بشر ؛ أمضى حياته في الأدب، في الشعر، في القصة، كل هذا من صنع البشر، أما إذا استوعب كلام خالق البشر سعد به في الدنيا والآخرة .

تميز القرآن الكريم عن كل الكتب السماوية السابقة:

شيءٌ آخر..

(ذَلِكَ (2))

و(أل) للعهد، أي أن هذا الكتاب متميزٌ عن كل الكتب السماوية السابقة، كيف ؟ اِئتمن الله البشر على الكتب السماوية السابقة لحكمةٍ أرادها، وكانت معجزة النبي شيئاً، والكتاب الذي أُنزل عليه شيءٌ آخر ؛ معجزة سيدنا عيسى أنه أحيا الموتى ؛ ومعجزة سيدنا موسى أنه ضَرَبَ البحر فكان طريقاً يبساً، والأفعى، والعصا، فالمعجزة شيء، والكتاب الذي نُزِّل عليه شيءٌ آخر، الكتب السماوية اِئتمن الله البشر عليها، بينما القرآن الكريم يتَمَيَّز من بين الكتب السماوية أن الله تولى حفظه بذاته، قال:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9))

(سورة الحجر)

القرآن الكريم هو المُهَيمن على كل الكتب الأخرى:

لذلك لا يستطيع بشر أن يبدِّل حرفاً واحداً، ولا أن يبدِّل حركةً، ولا أن يضع آيةً مكان آية، وليس معنى حفظ الله عزَّ وجل لهذا القرآن أنه لا تجري محاولة لتغييره، الآن في الإنترنت سور اِدّعى الذي وضعها أنها من سورة البقرة، رقم ثلاثة وعشرين، ولا علاقة لها بالقرآن إطلاقاً ؛ الأمر

يكشفه الأطفال، وفي درسٍ آخر إن شاء الله أقرأ عليكم هذه السور التي افتعلها أعداء الدين، وجعلوها كأنها سور من كتاب الله عزَّ وجل ؛ إنك إذا قرأتها أمام طفل يكشف أنها اِدِّعاء وكذب، أمام طفل من المسلمين ؛ إذاً هذا الكتاب كتاب الله عزَّ وجل يتميز عن بقية الكتب السماوية أن الكتب السماوية اِئتمن الله خَلْقَهُ على حفظها، فما الذي حصل ؟

(وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ (13))

(سورة المائدة: آية " 13 ")

أو بدلوا وحرَّفوا لأهوائهم، فالكتب السماوية السابقة غاب منها قسم وحرف وبُدل منها قسمٌ آخر، إذاً ليست هي كلمة الله الآن ؛ وكما أن الكتب السابقة أنزلت على قومٍ معيَّنين لفترةٍ معينة ؛ بينما القرآن الكريم هو المُهَيمن على كل هذه الكتب..

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ (85))

(سورة آل عمران)

(لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ (33))

(سورة الصف)

القرآن جامعٌ لكل أحكام السماء من بدايات الرسالات حتى يَرِثَ الله الأرض ومن عليها:

إذاً:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ (2))

هذا الكتاب متميِّز على كل الكتب السماوية السابقة، وعلى كل الكتب التي ألَّفها بنو البشر قاطبة..

(ذَلِكَ الْكِتَابُ (2))

بعضهم قال: القرآن جامعٌ لكل أحكام السماء، من بدايات الرسالات، حتى يَرِثَ الله الأرض ومن عليها، هذا الكتاب ليس للأمة العربية، ولا للمسلمين، بل هو لكلِّ أبناء الأرض قاطبة، والله تولى بنفسه.. بذاته.. حفظَ كتابه ؛ والعلماء يُضيفون على ذلك أنه من لوازم حفظ كتاب الله جلَّ جلاله حفظ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن سنة النبي مبيِّنة للقرآن، فإذا ضاع التفسير ضاع الأصل ؛ فإذا قلت: إن الله تولى حفظ القرآن الكريم، معنى ذلك أنه تولى أيضاً حفظ سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كيف تولى حفظها ؟ عن طريق علماء آتاهم الله قدراتٍ عالية جداً فمحَّصوا، ونقَّبوا، ودققوا، وحفظوا سنة رسول الله الصحيحة.

تولي الله عز وجل بذاته حفظ القرآن الكريم :

يطمئننا الله عزَّ وجل أن هذا القرآن لن (لن تفيد تأبيد النفي) أي لن تصل إليه يد التحريف والتبديل، لذلك قال:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ (2))

إذا قرأته لا يمكن أن يتبادر إليك شكٌ طفيف أن هذه الكلمة ليست من القرآن، هذا الذي نزل على النبي صلى الله عليه وسلم هوَ هو بين أيدينا، بسوره، وآياته، وكلماته، وحركاته، وسكناته..

(لَا رَيْبَ فِيهِ (2))

لأن الله بذاته تولى حفظ القرآن الكريم ، لذلك لا يمكن أن يطرأ عليه أي تغيير، لكن ليس معنى ذلك أنه لا تجري محاولات، تجري، بدأها مسيلمة الكذاب، فإذا قرأت ما صاغه، وادَّعى أنه وحيٌ من السماء لأخذك الضحك إلى مكانٍ بعيد.

الإعجاز في القرآن الكريم على أنواع منها :

1 ـ الإعجاز الإخباري:

أيها الأخوة الكرام... قد يسأل سائل: ما السبيل إلى أن أؤمن أن هذا القرآن من عند خالق الأكوان ؟ السبيل كلمة واحدة: إعجازه، لا يستطيع بنو البشر مجتمعين إلى يوم الدين أن يأتوا بآيةٍ واحدة إطلاقاً، فهذا الكتاب فيه إعجاز، والإعجاز أي أن البشر يَعْجزون عن أن يأتوا بمثله، أولاً فيه إعجاز إخباري..

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ (44))

(سورة آل عمران: آية " 44 ")

ما كنت لديهم، جاء القرآن الكريم بآيات تبيِّن، وتوضِّحُ التاريخ البشري بدقةٍ متناهية ؛ ففي مصر مثلاً كان هناك فراعنة، وفي حقبةٍ قصيرةٍ جداً حكم مصر ملوك، الحاكم الذي عاصر سيدنا يوسف جاء ذكره في القرآن ملك فقال:

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ (54))

(سورة يوسف)

أما الذي عاصر سيدنا موسى كان فرعوناً:

(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ (51))

(سورة الزخرف)

هناك دقة بالغة لأن هذه القصص سمَّاها العلماء: من إعجاز القرآن الإخباري، قال تعالى:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ (4))

(سورة الروم)

إعجاز القرآن الإخباري يتناول الماضي والحاضر والمستقبل:

إعجاز القرآن الإخباري يتناول الماضي والحاضر والمستقبل ؛ قصة فرعون مع سيدنا موسى، وقصة سيدنا يوسف مع ملك مصر، وقصة أقوامِ عادٍ وثمود جاءت بتفصيلٍ شديد ودقةٍ شديدة، هذا اسمه: الإعجاز في الإخبار عن الماضي ؛ وفي القرآن الكريم إخبارٌ عن الحاضر البعيد مكانياً عن رسول الله ؛ وفي القرآن الكريم إعجازٌ إخباريٌ عن المستقبل، قال تعالى:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ (4))

(سورة الروم)

وفعلاً في بضع سنين تزيد عن الثلاثة وتقِلُّ عن التسعة غلب الرومُ الفرسَ في أدنى الأرض، قال بعض علماء التفسير: أي في أخفض نقطةٍ من الأرض، ولم يكن أحدٌ يعلم قبل عشرات السنين أن غور فلسطين أخفض نقطةٍ في الأرض، عُرِفَ بعد اكتشاف أشعة الليزر أن غور فلسطين أخفض نقطة في الأرض إطلاقاً، والمعركة تاريخياً تَمَّت في غور فلسطين، قال تعالى:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ (4))

(سورة الروم)

في القرآن الكريم إعجاز إخباري ؛ إخبار عن الماضي، وإخبار عن الحاضر، وإخبار عن المستقبل.

2 ـ الإعجاز العلمي:

وفي القرآن الكريم إعجاز علمي، مثلاً، اكتشف علماء الفيزياء الآن أن كل عنصرٍ في الأرض من دون استثناء ذرَّات، وفي الذرة نواة، وحول النواة مسارات، وعلى المسارات كهارب، قال تعالى:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40))

(سورة يس)

مثل آخر: اِكتشف أن جنس المولود ذكراً كان أو أنثى يحدده الحوين لا البويضة، ولا علاقة للبويضة بتحديد جنس المولود، قال تعالى:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46))

(سورة النجم)

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27))

(سورة الحج)

الأرض كرة.

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88))

(سورة النمل)

الأرض تدور، تمُرُّ الجبال مر السحاب ثلاثين كيلو متراً بالثانية، كل ثانية تقطع الأرض في دورتها حول الشمس ثلاثين كيلو متراً، في الدقيقة تقطع ألفاً وثمانمئة كيلو متر، في العشر دقائق ثمانية عشر ألف كيلو متر، نحن الآن مشينا عشرين ألف كيلو متر، من بداية الدرس وحتى الآن..

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ (88))

(سورة النمل)

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها، وإلى بضع عشراتٍ من السنين كان يُظَن أن الشمس ثابتة، والكواكب تدور من حولها، على أقل تقدير المجموعة الشمسية تدور حول الشمس، ثم اكتشف أن الشمس تجري، قال تعالى:

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38))

(سورة يس)

يوجد بالقرآن إعجاز علمي ؛ لم يكن على عهد النبي طائرات، ولا صواريخ، ولا مناطيد، قال:

(وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ (125))

(سورة الأنعام)

ترى أنت السحاب سقفاً أبيضاً، فإذا ركبت طائرةً ترى السحاب من فوق جبالاً، ودياناً، هِضاباً، سهولاً.. كتضاريس الأرض تماماً.. وهذا ذكر في القرآن الكريم ؛ طبعاً أنا أعطيكم أمثلة على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم الآن أصبح اختصاصاً اسمه الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11))

(سورة الطارق)

فَهِمَ العلماء أن هذا البخار يصعد إلى السماء ويرجع مطراً، هذا المعنى الذي يتناسب مع معطيات ذلك العصر، ثم فهموا أن هذه الموجات الكهرطيسية تصعد إلى السماء فترُدُّها طبقة الأثير، ولولا هذه الطبقة التي ترجع هذا البث لما كان هناك إذاعة ولا نقل صورة عبر الفضاء..

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11))

(سورة الطارق)

ثم اكتشف العلماء أن كل كوكبٍ في الكون يسير في مسارٍ مُغْلَق، معنى مسار مغلق أنه يرجع إلى مكان انطلاقه بعد حين، فالصفة الجامعة المانعة الشاملة لكل الكون أن السماء ذاتُ رجعٍ..

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11))

(سورة الطارق)

3 ـ الإعجاز البلاغي:

الطريقة كي تؤمن أن هذا القرآن كلام الله هو الإعجاز ؛ الإعجاز الإخباري، الإعجاز العلمي، الإعجاز البلاغي..

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا (6))

(سورة هود)

احذف (مِن) الكلام ليس قرآناً، لأن من تفيد استغراق أفراد النوع، احذف (ما) و (إلا) ليس قرآناً، لأن أسلوب النفي والاستثناء يفيد الحصر والقصر، لو ألغينا النفي والاستثناء فقد ألغينا القصر، اِحذف (على).. ما من دابةٍ إلا الله يرزقها.. ليست قرآناً، لأن حذف (على) ألغى الإلزام الذاتي لله عزَّ وجل، قل: الدواب صار محدوداً (أل) العهد، بعض الدواب، الدواب الأهلية، أما جاءت دابة منكَّرة، مُنَكَّرة تنكير شمول ؛ قد تقف أمام آيةٍ ترى فيها إعجازاً بلاغياً، هنا استثناء، هنا حصر، هنا قصر، هنا تقديم، هنا تأخير، قال تعالى:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ (5))

(سورة الفاتحة)

إذا قال: نعبد إياك.. هل يختلف المعنى ؟ يختلف اختلافاً كبيراً، إذا قلت: نعبد إيَّاك يا رب، لا يمنع أن نعبد غيرك، أما إذا قلت:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ (5))

(سورة الفاتحة)

قدَّمت إياك على الفعل، أي لا نعبد إلا أنت..

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ (59))

(سورة الأنعام)

لو قال: مفاتح الغيب عنده، فهي عنده، وعند غيره، أما حينما جاءت عنده قبل مفاتح الغيب، أصبح المعنى حصراً ؛ هذا موضوع طويل جداً، الإعجاز العلمي طويل جداً، يحتاج إلى أشهر، الإعجاز البلاغي يحتاج إلى أشهر، الإعجاز التاريخي، الإخباري، إعجاز النظم، شيء مذهل.

فيا أيها الأخوة الكرام... طريق الإيمان بهذا الكتاب هو الإعجاز.

أي فعلٍ من أفعال الله هو شهادة الله لنا أن هذا القرآن كلامه:

هناك شيء آخر: الذي أنزل هذا الكتاب، الذي أنزله يشهد لنا أنه كلامه، كيف يشهد لنا أن كلامه الذي أنزله ؟ من خلال التأويل، والتأويل بأدق التعاريف: وقوع الوعد والوعيد ؛ أي حينما يمحق الله مال المُرابي، محق مال المرابي شهادة الله لهذا المرابي قوله تعالى:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ (279))

(سورة البقرة)

هو كلامه، محقُ مال المرابي شهادة الله للمرابي أن هذا القرآن كلامه ؛ والشاب الذي يؤمن بالله ويعمل صالحاً ويحيا حياةً طيبة، الحياة الطيبة التي يحياها الشاب هي شهادة الله له أن هذا القرآن كلام الله ؛ وحينما تنفِقُ من مالك فيزداد مالك، فزيادة المال شهادة الله لك أن القرآن كلام الله عزَّ وجل..

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ (276))

(سورة البقرة)

أي فعلٍ من أفعال الله هو شهادة الله لنا أن هذا القرآن كلامه..

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ (40))

(سورة الحج)

يوجد توازن قُوى في العالم:

(لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ (40))

(سورة الحج)

فحينما أُلغي هذا التوازن عانت الشعوب ما عانت، عانت الأمَرَّين كان هذا التوازن بين قُوى الأرض نعمة من نعم الله العظمى، غفلنا عن هذه النعمة فعرفناها بفقدها ؛ كان التوازن نعمة من نعم الله العظمى،

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض)

توازن القوى، شرق وغرب، فلما اختل هذا التوازن، وصار هناك قوة واحدة، فقدْنا هذه النعمة ؛ اللهمَّ عرفنا نعمك بكثرتها لا بزوالها، لابدَّ من أن نعرف النعم، إما أن نعرفها بوفرتها أو بزوالها.

القرآن كلام الله وحبله المتين ومنهجه للعالمين:

شيءٌ آخر: هذا القرآن كلام الله، وحبل الله المتين، والصراط المستقيم، ومنهج ربِّ العالمين، والنور المبين، غنىً لا فقر بعده، ولا غنىً دونه، من أوتي القرآن فهماً وتفسيراً فرأى أن أحداً أُوتي خيراً منه فقد حقَّرَ ما عظَّمه الله عزّ وجل ؛ أهل القرآن أهل الله، أنت حينما تأتي إلى بيتٍ من بيوت الله لتتعلم كلام الله فلا شيء في حياتك يعلو على هذا الهدف ؛ لا شيء، أي أهم ألف مرة من أن

تؤدي امتحاناً جامعياً يُبنى عليه مستقبلك، إنك تتعرف إلى كلام الله، إلى منهج الله، إلى افعل ولا تفعل، هذا حرام وهذا حلال، فلذلك يقول الله جلَّ جلاله:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (1))

(سورة الأنعام)

نحمد الله على أنه أوْجد الكون، وفي المستوى نفسه:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ (1))

(سورة الكهف)

أي أن الكون كلُّه في كفَّة وهذا القرآن في كفة، الكون خَلقه والقرآن كلامه، لا معنى لخلق الكون من دون منهج تسير عليه ؛ يتَّضحُ هذا في قوله تعالى:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3))

(سورة الرحمن)

ترتيب تعليم القرآن مع خلق الإنسان ترتيبٌ رُتَبي وليس ترتيباً زمنيَّاً:

يا رب كيف تعلّم الإنسان القرآن قبل أن تخلقه ؟ ليس هذا هو المعنى..

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3))

(سورة الرحمن)

المعنى: أن ترتيب تعليم القرآن مع خلق الإنسان ترتيبٌ رُتَبي، وليس ترتيباً زمنيَّاً، بمعنى أن وجود الإنسان لا معنى له من دون منهجٍ يسيرُ عليه، اِذهب إلى بعض الشعوب، ماذا يعبد شعب في الهند بأكمله ؟ البقر، وشعبٌ آخر يعبد الجرذان، وعندي تحقيقٌ علمي لمجلةٍ محترمةٍ جداً فيها صورٌ لا تُصدَّق، معبد ضخم جداً.. إله هذا المعبد الجُرذان.. لذلك قال الله تعالى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ (1))

(سورة الكهف)

نحن نعبد الله عزّ وجل، نعبد خالق السماوات والأرض، نعبد الذي بيده ملكوت كُلِّ شيء، نعبد الذي إليه يرجع الأمر كله، نعبد الذي إذا قال لشيءٍ: كن فيكون، نعبد القوي، نعبد الغني، نعبد صاحب الأسماء الحُسنى، والصفات الفُضلى.

النعم الكبرى التي أنعمها الله عز وجل على الإنسان:

لذلك أحد أكبر النعم بعد نعمة الوجود نعمة الهدى ؛ هناك ثلاث نعم ؛ نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهُدى والرشاد، يؤكد هذا المعنى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1))

(سورة الكهف)

من أجل أن تطمئن أن هذا الكتاب الذي بين يديك هو نفسه الكتاب الذي أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم من دون زيادةٍ ولا نقص، قال تعالى:

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ (27))

(سورة الكهف)

لا تُبَدَّل، ولا تُغَيَّر، ولا تُحَرَّف، ولا يُضاف عليها، ولا يُحذف منها إطلاقاً.. تولّى الله بذاته حفظ كتابه..

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ (27))

(سورة الكهف)

الله تعالى دعا الإنسان ليؤمن به طوعاً ليكون إيمانه اختياراً لا إكراهاً :

أنت حينما تؤمن طوعاً ترقى به، لو أراد الله عزَّ وجل أن نؤمن به قسراً لفعل، ولكن هذا لا يُسعدنا، لو أراد الله أن نؤمن بهذا القرآن قسراً لكان ذلك، ولكن هذا الإيمان القسري لا يسعدنا، قال تعالى مخاطباً نبيه محمد:

(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4))

(سورة الشعراء)

لكن الله دعانا لنؤمن به طوعاً، لنرقى بهذا الإيمان، ليكون إيماننا اختياراً لا إكراهاً:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ (256))

(سورة البقرة)

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ: آية تدل على إعجاز الله عز وجل في قرآنه :

يقسم ربنا جلَّ جلاله رحمة بنا فيقول:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75))

(سورة الواقعة)

لا يعرف معنى هذه الآية إلا من درس الفلك ؛ أذاعت محطة أخبار عالمية خبراً من سنة ونصف أنه: تمّ اكتشاف مجرة تبعد عنا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية ؛ أقرب نجم مُلتهب للأرض يبعُد عنا أربع سنوات ضوئية، أجْر مساءً على الآلة الحاسبة ما معنى أربع سنوات ضوئية ؟ أي (ثلاثمئة ألف كيلو متر بالثانية × 60 بالدقيقة × 60 بالساعة × 24 باليوم × 365 بالسنة × 4 هذا الرقم قسمه على مئة)، عندنا سيارة نريد أن نصل بها إلى هذا الكوكب، السرعة مئة، ثم قسِّم هذا الرقم على الساعات، أي 24 تعرف عدد الأيام، ثم قسم هذا الرقم على 365، يظهر معنا أننا نحتاج

لأن نصل إلى أقرب نجم ملتهب إلى خمسين مليون سنة، وبإمكانك أن تجري هذا الحساب مساءً، تقود سيارة خمسين مليون سنة لتصل إلى أقرب نجم ملتهب للأرض، هذه المجرة الأخيرة، ثلاثمئة ألف بليون، أي ثلاثمئة ألفْ ألف مليون سنة ضوئية ؛ قال الله عزّ وجل:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76))

(سورة الواقعة)

فما جواب هذا القسم ؟

(إِنَّهُ لَقُرْآَنٌ كَرِيمٌ (77))

(سورة الواقعة)

جواب هذا القسم إن هذا كلامي يا عبادي.

زوال الكون أهون على الله من ألاّ يحقِق وعده للمؤمنين:

ذكرت قبل يومين في حفل ـ بدأت الحفل هكذا ـ قلت: زوال الكون أهون على الله من ألاّ يحقِق وعده للمؤمنين:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ (55))

(سورة النور)

أين الاستخلاف ؟

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ (55))

(سورة النور)

أين التمكين ؟

(وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ (55))

(سورة النور)

أين الاطمئنان ؟

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا (38))

(سورة الحج)

أين الدفاع ؟

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (141))

(سورة النساء)

لهم علينا ألف سبيلٍ وسبيل..

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ (7))

(سورة محمد)

أين النصر ؟ زوال الكون أهون على الله من أن لا يحقق وعده للمؤمنين.

إضاعة الصلاة و اتباع الشهوات تبعد الإنسان عن الله عز وجل:

ولكن:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59))

(سورة مريم)

الساعة الخامسة قيام ليل الحمد لله !!

قيام ليل بقنوات المجاري، لا بالتحليق مع الله عزّ وجل..

(فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59))

هذا هو الجواب، فلذلك:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77))

(سورة الواقعة)

فضل القرآن الكريم :

إذا عرف الإنسان قيمة هذا القرآن لا ينام الليل، لا يغيب عن درس تفسيرٍ واحد، كلام الله دستورنا، منهجنا، نور الله المبين، صراطه المستقيم، حبلُ الله المتين، هو الغِنَى، هو العِز، كلكم يعلم إذا تفوَّق عالم في القرآن الكريم ومات ترتج الدنيا له، مات وأخذ معه كُلَّ شيء، أخذ معه كل الخير، أما أهل الدنيا إذا ماتوا فيتركون كل شيء ؛ الذين عرفوا الله، وأمضوا حياتهم في الدعوة إليه يأخذون معهم كل الخير، إن الله يرفع بهذا القرآن أقواماً، تعلَّموا القرآن وعلموه، اِفهموا أحكامه، ولقنوا أحكامه لأبنائكم، وربوا أبناءكم على هذا القرآن الكريم، وعلى حُبِّ نبيِّكم، وعلى حب صحابته الكرام.

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ (2))

(سورة يونس)

يشكك أكثر أعداء الدين في هذا القرآن أنه جاء به بشر، ولكن أنتم يا من تشككون بهذا القرآن ألا تتبعون نبيَّاً من بني البشر ؟

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا (2))

(سورة يونس)

هذه سُنَّة الله في خلقه، أنزل الله هذا القرآن على سيد الخلق، وحبيب الحق، أنزله على أمين وحيٍّ السماء..

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آَيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1))

(سورة هود)

عبادة الله عز وجل فَحْوى القرآن كُلّه:

هذا الكتاب كله ملخَّصه كلمة واحدة: ألا تعبدوا إلا الله:

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2))

(سورة هود)

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ (110))

(سورة الكهف)

فَحْوى هذا القرآن كُلّه:

(أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ (110))

(سورة الكهف)

هذه آية تلخيص، يلخِّص الله عزّ وجل لنا قرآنه كله..

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (110))

(سورة الكهف)

من عمل أعمالاً صالحة ألقى الله في قلبه الأمن و الطمأنينة و السعادة:

قد تنتظر سنوات وسنوات، ولا تستطيع أن تقابل مَلِكاً، لكن ملك الملوك يقول لك:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (110))

(سورة الكهف)

ثمن اللقاء عملٌ صالح، اِجعل عملك صالحاً فأنت مع الله، تلقَ الله في الدنيا قبل الآخرة، يُلقي عليك أنواره، يُلقي عليك تجليّاته، يملأ قلبك أمناً وطمأنينة، يملأ قلبك سعادةً، يملأ قلبك رضاً.

جاءت سيدَنا الصديقَ استغاثةٌ من أحد قواده في بلاد الفرس ـ في نهاوند ـ المسلمون ثلاثون ألفاً، والأعداء مئة وثلاثون ألفاً، أرسل سيدنا خالد إلى سيدنا الصديق يطلب منه النجدة، بعد حين جاءت النجدة، أقل شيء ثلاثون ألفاً مع الثلاثين، أو خمسون ألفاً، أو سبعون ألفاً، فكانت النجدة رجلاً واحداً اسمه القَعْقَاع، عندما وصل إليه نظر إليه فقال له: أين النجدة ؟ فقال له: أنا، معي هذا الكتاب فاقرأه، فتح الكتاب: " من عبد الله أبي بكر إلى خالد بن الوليد، أحمد الله إليك، يا خالد لا تعجب أن أرسلت إليك واحداً، فو الذي بعث محمداً بالحق إن جيشاً فيه القعقاع لا يُهزم "، وانتصر الجيش وفيه القعقاع، القرآن يصنع بطولات، القرآن يجعل منك ألفاً، القرآن يجعل منك مئة ألف، أنت واحد، هذه كلها حقائق.

التوحيد فحوى دعوة الأنبياء جميعاً:

لذلك:

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آَيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2))

(سورة هود)

فَحْوى هذا القرآن كله:

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ (2))

(سورة هود)

الأدق من ذلك أنّ فحوى دعوة الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم هو التوحيد..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25))

(سورة الأنبياء)

قصص القرآن الكريم أحسن القصص:

ما من مكتبة الآن في الأرض إلا فيها قصص، ساعة تسمى أدباً مكشوفاً، وساعة تسمى أدباً واقعياً، فالإنسان البعيد عن الله في الوحل، الإنسان ساقط، الإنسان شهواني، الإنسان خائن، الإنسان أناني، الإنسان متعجرف، يقول الله عزّ وجل:

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ (3))

(سورة يوسف)

اِقرأ قصة سيدنا يوسف تَسْمُ نفسك ـ إنسان مبدأ ـ دعته امرأةٌ ذات منصبٍ وجمال فقال:

(أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28))

(سورة المائدة)

كان عبداً فجعله الله مَلِكاً بطاعته لله، وقف سيدنا موسى مع الحق، ولم يعبأ:

(فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ (15))

(سورة القصص)

وخرج من مصر خائفاً يترقب، وصل إلى سيدنا شُعَيب، وزوَّجه ابنته، وعاد إلى فرعون رسولاً:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ (7))

(سورة القصص)

(وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7))

(سورة القصص)

هذا القرآن الكريم ؛ امرأة فرعون آسية مَثَل أعلى لكل النساء، إن إيمان المرأة مستقلة به عن زوجها، أكثر النساء الفاسقات يقلن: هكذا يريد زوجي، سوف تُسألين أنت وحدك عن إيمانك:" لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ".

فرعون وما أدراكم ما فرعون، الجبار الطاغية ما استطاع أن يحمل امرأته على أن تؤمن به..

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11))

(سورة التحريم)

قصص القرآن الكريم تغطي جميع الأحوال التي يمر بها البشر :

أيها الأخوة: القرآن فيه قصص، إذا قرأ أحدهم قصة نوح وكان عنده ابن سيئ يمتلئ قلبه جبراً، ومن يقرأ قصة سيدنا إبراهيم وعنده أبٌ سيئ:

(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي (43))

(سورة مريم)

ومن كانت زوجته سيئة جداً فليصبر عليها..

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ(10))

(سورة التحريم)

والتي عندها زوجٌ شرير، فلها في امرأة فرعون القدوة..

(رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ (11))

(سورة التحريم)

والذي يحتل مكانة عَلِيَّة في المجتمع بإمكانه أن يكون صالحاً، قصة ذي القرنين، مكّنه الله في الأرض وجعله مؤمناً كبيراً صالحاً، والذي لا ينجب الأولاد، سيدنا زكريا، وإذا دخل إنسان السجن ظلماً، سيدنا يوسف، نبيٌّ كريم دخل السجن، ليس السجن وصمة عار بحق الإنسان أحياناً، فإذا قرأت القرآن الكريم تجد أن كل قصة دواء، إنسان ظُلِم فرضاً له في سيدنا يوسف أسوةٌ حسنة ؛ امرأةٌ عفيفة طاهرةٌ تكلّم الناس في عرضها ظلماً وزوراً لها في السيدة عائشة أسوة حسنة ؛ كأن قصص القرآن تُغَطّي كل الأحوال..

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ (3))

(سورة يوسف)

الآيات القرآنية تعطي الإنسان إيماناً فطرياً:

أما إذا قرأت مثل هذه الآيات:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ (2))

(سورة الرعد)

هل يستطيع أحدٌ من بني البشر أن يدَّعي ذلك ؟ إلا أن هذا كلام الله عزّ وجل، أي أنت بالفطرة إذا قرأت هذه الآية:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ (2))

(سورة الرعد)

من يستطيع من بني البشر أن يدَّعي ذلك ؟ هذه الآيات تُعطيك إيماناً فطرياً، وهذا القرآن في النهاية:

(الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ (1))

(سورة إبراهيم)

الكافر في ظلام، في ظُلُماتٍ بعضها فوق بعض، وأما المؤمن إذا قرأ القرآن فهو على بيّنةٍ من ربِّه، إنه في نور الله عزّ وجل، حتى إنّ بعضهم قال: الله نور السماوات والأرض، نوَّرها بهذا القرآن الكريم، بيَّن، ووضَّح.

أعلى خُلُقٍ على الإطلاق أن يتخلق الإنسان بأخلاق القرآن الكريم:

اقرأ القرآن تعرف أنك المخلوق الأول ، اقرأ القرآن تعرف أن هذه الدنيا لعبٌ، ولهوٌ، وزينة، وأن الآخرة هي دار القرار، اقرأ القرآن تعلم أن العمل الصالح هو رأس مالِكَ في الدنيا، اقرأ القرآن تعلم أن أعلى خُلُقٍ على الإطلاق أن تتخلق بأخلاق القرآن ؛ سُئلت السيدة عائشة عن أخلاق رسول الله ؟ قالت: كان خلقه القرآن، فأنت إذا قرأت القرآن، تلوْتَه حق تلاوته، فهمتَ آياته، تدبَّرْتَها، وعملت بها سعدت في الدنيا والآخرة، كنت في ظلام البعد وظلام الجهل، فانتقلت إلى نور العلم والمعرفة، والدعاء: " اللهمَّ أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، من وحول الشهوات إلى جنَّات القربات ".

فاليوم:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ (2))

إن شاء الله في الدرس القادم سنتابع قوله تعالى:

(لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (03- 95):تفسير الآية 2، أحاديث عن أهمية قراءة السورة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 10-07-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

الشهوات تدفع الإنسان إلى الحركة لأن السِمة العامة للإنسان أنَّه حَرَكيّ:

لا زلنا في قوله تعالى :

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2))

فكلمة (ذلك) ذا: اسم إشارة، فيها إشارةٌ إلى هذا القرآن الكريم، أما هذه (اللام) فيسميها النُحاة لامَ البعد، أو لام التعظيم، وذاك غير ذلك.

(ذَلِكَ الْكِتَابُ (2))

الكاف للخطاب، فالله سبحانه وتعالى يشير إلى هذا الكتاب، ويبيِّن لنا عظمته، ويخاطب به جميع الناس، الشيء الذي ينبغي أن نقف عنده وقفةً متأنية كلمة:

(هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2))

أيها الأخوة الكرام الإنسان حركة، لماذا ؟ لأن الله أودعَ فيه الشهوات، فالشهوات تدفعه، حاجته إلى الطعام تدفعه إلى العمل، حاجته إلى المرأة تدفعه إلى الزواج، أو إلى طريقٍ آخر، حاجته إلى تأكيد الذَّات تدفعه إلى التفوّق، فهذه الحاجات التي أودعها الله في الإنسان تجعله يتحرَّك، فالسِمةُ العامة للإنسان أنَّه حَرَكيّ ؛ أما هذا الكأس فلا يتحرك لو وضعناه في هذا المكان مئات السنين، لأنه لا يحتاج إلى شيءٍ يدفعه ليبقى موجوداً، لا يحتاج إلى أن يزهو على أقرانه، لا يحتاج إلى طرفٍ يُكَمِّله ؛ الجماد ساكن، بينما الإنسان متحرك.

خالق الإنسان وحده هو الذي يرسُم للإنسان هدفاً لأن الإنسان ليس أهلاً لذلك:

طبيعة الإنسان متحركة ؛ سبب هذه الحركة كما قال الله عزَّ وجل:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ (14))

(سورة آل عمران)

هذه الشهوات التي أُودعت في الإنسان تجعله يتحرَّك، الآن نحو ماذا يتحرك ؟ هنا السؤال، ما دام هناك حركة فهناك هدف، من هي الجهة التي تَرْسُمُ له الهدف الصحيح ؟ هي الجهة الخالقة ؛

الإنسان أحياناً يرسم لنفسه هدفاً، هدفاً غير صحيح، غير نافع، غير مفيد، وقد يكون هدفاً مُدَمِّراً، فالإنسان ليس أهلاً أن يرسم لذاته هدفاً ؛ رُسِمَ الهدف، ما هو الطريق المناسب لهذا الهدف ؟ قد أسلُكُ طريقاً وعراً، قد أسلك طريقاً لا يوصلني إلى هذا الهدف، قد أسلك طريقاً طويلاً، من هي الجهة ـ مرةً ثانية ـ المؤهَّلة كي ترسم لي أقصر طريق وأسلم طريق ؟ الحقيقة خالق الإنسان وحده هو الذي يرسُم لهذا الإنسان هدفاً، وهو الذي يرسم له طريقاً؛ أما لو رسم الإنسان هدفاً، فالأهداف متحركة، والأهداف متبدّلة، والأهداف غير ثابتة، والأهداف مِزاجية أحياناً ؛ هؤلاء البشر أمامكم منذُ آلاف السنين ؛ انغمس أناسٌ في الشهوات إلى قِمم رؤوسهم، وقدَّس أناسٌ العقل، فكان العقل سبب دمارهم، قدس أناسٌ العادات والتقاليد فكانت العادات والتقاليد سبب تخلفهم، أناسٌ قدَّسوا المادة، أناسٌ قدَّسوا الروح، أناسٌ قهروا النفس، رسمت الشعوب والأمم أهدافاً لذواتها، وكانت الأهداف غير صحيحة ؛ ادَّعت شعوبٌ أنها الشعب المختار في الأرض، فأرادت أن تَقْهر بقية الشعوب، فدُمِّرت وانتهت، الآن هدف الشعوب الغربية المُتعة بأي طريق، وبأية وسيلة ؛ قضت المتعة عليها، وإذا كانت هذه الدول تقوم فهي تقوم على أدمغة الآخرين، لا على أدمغة أبنائها.

لا بدَّ أن تستهدي الله بالهدف الذي تسعى إليه وبالطريق الموصل إلى هذا الهدف :

أوَّل نقطة في هذا الدرس: مَن هي الجهة المؤهَّلة لأن ترسم لهذا الإنسان هدفاً ؟ الله جلَّ جلاله، من هي الجهة المؤهَّلة التي ترسم لهذا الهدف طريقاً ؟ الله جلَّ جلاله، كلمة (هُدًى) دقق، إنسان وصل إلى مدينة ولا بدَّ أن يلتقي بشركة، ولا يعرف أين هذه الشركة، إذاً هو يحتاج إلى دليل، يحتاج إلى هادي، هو مهتدٍ، ويحتاج إلى هادٍ، والهدف الشركة والطريق ؛ كلمة هُدى تعني: الهدف والطريق والهادي والمهتدي، المهتدي أنت، الهادي، والهدف، والطريق من عند الله عزَّ وجل، فكل إنسان استهدى الله بتحديد الهدف، واستهدى الله بتحديد الطريق نجح، وأفلح، وفاز، ونجا، خلافاً للإنسان الذي وضع هدفاً من عنده ؛ هناك إنسان هدفه المتعة، وإنسان هدفه المال، وإنسان هدفه العلُوّ في الأرض، وإنسان هدفه موضوع معيَّن، فكل إنسان ينصرف إلى الهدف الذي رسمه ؛ لكن متى تُخَيِّبُهُ هذه الأهداف ؟ في النهاية، حينما يكتشف أن المال ليس بشيء، جعله هدفاً في مقتبل حياته، قدَّسه، باع من أجله دينه وعِرضه، وصل إلى المال، ثم اكتشف أن هذا الهدف سخيف، متى يكتشف هذا ؟ بعد فوات الأوان وهو على فِراش الموت ؛ أدق فكرة في هذا الدرس أنه لا بدَّ من أن تستهدي الله بالهدف الذي ينبغي أن تسعى إليه، ولا بدَّ من أن تستهدي الله بالطريق الموصل إلى هذا الهدف.

((يا عبادي، كُلُّكم ضالّ إلا مَنْ هَدَيتُه، فاسْتَهدُوني أهْدِكم))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

لاحظ هذه الشعوب فيما حولنا، صار العالم الآن قرية، العالم بيت، العالم الآن غرفة واحدة، شعوب بمئات الملايين تعبد البقر، شعوب تعبد ذواتها، شعوب تقدِّس العقل إلى درجة الحماقة، شعوب تقدس الشهوة، شعوب تقدس التاريخ والعادات والتقاليد، فهذه الشعوب رسمت أهدافاً لكنها ضلّت سواء السبيل؛ من هو الناجح ؟ من هو الرابح ؟ من هو المُفْلح ؟ هو الذي سأل الله عن الهدف الصحيح ؛ الهدف هو الجنة، لأن الإنسان خُلِق للجنة، والطريق طاعة الله عزَّ وجل.

فكلمة

(هُدًى)

أي هناك هدف، وهناك حركة نحو الهدف، وهادٍ، و مهتدٍ، أربعة أركان لكلمة الهُدى، فأنت المهتدي، والهادي هو الله، يهديك إلى الهدف الصحيح، ويهديك إلى الطريق الصحيح ؛ والله جلَّ جلاله هدى أنبياءه ورسله إلى الأهداف الصحيحة، فَسَلِموا، وسعدوا هم وأتباعهم في الدنيا والآخرة، والذين شردوا عن طريق الدين رسموا أهدافاً أخرى.

آياتٌ من القرآن متعلّقة بالهدى :

إذا نظرت أيها الأخ الكريم إلى شارع مزدحم بالناس تجد أن في بال كل إنسان هدفاً يسعى إليه، السعيد والرابح والناجي هو الذي تطابَق هدفه مع الهدف الذي رسمه الله لهذا الإنسان لذلك أيها الأخوة هناك آياتٌ متعلّقة بالهدى مهمة جداً ينبغي أن تكون تحت سمعنا وبصرنا:

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

هل هناك ثمرة بعد هذه الثمرة ؟

(فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ (38))

مِن المستقبل كله:

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

على الماضي كله:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

وقال:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

(سورة طه)

لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، اِجمع الآيتين، من يتبع هدى الله عزَّ وجل لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، ولا يندم على ما فات، ولا يخشى مما هو آت.

الهدى مبذول لكل الناس:

الهدى الحقيقي، الفوز الحقيقي، المعرفة الحقيقية.

(قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ (73))

(سورة آل عمران)

لا يمكن أن يوصف إنسان بأنه مهتدٍ إن لم يعرف الله، قد يتفوق في الدنيا، ولكنه ليس مهتدياً، إن الهدى الحقيقي الهدى المنجي الهدى المسعد (قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ) فلا يوجد إلا حل واحد ؛ إما أنك مع الله، وإما أنك مع الهوى.

(قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ (73))

هناك آية أخرى:

(قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى (120))

(سورة البقرة)

لذلك قد تجد إنساناً ذكياً لكن لن يكون الإنسان عاقلاً إلا إذا اهتدى بهدي الله:

((كُلُّكم ضالّ إلا مَنْ هَدَيْتُه، فاستَهْدُوني أهْدِكم))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

هذا الهدى مبذول لكل الناس..

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (88))

(سورة الأنعام)

ألزم الله سبحانه وتعالى نفسه بهداية البشر :

الله عزَّ وجل قال:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12))

(سورة الليل)

ألزم الله سبحانه وتعالى نفسه بهداية البشر، هداهم بهذا الكون، الكون كلُّه يدلُّ على الله، وهداهم بهذا القرآن، وهداهم بالعقل، وهداهم بالفطرة، وهداهم بأفعاله ؛ أفعاله تدل عليه، والفطرة مجبولة على الإيمان به، والعقل مركبٌ على مبادئ توصله إلى الله عزَّ وجل، وكل ما في الكون يدل على الله، يدل على الله خالقاً ومربياً ومسيراً، موجوداً وواحداً وكاملاً ؛ فلذلك أيها الأخوة أنت متحرك شئت أم أبيت، لا يوجد حل وسط، هناك مَلَكٌ وهناك شيطان، الملك يُلْهِم والشيطان يوسوس ولا بدَّ من أن تستجيب لأحدهما لأنك كائن متحرك، إذاً هناك هدف، الهدف إما أنه من صنعِك، وإما أنه من الله عزَّ وجل، إذا كان من صنعِك في الأعم الأغلب فالهدف غلط، يصاب الإنسان بخيبة أمل حينما يكتشف أنه عاش عمراً مديداً، وقد ضلّ سواء السبيل:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104))

(سورة الكهف)

الإنسان مخلوقٌ للجنة وطريقُها طاعة الله عزَّ وجل:

أيها الأخوة ورد في بعض الآثار أن الكافر حينما يأتيه ملك الموت يصيح صيحة لو سمعها أهل الأرض لصعقوا من شدة الندم.

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ(15))

(سورة الزمر)

أخطر شيء أن تعرف إلى أين تتحرك ؟ لجمع المال فقط من طريقٍ مشروع أو غير مشروع، هذا ضلال، تتحرك لتكون منزلتك عَلية بحقٍ أو بباطل، لتستعلي على الناس، هذا ضلال، تتحرك لتنغمس في المتع الرخيصة إلى أن يأتي الموت هذا ضلال ؛ ما الهدف ؟ متعة، مال، مكانة، استعلاء، ما الهدف؟ الهدف الحقيقي أنت مخلوقٌ للجنة، وطريقُها طاعة الله عزَّ وجل، يجب أن تُصْغي إلى خالقك الذي رسم لك الهدف، والدليل:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات)

وقال:

(وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ (119))

(سورة هود)

وقال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (12))

(سورة الطلاق)

البشرية قسمان ؛ إنسان استهدى الله فهداه، وإنسان شرد عن الله:

هذا القرآن هُدى، يحتاج الإنسان في حركة الحياة إلى هدف فرَسَمَ له القرآن الهدف، ويحتاج الإنسان في سعيه نحو الهدف إلى طريق فرسَمَ له القرآن الطريق، وهذا القرآن كلام الله عزَّ وجل، إذاً يمكن أن نقَسِّم البشرية إلى قسمين ؛ إنسان استهدى الله فهداه، وإنسان شرد عن الله، والشرود عن الله آلاف الأنواع، أنواع منوعة، التاريخ أمامكم والشعوب من حولكم والأخبار بين أيديكم، أكثر الشعوب تسير في طريق مسدودة، لو أنها ازدهرت في حياتها الدنيا، لو أنها ـ كما يقولون ـ سخَّرت

الطبيعة، لكنهم حينما يأتي ملك الموت يفاجؤون أنهم خلقوا لحياة أبدية، وأن هذه الحياة الدنيا هي إعداد لتلك الحياة، فجعلوها مقراً، وجعلوها منتهى أمانيهم، ومَحَطَّ رحالهم، فضلوا سواء السبيل.

أيها الأخوة لا تنسوا هاتين الآيتين:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

وقال:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

وقال:

(قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى (120))

(سورة البقرة)

هو الهدى وحده، الحق لا يتعدد.

هناك طريقان إما أن تستجيب لأمر الله عزَّ وجل وإما أن تستجيب لهواك :

دققوا في هذه الآية:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ (50))

(سورة القصص)

إن لم تستجب لرسول الله فأنت على الباطل قطعاً، هناك طريقان إن لم تكن على أحدهما فأنت على الثاني حتماً ؛ إما أن تستجيب لأمر الله عزَّ وجل، وإما أن تستجيب لهواك، إما أن تكون على طريق الحق، وإما أن تكون على طريق الباطل.

الهدى كما قلت قبل قليل مبذول، كُلُّ شيءٍ يدلك على الله إن أردت الهدى ؛ فإن لم ترد الهدى لو التقيت بالأنبياء جميعاً، ورأيت معجزاتهم جميعاً، وكل شيء أمامك واضح فلن تبلغ الهدى، الشيء الذي يلفت النظر أن بعض العلماء في أوربا أو أمريكا اطّلعوا على حقائق مذهلة في خلق الإنسان أو في الأكوان، اطلعوا على حقائق مذهلة، لكنْ لماذا لم يؤمنوا ؟ لأنهم ما أرادوا الهُدى، ولو أرادوا الهدى لوصلوا إليه، القضية قضية قرار، فإما أن تتخذ قراراً بالبحث عن الحقيقة، وعندئذٍ كلُّ شيءٍ يوصلك إليها، وإما أن تعزف عن الحقيقة، ولو رأيت الأنبياء جميعاً، واستمعت إليهم جميعاً، ورأيت معجزاتهم جميعاً، ورأيت كتاباً ينزل من السماء، ورأيت ناقةً خرجت من الجبل، ورأيت بحراً أصبح طريقاً يبساً، ورأيت العصا أصبحت أفعى أو ثعباناً، ورأيت النار تمتنع عن إحراق إبراهيم لن تستفيد شيئاً، إلا أن تتخذ قراراً من الداخل بالبحث عن الحقيقة.

أنواع الهداية:

أيها الأخوة قال العلماء: هناك هداية دلالة، وهناك هداية توفيق، وهناك هداية مصلحة، كيف ؟ نحن بني البشر هدانا الله عزَّ وجل إلى مصالحنا، يحتاج الإنسان إلى الطعام، فيشعر بالجوع، الإحساس بالجوع هداية إلى المصلحة، لو أن الإنسان يجوع دون أن يشعر بالجوع لمات، يوجد عند الإنسان جهاز توازن لو اختل توازنه يستعيد توازنه، فالحفاظ على التوازن هذه مصلحة ؛ عينا الإنسان، وأذناه، وأنفه، وحواسه كلها تهديه إلى ما حوله، أنت موصول مع المحيط الخارجي بهذه الحواس.

أحياناً قصة لها دلالة، إنسان يقود سيارته من حمص إلى دمشق، وهو في حديثٍ ممتعٍ مع صديقه لم يلتفت إلى مشير الحرارة، ارتفعت الحرارة، واحترق المحرِّك لخلل أصابه ؛ قال لي: لو نظرت إلى اللوحة مرة واحدة، ورأيت الحرارة مرتفعة لوقفت ووفرت ثلاثين ألفاً ؛ لم ألتفت إلى اللوحة لأنني منغمس في حديث ممتع مع صديقي فاحترق المحرك، اللوحة إذاً ناقصة، لأن المؤشر يعطي حركة فهو يحتاج إلى نظر، وتحدث مشكلة إذا غفل السائق عن النظر للمؤشر، فما قولك بعداد له صوت ؟ يمكن أن ترى، ويمكن أن تسمع وهو أبلغ، فإذا كان الإنسان ضعيفَ السمع يحتاج إلى ضوء، عداد فيه ضوء، وصوت، وحركة يكون أقوى.

1ـ هداية المصالح:

جهازنا الذي زودنا به ربنا عز وجل هذا الجهاز المعقد هداك إلى مصالحك، تجد الإنسان إذا جاع يبحث عن الطعام، إذا كان الطعام فاسداً تقيؤه، آلية التقيؤ دقيقة جداً ؛ يقوم جهازه وهو نائم بآليات عجيبة جداً، لسان البلعوم يتحرك وأنت نائم حركة معقدة، ويأتيه إشارة من الفم إلى الدماغ أن هناك لعاباً، فالدماغ يعطي أمراً، لسان المزمار هذا يغلق القصبة الهوائية إغلاقاً تاماً ويفتح طريق المريء، فيدخل هذا اللعاب في مري الإنسان وأنت نائم، فالإنسان مبني بناء دقيقاً جداً.

لو دخل جرثوم هناك جهاز المناعة المكتسب، جهاز دقيق جداً، لمجرد دخول جرثوم تخرج عناصر استطلاعية من جهاز المناعة تتصل بهذا الجرثوم، وتكشف هويته، وتأخذ شفرته الكيماوية وتعود إلى معامل صنع السلاح العقد الليمفاوية ؛ تهيئ هذه العقد سلاحاً مضاداً، تأتي عناصر ثالثة مقاتلة تحمل هذا السلاح، تنطلق إلى الجرثوم وتقاتله فتقتله، ثم تأتي عناصر خدمات تزيل هذه الجثث من ساحة المعركة، وأنت لا تشعر.

هداية المصالح واضحة جداً عند الحيوانات:

إنسان رأى أفعى، هذه الصورة انطبعت على شبكية عينه، شبكية العين فيها إحساس نُقِلَت إلى الدماغ، الدماغ فيه إدراك بحسب المفاهيم والخبرات السابقة، يدرك الدماغ الخطر ويتصل بملكة الجهاز الهرموني عن طريق ضابط اتصال هو جسم تحت السرير البصري ؛ الدماغ ملك والنخامية ملكة، ملك وملكة لا بدَّ أن يلتقيا عن طريق وسطاء ؛ ترسل الملكة أمراً إلى الكظر أن هناك خطراً ليتصرَّف، فيرسل الكظر أمراً إلى القلب ليرفع ضربات القلب، إذا ارتفعت الضربات أسرع الدم في الأوعية، ووصل الدم إلى العضلات بطريقةٍ أسرع ؛ ويرسل أمراً ثانياً إلى الرئتين فيزداد وجيبهما كي يتناسب وجيب الرئة مع ضربات القلب، ويرسل أمراً ثالثاً إلى الأوعية المحيطة في الجسم فتضيق لمعتها ويصفر، لون الخائف، لأنه بحاجة إلى الدم لا إلى لون وردي، وأمراً رابعاً إلى الكبد فيطرح كمية زائدة من السكر كي تكون وقوداً إضافياً في معركته مع هذه الأفعى، وأمراً خامساً بإطلاق هرمون التجلُّط، فلو أنه جُرح لئلا ينزف دمه كله، الدم يتجلط، هذه هداية، فإذا كان هناك خطر توجد آلية معقدة، دخل جرثوم توجد آلية معقدة، دخل الطعام هناك هضم معقد، على كلٍ هذا طريق طويل، هذه الهداية، اسمها هداية المصالح، أي أن الله عزَّ وجل خلق الإنسان في أحسن تقويم.

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50))

(سورة طه)

هذه هداية المصالح وهي تبدو واضحة جداً عند الحيوانات، يقوم الحيوان بآليات معقدة جداً من دون تعليم، من دون تدريب، والدليل فور ولادة الطفل الصغير الآن يضع فمه على ثدي أمه ويقوم بآلية معقدة جداً تسمَّى آلية المص، مَن علَّمه وضعَ شفتيه على حُلْمَة ثدي أمه، وأحْكَم إغلاق شفتيه، وسحب الهواء فجاءه الحليب ؟ لولا هذه الآلية لما كان هذا الدرس، ولما كانت هذه البلدة، ولما كان إنسان واحد في العالم، آلية المص، سموه: مُنْعَكَس المص.

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50))

هذه هداية المصالح، نحن وغيرنا سواء فيها ؛ بالعكس الغرائز أعلى عند غيرنا من الأعمال الإرادية.

2- هداية الدلالة:

الهداية الثانية أيها الأخوة هداية الدلالة، أنزل ربنا عزَّ وجل هذا القرآن على نبيه ليدلَّنا على ذاته، ليدلنا على هدفنا، ليدلنا على طريقنا، ليدلنا على منهجنا، اِفعل ولا تفعل، هذه هداية ثانية، هداية الدلالة.

3- هداية التوفيق:

الهداية الثالثة:

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) ﴾

(سورة الكهف)

هداية التوفيق.

كل واحد منا مهتدٍ إلى مصالحه، يجوع يأكل، يدخل طعام فاسد فيتقيَّأ، يتعب جهازه العصبي فينام، يقول لك: أريد أن أنام، متضايق فينام ويستريح، يشتهي في الصيف المأكولات الباردة، مأكولات فيها ماء، يشتهي الخس، يشتهي البطيخ، يشتهي الحلو في الشتاء لوجود البرد، يحتاج إلى غذاء فيه طاقة حرارية عالية جداً، فالإنسان مهتدٍ إلى مصالحه.

أدلة من القرآن الكريم عن هداية التوفيق:

أجرى بعض أطباء الأطفال تجربة رائعة جداً، وضعوا عشرة أطفال أمام غذاء مفتوح، أنواع منوَّعة من الغذاء وسمحوا للأطفال أن يأكلوا كما يشاءون ؛ ورسم علماء كبار في التغذية لعشرة أطفال آخرين منهجاً رائعاً في التغذية، فالفيتامينات، والسكريات، والبروتينات، والنشويات، كل الأغذية النظامية ؛ وجدوا أن نمو أجسام الأطفال الذين تُركوا وشأنَهم ليأكلوا كما يشاءون أرقى بكثير من نمو الذين رسمت لهم خطط دقيقة جداً في غذائهم ؛ فالإنسان مهتدٍ إلى مصالحه، يهتدي إلى مصالحه، والله عزَّ وجل هداه إليه، هداه هداية دلالة، فإذا قبلت الهدى أيها الإنسان هُديت هداية ثالثة، هُديت توفيقاً، الله يوفقك، تستوعب الحق، يعينك على طاعته، يعينك على العمل الصالح، يجمعك مع أهل الحق، يشرح صدرك للإسلام، هذه كلها هداية توفيق، فأنت بين هداية المصلحة وبين هداية الدلالة، وبين هداية التوفيق، ثلاثة هدايات ؛ هداية مصلحة، هداية دلالة، هداية توفيق، تتوَّج هذه الهدايات أنك تهتدي إلى الجنة، يدخل المؤمنون الجنة بفضل الله عزَّ وجل.

أيها الأخوة معنى قوله تعالى:

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) ﴾

(سورة الكهف)

هذا الهُدى هداية التوفيق:

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى (17) ﴾

(سورة فصلت)

هذا هو الاختيار:

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى (76) ﴾

(سورة مريم)

أيضاً هداية التوفيق.

هناك أخطار محدقة بالإنسان لأنه وحده قَبِلَ حمل الأمانة:

شيءٌ آخر ؛ يقول الله عزّ وجل في الآية الكريمة:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ (50))

(سورة القصص)

معنى ذلك أنه لا شيء على الإنسان لو اتبع هواه وفق هدى الله عزّ وجل، لأنه ليس في الإسلام حِرْمان، بل هناك تنظيم، كل شهوةٍ أودعها الله في الإنسان فتح لها قناةً نظيفة تسري خلالها.

أيها الأخوة الكرام هذا الكتاب هدىً لمن ؟

(لِلْمُتَّقِينَ)

كلمة متقين، المتقي اسم فاعل من الفعل اتقى، اتقى مزيد، مجرَّده وقى ؛ وقى من الوقاية، الوقاية فيها خطر، معنى ذلك هناك أخطار محدقة بالإنسان لأنه وحده قَبِلَ حمل الأمانة، ركّب الله المَلَك من عقلٍ بلا شهوة وركّب الحيوان من شهوةٍ بلا عقل وركّب الإنسان من كليهما، اختارت الملائكة العبادة من دون مسؤولية، هُم مع الله دائماً، واختارت الحيوانات الشهوة من دون مسؤولية، فالحيوان همه أكله فقط لكنه لا يُحاسب وهو غير مكلَّف، لكن الله خلق الإنسان من طين الأرض، ونَفَخَ فيه من روحه، ففيه نفخة من الله، وفيه قبضة من الطين، فيه نوازع أرضية، وفيه ميول علوية، إذاً يوجد عنده خطأ ؛ فإذا غلبت نوازعُه الأرضية أَخَلَّ بالأمانة، إذا غلبت نوازعه الأرضية فسد لأن عنده دوافع وشهوات ؛ الفساد بالضبط كمركبة فيها محرك، الشهوة هي المحرك، قوة اندفاع، والمنهج هو المِقود، تصور مركبة بلا مِقود، والطريق فيه انعطافات، وفيه حفر، وفيه وديان على اليمين واليسار، فمركبة تنطلق بسرعة عالية في طريق فيه انعطافات، والدنيا ليل فلا بدَّ أن تهوي في الوادي ؛ فكلمة متقي: مِن اتقى، واتقى مزيد من وقى، ووقى من الوقاية، والوقاية من الخَطَر، معناها يوجد خطر، لأنك إنسان تحوم حولك أخطار، فما الخطر ؟ الخطر أن تتحرّك وفق شهواتك من دون منهج الله عزّ وجل، هذه هي القصة كلها.

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ (50))

(سورة القصص)

المتقي هو الذي اتقى عقاب الله عزّ وجل:

إذا أحب الإنسانُ المرأة، والتقى معها لقاءً خارج نطاق الزوجية، فقد اعتدى على بشرٍ مخلوق، قضى وطره دون أن يربطها بعلاقة زوجية تضمن لها مصالحها ومستقبلها، إذاً هو ماذا فعل ؟

اعتدى على الآخرين بدافع من شهوته، الإنسان يحب المال، قد يأكل أموال الناس بالباطل بدافع من حب المال، فالشهوات إن لم تنضبط بمنهج الله فلا بدّ أن تؤدِّي إلى فساد وقد قال الله عزّ وجل:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ (41))

(سورة الروم)

ما هو الفساد ؟ إخراج الشيء عن خصائصه ؛ صمم الله عزّ وجل هذا الماء لا لون له ولا طعم له ولا رائحة، لو كان فيه رائحة غير مقبولة لأصبح الماء فاسداً، ولو فيه عكر شديد أصبح الماء فاسداً، لو فيه ألوان غير مقبولة أصبح ماء فاسداً ؛ إفساد الماء إخراجه عن طبيعته، هذا هو الإفساد، فلأن الله أودع في الإنسان الشهوات فإذا لم يهتد بهدي الله عزّ وجل فلا بد أن يفسد، والفساد أساسه مخلوقٌ مخير أودعت فيه الشهوات، تحرَّك وفق الشهوات من دون منهج الله عزّ وجل، لذلك ليس هناك فساد في عالم الملائكة، وليس هناك فساد في عالم الحيوان، الفساد فقط عند الإنسان الذي مُكّنَ من الشهوات ولم يهتد بمنهج الله عزّ وجل ؛ فلذلك لأني أنا إنسان يوجد حولي أخطار ؛ خطر الشهوة، خطر تَحَمُّل العقاب على عدواني على الآخرين ؛ ما الذي يجري الآن ؟ أناس يعتدي بعضهم على بعضٍ، وربنا عزّ وجل يحاسبهم حساباً دقيقاً، فأنت أمام خطر أن تغريك نفسك بأخذ ما ليس لك، فيعاقبك الله عقاباً أليماً، هذا خطر ؛ فالمتقي هو الذي اتقى عقاب الله عزّ وجل ؛ الله عزّ وجل له أسماءُ جلالٍ ؛ الله جبار، الله منتقم، الله كبير، الله قهَّار، الله مهيمن، هذه أسماء الجَلال، ورحيم، ولطيف، وحكيم هذه أسماء الجمال.

معنى كلمة (تقوى):

ما معنى اتقيت الله ؟ اتقيت أسماء جلاله بأسماء جماله، أي أنا أطلب رحمة الله بطاعته، أتقي غضبه، أتقي بطشه، أتقي انتقامه:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12))

(سورة البروج)

وهو:

(الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9))

(سورة الرعد)

قال:

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ (18))

(سورة الأنعام)

هذه أسماء الجلال أما إذا أنا أطعته:

(إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90))

(سورة هود)

وقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً (96) ﴾

(سورة مريم)

إذاً كلمة التقوى أن تتقي غضب الله، تتقي عقابه، تتقي أن تكون تحت أسماء جلاله وتتقي عقابه الأبدي وهو النار، لذلك:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ (102) ﴾

(سورة آل عمران)

أن تطيعه فلا تعصيه، وأن تذكره فلا تنساه، وأن تشكره فلا تكفره.

حينما يستقيم الإنسان على أمر الله يتقي أسماء الجلال ويطلب أسماء الجمال والإكرام:

أيها الأخوة الكرام، الهدى إنسان شعر بالخطر، بحث عن الخلاص من خلال هذا الكتاب، لذلك

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) ﴾

كلما تمعَّنت، كلما تأمَّلت في هويتك أنت إنسان فيك شهوات أرضية، وفيك مطالب علوية، فإذا غلبت عليك شهوتك فالمصيبة كبيرة جداً، حينما تحركت الشهوة عشوائياً رافقها العدوان على أعراض الناس، وعلى أموالهم، والعدوان مصيره العقاب، وأنت حينما تستقيم على أمر الله تتقي عقاب الله، حينما تستقيم على أمر الله تتقي أسماء الجلال، وتطلب أسماء الجمال والإكرام:

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) ﴾

إن لم يبحث الإنسان عن الحقيقة فهذا الكتاب لا يعنيه، فلو جلس إنسان في مكان جميل وليس عنده هدف فهو لا يسأل عن شيء، ولا يبحث عن شيء، أما إذا جاء إنسان إلى بلدة غريبة عليه، وله مبلغ ضخم ليقبضه من مؤسسة، وهو لا يعرف عنوان المؤسسة فتجده يسأل لأن هناك هدفاً، الهدف أن يأخذ هذا المبلغ من هذه المؤسسة، والمؤسسة لا يملك عنوانها، فإنه يسأل، فأخطر شيء أن تكون إنساناً بلا هدف، أنا ذهبت إلى بلاد بعيدة جداً، قيل لي: ماذا رأيتَ ؟ قلت: رأيت إنساناً بلا هدف، يأكل، ويشرب، ويستمتع:

﴿ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12) ﴾

(سورة محمد)

أخطر شيء أن تكون بلا هدف، وأعظم شيء أن يكون لك هدف عظيم، هذا الهدف يدفعك إلى مكارم الأخلاق.

لذلك أيُّها الأخوة، الشيء اللطيف أن المؤمن لا يشيخ أبداً، المؤمن شابٌ دائماً، قد يصل إلى المئة ولكنه لا يشيخ بل يبقى شاباً، شابٌ بهمته، لأن هدفه كبير، هدفه الله عزّ وجل.

حينما يكون الله هدفك فأنت في شبابٍ دائم:

النقطة الدقيقة: متى يسأم الإنسان الحياة ؟ حينما تكون أهدافه أرضية ؛ هدفه الزواج فتزوج، هدفه أن يكون معه مال فجَمَّع المال، هدفه أن يحتل مكانة رفيعة فنالها، والإنسان دائماً يكتشف تفاهة أهدافه المادية، فمستحيل أن يمدك شيئاً من الدنيا بسعادةٍ مستمرَّة، كلما بحثت عن هدفٍ مادي ووصلت إليه اكتشفت تفاهته، أما حينما يكون الله هدفك أنت في شبابٍ دائم.

ثمة فكرة ذكرتها كثيراً: إن الإنسان يبحث عن السعادة في أعماقه، وتحتاج السعادة بالمفهوم المادي إلى صحة، وإلى وقت، وإلى مال، ودائماً عنصر من هذه العناصر مفقود، ففي أول الحياة الوقت موجود والصحة موجودة ولكن لا يوجد مال، في منتصف الحياة الصحة موجودة والمال موجود ولكن لا يوجد وقت، في آخر الحياة المال موجود والوقت موجود ولكن لا توجد صحة، معنى هذا أن الإنسان طوال حياته شقي، دائماً ينقصه شيء، لكن المؤمن غير هذا، المؤمن لا ينطبق عليه هذا الحكم، لماذا ؟ لأن هدفه الله عزّ وجل ؛ هو شاب يسعد بالله، وهو متزوج يسعد بالله، وهو فقير يسعد بالله ؛ القصة كلها أن لا يكون هدفك محدوداً، إذا كان الهدف محدوداً ووصلت إليه انتهيت، تصبح الحياة مملة، تصبح الحياة مُتْعِبة، تصبح الحياة عبئاً ؛ لذلك تجد الكبراء، أصحاب الأموال، أصحاب المراتب العالية في المجتمع تجلس معهم فتتضايق، يقول لك: المال أمر تافه، لا شيء فيه، مع أن معه أموالاً طائلة، وليس عنده مشكلة.

ذكر لي أحد الأخوة مفارقة عجيبة جداً: زاره شخص، أقسم بالله أن حجمه المالي بضعة آلاف الملايين، لا بضع مئات، بل بضعة آلاف، شكا له عن حياته وعن ملله، لا يعجبه شيء، ولا يوجد شيء يرضيه، قال لي: شيء عجيب، خرجت من عنده وليس لي قوائم تحملني، فما هذا الإنسان ؟!! لا يوجد عنده مشكلة، المال كله بين يديه ؛ وتابع هذا الأخ حديثه قائلاً: طلبت أسرة فقيرة مساعدة مني، دخلت إلى بيت في إحدى قرى دمشق، فإذا هو بيت متواضع جداً تحت درج، الزوج موجود، والزوجة موجودة، والأطفال في سعادة، والدخل محدود، طلبوا أجرة البيت فقط ؛ ألف ليرة فقط، قال لي: شعرت أن في هذا البيت سعادة غامرة، مع أنه يشكو من ضيق الدخل، فالإنسان حينما يفقِد الهدف يصير إنساناً عبئاً، فالذي أقوله لكم: يجب أن تختار هدفاً يفوق كل قدراتك، هو الله عزّ وجل، كل إنسان هدفه الله فهو سعيد، في شباب دائم، ليس ثمة ملل ولا سأم، لأنه يبحث عن شيء مهما بذل من أجله فلن يحيط بالله عزّ وجل، أما الدنيا فمحدودة، وتنتهي.

ثَمَن الجنة ضبط الشهوة والشقاء أن تغلبك شهوتك :

إنسان صار معه مال، أكل جميع المأكولات ولم يبقَ عنده الرغبة الجامحة للأكل، تزوج فألِفَ هذه العلاقة، احتل مكانة رفيعة في المجتمعَ فألِفَ هذا التعظيم، وهذه المكانة، لكنه يبحث عن شيء، لذلك توجد نقطة دقيقة، ذات مرة ألقيت فيها درساً عنوانه: " ثم ماذا ؟"

جمعت المال، ثم ماذا ؟ وصلت إلى مكانةٍ عَليَّة، ثم ماذا ؟ يوجد قبر بعد الدنيا، انغمستَ في كل المتع الرخيصة، ثم ماذا ؟ السِمة التي تجمع كل المنحرفين الملل والسأم والضجر، لماذا تجد المؤمن أسعد الناس ؟ لأن هدفه كبير، فهو موعود بالجنة.

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61))

(سورة القصص)

أيها الأخوة هذه الآية الكريمة:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2))

أي إذا شعرت أن هناك خطراً، الخطر أن تغلبك شهوتك:

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آَيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا (106))

(سورة المؤمنون)

أي غلبتنا شهواتنا، الشقاء أن تغلبك شهوتك وهذا هو الامتحان الصعب، ثَمَن الجنة ضبط الشهوة:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41))

(سورة النازعات)

الفرق بين المؤمن وغير المؤمن:

أنت حينما تشعر أن هناك خطراً، الخطر أن تغلبك شهواتك على منهج ربك، أنت إذاً الآن مُتَّق، تتقي الخطر، تتقي أن تقع تحت وطأة عذاب الله، تتقي أن تكون تحت وطأة أسماء الجلال، بطش الله شديد، هناك زلازل، هناك أمراض عضالة، هناك قهر، وفقر، وانقباض، وهم، وحزن، تتقي أن تكون تحت وطأة أسماء الجلال، تتقي العقاب الأكبر وهو النار، ما دمت تتقي فأنت تبحث عن الهدى، والهدى موجود في القرآن الكريم، القرآن رسم لك الهدف ورسم لك الطريق:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14))

(سورة فاطر)

أي أنه ما من جهةٍ في الأرض مؤهلةٍ أن ترسم لك الهدف الصحيح إلا الله عزّ وجل، وما من جهةٍ في الكون مؤهلة أن ترسم لك الطريق الصحيح لهذا الهدف ؛ هدف المؤمن الجنة، هدفه أن يعرف الله، وأن يعرف منهج الله، وأن يسلك الطريق الصحيح ؛ فعنده توازن، وعنده رضىً، وعنده قناعة، لا يوجد عنده شعور بالقلق للمستقبل، لأن الخط البياني للإنسان المؤمن صاعد صعوداً مستمراً، أما حينما ينسى الله عزّ وجل يكون الصعود حاداً، والسقوط مُريعاً ؛ هذا الفرق بين المؤمن الذي يمشي على منهج الله عزّ وجل، وخطُّه البياني صاعد صعوداً مستمراً، بينما غير المؤمن يكون صعوده حاداً، وانهياره سريعاً.

بعض الأحاديث الشريفة التي تتعلّق بسورة البقرة:

أيها الأخوة إن شاء الله تعالى نُتابع هذا في الدرس القادم:

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5))

بالمناسبة اسمحوا لي أن أضع بين أيديكم بعض الأحاديث الشريفة التي تتعلّق بسورة البقرة، قد يسأل أحدكم ما هذه التفصيلات ؟ يقول عليه الصلاة والسلام:

((تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ))

[أحمد عن ابن بريدة عن أبيه]

وفي حديثٍ آخر:

((تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَآلَ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوَانِ))

[أحمد عن ابن بريدة عن أبيه]

و في حديثٍ ثالث:

((وعَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَرَأَ رَجُلٌ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، فَقَالَ: قَرَأْتَ سُورَتَيْنِ فِيهِمَا اسْمُ اللَّهِ الأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى))

[الدارمي عَنْ مَسْرُوقٍ بن عَبْدِ اللَّهِ]

((كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ في أعيننا))

[رواه أحمد في مسنده عن أنس بن مالكٍ]

جدَّ: أي عظُم في أعيننا.

((مَنْ قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ جَاءَتَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَقُولان رَبَّنَا لا سَبِيلَ عَلَيْهِ))

[الدارمي عَنْ كَعْبٍ]

((ما خيَّب الله امرأ قام في جوف الليل فافتتح سورة البقرة وآل عمران))

[الطبراني عن ابن مسعودٍ]

ربنا عزّ وجل وصف المؤمنين والمنافقين والكفار في أوائل هذه السورة :

أوائل هذه السورة مباركة جداً، لأن ربنا عزّ وجل وصف المؤمنين بخصائص كبرى والمنافقين والكفار، هؤلاء الأصناف الثلاث، فالإنسان عليه أن يحرص على أن تنطبق عليه صفات المؤمنين، طبعاً في الدرس القادم:

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ (5))

والهدى يرفعهم عند الله:

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5))

إذا فهمنا هذه الآيات فهماً دقيقاً وانطبقت علينا سَلِمْنا وسعدنا في الدنيا والآخرة، أخرج الإمام مسلم وأحمد والترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ وَإِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ لا يَدْخُلُهُ الشَّيْطَانُ))

[مسلم وأحمد والترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

((أفضل القرآن سورة البقرة وأعظم آيةٍ فيها آية الكرسيّ وإن الشيطان ليفر من بيتٍ تُقرأ فيه سورة البقرة))

[الحارث عن الحسن مرسلاً]

هناك أحاديث كثيرة عن فضل هذه السورة، أرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفّقنا إلى متابعة فهم هذه السورة والعمل بها.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (04- 95):تفسير الآيات 3-5، عالم الشهود و عالم الغيب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-07-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

عالم الشهود:

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع من سورة البقرة، ومع الآية الثالثة، إحدى أكبر صفات هؤلاء المتَّقين أنهم يؤمنون بالغيب، فما هو الغيب ؟ هناك عالَم الشهود، وهناك عالَم الغيب ؛ عالَم الشهود ما تشاهده، ما تسمع به، ما تشُمُّه، ما تُحِسُّ به، تسمعه، أو تراه، أو تشمُّه، أو تتذوَّقه، أو تحس به، المعلومات التي تأتينا عن الحواس الخمس، عالم الشهود ؛ هذا الضوء متألق، وهذه المروحة تدور، وهذا الصوت يُكَبِّر نعرفه بآذاننا.

أيها الأخوة الكرام، لذلك قالوا: " ليس مع العين أين "، ليس مع العين أين الدليل ؟ لا نحتاج مع العين إلى دليل ؛ لا يختلف البشر جميعاً على المحسوسات، لذلك العلوم المادية متَّفق عليها في كلِّ قارات الأرض ؛ علم الفيزياء، والكيمياء، والضوء، والميكانيك، والحرارة، وعلم المستحاثات.

العلوم المادية، ليس بين علماء الأرض خلافٌ حولها إطلاقاً، لأن الحس يقيني، هذا هو عالَم الشهود، الشيء الذي تدركه بسمعك، تسمع صوته، أو تراه بعينك، أو تلمسه بيدك، أو تشُمُّه بأنفك، أو تتذوَّقه بلسانك، هذا عالم الشهود.

قد تتوهم أن الحواس خمس، والحقيقة الحواس أكبر من خمس بكثير، أمامك وعاءان مغلقان، فأيهما ممتلئ وأيهما فارغ ؟ لا تعرف بأذنك، ولا بعينك، ولو وضعت يدك على الوعاء، ولا بيدك، ولا بأنفك، ولا بلسانك، تحمل أحد الوعاءين تراه خفيفاً، تحمل الثاني فتراه ثقيلاً، هذه حاسة إدراك الثقل ؛ إذا وضعت وعاء تحت الصنبور، كلّما ازداد الماء في الوعاء تشعر أن يدك تقاوم أكثر، يزداد الوزن، تشعر من خلال عضلاتك أن الوزن يزداد، هذه حاسة أيضاً ؛ تُعطى قطعتين من قماش من

مستوى واحد، بالشكل واللون، أيُّهما أرَقّ ؟ تأتي بإصبعين، تعرف من خلال الإصبعين سماكَة الشيء، هذه أيضاً حاسة ؛ تنام على السرير نوماً مديداً، تضغط العضلات مع الهيكل العظمي على العضلات التي تحت الهيكل العظمي، فهناك مراكز ضغط في العضلات تُنْبئ الدماغ أن الضغط اشتد، والأوعية ضاقت لمعتها، والتروية ضعفت، وحدث حس بتنميل وخدر، تذهب هذه المعلومة إلى الدماغ ؛ يعطي الدماغ أمراً، فيتقلّب النائم ثمانٍ وثلاثين مرة ذات اليمين وذات الشمال، فإدراك الضغطِ هذا قوةٌ إدراكية عند الإنسان ؛ إدراك الثقل قوة إدراكية، إدراك الثخانة قوة إدراكية، غير السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس ؛ نحن ألفنا أنَّ الحواس خمس، ولكن هناك قوىً إدراكية عند الإنسان كثيرة جداً.

استواء البشر و غير البشر في عالم الشهود :

كيف يشعر الإنسان أنه جائع ؟ يا ترى المؤشر صوتي ؟ لا، جائع وهو ساكت، فهل المؤشر كيماوي ؟ لا نعرف، ضوئي ؟ لا نعرف، عصبي ؟ لا نعرف، نعرف أننا جائعون، نريد أن نأكل، هذا أيضاً إدراك؛ يحس الإنسان بالعطش أحياناً ؛ فالإحساس بالجوع، والإحساس بالعطش، وتقدير سماكة الشيء، وتقدير وزن الشيء، والمُدركات الأخرى هذه كُلُّها من عالَم الشهود.

أيها الأخوة، هذه الحواس الخمس، وغير الخمس كثيرة جداً، وهذه من هداية المصلحة ؛ هدانا إلى مصالحنا، الإنسان يتوازن، راكب الدرَّاجة إذا مال درجتين يدرك فيصحّح، لولا جهاز التوازن لما استطاع أحد أن يركب دراجة، ولا أن يمشي على قدمين إطلاقاً ؛ انظر إلى المجسَّمات في محلات بيع الألبسة تحددها تستند إلى قاعدة كبيرة جداً ؛ لا يوجد ميت يقف على قدميه، من يقدر أن يوقف ميتاً ؟ إنه يقع لأن جهاز التوازن تعطل، أما الإنسان يمشي بقدمين لطيفتين، يتنقل لأنه متوازن، فالتوازن إحساس، اختل التوازن ؛ الإنسان أحياناً يأكل أكلة متفسِّخة، يتقيَّؤها رأساً، أدرك أن الطعام فاسد، حدث القيء ؛ القيء أساسه إدراك، التوازن أساسه إدراك، الجوع أساسه إدراك، العطش أساسه إدراك، معرفة وزن الشيء أساسه إدراك، معرفة ثخانته إدراك، تتم معرفة أشياء كثيرة هذه كلها عن طريق الإدراك، هذا عالَم الشهود، يستوي فيه البشر جميعاً، ويستوي فيه البشر وغير البشر.

عالم الغيب :

ما هو عالَم الغيب ؟ الغيب كل شيءٍ غاب عن حواسِّنا وعن مدركاتنا ؛ يؤمن الحيوان بحواسِّه، أما الإنسان فهو مُكَرَّم أعطاه الله قوةً إدراكية تزيد عن حواسه الخمس وعن مدركاته الحسِّية ؛ أعطاه الله عقلاً، بالعقل تؤمن بالغيب، الشيء الذي غاب عنك تدركُه بعقلك ؛ تمشي في طريق ترابي تجد أثر عجلتين، تقول: مرَّت من هنا سيارة، ولعلها صغيرة لقلة المسافة بين العجلتين، ولعلها كبيرة، ولعلها شاحنة كبيرة، أنت لم تر السيارة، ولكن رأيت آثارها، فعن طريق العقل أيقنتَ بأن هناك سيارةً مرت ؛ البعرةُ تدل على البعير، والماء يدلُّ على الغدير، أفسماء ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، ألا تَدُلاَّن على الحكيم الخبير ؟

المدركات الحسية تجعل الإنسان مع عالم الشهود وجهاً لوجه لأن أساسه الحواس الخمس:

أساس عالم الشهود الحواس الخمس وكل أدوات الإدراك الحسية ؛ من وزن، من ثخانة، إحساس بالجوع، إحساس بالعطش، إحساس بالتوازن، إحساس بفساد الطعام، إحساس بالانضغاط.

أحياناً يزداد اللعاب في فمك، وأنت نائم، وأنت غارق في النوم، وأنت ترى مناماً معيناً، تذهب إشارة من الفم إلى الدماغ، زاد اللُّعاب عن حده المعقول، يعطي الدماغ أمراً للسان المزمار، يغلق فتحة الهواء إغلاقاً محكماً، ويفتح فتحة المريء فتحاً واسعاً، فالإنسان يبتلع ريقه وهو نائم، لولاها لوجدت ريق الإنسان على الوسادة، وأنت نائم هناك عملية معقدة جداً للسان المزمار ؛ وتتم أنت نائم عمليَّات أخرى كالتقلُّب يُمْنَةً ويُسرةً ؛ فالمدركات الحسية، وأدوات الإدراك الحسية، والحواس الخمس هذه أداتُك إلى عالَم الشهود، وهذه من نعمة الله الكبرى، هذه هداية ولكنها هداية المصالح.

وأنت تعلم ما حولك عن طريق الحواس، تقول: توجد رائحة كريهة في البيت، الرائحة أحد وسائل إدراك الأشياء، تنتهي وظيفة عينك في العبث عند الجدار، بينما تمتد أذنك إلى ما بعد الجدار ؛ فتقول: هناك حركة في البيت، من دخل إلى البيت ؟ من فتح الباب ؟ وأنت جالس في غرفتك عينك لا تكشف أما الأذن فقد كشفت ؛ أما لو أن حشرةً ماتت، أو فأرةً ماتت تحت السرير، فلا تسمع صوتها، ولا ترى جُثَّتَها، ولكن تشم رائحتها بعد حين، تقول: هناك رائحة كريهة ؛ حتى الغاز الذي

نستعمله، الرائحة الكريهة في الغاز أُضيفَتْ له قصداً، الغاز ليس له رائحة، هذه الرائحة الكريهة في الغاز أضيفت له من أجل أن نشعر بالتسرب فلا يحترق البيت ؛ فهذه المدركات الحسية تجعلك مع عالم الشهود وجهاً لوجه، ولكنك مخلوقٌ مكرم زُوِّدتَ بعقلٍ يدرك ما غاب عنك.

الغيب الشهودي غيبٌ له آثار ووسيلة إدراكه العقل :

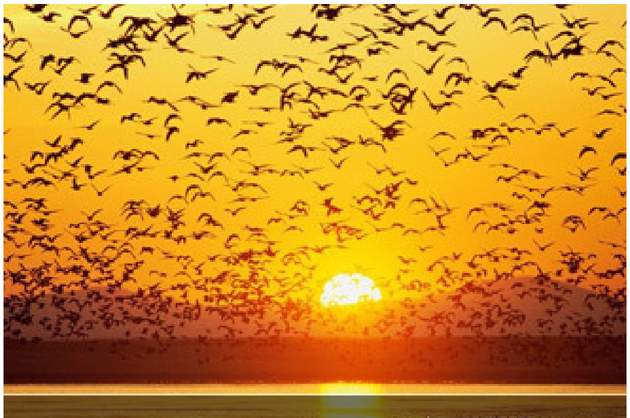

الكون كله من آثار وجود الله

الآن: الله جلَّ جلاله لا تدركه الأبصار، الله جلَّ جلاله غَيبٌ عنك، لكن الكون كله من آثاره، فعن طريق العقل إذا أعملته تتعرف على الله عزَّ وجل بهذه المخلوقات هذا عالم الغيب ؛ عالم الغيب شيءٌ غاب عنك ولكن له آثاراً، فأنت عندك حواس، وأدوات إدراك لهذه الآثار، فهذه الحواس، وأدوات الإدراك تَنقل إلى الدماغ معطيات الآثار، والدماغ يحكم على الذي غاب عنك ؛ أول خصيصة للإنسان المؤمن أنه يؤمن بالغيب، يؤمن بالله ولا يرى الله، يؤمن بعظمة الله من خلال عظمة خلقه، يؤمن بتسيير الله من التسيير الذي يراه بعينه، يؤمن بالمسيِّر من التسيير، يؤمن بالحكيم من الحكمة، يؤمن بالمنظِّم من النظام، يؤمن بالخالق من الخَلق، يؤمن بالمُبْدِع من الإبداع ؛ إن أكبر قضية في حياة المؤمن أن الله أعطاه عقلاً، والكون كلُّه أثر من آثار الله عزَّ وجل، فهذا العقل إذا وَجَّهْتَه إلى هذه الآثار دلّك على المؤثر.

القضية بسيطة جداً، أنت أمام جدار، وراء الجدار دخان، والقاعدة " لا دخان بلا نار " فإذا ذهبت إلى خلف الجدار رأيت النار بعينك، " ليس مع العين أين "، لا نريد دليلاً ؛ أما إذا ابتعدت عن الجدار ورأيت الدخان، الآن يحكم عقلك من أثر النار على وجود النار، تقول: لا دخان بلا نار، ما دام هناك دخان إذاً يوجد نار، مع أنَّك لم ترَ النار، هذا أحد أنواع الغيوب، غيبٌ له آثار، شيءٌ غاب عنك وله آثار، فوسيلة إدراكه العقل ؛ يمكن أن نسمي هذا الغيب: بالغيب الشهودي، الغيب الذي له في عالم الشهود آثار.

وفي كل شيءٌ له آية تدل على أنَّه واحدٌ

***

كل ما في الكون ينطق بوجود الله و بوحدانيته:

كل ما في الكون ينطق بوجود الله، كل ما في الكون ينطق بوحدانية الله، كل ما في الكون ينطق بكمال الله، كل ما في الكون ينطق برحمة الله، ينطق بلطف الله، ينطق بقوة الله، ينطق بعلم الله، كل ما في الكون ينطق بأسماء الله الحسنى، لذلك الطريق الواضح الصارخ القصير، أن تعرف الله من خلقه..

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران)

لا زلنا في عالم الشهود، تشعر بالحاجة إلى النوم، هذه حاسة، يقول لك: نعست لا أستطيع الاستمرار، فما الذي أشعرك أنك بحاجة إلى النوم ؟ تَعِب الجهاز العصبي، كيف ينقل لك هذا الجهاز أنه تَعِب وبحاجة إلى النوم ؟ هذا إدراك، نمت ثماني ساعات، استيقظت، ما الذي أشعرك أنك قد أخذت قسطاً من الراحة ؟ الاستيقاظ أيضاً إدراك، الأمثلة دقيقة وكثيرة جداً؛ عالم الشهود، العالم المحسوس، إنْ صوتاً، أو شكلاً، أو رائحةً، أو ذوقاً، أو ملمساً، أو ثِقَل الأشياء، وثخانة الأشياء، والإحساس بالتوازن، والإحساس بالجوع، والإحساس بالعطش، والإحساس بالحاجة إلى النوم، والإحساس بالحاجة إلى الاستيقاظ، الإحساس بأنه يجب أن نتقلب بالفراش، الإحساس بأنه لا بدَّ أن نبتلع اللُّعاب في فمنا، وما إلى ذلك من إحساسات لا يعلمها إلا الله، وهي إحساسات لا تنتهي.

أنواع الغيب:

إذا انتقلنا إلى عالَم الغيب، كل ما غاب عنك، كل ما غاب عن حواسك الخمس ومدركاتك الحسية، هذا هو عالم الغيب، أعظم غيبٍ يجب أن تؤمن به الله، غابت عنك ذاته وأمامك آثاره، والأدوات العقل، لذلك هناك معرفة عقلية ومعرفة حسية.

لكن يوجد شيء غاب عنك وليس له آثار، الملائكة غائبةٌ عنا لكن ليس لها آثار، الجن مخلوقاتٌ غابت عنا وليس لها آثار، اليوم الآخر غاب عنا وليس له آثار، هذه معرفة ثالثة.

الغيب الأول، غيبٌ له آثار أداته العقل.

الغيب الثاني غيب الأخبار غيبٌ ليس له آثار، أداته الأخبار فقط، والخبر أساسه أن يكون صادقاً، فإذا كان الخبر صادقاً هذه معرفة من نوع ثالث، إما أن ترى بعينك، وإما أن تستدل بعقلك، وإما أن تُصْغي بأذنك، فأخبرنا الله عزَّ وجل أن هناك ملائكة، هذا نوع ثالث، أخبرنا أن هناك عالماً هو

عالم الجن، أخبرنا أن هناك يوماً آخر، أخبرنا أن في هذا اليوم نار جهنم، وجنة عرضها السماوات والأرض، كل هذه الغيوب التي لا أثر لها، والتي لا يستطيع العقل أن يصل إليها أخبرنا الله عنها.

فالغيب الثالث غيب إخباري، الغيب الثاني غيب استدلالي، وهناك غيبٌ استأثر الله به لا يعلمه أحدٌ إلا الله.

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ (27))

(سورة الجن)

فإذا أخبرنا النبي عن شيءٍ في المستقبل فهو من إعلام الله له لا من علمه الذاتي.

من رحمة الله بالإنسان أنه ترك له علامات لكل شيء :

فيا أيها الأخوة..(يؤمنون بالغيب)، شيء غاب عنك، لكنك تعرف آثاره، أنت الآن أمام أداة كهربائية معطلة، يا ترى التيار الكهربائي معطل ؟ تأتي بأداة أخرى تضع شريطها في هذا المأخذ، فإذا عمل معنى ذلك أن المأخذ سليم، حصرت العطل، يا تُرى هذه المِكواة معطلة بسبب شريطها ؟ تأتي بشريط جديد تضعه تجدها تعمل، إذاً العطل من الشريط، أساساً هذا هو العمل العقلي ؛ كل الحضارة قائمة على الفكر ؛ شيء لا يراه الإنسان ولكن يرى آثاره ؛ لا يرى الطبيب الجراثيم، يقول لك المريض: عندي ارتفاع حرارة، و قيئ، و إسهال، يقول لك الطبيب: معك الجرثوم الفلاني في الأمعاء ؛ قال الله عزَّ وجل:

(وَعَلَامَاتٍ (16))

(سورة النحل)

كل الحضارة قائمة على الفكر

من رحمته بنا ترك ربنا عزَّ وجل علامات، أعطانا علامات، علامات للنباتات، علامات للأمراض، علامات للجراثيم، علامات لكل شيء..

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16))

(سورة النحل)

سمعنا في الأخبار أنه ستأتي موجة حارة بعد يومين مثلاً، هل يُعَدُّ هذا غيباً ؟ هناك ليس غيباً بل هو واقع، هو غيب عندنا، وواقع في بلاد أوروبا، والرياح لها سرعة، فنحن بعد يومين تصلنا هذه الموجة، ليس هذا غيباً بالمعنى الذي استأثر الله به، هذا غيبٌ سمح الله للإنسان أن يكشفه إما بمعرفة سرعة الرياح، أو باتصالات لاسلكية عن طريق الأقمار الصناعية تعرف ما سيكون بعد يومين، هذا ليس من علم الغيب الذي استأثر الله به، هذا من علم الغيب الذي سمح الله به.

أحياناً مسألة رياضيات، تأخذ بعض المُعطيات تصل إلى المجهول، المجهول ليس غيباً، غيبٌ سمح الله أن تعرفه عن طريق المعطيات، المسلمات ؛ أحياناً يُسرَق بيت، وهناك من يتعامل مع الجن، ويَكشف الجني لعميله الإنسي أين المسروقات مثلاً ؟ هذا غيبٌ سمح الله به.

تعرف العقل عن طريق نظام السببية والغائية وعدم التناقض إلى الله عزّ وجل:

نحن يجب أن نعرف أن هناك عالم الشهود، الواقع المحسوس المادي، و أن لعالم الشهود أدوات لمعرفته، يوجد عندنا حواس خمس، ويوجد عندنا عشرات الأدوات الإدراكية الحسية في الجسم، أما الذي غاب عنا هو من عالم الغيب، وأهم شيء في عالم الغيب الله جلَّ جلاله، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ؛ ما دام الكون أحد آثار الله عزَّ وجل، ما دام الكون تجسيداً لأسمائه الحسنى، ما دام الكون مظهراً لأسمائه الحسنى، فالكون من آثار الله عزَّ وجل، ويوجد عقل، والعقل عن طريق نظام السببية والغائية وعدم التناقض، يتعرَّف إلى الله عزَّ وجل.

لكن أن تقول: هناك جنة ونار هذه لا ترى بالاستدلال، إنَّ هناك ملائكة وجناً هذه لا تُرى بالاستدلال، إنَّ هناك صراطاً، وحوضاً، ولوحاً محفوظاً، وإن أصل البشر آدم وحوَّاء، هذا كلُّه من عالم الغيب الذي ليس له آثار فينفعنا عقلنا بها، هذا من عالم الغيب الذي ليس له آثار، أداته الوحيدة الإخبار، الإخبار لا بدَّ من أن يكون صادقاً حتى يكون صحيحاً، فإذا أخبر الله عن شيء فهو حقٌ كأنك تراه لذلك:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) ﴾

(سورة الفيل)

من منكم رأى ذلك ؟ مع أن الله يُخاطبنا، معنى هذه الآية أن الله إذا أخبرك عن شيء فينبغي أن تؤمن به كأنَّك تراه..

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ (3) ﴾

(سورة البقرة)

آمنا بالله هناك غيبٌ استأثر الله به لا يعلمه أحدٌ من خلقه.. وغيبٌ استأثر الله به، وسمح لبعض الأنبياء أن يعرفوه، فكل أحاديث آخر الزمان، ومجيء سيدنا عيسى، هذه كلها من الغيب الذي سمح الله لنبيِّه أن يَعلَمه.

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ (27) ﴾

(سورة الجن)

وأما الغيب الذي أخبرنا الله به ؛ الإيمان بالملائكة، الإيمان بالجن، الإيمان بالجنة، الإيمان بالنار، الإيمان بالصراط، الإيمان بالحوض، الإيمان باللوح المحفوظ، هذه كلُّها من الغيب الذي غاب عنا، وليس له آثار، لكن الله أخبرنا به.

على الإنسان أن يعرف هوية أية قضية تُعرض عليه :

أخواننا الكرام، الآن الشيء الدقيق جداً يجب أن تعرف هويّة أية قضيةٍ تُعرض عليك، هذه قضية حِسِّية مرجعها العلماء، يأتي شخص فيقول: أستاذ: أعمَلُ عملية ؟ أقول له: ماذا قال لك الطبيب ؟ هذه قضية علمية تحتاج إلى طبيبٍ حاذقٍ ورعٍ مسلم، إخبار الطبيب الحاذق الورع المسلم ؛ هو الحَسم، هو الفيصل؛ القضية حسية، قضية تُقاس بمقاييس، يوجد ميزان حرارة، يوجد ميزان ضغط، يوجد إيكو للقلب، يوجد مِرنان، يوجد أدوات، يوجد تحليلات، الأمور الحسيِّة لها مقاييس حسية، قال تعالى:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (7))

(سورة الأنبياء)

الأمور الغيبية إن كان لها آثار فأداتها الوحيدة العقل، و نقول عنها: غيبٌ استدلالي، أما الأمور الغيبية التي ليس لها آثار، وسمح الله أن نعرفها أداتها الأخبار، فصار عندنا يقينٌ حسي، يقينٌ عقلي، وخبر صادق عنها، وهناك غيب استأثر الله به، فأية قضيةٍ في الدين، يجب أن تعرف هويَّتها، من النوع المحسوس أم المعقول أم الإخباري.

على الإنسان أن يبتعد عن القضايا الإخبارية أثناء حواره مع الآخر:

القرآن الكريم هو أداة الإخبار

أكبر مطب يصيب بعض المسلمين في أثناء الحوار مع غير المسلمين عندما يأتون بقضية إخبارية يجعلونها عقلية، أخي أثبِتْ لي أنه يوجد جن ؟ والله لا يوجد معي دليل، أثبت لي أنه يوجد جهنم ؟ يقول له: طول بالك لا يوجد الآن معنا دليل، هذه قضية إخبارية، ليست قضية حسية ولا قضية عقلية، أنت بعد أن تؤمن بالله، وتؤمن بكلامه، وأن كلامه حق أخبرك الله أن هناك دار آخرة، وهناك نار، وهناك جنة ؛ إياك أن تخطئ، القضايا الحسية أداتها الحواس، القضايا الغيبية التي لها آثار أداتها العقل، القضايا الغيبية التي ليس لها آثار أداتها الإخبار ؛ أعلى خبر، القرآن الكريم، قال لك: بدأت البشرية بآدم وحواء، لذلك تركل بقدمك كل نظرية علمية أساسها أن الإنسان أصلُه قرد، اركلها بقدمك، لأن أعلى خبر

عندنا كلام الله، قضية بدء الخليقة هذه غيب ليس له آثار، طريقه الوحيد الإخبار، أخبرنا أصدق القائلين أنَّ البشر بدؤوا بآدم وحواء، انتهى الأمر.

منهج البحث في الإسلام دقة الحواس صحة الاستدلال وصدق الخبر :

إذاً أنا عند وجود قضايا إخبارية أعتني بصحة الخبر فقط، وعند القضايا العقلية أعتني بصحة الاستدلال، وعند القضايا الحسية أعتني بدقة الحواس ؛ دقة الحواس، وصحة الاستدلال، وصدق الخبر؛ هذا منهج البحث في الإسلام، أداة المعرفة الحسية: دقة الحواس، فلان يوجد عنده عمى ألوان، هذا أداته فيها خلل، فلان عنده ضعف في الشم لا يستطعم مثلاً، فلان عنده ضعف في خلايا الذوق، فالمعرفة الحسية أداتها دقة الحواس، والمعرفة العقلية أساسها صحة الاستدلال، كل إنسان فان، علمونا إياه في الثانوي، سقراط إنسان سقراط فان، فهذا استدلال عقلي، القضايا الغيبية التي ليس لها آثار أداتها الوحيدة صحة الأخبار، أعلى خبر كلام الله، بعده الحديث المتواتر، بعده الحديث الصحيح ، بعده الحسن.. إلى حد هنا يكفي.. الضعيف له إشكال.

قيمة الإيمان بالغيب:

الآن:

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ (3))

جيِّد، ما قيمة الإيمان بالغيب ؟ آمنت أن لهذا الكون خالقاً، آمنت أن لهذا الكون مسيَّراً، آمنت أن لهذا الكون مربيَّاً، آمنت أن هذا الخالق عظيم، ما قيمة هذا الإيمان إن لم تتصل به ؟ أنا أكاد أموت عطشاً، وعلمت أن هناك ماءً عذباً بارداً سائغاً، ما قيمة هذا الإيمان إن لم أتحرك إليّه ؟ الإيمان النظري لا قيمة له إطلاقاً، **" العلم ما عُمل به فإن لم يُعمل به كان الجهل أولى ".**

إقامة الصلاة بعد الإيمان بالغيب:

لذلك بعد الإيمان بالغيب:

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ (3))

((لا خَيْرَ فِي دِينٍ لا رُكُوعَ فيه))

[مسند أحمد عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ]

((الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عمر]

الصلاة غُرَّة الطاعات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات، الصلاة هي الفرض الذي لا

يسقط بحال، الشهادة تؤدَّى مرة واحدة، والحج يسقط عن الفقير والمريض، والصيام يسقط عن المسافر وعن المريض، والزكاة تسقط عن الفقير، الفرض الوحيد المتكرر الذي لا يسْقط بحال، يؤدى قائماً، أو قاعداً، أو مضطجعاً، أو بالإيماء، تؤدى الصلاة برموش العين، الفرض الذي لا يسقط بحال.. لأنك إذا ألغيت الصلاة ألغيت الدين: بين المرء والكفر ترك الصلاة فمن تركها فقد كفر..

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ (3))

أنت بأمسِّ الحاجة للمال، وعلمت أن هناك إنساناً عظيماً، وهو يحب أن يعطيك، ما الذي يمنعك من أن تصل إليه ؟ ما الذي يحجزك عنه ؟ إن أيقنت أنه يعطيك ويحب أن يعطيك، وأنت في أمسِّ الحاجة إليه، فلا بدّ بعد أن عرفته أن تذهب إليه.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (110))

(سورة الكهف)

ثمن هذه الصلاة:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

هذا الدين كله.

الدين كلّه يقوم على الإيمان بالله و إقامة الصلاة و الإنفاق :

الدين كله في هذه الكلمات الثلاث:

(يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

أوسع آية بالإنفاق، أعطاك الله جاهاً أنفق هذا الجاه وانصر الضعيف، أعطاك الله علماً أنفق هذا العلم وعلّم الجاهل، أعطاك مالاً أنفق هذا المال وارحم الفقير، أعطاك حكمة أصلح بين شخصين، أعطاك عضلاتٍ قوية شُدَّها في معاونة الضعيف..

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

يقول لك أخ: أنا أُتقِن التبليط، فأنا جاهز لأي خدمة للمسجد، هذا أدَّى الذي عليه، " إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم "، أنا طبيب، ويمكن أن أعالج الفقراء، بارك الله بك، أنا محلل، ويمكن أن أجري تحاليل للفقراء.

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

أنا محامي، إذا كان هناك أخ ضعيف فقير له قضية شائكة فأنا أدافع عنه من دون مقابل، يبذل المحامي اختصاصه، والطبيب يبذل اختصاصه، والمهندس يبذل اختصاصه، والبائع يبذل اختصاصه، والغني يبذل اختصاصه، والعالم يبذل اختصاصه.

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

الضعيف، خبير بالتدفئة مثلاً، التدفئة بدون صوت تحت الأرض، المسجد بحاجة لتدفئة هادئة أنفق هذا العلم، باب الإنفاق مفتوحٌ على مصراعيه..

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

العمل الصالح وسيلة الإنسان للاتصال بالله عز وجل:

اخواننا الكرام، هذه آية مذهلة، آمنت بالغيب، لأنك آمنت بالغيب فلابدّ أن تتصل بالله عزّ وجل، والوسيلة هي العمل الصالح، الآية دقيقة..

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (110))

(سورة الكهف)

هذا الدين، الدين بسيط جداً، ولكننا عقّدناه، نحن جعلنا الدين عُقَداً، وعقبات ؛ آمن بالله من خلال خلقه، في رأسك عقل، وثمة كون معجز، إذا أعملت العقل قليلاً عرفت أن لهذا الكون خالقاً.

من لوازم الإيمان بالله وكتبه و رسله أن نؤمن أن رسالات الله عزّ وجل غير منقطعة:

إخواننا الكرام، الآن هناك إنجازات علمية مذهلة، ما يحدث في أي مكان في العالم يراه كلُّ الناس في القارات الخمس، نقل الصورة عن طريق الأقمار الصناعية هل هو شيء سهل ؟ والملوّنة والآن ذات الأبعاد الثلاثة ؛ نقل الرسالة بجهاز، بمجرد أن تضع الرسالة في هذا الجهاز يظهر في أقصى بلاد الدنيا.. بالفاكس.. هل هذا قليل ؟ هذا الهاتف الخلوي قليل ؟ الإنترنت قليل ؟ لو أعمَل الإنسان

عقله في الكون بجهد واحد من المليار مما أُنجز من هذه المنجزات لعرف الله ؛ آمنتَ بالغيب، أقمت الصلاة، ثمن هذه الصلاة الإنفاق ؛ أنفقْ أُنْفِق عليك؛ من هم المتقون ؟ الذين اتقوا الخطر..

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

الله عزّ وجل خالق الكون، والخلق كلُّهم عياله منذ أن خلّقهم، وحتى قيَّام الساعة، فلا معنى أن تؤمن أن الله أرسل نبيًّاً لنا وحدنا.. قال لا:

(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4))

نؤمن بالأنبياء جميعاً، نؤمن بالكُتب السماوية كلّها، نؤمن أن الله لا يدع عباده من دون رسل وأنبيَّاء..

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7))

(سورة الرعد)

(مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (78))

(سورة غافر)

فمن لوازم الإيمان بالله، والإيمان بالكتاب، والإيمان بالنبيَّ أن تؤمن أن رسالات الله عزّ وجل غير منقطعة، على مدار الزمان هناك رسالات، وهناك أنبيَّاء، وهناك هداية، لأن الله عزّ وجل قال:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12))

(سورة الليل)

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ :

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (19))

(سورة آل عمران)

لو تتبَّعت في آيات القرآن نبيَّاً نبيًّاً لوجدت أن الله وصف كل نبي بأنه مسلم، فالإسلام بالمعنى الواسع: الخضوع لله، وبالمعنى الضيِّق: آخر رسالة نزلت على رسول الله، فالمعنى الواسع للإسلام إذاً هو الانصياع لله، حتى فرعون حينما أدركه الغرق قال:

(وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90))

(سورة يونس)

أي أنا خضعت لهذا الوحي الذي جاء به موسى، ولكن بعد فوات الأوان، قال:

(آَلْآَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91))

(سورة يونس)

المشكلات التي يعانيها المسلمون اليوم نتيجة ضعف إيمانهم باليوم الآخر :

(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4))

(سورة البقرة)

والله أيها الأخوة الكرام، في نفسي عن هذه الكلمة معانٍ كثيرة جداً، كل مشكلاتنا التي نعانيها لضعف إيماننا باليوم الآخر، لو أنَّك آمنت أنك سوف تُحَاسب حساباً دقيقاً:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

المعاصي نتيجة ضعف الايمان بالآخرة

لا يمكن أن تأخذ ما ليس لك، ولا يمكن أن تعتدي على حق أحد، ولا يمكن لك أن تستطيل على إنسان، ولا أن تَبْتَزَّ مال إنسان، ولا أن تحتال على إنسان ؛ كل ما ترى عينك من معاصٍ يفعلها الناس فهذا لضعف إيمانهم باليوم الآخر ؛ وأحد ثاني أكبر ركن في الدين هو: اليوم الآخر.

الإيمان بالله و اليوم الآخر يبعدان الإنسان عن معصية الله تعالى:

الآن تنتهك مجتمعات قوية، تنتهك حُرمات الشعوب، تستغل خيراتها، تعتدي على حُريَّاتها، ماذا يتوهم هؤلاء الأقوياء ؟ أنهم أذكياء، وأن عندهم العلم، والسلاح الفَتَّاك، والإعلام والمصارف، هم بمقياس اليوم الآخر أغبياء، وسوف يحاسبون حساباً عسيراً..

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

لمجرد أن تؤمن باليوم الآخر، وفي هذا اليوم لن تُغَادَرُ صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها الله عزَّ وجل..

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49))

(سورة الكهف)

لمجرد أن تؤمن باليوم الآخر، وأن الله سيَسْأل كل الخلق عن الكلمة، وعن النظرة، من سابع المستحيلات أن تعصي الله.

العاقل و المتفوق من آمن بالله وعمل لليوم الآخر:

(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ (5))

هذا الهدى رَفَعَهم،

(على)

تفيد الاستعلاء، رفعهم إلى أعلى عليِّين، رفع قدرهم، ورفع مكانتهم، ورفع اسمهم..

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4))

(سورة الشرح)

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5))

هم الأذكياء، هم المتفوِّقون، هم العقلاء، هم الناجحون، هم الفائزون.

اتباع منهج الله عز وجل أساس الوقاية من أخطار الدنيا والآخرة :

إخواننا الكرام، هذا المقطع من سورة البقرة يُمَثِّل المؤمنين، لأنك كائن أودعت فيك الشهوات سبب حركتك، والشهوات تحتاج إلى منهج، إلى هدى من الله، فهناك خطر كبير أن تندفع بدافع من شهواتك من دون منهج، هذا الخطر كيف يُتَّقى ؟

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2))

من أراد الوقاية من أخطار الدنيا والآخرة، من أراد الوقاية من مصائب الدنيا، ومن نار جهنم، فعليه باتباع هذا المنهج..

(ذَلِكَ الْكِتَابُ (2))

من عند الله..

(لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2))

خصائص المتقين :

هؤلاء المتَّقون أولى خصائصهم: يؤمنون بالغيب الذي له آثار عن طريق العقول، وبالغيب الذي ليس له آثار إلاّ عن طريق الإخبار، وبغيبٍ استأثر الله به لا يعلمه أحدٌ إلا هو؛ الإيمان بالغيب.. وأعظم شيءٍ في هذا الغيب الله جلَّ جلاله ؛ بعد أن آمنت به لا بدَّ من أن تتصل به.. وإلا ليس للإيمان معنى، لو فرضنا أنَّ شخصاً مصاباً بمرض جلدي، وعلاجه الوحيد هو التعرض لأشعة الشمس، بقي جالساً في غرفة مظلمة قميئة، وفيها رطوبة عالية، وفيها عفونة، قال: أنا مؤمن بالشمس، الشمس ساطعةٌ، الشمس مضيئةٌ، الشمس شافيةٌ.. فما معنى هذا الكلام ؟ اخرج من هنا، ما دام لا يوجد حركة فإن هذا الكلام كله (خزعبلات)، ما لم تخرج إلى أشعة الشمس ليشفى هذا المرض فهذا كلام (فارغ).

(يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ (3))

التقيت مرة في سهرة مع شخص يحمل دكتوراه في العلوم، ودكتوراه في الآداب، وله مؤلّفات، ذكي وطليق اللسان، ومتحدث لبق، والله أنا أعجبت به، قال لي في آخر السهرة: لكن أنا لا أصلي، سبحان الله سقط من عيني، كل هذا العلم، وكل هذا الفهم، ولا تُصلي ؟!

كيف ؟ الثمن ؟ الطريق ؟ السبب ؟..

(وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (78))

(سورة غافر)

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3))

تؤمن، فتنفق، فتصلي، هذا هو الدين كله.

الإيمان بالله يرفع الإنسان و يعلي شأنه و يحفظه :

الدين الذي أنت مؤمنٌ به ليس حلقةً في فراغ بل حلقة في سلسلة، أرسل الله عزّ وجل سيدنا عيسى، وسيدنا موسى، وسيدنا إبراهيم، وسيدنا نوح.

(مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (78))

(سورة غافر)

(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ (4))

كل الخلق عباده..

البداية:

(يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ (3))

والنهاية:

(وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى (5))

إيمانك يرفعك، يُعلي قدرك، يرفع شأنك، يعزُّك، يحفظك..

(أولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ (5))

دقق.. الهدى قيود.

التقيد بالقيم الدينية يجعلك حراً و التفلّت منها يجعلك مقيداً محروماً :

يوجد عندك منظومة قيم ؛ هذه حرام، هذه لا تجوز، هذه معاونة على المنكر، المنهج مئة ألف بند، وفي كل بند أمر ونهي، ومباح ومندوب، وسنة مؤكدة، وغير مؤكدة، ومستحب، الهُدى كله قيود لكنه يجعلك حراً.. دقق.. مُواطنٌ ينضبط بكل الأنظمة فهو حُر، جالس في بيته مرتاح، يرغب أن يسافر، أو أن يقيم، أو أن يأخذ تأشيرة خروج، فهو يذهب أينما شاء، لأنه قيد نفسه بالقوانين فصار حراً ؛ أما لو ارتكب أحدهم مخالفة كبيرة لَفَقَدَ حُريَّته، هناك أشياء فيها علاقة عكسية، التقيد بالقيم الدينية يجعلك حراً، والتفلُّت منها يجعلك مقيداً محروماً.

(أولِيَاءُ أولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (32))

(سورة الأحقاف)

أي أن آخرته إما كآبة، ومرض نفسي، أو في السجن.

(أولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ (5))

الهدى يرفعك، التفلت يسقطك ويضلك.

الإيمان بالله والاتصال به أساس الوقاية من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة :

أولئك الذين أرادوا الوقاية من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة بحثوا عن المنهج فوجدوه في كتاب الله، فآمنوا بالله غيباً، واتصلوا به عن طريق الإنفاق مما رزقهم، وآمنوا بسلسلة الرسالات، وآمنوا بالآخرة هذا اليوم الفصل، قال تعالى :

(أولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5))

فما قولكم إذا كنا ممن تنطبق علينا هذه الآيات ؟ والله هذا هو الفوز العظيم، هذا هو العقل، هذا هو التفوق، أن تكون من الصفوة المختارة ممن رضي الله عنهم، ممن ألقى في قلوبهم الهدى، ممن دلَّهم عليه، هذا هو الفوز، هذا هو النجاح، هذا هو التفوق، هذا هو الفَلاح.

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5))

لماذا قلت لكم في الدرس الماضي: إن هذه السورة مباركة، وكان يقول بعض الصحابة: **" كان أحدنا إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ في أعيُننا ".**

الآيات المكية آيات كونية، لها شرح هادئ، قضايا دقيقة جداً مفصَّلة، أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بهذا الدرس، وأن ينقلب إلى واقع وإلى سلوك، إيمان بالغيب، إنفاق، اتصال بالله، هذا هو الفلاح، وهذا هو النجاح.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (05- 95):تفسير الآيتان 6-7، وصف المؤمنين والكافرين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-07-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

حديث الله تعالى عن الكفار والمؤمنين في الآيات التالية:

مع قوله تعالى في الآية السادسة:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7))

تكلَّم الله عن المؤمنين في الآيات السابقة عندما قال:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5))

هؤلاء الصِنْفُ الأول.

الإيمان والكفر نموذجان متقابلان، متعاكسان، متناقضان:

الصِنف الثاني:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6))

يمكن أن يُقسَّم البشر على اختلاف أجناسهم، وأعراقهم، وألوانهم، وانتماءاتهم، وأقاليمهم، وأمْصارهم، وقبائلهم، وطوائفهم، ومِلَلِهم، ونِحَلِهِم إلى قسمين: مؤمنٍ وكافرٍ؛ مؤمنٍ عرف الله، واستقام على أمره، وأقبل عليه، وانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه، فسعد في الدنيا والآخرة، وحقق الغاية من خلقه، وحقق الحكمة من

وجوده؛ وكافرٍ غَفَل عن الله، وتَفَلّت من منهجه الله، وأساء إلى خلقه، فشقي في الدنيا والآخرة، ولن تجد صنفاً ثالثاً، الثالث منافق، وهو في الأصل كافر، لكن مصالحه تقتضي أن يظهر ما لا يبطن، إن المنافقين هم الكافرون، فالتقسيم الحقيقي: مؤمن وكافر.

الإيمان تصديق، الكُفر تكذيب، الإيمان كشف، الكفر غطاء، الإيمان إقبال، الكفر إعراض، الإيمان شُكر، الكفر جحود؛ نموذجان متقابلان، متعاكسان، متناقضان؛ الإيمان تصديق، الكفر تكذيب، الإيمان إشهار وكشف، الكفر غِطاء، الإيمان إقبال، الكفر إعراض، الإيمان شكر، الكفر جحود.

المنتفع لا يُناقش لأنه يدافع عن منافِعِهِ لا عن أفكاره:

يُستثنى صنفٌ من الكفار، صنف كفر لنقص المعلومات فلما توافرت له آمن، كَفرَ لأن المعلومات وصلت إليه مشوَّهة فلما صححت له آمن، أما هذا الذي تخبر عنه الآية :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6))

المقصود هو الكافر المنتَفِعُ بكفره، الذي يعبد شهوته، ومن لوازم عبادة شهوته أن يكفر بالله، فكفره مَصْلَحِيّ، كفره متعلقٌ باختياره، كفره متعلقٌ بمصالحه، كفره متعلقٌ بشهواته، كفره متعلقٌ بمكانته، كفره متعلقٌ بمكاسبه؛ هو الكافر الذي اتخذ الكفر وسيلةً إلى مكاسبه. دققوا، الإنسان قد تغيب عنه الحقائق فإذا تجلّت له آمن، هذا الإنسان ليس معنياً بهذه الآية، الإنسان أحياناً قد تأتيه الحقائق عن الدين مشوَّهة فإذا صححت له هذه الحقائق آمن، هذا الإنسان ليس معنياً بهذه الآية، الإنسان أحياناً قد يغفل فإذا ما صحا آمن، هؤلاء ليسوا معنيين بهذه الآية، أما الذي اتخذ الكفر وسيلة للدنيا، الذي انتفع بكفره، الذي هيَّأ له كفره مكانة عالية، أو مكسباً كبيراً، أو مالاً وفيراً، أو منصباً رفيعاً، أو مكانة مرموقة، هذا الإنسان سواءٌ عليه أأنذرته أم لم تنذره لا يؤمن، لأنه لا يبحث عن الحقيقة، ولا يرجوها، ولا يتمنّاها، ولا تعنيه إطلاقاً.

ذكرت مرةً مثلاً وسأعيده، لأنه مناسبٌ لهذا المعنى، مثل افتراضي؛ إنسان فقير جداً يعمل عَتَّالاً على دابة، فلما ماتت هذه الدابة فَقَدَ دخله كلياً؛ دفنها، وأقام عليها بناءً وقبةً خضراء، وأعطاها اسماً من اختراعه، وزعم أن هناك ولياً مدفوناً في هذا المكان، وجاءه الناس زُرافاتٍ ووحدانا يتبركون بهذا الولي، ويعطونه العطايا الكثيرة، فهذا الإنسان انتفع بهذه الكذبة، وهذا الدجل انتفاعاً لم يكن يخطر له على بال؛ هل في الأرض قوةٌ يمكن أن تُقنعه أن المدفون هنا دابة ؟ لا، قناعته أشد من قناعة الذي يناقشه، لكنه ليس من صالحه إطلاقاً أن يعترف أن المدفون في هذا المكان دابة، هو يقاتل من أجل دَجَلِه، يقاتل من أجل فكرته، يقاتل من أجل كذبه، يقاتل من أجل الخُرافة التي نشرها بين الناس، هو يدافع عن مصلحته، يدافع عن دخلِه، يدافع عن مكانته، يدافع عن مكاسبه، فهذا الذي اتَّخذ الكفر وسيلة للدنيا، هذا الذي هيَّأ له كفره مكانة عالية، ودخلاً كبيراً، وهيمنة على الناس عظيمة، هذا سواءٌ عليه أأنذرته أم لم تنذره لا يؤمن؛ هو بعيدٌ جداً عن موضوع الفكر وعن

موضوع العقيدة، وعن موضوع المبادئ وعن موضوع الأهداف، أنت في واد وهو في واد؛ المنتفع لا يُناقش لأنه يدافع عن منافِعِهِ لا عن أفكاره. ليس الذين كفروا هم الذين شوِّهَت لهم المعلومات فكفروا فلما صُحِحَت آمنوا، لا ليسوا هؤلاء، وليسوا هم الذين غابت عنهم الحقائق فلما حصَّلوها آمنوا، ليسوا هؤلاء، إن الذين كفروا هم الذين انتفعوا بكفرهم، والذين وصلوا إلى الدنيا بكفرهم، والذين أطاعهم الناس لكفرهم.

المؤمن إنسان مبادئ وقيم بينما الكافر إنسان مصالح وشهوات :

أيها الأخوة حدثنا ربنا عزَّ وجل عن اليهود كيف أنهم يعرفون النبي، أية معرفةٍ بديهية؛ وأية معرفةٍ يقينية، أية معرفةٍ سهلة، أية معرفةٍ قصيرة من أن تعرف ابنك، فإذا نظر أحدهم إلى ابنه هل يقول له: ما اسمك يا بني ؟ مستحيل، من أنت ؟ ترتيبك الثاني أم الثالث ؟ مستحيل، قال ربنا عزَّ وجل:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ (146))

(سورة البقرة)

لماذا كفروا ؟ كفروا حسداً، هناك مصالح، لذلك كأن الله عزَّ وجل ينصحنا أن لا نناقش المنتفع بكفره، لا تحاوِرَه:

(سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6))

حاور من لم ينتفع بكفره ففيه خير، معلوماته قليلة، معلوماته مشوَّهة، لو وصل إلى الحقيقة لآمن بها، هذا يأخذ الله بيده إلى الإيمان، أما الذين عناهم الله بهذه الآية فهم المنتفعون بكفرهم، المؤمن إنسان مبدأ، الكافر إنسان مصلحة، المؤمن إنسان قِيَم، الكافر إنسان شهوات، المؤمن يسعى للآخرة، الكافر يسعى للدنيا، مبادئ المؤمن فوق كل مصالحه، مصالح الكافر فوق كل مبادئه.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا (6))

من معاني الكفر كما قلت قبل قليل الجُحود، يقول الله سبحانه وتعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً (147))

(سورة النساء)

من لوازم الإيمان الشكر ومن لوازم الكفر الجحود :

أي أن من لوازم الإيمان الشكر ومن لوازم الكفر الجحود، فالمؤمن يشكر والكافر يجحد، لذلك قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح:

((رأَيْتُ النَّارَ فلَمْ أرَ كَالْيَوْمِ مَنْظراً قطُّ ورَأيْتُ أكْثرَ أهْلِهَا النِّسَاءَ قالُوا: لِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قالَ: بِكُفْرِهِنَّ. قِيلَ: يَكْفُرْنَ باللَّهِ ؟ قالَ: يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ (العشير هو الزوج) ويَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأتْ مِنْكَ شَيْئاً قالَتْ: مَا رَأيْتُ مِنْكَ خَيْراً قطُّ))

[البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه]

هذا لا ينطبق طبعاً على النساء المؤمنات الصالحات الصادقات، اللواتي يعرفن حق الزوج، واللواتي يَرْعَين الزوج، واللواتي يربين الأولاد.

(عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً (5))

(سورة التحريم)

جنس النساء قبل أن يعرفن الله يَكْفُرْن العشير **" مَا رَأيْتُ مِنْكَ خَيْراً قطُّ "**، قال لها: ولا يوم الطين، فسكتت، هذه قصة طويلة عن أحد ملوك الأندلس، واسمه ابن عبَّاد، أحب جارية وتزوَّجها، وجعلها السيدة الأولى، اشتهت حياة الفقر مرةً وحَنَّت إليها، فطلبت أن تدوس في الطين، فعجن لها الكافورَ والمسك بماء الورد، وقال: هذا هو الطين؛ فلما خسر المُلك، وأخذه منه ابن تاشفين، وأودعه السجن، افتقر، فكانت زوجته تسيء معاملته وتقول له: ما رأيت منك خيراً قط؛ فقال لها مرةً: ولا يوم الطين ؟ فسكتت.

كلمة كفر تعني أن هناك إيماناً بالفطرة وهناك جحود باللسان :

الكفر هو الجحود، والكفر هو التكذيب، والكفر هو الإعراض، والكفر هو الغِطاء، دقق الآن؛ قال بعض الشعراء في الجاهلية: **" في ليلةٍ كفر النجومَ غمامُها."**

النجوم: مفعول به مُقَدَّم، غمامُها: أي سحابها، وهي فاعل مؤخَّر؛ أي غَطَّت السحب النجوم؛ فالكفر هو الغطاء والستر؛ الآن منطقياً يظهر معنى جديد، معنى الذي كفر أنه يؤمن بالله بفطرته لكنه غَطَّى هذه الحقيقة، الشيء الموجود يَسْبق الغطاء، ماذا أنت تغطي ؟ كلمة كفر تعني الغطاء والستر، الستر والغطاء مصدر، فلا بدَّ من شيءٍ تَسْتُره، لا بدَّ من شيءٍ تُغَطّيه؛ كلمة الكفر تعني تغطية الإيمان، أنت مؤمن لكنَّك تُغَطّي إيمانك، مؤمن ولكن تَسْتُر إيمانك، مؤمنٌ بفطرتك ولكن مصلحتك تقتضي أن تغطّي هذه الحقيقة، أن تُعَمّيها على الناس، لذلك يوم القيامة:

(قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23))

(سورة الأنعام)

فقال الله عزَّ وجل:

﴿ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ (24) ﴾

(سورة الأنعام)

المعنى دقيق جداً الكفر هو السَتْر والغطاء في أصل اللُّغة، وهذا القرآن بلسانٍ عربي مبين، فالإنسان حينما يكفر يُغَطِّي حقيقةً آمن بها بفطرته، والإنسان حينما يكفر يستر حقيقةً تُدرَك بالبديهة، والشيء المُغَطَّى يسبق الغطاء، والشيء المستور يسبق السِتر، فكلمة كفر تعني أن هناك إيماناً بالفطرة، وهناك جحود باللسان:

﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ (24) ﴾

(سورة الأنعام)

الكفار المنتفعون بكفرهم أنت في واد وهم في واد:

أيها الأخوة، هؤلاء الكفار المنتفعون بكفرهم:

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) ﴾

أي أنت في واد، وهم في واد .

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

ولو ناراً نفخت فيها أضاءت ولكنَّك تنفخ في رماد

***

نعوذ بالله من الكفر، الناس رجلان مؤمنٌ وكافر، مؤمنٌ يعرف الله وكافرٌ كَذَّبَ بالحق لما جاءه، مؤمن مقبل وكافر معرض، مؤمن شاكر وكافر جاحد، مؤمن يرى ويشهد وكافر أعمى:

﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (72) ﴾

(سورة الإسراء)

وقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) ﴾

الله تعالى قدّم السمع على البصر:

كأن الله جلَّ جلاله ينصحنا أن هذا الذي اتخذ الكفر مغنماً، واتخذ الكفر سبيلاً للدنيا أنّ وَقْتُكَ أثمن من أن تُضَيِّعَه معه، ابحث عن إنسانٍ آخر يبحث عن الحقيقة؛ يؤكّد هذا المعنى قوله تعالى:

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9))

(سورة الأعلى)

لماذا لا يؤمنون ؟ هنا المشكلة:

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ (7))

الإنسان له عين وله سمع، قُدِّمَ السمع مبدئياً على البصر:

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ (7))

قال العلماء: " العين لا ترى إلا أمامها، ولا ترى بعد الحواجز، ولا ترى إلا بواسطة، فزاوية الرؤية نحو الأمام، فإذا كان هناك جدار منع الرؤية، ولا بدَّ من نورٍ يتوسَّط بين العين وبين المرئي، ولكن الأذن تتصل بالجهات الست، الأمام، والخلف، واليمين، واليسار، وفوق، وتحت، بالجهات الست، والأذن لا تحتاج إلى وسيط، وإن كان الهواء هو الوسيط فلولا الهواء ما انتقلت الأمواج الصوتية، ولكننا يمكن أن نغفل الوسيط لكونه دائماً وثابتاً.

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ (7))

هذه الغشاوة حُبُّ الدنيا، الشهوات، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((حُبُّك الشيء يُعمي ويُصِم))

[أحمد وأبو داود عن أبي الدرداء]

الشهوة غشاوة على الأذن وغشاوة على العين:

لما أحب الشهوة وآثرها على كل شيء، وعبدها من دون الله، وجعلها نهاية آماله، ومحطَّ رحاله كانت هذه الشهوة غشاءً على عينيه، وغشاءً على أذنيه، فهو لا يرى الآيات، ولا يستمع إلى الحق؛ والإنسان إما أن يرى الآيات الدَّالة على عظمة الله، وإما أن يُصغي لكلمة الحق تلقى في أذنه، فالشهوة غشاوة على الأذن، وغشاوة على العين؛ الفكر أو ما يدعى مجازاً العقل الذي في الرأس، هناك عقل في القلب، وعقل في الرأس:

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا (179))

(سورة الأعراف)

إن أردنا أن نسمي ما في الرأس فكراً، الفكر جهاز استدلال، جهاز استنباط، جهاز محاكمة، جهاز اتخاذ قرار، جهاز معرفة، أداة إدراكيَّة منافذها السمع والبصر، فإذا فُتح البصر، وفُتِحَ السمع، جاءت المعلومات إلى الدماغ، والدماغ درسها وحللها، وحاكم جُزْئيَّاتها واتخذ قراراً، وكلما تعمَّق

هذا القرار في الذهن انتقل إلى القلب ليستقر فيه، فالقلب قلبُ النفس، فيه تستقر الحقائق، حينما يضع الإنسان غشاوةً على عينه وهي الشهوة، وحينما يضع غشاوةً على أذنه وهي الشهوة، حيث السمع والبصر هما مَنْفَذا الحقائق:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10))

(سورة الملك)

فالإنسان بهذا الحال لن يسمع.

منفذا القلب هما السمع والبصر:

الآن ادعُ إنساناً متفلّتاً همُّه النساء، همه المال، همُّه الشهوات، همه أن ينغمس في شهوات الدنيا، ادعه إلى درس علم يستحيل أن يستجيب لك، ما لي ولهذا الدرس ماذا أفعل به ؟ كلام فارغ، كلام أعرفه، أنا لا أحبُّ أن أُضَيِّع وقتي، هو في واد وأنت في واد، فالإنسان إذا أحب الشهوات أحب الدنيا، أحب المال، أحب النساء، أحب الانغماس في المُتَع الرخيصة، هذه الشهوة غشاءٌ على عينه وغشاءٌ على سمعه، بقي الفكر بلا معلومات، لم يسمح الإنسان لعينه أن ترى الآيات فيستنبط منها الحقائق، ولم يسمح لأذنه أن تصغي إلى الحق فيعرف الحقيقة، وضع على أذنه غشاوة وعلى عينه غشاوة، فالفكر تعطل، والفكر هو المورِّد للقلب، تعطَّل القلب قال علماء التفسير: هذا خَتْمٌ حكمي؛ أي إذا أغلقنا الأبواب الخارجية للمسجد إغلاقاً محكماً، فهذه الأبواب الداخلية مغلقة حكماً، حتى لو أنها مفتوحة لن يصل إليها إنسان ما دام البابان الخارجيان مُغْلقين، فالأبواب الداخلية مغلقةٌ حُكماً.

الكافر يغلق المنافذ الى قلبه بسعيه وراء شهواته

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ (7))

منفذَا القلب السمع والبصر، وعلى السمع غشاوة، وعلى البصر غشاوة .

(وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ (7))

والغشاوة هي حبُّ الدنيا.

وصف الله عزَّ وجل قلب الكافر بصفاتٍ كثيرة:

أيها الأخوة الكرام، وصف الله عزَّ وجل قلب الكافر بصفاتٍ كثيرة، وصفه بالخَتْم.

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ (7) ﴾

والطبع، والضيق، والمرض، والرَيْن، والموت، والقساوة، والانصراف، والحَمِيَّةِ، والإنكار، هذه عشرة أوصاف لقلب الكافر، والحقيقة يقول سيدنا عمر: **" تعاهد قلبك ".**

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) ﴾

(سورة الشعراء)

رأس مالِكَ الأوَّل في الآخرة قلبك السليم، هذا القلب الذي استقرت فيه الحقائق، هذا القلب الذي امتلأ شكراً لله، هذا القلب الذي امتلأ حباً لله، وهذا القلب الذي امتلأ تعظيماً لله.

((يا رب أيّ عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، قال: يا رب إنك تعلم أنني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: ذكرهم بآلائي، ونعمائي، وبلائي))

[من الدر المنثور عن ابن عباس]

الآلاء للتعظيم، النَعْماء للحب، البلاء للخوف؛ معنى ذلك أن القلب السليم فيه تعظيمٌ لله، وحبٌ له، وخوفٌ منه، البلاء يُورثُ الخوف، والآلاء تورث التعظيم، والنعم تورث الحب؛ فالقلب السليم فيه خوف، وفيه حب، وفيه تعظيم، أما قلب الكافر فيه الختم، والطبع، والضيق، والمرض، والرَين، والموت، والقساوة، والانصراف، والحَمِيَّة، والإنكار:

﴿ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ (22) ﴾

(سورة النحل)

أي تُنكر الحقائق، تَعاف الحقيقة.

آيات من القرآن الكريم عن الحمية الجاهلية:

ذكر لي أخ أنه حدَّث إنساناً بكلامٍ طيبٍ عن الدين، فأجابه: هذه المعلومات لا أهتمُّ لها، ولا أصغي إليها، ولا أزنها بأي ميزان، إنني أسعى لامرأةٍ جميلة وبيتٍ واسع وسيارةٍ فارهة.

﴿ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (22) ﴾

(سورة النحل)

وقال في الحمية:

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ (26) ﴾

(سورة الفتح)

تجد عاطفة هَوْجاء، تَعَصُّباً أعمى، انحيازاً غير معقول، يفور بلا سبب، يقسو بلا سبب، يقتل بلا سبب، يغضب بلا سبب، حمِيَّة جاهلية، حمية عمياء، ينجرف انجرافاً مخيفاً بلا أسباب معقولة.

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ (26))

(سورة الفتح)

يغضب الإنسان الجاهلي فيرتكب جريمة، يغضب فيقذِف بأبشع الكلمات، يغضب فيُطلِّق بلا سببٍ وجيه، يغضب فيعتدي، هذه الحمية الجاهلية، من صفات قلب الكافر.

آيات أخرى من القرآن الكريم عن الانصراف والقساوة:

وفي الانصراف قال تعالى:

(ثُمَّ انْصَرَفُوا (127))

(سورة التوبة)

انصرف عن الحق إلى الباطل، انصرف عن المسجد إلى دور اللهو، انصرف عن الحقائق إلى القَصَص، انصرف عن دروس العلم إلى المُسَلْسَلات.

(ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (127))

(سورة التوبة)

مكانك الطبيعي في أعلى عليين فغُصْتَ في أسفل سافلين، مكانك الطبيعي في السماء أنت في وحول الأرض انصرفت إلى الدنيا، أخلدْتَ إلى الأرض، وقال في القساوة :

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ (22))

(سورة الزمر)

ما هذا القلب أيها الأخوة ؟ يكبر ويكبر ولا نرى كِبَرَه، فيتصاغر أمامه كل كبير، ويصغر ولا نرى صغره فيتعاظم عليه كل حقير؛ من هم الأنبياء العظام ؟ لهم قلوبٌ كبيرة وَسِعَت هموم الناس، القلب الكبير يحمل هموم المسلمين، لا يرتاح إذا حقق مصالحه المادية فقط، هذه لا تعنيه كثيراً، يعنيه أن يحقق إنجازاً للمسلمين.

القلب منظر الرب يتصل بالله فيمتلئ رحمة:

والقلب أيُّها الأخوة منظر الرَّب:

((إنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلا إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ))

[مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه]

القلب منظر الرَّب، وقد ورد في الحديث القدسيّ:

((عبدي طهَّرتَ منظر الخلق سنين أفلا طهَّرت منظري ساعة ؟))

[ورد في الأثر]

القلب بيت الرَّب، والقلب أيها الأخوة يتَّصل بالله فيمتلئُ رحمة؛ الرحمة إحساس داخلي مُنْعَكَساتها اللين واللطف والخدمة والتواضع؛ قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ (159))

(سورة آل عمران)

أي بسبب رحمةٍ استقرت في قلبك يا محمد من خلال اتصالك بنا كنت لهم ليِّناً، فلما كنت ليناً معهم التفوا حولك وأحبّوك، ولو كنت منقطعاً عنا لكان قلبك قاسياً، والقسوة من لوازمها الفظاظة والغِلظة:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ (159))

(سورة آل عمران)

قوانين، تتصل بالله يمتلئ القلب رحمة، إذا امتلأ القلب رحمة كنت ليناً مع الناس رحيماً بهم، منصفاً متواضعاً، مُعطياً كريماً، سخياً عفوّاً فأحبك الناس والتقوا حولك؛ أما إذا كنت منقطعاً عن الله امتلأ قلبك قسوةً.

قسوة القلب علامة البُعد ورقَّة القلب علامة الرحمة:

مؤشّر الإيمان يتحرك تماماً مع مؤشّر الرحمة، أنت رحيمٌ بقدر ما أنت مؤمن، وأنت قاسي القلب ـ لا سمح الله ـ بقدر بُعْدِكَ عن الله.

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (22))

(سورة الزمر)

وفي آيةٍ أخرى:

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ (74))

(سورة البقرة)

قلب الكافر كالصخر، لا يرحم، ولا يعطف، ولا يتألَّم، يبني مجده على أنقاض الآخرين، يبني غناه على إفقارهم، يبني حياته على موتهم، يبني أمنه على خوفهم، قلبٌ كالصخر؛ فهؤلاء الذين خاضوا حروباً عالمية خَلّفت خمسين مليون قتيل ـ الحرب العالمية الثانية ـ قلوبهم كالصخر من البعد عن الله؛ كلما ابتعدت عن الله كلما قسا القلب، فقسوة القلب علامة البُعد، ورقَّة القلب علامة الرحمة.

" يا أمير المؤمنين إن الناس خافوا شدتك "، قال: **" والله يا أبا ذر لو يعلم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه، ولكن هذا الأمر لا يناسبه إلا كما ترى ".**

وقالوا لسيدنا الصديق " أتولي علينا عمراً !؟ " **قال: أتخوّفونني بالله ؟ أقول: يا رب ولَّيْتُ عليهم أرحمهم، هذا علمي به فإن بدَّل وغيَّر فلا علم لي بالغيب ".**

مواقف تدل على رحمة سيدنا عمر رضي الله عنه:

" أيُّها الناس: إن الناس خافوا شدتي وبطشي، إن هذه الشدة على أهل البغي والعدوان أما أهل العفة والإيمان فأنا ألْيَن لهم من أنفسهم، سأضع لهم خدي ليطؤوه بأقدامهم ـ هذا قول سيدنا عمر ـ أيها الناس خمس خصالٍ خذوني بها: لكم عليّ ألا آخذ من أموالكم إلا بحقها، وألاَّ أنفقها إلا بحقها، ولكم عليَّ ألا أجَمِّركم في البعوث ـ ترسله لمهمة سنة، فيدع زوجته وأولاده ـ ولكم عليّ أن أزيد عطاياكم إن شاء الله تعالى، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا ".

من رحمة سيدنا عمر أنه كان يتجوّل في المدينة ليلاً مع سيدنا عبد الرحمن بن عوف فرأوا قافلة قد استقلّت في ظاهر المدينة، فقال: تعال نحرسها.

بكى طفل فقال عمر إلى أمه: أرضعي طفلك؛ أرضعته فسكت، ثم بكى فقام إليها وقال: أرضعي طفلك؛ أرضعته فسكت؛ ثم بكى، فغضب عمر، قال لها: يا أمة السوء أرضعي ابنكِ. فقالت له: وما شأنك بنا ؟ ـ ما دخلك ـ إنني أفطمه. قال: ولِمَ ؟ قالت: لأن عمر لا يعطينا العطاء إلا بعد الفطام ـ أي التعويض العائلي ـ فضرب جبهته، وقال: ويحك يا ابن الخطاب كم قتلت من أطفال المسلمين.

عندما صلّى سيدنا عمر صلاة الفجر ما عرف أصحابه قراءته من شدة بكائه من شدة خوفه من الله، قال: يا ربِّ هل قبلت توبتي فأهَنِّئ نفسي، أم رددتها فأعزيها ؟

قلب رحيم، اشتهى أن يأكل اللحم في عالم الرَّماد، ولكنه قال لبطنه: **" قرقر أيها البطن أو لا تقرقر، فو الله لن تذوق اللحم حتى يشبع منه صبية المسلمين ".**

تقرّحت يد السيدة فاطمة من الطحن، ومن سحب الماء بالدلو، وتعبت تعباً شديداً، فشكت إلى زوجها سيدنا علي، قال: اذهبي إلى أبيك واطلبي منه خادمة ـ كل شيء بيد أبيك ـ فذهبت إليه، فقال: ما الذي جاء بك يا بُنيتي ؟ استحيت وقالت: جئت لأسلّم عليك؛ عادت إلى البيت وقالت لزوجها: ائتِ معي ـ استحيت أن تطالب أباها بخادمة ـ فجاءت مع سيدنا علي، تكلم سيدنا علي مع النبي عن

حاجتها إلى خادمة وعن تعبها وعن مشقتها، فقال: والله يا بُنَيَّتي لا أُوثرك على فقراء المسلمين، لا أدع أهل الصفة يتضوَّرون جوعاً، قولي: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله "، وانتهى الأمر.

رحمة في القلب شملت المؤمنين جميعاً بدون تمييز.

((مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ))

[البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه]

إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي:

((الراحمون يرحمهم الرحمن))

[الترمذي عن عبد الله بن عمرو]

مواقف من الكتاب والسنة عن القاسية قلوبهم:

((دخلت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار؛ لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض))

[مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ عن ابن عمر]

قال تعالى:

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ (22))

(سورة الزمر)

قد يموت القلب، يقول الله عزّ وجل :

(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36))

(سورة الأنعام)

الذين ماتت قلوبهم:

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14))

(سورة المطففين)

هذا الرّان، فالشهوات والمعاصي والأخطاء تجعل طبقة تحول بين القلب وبين معرفة الحقيقة.

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ (88))

(سورة البقرة)

قلوبهم مُغَلَّفة:

(بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ (88))

(سورة البقرة)

كُفْرُهم ومعاصيهم وانحرافهم سبب تغليف قلوبهم.

تبدأ أمراض القلب بعد الموت ويتعذَّب صاحبها بها إلى أبد الآبدين:

وقال تعالى:

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً (10))

(سورة البقرة)

القلب يمرض، القلب المُتَكَبِّر مريض، والقلب الجاحد مريض، والشُح مرض، والأنانية مرض، وأن تظلم الناس مرض، وأن تَبْخَسَ الناس أشياءهم مرض، هذه كلها أمراض.

أخواننا الكرام، أمراض الجسم مهما تكن عُضالة؛ سرطان، تَشَمُّع كبد، فشل كلوي تنتهي مع الموت، فإذا كان المرء مؤمناً فإلى الجنة، وتبدأ أمراض القلب بعد الموت ويتعذَّب صاحبها بها إلى أبد الآبدين، فمليون مرض بالجسم ولا مرض واحد بالقلب، والدليل:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

قلبك السليم رأسُ مالك، هناك كِبْر، وهناك حسد، وبَغْي، وعدوان، واستعلاء، وجحود، وهضم حقوق الآخرين، وهناك أن تَبْخَسَهُم حَقَّهُم، أمراض القلب لا تُعَدُّ ولا تحصى، وكل هذه الأمراض تبدأ آلامها بعد الموت، الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا.

ربنا عزّ وجل يعاوننا على الإيمان:

حدثني أخ: إنسان كان يقود سيارة بسرعةٍ طائشة في الساعة الثانية ليلاً في مدينة مجاورة في بيروت، دهس طفلاً، يبدو أن في قلب هذا السائق حياة، لم يذق طعم النوم عشرين يوماً، تألَّم، زار طبيباً نفسياً فنصحه أن يدفع ديَّةً لأهل الطفل، ليرتاح ضميره وينام، فإذا كان في القلب حياة فهذه نعمةٌ كُبرى، أما إذا كان القلب مغلفاً ومليئاً بالمعاصي عندئذٍ انتهى، وقال الله تعالى في الضيق :

(وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً (125))

(سورة الشعراء)

وهذه نعمة كُبرى:

((إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.))

[الترمذي عن أنس بن مالك]

أي أن ربنا عزّ وجل يعاوننا على الإيمان، فإذا اتخذ الإنسان قراراً صحيحاً يشرح الله له صدره، تجده مبسوطاً، وإذا اتخذ قراراً آخر غير صحيح يضيق صدره:

(حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ (7))

(سورة الحجرات)

قلب المؤمن طاهر بفطرته مصطبغ بكمال الله :

القلب قضية كبيرة.

((أعرف في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب))

[متفق عليه عن النعمان بن بشير]

رأس مالك قلبك، قلب المؤمن نظيف، قلبه صاف، قلبه بريء، قلبه مطمئنٌ لعدالة الله، لا يحمل حقداً على أحد، ولا يحسد، ولا يبغي، ولا يتكبر، قلبه سليم وهو موصول بالله، طاهر بفطرته، مصطبغ بكمال الله، باتصاله بالله، هذا قلب المؤمن، والطبع :

(فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (3))

(سورة المنافقون)

هذا الطبع حكمي أيضاً، مثلاً: انتسب إنسان إلى الجامعة بضغطٍ من أبيه، ولم يحضر أي درس ولا ساعة، وما قدَّم أي امتحان، ولا قرأ ولا صفحة، هل يفقه هذا شيئاً ؟ لماذا لا يفقه ؟ لأنه أغلق بيده منافذ المعرفة، لو سمع درس يتعلّم كلمة، لو قرأ كتاباً ليتعلم، لو زار الأستاذ ليتعلّم، فلما أعرض عن حضور أي درس، وعن سماع أية محاضرة ولو بالشريط، وعن قراءة أي موضوع، فإنه أغلق بيديه منافذ المعرفة، إذاً ختم قلبُه ختماً حكمياً.

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (5))

(سورة الصف)

إذا عُزيت الإزاغة إلى الله، أو عُزيَ الإضلال إلى الله، أو عُزي الخَتْمُ إلى الله، أو عزي (ران على قلوبهم) إلى الله هذا كله زيغ جزائي مبني على اختيار؛ وأوضح مثل: قلت هذا قبل قليل: طالب لم يقدم أي امتحاناً، ولا حضر ولا مادة ولا قرأ، جاءه إنذار من إدارة الجامعة؛ إنذار ثانٍ، إنذار ثالث، ولم يستجب، صدر قرار بترقين قيده من الجامعة، هل في هذا القرار افتراءٌ عليه ؟ أم هو تجسيدٌ لاختياره ؟

حبُّ الكفار للدنيا واختيارهم للشهوات وإصرارهم عليها جعلها كغشاوةٍ على أعينهم وعلى سمعهم:

قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (5) ﴾

(سورة الصف)

إذا عُزي الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري، وإذا عُزي الخَتْمُ إلى الله فهو الختم الجزائي المبني على سد منافذ المعرفة باختيارك، فقوله تعالى:

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7) ﴾

هو الخَتْمُ الحُكْمِي، لأن:

﴿ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ(7) ﴾

الختم من صنع أيديهم؛ حبُّهم للدنيا، واختيارهم للشهوات، وإصرارهم عليها جعل هذه الشهوات كغشاوةٍ على أعينهم وعلى سمعهم، ولأن العينين والسمع منافذ للفكر، والفكر مورِّد للقلب فصار القلب مختوماً عليه حكماً:

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7) ﴾

أنواع العذاب:

يوجد بالقرآن عذاب أليم، ويوجد عذاب مهين، ويوجد عذاب عظيم، هؤلاء الذين أضلّوا الناس وتبعهم الناس على إضلالهم، هؤلاء لهم يوم القيامة عذابٌ مهين، يُعذَّبون أمام أتباعهم الذين أضلّوهم، والعذاب المهين أشدُّ من العذاب الأليم.

لو كان الإنسان له مكانة كبيرة جداً وأهنته أمام الناس جميعاً، كأنْ تضربه ضرباً مهيناً أمام أتباعه جميعاً فإن هذا عذاب مهين؛ ويوجد عذاب أليم له ألم حسِّي شديد؛ العذاب المهين معنوي، والعذاب الأليم حِسي، أما العذاب العظيم منسوبٌ لقدرة الله؛ أنت إن أردت أن تعذّب إنساناً يوجد حدود ينتهي عندها العذاب، مات فلا تستطيع إكمال العذاب، تنتهي قدرتك على تعذيبه بعد أن يموت، لكن الله عزّ وجل قادر على أن يُعَذِّب الإنسان إلى أبد الآبدين:

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (56) ﴾

(سورة النساء)

هذا عذاب عظيم، ويوجد عذاب مهين، ويوجد عذاب أليم؛ العذاب المهين أن يعذّبه أمام من خضعوا له بكفره، أي إنسان أنكر وجود الله عزّ وجل وقال: الشهوة هي كل شيء، يوجد علماء هكذا، يوجد طغاة هكذا، فهؤلاء الذين أضلّوا الناس وحملوهم على الكفر يعذَّبون عذاباً مُهيناً أمام أتباعهم،

والذين كفروا وجحدوا يعذَّبون عذاباً عظيماً، أي عذاباً مستمراً لا ينتهي، أما الإنسان إذا عَذَّب فله حد ينتهي عنده التعذيب، عندما يموت من يعذبه.

ملخص لأهم نقاط الدرس:

أيها الأخوة، افتتح ربنا عزّ وجل هذه السورة العظيمة بوصف المؤمنين، ووصف الكافرين؛ أما المؤمنون فهم:

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا (6))

الإيمان تصديق، والكفر تكذيب، الإيمان إقبال، الكفر إعراض، الإيمان شكر، الكفر جحود:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا (6))

وانتفعوا بكفرهم، وجعلوه مَطِيَّةً لشهواتهم:

(سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6))

مكان العقل القلب:

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ (7))

لأن مَنفَذي القلب هما السمع والبصر:

(وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (06- 95):تفسير الآيات 8-12، الخطر الكبير الذي يهدد المسلمين هو النفاق و المنافقين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-07-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤمن والكافر و المنافق:

أيها الأخوة، بيَّن الله جلَّ جلاله في مطلع هذه السورة الكريمة صفات المؤمنين في آياتٍ قليلة، وبيَّن صفات الكافرين في آيتين، وبيّن صفات المنافقين في ثلاث عشرةَ آية، لماذا ؟ لأن المؤمن واضح، والكافر واضح، المؤمن كان جريئاً آمن بهذا الدين العظيم، وقبض الثمن، ضَحَّى قليلاً وأخذ كثيراً، والكافر كان جريئاً ردَّ الحق ودفع الثمن، المؤمن مُنسجم مع نفسه، والكافر منسجم مع نفسه، المؤمن منسجم مع الحقيقة ومع نفسه، الكافر غير منسجم مع الحقيقة لكنه مُنسجم مع نفسه، فالمؤمن واضح والكافر واضح.

لكن الإنسان الخطير هو المنافق، لأنه غامض، له ظاهر، وله باطن، له موقف معلن، وله موقف باطن، له شيءٌ يفعله في جلوته، وله شيءٌ يفعله في خلوته، علانيته ليست كسريرته، فالمنافق خطر، والمؤمن واضح، والكافر واضح أيضاً، المؤمن انسجم مع الحقيقة ومع نفسه، كان جريئاً وقبل الحق، وضحَّى وقبض الثمن، والكافر انسجم مع نفسه فقط، كان جريئاً، ورد الحق، ودفع الثمن، المؤمن كلُّه خير، كله عطاء، كله إكرام، كله إحسان. الكافر شرّهُ محدود لأنه مكشوف، أذاه محدود لأنه ظاهر، الناس يتقونه لأنه كافر.. أما المنافق فخطره كبير، لأنه يوهم المؤمنين أنه مؤمن وهو مع الكُفَّار، لذلك قال تعالى:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ (145))

(سورة النساء)

أخذ المنافق ميزات المؤمنين، وعومل كما يُعامَل المؤمنون، أخذ كل امتيازاتهم لأنه أظهر الإيمان، واستفاد من الكُفّار، وغَشَّ المؤمنين، لذلك فهو في الدَرْك الأسفل من النار، وصف الله المؤمنين في بضع آيات، وفي آيتين فقط وصف الله الكافرين، وفي ثلاث عشرة آية وصف الله المنافقين.

النفاق أخطر شيءٍ في حياة المؤمنين :

أيها الأخوة، يبتلي الله عزَّ وجل المؤمنين ابتلاءاتٍ متعددة، يبتليهم فيمنحهم القوة، ويبتليهم فيضعفهم، المؤمنون مبتلَوْنَ حينما يظهرهم الله على أعدائهم، ومبتلون حينما يستضعفون، فإذا كان الابتلاء استضعافاً كَثُرَ الكفار، لأنهم لا يخافون أحداً.. وإذا كان البلاء قوةً كثر المنافقين، و في مكة المكرَّمة لم يكن هناك منافقون، لأن الإنسان يكفر جهاراً، ويتَّهم النبي جهاراً، ويقول: إنه مجنون، وإنه ساحر، وإنه شاعر، وإنه أفَّاك، وينام مطمئناً في بيته، ولا يناله أحد بأذى، لأن المؤمنين ضِعاف، يكثر الكافرون مع ضعف المؤمنين، أما في المدينة فقد أصبح للمؤمنين شَوْكَة، وهم قوة، لذلك كثر المنافقين، المنافق كافر لكنه رأى من مصلحته أن يَنْضَمَّ إلى المؤمنين صـورةً وأن يتعاون مع الكافرين حقيقةً، لذلك أخطر شيءٍ في حياة المؤمنين النفاق، المؤمن كما قلت قبل قليل واضح، والكافر واضح، المؤمن انسجم مع الحقيقة، ومع نفسه، وكان مصدر عطاءٍ للخلق، والكافر انسجم مع نفسه فقط، لا مع الحقيقة، شره محدود، لأن هويّته معلنة، المؤمن جريء آمن بالحق، وضحَّى، وقبض الثمن، والكافر جريء، ردَّ الحق وكسب بعض المكاسب المؤقّتة، ودفع ثمنًا باهظاً، لكن المنافق متلوِّن لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء.

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ (15))

(سورة البقرة)

من رُقِيِّ النفس أن يتهمها صاحبها دائماً بالنفاق:

أيها الأخوة الكرام، من رُقِيِّ النفس أن يتهمها صاحبها دائماً بالنفاق، اتهام، قال أحد التابعين الأجلاَّء: التقيت أربعين صحابياً ما منهم واحدٌ إلا وهو يظن نفسه منافقاً، فالمؤمن يتقلب في اليوم الواحد بأربعين حالاً خشية النفاق، والمنافق يَثْبُتُ على حالٍ واحد أربعين عاماً ولا يشعر

أنه منافق، النفاق ازدواج، النفاق حالة من حالات انفصام الشخصية، له شخصيتان، يتظاهر مع المؤمنين بالتقوى والصلاح، ويطرح أسئلة فقهية دقيقة جداً، يسألك مثلاً: حبة سُمسم بقيت بين أسنانه ما حكم صيامه يا أستاذ ؟ تجده ظاهراً يغلي ورعاً، وله معاصٍ كبيرةٌ جدًّا يغفلها، كلما جلس مع المؤمنين طرح عليهم أسئلة كثيرة، وفتاوى، وقضايا، ليظهر أمامهم أنه مؤمن، وليأخذ امتيازات المؤمنين، وليكسب مكاسِبَهُم، أما هو في الحقيقة فمع الكافرين، يقول الله جلَّ جلاله: ومن الناس من يقول.. بلسانه.. والقول سهل:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ (8))

والله عزَّ وجل كَذَّبَهُم، فقال:

(وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8))

الإنسان لا يقيّم بأقواله بل بأفعاله:

لا يقيّم الإنسان بأقواله بل يقيَّم بأفعاله، فكم ممن يقول لك: أنا مؤمنٌ باليوم الآخر، فإذا بحثت في أعماله لم تجد عملاً صالحاً واحداً يؤكّد إيمانه باليوم الآخر، وإذا بحثت في حياته الخاصَّة لم تجد عملاً واحداً يُنبئُ عن أنَّه يخاف النار، يأكل المال الحرام، يجلس مع نساءٍ لا يحللن له، يعتدي على حقوق الآخرين، على أعراضهم، على أموالهم، إما صراحة أو ضمناً بالكذب، والغش، والاحتيال، ويحقق مصالحه، ويَدَّعي أنه مؤمن، والإيمان بريءٌ منه، مثلاً استطاع رجل أن يُخَلّص بيتاً ثمنه سبعة ملايين بسبعمئة ألف، بأساليب ملتوية غير شرعية، وهو يرتاد المساجد. ترك دانقٍ من حرام خيرٌ من ثمانين حَجَّةً بعد حجة الإسلام.

فالنفاق أخطر شيء في حياة المؤمنين، ازدواج الشخصية، انفصام الشخصية، موقف معلن، وموقف خفي، شيءٌ يفعله أمام الناس، وشيءٌ يفعله فيما بينه وبين نفسه، سريرته ليست كعلانيته، خلوته ليست كجلوته، شيءٌ يفعله في بلده فإذا سافر فعل شيئاً آخر، وكم من امرأةٍ محجَّبةٍ تراها في الطائرة جاءت من بلدٍ الحجاب فيه إلزامي، فلما ركبت الطائرة خلعت كل شيء، وكأنها لا تؤمن بشيءٍ من الدين، هذا نفاق، يلاحظ الإنسان هذا الازدواج في حياته، إذا كان يفعل فعلاً أمام الناس مقبولاً ويفعل خلافه فيما بينه وبين نفسه، فهذه حالة من النفاق، ولا تنسوا أيها الأخوة أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، أخطر شيءٍ في حياة المؤمن أن تَزِلَّ قدمه إلى النفاق.

أنواع النفاق:

ولكن لا أكتمكم أن هناك من النفاق ما هو ضعفٌ في الإيمان، أو ضعفٌ أمام الشهوات، هذا المنافق الذي انطلق من ضعفٍ في اليقين، وضعفٍ في الإرادة، لعل الله سبحانه وتعالى يُعالجه فيأخذ بيده

إلى الإيمان، وهناك حالاتٌ كثيرة ممن عاصروا النبي عليه الصلاة والسلام كانوا منافقين فتاب الله عليهم، ولكن النفاق الذي يُنْتَفع به لمكاسب دنيوية ـ كما قلت في الدرس الماضي ـ حينما ينتفع الإنسان بالكفر، وحينما يتخذ الكفر وسيلةً لمكاسب مادية، هذا الكافر يصبح مع الكافرين:

(سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6))

والمنافق الذي أصله كافر كفراً اعتقادياً، وكفراً سلوكياً، وهو مع المؤمنين في ظاهره، هذا أيضاً لا ينتفع بأية موعظةٍ يتلقّاها..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ (8))

قول.

النفاق تمثيل متقن جداً :

الله عزَّ وجل يقول:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19))

(سورة محمد)

ما قال: فقل، القول سهل، وكل إنسان ذكي، والآن التمثيل في هذا العصر متفوِّق تفوّقاً كبيراً، فأذكى الأذكياء يُتْقِن التمثيل، وبإمكانه أن يوهمك أنه مؤمن، بكلام، وبحركات، وبسكنات، وبتصرفات، وبمواقف، وما هو كذلك ولا سيما في موضوع الزواج، هو يوهم أنه صالح، تقي، ونقي، وعفيف، و بعد القِران يظهر لك إنساناً آخر، وهي توهمه أنها تحفظ كلام الله، ولها شيخةٌ تأخذ عنها العلم، وتخاف من الله، وتتحجَّب أمامه، فإذا دخل وقتٌ آخر رأيتها امرأة أخرى، فالتمثيل الآن متقن جداً، أي أن الخبرات التمثيلية في أعلى درجة، والتمثيل نفاق في الحقيقة، أوضح شيء أن الممثل قد يأخذ دور إنسان صالح، وهو كذلك، وقد يأخذ دور إنسان سيّئ، وهو كذلك، على كلٍ هناك إتقان للأدوار، فالنفاق، والتمثيل يلتقيان، المنافق ممثل، والنفاق أنواع، والتمثيل أنواع، وهناك تمثيل متقن جداً، وتمثيل غير متقن.

ذكرت لكم مرة أنه تمثيلية في معهد شرعي عن سيدنا بلال، وعن أمية بن خلف: هو مَن عذب سيدنا بلالاً، وكان مالكه في الجاهلية، كيف يعذّبه ويقول بلالٌ: أحدٌ أحد، فهذا الذي يمثل دور أمية، قال له: لن أرفع عنك العذاب حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، طبعاً تمثيل غير متقن، لأنه قال: صلى الله عليه وسلم، المنافق ممثّل، ممثل ذكي جداً.

أعمال الإنسان تؤكد مكانته:

الآن..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8))

يقيّم الإنسان من أعماله فقط، أعماله تؤَكّدُ مكانته، لذلك تجد إنساناً يؤمن بشيء علانيةً، ولكن أفعاله لا تؤكد ذلك، ليس في فعل المنافق فعلٌ واحد، يؤكد أنه مؤمن بالجنة، هو لا يعمل لها.. وليس في فعل المنافق فعلٌ واحدٌ يخاف من مؤمن يؤكد أنه بالنار، لأنه لا يتقيها.. هؤلاء الذين ينغمسون إلى قمة رؤوسهم في المال الحرام أين هي الجنة والنار في حياتهم ؟ والله لو أن الإنسان آمن أن هناك ناراً سيدخلها إلى أبد الآبدين لعدَّ إلى المليون قبل أن يأكل درهماً حراماً، ولو آمن أن هناك حساباً عسيراً..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

(سورة المدثر)

الإيمان عمل و التزام:

حينما لا تجد في عمل الإنسان عملاً يؤكّد أنه يتقي النار، ولا تجد في عمل الإنسان عملاً يؤكّد أنه يرغب في الجنة فهذا نوعٌ من النفاق، وحينما تستقر حقيقة الإنسان في قلب المؤمن تُعَبِّرُ هذه الحقيقة عن ذاتها بخدمة الآخرين، يتحرك نحو خدمة الخلق، يحاسب نفسه حساباً دقيقاً، إذاً الإيمان عمل، والإيمان التزام..

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا (72))

(سورة الأنفال)

الإيمان حركة، لا يوجد إيمان سكوني أبداً، مؤمن ساكن !! مؤمن مقيم على معصية !! ومؤمن لا يعمل الصالحات !! ليس هذا مؤمناً، الإيمان الحقيقي ما أكّده العمل، الإيمان إقرارٌ باللسان، وعملٌ بالأركان، والإيمان ما استقر في القلب، وصدّقه اللسان، وأكّده العمل، قناعةٌ في القلب، وإقرارٌ باللسان، وعمل بالأركان، هذا هو الإيمان، لذلك قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (7))

(سورة البينة)

ورد أكثر من مئتي مرة قارناً العمل الصالح بالإيمان:

(آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (7))

الله جلَّ جلاله كَرَّم المؤمنين فجعل عدوهم عدواً له وجعل إكرامهم إكراماً له:

(يخادعون الله)

والحقيقة هم يخادعون المؤمنين، لم يؤمنوا بالله إيماناً يحملهم على طاعته، فهم يخادعون المؤمنين، ولكن الله جلَّ جلاله كَرَّم المؤمنين فجعل مخادعتهم مخادَعة له، وجعل عدوهم عدواً له، وجعل إكرامهم إكراماً له..

(قُلْ يَا عِبَادِيَ (53))

(سورة الزمر)

الياء ياء النسب، هذه نسبة تشريف وتكريم، شرَّف الله المؤمن بأن نسبه إلى ذاته، لذلك المنافق يُخادع المؤمنين فقط، لكن الله عزَّ وجل جعل مخادعة المؤمنين مخادعةً له، فعدوّ المؤمن عدوٌّ لله، والذي يُخادعه يخادع الله، والذي يُكْرِمُه يكرم الله، **" من أكرم أخاه فكأنما أكرم ربه "** ، من أكرم أخاه المؤمن فكأنما أكرم ربه، وهذا أعلى أنواع التشريف..

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9))

من حرم نفسه الخير فقد خدعها:

كيف خدعوا أنفسهم ؟ حرموها الخير، فلو أن إنساناً يوجد معه كيلو من المعدن الخسيس، الرخيص جداً لا يساوي ليرة، أقنع الناس بذكاء وبجهدٍ جهيد، وبحِيَل أن هذا المعدن ذهب، فصدقه الناس، وأكبروا هذه الثروة، من الخاسر، الناس أم هو ؟ طبعاً هو وحده الخاسر، لأنه اطمأن إلى قناعتهم، وهو في الحقيقة لا يملك شيئاً، كذلك المنافق يخدع المؤمنين، ويشعر بنشوة أنه استطاع أن يخدعهم، وأن يقنعهم أنه مؤمن.. وماذا إذا أقنعتهم ؟ أنت لست مؤمناً.. ولا تأخذ من امتيازات المؤمنين شيئاً

أقنعتني في النهاية أنَّك تحمل أعلى شهادة، وأنت لا تقرأ ولا تكتب، هل تستطيع أن تنتفع بأميتك ؟ أقنعتني بجلسةٍ عابرة أن معك شهادة عليا، وأنت لا تقرأ ولا تكتب، هل تستطيع أن تنتفع بأُمِّيَّتِك ؟ لا تنتفع بها أبداً، إذاً كيف يخادعون أنفسهم ؟ فالمنافق هو ارتاح عندما أقنع المؤمنين أنه مؤمن، ونجحت الخطة، ولكن ما قيمة هذا النجاح ؟ نجحت خطتك لكنك لست مؤمناً، لن تنجو من عذاب الله، ولا من عقابه.. ولا من تأديبه، لن تنجو من إتلاف مالك، ولا من تأديبٍ في صحتك، ولا من تأديبٍ في أهلك، ما أخذت شيئاً من ميزات المؤمنين، أقنعتهم أنك مؤمن وصدّقوك، أنت في الحقيقة تخدع نفسك، مثلك كالنعامة حينما يتبعها عدوٌ لها فتغمس رأسها في الرمل، عندئذٍ لا ترى، هل هي ذكيَّة ؟ هي في منتهى الغباء، فحينما غمست رأسها في الرمل فلم تراه، اطمأنت فجاء عدوها، وقد ثبتت في مكانها فأكلها، هل خدعت عدوها، أم خدعت نفسها ؟ طبعاً خدعت نفسها.

علاقة كل إنسان مع الله عز وجل:

الملخَّص أنك إذا استطعت أن تخدع الناس، وأن توهمَهم أنك مؤمن، والناس ببساطة أو بسذاجة صدقوك، وأثنوا على إيمانك، وأنت لست كذلك، فعلاقتك مع الله، وسوف يعرضك الله عزَّ وجل لامتحاناتٍ صعبةٍ ولعقاباتٍ شديدةٍ، ولن تأخذ شيئاً من امتيازات المؤمنين، فمن خدع الآخر ؟ قال الابن لأبيه: أنا أقنعك أن هؤلاء ثلاث دجاجات، وهي في الواقع دجاجتان، قال له أبوه أنا سوف آكل واحدة، وسوف تأكل أمك واحدة، وأنت كُل الثالثة.. كلام فارغ لا معنى له..

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9))

إنهم ساذّجون، أغبياء، أوهمتني أنك مؤمن وأنت لست مؤمناً، ماذا حققت ؟ علاقتك مع من ؟ مع الله، وأبلغ شيءٍ في هذا أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ))

[البخاري ومسلم عن أم سلمة]

طليق اللسان، سريع البديهة يقلب الحق إلى باطل، بذكاءٍ بارع.. جاء أحدهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأقنعه بشيء فحكم له النبي صلى الله عليه وسلم، وقال:

((لَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[البخاري ومسلم عن أم سلمة]

لم يستفد شيئاً، هذا معنى قوله تعالى:

(وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9))

الله عز وجل يحول بين المرء و نفسه و يعلم خواطره و نواياه و بواعثه وأهدافه :

لو دُعيت إلى طعام نفيس جداً، وأنت في درجة عالية من الجوع، فأوهمت الذي دعاك أنَّك أكلت طعاماً أنفس من هذا قبل قليل، فقال لك: إذاً لا تؤاخذني فلا تكثر منه، أنت خدعته أم هو الذي خدعك ؟ ماذا استفدت من هذا الكلام ؟ حرمت نفسك من هذا الطعام، أوهمته أنك أكلت طعاماً نفيساً قبل قليل، وأنت من يومين لم تأكل، والطعام طيِّب جداً، عندما أوهمته فكفَّ هو عن دعوتك إلى الطعام، وجلست أنت تتلوى جوعاً، والطعام النفيس أمامك، من خدع الآخر ؟ أنت خدعت نفسك فقط.

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9))

(وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9))

هذا هو الغباء بعينه، وهذا هو الحُمق بعينه، لا تتظاهر بما ليس فيك، علاقتك مع الله، لا تخفى عليه خافية، أنت مكشوفٌ أمامه تماماً، خواطرك يعلمها، يحول بين المرء وقلبه، خواطرك، نواياك، بواعثُك، أهدافك، طموحاتك، احتيالك..

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46))

(سورة إبراهيم)

علاقة الإنسان مع الله وحده ولن ينجو من عذاب الله إلا بطاعته :

والله أيها الأخوة، أرى كل يوم إنساناً يُقْنِع الناس بشيء، وهو على خلاف ذلك، فيسقط، ولا ينجو من عذاب الله أبداً، ولن ينجو، نقيم حفلاً، عقد قرانٍ، ندعو كل العلماء، والعلماء ببساطةٍ يقفون ويثنون على هاتين الأسرتين الكريمتين الأصيلتين إلخ.. والأسرتان ليستا كذلك، لو أن إنساناً مدحك هل تنجو من عذاب الله ؟ يقولون لك: دعونا فلاناً، وألقى كلمة، وفلاناً ألقى كلمة، فلما صار العرس، نساءٌ كاسيات عاريات، وزِّعَت الخمور، وجيء بالراقصات، وجيء بالمصوِّرين، قبل يومين، عقد الرجال.. أسرتان عريقتان، أصيلتان، والطيبون للطيبات، وبعد يومين النساء كاسيات عاريات، والخمور توزَّع، والراقصات ترقص، وكل المعاصي والآثام في هذا العقد.. أنت حينما

أتيت بهؤلاء ليلقوا كلمات ماذا فعلت ؟ أوهمت الناس أنك جيد، أنك صالح، علاقتك مع الله وحده، ولن تنجو من عذاب الله إلا بطاعته، وأما إيهامك للناس أنَّك مؤمن هذا لا يقدِّم ولا يؤخِّر.

تروى طرفة عن شخص دخل على محامٍ.. فكر المحامي أنه إذا أجرى أمام الشخص عدة مكالمات هاتفية يعلو في نظره كثيراً، فاتصل مع شخصيات مهمة، القضية نجحت، القضية نجحت، نجحت، ثم سأل المحامي الشخص عن حاجته، فقال له: لقد أتيت لكي أصل لك سلك الهاتف.. ولأنه لم يكن عنده هاتف !! ممكن أن تتكلم كلاماً، فتتوهم أنك ارتفعت، في الحقيقة سقط الإنسان.

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9))

الصدق منجاة من عذاب الله تعالى:

إذا علم المنافق أنه منافق فليس منافقاً، المشكلة أنه لا يشعر، يظن نفسه ذكياً، عاقلاً، شاطراً بالتعبير الدارج، وهو ليس كذلك، لا توهم أحداً بشيء، لتكن علاقتُك بالله صادقة، كن مع الله صادقاً، أَخْلِص دينك يكفك القليل من العمل.

تخلّف سيدنا كعب بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة خطر في بال كعب أن يعتذر له كما يعتذر المنافقون، قال: فلما حضر النبي عليه الصلاة والسلام ووقف بين يديه، وقال: والله يا رسول الله لو جلست إلى أحدٍ من الناس لخرجتُ من سخطه، فقد أوتيت جدلاً..(و أنا طليق اللسان ومعي حجة).. ولكنني أخشى أن أرضيك اليوم كذباً، فيسخِّطُك الله علي، وأرجو إن صدقتك اليوم أن يعفو الله عني، رأى الله وحده، ما أراد أن يخدع رسول الله، ثمانون منافقاً أعطوه حججاً قويةً، وأعذاراً قويةً، والنبي استغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، فلما جاء كعب وكان صادقاً معه فقال: أما هذا فقد صدق، بكلمة أما هذا فقد صدق فكل هؤلاء الذين اعتذروا أمامه، وقبل اعتذارهم في الظاهر، ووكل سرائرهم إلى الله، ولم يكونوا صادقين، قال: أما هذا فقد صدق، الصدق منجاة، فكن صادقاً، وليس معنى ذلك بأن تفضح نفسك، لست مكلفاً أن تفضح نفسك، ولكن لا تظهر بشيء خلاف ما أنت عليه، واسأل الله السلام، واسأل الله الستر..

(وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (10))

مرض.

حبّ الدنيا رأس كل خطيئة :

حدَّثْتُكم في الدرس الماضي أن متاعب أمراض القلب تبدأ بعد الموت، وإلى أبد الآبدين.

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (10))

حب الدنيا مرض، حب الدنيا يعمي ويصِم، حب الدنيا رأس كل خطيئة، لكن ليس من حب الدنيا أن يكون لك بيت تشتريه بمالك الحلال، ليس هذا من حب الدنيا، وأن تحب أن تقترن بامرأةٍ صالحة، ليس هذا من حب الدنيا، و أن تحب أن يكون لك دخلٌ حلال، ليس هذا من حب الدنيا، حب الدنيا ما حملك على العدوان، وعلى أخذ ما ليس لك، على أن تعتدي على أموال الآخرين، وعلى أعراضهم، وأن تنافس الناس على الدنيا، وأن تحطِّمَهُم من أجل مصلحتك، هذا هو حب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة..

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (10))

تفاقم أمراض النفس لأن الإنسان في الأساس حركي ديناميكي:

تتفاقم أمراض النفس لأن الإنسان في الأساس حركي.. ديناميكي.. إن عمل عملاً طيباً قاده لعملٍ أطيب، وإن عمل عملاً سيئاً قاده لعملٍ أسوأ.. نظرةٌ، فابتسامةٌ، فسلام، فكلامٌ، فموعدٌ، فلقاء..

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا (32))

(سورة الإسراء)

(لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ (21))

(سورة النور)

فالإنسان حركي فإذا مرض قلبه فإن هذا المرض ينقله إلى مرضٍ آخر، مثلاً يوجد في قلبه مشكلة، أدوية القلب تَرَكَت قرحة في المعدة، فمرض القلب نقله إلى مرضٍ في المعدة، تطورت القرحة إلى ورمٍ خبيث في المعدة.. انظر بدأ بمرض في القلب فانتقل إلى المعدة ثم انتقل إلى ورم خبيث، هذه الحالات كثيرة جداً.. المرض ينتقل إلى مرض أشد دائماً، حتى في المركبات إذا كان هناك خطأ ينتقل لخطأ أكبر، فرضاً إنسان هبط ضغطه، فإذا بقي الضغط منخفضاً ست ساعات فإن الكلية تتوقف، كان بالضغط أصبح بالكلية، هذه طبيعة الأمراض، الأمراض تتفجَّر من مرض إلى مرض،

ارتفع السكر.. فقد بصره.. ارتفع السكر.. خثرة في الدماغ.. سببت الخثرة شللاً، الشلل سبب تقرحاً في الجلد..

حياة الكافر سلسلة انفجارية:

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا (10))

من مرض إلى مرض، كان بالنظر فأطلق البصر، إطلاق البصر نقله إلى الحديث اللطيف مع الجنس الآخر، نقله الحديث إلى لقاء، واللقاء انتهى به إلى الزنا، والزنا انتهى به إلى السجن، ثم إلى مرض الإيدز، بدأ من نظرة.. هكذا سمعت أن سائقاً ركبت معه امرأة.. سألها: إلى أين ؟ قالت له: إلى حيث تشاء، فهم، وعدَّ هذا مغنماً كبيراً، وبعد أن انتهى أعطته رسالة، وظرفاً فيه مال، فتح الظرف.. وجد خمسة آلاف دولار.. ورسالة مكتوب فيها: مرحباً بك في نادي الإيدز، نقلت له المرض، ذهب ليصرف المبلغ، فإذا هو مزور، فأودِع في السجن.

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا (10))

حياة الكافر سلسلة انفجارية، يأكل مالاً حراماً، يسرق، يتورَّط مع السرقة إلى جريمة قتل، حكموه ثلاثين سنة.. انتهى.. بدأ بالسرقة وانتهى بالقتل، لا يُصلي، طلّق زوجته لسبب تافِه، طلقها وعنده خمسة أولاد.. هي أصرت ألا ترجع.. ذهبت إلى أهلها، واعتصمت بهم، بقي أولاده بلا مربية، كان في شيء، وصار في شيء آخر، الكافر أعمى، والمنافق أعمى ينتقل من طور إلى طور، حياته كلّها متفجِّرات، وألغام..

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا (10))

الكذب أكبر صفة تُهلك الإنسان :

معنى آخر:

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (10))

وهو حب الدنيا..

(فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا (10))

حينما أصرّوا عليها أطلقهم الله إليها، كانت شهوةً بإمكانهم أن يتوبوا منها فصارت واقعاً..

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10))

عذاب أليم، فأكبر صفة تُهلك الإنسان هي الكذب، ورد في الحديث الصحيح:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلالِ كُلِّهَا إلا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه]

لا يمكن للمؤمن أن يكذب أبداً، ولا أن يخون، قد يُخْطئ المؤمن فهو مذنب توَّاب، أما أن يكذب فلا.. أن يخون مستحيل..

((ألا لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له))

[رواه البغوي عن أنس رضي الله عنه]

(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10))

عذابهم أليم لأنهم يخدعون الناس..

الخطر الكبير الذي يهدد المسلمين هو من أدعياء الدين لا من أعداء الدين :

الحقيقة أيُّها الأخوة: من أين تأتي الأخطار للمسلمين ؟ من أنفسهم، لأن الحق لا يتعدد، والحق واحد، مستحيل أن تقع معركة بين حقَّين أبداً، فالحق لا يتعدد، وإن وقعت معركةٌ بين حقٍ وباطل، فالمعركة قصيرة جداً، لأن الله مع الحق، أما بين باطلين فإن المعركة لا تنتهي، وأكبر خطر يُهَدد المسلمين ليس من أعداء الدين.. فأعداء الدين مكشوفون.. وإنما الخطر هو من أدعياء الديّن ـ المنافقون ـ

الأخطار التي أهلكت المسلمين ليست من أعداء الديّن، بل من أدعياء الديّن، والأعداء أيُّها الأخوة أعداء المسلمين في العالم، ولاسيما في العالم الغربي كشفوا أن هذا الديّن أقوى وأكبر من أن يُواجَه، ماذا فعلوا؟ أرادوا أن يفجِّروه من داخله عن طريق المنافقين، فكل إنسان يغيِّر في عقيدة المسلمين، يُحل لهم الحرام، يحرِّم عليهم الحلال، يُبتدع في الدين شيئاً ما أنزل الله به من سلطان، هذا منافق يفجِّر الديّن من داخله، والآن الخطة واضحة جداً ومكشوفة، يحاول أعداء الديّن أن يفجِّروا حياة المسلمين من داخلهم، كم من أعمالٍ إرهابية ما فعلها المؤمنون، ولكن فعلها المنافقون ليُشوِّهوا سمعة الدين، وليجعلوا المسلم إرهابياً، وهو أبعد الناس عن هذه الصفة أبداً، دائماً يتهددنا الخطر من المنافقيّن، هؤلاء يندَّسون بين المؤمنين، ويفعلون ما لا تُحمدُ عُقباه، والحديث عن هذا الموضوع طويل، فكم من أعداء ألِدَّاء للدين تزيّوا بزي المؤمنين، وفعلوا أعمالاً إجرامية ألصقت بالمؤمنين، هذا سلوك واضح متكرر مكشوف، لذلك الخطر الكبير الذي يهدد المسلمين ليس من أعدائهم، فأعداؤهم مكشوفون،.. الحق لا يتعدد.. إنما هو من المنافقين الذين يرضون المؤمنين..

المؤمن يقرِّب و يصل والمنافق يبعد ويقطع:

مثال ذلك: إذا قلنا قولهم:.. القرآنٌ الكريم، إنه كلام رب العالمين، لكن قطع اليد وحشية، لا بدّ من وسيلة ردعٍ أخرى غير قطع اليد، ماذا فعلوا ؟ هدّموا أحكام القرآن، هل غاب عن الله عزّ وجل أن هذه الوسيلة وحشية، ولا بدَّ من وسيلة أخرى ؟ أي حينما يتزيّا الإنسان بزي الدين، ويهاجم القرآن، يهاجم السنة، يهاجم رسول الله بشكل أو بآخر، إما بادعائه الموضوعية، أو بالبحث العلمي الدقيق، أو بالنظرة الحضارية، هذا منافقٌ يهدِّم الدين بمعولٍ خطير تحت هذه الأغطية المضحكة، وهو لا يشعر، لذلك فالخطر القاسي الذي يهدد المؤمنين هو من أدعياء الدين لا من أعداء الدين، وللإمام الشافعي كلمة تناسب هذا المقام يقول: **" لأن أرتزق بالرقص أهون من أن أرتزق بالدين ".**

الارتزاق بالرقص ارتزاق، ولكن الراقص لا يُقتدى به أبداً، أما هذا الذي يرتزق بالدين يوهم الناس أنه مؤمن، يوجِّه النصوص لمصلحته، يأخذ المال الذي لا يحق له أن يأخذه، يعطي أسوأ سمعةٍ للناس حول الديّن، فإذا انصرف الناس عن الدين فبسبب هذا الإنسان المنافق الذي نفّر الناس من الدين، المؤمن يقرِّب، والمنافق يبعد، المؤمن يصل، والمنافق يقطع، المؤمن يحبِّب، والمنافق ينفِّر، المؤمن يوصل، المنافق يقطع..

(وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ (27))

(سورة البقرة: آية " 27 ")

المؤمن يَقرِّب، المنافق يُبعِّد..

مهمة المنافق دائماً إفساد النفوس و البيئة :

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11))

هذا الماء غير فاسد، لأنه لا لون له، ولا طعم، ولا رائحة، كيف نفسده ؟ إذا غيَّرنا لونه، أو طعمه، أو رائحته، وإفساد الشيء إخراجه عن صفاته الأساسية، إفساد الفتاة إخراجُها عن العِفَّة والحياء، إفساد الموظّف إخراجه عن خدمة المواطنين، إفساد القاضي إخراجه عن العدل، إفساد الطبيب إخراجه عن النصح للمريض، إفساد المُحامي أن يكذب على موكّليه، إفساد المدرِّس أن يعطي المعلومات الصغيرة في وقتٍ مديد، أي لم يعلمهم شيئاً، أخذ مبلغاً من المال ولم يُعلِّم شيئاً، فكل حرفة، وكل شخصية، وكل هوية لها طريقٌ قويم، ولها طريقٌ فاسد، فالمنافق يريد شهوات الدنيا فيفسد المرأة بإغرائها أن تُسفِر، وأن تعرض مفاتنها للناس في الطريق، يُغْري إنساناً أن يأخذ المال الحرام، (عندك أولاد والناس كلها هكذا).. أفسدهم، فالمنافق مهمَّته دائماً إفساد النفوس، أو حتى إفساد البيئة، إفساد الهواء، إفساد الماء..

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ (11))

الإنسان مأمور أن يزيد الصلاح صلاحاً:

الحقيقة الإنسان مُكلَّف أن يزيد الصلاح صلاحاً، مثلاً: بئر ماء هناك احتمال أن يتهدم، ننزل فيه قميصاً معدنياً، فالبئر صالح للاستخدام لكنك زدته، المؤمن يزيده الصلاح صلاحاً، أما لو أبقيته كما هو ما أفسدته، أما لو هدمته فقد أفسدته، صار هناك إفساد، وعدم إفساد، وأن تزيد في الصلاح، المؤمن مُكلَّف أن يزيد في الصلاح فإذا أفسد فقد أفسد مرتين، مرة لأنه تَركَ الفساد، ومرة لأنه أفسد الشيء، وأنت في الأصل مأمور أن تزيد الصلاح صلاحاً، فالمؤمن يصلح بين الناس، يصلح البيئة.

قبل خمسين عاماً كما أذكر كان الناس يشربون من هذه الأنهار، نهر يمشي في دمشق، وماؤه يُشْرَب، ما كان أحد يجرؤ أن يلقي فيه شيئاً، الآن تُصب كل المجاري في الأنهار، وازن بين نبع بردى وبين مصبه، ما الذي طرأ عليه في سيره إلى مصبه ؟ روافد كلُّها مياه سوداء، فإفساد الشيء إخراجه عن صفته الأصيلة، فهذا إفساد للماء، إفساد للمزروعات بهذه الهرمونات، فالمزارع يهمُّه الربح يرش هرموناً محرَّماً يمنع استيراده، فيأتي به تهريباً، ويرشه فيصبح الإنتاج بحجم أكبر، وألوان أزهى، ولكن هذا الهرمون مُسرطن، هذه المبيدات كلُّها تُملِّح التربة، وتسبب أمراضاً للنباتات، وأمراضاً للإنسان، وأما العلف فهناك طحين لحم الجيف والدم المجفف، وهي أشياء محرَّمة بالأساس، سبب جنون البقر، جنَّ البقر من جنون البشر، أطعموا البقر طحيناً.. لحم الجيف.. فماذا حصل ؟ اضطروا أن يحرقوا ثلاثة عشر مليون بقرة، ثمنها ثلاثة وثلاثون مليار جنيه إسترليني، أفسدوا اللحوم، أفسدوا الهواء، حتى هذه المحطات الكثيرة جداً في الهواء تُسَبِّب فساداً في الاتصالات، الأمراض تأتي للإنسان من كثرة هذا البَثْ في الهواء، الضجيج، الماء الملوَّث، التربة الملوَّثة بالملوحة الزائدة، وبالمبيدات الكيماوية، كل ذلك لماذا ؟ لأن هدف الإنسان الربح فقط..

حب المال يجعل الإنسان يفسد في الأرض :

حب المال مرض

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (10))

المرض حبُّ المال، من أجل حب المال نفعل كل شيء، لذلك يغيرون خلق الله عزّ وجل، هل من الممكن أن تضع مادة في بعض المواد الغذائية، وهي مادة كيميائية محضة لا يقبلها الجسم لتُبَيِّض هذا الإنتاج فيزداد سعره ؟.

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (10))

حب المال جعلهم يفسدون هذا الإنتاج..

(فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11))

طبعاً يصلحون جيوبَهم، يصلحون معيشتهم وحدهم، ويبحثون عن مصالحهم الضَيِّقة.

كل منافق يرى ربحه هو الصلاح ولو على حساب كل شيء:

أخواننا الكرام، أول صفة للمؤمن أنَّه يُصلح والمنافق يفسد، بمطلق معنى هذه الكلمة: يُفسد كل شيء، يفسد علاقةً بين زوجين، علاقةً بين شريكين، علاقةً بين جارين، علاقةً بين أمٍ وابنها، علاقة بين ابنٍ وأبيه، مهمَّة المنافق دائماً إفسادُ العلاقات، مهمة المنافق تحقيق الربح ولو على حساب إفساد البيئة، يُفسد البيئة، ويفسد الهواء، ويفسد الماء، ويفسد المزروعات، ويفسد الصناعة، ويبث الأفكار غير الصحيحة إفساداً للعقائد، يُفسد العقيدة، يُفسد علاقة الإنسان بالله عزَّ وجل، يغريه بأشياء محرَّمة.. (ما فيها شيء يا أخي أنت عايش خارج العصر)؟ يجب أن تتنوَّر، أن ترى ماذا يجري في العالَم، ركب لك صحناً ؟.. لئلا تبقى منعزلاً عن العالم، فإذا دخل الصحن إلى البيت صار شيءٌ آخر، ربما ترك الصلاة، ربما فعل المُنكرات، ربما طلّق زوجته، طبعاً لم تعد تعجبه، فلذلك الإفساد واسع ؛ إفساد عقائد، إفساد أخلاق، إفساد علاقات، إفساد بيئة، إفساد صناعة، إفساد زراعة، إفساد ماء، إفساد هواء..

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ (11))

هم وَقِحون يركبون رؤوسَهم، يقولون:

(إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11))

يرى الصلاح في الفساد، يرى ربحه هو الصلاح ولو على حساب كل شيء..

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12))

المؤمن مُبارك يجمع ولا يُفَرِّق، يُصلح ولا يُفسد:

المؤمن مُبارك يجمع ولا يُفَرِّق، يُصلح ولا يُفسد، يقرِّب ولا يُبَعِّد، يحبب ولا ينفر، دمَغهم ربنا عزّ وجل عندما قال :

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (07- 95):تفسير الآيات 11-16، أعظم أنواع الفساد إفساد العقيدة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-08-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

المنافق يَجْهَدُ في الإفساد بأوسع معاني هذه الكلمة:

مع الآية الحادية عشرة وهي قوله تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11))

ذكرت في الدرس الماضي أن الفساد إخراج الشيء عن أصل تركيبه، عن أصل طبيعته، عن أصل جِبِلّته، فالمنافق يَجْهَدُ في الإفساد بأوسع معاني هذه الكلمة، إفساد البيئة، إفساد العلاقات، إفساد النفوس، إفساد الأسرة، إفساد التجارة، إفساد الصناعة، إفساد الزراعة، إفساد العلاقات، إفساد الفتاة، إفساد الشاب، إفساد الجيل، إفساد الماء، إفساد الهواء، إفساد ما يُطْبَع، إفساد ما يُنْشَر، إفساد ما يُبَثّ. الفساد جزءٌ أساسي من سلوك المنافق، لأن شهوته تُروى مع الفساد، ومصلحته تتحقق مع الفساد، والفساد يحقق له نهمه الشديد إلى النزوات التي أودعت في جسمه والتي يُصَرّفُها بخلاف ما أمر الله عزّ وجل.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11))

في الحياة الخاصّة هذا المنافق لو أن عنده آلة غالية الثمن، عظيمة النفع، كثيرة الربح وتعطلت، إلى من يلجأ ؟ هذا المنافق، هذا المُتَفَلِّت، هذا الذي يَرُدُّ منهج الله، هذا الذي يبحث عن منهج أرضي، هذا الذي يرفض طاعة الله عزّ وجل، لو أن عطباً أصاب آلة يملكها عظيمة النفع، غالية الثمن، شديدة التعقيد، إلى أين يلجأ ؟ يلجأ إلى الخبير، يلجأ إلى الشركة، أو إلى وكلائها، أو إلى تعليمات الصانع ـ النشرة التي ترفق مع الآلة ـ هو يعتمد في مصالحه الدنيوية على الخبير، يلجأ إلى الخبير، مُرَكّبٌ في أعماقه أنه لا يجوز أن نتصرف بهذه الآلة إلا وفق تعليمات الصانع، فلماذا تلجأ أيها المنافق في حل مشكلاتك إلى منهجٍ غير منهج الله، إلى منهجٍ لا يتعلّق بالخالق يتعلّق بالمخلوق، لماذا تستشِر من ليس خبيراً في حقيقة الإنسان ؟

الكلمة الجامعة المانعة للمنحرفين الشاردين العصاة كلمة فساد:

قال تعالى:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28))

(سورة الكهف)

وقال:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ (15))

(سورة لقمان)

فالمنافق متناقِض، يلجأ في أموره الدنيوية إلى الخبير أما في أمور الآخرة فهو يلجأ إلى منهج غير منهج الله، لذلك كان الفساد، صمم الله المرأة لكي تكون أماً أو زوجةً أو أختاً أو بنتاً، أرادها المنافق بصفةٍ أخرى، أراد أن يستمتع بها من دون أن يتحمّل تبعات هذا اللقاء، لأن الزواج تَبِعة ومسؤولية، هو أراد المتعة ولم يرد أن يتحمّل التبعة فزنى، لما زنى أفسد هذه الفتاة هي بلا زوج، بلا أولاد، بلا أقارب، ما دام فيها رمق تأكل بثدييها ـ إن صح التعبير ـ فإذا زوت محاسنها أصبحت ملقاةً في الطريق، ألم يفسدها؟ انظر إلى امرأةٍ ساقطة عندما ترى بعينها امرأةً مؤمنة مع زوجها وأولادها تذوب كالشمعة تمنّياً أن تكون كهذه المرأة الشريفة، من الذي أفسدها ؟ المنافق، أفسد فتاةً، أفسد شاباً دلّه على الانحراف، أفسد عقلاً حين أودَعَ فيه الشُبُهات، أفسد علاقة حين باعد بين الزوجين، أفسد علاقة وباعد بين الشريكين، فالكلمة الجامعة المانعة للمنحرفين الشاردين العصاة كلمة فساد، العلاقة فاسدة، الأمور فاسدة.

إذا أخرجنا الشيء عن قواعده، عن أصل بنائه، عن خصائصهِ، عن وصفه الطبيعي أفسدناه، والشيء الفاسد لا يصلحه إلا الخبير، إلا العليم، إلا الحكيم، يعمل المنافقون ليلاً نهاراً لإفساد كُلِّ شيء، أحياناً يصنع مادةً فاسدة يبيعها ولا يعبأ، لولا المراقبة الشديدة لأكل الناس سموماً، لكن هناك مراقبة شديدة، هو طواعية لا يصلح بل بالقهر، ولولا المراقبة المادية لباع بضاعةً فاسدة، لباع دواءً فاسداً، لابْتَزّ أموال الناس لأنه فاسد، هدفه المال والمال بأي شكل وبأي طريق.

أعظم أنواع الفساد أن تُفْسِدَ العقيدة:

قال تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11))

كم حرفة مَبْنية على معصية ؟ مبنية على مخالفة منهج الله كم حرفة ؟ مئات الحرف، هذه المقاصف وما فيها من موبقات ومن خمور ومن تَبَذُّل، مبنية على معصية، فلذلك موضوع الفساد موضوع

طويل جداً، فأنت حينما تُفسد الماء فهذا من صفات المنافق، فهو لا يعبأ، تفسد الهواء، تفسد البيئة، تفسد المزروعات.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ (11))

الحقيقة أعظم أنواع الفساد أن تُفسِد العقيدة، أن تفسد دين الإنسان، أن تُعَلِّقهُ بأوهام ما أنزل الله بها من سلطان، أن تعلقه بشفاعةٍ ساذجة.

((يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسكِ من النار أنا لا أغني عنك من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

[مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد والدارمي عن أبي هريرة]

أن تُعَلِّقَهُ بحديثٍ موضوع، أن تعلقه بحديثٍ ضعيف، أن تعلقه بتأويلٍ غير صحيحٍ لآيات الله، أن تأتيه بقصص لا أصل لها في الدين، أن تأتيه بِقِيَم رفضها الإسلام، لذلك لو استمعت إلى منافق تجد أن كل كلامه غلط، كلامه، منطلقاته، أهدافه، أدلته كلها غلط، ليست إسلامية، ليست دينية، ليست مشروعة، يأخذ من هذا كلمة، ومن هذا كلمة، ومن هذا تعليق، ومن هذا حكمة، ومن هذا مقياس، بلا ضوابط، المؤمن واضح، واضح وضوح الشمس.

وصف الله عزّ وجل الكُفّار بوصفٍ معجز :

قال تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ (11))

يركب رأسه، ويُصم أذنيه عن سماع التوجيه الصحيح.

(قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11))

مصلِح بنظره، فكسب المال هو الصلاح عنده، كسب المال عنده أساسه إفساد العلاقات، دخله قليل، يؤجّر بيته تأجيراً لا يُرضي الله، يقول لك: يؤجر بالليلة عشرة آلاف، بالليلة عشرون ألفاً، علما أن أجرة النوم في أفخر فندق خمسة آلاف، معنى ذلك أنه يوجد مشكلة بالبيت وليست قضية نوم، أنت تعرف من السعر، يجيبك أنا ليس لي علاقة، أريد أن أربح، لذلك قضية الفساد قضية واسعة جداً، فحركاته،

سكناته، حتى لو زار شقيقته يفسد علاقة أخته بزوجها بكلمة شيطانية لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً، يفسد علاقة أخته بزوجها بتعليقات غير صحيحة، بنظرة، بنقدٍ مُرٍّ حادّ. أيها الأخوة، حركة المنافق حركة فساد، حركة إيقاع بين الناس، حركة تقطيع علاقات، حركة قطع ما أمر الله به أن يوصل، حركة تغيير معالم الشيء، وصف الله عزّ وجل الكُفّار بوصفٍ معجز، قال:

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً (45))

(سورة الأعراف)

الأمور كلها مُعْوَجّة، غير صحيحة.

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً (45))

صفة المؤمن الأساسية الإصلاح، وصفة المنافق الأساسية الفساد:

أحد أكبر صفات المؤمن الإصلاح، يصلحون إذا فسد الناس، أحباب النبي عليه الصلاة والسلام في آخر الزمان يصلحون إذا فسد الناس، فإذا سألتني عن صفة أساسية للمؤمن قلت: الإصلاح، التوفيق، التقريب، الجَمع، النصيحة، الرحمة، الإنصاف، العدل، إن سألتني عن صفة أساسية في حياة المنافق قلت: الإفساد، طبعاً تحت غطاء، نحن فرضاً في بعض البلاد المجاورة ننشئ نادياً للقمار بكلفة خمسين أو ستين مليوناً، يقول لك: يدر علينا دخلاً كبيراً، الإله هو المال، فأي شيء يجلب المال صار بجهله إصلاحاً، يمارس مصلحة مبنية على المعصية، يقول لك: هذه مصلحة رائجة الآن يا أخي، يبدِّل مصلحته فوراً إلى مصلحة أو إلى حرفة أساسها إفساد الشباب، يقول لك: هذه أربح، يقول لك: أليس العمل عبادة ؟ تكون حرفته غلط كلها، فساد كلها، يعُدّ العمل عبادةً !! فقضية الفساد صفة جامعة مانعة للمنافق، حتى في بيته، حتى في تَبَذُّله في البيت، حتى في إلقاء نظراته، نظراته خبيثة، ثيابه بعيدة عن الحشمة، امرأةً كانت أو رجلاً.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11))

يرى الصلاح بكسب المال، يرى الصلاح بتحقيق المتعة، يقول لك: أنا أستخدم في العمل فتيات لأنهن أكثر إيناساً، وأقل مَؤونَة، وأكثر طواعية، وأحفظ سراً، يرى ميزات عمله فقط، والناحية الثانية يُغْفِلُها، وهي هذا الشاب الذي ينتظر عملاً ليتزوج، لقد أصبح الطريق مسدوداً أمامه.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12))

طبعاً لا يشعر، هو في أعماقه يشعر أنه فاسد، ولكن لا يشعر أن هذا العمل له آثار قد لا تَخْطُر في باله.

الهدف عند المنحرفين أن تفسد من أجل أن تربح:

قال تعالى:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ (12))

(سورة يس)

فرضاً من باب الجدل، لو أن إنساناً أفسد فتاة، يشعر أنه أفسدها، وأخرجها عن طبيعتها، وعن قوامها الذي أراده الله لها، خلقها الله لتكون زوجة طاهرة تنجب أولاداً، فَلِذة أكبادها، فلما أفسدها أخرجها عن طبيعتها، وجعلها تمتهن الانحراف، هو لا يشعر أنه بعد مئة عام قد يأتي من نسلها مئة ألف، مئة ألف فتاةٍ فاسدة، كلهن في صحيفة هذا الذي أفسد الأولى، هذا معنى قوله تعالى:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ (12))

(سورة يس)

لو اطلع الإنسان على الآثار الوبيلة التي يتركها عمله لارتعدت فرائصه، كل هذا محاسبٌ عليه، يسُنُّ الإنسان أحيان سنة سيئة فعليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، الذي اخترع البارود، شعر بجريمته بعد أن اخترع البارود، فرصَدَ كل أمواله كجائزة سنوية لمن يُقَدِّم أعظم بحثٍ يعود على الإنسانية بالخير.

لذلك أيها الأخوة، الحديث عن الفساد حديث طويل، فالهدف عند المنحرفين أن تفسد من أجل أن تربح، الإفساد من أجل أن تربح المال، أو أن تنغمس في الشهوة، الهدف إما ربح مال، والمال مادة الشهوات، أو تحقيق لذّة دنيا سافلة، فإما أن يتمتّع، وإما أن يكسب المال، من أجل هذين الهدفين يفعل كل شيء، ويفسد كل شيء، ويحرف كل شيء، ويزوّر كل شيء.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11))

يركبون رؤوسهم، يتعنّتون.

قصص من العالم عن انتشار الفساد بما كسبت أيدي الناس:

لكن الله سبحانه وتعالى قوله الحق:

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12))

قصة مشهورة بأوروبا وأمريكا: أن شاباً رأى فتاةً فأعجبته، فاستشار أباه، قال له: لا يا بني إنها أختك، وأمك لا تدري، ثم رأى فتاةً أخرى فاستشار والده، قال: لا يا بني إنها أختك، وأمك لا تدري، ثم أعجبته فتاةٌ ثالثة، فاستشار أباه، فقال له: القول السابق، فضَجِر وحدّث أمه فقالت: يا بني خذ أياً شئت، فأنت لستَ ابنه، وهو لا يدري، هذه هي الحياة البعيدة عن منهج الله، أحياناً يأتي خبير يقيم سنتين بعيداً عن وطنه وزوجته، ثم يدعو أصدقاءه لحفل بمناسبة أنه رُزق مولوداً، أنت مقيم

هنا منذ سنتين !! لا يهم، ولكن جاء له مولود من زوجته، هكذا حياتهم، حياة فوضى، أطول زواج يستمر سنتين في عالم الفساد.

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ (41))

(سورة الروم)

ذكرت لكم سابقاً أن أحد إخواننا الكرام كان مسافراً إلى بلد بعيد في أمريكا فرجع، حدثنا عن شركة كمبيوتر من أرقى الشركات في أمريكا زَفّت بشرى إلى عُمّالها وموظفيها أن من كان له شريكٌ مِثْلي، شريكٌ جنسي، أو موظفةٌ لها شريكةٌ جنسية يُعَدُّ هذان الكيانان كيان أسرة، ويستحقُّ الشريكان الأولان والأخريان التعويضات والإجازات والمكافآت، كما لو أنشأ أسرةً، تعد الكيانات الشابة المنحرفة الآن كيانات صحيحة، هذا هو الفساد.

أجري برنامج في بعض الولايات عن الزنى، فجاءت هواتف كثيرة؛ ملخّص هذه الهواتف أن ثُلث حالات الزنى حالات زنى محارم، وهذه ظاهرة خطيرة جداً، هذا هو الفساد، علاقات إباحية، اختلاط أنساب، فقد يأخذ الطبيب غير المنضبط حوينات من رجل، ويعطيها لامرأة أخرى، فتنجب طفلاً، وتسعد بهذا الابن، وهو ليس من زوجها، هو من زوجٍ آخر، اختلاط أنساب، علاقات إباحية، هذا هو العالم الغربي اليوم، يقولون: أُلْغِيَ الرقيق، هناك الآن رقيق أبيض، هناك بحوث لا تصدق من شركات عملاقة في العالم تشتري الفتيات والصغار من شرق آسيا، وتبيعهم لأشنع الأعمال وأخَسِّها في بلاد الغرب الغنية، هذا هو الفساد في البر والبحر، بما كسبت أيدي الناس.

الأسرة هي اللبنة الأولى في المجتمع فكل ما يَدْعَمها ويقوّيها هو إيمان:

الحديث عن الفساد طويل جداً، قال الله عزّ وجل:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ (41))

(سورة الروم)

هناك فساد في كل مكان، تركب طائرة تجد الفساد، كلما قدمت الشركات خدمات أكثر تفلّتاً كانت أكثر رواجاً، تقدم المشروبات في الجو، وفي البر، وفي البحر، وفي الفنادق، ما معنى الفندق الآن بالمفهوم العصري ؟ هناك مصطلح جديد اسمه السياحة الجنسية، يسافر من أجل الجنس أليس هذا فساداً ؟ بارت سوق الزواج، وراجت سوق الفساد، وهذا مما يُرضي المنافقين.

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ (41))

(سورة الروم)

لذلك دعم الأسرة إيمان، وتحطيم الأسرة نِفاق، أي إجراءٍ يَدْعَم الأسرة ويقوّيها فهو إيمان، لأنها اللبنة الأولى في المجتمع، وأي إجراءٍ يضعفها، يزلزلها، يفككها، فهذا عمل من أعمال المنافقين، وهذا هو الفساد، فكم من بيتٍ تَهَدّم من فعل الفساد، كم من علاقةٍ تحطمت بفعل الفساد، كم من مالٍ

أهْدِر بفعل الفساد، كم من ضياعٍ مخَرّبٍ بفعل الفساد، والفهم كفاية، فالإنسان يتعلّم حرفاً والتكرار ألف.

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ (12))

أروع ما في المؤمن عدم التناقض الذي نجده عند المنافق:

ربنا عزّ وجل يقرر، وكلامه هو الحق.

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12))

تترتب على فسادهم نتائج خطيرة لا يشعرون بها:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آَمِنُوا كَمَا آَمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آَمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ (13))

أروع ما في المؤمن عدم التناقض الذي نجده عند المنافق، كيف التناقض ؟ هُم يخادعون الله والذين آمنوا، يخادعون الذين آمنوا بقولهم إنهم مؤمنون، إذاً:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آَمِنُوا كَمَا آَمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آَمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ (3))

إذا كنتم تعدون الإيمان سفاهة فلماذا تخادعون المؤمنين بأنكم مؤمنون ؟ مركبٌ في أعماق الإنسان أن الإيمان هو الحقيقة الصّحيحة، وأن الكفر هو الخطأ الكبير.

الوقت هو وعاء كل شيء فإذا ألغي هذا الوعاء انتهى كل شيء:

قال تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آَمِنُوا كَمَا آَمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آَمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ (13)

بالمناسبة من هو السفيه ؟ هو الذي يُضيّع النفيس ويأخذ الخسيس، فإذا أتلف إنسان ماله فرضاً، أو أنفق ماله إنفاقاً غير معقول نسميه سفيهاً، والسفيه يُحْجَرُ عليه، فأيهما أثمن ؟ والآن كلام دقيق، من هو السفيه الحقيقي ؟ إذا رأيت إنساناً يمسك مئة ألف ليرة عدّها أمامك، ثم جاء بعود ثقاب فأحرقها أمامك، ثم ألقى الرماد في سلة المهملات، ألا تعتقد أنه مجنون، أو أنه سفيه ؟ مئة بالمئة، مثل هذا الإنسان الذي يُحْرق مئة

ألف يُحْجَر على تصرفاته لأنه سفيه، قد يكون الإنسان مصاباً بمرض، وهو بحاجة لعملية جراحية معقدةٌ جداً، باهظة التكاليف، تُجْرى له في بلدٍ بعيد، كُلفة هذه العملية بقدر ثمن بيته، لا يتردّد أبداً فيبيع بيته ليجري عمليةً يتوهّم أنها تُمد له بضعة سنوات في عمره، لماذا فعل هذا ؟ لأنه مركبٌ في أعماقه أن الوقت أثمن من المال فضَحّى بالمال من أجل الوقت.

إذا أتلف الإنسان أمامك مئة ألف تعده سفيهاً، فإذا ضيّع الوقت أمامك ألا تعده أشد سفاهةً ؟ بالتأكيد، أخطر شيء أن تُمضي سهرة إلى الساعة الواحدة ؟ لمتابعة مسلسل، شيء سخيف، بمتابعة قصة فارغة، بمتابعة حديث فارغ، بلعب النرد، هذا الذي يقتل وقته، أنت وقت، أنت بضعة أيام فقط، كلما انقضى يومٌ انقضى بضْعٌ منك، أثمن شيء تملكه هو الوقت، طبعاً أثمن من المال بما لا يُقدّر، ماذا يفعل الإنسان بالمال عندما تنتهي حياته ؟ فلو ترك ألف مليون، انتهت حياته، الوقت هو وعاء كل شيء فإذا أُلْغي هذا الوعاء انتهى كل شيء، مركبٌ في أعماق كل منا أن الوقت أثمن من المال، فالذي يتلف ماله يُعَدُّ سفيهاً، والذي يُضَيِّع وقته يعد أشد سفاهةً.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ (13))

قيمة الإنسان في آخر الزمان بقيمة متاعه فقط لا بإيمانه ولا بأخلاقه :

لعلهم يتوهمون أن الفقراء هم السُفهاء، فالسفهاء في رأيهم تعني الفقراء لأن مقاييسهم ماديّة محضة، يُقَدِّرون الإنسان بحجم ماله، بنوع بيته، بمساحة بيته، بموقع بيته، بنوع مركبته، بالرقم الذي على خلف المركبة، فحجم الإنسان عند هؤلاء السفهاء بحجم متاعه، وقيمة الإنسان في آخر الزمان بقيمة متاعه فقط، لا بإيمانه، ولا بأخلاقه.

كان الأحنف بن قيس إذا غضب غَضِبَ لغضبته مئة ألف سيف لا يسألونه فيما غضب، مع أنه كان قصير القامة، أسمر اللون، غائر العينين، ناتئ الوجنتين، أحنف الرجل، ضَيّق المَنْكِبَين، ومع ذلك كان إذا غَضِب غَضِبَ لغضبته مئة ألف سيف لا يسألونه فيما غَضِبْ، فقيمة الإنسان بإيمانه، وأخلاقه، وعمله.

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ (13))

غاص إنسان في البحر، وتَجَشّم المشاق، ورأى اللآلئ أمامه فتركها وأخذ الأصداف ألا يُعَدُّ سفيهاً ؟ فهذا الذي يأتي إلى الدنيا، ويخرج منها، وما فعل شيئاً، إلا أنه أكل، وشرب، ونام، واستمتع فقط كالبهائم.

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (44))

(سورة الفرقان)

صفات المنافقين كما وردت في القرآن الكريم:

قال تعالى:

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ (4))

(سورة المنافقون)

وقال:

(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51))

(سورة المدثر)

وقال:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً (5))

(سورة الجمعة)

وقال:

(كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ (176))

(سورة الأعراف)

وقال:

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (44))

(سورة الفرقان)

هذه صفات المنافقين في القرآن الكريم.

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ (13))

كل إنسان يعصي الله مدموغٌ بالجهل والكفر :

لو ذهب إنسان إلى بلد غربي لكي يحصل على الدُكتوراه، على أن يعود إلى بلده ليتقلّد أعلى منصب، ويأخذ أجمل بيت بكل الميّزات، فنسي مهمته الأساسية، وتَسَكّع في الطُرقات، وانْدَسّ هناك في الملاهي وعُلب الليل حتى أصبح متسولاً، ألا يُعد هذا سفيهاً؟ مُهَيّأً له أن يكون في أعلى منصب، وفي أعلى درجة، وفي أعلى ميزة، ترك كل هؤلاء وانصرف إلى سفاسف الأمور، قال تعالى :

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ (13))

كان النبي عليه الصلاة والسلام يمشي مرةً مع أصحابه فرأى مجنوناً فقال: من هذا ؟ ـ سؤال العارف ـ قالوا: هو مجنون، قال: لا هذا مُبْتَلى، المجنون من عصى الله.

هذا الذي يعصي الله، ولا يعبأ بالموت، ولا يعبأ بما بعد الموت، ولا بالحساب، لا بالبرزخ، ولا بالجنة، ولا بالنار، يعيش لحظته، يعيش لذّته، يقتنص المال بأي طريق وبأي أسلوب هذا سفيه، هذا أحمق، لذلك يعد المنحرف أحمقَ، قال الإمام الغزالي : " يا نفس لو أن طبيباً حذّرك من أكلةٍ تحبّينها لا شَكَّ أنّك تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟ إذاً ما أكفرَك، أيكون وعيدُ الطبيب أشدّ عندك من وعيد الله إذاً ما أجهلك ". كل إنسان يعصي الله مدموغٌ بالجهل وبالكفر.

حياة المؤمنين واضحة جداً لا يوجد عندهم شيء يستحيون به:

قال تعالى:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ (14))

لقوا: في الطريق، في مكان عام، في مسجد، تحت ضوء الشمس.

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا (14))

قال عليه الصلاة والسلام :

((قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك))

[أحمد وابن ماجة عن العرباض بن سارية]

يكون الإنسان جالساً أحياناً في بيته مع زوجته، يُطرق الباب فيفتحه بهدوء وبراحة وبشكل طبيعي وعفوي، فإذا شقيق زوجته، أهلاً وسهلاً تفضل، جلسا يتحدثان، تُقدّم له ضيافة شيء طبيعي جداً، فهو شيء مشروع لأن هذه زوجته، كان عليه الصلاة والسلام معتكفاً جاءته امرأته بطعام، فلما أرادت أن تعود رافقها عليه الصلاة والسلام، مرّ صحابيان فاستحيا من رسول الله فأسرعا، قال:

((عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ، قَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، فَخَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئاً، أَوْ قَالَ: شَرّاً))

[سنن أبي داود عن صفية]

((على البيضاء ليلها كنهارها))

تجد عرساً، فترى السيارات، وتسمع أبواقها، شيء علني ومكشوف، يتزوج الإنسان فتحمل زوجته، يفرحون ويهيئون، تنجب هذه الزوجة، فتُقام الأفراح، تُقدّم الهدايا، شيء مكشوف واضح ! أما لو أن إنساناً يجلس مع زوجة صديقه دون علم صديقه في خلوةٍ في بيته، طُرق الباب فذهب ليفتح فإذا هو صَديقه، تراه يضطرب ماذا يفعل ؟ يطفئ الأنوار، فقال له: من ؟ هناك صوت !! فهل هناك باب

آخر ليخرجها منه ؟ لا يوجد باب آخر، أين يخبّئها ؟ ماذا يقول لزوجها ؟ كل هذا الاضطراب، كل هذا الخوف، كل هذا الارتباك لأنه شيء محرّم.

الباطل يحتاج إلى خَلوة:

قال تعالى:

(وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ (14))

وقال:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا (14))

لقاء في مكان عام، في مسجد، في الطريق، في مجتمع، في مدرسة، في مشفى، حياة المؤمنين واضحة جداً لا يوجد عندهم شيء يستحيون به، لا يوجد عندهم جلوة وخلوة، علانيّتهم كسريرتهم، جلوتهم كخلوتهم، خلوتهم كجلوتهم، الأمور واضحة:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا (14))

أما الباطل فيحتاج إلى خَلوة، فهل من الممكن لإنسان أن يغش الحليب أمام الشاري ؟ مستحيل، يتم الغش في خلوة، في غرفة ثانية، في مكان مظلم، كل شيء منحرف يحتاج إلى خلوة، أما كل شيء صحيح لا يحتاج إلى خلوة، تفعله على مرأى الناس جميعاً، تفعله وأنت مطمئن، الإثم ما حاك في صدرك وخشيت أن يَطّلع عليه الناس، كل شيء تستحي به فهو باطل وكل شيء لا تستحي به فهو حق، لذلك:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ (14))

توجد خلوة مع الشياطين، يوجد سر، أبواب موصدة، كلام بصوت منخفض، شيء غير معقول. حياة المؤمن واضحة، حياة المؤمن معروضة على الملأ، حياته في رابعةِ النَهار، تحت ضوء الشمس، الحق لا يخشى البحث، لا يُستحيا به، لا يحتاج أن تكذب له ولا أن تكذب عليه، ولا أن تبالغ فيه، ولا أن تُضخِّمَهُ، ولا أن تقلل من خصومه:

((قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك))

[أحمد وابن ماجة عن العرباض بن سارية]

العمل المشروع لا يُستحيا به ولا تضطرب معه أبداً أما العمل غير المشروع فعلى العكس:

أما الأعمال المنحرفة، الخيانات، المؤامرات، هذا كلّه يحتاج إلى خلوة، وإلى همس، وإلى غمز، وإلى لمز، وإلى مراقبة الطريق، كهذا الزوج الذي يجلس مع زوجة صديقه في خلوةٍ محرمةٍ، يُفاجئهُ زوجها، أين يضعها ؟ أين يُخبئها ؟ من أيّ بابٍ يدفعها ؟ فإذا أراد أن يدفعها يراقب هل هناك

أحد في الطريق ؟ لم هذا الاضْطراب ؟ لمَ هذا الخوف ؟ لم هذا الوَجَل ؟ لم هذه الاحتياطات ؟ لأن العمل غير صحيح، غير مشروع.

يمشي الإنسان أحياناً مع زوجته هادئ البال، أما لو أن شاباً يمشي مع فتاةٍ، وسَمِعَتْ همساً ترتعد فرائصها، لعله أبوها، لعله أخوها، فالعمل المشروع لا يُستحيا به، لا تضطرب معه أبداً، لا تخاف أبداً، أما العمل غير المشروع، مرة كنت في فندق فجاء شخص مع فتاة، فقال له الموظف: من هذه ؟ قال له: معي، قال له: من هذه ؟ أين دفتر العائلة ؟ فلم أر إنساناً بحالة ذُل كهذا الذُل، قال له: من هذه ؟ هل هي زوجتك ؟ فقال له: معي، كيف معك ؟ أين دفتر العائلة ؟ طرده طبعاً، أما الذي اصطحب زوجته يُقال له: تفضل، لا توجد هناك مشكلة، طبعاً هذه أمثلة.

(وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14))

هذا المنافق، شخصية مزدوجة، كأن معه انفصام شخصية، مؤمن مع المؤمنين، معنى هذا أنه ممثل، من هو الممثل ؟ قد يكون أفسق إنسان يمثل أحياناً دور صحابيّ، طُهر، وهدوء، ووقار، وحوقلة، وبسملة، ولا إله إلا الله، هذا كلّه تمثيل:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14))

وصف دقيق للشقي كما ورد في القرآن الكريم:

دقق، أول آية:

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ (12))

ثاني آية:

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ (13))

ثالث آية:

(اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ (15))

كلام خالق الكون، كلام قطعي:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ (36))

(سورة الأحزاب)

القضية منتهية، من هو الشقيّ ؟ الذي وصمه الله بأنه فاسق، وصمه الله بأنه سفيه، وصمه الله بأنه مُفْسِد.

يرفع الله عزّ وجل قدر الإنسان وأحياناً يَفْضَحُهُ فالعبرة بالعاقبة:

لذلك أيها الأخوة، عَلّم أحد علماء الحديث تلميذاً له الأحاديث الموضوعة أولاً كي يَحْذَرها، وهذا الوصف الدقيق هؤلاء هم المنافقون، أولاً: مفسدون، ثانياً: سفهاء، ثالثاً: عندهم ازدواج شخصية:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ (15))

يرفع الله عزّ وجل قدر الإنسان، وأحياناً يَفْضَحُهُ:

(وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ (18))

(سورة الحج)

مما ورد في الأثر الحديث:

((ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة، ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم..))

[ابن سعد والبيهقي والديلمي عن أبي البجير]

العبرة بالنهاية، العبرة بالعاقبة، العبرة لمن يضحك أخيراً:

(اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ (15))

حينما ترى الله يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره:

دقق:

(وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15))

هذه سُنَّة الله في خلقه، أنت إنسان مخيّر، ولا بدّ أن تأخذ أبعادك كلّها، ولا بدّ أن يسمح لك أن تصل إلى نهاية الطريق، إلى هنا حدود الفساد، إلى هنا حدود الانحراف، لا بدّ من أن يُرْخ لك الحبل، لذلك حينما ترى الله يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره، هناك قصد، إذا وجدت النعم، ووجدت القوة، ووجد المال، ووجدت الوسامة، وهناك انحراف، وكفر، فهذا الإنسان يحتاج إلى ضربةٍ واحدة:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (29))

(سورة يس)

عندما يُعَالج ربنا عزّ وجل الإنسان بالتدريج هذه نعمة عظمى، عندما يتابعه ويُحاسبه على ذنوبه ذنباً ذنباً , وخطيئة خطيئةً، هذه نعمة كبرى، عندما يغلط المؤمن فيأتي العقاب فوراً هذه نعمةٌ ما بعدها نعمة، أي أن الله سبحانه وتعالى يتابعك، ويربّيك، أما حينما يتابع الإنسان كل المعاصي، والانحرافات، والله عزّ وجل لا يعالجُهُ، فإن هذه علامة خطيرة جداً، أنه سوف يقّصم قصْماً.

كل إنسان تحت ألطاف الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15))

يُمَدُّ له، يُرْخى له الحبل، لكن دقق الإنسان في قبضة الله، في أية لحظة تنقلب حياته إلى جحيم، بأي لحظة ينقلب أمنه إلى خوف، خوف مدمِّر، ينقلب غناه إلى فقرٍ شديد في أية لحظة، وفي أية لحظة تنقلب قوته إلى ضعفٍ شديد، الله هو القوي يقوي الإنسان وفي أية لحظةٍ يضعفه، الله هو الغني يغني إنساناً وفي أية لحظةٍ يفقره، الله عزّ وجل يُمِدُّ إنساناً وفي أية لحظة يأخذ منه، الإنسان تحت ألطاف الله عزّ وجل، فأولئك:

(اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ (15))

معنى

(يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ)

يحتقر عملهم، يحتقر سخافتهم، أحياناً الإنسان بسذاجةٍ، بضيق أفقٍ، بجهلٍ فاضح يظنُّ أنه إذا خدع الناس فهو ذكي، أنه إذا خدعهم، وأقنعهم بشيء، وهو على خلاف ذلك فهذه حِنْكة ما بعدها حنكة، هذا حَمقٌ ما بعده حمق، علاقتك بالله وحده، وأنت عند الله مكشوف، وهؤلاء الذين تَخْدَعُهم وتوهمهم لا يملكون لك ضراً ولا نفعاً، ولا حياةً ولا نشوراً، تخدع إنساناً ضعيفاً، تصوروا إنساناً عمره أربعون سنة، وأمامه طفل عمره خمس سنوات مثلاً وهو يحاول أن يقنعه أنه غني، فإذا أقنعتَه أو لم تُقنعه ماذا يفعل هذا الطفل أمامك ؟ شيء لا يُصدّق، فكل إنسان ينسى الله، ينسى أن الله يكشفه، ينسى أن الله مُطّلعٌ على سرائره ويخدع الناس، إذا توهّم أنه حاذقٌ ومُحَنّك فهو أحمق، لأن هذا الذي تخدعه لا يملك لك نفعاً، ولا ضراً، ولا حياةً، ولا نشوراً، ولا رزقاً، ولا أمناً.

سيد الخلق لا يعلم الغيب ولا يملك لكم نفعاً ولا ضراً:

يأمر الله عزّ وجل النبي أن يقول لقومه:

(قُلْ)

وهو ليس شخصاً عادياً بل سيد الأنبياء والمرسلين:

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (76) ﴾

(سورة المائدة)

والأبلغ من ذلك:

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً (49) ﴾

(سورة يونس)

وقال:

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ (50) ﴾

(سورة الأنعام)

سيد الخلق لا يعلم الغيب، وسيد الخلق لا يملك لكم نفعاً ولا ضراً:

((يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسكِ من النار أنا لا أغني عنك من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد والدارمي عن أبي هريرة]

الله تعالى بيده كل شيء:

دقق في هذه الفكرة: أنت من تخدع ؟ هذا الذي تخدعُه عبدٌ مثلك هل يملك لك شيئاً ؟ والذي تتجاهله هو الله بيده كل شيء، بيده مقاليد أمرك:

﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ (15) ﴾

يَحْتقر عملهم، لأن عملهم سيحجبهم عن مصدر السعادة، سيحجبهم عن الجنة، سيمنعهم من التمتُّع بالقرب من الله عزّ وجل:

﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (16)﴾

العملية في النهاية عملية تجارية، يعيش الإنسان في الدنيا سنواتٍ معدودة فيطيع الله عزّ وجل ويلتزم بما أمر، وينتهي عما عنه نهى وزجر، فيستحق دخول الجنة إلى أبد الآبدين، تماماً كإنسان اشترى شيئاً بدراهم معدودات فباعه بملايين طائلة، تاجر:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) ﴾

(سورة الصف)

الخاسر الحقيقي هو الذي خسر الآخرة:

التجارة رأس مال ومبيع وربح بينهما، أما مع الله عزّ وجل الشراء بدرهم والمبيع بمئة مليون، خلقنا الله عزّ وجل لنربح عليه، هؤلاء المنافقون الذين خَدعوا المؤمنين، وفسدوا، واستهزؤوا، وقالوا عنهم: هم سفهاء، هؤلاء المنافقون خسروا في تجارتهم، عاشوا سنوات معدودة، لعلهم كانوا

في بحبوحة، لعل المال الكثير جاء إليهم بسبب نفاقهم، ولكنهم خسروا الآخرة، ما ربحت تجارتهم، فهم تنعّموا لسنواتٍ معدودة وضيّعوا الأبد كلّه، قال:

تجارة المؤمن مع الله رابحة

(أولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (16))

المعنى المخالف: أن المؤمن ربحت تجارته، أحد الصحابة كان في طريقه إلى المدينة يبدو أن الكفار كَمَنوا لهم، أرادوا أن يصرفوه عن الهجرة، قال لهم: خذوا كلّ مالي في مكة ودلّهم عليه فأطلقوا سراحه، خذوا كل مالي، خَبّأ ماله في مكان معين في البيت، قال لهم: مالي في المكان الفلاني خذوه ودعوني، فتركوه، فلما وصل المدينة أخبر النبي عليه الصلاة والسلام، ماذا قال النبي ؟ قال: ربحت التجارة أبا يحيى، ربحت تجارتك، ضَحّى بماله كله من أجل أن يصل إلى النبي، ربحت تجارتك.

وازن بين الدنيا والآخرة بعقلية تجارية، إنسان كسب الدنيا وقد يكسب مالاً وفيراً، ومكانة علية، وبيتاً واسعاً، ومركبة فارهة، ويخسر الآخرة، ربح أم خسر ؟ أكبر خسارة:

(إِنّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ (45))

(سورة الشورى)

من هو الخاسر الحقيقي ؟ الذي خسر الآخرة، أما هذه الدنيا مهما تكن مُتْعِبة، مهما تكن شاقة، مهما تكن المعيشة فيها خَشِنة، لكنها تمضي ويبقى المؤمن إلى الأبد في جنةٍ عرضها السماوات والأرض.

الموت عرس المؤمن وهو نقلة نوعية من دار متعبة إلى دار النعيم:

وازن بعقلية تجارية بين الدنيا والآخرة، ألم تدخل إلى بيوت ثمنها ملايين، وأصحابها تحت أطباق الثرى ؟ ألا يرى الإنسان الجنائز ؟ صلينا اليوم على امرأةٍ، فهل يوجد إنسان من الحاضرين ـ وأنا معكم ـ يمكن أن ينجو من ألا يُصلّى عليه في المسجد ؟ أبداً، لا بدّ من يوم تدخل فيه المسجد أفقياً ليُصلّى عليك، وأنا معكم، لا ينجو أحد، شاهدت مرة في بلد عربي كلمة كتبت على محل تجاري: " **صَلِّ قبل أن يُصلّى عليك** "، إذا استعمل الإنسان عقله، وفكّر في الدنيا الزائلة، لا يوجد ضمانة، الآن توجد أخبار يومية عن حدوث جلطة في عمر خمسة وعشرين ! هذه الأزمات التي كانت تجيء بالخمسينات، بالسبعينات، أصبحت تحدث بسن الخامسة والعشرين، بالخامسة والثلاثين،

شاب في مقتبل العمر مات، منذ أسبوع أجرى طبيب في ريعان الشباب عملية لطفل، ثم نزل إلى غرفته فمات فيها ! فأنت لا تملك من ضمانة إلا طاعة الله عزّ وجل، يجب أن يصطلح المؤمن مع الله، ويطيعه، ويُسَلِّم أمره إليه، ومتى يأتي الموت فهو تحفته، والموت عرس المؤمن، والموت نقلة نوعية من دار متعبة إلى دار النعيم، من دار المرض، والقلق، والهم، والحزن، والمشكلات إلى دار لا شيء يُنَغِّصُ الحياة فيها.

(لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ (16))

(سورة الفرقان)

تجارة المؤمن رابحة أما تجارة الكافر فخاسرة:

لذلك تجارة المؤمن رابحة ، ربحت التجارة أبا يحيى، وغير المؤمن:

(فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ (16))

عملية تجارية، حياتك سنوات محدودة، إذا قلنا لشخص: تمتع بمئة مليون خلال سنة، وسوف تدخل إلى السجن لتمضي عشر سنوات مع التعذيب، هل يقبل هذا ؟ لا أحد يقبل، فلو تمتع سنة، وعشر سنوات تعذيب، فإنه لا يقبل، كيف إذا كانت الدنيا من الآخرة ليست بشيء ؟ لا أحد ينتبه أبداً إذا كان رقم واحد في الأرض وأصفار إلى الشمس، وبين الأرض والشمس مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر وكل ميلي متر صفر، ما هذا الرقم ؟ هذا الرقم إذا قيس باللانهاية قيمته صفر، تصور الرقم واحد بالأرض، وأمامه مئة وستة خمسون مليون أصفار، كل ميليمتر صفر، فكيف إلى المشتري ؟ كل ميلي متر صفر، هذا الرقم إذا قيس باللانهاية الآخرة قيمته صفر، فهؤلاء الناس من أجل عشر سنوات معدودات؛ فسق، وفجور، وانحراف، وأكل مال حرام، ويدع ساعة الموت خارج كل حساباته، يأتي الموت فجأةً فإذا الإنسان في قبضة الله عزّ وجل.

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (16))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (08- 95):تفسير الآيات 17-20، أصناف المنافقين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-08-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص ما جاء في الدروس السابقة:

لا زلنا مع الآيات التي تصف المنافقين، الآيات التي تصف المؤمنين خمسُ آيات، والآيات التي تصف الكافرين آيتان، بينما الآيات التي تصف المنافقين ثلاث عشرةَ آية، هؤلاء المنافقون الذين يقولون:

(آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9))

هؤلاء المفسدون في الأرض.

(إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9))

هؤلاء الذين :

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14))

هؤلاء الذين يستهزئون بالمؤمنين:

(اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (16))

هناك في الأصل علاقة تجارية، تدفع شيئاً وتقبض شيئاً، فالمؤمن ربحت تجارته مع الله ؛ بينما المنافق خسرت تجارته مع الله، شُرِحَت هذه الآيات في درسين سابقين.

طريقة المثال أحد أساليب القرآن الكريم الرائعة في توضيح الحقائق وتَجْلِيَة الأمور :

نصل الآن إلى قوله تعالى:

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17))

أما كلمة

(مَثَلُهُم)

أراد الله جلّ جلاله أن يضرب لنا مثلاً للمنافقين، والمثل صورة حسية واضحة جداً تنطبق على حقيقةٍ معنوية مُعَقّدة، فالمثل طريقة في التعبير رائعة، وطريقة في التعبير واضحة، وطريقة في التعبير قريبة، وطريقة في التعبير صادقة، وطريقة المثال أحد أساليب القرآن الكريم الرائعة في توضيح الحقائق وتَجْلِيَة الأمور.

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً (5))

(سورة الجمعة)

ضع على ظهر الحمار كُتُباً قيمة، وسر به مسافة طويلة، ثم اسأله عن بعض الحقائق التي في الكتب، لا يزيد عن أن ينهق، لأنه لم يفقه شيئاً، فعلاقة هؤلاء الذين أوتوا الكتاب، ولم يفهموا مضمون هذا الكتاب، ولم يعملوا به كعلاقة هذه الدّابة البهيمة بكتابٍ حُمِّل على ظهرها.

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ (176))

(سورة الأعراف)

يلهث على اختلاف أحواله إن كان جائعاً، أو مرتاحاً، أو مُتْعَباً، فهو يلهث، هذا مثل آخر ضربه الله عزّ وجل، ومن اللطيف جداً أن نرجع إلى القرآن الكريم لنرى هذه الأمثال الرائعة التي ضربها الله تعالى توضيحاً لبعض الحقائق.

استخدم النبي عليه الصلاة والسلام في أحاديث كثيرة أسلوب المثل :

استخدم النبي عليه الصلاة والسلام في أحاديث كثيرة أسلوب المثل، فَشَبّه الجماعة بأنهم رُكّاب سفينة واقتسموا أماكنهم، أراد بعضٌ هؤلاء الركاب أن يخرق مكانه ليأخذ الماء سريعاً، قال:

((فإن تَرَكُوهُمْ وما أَرَادوا هَلَكوا وهلكوا جَميعاً، وإنْ أخذُوا على أيديهمْ نَجَوْا ونَجَوْا جَميعاً))

[أخرجه البخاري والترمذي عن النعمان بن بشير]

إذا أخذوا على يده نجا ونجوا وإن تركوه هلك وهلكوا، مثل رائع في المسؤولية الجماعية، نحن في قاربٍ واحد فإذا أراد بعضنا أن يخرق المساحة التي له من هذا القارب يُهْلِكنا جميعاً، فإذا أخذنا على يده نجونا جميعاً وإن تركناه هلكنا جميعاً، هذا من أمثلة النبي عليه الصلاة والسلام.

((الصلاة عماد الدين))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عمر]

خيمة فيها عمودٌ يبرز كيانها، فإذا أُزيح العماد أصبحت الخيمة قماشاً ملقى على الأرض، لا يظهر كيان هذه الخيمة إلا بالعماد الذي في وسطها.

((الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عمر]

آياتٌ كثيرة فيها أمثلةٌ صارخة، وأحاديث كثيرة فيها أمثلة صادقة، يستخدم الدعاة أحياناً طريقة المثل، وهي من أروع الطرق في توضيح الحقائق.

المنافقون ليس لهم في الآخرة رصيد كل رصيدهم في الدنيا:

أيها الأخوة، إن أردت أن تُعَلِّم، أو أردت أن توضِّح، أو أردت أن تلقي الحقيقة فاستخدم المثل، لأن المثل أسلوبٌ قرآني، وأسلوبٌ نبوي، وليس هناك من عملٍ أعظم من أن تُشابه أسلوب القرآن، والأسلوب النبوي، هؤلاء منافقون لأنهم أحبوا الدنيا فقط، ولأن حب الدنيا رأس كل خطيئة، أحبوا الدنيا، وجعلوها نهاية آمالهم ومَحَطَّ رحالهم، وبذلوا جهداً جهيداً من أجلها، فأسسوا وبنوا ومكّنوا أنفسهم في الأرض، فلما أرادوا أن يقطفوا ثمار هذا الجهد الطويل، هذا الجهد الجهيد، هذا الجهد الذي استغرق من حياتهم مثلاً أربعين عاماً، أو ستين عاماً فاجأهُم الموت، وأخذ منهم كل شيء في ثانيةٍ واحدة.

حب الدنيا رأس كل خطيئة

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً (17))

استوقد وزن استفعل في اللغة وزنٌ يعني الطلب ؛ طلب النار، طلب النار لتضيء له حياته، أي طلب المال، طلب العز، طلب المكانة العليّة، طلب الجمال، طلب البيت المريح، طلب المركبة، هذه طلباته.

(اسْتَوْقَدَ نَاراً (17))

من أجل أن تنير له، فبعد جهدٍ جهيد، وعمرٍ مديد، وعملٍ مضنٍ، تألقت النار وأضاءت له ما حوله، جاء ملك الموت فجأةً وأخذ منه كل هذا الجهد، وكل هذه المكتسبات، هذا حال المنافقين، ليس لهم

في الآخرة رصيد، كل رصيدهم في الدنيا، كل البيض في سلةٍ واحدة، فإذا أُخذت منه هذه السلة فقد كل شيء، ليس للمنافق مستقبل أبداً، له حاضر قد يكون رائعاً جداً.

أمثلة عن أناس فاجأهم الموت وهم في أوج تألقهم :

قال تعالى:

(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ (4))

(سورة المنافقون)

ماله وفير، مكانته عَلِيّة، ولكن ليس له مستقبل، كل ما عنده من مال، كل ما عنده من وجاهة، كل ما عنده من مكانة، كل ما عنده من أساليب يستمتع بها بمباهج الحياة الدنيا منوطةٌ بقطر شريانه التاجي، منوطةٌ بسيولة دمه، منوطةٌ بنمو خلاياه فإذا اضطرب نمو خلاياه فقد كل شيء وإذا ضاق شريانه التاجي فقد كل شيء، وإذا تَجَمّد دمه في مكانٍ ما فقد كل شيء.

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً (17))

يسعى ويعمل ويسهر ويُسافر ويؤسس ولا ينام الليل ويخاصم من أجل الدنيا فقط، من أجل المال، من أجل المكانة، فإذا أضاءت ما حوله، أي بدأ يقطف ثمار عمله فاجأه الموت في أحرج الأوقات، بل في أوج تألّقه، في أوج استمتاعه بالدنيا، فاجأه الموت بعد أن انتهى من إنشاء العمارة، بعد أن انتهى من تحصيل هذه الشهادة، بعد أيامٍ من زواجه، بعد سنواتٍ من تألّقِه، وهناك آلاف الأمثلة، سعى إنسان في بناء بيتٍ سنواتٍ طويلة، فلما انتهى البيت فاجأه الموت بعد أيام.

حدثني أخٌ كريم عن إنسان اشترى بيتاً في مكان جميل، واعتنى بكسوته عناية تفوق حد الخيال، وجاء بأمتعته ليستقر بهذا البيت، وجاء بالوجبة الثانية، وبالوجبة الثالثة، وبقي جهازٌ ينبغي أن يركب في بيته، رُكِّب الجهاز، ولما حان موعد المجيء النهائي، والاستقرار في هذا البيت، وافته المنيّة في اليوم نفسه الذي أزمع فيه أن يسكن هذا البيت.

المنافق إنسان بلا هدف أخروي وبلا مستقبل :

هذا كلام عام، يسعى الإنسان إلى الدنيا بكل جهده، بكل وقته، بكل ماله، بكل تعبه، بكل كده، بكل عرقه، فإذا امتلك منها شيئاً أضاءت ما حوله، أي صارت له مكانة، له دخل ثابت، يسكن بيتاً مريحاً، له مركبة مريحة، أمره نافذ، اتصالاته جيّدة، معارفُهُ كُثُر، أتباعه كثيرون، يأتيه ملك الموت وهو في هذه اللحظة من النشوة ليأخذ منه كل شيء في ثانيةٍ واحدة، المنافق إنسان بلا هدف أُخروي، وإنسان بلا مستقبل، وأوضحُ مثلٍ هذا المثلُ.

(اسْتَوْقَدَ (17))

بذل الجهد المضني إلى أن أضاءت ما حوله، استمتاعه بها لسنوات معدودة، وهذه الدنيا أمامكم، من دون مفاجآت، حتى يصل الإنسان إلى الحد المعقول يحتاج إلى أربعين عاماً من حياته، ماذا بقي له من حياته حسب متوسط العمر في الدنيا ؟ يقول النبي صلى الله عليه وسلم:

((معترك المنايا ما بين الستين إلى السبعين.))

[الحكيم عن أبي هريرة]

كل سنة يعيشها بعد الستين مَكْسَب، عندما يبلغ عمره الستين عاماً يشعر بأنه قد يفاجأ بالموت في كل لحظة، وقد يموت وعمره خمسون عاماً، ففي أحسن الاحتمالات بعد الستين، أصبح احتمال الموت بعد الستين قائماً في كل لحظة، ماذا استمتع من حياته ؟ عشرون سنة. ضيّع الأبد بعشرين عاماً مشحونة بالمتاعب والخصومات والدعاوى، انظر إلى قصر العدل عشرات بل مئات الألوف من الدعاوى، هناك دعاوى بين الناس وهناك خلافات أسرية، وخلافات تجارية، وعلل بصحته، وهو يطلب الدنيا بكل ما يملك، هذا حال المنافق.

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ (17))

معان متعددة لآية (استوقد ناراً):

1- المعنى الأول أن المنافق يريد من النار أن تضيء له حياته ليكون سعيداً:

أراد المنافق من النار ضوءها طبعاً، قد تُريد النار من أجل الدفء، وقد تُريدها من أجل طهو الطعام، وقد تُريدها من أجل النور. هنا أراد الله عزّ وجل أن يبيّن لنا أن المنافق يريد من النار أن تضيء له حياته، أن تكون حياته سعيدة، فيها بهجة، فيها عِز، فيها فخامة، فيها رفاه، وكم من بيتٍ فخمٍ لم يسكنه صاحبه، وكم من مركبةٍ فارهةٍ ركبها أياماً معدودة، ثم فاجأه ملك الموت، هذا الذي يجعل كل مكتسباته محصورة في الدنيا، يقامر ويغامر.

المؤمن له مستقبل، والمؤمن يأتيه ملك الموت، ولكن يأتيه ملك الموت وله عند الله رصيدٌ كبير، قدّم ماله أمامه فسهُل عليه اللحاق به، رصيده عند الله كبير، استقامته، وطلبه للعلم، وعمله الصالح،

ونفعه للمسلمين، صدقه، وأمانته، وتربية أولاده، هذه كلها أرصدة هائلة مودَعَةٌ له في الآخرة، فإذا فاجأه الموت يقول له: مرحباً، الموت تحفة المؤمن، الموت عرس المؤمن، لا تكن أيها الأخ الكريم كالذي وضع كل إمكاناته في الدنيا، هذه الإمكانات العالية في الدنيا تُنهيها جلطة، تنهيها سكتةٌ قلبيةٌ مفاجئة، تنهيها خثرةٌ دماغية، ينهيها نمو الخلايا العشوائي، أما الذي له عند الله رصيدٌ كبير من العمل الصالح، ومن الانضباط الشرعي، ومن الدعوة إلى الله، لو جاءه الموت، الموت تحفته، الموت عُرسه.

2- المعنى الثاني رفض المنافقين لدعوة النبي التي كانت ستوصلهم للسعادة في الدنيا والآخرة:

المعنى الثاني في هذه الآية أن اليهود كانوا يتحدّوْنَ المنافقين قبل مجيء الرسالة النبوية بقولهم: آن أوان مجيء نبي نؤمن به، فالمنافقون كان عليهم أن يؤمنوا بهذا النبي ليتحدّوا اليهود الذين بشروهم بهذا النبي، فلما جاء النبي الذي كانوا ينتظرونه، وكانوا يبحثون عنه، كي يردوا على كيد اليهود، وكي يقفوا أمامهم نداً لند، كذّبوا به، فهم استوقدوا ناراً، فلما أضاءت ما حولهم أذهب الله نورهم الذي كان من الممكن أن يُرْشِدهم إلى طريق السعادة في الدنيا والآخرة برفضهم لدعوة هذا النبي.

3- المعنى الثالث أنهم كفار حقيقة لكن مصالحهم تعلقت بالمؤمنين فأظهروا ما لا يبطنون:

هناك معنى ثالث: أن هؤلاء المنافقين هم في الحقيقة كُفّار، ولكن مصالحهم تعلّقت بالمؤمنين، فأعلنوا إسلامهم، وأخفوا كفرهم، وهم أرادوا الدنيا فقط، هؤلاء انتفعوا بكفرهم، ولكنهم يختلفون عن الكافرين بأن لهم مصالح مع المؤمنين، فأظهروا ما لا يُبطنون، وأعلنوا ما لا يُسِرُّون، والدليل على ذلك:

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18) ﴾

هذه منافذ الإيمان.

الاستماع الذي أراده الله هو الذي يعقبه تطبيق:

صممٌ أصَم لا يسمع.

(إِنّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37))

(سورة ق)

الإنسان إذا أصغى:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا (4))

(سورة التحريم)

المؤمن يصغي إلى الحق لكن المنافق لا يصغي، قد يجلس في مجلس علم، لأنه على موعد مع شخص، قال له: نلتقي في الجامع، يجلس، ويستمع إلى الدرس كُلِه، ولا يفقه منه شيئاً، لأنه ليس هناك، هو في واد والدرس في واد آخر،

(صُمّ)

وقد تجلس وتحدِّثه عن الله يتثاءب، ويتشاغل، ذهنه في أسعار العملات، في الصفقات، في الدرهم والدينار، في النساء، فإذا حدّثته حديثاً مصيرياً وخطيراً فأنت في واد وهو في وادٍ آخر،

(صُمّ)

لذلك أهل النار يوم القيامة يقولون:

(وَقَالُوا لَوْ كُنّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنّا فِي أَصْحَابِ السّعِيرِ (10))

(سورة الملك)

لا يرى القرآن الكريم أن الاستماع هو أن تُعْطي أذنك للقائل، الاستماع الذي أراده الله هو الذي يعقبه تطبيق.

صفات المنافقين:

قال تعالى:

(وَلَا تَكُونُوا كَالّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (21))

(سورة الأنفال)

مصيبةٌ كبيرة أن يأتي الإنسان إلى درس علم وأن يسمع كلاماً خطيراً مُتَعَلِّقاً بمصيره وأن لا يأبه له، هو لم يسمع شيئاً هذه علامة الأصمّ.

(فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (44))

(سورة فصلت)

المنافق أصم.

(صُمّ بُكْمٌ (18))

لا يسأل، لأن الأمر لا يعنيه إطلاقاً، ولا ينطق بالحق، هو لا ينطق بالحق من باب أولى، وهو لا يسأل، لأن لسانه لا يستخدمه إلا للدنيا، للغيبة والنميمة، للحديث عن النساء، للحديث عن مظاهر الدنيا.

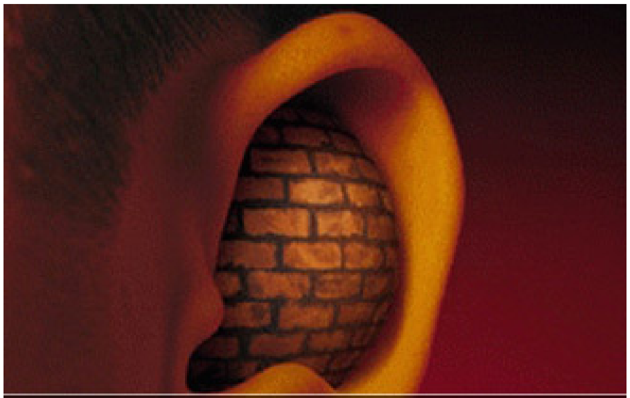
المنافق أصمّ عن سماع الحق

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ (18))

لا يرى الحقائق، لا يرى الآيات الدالة على عظمة الله، لا يرى أفعال الله عزّ وجل التي تهتز لها القلوب.

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18))

كيف يرجعون وهم على ما هم عليه من الصمم، من الخَرَس، من العَمَى ؟!!

يأتي الموت في وقت غير مناسب أبداً وغير متوقع وهذا من حكمة الله عزّ وجل :

أول معنى في هذه الآية: أن المنافق يبحث عن الدنيا، ولا يعنيه إلا الدنيا، لا يعنيه من الدنيا إلا الدِرهم والدينار، جَمَعَ الدرهم والدينار، اشترى البيت الفخم، والمركبة، ورَفّه نفسه رفاهاً عالياً جداً، ثم يفاجأ أن كل هذا التَعَب ذهب أدراج الرياح.

قال لي طالب: لي خال عنده دار سينما ـ القصة قديمة جداً والقصة بالستينات على ما أظن ـ قال لي: جمع خمسة ملايين بالستينات ـ أي ما يعادل تقريباً خمسمئة مليون حالياً ـ من أجل أن يعيش خريف عمره في بحبوحةٍ كبيرة ويستمتع بالدنيا، جاءه مرضٌ خبيث وهو في سن مبكر فصار يبكي وهو على فراش الموت، قال لابن أخته وهو طالبٌ عندي: جمعت هذا المال من طريق غير مشروع لأستمتع به فلم يتح لي أن أستمتع به. هذه قصةٌ متكررة.

أيها الأخوة الكرام، المنافق يسعى للدنيا:

((حُبُّك الشيء يُعمي ويصم.))

[أحمد وأبو داود عن أبي الدرداء]

الدنيا تغرّ وتضرّ وتمر، سأروي قصة رمزية ذكرتها لكم كثيراً، أن إنساناً أراد أن ينتحر جاءه ملك الموت ودلّه على طريقةٍ يغتني بها، أصبح هذا الرجل غنياً جداً، ثم أُتيح له أن يتزوّج ابنة الملك وأصبح صهر الملك، فاجأه ملك الموت وهو في يوم عُرْسه، قال له: تأخذني الآن !! ليتك أخذتني من قبل، يوم كنت مزمعاً أن أنتحر من أجل الدِرهم والدينار، يأتي الموت في وقت غير مناسب أبداً، في وقت غير متوقع، وهذا من حكمة الله عزّ وجل، المؤمن مستعد للقاء الله عزّ وجل، أهلاً

وسهلاً، أناسٌ كثيرون من أهل الإيمان يأتيهم ملك الموت، وهم في أحلى حالاتهم، وهم على شوقٍ له.

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18))

كيف يرجعون ؟ أدوات الرجوع مُعَطّلة، أداة السمع الأذن صمّاء، أداة رؤية الآيات عليها غشاوة، أداة طلب العلم مُعطّلة، هذا الصنف من المنافقين كفار.

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18))

الصنف الآخر من ضعاف النفوس الذين تحدث عنهم القرآن :

أما الصنف الثاني الذين ضَعُفَت نفوسهم أو اشتبهت عليهم الأمور هؤلاء منهم خير.

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ (19))

هذا الدين كهذا السحاب كُلّه خير، يقول لك: سحابة تحمل ثلاثمئة مليون طن من الماء سوف تنزل على الأرض، سوف تصبح الأرض عُشباً أخضر، محاصيل، أشجار مثمرة، ينابيع فوّارة، الماء هو أساس الرزق.

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ (19))

لكن هذا السحاب يَحْجُب أشعة الشمس، أيام الشتاء غائمة، وقد يسمع الإنسان صوت رعدٍ فينخلع قلبه، وقد يرى ضوء برقٍ فيخطف بصره، ما رأى المنافقون ما في هذه السحابة من الخير، أزعجهم الغيم الذي حجب أشعة الشمس، أزعجهم صوت الرعد، أزعجهم وميض البرق، هذه أزعجتهم فرفضوا هذه السحابة، هناك في الإسلام غض بصر، فيه دفع زكاة، فيه ضبط لسان، فيه قواعد، فيه صلوات، فيه صيام، فيه انضباط، أزعجتهم هذه التكاليف فرفضوا كُلّ الدين.

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19))

ضعاف النفوس يريدون من الإسلام مكاسبه لا متاعبه:

الذي يُمَيِّزُهم عن الأولين هو قوله تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20))

هؤلاء يريدون من الإسلام مكاسبه لا متاعبه، يريدون المغانم لا المغارم، يريدون أن يعتزّوا بالإسلام، أن يقطفوا ثماره دون أن يدفعوا الثمن، هؤلاء حالهم مع الإسلام:

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ (19))

الإسلام فيه تكاليف، لذلك تخفف الفِرَق الضالة دائماً التكاليف، هذه قاعدة، تؤلِه الفرق الضالة الأشخاص، تعتمد النصوص الموضوعة والضعيفة، ذات نزعة عدوانية.

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ (19))

الفرق بين المؤمنين وبين ضعاف النفوس :

المؤمن يُصلي الفجر حاضراً، يقرأ القرآن، يضبط لسانه، ينفق من ماله، يُرَبِّي أولاده، يجهد، ولكن هناك نموذجاً آخر هو نموذج مستمتع بالحياة، هناك إنسان يُعطي وإنسان يأخذ، إنسان يسترخي وإنسان يجهد.

(يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آَذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ (19))

ينخلع قلبه لذكر الموت، هناك أُناسٌ يكرهون القرآن، لماذا ؟ لأنه يُتلى في مناسبات الحُزن، كأن القرآن يذكِّرهم بالموت، هناك أناسٌ يكرهون بعض النباتات لأنها توضع على القبور، يكرهون كل شيءٍ يذكِّرهم بالآخرة من شدة تعلُّقهم بالدنيا، حتى أنك لا ترى في بعض البلدان جنازة إطلاقاً، من المستشفى بسيارة إسعاف إلى المقبرة لا ترى فيها نعياً على الجدران، بلادٌ كثيرة إسلامية النعي فيها ممنوع، الجنائز ممنوعة، لا ترى الموت على الإطلاق، ترى حياة، لكننا نحن نستمع أحياناً إلى إعلام في المئذنة يذكرنا بالموت، نقرأ النعي كل يوم، نرى جنازة أمامنا، فالإنسان كما قال عليه الصلاة والسلام:

((أكثروا من ذكر هادم اللذات ـ مفرق الأحباب ـ مشتت الجماعات))

[أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي عن سهل بن سعد و البيهقي عن جابر]

هذا الذي يريد من الإسلام المغانم، إذا كان هناك احتفال، أو نزهة، أو توزيع شيء هو أول شخص يأتي، إذا كان هناك تكليف هو ليس هنا، يريد المكاسب لا المتاعب، المغانم لا المغارم، يريد قطف الثمار لا بذل الجهد.

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ)

ضعاف النفوس ليس عندهم قيود أبداً فهم ضد الضبط وضد المَنْهَجِيّة لأنهم لا يحتملونها:

يحتاج الإسلام أحياناً إلى جهد، وإلى قوة إرادة، وإلى ضغط، لا يعجبه الجهد المبذول، ولا الضغط الشديد، بل يعجبه التفلّت، يجلس المنافق مع من يشاء، أنثى أو ذكر، متزوجة أم غير متزوجة، تحل له أو لا تحل له، ليس عنده مشكلة إطلاقاً، ينظر إلى أي شيء ولا فرق عنده بين شيء يجوز أن يراه وشيء لا يجوز، يقول لك: نتعلم، يُطلق بصره في كل شيء، يتكلّم أي شيء، لا يوجد عنده قيود أبداً، هو ضد الضبط، ضد الإرادة القوية، ضد المَنْهَجِيّة لأنه لا يحتملها.

(فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ (19))

يحب ألا يسمع الكلام الذي يُزعجه، يضع إصبعه في أذنه، وهذا واقع، تتحدث حديثاً عن الآخرة تجده يتثاءب، اعتذر لأن عنده موعد، اجعل الحديث عن الدنيا تجده جلس معك حتى الساعة الواحدة، ولم يقل لك: عندي موعد، ما دام الحديث عن الدنيا هو مصغٍ إليه، كتلة نشاط وحيوية، حدثه عن الآخرة تجده تململ وتثاءب وتأفف واعتذر.

(يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ (19))

يظنون إذا تجاهلوا ذكر الموت، وإذا تجاهلوا الدار الآخرة، أنهم لا تصيبهم الآخرة ولا يموتون ؟

(وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19))

هناك قوانين واقعة عليك وإن لم تؤمن بها :

هذه نقطة مهمة جداً، توجد قوانين هي واقعة عليك وإن لم تؤمن بها، مطبقة عليك شئت أم أبيت، وأقرب مثل: قانون السقوط، السقوطُ الحرّ له قانون، مظلة الطائرة مبنية على هذا القانون، فإذا سخر الإنسان من هذا القانون، واحتقر هذا القانون، ولم يعبأ بهذا القانون وكذّب هذا القانون، وألقى بنفسه من الطائرة، القانون لا يُطَبَّقُ عليه ؟ إذا كذّب بقانون السقوط هل ينزل سليماً بلا مظلة ؟ ينزل ميتاً، يعني سيّان أن تؤمن أو لا تؤمن، أن تعترف أو لا تعترف، أن تصدق أو لا تصدق، القانون مُطبَق. هو لا يحتمل سماع الحق، لا يحتمل التذكير بالآخرة، لا يحتمل ذكر الموت، يجعل أصبعه في أذنيه لئلا يصل إليه الحق لكن الله محيطٌ به، إذاً فهو غبيٌ جداً، كالنعامة إذا غَمَسَت

رأسها في الرمل، ظنّت أن الخطر لن يقترب منها، مع أنها أصبحت لقمة سائغة لعدوها، حينما غمست رأسها في الرمل غاب عنها منظر عدوها، فتوهمت أن عدوها اختفى، هي أخفت رؤيته عن ذاتها، فكانت لقمة سائغة لعدوها، هذا الحال دقيق جداً:

(يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ (20))

ذكر الجنة ـ الحور العين ـ يقول لك: الله يطعمنا إياها، الحور العين تعجبه:

(جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(سورة التحريم: آية "8")

تُعجبه:

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ (160))

(سورة آل عمران)

تعجبه، إذاً ادفع الثمن.

وصف دقيق للإنسان غير المتوازن كما ورد في القرآن الكريم:

قال تعالى:

(يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا (20))

تكون تجارته أحياناً رائجة تماماً، صار يحب الدين، ويحب العلم، والمشايخ، والدروس لأن تجارته رائجة، عندما تتوقف تجد أن وضعه اختلف، تضعضعت صلاته، ضعفت ثقته بالله، تلاشى أمله الكبير، فهذا الذي يسير كلّما أضاء له البرق، وإذا أظلم عليه لم يسر، فهذا إنسان غير متوازن، وهذا وصفٌ دقيقٌ لهذا الإنسان:

(كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا (20))

المنافق:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11))

(سورة الحج)

المنافق يميل مع مصالحه و المؤمن لا يبدل ولا يغير :

المؤمن لا يُغيّر:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23))

(سورة الأحزاب)

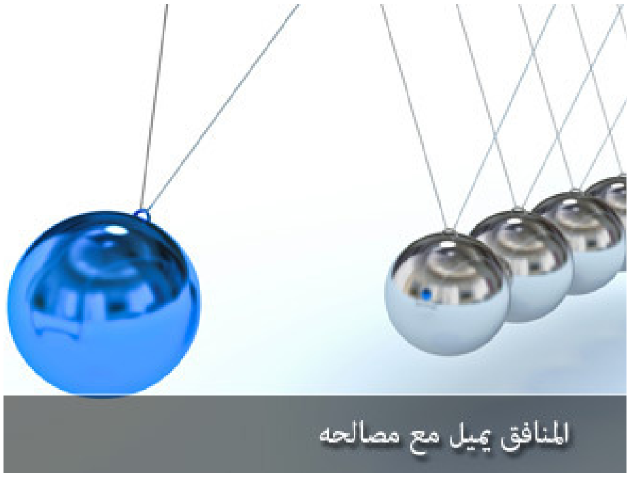

المؤمن ما بدّل ولا غيّر، ولكن المنافق يميل مع مصالحه، تجده حيثما تكون مصالحه جيدة، الآن حتى في أمور الخلافيّات مثلاً يملك هذا المنافق بيتاً، هذا البيت لا يخرج منه المستأجر بحكم القانون، فالطريق مسدود لأن المستأجر محميٌّ، يلجأ للمشايخ، ويقول: أنا أريد الشرع، يريد حُكْمَ الله فقط، لأنه شعر بالحاسة السادسة أن القانون ليس معه، بحكم القانون مستحيل أن يخرج المستأجر، تراه يتَّخذ تديّن المستأجر نقطة ضعف، فهو يريد حكم الله، بالأسبوع نفسه موضوع ثانٍ وجد أن الطريق مسدود بالدين صار له مصلحة بالقانون، يوكّل محامياً، يقول لك: نحن في دولة فيها نظام وقانون، اختلف النغم، قبل يومين كان يريد الشرع والآن يريد القانون، إنه يلحق مصالحه، ويوجد عنده قدرة لمعرفة أين تتحقق مصلحته، إذا كانت مصلحته تتحقق بالشرع فإنه يُحكِّم المشايخ، وإذا كانت مصلحته لا تتحقق عن طريق الدين فإنه يحكِّم المحامين والقضاة، فهو يميل مع الهواء أينما مال.

(يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا (20))

الفرق بين المنافقين وبين ضعاف النفوس :

إذا نجح ابنه بتفوق فإنه يحب الجامع الذي فيه ابنه، وشيخ ابنه، ويقول له: يا بني خذ أخاك معك إلى الجامع، وإذا رسب ابنه عزا كل أخطاء ابنه للشيخ والجامع، الجامع ليس له علاقة بالموضوع، ابنك هو المقصِّر، لا يوجد عنده حل موضوعي، إنه يميل مع مصالحه.

(وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ (20))

هم بقية خير، لذلك منافقون كُثُر في عهد النبي حَسُن إيمانهم، هناك نموذج كافر ينتفع بكفره، لكن مصلحته مع المؤمنين فيظهر ما لا يُبطن هذا أول قسم:

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18))

يوجد صنف ثانٍ: ضعفت نفسه أمام شهواته، واختلط الأمر عليه، فمال مع شهواته وله ثقة بالمؤمنين فهو لا مع هؤلاء ولا مَعَ هؤلاء، إذا وجدت مع المؤمنين ميزات تهمُّه مشى، وإذا حدثت متاعب اختفى، يعني أيّ خطر يلغي كل تديّنه، قد يدعُ الصلاة إذا كان شعر أن هناك خطر من هذا الاتجاه الذي هو فيه، أما المؤمن لا يغير:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23))

(سورة الأحزاب)

آية المنافق ثلاث :

أيها الأخوة آية المنافق ثلاث:

((آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ))

[البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه]

((إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ))

إذا تاب عن الكذب أزيلت منه إحدى صفات النفاق.

((وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ))

إذا تاب عن إخلاف الوعد أزيحت عنه إحدى صفات النفاق.

((وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ))

إذا تاب عن خيانة الأمانة أزيحت عنه صفة ثالثة، لا يوجد شيء ثابت، طبعاً أول قسم من المنافقين مُخيف، أول قسم كافر، أما القسم الثاني فيه أمل كبير فإذا كان فيه خطأ أو تقصير، فيه ازدواجية، فيه سر وجهر يُصلّح هذا ويُبَدّل. لذلك كان أصحاب النبي عليهم رضوان الله وهم على ما هم عليه من مرتبةٍ عالية كان أحدهم يتهم نفسه بالنفاق، واتهام النفس بالنفاق حالةٌ صحيةٌ طيبة، لأن المنافق يعيش أربعين عاماً في حالٍ واحد، بينما المؤمن يطرأ عليه في اليوم الواحد أربعون حالاً. يكون أحياناً مرتاحاً ومطمئناً، ويكون أحياناً قلقاً، أحياناً خائفاً، تَعْتريُه هذه الأحوال، دليل إيمانه، ودليل صدق إيمانه، ودليل حرصه على رضوان الله عزّ وجل.

أيها الأخوة الكرام، مطلع هذه السورة مهمٌ جداً لأن الناس رجلان ؛ مؤمن وكافر، أما الثالث فمحيّر، تظنه مؤمناً، وهو ليس كذلك، وهذا الصنف الثالث بعضهم منتمون إلى الكُفّار قطعاً، وبعضهم يمكن أن يصلح حالهم، وأن يعودوا إلى صف المؤمنين، ولا أدَلّ على ذلك من أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يفضح المنافقين، بل سترهم، لكنه أعطى أسماءهم لسيدنا حذيفة رضي الله عنه، والشيء الذي لا يصدّق أن سيدنا عمر عملاق الإسلام قال له: يا حذيفة بربك هل اسمي مع المنافقين ؟ من شدة خوفه من الله ومن شدة حرصه على رضوان الله.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (09- 95):تفسير الآية 21، العبادة طاعة وسلوك
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-08-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص للدروس السابقة من سورة البقرة:

مع الآية الواحدة والعشرين وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21))

كان هناك في الدروس السابقة وصفٌ للمؤمنين في خمس آيات، ووصفٌ للكُفّار في آيتين، ووصفٌ للمنافقين في ثلاثَ عشرةَ آية، وانتهت آيات المنافقين بمثلين دقيقين ؛ الأول:

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18))

هؤلاء المنافقون الذين انتفعوا بكفرهم، هم في الحقيقة كُفّار، لكن مصالحهم متعلقةٌ بالمؤمنين فنافقوا، وهم:

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18))

المنافق هو من أظْهَرَ الإيمان وأبطن الكفر وهو الأخطر على الإسلام:

أما النموذج الآخر فهو من ضَعُفَ إيمانهم، وكَثُرَت الشُبُهات في عقولهم، فمالؤوا المؤمنين، وضعفت نفوسهم عن الالتزام التام، هؤلاء يرجى لهم الشفاء، لذلك لم يُخْبَر النبي عن أسمائهم، بل أَسَرَّ أسماءهم لسيدنا حُذَيفة، الزمرة الثانية:

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19))

هؤلاء يتعلّقون بالمغانم ويبتعدون عن المغارم، هؤلاء يحبون ثمار الإيمان ولا يدفعون ثمن هذه الثمار:

(كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا (20))

وقال:

(يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20))

انتهى وصف المؤمنين، والكفار، والمنافقين، والحقيقة هناك رجلان ؛ مؤمنٌ وكافر، أما الثالث فهو من أظْهَرَ الإيمان وأبطن الكفر.

الأول واضح، والثاني واضح، الأول جريء قَبِلَ الحق وقبض ثمنه، والثاني ردّ الحق ودفع الثمن باهظاً، أما الثالث فجبان، لم يجرؤ على أن يلتزم، ولم يجرؤ على أن يكفر، فهو بَيْنَ بَيْن، مصدر الخطر من الثالث، لأن الأول ينفعك، والثاني تحذره، أما الثالث فيغشك، لذلك يُخشى على الدين لا من أعدائه، بل من أدعيائه من المنافقين، والمنافق هنا من كان عليم اللسان، جاهل القلب، من كان عمله غير ملتزم بالدين، من أظهر ما لا يُبطن، ومن أبطن ما لا يُظهر.

من سنة الله تعالى أنّه يُخاطب عامّة الناس بأصول الدين بينما يخاطب المؤمنين بفروع الدين:

أيها الأخوة ننتقل الآن إلى فقرةٍ جديدة من الآيات:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ (21))

من سنة الله جلّ جلاله أنّه يُخاطب عامّة الناس بأصول الدين بينما يخاطب المؤمنين بفروع الدين، كلمة:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ (21))

هذا توجيهٌ عام لكلّ البشر:

(اعْبُدُوا رَبَّكُمْ (21))

أما:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183))

(سورة البقرة)

وقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً (6))

(سورة التحريم)

يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا، أي يا من آمنتم بي، يا من عرفتموني، يا من عرفتم رحمتي، يا من عرفتم سر وجودكم، يا من خُلِقتم لسعادةٍ أبدية افعلوا هذا ولا تفعلوا هذا، هناك عَقدٌ إيمانيٌ مع الله.

مهمة المؤمن أن يتحرّى أمر الله ويطبّقه فقط:

المؤمن على عقدٍ إيماني مع الله عز وجل، من لوازم هذا العقد أن يطبق كل ما جاءه عن الله:

(إِنّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنّ لَهُمُ الْجَنّةَ (111))

(سورة التوبة)

باع نفسه، والثمن هو الجنة.

(يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111))

(سورة التوبة)

يخاطب الله عزّ وجل عامّة الناس بأصول الدين، ويخاطب خاصّتهم وهم المؤمنون بفروع الدين، المؤمن آمن بالله، وعرف لماذا خلقه الله، عرف أنه قد خُلِقَ لجنةٍ عرضها السماوات والأرض، وعرف أن هذه الجنة ثمنها طاعة الله عزّ وجل، وتلقّى الأمر عن الله عزّ وجل، فمهمة المؤمن أن يتحرّى أمر الله ويطبّقه فقط، يخاطب الله الشاردين البعيدين، الذين بعدوا عن الله عزّ وجل، والذين تعلّقوا بالدنيا، هؤلاء الكفار يخاطبهم الله عزّ وجل بشكلٍ عام:

(يَا أَيُّهَا النّاسُ اعْبُدُوا رَبّكُمُ (21))

الإنسان مخلوقٌ على وجه الأرض من أجل أن يعبد الله عزّ وجل:

أيها الأخوة أكبر سؤالٍ يُطْرَحُ علينا هو: لماذا نحن في الدنيا ؟ لماذا خُلقنا ؟ صدقوني أيها الأخوة أن ملايين طائلة من الناس يتحركون كل يوم، يعملون عملاً شاقاً، يكسبون الأموال، يسكنون البيوت، يتزوّجون، يسافرون، يتاجرون، يفرحون، يمرحون، ولا يعلم أحدهم لماذا خلقه الله ؟ إذا ذهبت إلى بلد، ونزلت في أحد فنادقه، واستيقظت صبيحة اليوم الأول، وتناولت طعام الفطور، وارتديت ثيابك قد تسأل: إلى أين سأذهب ؟ نحن نسألك لماذا جئت إلى هنا ؟ إن جئْتَ هذا البلد تاجراً فاذهب نحو المعامل والمؤسسات، وإن جئته سائحاً فاذهب نحو المقاصف والمتنزّهات، وإن جئته طالب علمٍ فاذهب نحو المعاهد والجامعات، متى تَصِحُّ حركتك ؟ إذا عرفت سرَّ وجودك، هذا سؤال دقيق جداً يجب على كلٍ منا أن يسأله بشكلٍ جاد، ليسألْ نفسه: لماذا أنا في الأرض ؟ الذي خلقني في الأرض لماذا خلقني ؟ إن كنت تعرف فهذه نعمةٌ عظمى، وإن كنت لا تعرف فربنا أخبرك:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات)

شيءٌ يغيب عن معظم الناس، أنت مخلوقٌ على وجه الأرض من أجل أن تعبد الله عزّ وجل، تُرسل أحياناً طالباً إلى بلد أجنبي، هناك آلاف الأبنية، آلاف الأماكن، دور لهو، دور سينما، ملاعب، مسارح، متاحف، مقاصف جميلة، مكتبات، صناعة، تجارة، هذا الطالب الذي ذهب إلى هذا البلد له هدفٌ واحد، أن يأتي بدكتوراه، هدفٌ واحد، إذا كان هذا الهدف ماثلاً في ذهنه، واضحاً في فكره، يُحَقِّق هذا الهدف، أما إذا ذهب إلى بلدٍ أجنبي ودُهِش، فأمضى يوماً في مسرح، ويوماً في سينما، ويوماً في ملهى، ويوماً في متحف، ويوماً يقرأ قصة، ويوماً في مُتَنَزّه، مضى العام الدراسي ولم ينتسب للجامعة، فقد أخفق إخفاقاً كبيراً جداً، لأنه ما عرف سر وجوده هناك، لو عرف سر وجوده لما فعل هذا.

خُلِق الإنسان للجنة ولكن هذه الجنة لا بدّ لها من ثمن:

أيها الأخوة الأكارم، كلامٌ دقيق، أكبر سؤال يجب أن تسأله لنفسك: لماذا أنا هنا على وجه الأرض ؟ متى تعرف الحقيقة ناصعةً ؟ حينما يأتي ملك الموت:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً (100))

(سورة المؤمنون)

أعظم شيء في هذه الدنيا أن تعمل صالحاً، لأن عملك الصالح طريقُك إلى الجنة، العمل الصالح ثمن الجنة، أنت في الأصل مخلوقٌ للجنة، أنت في الأصل مخلوقٌ لجنةٍ إلى أبد الآبدين فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، حينما خُلقتَ خُلِقتَ للجنة.

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ (119))

(سورة هود)

خلقك ليرحمك، خلقك ليُسْعدك، ولكن هذه السعادة الأبدية المتنامية لا بدّ لها من ثمن، والدليل: اجلس مع إنسان حَصّل دكتوراه فَخْرية، زار بلداً وأقيم له احتفال ومنح هذه الدكتوراه الفخرية، بالمقابل اجلس مع إنسان حصل دكتوراه حقيقية، درس ثلاثاً وثلاثين سنة، وألّف أطروحة، ونجح نجاحاً باهراً، تجد فرقاً كبيراً بين مَن بذل هذا الجهد ونال هذه المرتبة، وبين من أخذها بلا سبب وبلا جُهد.

عندما حمل الإنسان الأمانة سُخِّرَت له الأكوان:

من أجل أن تسعد في الآخرة سعادةً متنامية إلى أبد الآبدين، من أجل أن تحتل أعلى مرتبةٍ نالها مخلوق، من أجل أن تصل إلى أعلى مرتبة، لأن:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (72))

(سورة الأحزاب)

لمّا حملها الإنسان سُخِّرَت له الأكوان، مُنح عقلاً هو أعظم آلةٍ في الكون، مُنِحَ فطرةً سليمة تدلُّه على خطئه، منح كوناً مسخّراً له تسخير تعريفٍ وتسخير تكريم، مُنح شهوةً تحرّكه إلى الله عزّ وجل يرقى بها مرّتين، يرقى بها صابراً ويرقى بها شاكراً، منح حرية اختيار ليُثَمَّنَ عملُه، ليأتي ربه طائعاً لا مُكْرهاً، الإنسان مُخَيّر فيه شهوات هي سلمٌ يرقى به، فيه عقل أداة معرفة الله وهو القوة الإدراكية الأولى.

أطلعني أخٌ على جهاز حاسوب بحجم الكف، بإمكانه أن يُرسل أي رسالة عَبْرَ الفاكس وأن يتصل بالإنترنت، وفيه كل البرامج الضخمة، بحجم الكف، ماذا فعل هذا العقل البشري ؟ وصل إلى القمر، وإلى المريخ، وإلى المشتري، غاص إلى أعماق البحار، نقل الصورة ملونةً عَبْرَ القارّات الخمس، أنجز إنجازاً مُذهلاً، لو بذل الإنسان من هذا الجهد واحداً بالمليون لوصل إلى الله فسعد بقربه، حقق العقل البشري الآن إنجازات ضخمة لكِنَّه مع الأسف الشديد لم يُستخدم لما خُلِقَ له، استُخدم للدنيا فأنتج الأعاجيب، ولو أنه استُخدم للآخرة لكان سبب سعادة الأمم والشعوب.

مفهوم العبادة :

أيها الأخوة الكرام، يجب أن تعلموا علم اليقين أن علّة وجودكم على وجه الأرض أن تعبدوا الله، وللناس مفاهيم ساذجةٌ في العبادة، أي نطيعه.

(اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (21))

فعلاً أطيعوا ربكم، لكن أطيعوا ربكم طاعة طوعية وليست قسرية، حينما تطيع الله مقهوراً هذه ليست عبادة، أنت حينما تطيع إنساناً قوياً هل تُعَدُّ عابداً له ؟ قد تكرهه، لكن العبادة التي أرادها الله هي الطاعة الطَوْعية الممزوجة بالمحبة القلبية، المبنية على معرفةٍ يقينية، التي تُفضي بك إلى سعادة أبدية، هذه هي العبادة، طاعةٌ

طوعية مبنية على معرفةٍ يقينية تفضي إلى سعادةٍ أبدية. هذا المفهوم يدلُّنا على أن في الإسلام كُلِّية علمية، وكلية سلوكية، وكلية جمالية، لا بد في الكلية العِلمية من أن تطلب العلم، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلّمه، أدنى مراتب الإيمان معرفة، أدنى مراتب الإيمان علم:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19))

(سورة محمد)

وقال:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (9))

(سورة الزمر)

وقال:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (11))

(سورة المجادلة)

أول مرحلة في عبادة الله أن تعرفه:

اعتمد الله جلّ جلاله قيمة العلم، فالعلم قيمة مُرَجِّحة بين الخلق، لذلك:

((الناس رجلان عالمٌ ومتعلِّم ولا خير فيما سواهما.))

[الطبراني وأبو نعيم عن ابن مسعود]

رجلان، وليس أجر العالم بأكثر من أجر المتعلِّم.

((تواضعوا لمن تَعَلَّمُون منه وتواضعوا لمن تُعَلِّمُون.))

[أبو الشيخ في الثواب عن أبي هريرة]

مشاركة، الحقيقة التعليم تعاون، تبادل خبرات:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ (2))

(سورة المائدة: آية " 2")

العبادة معرفة، أول مرحلة في عبادة الله أن تعرفه وإلا من تعبد ؟ من تخافُ ؟ من تحبُّ ؟ رحمة مَن ترجو ؟ عذابَ من تخشى ؟ أصل الدين أن تعرف الله، إذا عرفت الآمر ثم عرفت الأمر تفانيت في تطبيق الأمر، أما إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر تفننت في التفلُّت من أمره، وهذا ما يفعله معظم الناس، يبحث عن فتوى مهما تكون ضعيفة يقبلها ويعتمد عليها ويقول: إن شاء الله بذمة من أفتى بذلك، علماً أنّك لو استخلصت فتوى من فم رسول الله سيد الخلق وحبيب الحق ولم تكن محقاً لا تنجو من عذاب الله، فهذا الذي يتعلّق بفتوى من بني البشر هناك خللٌ في عقله، لأن الله جلّ جلاله هو الذي سيحاسب:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

(سورة القيامة)

فالعبادة طلب علم.

من أساسيات الإيمان بالله أن تعرفه من خلال أسمائه الحُسنى:

المشكلة أيها الأخوة أنّ معظم الناس يطلبون العلم الشرعي إذا كان عندهم وقت فراغ، الأصل كَسْبُهم للمال، الأصل مصالحهم، الأصل أهواؤهم، يأتي إذا كان هناك درس قصير وممتع جداً، جلسة مريحة، يأتي ليزيد من مُتَع الدنيا، الأمر غير ذلك، طلب العلم حقٌ واجبٌ على كل مسلم:

((طلب العلم فريضة على كل مسلم.))

[ابن ماجه عن أنس]

كيف أن الهواء شرط لبقائنا، نموت فوراً من دون هواء، الهواء أساسيٌ في بقائنا، شرب الماء أساسيٌ في بقائنا، تناول الطعام والشراب أساسيٌ في بقائنا، الزواج أساسيٌ في بقاء النوع، كذلك العلم أساسيٌ في سلامتك وسعادتك، فإذا قلتُ لك: اعبد الله، أي أُطلب العلم من أجل أن تعرف من ينبغي أن تعبد، معظم الناس يعبدون بعضهم بعضاً، معظم الناس اتخذ إلهه هواه.

جلس عالم في أمريكا في حديقة إلى جانب إنسان أمريكي، وعندما تعرّف عليه، وعرف أنه من بلاد الشرق الأوسط، وأنَّه مُسلم قال له: هل تحدثني عن دينك ؟ فهذا العالم بارعٌ في الحديث ويُتقن اللغة الأجنبية، حدّثه عن الإسلام، وعن عقيدة المسلمين، وعن أخلاق المسلمين، وعن عبادات المسلمين، وعما ينتظر المسلمَ من عطاءٍ أبدي، بعد أن انتهى من حديثه كله أخرج هذا الأمريكي من جيبه دولاراً، وقال: هذا إلهي أعبده من دون إلهك.

يعبدون الدرهم والدينار

هم هكذا، يعبدون الدرهم والدينار، بل إنّهم، وهذا شيءٌ غريب اقتبسوا من الإسلام حقائق تنفعُهم في حياتهم الدنيا، فإذا ذهبت إلى بلدٍ غربي ترى أن إيجابيّات هذا البلد إسلامية، لكن لا حباً بالله، ولا طاعة له، ولكن حباً بالدرهم والدينار.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (21))

أي اطلب العلم من أجل أن تعرف من ينبغي أن تعبد، لماذا تعبد الله ؟ لماذا ترجوه وحده ؟ لماذا تخافه وحده ؟ لماذا تعلِّق الأمل على رضاه وحده ؟ لماذا تُفني شبابك في سبيله ؟ لماذا تنفق مالك من أجله ؟ لماذا تُعادي من تعادي في سبيل الله وتصالح من تصالح في سبيل الله؟ ينبغي أن تعرف من هو الله ؟ لذلك جزءٌ من معرفة الله أن تعرف أسماءَهُ الحسنى ؛ كيف أن الله رحيم ؟ كيف أنه حكيم ؟ عليم، قدير، سميع، رؤوف،

لطيف، قوي، جبّار، مُهَيْمِن، منتقم، رافع خافض، مُعِزٌ مُذِلّ، ضار نافع، جزءٌ أساسيٌ من إيمانك أن تعرف الله من خلال أسمائه الحُسنى، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (21))

يتوهَّم الناس أنها كلمة "اعبد ربك"، لا ليست كذلك، العبادة طاعةٌ طوعيةٌ مع محبةٍ قلبية أساسها معرفةٌ يقينية.

لا هدف يعلو على طلب العلم ولا شغل يفوق أن تشتغل بمعرفة الله عزّ وجل :

كم من الوقت بذلت لمعرفة الله ؟ إسأل إنساناً يحمل دكتوراه يدرس ثلاثاً وثلاثين سنة من أجل أن يضع على بطاقته حرف الدال قبل اسمه، وربما لا يستفيد من هذه المدةِ التي قضاها في الدراسة، مستحيل، مستحيل أن يستفيد إنسان من الدكتوراه بسنواتٍ توازي سنوات الدراسة، أقل بكثير، سنوات معدودات بعدها، أفمن أجل أن تنال درجة في الدنيا تبذل هذه الدراسة الطويلة، ومن أجل أن تعرف الله، وأن تعرف هذا المصير الأبدي ألا تحتاج إلى طلب العلم ؟ هذا الذي يقول لك: ليس عندي وقت فراغ لأحضر مجلس علم هذا إنسان جاهل، كما لو أن إنساناً ذهب إلى بلدٍ أجنبي، لينال دكتوراه وقد وعِد بأعلى منصبٍ في بلده حينما يعود ـ مثلاً وُعِد بأفخر بيتٍ، وبأجمل زوجةٍ ـ يأتي وقت الدوام في الجامعة، وليس له عمل إطلاقاً في هذا البلد إلا نيل هذه الشهادة، يقول: والله لا يوجد عندي فراغ لأحضر المحاضرات شيء عجيب !! إذاً عندك فراغ لماذا ؟ إذا كان الهدف الأول من هذا السفر الطويل، وهذه المشقّة، أن تنال هذه الشهادة من هذه الجامعة، وحينما حان وقت الدوام تقول: ليس عندي وقت ؟! لا هدف يعلو على طلب العلم، ولا شغل يفوق أن تشتغل بمعرفة الله عزّ وجل.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (21))

أي اعرفوه، تفكّر في خلق السماوات والأرض، هل تصدق أن في أنفك عشرين مليون نهاية عصبية، في كل نهايةٍ عصبية سبع أهداب، كل هُدْبٍ محاطٌ بمادةٍ مخاطية تتفاعل مع الرائحة، ينتج عن هذا التفاعل شكلٌ هندسي، كرة، موشور، أسطوانة، مفتاح، ينقل هذا الشكل الهندسي إلى الدماغ إلى الذاكرة الشَمّية التي تحوي ملفاً فيه عشرة آلاف بند، يعرض هذا الشكل الهندسي الذي هو مُحَصِّلة تفاعل الرائحة مع الأهداب على عشرة آلاف بند، توافق مثلاً مع البند خمسمئة وأحد عشر، إذاً ياسمين، في لمح البصر.

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ (64))

(سورة غافر)

آيات دالة على عظمة الله عزّ وجل :

هناك آيات في جسمك، والله لا تكفي سنوات وسنوات لشرحها، في جسمك الذي هو أقرب شيء إليك، هو أقرب آيةٍ دالةٍ على عظمة الله عزّ وجل، شعرُك ثلاثمئة ألف شعرة، لكل شعرةٍ عضلة، وعصبٌ محرك، وغدةٌ دهنية، وغدة صبغية، ووريدٌ وشريان في كل شعرة، هناك مئة وثلاثين مليون عُصَيّة ومخروط في شبكية العين، عصب العين تسعمئة ألف عصب، تفرز المعدة خمسة وثلاثين مليون عصارة هاضمة، تحوي الكلية مليون نفروناً، يسير الدم في الكليتين في اليوم الواحد مسافة مئة كيلو متر ليتصفّى، يضخ قلبك في اليوم الواحد ثمانية أمتار مكعبة، قد تستهلك في العام كلِّه متراً مكعباً من الوقود السائل، وقلبك يضخ في اليوم الواحد ثمانية أمتار مكعبة، ويضخ في عمرٍ متوسط ما يملأ أكبر ناطحة سحابٍ في العالم، ينبض القلب ليلاً نهاراً وأنت نائم لا يمل ولا يَكَل.

أيها الأخوة الكرام حينما يقول الله عزّ وجل:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (21) ﴾

أي اعرفوه أولاً، ولا شيء يعلو على معرفة الله، والله أيها الأخوة لو عرفنا ما نحن قادمون عليه في الدار الآخرة لشُغِلنا عن كل شيء بمعرفة الله، لشُغلنا عن كل شيء، و لأمضينا الوقت كله في معرفته وطاعته، لأن هذه السنوات المعدودة التي نمضيها ستحدد مصيرنا الأبدي، لاحظ مثلاً الطلاب، ينجح الطالب من الصف السابع إلى الثامن كل الصف ناجح، سواء أكان في المرتبة الأولى أو الأخيرة، من السابع إلى الثامن، ثامن تاسع، تاسع عاشر، التاسع مصيري، إما تعليم عام وإما مهني، إذا لم يحصل على مئة وثمانين علامة فليس له مكان في التعليم العام، دخل تعليماً عاماً: عاشر، حادي عشر، ثاني عشر، الآن ستحدد علاماته مهنته، حصل على علامات طب صار طبيباً، حصل على علامات مهندس، حصل على علامات صيدلي، أتى بعلامات شريعة، أتى بعلامات حقوق، أتى بعلامات علوم، رياضيات ـ مثال للتقريب ـ فعلاماته في هذه الشهادة مصيرية، وهي ستحدد مصيره في الحياة، تحدد حرفته، مكانته الاجتماعية، وأنت في هذه السنوات المعدودات سوف يتحدد مصيرك الأبدي، إلى أبد الآبدين:

((والذي نفسي بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار.))

[أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الحسن عن رجل من أصحاب النبي وفيه انقطاع]

إما جنةٌ يدوم نعيمها وإما نارٌ لا ينفد عذابها.

الآيات الكونية في القرآن منهج للتفكُّر:

حينما يقول الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (21))

تعرفوا إليه، تعرف إليه من خلقه، في القرآن الكريم ألفٌ وثلاثمئةٍ واثنتان وعشرون آية كونية، ما الهدف منها ؟ لماذا جعل الله سُدُس القرآن آيات كونية ؟ للتسلية ؟! للقراءة ؟! أم لنتعرف على الله من خلالها ؟ جعل الله هذه الآيات منهجاً للتفكُّر،

لما قال الله عزّ وجل:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22))

(سورة الحجر)

لو أن الله كلّفنا أن نُخَزِّن المياه التي نستعملها طوال العام، يحتاج كل منا إلى مستودع يساوي حجم بيته تماماً، مثلاً لو كانت مساحة بيته مئة وخمسين متراً مضروبة بثلاثة أمتار، أربعمئة وخمسين متر مكعب، تحتاج الأسرة في السنة كلها أربعمئة وخمسين متراً مكعباً، نريد ضعف أبنية العالم، قال الله عزّ وجل:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22))

تجد نهراً كالأمازون كثافته في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف متر مكعب، هذه دمشق الشام فيها خمسة ملايين ونصف إنسان، ويوجد قول: ستة ونصف في النهار، تشرب كلُّها من نبع الفيجة، كثافته ستة عشر متراً مكعباً في الثانية:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22))

مياه هذا النبع مُخَزّنة في هذا الجوف الجيولوجي الذي يمتد إلى حمص، ونصف لبنان فوق هذا الجيب الجيولوجي، يمتد هذا الجيب قريباً من تَدْمُر، هذا هو الحقل أو المستودع الجيولوجي لهذا النبع:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22))

معرفة الله تعالى توصلنا إلى طاعته :

عندما يشرب الإنسان ماء القوارير يفاجأ أنه يحوي ثلاثة عشر معدناً فيه، مغنيزيوم وصوديوم وغير ذلك، ماء معدني، مياه الآبار مياه معدنية، هل فكّرت في هذا الماء ؟ هل فكّرت في هذا الهواء المتوازن؟ نحن نستهلك الأوكسجين دائماً، جعل الله النبات يستهلك عكسنا يستهلك النبات غاز الفحم ويعطي الأوكسجين، هذا التوازن رائع ودائماً يجعل نسب الأوكسجين ثابتة في الهواء الخارجي، من فعل هذا ؟! ألف آيةٍ وآية، أينما تحرّكت، أينما نظرت ؛ في طعامك، في شرابك، في ابنك، في النبات، في الطير، في السمك، في الجبل، في السهل، في البحر.

وفي كل شيءٍ له آية تدلُ على أنّه واحدُ

***

وقال:

(اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (21))

أي تعّرفوا إليه من أجل أن تطيعوه، لأن العبادة طاعة طوعية تسبقها معرفة يقينية تُفضي إلى سعادةٍ أبدية.

فضل طلب العلم:

أيها الأخوة الكرام:

((طلب العلم فريضةٌ على كل مسلم.))

[ابن ماجه عن أنس]

إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهُما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كُلّك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً، ويظلُّ المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظنّ أنّه قد علِم فقد جهل، العلِم، ثم العلِم، ثم العلم:

((فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد)).

[أخرجه النسائي وابن ماجة عن ابن عباس]

((أغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن الخامسة فتهلك.))

[رواه البيهقي وابن عبد البر عن أبي بكرة]

هذه الكُلِّية الأولى، لا بدّ من أن تزداد كلّ يومٍ علماً بالله عزّ وجل، ورد في بعض الأدعية أن **" لا بورك لي في طلوع شمس يومٍ لم أزدد فيه من الله علماً، ولا بورك لي في طلوع شمس يومٍ لم أزدد فيه من الله قرباً."**

المساجد مفتَّحة أبوابُها، مفتَّحة على مصراعيها من أجل طلب العلم، لا بدّ لك من درسٍ أسبوعي، لا بدّ لك من أن تفهم كلام الله، لا بدّ لك من أن تعرف سنة رسول الله، لا بدّ لك من أن تعرف سيرة رسول الله، لا بدّ لك من أن تعرف أحكام الفِقه، لا بدّ لك من أن تعرف أسلوب الرُقي الرُوحي، هذا كلّه تأخذه في المسجد، لذلك:

(اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (21))

يعني اعرفوا ربّكم لأن العبادة طاعة طوعية ممزوجة بمحبةٍ قلبية أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادةٍ أبدية.

الإسلام سلوك:

الآن السلوك، البند الثاني في العبادة هو السلوك، إسلام بشكل انتماء فقط لا معنى له، إسلام فولكلوري ومظاهر لا معنى له، إسلام تعاطف لا معنى له، خلفية إسلامية ـ هذه مصطلحات جديدة ـ وأرضية إسلامية، ونزعة إسلامية، واتجاه مُحافظ، وثقافة إسلامية، ومشاعر إسلامية، هذا كلُّه لا يُجدي، لا بدّ من أن تضبط كل شيء وفق منهج الله، لا بدّ من أن تضبط دخلك، هذا القرش من أين اكتسبته ؟ وكيف أنفقته ؟ هذا البيت الذي هو بيتك هل أقمت الإسلام فيه ؟ هذا العمل الذي هو عملك هل كنت صادقاً فيه؟ هل نفعت المسلمين ؟

المؤسف أيها الأخوة أن بعض الناس يتوهَّمون أن الإسلام هو هذه العبادات أي صلاة وصيام وحج وزكاة وانتهى الأمر، أما حياته فهي حياة أخرى لا علاقة لها بالإسلام إطلاقاً، أنا أكاد أقول: الإسلام مئة ألف بند، الصلاة هي واحد من هذه البنود، والصيام، والحج، والزكاة هذه خمسة من مئة ألف تقريباً، كل شيءٍ له حكمٌ شرعي ؛ إما أنه فرض، أو أنَّه واجب، أو أنه مندوب، أو أنَّه سُنَّة مؤكّدة، أو سُنَّة غير مؤكّدة، أو مُباح، أو مكروه كراهة تنزيهية أو كراهة تحريمية، أو حرام، أي شيءٍ على وجه الأرض لا بد من أن تَعْتَرِيَهُ هذه الأحكام الخمسة.

يا أيها الأخوة:

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا (72))

(سورة الأنفال)

يجب أن ترى الإسلام صارخاً في حياة المؤمن، أن ترى الإسلام في مواعيده، أن ترى الإسلام في عمله، في صدقه، في أمانته، في إخلاصه، في محبّته، في رحمته، في إنصافه، في إحسانه، الإسلام سلوك، أي أن المؤمن الصادق يُشار له بالبنان، يعني أنشأ بناء ولسببٍ أو لآخر لم يتَمَكّن من إفراغ المُلْكِيّة لأصحابها، ظنّ الذين اشتروا منه هذا البناء أنه يتلكأ ليأخذ من أموالهم، عرضوا عليه مبلغاً ضخماً فقال: لا أنا بعتكم وقبضت ثمن ما بعتكم به ، وربحت عليكم، ولا شيء لي عندكم، فلما أُتيح له أفرغ كل البناء لأصحابه، هذا الإسلام.

البند الثاني في العبادة الانضباط السلوكي:

الإسلام عفة عن المحارم، الإسلام عفة عن المطامع، الإسلام صدق، الإسلام أمانة، الإسلام عفاف، الإسلام كرم، الإسلام شجاعة، الإسلام تواضع، الإسلام علم، الإسلام سخاء. المؤمن إسلامه صارخ، أما أن يتمَيّز المسلم عن غير المسلم بالصلاة فقط هذا شيء مضحك، الصلاة عبادة من العبادات أما الإسلام منظومة قِيَم، إذاً البند الثاني في العبادة: الانضباط السلوكي ؛ ضبط الجوارح، ضبط اللسان، ضبط العين، ضبط الأذن، ضبط اليد، ضبط الرجل، ضبط الكَسْب، ضبط الإنفاق، ضبط البنات، ضبط الشباب، ضبط الزوجة، الإسلام منظومة قيَم، هذا الذي يتوهّم أن الإسلامَ صلاةٌ وصيامٌ شيء مضحك.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (21))

اعرفوه أولاً، وأطيعوه ثانياً، واتصلوا به ثالثاً، هذا الجانب الجمالي في العبادة، فأرجو الله سبحانه وتعالى أن أوضّح لكم هذه الحقيقة، إن لم تقل: أنا أسعد الناس فلسْتَ مؤمناً، أنت موصول بالله فهل تشقى ؟!! لك اتصالٌ بخالق الكون، لك اتصالٌ بأصل الجمال، لك اتصالٌ بأصل الكمال، لك اتصالٌ بأصل النوال، بالأصول، الذي يُعْطي وحده هو الله، والجميل وحده هو الله، والكامل وحده هو الله، أن تتصل بالله فتقول: أنا غير سعيد، فهذه مشكلة !!

أيها الأخوة الكرام:

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ (36))

(سورة العنكبوت)

عبادة الله من أجل اليوم الآخر، من أجل أن نصل إلى دار السلام بسلام، من أجل الجنّة، من أجل السعادة الأبدية، لا ترى العبادة عبئاً عليك، ثمن قليل لخيرٍ كثير.

بعض الآيات القرآنية عن العبادة:

قال تعالى:

(اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36))

وقال:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (23))

(سورة المؤمنون)

أي لا خيار، لا يوجد إلهٌ ثانٍ، الله عزّ وجل لا يخيّرك أن اعبدني أو اعبد فلاناً:

(مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ (23))

(سورة المؤمنون)

لا إله إلا الله، فإن لم تعبده فأنت مع من ؟ مع لا شيء.

(وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ (72))

(سورة المائدة)

وجوب عبادة الله من لحظة معرفة الإنسان به وحتّى الموت:

إن لم تعبد الله فما النتيجة ؟ الجنة محرمة على المُشرك ومأواه النار:

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36))

(سورة العنكبوت)

وقال:

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99))

(سورة الحجر)

يجب أن تعبد الله من لحظة معرفتك به وحتّى الموت:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11))

(سورة الحج)

يجب أن تعبده في الأعماق ولا يهزّك أقل شيء، هناك أشخاص تهزهم كلمة، كلمة تجعله يدع الجامع كلّه لأجل خلاف بسيط مع أخ فهل يعقل هذا ؟!! دخلت كلية الطب ومصيرك طبيب تركت

هذه الكلية لخلافٍ بسيط مع صديق أو مع أستاذ ؟ لا يفعلها عاقل في الدنيا فكيف في الآخرة ؟ أساء لك أخ، تكلّم معك كلمة نابية، تضحي بدينك ؟! تضحي بآخرتك ؟! مستحيل.

على المؤمن أن يعتزل من يعبد غير الله:

هذا الذي يعبد الله على حرف مقاومته هشة جداً لأن علمه هزيل، إرادته ضعيفة، مقاومته هَشّة، يعبد الله على حرف، أما الناس إذا عَبَدوا بعضهم بعضاً، وعبدوا أهواءهم، وعبدوا من دون الله جهاتٍ لا تملك لهم من الله شيئاً هؤلاء يجب أن يُعتَزَلوا، قال تعالى:

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ (16))

(سورة الكهف)

يجب أن تعتزلهم إلى أن يعبدوا الله عزّ وجل:

(أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آَبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133))

(سورة البقرة)

أما الذين يعبدون من دون الله، قال:

(مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ (40))

(سورة يوسف)

أي تعبدون أشخاصاً، أشخاصاً ضعافاً، أنت تحيطهم بهالةٍ كبيرة، فمن قال: إنّ بوذا إله، من قال ؟ له تمثال كبير توضع الفواكه له قيل: ليأكلها في الليل (يأكلها السَدَنة)، لأنه حجر لا يأكل شيئاً، تعيش شعوب بأكملها في خرافاتٍ مضحكة.

آيات من القرآن الكريم عن أشخاص أشركوا مع الله آلهة أخرى :

قال تعالى:

(مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ (40))

(سورة يوسف)

وقال:

(إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ (17))

(سورة العنكبوت)

وقال:

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (42))

(سورة مريم)

وقال:

(يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً (43))

(سورة مريم)

العبادة ثمن الجنة وهي الهدف من هذه الحياة:

أيها الأخوة الكرام، قضية العبادة قضيةٌ خطيرةٌ جداً هي هَويِّتك، هي سر وجودك، هي هدفك من هذه الحياة، العبادة ثمن الجنة، العبادة ثمن السلامة، العبادة ثمن السعادة، العبادة ثمن التقوى.

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية أوّل آية بعد أن وصف الله المؤمنين والمنافقين والكفار:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22))

وهذه الآيةُ إن شاء الله تُفَسَّرُ في الدرس القادم، والله المستعان.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (10- 95):تفسير الآيتان 21-22، العبادة ، الأرض

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-08-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

الخالق عز وجل هو وحده يستحق العبادة:

مع الآية الثانية والعشرين وهي قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22))

والآية التي قبلها:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21))

من الذي يستحق العبادة ؟ الذي خَلَقْ، الذي خلقك هو وحده يستحق العبادة، والذي أمدَّك بكل ما تحتاجه هو وحده يستحق العبادة، والذي أمْرُك بيده هو وحده يستحق العبادة، والذي مصيرك إليه هو وحده يستحق العبادة، خلقك، وأمدك، وجعل أمرك بيده، ومصيرك إليه هذا الذي ينبغي أن تعبده، بعض الناس يعبدون ما لا يملك لهم نفعاً، ولا ضراً، ولا رزقاً، ولا حياةً ولا نشوراً، وهذا هو الخطأ الجسيم، الحُمْقُ البالغ، والغباء الشديد أن تتجه إلى جهةٍ لا تملك لك نفعاً ولا ضراً، لا تملك لك، ولا تملك لذاتها نفعاً ولا ضراً، وكأن الطريق مسدود، هناك إحباطٌ شديد يصيب هؤلاء الذين عبدوا من دون الله، لأن كل جهةٍ دون الله عزَّ وجل ليس لها من الأمر شيء ولا تملك لك نفعاً، ولا ضراً، ولا رزقاً، ولا حياةً، ولا أمناً، ولا توفيقاً، ولا نصراً، ولا تطميناً، ولا تمكيناً، لا تملك لك شيئاً، ومع ذلك فالإنسان يعبد هذه الجهة ويَمْحَضُها حُبَّه وولاءه، وهو بهذا يمشي في طريقٍ مسدود، لذلك يقول الله عزَّ وجل:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (48))

(سورة النساء)

يغفر الله ما يشاء إلا الشرك به:

كنت قد ضربت حول هذه الفكرة مثلاً أنه يمكن أن تتجه إلى مدينة، ولك فيها مبلغٌ كبيرٌ جداً، يُمكن أن ترتكب وأنت في الطريق إليها آلاف الأغلاط، لكنَّك تسير نحوها وستأخذ هذا المبلغ، أما الخطأ الذي لا يُغْتَفَر أن تتجه في طريقٍ معاكس لا تجد فيه شيئاً.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ (48) ﴾

(سورة النساء)

((إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي، من أقبل عليّ منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي ـ الله رؤوف رحيم، رؤوف رحيم ـ لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

لا يليق بالإنسان أن يعبد غير الله وإلا فإنه يحتقر نفسه:

الذي خلقك، الذي أمَدَّك، الذي يُسَيِّرُك، الذي أمْرُكَ بيده، الذي إليه يُرْجَعُ الأمر كله، الذي مصيرك إليه، هذا وحده الذي ينبغي أن تعبده، ولا ينبغي أن تعبد سواه، ولا ينبغي أن تتجه إلى سواه، ولا ينبغي أن تكون محسوباً على غيره، يجب أن تكون محسوباً على الله وحده، لا يليق بك أن تكون لغير الله، إنَّك إذاً تحتقر نفسك.

﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ (130) ﴾

(سورة البقرة)

أنت تحتقر نفسك حينما تتجه إلى غير الله، عبدٌ ضعيفُ مثلك، نقطة دم في دماغه تجعله مشلولاً، ونموٌ عشوائيٌ في بعض أنسجته يجعله مصاباً بمرضٍ خبيث يُسَلِّم الأمر لغيره، الإنسان ضعيفٌ جداً، فكيف تتجه إليه ؟ وكيف تعلّق الأمل عليه ؟ وهو لا يملك حياته !!

أيها الأخوة الكرام ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، والدين كله توحيد.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (21) ﴾

أقرب اسمٍ من أسماء الله تعالى إلى العبد اسم الرب، وأقرب شيءٍ إلى الطفل أمُّه، لأنها تربيه، تمدُّه بالحليب، تمده بالرعاية، تعطف عليه، ترعى شؤونه، تأخذ بيده، ترقى به، أقرب كائنٍ في حياة الطفل أمه، وأقرب اسمٍ من أسماء الله الحسنى إلى الإنسان ربُّ العالمين، فهو يربيه، إذا أودع الله في قلب الأب رحمة فمن الله عزَّ وجل، إذا رأيت أباً يرحم ابنه هذه رحمة الله، إذا رأيت أماً تعطف على ابنها هذه رحمة الله.

كلُّ الخلائق يتراحمون بجزءٍ من رحمة الله:

تروى قصةٌ رمزية ـ لها معنى عميق ـ أن أحد الأنبياء رأى امرأةً تَخْبُزُ وابنها إلى جنبها، كلما وضعت رغيفاً في التنور ضَمَّت ابنها وقبَّلته، فعجب هذا النبي من رحمة هذه الأم بولدها، فقال الله له:

هذه رحمتي يا عبدي، وسأنزعها، فلما نزع من قلبها الرحمة بكى طفلها فألقته في التنور.

إذا رأيت أماً تعطف على ابنها فهذه رحمة الله، إذا رأيت حيواناً يعطف على أولاده هذه رحمة الله، كلُّ الخلائق يتراحمون بجزءٍ من رحمة الله، بل إن الرحمة التي في قلبك تتناسب مع اتصالك بالله عزَّ وجل بالضبط، أشدُّ الخلق اتصالاً بالله هو رسول الله، إذاً هو أرحم الخلق بالخلق على الإطلاق. ذهب إلى الطائف، وكذَّبوه، وسخروا منه، وأغْرُوا صبيانهم بإيذائه، فلما جاءه جبريل وقال: يا محمد أمَرني ربي أن أكون طوع إرادتك، لم ينتقم، مع أنهم بالغوا في الإساءة إليه، قال:

((لا يا أخي، اللهم اهدِ قومي إنهم لا يعلمون، أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً))

[متفق عليه عن عائشة]

يا أيها الأخوة الكرام، إليكم هذا القانون، وهو مستنبط من هذه الآية:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ (159))

(سورة آل عمران: آية " 159")

كنت ليِّناً معهم بسبب رحمةٍ استقرَّت في قلبك من خلال اتصالك بنا، فالتفوا حولك، وأحبّوك، وفدوك بأرواحهم وأولادهم ونسائهم، وكانوا معك في كل شيء إلى نهاية الطريق، قال أبو سفيان: " ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحابُ محمدٍ محمداً "، وهذا الذي يفقده المسلمون اليوم.

مظاهر الإسلام صارخة، ولكن الحب معدوم بين المسلمين، ما رأيت أحداً يحبُّ أحداً كحبِّ أصحابِ محمدٍ محمداً.

العبادة غاية الخضوع:

أيها الأخوة الكرام، هل تصدِّقون أن امرأةً أنصارية تتفقَّد أقرباءها عقب معركة أحد، تذهب إلى ساحة المعركة فإذا زوجها شهيدٌ، ثم ترى أباها شهيداً، ثم ترى أخاها، ثم ترى ابنها، معقول ؟! زوجها، وأبوها، وأخوها، وابنها وتقول: ما فعل رسول الله ؟ فلما رأته بأم عينها، واطمأنت على سلامته قالت: يا رسول الله كل مصيبةٍ بعدك جلل، هكذا كان أصحاب النبي، هكذا كان حبُّهم لرسول الله، هكذا كانت تضحياتهم، بهذا وصلوا إلى المَشرقين، بهذا مكّنهم الله في الأرض، بهذا استخلفهم، بهذا بدَّل خوفهم أمناً، بهذا دانت لهم أنحاء الأرض.

جاءت رسالة إلى هارونَ الرشيد من إمبراطور الروم، تقول هذه الرسالة: إن الإمبراطورة التي سبقتني دفعت لك الجزية، وكان الأولى أن تأخذها منك، فَرُدَّ كل شيءٍ أخذتَه منها وإلا بيني وبينك القتال، فأجابه: من عبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى كَلب الروم، الجواب ما تراه لا ما تسمعه، فغزاه، وقهره، وجعله يدفع الجزية ضِعْفَاً.

هكذا كان المسلمون يوم كانوا مع الله، كلمتهم هي النافذة، هي العُليا، ولكن حينما تركوا سُنَّة رسول الله اختلف الوضع:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (59))

(سورة مريم)

أيها الأخوة الكرام، قضية عبادة الله عزَّ وجل أخطر موضوع في حياة المؤمن، من تعبد ؟ العبادة غاية الخضوع، لمن تخضع ؟ هل تخضع لغير الله ؟ أقول لكم هذه الكلمة التي قلتها مراراً: حينما يطيع الإنسان مخلوقاً ـ كائناً من كان ـ ويعصي ربَّه، فهو لم يقل: الله أكبر، ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، لماذا ؟ لأنه تصوَّر أن طاعة هذا المخلوق ـ القوي في نظره ـ أثمن عنده من طاعة الله، إذاً لم يقل: الله أكبر بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، الذي يَغُشُّ المسلمين ما قال: الله أكبر، ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، لأنه رأى أن هذا المال الذي يأخذُه من هذا الغش أثمن عنده من طاعة الله.

كلمة المسلمين ليست هي العليا لأنهم اعتزّوا بغير الله:

قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (59))

(سورة مريم)

الذي لا يقيم الإسلام في بيته إرضاءً لزوجته ما قال: الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، لأنَّه رأى إرضاء أهله وأولاده أثمن عنده من إرضاء الله عزَّ وجل، قضية مصيرية هو الجواب عن سؤالٍ كبير لماذا نحن كذلك ؟ لماذا يعد المسلمون خُمس العالم مليار ومئتي مليون، وليست كلمتهم هي العُليا ؟ ترتعد فرائصهم إذا حدث شيءٌ في العالم ونُسب إليهم، لأن الغضب سينصَبُّ عليهم، أهذه حياة؟!! لأنهم اعتزّوا بغير الله، لأنهم ما أرادوا عزاً عن طريق الدين، بل عن طريق شيءٍ آخر.

أيها الأخوة الكرام:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ (21))

هو الذي خلقك، وهو الذي يربيك، يُمِدُّك بما تحتاج، وهو الذي يربِّي نفوسنا، ينقلها من حالٍ إلى حال، من طور إلى طور، هو الذي يراقب أعمالنا، يطّلع على ما في سرائرنا، يحاسبنا على خواطرنا، هو الذي بيده كل شيء، وإليه مصير كل شيء.

الربَّاني الذي لا يشغل ساحتَه إلا اللهُ:

أيها الأخوة، ينبغي أن تعبد هذا الإله، ينبغي أن تنتمي إليه، ينبغي أن يكون ولاؤك لـه، حُبُّك له، إخلاصك له، شبابك له، حياتك كلها له، مالك له، ذكاؤك له، طلاقة لسانك له، خبرتك له، علمك له:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162))

(سورة الأنعام)

هذا هو الربَّاني:

(وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيين (79))

(سورة آل عمران)

الربَّاني الذي لا يشغل ساحتَه إلا اللهُ، لا يعمل إلا لله، لا يرضي غير الله، لا يخاف إلا من الله، لا يسعى إلا لطاعة الله، لا يهاب أحداً إلا الله، هذا هو التوحيد، ائتني باثنَي عشر ألف موحّد ولن يُغلبوا في الأرض، ورد في الحديث الصحيح:

((لن تغلب أمتي من اثني عشر ألفاً من قلة))

[الجامع الصغير]

(لن تغلب) تفيد تأبيد النفي:

((لن تغلب أمتي من اثني عشر ألفاً من قلة))

[الجامع الصغير]

إن لم يصلح المجتمع كُلُّه فعليك بإصلاح نفسك، إن لم يصطلح الناس مع ربهم اصطلح أنت مع الله، إن لم يُقِم الناس الإسلام في بيوتهم فأقم أنت الإسلام في بيتك، أقم الإسلام في عملك، كن مع الله ولا تُبالِ.

أسماء الجلال وأسماء الجمال:

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية الأساسية:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21))

قضية ثابتة، من يستطيع أن يدَّعي أنه خلق الناس ؟ من يستطيع أن يدَّعي أنه خلق الأرض ؟ أنه أنزل الماء من السماء ؟ شيءٌ بديهي حتى إن الكُفر يعني الإيمان ! كيف ؟ كفر: غطَّى، غطَّى

شيئاً، ما هذا الذي تغطيه ؟ هو الإيمان، الكافر يقول: مصرف إسلامي، المعنى أن المصارف الأخرى غير إسلامية.

أيها الأخوة الكرام:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21))

لعلكم تتقون أسماء جلاله بأسماء جماله، أسماء جلاله: قهَّار..

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12))

(سورة البروج)

الله منتقم، هذه أسماء الجلال، كيف تتقيها ؟ بطاعته، فإذا أطعته نِلتَ أسماء الجمال ؛ هو الرحيم، هو اللطيف، هو المعطي، هو المُعِزّ، هو الرافع، هو العَدل، تتقي أسماء جلاله بأسماء جماله.

عناصر الأرض متنوِّعة لحكمةٍ بالغةٍ أرادها الله:

أيها الأخوة الكرام، شرحَت هذه الآية في الدرس الماضي، بعدها:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً (22))

الحقيقة الفِراش مُريح، ما كان الفراش فراشاً إلا لترتاح عليه، ليِّن، مُريح، نظيف، يتناسب مع جسمك، يتفاعل مع خطوط جسمك، ترتاح عليه، قدَّم الله لك نموذجاً لشيءٍ قريبٍ منك، فالإنسان وهو نائم أقرب شيءٍ إليه فراشه، ما سُمي فراشاً إلا لأنه مريح، جعل الله جلَّ جلاله لك الأرض فراشاً، أي جعلها مستوية، فلو جعلها متعرِّجة ؟!! قد تشتري أرضاً في سفح جبل تنفق عليها مئات الألوف لتجعلها مصاطب، شيء متعب، جعل لك الأرض فراشاً، جعلها مستوية، ماذا تفعل بها لو جعلها صخرية ؟ جعلها تربة تنبت لك الزرع، جعلك مستقراً عليها عن طريق الجاذبية، جعلها لك فراشاً، أودع فيها الماء، أودع فيها المعادن، أودع فيها أشباه المعادن.

عناصر الأرض متنوِّعة لحكمةٍ بالغةٍ أرادها الله، جعل لكل عنصر درجة انصهار خاصة، ولو أن كل العناصر لها درجة انصهار واحدة لوجدت الأرض كلها صلبة، أو سائلة، أو غازاً، تجد شيئاً صُلباً، الحديد قاسٍ، الصخر قاسٍ، الرخام قاسٍ، المعادن قاسية، قاسية ومتينة، تجد بالمقابل بعض الأجسام الليِّنة، الكاوتشوك، الفلّين، بعض النباتات، الصوف، القطن. هناك أشياء سائلة، و أشياء غازية، هذا التنوُّع بين الصلب، واللَّزِج، والمَرِن، والسائل، والغاز لتكون الأرض فراشاً، تحتاج إلى هواء تستنشقه؛ غاز، تحتاج إلى ماء تشربه سائل، تحتاج إلى فراش تنام عليه ليِّن، تحتاج إلى معدن قاسٍ تصنع منه المركبة والمحراث كالحديد، جعلها الله فراشاً، جعلها تنبت.

الله تعالى جعل الأرض فراشاً فيها استقرارك واستمرار حياتك:

جعلها فراشاً بمعنى أنه جعل فيها أسباب استقرارك عليها واستمرار حياتك فيها، لو سكنت في بيت لا ماء فيه تخرج منه، لو سكنت في بيت ليس فيه تدفئة في الشتاء تخرج منه، لو سكنت في بيت لا يوجد فيه تكييف في الصيف تخرج منه، لو سكنت في بيت لا يوجد فيه فراش، كيف تنام على الأرض؟

هذا البيت لماذا تستقر فيه ؟ فيه ماء، فيه هواء، فيه طعام، هناك ثلاجة، غرفة ضيوف، غرفة جلوس، هناك حمام، ومطبخ، وغرفة للأولاد، هذه الغرف، وهذا الفَرْش، وهذه الأدوات كلها وسائل الاستقرار والاستمرار في هذا البيت، وكذلك الأرض جعل الله أسباب استقرارك واستمرارك فيها، إذاً هي كالفراش. تحتاج إلى معدن تصنع منه طائرة يجب أن يكون خفيفاً جداً ومتيناً جداً ؛ الألمنيوم، هو معدن يتميَّز عن غيره، لو أن الطائرة من حديد لكانت كُلفة طيرانها عشرة أضعاف، لكن معدن الطائرة متين وخفيف في وقتٍ واحد، تحتاج إلى معدن يَنْصَهر بدرجة مئة، كيف تعامل الحديد مع الحجر ؟ عندَك دُكَّان ولها باب، تريد أن تضع القفل على الحجر، ينصهر معدن الرصاص في درجة مئة، هذا المعدن له خاصة ينفرد بها أنه حينما يبرد يزداد حجمه، فيكفي أن تحفر الحجر على شكل إجاصة، وأن تضع الحديد في الحجر، وأن تسكب الرصاص، فحينما يبرد يتمدد، وعندئذٍ توجد قوة تنزع الحديد من الحجر. من خلق هذا المعدن خصيصاً لهذا الاستعمال ؟ الله جلَّ جلاله، تحتاج إلى معدن يكون قِيَماً للأشياء جعل الذهب والفضة، هذا المعدن مهمته أن يكون قيماً للأشياء يصنع منه النقد، تحتاج إلى معدن ينقل الحرارة ؛ النحاس، أسلاك الكهرباء من النحاس، أواني المطبخ من النحاس، تحتاج إلى معدن ليِّن ؛ قصدير، معدن قاسٍ، معدن متين، معدن مقاوم، معدن لا يصدأ، رأيت صورةً لسبائك ذهبية استخرجت من البحر حيث غرقت قبل مئة عام، غرقت سفينة بين أمريكا وأوربا وفيها خمسة أطنان من الذهب على شكل سبائك، بحث عنها ووجدت، استخرجت والله كأن هذا الذهب سُبِكَ من يومه، مئة عام في أعماق البحر لم يتأثر إطلاقاً، خلق لك هذا المعدن خصيصاً ليكون نقداً.

هناك حيوانات خُلِقت مذللة خصيصاً للإنسان:

الألمنيوم له فائدة، والرصاص له فائدة، والنحاس له فائدة، والحديث عن المعادن يطول، وكل معدن له خصائص، وإذا دَمَجْتَ معدنين جاءت خصائص جديدة ليست في أحد المعدنين، علم المعادن علمٌ عميقٌ وطويلٌ وفيه أسرار كبيرة جداً، من الذي خلق هذه المعادن ؟ المعدن الأساسي الذي هو قوام حياتنا ؛ الحديد:

(وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ (25))

(سورة الحديد: آية " 25")

ما من شيءٍ تراه عينك إلا والحديد أحد أسباب وجوده، كل الأدوات من الحديد، فهذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً (22))

هناك أسماك تأكلها، وأطيار، وحيوانات، حيوانات خُلِقت مذللة خصيصاً لك.

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ (72))

(سورة يس: آية " 72 ")

البقرة مذلَّلة، أما إذا جنَّت لا تُبقي ولا تذر، يضطر صاحبها أن يطلق عليها الرصاص، خلقت بالأصل مذللة، أما إذا أصابها مرض الجنون يطلق عليها صاحبها الرصاص بعد أن دفع ثمنها مئة ألف، لأنها تصبح مجرمة، من ذللها ؟ يوجد خروف ويوجد ضبع، من ركَّب في الخروف هذه الطباع الليِّنة، لا تخاف منه، لا تتهيَّبه أبداً، ينساق لك، حتى إلى الذبح ينساق لك، بينما الضبع تحسب له ألف حسابٍ وحساب.

آيات دالة على عظمة الله:

الحيوان الذي تأكل منه مذلل، والماء الذي تشربه مذلل، من جعل هذا الماء عذباً فراتاً بعد أن كان مِلحاً أجاجاً ؟ شيء لا يصدق، من أجل أن يتبخَّر ماء البحر فيصبح سحاباً وينقلب إلى أمطار، وتكون هذه الأمطار في أعماق الأرض، جُعِلَت هذه المسطَّحات المائية الواسعة جداً، فأربعة أخماس اليابسة بحر، يتبخَّر هذا البحر ليشكِّل سحاباً، ليصبح أمطاراً ليستقر في باطن الأرض، من أودع في هذه الأرض الينابيع ؟ في بعض البلاد أربعة آلاف جزيرة، وفي كل جزيرةٍ نبعٌ يتناسب مع مساحتها، وتأخذ كل هذه الجُزُر المياه من جبالٍ في آسيا، إذاً هناك تمديدات من أعماق الجبال إلى هذه الجزر، هذا صُنْعُ الله عزَّ وجل.

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً (22))

الأرض فيها هواء، والهواء متوازن، لو أن الهواء على شكلٍ آخر، لو أن نِسَب الأوكسجين في الهواء عالية لاحترق كل شيء، ولو أن نسب غاز الفحم عالية لما اشتعلت النار إطلاقاً، ولو أن النبات يتنفَّس الأوكسجين مثلنا ويعطي غاز الفحم لانتهى الأوكسجين من آلاف السنين، ما هذا التوازن الرائع ؟ يأخذ النبات غاز الفحم ويعطي الأوكسجين، ويأخذ الإنسان الأوكسجين ويعطي غاز الفحم .

خصائص الماء: لا لون له، لا رائحة، لا طعم، يتبخَّر بدرجة أربعة عشر، سريع النفوذ، هذا الماء لا يقبل الضغط، لو وضعت متراً مكعباً من الماء وفوقه ثمانمائة طن لا تنضغط ولا ميلي، أما

حينما يتمدد لا يقف أمامه شيء، يُصَدِّع الفولاذ. إذا جَمَّدت الماء في الفولاذ تمدد الماء بعد التجَمد فيتصدع الفولاذ من تمدد الماء، الماء مصمم، الماء كأي عنصر إذا برَّدته ينكمش، ولكنه يتمدد عند الدرجة الحَرِجة (+4)، ولولا هذا التمدد لما كنا في هذا المسجد، ولا وجدت كائناً حياً على وجه الأرض، تمدد الماء في الدرجة (+4) سر الحياة على الأرض، فراش بهوائها، بمائها، بنسب البحار إلى اليابسة.

كل شيءٍ في الأرض خلقه الله تكريماً للإنسان:

اليابسة فيها مناطق خضراء، وفيها صحارى قاحلة، قد يقول قائل: لِمَ هذه الصحارى ؟ لو أن الأرض كلها خضراء لما عشنا، هذه الصحارى الحارَّة تُشَكِّل حرارة تسَخِّن الهواء الذي فوقها، إذا سخن الهواء يتخلخل، فيقل ضغطه، وعندما ينكمش الهواء البارد يزداد ضغطه، من وجود ضغطين متفاوتين تمشي الرياح، أساس الرياح منطقتان ذواتا ضغطين متباينين، الهواء في القطب بارد منكمش ضغطه مرتفع، وفي خط الاستواء الهواء مخلخل ضغطه منخفض، تأتي الرياح من الشمال إلى الجنوب، والأرض تدور، تأتي الرياح إذاً من الشمال إلى الجنوب الشرقي، هذا مسير الرياح، ولبحث الرياح بحوثٌ طويلة.

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً (22))

الله عزّ وجل فضلاً عن أنه هيَّأ لنا الأساسيَّات أعطانا الأشياء المُحَسِّنة، توجد أزهار فهناك بعض المُجَلَّدات ـ ثمانية عشر مجلداً ـ كل صفحةٍ في هذه المجلدات فيها رسم زهرةٍ، وكل هذه الصفحات في ثمانية عشر مجلداً هي أنواع الأزهار التي خلقها الله لهذا الإنسان، فالأزهار خُلِقَت تكريماً للإنسان، خُلِقت الروائح العطرية تكريماً للإنسان، خُلِقت التوابل تكريماً للإنسان، توجد أطعمة كثيرة، وتوجد نباتات كثيرة، وتوجد روائح كثيرة هدفها أن تقوم حياتك بها، هدفها أن تتنعم بها، وهذا يشير إلى اسم الودود:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (16))

(سورة البروج)

هذا كلُّه من معنى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً (22))

الليل والنهار من الآيات الدالة على عظمة الخالق:

أيُّها الأخوة، الحقيقة الحديث عن أن الأرض فراش لا ينتهي، كل شيءٍ في الأرض مخصَّص للإنسان، بدءاً من حجم الأرض، لو كان حجم الأرض عشرة أضعاف لكان وزنك عشرة أضعاف،

لو حجمها العُشر لكان وزنك العُشر، لو لم تكن هناك جاذبية لكانت الحياة لا تُطاق لأن الله عزّ وجل يقول:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً (61))

(سورة النمل: آية " 61")

أنت مستقر عليها بفعل الجاذبية، وثمة شيء آخر: لو كان الليل مئة ساعة لما أُطيقت الحياة ؛ تنام وتستيقظ، وتنام وتستيقظ، طاقتك للنوم ثماني ساعات، والليل مئة ساعة، ناس يعملون في الليل، ولا أحد ينام، ضجيج وعمل، جعل ربنا عزّ وجل الليل اثنتي عشرة ساعة، والنهار اثنتي عشرة ساعة، ويختلفان من فصلٍ إلى فصل، حتى الليل والنهار مصمم للإنسان، وزن الإنسان مصمم، هذا التناسب مثلاً: هذا الحليب الذي تنتجه البقرة يتناسب تناسباً مذهلاً مع جسم الإنسان، وهو غذاءٌ كامل، لأن الذي خلق الإنسان هو الذي خلق البقرة، وخلق هذا الحليب خصيصاً له حيث إن وليد البقرة يحتاج إلى اثنين كيلو في اليوم، بينما تعطي البقرة أربعين كيلو.

هذا الخروف تنتفع من كل شيءٍ فيه ؛ من جلده، وصوفه، ولحمه، ودهنه، وشحمه، وأمعائه، وكل أعضائه، فهو خُلِقَ خصيصاً لك.

الفواكه وتصميمها من الآيات الدالة على عظمة الله تعالى:

الفواكه.. انظر إلى التفّاحة ؛ شكلها جميل، حجمها معقول، رائحتها عطرة، قشرتها مانعة، طعمها لذيذ، فيها غذاء مفيد، فيها مواد سكرية ومعادن، وفيها حديد، فمن الذي جعل مقوِّماتها، عناصرها، قِوامها ؟ كيف تأكلها لو أنها كالصخر ؟ تحتاج إلى مطحنة بحص، فإنها لا تؤكل معك، قوامها معقول، قشرتها، حتى قَطْفُها سهل، لو أردت أن تسحب عنقود العنب سحباً لَعُصِر في يدك ولا ينسحب معك، أما بحركة معاكسة تنزعه من على الشجرة، كل شيء مصمم، هذا البطيخ يجب أن ينضج خلال تسعين يوماً لأنه فاكهة الصيف، لو أنه نضج في يومٍ واحد لا تنتفع منه إطلاقاً، كذلك الخضراوات، أما المحاصيل فيجب أن تنضج في يومٍ واحد تسهيلاً لجنيها، وهذه الفواكه مبرمجة، كل فترة من الصيف تنضج فاكهة، تبدأ بهذه الفاكهة ثم هذه الفاكهة، مبرمجة فيما بينها، ومبرمجة في نضجها في ذاتها، والثمار الكبيرة على الأرض، لو أنها على الشجر لصار هناك حوادث موت كثيرة جداً، لو وقعت بطيخة وزنها اثنتي عشرة كيلو على إنسان فإنها تُميته، البطيخ على الأرض، والفواكه اللطيفة على الشجر، والشجر قريب، هناك تصميم مذهل في الكون .

هذه الأرض فِراش، بحجمها فِراش، بنسب الماء إلى اليابسة فِراش، بليلها ونهارها فِراش، بشَّمسِها؛ لو أن الشمس أقرب لاحترق كل ما على الأرض، نموذج قبل أسابيع بلغت الحرارة إحدى وخمسين درجة كاد الناس يخرجون من جلودهم، من صمم هذه الحرارة بشكل معتدل بين الخمسة والخمسة وثلاثين على مدار السنة ؟ هذه فِراش، فحجم الأرض، وشكل الأرض الكُروي، والشمس،

والليل والنهار، والجاذبية، والماء والهواء، والمحاصيل والفواكه والخضراوات، والأسماك والأطيار، والمعادن وأشباه المعادن، والفيتامينات، وتصميم الفواكه والخضراوات مع جسمك، هذا كلُّه لأنه شيء مريح جعل لكم الأرض فِراشاً.

حينما تركع وتسجد لا تنسَ أن الله سبحانه وتعالى خلق لك الأرض فِراشاً:

أيّها الأخوة الكرام، توجد أشياء لا تنتهي، والله ما ذكرت إلا القليل إلا الذي حضرني وأنا ألقي هذا الدرس، أما استقصاء هذه الحقائق فيشمل الأرض كلّها، حينما تقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2))

(سورة الفاتحة)

حينما تركع، وحينما تسجد فلا تنسَ أن الله سبحانه وتعالى خلق لك الأرض فِراشاً، سمح لك أن تبني بيتاً، أعطاك مواداً أولية للبناء، ليس هذا الإسمنت في الأساس من صنع البشر من أعطى هذه المواد ـ مواد الإسمنت ـ خصائصها فسهُل عليك البناء ؟ من أعطى الحديد خصائصه فسهُل عليك البناء؟ من خلق هذا الوقود السائل فسهُلت عليك الحركة ؟ لأن الآية الكريمة:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

(سورة النحل)

عُزي خَلْقُ المركبة، والطائرة، والباخرة إلى الله، ومعنى عُزي إلى الله: أي هو الذي خلق موادها الأولية، وهو الذي خلق الوقود السائل الذي أودعه الله في الأرض، هذه الطاقة من خلقها ؟

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80))

(سورة يس)

أحدث نظرية للبترول أنه في العصور المطيرة انطمرت هذه النباتات العملاقة في باطن الأرض، وهي طاقة مخزونة فأصبحت بترولاً، وصناعات البترول لا تُعدُّ ولا تُحصى، بل إن استهلاك البترول في الوقود يُعدُّ استهلاكاً له غير معقول لأن له استعمالات أخرى، الآن كل شيء بالبترول، فهذه الأرض فِراش.

لا تزال الأرض تملك ثروات لا يعلمها إلا الله :

هناك شيء يلفت النظر، في الحرم المكي والمدني رخامٌ أبيض تدوسه عند الظهيرة الحرارة قد تصل تحت أشعة الشمس إلى الثمانين، تدوس على هذا الرخام فإذا هو بارد، شيء لا يُصدَّق، أحد أنواع الرخام النادر بالعالم كأن الله صممه لهذا الحدث، إنَّ الحُجاج والعُمَّار يطوفون حفاةً والدليل: أن الرخام القديم تحت الأروقة لو جاءته الشمس وسِرْتَ عليه كما لو وضعت يدك على مكواة حارة

بالضبط، لا تستطيع أن تسير عليه، من صمم هذا الرخام ؟ فكل شيء في الأرض جاهز، ولا تزال الأرض تملك ثروات لا يعلمها إلا الله، قال تعالى:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6))

(سورة طه)

المعادن والفلذات التي اكتشُفت والتي لم تُكتشَف، يوجد في البحر وحده مليون نوع من السمك، ليس مليون سمكة بل مليون نوع من السمك، بدءاً من الحيتان الزرقاء وزن مئة وخمسين طناً ـ هو شيء لا يُصدَّق مخلوق هائل ـ مدينة، يخرج منه تسعون برميل زيت، فيه خمسون طن لحماً، وخمسون طن دهناً، وفيه أرقام لكبده ولدماغه ولمعدته شيء لا يُصدَّق، ووليده يرضع منه ثلاثمئة كيلو في الرضعة الواحدة، وهو يحتاج ثلاثة رضعات في اليوم، فيرضع منه طن حليب، إلى سمكٍ صغير تراه في بعض أحواض السمك ـ سمك تزييني ـ سمكة صفراء، سمكة خضراء، سمكة فسفورية، سمكة شفافة، سمكة سوداء هذه للمنظر فقط سمك تزييني.

النباتات ؛ يعيش هذا النخل ستة آلاف عام، هناك نخلٌ نأكل منه التمر كان على عهد النبي عليه الصلاة والسلام، تعيش النخلة ستة آلاف عام وتعطي تمراً فيه ست وأربعون مادة غذائية، التمرة صيدلية، العسل، ماذا أقول ؟ أنواع النباتات لا تُعدُّ ولا تُحصى.

سخَّر الله للإنسان كل شيء تكريماً له أمَّا هذا المُسخَّر له فهو غافل عن الله:

ذهبت ذات مرة إلى بلد غربي ودخلت إلى مكان لبيع الخضراوات فرأيت عشرة أنواع لا أعرف اسمها ولا شكلها، شيء غريب، أنواع النباتات لا تُعَدُّ ولا تُحصى، أنواع الأزهار، أنوع الأطيار، أنواع الأسماك، أنواع المعادن، أنواع الفِلزات، هذا كلُّه من أجل الإنسان، سخَّر الله لنا كل شيء تكريماً لنا، أمَّا هذا المُسخَّر له فهو غافل عن الله:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6))

(سورة الإسراء)

أما الذي سُخِّرَت له كل هذه النعم هو وحده الغافل، ما موقفه يوم القيامة وقد رأى كل المخلوقات سُخِّرت له وهي تسبِّح الله عزّ وجل ؟ والله أيها الأخوة لو عرفنا الحقيقة لم نَنَم الليل.

لو تعلمون ما أنتم عليه بعد الموت ما أكلتم طعاماً عن شهوةٍ، ولا دخلتم بيوتكم تستظلون بها، ولذهبتم إلى الصُعُدات تبكون على أنفسكم.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

فو الله ما ذكرت شيئاً من هذه الكلمة:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً (22))

كالفراش تماماً، أنت الآن في الحر تجد وسائل لتخفيف الحر، يوجد برد فهناك وقود ومدافئ، أنت تحتاج إلى الماء، الماء موجود تستخرجه من أي مكان، أي مكان إذا حفرت بئراً تصل إلى الماء، من أودع الماء في الأرض ؟ الله جلَّ جلاله، نظام المطر، نظام الرياح، هذا كلُّه يحتاج إلى دراسات.

على المؤمن أن يحمد الله تعالى لأنه هداه إليه:

أيها الأخوة، كلمة (فِراش) كلمة دقيقة جداً يجب أن نذوب شكراً لله عزّ وجل، والإنسان حينما يقف بين يدي الله عزّ وجل ليقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2))

هل حمدت الله على أنَّه أوجدك ؟ وهل حمدت الله على أنه أمَدَّك ؟ وهل حمدت الله على أنه هداك إليه ؟ هناك شعوب ؛ تسعمئة مليون في بعض البلاد يعبدون البقر، شعب اليابان يعبد ذكر الرجل، شعوبٌ تعبدُ الجرذان، شعوبٌ تعبد النار، والشعوب المتحضِّرة تعبد أهواءها أي تعبد المرأة، تعبد شهوتها.

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (43))

(سورة الفرقان)

لكن المؤمن وحده يعبد الله، يعبد خالِقَ الكون، يعبد ربَّ العالمين، يعبد المُسَيِّر، يعبد الحكيم، يعبد القدير، يعبد الغَني:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً (22))

وفي درسٍ آخر إن شاء الله نُتابع هذه الآية.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (11-95) تفسير الآية 22 ، بناء السماء
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-09-04

بسم الله الرحمن الرحيم

السماء بناء لأن هناك نظاماً للجاذبية بين الكواكب:

مع الآية الثانية والعشرين، وهي قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22))

أولاً أيها الأخوة الكرام: السماء بناء لأن هناك نظاماً للجاذبية فيما بين الكواكب، لولا حركة الكواكب في مساراتٍ مغلقةٍ لأصبح الكون كُتلةً واحدة، لأن الجسم الأكبر يجذب الأصغر، فحركة الكواكب ينشأ عنها قوى نابذة تكافئ القِوى الجاذبة، فالسماء بناء، لولا هذه المسارات المُغْلقة لاضطربت الحركة، وأن السماء كما قال الله عزّ وجل:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11))

(سورة الطارق)

أي أن كل كوكبٍ يدور في مسارٍ مغلق، تتناسب هذه الدورة باتساعها وسرعتها مع قوة جذب النجم الآخر له، إذاً ينشأ ما يُسمى في الميكانيك توازن حركي، كل شيء متحرّك وكل شيء متوازن، هذا بناء ضخم، فلا بدّ من توضيح هذه الحقيقة، لو أتيت بسطحٍ سوي مستوٍ تماماً وجئت بكتلتين مغناطيسيتين بحجم بعضهما تماماً وأتيت بكرةٍ بينهما، لاستطعت بجهد خيالي أن تثبّت هذه الكرة في المتوسط بين الكُتلتين، بحيث يتكافأ جذب الكُتلتين لهذه الكرة فتقف في الوسط، أما لو زاحت عُشْر الميليمتر لانجذبت إلى الكتلة الأولى، لو زاحت عُشر الميلي بجهة الكتلة الثانية لانجذبت إلى الكتلة الثانية، هي تحتاج إلى جهد كبير جداً كي تستقر في الوسط، أما إذا كانت الكتلتان غير متساويتين، تحتاج إلى حسابات رياضية كثيرة جداً، وإذا كانت الكتلتان ثلثين وثلثاً فلا بدّ من أن تضعها في مسافةٍ تتناسب مع جذب الكبرى ومسافةٍ تتناسب مع جذب الصغرى، حسابات.

هذا الكون مبنيٌ بناءً رائعاً أساسه التوازن الحركي:

أما إن كانت ثلاث كتل أو أربع كتل، وكل كتلة لها حجم، ولها قوة جذب !! الحديث قبل قليل على سطح مستوٍ، أما إذا كانت هذه الكتل في فراغ وكانت متحرّكة وبأحجام مختلفة، ومسافات مختلفة، وسُرعات مختلفة، فالإعجاز أن تتوازن هذه الكتل المتفاوتة في الحجم والسرعة والمسافة وهي في فراغ ومتحركة، والمحصلة توازن، هذا هو التوازن الحركي المعجز.

(وَالسّماوَاتُ مَطْويّاتٌ بِيَمِينِهِ (67))

(سورة الزمر: آية " 67 ")

بيده ملكوت السماوات والأرض، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(الّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسّمَاءَ بِنَاءً (22))

السماء بناء، والله سبحانه وتعالى هو الذي بنى هذا النظام وبنى هذه المجرّات، قد يسأل أحدكم: كم مجرة في الكون ؟ لا يزال الكون مجهولاً، أما المعلومات المتواضعة التي وصل إليها العلماء مليون مليون مجرة، وفي أكثر هذه المجرات مليون مليون كوكب ونجم، وكل هذه المجرات مُترابطة مع بعضها البعض بقوى التجاذب، ومتحرّكة بمساراتٍ مغلقة حيث إن هذا الكون مبنيٌ بناءً رائعاً أساسه التوازن الحركي.

(وَجَعَلْنَا السّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً (32))

(سورة الأنبياء: آية " 32 ")

أروع ما في هذه الآية أن كلمة (تزول) أعطت معنيين في آنٍ واحد:

أيها الأخوة الكرام، من الآيات التي تشير إلى هذا المعنى، قول الله عزّ وجل:

(إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا (41))

(سورة فاطر: آية " 41 ")

تحمّلوا قليلاً، هذه آياتٌ دالةٌ على عظمة الله عزّ وجل.

(إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا (41))

(سورة فاطر: آية " 41 ")

الزوال هو الانحراف، أي إن لهذا الكوكب مسار، لو أنه خرج عن مساره، ماذا يحصل ؟ لو أنه زال عن مساره، أقرب مثال هو الأرض، لو أن الأرض في دورتها حول الشمس خرجت عن مسارها ما الذي يحصل ؟ قال: حينما تبتعد هذه الأرض عن مسارها، تبتعد عن مصدر الطاقة والحرارة، تُصبح الأرض كوكباً جليدياً متجمّداً تنعدم فيها الحياة لأن الوجه غير المقابل للشمس، إذا ثبتت الأرض من دون أن تدور تهبط حرارته إلى مئتين وسبعين تحت الصفر، تنعدم الحياة، لو أن الأرض توقفت لصار طرف الوجه المقابل للشمس ثلاثمئة وثلاثين درجة، بينما بلغت على الوجه

الآخر مئتين وسبعين درجة تحت الصفر، انتهت الحياة، لو أنها خرجت عن مسارها وانطلقت بعيداً في الفضاء الخارجي، وحُرمت من أشعة الشمس ومن طاقتها ودفئها أيضاً لأصبحت كوكباً متجمداً، ومع الصفر المُطلق تتلاشى حركة الذرّات، ومع تلاشي حركة الذرّات تنتهي الأرض، أروع ما في هذه الآية أن كلمة تزول أعطت معنيين في آنٍ واحد، لو أن الأرض انحرفت عن خط سيرها، لو أن الأرض زالت عن خط سيرها لزالت وتلاشت.

حركة الأرض حول الشمس من الآيات الدالة على عظمة الله تعالى:

قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا (41))

(سورة فاطر: آية " 41 ")

للتقريب لو أن الأرض خرجت عن مسارها، وأردنا أن نعيدها إلى مسارها ـ طبعاً هذا كلام كله افتراضي، لكن الهدف منه أن تعرف ما معنى ارتباط الأرض بالشمس ـ قال: نحتاج إلى مليون مليون حبل فولاذي ـ أمتن عنصر في الكون الفولاذ المَضفور، لذلك المصاعد والتليفريكات كلها تستخدم الحبال الفولاذية المضفورة لأنها أمتن عنصر ـ لو أردنا أن نعيد الأرض إلى مسارها حول الشمس لاحتجنا إلى مليون مليون حبل فولاذي، قطر كل حبل خمسة أمتار، ما معنى حبل فولاذي قطره خمسة أمتار ؟ أي أن هذا الحبل يقاوم من قوى الشد مليوني طن، ملخّص الكلام أن الأرض مرتبطة بالشمس بقوة جذبٍ تساوي مليون مليون ضرب مليوني طن، هذا معنى قوله تعالى:

(إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا (41))

(سورة فاطر: آية " 41 ")

لو أنها خرجت عن سيرها لزالت وتلاشت، الأرض مربوطة بقوة جذب تساوي مليونين ضرب مليون مليون طن، كل هذه القوة من أجل أن تُزيح الأرض عن مسارٍ مستقيم ثلاثة ميلي في الثانية، من ثلاثة ميلي كل ثانية ينشأ مسار مُغلق حول الشمس، ثلاثة ميلي في الثانية على مدى العام ينشأ مسار حول الشمس مغلق، هذه حركة الأرض حول الشمس.

(إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (41))

(سورة فاطر: آية " 41 ")

أجل رحيم على جهل عباده، وعلى انحرافهم.

مسار الأرض إهليلجي:

هناك شيء ثانٍ أيها الأخوة ـ لعلي قلته لكم سابقاً لكن لا بدّ من إعادة ذكره الآن ـ مسار الأرض في دورتها حول الشمس إهليلجي ؛ بيضوي، والشكل البيضوي له قطران أصغري وأعظمي، وإذا كانت الأرض في القطر الأصغري تزيد من سرعتها لينشأ من هذه السرعة الزائدة قوةٌ نابذةٌ زائدة تكافئ المسافة القليلة التي تزداد فيها قوة جذب الشمس، توازن دقيق، في المنطقة ذات القُطر الأدنى تزيد السرعة، أما في المنطقة ذات القطر الأعظمي تتباطأ السرعة، لو أنها زادت لتفلّتت الأرض من جذب الشمس، فكلما أبطأت السرعة زاد الجذب، وكلما زادت السرعة قلّ الجذب، ففي القطر الأصغر تزيد السرعة، وفي القطر الأكبر تقل السرعة، ينشأ من هذه الزيادة وهذا النقصان تفاوت في سرعة الأرض، أما لو كان هذا التفاوت عنيفاً، أو لو كان التسارع عالياً لتهدم ما على الأرض، معنى أن التسارع عالٍ نقول: هذه السيارة تنطلق من صفر إلى مئة في ثلاث ثوان تسارع عالٍ جداً، من صفر إلى مئة في عشرين ثانية تسارع أقل، لو أن التسارع كان عالياً جداً لتهدم كلُّ ما على الأرض، الله لطيفٌ بعباده، تزداد السرعة شيئاً فشيئاً وتنخفض شيئاً فشيئاً، من هذا الازدياد البطيء والانخفاض البطيء يسلم كل ما على الأرض، هذا معنى قوله تعالى:

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً (22) ﴾

السماء مبنية.

الله جلّ جلاله يمسك السماء أن تقع على الأرض:

يقول الله جلّ جلاله في آيةٍ أخرى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ (65) ﴾

(سورة الحج: آية " 65 ")

لو أن كوكباً انجذب إلى كوكبٍ واصطدما لانتهت الحياة على الكوكبين، فالله جلّ جلاله يمسك السماء أن تقع على الأرض، رَصدوا قبل سنوات وسنوات مذنباً يتّجه نحو الأرض وظنوا أنه سوف يصطدم بها، وظنوا أن هذا هو يوم القيامة، ثمّ حوّل المذنب وجهته قبل مسافةٍ طويلة، فلو سمح الله عزّ وجل في

أية لحظة لكوكبٍ أن يصطدم بكوكب آخر لانتهت الحياة، فالله جلّ جلاله يقول:

(وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ (65))

وفي آيةٍ ثالثة:

(وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً (32))

(سورة الأنبياء: آية " 32 ")

لننظر في الظواهر التي تجري في العالم الآن، فمثلاً هذا الفيضان الذي شَرّد مئتين وخمسين مليون إنساناً في الصين وجعلهم بلا مأوى، والذي أنهى آبار النفط كلها، والذي أتلف المحاصيل كلها، وجعل الصين تعيش في مصيبةٍ ما بعدها من مصيبة وذلك كله بسبب ارتفاع درجات الحرارة في الأرض، وهذا الارتفاع بسبب تَخَلْخُل طبقة الأوزون التي هي السقف المحفوظ للأرض، والسبب أن الإنسان حينما تعلّم ولم يوازي علمه دينه غيّر خلق الله عزّ وجل، قال تعالى:

(فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ (119))

(سورة النساء)

نهاية العلم أن يعود الإنسان إلى التصميم الإلهي:

هناك غازات ناجمة عن بعض الصناعات أثرت على طبقة الأوزون المحيطة بالأرض والتي مهمتها الخطيرة حفظ الأرض من وصول القسم الضار من أشعة الشمس إليها، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً (32))

(سورة الأنبياء: آية " 32 ")

محفوظاً من كل ما يؤذي الإنسان، فلما تخلخلت هذه الطبقة ارتفعت الحرارة، فذابت الثلوج في القطبين، وهذا انعكس على مُناخ الأرض، فالمُناخ الذي تمر به الأرض مناخ غير طبيعي، ما عهدنا أن تصل الحرارة في دمشق في الشمس إلى إحدى وسبعين درجة، وما عهدنا أنها تصل في الظل إلى إحدى وخمسين درجة، ما عهدنا أنها تصل في الخليج إلى أربعة وثمانين درجة بالشمس، وإلى سبع وخمسين بالظل، وضع غير طبيعي، ناجم عن تغيير خلق الله عزّ وجل، تحتل مشكلة البيئة في العالم كله الآن المرتبة الأولى، اخترع الإنسان وصَنّع لكن هذا الاختراع كان وبالاً عليه، ويسير الإنسان الآن في طريق العودة إلى أصل التصميم الإلهي.

سمعت أن الدول المتقدمة بالمفهوم العصري تشتري الفاكهة التي لم تُسَمّد بالأسمدة الكيماوية، والتي لم تُرش بالمبيدات الكيماوية، بعشرة أضعاف ثمن الفاكهة التي سُمِّدت وكوفحت آفاتها بالأدوية الكيماوية، حرصاً على عدم تغيير بنية هذه الفاكهة، وهذا ينعكس على أجسامنا أوراماً خبيثة، فالقضية يجب أن نعود إلى أصل التصميم الإلهي، الأصل أن الله جعل السماد طبيعياً وجعل

المكافحة حيوية، وهذا ما يطمح إليه العالم في المستقبل، نهاية التقدُّم، نهاية العلم أن تعود إلى التصميم الإلهي في إنبات النبات وتسميده، ومكافحة الحشرات والأوبئة النباتية.

تقنين الله عز وجل تقنين تأديب لا تقنين عجز:

أيها الأخوة الكرام تقول الآية الكريمة:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً (22))

هناك علاقة وثيقة بين قوله تعالى في الآية السابقة، وبين تتمة الآية:

(وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ (32))

لحكمةٍ إلهية جعل الله رزقَ الإنسان في الأمطار، الأمطار وحدها آيةٌ من آيات الله الدالة على عظمته، من أين جاءت هذه البحار ؟ فقد سمعت أن مرصداً عملاقاً في أوروبا يستخدم الأشعة فوق البنفسجية في كشف النجوم، اكتشف سحابة كونية، سحابة واحدة من بين آلاف السحب تستطيع هذه السحابة أن تملأ البحار كلّها ستين مرة في يوم واحد بالماء العذب، فكل من يقول: إن الرزق محدد، وهناك أزمة مياه في العالم وأزمة رزق في العالم، فرد عليه بأن:

(إِنّ اللهَ هُوَ الرّزّاقُ ذُو الْقُوّةِ الْمَتِينُ (58))

(سورة الذاريات)

إن ربنا حينما يقنن، يقنن تقنين تأديب، ولا يقنن تقنين عجز.

(وَلَوْ بَسَطَ اللّهُ الرّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ((27)

(سورة الشورى)

الكون من آيات الله الدالة على عظمته:

الحديث عن السماء وكيف أنها بناء حديثٌ دقيقٌ جداً، السماء بناء بكل معنى الكلمة، ذكرت مرةً أن الإنسان لو أراد أن يصل إلى أقرب نجم ملتهب من الأرض، نحن حولنا كواكب منطفئة، القمر منطفئ، المريخ منطفئ، أما إذا أردنا أن نصل إلى أقرب نجم ملتهب قال العلماء أن بعده عنا أربع سنوات ضوئية،

بحسابٍ بسيط جداً يقطع الضوء في الثانية ثلاثمئة ألف كيلو متر ضرب ستين في الدقيقة، ضرب ستين بالساعة، ضرب أربعة وعشرين في اليوم، ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين في السنة، ضرب أربع سنوات، هذا الرقم سهل لتقوموا أنتم بحسابه احسبوه مساء اليوم ثلاثمئة ـ اترك الأصفار مبدئياً ـ ضرب ستين ضرب ستة ضرب أربعة وعشرين ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين بعد ذلك أضف الأصفار المحذوفة، ينتج معك رقمٌ هو المسافة بالكيلو مترات بيننا وبين هذا النجم الملتهب.

لو فرضنا تبسيطاً للحقيقة ركبت سيارتي واتجهت إلى هذا النجم بسرعة مئة كيلومتر في الساعة، تقسم هذا الرقم الذي هو بعد النجم عن الأرض على مئة، كم ساعة ؟ على الأربعة والعشرين كم يوم ؟ على ثلاثمئة وخمسة وستين كم سنة ؟ تحتاج إلى خمسين مليون سنة كي تصل إلى أقرب نجم مُلتهب، و الأدق من ذلك ثمانية وأربعين تقريباً وحساب الرقم سهل جداً، أربع سنوات ضوئية، ثلاثمئة ألف ضرب ستين ضرب ستين ضرب أربعة وعشرين ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، هذا هو الرقم، تقسيم مئة كم ساعة ؟ تقسيم أربعة وعشرين كم يوم ؟ تقسيم ثلاثمئة وخمسة وستين كم سنة ؟ يكون الناتج قريباً من خمسين مليون سنة.

دقق الآن ؛ بُعد نجم القطب عنا أربعة آلاف سنة ضوئية، كنا أربع سنوات صرنا أربعة آلاف بُعد نجم القطب، تبعد عنا ـ مجرة المرأة المسلسلة وهي صغيرة ـ مليون سنة ضوئية، كشف العلماء قبل خمس أو ست سنوات أبعد مجرة أربعة وعشرين ألف مليون سنة ضوئية، ورد من سنة ونصف في محطة أخبار عالمية أنهم أرسلوا مرصداً على مركبة إلى المشتري، ورصد أبعد مجرة حتى الآن رقم بسيط جداً، ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، الرقم أحفظه بدقة لأنه ملفت للنظر، نحن على بعد أربع سنوات نحتاج خمسين مليون سنة إلى أن نصل فما بالك بثلاثمئة ألف بليون ؟!!

خشية الله محصورةٌ في العلماء:

قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76))

(سورة الواقعة)

لو تعلمون:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (28))

(سورة فاطر: آية " 28 ")

كلمة

(إنما)

تعني أن العلماء وحدهم ولا أحد سواهم يخشون الله،

(إنما)

الخشية محصورةٌ في العلماء، مطلق العلماء، يقول أحد أكبر علماء الفيزياء: كل إنسان لا يرى فوق هذا الكون قوةً هي أقوى ما تكون، عليمةً هي أعلم ما تكون، رحيمةً هي أرحم ما تكون، حكيمةً هي أحكم ما تكون، هو إنسانٌ حي في جسده وشكله ولكنه ميت في عقله ونفسه وفطرته التي تَنَكَّرَ لها.

معرفة الله تسمو بنا وإلا فنحن كالدابة كما ورد في الذكر الحكيم:

إخواننا الكرام والله الذي لا إله إلا هو إن الذي لا يعرف الله عزّ وجل، والله هو كالدابة تماماً.

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً (5))

(سورة الجمعة: آية " 5 ")

هذه هي الحقيقة:

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (44))

(سورة الفرقان)

وقال:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21))

(سورة النحل)

لا بدّ من أن نعرف الله، معرفة الله عِلّة وجودنا، معرفة الله تسمو بنا، معرفة الله تسعدنا، معرفة الله تحقق الهدف من وجودنا، معرفة الله تُفضي بنا إلى الجنة وهذا هو الأصل.

حينما تقرأ كلام خالق الأكوان تجد في قلبك سلامة الإيمان:

أنتم جميعاً ترون الشمس، وحجمها بالدقة يزيد عن حجم الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، فلو وضعنا في الشمس مليوناً وثلاثمئة ألف أرض من أراضينا لوسعت كل هذا العدد، والمسافة بين الأرض والشمس مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر، يقطعها الضوء في ثماني دقائق، هناك نجمٌ صغير أحمر اللون اسمه قلب العقرب في برج العقرب، قال ربنا:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1))

(سورة البروج)

تتم الأرض دورتها حول الشمس في اثني عشر شهراً، تمر في كل شهر ببرج، هذا البرج اسمه مثلاً برج الميزان، وهنا برج العقرب، تجد في برج العقرب نجماً أحمر اللون متألِّقاً اسمه قلب العقرب، هذا النجم يتسع للأرض والشمس معاً، لكن مع المسافة بينهما، كم حجمه ؟ علمه عند الله، ذلكم الله رب العالمين:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (28))

(سورة فاطر: آية " 28 ")

وبعد أيُعصى هذا الإله ؟!! يعرض عنه ؟! يُزْهَد في وعده ويغفل أحد عن وعيده ؟! ألا ترجى رحمته ؟! ألا يخشى عذابه ؟! بيده ملكوت كل شيء هو نفسه أنزل هذا القرآن، أنزله على النبي العدنان، إنه كلامه، أنت حينما تقرأ هذا الكلام الذي هو كلام خالق الكون، كلام الذي بيده ملكوت كلّ شيء، كلام الذي إليه يرجع الأمر كله، كلام الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، كلام الذي بيده الخلق والأمر، كلام الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، كلام الذي إليه المصير، تجد في قلبك برد اليقين وصحة الدين كما تجد سلامة الإيمان، لذلك:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ (22))

المطر وحده آية من آيات الله الدالة على عظمته:

كيف جعل الله أربعة أخماس الأرض بحاراً وخمسها يابسة، وجعل مناطق ساحلية من اليابسة خضراء، ومناطق داخلية صفراء، يا رب لمَ من اليابسة هذه الأراضي الصحراوية ؟ لا ماء ولا نبات، حر شديد؟ إنها معمل، هذه الصحراء معمل، الهواء فيها ساخن جداً بينما هو بارد جداً بالأماكن الباردة، الهواء البارد ثقيل، كثيف، ضغطه مرتفع، الهواء الحار مخلخل ضغطه منخفض، حينما توجد منطقتان إحداهما ذات ضغطٍ منخفض، والثانية ذات ضغطٍ مرتفع يتحرّك الهواء بينهما، إذا تحرّك ساق بخار الماء الذي في الهواء، ساقه من البحر إلى الداخل، لما ساقه إلى الداخل واجه جبهاتٍ باردة فانعقد المطر، فكانت هذه الخيرات، وهذه الأشجار، وهذه النباتات، وهذه الينابيع، وهذه الأنهار مثلاً بكثافة مياه الأمازون ثلاثمئة ألف متر مكعب في الثانية ، غزارته في الثانية ثلاثمئة ألف متر مكعب، أين ينابيع هذا النهر ؟ أين مستودعاته ؟ تصوّر نهراً يقدم ثلاثمئة ألف متر مكعب في الثانية، أين مستودعاته؟ فكل

دمشق بما فيها من سكان يشربون من نبع غزارته أثناء التفجُّر ستة وثلاثون متراً مكعباً في الثانية، وفي أيام نضوب الينابيع تكون متراً مكعباً واحداً في الثانية، وتشرب كل دمشق من هذا النبع، فثلاثمئة ألف متر مكعب في الثانية هذه من أين ؟ أين المستودعات ؟ ذلكم الله رب العالمين. المطر وحده آية من آيات الله الدالة على عظمته، من قال: إن الهواء يحمل بخار ماء بكل درجة، كل درجة يستوعب بها الهواء كمية بخار ماء خاصة، لولا هذه الخاصة لم تكن الأمطار، فالهواء الحار يحمل كمية بخار كبيرة، وعندما يواجه جبهة باردة ينكمش، يعصر، قال الله عزّ وجل :

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجّاجاً (14))

(سورة النبأ)

تنزل غزيرةً، والله عزّ وجل إذا أعطى أدهش، قرأت مرّة خبراً أنه قد نزلت أمطار في رأس الخيمة في ليلة واحدة تقارب مئتين وخمسين ميليمتراً، أي تساوي أمطار دمشق في كل موسم الشتاء، إذا أعطى أدهش، كل شيء عند الله عزّ وجل قد يكون رحمة وقد يكون عذاباً، الرياح نعمة، أما الريح ـ ريح صرصرٍ تأخذ كل شيء ـ لا تبقي شيئاً، الأعاصير، فالماء قد تغرق في الماء كما هي الحال في الصين، وقد تنتعش بالماء، وهكذا كل شيء.

كل شيء خلقه الله عزّ وجل خصيصاً للإنسان:

قال تعالى:

(وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ (22))

هذا موسم فواكه، يأكل الإنسان كل يوم منها صنفاً أو أصنافاً، فهل خطر في بالك من صنع هذه البطيخة؟ من صممها بهذا الحجم ؟ أساسها بذرة واحدة، من أين جاء هذا الطعْم الحلو ؟ وهذا اللون الأحمر ؟ وهذه المواد المُدِرّة ؟ وهذه المواد المفيدة ؟ ومن جعل هذه القشرة سميكة جداً وذات شكل بيضوي ؟ وتجد السيارة تحمل عشرة أطنان من البطيخ، البطيخ في الأسفل كما هو في الأعلى، لأن الشكل البيضوي أكبر شكل يقاوم الضغط، لأن الضغط على أي مكان فيه يوزّع على كل سطح هذا الشكل، كالبيض تماماً تضع مئة بيضة في سلة، فالبيضة التي في الأسفل لا تتأثر أبداً، تأكل التفاح والدراق والإجاص، هذه الفاكهة لها طعم، لها شكل، لها قشرة خاصة، لها لون، لها مكوّنات، لها قِوام، من جعل قِوامها، ومكوّناتها، وطعمها، وشكلها، ولونها يشتهيه الإنسان ؟

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ (22))

(لكم)

لكم خصيصاً لكم، قد تُدعى إلى وليمة وأنت ضيف الشرف كل هذا الطعام صُنِع من أجلك أيّها الإنسان، قد يطرق الباب طارق، ضيف زائر تفضّل وكُلْ، لكن هذا الطعام لم يصنع لهذا الضيف

الطارق صنع لضيف الشرف، يجب أن تعلم علم اليقين أن كل شيء خلقه الله عزّ وجل خصيصاً لك، هذا يُستفاد من قوله تعالى

(لكم)

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ (5))

(سورة النحل: آية " 5 ")

كل ما في الكون مسخر للإنسان من أجل أن يعرف الله وأن يسعد بقربه:

قال تعالى:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ (72))

(سورة يس: آية " 72 ")

هذه الحيوانات الأليفة ـ سبحان الله ـ جمل وزنه ثلاثة أطنان يقوده طفل صغير لا يخاف منه، لكن والد هذا الطفل يخرج من جلده إذا رأى عقرباً صغيراً، عَقرب صغير هذا غير أليف، ترى طائراً وديعاً تشتهي أن تَضمُّه، الجُرذ بنفس الشكل والانسياب لا تتحمل أن ترى منظره، فمن صَمَّمَ هذا الحيوان المُحَبَب وذاك غير مُحَبَب، هذا أليف وذاك غير أليف ؟ الغنمة يقول لك: فلان مثل الغنمة، لو رَكّب الله فيها طباع الضبع من يجرؤ أن يشتري غنماً ليذبحها في العيد ؟ يقول لك: انضبعنا فيها، فلان مضبوع أي خائف، مأخوذة من الضبع:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ (72))

(سورة يس: آية " 72 ")

وقال:

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ (5))

(سورة النحل: آية " 5 ")

تتبع كلمة

(لكم)

في القرآن كلّه مسخَّرٌ لك من أجل أن تعرفه، من أجل أن تعبده، من أجل أن تسعَد بقربه.

حينما تخضع لإنسان فقد جعلته نداً لله:

قال تعالى:

(وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ (22))

الفواكه تكريم للإنسان ؛ كرز، مشمش، تفاح، دُراق، إجاص، بطيخ، البطيخ أنواع منوّعة، العنب أنواع منوّعة، أنواعٌ لا يعلم عددها إلا الله، كلّها مصممة من أجل أن تأكلها، وأن تعرف الله من خلالها:

(رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22))

(سورة البقرة: آية " 22 ")

لا أحد يقول طبعاً: إن هناك إلهاً آخر خلق، أما أنت حينما تخضع لإنسان فقد جعلته نداً لله، ذكرت مرةً: أنه ـ دققوا في هذا الكلام ـ من أطاع مخلوقاً وعصى خالقه، فهو لم يقل: الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، لأنه في الأساس أطاع الأقوى في نظره، جعله نداً لله، هناك أشخاص يجعلون فتنة الناس كعذاب الله، مثلاً إذا هدده إنسان قوي فإنه يعصي الله، يشرب خمر لكي يتخلّص من شره، أنت جعلت عذابه كعذاب الله، فحينما تطيع مخلوقاً وتعصي خالقاً فأنت لم تقل: الله أكبر ولا مرة، ولو رددتها بلسانك ألف مرة، هذا كلام دقيق، لأنك أطعت الأقوى في تصوّرك، أطعت الأكثر فعَالية في تصورك، من لم يُقِم الإسلام في بيته إرضاءً لأهله ولأولاده فهو ما قال: الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، لأنه رأى أن إرضاء أهله وأولاده أغلى عنده من إرضاء الله عزّ وجل، مَن غَشّ المسلمين ما قال: الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، لأنه رأى أن هذا المال الحرام الذي يكسبه من غِشّ المسلمين أغلى عنده من طاعة الله.

أحياناً يقول الإنسان كلمة واحدة تكشف أنه جاهل، لو قال لك أحدهم: أنا درست الطب وقال لك: كلما كثر الملح في الطعام يتحسن ضغطك وينخفض، هذا لم يدرس الطب، ولا هو طالب طب، وليست عنده ثقافة طبية، ولا معه بكالوريا، وهو خاو من أية ثقافة، مستحيل لأن الملح يرفع الضغط، وهو قال لك: كلما كثر الملح ينزل الضغط، هذا جهل مطبق، إنه تكلم كلمة لكن هذه الكلمة تُنبئك أنه جاهل.

لا أحد يستطيع أن يدعي خلق الكون إلا الله :

لو رسم أحدهم خارطة لسوريا، ووضع دمشق على الساحل هل يكون هذا عالماً ؟ هذا مُنْتَهى الخطأ، وهي غلطة كبيرة، فالإنسان عندما يطيع مخلوقاً ويعصي الخالق هذه غلطة كبيرة جداً، لذلك الكلمة التي أقولها دائماً: عندما يأكل الإنسان مالاً حراماً فإنه لا يعرف الله، لو عرف أن الله لا بدّ من أن يُحاسبه، ولا بدّ من أن يدفع الثمن باهظاً إن عصى الله، فإنه لن يعصي الله عزّ وجل، والذي يعتدي على أموال الآخرين، الذي يعتدي على أعراضهم، الذي يقيم الشِقاق بينهم، النَمّام، المُغْتاب، هؤلاء جميعاً لم يعرفوا الله لو عرفوا الله لوقفوا عند حدودهم:

(فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22))

لا أحد يقول: إن هناك جهة خلقت الكون، لا أحد يستطيع أن يدعي خلق الكون إلا الله، الله يقول:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (4))

(سورة السجدة: آية " 4 ")

ما معنى نِداً لله ؟ النِّد هنا معناه أنك تطيعه كما لو كان إلهاً، تحبُّه كما لو كان إلهاً، تعبده كما لو كان إلهاً، تعلِّق الأمل عليه كما لو كان إلهاً، تخضَع له كما لو كان إلهاً، هذا:

(فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22))

المشكلة الكبيرة في العالم الإسلامي أن الناس يعبدُ بعضهم بعضاً :

أيها الأخوة الكرام، بمناسبة قوله تعالى:

(فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22))

هؤلاء لم يخلقوكم، ولم يرزقوكم، ولا يملكون نفعكم ولا ضرّكم، ومع ذلك تتخذونهم أنداداً ؟! وهذه مشكلة كبيرة في العالم الإسلامي، الناس يعبدُ بعضهم بعضاً، يقول الله عزّ وجل:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ (165))

(سورة البقرة: آية " 165 ")

أن تتخذ نِداً لله أي أن تُحِبَّه كحب الله، وأن تخافه كما تخاف الله، وأن ترجوه كما ترجو الله، وأن تُعلِّق عليه الأمل كما تُعلق الأمل على الله عزّ وجل.

(يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (165))

(سورة البقرة: آية " 165 ")

أي ظلموا أنفسهم حينما أحبوا أندادهم كحب الله.

الذي ينبغي أن يُحَب هو الله وحده لأنه أصل الكمال:

الذي ينبغي أن يُحَب هو الله وحده لأنه أصل الكمال، وأصل النوال والعطاء، وأصل الجمال، الذي ينبغي أن تحبّه وحده هو الله.

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165))

وقال:

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً (8))

(سورة الزمر: آية " 8 ")

أي قد يمرض ابن الرجل مرضاً شديداً، فيأخذه إلى طبيب، يلهم هذا الطبيب بتوفيق الله أن يشخص المرض ويحدده، ويُلهم وصف الدواء المناسب فيشفى هذا الابن، ونسي الأب الله وعزا الشفاء إلى الطبيب، تُوكِّل محامياً فأكرمك الله عزّ وجل بأن ألهمه المذكرة الدقيقة وألهم القاضي أن ينصفك فأنصفك، تعزو نجاح الدعوى إلى هذا المحامي وذاك القاضي، لذلك قال تعالى:

(ثُمّ إِذَا خَوّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنّكَ مِنْ أَصْحَابِ النّارِ (8))

(سورة الزمر)

الشرك الخفي هو أن ترى مع الله أحداً:

وقال:

(وَإِذَا مَسّ الْإِنْسَانَ الضّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرّهُ مَرّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسّهُ كَذَلِكَ زُيّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (12))

(سورة يونس)

لتكن هذه الآية مناراً يهديك، فلا تنزلق في مهاوي الشرك ويحبط ـ لا سمح الله ـ عملك، إنها:

(فَلَا تَجْعَلُوا لِلّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22))

وبعد ؛ فإن الإنسان إذا عَزَا الأمور إلى قوّته، أو إلى حكمته، أو إلى علمه، أو إلى قوة الآخرين وعلم الآخرين فقد أشرك، إذاً الحذر الحَذر ولا ينبغي أن ترى مع الله أحداً، هذه الآية أيها الأخوة من الآيات الدقيقة التي تبيّن أن الشرك الخفي هو أن ترى مع الله أحداً، أن تتخذ من دون الله أنداداً تحبُّهم كما ينبغي أن تحبَّ الله عزّ وجل.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (12- 95):تفسير الآية 23 ، الإعجاز في القرآن
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-09-11

بسم الله الرحمن الرحيم

الكون خَلْقُ الله والقرآن كلامه:

مع الآية الثالثة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24))

أيها الأخوة الكرام، هاتان الآيتان متعلِّقتان بالقرآن الكريم، فالله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض، والسماوات والأرض تعبيرٌ قُرْآني يعني الكون، والكون ما سوى الله، خلق الله جلّ جلاله السماوات والأرض وأنزل على عبده الكتاب، فالكون خلقه والقرآن كلامه، بل إن القرآن في آيةٍ أخرى وضع في كفةٍ والكون في الكفة الثانية:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (1))

(سورة الأنعام: آية " 1 ")

وقال:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ (1))

(سورة الكهف: آية " 1 ")

أهم شيءٍ بعد خلق الكون هذا المَنهج الذي أنزله الله على سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم.

أهم شيءٍ بعد خلق الكون هذا المَنهج الذي أنزله الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:

أيها الأخوة الكرام، يقول الله عزّ وجل:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

يواجهنا سؤال عن الترتيب في نظم هذه الآيات الأربع التي تشكل مطلع سورة الرحمن، أيعقل أن يعلم الإنسان القرآن قبل أن يخلق ؟

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآَنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

قال علماء التفسير: هذا ترتيبٌ رُتَبي، وليس ترتيباً زمنياً، أي لا معنى لوجود الإنسان من دون منهج يسير عليه، لو أنك اشتريت حاسوباً بثلاثين مليون ليرة من النوع المُعَقّد جداً، هناك حواسيب تضع عليها نقطةً من دم تعطيك سبعة وعشرين تحليلاً في كبسة زر واحدة، فإذا كان لدى صاحب الحاسوب مئة تحليل، وأجرة كل تحليل ألف ليرة، كان دخله اليومي مئة ألف، فهذا الحاسوب لو أن الشركة الصانعة لم ترسل لك تعليمات التشغيل، إنك إن استعملته من دون تعليمات عَطّبْته، وإن خفت عليه ولم تستعمله جَمّدَت ثمنه، أليست هذه التعليمات في أهمية الجهاز نفسه ؟ هل تقل هذه التعليمات من حيث الأهمية عن الجهاز نفسه ؟ فالإنسان أعقد آلة في الكون، هو المخلوق الأول.

الشر مخلوق أودعت فيه الشهوات وتحرّك من دون منهج الله عزّ وجل:

أودع الله في الانسان الشهوات

طبيعة الإنسان فيه شهوات، أودع الله فيه الشهوات، هذه الشهوات قوى دافعة، حب الطعام، حب النساء، حب العلو في الأرض، حب الخلود، هذه كلها شهوات، هذه الشهوات من دون منهج مدمِّرة، وهي مع المنهج قوى خَيِّرة، كيف أن السيارة حينما يقودها إنسان متمرّس تنقله إلى أهدافه بيسرٍ وراحة، أما حينما يقودها إنسان مُغْمَى عليه، أو سكران تودي به إلى الهاوية، والمركبة نفسها لم تتغير، الإنسان أعقد آلة في الكون أودع الله فيه الشهوات..

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ (14))

(سورة آل عمران: آية " 14 ")

تحتاج هذه الشهوات إلى مِقْوَد، تحتاج إلى قناةٍ نظيفة تسري خلالها، فما هو الشر ؟ مخلوق أودعت فيه الشهوات لم يعبأ بمنهج الله، يريد المال أخذه عدواناً، يريد المُتعة فعلها اغتصاباً، يريد العلو في

الأرض بَنى مجده على أنقاض الآخرين، هذا هو الشر، مخلوق أودعت فيه الشهوات وتحرّك من دون منهج الله عزّ وجل.

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ (50))

(سورة القصص: آية " 50 ")

مهمة العقل البشري أن يكشف المُغَيّبات من خلال الآثار:

القرآن هو النور والمنهج الذي نهتدي به

أيها الأخوة، هذا الكتاب هو المنهج ولا معنى لوجود الإنسان من دون منهج يسير عليه، لأنه في خطر من دون منهج، مركبة تنطلق بسرعة عالية في طريقٍ كلّه منعطفات، وعن يمينه وادٍ سحيق، وعن يساره وادٍ سحيق أيضاً، فإذا أطفئت المصابيح فالحادث حتمي، وأنت كذلك مركبة، الطريق كله منعطفات وعن يمينك وادٍ وعن يسارك آخر، فهذا المنهج هو النور الذي به تبقى على الطريق، ومن دون منهجٍ لا بدّ من أن يقع الإنسان في الوادي، فلذلك:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

القضية في هذه الآية: ما الذي يؤكِّد لك أن هذا الكلام كلامُ الله ؟ أتمنّى على كل مؤمن مع أنه مؤمن إيماناً قطعياً بأن هذا القرآن كلام الله، لكن أتمنّى أن تدقق وأن تبحث وأن تتأمل وحتى تمتلئ قناعة بالدليل والتعليل أن هذا القرآن كلام الله، بادئ ذي بدء أودع الله جلّ جلاله في الإنسان عقلاً، مهمة هذا العقل أن يعرف ما غاب عنه من خلال آثاره، هذا ملخص الملخص، مهمة العقل البشري أن يكشف المُغَيّبات من خلال الآثار، فكل هذا الكون يدلُّ على الله، كل هذا الكون مظهرٌ لأسماء الله الحسنى، كل هذا الكون تجسيدٌ لأسماء الله الحسنى، إذاً طريق معرفة الله من خلال التفكر في خلق السماوات والأرض، وفي القرآن ألفٌ وثلاثمئة آيةٍ تتحدث عن مظاهر الكون، إذاً من خلال الكون تعرف الله عزّ وجل.

عرفت ربك، وعرفت أن لهذا الكون خالقاً، وأن لهذا الكون مربياً، وأن لهذا الكون مسيراً، لكن هناك أشياء لا تراها بهذا الكون، لماذا خلقني ؟ مهما تفكّرت في الجبال، في الأمطار، في البحار، لا

تعرف لماذا خلقك ؟ لا بدّ من اتصالٍ مباشر بين هذا المخلوق الأول وبين خالقِه العظيم، فالصلة بين الخالق العظيم وهذا المخلوق هو هذا القرآن.

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ (119))

(سورة هود: آية " 119 ")

لا بدّ من كتابٍ يسير عليه الإنسان مع التفكّر في خلق السماوات والأرض :

أوضح لك سبب خلقك:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (4))

(سورة السجدة: آية " 4 ")

بيّن لك أصل المخلوقات من آدم، بيّن لك ما بعد الموت، بيّن لك مصائر الشعوب، بيّن لك الجنة والنار، فأنت لا بدّ من كتابٍ تفهم فيه التفاصيل، لو دخلت إلى بناء جامعي تستنبط من خلال التأمّل بالبناء حقائق كثيرة، تقول: كان المهندسون على أعلى مستوى، كان المهندسون على اتصالٍ وثيق بإدارة الجامعة، حتى هيئوا القاعات، والمدرّجات، والحدائق، وأبنية الطلاب، وهذه المخابر، وفيه وسائل التهوية من الدرجة الأولى، والقاعات بشكل مدرجات، وهي واسعة تتناسب مع عدد الطلاب في السنة الواحدة، فأنت من خلال التأمّل في بناء الجامعة تستنبط أشياء كثيرة، لكن مهما تأمّلت لن تستطيع أن تستنبط النظام الداخلي للجامعة مهما تأمّلت في الأقواس، وفي القاعات، وفي المدرجات، وفي الأبنية، وفي الساحات، وفي الحدائق، وفي الملاعب، لن تستطيع أن تستنبط كم كُلية في هذه الجامعة ؟ ولن تستطيع أن تستنبط من هم عمداء الكليات، وما نظام الترفيع، وكيف يقبل الطلاب في هذه الجامعة ؟ لا بدّ من كُتَيِّب يشرح لك ذلك، هناك شيء خاضع للتأمّل، وهناك شيء خاضع للإعلام، فأنت أولاً تستنتج أن أموالاً طائلة أنفقت على أبنية هذه الجامعة، هذا بالتأمل، وتستنبط أن هؤلاء المهندسين على أعلى مستوى، كما تستنبط أن هؤلاء المهندسين على اتصال شديد بإدارة الجامعة حتى جاءت خططهم متوافقة مع حاجات الجامعة، هذا كله تستنبطه بالتأمّل والتفكّر، أما أن تعرف كم كلية في الجامعة ؟ من هم عمداء الكليّات ؟ ما النظام الداخلي ؟ ما شروط القبول ؟ هذا لا بدّ له من كتيب، لا بدّ له من نظام، إذا تأمل الإنسان في الكون عرف أن لهذا الكون خالقاً فقط، عرف أن لهذا الكون مربياً يمدُّ مخلوقاته بما يحتاجون، عرف أن لهذا الكون خالقاً عليماً، وخالقاً حكيماً، وخالقاً غنياً، وخالقاً قديراً، وخالقاً رحيماً، هذا كله تستنبطه بالتأمل، أما لماذا

خلقت ؟ لا بدّ من أن تعرف هذا بشرح يأتيك من قبل الله عزّ وجل، لماذا جاء بك إلى الدنيا ؟ ما الطريق الأمثل للسعادة في الدنيا والآخرة ؟ هل هناك آخرة ؟ من يقول لك هذا ؟ الله جلّ جلاله، ولذلك لا بدّ من كتابٍ تسير عليه مع التفكّر في خلق السماوات والأرض، لا بدّ من منهجٍ يُعَرّفُك بحقيقة الكون، بحقيقة الحياة الدنيا، بحقيقة الإنسان، بالطريق الموصل إلى السلامة والسعادة، بالطريق الذي يحقق الهدف من وجودك، هذا كله في الكتاب الكريم.

مهمات العقل ثلاث: مهمات العقل ثلاث:

لقد بعث الله رسولاً ، ولكن بإمكان كل إنسان أن يدّعي أنه رسول الله، كيف يعرف الناس أن هذا الإنسان بالذات هو رسول الله ؟ لا بدّ من معجزة، لا بدّ من أن يأتي هذا الرسول بعمل لا يستطيعه أي فرد من أبناء البشر لأنه من عند خالق البشر وحده، فالذي يجعل من العصا ثعباناً مبيناً هذا فوق طاقة البشر، والذي يجعل البحر طريقاً يبساً هذا فوق طاقة البشر، والذي يُلْقى في النار فلا يحترق بها هذا إذاً رسول، فربنا عزّ وجل من أجل أن يعطي هذا الرسول دليلاً على أنّه رسول أجرى على يديه المُعجزات، أولاً الكون كله يدل على الله، الله عزّ وجل الحقيقة الكبرى في الكون، الكون كله يدلُّ على الله، وأنبيائه ورسله و معجزاتهم تدل على أنهم رسل وأنبياء، أما القرآن فما الذي يؤكد لك أنه كلام الله ؟

لو جاءك وارد أن هذا القرآن من صنع محمد، كان عبقرياً، وكان ذكياً، وفصيحاً، وأديباً فنظم هذا الكتاب وأوهمنا أنه كلام الله، ما الدليل القطعي الذي لا يدعُ مجالاً للشك ؟ ما الدليل القطعي أي أن درجته مئة في المئة تؤكد أن هذا القرآن كلام الله ؟ الجواب: إعجازه ، الإعجاز، الدليل على وجود الله الكون، والدليل على صدق الأنبياء والرسل المعجزات، والدليل على أن هذا القرآن كلام الله إعجازه، فمهمات العقل الثلاث: أن يعرف الله من خلال الكون، وأن يعرف النبي من خلال المعجزة، وأن يعرف كلام الله من خلال الإعجاز، الآية الكريمة:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23))

المُعجزات شهادة الله للناس جميعاً أن هؤلاء الرُسُل هم رسله :

إعجاز القرآن دليل على أنه كلام الله عزّ وجل، طبعاً هذه بعض الأدلة، وهناك أدلة كثيرة، قبل أن آتي بالدليل أطرح السؤال التالي: هل شهد الله لرسله أنهم رسله ؟ هل شهد الله لهم بذلك ؟ أنت كإنسان تلتقي بشاهد يقول لك: أنا أشهد أن لفلان مع فلان مئة ألف ليرة، لأنه أداها له أمامي، فإن يشهد لك إنسان على أمر ما قضية سهلة جداً، تلتقي أمامي معه وينطق تسمع بأذنك شهادته، أما

كيف يشهد الله لك أن هذا الإنسان رسوله ؟ ما تعريف شهادة الله لرسله أنّهم رُسُله ؟ جواب ذلك أن: شهادة الله لرسله تكون عن طريق المعجزات، فالمعجزة بحدِّ ذاتها شهادة الله لرسله أنهم رسله، يقول إنسان: أنا رسول الله، ما الدليل ؟ يقول: هذه العصا، الآن هي عصا، يلقيها أرضاً فإذا هي ثعبانٌ مبين، نَزَعَ يده فإذا هي بيضاءٌ للناظرين، يتكلم في مهده وهو صغير ! عمره ساعات، فهذه معجزة:

(قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً (30))

(سورة مريم)

وقال:

(يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69))

(سورة الأنبياء)

انشق الجبل فخرجت منه النّاقة تلك معجزة صالح لثمود، فالمُعجزات شهادة الله للناس جميعاً أن هؤلاء الرُسُل هم رسله.

شهادات من الله جلّ جلاله أن هذا القرآن كلامه:

هنا سؤال يطرح نفسه علينا: هل شهد الله لنا أن هذا القرآن كلامه ؟ طبعاً هناك مئات الشهادات، إحدى هذه الشهادات: أن في القرآن أمراً ونهياً ووعداً ووعيداً، فإذا طبّقت الأمر قطفت ثماراً يانعة، وإن وقعت في النهي دفعت ثمناً قد يكون غالباً باهظاً، فحينما يقول الله عزّ وجل:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً (97))

(سورة النحل: آية " 97 ")

الحياة الطيّبة التي يحياها المؤمن شهادة الله له أن هذا القرآن كلامه.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً (124))

(سورة طه: آية " 124 ")

المعيشة الضَنْك التي يحياها المعرض عن ربه شهادة الله له أن هذا القرآن كلامه، حينما يأتي المرابي فيخسر ماله كله دفعة واحدة، دمار ماله كله شهادة الله له أن هذا القرآن كلامه لأن الله يقول:

(يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا (276))

(سورة البقرة)

حينما يأتي المُتَصَدِّق فيدفع الصدقة فيضاعف الله له أمواله أضعافاً كثيرة، مضاعفة المال له شهادة الله له أن هذا القرآن كلامه، هذا أكبر دليل على أن هذا القرآن كلامه.

يحالفك التيسير حينما تبني حياتك على العطاء وتؤمن بالله:

إذا طبّقت الأمر وانتهيت عما نهى الله عنه، ترى أن الأحداث كلّها تجري وفق منهج الله، وتحيا حياةً طيبة:

(فَأَمّا مَنْ أَعْطَى وَاتّقَى (5) وَصَدّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7))

(سورة الليل)

متى تجد التيسير ؟ ترى التيسير عجيباً فكل شيء مُيَسّر، الإشارات كلها خضراء، أي الطريق سالك، لا تقف أبداً، يحالفك التيسير حينما تبني حياتك على العطاء، وتؤمن بالله، وتتقي الله فلا تعصيه.

(أَعْطَى وَاتّقَى (5) وَصَدّقَ بِالْحُسْنَى (6))

صار التيسير لنا قريناً في كل شؤون حياتنا، وحينما نقطف ثمرة أي أمر تَعَبّدْنا به الله فهذه الثمرة هي في الحقيقة شهادة الله للمؤمن أن هذا القرآن كلامه، وحينما يرتكب الإنسان معصيةً فالثمن الذي يدفعه شهادة الله له أن هذا القرآن كلامه، هذا نوع من أنواع الإعجاز.

في هذا القرآن آيات ولو كانت من كلمتين إلا أن دلالتها مؤكدة ومعناها محقق:

لو كنت في غرفة تطل على ميناء بحري، وقال شخص لك: أنا مدير الميناء، وكل هذه البواخر بإمرتي حتى المُغادِرة، فرأيت باخرة ضخمة جداً بدأت تُغادر الميناء، فمن أجل أن تتأكد أنه فعلاً مدير الميناء، تقول له: هل بإمكانك أن توقف هذه الباخرة ؟ يقول لك: نعم، يتصل بها فإذا هي تقف، قلت له: أعدها إلى الميناء، قال لك: سأعيدها، اتصل بها: أعادها إلى الميناء، فلما وقفت هذه الباخرة العملاقة التي حمولتها مليون طن، وقفت ثم عادت، معنى ذلك أن كلامه صحيح، والدليل إيقاف هذه الباخرة الضخمة وعودتها إلى الميناء، إنسان واقف في الميناء وقال لك: أنا مدير الميناء العام ! فقلت له: أحقاً ما تقول ؟ فقال: أنا معي الدليل، قلت له: هذه الباخرة الضخمة التي أقلعت الآن وسارت باتجاه الغرب، هل بإمكانك أن تعطيها أمراً فتقف ؟ يقول لك: نعم، أعطاها أمراً فوقفت،

هل بإمكانك أن تعيدها إلى الميناء؟ قال لك: نعم، أعطاها أمراً آخر فرجعت، معنى هذا أن كلامه صحيح، ماذا أردت من هذا المثل ؟ أردت أن ترى أن في هذا القرآن آيات ولو كانت مثل هذه الآية من كلمتين أو أكثر:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا (276))

(سورة البقرة)

إلا أن دلالتها مؤكدة، ومعناها محقق، وهي دليل قاطع، فأنت مثلاً قد تجد شخصاً معه مئة مليون، غُرِّمَ بمبلغ من المال يقدر بمئة وثمانين مليوناً، بسبب ارتكابه غلطة بسيطة، فهل من المعقول أن يفقد إنسان ماله كله دفعة واحدة ولا يبقى لديه شيء ؟ نعم ! قال الله تعالى:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا (276))

(سورة البقرة)

ثلاث كلمات في الآية، مطبوعة بحرف صغير:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا (276))

(سورة البقرة)

معنى ذلك أن الذي أنزل هذا الكتاب وأمر فيه ما أمر ونهى فيه عما نهى هو الذي دمّر ماله.

كل وعد في القرآن وكل وعيدٍ وكل أمرٍ وكل نهيٍ حينما تُطبِّقه تقطف ثماره :

اصطلح أحدهم مع الله عزّ وجل، فتغيرت أموره بعد أن اصطلح مع ربه، شعر بسعادة، شعر بطمأنينة، شعر بتوفيق، أموره ميَسَّرة، الطرق كلها سالكة، صار بيته جنة، يقرأ الآية:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً (97))

(سورة النحل: آية " 97 ")

هذه الآية الصغيرة هي من عند الذي جعل حياته طيبة، جعل بيته سعيداً، جعل أولاده أبراراً، جعل عمله موفقاً، شيء دقيق جداً، فكل وعد في القرآن، وكل وعيدٍ، وكل أمرٍ، وكل نهيٍ، حينما تُطبِّقه تقطف ثماره، قطف ثماره دليل أنه كلام الله.

أحد الناس أشرك بالله فامتلأ قلبه خوفاً:

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ (151))

(سورة آل عمران: آية " 151 ")

هذا الخوف الذي أكل قلب هذا الخائف دليل على أن هذا القرآن كلام الله، هذا أحد الأدلة، هذه شهادة الله لنا أن هذا القرآن كلامه.

إذا قرأت كلام الله آيةً آية تجد أن الأحداث كلها تتحرك وفق منهج الله :

المسلمون في البدايات، عشرات الألوف في الجزيرة، بدو رُحّل متخلفون بالمقياس الحضاري، ليس عندهم علم، ولا جامعات، ولا أجهزة، ولا تطوّرات، ولا تكنولوجية، كيف استطاعوا أن يفتحوا المشرقين وأن يصلوا إلى أطراف الدنيا، وأن يصلوا إلى مسافة قريبة من باريس، وإلى مشارف الصين، وأن تدين لهم الدنيا من أطرافها ؟ سرّ ذلك أنهم أقاموا الدين في قلوبهم وترجموه عملاً وسلوكًا! قال الله تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ (55))

(سورة النور: آية " 55 ")

معنى ذلك أن هذا القرآن كلامه:

(كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي (55))

(سورة النور: آية " 55 ")

أيها الأخوة، إذا قرأت كلام الله آية آية تجد أن الأحداث كلها بدءاً من المجرّات إلى السماوات، إلى الأمطار، إلى البحار، كُلُّها تتحرك وفق هذا المنهج، لذلك فإن وقوع الوعد والوعيد شهادة الله لنا أن هذا القرآن كلامه، قال تعالى:

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ (39))

(سورة يونس: آية " 39 ")

قال علماء التفسير: التأويل وقوع الوَعْد والوعيد.

الإيمان و الإخلاص سببان رئيسان للنصر :

أيها الأخوة أرجو الله سبحانه وتعالى أن يكون الواحد منا صادقاً، فإذا تعامل مع الله بصدق فو الله يرى العجب العُجاب، والله يرى الشيء الذي لا يُصدّق، لأن هذا القرآن كلامه سبحانه، الله عزّ وجل قال:

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (173))

(سورة الصافات)

لا يمكن ومن رابع المستحيلات أن تكون جندياً لله وأن تُهْزَم، ذلك مستحيل، فإذا لم تنتصر فاعلم أن جُنْدِيّتك لله قد اختلت، إن لم تنتصر فاعلم علم اليقين أن جنديتك لله قد اختلت، دعا إنسان إلى الله فلم تنجح الدعوة ومُنعت، فيقول: الأمر ليس بيدي ؟ نقول له: لا، اقرأ قوله تعالى:

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51))

(سورة غافر)

هل تجد أدق من هذا الكلام ؟

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (51))

(سورة غافر)

معنى ذلك حينما تكون مؤمناً حقاً وحينما تكون مخلصاً حقاً لا بدّ من أن تنتصر، ما من إلهٍ إلا الله، ليس في الوجود إلا الله عزّ وجل.

الله وحده فعالٌ لما يريد:

الله تعالى هو الفعال وحده:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (16))

(سورة البروج)

الله وحده فعالٌ لما يريد، أما الإنسان قد يُريد آلاف الأشياء، وقد يحال بينه وبين ما يُريد، ولكن الله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئاً:

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82))

(سورة يس)

إذاً:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ (23))

إخواننا الكرام، أحياناً يكون للإنسان قضية في القضاء ومضى عليها ثماني سنوات مثلاً، ودفع مئات الألوف للمحامي، يقول له المحامي: نجحت الدعوى، كيف ؟ يقول له: وجدت اجتهاد بمحكمة النقض لصالحك، هل من المعقول أن أربع كلمات مطبوعة بمجلة تملأ قلب المحامي ثقة أن الدعوى نجحت.

القرآن أمامك، كلام رب العالمين، كلام خالق السماوات والأرض، الذي خلق مجرةً تبعد عنا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية هو الذي أنزل هذا الكتاب، هذا الكتاب من عند خالق الكون، فأيهما أشدُّ مصداقية عندك ؟!! اجتهاد محكمة النقض قد ملأ قلبك سروراً، يقول لك: ربحنا الدعوى، كيف ربحتها؟

هل ظهر الحكم ؟ لا، ولكن المحامي طمأنني، المحامي قال لي: هناك اجتهاد في محكمة النقض لمصلحتك.

إذاً: إن إنساناً اجتهد اجتهاداً صادراً عن محكمة النقض، وطبع في المجلة، واطلع عليه المحامي، وبلّغ الموكل به، وقال له: ربحنا الدعوى، فأفرحَ الموكل، فكيف إذا صدر الوعد من الله تبارك وتعالى لك أيها المؤمن ؟ فأيهما يبعث الأمل والرجاء والطمأنينة في قلب صاحبه ؟ إقرار محكمة ؟ أم وعد خالق السماوات والأرض ومن بيده الأمر كله ؟

آيات من القرآن الكريم تؤكّد أن الأمر بيد الله :

قال تعالى:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(2))

(سورة فاطر)

بيده ملكوت السماوات والأرض:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54))

(سورة الأعراف)

وقال:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (26))

(سورة الكهف)

وقال:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ (10))

(سورة الفتح: آية " 10 ")

وقال:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62))

(سورة الزمر)

وقال:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54))

آياتٌ كثيرة تؤكِّد أن الأمر بيد الله.

قضية القرآن الكريم قضيةٌ مصيرية فهو منهج الله سبحانه :

إذا كان خالق الكون طَمْأنك وقال لك: أنت ما دمت مؤمناً ولك عملٌ طيب فلك عندي حياة طيبة، بكل الأحوال، في كل الظروف، في كل المناسبات، في كل الأقاليم، بأي بلد، بأي نظام، ما دُمْتَ مع الله، فالله معك.

كن مع الله تَرَ الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه؟ ثم من يعطي إذا ما منعك ؟

* * *

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبنا

ولُذ بحمانا واحتمِ بجنابنـا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

* * *

أيها الأخوة الكرام: قضية هذا القرآن الكريم قضية مصيرية، هذا منهج الله، هذه تعليمات الصانع، لو كان عندك حاسوب وتعطّل ولك جار تحبه حباً لا حدود له يعمل في بيع الخضر مثلاً هل تكلفه بأن يصلحه لك مع حبك الشديد له ؟ هذه ليست مهنته، تبحث عن الخبير، تبحث عن الوكالة، فلماذا في شؤون سعادتك الأبدية لا تبحث عن الخبير ؟

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14))

(سورة فاطر)

كلّما تقدّم العلِم تطابق مع القرآن :

أيها الأخوة الكرام:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا (24))

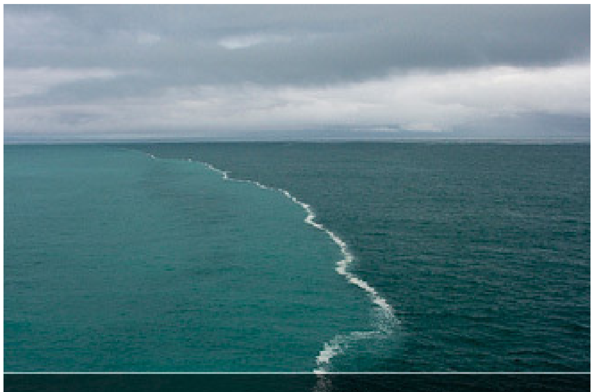
بينهما برزخ لا يبغيان

" لم، ولن "، لم لنفي الماضي، ولن للنفي على التأبيد أي المستقبل:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا (24))

لم تستطيعوا أن تفعلوا في الماضي، ولن تستطيعوا أن تفعلوا بالمستقبل، والدليل: أنه مضى على إنزال هذا القرآن أكثر من ألفٍ وأربعمئة عام، هل استطاع العِلم كله في الأرض أن يأتي بشيءٍ يُناقض هذا القرآن ؟

بالعكس كلّما تقدّم العلِم تطابق مع القرآن، يعني:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

(سورة الرحمن)

أين هذا البرزخ ؟ يلتقي البحران البحرُ الأحمر والبحر الأبيض في قناة السويس، وجد عُلماء البحار أن للبحر الأحمر كثافة وله مقومات، وله مكونات، وله درجة ملوحة تختلف عن البحر الأبيض، ويلتقي البحر الأبيض بالمحيط الأطلسي في مضيق جبل طارق، ومكونات المحيط الأطلسي وكثافته وملوحته تختلف اختلافاً بيّناً عن كثافة وملوحة ومكونات البحر الأبيض، ويلتقي البحر الأحمر بالبحر العربي في مضيق باب المَنْدَب.

بعض الأدلة عن إعجاز القرآن الكريم:

قال تعالى:

(بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

هذه الآية لم تُفَسّر إلا بعد اختراع السُفُن الفضائية، فقد وجِدَ عن طريق التصوير الفضائي العالي خط بين كل بحرين ـ خط وهمي ـ هو فرق كثافة، فرق لون، فلما بحثوا وجدوه، لذلك أسلم أحد علماء البحار على ضوء فهمه دلالات هذه الآية، هذا من إعجاز القرآن الكريم، الأرض ؛ كانت قناعة الناس أن الأرض مُنْبَسِطة لكن الله عزّ وجل قال:

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27))

(سورة الحج)

لماذا لم يقل بعيد ؟ مع أن بعيد أقرب للذهن ؟ إنك كلما ابتعدت عن إحدى نقاط الكرة صار هناك عُمْق:

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27))

(سورة الحج)

بالنسبة للكرة العمق هو البعد عندما تكون المسافة بعيدة جداً، أما المسافة القصيرة فإن الخط مستقيم، أنت إذا ذهبت إلى دوما مثلاً تجد أن الخط مستقيم، أما إذا ذهبت إلى أمريكا سوف تدور نصف دائرة بالضبط، فصار البعد في الكرة هو العمق، هذا كلام خالق الكون.

أدلة أخرى عن إعجاز القرآن الكريم:

يركب أحدهم الآن سيارة فخمة جداً أو يركب طائرة من أحدث الطائرات تُقِل ستمئة وستين راكباً أو يركب باخرة تُقِل مليون طن، يقرأ قوله تعالى:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً (8))

(سورة النحل: آية " 8 ")

أين الخيل والبغال والحمير ؟ أنا أركب سيارة فخمة جداً ثمنها أربعة وعشرون مليوناً قال:

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

إذاً هو كلام خالق الكون:

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

وأنت في الطائرة:

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

وأنت في سيارة فخمة:

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

وأنت في يختٍ ضخمٍ:

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

من إعجاز القرآن العلمي:

لو أنّه من كلام النبي عليه الصلاة والسلام لاكتفى بالقول: والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، انتهى، هذا الذي كان في عهد النبي، أما لأنه كلام خالق الكون:

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

حينما يصعد الإنسان إلى أعالي الطبقات، طبعاً يقلُّ هناك الأوكسجين، لذلك تضخ الطائرات ثمانية أمثال حجمها من الهواء ليكون الضغط فيها كالضغط في الأرض، تلاشى هذا الضغط لسبب أو لآخر لا بد من هبوط الطائرة في أي مكان في الأرض وإلا يموت الركاب جميعاً، فهذا هو الضيق الذي يَحْصَل للإنسان إذا ركب طائرةً مُخَلْخَلَة، قال تعالى:

(يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ (125))

(سورة الأنعام: آية " 125 ")

هل صعد إنسان واحد في عهد النبي إلى السماء ؟ الآن صعدنا إلى السماء، هذا من إعجاز القرآن العلمي.

ما كانوا يستطيعون قياس المسافات البعيدة، الآن تُقاس المسافة بين الأرض والقمر بالمليمتر عن طريق أشعة الليزر، وتجد الآن أجهزة مع المهندسين يضعُها أمام الحائط فتكشف له على الشاشة المسافة بالمليمترات، تُرسل هذه الأشعة إلى الجدار وترجع فتقيس المسافة، بعد اختراع هذه الأشعة ـ أشعة الليزر ـ أمكن قياس الأبعاد بدقةٍ متناهية، فاكتُشف أن أعمق نقطةٍ في الأرض اليابسة غور فلسطين، وقد جاءت الروايات التاريخية تشير إلى أن المعركة الشهيرة التي جرت بين الروم والفُرس كانت في غَوْر فلسطين، وقد قال الله عزّ وجل:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ (4))

(سورة الروم)

في الآية إعجازان: إعجاز علمي، وإعجاز إخباري، كيف يشهد الله لنا أن هذا القران كلامُه ؟ عن طريق الإعجاز.

أدلة أخرى عن الإعجاز العلمي للقرآن:

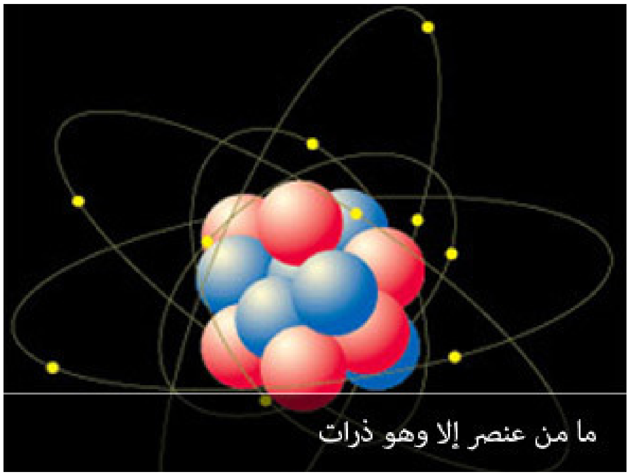

اكتشف الآن أنه ما من شيءٍ في الكون إلا وهو ذرات، والذرات كهارب تدور في مدارات متعددة حول نويّات، أن ترى هذا الخشب جامداً وكذلك هذا الحجر ولكن كل شيءٍ يدور هذا نظام الذرة، نظام الذرة كالمجرة، قال تعالى:

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33))

(سورة الأنبياء: آية " 33 ")

(كُلٌّ)

هذه تفيد الشمول المُطْلَق:

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33))

(سورة الأنبياء: آية " 33 ")

بعد أن اكتشفت الذرة وجِد أنه ما من عنصر ؛ الحجر البازلتي، الحجر، الخشب، الصخر، الماء، الهواء إلا وهو ذرات وكهارب على مدارات حول نويّات، هذا العنصر الصُلب مثلاً يحوي على مداره الخارجي ثلاثة كهارب، هذا عنصر غازي عليه أربعة كهارب، بين عنصرٍ غازي وعنصر

صلب الفرق كهروب واحد فقط، هذا شيء يعرفه مَن درس فيزياء في الكتاب المقرر لطلاب الشهادة الثانوية، يعرف هذا الشيء، شيء طبيعي، قال:

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33))

(سورة الأنبياء: آية " 33 ")

المرأة لا علاقة لها إطلاقاً بنوع الجنين ونوع الجنين يتحدد من الذكر:

اكتُشف الآن أن جنس الجنين يتحدَدُ من الحوين لا من البويضة، والمرأة لا علاقة لها إطلاقاً بنوع الجنين، فهذا الذي يُطلِّق امرأته لأنها أنجبت له بنتاً أحمق وجاهل، لأن امرأته لا علاقة لها إطلاقاً بنوع الجنين، قال تعالى:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46))

(سورة النجم)

من نطفة فقط، كون الجنين ذكر من الزوج، كونه أنثى من الزوج، يوجد بالمورِّثات كروموزونات و Y وX ، الـ X ذكر و الـ Y أنثى.

على كلٍ:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46))

(سورة النجم)

وقال:

(فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5))

(سورة السجدة: آية " 5 ")

الآية التالية هي النظرية النسبية التي جاء بها أينشتاين وملأت الدنيا صياحاً وضجيجاً:

قال تعالى:

(وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47))

(سورة الحج: آية " 47")

اكتشف العلماء الآن مدلولات بعض الآيات الحسابية، وبيان ذلك في الفقرة التالية: نحن نعدُّ السنوات عن طريق القمر، يدور القمر حول الأرض دورةً كل شهر، لو أخذنا مركز الأرض ومركز القمر وقسنا المسافة بينهما لعرفنا نصف قطر الدائرة التي هي مسار القمر حول الأرض، عن طريق القانون الرياضي نعرف المحيط من نصف القطر، كشفنا محيط الدائرة، (يدور القمر حول الأرض دورةً كلّ شهر) × 12 (يعطينا ما يقطعه القمر حول الأرض في سنة)× 1000 يعطينا ما يقطعه القمر حول الأرض في ألف عام هذه هي المسافة، لو قسّمناها على الزمن، (وَإِنَّ يَوْماً) اليوم أربع وعشرون ساعة، والساعة ستون دقيقة، والدقيقة ستون ثانية، لو ضربنا أربعاً

وعشرين × ستين × ستين وقسّمنا المسافات الكيلو مترية التي يقطعها القمر في دورته حول الأرض في ألف عام على عدد ثواني اليوم لوصلنا إلى سرعة الضوء في الدقيقة: مئتين وتسعة وتسعين ألفاً وثمانمئة واثني عشر كيلو متر في الثانية، هذه النظرية التي ملئوا بها الدنيا صياحاً وضجيجاً ـ النظرية النسبية التي جاء بها أينشتاين ـ في هذه الآية:

(وَإِنّ يَوْماً عِنْدَ رَبّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّونَ (47))

(سورة الحج)

الإحكام الحسابي من الإعجاز في القرآن :

قال تعالى:

(وَالسّمَاءِ ذَاتِ الرّجْعِ (11))

(سورة الطارق)

السماء كل ما علاك فهو سماء، كيف وصف الله السماء كلّها بكلمةٍ واحدة ؟

(ذَاتِ الرّجْعِ (11))

ثبت الآن أن كل كواكب الكون تدور حول بعضها في مساراتٍ مغلقة، ومعنى مسار مغلق: أي أن هذا الكوكب يرجع إلى النقطة الأولية التي انطلق منها، قال تعالى:

(وَالسّمَاءِ ذَاتِ الرّجْعِ (11))

(سورة الطارق)

طبعاً آيات إعجاز القرآن الكريم لا تعدّ ولا تحصى، هذه نماذج، من منكم يصدّق أننا إذا نسبنا عدد كلمات البر في القرآن إلى عدد كلمات البحر في القرآن لكانت تساوي نسبة البرّ إلى البحر بالتمام والكمال ؟ من يصدق أن عدد كلمات الملائكة بعدد كلمات الشياطين ؟ وأن كلمات الدنيا بعدد كلمات الآخرة ؟ هذا الإحكام الحسابي شيء لا ينتهي، موضوع ثانٍ.

والله أيّها الأخوة، والله الذي لا إله إلا هو لو تأمّلت هذا القرآن من خلال إعجازه لآمنَت كلُّ خليّة في جسمك، كل خليّة، ولآمنت كل قطرةٍ في دمك أن هذا القرآن كلام الله، قد يقرأ الإنسان في الجريدة خبراً أو تصريحاً لمدير مؤسسة مؤلفاً من خمس كلمات، أن هناك احتمالاً بالسماح باستيراد السيارات، ينخفض سعر كل سيارة مئتي ألف ليرة بسبب خمس كلمات في جريدة وتصريح غير مؤكد، هل من المعقول أن ينخفض السعر مئتي ألف ليرة لكل سيارة لورود تصريح مقداره خمس كلمات في جريدة.

يهجر القرآن حينما تُهْجَر أحكامه وحينما يبقى تراتيل:

يوجد في القرآن الكريم العدد الكبير من الأوامر والنواهي أو الوعود، والناس في واد وهذا القرآن في واد:

(يَا رَبِّ إِنّ قَوْمِي اتّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (30))

(سورة الفرقان)

قرؤوه في المناسبات، قرؤوه في التعازي، قرؤوه وتلوه في الإذاعة ولكنهم هجروا أحكامه. المُصْحَف في مقدّمة المحل التجاري، وتوضع آيات كثيرة:

(إِنّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (1))

(سورة الفتح)

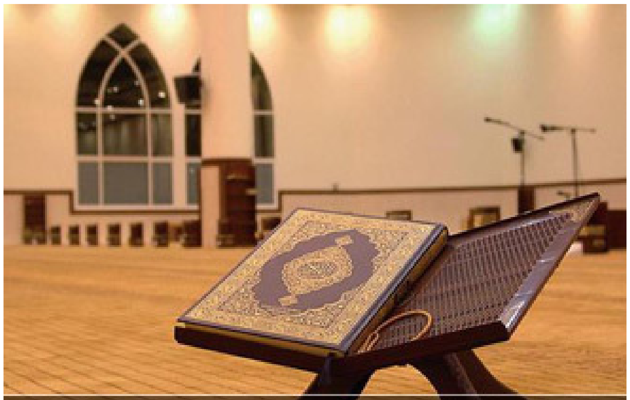

يُهجر القرآن بهجر أحكامه

فهم الفتح المبين أن يربح فقط، وبخط عريض واضح كتب على واجهة المحل:

(بسم الله الرحمن الرحيم)

وترى سلوك صاحب المحل في وادٍ والقرآن في واد، يوضع المصحف أمام السائق في السيارة وهي تنطلق من مكان إلى مكان لا يُرضي الله أبداً، يهجر القرآن حينما تُهْجَر أحكامه، حينما يبقى تراتيل، و قرئ القرآن الكريم في باريس على أنه فلكلور شرقي، قُرئ في باريس في حفل كبير لا على أنه كلام الله، لا على أنه منهج الله، بل على أنه فلكلور شرقي، هكذا:

(يَا رَبِّ إِنّ قَوْمِي اتّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (30))

(سورة الفرقان)

لتعلم يا أخي أن حياتنا وسعادتنا بهذا الكتاب، حياتنا وفلاحنا في تطبيق هذا الكتاب، القرآن الكريم منهج كامل، اختصر الناس الدين لخمس عبادات شعائرية، ولكن في الدين غض بصر، وصدق، و أمانة، ووفاء بالوعد، وإخلاص، اقرأ القرآن، ستمئة صفحة من عند خالق الأكوان ألا ينبغي أن نقرأه وأن نستمع إلى تفسيره وذاك هو الحد الأدنى.

النار ودرجات غليانها:

قال تعالى:

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا (24) ﴾

هذه في الماضي:

﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا (24) ﴾

بالمستقبل:

﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24) ﴾

النار أيها الأخوة، وما أدراك ما النار ! الشموس، أبدأ الكلام الآن عن شموس حمراء اللون، والنجوم البعيدة بيضاء، انظروا إليها في الليل تجدوها بيضاء، ويوجد الآن ثقوب سوداء، يمر الكوكب المُلتهب بمرحلة الاحمرار إلى الابيضاض إلى السواد، وكل مرحلة تتضاعف فيها الحرارة ملايين المرّات، شمسنا حمراء حيث أنها في البدايات، ولكن هناك شموساً بيضاء تنكمش وتصبح بيضاء اللون، وبعد ألف عام تصبح هذه الشمس سوداء، وهناك ثقوب فيها ضغطٍ عالٍ جداً، لو دخلت الأرض أحد هذه الثقوب لأصبحت بحجم البيضة مع وزنها نفسه، ورد في صحيح:

((أمر الله تعالى أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليه ألف عام حتى ابيضت ثم أوقد عليه ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة))

[للبزار من حديث أنس وهو ضعيف]

الإنسان يعيش في زمن سينقضي بالموت وبعدها سيُحاسب على كل حركةٍ وسكنةٍ:

إذا وضعت الحجر البازلتي وهو آخر العناصر انصهاراً فإنه يذوب في النار:

﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ (24) ﴾

هل تعلم يا أخي أن أهل الخبرة يصنعون أرض الأفران الآن من الحجر الأسود أي البازلتي، قلّما ينصهر هذا الحجر، أما في نار جهنم فهو يصبح سائلاً، لو أن الأرض أُلقيت في الشمس لتبخّرت في ثانيةٍ واحدة، حرارة الشمس في ظاهرها ستة آلاف درجة، وفي أعماقها عشرون مليون درجة، هذه شمس الأرض الحمراء وليست السوداء، الحمراء عشرون مليون درجة، قال:

﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24) ﴾

قال الله عزّ وجل :

﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175) ﴾

(سورة البقرة)

هذا كلام خطير يا أخوان، كلام خطير جداً، الكلام الخطير تسمعه فتبدأُ متاعبك، أنت مسؤول، أنت تعيش في زمن سينقضي بالموت، وبعدها تُحاسب على كل حركةٍ وسكنةٍ، وعطاءٍ ومنعٍ، وزواج وطلاقٍ، وغضبٍ وتربيةٍ، كله مُحَاسب عليه، فإذا كان معك دليل أن هذا القرآن ليس كلام الله فأتني به ؟ أما إذا كانت الأدلة كلُّها تقول على أنه كلام الله فماذا تفعل ؟!

لن يستطيع أعداؤنا أن ينتصروا علينا إلا إذا تركنا هذا القرآن :

لو قرأ أحدهم بلاغاً بمنع التجوّل وتحت طائلة إطلاق الرصاص ، قرأه ثم لم يتحرك ولم يدخل إلى بيته فإنه يكون مجنوناً ، فإذا خالف هذا البلاغ فإنه يُقتل ، فإذا قرأه وقال : والله الخط جميل ، والله التوقيع جيد ، انظروا إلى الحبر لونه جيد جداً ، الورق ثمين جداً ، وغير متوفر ، من أين أتوا به ؟ إذا انصرف عن مضمون البلاغ ، وتوجَّه إلى جزئياتٍ ليس لها علاقة بمضمون البلاغ إطلاقاً فإنه يكون أحمق ، هذا القرآن منهج لكنا نقرؤه على الأموات ، نقرؤه في المناسبات ، نقتنيه تحفة من المتحف ، علماً أنَّه منهج للتطبيق ، للعمل به .

رأى سيدنا عمر رجلاً يقرأ القرآن ويبدو أنه لا يعمل به ، فقال : " قتلهم الله إنما أنزل هذا القرآن ليُعْمَل به أفتخذت قراءته عملاً ؟ أفتخذت قراءته عملاً ؟ " يجب أن تعمل به لا أن ترتزق منه ، هذا منهجنا وهذا كلام ربنا .

لن يستطيع أعداؤنا أن ينتصروا علينا إلا إذا تركنا هذا القرآن ، هذا ما قاله أحد كبار الوزراء في بريطانيا قال : " مادام هذا الكتاب بين أيديهم لن تستطيعوا أن تنتصروا عليهم " ، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام :

((خيركم من تعلم القرآن وعلمه))

[البخاري عن عثمان]

خيركم ، وقال الله عزّ وجل :

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (52))

(سورة الفرقان)

الجهاد الدعوي من أعظم أنواع الجهاد :

سمَّى ربنا تعلم القرآن وتعليمه جهاداً كبيراً ، هذا الجهاد الدعوي من أعظم أنواع الجهاد ؛ أن تُرَسِّخ معاني هذا الكتاب ، أن تُقنع الناس بأحقية هذا القرآن ، أن تحملهم على تطبيق أحكامه ، أن تحملهم على اتباع أمره ونهيه ، هذا هو الذي نريده ، أرجو الله سبحانه وتعالى أن نوَفَّق في درسٍ قادم إلى متابعة هذه الآية :

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (13- 95):تفسير الآيات 23-25، العلم والعمل طريقا الجنة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-09-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

(إن) تفيد احتمال الوقوع، أما (إذا) تفيد تحقق الوقوع:

مع الآية الثالثة والعشرين والتي تليها، يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ (23))

(إن) أيها الأخوة تفيد احتمال الوقوع، أما (إذا) تفيد تحقق الوقوع:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1))

(سورة النصر)

لا بدَّ من أن يأتي نصر الله:

(إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ (6))

(سورة الحجرات: آية " 6 ")

قد يأتي وقد لا يأتي، فـ (إن): تفيد احتمال الوقوع، و(إذا) تفيد تحقق الوقوع:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ (23))

الريب: هو الشك، لماذا يرتاب كفار مكة برسالة النبي ؟ مع أن أعداء النبي عليه الصلاة والسلام وصفوه بالصادق والأمين ما جربوا عليه كذباً قط، أيعقل ألا يكذب على الناس ويكذب على الله ؟ كان المشركون يضعون عنده مالهم، يثقون به إلى درجةٍ أنه لمَّا هاجر أبقى ابن عمه علي ابن أبي طالب ليردَّ الأموال إلى أصحابها، فهو عندهم أمين، وهو عندهم صادق، وكان اسمه في قريش: الأمين، فلماذا يتهمونه بهذه الرسالة ؟ ويقولون عنه إنه كاذب ؟ وهو لم يتلقَّ علماً قط:

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48))

(سورة العنكبوت)

أتى بكلامٍ معجز لا يستطيع أن يأتي بمثله فصحاء العرب، فمن أين جاءهم الريب ؟ قال بعض العلماء: هذا ريبٌ نفسي وليس ريباً عِلمياً، كانوا يتمَنَّوْن أن ينزل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم، هم لهم مقاييس، مقاييسهم المال والجاه، ولكن مقاييس الله عزَّ وجل غير مقاييس البشر، وهذا معنى دقيق نحتاجه اليوم.

المراتب عند الله تنالها بالعلم والعمل فقط:

في كل مجتمع يوجد أشخاص أغنياء، أشخاص أقوياء، أشخاص وجهاء، هؤلاء قمم بموازين المجتمع، ولكنهم قد لا يكونون كذلك عند الله:

((رب أشعث أغبر ذي طمرين، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره))

[أخرجه الحاكم في المستدرك وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة]

أنت قد تكون عبداً ذا دخلٍ محدود، ليس لك شأنٌ كبير، لا أحد يفتقدك إذا غبت، ولا أحد ينتبه إليك إذا حضرت، هؤلاء سمَّاهم النبي الأتقياء الأخفياء: إذا حضروا لم يعرفوا، وإذا غابوا لم يفتقدوا:

((إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يدعوا))

[ابن ماجة عن معاذ]

ومع ذلك قد تكون عند الله بمنزلةٍ عاليةٍ جداً، هم أرادوا هذه النبوَّة لرجلٍ من القريتين عظيم، له مالٌ وفير، وشأنٌ كبير، ونسبٌ عريق، ولكن الله سبحانه وتعالى يرفع من عباده من يشاء ويخفض من يشاء، فالبطولة أيها الأخوة أن تكون عند الله ذا مرتبةٍ عالية، المراتب عند الله تنالها بالعلم والعمل فقط:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (9))

(سورة الزمر: آية " 9 ")

وقال:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11))

(سورة المجادلة)

وقال:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا (132))

(سورة الأنعام: آية " 132 ")

معنى الحكمة:

عند الله مقياسان فقط ؛ مقياس العلم ومقياس العمل، دقق النظر والفكر:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (269))

(سورة البقرة)

الحكمة خير كثير، يصف الله العظيم جلَّ جلاله هذا الخير بأنه كثير، ما الحكمة ؟ الحكمة بالتعريف الجامع المانع أن تعرف الحقيقة وأن تعمل وفقها، إن عرفتها ولم تعمل وفقها فلست حكيماً، أنت عالم، متعلّم، مثقف، ولكنك لا تكون حكيماً إلا إذا تطابق السلوك مع ما تعرف من العلم، إذا تعلّمت وانتفعت بما تعلّمت، إذا عرفت وجاء السلوك اليومي موافقاً لهذه المعرفة، إذا عرفت الحقيقة الكبرى وجاءت الحركة اليومية موافقةً لهذه الحقيقة فأنت حكيم.

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ (269))

(سورة البقرة)

بنص القرآن الكريم:

(فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً (269))

(سورة البقرة)

الإنسان ينتفع بالحكمة إلى أبد الآبدين ولكنه لا ينتفع من المال الكثير إلا بالقليل:

ما هو خير الدنيا ؟ شخص معه ألف مليون، عنده خمسمئة دونم، عنده بيوت لا يعلمها إلا الله، عنده أموال منقولة وغير منقولة، عنده أرصدة بالبنوك الأجنبية بالمليارات. قال الله تعالى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ (77))

(سورة النساء: آية " 77 ")

وازن بين الآيتين:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ (77))

(سورة النساء: آية " 77 ")

متاع قليل لأنه منقطع بالموت، يأتي الموت فلا يَدَعُ لك شيئاً إلا أمتاراً من أرخص أنواع الأقمشة، خام، غير مقصور، أسمر ـ هذا هو الكفن ـ لا تأخذ معك شيئاً، لذلك فالشيء المنقطع غير كثيرٍ، ولو ضاقت عنه الدنيا، لأنه منقطع، الآيتين:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ (77))

(سورة النساء: آية " 77 ")

وقال:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً (269))

(سورة البقرة)

إنك تنتفع بالحكمة إلى أبد الآبدين، ولكنك لا تنتفع من المال الكثير إلا بالقليل، ما تأكل، وما تشرب، وما ترتدي من ثياب، سرير تنام عليه، بيتٌ يؤويك.

العبرة أن تكون عند الله كبيراً:

سأل ملك جبار وزيره ذات مرة: من الملك ؟ فانخلع قلب الوزير وقال له: أنت الملك، هل في الأرض ملكٌ غيرك ؟ قال له: لا، الملك رجلٌ لا نعرفه ولا يعرفنا، له بيتٌ يؤويه، وزوجة ترضيه، ورزقٌ يكفيه، إنَّه إن عرفنا جَهدَ في استرضائنا، وإن عرفناه جَهدْنا في إحراجه، فالملك بالمفهوم الدقيق هو الذي عرف الله وكان مستقيماً على أمره فوعده الله بالجنة.

﴿ أفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(61) ﴾

(سورة القصص)

هم يتمَنَّوْن أن تكون هذه النبوة لرجلٍ من القريتين عظيم بمقياس الأرض، ولكن الله سبحانه وتعالى أعطاها لإنسانٍ صادقٍ، أمينٍ، محبٍ، مخلصٍ، مطيع، فكل بطولتك أن تكون وفق مقاييس الله عزَّ وجل إنساناً مقبولاً عند الله، فهذا الشاب الذي نشأ في طاعة الله، وهذا الموظَّف البسيط الذي يخدم الناس ولا يبتزُّ أموالهم، ولا يوقعهم في حرجٍ شديد، ولا يعقِّد عليهم الأمور، قد يكون في أدنى مرتبة في الدنيا، ولكنه عند الله كبير، هذا التاجر الصدوق الذي يعلِّم الناس درساً في الورع والاستقامة والصدق والأمانة إنه عند الله كبير، إنسان له دخلٌ محدود يسعى لنشر الحق هو عند الله كبير، العبرة أن تكون عند الله كبيراً، كان من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام: **" اللهم أرني بعين نفسي صغيراً، وبأعين الناس كبيراً ".**

هناك أشخاصٌ كثيرون هم عند الناس صغاراً لكنهم عند أنفسهم كُبَاراً، هذا مرض العُجب والكِبر.

أعلى مرتبة في الدين مرتبة العبودية لله وهي التي وصل إليها النبي الكريم:

أيها الأخوة:

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا (23) ﴾

أعلى مرتبة في الطب أن تحمل بورد، أو (إف آر إس) من بريطانيا، أو (أكريجيه) من فرنسا، هذه أعلى شهادة بالطب، أعلى شهادة في الآداب أن تحمل دكتوراه دولة وتأخذ عليها جائزة نوبل مثلاً، هذه مراتب الدنيا، رجل ألَّف إنتاجاً أدبياً فقُدِّر عالياً إلى درجة أنه منح عليه جائزة نوبل، لكن يا ترى ما هي أعلى مرتبة عند الله عزَّ وجل ؟ أعلى مرتبة في المال أن يكون معك آلاف الملايين بالعملات الصعبة الغالية جداً ـ آلاف الملايين ـ الذي اخترع الكمبيوتر ويقود الآن صناعة متفوقة فيه، حجمه المالي الآن ثلاثين مليار دولار، هذه مرتبة مالية عالية، وهناك مرتبة علمية كأينشتاين الذي جاء بالنظرية النسبية، وهناك مرتبة إدارية كالذي يتربَّع على عرش أقوى دولة في العالم هو في قمة هذا المجتمع، لكن ما هي أعلى مرتبة في عالم الدين ؟ أعلى مرتبة هي التي وصل إليها النبي، مرتبة العبودية لله، أن تكون حقاً عبداً لله:

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا (23) ﴾

أنت في أعلى درجة عند الله حينما تكون عبداً له، معنى عبد: انصياعٌ كامل، حبٌ كامل، إخلاصٌ كامل، رضى بقضاء الله وقدره، طُمأنينة إلى وعد الله:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23))

(سورة الأحزاب)

الله عزَّ وجل وليّ دينِهِ وهو ينصره دائماً بطريقةٍ أو بأخرى:

كان سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام في أثناء الهجرة ملاحَقاً وقد هُدِرَ دمه، ووضعت قريش مئة ناقة مكافأة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، لحقه سُراقة ليقتله، وليأخذ المئة ناقة، فقال له النبي ـ وإذا كان هناك للدعوة الإسلامية في عهد النبي خطٌ بياني، كان هذا الخط في نهايته الدنيا، أي في أصعب مرحلةٍ مرَّت بها الدعوة، النبي بين مكة والمدينة مهدورٌ دَمُهُ، مُلاحُق، مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً ـ قال له: كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى ؟ معنى ذلك أن النبي واثق أنه سيصل إلى المدينة سالماً، وسيُؤسس دولة هناك، وسيحارب الفرس، وستأتيه كنوز كِسْرَى، ووعد سراقة أن يلبسه سواري كسرى.

انظر إلى الثقة بوعد الله عزَّ وجل، وعدك الله بالنصر، وكلما كان إيمانك قوياً فإنه لا يتزعزع ولو سمعت ألف خبر ضد الإسلام، هذا الدين دين الله ولن يتخلى عنه أبداً، ولكن أرجو الله أن يكسبني الشرف فأكون جندياً له، القلق دربي من باب واحد هو خوفي ألا يسمح الله لي ألا أكون جندياً للحق، ألا يقبلني جندياً من جنده، أما هذا الدين فهو دينُه، وهو ناصره، وربنا عزَّ وجل قد ينصر دينه بالرجل الفاجر، وأحياناً يُسَخِّر أعداء الدين لخدمة الدين، ولربما تَنْبُع الدعوة من بلدٍ يحارب الدين، وهذا الذي يحدث الآن في أوروبا وأمريكا، إذ يزداد الوعي فيهما، ويدخل الناس في الإسلام أفواجاً، يصلون إلى مراتب عُليا وهم مسلمون، وهذا الذي يُقْلِقُ الغرب، يقولون: في عقر دارنا أناسٌ من جنسنا مثقّفون أعلى ثقافة، يحتلون أعلى المناصب يسلمون !! الله عزَّ وجل وليّ دينِهِ وهو ينصره دائماً بطريقةٍ أو بأخرى، ولكن اِقلق إن لم يسمح الله لك أن تنصره، أو أن تكون في عداد جنده، لأن الله عزَّ وجل عزيز:

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38))

(سورة محمد)

معرفة الله و طاعته تثمر إيماناً وتقوى:

هذه الأمة العربية التي شرَّفها الله بالرسالة، وجعلها أمةً وسطاً، إذا قصَّرت في مهمتها سخَّر الله أمة أخرى، نحن شرّفنا ربنا بأن جعلنا في أشرف المواقع بين الأمم، وجعل النبي محمداً صلى الله عليه وسلم سيد الخلق وحبيب الحق من جنسنا، تجد إنساناً غير عربي اللسان يقف في الصلاة ويبكي خاشعاً ولعله لا يفهم شيئاً من التلاوة ـ لأن لغته ليست عربية ـ يُسأل: لماذا تُصلّي أو تحضر

هذه الصلاة الجهرية في المسجد وأنت لا تفهم شيئاً ؟ يقول: ماذا يفهم الطفل الرضيع وهو على صدر أمِّه ؟ يمصُّ ثدييها، وتضمُّه بيديها إلى صدرها وتغمره بحنانها، ماذا يفهم من كلامها ؟ لا يفهم شيئاً، لكنَّه في قمة السعادة، مثله مثل الطفل ذاك، فهذا يصلي ولا يفهم ماذا يُتلى في الصلاة ولكنه سعيد بقربه من الله سعادة الطفل بقربه من أمه، ونحن لغتنا عربية نستمع إلى القرآن صباح مساء، نصلِّي خلف الإمام فنفهم قراءته، أيكون هذا الذي لا يتقن العربية أقرب إلى الله منا ؟!!

يا أيها الأخوة، القضية مصيرية والأمور واضحة جداً، هناك في هذا الكَون حقيقة واضحة جداً، حقيقة واحدة هي الله، كل من اقترب من هذه الحقيقة شعر بالأمن، شعر بالطُمأنينة، شعر بالرضا، شعر أن المستقبل له، شعر أن الدنيا صغيرةٌ جداً لا تستأهل أن نهتم لها:

((إنما الدنيا عرض حاضر يصيب منها البر والفاجر وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر))

[الحسن بن سفيان والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن شداد بن أوس]

((لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء))

[الترمذي عن سهل بن سعد]

قال لي شخص: مساحة بيتي سبعمئة متر، تجد في هذا البيت كلُّ ما تتمنى ؛ حدائق، شرفات، أبهاء، أثاث فخم جداً، كل وسائل العصر في هذا البيت، أجبته: هذا النبي الكريم الذي هو سيِّد ولد آدم، سيد الخلق وحبيب الحق، كان إذا أراد أن يصلِّي قيام الليل، لا تتسع غرفته لصلاته ونوم زوجته، فكانت تنزاح جانباً كي يصلي، معنى ذلك أن مساحة البيت ليست مقياساً لسعادة الإنسان، والدخل ليس مقياساً، كذلك أحد الصحابة وهو سيدنا مصعب بن عمير كان والده غنياً، فلمَّا أعلن إسلامه قاطعه أبوه وطرده ولم يعطه من مال الدنيا شيئاً، كان من أكثر شباب قريش أناقة، كان من أكثرهم غنىً، كان شاباً عطراً، فلما أسلم ذاق ألوان الجوع وألوان العُري، ولما مات رآه النبي وقد كُفِّن بثوب إذا وضع على رأسه انكشفت قدماه، إذا جرَّ إلى قدميه انكشف رأسه، فبكى النبي عليه الصلاة والسلام، هذه الدنيا ليست لها قيمة، قد تكون أمين مستودع، قد تكون ضارب آلة كاتبة، قد تكون بمنصب صغير جداً وأنت عند الله كبير، عند الله مقياس واحد ؛ الذي عَرَفَه وأطاعه معرفة وطاعة أثمرتا إيماناً وتقوى.

النبي الكريم عرف الله واستقام على أمره فتبوأ أعلى مرتبة ينالُها إنسان على الإطلاق:

اقرأ:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63))

(سورة يونس)

عرف الله واستقام على أمره فتبوأ أعلى مرتبة ينالُها الإنسان على الإطلاق، فكان عبداً لله، واقرأ قوله تعالى:

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10))

(سورة النجم)

أين هذا الكلام ؟ عند سدرة المنتهى، في المرتبة التي لم يصل إليها إلا محمدٌ صلى الله عليه وسلم:

(لَقَدْ رَأَى مِنْ آَيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18))

(سورة النجم)

وقال:

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10))

(سورة النجم)

وقال:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ (1))

(سورة الإسراء)

الفرق بين العبيد والعباد:

قال تعالى:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا (23))

إذاً حينما تتعبد لله حقاً ترتقي إلى أرقى مرتبةٍ في الكون وهي أن تكون عبداً لله، لكن الناس كلهم عبيدٌ لله قولاً واحداً، عبيدٌ لله جميعاً كافرهم ومؤمنهم، معنى العبودية: أن تكون مفتقراً إلى إمداد الله، من منا يقول: أنا لست عبداً ؟ إذا لم تكن عبداً أغلق أنفك، فهل تستطيع ؟ أنت مفتقر إلى هذا النَفَس، فإذا مُنع عنك الهواء ثلاث دقائق تموت، لست عبداً ؟ دع الماء أياماً معدودة يوماً أو يومين يموت الإنسان، لست عبداً ؟ دع الطعام، وجودك مفتقر إلى ما حولك، إلى هواء، إلى ماء، إلى طعام، إلى زوجة، إلى مأوى، إلى رزق، إلى مال تشتري به الطعام، إذاً أنت عبد، هذا العبد المقهور ليس هو المقصود، هذا عبد القَهْر، جمعه عَبيد:

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (46))

(سورة فصلت: آية " 46 ")

لكن المقصود عَبْدَ الشكر، جمعه عِباد:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان: آية " 63 ")

وقال:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ (53))

(سورة الزمر: آية " 53 ")

دليل هذا الكتاب إعجازُه:

العباد هم الذين عرفوا الله، واختاروا طاعته، وآثروا قربه، وعملوا لبلوغ جنَّته، ففرِّق بين العبيد والعباد، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام عبدٌ، عبدٌ لله، لكنه عبدٌ أتاه بمحض إرادته، هو عبد الشُكر، لا عبد القهر، الملحد عبد لله، بدليل أن وجوده مفتقرٌ للهواء والشراب والطعام، هو عبد ولكنَّه عبدٌ مقهور، العبد المؤمن تعَرَّف إلى الله باختياره، وأطاعه باختياره، فهو عبد الشكر، إذاً:

(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23))

دليل هذا الكتاب إعجازُه ؛ أي نظم القرآن، صياغة القرآن، لغة القرآن، حروف القرآن، أخبار القرآن، الحقائق العلمية في القرآن، المنهج التربوي في القرآن، أصول العلوم في القرآن، هذه يَعْجَزُ عنها كلُّ البشر، لذلك إعجاز القرآن دليل على أنه كلام الله، وقد كان الدرس الماضي حول إعجاز القرآن الكريم، هناك إعجاز علمي، وإعجاز أدبي بلاغي، وإعجاز إخباري، إعجاز وصفي، وإعجاز أدبي، قال سبحانه:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا (24))

الله عزَّ وجل تحدى البشرية كلها بهذا القرآن:

هذا التحدي قائمٌ أبداً، ومَن يستطيع من بني البشر أن يحكم على المستقبل ؟ هذا مستحيل، قد يقول أحدهم: أنا أعلم العلماء الآن، هل يقول أحدٌ في الأرض: أنا أعلم العلماء في هذا الموضوع في المستقبل؟ هذا كلام غير علمي، مثل هذا الإنسان يُضْحَكُ عليه ويسخر منه، قد يتحدَّى الإنسان من حوله ولكنه لا يستطيع أن يتحدَّى من سيأتي بعده، إلا الله وحده فهو يتحدى لأنه عليمٌ بكل شيء، لأنه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون وعلم ما لم يكن، لأن الله وحده يعلم السِرَّ وأخْفى يقول:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا (24))

لن تستطيعوا:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا (24))

في المستقبل، معنى ذلك أنه مضى على نزول هذا القرآن أكثر من ألفٍ وأربعمئة عام، وتقدّم العلم تقدُّمَاً يفوق حَدَّ الخيال، هل في كل علوم الأرض حقيقةٌ مقطوعٌ بها تُصادم آيةً قرآنية ؟ أبداً، لأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لكن يقع المسلمون أحياناً في منزلقٍ مضحك، يقول لك أحدهم: الحمد لله، القرآن يوافق العلم، هذا كلام مضحك، بل قل: الحمد لله العلم

يكسب وسام شرف حينما يوافق القرآن، القرآن هو الأصل، لا تمدح القرآن بأنه وافق العلم، يجب أن تمدح العلم بأنَّه وافق القرآن، هذا كلام خالق الأكوان، هذا الكلام الذي لا ريب فيه.

هناك عبارة أقولها لكم كثيراً: فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، كم هي المسافة بين خالق الأكوان وبين هذا الإنسان الضعيف ؟ فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، لذلك تحدى الله عزَّ وجل البشرية كلها بهذا القرآن، ومع ذلك فإنني لم أدخل في موضوع الإعجاز الآخر الرياضي، هناك بحوث ودراسات والله مذْهِلة، ملخَّصها أنَّك إذا بدَّلت حرفاً واحداً في كتاب الله يَخْتَل ميزان القرآن الكريم، حروفه حرفاً حَرفاً بحسابات دقيقة جداً محسوبة لو بَدَّلت حرفاً واحداً، أو حذفت حرفاً واحداً، أو أضفت حرفاً واحداً بحيث لا يختل ميزان القرآن كله، ولكن لا مجال للخوض في موضوع الإعجاز الحسابي والرياضي علماً أن هناك علماء دخلوا في هذا الموضوع، ولم يكونوا مخلصين فيه فزَلّت أقدامهم زلاّتٍ لا تعَدُّ ولا تحصى.

أي كتاب يضم حقائق علمية مكتشفة بعد القرآن لا يمكن أن تتعارض مع آيات في كتاب الله:

قال:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ (24))

مثلاً هل يعقل أن عالماً من كبار علماء البحار، بعد جهدٍ جهيد، وبعد عمرٍ مديد يكتشف حقيقة يظنُّ أنه ما سبقه إليها أحد، وهي أن بين البحرين حاجزاً، فإذا هي آيةٌ كريمة في القرآن الكريم قبل ألفٍ وأربعمئة عام:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20))

(سورة الرحمن)

هناك أخ طبيب أخصائي بالعظام درس في بريطانيا، درس على أستاذ في علم الأجنة، يُعَدّ من أكابر علماء عصره، وله كتاب من كثرة تداوله وشهرته يُسَمِّيه الطلاب: إنجيل علم الأجنة، لأنه صار كتاباً مقدَّساً عندهم، كتاب دقيق جداً يدَرَّس في كل الجامعات تقريباً، وهو أستاذ هذه المادة ومتفوق إلى أعلى درجة، قال: دخل ذات مرة على طلابه ليقول: ذكرت لكم سابقاً في كتابي مؤكداً أن العظام تتكون بعد اللحم، ثم تبين لي بشكلٍ لا يدع للشك مجالاً أن القضية بالعكس، العظم أولاً واللحم ثانياً، دخل إلى القاعة وهو في أعلى مرتبة في الجامعة وكأنَّه أحدث شيئاً وكأنَّه سَيُلْقي قُنْبُلة علمية، فقال: اكتشفت مؤخراً أن العظام تتكون أولاً واللحم ثانياً، مع أنه خلال عشرين سنة أو ثلاثين سنة كان يؤكّد أن اللحم أولاً ثم العظام ثانياً، قام طالب باكستاني وقال له: يا أستاذ هذه الحقيقة جاءت في كتابنا قبل ألفٍ وأربعمئة عام، قال لي محدثي: كاد الأستاذ يُصْعَق، وأخذ يردد: هذا اختراعي، هذا كشفي، جاء الطالب بالقرآن الكريم مع ترجمته إلى اللغة الإنكليزية في اليوم التالي:

(فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً (14))

(سورة المؤمنون: آية " 14 ")

ويقال إنه أسلم، واستعلنت الحقيقة خقّاقة أن أي كتاب يضم حقائق علمية مكتشفة بعد القرآن لا يمكن أن تتعارض مع آيات في كتاب الله التي تتحدث في النقطة ذاتها، أو الموضوع ذاته.

هناك إشارات في القرآن الكريم فيها أصول العلوم :

قال تعالى:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا (24))

بل إن هناك إشارات في القرآن الكريم فيها أصول العلوم، الذرة:

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33))

(سورة الأنبياء: آية " 33 ")

تَشَكُّل الجنين:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46))

(سورة النجم)

حركة الجبال:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88))

(سورة النمل)

قلب المؤمن الكامل فيه تعظيمٌ لله وخوفٌ منه وحبٌ له سبحانه :

شيء لا يصدَّق، قال:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24))

أيّها الأخوة الكرام القرآن متوازن، يتحدث الخطيب أحياناً عن جهنَّم فيملأ الناس رُعْباً منها، أو يتحدَّث عن الجنة فقط فيدغدغ أحاسيسهم ويسترخون لكن الأكمل أن تتحدث عنهما معاً، لماذا ؟ لأن الإنسان يخاف ومع الخوف ينبغي أن يتفاءل، قال:

((قال داود فيما يخاطب ربه: يا رب أي عبادك أحب إليك أحبه بحبك ؟ قال: يا داود أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي الكفين، لا يأتي إلى أحد سوءً، ولا يمشي بالنميمة، أحبني وأحب من يحبني وحببني إلى عبادي، قال: يا رب إنك لتعلم أني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى عبادك ؟ فقال: ذكرهم بآلائي وبلائي ونعمائي..))

[رواه البيهقي وابن عساكر عن ابن عباس]

ذكرهم بآلائي كي يعظِّموني، ذكرهم بنعمائي كي يحبوني، ذكرهم ببلائي كي يخافوني، أي يجب أن تخافه وأن تحبه وأن تعظمه في وقتٍ واحد، قلب المؤمن الكامل فيه تعظيمٌ لله وفيه خوفٌ منه وفيه حبٌ له، نِعَمُه تدعو إلى محبته، ونِقَمُه تدعو إلى الخوف منه، وآلاؤه تدعو إلى تعظيمه، فالقرآن متوازن.

تبشير خالق الكون للمؤمن بالجنة:

بعد أن حذَّرنا سبحانه من التكذيب بهذا القرآن جاءت البشرى منه تعالى:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (25))

خالق الكون يُبَشِّرك، والله أيُّها الأخوة لو عقلنا هذه الآية، لو كنت تعاني ما تعاني ؛ ضيق دخل، مشكلة أُسرية، مشكلة صحية، مشكلة في عملك:

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (25))

خالق الكون يبشرهم:

(أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (25))

هذا الوصف بليغ، أي أنَّه مكان جميل جداً، أحياناً يذهب الإنسان إلى بستان جميل ؛ ورود، أشجار، مياه، حدائق، مروج خضراء، بيت فخم، مسبح، يقول لك مندهشاً: مثل الجنة، إن الجنة دائمة خالدة، أما هذه النزهة ربع ساعة، ساعة، ساعتين، نهار ثم يكون ذكرى، ولكن الجنة إلى الأبد.

من معاني الآية التالية أن كل نعيم تناله في الجنة بسبب استقامتك في الدنيا :

قال تعالى:

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ (25))

ليست جنة واحدة بل جنات:

(تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ (25))

هذه الآية لها عدة معانٍ ؛ من أوجه معانيها أن كل نعيم تناله في الجنة بسبب استقامتك في الدنيا، مثلاً إذا درس إنسان دراسة طويلة جداً ومتعبة جداً ونال أعلى شهادة، الآن يبدأ القطاف، الآن له دخل كبير، مكانة اجتماعية، راحة كبيرة جداً، ماذا يقول زميله الكسول ؟ يقول: متى صار فلان في هذه المرتبة العالية ؟ أين كان هو عندما كنت تلعب أنت في الأزقة ؟ عندما درس ثلاثاً وثلاثين سنة ولم يرفع رأسه يوماً وآثر الدراسة على كل حظوظه من الدنيا، الآن صار في مرتبة عالية، فهذا الذي تُرزَقه في الآخرة بسبب استقامتك في الدنيا، أهل الدنيا كلهم يدعونه إلى درس علم يقول لك:

مشغول وليس عندي فراغ، لأي شيء لديك فراغ إذاً ؟ عندي ازدحام أعمال ومواعيد، يتنصَّل من كل مجلس علم يتعرف فيه إلى الله عزّ وجل، أما الذي يجلس على ركبتيه ليطلب العلم، وليعمل بالعلم فإن له عند الله مقاماً كبيراً، والله عزّ وجل جعل ثواباً لمجالسِهِ حوافز ومكافآت، قال: "هم في مساجدهم والله في حوائجهم " أما ترضى أيها المؤمن أنَّ يتولّى الله أمرك ؟

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (257))

(سورة البقرة)

المؤمن يرعاه الله ويربيه بينما الكافر كالدابة المنفلتة:

والله أيها الأخوة، هناك آية كريمة في سورة محمد صلى الله عليه وسلم:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11))

(سورة محمد)

تصوَّروا ابن في كنف أبٍ كبير، عالِم، غني، مُرَبٍّ، أحسن تنشئته، اعتنى بأخلاقه، اعتنى بدينه، اعتنى بصحته، اعتنى بطعامه، اعتنى بهندامه، اعتنى بشهاداته، اعتنى بمكانته، راقب تصرُّفاته، ضبط حركاته وسكناته حتى صار إنساناً ألمعياً، وهناك شاب بلا تربية، يمضي وقته بأماكن اللهو، بأماكن القِمار، متَّهم بالسرقة، متهم بالزنى، مودع بالسجن، هذا إنسان من دون مربّ ٍ، المؤمن يرعاه الله ويربيه، عنده قرآن يربِّيه، عنده جامع يربيه، تجد المؤمن متميِّزاً، عنده حياء، عنده خجل، في ملابسه حياء، بحركاته وسكناته، مزحه لطيف جداً، نظراته أديبة، كلامه مضبوط، عنده خوف من الله، عنده وفاء بالوعد، عنده رحمة في قلبه، عنده إنصاف، تجد كماله صارخاً:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11))

(سورة محمد)

الكافر إنسان كالدابة المنفلتة، يتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام، أما المؤمن فهو إنسان راقٍ مُعلّق قلبه وبصره بربه:

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ (25))

معانٍ مستفادة من الآية التالية :

لولا أن الله منَّ علينا في الدنيا فعرفناه، وطلبنا العلم، واستقمنا على أمره، وغضّضنا من أبصارنا، وأقمنا الصلوات، وحججنا، وزكينا، وربينا أولادنا، وحجَّبنا بناتنا، وجعلنا بيتنا إسلامياً، وعملنا إسلامياً، ودخلنا حلالاً، وإنفاقنا صحيحاً، وتوخّينا العمل الصالح لما وجدنا هنا، الآن انظر إلى

شخص يحمل شهادة عُليا، بعدما تعب ثلاثاً وثلاثين سنة، إذا جلست معه يقول لك: والله تعبنا كثيراً، والله جاءت أيام لم ننم الليل، كان عندنا أساتذة شديدو القبضة علينا، تجده يفتخر ويشعر بنشوة أنه تجاوز عقبات كبيرة جداً، فأهل الجنة في الجنة، قال تعالى:

(كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ (25))

المعنى الأول: لولا أنَّ الله منَّ علينا في الدنيا، وتعرَّفنا إليه، وكلفنا بعض الشدائد مما حَمَلنا على التوبة، فجمعنا مع أهل الحق، وأخذ بنواصينا إلى أن نعمل أعمالاً صالحة، قرَّبنا، تجلَّى علينا، ملأ قلوبنا نوراً، ملأ قلوبنا حبوراً، ملأ قلوبنا محبة له، حبب إلينا الإيمان وزيَّنه في قلوبنا، كرَّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، لولا فضل الله علينا ما كنا في هذه الجنة.

المعنى الثاني: إذا أمسكت تفاحة في الجنة، هذه تفاحة، لكن عندما أكلتها فليس هناك نسبة، وليس لها علاقة بتفاح الدنيا إطلاقاً، طعم آخر أطيب بكثير، العلاقة بينهما الشكل والاسم فقط، ليس من فواكه الجنة في الدنيا إلا الاسم والشكل:

(كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً (25))

أي أن التشابه بالشكل والاسم، أما الطعم فلا نسبة بينهما بل المقارنة مرفوضة، أنت تشرب أحياناً كأساً من الشراب المصنع والمصنوع، ونشرب شراباً طبيعياً طازجاً مئة بالمئة، فلا تجد بينهما أي نسبة، أين الثرى من الثُّريا ؟ الاسم واحد ولكنك تجد أن الشراب الكيماوي كيماوي، والشراب الطبيعي لا يُقدَّر بثمن وهذا في الدنيا، فكيف في الجنة ؟ هذا المعنى الثاني.

الذي يزهد في الجنة ويعيش للدنيا فقط إنما هو إنسان أحمق :

قال تعالى:

(قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ (25))

لا يوجد نَكَد، ولا يوجد تَرَهُّل، ولا يوجد مرض، هناك متاعب عديدة عند النساء في الدنيا، أما في الجنة فلا، هن طاهرات ومطهرات، لا حيض، ولا نفاس، ولا نشوز، ولا زوجة حاقدة، ولا زوجة لئيمة، انتفى كل ذلك أبداً، والزوجة يزينها كمال وجمال منّة من الله تعالى:

(وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25))

هذه هي الجنة، وطريقها واضح، وهي بعد الموت، فالذي يزهد في الجنة ويعيش للدنيا فقط إنما هو إنسان أحمق:

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25))

الذين أحبَّهم الله عزّ وجل جعل دنياهم كفافاً:

قد ينتقي الواحد زوجته وتكون من الدرجة الأولى، ولكنها كبرت بعد الخمسينات، اختلفت، تجد أن أكثر النساء مصابات بعلل مرضيـة كثيرة، وتنوعت مشكلات الحياة لدى الزوجين، شاءت حكمة الله عزّ وجل أن تكون الحياة متعبة لأننا خُلِقنا للجنة، فإذا كانت الحياة مريحة جداً كرهنا لقاء الله عزّ وجل، إذا كانت الحياة مريحة جداً وكل شيء كاملٌ فيها زهد الناس عندئذٍ عن الآخرة، وكانوا ممن يشملهم قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7))

(سورة يونس)

لذلك الدنيا العريضة خطر كبير جداً، هؤلاء الذين أحبَّهم الله عزّ وجل جعل دنياهم كفافاً، قال عليه الصلاة والسلام:

((اللهم من أحبني فاجعل رزقه قوتاً ـ كفافاً))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

الإنسان ينبغي أن لا يطلب الكمال في الدنيا، ولكنه يجب أن يطلب الستر والكفاف في الدنيا والكمال في الآخرة، كل شيء في الآخرة كامل، الآخرة مبنية على أن لك ما تشاء، أيُّ خاطرٍ يخطر على بالك تراه واقعاً أمامك، إنه نعيم الجنة الذي لا يُداني قال تعالى:

(قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23))

(سورة الحاقة)

أي أكلها دائمٌ وظلها، فواكهها:

(لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (33))

(سورة الواقعة)

الجنة كما وصفها الله عزّ وجل في القرآن الكريم :

في الجنة أنهار من عسل، من لبن، من عسل مُصَفَّى، من لبن لم يتغيَّر طعمه:

(مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ(15))

(سورة محمد: آية " 15 ")

وقال:

(مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ (15))

(سورة محمد: آية " 15 ")

الماء غير آسن، واللبن لم يتغير طعمه، والعسل مصفّى، والخمر لذةٍ للشاربين:

(وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23))

(سورة الواقعة)

هذه هي الجنة كما وصفها الله عزّ وجل في القرآن الكريم، هي للمؤمنين، والطريق لها سالك غير صعب، شروطها غير تعجيزية، أحياناً يكون هناك شيءٌ عظيم لكن شرطه تعجيزي فوق طاقتك تزهد به، لكن الجنة ليست كذلك، بل يكفي أن تعرف الله حقاً، وأن تطيعه صدقاً، وأن تؤدِّي واجباتك تِجَاهه كاملة، فأنت إذاً من أهل الجنة، في الدرس القادم إن شاء الله:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا (26))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (14- 95):تفسير الآية 26، آية الله في خلقه
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-09-25

بسم الله الرحمن الرحيم

كلّما صغر الشيء احتاج إلى صنعةٍ بارعة :

مع الآية السادسة والعشرين وهي قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26))

أيها الأخوة الكرام، تعارف الناس على أن البعوضة لا قيمة لها، حشرةٌ حقيرة، يضربها الإنسان ويقتلها ولا شيء عليه، كما يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عن سهل بن سعد]

يبدو أن هذه الحشرة هيِّنةٌ على الناس، لكن الشيء الذي يلفت النظر هو أن الشيء كلما صَغُر كلما احتاج إلى صنعةٍ بارعة، فقد تجد مذياعاً كبيراً فلا يثير دهشتك، أما إن رأيته صغيراً فإنه يستأثر باهتمامك، وأما إن رأيت ساعةً فيها مِذياع فإنك تزداد اهتماماً وانتباهاً، وتدرك أن فيها دقة صُنع. أطلعني أخٌ كريم على جهاز كمبيوتر بحجم كف اليد فيه كل البرامج التي توضع في الكبير، وفيه اتصال دولي، وفيه إنترنت ـ شيء لا يُصدق ـ بحجمٍ صغير، فكلّما صغرت الآلة كان وراءها صنعة بارعة، هناك أحياناً آلات تصوير تُثبَّت في قدّاحة وتستخدم لأغراضٍ خاصَّة ؛ كآلة تصوير فقط، وأحياناً آلة تصوير متحركة، وقد تكون قطعة كحبة العدس تُلتقط بها الأصوات وتُسَجَّل، فكلّما صغر الشيء احتاج إلى صنعةٍ بارعة وأثار الاهتمام.

الإعجاز في خلق البعوضة:

توصل أحد العلماء قبل أشهر عديدة إلى جهاز يقيس عشرة مرفوعة إلى قوة خمسة عشر من أجزاء الثانية، أي رقم واحد أمامه خمسة عشر صفراً، أي ألف مليون مليون جزء من الثانية، هذه هي الثانية ضربة واحدة، هل بإمكان إنسان أن يَصِل إلى تقسيم ثانية إلى ألف مليون مليون جزء ؟ أُعطي هذا الإنسان في جامعة في أمريكا الجائزة الأولى، يمكن أن يقاس الآن بهذا الجهاز زمن تفكك الذرة، وهناك تطبيقات كثيرة جداً، كلّما دَق الأمر كلّما ظهر من خلاله عظمة الصانع، طبعاً

الفيل كبير، والحوت الأزرق كبير يبلغ وزنه مئة وخمسين طناً، يحوي خمسين طناً لحماً، وخمسين طناً دهناً، ويستخرج من الحوت ما يقدر بتسعين برميلاً زيت سمك، وجبة غذائِهِ أربعة أطنان، وإرضاع صغيره ثلاثمئة كيلو في كل رضعة، هذا شيءٌ ضخم، أما حينما ترى نملة ؛ فيها دماغ، وفيها ذاكرة، وفيها جهاز هَضم، وفيها جهاز إفراز، وفيها جهاز مَعرفة، وفيها جهاز شمّ، لها نشاطات مخيفة، حينما ترى نحلة صغيرة، حينما ترى بعوضة، فما عليك إلا أن تلوذ بقوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً (26))

البعوضة أيها الأخوة لها ثلاثة قلوب، قلبٌ مركزي وقلبٌ لكل جناح، هذا القلب يُمِدُّ الجناح بطاقةٍ تجعله يرفُّ أربعة آلاف رفةٍ في الثانية، هذه البعوضة عندها جهاز رادار، ففي ظُلمة الليل ينام طفلان على سريرهما تتجه البعوضة إلى الطفل مباشرةً دون أن تتجه إلى وسادة أو إلى ركن في الغرفة، الآن لديها جهاز رادار يكشف لها الكائن الحي فإذا وصلت إليه حلّلت دمه، هناك دمٌ لا يُناسبها، قد ينام أخوان على سرير واحد، يفيق أحدهما، وقد أُصيب بمئات لدغات البعوض، والثاني سليم، إذاً عندها جهاز تحليل دم، تأخذ الدم الذي يناسبها، وتدع الذي لا يناسبها، والبعوضة من أجل أن تأخذ هذا الدم لا بد أن تميِّعه لأن الكرية الحمراء أوسع من خرطوم البعوضة، فلا بد من أن تميع الدم حتى يجري في خرطومها، فإذا لدغت البعوضة هذا الطفل استيقظ وقتلها فلا بدّ أن تخدره، متى يشعر الإنسان بلدغ البعوضة ؟ بعد أن تطير، يضربها من دون فائدة لأنها تكون قد طارت، فهذه البعوضة الصغيرة فيها جهاز رادار، وجهاز تحليل، وجهاز تمييع، وجهاز تخدير، ولها جناحان يرفَّان أربعة آلاف رفَّة في الثانية، ولها ثلاثة قلوب ؛ قلبٌ مركّزي، وقلبٌ لكل جناح، وبإمكان البعوضة أن تقف على سطحٍ أملس عن طريق محاجم كالمِشْجَب الذي يثبت على البلور بتفريغ الهواء، تضغط البعوضة المحجم فيتفرغ الهواء فيثبت، وللبعوضة مخالب أيضاً.

طيران الطائر واتجاهه نحو هدفه عُزِيَ إلى الله مباشرةً:

أجرى بعض علماء الطيران مقارنة بين أعظم طائرة صنعها الإنسان وبين البعوضة في المناورة، فكانت قدرات البعوضة والذبابة أعلى من أي طائرة صنعت، لاحظ الذبابة في أثناء طيرانها بسرعة عالية تأخذ زاوية قائمة فجأةً، وقد ترجع فجأةً، وقد تصعد إلى عَلٍ فجأةً، وبإمكان الذبابة أن تَحُطَّ على السقف، تضع أرجلها على السقف فتثبُت، وعندها قدرة على المناورة تفوق أعظم طائرة صنعها الإنسان.

قرأت ذات مرة في موسوعة علميَّة عن الطيران، موسوعة مترجمة من دار علوم مُحترمة جداً في أمريكا، كُتِبَ على أول صفحة في هذه الموسوعة: إنَّ أعظم طائرة صنعها الإنسان لا ترتقي إلى مستوى الطائر، يطير الطائر أحياناً مسافة تقدر بست وثمانين ساعة بلا توقُّف، يقطع الطائر من شمال الكرة الأرضية إلى جنوبها تقريباً سبعة عشر ألف كيلو متر، يُهاجر صيفاً وشتاءً، يهتدي

الطائر إلى هدفه بشكلٍ غير معروف حتى الآن، وضِعَت عشرات النظريات لتفسير اتجاه الطائر نحو هدفه ؛ تفسير الجاذبية، تفسير الشمس، تفسير التضاريس ،وكل هذه التفاسير حارت ولم تقف على قدمين، لذلك قال تعالى:

(مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ (19))

(سورة الملك)

عُزِيَ طيران الطائر واتجاهه نحو هدفه إلى الله مباشرةً، فلا توجد نظرية صمدت، قد يؤخذ الطائر قبل أن يرى النور من لندن أو من بريطانيا ويُرْسَل إلى الصين، واتجاه الطيور في الرحلات كلّها شمال جنوب، جنوب شمال، فهذا الطائر الذي لم ير النور يطير من الصين إلى بريطانيا، الطائر الذي غادر عُشَّه مثلاً في دمشق وانتقل إلى جنوب إفريقيا، لو تغيَّرت الزاوية في طريق العودة درجة واحدة لجاء في بغداد، درجة نحو اليسار لجاء في القاهرة، يصل إلى دمشق وإلى حي الصالحية، وإلى بيتٍ في أحد أحياء حي الصالحية إلى عشه، ما هذه القدرة ؟

(مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ (19))

(سورة الملك)

البعوضة هينة على الناس ولكن فيها من الأجهزة ومن دقَّة الصُنع ما لا يُوصَف:

أيها الأخوة، كلّما صغر الجسم عظمت دقة الصنعة فيه، الآن فيروس الإيدز يتحدى العالَم كلّه، لم يستطع الإنسان بكبريائه، بجبروته، بتقدُّمه العلمي، بإنفاقه المذهل على البحوث العلمية أن يصل إلى مصل مضاد للإيدز، مع أن هذا الفيروس أضعف فيروس على الإطلاق، يموت إذا خرج من الإنسان على بعد عشرة سنتيمترات، لكنه إذا دخل الجسم يدخلـه بثيابٍ مموَّهة، يدخله بشكل الكرية البيضاء فلا أحد يُعاكسه، فإذا تمكَّن التهم كل الكريات البيضاء، قد يُبذل ألف مليون دولار لتطوير أبحاث للوصول إلى مصل مضاد لهذا الفيروس، ولكنه يُغَيِّر شكله فتذهب كل هذه الأموال أدراج الرياح، وله سُلالات، وقد شاءت حكمة الله أن يكون هذا المرض عقاباً لا ابتلاءً، بقدر ما هو خطير ومميت بقدر ما تكون الوقاية منه سهلة، يكفي أن تستقيم وانتهى الأمر، انتهى المرض.

هذه الآية أيها الأخوة التي تتحدث عن البعوضة، على صغرها وضآلة شأنها وهوانها على الناس، فلو قتل الإنسان خطأً هرَّةً في الطريق بسيَّارته فإنه يضطرب ويتألَّم، يقول: لعلّي أخطأت، لعلّي تساهلت، لعلّي لم أكن منتبهاً، يا ترى هل الله سيُحاسبني ؟ هل أدفع مبلغاً من المال صدقة ؟ أما إذا قتل بعوضة فهو لا يشعر بشيء أبداً، وكأنه لم يفعل شيئاً أبداً لهوانها على الناس، ومع أن هذه البعوضة هينة على الناس، فإن فيها من الأجهزة، وفيها من دقَّة الصُنع والإبداع ما لا يُوصَف، تذكرنا هذه البعوضة بقوله تعالى:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ (3))

(سورة الملك)

ليس التفاوت هنا في الصنعة، فهناك مثلاً شركة تصنع مُعِدَّات منزلية والشركة نفسها تصنع معدات صناعية، المُعدات المنزلية استعمالها قليل جداً، لذلك معدنها رخيص وأجهزتها بسيطة، أما المُعدات الصناعية فهي غالية جداً لأنها مصمَّمة أن تعمل ليلاً ونهاراً.

صنعة الله متقنة لا تفاوت فيها :

المعمل يصنع مادَّة مُعتنى بها كثيراً، ومادَّة مُعتنى بها قليلاً، أما لو دققت في صنعة الله عزّ وجل فإنك لا تجد صنعةً متقنة وصنعةً أقلّ إتقاناً:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ (3))

(سورة الملك)

التفاوت في الحجم قائم، هناك بعوضة، وهناك فيل، ولكن ليس هناك من تفاوتٍ إطلاقاً في إتقان الصنعة.

أيها الأخوة الكرام، المؤمن كل شيءٍ يدلُّه على الله، نحن أمام موضوع دقيق جداً، إنَّك إن أردت أن تعرف الله فكل شيءٍ يدلُّك عليه، وإن لم ترد أن تعرفه فإنك لو التقيت مع سيد الأنبياء ورأيته رأي العين، وجلست إليه، وحادثته، لما قنعت، ولما آمنت، لو رأيت منجزات العلم كلّها الآن، لو ذهبت إلى أكبر مرصد الآن في العالم لحار عقلك.

زارنا أخ اليوم مختص بالفلك في أمريكا، حَدَّثنا شيئاً لا يُصدَّق ؛ يبلغ طول ألسنة اللهب لبعض الشموس مئة وخمسين ألف سنة ضوئية، توجد شموس تزيد عن حجم شمسنا اثنين فاصلة اثنين بليون (2.2بليون) مرَّة عن حجم شمسِنا، ذكر أرقاماً لا تُصدق، فقلت: سبحان الله أهذا الإله العظيم يُعصى ؟

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (28))

(سورة فاطر: آية " 28 ")

إن نجم قلب العقرب يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، وهناك أكثر من مليون مليون مجرة، ومعنى مجرَّة أي فيها قريب من مليون كوكب، ومجرتنا درب التبّانة صغيرة جداً جداً بالنسبة لغيرها من المجرات، ومع ذلك حين نقرأ عنها تهولنا المعلومات التي تطالعنا.

صنع الله متقن في أكبر شيءٍ صنعه وفي أصغر شيءٍ صنعه :

أيها الأخوة الكرام، صنع الله متقن في أكبر شيءٍ صنعه، وفي أصغر شيءٍ صنعه، بل إنَّ قوله تعالى:

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33))

(سورة الأنبياء: آية " 33 ")

هذه تشمل الذرَّة والمجرَّة، هناك كهارب في الذرة تسبح حول النواة، وفي المجرَّات هناك كُتَل كبيرة جداً تسبح حول مركزها بسرعة قريبة من سرعة الضوء.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا (26))

قال العلماء:

(فَمَا فَوْقَهَا)

أي فما أصغر منها، فوقها في الصِغَر، البعوضة تراها بالعين، ولكن هناك كائنات كالجراثيم لا تراها، والفيروسات أصغر، الحشرات تراها، أما الجراثيم فلا تراها، الجرثومة هي أصل كل الأمراض، إنك لا ترى الجراثيم التي هي أصل المرض، ولكنك ترى فعلها، الفيروس أصغر من الجرثوم، الآن بعد اختراع المجاهر الإلكترونية، فإن المجهر يكبر أحياناً مئتي مرَّة، وهناك مجهر يكبّر أربعين ألف مرَّة، حينما يُكَبَّر الجلد تجد أنه كالغابة فيها تلال ووديان، وسهول وهضاب ، وأشجار هي الشعر، إذا كبَّرنا نقطة من الجلد، إذا كبَّرنا نقطة من غِشاء المعدة، من جدار المعدة، إذا كبَّرنا نقطة من الدماغ، فإن الشيء الذي تراه شيءٌ لا يُصدق أبداً، الآن توجد صور لهذا المِجهر الإلكتروني، إنك تشاهد بواسطته فتبدو لك الخلية.

الخلية بناء قائم بذاته، عالَم قائم بذاته، والخلية لا تُرى بالعين، لذلك كلَّما صغر الشيء احتاج إلى صنعةٍ عاليةٍ جداً، لهذا قال الله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

(سورة الحاقة)

الذي لا تبصره أضعاف الذي تبصره، فأنت إذا أمسكت بكأس ماء ماذا تبصر ؟ تبصر ماء صافياً، ماء عذباً، فراتاً، نقياً، شفّافاً، لو صوَّرت هذا الماء تحت المجهر لرأيت فيه من الكائنات الحيَّة ما لا يُحصى، هذا الذي لا تُبصره.

عظمة الله في خلقه :

أيها الأخوة، أراد الله سبحانه وتعالى من هذا المثل أن يلفت نظرنا إلى أن هذه الحشرات التي لا شأن لها عندكم، وهي مخلوقاتٌ عظيمةٌ جداً، فليس هناك من حرجٍ أن يضربها الله مثلاً، لكن أريد أن أُثبِّت هذه الحقيقة إن لم يرد الإنسان أن يعرف الحقيقة فهو لا يصل إليها، ولو كان إنساناً ذكياً

جداً، ويحمل أعلى شهادة في الأرض، يعمل في الكيمياء، يعمل في الطبيعيات، يعمل في أبحاث الفَلك ويرى بالمراصد الشيء الذي لا يُعقل، ثم يتعامى عما يرى أحياناً، قد يرى الإنسان في ليلة مظلمة شيئاً كالغبار في السماء، هذا الغبار هو المجرَّة، ملايين الملايين من الكواكب يرى على شكل غبار، فليس كل شيء لا تراه غير موجود، أي إنَّ عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، أنت ماذا ترى ؟ ترى الشمس تدور بينما هي ثابتة بالنسبة إليك، أنت الذي تدور، الشمس تدور حول نقطة، الله قال:

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33))

(سورة الأنبياء: آية " 33 ")

كم تحتاج الشمس من زمن لتُتِمَّ دورتها ؟ تحتاج الشمس لمئتي مليون سنة من أجل أن تدور دورة حول كوكبٍ ما، فالحقيقة نحن في كونٍ لا تتناهى أبعاده، ذكرت قبل قليل ما هذا الرقم ؟ شيء مذهل حقاً ! مجرَّة تبعد عنّا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، هذه عظمة الله، ولو وصلت إلى كُنهِ هذه البعوضة وأقل من البعوضة أي إلى الجرثوم، وأقل من الجرثوم إلى الفيروس لوجدت العجب العُجاب.

كل ما في الكون يدل الإنسان على الحقيقة :

على كلٍ كلّما تناهت الأشياء في الصغر تحتاج إلى صانعٍ متقن، فيها صنعةٌ دقيقة، والأشياء الصغيرة غالّية جداً، توجد أجهزة تسجيل صغيرة، أجهزة راديو صغيرة أسعارها مرتفعة جداً، حتى أنت قد تجد كمبيوتراً كبيراً، شاشة كبيرة، وجسماً للكمبيوتر، وأحياناً تجد كمبيوتراً يوضع كله في محفظة، وأحياناً بحجم كفِّ اليد، كلّما صغر الجهاز رأيت صنعة غاية في الإتقان، هذا هو مغزى هذه الآية:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا (26))

(فَمَا فَوْقَهَا)

أي فما أصغر منها، بل فما فوقها في الصغر حسبما قال العلماء، قال تعالى :

(فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ (26))

هنا إذا أراد الإنسان معرفةَ الحقيقة دلّه عليها كل شيء، وإذا أعرض عن الحقيقة فإنه لو مكث في أعظم مرصد في أمريكا عمره كله، ولو دخل إلى أدق مخبر في العلوم الطبيعية ؛ رأى الخليّة، رأى النُسُج الحيّة، رأى تفاعل المواد، لو أُتيحت كل المعلومات بين يديه فإنه لا يؤمن، وأدق مثل لذلك: آلة تصوير بسيطة جداً ورخيصة جداً، إذا أراد صاحبها أن يستخدمها ووضع فيها الفيلم فإنه يلتقط المناظر التي أمامها، والذي يرفض الحقيقة كإنسان معه آلة ثمنها مليون ليرة ولكنها دون فيلم، هو إنسان مثقف ثقافة عالية جداً، ولكنه لم يرد الحقيقة، بين يديه معلومات مذهلة، بين يديه آيات يقشعر

منها الجلد ومع ذلك لا يستفيد منها شيئاً، فالعبرة: أنك أنت إذا أردت الحقيقة وصلت إليها، وإن لم تردها فعليك إثم نفسك!!

خلق الله الإنسان مخيراً ولأنه مخير فإن كل شيءٍ في الكون مصممٌ ليكون حيادياً:

بعوضة ؛ يسمع هذه الكلمة إنسان فاسق فيقول:

(مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً (26))

يقول ساخراً أهذا قرآن !!! ؟ هكذا قال الكفَّار: الإله العظيم يذكر بعوضة ؟ يذكر ذبابة ؟ يذكر العنكبوت، هل من المعقول أن يذكر إنسان عظيم هذا في كلامه ؟

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً (26))

قيل: كل شيء في الكون حيادي:

(يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً (26))

آية واحدة يرفضها إنسان ويهتدي بها إنسان، آيةٌ واحدة يذوب إنسان خشوعاً لله من خلالها وإنسان آخر يستهزئ بها، خلقك الله مخيراً ولأنك مخير فإن كل شيءٍ في الكون مصممٌ ليكون حيادياً، يُستخدم سُلماً ترقى به، أو دركاتٍ تهوي بها:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ (26))

ما هو الحق ؟ الحق خلاف الباطل، ما هو الباطل ؟ الباطل زهوق زائل، والباطل عابث.

تناقض الحق مع الباطل و العبث:

قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (38))

(سورة الدخان)

وقال:

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (3))

(سورة الأحقاف: آية " 3 ")

ربنا عزّ وجل نفى أن يكون خلق السماوات والأرض باطلاً، الباطل الشيء الزائل، ونفى أن يكون خلق السماوات والأرض عبثاً، فالعبث الشيء غير الهادف، ولكن الله جلَّ جلاله خلقهما بالحق، فالحق يتناقض مع الباطل ويتناقض مع العبث، فالحق لا عبَث فيه ولا بطلان، الشيء الثابت الهادف، إذا قلنا:

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (3))

(سورة الأحقاف: آية " 3 ")

أي لابس الحق خلق السماوات والأرض، أحياناً إذا أنشأنا جناحاً في المعرض لمدة أسبوعين فإننا نضعه من القماش، أما حينما ننشئ جامعة فإننا ننشئها من حجر، هذه الجامعة أُنشئت لتبقى، أما هذا الجناح في المعرض أنشئ ليُهدم بعد أسبوعين، فكلمة بالحق أي أن الله عزّ وجل خلق الكون ليبقى، قال:

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (3))

(سورة العنكبوت)

النفس تذوق الموت ولا تموت، وفرقٌ كبير بين أن تذوق النفس الموت وبين أن تموت، النفس تَخْلُدُ إما في جنةٍ يدوم نعيمها أو في نارٍ لا ينفد عذابها.

النمل والنحل من آيات الله الدالة على عظمته:

صارت القضية: هل تريد الحقيقة ؟ إذاً كل شيءٍ يدلّك على الله حتى البعوضة، حتى الذبابة، حتى النملة، النمل مثلاً يعمل دائماً أعمالاً عدة متنوعة، وهو في أدبه أعجوبة تكاد لا تُصدق، النمل يزرع، النمل يربِّي المواشي، النمل يُنشئ صوامع الحبوب، يقيم الجسور، يَشُقُّ الطُرُقات، النمل يُعلِّم، عنده قِطاع تعليم، النمل يخزّن، النمل يعالج المرضى، وعند النمل مكتب لدفن الموتى، تُسحب النملة الميتة وتُدفَن، وعند النمل كذلك جيش يحرس الملكة، ويردُّ العدوان، هناك نمل رُحَّل يتنقل من مكانٍ إلى مكان، ونمل يعيش في بيوت ثابتة، وهناك نمل يعيش على العمل، ونمل يعيش على الغزو، وهناك شيء في النمل لا يُصدق، النملة عندها جهاز ضخ وجهاز مص فإذا لقيت نملة جائعة وضعت فمها في فمِها وضخت لها من خلاصة غذائها، يوجد عند الإنسان مص فقط وليس عنده ضخ أما النمل فعنده جهاز مص وجهاز ضخ، والله هناك شيءٌ عن النمل يكاد لا يُصدَّق، إذا رأت النملة أنها في خطر فإنها ترسل إشارة كيماوية إلى من حولها، إذا كان موتها محقَّقاً ترسل إشارة تحذير ؛ ابتعدوا عن المجزرة، وإذا كانت نجاتها محققة ترسل إشارة استغاثة ؛ تعالوا إلي أنقذوني، والله عزّ وجل أثبت لها الكلام، وأثبت لها المعرفة:

(قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18))

(سورة النمل)

النملة اجتماعية، إذا وضعت النملة في بيت فيه طعام وشراب بشكل كامل لوحدها، فإنها تموت بعد عشرين يوماً وحشة، هناك نظام دقيق جداً للنمل، قال تعالى:

(أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ (38))

(سورة الأنعام: آية " 38 ")

النحلة ترقص رقصة لتُحدد مكان الأزهار والمسافة والجهة، وهناك رقصة ثانية للكثافة والجهة، والمسافة برقصة، والكثافة برقصة.

من يتخذ قراراً بالإيمان فكل ما في الكون يدله على الله :

أيها الأخوة، يوجد في هذه الآية موضوع خطير جداً، يقول الله عزّ وجل:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً (26))

قف معي أمام مثلٍ واحد، آية كونية، حشرة، حيوان، نبات، هذه الآية يؤمن أناس بالله من خلالها وأناس غيرهم يستهزئون بها، بين أن تؤمن وبين أن تستهزئ مسافة كبيرة جداً، جداً كبيرة، فما السر في ذلك ؟ لماذا قرأ فلان عن البعوضة فبكى خشوعاً لله، وسمع إنسان هذه الآية فاستهزأ ؟

(مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً (26))

أحياناً تتكلّم بكلام أمام جمع يؤيدك إنسان ويعترض إنسان عليك، إنسان يقبل وإنسان يرفض، ما سرُّ ذلك ؟ الجواب هنا:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ (26))

ما معنى آمنوا ؟ أي اتخذوا قراراً بالإيمان، أرادوا الحقيقة، فإن أردت الحقيقة فكل شيءٍ يدلّك على الله.

من لم يرد الحقيقة فإنه يستهزئ بها:

قال تعالى:

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا (26))

أي أعرضوا عن طلب الحقيقة، لا يريدون الحقيقة بل يريدون الشهوة:

(فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً (26))

اجلس مع إنسان طالب للحقيقة وحدّثه عن المجرّات فإنه يبكي، بينما يقول لك إنسان آخر: كم ثمن الدولار اليوم ؟ هذا الموضوع كلّه ليس له علاقة به، ما يهمه هو سعر العملات، البيوت والسيارات، التجارة والربح، الشهوات والمقاصف، فكل إنسان له وجهة هو موليها، الذي أراد الحقيقة فإن كل شيء يدلّه على الله، والذي لم يردها فإنه يستهزئ بها:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً (26))

والحقيقة واضحة مشرقة.

قبولك للحق أو رفضك له متعلق باستقامتك :

الشيء الواحد قد يؤدي إلى ضلال من يضل وهداية من يهتدي، قال تعالى :

(يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً (26))

هل التغيُّر حاصل من الشيء أم من الإنسان ؟ ليس من الشيء لأن الشيء واحد ؛ بعوضة، إنسان ازدادت معرفته بالله من خلالها وإنسان استهزأ بها، والبعوضة هي هِي، معنى هذا أن التبدُّل ليس من البعوضة، ولكن مِنَ الذي ينظر إليها:

(وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26))

حينما يَفْسُق الإنسان لا يحب الحقيقة، حينما يفسق يرُدُّ الحق، حينما يفسق يستهزئ بالآيات، حينما يفسق يشمئزُّ إذا ذُكِر الله وحده، حينما يفسق تأخذه العزة بالإثم، فعندنا معنى خطير جداً، قبولك للحق أو رفضك له متعلق باستقامتك، لأن غير المستقيم يدافع عن انحرافه، وغير المستقيم اختل توازنه، فكيف يستعيده ؟ يقول: هؤلاء الديِّنون على خطأٍ عظيم ظناً من أن ذلك يجعله يتوازن، دائماً وأبداً يطعن المُنحرف بالمستقيم حتى يرتاح، لا يرتاح إلا إذا طعن بالمستقيم، الكافر يطعن بالمؤمن حتى يتوازن، فلذلك الشيء واحد آية واحدة ؛ الشمس، القمر، الليل، النهار، الفيل، الحوت، البعوضة، النملة، الذبابة، العَنكبوت، هل تُصدِّق أن العنكبوت تنسُج خيطاً لو سُحِب الفولاذ بقطر هذا الخَيط لكان خيط العنكبوت أمتن من الفولاذ ؟ وأوهن بيتٍ لبيت العنكبوت، فالضعف التي أشارت إليه الآية اجتماعي لوجود خلاف عميق جداً بين الزوجين فبيت العنكبوت ضعيف لأن فيه انهياراً داخلياً، وأما خيط العنكبوت فهو متين جداً.

الذي يريد ألا يسمع هو أشد الناس صمَماً :

أيها الأخوة، آيةٌ واحدة يطير المؤمن إلى الله بها، يذوب خشوعاً بها، وإنسان آخر يستهزئ، التفسير: إن أردت الحقيقة كل شيءٍ يدلّك عليها، وإن رفضتها فإنك لو رأيت الآيات كلّها وجهاً لوجه فإنك لن تستفيد، أليس هناك أناس عاشوا مع النبي ؟ هل هناك في البشرية كلّها إنسانٌ أعظم من النبي ؛ من خلقه، فصاحته، علمه، أدبه، أخلاقه، نورانيته، ومع ذلك هناك من عاداه، وهناك من كرهه، وهناك من قاتله، فصار هناك معركة أزليه أبدية بين الحق والباطل، اذكر للكافر آية كونية يقول لك: الآن لا تُضيع وقتك، شيء واضح تماماً إذا كنت متحمّساً لآية كونية، متحمّساً لقضية دينية، متحمِّساً لعمل إسلامي كبير فإنه لا يلقى عند الكافر إلا السُخرية والاستهزاء، ولكنه يلقى عند المؤمن التعظيم والإكبار والعمل واحد، فصار التحوُّل وتناقض المواقف ليس من الشيء بل من الإنسان، إن أردت الحقيقة عرفتها، وأعانك عليها كل شيء، وإن رفضتها ما من حقيقةٍ يمكن أن تقنعك عندئذٍ.

يقول أحد الحكماء: **" لم أجد أشد صمماً من الذي يريد ألا يسمع "**، الذي يريد ألا يسمع أشد الناس صممَاً، فالكافر رفض الحقيقة، فإذا عرضت عليه آية كونية، مجرَّة، بحر، تيَّار الخليج، البرزخ بين البحرين فإنه يزداد سخرية واستهزاءً:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً (26))

عند المؤمن المستقيم استعداد لقبول الحق وعند الفاسق استعداد لقبول الباطل:

أما الشيء الخطير، والله أيها الأخوة افتتاح الآية بهذه الكلمة:

(وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26))

انظر، إن فَسَق الإنسان ردَّ الحق، وإن آمن قبل الحق، وجرِّب الجلوسَ مع إنسان أخلاقي مستقيم، وحدثه بحديث كتاب الله، تجد أنه قبل هذا الكلام، وأثنى عليك، وانهمرت دموعه، اجلس وكلِّم إنساناً فاسقاً، وشارباً الخمر، وزانٍ، فإنه يردُّ عليك رداً قاسياً، يسخر من هذا الكلام، معنى ذلك أن عند المؤمن المستقيم استعداد لقبول الحق، وعند الفاسق استعداد لقبول الباطل، فلو عرضت عليه الحق لرفَضَه، هذا الذي أقوله لكم تؤكِّده الآية الكريمة:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2))

(سورة الماعون)

وتؤكده الآية الثانية:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ (50))

(سورة القصص: آية " 50 ")

وتؤكده الآية الثالثة:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْداً إِذَا صَلَّى (10))

(سورة العلق)

أين التتمة ؟ انتهت الآية، أي أرأيت إلى دناءته ؟ أرأيت إلى نقض عهده ؟ أرأيت إلى حبِّه لذاته ؟ إلى عجرفته ؟ إلى كبره ؟ سلوكه يكفي، لذلك الفاسق يرُدُّ الحق والمؤمن يقبله، الفاسق تتأبى نفسه أن يقبل الحقيقة.

من المهم أن تكون ذا هيئة حسنة دون أن تكون راداً للحق ولا مضطهداً للناس:

كان لأحد الصحابة مظهر حسن، فخاف على نفسه أن يكون مخطئاً، فقال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

((إِنَّهُ يُعْجِبُنِي أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي حَسَناً وَنَعْلِي حَسَنَةً، قالَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْجَمَالَ وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ بَطِرَ الْحَقَّ وغمس النَّاسَ))

[الترمذي عن عبد الله]

الكبر أن ترد الحق ، أن تكون أكبر من أن تُصَلّي، أكبر من أن تصوم، أن تكون أكبر من أن تكون عبداً لله، أن تستنكِف عن عبادة الله وتستكبر، هذا هو الكِبر، وأن تحتقر الناس، أما إنسان تعجبه الهيئة الحسنة يعجبه الثوب الأنيق فإنَّ هذا مطلوب، قال النبي صلى الله عليه وسلم:

((إِنَّكُمْ قادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ وَلِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا فِي النَّاسِ كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ))

[أحمد عن أبي الدرداء]

مطلوب إذاً أن تكون ذا هيئةٍ حسنة في مظهرك، لكن ليس مطلوباً أن تكون راداً للحق ولا مضطهداً للناس.

أيها الأخوة الكرام، هذه آية من آيات الله الدالة على عظمته، وأنا أرى أن في القرآن الكريم ألفاً وثلاثمئة آية كونية، ولا يليق بالله عزّ وجل أن يقول كلاماً لا معنى له، لماذا ذكر هذه الآيات ؟ تكاد تكون هذه الآيات سُدُسَ القرآن، كأن الله أرادنا أن نعرفه من خلال خلقه، فهذه البعوضة التي لا تُعجبك فيها هذه الأجهزة، وهذه الأعضاء، وهذه الخصائص، وهذه النملة التي تكاد ألا تراها لصغر حجمها، النملة فيها دماغ، فيها قلب، فيها جهاز هضم، كل شيء في هذه النملة على صِغَرها، وكلّما صغر الشيء كان وراءه صنعة أدق، وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله ننتقل إلى قوله تعالى:

(الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27))

بسم الله الرحمن الرحيم

كلَّما دقَّ الشيء في حجمه كلما عَظُمَت دقة صنعه:

مع الآية السابعة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27))

أيها الأخوة الكرام، هؤلاء الذين سَخِروا من آيات الله، سخروا من هذه البعوضة كيف يضربها الله مثلاً مع أنها مخلوقٌ حقير، يقتلها الإنسان ولا يشعر بشيء لأنها صغيرةٌ، لكن الحقيقة أن الشيء كلما كان صغيراً كانت به صنعة بارعة، كلَّما دقَّ الشيء في حجمه كلما عَظُمَت دقة صنعه، وذكرت في الدرس الماضي كيف أن لهذه البعوضة خرطوماً يمكن أن تغرسه في جلد الإنسان، ويمكن أن تغرسه في جدار الأوعية، والبعوضة تهتدي إلى ضحيتها عن طريق الرادار، ويمكن أن تفحص دم ضحيتها لأن هناك دمٌ يناسبها ودمٌ لا يناسبها، معنى ذلك أن للبعوضة خرطوماً يخترق جلد الإنسان ويدخل جدار الأوعية، وهي تهتدي إلى ضحيتها بالرادار، وعندها جهاز فحصٍ للدم، لتختار الدم الذي يناسبها، وعندها جهاز تخدير لئلا تُقتَل أثناء مَص ّ الدم، فالإنسان حينما تلدغه بعوضة يضربها، ولكنها تكون قد طارت في الجو، يعني أنه يشعر بها بعد أن يذهب فعل التخدير، وشيءٌ آخر نضيفه هو أن عندها جهازاً لتمييع الدم من أجل أن يسري الدم في خرطومها الدقيق جداً، ولها ثلاثة قلوب ؛ قلبٌ مركزي وقلبٌ لكل جناح، ويرفُّ جناحاها أربعة آلاف رفة في الثانية الواحدة، ولها أرجل على طريقتين إن وقفت على سطحٍ أملس فلها محاجم تثبت بها نفسها عن طريق الضغط وتفريغ الهواء، وإن وقفت على سطحٍ صُلب فلها مخالب تغرزها فيه فتثبت عليه.

لو علمنا دقة صنع البعوضة لسجدنا لله عزَّ وجل تعظيماً له:

هذه البعوضة التي ضرب النبي عليه الصلاة والسلام مثلاً بِضَعف شأنها:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عن سهل بن سعد]

لهذه البعوضة جهاز هضم، ولها جهاز دوران، ولها رأس، وفي الرأس بعض الحواس، كل هذه الحواس، وهذه الأجهزة، وهذه الأرجل، وهذا القلب والأوعية، وجهاز المَصْ، وجهاز الرادار،

وجهاز التمييع، وجهاز التخدير، وجهاز التحليل، وهذا الخرطوم الذي ينفذ في جدران الأوعية ويخترق الجلد، هذه البعوضة لو علمنا دقة صنعها لسجدنا لله عزَّ وجل تعظيماً له.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26))

الآية واحدة، وموضوعها البعوضة، لكن رد فعل المؤمن تعظيم الله، ورد فعل الكافر الاستخفاف والاستهزاء، إذاً حينما أراد المؤمن الحقيقة وأراد معرفة الله دلّه على الله كل شيء، الأقدام تدل على المسير، والبعر يدل على البعير، والماء يدل على الغدير، أفسماءٌ ذات أبراج وأرضٌ ذات فجاج ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟!!

العلاقة الرائعة بين السلوك وبين الاعتقاد:

قال تعالى:

(يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ (26))

من هو الذي يستخف بهذه البعوضة التي هي من آيات الله الدالة على عظمته ؟ إنه الفاسق:

(وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26))

هناك علاقة رائعة بين السلوك وبين الاعتقاد، الفاسق لا يعتقد والمؤمن يعتقد، الفاسق يسخر والمؤمن يُعَظِّم، معنى ذلك أن الإنسان حينما يفسُق يصبح منطقه تبريرياً تسويغياً، منطقه مقيداً بشهواته، لذلك إياك أن تناقش منتفعاً لأنه لا يقنع معك، فهو يدافع عن المكاسب التي حَصَّلها، هذا الذي ينتفع من الكفر لا يمكن أن يتخلّى عن الكفر لأنه ينتفع منه، منتفع، المنتفع لا يُناقَش، والغبي لا يُناقَش، والقوي المغتر بقوته لا يُناقَش، لذلك هم:

(وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26))

يريد أن يُغَطّي فسقه لأنه فاسق، يريد أن يعتقد اعتقاداً يتناسب مع فسقه، وأنسب اعتقاد للفاسق أنه ينفي وجود الآخرة، وأن هذه الحياة ليس بعدها حياة:

(إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (37))

(سورة المؤمنون)

الاعتقاد الذي يغطي الانحراف هو الإلحاد، فكلّما كان هناك انحرافٌ لا بدَّ من عقيدة فاسدة تغطّي هذا الانحراف.

الإنسان العاصي دائماً مختل توازنه فيستعيده بعقيدةٍ تسوِّغ له عمله:

المسلم الذي يتوسَّع ولا يستقيم على أمر الله أنسب عقيدة له أن يؤمن بالشفاعة إيماناً ساذجاً يردد: نحن أمة محمد، نحن أمة مرحومة، يوم القيامة يشفع لنا النبي عليه الصلاة والسلام ويقول: أمتي أمتي، ولا يقبل إلا أن يدخلنا الجنة جميعاً، هذه العقيدة الساذجة عند الفاسقين، مع أن الشفاعة حق وفيها نصوص صحيحة، لكن لها معنى فوق هذا المعنى، أما غير المسلمين فهم يعتقدون:

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80))

(سورة البقرة)

يؤمن الفسقة والمنحرفون والمُقَصِّرون والمتفلتون دائماً بعقائد تسوغ أعمالهم حتى يستعيدوا توازنهم، حينما يعصي الإنسان الله يختل توازنه، حينما يعصي الله تحاسبه فطرته، ينزعج، يضيق ذرعاً، توازن الإنسان العاصي دائماً مختل، كيف يستعيده ؟ يستعيده بعقيدةٍ تسوِّغ له عمله، لذلك حينما تأتي بعض الكتب مثلاً كتاب سُمي **" قراءة معاصرة للقرآن الكريم"**، هذا الكتاب الذي يسوِّغ السلوك الإباحي تحت غطاء من الدين، هذا الكتاب يروج جداً فيطبع طبعات كثيرة، عشر طبعات حتى الآن، لأنه مريح، يغطي فسق الإنسان وانحرافه بنصوص دينية، ولكن هذا لا ينطلي أمره على الإنسان المسلم الواعي.

حينما يختل توازن الإنسان فلديه طريقان لاسترجاع التوازن:

إخواننا الكرام، فكرة دقيقة جداً، فطرتك سليمة، حينما تعصي الله ـ لا سمح الله ولا قدَّر ـ يختل التوازن، حينما يختل هذا التوازن لديك طريقان لاسترجاع التوازن:

1ـ الطريق الأول الصحيح هو التوبة:

الطريق الأول الصحيح هو التوبة، تتوب إلى الله، تصطلح معه، تطبِّق منهجه، تستعيد توازنك وترتاح نفسك، هذا الطريق الطبيعي لاسترداد التوازن.

2ـ إن كان مصراً على هذه الشهوة فيحتاج إلى عقيدة زائغة تغطي انحرافه:

أما حينما يعصي الإنسان ربه فيتفلّت، يطلق بصره، يتوسَّع في المعصية، يقبل السلوك اليومي المعاصر، يقبل السلوك الإباحي ويستسيغه، فهو يحتاج الآن إما إلى توبةٍ نصوح يستعيد بها توازنه، أما إن كان مصراً على هذه الشهوة فيحتاج إلى عقيدة زائغة تغطي انحرافه، هو يتوهَّم أنه يفعل الشيء الصحيح، لذلك تجد الإنسان المبتلى بشرب الخمر مُصِراً على أن الله لم يحرِّم الخمر،

يقولون: نصحنا أن نجتنبه، ولكن اذكر لي آية تنص على شرب الخمر، هذا كلام مريح له جداً، لأنه مدمن خمر، فإذا اعتقد أن الخمرة حرام اختل توازنه، انكشف، أما حينما يعتقد أن الخمر رجس فاجتنبوه، وهذا أسلوب صريح بالتحريم، فيقلع عنها راضياً عندئذٍ، ويصغي بقلبه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90))

(سورة المائدة)

على الإنسان أن يترك بينه و بين المعصية هامش أمان:

مع أن كلمة اجتناب فيها أشد نوع من أنواع التحريم، فمثلاً تيار ثمانية آلاف فولت، أردنا أن ننصح الناس بالابتعاد عنه، هذا التيار له مساحة جذب تقدر بثمانية أمتار، إذا دخل الإنسان هذا الحرم يجذبه هذا التيار ويجعله فحماً أسوداً، فلو أن وزير الكهرباء أراد أن يضع إعلاناً تحذيرياً فهل يقول: " ممنوع مس التيار "، أم يقول: " ممنوع الاقتراب منه " ؟ يقول: "يمنع الاقتراب منه "، إذا كان ضمن مسافة ثمانية أمتار أصبح فحماً، فهذا الإعلان التحذيري لا يأمر بعدم المس ولكنه يأمر بعدم الاقتراب، وكذلك لا بدَّ من أن تدع بينك وبين هذا التيار هامش أمان، لو أن الله تعالى قال في الخمر: حُرِّمت الخمر عليكم، فيجوز بذلك أن تبيعها وأن تشتريها وأن تتاجر بها وأن تعصرها وأن تُعْلِن عنها، كل هذا يجوز لكن المنع أن تشربها فقط، أما حينما قال:

(فَاجْتَنِبُوهُ (90))

(سورة المائدة)

ثم أوضح رسول الله المزيد، فقال:

((لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الخمر وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه وساقيها وشاربها وآكل ثمنها.))

[ابن مردويه والحاكم والبيهقي عن عبد الله بن عمر]

من يزرع عنباً من أجل أن يبيع هذه المعصرة أو هذه الخمَّارة هذا كله ملعون إذاً:

(فَاجْتَنِبُوهُ (90))

(سورة المائدة)

اجتنبوه تعني أشد أنواع التحريم، اجتنبوه، أي أن هذه المعصية لها قوة جذب، فلا بدَّ من أن تدع بينك وبينها هامش أمان، كيف أن النهر العميق المخيف الذي ينذر من وقع فيه بالموت، لهذا النهر شاطئ مائل عليه حشيش مُبْتَل، وله شاطئ جاف مستوٍ، المشي على الشاطئ المائل المبتل الزَلِق فيه مخاطرة كبيرة جداً، ممنوع أن تمشي على هذا الشاطئ المائل الزلق لئلا تقع في النهر، ينبغي أن تمشي على الشاطئ الجاف المستوي، هذه قاعدة.

الشهوات التي نضعف أمامها في بعض الظروف أمرنا الشرع الحكيم أن نبتعد عن أسبابها:

قال الله عزَّ وجل :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32) ﴾

(سورة الإسراء)

لم يقل: لا تزنوا، بل قال:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا (32) ﴾

هذه شهوة تثور بوجود الخلوة، وإطلاق البصر يثير هذه الشهوة، متابعة مشاهد مثيرة على الشاشة أيضاً يثير الشهوة، فكل ما يُقَرِّبُكَ من هذه الشهوة مُحَرَّم، هذا معنى:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا (32) ﴾

اجعل بينك وبين الزنى هامش أمان، اجعل بينك وبين مال اليتيم هامش أمان، لا تخلط مالك بماله، لا تجعل الحساب هو الحكم، اجعل خلط المال هو الحكم فلا تفعله، هناك موضوع دقيق جداً، هناك شهوات لها قوة جذب أو فيها وهج، هذه الشهوات التي يضعف الإنسان أمامها في بعض الظروف أمرك الشرع الحكيم أن تبتعد عن أسبابها، الشهوات التي فيها قوة جذب، والتي يَضْعُفُ الإنسان أمامها في بعض الظروف نهاك من الاقتراب منها **" ولا تقربوا الزنا ".**

الآية العظيمة الدَّالة على عظمة الله لا يسخر منها إلا الفاسق:

قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) ﴾

(سورة المائدة)

اجعلوا بينكم وبينها هامش أمان، لا تجلس مع شارب خمر، لا تتعامل مع كل من يتعامل بالخمر، إذاً لِمَ أصرّ الأخ على أنه ليس في القرآن الكريم آية تحرم الخمر ؟ حتى يُغَطِّي انحرافه، فالقضية الدقيقة الآن هي حينما ينحرف الإنسان أمامه سبيلان لاستعادة توازنه ؛ سبيل الاستقامة والتوبة النصوح والصلح مع الله، وسبيل أن يعتقد عقيدةً زائغة فاسدةً منحرفة يتوهَّم بها أنها تغطِّي انحرافه، ولذلك لا يناقش المتلبِّس بشهوة، لا يناقش لأن منطقه منطق تسويغي تبريري وليس منطقاً حراً أبداً:

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26) ﴾

الآية العظيمة الدَّالة على عظمة الله لا يسخر منها إلا الفاسق، دقق في هذه الآيات:

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) ﴾

(سورة الماعون)

هو نفسه:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50))

(سورة القصص)

الذي يتبع هواه من دون هدىً من الله عزَّ وجل هذا من أشد الناس ضلالاً يوم القيامة، هؤلاء الفاسقون ما صفاتهم ؟ هذا هو موضوع درسنا اليوم.

للآية التالية عدة معانٍ:

هؤلاء الفاسقون:

(الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ (27))

لهذه الآية معانٍ كثيرة، بعض معانيها أن الله سبحانه وتعالى أخذ من بني آدم في عالم الذَرْ عهداً على أن يطيعوه حينما قال لهم:

(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى (172))

(سورة الأعراف: آية " 172 ")

هذا عهد، فالذي يأتي إلى الدنيا، ويتعرَّف إلى الله، ويستقيم على أمره هذا أوفى بما عاهد عليه الله، والذي يأتي إلى الدنيا، وتستهويه الشهوات، ويضع منهج الله وراء ظهره هذا نقض عهده مع الله، يقول سيدنا علي كلمة : **" والله إني لأذكر ذلك العهد "** هذا معنى من معانٍ كثيرة.

المعنى الثاني: أن عهد الله هو أمره ونهيه الذي جاء في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ونَقْضُ هذا العهد عدم العمل به، فالذي لا يعمل بالقرآن والسنة يَنْقُضُ عهد الله، هؤلاء الفاسقون لماذا سموا فاسقين لأنهم:

(الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ (27))

نقض العهد هو عدم العمل بالكتاب والسنة:

عهد الله إلينا أن نأكل المال الحلال، عهد الله إلينا أن نَقْصُرُ طرفنا على زوجاتنا وعلى محارمنا، عَهْدَ الله إلينا أن نكون صادقين، عهد الله إلينا أن نكون أُمناء، عهد الله إلينا أن نؤدِّي الأمانات إلى أهلها، عهد الله إلينا ألا نظلم بني البشر، ألا نكذب، ألا نأخذ ما ليس لنا، أن نكون أمناء، لذلك بعث الله عزَّ وجل النبي عليه الصلاة والسلام لهذه الأمة ليقوِّم أخلاقها، وعَبَّر سيدنا جعفر للنجاشي عن الواقع الذي بين الجاهلية والإسلام حين قال: **" أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسئ الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته، وصدقه، وعفافه، ونسبه، فدعانا إلى الله لنعبده، ونوحِّده، ونخلع ما كان يعبد**

آباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحُسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء ".

إذاً نقض العهد عدم العمل بالكتاب والسنة، كل أمرٍ في القرآن هو عهدٌ عَهِدَ الله به إليك، كل أمرٍ في القرآن، وكل أمرٍ في سنة النبي العدنان هو عهدٌ عهد الله به إليك أن تُطَبِّقَهُ، فإن طبَّقته فقد وفَّيت بهذا العهد، وإن لم تطبقه فقد نقضت عهدك مع الله، أي أن كل إنسان يعصي الله نقض عهده مع الله، هذا المعنى الواضح والشائع والواسع والمقبول، نقض العهد مع الله عدم تطبيق أمره والوقوع في نهيه، هذا نقض العهد، فالفاسقون لماذا هم فاسقون ؟ لأنهم نقضوا عهدهم مع الله، وحينما يتوب الإنسان يعاهد الله على الطاعة، من السُّنة أن يقول الإنسان في بيت الله الحرام عند الحجر الأسعد: **" بسم الله، الله أكبر، اللهم إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، واتِّباعاً لسنة نبيِّك، وعهداً على طاعتك "**، فالذي عاهد الله عند الحجر الأسود أن يطيعه ثم عاد إلى بلده فعاد إلى ما كان عليه نقض عهد الله.

المنافق الفاسق ينقض عهده مع الله :

يقول الله عزَّ وجل :

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (102))

(سورة الأعراف)

ويقول الله عزَّ وجل:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23))

(سورة الأحزاب)

لاحظ نفسك، إذا تبت إلى الله توبة نصوحاً، وعاهدته على الطاعة، وعاهدته على الإنصاف، وعاهدته على خدمة المسلمين، وعاهدته على الإنفاق في سبيله، لاحظ نفسك: هل تبدل هذا العهد مع مرور الأيام؟ المنافق الفاسق ينقض عهده مع الله.

(الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ (27))

لهذه الآية معانٍ كثيرة، الأنبياء جميعاً دعوتهم واحدة، فالذي لا يفرِّق بين الأنبياء، يجعل كل الأنبياء مبعوثين من عند الله عزَّ وجل معهم كتاب الله، يعتقد بالأنبياء جميعاً اعتقاداً صحيحاً، هذا لم يقطع ما أمر الله به أن يوصل، هذا معنى، وهناك معنى آخر: كل إنسان يدعو إلى معصية يقطع الناس عن الله عزَّ وجل وقد أمروا أن يتصلوا بالله، أية بدعة، بدعة فيها اختلاط ـ عرس مختلط ـ هذا العرس المختلط بدعة فيه دعوةٌ إلى القطيعة مع الله، حينما يُمَتِّعُ الإنسان بصره بمن لا تَحِلُّ له

كانت هذه المتعة المحرَّمة حجاباً بينه وبين الله، ماذا فعل من دعاه إلى هذا الحفل ؟ قَطَّعَ علاقات الناس بالله عزَّ وجل.

أنواع المعاصي كلها تقطع عن الله:

من دَلَّ على كسبٍ حرام قطع هذا المكتسب عن الله، أي إنسان دعا إلى معصية، رَوَّج لمعصية، دعا إلى دنيا مُغرية، رَغَّب الناس بشيءٍ لا يرضي الله، دعا الناس إلى شراء جهاز حتى يكون على مستوى العصر، وحتى يَطَّلع على ما في العالم من أحداث، كما يتوهم كل إنسان يدعو إلى شيء يقطع عن الله هو قاطع، وأكبر كلمة وأكبر جريمة يرتكبها الإنسان أن يكون قاطعاً عن الله، أنواع المعاصي كلها تقطع عن الله، إذا كانت حرفة إنسان مبنية على معصية، كأن يملك ملهى مثلاً، ماذا يفعل صاحب الملهى ؟ هو يقطع الناس عن الله عزَّ وجل، فالقضية طويلة وواسعة جداً، أي حرفة مبنية على معصية هي في حقيقتها قطع الناس عن رَبِّهم، تزيين الدُنيا، إغراء الناس بها، تحبيبهم بالمعصية، أن يكسبوا المال من أي طريق، أن يتخذوا أية حرفة تُدِرُّ عليهم مالاً وفيراً دون أن يهتموا بطاعة الله فيها، هذا الذي يتخذ حرفةً فيها شبهة، فيها إيذاءٌ للناس، فيها إيذاءٌ للناس بدينهم، هذا الذي يروِّج الشهوات ويحببها للناس إنما يقطعهم عن الله بشكل أو بآخر.

لو أخذ صديق صديقه إلى حفلة مختلطة، وهذا الصديق مثلاً له مسجده، له طاعته لله، له استقامته، أغراه صديقه بالسهرة المختلطة، فأدخله بعالم آخر، عالم الفتيات، وعالم الاختلاط، وعالم الاستمتاع بمباهج هذه السهرات، فنسي دينه، ونسي صلاته، ونسي حفظه لكتاب الله، سمعت أن أحد الأشخاص يسجل أفلاماً إباحية، ويعرضها على الشباب بأجر في غرفة في بعض أحياء دمشق، أقسم لي أحدهم أن أحد الشباب كان من حُفَّاظ كتاب الله ترك الصلاة طبعاً، ترويج أي معصية، ترويج أي عمل فني، ترويج أي حرفة، هذه الفتاة التي تخرج متبذّلة في ثيابها، تظهر مفاتنها، والله تقطع الشباب عن الله، تصرفهم عن دين الله، عشرون عاماً بينه وبين الزواج، ينتظر عشرين عاماً إلى أن يتزوج، تظهر له كل مفاتنها في الطريق، وليس كل شاب لديه المناعة القوية، فكثيرٌ من الشباب يسقط في حمأة المعصية، فهذه الفتاة تَقْطَعُ الشباب عن الله، أي شيء مغرٍ، أي شيء فيه معصية، أي شيء فيه تحبيب للدنيا هذا كله يبعد الناس عن الله عزَّ وجل، فهؤلاء الفاسقون مُهمَّتُهم أن يقطعوا ما أمر الله به أن يوصل.

من يقطع ما أمر الله به أن يوصل إنسان لا علاقة له بالإسلام و له اسم مسلم فقط :

يقول الله عزَّ وجل:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ (15))

(سورة لقمان: آية " 15 ")

هناك شخص كلما وجد شاباً متعلّقاً بمسجد أو بعالم يقطعه عنه، يقول له: كن حراً، لا حاجة بك إلى الشيخ، ولا حاجة بك للجامع، إذا كان حراً فهو وحيد غير منضبط، بالمسجد تاب إلى الله، عاش بمجتمع مؤمن، أصبح في منافسة شريفة مع إخوانه، صار عنده انضباط ووعي، صار ذا عقيدة صحيحة، هناك أب لا يروق له أن يكون ابنه في مسجد، يقطعه عن الله وعن المسجد، قد يأتيه ابنه الساعة الثانية ليلاً، ولا يعلم الأب أين كان ؟ لا يتكلَّم ولا كلمة، أما إذا علم أنه في مسجد، في حضور درس علم يقيم عليه النكير، ماذا يفعل هذا الأب ؟ يقطع ما أمر الله به أن يوصل، وهناك أب إذا رأى ابنته محجَّبة يقيم عليها النكير، يريدها متبذّلة حتى يتباهى بها، هناك رجل إن أصرت زوجته على الحجاب يطلّقها، يريدها متبذّلة، يريد أن يعرض مفاتنها على أصدقائه كي يتباهى بها، هؤلاء لهم أسماء المسلمين فقط، هؤلاء بين أظهرنا، هؤلاء يعيشون معنا، يقطعون ما أمر الله به أن يوصل:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28))

(سورة الكهف)

هناك حقيقة واحدة في الكون هي الله:

قال تعالى:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ (15))

(سورة لقمان: آية " 15 ")

هذا الذي يقطعك عن مجلس علم، ويقطعك عن مسجد يعلمك ويدعوك إلى الله عزَّ وجل، هذا يقطع ما أمر الله به أن يوصل، هذا الذي يغريك أن تكسب المال الحرام من طريقٍ غير مشروع، من أجل أن تصبح غنياً في وقت قصير، هذا يقطعك عن الله عزَّ وجل.

والله أخ من أخواننا أعجبني فيه صدقه، قال لي: اشترى والدي صحناً فضائياً، تابعت بعض البرامج زمناً: فقطعت عن الله عزَّ وجل، وقال لي: أصبحت صلاتي لا معنى لها إطلاقاً، بعد حين شعر بالخطر على دينه، فعاهد الله على أن يمتنع عن مشاهدة برامج هذا الصحن:

(وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ (27))

هناك حقيقة واحدة في الكون هي الله، أي عمل يقرِّبُك من الله هذا عمل عظيم، وأي عمل يبعدك عن الله عزَّ وجل فهو عمل خسيس، فشراء مجلة غير منضبطة مشكلة، شاب يطّلع على صور

الفنانات في أوضاع مغرية في مجلة مشكلة، وهذه المجلة ومثيلاتها ينبغي ألا تدخل هذا البيت، هناك من يشتري هذه المجلاّت ويضعها في عيادته من أجل أن يستمتع المرضى قبل الدخول إلى غرفة المعاينة، هذا يقطع ما أمر الله به أن يوصل.

أيها الأخوة، هؤلاء يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، وبالمناسبة إذا وجدت إنساناً له شيخ في مسجد، ملتزم، متألّق، دَعْهُ لا تدخل بتفاصيل، لا تقطعه عن هذا المسجد، هذا مصدر سعادته، مصدر انضباطه، إلا بحالات نادرة جداً، إذا كانت هناك عقيدة منحرفة خطيرة جداً في هذا المسجد، هذا موضوع ثانٍ، أما بشكل عام فلا يكن همُّك قطع إنسان موصول بالله عن طريق جماعة، عن طريق مسجد، عن طريق شيخ، هذا عمل تخريبي، أنت قطعته ولكنك لست متمكناً لتحل مكان هذا الشيخ، قطعته عن هذا الشيخ، وجعلته ضائعاً فماذا فعلت ؟ هذا عمل تخريبي لأنك قطعته عن إنسان له صلة بالله، له عمل صالح، له وجهة مع الله عزَّ وجل.

لا يأتمر المؤمن الصادق إلا بما أمر الله به ولا ينتهي إلا عما نهى الله عنه :

أحياناً تجد إنساناً معتقداً بإنسان، كأخوين في المسجد، الأخ السابق تائب من عشر سنوات، له ماضٍ قبل عشر سنوات كان غير مرضٍ، ولكنه تاب توبة نصوحاً من هذا العمل، يصطحب معه أخاً فيسأله أحدهم: مَن الذي دلك على هذا المسجد ؟ فيقول له: فلان، يقول له: فلان ؟ يتكلم بلهجة استنكار ؟! هذا كان كذا، كان كذا، ماذا فعلت أنت ؟ لقد تاب من هذا الذنب وسلك طريقه إلى الله، وصار متألّقاً، ودعا إلى الله، لماذا تُذكّر هذا الشاب الناشئ الذي اهتدى على يد هذا الشاب الأكبر منه بعمل فعله قبل عشر سنوات ؟ هذا التصرف عمل شيطاني ، كل إنسان له صلة بالله فقطع هذه الصلة عمله تخريبي، وعمله يغضب الله عزَّ وجل، هؤلاء الفسقة همُّهم الأول أن يقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، يقطع التلميذ عن أستاذه، يقطع الأخ عن أخيه، يقطع الجار عن جاره، يقطع الأم عن ابنتها، هناك زوج يحرِّم أن تزور البنت أهلها، لماذا ؟ أمها وأبوها من حقها أن تزورهما، والله عزَّ وجل أمر بصلة الرحم، وهو يقطع هذه الصلة.

قد يأمر أحدهم إنساناً أن يقاطع أهله، هذا الأمر مخالف للسنة، ولا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، فلتحقيق نزوة معيَّنة، لتحقيق هدف كيدي يأمر هذا الإنسان أن يقاطع أهله جميعاً، أن يقاطع أخواته، هذا عمل كَيْدي هذا مخالف للسنة، لا يأتمر المؤمن الصادق إلا بما أمر الله به، ولا ينتهي إلا عما نهى الله عنه، ولا يطيع مخلوقاً في معصية أبداً، وكل إنسان يعتقد أن هناك إنساناً أكمل من رسول الله فهو كافر برسالة رسول الله عليه الصلاة والسلام، أي أنك إذا سمعت كلام إنسان وعصيت النبي عليه الصلاة والسلام فأنت لست مؤمناً برسالة النبي، ولا بعصمة النبي، ولا بأحقية اتباع النبي، هذه آية دقيقة المعنى، خطيرة نتائجها:

﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ (27) ﴾

إيَّاك أن تكون أداة قطعٍ، بل كن أداة وصلٍ، لذلك: ليس منا من فرَّق.

حتى بعض المؤسسات مثلاً تعلق أنها تريد موظفاً يعمل لديها غير متزوج، أو غير مصحوب بزوجته، في دول الخليج أحياناً يطلبون موظفاً من دون زوجة، زوجته أقرب الناس إليه، ليس في الإمكان أن يعيش بعيداً عنها، وليس في إمكانها أن تعيش بعيدةً عنه، لا نقبلك بزوجة، يبقى سنة بأكملها في مكان، وزوجته في بلد آخر، هؤلاء يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، هؤلاء الذين يفرِّقون شمل الأسرة هؤلاء ليسوا على حق، يأمرك القرآن والسنَّة أن تجمع شمل الأسرة، هذه الآية واسعة جداً لا تنتهي، ومعانيها وشموليتها في العلاقات الأسرية، في العلاقات الزوجية، في علاقة الأباء بأبنائهم، هذا الذي يثير الابن على أبيه هذا يقطع ما أمر الله به أن يوصل، هذا الذي يثير الجار على جاره، والأخ على أخيه، هذا الذي يدعو إلى معصية، يرَغِّب في معصية، هذا الذي يغريك بمالٍ حرام يقطعك عن الله عزَّ وجل، طبعاً آية واسعة جداً، ليس منا من فرَّق كما قال عليه الصلاة والسلام.

البيت مصون مقدَّس في الإسلام:

قال تعالى:

(وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ (27))

يفسدون العلاقات، يفسدون الأخلاق، يفسدون براءة الصِغار، هناك أعمال فنية مستوردة تُعْرَض على الصغار فيها كل شيء من الفسق والفجور والعلاقات الغرامية، طفل عمره ثلاث سنوات أو أربع سنوات يشرب مع دمه هذه العلاقات الشائنة عن طريق أفلام نستوردها، هذه لا تجوز، لا بدَّ من أعمال تناسب الصغار المؤمنين، كل عمل يُبعدك عن الله عزَّ وجل هذا قطعٌ لما أمر الله به أن يوصل.

هناك جهات بعيدة تكيد للمسلمين، لقد غُزينا ثقافياً عن طريق هذه الصحون، صار البيت ملهى، صار البيت نادياً ليلياً، بينما البيت مصون مقدَّس في الإسلام، الأب مقدَّس، الأم مقدَّسة، حالاتٌ كثيرةٌ من زنا المحارم تقع عن طريق هذه الصحون.

(وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ (27))

آية واسعة جداً، أي أن كل شيء أمر الله به أن يوصل قطعه عملٌ تخريبي يحمل كل ما يغضب الله عزَّ وجل ولا يرضيه.

(وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ (27))

هذا الفساد كما قال الله عزَّ وجل:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(41))

(سورة الروم)

أي أن الله عزَّ وجل يذيق الناس وبالأجزاء بعض الذي عملوا:

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41))

علينا أن نطيع الله وإلا لا بدَّ من تأديبٍ قد لا نحتمله:

سمعت عن إعصار أمريكا الأخير اسمه **" إعصار جورج "**، هذا الإعصار الذي بلغت سرعته مئتين وخمسة وعشرين كيلو متراً في الساعة، وهذه من السرعات العالية جداً والمدمرة، مرَّ هذا الإعصار على بيوت الشاذين في فلوريدا فَدَمَّرها عن آخرها:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (117))

(سورة هود)

أخواننا الكرام، علينا أن نطيع الله وإلا لا بدَّ من تأديبٍ قد لا نحتمله:

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ (286))

(سورة البقرة)

يأتي التأديب أحياناً فوق طاقة الاحتمال، إنسان يرى نفسه بلا مأوى يسكن في الطريق، مئتان وأربعون مليون إنسان في الصين بلا مأوى، أنت عندك بيت، لك مأوى، لك فراش، لك سرير، لك غرفة طعام، خزانة ملابس، فكيف بك ـ لا سمح الله ـ إن وجدت نفسك وأهلك في العراء بلا مأوى، هذا يراه الناس كل يوم في مكان الفيضانات، فيضانات تغرق الناس في مكان ما، رياح عاتية في مكان آخر تقتلع بيوتهم، وحروب أهلية في مكان ثالث تصحن البشر طحناً.

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ (286))

(سورة البقرة)

ملخص الملخص أننا إذا هان أمر الله علينا هُنَّا على الله ولا يعبأ الله بنا:

مُلَخَّص المُلَخَّص: إذا هان أمر الله علينا هُنَّا على الله، لا يعبأ الله بنا..

(وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ (27))

الفساد كذلك واسع جداً شرّه وأثره، سأل أحدهم أخته عندما جاءها مولود: ماذا قدَّم لكِ زوجكِ بمناسبة الولادة ؟ قالت له: لم يقدِّم لي شيئاً، فأجابها متسائلاً: أمعقول هذا ؟ أليس لكِ قيمة عنده ؟ والله يليق بكِ شخص غيره أرقى منه، ألقى بذلك قنبلة ومشى، جاء زوجها ظهراً إلى البيت فوجدها غاضبة فتشاجرا، وتلاسنا، واصطدما، فطلقها، من أين بدأت المشكلة ؟ من كلمة قالها الأخ، مثلاً قد يسأل أحدهم: هذا البيت كيف يتسع لكم ؟ إنه يتسع لنا، ليس لك أنت علاقة، إنه يحب أن يُعَكِّر صفو

الأسرة، هو شيطان، داخل فيه شيطان، وهذا هو الفساد، التقى بشاب راقٍ: أين تشتغل ؟ فقال له: بالمحل الفلاني، كم يعطيك بالشهر ؟ قال له: خمسة آلاف، فيرد عليه مستنكراً: خمسة آلاف فقط، كيف تعيش بها ؟ إن صاحب العمل لا يستحق جهدك ولا يستأهله، جعله كارهاً عمله، فطلب رفع الراتب، رفض صاحب العمل، فأصبح بلا شغل، كان يعمل أما الله فهو بلا عمل، هو شيطان.

((إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً))

[الترمذي عن أبي هريرة]

كل إنسان يصَغِّر دنيا الناس عندهم، يكَرِّهه ببيته، يكرهه بزوجته، يكرهه بأولاده، يكرهه بمهنته، بحرفته، يستعلي عليه، هذا يفسد في الأرض، أفسد العلاقات، أفسد القرابات، أفسد الأعمال، فالفساد أيضاً واسع شره ونتائجه.

الفساد واسع جداً وهو إخراج الشيء عن طبيعته:

دققوا أيها الأخوة، كلمة تنطق بها من سخط الله تهوي بها في جهنم سبعين خريفاً، كلمة استعلاء أحياناً تجرح الإنسان:

جراح السنان له التئام   وليس لجراح اللسان التئام

***

يتكلم بعضهم أحياناً كلاماً جارحاً، يحفر عميقاً في نفس سامعه، حمله على الكلام مكرٌ أو خبثٌ أو جهل، فلماذا ؟ أما كان الأجدر به أن يراقب الله فيما يقول ؟!! فاحذر يا أخي أن ينزلق لسانك وتقطع عندئذٍ ما أمر الله به أن يوصل.

أيها الأخوة الكرام، قطع ما أمر الله به أن يوصل والفساد في الأرض هذا من خصائص هذا العصر، مصدره أحياناً التباهي، النساء دائماً يحببن أن يستكثرن أمام صديقاتهن، هذا أيضاً فساد في الأرض، أكرمك الله بزوج حالته المادية جيدة، هل من المفروض أن تحدِّثي جيرانك عن طعامكم، وعن نزهاتكم، وعن فرشكم، وعن بيتكم ؟ داخل فيها شيطان، عملية تحطيم، أنا كذا، زوجي كذا، دخله كذا، قمنا بنزهة بالمكان الفلاني، بالفندق الفلاني، حفل عُرسنا كان بالمكان الفلان، هذا الحديث الفارغ الذي يملأ القلب حسرةً، ويملأ الناس ضغينة وحقداً، ما مبرراته ؟ أليس يحمل في طياته خلافاً بين الأزواج قد ينتهي إلى الطلاق وتشريد الأولاد، إنه يقطع ما أمر الله به أن يوصل.

المؤمن يذكر الله عزَّ وجل فيشكره، إذا أكرمك الله عزَّ وجل فاشكره دون أن تكسر قلب الآخرين، لئلا تقع في الفساد، هناك فساد بالكلمة، فساد بالأجواء، فساد بالمياه، فساد بالبيئة، فساد بالثمرات، فساد بالنباتات، الفساد واسع جداً، وهو إخراج الشيء عن طبيعته، والمؤمن لا يفسد إطلاقاً، إنما يصلح بين خلق الله عزَّ وجل.

(وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27))

بعض خصائص الذين لا يعبؤون بآيات الله ولا يراقبون الله في تصرفاتهم:

أيها الأخوة، هؤلاء الذين لا يعبئون بآيات الله ولا يراقبون الله في تصرفاتهم، من خصائصهم أنَّهم:

(يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ (25))

المعنى الواسع: لا يطيعون الله، لا يأتمرون بأمر الله لا في كتابه ولا في سنَّه نبيِّه، ويفعلون المنهيَّات وينتهون إلى الضلال:

(وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ (27))

يقطعون الناس عن ربِّهم:

(وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ (27))

يغيِّرون طبيعة كل شيء:

(أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27))

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يوجد الكون شيءٌ إلا ويشير إلى الله موجوداً وواحداً وكاملاً:

مع الآية الثامنة والعشرين وهي قوله تعالى:

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28))

يقول علماء اللغة: إن

(كَيْفَ)

اسم استفهام، يستفهم به عن الحال، تقول لأخيك: كيف حالك ؟ اسم استفهام يستفهم به عن الحال، ولكن الاستفهام أحياناً يخرج عن أصله إلى معانٍ أخرى، فإذا أردت أن توبِّخ إنساناً تقول له: كيف تفعل هذا ؟ أردت أن توبِّخه، أو إن أردت أن تُنْكِر عليه، أو إن أردت أن تردعه، فالاستفهام هنا هو استفهام إنكاري، كيف يكفر هذا الإنسان وقد خلقه الله عزَّ وجل من ماءٍ مهين ؟ كيف يكفر وقد خلق له ما في الأرض جميعاً ؟ كيف يكفر وقد منحه نعمة العقل ؟ كيف يكفر وقد خلق له من نفسه زوجة ؟ كيف يكفر وقد خلق له من نفسه أولاداً يتحركون أمامه ؟ وهو يعلم علم اليقين كيف تم خلق هؤلاء الأولاد من نطفةٍ من ماء مهين ؟ كيف يكفر وكل ما حوله يدل على الله عزَّ وجل ؟ كيف يكفر وما في الكون شيءٌ إلا ويشير إلى الله موجوداً وواحداً وكاملاً ؟ فهذا الاستفهام استفهام توبيخي، واستفهام إنكاري:

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ (28))

قال علماء التفسير:

(وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً (28))

أي كنتم في حالة العدم، الموت الأول موت العدم:

(فَأَحْيَاكُمْ (28))

جاء بكم إلى الدنيا، ثم أماتكم بعد انتهاء الحياة، ثم يحييكم يوم القيامة لتلقوا نتائج أعمالكم، إذاً أولاً موت العدم، ثم إحياء الدخول في الدنيا، ثم موت الخروج من الدنيا، ثم إحياء يوم القيامة للحساب والعقاب والجزاء.

هذه الحياة التي تنعُم بها إنما هي من الله عزَّ وجل:

أيها الأخوة الكرام، حياة الإنسان بيد الله، الله عزَّ وجل مُتَحَكِّمٌ بإيجاده، متحكمٌ بحياته، الله عزَّ وجل هو الذي منحه نعمة الحياة، أنت كائن حي تتحرك، ترى، تسمع، تتحسس، تأكل، تشرب، تذهب إلى بيتك، هذه الحياة التي تنعُم بها إنما هي من الله عزَّ وجل، هو الذي منحك الحياة.

(فَأَحْيَاكُمْ (28))

منحك نعمة الإيجاد، ومنحك نعمة الإمداد، ومنحك نعمة الهدى والرشاد، وهذه هي النعم الكبرى.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1))

(سورة الإنسان)

منحك نعمة الحياة، منحك نعمة الإمداد، منحك نعمة الهُدى والرشاد.

(ثُمَّ يُمِيتُكُمْ (28))

أنت بين قَوْسين قوس الحياة وقوس الممات، الله عزَّ وجل هو المتحَكِّم بالحياة، واهب الحياة، الله عزَّ وجل هو المميت، هو الذي ينهي حياة الإنسان، فإذا كانت البداية من خلق الله والنهاية من خلق الله لم لا تكون الحياة لله ؟ **" الدنيا ساعة اجعلها طاعة ".**

عظمة الله في خلقه:

الدنيا ساعة، الزمن يمضي سريعاً، الإنسان زمن، الإنسان بضعة أيام كلّما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه، والإنسان العاقل يَعُدُّ عمره عداً تنازلياً يقول: كم بقي لي من عمري ؟ كيف مضى الذي مضى ؟ مضى الذي مضى كلمح البصر، فإذا مضى ثُلثا العمر فالثلث الباقي يمضي كلمح البصر أيضاً، الإنسان فجأةً أمام حسابٍ دقيق، وجزاءٍ دقيق، وعقابٍ دقيق.

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً (28))

كنتم في طور العدم.

(فَأَحْيَاكُمْ (28))

أصل الإنسان من ماء مهين، هناك خمسمئة مليون حوَين في اللقاء الزوجي، وتحتاج البويضة إلى حوين واحد، و البويضة لا ترى بالعين لأنها صغيرةٌ جداً، ثم تنقسم البويضة إلى عشرة آلاف قسم وهي في طريقها إلى الرحم، تنشأ لها في الرحم استطالات كالأرجل من أجل أن تعلق في جدار الرحم، إذا علقت بدأت تأخذ الغذاء من جدار الرحم في تسعة أشهر وعشرة أيام، هذه البويضة التي لا ترى بالعين، وهذا الحوين الذي لا يرى بالعين يشكلان كائناً بداخل دماغه ما يقرب من مئة وأربعين مليار خلية استنادية لم تعرف وظيفتها بعد، هناك في قشرة الدماغ أربعة عشر مليار خلية، يحوي العصب البصري تسعمئة ألف، الشبكية مئة وثلاثين مليون عُصية ومخروط، الشم عشرين

مليون نهاية عصبية شمِّية، لكل نهاية سبعة أهداب، الأهداب مغمَّسة بمادة معينة تتفاعل مع الرائحة، تصبح الرائحة شكلاً هندسياً تشحن إلى الدماغ، في الدماغ تعرض على ملف فيه عشرة آلاف رائحة من أجل أن تعرف الروائح، العين ترى الأشخاص بالحجم الحقيقي واللون الدقيق، وتفرق العين البشرية بين لونين، بين درجتين من ثمانمئة ألف درجةٍ من اللون الواحد، لو درجنا لوناً واحداً ثمانمئة ألف درجة تدرك العين البشرية السليمة الفرق بين درجتين.

خلق الإنسان من آيات الله الدالة على عظمته:

في رأس الإنسان ثلاثمئة ألف شعرة، لكل شعرة وريد، وشريان، وعصب، وعضلة، وغدة دهنية، وغدة صبغية، شعر الإنسان، دماغ الإنسان، السمع، البصر، الشم، السمع قضية معقدة جداً، جهاز التوازن، الغدة النخامية وزنها نصف غرام تفرز اثني عشر هرموناً، وهي ملكة الغدد تسيطر على كل الغدد الصمَّاء في الجسم، ملكة وزنها نصف غرام تفرز اثني عشر هرموناً، لو تعطَّل إفراز أي منها لأصبحت حياة الإنسان جحيماً، هرمون النمو، هرمون الجنس، هرمون توازن السوائل، شيء لا يصدَّق، الغدة الدرقية مسؤولة عن الاستقلاب فهي تحول الغذاء إلى طاقة، الكظر مسؤول عن مواجهة الأخطار، الخطر الداهم، يعطي أمراً للقلب لرفع نبضه، وأمراً للرئتين لزيادة وجيبهما، وأمراً للكبد لطرح كمية سكر إضافية، وأمراً للأوعية فتضيق لمعتها، وأمراً للكبد لإفراز هرمون التجلُّط، شيء لا يصدَّق هذا الكظر فتضيق، والمعدة فيها خمسة وثلاثون مليون عصارة تفرز في وجبة الطعام، ونصف لتر من حمض كلور الماء من أجل هضم الطعام، والبنكرياس، والطُحال، والكبد فيه خمسة آلاف وظيفة، وتقوم كل خليةٍ من خلايا الكبد بكل هذه الوظائف، والعظام، والعضلات، والأعصاب، والقلب، والشرايين، هذا كلُّه يُصنَّع في أكمل صناعة في تسعة أشهر، الله منحنا الحياة وبيده كل شيء، إنسان ملء السمع والبصر، غني، قوي، يصبح خبراً بثانية، نعوة، ينتهي.

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (44) ﴾

(سورة المؤمنون)

واهب الحياة هو الله، المميت هو الله، وحياتك بين هذين القوسين، فلمَ لا تكون لله عزَّ وجل ؟ " **الدنيا ساعة اجعلها طاعة** ". في أول ليلةٍ يوضع الإنسان في قبره ـ هكذا ورد في الأثر ـ يُنادى أن: رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت.

مثال عن استحالة إيجاد مخرج في معصية الخالق :

الآية الكريمة:

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ (28))

طلب إنسان من عالم أن يجد له مخرجاً في معصية الله، فقال له: خمسة أشياء إن فعلتها لا تضرُّك معصية ـ شيء رائع جداً ـ ما هي هذه الأشياء ؟ قال له: إن أردت أن تعصيه فلا تسكن أرضه، قال له: وأين أسكن إذاً ؟ قال له: أتسكن أرضه وتعصيه ؟!! أمعقول هذا ؟! إذا أدخلك إنسان إلى بيته وأنت ضيفه، أمعقول أن تضرب له ابنه وأنت في بيته ؟ معقول أن تضع السم في الطعام وأنت في بيته ؟ تسكن أرضه وتعصيه ؟ قال له: هات الثانية، قال: إن أردت أن تعصيه فلا تأكل من رزقه ؟ قال له: وماذا آكل إذاً ؟ قال له: تسكن أرضه وتأكل رزقه وتعصيه ؟! أمعقول ؟! قال له: هات الثالثة، قال له: إن أردت أن تعصيه فاعصه في مكانٍ لا يراك فيه، قال:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4))

(سورة الحديد)

قال: تسكن أرضه وتأكل رزقه وتعصيه وهو يراك ؟

أما تستحي منا ويكفيك ما جرى أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا

أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً وتنظر ما به جاء وعدنـــا

* * *

قال له: هات الرابعة، قال: إن أردت أن تعصيه وجاءك ملك الموت فلا تذهب معه، قال له: لا أستطيع، قال: تسكن أرضه وتأكل رزقه وتعصيه وهو يراك ولا تستطيع أن تدفع عنك ملك الموت ؟ قال له: هات الخامسة، قال له: إن أردت أن تعصيه وجاء الملكان بك إلى النار فلا تذهب معهما، قال له: لا أستطيع، قال: تسكن أرضه وتأكل رزقه وتعصيه وهو يراك ولا تستطيع أن تدفع عنك ملك الموت ولا ملائكة العذاب ؟ قال له:كُفيت؟

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ (28))

الله يمهل ولا يهمل :

وجودك من الله، سمعك، بصرك، نُطقك، ذكاؤك، عضلاتك، أمعاؤك، جهاز الهضم، جهاز الدوران، جهاز التصفية، العظام، الأعصاب، كل هذه بيد الله، أيعقل أن تعصيه بِنِعَمِهِ ؟ أيعقل أن تعصيه بالأعضاء التي منحك الله إياها ؟ كيف ؟ هذا استفهام إنكاري، واستفهام توبيخي، واستفهام تعجُّبي في آن واحد.

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ (28))

لم أر أشد غباءً من الذي يتجاهل وجود الله ويفعل ما يشاء، والله عزَّ وجلٍ يمكن أن ينهيه في أي ثانية، هذا الذي يتجاهل القوة الوحيدة في الكون، الحقيقة الوحيدة في الكون إنسان أحمق وهناك آلاف القصص، إنسان مشى في طريق العدوان فدمَّره الله عزَّ وجل، مشى في طريق المعصية فدمره الله عزَّ وجل، ولكن الله يمهل ولا يهمل، بعد ذلك:

(ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28))

يجب أن يغلب على يقينك أن كل حركةٍ، وكل سكنةٍ، وكل كلمةٍ، وكل ابتسامةٍ وكل عبوسٍ، وكل وصلٍ وكل قطعٍ، وكل عطاءٍ وكل منعٍ، مسجلٌ عليك وسوف تسأل لماذا فعلت هذا ؟ قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

ما دام في العمر بقية فالصلح مع الله سهلٌ جداً لأنه ينتظرك :

ما دام في العمر بقية فالصلحة بلمحة، ما دام في العمر بقية فالصلح مع الله سهلٌ جداً لأنه ينتظرك:

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد)).

[ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة]

مرةً ثانية أقول لكم: قصة الأعرابي الذي ركب ناقته وعليها زاده وشرابه:

((لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي، وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ)).

[مسلم عن أنس بن مالك]

أصاب قلبه، وأخطأ لسانه، فقال عليه الصلاة والسلام: **" لله أفرح بعبده التائب من هذا البدوي بناقته"**، فهل الصورة واضحة ؟ هذا كلام النبي في الصحاح: **"لله أفرح بعبده التائب من هذا البدوي بناقته"** ، ماذا تنتظر ؟!!

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53))

(سورة الزمر)

الغنى والفقر بعد العرض على الله:

إذا قال العبد: يا رب وهو راكع، قال الله: لَبَّيك يا عبدي، فإذا قال العبد: يا رب وهو ساجد، قال الله له: لَبَّيك لبيّك عبدي، فإذا قال العبد: يا رب وهو عاصٍ، قال الله له: لبيك ثم لبيك ثم لبيك.

فيا خجلي منه إذا هو قال لـي أيـا عبدنا ما قرأت كتابنــا ؟

أما تستحي منا ويكفيك ما جرى   أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا

أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً وتنظر ما به جاء وعدنــا

* * *

إلى متى أنت باللذات مشغول ؟ وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

تعصي الإله وأنت تظهر حبه   ذاك لعمري في المقال شـنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحــب لمن يحب يطيع

* * *

كيف ؟ خالق الكون يعجب ؟ خالق الكون يعجب ؟!

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ (28))

أنت حي، هذه الحياة منحةٌ من الله عزَّ وجل، وبعد الحياة موت، وبعد الموت حسابٌ دقيق، فكيف ؟ من هنا قال سيدنا علي كرَّم الله وجهه: " الغنى والفقر بعد العرض على الله"، يكون الغني غنياً والفقير فقيراً بعد العرض على الله، والغنى غنى العمل الصالح.

خالق الكون يعجب كيف ؟ منحتُ نعمة الهدى، نعمة الإيجاد، نعمة الهدى والرشاد، نعمة الإمداد، التقيت رجلاً فقلت له: ألا ترى أن الله خالق السماوات والأرض إلهٌ عظيم ؟ قال: لا، قلت له: هل في جسمك شيءٌ غير مُتقن ؟ قال لي: نعم الزائدة الدودية، قلت له: ما رأيت من جسمك إلا الزائدة الدودية ؟ اسمها الزائدة المدافعة هي خط دفاعٍ كاللوزتين، قال لي: اللوزتان متعبتان أيضاً.

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28))

القلب السليم فيه تعظيم وخوف وحب معاً:

كيف يعرف الإنسان الله ؟ من صنعته، من نعمته، من عقابه، ورد في الأثر القدسي:

((يا رب أيّ عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، قال: يا رب إنك تعلم أنني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: ذكرهم بآلائي، ونعمائي، وبلائي)).

[من الدر المنثور عن ابن عباس]

ذكرهم بآلائي كي يعظموني، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني، وذكرهم ببلائي كي يخافوني.

القلب السليم فيه تعظيم وخوف وحب معاً، التعظيم من خلال الآيات الكونية، مجرة تبعد عنا ثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية، وتحتاج أربع سنوات ضوئية إلى خمسين مليون عام كي نصل إليها بمركبة أرضية، الأربع سنوات الضوئية تحتاج إلى خمسين مليون عام فثلاثمئة ألف بليون سنة ضوئية كم نحتاج كي نصل إليها ؟ وأين هي ؟

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76))

(سورة الواقعة)

هذا الإله العظيم أيُعصَى ؟ لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت.

كل ما في الأرض خُلِق خصيصاً للإنسان:

إذاً الموت الأول موت العدم، الإحياء الأول إحياء الدخول في الحياة الدنيا، الموت الثاني الموت عقب انتهاء العمر في الحياة الدنيا، والإحياء الثاني هو إحياء يوم القيامة للحساب والجزاء، ثم يقول الله عزَّ وجل:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (29))

دقق

(خلق لكم)

فأنت أحياناً تقيم مأدبة أو وليمة، هناك ضيف شرف هو الأساس، تدعو معه صديقه، جاره، ابنه، الأساس هذا الضيف الأول، صُنِع هذا الطعام خصيصاً لهذا الضيف، وهو يأكل الطعام يُطرق الباب، يأتي طارق، تقول له: أدخل وكل معنا، هذا دخل وأكل، لكن هذا الطعام صنع خصيصاً للضيف الأول وليس للطارق، هذا المعنى المستفاد من كلمة

(لكم) .

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (29))

كم معدن موجود في الأرض ؟ معادن تصدأ تصبح أملاحاً، معادن لا تصدأ، معادن ثمينة تصلح لأن تكون قِيَماً كالذهب والفضة، معادن مُشِعَّة، معادن خفيفة، الفلذات والمعادن لا يعلم خصائصها ودقائقها وأنواعها وعددها إلا الله، وأشباه المعادن، والمواد العضوية، وأنواع النباتات، يوجد في البحر مليون نوع من السمك، من حوتٍ يزيد وزنه عن مئة وخمسين طناً إلى سمكة زينة في أحواض السمك لا يزد طولها عن سنتيمتر واحد، فسفورية، سوداء، تكون شفافة أحياناً، تُرى أحشاؤها، شيء لا يصدق، هناك أسماك للزينة، حيتان كبيرة جداً، مليون نوع من السمك، كم نوع من الطيور ؟ كم نوع من النباتات ؟ أذكر أنني اطلعت على كتاب مؤلف من ثمانية عشر جزءاً، كل صفحة فيها نوع من الأبصال، هذا الكتاب كله أبصال فقط غير الورود، والكتاب تحت يدي، والورود، والنباتات، وأزهار الزينة، شيء لا يصدق، هذه كلها ليست للأكل وإنما لمتعة العين فقط.

(خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (29))

أنواع النباتات، والحيوانات، والأطيار، والأسماك، والخضراوات، والفواكه، وأشجار الزينة لا تعَدُّ ولا تحصى.

النبات أيضاً من آيات الله الدالة على عظمته:

النبات ؛ هناك نباتٌ صنع خصيصاً من أجل أثاث بيتك كخشب الخيزران، هناك خشب للأغراض الصناعية، تزيد أنواع الأخشاب عن مئة نوع، هناك آلات للأغراض الصناعية لا تعمل إلا على قاعدة من خشب التوت لأن ألياف هذا الخشب مرنة ومتينة، فحركة المكوك تمتصها القاعدة، هناك أخشاب تصلح أساساً للأبنية الضخمة، هناك بناء في ساحة المرجة أساسه من الخشب، يزداد حجمه مع الماء، هناك خشب لا يتأثر بالماء، والهواء، والحر، والبرد إطلاقاً، وهو خشب النوافذ، وكأنه مصمم للنوافذ، لا يتغير مع الأمطار، والرياح، والبرد، والحر، والتبدلات، ولا ميليمتر، ولا يصلح الخشب الأغلى منه لو وضعته للنوافذ، الخشب الزان لأثاث البيوت، هناك خشب طري كخشب الكبريت، للأعمال الصناعية التعامل معه سهل جداً، هذه الأشجار التي صممت لتكون خشباً لك، هذه باب قائم بذاته، وهناك أشجار زينة هدفها أن تمتع عينك بها، أشجار مظلّات، وأشجار حدودية، هناك أشجار تعطيك الكاوتشوك، أشجار تعطيك الفلّين، نباتات تعطيك الأدوية، نباتات تعطيك الأصبغة، نباتات تأكل منها، نباتات تعطيك أواني، نباتات تعطيك حبات المسبحة ؛ كرة مثقوبة، جاهزة، نباتات لتنظّف أسنانك بها، نباتات لتنظف ما بين الأسنان ؛ الخُلّة، نباتات لتكون ورقاً كورق البُردي، قال الله عزّ وجل:

(نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ (99))

(سورة الأنعام: آية " 99 ")

هناك نبات ورق، نبات سواك، نبات نكّاشة أسنان، نبات ليفة، وجه ناعم ووجه خشن ؛ الخشن على الخشن، والناعم على الناعم، أنواع النباتات لا تعد ولا تحصى، كلها مخلوقة من أجلك، تكريماً لك.

كل شيء خلقه الله جعله مذللاً للإنسان:

قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (29))

الجبال، الوديان، الصحارى، السهول، البحار، الأنهار، البحيرات، الينابيع، الجبال العالية، أنواع الحيوانات، كم خروفاً يستهلك البشر في اليوم الواحد ؟ أعداد فلكية، من خلقها ؟ كم دابة تستخدم لطعام الإنسان في اليوم الواحد ؟ أرقام فلكية.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (29))

تقول القاعدة: إن الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به، من الممكن أن تنتفع بمكيِّف دون أن تفقه شيئاً عن تركيبه، ولا عن آلية عمله، وهذه من نعم الله العظمى، تنتفع بكل ما في الأرض دون

أن يكون هذا الانتفاع مبنياً على معرفةٍ به، إذاً هو مُذلل لك، هناك أجهزة معقَّدة جداً لا تستفيد منها، إن لم تعلم طريقة تشغيلها وكأن الجهاز ليس له قيمة، أما كل شيء خلقه الله جعله مذللاً لك، ولكن أحياناً تصبح الرياح المذللة أعاصيرَ مدمرة، والأمطار المنعشة تصبح فيضانات مدمرة، والأرض المستقرة تصبح زلازل مدمرة، ما حكمة الزلازل والفيضانات والعواصف ؟ قال: إذا توهَّم الإنسان أنها تعمل بأمره أو تعمل بإرادته، أو أنه هو الذي استغلها و سيَّرها فهو واهم، هو لا يملكها، تأتيه أحياناً فتنفعه وأحياناً تدمِّره، إذاً الله عزَّ وجل هو الذي ذللها، راقب إنساناً يقترب من البقرة، منظرها مؤنس، أحد إخواننا قال لي: جنَّت بقرة في الغوطة فقتلت رجلين وجرحت الثالث، ما كان من صاحبها إلا أن أطلق عليها النار فقتلها، لأنها جنَّت، علماً أن ثمنها سبعون ألف ليرة ! من جعلها مذلَّلة ؟ الجمل لا تخاف منه أما العقرب فإنك تخاف منه لأنه غير مذلّل، الأفعى غير مذلّلة، الضبع غير مذلّل، أما الجمل فمذلّل، الحصان مذلل، الدواب مذلّلة قال تعالى:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72))

(سورة يس)

الأصل في الأشياء الإباحة :

أيها الأخوة الكرام، استنبط العلماء من هذه الآية:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (29))

أن الأصل في الأشياء الإباحة، لمن خلقت ؟ خلقت للإنسان فهي مباحة، إلا ما ورد فيه نص تحريمي، الأصل في الأشياء والأفعال الإباحة، ولا يُحرَّم شيءٌ منها إلا بنصٍّ صحيحٍ قطعي الدلالة، ديننا منهجي، الأصل في الأشياء الإباحة، والتحريم يحتاج إلى نص صحيح قطعي الدلالة، أما في العبادات فالعكس، الأصل فيها الحظر ولا تُشرع عبادةٌ إلا بنصٍ صحيح قطعي الدلالة، فالأشياء أصلها مُباحة، والعبادات أصلها محظورة، لذلك الذي يُحرِّم ما خلق الله للإنسان هو إنسان جانب الصواب:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ (29))

قد تقول: الله عزَّ وجل يعلم، والإنسان يعلم، تقول: الله عزَّ وجل قدير، والإنسان تقول: رجل قدير، فهل يُعقل أن تكون قدرة الإنسان كقدرة الله ؟ وأن يكون علم الإنسان كعلم الله ؟ واستواء الإنسان كاستواء الله؟ الله عزَّ وجل ليس كمثله شيء، كل ما خطر في بالك فالله بخلاف ذلك، لذلك أكمل شيء أن نوكل إلى الله المعنى الدقيق للآيات القليلة جداً المتعلقة بذات الله، كيف استوى الله إلى السماء ؟ الله أعلم بهذا الاستواء، الاستواء معلوم والكيفُ مجهول والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب، الاستواء معلوم لكن الكيفَ مجهول، استواء الله غير استواء الإنسان، استوى زيدٌ على بلاد الشام أي ملكها، إذا قلنا: ملكها، فبيد من كانت قبله ؟ هذا المعنى لا يليق بحضرة الله عزَّ وجل،

فالاستواء إذا نسب إلى الله فهناك معنى لا يمكن أن يكون كالمعنى البشري، لأن الله ليس كمثله شيء، لذلك قال الإمام مالك: **" الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب "**، هذا متعلقٌ بذات الله، الأكمل أن نَكِلَ إلى الله المعنى الدقيق للأشياء المتعلقة بذات الله، أو أن نُؤوِّلها تأويلاً وفق ما يليق بكمال الله:

(وَجَاءَ رَبُّكَ (22))

(سورة الفجر: آية " 22 ")

أي جاء أمره:

(إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17))

(سورة الأنفال)

أي علمه، وهكذا

الآية التالية تشير إلى المجموعة الشمسية:

قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ (29))

هناك تفسير دقيق، وجيد، ومقنع، وراجح، هو أن هذه السماوات السبع سبعٌ بشكلٌ دقيق، أحصى علماء التفسير خلال ألف ومئتي عام الكواكب فوجدوا أنها خمسة وهي: عطارد، والزهرة، والمريخ، والمشتري، وزحل، والآية سبعة، أضافوا الشمس والقمر فصار العدد سبعة، لكن الله عزَّ وجل يقول:

(أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً (16))

(سورة نوح)

في هذه الآية لا علاقة للشمس والقمر بالسماوات السبع، اكتُشف بعد ألف ومئتي عام أنه يوجد نجم سادس وهو أورانوس، ونجم سابع وهو نبتون، فكأن هذه الآية تشير إلى المجموعة الشمسية، والشمس مركز هذه المجموعة، والقمر تابع للأرض، فكواكب المجموعة الشمسية كما اتضح بعد ألف ومئتي عام هي سبعة نجوم: عطارد، والزهرة، والمريخ، والمشتري، وزحل، وأورانوس، ونبتون.

كل شيء يزهو الإنسان به موجود في الأرض ومسخَّر ومذلل:

أيها الأخوة الكرام، ثمة تفسير آخر ؛ كلمة سبعة تفيد التكثير في اللغة العربية، والقرآن حمَّال أوجه، لك أن تَعُد أن هناك سماوات كثيرة، ولك أن تقول: هناك سبع سماوات، هي سبعة نجوم سيّارة حول الشمس:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29))

على كلٍ هذه الأشياء مسخَّرةٌ لنا، ونحن لم نفعل شيئاً إلا أننا انتفعنا بها، كل شيء ظن الإنسان أنه قدَّمه هو موجود في الأرض، هو كشفه فقط، هل هناك إنسان صنع معدناً ؟ إنه اكتشف المعدن، ولكن عندنا وهم كبير أن الإنسان حقق معجزات، لم يفعل الإنسان شيئاً إلا أنه اكتشف واستفاد، أما الأشياء فهي موجودة، المعادن موجودة، البترول موجود، كل شيء يزهو الإنسان به موجود في الأرض، ومسخَّر، ومذلل.

ما بين الحياة والموت ينبغي أن يكون لله عزَّ وجل:

الشيء نفسه أحياناً يستعصي، الأرض مذللة فإذا اهتزت انتهى كل شيء، والرياح مذللة فإذا هاجت دمَّرت كل شيء، والماء مذلل فإذا زاد عن حدِّه المعقول دمَّر كل شيء، معنى هذا أن فيضان الأنهار، وانتشار العواصف المدمِّرة، وزلزال الأرض هذا يؤكِّد أن الإنسان ضعيف، وأنَ هذه الأشياء المذللة له أرادها الله مذللة، فماذا إذا أخرجها عن طبيعتها ؟ تملك بريطانيا أكبر قطيع بقر في العالم، وهي الدولة الأولى المصدِّرة للحوم البقر وتوابع هذه اللحوم، أطعمت البقر طحين لحم الجيَف، علماً أن البقر مصمم ليكون غذاؤه نباتياً، فأطعموه طحين اللحم، فجنَّ البقر، هذا الجنون اسمه الاعتلال الإسفنجي الدماغي، اضطرهم هذا الجنون إلى حرق ثلاثة عشر مليون بقرة، ثمنها ثلاثة وثلاثون مليار جنيه إسترليني، حينما جنَّت لم تعد مذللة، ومرضها قد ينتقل إلى الإنسان، هذا شيء خطير جداً، توقفت كل هذه التجارة، فالأشياء مذللة وإذا ظنّ الإنسان أنه سخَّر الطبيعة، وسيطر عليها، واستغلّها، وهي تعمل بإمرته، فإن هذا كلام فيه جهل كبير جداً، الشيء المذلل يستعصي بلحظة من اللحظات على أن يكون مذللاً لك، وهذا الشيء نراه كل يوم، إنسان يمشي، ولكنه يصبح مشلولاً بلحظة، يرى بلحظة يفقد بصره، يسمع بلحظة يفقد سمعه، يفكر بلحظة يفقد عقله، بلحظة يموت .

كنَّا في تعزية البارحة، شابٌ في الثانية والثلاثين من العمر، في ريعان الشباب، حافظٌ لكتاب الله، متقنٌ للقراءات العشر، توفَّاه الله عزَّ وجل بسبب صغيرٍ جداً، أصابه سعال شديد، وارتفع ضغطه،

فسبب له سكتة دماغية، وعمره اثنان وثلاثون سنة، من منَّا يضمن أن يعيش ثانية واحدة ؟ الله عزَّ وجل هو الذي خلق حياة الإنسان، وهو يخلق الموت، فهو:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2))

(سورة الملك)

ما بين الحياة والموت ينبغي أن يكون لله عزَّ وجل، القوس الأول للحياة، والقوس الثاني هو الموت، وأنت بين قوسين، وخالق الحياة هو الله، وخالق الموت هو الله، وهو معك دائماً فكيف تعصيه ؟ هذا شيء مستحيل.

مهما اعتنيت ببيتك القبر هو المثوى الأخير:

اليوم درسنا أيها الأخوة:

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ (28))

استفهام تعجُّبي، استفهام إنكاري، استفهام توبيخي:

(وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28))

والله أيها الأخوة الموت وحده أكبر درس، كل شيء تملكه تفقده بثانية، يكون للميت درج خاصّ فيه، بعض التحف، يُفتح هذا الدرج وتؤخذ مقتنياته يؤخذ مفتاح سيّارته، لا يوجد شيء في حياته حريص عليه إلا ويفقده بعد موته، يُصبح جثةً هامدةً، يكون معه مئات الملايين، الخام أسمر وليس مقصوراً لأنه يحرم استعمال المقصور، الكفن خام أسمر، والقبر ؛ لا يوجد قبر خمس نجوم، ولا نجمة، توجد نجوم الظهر، هذا هو القبر، فالقبر هو المثوى الأخير، مهما اعتنيت ببيتك القبر هو المثوى الأخير، وقد كان نقش خاتم عمر " كفى بالموت واعظاً يا عمر"، هذا الحدث الذي لا بدَّ منه، العاقل، والذكي، والموفّق الذي يُعِد لهذه الساعة التي لا بدَّ منها، هذا الحدث ـ حدث الموت ـ ينبغي أن لا تفاجأ به، ينبغي أن تسعى ليلاً نهاراً إعداداً له، لأن القبر سيكون روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران ؛ فآل فرعون:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً (46))

(سورة غافر: آية " 46 ")

منذ ستة آلاف سنة:

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46))

(سورة غافر: آية " 46 ")

من نعم الله علينا نعمة التنفس الآلي:

هذا القبر، والقبر مصير كل حيّ، فنحن في هذا المسجد كم أخ كان معنا ثم فقدناه ؟ والله مئات، كان ملء السمع والبصر توفاه الله عزَّ وجل وأصبح رهين عمله، وكلنا على هذا الطريق سائرون، والموت مصير كل حيّ:

(وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ (28))

كنا في طور العدم أحيانا الله، ثم أماتنا، ثم يحينا للحساب والجزاء، وكل ما في الكون خُلِق لنا، خُلِق لنا تكريماً، وخلق لنا تعريفاً، خلق لنا تكريماً وتعريفاً، ويمكن أن تنتفع بهذه الأشياء دون أن تعلم عنها شيئاً.

نعمة واحدة، إنسان ينام ويتنفَّس طوال الليل، يوجد مركز في البصلة السيسائية مسؤول عن تنبيه الرئة النومي، لو تعطّل هذا المركز تصبح حياة الإنسان جحيماً، ينام فيموت، إنه يحتاج إلى التنفُّس الإرادي، يُقلّص ويضغط، هذا المرض يصيب بعض الأشخاص، طبعاً من يصابون به يموتون على الفور، لأن الذي ينام يموت، حيث أن مركز التنفس المركز معطّل، يتوقف التنفس فيموت الإنسان، وجد له دواء الآن، ولكنه غالٍ جداً، ويجب أن تأخذه كل ساعة بالليل، يضع المريض عدة منبهات، فهل تعرفون نعمة التنفُّس الآلي ؟ نعمة الهضم الآلي، يحتاج الطعام خمس ساعات ليُهضم، وبآلية معقدة جداً ؛ حمض كلور الماء، والبنكرياس، والصفراء، والكبد، أنت كل وامش فقط، كل واذهب إلى النوم.

فضل الله علينا ونعمه لا تعد ولا تحصى:

لو كان الهضم بأيدينا ؛ عندي هضم لا أقدر !! لا أقدر أن أذهب عندي هضم، الهضم كل وارتح، يعمل القلب آلياً، لو كان القلب بيدك، فالانتحار وشيك، فكلْ وارتح، ليس القلب بيدك، والرئتان كذلك، ملايين النعم نعيشها ولا نعرف عنها شيئاً، أنت تمشي متوازناً على قدمين، لو اختل جهاز التوازن.

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29))

هذا من فضل الله علينا، ما علينا إلا أن نطيعه، وأن نحبَّه، وأن نعظِّمه، وأن نخافه، وأن نُخلص إليه، وأن نشتاق إليه، وأن نقول: إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، قل: إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (17- 95):تفسير الآية 30 ، الإنسان خليفة الله في الأرض

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-10-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

المعرفة الحسية والمعرفة العقلية:

مع الآية الثلاثين، وهي قوله تعالى:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30))

أيها الأخوة الكرام، بادئ ذي بدء هناك معرفة حسية تتم عن طريق الحواس، الأشياء المادية تعرفها عن طريق الحواس، وهناك معرفةٌ عقلية تحتاج إلى آثارٍ مادية يستنبط العقل منها حقائق هذه الأشياء، هذه هي المعرفة العقلية، فالشيء إذا ظهرت عينه، وظهرت آثاره سبيل معرفته الحواسُّ الخمس هذا هو اليقين الحسي، أما إذا غابت عينه، ذاته، وبقيت آثاره سبيل معرفته العقل، وهذا هو البصير العقلي، أما إذا كان الشيء مغيَّباً عنا أصلاً، ولا آثار له فالحواسُّ لا يمكن أن تعرفه ؛ لعدم وجود آثار له، ولا يمكن أن يعرفه العقل، لأنه ليس له آثار، هذا هو اليقين الإخباري، هذا التمييز دقيق، الأشياء التي تجسَّدت لها جُرْم، لها وزن، لها شكل، لها لون، لها رائحة، لها مَلْمَس، لها حَيِّز، لها طول، لها عرض، لها ارتفاع، هذه أشياء حسية، سبيل معرفتها الحواسُّ الخمس، أما جدار وراءه دخان، والعقل يقول: لا دخان بلا نار، فالعقل رأى آثار النار وهو الدُخان فحكم بوجود النار من آثار النار فقال: لا دخان بلا نار.

إذاً وراء هذا الجدار نار، الكهرباء لا تُرى بالعين لكن تألُّق المصابيح، تكبير الصوت، حركة المراوح تبيِّن أن هناك قوة كهربائية موجودة، فهذه المعرفة معرفة عقلية، والمعرفة العقلية لا بدَّ من أن تعتمد على حِسِّيات، على آثار حِسِّية، أما إذا لم تكن هناك آثار حسية فلا توجد معرفة عقلية، لأن العقل يعتمد على الأثر ويحكم منه على المؤثِّر، أي أنه يرى النظام فيكتشف المنظِّم، يرى التسيير فيعرف المسَيِّر، يرى الحكمة فيعرف الحكيم، يرى آثار العلم فيعرف العليم، يرى آثار القُدرة فيعرف القدير، هذا هو العقل.

المعرفة الإخبارية هي النوع الثالث من أنواع المعارف:

لو تخيَّلت شيئاً غابت عنا ذاته وغابت عنا آثاره، لا يستطيع العقل أن يعرفه إطلاقاً، نقول: هذه الأشياء التي غابت عنا ذاتاً وآثاراً لا سبيل إلى معرفتها إلا بالخبر الصادق، الآن ما الموضوعات التي يمكن أن تكون من المرتبة الثالثة ؟ الماضي السحيق، قصة خلق الإنسان، قصة خلق العالم، المستقبل البعيد، ماذا بعد الموت ؟ الجنة، النار، الحوض، الصراط كلها خبر صادق، المستقبل، الماضي السحيق خبر صادق، كائنات ليس لها آثار ؛ الجن خبر صادق، الملائكة خبر صادق، هذا هو المنهج الإسلامي، المعرفة حسية أو عقلية أو إخبارية، قصة خلق الإنسان من النوع الثالث، لا تستطيع الحواس أن تعرفها، ولا يستطيع العقل أن يثبتها، الحواس معطلة والعقل معطّل، ليس عندنا إلا الخبر الصادق، وقيمة هذا الخبر من قيمة قائله، فالصادق خبره صادق.

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً (87))

(سورة النساء)

دقق في هذه الآية:

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ (13))

(سورة الكهف)

هناك معنى مخالف يستنبط من الآية من يكشفه ؟

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ (13))

(سورة الكهف)

معنى ذلك أن كل قصة وردت مخالفة لبيان القرآن وردَت بالباطل.

الموضوع الإخباري سبيل معرفته الخبر الصادق:

الذين يقولون: " إن الإنسان أصله قِرْد "، هم يقصّون نبأ الإنسان الأول بالباطل لماذا ؟ لشيءٍ بديهي لأن الله عزَّ وجل يقول:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (51))

(سورة الكهف)

أي إذا جلس إنسان عمره ثمانون سنة في مجلس مع مجموعة من التُجَّار وقال: أنا أخذت محلاً من زمن بعيد بسوق الحميدية وكلّفني خمسة آلاف ليرة، فقال له ابنه الذي كان عمره آنذاك اثنتي عشرة سنة: يا أبي هذا الكلام غلط، فنظر إليه ـ القصة من أربعين سنة ـ قال له: هل كنت وقتها ؟ هل كان لك وجود وقتها عندما أخذت المحل بخمسة آلاف ؟

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (51))

من منا شهد بداية العالم ؟ من منا شهد خلق آدم ؟ هذا موضوع إخباري، لا سبيل إلى معرفته إلا بالخبر الصادق فقط، وإذا كان الخبر من عند الله عزَّ وجل، من عند خالق السماوات والأرض، فأنت تَرْكلُ بقدمك مليون قصة وتؤمن بما قاله الله عزَّ وجل، هناك نظريات لا تُعَدُّ ولا تحصى عن بداية العالم وعن أصل الإنسان، بعضهم يقول: كان مخلوقاً وحيد الخلية، ثم تعقَّدت حياته إلى أن صار إنساناً سوياً، بعضهم يقول: أصله قرد، و ارتفع القرد درجة فدرجة فصار إنساناً، العبرة أن هذا الموضوع إخباري، سبيل معرفته الخبر الصادق.

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً (87))

(سورة النساء)

قصص الله عزّ وجل لها أهداف كبيرة جداً:

إذاً دقق:

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ (13))

(سورة الكهف)

إذاً هناك من يَقُصُّ عليك نبأهم بالباطل، هناك من يقدِّم لك رواية عن بداية العالم بالباطل، تكهُّنات ما أنزل الله بها من سلطان، ليس لها دليل، تكهُّن، تخيُّل، توهُّم، لكن لا يوجد دليل حسي لأن الشيء غائبٌ عن حواسنا، ولا يوجد دليل عقلي لأنه ليس له آثار، ليس له ذات نكشفها بحواسنا، وليس له آثار نكشفها بعقولنا، إذاً قصة بداية العالم، قصة خلق الإنسان لا نأخُذها إلا من الواحد الديان، وأية روايةٍ، وأي عرضٍ، وأي تحليلٍ، وأي تصورٍ لخلق الإنسان إن خالف القرآن اركله بالأقدام، وانتهى الأمر، هذه النقطة الأولى.

الآن لماذا يقص الله علينا القَصَص ؟ الإنسان من عادته أن يقرأ القصة ليمضي الوقت بها، ليستمتع بها، يقول لك: لأقتل الوقت بها، إذا كان مسافراً، جالساً بمفرده في فندق يأخذ معه قصة ليقرأها، كل قصص بني آدم لعلها من هذا القبيل، إلا أن قصص الله عزّ وجل لها أهداف كبيرة جداً،

قال تعالى:

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

(سورة يوسف: آية " 111 ")

القصة لها دور تربوي خطير، يقول الله عزَّ وجل في آية ثانية:

(وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (120))

(سورة هود)

معنى ذلك أن الله عزَّ وجل حينما يَقُصُّ على النبي صلى الله عليه وسلم قصة لِيُثَبِّتَ فؤاده، لكن من هو أولى بالتثبيت النبي أم نحن ؟ نحن أولى، لأن يكون التثبيت على قدر الإيمان، وأعلى إيمان هو إيمان النبي عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك:

(وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ (120))

(سورة هود)

نحن من باب أولى، معنى ذلك أن القصة لها هدف تربوي كبير.

قصة سيدنا يونس قصة وقعت والله تعالى جعلها قانوناً حينما عقَّب عليها:

إذا قرأ الإنسان قوله تعالى عن سيدنا يونس:

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87))

(سورة الأنبياء)

هل هناك واحد بالمليار أمل لنجاة إنسان وجد نفسه في بطن الحوت، وفي أعماق البحر ؟ وفي الليل ؟ كم نسبة الأمل في النجاة ؟ صفر، إنسان وجد نفسه في بطن حوت في الليل في أعماق البحر، سيدنا يونس نادى:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88))

نجيناه هو:

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ (88))

قصة وقعت، أما حينما عقَّب الله عليها جعلها قانوناً، قال:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88))

أي أنت أيها المؤمن في أي زمان، في أي مكان، في أي ظرف صعب، مهما بدا لك الظرف حرجاً، مستحيلاً، ضيِّقاً، لا تخف لأن الله عزَّ وجل يتدخل وينقذك، مهما كان المرض عضالاً، مهما كان الفقر مدقعاً، مهما كان العدو شرساً.

القصص في القرآن الكريم هادفة لتثبيت المؤمنين ولإحداث أثر عميق جداً في نفس المؤمن :

أيها الأخوة الكرام، هناك في القرآن الكريم تطمينات من قبل الله لكن الناس لا ينتبهون إليها.

(ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (18))

(سورة الأنفال)

أي أن كيدهم يضعِفُهُ الله عزَّ وجل إن كنتم أنتم مؤمنين، إن كنتم مؤمنين فالله سبحانه وتعالى موهن كيد الكافرين.

الشيء الثاني: هذه القصص، قصة تبيِّن لك أهل الكهف مثلاً، هؤلاء الفتية الذي فرّوا بدينهم إلى الكهف، هذا نموذج متكرر، ذو القرنين الذي مَكَّنَهُ الله في الأرض فأقام العدل، هذا نموذج متكرر يجب أن يحتذى، السيدة مريم حينما أُشيع عنها أنها زانية لكن الله برَّأها هذه قصة، سيدنا نوح حينما دعا قومه ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً، هذا النفس الطويل في الدعوة، كل نبي يمثِّل نموذجاً بشرياً، سيدنا إبراهيم عانى من أبيه، والسيدة آسيا عانت من زوجها، وسيدنا لوط عانى من زوجته، وسيدنا نوح عانى من ابنه، وسيدنا يوسف دخل السجن ظلماً، فكل نبي له قصة يحتاجها كل مسلم، إذاً القصص في القرآن الكريم هادفة، هادفة لتثبيت النبي، وتثبيت المؤمنين، وهادفة إلى إحداث أثر عميق جداً في نفس المؤمن.

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى (111))

(سورة يوسف: آية " 111 ")

رؤية لقصة سيدنا موسى من عدة زوايا:

أضع بين أيديكم قصة سيدنا موسى، وهذه القصة وردت في القرآن الكريم سبع عشرة مرة، هذه القصة من بعض عُروضها:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ (7))

(سورة القصص: آية " 7 ")

أمران:

(أَرْضِعِيهِ)

وإذا خفت علي

(فَأَلْقِيهِ)

في اليم، ونهيان:

(وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي (7))

(سورة القصص: آية " 7 ")

وبشارتان:

(إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7))

(سورة القصص: آية " 7 ")

يتوهم الإنسان أن القصة مكررة، ففي آية ثانية:

(إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ (39))

(سورة طه)

اليم مأمور من قبل الله عزَّ وجل أن يأخذه إلى الساحل، وعدو الله، وعدو موسى مجبور على أن يلتقط هذا الغلام:

(يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ (39))

(سورة طه: آية " 39 ")

وألقى الله عزَّ وجل على سيدنا موسى محبَّة:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39))

رأته امرأة فرعون فأحبَّته حباً كثيراً:

(وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(9))

(سورة القصص)

الآية الثانية ليست تكراراً، لكنها إغناء لتفصيلات لم ترد في الآية الأولى، الآية الثالثة:

(فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً (8))

(سورة القصص: آية " 8 ")

النتيجة: آية أعطت البدايات، آية أعطت التفصيلات، آية أعطت النتائج، فلا يوجد تكرار، لكن من عدة زوايا ! يمكن أن تأتي إلى دمشق من طريق درعا، جبل قاسيون له منظر فأخذنا له صورة، يمكن أن تأتي دمشق من طريق بيروت جبل قاسيون له منظر أخذنا صورة أخرى له، يمكن أن تأتي إلى دمشق من طريق حلب جبل قاسيون له زاوية منظر التقطنا صورة، لو جمعنا هذه الصور الثلاث من الزوايا الثلاث لظهر معنا مجسَّم لقاسيون، هذه الزوايا إذا تعاونت وتكاملت تعطي شكلاً كاملاً ومجسماً بأبعاده الثلاث.

معنى الأمانة:

أيها الأخوة، الله عزَّ وجل يقول:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ (30))

الملائكة مخلوقاتٌ كُلّفوا أن يكونوا رسلاً بين الله وخلقه، هناك فعل باللغة اسمه لأكَ، أي أرسل، لأك يألكُ، أرسل يرسل، ومنه المَلَك، فالملائكة مخلوقات ليست مكلَّفة لأنها اختارت القرب من الله عزَّ وجل، يسبِّحون الله لا يفترون، هؤلاء لهم مهمَّات كثيرة من أول مهمَّاتهم أنهم رسلٌ بين الله وخلقه.

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (30))

أي أن الله عزَّ وجل خلق الخلق في عالم الذّر، وعالم الذّر قبل عالم الصوَر، لم يكن هناك صور للمخلوقات، مجرَّد مخلوق، هذا المخلوق صار جبلاً، هذا المخلوق صار زهرةً، هذا المخلوق صار

حصاناً، هذا المخلوق صار أفعى، هذا المخلوق صار إنساناً، خلق الخلق في عالم الذّرْ، وعرض عليهم الأمانة:

(إنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ (72))

(سورة الأحزاب: آية " 72 ")

الأمانة أن يَمْلِكوا أنفسهم ويزَكُّوها، فإن زكوها استحقوا نعيماً أبدياً لا حدود له.

قبلَ الإنسان حمل الأمانة فصار المخلوق الأول:

قال تعالى:

(إنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (72))

أي عرضنا على إنسان أن يقود قطاراً براتب محدود جداً، وعرضنا عليه أن يقود سيارة كبيرة لنقل الركاب براتب أعلى، لأن القطار ليس عنده أخطار، ولا حوادث، فهناك سكة يمشي عليها، وعرضنا على إنسان أن يكون طياراً، هو يحتاج إلى علم عالٍ جداً ويحتاج إلى خبرة عالية جداً، وإلى صفات نفسية عالية جداً، وليس له راتب، معه شيك مفتوح مثلاً، هناك وظيفة محدودة المسؤولية سهلة العمل لكن دخلها محدود، ووظيفة أعلى، ووظيفة أعلى، فربنا عزَّ وجل عرض عرضاً مغرياً جداً، عرض على المخلوقات أن يحملوا أمانة أنفسهم فيزَكّوها، ومعنى يزكوها أي أن هناك نوازع، وشهواتٍ، وأهواءً، وحرية اختيار، وعقلاً، وفطرة، وكَوْناً، ومنهجاً، ورُسُلاً، القضية معقدة.

قال أب لولده: تعال إلى المحل واعمل بطعامك وبمصروفك، وعرض على ابن آخر: أتحب أن تحمل أعلى شهادة في العالم ؟ أعطيك نصف أملاكي، هناك بالطبع سفر، وهناك لغة، وهناك أخطار، وهناك جامعات صعبة جداً، وهناك جهد ثلاثين سنة، ولكنه إذا قبل هذا العرض، ونجح فيه فله مكانة عليّة في المجتمع، هذه الأمثلة تقرِّب معنى الآية:

(إنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (72))

قبلَ الإنسان حمل الأمانة فصار المخلوق الأول:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (70))

(سورة الإسراء)

الإنسان حينما قبل حمل الأمانة سخَّرَ الله له الكون كله ومنحه قوةً إدراكية وهي العقل :

هذا الإنسان الذي قبل حمل الأمانة، لأنه قبل حملها:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13))

(سورة الجاثية)

هذا قرآن:

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ (13))

(سورة الجاثية)

اطلعت اليوم على موسوعة علمية مترجمة تحوي العدد التقريبي للمجرات، يحوي العالم اليوم مئة ألف مليون مجرة، مجرتنا درب التبانة مجرة متوسِّطة فيها مئة ألف مليون كوكب ونجم، طول هذه المجرة المتوسطة المتواضعة مئة ألف سنة ضوئية، ما المسافة التي يقطعها الضوء في الثانية ؟ عرض هذه المجرة خمسة وعشرون ألف سنة ضوئية، إذا مثّلناها على شكل عضلة أو مغزل، وجئت بقلم ناشف ووضعت نقطة على هذا المغزل، هذه النقطة هي المجوعة الشمسية، طول المجموعة الشمسية ثلاث عشرة ساعة، ولكن طول المجرة مئة ألف سنة ضوئية، المسافة بين الشمس والأرض ثمانية دقائق، وبين الأرض والقمر ثانية واحدة، لكي تعرف، أرض قمر ثانية، أرض شمس ثمانية دقائق، المجموعة الشمسية كلها ثلاث عشرة ساعة، طول مجرتنا مئة ألف سنة ضوئية وهي مجرة معتدلة صغيرة وهناك مئة ألف مليون مجرة، يقول تعالى:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ (13))

(سورة الجاثية)

لأنك أيها الإنسان قبِلتَ حمل الأمانة سخَّرَ الله لك الكون كله، هذه واحدة، حينما قبل الإنسان حمل الأمانة كرَّمه الله، وسخَّر له الكون، منحه قوةً إدراكية وهي العقل الذي يعد أعقد شيءٍ في الكون.

العقل خُلق لتعرف الله به لكن البعض أساء استخدامه:

مرة قرأت كلمة أنه لو أردنا أن نصنع حاسوباً أو كمبيوتراً يؤدّي وظائف العقل البشري لاحتجنا إلى أضخم شارع في نيويورك، وكل الأبنية على طرفي الشارع ناطحات سحاب، تحوي جميع هذه الأبنية مكثّفات من الداخل ومن الخارج، حتى يؤدِّي هذا الشارع الضخم بكل أبنيته الشاهقة مهام العقل البشري، الذي هو أعقد آلة في الكون، وهذا العقل البشري خُلِقَ لتعرف الله به فاستخدمه الناس لجني المال الحرام، للسرقة، لارتكاب الجرائم، للسيطرة على العالم، لإيقاع الفتن بين الشعوب، لجمع الثروات بالباطل، الكفار أذكياء جداً، يضعون الخطط المدهشة من أجل استعباد الشعوب، من أجل نهب ثرواتهم، يقومون بتمثيليات مذهلة، كل شيء يفعلونه تمثيلاً من أجل جر الثروات إليهم، مستخدمين العقل البشري، مع أن العقل خلق لتعرف الله به.

يمكن أن تستعمل آلة تصوير ملونة لتزوِّر بها العملة ويكون المصير إلى السجن، ولك أن تستخدمها استخداماً إيجابياً فتصبح غنياً جداً من خلالها، الآلة واحدة، إن استخدمتها لغير ما صنعت له بالتزوير فالمصير إلى السجن، وإن استخدمتها في تصميم الأغلفة، والتقاويم، والبطاقات تعش من ورائها حياة كريمة جداً، والآلة واحدة.

معان متعددة لكلمة (خليفة):

أيها الأخوة، جعل الله عزَّ وجل هذا الإنسان المخلوق الأول، جعله خليفة له، معانٍ كثيرة جداً.

1- المعنى الأول لكلمة (خليفة) أي يأتي بعضهم وراء بعض ليتعظوا:

أول معنى من معاني خليفة:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (30))

أي أن سيدنا آدم حينما كان في الجنة لم يخرج منها بسبب أنه أكل التفاحة، لا، فسيدنا آدم مخلوق في الأصل للأرض، والدليل هذه الآية، لكن الله جعل هذا الدرس البليغ له ولذريته من بعده، فليس التصميم أنه مخلوق للجنة، فلما أخطأ نقل للأرض، لا فالإنسان في الأصل مخلوق للأرض.

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (30))

لكن الله شاءت حكمته أن يعطي سيدنا آدم درساً بليغاً في عداوة الشيطان، أما مصير الإنسان فهو إلى الأرض، هذه النقطة الأولى.

النقطة الثانية، جعله خليفة أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن، جيلاً بعد جيل، كما قال الله تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ (165))

(سورة الأنعام: آية " 165 ")

وقال:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60))

(سورة الزخرف)

وقال:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ (59))

(سورة الأعراف: آية " 169 ")

توضح هذه الآيات معنى كلمة الخليفة، وهو الله عزَّ وجل شاءت حكمته أن يأتي الناس إلى الدنيا تِباعاً، وأن يغادروها تباعاً ليتَّعظ بعضهم ببعض، هذا معنى من معاني:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (30))

2- المعنى الثاني لكلمة (خليفة) أي لكرامة الإنسان عند الله أعطاه بعض صفاته:

المعنى الثاني: أن الله لكرامة الإنسان عنده أعطاه بعض صفاته، الله عزَّ وجل فرد، وجعل الإنسان فرداً، ليس في الأرض كلها إنسان يشبهُك، أنت فرد نسيج وحدك، بلازما الدم تنفرد بها، رائحة الجلد تنفرد بها، قزحية العين تنفرد بها، الزمرة النسيجية تنفرد بها، نبرة الصوت تنفرد بها، بصمة اليد تنفرد بها، لكرامتك عنده جعلك فرداً لا مثيل لك، ولا مشابه لك، هكذا شاءت حكمة الله، لكرامتك عنده سمح لك أن تُشَرِّع، أعطاك نصوصاً ظنية الدلالة، ولك أن تجتهد، لكرامتك عنده سمح لك أن تُبْدِع عن طريق المورِّثات والتهجين، فالإنسان الآن يبدع في النباتات، وفي الحيوانات، وفي الزراعة، لكرامتك عنده سمح لك أن تحكم، جعلك خليفةً في الأرض لتقيم العدل، وتردع الظالم، وتكافئ المحسن، مَكَّنَك في الأرض، في الشخص القوي بيده مصير الأشخاص الآخرين، هذا خليفة الله في الأرض.

(يَا داود إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ (26))

(سورة ص)

الأنبياء والأولياء والعُلماء والدعاة هؤلاء خلفاء الله في أرضه ليقيموا أمر الدين، والملوك والأقوياء خلفاء الله في أرضه ليقيموا أمر الدنيا، فالله عزَّ وجل أعطى الإنسان قوة، الإنسان لديه قدرة أن يحرك جيشاً، يعلن حرباً، يفجِّر قنبلة مثلاً، سمح الله للإنسان أن يكون قوياً، فكلمة جعله خليفته في الأرض، المعنى الأول: يأتي بعضهم وراء بعض، والمعنى الثاني: لكرامة الإنسان عند الله أعطاه بعض صفاته، وهناك حديث يحتاج إلى شرح طويل:

((خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ على صُورَتِهِ))

[رواه حيى بن جعفر عن أبي هريرة]

لكرامة الإنسان عند الله عزَّ وجل.

3- المعنى الثالث لكلمة (خليفة) أي أن الإنسان مُمَكَّن أمره نافذ ومعه سلطة:

إذا كان لك أولاد، أنت تزوّجت أمهم وأنجبت هؤلاء، جعل أمرهم بيدك، طعامهم وشرابهم بيدك، تربيتهم بيدك، مستقبلهم بيدك، توجيهَهُم بيدك، أنت خليفة الله في أسرتك، أنت معلّم أنت خليفة الله في صَفّك، مدير مدرسة أنت خليفة الله في هذه المدرسة، أنت مدير تربية فأنت خليفة الله في هذه المحافظة، وزير تربية في القطر، كل إنسان ممكَّن؛ هذا بالتربية، هذا بالصحة، هذا بالاقتصاد، هذا بالأوقاف، فالإنسان مُمَكَّن معه صلاحية، أمره نافذ، معه سلطة، هذا معنى ثالث.

المعنى الأول: الخليفة أي نأتي إلى الدنيا تباعاً ونغادرها تباعاً.

المعنى الثاني: لكرامتك عند الله منحك شيئاً من صفاته، أنت فرد، فرد في أشياء كثيرة، صُنِعت أقفال الآن لا تُفتح إلا على قزحية العين لأنه لا يوجد إنسان في الأرض يشبهك في قزحية العين

فهذا القفل لن يُفتَح إلا من قِبَل صاحبه، رائحة الجلد، نبرة الصوت، بلازما الدم، الزُمرة النسيجية، بصمة اليد، جعلك فرداً، جعلك مُشَرِّعاً، جعلك مبدعاً، جعلك مريداً أعطاك حرِّية الاختيار، جعلك حاكماً تقيم العدل وتقمع الظلم.

الإنسان شيء كبير جداً يمكن أن يقوم بأعمال لا تفعلها الجبال:

قال تعالى:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (30))

من الممكن أن يجعل الله على يدك هداية مليون شخص أو مليار كالنبي عليه الصلاة والسلام، المسلمون مليار ومئتي مليون في صحيفة واحد، ويمكن والعياذ بالله أن يكون خمسون مليون قتيل في الحرب العالمية الثانية بسبب شخص واحد كهتلر، الإنسان شيء كبير جداً يمكن أن يقوم بأعمال لا تفعلها الجبال، ويمكن أن يقوم بجرائم لا تفعلها أشرس الوحوش في الأرض ؛ هذا الذي ألقى قنبلة على هيروشيما أباد ثلاثمئة ألف إنسان في ثلاث ثوان، توجد الآن حروب ؛ حروب كيماوية، حروب غازية، حروب جرثومية، توجد أسلحة فتَّاكة، توجد قنابل حارقة على بعد دائرة قطرها مئتي متر يصبح فحماً، النابالم أعطى للإنسان قدرات سمح له أن يخترع البارود، القنابل، أن يطير في أعماق السحاب، أن يغوص في أعماق البحار، أن يصل إلى القمر، أعطاه إمكانات مذهلة، الإنسان معه إمكانات بشكل غير معقول.

قمَّة الكمال البشري النبوّة وحضيض السقوط البشري الإجرام:

يقول لك: الإنسان أصله قرد، ماذا فعل القرود ؟ اخترعوا طيارة ؟ أنت تركب طيارة ستمئة وستين راكباً كلّها طعام وشراب، وقهوة وشاي، ومقاعد مريحة على ارتفاع أربعين ألف قدم، هل نقلوا الصورة والصوت ؟ ما هو موضوع الفاكس ؟ موضوع الأجهزة، الإنترنت، شيء لا يُصدق، هذا كلّه من إنجاز الإنسان، جعله خليفته في الأرض، المشكلة أن هذه الإمكانات الضخمة التي أعطاها الله للإنسان استخدمها في الشر، هذه الأجهزة المعقَّدة المذهلة جداً جعلها لإفساد الأخلاق، ماذا في المحطَّات الفضائية ؟ إفساد، ماذا في هذه الأجهزة المعقَّدة جداً لنقل الصورة ؟ إفساد عقائد، وإفساد أخلاق، وإفساد بيئة، الإنسان لأنه مخيَّر كل شيء فيه حيادي، قمَّة الكمال البشري النبوّة، وحضيض السقوط البشري الإجرام، هناك أشخاص يتلذَّذون بشقاء الآخرين، يمكن لشعب متقدم عند الناس مزدهر حسب مقاييس البشر وفي عصر العلم أن يقيم رفاهيته على أنقاض شعوب، ماذا يفعل أعداء الإنسانية ؟ يخلقون مشكلات في العالَم ويبيعون أسلحة، ويعيشون على أنقاض الشعوب، هذا الذي يحدث بؤر متوترة في العالم ؛ في آسيا بؤرة، في الصين بؤرة، في السودان بؤرة، في إفريقيا بؤرة،

بؤر متوترة تحتاج إلى أسلحة، يبيعون أسلحة بعقود إذعان وبأسعار خيالية ويعيشون على أنقاضنا جميعاً، لغير ما صُنِع له، أما العقل فهو يجعلك أكبر مؤمن، يجعلك أكبر مُصلِح، يجعلك أكبر إنسان، استُخدِم العقل البشري لغير ما صُنِع له، فلذلك:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (30))

خليفة يخلفني، أي إنسان رحيم والله رحيم، إنسان عليم، إنسان عادل، إنسان لطيف، إنسان قوي.

أسماء الله عزَّ وجل كلّها حسنى وصفاته فُضلى:

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39))

(سورة الشورى)

إنسان عَفو ـ اذهبوا فأنتم الطلقاء ـ كأن الله عزَّ وجل أراد أن نتخلَّق بكماليات الله عزَّ وجل ؛ بالرحمة، بالشفقة، بالإنصاف، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[البخاري عن عائشة]

عدل، رحمة، عفو، حلم ـ اذهبوا فأنتم الطلقاء ـ لمن هذا الوادي ؟ هو لك. ما معنى خليفته في الأرض؟ أي إنه اقتبَس من كماليات الله، أسماء الله عزَّ وجل كلَّها حسنى وصفاته فُضلى، خليفته في الأرض اقتبس منه الرحمة، والعدل، والقوة، والحرص، والإنصاف، هذا كلّه مُقتبس من الله، هذا معنى:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (30))

قالت الملائكة:

(قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30))

خلق الله تعالى الجن قبل الإنس وعليه قاست الملائكة أن الإنسان سيفسُد ويسفك الدماء:

طبعاً تردد هذا السؤال مرَّات عديدة، كيف عرفت الملائكة أن الإنسان سيفسُد وسيسفك الدماء ؟ تجيب الآية عن ذلك:

(وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ (27))

أي من قبل الإنسان:

(مِنْ نَارِ السَّمُومِ (27))

(سورة الحجر: آية " 27 ")

عالم الجن ارتكبوا الموبقات، وسفكوا الدماء، وفسدوا في الأرض، فالملائكة قاسوا على الجن، لأن الله عزَّ وجل أعطى الأمانة للإنس والجن معاً:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ (33))

(سورة الأنعام: آية " 130 ")

وقال:

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (31) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (32))

(سورة الرحمن)

وقال:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

(سورة الذاريات)

الكمال في خلق الإنسان أن تأتي الآخرة متوافقة مع الدنيا فقط:

لصنفان اللذان قَبِلا حَملَ الأمانة هما صنف البشر وصنف الجن، وهما مكلّفان، وكل جنس له طبيعة خاصَّة، فالبشر من طين والجان من نار، لذلك قالت الملائكة:

(أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(30))

أي إذا أنشأنا جامعة ضخمة جداً، وقسم من طلابها وليكن ربع الجامعة لم يدرسوا، ولم يتعلموا، وأهملوا واجباتهم هل نلغي الجامعة ؟ لا، لأنه يوجد طلاب في المقابل نالوا شهادات عُليا، وقدَّموا لأمتهم خدمات كبيرة جداً، فلو فرضنا أنه يوجد قسم فاسد هل نلغي الجامعة ؟ إننا لا نلغيها:

(قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30))

سيكون هناك أنبياء كبار، وأولياء، ومؤمنون، ومجاهدون، ومجتمعات راقية جداً:

(قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30))

هل الكمال في الجامعة أساساً أن ينجح جميع الطلاَّب كلّهم بتفوق ؟ لا، الكمال في الجامعة أن تأتي النتائج وَفق المقدّمات، عندما ينجح المجتهد ويرسب الكسول هذا كمال في الجامعة، الكمال في خلق الإنسان أن تأتي الآخرة متوافقة مع الدنيا فقط.

آيات من الذكر الحكيم تبين أن الله لا يتدخَّل لأن الإنسان مخير :

قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا (46))

(سورة فصلت: آية " 46 ")

الله لا يتدخَّل لأن الإنسان مخير:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (29))

(سورة الكهف: آية " 29 ")

وقال:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

(سورة الإنسان)

وقال:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ (148))

(سورة البقرة: آية " 148 ")

ليس الكمال أن يكون الناس كلهم مؤمنين بل الكمال أن يُعطى كل ذي حقٍ حقه:

الإنسان مخير، ولذلك ليس الكمال أن يكون الناس كلهم مؤمنين، لا، الكمال أن يُعطى كل ذي حقٍ حقه، الكمال:

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15))

(سورة طه)

هذا هو الكمال، افعل ما تشاء كما قال الله عزَّ وجل:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ (40))

(سورة فصلت: آية " 40 ")

افعل ما تشاء ولكن لكل شيء ثمن:

((ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف له ذلك من نيته إلا جعلت الأرض تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه))

[رواه ابن عساكر عن كعب بن مالك]

الكمال أن تأتي النتائج مطابقة للمقدِّمات فقط، قال الله عزَّ وجل:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ (40))

(سورة فصلت: آية " 40 ")

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي والبيهقي عن سهل بن سعد البيهقي عن جابر]

الإنسان وحده هو المسؤول ولن يحاسَب أحد عن أحد:

تصبح الآية:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30))

أنا سأخلق مخلوقات، أعطيها حرية الاختيار، أعطيها عقلاً، أسخِّر لها الكون تسخير تعريفٍ وتكريم، أعطيها شهوات، أعطيها منهجاً:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا (46))

(سورة فصلت: آية " 46 ")

أنت مسؤول، هذا الدرس مصيري يحدد مصير الإنسان، افعل ما تشاء، الله عزَّ وجل ينبِّهك، يُسمِعُك الحق، يضيِّق عليك لكنك في النهاية مخير، وعملك بسبب اختيارك، وأنت وحدك المسؤول، ولن يُحاسب إنسان عن إنسان:

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ (84))

(سورة الإسراء)

وقال:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (164))

(سورة الأنعام: آية " 164 ")

هذه الآية تبين أنك المخلوق الأول، والمكرَّم، والمكلَّف، وأنت خليفة الله في الأرض، خليفته على مستوى أب، خليفته على مستوى معلِّم، خليفته على مستوى طبيب، خليفته على مستوى مهندس، خليفته على مستوى مدير دائرة ، أنت خليفته في الأرض.

العبرة أن تأتي النتائج وَفْقَ المقدمات فقط:

جاء في بعض التفاسير:

(إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30))

أي أن الله تعالى يقول:

((إنني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف ما لا تعلمون مع كل المفاسد التي ذكرتموها، سأجعل فيهم الأنبياء، أرسِل فيهم الرُسل سيكون فيهم الصدّيقون، والشهداء، والصالحون، والعبَّاد، والزهَّاد، والأولياء، والأبرار، والمقرَّبون، والعلماء العاملون، والخاشعون، والمحبَّون لي، والمتبعّون لرسلي، وقد ثبت في الصحيح: أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى

بأعمال عباده يسألهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون آتيناهم وهم يصلّون.. فقد ورد عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: " يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاةِ الْفَجْرِ وَصَلاةِ الْعَصْرِ ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ))

[البخاري عن أبي هريرة]

هؤلاء في المسجد هنا، لماذا أنتم هنا ؟ لا يوجد طعام ولا يوجد شراب، ولا تكريم ولا رواتب آخر الشهر، أنتم أتيتم لمعرفة الله، أتيتم لوجه الله، إذاً:

(أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(30))

يوجد عباد مؤمنون، صادقون، مخلصون، محبّون، ورعون، مقبلون، محسنون، متفوّقون، العبرة أن تأتي النتائج وَفْقَ المقدمات فقط:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (15))

(سورة الجاثية)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (18- 95):تفسير الآيات 31-33 ، كرَّم الله الإنسان بالعلم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-10-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل علم النبي على علم أعلم علماء الأرض كفضل الله على خلقه:

مع الآية الواحدة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ(33))

أيها الأخوة الكرام، محور هذه الآيات أن آدم عليه السلام وذُرِّيّته مخلوقاتٌ متميِّزة قبلت حمل الأمانة، وحينما قبلت حمل الأمانة فُتِحت لها أبواب المعارف، فسيدنا آدم علَّمه الله، وحينما يعلّم الله الإنسان فإن هذا الشيء يصعب تصوره، الله عزَّ وجل علَّم النبي قال تعالى:

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5))

(سورة النجم)

فضل علم النبي على علم أعلم علماء الأرض كفضل الله على خلقه، يتباهى الطالب أحياناً أنَّه تلميذ فلان، علّمني فلان، علّمني هذا الأستاذ الكبير، فكلّما كان قدر المُعَلِّم كبيراً كان افتخار الطالب بمعلّمه أكثر، فإذا كان المعلّم هو الله، فهذا الشيء يكاد لا يُصدَّق، لأن الله يعلّم الإنسان بطريقةٍ تعطيه كل شيء في أقلّ زمن، الطالب الآن يأتي ببعض الأحاديث الشريفة، يضبطها، ويشرحها، ويستنبط منها بعض الأحكام، ويقدِّم هذا البحث رسالة دكتوراه، تُناقش هذه الرسالة ويُعطى لقب دكتور، لماذا ؟ لأنه فهم بعض أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين مقام النبي عليه الصلاة والسلام ؟

يا أيها الأمي حسبك رتبةً في العلم أن دانت لك العلماء

***

سبب جعل النبي عليه الصلاة والسلام أمياً:

أقف عند كلمة:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ (31))

كما أن الله علّم آدم الأسماء علّم النبي عليه الصلاة والسلام كل شيء، لماذا جعله أمّياً ؟ لأنه لو استقى من ثقافات عصره ثم جاءه وحيّ السماء لتداخلَ علم الأرض مع علم السماء، ولو كان الأمر كذلك لسأله أصحابه كل دقيقة، هل هذا الكلام من ثقافتك أم من وحي السماء ؟ فالله سبحانه وتعالى جعل وعاء النبي خالياً من كل ثقافةٍ أرضية، وجعله:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم)

علّم الله آدم عليه السلام، كما أن الله تعالى علّم نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام.

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ (31))

اختلف العلماء في هذه الكلمة، أولاً اختلفوا في آدم، لمَ سمِّي آدمُ آدماً ؟ قال: لأنه أُخِذَ من أديم الأرض ـ من تراب الأرض ـ وصنعه الله بيده، ونَفَخَ فيه من روحه، فهو المخلوق الأول.

الإنسان مركّب من عقلٍ وشهوة:

قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (70))

(سورة الإسراء)

الإنسان كما تعلمون رُكّب من عقلٍ وشهوة، فيه قبضةٌ من تراب الأرض، وفيه نفخةٌ من روح الله، فإذا سَمَتْ نفخة الروح على تراب الأرض كان فوق الملائكة، وإذا سَمَتْ قبضة التراب على نفخة الله عزَّ وجل كان دون الحيوان، هو وحده يتذبذب بين أن يكون فوق الملائكة:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7))

(سورة البينة)

وبين أن يكون شَرَّ البرية:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6))

(سورة البينة)

الأنبياء يتعلّمون بالوحيّ لكن المؤمنين يتعلّمون بالقراءة والكتابة:

وضع الإنسان يتذبذب بين أن يكون فوق الملائكة المقرَّبين، وبين أن يكون في أسفل سافلين، فيه قبضةٌ من تراب الأرض ؛ يأكل ويشرب، ويشتهي النساء، ويشتهي أن يستريح، وأن يستمْتِع، هذا الخلود إلى الأرض، ويتمنى أن يعرف الله، وأن يكون مستقيماً على أمره، وأن يكون محبّاً له، وأن ينشر الخير بين الخلائق، هذه نفخة الروح التي في كيانه، فيه نفخة من روح الله، وفيه قبضة من تراب الأرض، لذلك حينما قبل الإنسان حمل الأمانة كان المخلوق الأول.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ (72))

(سورة الأحزاب: آية " 72 ")

هو المخلوق الأول لمجرد أنه قبل حمل الأمانة، لأنه المخلوق الأول سُخِّرت له السماوات والأرض جميعاً، في هذه الآيات إشاراتٌ لطيفة إلى أن مقام آدم هو المقام الأول، عرَّفه الله عزَّ وجل، إذاً آدم من أديم الأرض:

(وَعَلَّمَ آدَمَ (31))

تعليم الله عزَّ وجل متميّزٌ عن تعليم البشر، فحينما يعلّمك الله عزَّ وجل تغدو أعلم علماء الأرض، علّم الله أنبياءه، علّمهم بالوحيّ، أو كلّمهم، أو قرَّبهم إليه، أما بنو البشر فيتعلّمون من علم الأنبياء، نحن الأمية فينا صفة نقص، لأنه لا سبيل لنا للتعلُّم إلا عن طريق علم الأنبياء، لا بدَّ أن نقرأ أحاديث رسول الله، لا بدَّ أن نقرأ القرآن الكريم، لا بدَّ أن نفهم تفسيره، فنحن نتعلّم بالتعلُّم، يقول عليه الصلاة والسلام:

((إنما العلم بالتعلُّم))

[الطبراني عن أبي الدرداء]

الأنبياء يتعلّمون بالوحيّ، لكن المؤمنين يتعلّمون بالقراءة والكتابة، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((إنما العلم بالتعلُّم، وإنما الحِلم بالتحلّم))

[الطبراني عن أبي الدرداء]

بعض التأويلات المحتملة للآية التالية:

قال تعالى:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا (31))

وقال:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7))

أما الأسماء التي وردت في هذه الآية فهناك اختلافٌ كبير بين المفسرين، يوجد عندنا اسم ومسمَّى، هذا منديل، فإن هذا مسمًّى، ومنديل اسم، ولا اسم بلا مسمّى، قال بعض المفسرين: " حينما خلق الله عز وجل المسميات كلّها علّم آدم أسماءها "، وكأن الله أراد من هذه الآية أن يبين أن لآدم طريقاً إلى الله يعلّمه كلّ شيء، والإنسان ـ وهو ابن آدم ـ حينما يصدق في طلب شيء فالله عزَّ وجل يعطيه إيَّاه:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا (31))

وبعضهم قال: " **علّمه أسماء ذرِّيته جميعاً لأن كل ذرِّيته في ظهره** " . وبعضهم قال: " **علّمه أسماء الملائكة** ". وبعضهم قال: " **علّمه أسماء الله الحُسنى** " ، فلك أن تختار من بين هذه التفسيرات ، إما أنه علّمه أسماءه الحسنى وصفاته الفُضلى، أو علّمه أسماء الملائكة، أو علّمه أسماء ذرِّيته جميعاً، أو علَّمه حقائق الكون، علّمه المُسَمَّيات وأسماءها، هذه التأويلات المحتملة لهذه الكلمة:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا (31))

الله سبحانه وتعالى كرَّم الإنسان وجعله المخلوق الأول :

الملائكة مما أشفقوا ولم يحملوا الأمانة ؟

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ (72))

(سورة الأحزاب: آية " 72 ")

الملائكة مخلوقاتٌ عابدةٌ، منيبةٌ، متَّصلةٌ بالله عزَّ وجل، تُسبِّح الله دائماً، ولكنّها ليست مُكَلَّفة ـ ليس عندها تكليف ـ ليس عندها نجاح أو رسوب، فلاح أو سقوط، جنَّةٌ أو نار، مستقبلها مضمون لأنها لم تخاطر، لكن الإنسان قال: أنا لها، وحملها الإنسان، فالذي قبِلَ المغامرة يفوق الذي أشْفَقَ من هذه المغامرة فيما لو نجح، لذلك يتّضح من خلال هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى كرَّم الإنسان وجعله المخلوق الأول، وفضَّله على كثيرٍ ممن خلق تفضيلاً، بل إن العلماء يقولون: " **المؤمن إذا عرف**

الله عزَّ وجل وأدَّى الأمانة التي أنيطت به، وحقق الهدف الذي من أجله خُلِق فهو فوق الملائكة المقرَّبين".

عند بعض العلماء بعض المقولات، الرسل من بني البشر أعظم من رسل الملائكة، والأولياء من بني البشر أعظم من أولياء الملائكة، ولكن إذا وازنَّا الملك بمخلوقٍ شاردٍ عن الله عزَّ وجل فإن ذرَّةً من هذا المَلَك أفضل من مليار إنسان عاصٍ، أما حينما يرشد الإنسان، ويتَّصل بالله عزَّ وجل فهو فوق الملائكة المقرَّبين:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا (31))

مقام الإنسان يتذبذب بين أن يسبق الملائكة وبين أن يكون من أحَط المخلوقات:

ماذا قالت الملائكة ؟

(قالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30))

إنَّ هذا المخلوق البشري إذا عرف الله وصل إلى مرتبةٍ لا تصل الملائكة إليها، مقامه يتذبذب بين أن يسبق الملائكة، وبين أن يكون من أحَط المخلوقات، رجل خان جاره في زوجته أثناء سفره في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، فبلغ النبي ذلك، وقد قتله كلبٌ، فقال عليه الصلاة والسلام: **" خان صاحبه، وقتله الكلب، والكلب خيرٌ منه ".**

شيء دقيق، أنت حينما تعرف الله، وتستقيم على أمره، وتسمو إليه فأنت في المرتبة الأولى من مخلوقات الأرض ؛ وحينما تخلد إلى الأرض وتتبع هواك وتُغلب فأنت دون كل المخلوقات، فهذه المرتبة تتلوّن وتتذبذب بين قمَّة المجد وبين حضيض السقوط، هكذا الإنسان إما أنه خير البرية، وإما أنه شَرُّ البرية، ومتاحٌ لك أن تكون من خير البرية، لأن هذه الشهوات التي غُلِبت بها رُسِمت لها قنواتٌ نظيفة تسري خلالها، فليس في الإسلام حِرْمان، ولكن في الإسلام انضباط، عملية ضبط، فأية شهوةٍ أودعها الله في الإنسان جعل لها قناةً نظيفة تسري خلالها، بل إنني أقول لكم: إن استمتاع المؤمن بالحلال فيه متعة وطمأنينة وسعادةٌ تفوق بكثير متعة المنحرف العاصي بالحرام، شَتَّان بين الزواج والزنا، وشتَّان بين كسب المال الحلال وبين كسب المال الحرام، وشتَّان بين أن تعلو في الأرض بعملٍ صالح، أو بجريمةٍ فظيعة.

الإنسان مخير ولأنه مخير فالنتائج متباينة:

أيها الأخوة الكرام، نحن أمام خيار مصيري، إما أن تكون المخلوق الأول، وإما أن يهبط الإنسان فيكون في أسفل سافلين، في الدرجة الدنيا:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ (31))

أنتم يا ملائكتي الذين قلتم في أنفسكم: لعل هذا المخلوق يُفسِد، ويسفِكُ الدماء، ونحن نسبح الله عزَّ وجل، فقال الله عزَّ وجل:

(إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30))

ذكرت لكم في الدرس الماضي أن الكمال في الجامعة لا أن ينجح كل الطلاَّب، بل أن تأتي النتائج وفق المقدّمات، حيث ينجح المتفوّق، ويرسب الكسول، وهكذا الإنسان مخيّر، فإما أن تختار الحقيقة، وإما أن تختار الشهوة، إما أن تختار المصلحة، وإما أن تختار المبدأ، إما أن تختار الآخرة، وإما أن تختار الدنيا، أنت مخيّر، ولأنك مخيّر فالنتائج متباينة، إذا أعطينا للطلاب حرية الاختيار في الدراسة أو عدمها ورسب مجموعة من الطلاب هذا لا يعني أن نغلق الجامعة، بل بالعكس نتابع افتتاح الجامعات ونقول: كلٌ يلقى نتائج عمله، فالطالب المجتهد يلقى نتائج عمله، والطالب الكسول يلقى نتائج عمله، أعطى الله عزَّ وجل الملائكة درساً لا يُنسَى، أنتم الذين قلتم:

(أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30))

هذا آدم، وقد ورد عن الرسول الكريم قوله:

((آدم ومن دونه تحت لوائي ولا فخر.))

[ابن مردويه عن أنس]

آدم ومن دونه تحت لواء محمد عليه الصلاة والسلام يوم القيامة، استنبط بعض العلماء من هذا الحديث أن هذا النبي الكريم ـ أبو البشر ـ يأتي في مقامه بعد مقام محمدٍ عليه الصلاة والسلام ؛ آدم ومن دونه.

الإنسان لتميّزه بقبول حمل الأمانة استحق أن يُكشَف له الغطاء فيعلم من الله ما لم يعلم غيره من الله:

قال تعالى:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ (31))

ذكرت قبل قليل أنه لك أن تفهم الأسماء أنها أسماء ذريّته جميعاً، أو أسماء الملائكة كلّهم، أو أسماء المُسميات جميعاً، إما أنه علّمه حقائق الوجود، أو علّمه أسماء الملائكة، أو علّمه أسماء ذريّته، أو علّمه أسماءه الحسنى، على كلٍ هذا الإنسان لتميّزه بقبول حمل الأمانة استحق أن يُكشَف له الغطاء، فيعلم من الله ما لم يعلم غيره من الله:

(عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ (31))

هذا الذي خلقته وجعلته خليفتي في الأرض هل عندكم شيء من علمه ؟

(فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ (31))

ماذا تعرفون من هذه الأسماء ؟ وهذا ينقلنا إلى موضوع دقيق، الله عزَّ وجل قد يعطي الأدنى ما يفوق الأعلى، سيدنا موسى نبيٌّ كريم سئِل: مـن أعلم من في الأرض ؟ فقال: أنا، فلفت ربنا عزَّ وجل نظره إلى شيءٍ لم يكن في الحُسبان، أعطى الله سيدنا الخضِر سرَّ الأمر التكليفي، فلمَّا ترافق سيدنا موسى مع سيدنا الخضر اعترض عليه، وإذا بالخضر عليه السلام يعطيه حقائق الأمور ويعطيه حِكَم أفعال الله عزَّ وجل، فإذا كان الله تعالى قد خصَّ موسى بالأمر التكليفي فقد خصَّ الخضر عليه السلام بالأمر التكويني، بسرِّ الأمر التكويني.

الله عزَّ وجل طليق الإرادة يعطي من هو أدنى منك شيئاً يفوقك به:

يعطي الله عزَّ وجل الأدنى ما يفوق به الأعلى، وكلفت نظرِ قال هدهد سيدنا سليمان:

(أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ (22))

(سورة النمل: آية " 22 ")

سيدنا سليمان الذي آتاه الله مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، سيدنا سليمان الذي سخَّر الله له الريح، سيدنا سليمان الذي علَّمه الله لغة الطير:

(قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً (19))

(سورة النمل)

قال له الهدهد:

(أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22))

هذا درس، فلا تقل: أنا أعلم من في الأرض، لا تقل: أنا متفوق في كذا، الله يغيِّر في لحظة، الله عزَّ وجل طليق الإرادة، يعطي من هو أدنى منك شيئاً يفوقك به، قيل: إن الإمام أبا حنيفة رأى مرة طفلاً يمشي في الطريق وأمامه حفرة فقال له: احذر يا غلام أن تسقط، فقال له الغلام: بل احذر أنت يا إمام أن تسقط، إني إن سقطت سقطتُ وحدي، وإنك إن سقطت سقط معك العالم.

كان سيدنا عبد الله بن الزبير في المدينة مع بعض الغلمان فمرَّ سيدنا عمر، تفرَّق الأولاد إلا عبد الله بن الزبير بقي واقفاً في مكانه، فقال له سيدنا عمر: يا غلام لمَ لمْ تهرب مع من هرب ؟ فقال له:

" أيها الأمير لستَ ظالماً فأخشى ظلمك، ولستُ مذنباً فأخشى عقابك والطريق يسعني ويسعك " ، فدائماً لا تقل: أنا، هناك دروس بليغة جداً في الحياة.

حجم علم الإنسان بحجم صدقه في طلب الحقيقة:

أيها الأخوة:

(قَالُوا سُبْحَانَكَ (32))

أي أنَّ هذا الذي اعترضتم عليه، ظننتم أنكم أفضل منه، هذا الذي توهَّمتم أنه سيسفك الدماء، ويُفسِد في الأرض علمه أعلى من علمكم، لكن هناك سؤال: إنك أنت الذي علّمته، فأنت الذي ميزته علينا ؟ الجواب: أن علم الإنسان بحسب صدقه، فكلّما كان أكثر صدقاً في طلب الحقيقة كان علمه من الله عزَّ وجل أعمق وأشمل، فحجم علم الإنسان بحجم صدقه في طلب الحقيقة، لذلك يُعَدُّ النبي عليه الصلاة والسلام أعلمنا بالله عزَّ وجل، قال عن نفسه صلى الله عليه وسلَّم:

((إني أعلَمكم بالله وأشَدُّكم له خشية))

[متفق عليه عن عائشة]

أي أن العلم متعلق بالصدق، فكلّما كنت أكثر صدقاً في طلب الحقيقة، كلّما كنت أكثر صدقاً في معرفة الله كلّما كنت أكثر علماً، فيبدو أن هذا النبي الكريم أبو البشر ـ سيدنا آدم ـ كان طلبه للمعرفة عالياً جداً، فعلّمه الله ما لم يعلّم الملائكة.

كلمة (لا أدري) نصف العلم:

حينما نفهم الآية فهماً ساذجاً أن الله علّمه، ثم قال:

(أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ (31))

لا تعلمون، إذاً هو أفضل منكم، هذا الشيء بهذا الشكل غير مقبول، أما علمه الذي فاق به الملائكة بسبب محبَّته لله، وصدقه في طلب الحقيقة، وإقباله على الله، فهناك شيء منه، تجد أخوين، أحدهما تابع دراسته حتى الدكتوراه، والآخر قنع بابتدائية، أو بإعدادية، والأب واحد، والأم واحدة، هذا اختيار، فيبدو أن هذا النبي العظيم أبو الأنبياء أراد أن يكون في أعلى مرتبة منحه الله إياها، فلمَّا اعترضت الملائكة قال:

(أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا(32))

لنا هنا وقفة متأنّية، إخواننا الكرام كما قال الإمام الشافعي: **" كلّما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي "**، والإنسان المتعلّم أو طالب العلم الشرعي يجب أن يكون متواضعاً جداً وأن يُجْري على لسانه كلمة لا أدري، لا أدري نصف العلم، جاء وفد من المغرب إلى المشرق معهم أسئلة عديدة جداً، فالتقوا الإمام مالك ـ إمام دار الهجرة ـ عرضوا عليه مجموعة أسئلة فأجاب عن ثلثها، وأما الأسئلة الباقية فقال عنها: لا أدري، قالوا: يا الله الإمام مالك إمام دار الهجرة لا يدري ؟! قال لهم: قولوا لأهل المغرب الإمام مالك لا يدري.

عوّد نفسك أن تقول عن شيء لا تعلمه: واللهِ لا أعلم، إن قلت: لا أعلم فأنت عالم، أما هذا الذي يعلم كل شيء فهو لا يعلم شيئاً إنه كذّاب، عَوِّد تلاميذك، عود إخوانك كلمة لا أعلم طبيعية جداً، وأنت في مكانك العلي لا تستحي أن تقول: لا أعلم، لأنك إذا قلت ما لا تعلم فقد اقترفت إثماً مبيناً، وردت المعاصي في كتاب الله بشكل تصاعدي ؛ الفحشاء، والمنكر، والإثم، والعدوان، والشرك، والكفر، وأعلى معصية هي:

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (169))

(سورة البقرة)

النبي عليه الصلاة والسلام على علوّ قدره وعِظم شأنه لا يعلم إلا أن يُعلِّمه الله:

يقول الإمام الغزالي: **" العوام لأن يرتكبوا الكبائر أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون "**.
وَطِّن نفسك إذا سئلت عن آية ما معناها أن تقول: والله لا أدري أراجعها إن شاء الله، ما معنى هذا الحديث ؟ والله لا أدري أراجعه إن شاء الله، فأنت عالم، هذه الموضوعية، وهذا التواضع العلمي، أما أن تجيب عن كل شيء بسرعة، وبلا تريّث، وبلا تَرَوّي فهذا من الجهل، ومن القول على الله ما لا تعلم !

(قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا (32))

نحن لا نعلم يا رب إلا أن تعلمنا، توجد في السيرة النبوية أشياء مخيفة، فالنبي عليه الصلاة والسلام على علوّ قدره، وعِظَم شأنه، وقربه من الله، واستنارة قلبه، والوحيّ يتنزّل عليه، جاءه أناسٌ من إحدى القبائل وطلبوا منه قُرّاء للقرآن الكريم كي يعلّموا قومهم، أرسل معهم سبعين قارئاً فذبحوهم في الطريق، لِمَ لم يعلم ؟ معنى ذلك أن النبي لا يعلم إلا أن يُعلّمَه الله، أي مخلوقٍ لا يعلم بذاته أبداً إلا أن يُعلّمك الله عزَّ وجل، مع أن الوحي جاءه في موضوعاتٍ كثيرةٍ جداً وهي أقل شأناً من هذا، ولكن هذا درس، هو لا يعلم على علوّ قدره إلا أن يُعلّمه الله، فقد يلقي الله في قلبك العلم وقد لا يُلقي فلا تعلم، فهذا الموقف الأديب:

(سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا (32))

كن طبيعياً، سؤال فقهي، والله سأراجعه، فتوى، دعني أُفكّر فيها، هل تعلم ما معنى هذه الآية ؟ لا والله لا أعلم، لا أعلم أنت عالم، أما كلّما سئِلت أجبت إجابة طائشة، فمعنى ذلك أنك لا تعلم، عوّد نفسك أن تقول:

(سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا (32))

((أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أي البلاد شر ؟ فقال: لا أدري، فلما أتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا جبريل، أي البلاد شر ؟ قال: لا أدري حتى أسأل ربي تبارك وتعالى، فانطلق جبريل، فمكث ما شاء الله ثم جاء، فقال: يا محمد، إنك سألتني أي

البلاد شر، قلت: لا أدري، وإني سألت ربي تبارك وتعالى، فقلت: أي البلاد شر ؟ فقال: أسواقها.))

[الحارث بن أبي أسامة وأبو يعلى والإمام أحمد عن جبير بن مطعم]

خيرها مساجدها، ففيها علم، ومعرفة، ووجهة إلى الله عزَّ وجل، وشرُّها أسواقها.

الهامش الاجتهادي تُرك للنبي ليكون هناك فرقٌ بين مقام الألوهية ومقام النبوّة:

النبي سيد الخلق وُضِع في ظروف يقول: لا أعلم، تُرك له هامش اجتهادي طفيف جداً، فإذا أصاب فالوحي يؤيِّدُهُ، وإذا أخطأ يأتي الوحي ويصوِّب له، هذا الهامش الاجتهادي ليكون هناك فرقٌ بين مقام الألوهية ومقام النبوّة:

(قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33))

علم الله مطلق، وحكمته مطلقة، وعدله مطلق، ورحمته مطلقة، وإرادته مطلقة، فالاعتراض أو التساؤل في أفعال الله وفي علمه يحتاج إلى معالجة، وها قد عُولِج الملائكة بهذه القصَّة.

يمكن أن نستنبط من هذه الآيات الثلاث أن علم الإنسان بقدر صدقه في معرفة الحقيقة، ومن زادك في العلم زادك في القُرب، والعلم المقصود هو الذي أراده الله عزَّ وجل وليس العلم المُطلَق.

ذكرت لكم أن النبي عليه الصلاة والسلام كان في المسجد، فرأى رجلاً تحلَّق الناس حوله، فسأل سؤال العارف: من هذا ؟ قالوا: هذا نسَّابة.

اللهمَّ إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع، العلم الذي أراده الله هو العلم بالله، والعلم بأسمائه الحسنى، والعلم بصفاته الفضلى، والعلم بأمره ونهيه، حجم الإنسان من العلم بالله بحجم صدقه في طلب الحقيقة، لذلك فاق سيدنا آدم الملائكة ؛

والدليل أن الله عزَّ وجل قال:

(قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33))

النقاط الأساسية في هذا الدرس:

أيها الأخوة، العلم هو الذي يرفعك عند الله، والدليل:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (9))

(سورة الزمر: آية " 9 ")

1- النقطة الأولى أن الذي يرفعك عند الله هو العلم:

تطبيقاً لهذا الدرس الذي يرفعك عند الله هو العلم، الآية الأولى:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (9))

(سورة الزمر: آية " 9 ")

هذا استفهام إنكاري، أي لا يستوون، فالناس رجلان ؛ يعلم ولا يعلم، وشتَّان بين من يعلم وبين من لا يعلم:

((الناس رجلان عالمٌ ومتعلم ولا خير فيما سواهما.))

[الطبراني وأبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود]

يقول سيدنا علي: **" الناس ثلاثة ؛ عالمٌ ربَّاني، ومتعلمٌ على سبيل نجاة، وهمجٌ رعاع، أتباع كل ناعق، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركنه الوثيق فاحذر يا كميل أن تكون منهم"** ، ويقول سيدنا علي: **" العلم خيرٌ من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق ".**

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (9))

(سورة الزمر: آية " 9 ")

2- إن كنت طموحاً فاطلب العلم لا تطلب المال ولا الجاه:

إذا كنت طموحاً فاقرأ هذه الآية:

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (114))

(سورة طه)

لم يقل: زدني مالاً، لم يقل: زدني جاهاً:

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (114))

(سورة طه)

3- النقطة الثالثة يتفاوت العلماء في علمهم:

الشيء الثالث: يتفاوت العلماء في علمهم:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11))

(سورة المجادلة)

4- النقطة الرابعة من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة:

الشيء الرابع:

((من سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل الله له طريقا إلى الجنة.))

[الترمذي عن أبي هريرة]

حينما يأتي الإنسان من بيته ليتعلّم كتاب الله، ليفهم تفسير آيات الله، هذا الطريق من بيتك إلى المسجد هو الطريق إلى الجنة، وطالب العلم يؤْثِر الآخرة على الدنيا فيربحهما معاً، والجاهل يؤثر الدنيا على الآخرة فيخسرهما معاً، **" والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً"**، و**" يظل المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل "**، وحينما تتعلم اقرأ قوله تعالى:

(وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76))

(سورة يوسف)

حينما تتوسَّع في معرفة اختصاصٍ ما فاقرأ قوله تعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

(سورة الإسراء: آية " 85 ")

العالم الحقيقي متواضع لأنه كلّما ازداد علماً ازداد شعوراً بعظمة الله فتضاءل في نفسه:

أبيّن من حين لآخر عظمة الله عزَّ وجل من خلال خلقه، أقول: طول لسان لهيب الشمس ستمئة ألف كيلو متر إلى مليون، مليون كيلو متر لسان اللهب ؟ ثم اطلعت على بحثٍ في الفلك فإذا هناك شمسٌ تزيد بحجمها عن شمسنا اثنين واثنين بالعشرة بليون مرَّة، ولسان لهبها مئة وخمسون سنة ضوئية:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (85))

(سورة الإسراء: آية " 85 ")

اجتمع الناس حول عالم شاب مرة وانتفعوا بعلمه، فجاء رجل ليُصَغِّرَهُ، قال له: يا هذا هَذا الذي تقوله ما سمعناه، فقال له: وهل حصَّلت العلم كلَّه ؟ فأسقط في يده، قال له: لا، قال له: كم حصَّلت منه ؟ قال: بعض العلم، قال: هذا من الشطر الذي لا تعرفه.

" كلّما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي "، العالم الحقيقي متواضع، لأنه كلّما ازداد علماً ازداد شعوراً بعظمة الله عزَّ وجل، فتضاءل في نفسه.

أيها الأخوة، هذا درس لنا:

(قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ(33))

وفي درسٍ قادم إن شاء الله ننتقل إلى قوله تعالى:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (19- 95):تفسير الآيات 34-36 ، تجربة آدم مع الشيطان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-10-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

تنفيذُ أمر الله سجودٌ لله:

مع الآية الرابعة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ (34))

الحقيقة أن السجود لله وحده، ولكن تنفيذُ أمر الله سجودٌ لله، لو أن آدم أمر الملائكة أن يسجدوا له لما أمكن أن ينفّذ هذا الأمر، ولكن لأن الله عزَّ وجل أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم، فَهُمْ حينما سجدوا فقد نَفَّذوا أمر الله عزَّ وجل، ألا ترى أن الله يأمرك في الحج أن تُقَبِّلَ الحجر الأسود، ويأمرك أن ترجُم حجراً آخر يمثّل إبليس، فأنت حينما تُقبِّل هذا الحجر وتعظمه إنما تنفذ أمر الله، وحينما أمرك أن ترجم هذا الحجر وتحقّره إنما نفذت أمر الله عزَّ وجل، وكل أمرٍ لله عزَّ وجل يقتضي الوجوب، ولله حكمة ما بعدها حكمة، وعدل ما بعده عدل، ورحمة ما بعدها رحمة، وعندما تقول: إنك مؤمن، أي أنك مؤمن بحكمة الله المطلقة، مؤمنٌ بعلمه المُطلق، مؤمنٌ برحمته المطلقة، فالسجود لله عزَّ وجل، ولكن سجود الملائكة لآدم سجود اعتراف بالفضل، حينما سجد أخوة يوسف:

(إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4))

(سورة يوسف)

قال: هذا السجود سجود الخضوع، فهذا الطفل الذي ائتمر عليه إخوته سيكون عند الله في مكانٍ عَلِيّ، فرأى في المنام أن هؤلاء الذين حوله خاضعون له، وقال في نهاية القصة:

(وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً (100))

(سورة يوسف)

السجود سجود الخضوع.

سجود الملائكة لآدم هو سجود الاعتراف بالفضل:

حينما قال عليه الصلاة والسلام:

((لَوْ كُنْتُ آمِراً أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا))

[أحمد عن عبد الرحمن بن عوف]

هو سجود الخضوع، والقبول، وتلقّي الأمر:

((إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ))

[مسند أحمد عن عبد الرحمن بن عوف]

الزوجية نظام، مركبة لا بد لها من قائدٍ واحد، لا يصلح الأمر عندما يكون قائدان لمركبة واحدة عندئذٍ تفسد، قال تعالى:

(وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ (228))

(سورة البقرة: آية " 228 ")

درجة القيادة، فزوجته شريكته، لكن لهذه الأسرة قائدٌ واحد، مسؤولٌ واحد في الأمور الحاسمة، صاحب القرار واحد وهكذا، فالسجود سجود الخضوع، أما سجود الملائكة لآدم فهو سجود الاعتراف بالفضل، قالوا:

(قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30))

(سورة البقرة)

عَلَّمَهُ الأسماء، علمه تفسير الأسماء، علمه شيئاً ما عرفته الملائكة، وهذا العلم متعلقٌ بالصدق في طلب الحقيقة، فكان مقام آدم عليه السلام في معرفته بالله وطلبه للحقيقة أعلى من مقام الملائكة، فأمرهم أن يسجدوا له أي أن يخضعوا له.

المؤمن مُلْزَم بطاعة رسول الله دون النظر إلى مقياسٍ آخر :

أنت حينما يأمرك الله أمراً إنما تطيع أمر الله، قال لك: قبِّل الحجر الأسود ـ حجر لا ينفع ولا يضر ـ تقبله تنفيذاً لأمر الله، قال لك: ارجم هذا الحجر، ترجمه تنفيذاً لأمر الله، ولكن لو قال لك أبوك: أطع الله، صلِّ يا بني وصليت، هل تنفذ أمر أبيك ؟ لا أبداً إنك تنفذ أمر الله عزَّ وجل، أي إنسان يدعو إلى الله لا يُنَفَّذُ أمره الشخصي، إنما يُنَفَّذ أمر الله الذي نقله لك عن كلام الله، وعن سنة رسول الله، وحينما قال الله عزَّ وجل:

(أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (59))

(سورة النساء)

أولو الأمر هم العلماء والأمراء، العلماء يعلّمون الأمر، والأمراء ينفّذون الأمر، واحد يعلّم وآخر لديه سلطة فينفّذ، لكن الله عزَّ وجل قال:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (59))

(سورة النساء)

أعاد كلمة أطيعوا:

(الرَّسُولَ (59))

(سورة النساء)

أي أنت مُلْزَم أن تطيع رسول الله من دون نظرٍ لمقياسٍ آخر، كأن يقول لك: يا أخي أنا أطيع الحديث بعد أن أتحقق وأجد له أصلاً في القرآن، لا، ليس لك هذا، أنت مكلفٌ أن تطيع رسول الله استقلالاً، بنص أمر الله عزَّ وجل:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (7))

(سورة الحشر: آية " 7 ")

لأنَّه معصوم ولأنه لا ينطق عن الهوى.

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق:

لكن الله إذا أمرك أن تطيع أولي الأمر ـ العلماء والأمراء ـ فإن طاعة أولي الأمر بالقياس إلى أمر الله، قال:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (59))

(سورة النساء)

لا يوجد وأطيعوا أولي الأمر منكم، وأولو الأمر منكم مرتبطون بطاعة رسول الله، فلو أمرَكَ عالم بقطيعة رحم فلا ينفّذ أمره لأنه يتناقض مع أمر النبي بصلة الرحم، ولو أمرك إنسان أقوى منك بشرب الخمر لا يُطاع أمره لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق فيجب أن تدقق بين:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ (59))

(سورة النساء)

أطيعوا فعل كُرِّر، أي عليك أن تطيعه استقلالاً، دون أن ترجع إلى أي شيءٍ آخر، لأنه معصوم، ولأنه لا ينطق عن الهوى، إلا أنه إذا أمرك عالمٌ أو أميرٌ بخلاف أمر الله عزَّ وجل فلا أمر ولا طاعة له إلا في طاعة الله.

إنك حينما تُنفذ أمر أبيك أو أمر داعيةٍ يقول لك: يا بني غض بصرك، يا بني أقم الصلاة، يا بني اتلُ القرآن، إنك لا تطيع هذا الداعية إنما تطيع الله، هو نقل لك هذا الأمر عن الله فقط، ناقل نقل لك هذا الأمر عن الله، نقل لك هذا الأمر عن رسول الله، هذا كله حول قوله تعالى:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ (34))

عِلَّةُ أي أمرٍ أنه أمر:

قال العلماء: **" عِلَّةُ أي أمرٍ أنه أمر "** ، مثلاً عندك لا سمح الله آلام بالمعدة، ودخلت إلى أفضل طبيب في البلد، معه أعلى شهادة، ومعه أعلى خبرة، إذا قال لك: دع الحوامض، لا يخطر في بالك

لحظة أن تفكر بأمره، لأنك تثق بعلمه، تنفذ لأنه أمرك، أنا مرة قلت عن عالم من علماء هذه البلدة الطيبة كان بأمريكا ودخل بنقاش مع عالم كبير حديث العهد بالإسلام ـ عالم بالفيزياء أو الكيمياء ـ طُرح موضوع لحم الخنزير، بدأ هذا العالم يتحدث عن مضار الخنزير، وعن الدودة الشريطية، وعن تأثر طباع الإنسان بلحم الخنزير وطباع الخنزير، وعن أن هذه الدودة لا تتأثر بالحرارة، وتكلم كلاماً طيباً جداً سبحان الله، فأجابه هذا المسلم الأمريكي قال له: يا أستاذ كان يكفيك أن تقول لي: إن الله حرمه، فهذا يكفي، يكفي إذا قال لك خالق الكون: لا تفعل هذا الشيء، لذلك قال العلماء: علة أي أمرٍ أنه أمر.

تكلم النبي بالإسلام، وجاء بآيات بينات، وحدث الناس، ثم فاجأهم عندما حدّثهم أنه في ليلةٍ واحدة ذهب إلى القدس، ورجع منها، وعرج إلى السماء، لم يكن أهل مكة يصدقون رسول الله أساساً ـ ومن دون هذا الخبر ـ فوجدوا شيئاً يتاجرون به، فجاؤوا إلى الصديق وقالوا: تعالَ اسمع ماذا يقول صاحبك ؟ إنه قال: إنه ذهب إلى بيت المقدس، وعاد منه، قال لهم: إن قال هذا فقد صدق، إذا قال فقد صدق، لأنه عندي صادق، إذا كانت ثقة سيدنا أبي بكر برسول الله دعته ألا يفكر فيما قال، لأنه قال فإنه صادق، فكيف ثقتك بالله عزَّ وجل ؟!! لذلك علة أي أمر أنه أمر.

كلما اختفت حكمة الأمر الإلهي ارتفع فيه عنصر العبودية لله عزَّ وجل والعكس صحيح :

بالمناسبة أيها الأخوة، تتضح أحياناً حكمة الأمر الإلهي بشكلٍ جلي، وأحياناً تختفي حكمته، كلما اتضحت حكمة الأمر الإلهي ضعف فيه عنصر العبودية لله عزَّ وجل، فإذا قال لك الله عزَّ وجل: تزوج:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ (32))

(سورة النور: آية " 32 ")

هذا أمر، وأنت تزوجت، لكنك إنسان تعيش في بيت أهلك، وأهلك متقدمون في السن، والبيت ضيِّق، والمعيشة خشنة، والظروف صعبة، وأكلك غير مؤمَّن، وثيابك غير منظَّفة، فإذا أقبلت على أمر الله هذا إقبالاً غير معقول، تريد بيتاً مستقلاً وزوجة، وطبخاً، وهيئة حسنة، وراحة، فأنت مقبل على هذا الأمر، فائدته لك واضحة جداً، وأنت بأمس الحاجة إلى هذا الشيء، ولذا يضعف عنصر العبودية في تطبيق هذا الأمر، لكن حكمة الأمر تختفي كلياً:

(يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ (102))

(سورة الصافات: آية " 102 ")

هو لا يذبح مجرماً !! بل نبياً:

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ (102))

(سورة الصافات: 102)

ابنه:

﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) ﴾

(سورة الصافات: 102)

هذا الأمر غير واضح على الإطلاق، صعب فهمه، تذبح ابنك النبي، فكلما اختفت حكمة الأمر ارتفع فيه عنصر العبودية لله عزَّ وجل، فلو قال أب لابنه: يا بني نظف أسنانك، أسنانك ثمينة جداً، لو أهملت تنظيفها تحدث معك متاعب لا تنتهي، قلع الأسنان، وتركيب أسنان صناعية، شيء صعب جداً، فالابن قال له: يا أبتِ كلامك طيب، وأنا سأفعل هذا، الحكمة واضحة، أما إذا وضع الأب طعاماً، والطعام نفيس، وابنه مستقيم، ومطيع له، وبار، قال له: يا بني لا تأكل، لِمَ يا أبتِ ؟ قال له: هكذا بلا سبب، الأمر غير واضح، فإذا قال الابن: سمعاً وطاعة يا أبتِ، هنا نفذ الأمر عبوديةً، نفَّذه طاعةً لأبيه من دون أن يفهمه.

كل الكون يشهد بعظمة الله عزَّ وجل ولذا لا يُسأل عما يفعل:

الله عزَّ وجل يمتحننا، يعطينا أوامر واضحة جداً، وهناك أوامر غير واضحة، تجد شاباً مستقيماً دخله قليل، وله صديق متفلّت، غارق بالملذات، معه أموال لا تأكلها النيران، هل تثق بحكمة الله ؟ يأتي مرض وأنت في أعلى درجات القرب من الله، هذه امتحانات العبودية لله عزَّ وجل، ماذا تقول وأنت مستقيم، وأنت مطيع، وهناك شيء أزعجك ؟! من هنا قال الإمام علي كرم الله وجهه: " الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين "، فالنقطة الدقيقة:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ (34) ﴾

مادام الله أمر، انتهى الأمر، علة أي أمرٍ أنه أمر.

يحدث أحياناً أن إنساناً تغلق أمامه كل الطرق المشروعة، يفتح له باب واسع، لكن فيه شبهة، الكسب غير مشروع، هذا امتحان صعب، فحينما تقول: أنا لا أعص الله وليكن ما يكن، امتحنك الله ونجحت، يخضعك الآن لقانون العناية الإلهية المباشرة، فيكسبك شيئين ؛ يكسبك أجر العابدين، ثم يكشف لك عن الحكمة فتكون من العلماء، تجمع بين العبودية والعلم، إذا كشف لك حكمة الأمر قبل أن تفعله ضعف فيه عنصر العبودية لله، أما إذا أقبلت عليه دون أن تفهم حكمته طاعةً لله عزَّ وجل، فلما أقبلت عليه ونفذته، كافأك الله فكشف حكمة هذا الأمر، إذا كشف لك الحكمة بعد التنفيذ جمعت بين الشيئين ؛ بين العبودية لله، وبين علم العلماء، صرت عابداً عالماً بآن واحد، لكن ضعوا في أذهانكم هذه الحقيقة، علة أي أمرٍ أنه أمر، قال له: كان يكفيك يا أستاذ أن تقول لي إن الله حرمه.

لكن من هو الآمر ؟ أنت حينما ترى الكون، حينما ترى المجرَّات، حينما ترى الأرض، حينما ترى البحار، حينما ترى النبات، حينما ترى الأسماك، حينما ترى الأطيار، حينما ترى الخلية بالمجهر، حينما ترى الذرة، حينما ترى المجرة، حينما ترى العلم المطلق، والحكمة المطلقة، والرحمة المطلقة، والعدل المطلق، بعد أن يطوف فكرك في الكون وتعود من هذا الطواف معظماً لله عزَّ

وجل عندئذٍ تعظم قيمة أمر الله عندك، يكفي أن يقول الله لك: افعل فتفعل، يكفي أن يقول لك: لا تفعل فلا تفعل، كل الكون يشهد بعظمة الله عزَّ وجل ولذا لا يُسأل عما يفعل، أمرك أن تفعل تنفذ أمر الله، قال لك بالحج: قبِّل هذا الحجر، هو يميني في الأرض، سمعاً وطاعة، تقبله وتبكي، قال لك: ارجم هذا الحجر هو إبليس ترجمه، وأنت مطيع لله عزَّ وجل، فأنت عبد، العبد عبدٌ والرب رب.

لا يوجد بين المخلوقات كلها إلا نوعان مخيَّران الإنس والجن+:

قال تعالى:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا (34))

ليس متاحاً للملائكة أن يعصوا، الملائكة غير مكلفين، المَلَك غير مكلف، المَلَك مسيَّر، اسجد يسجد، لا يوجد بين المخلوقات كلها إلا نوعان مخيَّران+ ؛ الإنس والجن، الإنس يتلقَّى الأمر، يطيع، أو يعصي، أو يرد، ثلاثة مواقف، إذا أطاع فهو طائع، إن لم يطع فهو عاصٍ، إن احتقر الأمر ورده فهو كافر، مطيع، عاصٍ، كافر، قال لك: صلِّ، الذي صلى مطيع، والذي لم يصلِّ تهاوناً وتكاسلاً ـ الله يتوب علينا، والله أنا مقصر، إن شاء الله سوف أصلي ـ هذا عاصٍ، أما لماذا الصلاة ؟ فهذا كافر، فرقٌ بين أن تطيع الله، وبين أن تعصيه، و بين أن ترد أمره، هذا متاحٌ فقط للإنس والجن، أن تطيع أو أن تعصي ـ لا سمح الله ـ أو أن تكفر، هذا متاحٌ للإنس والجن فقط بينما الملائكة وبقية المخلوقات:

(ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11))

(سورة فصلت)

بقية المخلوقات مسيَّرة ليس لها خيار إطلاقاً في عدم الطاعة.

إبليس لم يعص فقط بل جمع المعصية مع الكفر:

قال تعالى:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ (34))

ما الذي مَكّنه أن لا يسجد ؟ لأنه مخير، لأنه من الجن قال تعالى:

(كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ (50))

(سورة الكهف: آية " 50 ")

مكنه أن لا يطيع أنه كان من الجن، إبليس لم يعص فقط، بل جمع مع المعصية الكفر، قال:

(قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (61))

(سورة الإسراء)

وقال:

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ (76))

(سورة ص: آية " 76 ")

أضاف إبليس إلى المعصية الكفر.

(فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ (34))

قد يقول قائل: الملائكة سجدوا، وإبليس مستثنى منهم، هل المعنى أنه مَلَك ؟ لا الاستثناء نوعان ؛ هناك استثناء متصل، واستثناء منقطع، إذا قلنا: دَخَلَ الطلاب إلا خالداً، هذا استثناء متصل، خالد طالب، أما إذا قلنا: دخل الطلاب إلا المدرس، هذا استثناء منقطع المدرس ليس من جنس الطُلاَّب، لكن دخول الصف يشمل الجميع، الطلاب والمدرس، فهذا الاستثناء لا يعني أن إبليس مَلَك، لا أبداً ! إبليس كان من الجن، ولو كان مَلَكاً لما عصى أبداً، لما عصى، لأنه مسيّر لا يستطيع أن يعصي.

(فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ (34))

الاستكبار في الطاعة من أكبر المعاصي :

هناك ألف معصية سببها الغَلَبَة، يُغلَب الإنسان، وفي معصية سببها الكبر، معصية الكبر عند الله كبيرةٌ جداً:

(وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً (172))

(سورة النساء)

الاستكبار في الطاعة مشكلة، لذلك ما الكبر ؟ قال:

((الكبر بطر الحق وغمط الناس.))

[مسلم عن عبد الله بن مسعود]

الكبر أن ترفض الحق، ألا تقبله، ألا تعبأ بالصلاة، ألا تعبأ بالزكاة، ألا تعبأ بالحج، أن ترى نفسك فوق الشرع، مرة كان عندنا أستاذ في الجامعة متمكن من العلم تمكُّناً كبيراً جداً، لا يغيب ولا طالب عن محاضرة له، رأيته مرة في رمضان يفطر، وكأنه يشعر أن مرتبته، وعلمه، ومكانته، وسمعته في الشرق الأوسط، ومؤلّفاته، أكبر من أن يصوم رمضان، معصية الاستكبار كبيرة جداً، إبليس استكبر.

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ (76))

(سورة ص: آية " 76 ")

لذلك ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل:

((الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّار))

[أحمد عن أبي هريرة]

للإنسان حالتان ؛ حالة الافتقار وحالة الاعتداد :

أنت عبد وكلما ازددت تواضعاً لله زادك الله عزاً، كلما مرغت وجهك في أعتاب الله زادك الله رفعة، كلما عزوت الأمر إلى الله زادك الله قوةً، كلما عزوت علمك إلى الله زادك الله علماً، كلما افتقرت إلى الله زادك الله غنىً، لذلك عندنا حالتان ؛ حالة الافتقار، وحالة الاعتداد، الافتقار أن تقول: الله، الاعتداد أن تقول: أنا، هناك تولّي مع الافتقار، هناك تخلّي مع الاعتداد، مع كل مؤمن، تقول: أنا خبرات متراكمة، أنا معي أعلى شهادة، أنا متكلّم، أنا مُتَعَمِّق، حينما تعزو ما عندك إلى ذاتك هذا كلام فيه جهل، يؤدبك الله عزَّ وجل بأن يتخلى عنك.

خطبة رائعة جداً، نزل لكي يصلي فقال: الله أكبر، وبدأ بالآية رأساً، ونسي الفاتحة كلّها، صار عنده إعجاب، دائماً تواضع لله، دخل النبي عليه الصلاة والسلام مكة مطأطئ الرأس، حتى كادت ذُؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عزَّ وجل، إن أتيت الله من باب الانكسار رفعك، ببدر:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123))

(سورة آل عمران)

في حنين:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ(25))

(سورة التوبة)

ذنوب الغَلَبة يسهل التوبة منها أما ذنوب الكبر فيصعب التوبة منها:

اعتقد اعتقاداً جازماً أن عندك يومياً عشرات الدروس من بدر وحنين، في كل قضية تعزو هذا الفضل إليك هذه حنين ـ تخلي ـ تعزو هذا الفضل إلى الله هذه بدر ـ تولي ـ أنت بين التخلي والتولي، وإذا كان أصحاب النبي وهم على ما هم عليه من رفعة الشأن، تخلى الله عنهم في حنين ـ مؤقتاً طبعاً ـ تأديباً لهم، فمن نحن ؟ إذاً:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34))

ذنوب الغَلَبة يسهل التوبة منها، أما ذنوب الكبر يصعب التوبة منها، المعاصي بسبب الكبر يصعب التوبة منها، المعاصي بسبب الغَلَبَة والضعف يسهل التوبة منها، انتهت العملية، العملية أنه صار هناك اعتراض من الملائكة، فربنا عزَّ وجل بين لهم أن الله يعلم، والملائكة لا يعلمون:

(أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ (33))

بيَّن للملائكة أن علم آدم بسبب صدقه، بسبب رفعة قدره، والملائكة لا يعلمون، إذاً: اسجدوا لآدم، اخضعوا له، هو سيد المخلوقات وانتهى الأمر.

الآن: هذا علم نظري، أي أن آدم يقع في الدرجة الأولى، مخلوق أودعت فيه الشهوات، منح الاختيار، سُخِّرَ له الكون، الآن آدم وذريته بحاجة إلى تطبيق عملي، لأن آدم لم يتلقَ تربية من والديه، آدم أبو البشرية.

أدلة من القرآن الكريم تُظهر أن (الجنة) في الآية التالية ليست جنة الآخرة:

هناك الآن تجربة عملية:

(وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ (35))

الأرجح، والأقوى، والأكثر رجحاً أن هذه الجنة ليست جنة الآخرة، لأن جنة الآخرة:

(وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (48))

(سورة الحجر)

في آياتٍ كثيرة سَمَّى الله البساتين جنة:

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ (17))

(سورة القلم: آية " 17 ")

وقال:

(وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ (35))

(سورة الكهف: آية " 35 ")

آيات ثلاثة في القرآن وصفت جنات الأرض بالجنة، فالله هَيَّأَ له مكاناً فيه كل حاجاته، فيه كل متطلباته.

(وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ (35))

قال الله عزَّ وجل: اسكن، وهذا فعل أمر، لم يقل: اسكني، علماً أن المقصود أنت وزوجك وذلك حسب التغليب لأن كل أمر موجهٌ إلى الذكور هو حكماً موجهٌ إلى الإناث.

آدم مخلوق في الأصل للأرض وهذا درس عملي:

قال تعالى:

(اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ (35))

هذه جنة في الأرض جُعلت لآدم عليه السلام ولزوجته، ليكون الدرس العملي فيها، قد يقول قائل: لولا أن آدم أكل من هذه التفاحة لما خرجنا من الجنة، كلا، والدليل قوله تعالى:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (30))

(سورة البقرة: آية " 30 ")

آدم مخلوق في الأصل للأرض هذا درس عملي، تَعْرِض على الإنسان أحياناً قضية نظرية يقبلها، فإذا جاء التطبيق العملي لم يتحملها، ولذا يجب أن يحاول الإنسان أن يجرب كل شيء قبل أن يوافق

عليه، قد تفتقر الموافقة النظرية إلى الخبرة العملية، فأروع شيء أن هناك موافقة نظرية وهناك خبرة عملية، الآن درس عملي من الله عزَّ وجل:

(وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ (35))

كل حاجاته فيها ؛ الطعام، والشراب، والمأوى، كل شيء يتمنَّاه أمامه، هناك إشارات، هو الآن في الجنة في طور التكليف، ما هو التكليف ؟ قال:

(وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا (35))

مسموح أن يأكل مليار نوع.

من لوازم التكليف الأمر والنهي:

قال تعالى:

(وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ (35))

لا يوجد تكليف من دون نهي، لم يعد تكليفاً، أي قرار لا يوجد فيه منع لم يعد هذا قراراً، قانون السير: ممنوع أن تقف في المكان الفلاني، ممنوع أن تقود مركبة من دون شهادة، لولا المنع لما كان تكليف، ولما كان هناك أمر، ولم يعد للأمر أي معنى، فمن لوازم التكليف الأمر والنهي، لكن من رحمة الله:

(وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا (35))

عُدَّ لي كم شراباً يمكنك شربه ؟ يمكن أن يبلغوا ألفاً، كم فاكهة تستطيع أن تأكلها؟ كم طعاماً مسموح لك أن تأكل ؟ الخمر والخنزير محرمان فقط، المباح والحلال يفوق المنهي عنه بآلاف، بل بمئات ألوف المرات:

(وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ (35))

من لوازم العبودية لله، من لوازم التكليف، من لوازم حَمْل الأمانة أن يكون هناك أمرٌ، وهناك نهيٌ، ولكن رحمة الله تقتضي أن الأشياء المباحة لا تعدُّ ولا تُحصى، وأن يكون الشيء المحرم قليلاً جداً.

(وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35))

من لوازم العبودية وجود أمر ونهي لديك، وأنت مخير، قال:

(فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا (36))

الشيطان كذب طبعاً على آدم، قال له:

(هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى(120))

(سورة طه)

علّم الله عزَّ وجل آدم وذريته من بعده درساً لا ينسى.

بعض مهام الشيطان:

قال تعالى:

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً (6))

(سورة فاطر: آية " 6 ")

هو يكذب، يخوِّف أولياءَه، يوقع بين المرء وزوجته، يعدكم الفقر، فالشيطان يخوفك بهذا الدين، إياك إيَّاك، ستنتهي إذا عملت هذا العمل، يخوفك، إيَّاك أن تنفق مالك وإلا ستصبح شحاذاً، أمسك يدك، يمنعك أن تنفق، يمنعك أن تحضر مجلس علم، يمنعك أن تلتزم في جامع، يمنعك أن تظهر بمظهر ديني، ويفرِّق بين المرء وأهله، هذه مهمته:

(وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا (36))

هو درس عملي، الشيطان لم يفعل شيئاً لم يرده الله، لكن ربنا عزَّ وجل علَّم آدم من بعده درساً لا ينسى.

تحليل بسيط للآية التالية :

قال تعالى:

(فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ (36))

هناك تحليل بسيط يبدو أن جنة آدم كانت مريحة جداً، له فيها ما يشاء، فلما أكل من هذه الشجرة انعكست الآية، كانت نفسه محيطة بجسمه، فالنفس طليقة، إذا نظر الشخص إلى شجرة تفَّاح يمكن أن يأكل مليون تفاحة، إذا كانت قضية اتصال فهو يأكل هذه التفاحات ويستمتع بطعمها الطيب دون أن تدخل جوفه، أما إذا كان دخول للجوف فتكفيك واحدة، لا تستطيع أن تكمل، الآن هناك أغنياء معهم ألوف الملايين، إذا أراد أحدهم أن يأكل هل يستطيع أن يأكل جملاً وحده ؟ مهما كان غنياً لا يستطيع أن يأكل أكثر من أوقية لحمة، أو أوقيتين، لأنها ستدخل للبطن، أما إذا كانت قضية نظر فكلما ألقى نظرة على تفاحة أخذ كل طعمها، وأساساً كيف يكون الإحساس بطعم الفاكهة ؟ يلامس اللسان سقف الحلق في أثناء البلع، يدفع هذا الطعام، أعصاب الحس، إذا أكل الواحد أفخر طعام والثاني أكل أخشن طعام فالأمر سواء بعد دخول الطعام إلى الجوف، الفرق في الطعام أثناء البلع والاتصال فقط، فإذا سمح الله عزَّ وجل لنا بالجنة أن نتصل بكل شيء، ونأخذ كل ما فيه من لذة دون أن يدخل جوفنا، لم يعد هناك أمراض ولا تعب، لم يعد هناك كبر بالسن، يوجد هناك استمتاع فقط، فيبدو أن جنة آدم كانت من هذا القبيل فلما أكل التفاحة انعكست هذه الآية، صار هناك جهاز

هضم، صار هناك تُخمة، وصار جهاز طرح للفضلات، صار هناك تعب ونوم، صار هناك سعي وعمل وكدح:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ (6))

(سورة الانشقاق)

بداية فعل الشيطان بعد أن يلتزم الإنسان مع الله:

أيها الأخوة، هناك فكرة تأتي إتماماً للفائدة، قال الشيطان في آياتٍ أخرى:

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16))

(سورة الأعراف)

ما دام المرء بالمعاصي والآثام ترك الصلاة، ما دام ماله حراماً، ما دام يرتاد الملاهي، تجده مرتاحاً ولا يوجد عنده مشكلة، عندما يلتزم بجامع يقول له الشيطان أول شيء: من خلق الله ؟ أو: قد يكون هذا القرآن ليس من عند الله، بل هو كلام محمد ؟ متى بدأ الشيطان يوسوس لهذا الإنسان ؟ بعد أن التزم، وطريق الفجور لا يوجد فيه شيطان، الطريق سالك ونازل، وبعد أن التزم المرء قعد الشيطان على طريق الصلاح:

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16))

(سورة الأعراف)

شيء طبيعي جداً إذا تاب الإنسان إلى الله واصطلح معه، شيء طبيعي جداً أن تأتيه الوساوس من الشيطان، لأنه حسب الآية متى يبدأ الشيطان فعله ؟ بعد أن يلتزم هذا الإنسان مع الله.

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ (17))

(سورة الأعراف)

ألا يوجد عندك صحن فضائي ؟ هذه حضارة ورُقي، يعيش مع العالم كله.

(مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ (17))

(سورة الأعراف)

تقدم، علم، أجهزة، المرأة نصف المجتمع، أحضر للعمل في مؤسستك الموظفات، أكثر راحة، وأمتع، ومعاشهن أقل، تقدُّم، جِدّة، حداثة.

(مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ (17))

(سورة الأعراف)

هذه تقاليد يا أخي، وعادات، وتراث، إذا كان الضلال يأتي من الماضي يحضر لك الماضي، يتجاوزون الإسلام إلى الجاهلية، فنعتز بالماضي المنحرف، أو نبحث عما في المستقبل من ضلالات. أما إذا كان المؤمن واعي.

سلوك الشيطان مع المؤمن:

أما إذا كان المؤمن واعي:

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ (17))

(سورة الأعراف)

لم تضبط صلاتك، تحوي الفاتحة أربع عشرة شدة، تركت منهم واحدة، الصلاة كلها باطلة، مثلاً، يدخله في الوسوسة، لا تتعب نفسك لأن الله كتب عليك من الأزل أنك شقي، يأتيه من القضاء والقدر، يأتيه من العقيدة، يأتيه من النبوة، يأتيه من الوسوسة، إذا كان صادقاً لم تصح، لماذا تصلي ؟ هذه ليست صلاة، معنى ذلك أنك لا تصلي، أتى وقت الدرس، فيقول له: أنت معكَّر، الدرس لشخص صافٍ، ليس لك، ابق جالساً في البيت.

(وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ (17))

(سورة الأعراف)

يهيئ له المعصية، والزنا، والخمر.

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17))

(سورة الأعراف)

تكون ساكناً في بيت وعندك طعامك وشرابك وكل شيء يقول لك سوق مسموم، لا يوجد شغل، الحياة متعذرة في هذا البلد، أنت ماذا ينقصك ؟ ما هذا الذي ينقصك قل لي ؟ دائماً يشكي، الشكوى والتذمُّر، ينسى كل الإيجابيات، ويبحث عن السلبيات، يكبرها، فهذا هو سلوك الشيطان.

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16))

الله عزَّ وجل بدأ حياة سيدنا آدم بتجربة عملية غير التجربة النظرية :

عندما يلتزم الإنسان يأتي الشيطان ! فالأهل في بعض الأيام يأتي ابنهم الساعة الثانية ليلاً، له خمسون صديقة، مكالمات إلى البيت، ممتاز، عندما تاب والتزم بمسجد أكثروا له التأنيب والتوبيخ ! مرة قال لي أحد الشباب: كنت أحضر معي إلى البيت نساء فلا يتكلم والدي ووالدتي معي شيئاً، بعد أن تبت والتزمت بمسجد اختلف الأمر !! صرت محاسباً على الحركة وعلى السكنة، هل يعقل هذا ؟!! هذا سلوك شيطاني، عندما كان غير منضبط كنت أنت ساكتاً عنه، بعد أن التزم صرت تدقق عليه، ألا تريد أن ترحمه بواحدة ؟ إذا لم تعمل هكذا لا أعطيك ؟ إذا لم تفعل هذا العمل لن أزوجك، إذا لم تفعل هذا لن أسكنك بيتي، إذا لم تكشف زوجتك لكل أخواتك فلن أسمح لك، لماذا تفعل هذا ؟ كنت راضياً عنه عندما كان متفلتاً وعندمّا التزم لم تعد راضياً عنه ؟ هذا سلوك شيطاني.

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17))

هذا فعل الشيطان والله عزَّ وجل بدأ حياة سيدنا آدم بتجربة عملية غير النظرية، طبعاً مع الملائكة نظرية، أما مع إبليس عملية:

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (6))

(سورة فاطر)

مهمة الشيطان الأولى أنه يكرهك بزوجتك، ويكرهها بزوجها، المهمة الثانية يخوفك من الفقر، لا تنفق، الثالثة يخوفك من أي جهة قوية، إياك أن تصلي، إياك أن تدخل الجامع، كله كلام الشيطان، من فضل الله علينا المساجد عامرة بهذه البلدة، والأمور مستقرة والحمد لله فلا توجد مشكلة أبداً، كله مرخص، فهذا الشيطان يخوِّفك زيادة، يخوفك، ويعدك بالفقر، ويأمرك بالفحشاء، ويفرق بينك وبين أهلك هذه مهمته، بعد ذلك يكفرك:

(وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17))

هذا الدرس متعلّق بتجربة آدم مع الشيطان:

هذا الدرس أيها الأخوة، درس متعلّق بتجربة آدم مع الشيطان، قال تعالى عن سيدنا آدم:

(فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (115))

(سورة طه)

على المعصية:

(فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ (36))

(سورة البقرة)

أي لا بد أن يخرجا:

(وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36))

هذه كلمة

(إلى حين)

إذا فهمها الإنسان ترتعد مفاصِلُه،

(إلى حين)

عدة سنوات، اعمل ما شئت لا بد من الموت، إذا شيَّع الواحد جنازة، ووقف على القبر، وضع هذا الميت في القبر، هذه الحادثة الرهيبة كلنا سوف نصل إليها، كلنا، مهما كان حجمك المالي، مهما كان بيتك فخماً، مهما كان لك هيمنة على الناس، مهما كان لك أذواق رفيعة جداً في الاستمتاع، مهما كنت أنيقاً عندك أذواق عالية، مهما كان رصيدك كبيراً، هذه اللحظة لا بد منها، لذلك العاقل هو الذي يعد لهذه اللحظة التي لا بد منها عدتها، اعملوا ما شئتم:

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارق، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[رواه أبو داود الطيالسي عن جابر]

هذه الساعة من يضحك أخيراً يضحك كثيراً.

البطولة من يضحك في الآخرة هذا ملخص الملخص:

قال تعالى:

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110))

(سورة المؤمنون)

إذاً ضحكوا أولاً وليس آخراً، في آية ثانية:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34))

(سورة المطففين)

من الذي ضحك أخيراً ؟ المؤمنون، ما داموا ضحكوا أخيراً فقد ضحكوا كثيراً إلى الأبد، والذي ضحك أولاً بكى كثيراً، والإنسان يولد كل من حوله يضحك وهو يبكي وحده، فإذا جاء الأجل كل من حوله يبكي، فإذا كان بطلاً يضحك وحده، هذا ملخص الملخص.

الدنيا سعي و عمل و الآخرة أخذ و جزاء:

قال تعالى:

(وَقُلْنَا اهْبِطُوا (36))

اهبطوا من هذه الحالة العالية، إذا كان الشخص مرتاحاً لا يوجد عنده ولا مشكلة اطلب تعطى:

(لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ (31))

(سورة النحل: آية " 31 ")

هكذا الجنة، نزل إلى مستوى متعب، هناك كدح وسعي، الآن الواحد منا إذا أراد أن يعمل صحناً من السلطة يحتاج ساعة، يقول لك: بعد ثلاثين سنة سكنت في بيت مساحته مئة متر تحت الأرض في القبو، ما هذه الحياة ؟ تعمل عملاً يهد الجبال، لتشتري بيتاً صغيراً، إلى أن يتزوج ويكون له زوجة يقول لك: أصبح عمري أربعين سنة ولم أتمكن من الزواج بعد، هكذا الحياة، الحياة مبنية على الكدح.

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ (6))

(سورة الانشقاق: آية " 6 ")

الجنة ليست هكذا لأنها على الطلب، اطلب تُعط، تقول: أعطوني وأنت ماكث ؟ كله جاهز.

(لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ (31))

(سورة النحل: آية " 31 ")

في الدنيا سعي، في الدنيا عمل، وفي الآخرة أخذٌ.

الجنة بالعمل فاعملوا واشتغلوا:

قال تعالى:

(وَقُلْنَا اهْبِطُوا (36))

انتهت الآن الحالة المريحة، انتهى الدرس، اهبطوا، مثل تقريبي: عندك طلاب أريتهم مزرعة جميلة، تجعلهم يسبحون، تطعمهم أكلاً لذيذاً، تجدهم يحبونها، الآن الذهاب إلى المزرعة للعمل والاجتهاد، أول مرة يهمك أن تجعلهم يطمعون، تريهم ما هي الجنة، فهذه يسمونها تربية عالية جداً، هذه الجنة، وأنتم مخلوقون لهذه الجنة، الآن اهبطوا منها، الآن الجنة بالعمل فاعملوا واشتغلوا، أعطاك نموذجاً عالياً جداً.

(وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا (35))

الآن:

(اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً (38))

الآن اشتغلوا.

(وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36))

الإنسان بضعة أيام وكلما انقضى يوم انقضى بضع منه:

إنها عدة أيام، كل إنسان له أيام معدودة، كل مجتمع له عشرة أيام، انتهت العشرة أيام، تجد أحياناً رفاهاً مذهلاً بعد ذلك تجد الأسعار غالية وانتهى الرفاه، أصبح هناك تعب شديد، فلك في الدنيا مستقر ومتاعٌ إلى حين، فقر، فقر إلى حين، امش في الطريق تجد خمسين نعوة تقريباً، يجب أن تعلم علم اليقين أن هناك يوماً سوف يقرأ الناس نعيَك، وأنا معكم، وكل واحد منا، لن تجد بعد مئة سنة ولا واحداً بالمسجد إما بمقابر الجبل وإما بمقابر الباب الصغير.

(وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36))

هذه جملة:

(إِلَى حِينٍ (36))

تخوف الإنسان، أي أنك بضعة أيام، كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منك، هذا الإنسان، ما من يومٍ ينشق فجره إلا وينادي يا ابن آدم أنا خلقٌ جديد وعلى عملك شهيد، فتزوَّد مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (20- 95):تفسير الآيات 37-39،آدم بين الجنة والدنيا

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-11-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى أراد من الذي حصل لآدم أن يكون درساً بليغاً له ولذرِّيَتِه من بعده :

مع الآية السابعة والثلاثين وهي قوله تعالى:

﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) ﴾

أيها الأخوة، فرقٌ كبير بين معصية إبليس وبين معصية آدم، معصية إبليس ردٌ لأمر الله، معصية إبليس استكبارٌ عن طاعة الله، معصية إبليس تنطلق من الكِبر، وهذه في سُلَّم المعاصي تقع في أعلى درجة، فأشد المعاصي إثماً وعقاباً وبعداً أن يَسْتَنْكِفَ الإنسان أن يطيع الله كبراً، أما الذي يعصيه غَلَبَةً فهذا توبته سريعة، إلا أن العلماء يقولون: إن الأنبياء معصومون، ومعصية آدم ليست معصية بالمعنى الدقيق، لأن الله سبحانه وتعالى أراد من الذي حصل لآدم أن يكون درساً بليغاً له ولذرِّيَتِهِ من بعده، وآدم حينما أكل من الشجرة أغراه إبليس فقال:

﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ (120) ﴾

(سورة طه: الآية " 120 ")

أي أن تبقى في الجنة إلى أبد الآبدين ؟ ولم يكن سيدنا آدم يعرف الكذب لأنه أول إنسان، ولذا ظن ما قيل له صدقاً، يؤكِّد هذا المعنى قول الله عزَّ وجل:

﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (115) ﴾

(سورة طه)

عزماً على المعصية:

((تجاوز الله عن أمَّتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه.))

[ابن حبان والحاكم عن ابن عباس]

الأنبياء معصومون ولم يكن هناك تكليفٌ من قبل، هذا في الجنة، ليس في الجنة تكليف، هناك أمر إرشادي ونهي إرشادي.

أكبر مشكلة تتأتَّى للإنسان في الدنيا من الشيطان:

لم يكن الكذب معروفاً، وقد فسَّر بعضهم آية معصية آدم: كما لو أن أماً كلما دخلت إلى البيت هَرَعَ إليها ابنها من شدة شوقه إليها فنهته كثيراً عن أن يركض حينما تلقاه، خالف أمرها وأسرع

لاستقبالها من شدة محبته لها، هناك إذاً تفسيراتٌ كثيرة تبين أن هذه المعصية ليست معصية بالمعنى الدقيق، فالأنبياء معصومون عن أن يعصوا الله عزَّ وجل، ولكن جعل الله هذه القصة وهذا الحدث لسيدنا آدم في الجنة درساً بليغاً له ولذريته من بعده، أي:

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً (6))

(سورة فاطر: الآية " 6 ")

أكبر مشكلة تتأتّى للإنسان في الدنيا من الشيطان، لأن الشيطان كما قلت في درسٍ سابق قال:

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16))

(سورة الأعراف)

لا تجد عند الإنسان قبل أن يصطلح مع الله أي خاطر سَيِّء، هو غارق في المعاصي، ولا يوجد عنده أي مشكلة، حينما يصطلح مع الله ويعزم على السير في طريق الإيمان تبدأ الخواطر، تبدأ الوساوس، تبدأ الأسئلة المُحَيِّرة، ما تفسير ذلك ؟ تفسير ذلك أن الشيطان يَقْعُدُ للإنسان سبيله المستقيم:

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17))

(سورة الأعراف)

يزين الشيطان كل شيء جديد يتناقض مع الدين:

قال:

(لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ (17))

كل ما يقال عن العصر، وعن العلمانية، وعن التقدَّم، وعن الحضارة، وعن حقوق الإنسان من هذا الباب، أي أن:

قتل امرئٍ في غابةٍ جريمةٍ لا تغتفر
وقتل شعبٍ آمنٍ مسألة فيها نظر

***

تُرفع كلمات برَّاقة، شِعارات برَّاقة، دعوة إلى الاختلاط، دعوة إلى إزالة الفروق بين الجنسين، والدعوات الآن بالمؤتمرات التي تعقد للسكان، دعوة إلى اعتماد ثلاث هياكل أسرية، رجل وامرأة، ورجلٌ ورجل، وامرأةٌ وامرأة:

(لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ (17))

يزين الشيطان كل شيء جديد يتناقض مع الدين، يزين سفور المرأة، يزين الاختلاط، يزين أن تنهمك المرأة في عمل الرجال، يزين كل معصيةٍ نهى عنها الشرع، استثمار الأموال بالبنوك:

(لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ (17))

إقامة الملاهي، إقامة دور القمار، هذا الذي يجري في العالم، أنواع الفساد في كسب المال، وفي المُتَع الرخيصة.

غرق الناس في خلافاتٍ في الدين ما عرفها الصحابة ولا طرحوها ولا فكَّروا فيها:

قال تعالى:

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ (17))

يزين كل التقاليد والعادات الموروثة التي تتعارض مع الدين، هناك من يفتخر بعصر الجاهلية قبل الإسلام، يفتخر بما فعله العرب قبل أن يأتيهم الإسلام ويعدون ذلك مفخرةً، والله عزَّ وجل سمَّى حياتَهُم قبل الإسلام جاهلية، على كلٍ هناك من يزين، الشيطان يزين ما في الحداثة من معاصٍ، وما في التقاليد والعادات من معاصٍ.

(ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ (17))

قد يغرق الناس في خلافاتٍ في الدين، قد يغرقون في طرح مشكلاتٍ ما عرفها الصحابة ولا طرحوها ولا فكَّروا فيها، كانوا كما يقال اليوم: عمليين، أحبوا الله وأقبلوا عليه، وجعلوا همَّهم إرضاءه وخدمة عباده، وأقبلوا عليه، واستناروا بنوره، أما أن ينقسم الناس إلى فريقين حول ما إذا كان كلام الله قديماً أو مخلوقاً، هذا الشيء ما بحثه النبي، ولا ذكره في أحاديثه، ولا سأل عنه الصحابة الكرام، وهناك آلاف القضايا الجُزْئِيَّة التي تثار حول الإسلام، وينقسم الناس فريقين ويتناقشون، ويتراشقون التُهَم، ويقولون، ويُدْلون، وتفرَّغ القيم من مضمونها، ويستنفذون جهدهم في خلافاتٍ داخلية، ويَنْسَوْنَ المهمة الكبرى التي أنيطت بهم.

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ (159))

(سورة الأنعام: الآية " 159 ")

مهمة الشيطان إضلال بني آدم:

الشيطان أساس كل قضية لا تخدم مجموع المؤمنين، الشيطان أساس كل قضية تفرِّقنا، تجعلنا فريقين، توسِّع الهوة بين المسلمين، تجعلهم طوائف متعددة، يقتتلون على لا شيء، وهذا الذي يجري في بعض البلاد الإسلامية، استطاعوا أن ينتزعوا الاستقلال من أعلى دولة، ثم وقعوا بعدئذٍ في حروبٍ داخلية، كل طاقاتهم ضد بعضهم بعضاً، هذا من الشيطان، لأن التحريش بين المؤمنين والاقتتال بين المؤمنين دعوة شيطانية، فمهمة الشيطان إضلال بني آدم.

لكن قد يقول أحدكم: كيف سمح الله له أن يفعل ؟ لم يجعل الله عزَّ وجل للشيطان على الإنسان سلطاناً، سمح له أن يوسوس، وحينما يوسوس فقط فالذي يستجيب له يكون قد تطابق معه، تجد في الصف طالباً منحرفاً من يُفْسِد ؟ لا يفسد إلا من يرغب بالفساد، لأن معظم الطلاب يمتنعون عن أن

يستجيبوا له، من يستجيب له ؟ الراغب في الفساد، فالشيطان يوسوس والملك يُلْهِم وأنت مخير، وليس لأحدٍ عليك من سلطان لا مَلك ولا شيطان، على كلٍ هي عملية تحريك، الشيطان يحرِّك والملك يحرِّك، وهما متوازيان، وأنت مخير:

(إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ (42))

(سورة الإسراء: الآية " 65 ")

وقال:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ (22))

(سورة إبراهيم: الآية " 22 ")

هذه حقيقة دقيقة جداً لا سلطان لأحدٍ عليك إنك مخير، ولكن الشيطان يوسوس، آدم عليه السلام هو أول الأنبياء:

((آدم ومن دونه تحت لوائي ولا فخر.))

[ابن مردويه عن أنس]

الشيطان هو الجهة الوحيدة التي يمكن أن تصرفك عن الهدف الذي خُلِقْتَ من أجله:

تلقى آدم درساً بليغاً جداً في الجنة، فالجنة شيء ممتع، مريح جداً، حكمة الله عزَّ وجل أنه بيَّن للإنسان لماذا خلقه ؟ خلقه للجنة، خلقه لهذه السعادة الأبدية، خلقه لهذا العطاء الذي لا ينتهي، خلقه لراحةٍ ما بعدها راحة، لسرورٍ ما بعده سرور، خلقه لينظر إلى وجه الله الكريم، خلقه ليقبل عليه، خلقه ليَنْعُمَ بقربه، ثم حذَّره: الذي يحول بينك يا آدم وبين هذه السعادة هو الشيطان، فهذا درسٌ لك ولذرِّيتك، فحكمة ما بعدها حكمة أن يبدأ الله خلق الإنسان بهذا الدرس البليغ، هناك جهة واحدة يمكن أن تصرفك عن الهدف الذي خُلِقْتَ من أجله ؛ إنه الشيطان، إنه عدوٌ مضلٌ مبين، إنه يسعى لشقِّ صفوف المؤمنين، يسعى للتفريق بين المرء وزوجه، فكل علاقة طيِّبة بين الزوجين هذه من الرحمن، والعلاقة السيِّئة من الشيطان، البغضاء من الشيطان، الكلام الذي يقوله الزوج أو تقوله الزوجة، والذي يُباعد بين الزوجين من وسوسة الشيطان، كل عملٍ سيِّء بوسوسةٍ من الشيطان، لذلك التفريق بين المؤمنين، بين الزوجين، التخويف من العمل الصالح:

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ (175))

(سورة آل عمران: الآية " 175 ")

وقال:

(يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ (268))

(سورة البقرة: الآية " 268 ")

الشيطان يأمرك بكل شيء يبعدك عن الله ويحذرك من كل شيء يقرِّبك من الله، مع أنه لا يملك شيئاً إلا أن يقول، وأقوى آية بهذا الموضوع قوله تعالى:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ (22))

(سورة إبراهيم: الآية " 22 ")

نوايا الشيطان الخبيثة جداً توظّف في صالح الإنسان لأنه لا يوجد عند الله عزَّ وجل شر مطلق :

لذلك أي إنسان يتذرَّع، يحتج بأن هذا من عمل الشيطان نقول له: أنت الملوم، لأن الشيطان ليس له عليك سلطان، هل يستطيع أحد أن يدَّعي أمام شرطي أو أمام مخفر شرطة أن فلاناً فعل به ما فعل ؟ يقال لك: دفعك إلى هذه الحفرة ؟ يقول له: لا، يقال لك: وضعك فيها بيده ؟ تقول له: لا، يقال لك: شهر عليك سلاحاً وقال: انزل فيها ؟ تقول له: لا، لماذا تشتكي عليه ؟ تقول: لأنه قال لي: انزل فنزلت، هذا كلام مضحك غير مقبول.

حتى لا يسترسل الإنسان ويعزو أخطاءه للشيطان ويستريح، الإنسان مسؤول ومحاسب، ولا يعفى من أية مسؤولية أن الشيطان يوسوس، الشيطان محرِّك، الشيطان كاشف، الشيطان مهمَّته الكشف، يكشف الضَعف، نحن أحياناً كثيرة بحاجة إلى كشف نقاط الضعف، هناك الآن أجهزة حديثة جداً تكشف ما في الحديد من ضعف، حتى لا يحدث خلل والطائرة في الجو صار هناك جهاز يكشف ضعف المعدن، فإذا كانت هناك نقطة ضعف يكشف قبل أن ينشطر المعدن، فالشيطان كاشف يكشف الإنسان، الإنسان لا يعرف نفسه لولا الشيطان، يتوهم نفسه مؤمناً، يكشف له الشيطان حقيقته تماماً، يُحَجِّمُهُ، يغريه فيستجيب فيقع، هذا أنت، هذا هو حجمك الحقيقي في الإيمان، هذه هي خشيتك، هذا هو ورعك، كل ما تقوله ادعاء، هذا هو الحق.

أقول لكم شيئاً آخر: نوايا الشيطان الخبيثة جداً توظَّف في صالح الإنسان، لأنه لا يوجد عند الله عزَّ وجل شر مطلق، عنده شر نسبي، الشر المطلق لا وجود له في الكون وهو يتناقض مع وجود الله، فلو كان هناك شر فإنه يوظف للخير، وأنا أعرف قصة ذكرتها لكم سابقاً، رغبت إنسانة متفلّتة أن تكون موظفة في مكان ما، طُلِب منها شهادة صحية، ذهبت إلى المستشفى، الموظَّف مقصر، مهمل، أعطى لأخيها تقريراً يخص غيرها، أنها مصابة بمرض السُل، حينما علمت بهذا المرض الخطير بكت أشد البكاء، تألَّمت أشد الألم، طبعاً قاطعها أهلها، ابتعدوا عنها، أعطوها أدوات خاصة لها، لم يأكلوا معها، تعقدت وبكت بكاءً مراً، ثم تابت إلى الله، وصلَّت واصطلحت معه، وكان أخوها في المستشفى بعد أسبوعين، فإذا بالنتيجة لم تكن لها بل لغيرها، وظّف الله هذا الخطأ الذي ارتكبه

الموظَّف وهذا الإهمال للخير المطلق، فهي حينما توهَّمَتْ أنها مريضة بهذا المرض تابت إلى الله عزَّ وجل، دائماً يوظّف الله عزَّ وجل الشر للخير المطلق.

الإنسان حينما تُكْشَفُ حقيقته هذه خطوة أولى نحو التوبة ونحو صلاح نفسه:

حتى الشيطان موظف أن يكشف للإنسان أبعاده، يكشف نقاط ضعفه، يكشفها ليتوب منها، لو كان هناك خطأ كامن في النفس ولم يظهر إلا عند الموت لاستحق صاحبه النار، أما إذا كان عنده ضعف جاء الشيطان كشف هذا الضعف، فهو في الظاهر أغواه، ولكنه في الحقيقة أخرج ما عنده من شر، وبعد ذلك جاء عقاب الله عزَّ وجل وانتهى بالتوبة، لذلك في النهاية عندما يتوب الإنسان من ذنبٍ ارتكبه بفعل وسوسة الشيطان، فما الذي يكون قد حصل ؟ الشيطان كشف وسارع من دون أن يشعر، من دون أن يريد بتقريب هذا الإنسان من الله عزَّ وجل، وإلا من سمح للشيطان أن يفعل فعله في الأرض ؟ الله جلَّ جلاله، والله عزَّ وجل كل فعله خير، حتى الذي يقوله الشيطان للإنسان موظفٌ للخير المطلق، إنها عملية كشف.

لو كان عندك مثلاً مجموعة أشخاص لا تعرف عنهم شيئاً، وأنت مضطر أن تُقَيِّمَهُم تقييماً جيداً، أو يجب أن تعلمهم بحقيقتهم، لا بد من طريقة كشف ؟ فالإنسان حينما تُكْشَفُ حقيقته، هذه خطوة أولى نحو التوبة، ونحو صلاح نفسه، هذا كلام يحتاج إلى دروس أطول، فالشيطان شرِّير هدفه إغواء الإنسان، هدفه حمله على المعصية، هدفه أن يبعده عن الله عزَّ وجل هذا الذي يريده الشيطان، ولكن الله يريد أن يتوب علينا، فأحياناً يزيِّن الشيطان للإنسان عمله ليخرج ما في نفسه من شهواتٍ مستحكمة، وبعدئذٍ يأتي عقاب الله عزَّ وجل ليطهر هذا الإنسان من كل شهوةٍ عَلقَتْ به.

(فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ (37))

هناك ذنبٌ بينك وبين الله، وهناك ذنبٌ بينك وبين العباد، فالذنب الأول يغفر والثاني لا يترك، أما الذنب الذي لا يُغْفَر هو الشرك بالله عزَّ وجل، الشرك بالله ذنبٌ لا يغفر وما كان بينك وبين العباد ذنبٌ يغفر بشرط الأداء والمسامحة، وما كان بينك وبين الله يُغفر بطلب المغفرة، ذنبٌ يغفر، ذنبٌ لا يترك، ذنبٌ لا يغفر.

التوبة تكون من الذنب الكبير ومن الذنوب الكثيرة لأن الله توّاب:

قال تعالى:

﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) ﴾

الله عزَّ وجل توَّاب، ومعنى توَّاب صيغة مبالغة، وصيَغ المبالغة مع أسماء الله الحسنى تعني أنه يتوب على الإنسان من أكبر ذنبٍ اقترفه، ويتوب عليه من آلاف الذنوب، فهنا مبالغة كَماً ونوعاً، مهما كان الذنب في نظرك كبيراً يتوب الله عزَّ وجل عليك منه، أي ذنبٍ مهما بدا لك كبيراً:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ (53) ﴾

(سورة الزمر: الآية " 53 ")

وفي الحديث القدسي:

((لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

[حديث قدسي]

وقال:

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50) ﴾

(سورة الحجر)

التوبة تكون من الذنب الكبير ومن الذنوب الكثيرة لأن الله توَّاب.

ملخص الدين كله معرفة واستقامة وسعادة في الدنيا والآخرة:

بل إن الله عزَّ وجل:

﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (27) ﴾

(سورة النساء)

هذه إرادة الله عزَّ وجل، بل إن الله عزَّ وجل يحمل الإنسان على التوبة، قال الله تعالى:

﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ (187) ﴾

(سورة البقرة: الآية " 187")

أي قبل توبتهم، تابوا فتاب الله عليهم، أما:

﴿ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا (118) ﴾

(سورة التوبة: الآية " 118 ")

أي ساق لهم من الشدائد ما يحملهم بها على التوبة، علمنا الله عزَّ وجل من هذا الدرس أن الإنسان خلق للجنة، ولكن لهذه الجنة ثمنٌ، ثمنها طاعة الله في الدنيا، وطاعة الله عزَّ وجل لا تقع إلا إذا عرف الإنسان الله عزَّ وجل، وحينما يعرفه ويطيعه يسعده في الدنيا والآخرة هذا ملخص الدين كله، أي معرفة واستقامة وسعادة في الدنيا والآخرة.

في الدنيا جنةٌ من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة إنها القرب من الله عزَّ وجل:

ثم إن الله عزَّ وجل وقد خلقنا للجنة لا بد من نماذج، قال:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6))

(سورة محمد)

يذيقهم في الدنيا بعض القرب، في الدنيا جنةٌ من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، إنها القرب من الله عزَّ وجل، حتى الأشياء الجليلة في الدنيا لها هدف تربوي، لأن كل كلمات الجنة لا معنى لها من دون مكان جميل في الدنيا، فلا بد من مرتكزات لهذه الكلمات، إذا قال الله عزَّ وجل:

(جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (8))

(سورة التحريم: الآية " 8")

لا بد من أمكنةٍ جميلةٍ، من غابات، من بساتين، من أنهار، من جبال خضراء، من سواحل جميلة، هذه مرتكزات لكلمات الجنة، من أجل أن تفهم على الله ماذا تعني الجنة، لذلك يذيق الله عزَّ وجل المؤمن نوعاً من أنواع القرب، هذا الذي قاله بعض العلماء: **" في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة "**، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6))

(سورة محمد)

الإنسان مخلوق للجنة:

الله عزَّ وجل عرفنا من خلال هذا الدرس أن الإنسان مخلوقٌ للجنة، وأن:

((في الجنة ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.))

[مسلم عن أبي هريرة]

أن من في الجنة ما هم منها بمخرجين، وأن ثمن هذه الجنة طاعة الله في الدنيا، وأن العدو الأول الذي يحول بين الإنسان وبين الجنة هو إبليس، وأن إبليس مهمته أن يزين الدنيا للإنسان، يزين المعصية، يزين كسب المال الحرام، يزين الشهوة المحرمة، يزين كل شيء محرَّم، هذا من عمل الشيطان، وأن الله عزَّ وجل توّابٌ رحيم، توابٌ شديد التوبة على عباده، توابٌ من أكبر ذنب، يتوب الله على المؤمن من أكبر ذنب، ويتوب عليه لعددٍ من الذنوب لا يعد ولا يحصى وما على الإنسان إلا أن يتوب، وإذا قال العبد: يا رب إني تبت إليك، قال: عبدي وأنا قد قبلت.

الكلمات التي تلقاها الله عزَّ وجل من آدم الاستغفار، أعلن آدم توبته، وقبل الله عزَّ وجل هذه التوبة، وهذه حقيقة أساسية، أضرب لكم مثلاً موضِّحاً: لو أن ابناً نال صفراً في الرياضيات، وكان أبوه يطمح أن يكون ابنه عالماً كبيراً، ويحمل أعلى الشهادات، فلما جاء بهذه العلامة المخزية غضب الأب غضباً شديداً وأزمع أن يؤدِّب ابنه تأديباً لا حدود له، لو رأى الأب ابنه قد اصفر لونه، وترك

الطعام والشراب، وركبه همٌّ لا يحتمل، وبحث عن طريقةٍ ليتلافى تقصيره، هذا السلوك من الابن ؛ الندم والاستغفار والبحث عن إصلاح الوضع هذا يؤخِّر عقاب الأب، وهذا شيء دقيق جداً.

الإنسان في مأمنين من عذاب الله حينما يستقيم على أمر الله وحينما يستغفر:

ما الذي يمنع عن الإنسان عقاب الله عزَّ وجل ؟ أن تكون مستقيماً على أمره، وما الذي يمنع عنك عقاب الله إذا خالفت الأمر ؟ أن تستغفر الله عزَّ وجل، فأنت بين بحبوحتين، بحبوحة الطاعة، وبحبوحة الاستغفار، لأن الله عزَّ وجل يقول:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33))

(سورة الأنفال)

هذه حقيقة مهمة جداً أيها الأخوة، أنت في مأمنين ؛ مأمنٍ من عذابٍ الله حينما تستقيم على أمره، لأن الله عزَّ وجل يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ (147))

(سورة النساء: الآية " 147 ")

وأنت في مأمنٍ آخر من عذاب الله، حينما تستغفر:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (12))

(سورة نوح)

استغفره آدم:

(فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً (38))

الآن جاء الخروج من الجنة، تحوي الجنة فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، أما في الدنيا كل شيء محدود، هذا البيت، وهذه الزوجة، وهؤلاء الأولاد، وهذا الدخل.

نظام الجنة شيء ونظام الدنيا شيء آخر:

الجنة فيها نعيم مطلق، بينما سعادة الدنيا محدودة، الجنة مبنية على الإكرام:

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35))

(سورة ق)

والدنيا مبنية على السعي والكدّ:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39))

(سورة النجم)

كان بحالة مريحة جداً، كان يتلقى الإكرام فصار عليه أن يعمل وأن يكدح وأن يجتهد، اختلف النظام، نظام الجنة شيء ونظام الدنيا شيء آخر، نظام الجنة يأتي عقب استقامةٍ على أمر الله وعملٍ صالحٍ، بينما الجنة التي كان فيها آدم توضيحية، أن أيها المخلوق الأول أنت لهذا خلقت، خلقت للجنة، والذي يحول بينك وبينها هو إبليس، فتحصَّن منه وأطع ربك تصل إلى هذه الجنة مرة ثانية، هناك أسلوب تربوي، يجب أن تُعَرِّف الطفل بما ينتظره من جزاء حسن لو اجتهد، تذيقه بعضاً من هذا الجزاء، ثم تدعوه إلى السعي والكد، فالإظهار الأولي هدفه تربوي، فربنا عزَّ وجل أراد من هذا الدرس أن يُطْلِعَ آدم على ما في الجنة من نعيمٍ مقيم، وأن الخطر الأول هو إبليس، وأن ثمن هذه الجنة هو العمل الصالح.

الفرق بين حالة آدم في الجنة وحالته في الدنيا :

قال تعالى:

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً (38))

الهبوط نزول مستوى، كان الإنسان بحالة راقية صار بحالة متعبة، تجد الإنسان يصل إلى ثلاثين سنة حتى يتزوج، هذا يكون سبَّاقاً إلى الزواج، حتى يستقر إلى أن يجد له بيتاً، مأوى، زوجة، أولاداً، ثلاثين عاماً فما بعد، يحتاج إلى سنوات وسنوات حتى يستطيع أن يتحرك حركة معقولة، فهؤلاء الذين كسبوا المال حصَّلوه بجهدٍ جهيد، فلمَّا حصَّلوه ما بقي لهم كثير ولا قليل حتى يغادروا الدنيا، فالدنيا دار تعب، إن هذه الدنيا كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إن هذه الدنيا دار التواء وليست بدار استواء، إنها منزل ترح لا منزل فرح، من عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي.))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

صار هناك هبوط، يجب أن يسعى ويكد لتحصيل الطعام، بعد أن كان مبذولاً بأعداد لا تنتهي، بإمكانك أن تأكل مليون تفَّاحة، مليار، كلَّما توجَّهت أشعَّة من نفسك إلى هذه التفَّاحة أخذت كل ما فيها من طعمٍ طيّب، دون أن تدخلها إلى جوفك فتتعبك، أما في الدنيا يوجد طريق ثاني، لا بد من أن تأكلها، فإذا أكلتها أصبحت عبئاً عليك، الذي يؤثر الطعام الطيّب يحتاج إلى جهود جبَّارة كي يُخَفِّض وزنه، فالدنيا متعبة، كل شيء يحتاج إلى سعي وإلى كد، فكسب المال صعب، إن كسبه حراماً سقط من عين الله، وإن أراد أن يكسبه حلالاً بذل جهداً كبيراً جداً، فهبط المستوى، كان للإكرام صار للعمل والسعي والكد، كان لهم ما يشاؤون صار ليس لهم إلا ما يفعلون، كان في إكرام صار في جهد، كان في مسامحة صار في محاسبة، أي أن الوضع في الدنيا اختلف اختلافاً كبيراً، لذلك

المؤمن حينما يأتيه ملك الموت ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة كما ينتقل الجنين من ضيق الرَحِم إلى سعة الدنيا.

على كلٍ الحالة التي كان بها آدم حالة مريحة جداً ومثالية جداً، ليس فيها نصب، ولا تعب، ولا خوف، ولا قلق، ولا مرض، ولا هم، ولا حَزَن، ولا زوجة دون الوسط تزعج زوجها، لا يوجد قلق مخيف من مرض، من آلام، من أمراض وبيلة، عُضالة، لا يوجد فقر، ولا سجن، لا يوجد شيء مزعج إطلاقاً ؛ أما في الدنيا فهناك مسؤوليَّة، وهناك كسب للمال، وهناك جوع، والجوع وراء كل عمل الإنسان، إنه مفتقرٌ إلى الطعام كي يستمر وجوده، وتحصيل الطعام مفتقر إلى عملٍ يكسب به ثمن الطعام، لذلك الأنبياء قال الله عنهم:

(إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ (20))

(سورة الفرقان: الآية " 20 ")

أي أنهم مفتقرون مرَّتين ؛ مرَّةً إلى تناول الطعام لبقاء وجودهم، ومرَّةً إلى كسب المال لشراء الطعام، هذا معنى:

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً (38))

الحياة متعبة وفيها ابتلاء وامتحان لكن المطيع لله عزَّ وجل في أمنٍ وراحة:

على كلٍ الإنسان حينما يأتيه هدىً من الله عزَّ وجل ويتَّبع هذا الهدى:

(فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

لا يحزنون أبداً، صحيح أن الحياة متعبة وفيها ابتلاء، وفيها امتحان، لكن المطيع لله عزَّ وجل في أمنٍ وراحة ؛ إن الله يعطي الصحَّة، والذكاء، والمال، والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنَّه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين، صحيح أن الحياة متعبة، لكن طاعة الله مُسْعِدَة، الحياة شاقَّة، لكنها مع طاعة الله تبدو مريحة، الحياة مقلقة، ولكنها مع الالتجاء إلى الله تبدو آمنة، أي أن هناك وضعاً خطراً قائماً ومعك طريق النجاة منه، فالذي بحث عن طريق النجاة هو في أمنٍ وبحبوحة:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19))

هكذا خلقه الله:

(وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

المصلي المتصل نجا من الهَلَعْ ومن الجَزَعْ، نجا من شدَّة الجَزَع، ونجا من شدَّة الحِرْص لأنه اتصل بالله عزَّ وجل:

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

العبرة ليست في الشباب ولكن في الشيخوخة فالعبرة في خريف العمر :

لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفتنا جميعاً:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ (38))

في المستقبل:

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

على الماضي، أحياناً إنسان لا يعرف الله، وليس له أمل في الجنَّة، عندما يجد نفسه قد تجاوز الستين، وتغيَّرت ملامح وجهه، وبدأت العلل تتسرَّب إلى جسمه، وصار على هامش الحياة الأسريَّة، أي أن أولاده انصرفوا إلى زوجاتهم، وبناته إلى أزواجهن، وزوجته منزعجة من وجوده، فهي تغادر البيت، وكل يوم في زيارات متعددة، فعندما يصل الرجل إلى هذا المستوى يشعر بالقلق وبالوحشة لأنه ما عرف الله في شبابه، من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

العبرة ليست في الشباب ولكن في الشيخوخة، العبرة في خريف العمر، هذه المرحلة من العمر متعلّقة بالشباب، أحد الصالحين هنا في الشام علَّم الطلاَّب ثمانين سنة، بدأ بالتعليم في الثمانية عشر وتوفي في الثمانية والتسعين وهو قائم على التعليم ؛ التعليم الديني، وكان يقول للطالب: يا بني أنت تلميذي، وكان أبوك تلميذي، وكان جدّك تلميذي، أي أنه علَّم ثلاثة أجيال، وخرَّج آلافاً مؤلّفة من أعلام هذه البلدة، وكان في الثمانية والتسعين منتصب القامة، حاد البصر، مُرْهَف السمع، أسنانه في فمه، متَّعه الله بقوَّته، فكان إذا سُئل: يا سيدي ما هذه الصحَّة التي أكرمك الله بها ؟! يقول: " يا بني حفظناها في الصِغَرْ فحفظها الله علينا في الكِبَرْ، من عاش تقياً عاش قويَّاً "، لذلك خريف العمر متعلّق بالشباب، كيف تُمْضي الشباب يكون خريف العمر كذلك:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

مرَّة زرت والد صديق لي قال: أنا عمري ستة وتسعون عاماً، عملنا تحاليل من يومين فكانت التحاليل كلها طبيعية، قال لي: والله لم آكل قرشاً من الحرام في حياتي ولا أعرف الحرام، كلمتان، لم يأكل قرشاً حراماً ؛ شهوة المال، ولا يعرف الحرام ؛ شهوة النساء، بهذه العفَّة وبهذا الورع متَّعه الله بقوَّته إلى السادسة والتسعين من عمره، من عاش تقيّاً عاش قويَّاً.

الأمن من أهم حاجات الإنسان:

قال تعالى:

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

الحقيقة قضيَّة الأمن دقيقة جداً، الأمن أكبر حاجة للإنسان، قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام)

أنت من خوف الفقر في فقر، أنت من خوف المرض في مرض، توقُّع المصيبة مصيبة أكبر منها، بل إن نوعاً من أمراض القلب سببه الخَوْفُ من أمراض القلب، فالقلق يأكل كَبِدَ الإنسان، بالإيمان والتوحيد تنجو من هذا المرض:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا (51))

(سورة التوبة: الآية " 51 ")

وقال:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

هذا الأمن الذي يتمتَّع به المؤمن لو وُزِّعَ على أهل بلدةٍ لكفاهم، هناك في قلب المؤمن من الأمن ما لا يوصف بسبب طاعته لله عزَّ وجل، قال له:

((يَا مُعَاذُ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))

[متفق عليه عن معاذ]

أنشأ الله عزَّ وجل لك حقَّاً عليه ألاّ يعذِّبك ما دمت في عبادته وطاعته، ما دمت في ظل شرعه، ما دمت في أمره ونهيه، ما دمت تتلو كتابه، تقيم أمره، وتقيم حلاله، وتمتنع عن حرامه، ما دام هناك التزام أنت في بحبوحة.

خط بيان المؤمن خطٌ صاعد وما الموت إلا نقطة على هذا الخط:

قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ (33))

(سورة الأنفال: الآية " 33 ")

هذه النعمة التي يملكها الإنسان المؤمن ؛ نعمة الأمن، الطمأنينة، الشعور أن الله يحبُّه، وأن الله قد أعدَّ له جنَّةً، الشعور أنه قد تتصل نعم الدنيا بنعم الآخرة، قد تتصل اتصالاً مستمراً، هو يعيش في الدنيا في سلام مع نفسه، ومع الناس، ومع ربّه، في بحبوحة، في صحَّة، في سمعة طيّبة لأنه مقيم

على أمر الله، يموت فينتقل إلى الجنَّة، اتصلت نعم الدنيا بنِعَم الآخرة، وكأن خط بيان المؤمن خطٌّ صاعد، وما الموت إلا نقطة على هذا الخط، بينما حياة الكافرين مُفْعَمَةٌ بالقلق، بالخوف من المجهول، بالخوف من المستقبل، لأنهم حينما أشركوا بالله قذف الله في قلوبهم الرعب:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215))

(سورة الشعراء)

على كلٍ هذه الآية:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

أضيفُ لها آية ثانية:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123))

(سورة طه)

اجمع الآيتين ؛ من يتبع هدى الله عزَّ وجل لا يضلُّ عقله، ولا تشقى نفسه، ولا يندم على ما فات، ولا يخشى مما هو آت، ماذا بقي من السعادة في الدنيا ؟ لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، ولا يندم على ما فات، ولا يخشى مما هو آت.

إذا عَمَّر الإنسان الآخرة سهُل عليه أن ينتقل إليها:

قال تعالى:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))

لا خوفٌ عليهم من المستقبل، يضمن الله لهم مستقبلاً مريحاً، ولا يحزنون على ما مضى لأنهم قادمون إلى الجنَّة، إنسان يسكن في حيّ فقير، في حي متواضع جداً، وفي بيت صغير تحت الأرض، مساحته ثمانون متراً، عنده ثمانية أولاد، فإذا انتقل إلى بيت مساحته أربعمئة متر له إطلالة جميلة جداً، هل هناك ألم في أثناء نقل الأثاث ؟ هل هناك انقباض ؟ هل هناك ضيق ؟ بالعكس هناك فرح، وسرور، واستبشار، الانتقال إلى الأحسن مسعد للنفس، إذا عَمَّر الإنسان الآخرة سهُل عليه أن ينتقل إليها، لماذا يخاف الناس الموت ؟ لأنهم عمَّروا الدنيا وخَرَّبوا الآخرة، وهذا الطريق ممر إجباري لا بد منه، فالموت قضيَّة كبيرة جداً، وكلَّما حسَّنت حياتك وأنت ـ لا سمح الله ـ على معصية صعُبَ عليك الموت، توجد بلاد فيها من الرفاه ما يفوق حد الخيال، شيء يحيّر العقول، الموت هناك صعب جداً، لأنه يترك جنَّةً في الدنيا إلى القبر، والانتقال من جنَّة في الدنيا إلى القبر شيء صعب جداً، على كلٍ المؤمن في أمن، يشعر أنه لا خوفٌ عليه في الدنيا ولا هو يحزن على فراقها، **"وا كربتاه يا أبت "** ، قال: **" لا كرب على أبيك بعد اليوم، غداً نلقى الأحبَّة محمَّداً وصحبه ".**

تعجب الله عز وجل من صبر الكفار على النار وهم لا يحتملون عقابها:

قال تعالى:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39))

كفر أي: كذَّب، وأعرض، وانغمس في شهواته، هؤلاء:

(أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39))

يقول الله عزَّ وجل وهو أصدق القائلين:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175))

(سورة البقرة)

كأن الله عزَّ وجل يعجب من صبرهم على النار، كيف تقترف هذه المعصية وأنت لا تحتمل عقابها ؟

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (21- 95):تفسير الآية 40 ، المؤمن مع المنعم والكافر مع النعمة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-12-1998

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة من إيراد قصة بني إسرائيل في القرآن الكريم مرات عديدة:

مع الآية الأربعين وهي قوله تعالى :

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40))

أيها الأخوة الكرام، بادئَ ذي بدء، ما الحكمة أن تَرِد قصَّة بني إسرائيل في القرآن الكريم مرَّاتٍ عديدة، مع أن القرآن للمسلمين ؟ هناك من تَلَمَّسَ الحكمة في ذلك فقال: **" الخطاب المُباشر أقلُّ تأثيراً من الخطاب غير المباشر "**، فأنت إذا أردت أن تنصح إنساناً، وأن تُلْقِي عليه بعض الحقائق ربما دافع عن نفسه، أو ربما رأى ذلك انتقاصاً من قدره، فهناك خطوط دفاعٍ عند كل إنسان تمنع أن تدخل إلى أعماقه، أما إذا كان المُخَاطَبُ ليس معنياً في الموضوع، إنما المعنيُّ جهة ثالثة، فهذه الطريقة في الخطاب أكثر فاعليَّة، وأكثر تأثيراً.

لو أن ابنك مثلاً مبتلى بشيءٍ لا يُرْضي الله، ربما لا يستجيب إذا ألقيت عليه نصائح ومواعظ وخطابات، أما إذا حدّثته عن شابٍ وقع في شيءٍ مشابهٍ لما وقع فيه الابن ودفع الثمن باهظاً فلعلَّ تأثير هذا الكلام يكون أكبر، لذلك دائماً وأبداً الطريقة المباشرة أقلُّ فاعليَّة من الطريقة غير المباشرة، فمن الأمراض التي يمكن أن نقع بها، والنفاق الذي يمكن أن نقع فيه، والتقصير الذي يمكن أن نقع فيه، هذا كلُّه عُولِجَ في قصص بني إسرائيل، فصار الحديث عن بني إسرائيل حديثاً غير مباشر عن قضايانا، هذه بعض الحكم التي تلمَّسها بعض العلماء من كثرة إيراد قصَّة بني إسرائيل في القرآن الكريم لأن الأمراض التي يمكن أن نقع فيها وقعوا فيها، نقاط الضعف التي يمكن أن نعانيها وقعوا فيها، فمعالجتها معالجة لنا.

قصص بني إسرائيل فيها أسلوبٌ تربويٌّ فعَّالٌ لنا:

مثلاً قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

(سورة المائدة: آية " 66 ")

قياساً على ذلك لو أننا أقمنا القرآن الكريم لأكلنا من فوقنا ومن تحتنا، و لجاءت الخيرات كثيرةً:

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16)لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

(سورة الجن)

وقال:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الأعراف: آية " 96 ")

أول نقطة في هذا الموضوع أن قصص بني إسرائيل فيها أسلوبٌ تربويٌّ فعَّالٌ لنا لأن القرآن الكريم لا يخاطب المسلمين بشكلٍ مباشر بل يحدِّثهم عن أممٍ انحرفت فدفعت ثمن انحرافها باهظاً، يكون عند الواحد منا تقصير من جهة، فإذا رأى إنساناً قصَّر التقصير نفسه ودفع الثمن باهظاً يبادر إلى تلافي الأمر.

أصل تسمية بني إسرائيل بهذا الاسم:

الشيء الآخر: إذا أراد الله جلَّ جلاله أن يخاطب الناس جميعاً قال:

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

(سورة الأعراف: آية " 31 ")

الخطاب هنا لبني إسرائيل، من هو إسرائيل ؟ هو سيدنا يعقوب عليه السلام، وما معنى هذا الاسم ؟ قال بعض العلماء: " في العبرية (إسرا) تعني عبد و(إيل) تعني إله، هو عبد الله، أو صفي الله، هذا أصل التسمية في اللغة العبرية، فربنا عزَّ وجل يقول:

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (40))

أي أنتم انحدرتم من إسرائيل وهو صفي الله عزَّ وجل، فَلِمَ أنتم كذلك ؟ تماماً كما لو تثير نخوةَ شاب، أنت ابن فلان، وأبوك إنسانٌ كبير، وإنسانٌ عالِم، وإنسانٌ كريم، وإنسانٌ محترم فَلِمَ أنت تفعل ذلك ؟ هذه هي العلّة في قوله تعالى:

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (40))

أي أنتم من نسل يعقوب، ويعقوب من نسل إبراهيم، وإبراهيم هو أبو الأنبياء عليهم السلام، إذاً :

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (40))

يوجد شيءٌ ثالث: إذا كان الأنبياء الذين جاؤوا إلى بني إسرائيل كُثراً فهذا لا يعني أنَّهم أمة مختارة، أي إذا كان الأساتذة الذين يعلّمون طالباً كثيرين جداً فهذا دليل على كسله، وليس معنى ذلك أنه متفوّق، أكثر الشعوب معصية وتمرُّداً على الله عزَّ وجل هم بنو إسرائيل.

لو تدبَّرت أصل الفساد في العالم لوجدته من صنع بني إسرائيل:

قال تعالى:

(وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ)

(سورة البقرة: آية " 61 ")

منهجهم الآن إفساد شعوب الأرض، أصل الفساد في الأرض يتأتَّى الآن من بني إسرائيل، أي هم إن ضبطوا أنفسهم هذا وصمةُ عارٍ بحقِّهم، هم ينضبطون ولكنهم يُفْسدون الشعوب كلَّها، لو تدبَّرت أصل الفساد في العالم لوجدته من صنع بني إسرائيل، فلذلك ليست كثرة أنبيائهم دليل تفضيلهم، بل هو دليل انحرافهم الشديد، هذه بعض الحقائق المتعلّقة بقوله تعالى:

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (40))

الآن الخطاب يعنينا:

(اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ (40))

هناك أيها الأخوة نعمةٌ وهناك مُنْعِم، الكافر مع النعمة، أما المؤمن مع المُنعم، وما لم تنتقل من النعمة إلى المنعم فلست مؤمناً، الكفَّار في كل مكان يستمتعون بنعم الله أيَّما استمتاع، بل إن الكفَّار أكثر من المؤمنين استمتاعاً بالنعم لأنها نصيبهم الوحيد من الله عزَّ وجل، بلادهم جميلة، وأموالهم طائلة، وقوَّتهم مسيطرة ومع ذلك هم غارقون في المعاصي والآثام:

((لو كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عن سهل بن سعد]

آيات من الذكر الحكيم تبين أن عقاب الله آت ولو بعد حين والعاقبة للمتقين:

أيها الأخوة الكرام، القرآن شفاء لما في الصدور، ذلك لأن الإنسان أحياناً يختل توازنه، فإذا قرأ القرآن استعاد توازنه، فقد يجد الإنسان كافراً غنيّاً، وقد يجده قويّاً، ومسيطراً، ومستمتعاً، ومتغطرساً وهو غارقٌ في المعاصي والآثام، وهناك مدينة في بعض بلاد الغرب ثلاثة أرباع سكَّانها شاذُّون، خمسة وسبعون بالمئة، وهي من أجمل المدن وكلهم شاذُّون، وهذا عند الله انحرافٌ خطير عاقبته القضاء المبرم قال تعالى :

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197)لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ(198))

(سورة آل عمران)

وقال تعالى:

(لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ و َلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ(195))

(سورة آل عمران)

ويقول أيضاً:

(وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ(42))

(سورة إبراهيم)

ويقول أيضاً :

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(12))

(سورة آل عمران)

ويقول أيضا ً:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128))

(سورة الأعراف)

ويقول تعالى:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ(34))

(سورة المطففين)

النصر يحتاج إلى شرطين اثنين ؛ الإيمان والعُدَّة:

دققوا في هذا الكلام أيها الأخوة: العبرة في من يضحك آخراً، لأنه من يضحك أخيراً يضحك كثيراً، ومن يضحك أولاً يبكي كثيراً، فالعبرة أن تكون على منهج الله، والعبرة أن تكون مطيعاً لله، والعبرة أن تأتمر بما أمر الله وأن تنتهي عما نهى الله عنه، هذه هي العبرة، وكفاك على عدوِّك نصراً أنه في معصية الله، فلو كان عدوُّك أقوى منك، ولو كان أغنى منك، ولو كان أذكى منك، ولو كان أكثر منك سيطرةً العبرة أن تكون مطيعاً لله، ولكن من طاعة الله أن تُعِدَّ لهم:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(سورة الأنفال: آية " 60 ")

ذكرت اليوم أن النصر يحتاج إلى شرطين اثنين كلٌ منهما شرطٌ لازمٌ غير كافٍ ؛ يحتاج إلى الإيمان، ويحتاج إلى العُدَّة، أن تُعِدَّ العُدَّةَ المتاحة، وليست العدة المكافئة، وهذا من رحمة الله بنا:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 60 ")

بقدر استطاعتكم، حينما أمرنا الله أن نُعِدَّ لعدوِّنا العُدَّةَ المُتاحة رحمنا بهذا وعلى الله الباقي، وعلى الله ترميم الفارق بين العُدَّة المتاحة والعُدَّة المكافئة ولكن لا بد من الإيمان، وخطر المعصية على

قوّتنا أكثر من خطر عدوّنا على قوّتنا، لذلك المؤمن مع المنعم، والكافر مع النعمة، ولا خلاف حول النعمة.

الفرق بين أن تكون عبداً للنعمة وبين أن تكون عبداً للمنعم:

في الفاتحة

(الْحَمْدُ)

لا خلاف على النعم التي بين أيدينا ولكن من هو المنعم ؟

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(2))

(سورة الفاتحة)

هم يرون الحمد لهم فهم الذين اكتشفوا هذه الثروات، الذين صنّعوها واستغلّوها، وهم يرون أنفسهم آلهة الأرض، ولكن المؤمن يرى الله عزّ وجل، إذاً الخلاف بين أن تكون عبداً للنعمة، وبين أن تكون عبداً للمنعم، بين أن تشكر ما آتاك الله من قدراتٍ على استغلال النِعَمْ، وبين أن تشكر الله عزّ وجل الذي منحك هذه النعم، الذي يمدحك يمدح الذي منحك ولا يمدحك أنت:

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ (40))

قال بعض المفسِّرين، وهي لفتة طريفة: " حينما خاطب الله عزّ وجل المؤمنين قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ (40))

(سورة الأحزاب: آية " 41 ")

أما حينما خاطب بني إسرائيل قال :

(اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ (40))

لأنهم ماديُّون فمفتاحُهُم النعمة ".

المؤمن بالذّات يحب الله على كماله:

نرجو من الله عزّ وجل أن نكون نحن أرقى منهم، ونكون مع المُنْعِمْ:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ (40))

أما هم :

(اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ (40))

قد يُحبّ الإنسان الله على نعمه، ولكن المؤمن بالذّات يحب الله على كماله، فلو أعطاه أو منعه حبُّه هوَ هو:

والله وإن فتَّتوا في حبهم كبدي   باقٍ على حبهم راضٍ بما فعلوا

***

أساساً لا يُمْتَحَنُ المؤمن إلا في الشدَّة، قد يُنعم الله عليه في الدنيا فإذا ربط محبَّته لله بهذه النِعَم فهو عبد النِعْمَة، أما إذا كانت محبَّته لله خالصة ولا علاقة لها بالنعم فهذه مرتبة أعلى، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام علَّمنا الأدب مع الله عزَّ وجل، قال في الطائف:

((إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر، وفي سنده ضعف]

إن أردت أن تعد النعم فلن تحصيها:

أيها الأخوة، استنباطاً من هذه الآية الكريمة :

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ (40))

قال تعالى:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا (40))

(سورة إبراهيم: آية " 34 ")

توجد في الآية لفتة لطيفة: هل يمكن أن أعطيك ليرةً واحدة وأقول لك: عدَّها ؟ الواحد لا يُعَد، أما لو أعطيتك مجموعة من الليرات فيمكن أن أقول لك: عُدَّها، أما ليرة واحدة وأقول لك: عُدَّها، إنها لا تُعَدْ، فهذا معنى قوله تعالى :

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا (40))

(سورة إبراهيم: آية "34")

قال العلماء: " بركات النعمة الواحدة لا تُعَدُّ ولا تحصى "، نعمة البصر، ونعمة السمع، ونعمة الحركة، ونعمة النوم وغير ذلك من النعم.

أخٌ كريم شفاه الله عزَّ وجل، كان مصاباً بمرض عدم النوم، والله الذي لا إله إلا هو أنا أتصوَّر لو طالبته بمئة ألف ليرة يملكها لدفعها لك مقابل أن ينام ليلةً واحدة، نعمة النوم، نعمة الصحَّة، كان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ يقول:

((الحمد لله الذي عافاني في جسدي و رد على روحي و أذن لي بذكره))

[السيوطي عن أبي هريرة]

إن أردت أن تعد النعم فلن تحصى، بل إنك إن أردت أن تعد بركات نعمةٍ واحدة لن تحصيها.

بعض من نعم الله الدالة على عظمته :

نعمة الأمن :

(أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ(4))

(سورة قريش)

أحد أسباب الأمن ثبات خصائص المواد، أنت عمَّرت بيتاً الإسمنت يبقى إسمنتاً، والحديد يبقى حديداً، لو أن خصائص المواد تتبدَّل إنك لا تنام الليل، لعلَّ هذا الحديد أصبح ماءً فانهار البيت، ثبات خصائص الأشياء هذه من نعم الله العُظمَى، استقرار الأرض:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

(سورة النمل: آية " 61 ")

لو أنها تهتزُّ دائماً، أرقى طائرة تهتز في أثناء طيرانها، لا توجد أرض، ولا يوجد احتكاك ومع ذلك تهتز دائماً، لو أن الأرض تهتز قليلاً لما رأيت بناءً قائماً على وجه الأرض، نعمة قرار الأرض، ونعمة الجاذبيَّة

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

من جعل هذه الأشياء مرتبطة بالأرض ؟ رائد الفضاء في منطقة انعدام الجاذبيَّة يفقد الوزن، يستيقظ فإذا هو في سقف المَرْكَبَة، ليس له وزن، يُمسك الحاجة بيده فإذا هي تتفلّت منه، أصبحت في السقف، أما نحن فنضع هذا الكأس على الطاولة ويبقى على الطاولة لأن له وزناً، نعمة الجاذبيَّة قد لا ننتبه إليها، ونعمة الاستقرار قد لا ننتبه إليها، ونعمة ثبات خصائص الأشياء لا ننتبه إليها، هناك في الجسم نِعَمٌ لا تعدُّ ولا تُحصى، إذا حمل الإنسان ابنه يجد فيه صنعة متقنة، الأربطة التي تربط اليد بالجسم تتحمَّل وزن الطفل، وتتحمَّل ضعف وزنه، لو كان الأب غاضباً وأمسك ابنه بعُنف وحمله، لو كانت الأربطة متناسبة مع وزن الجسم فقط لَخُلِعَت يده، لكن هناك دقَّة بالغة.

نعمة أن هذا الشَعر بلا أعصاب حس، لو كان في كل شعرة عصب حسّي، يوجد في كل شعر عصب ولكنه عصب محرِّك، لكل شعرةٌ وريدٌ، وشريانٌ، وعضلةٌ، وعصبٌ، وغدَّةٌ دهنيَّة، وغدَّةٌ صبغيَّة، ولكن العصب محرّك وليس عصباً حسيّاً، لو كان هناك عصب حسي لاحتجت إلى عمليةٍ جراحيَّةٍ عند كل حلاقة، عملية تخدير لأن الآلام لا تُحتَمَل.

جسم الإنسان بما فيه من نعم الله الدالة على عظمته:

نعمة المثانة نعمة كبيرة جداً، لولا أن فيها عضلات لما كان هناك طريقة أخرى لإفراغ البول إلا بأنبوب من أجل الضغط، أنبوب تنفيس، نعمة الإفراغ السريع بالعضلات، نعمة وجود المثانة، لو أنه لا توجد مثانة، أي من الكليتين إلى الخروج مباشرةً لكان هناك في كل عشرين ثانية نقطة بول، من كل كلية نقطة، فصارت نقطتين، فما هو الحل ؟ فوط الرجل السعيد.

نعمة الهضم، الإنسان يأكل، ويتولّى الله عنه عمليَّة الهضم، وهي عمليَّة معقَّدة تتم في ثلاث ساعات، لو أن الله عزَّ وجل أوكل الهضم إلينا، يأكل، ومعه أربع ساعات هضم، والله مشغول، لأنني أهضم الطعام، أما كلْ وكلُّ شيء على الله، البنكرياس، والمرارة، وحركة الأمعاء، وامتصاص الطعام، وانتقال الطعام إلى مواد سكَّريَّة تخزَّن في الكبد وفي العضلات، وتحويل الطعام إلى مواد مختلفة وإلى مواد شحميَّة تُخَزَّن في مكانٍ آخر، هذا كلّه يتولاه الله عنك.

نعمة أن التنفّس يتمُّ آلياً في الليل، لولا هذه النعمة لما أمكنك أن تنام، لو كان التنفس إرادياً، لو أن الله عزَّ وجل جعل التنفس إراديًّا ينام فيموت، هناك مركز في البصلة السيسائية اسمه مركز التنبيه الآلي للرئتين، لو تعطَّل لأصبحت حياة الإنسان جحيماً، بمجرَّد أن ينام يموت، اخترع قبل سنوات عدَّة دواء غالٍ جداً يجب أن تأخذه كل ساعةٍ في الليل من أجل أن تبقى حيًّا، الساعة التاسعة حبَّة، العاشرة، الحادية عشر، الثانية عشر، الواحدة، الثانية، الثالثة، الرابعة، الخامسة وهكذا، تصوَّر نفسك أنك مكلَّف أن تستيقظ كل ساعة لتأخذ الحبَّة وتنام، ما الذي يحدث ؟ هناك شخص أعرفه أُصيب بهذا المرض أصبحت حياته جحيماً لا يُطاق، كان يضع أربع منبِّهات لكي يستيقظ ويأخذ الحبَّة، له ابن مسافر عاد من سفره فسهر معه سهرة طويلة، الأربع منبِّهات نبِّهت ولم يستيقظ فوجدوه ميتاً في الصباح، فنعمة أن التنفُّس عمليّة آليَّة هذه نعمة لا تُقدَّر بثمن.

نعمة أن الدماغ ضمن صندوق، والصندوق له مفاصل متحرِّكة، يمكن أن يسمع الواحد صوت رأس ابنه يرتطم على الأرض مرات عديدة جداً، تسمع صوتاً قوياً، لماذا لم ينكسر رأسه ؟ لأن الجمجمة فيها مفاصل متحركة، فهذه الضربة الشديدة تمتصُّها الفراغات بين المفاصل، ثم إن الدماغ محاط بسائل، هذا السائل يوزِّع، فأي ضربة على الرأس تتوزع على كل الدماغ فتغدو بسيطة جداً، فالدماغ في الجمجمة، والنخاع الشوكي في العمود الفقري، والعينان بالمحجرين، والرحِم بالحوض، وأخطر معمل في الإنسان معامل كريات الدم الحمراء في نقي العظام، الأجهزة النبيلة الخطيرة جداً ضمن صناديق، ضمن حصون، هذه من نعم الله الكُبرى، لو كانت عين الإنسان على جبينه، كم إنسان يسلم له بصره ؟! لا تجد سوى عشرة بالمئة فقط، لأنه أي وقوع على الأرض لفقئت عينه وانتهت، لو فكر الإنسان بجسمه، لو أنه لا يوجد مفصل في يده كيف يأكل ؟ مثل الهرَّة ينبطح، ويلحس الطعام بلسانه، لا توجد طريقة ثانية، لو أنه لا يوجد مفصل فإن اليد لا تصل إلى الفم، ولكن بهذا المفصل صار شيئاً آخر.

الأرض وما فيها من بحار ونباتات وصحارى من آيات الله الدالة على عظمته :

قال تعالى:

(اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ (40))

دورة الأرض وحجم الأرض جعل وزنك ستين كيلو غراماً، لو كان حجمها أقل لكان وزنك خمسة كيلو غرامات، وزن الإنسان على القمر ستة كيلو غرامات، الحياة لا تُطاق، حجم الأرض جعل لك وزناً مناسباً، الآن سرعة الأرض حول نفسها جعلت لك نهاراً مناسباً، اثنتي عشرة ساعة، ثماني ساعات للعمل، وساعة للأكل، وساعتين أو ثلاثاً مع أهلك صار وقت النوم، لو كان النهار مئة ساعة، هذا يعمل، وهذا نائم، لا أحداً يرتاح، أما النوم فموحَّد، والنهار موحَّد .

لولا أن محور الأرض مائل لما وجدت فصولاً أربعة أبداً، إمّا صيف أبدي، أو شتاء أبدي، ربيع أبدي، خريف أبدي، مع ميل المحور صار هناك تبدُّل فصول، لو أن الأرض تدور على محور موازٍ لمستوى دورانها حول الشمس لكانت درجة الحرارة هنا ثلاثمئة وخمسين فوق الصفر، وفي الطرف الآخر مئتين وسبعين تحت الصفر، و لانتهت الحياة، كم نعمة نحن محاطون بها ؟

الآن النباتات لو أنه لا توجد بذور، وجدنا مثلاً مليار طن من القمح، وبعد أن انتهت هذه الكمية فإننا نموت من الجوع، ولكن الله عزَّ وجل خلق لك نظام البذور، يوجد مع كل إنتاج نباتي وسائل استمراره بالبذور، نظام النبات وحده من الأنظمة الصارخة في الإشارة إلى عظمة الله عزَّ وجل.

لو كانت البحار بقدر اليابسة لما وجدنا أمطاراً، اسكب كأس الماء هذا على أرض الغرفة تجده قد جف بعد ساعتين، أما لو أبقيته في الكأس فلا يتبخَّر ولا بسنتين، إنه ينقص سانتي واحد فقط، فكلّما كان السطح ضيقاً يكون التبخُّر قليلاً، وجعل الله أربع أخماس الأرض مسطّحات مائيَّة من أجل أن يكون التبخُّر كافياً لأمطار اليابسة .

لو لم تكن هناك صحارى، ولم تكن هناك مناطق حارَّة لم يعد هناك رياح، هواء المنطقة الحارَّة مخلخل، هواء المنطقة الباردة مضغوط كثيف، ينشأ من تباين الضغطين حركة رياح، حركة الرياح تسوق السحاب، هذه رؤوس موضوعات.

بعضٌ من نعم الله علينا:

قال تعالى:

(اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ (40))

لك طفل، وهذا الطفل صفاته صفات محبَّبة، لو كانت صفات الطفل صفات غير محبَّبة من يربي ابنه ؟ الطفل بريء ذاتي لا يحقد أبداً، سريع الرضا، لو كان بطيء الرضا لاستحالت تربيته، تكلم الكبير مثلاً كلمة يخاصمك سنتين، إذا غلطت معه غلطة يخاصمك سنتين، لو كل واحد ربَّى ابنه فخاصمه سنتين فلن تستمر الحياة أساساً، لكن الله صمَّم الطفل بريئاً، فهذه نعمة الطفل، هناك أشياء دقيقة جداً في الحياة.

المواد ؛ جعل الله لك معادن وأشباه معادن، معادن ثمينة جداً ومعادن رخيصة، معادن قاسية ومعادن خفيفة، معادن تنصهر بسهولة، الرصاص ينصهر بالدرجة مئة، أما الحديد فبالألف

وخمسمئة، لو كان الحديد ينصهر بالمئة درجة لانتهى، و لانتهت كل فوائده، تحاول أن تطبخ بوعاء من حديد ينصهر مع الطعام، انتهى، أما الحديد فيصمد للألف وخمسمئة درجة، فالطعام ينضج داخل الوعاء، توجد أشياء دقيقة جداً، يتبخر الماء عند أربع عشرة درجة ، لو تبخَّر بدرجة مئة انتهى، لانتهت وظيفة الماء، الماء لا ينضغط، الماء يتمدَّد، لولا تمدُّد الماء مع التبريد فلا توجد حياة على وجه الأرض .ماذا أقول لكم ؟!!

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ (40))

نعمة الذكر والأنثى:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(45)مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى(46))

(سورة النجم)

يوجد في مبيض المرأة عدد من البويضات ينتهي في سن اليأس، في الخامسة والأربعين، ثمانية وأربعين، اثنين وأربعين، لو كانت كالرجل مهيأة للولادة بشكل دائم، تصور واحدة تلد وهي في التسعين، شيء لا يُحتمل، فالبويضات تنتهي لدى المرأة في سن معيَّن، أما الرجل فيبقى قادراً على الإنجاب في التسعين، هناك تصميم إلهي رائع، الرجل قد يفقد شَعْرَه كلَّه لكن المرأة لا تفقد شعرها كله وهذه نعمة كُبرى من نِعَمْ الله عليها.

ملخص الملخص المؤمن مع المنعم والكافر مع النعمة:

نِعَم الصحة، ونِعَم الأمن، أنت من خوف الفقر في فقر، وأنت من خوف المرض في مرض، وتوقُّع المصيبة مصيبة أكبر منها، ونعمة الفراغ، فالإنسان الذي لا يملك وقت فراغ ليس إنساناً، هذا الذي يعمل ليلاً نهاراً هذا إنسان انتهى، انتهى عند الله وعند الناس، لأن وقته استهلكه، عمله استهلكه، أما هذا الذي يجد وقتاً لسماع درس علم، وللجلوس مع أخ وللقاء مثمر، هذا يحيا حياته الإنسانية، فالمؤمن على كلٍ مع المنعم دائماً.

كان عليه الصلاة والسلام تعظم عنده النعمة مهما دقَّت، أي كأس ماء شربته معنى ذلك الطريق سالك، لو كان الطريق غير سالك ـ لا سمح الله ولا قدر ـ هؤلاء الذين يعانون الفشل الكلوي، قال لي أخ كريم: له قريب ذهب لغسيل الكليتين، قالت له الممرضة بقسوةٍ بالغة: هذه الجمعة لا تشرب ماء كثيراً لأن الجهاز معطل، أنت عندما تعطش تشرب بدون تقييد، فلا توجد لديك مشكلة إطلاقاً، تصور إذا شرب الإنسان ليس لديه جهاز يخرج هذا الماء ، ماذا يفعل ؟ " **يا أمير المؤمنين بكم تشتري هذا الكأس إذا مُنِعَ عنك** ؟ " قال: " **بنصف ملكي** " ، قال: " **فإذا منع إخراجه** " ؟ قال: " **بنصف ملكي الآخر** " ، بكم تشتري أن تنام الليل مطمئناً ؟ بكم تشتري إيواءك في بيت ؟ كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيته يقول: " **الحمد لله الذي آواني وكم من لا مأوى له** "، وكان إذا خرج من الخلاء يقول:

((الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني.))

[ابن أبي شيبة والدار قطني عن طاوس مرسلاً]

نعمٌ لا تنتهي، نعمة الصحة، ونعمة الأمن، ونعمة الفراغ، ونعمة الكفاية، هذا الذي يملك قوت يومه من نعم الله الكبرى، قوت يومه فقط، هذه نعمةٌ كبيرة .

ملخص الملخص المؤمن مع المنعم والكافر مع النعمة، ومهما تفنن في النعمة يأتي الموت فينهي كل شيء، هذه النعمة التي تنعم بها هناك شيء لا بد منه، فإما أن تتركها وإما أن تتركك، نعمة البصر، يموت الإنسان انتهى البصر، أو يفقد بصره قبل أن يموت، ونعمة المال يموت انتهى كل ماله، أو يصبح فقيراً قبل أن يموت، فإما أن تتحول عنك وإما أن تتحول أنت عنها، لذلك وبالشكر تدوم النعم، قيدوا النعم بالشكر، " يا عائشة أكرمي مجاورة نعم الله، فإن النعمة إذا نفرت قلما تعود "، النعمة تقيَّد بالشكر، ومن شكر الله على نعمه زاده الله منها.

للشكر مستويات ثلاثة:

الآن كيف نشكر ؟ قال العلماء: للشكر مستوياتٌ ثلاثة.

1- أن تعزو النعمة إلى الله و هذا أحد أنواع شكره:

المستوى الأول لمجرد أن تعزو النعمة إلى الله فهذا أحد أنواع شكره، إذا قلت: الله وفَّقني، الله أعطاني هذا البيت، والله هيَّأ لي هذه الزوجة، الله رزقني هؤلاء الأولاد، والله أعانني على نيل هذه الشهادة العليا، والله أعانني على طلب العلم، والله يَسَّر لي المجيء إلى المسجد، والله أعانني على تطبيق الإسلام في بيتي، والله أكرمني بزوجة مؤمنة، والله أكرمني بأولاد أطهار صالحين أبرار، حينما تقول هذا فهذا أحد أنواع الشكر، حينما تعزو النعمة إلى الله فهذا نوعٌ من شكرها.

2- أن يمتلئ قلبك امتناناً لله عزَّ وجل:

المستوى الثاني: حينما يمتلئ قلبك امتناناً لله عزَّ وجل فهذا مستوى أعلى.

3- أن تتحرك لخدمة الخلق معرفة بهذه النعمة:

المستوى الثالث حينما تتحرك لخدمة الخلق معرفة بهذه النعمة فهذا أعلى المستويات، قال تعالى:

(اعْمَلُوا آلَ داو ود شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ(30))

(سورة سبأ)

يحبك الله عزَّ وجل أن تكون شاكراً.

علينا أن نسجد شكراً لله عند كل نعمة يمنحنا الله إياها:

عود نفسك إذا منحك الله عزَّ وجل نعمة أن تقابلها بالسجود لله عزَّ وجل، كان عليه الصلاة والسلام يسجد سجود الشكر لله عزَّ وجل، تلقيت نبأً ساراً، رزقك الله مولوداً كاملاً بدون أي مشكلة، فلو لم ينفلق ثقب بوتان لاحتجت إلى مئتين وخمسين ألف ليرة عملية قلب مفتوح لإغلاق ثقب بوتان، وهو كما قال الأطباء: ثقب مفتوح بين الأذينين، ولكن عند الولادة ـ هكذا قالوا ـ تأتي جلطة فتغلق هذا الثقب، بيد من؟ أية يدٍ تصل لداخل قلب الطفل لإغلاق هذا الثقب بين الأذينين ؟ الله جلَّ جلاله، فأي غلطة بالجسم تحتاج إلى ملايين الملايين.

اجمع الأجهزة التي تنعم بها ثمنها ألف مليون، عملية زرع الكبد بفرنسا تكلف سبعة ملايين ـ لو تشمع الكبد ـ ونجاحها ثلاثون بالمئة، فالكبد سبعة ملايين، والكلية أصبح ثمنها الآن مليونين، وتبديل صمام، قال لي واحد: والله بدلت صماماً، لكن لا أنام الليل، لماذا ؟ قال لي: اسمع طول الليل طرقاً، أنت عندك صمام لا يوجد له صوت، أليست هذه نعمة ؟ صمام له صوت لا تنام الليل، قال لي: لا أحس بالنهار لوجود الضجيج، ولا أنام بالليل من صوت الصمَّام، توفي رحمه الله، هذه نعمة الصمام، صمام عدم رجوع، هل هذه نعمة قليلة ؟

نعمة الأوردة، لها وريقات، دسَّامات، نعمة أن الشريان داخلي والوريد خارجي لو الآية بالعكس، إذا جرح إنسان يموت على الفور، لأن القلب مع الشريان، قال لي طبيب جراح: إذا أطلقت شرياناً ـ فنبض القلب للدم بالشريان يحرِّك الدم اثني عشرة متراً ـ يصل الدم أحياناً إلى السقف من نبضة قلب واحدة، جعل الله الشرايين داخلية، والأوردة خارجية، الحركة بطيئة بالوريد وغير خطرة، أما الشرايين كلها داخلية، في حرز حريز، هذه نعمٌ كبرى، فلذلك إخواننا الكرام المؤمن مع المُنْعِم، والكافر مع النعمة.

للنعمة مهمتان كبيرتان ؛ أن تشكر الله عليها في الدنيا وأن تعرف الله من خلالها:

الآن آخر فكرة بالدرس، أية نعمةٍ لله عزَّ وجل في الإنسان لها وظيفتان كبيرتان لها وظيفة تعريفية إرشادية، ولها وظيفة نفعية في الدنيا، الغرب بأكمله انتبه للوظيفة النفعية أما الوظيفة الإرشادية فهي أخطر وظيفة للنعمة، أن تعرف الله من خلالها، هناك نعمة سوف أقولها لكم وقد لا تصدق أنه لولاها لما وجدت على وجه الأرض إنساناً واحداً، هذه النعمة اسمها آلية المَص، يولد الطفل الآن لتوه يضع فمه على ثدي أمه ويحكم الإغلاق ويسحب، هذه عملية معقدة، لو أن هذه الآلية غير موجودة، تفضل علمه إياها، هل يستطيع أب مهما كان ذكياً، لو كان معه دكتوراه بعلم التربية أن يعلم ابنه الذي وُلِد لتوه: يا بابا الله يرضى عليك، ضع فمك على ثدي أمك، وإيَّاك أن تنفس الهواء،

وإلا لن يخرج لك الحليب، لا يفهم عليك شيئاً، انتهى كل شيء، فلولا نعمة آلية المص لما كان على وجه الأرض إنسان، هذه نعمة أيضاً.

أيها الأخوة، النعمة لها مهمتان كبيرتان ؛ أن تشكر الله عليها في الدنيا، وأن تعرف الله من خلالها، فمن لم يحقق معرفة الله من خلال النعمة عَطّل أكبر مهمةٍ للنعمة، وكنت أضرب مثلاً دقيقاً عند أحدهم كتاب عن النحل والعسل، قرأه فتأثر تأثراً بالغاً، وفاضت عيناه بالدموع تعظيماً لله عزَّ وجل على هذه الإبداع في الخلق، لكن دخله بسيط جداً لا يسمح له بشراء العسل أبداً، ما ذاقه، لكنه عرف الله من خلاله، فهذا الإنسان الذي لم يذق طعم العسل، لكنه عرف الله من خلاله هذا الإنسان حقق الأكبر من خلق النحل والعسل، أما الذي جعل العسل غذاءه وهدفه الأساسي، ولم يفكر في خالق العسل هذا عطل الهدف الأكبر من خلق العسل، لذلك النبي الكريم عليه الصلاة والسلام حينما رأى الهلال قال:

((هِلالٌ خَيْرٍ وَرُشْدٍ))

[رواه أبو داود عن قتادة]

ينفعنا في الدنيا ويرشدنا إلى ربنا فالمؤمن مع المنعم ؛ والكافر مع النعمة:

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ (40))

في الدرس القادم إن شاء الله :

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (22- 95):تفسير الآية 40 ، الانسجام بين القول والفعل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1998-12-25

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الآيات تعطيك في مضمونها ومحورها ثمن الجنة إن وفّيت بعهد الله تعالى:

مع الآية الأربعين وهي قوله تعالى :

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40))

وقال:

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ (40))

هذا جواب الطلب:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ (152))

(سورة البقرة)

وقال:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(سورة محمد: الآية " 7 ")

مثل هذه الآيات تعطيك في مضمونها ومحورها ثمن الجنة إن وفّيت بعهد الله عز وجل. أي إذا ضحيت ببعض حريتك ؛ سمح لك أن تأكل، وأن تشرب، وأن تتزوج، وأن تفعل كل شيء وفق منهج، وفق قنوات نظيفة.

إذا ضحى المؤمن ببعض حريته لزمن محدود ينعم بالجنة إلى الأبد فهي عملية تجارية :

الكافر متفلّت يفعل ما يشاء، المؤمن منضبط، الكافر يأكل ما يشاء، يشرب ما يشاء، يلتقي مع من يشاء، ويجلس مع من يشاء، المؤمن عنده حدود، إذاً بماذا يضحي الإنسان عندما يستقيم ؟ يضحي ببعض حريته، يضحي ببعض حريته لزمنٍ محدود لينعم بجنةٍ عرضها السماوات والأرض إلى أبد الآبدين، فهي عملية تجارية، رأسمالك صغير جداً والربح كبير جداً، الرأسمال أن تنضبط لبضعة سنوات والسعادة إلى الأبد، قال تعالى:

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي (40))

في طاعتي:

(أُوفِ بِعَهْدِكُمْ (40))

بالجنة:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(سورة محمد: الآية " 7 ")

في الدنيا والآخرة:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ (152))

(سورة البقرة)

لو حَكَّمَ الإنسان عقله يجد الثمن قليلاً جداً والمبيع كبيراً جداً:

كأن الله عزَّ وجل يريد أن نربح عليه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10))

(سورة الصف)

تجارة ؛ لك رأس مال، ولك ثمن مبيع، والفرق كبير جداً، رأسمالك:

(تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(11)يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(12))

(سورة الصف)

أي لو حَكَّمَ الإنسان عقله يجد الثمن قليلاً جداً والمبيع كبيراً جداً، فالله عزَّ وجل يقول :

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ (40))

أما ترضى أن تعيش في الدنيا منضبطاً بعض الشيء ؟ الحرام حرام، والحلال حلال، لا يوجد شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة، وفق منهج واضح، الكافر يفعل كل شيء، لأنه متفلت أساساً، أما المؤمن فهو إنسان منضبط، الإيمان قيده ؛ هذه حرام، هذه تجوز، وهذه لا تجوز، قال لك:

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ (40))

في التعامل مع الله سبحانه لا يتناسب العطاء مع الثمن لأن الربح مع الله مضاعف:

ادفع ثمن الجنة وادخل إلى الجنة متنعماً إلى أبد الآبدين، طبعاً لو ذكرنا الآيات المشابهة:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ (152))

(سورة البقرة)

وقال:

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ (40))

وقال:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(سورة محمد: الآية " 7 ")

لا يتناسب العطاء مع الثمن إطلاقاً، بون كبير، الإنسان في العادة يربح بالمئة عشرة، عشرين، ثلاثين، أو أربعين، أما بالمئة مئة يقول لك: هذه هي التجارة، إذا بالمئة مليار، إذا بالمئة ألف مليار، إذا بالمئة مليار مِليار مليار إلى أن ينقطع النفس، هكذا الربح مع الله عزَّ وجل.

الله عزَّ وجل هيَّأ لك جنة يسعدك فيها لا بقدر طاقاتك بل بقدر قدرة الله عزَّ وجل:

أيها الأخوة، أرى أن أذكى الأذكياء وأعقل العقلاء هو الذي يتاجر مع الله، من هو أغبى الأغبياء بالمقابل ؟ الذي يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً، بالعكس باع الآخرة من أجل المال، مهما كان هذا المال سينتهي عند الموت، كسب مالاً حراماً وضيَّع آخرته، فمن أجل امرأة ضيَّع آخرته، ومن أجل مكانة مؤقتة لا تدوم ضيع آخرته، أحمق الحمقى، وأغبى الأغبياء، وأخسر الخاسرين، هؤلاء الذين يبيعون الأبد بدنيا محدودة، بدنيا قليلة، الله عزَّ وجل يقول:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: آية " 77 ")

دقق في كلام الله

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

أي مهما كنت متنعماً فيها، يتنعم الإنسان في الدنيا بحسب قدراته، لو معك ألفُ ألف مليون، وأردت أن تأكل، ماذا تستطيع أن تأكل ؟ أوقية لحمة، أوقيتين، أكثر لا تستطيع، مهما كنت غنياً الاستمتاع بالحياة محدود بقدر طاقاتك، لكن الله عزَّ وجل هيَّأ لك جنة يسعدك فيها لا بقدر طاقاتك بل بقدر قدرة الله عزَّ وجل، فهذه فكرة دقيقة كثيراً، أنت بالدنيا وجدت تفاحاً جيداً، أكلت تفاحة كبيرة، أكمل والله لا أقدر، طيبين، والله لا أقدر، طعمتهم طيبة، والله اكتفيت، ولا أقدر أن أزيد، فعندك سقف بكل شيء، بكل شيء من دون استثناء ؛ الزواج، الأكل، الشرب، السفر، حتى بالثياب تلبس بذلة واحدة، وتستعمل سريراً واحداً، تأكل وجبة واحدة، هناك سقف، ولك حدود، تستمتع في الدنيا بقدر طاقاتك المحدودة، لكن ما قولك بالآخرة:

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى)

(سورة النحل: آية "60")

من باب التمثيل، تأكل مليار تفاحة، تأخذ طعمها، تستمتع بطعمها على طول دون أن تدخل إلى جوفك، فلكل الشهوات حد لا تستطيع أن تكمل بعده، ولكنك بالآخرة وفي الجنة تستمتع لا بقدر

قدراتك المحدودة في الدنيا بل بقدر قدرات الله في الآخرة، فالله عزَّ وجل خلقك لجنةٍ عرضها السماوات والأرض.

لا يزهد في الجنة إلا أحمق ولا يسعى إليها إلا عاقل:

والله أيها الأخوة، لا يزهد في الجنة إلا أحمق ولا يسعى إليها إلا عاقل، والإنسان طموح، من هو الزاهد ؟ الزاهد هو الذي زهد في الآخرة، المؤمن في الدنيا طموح جداً لأنه يسعى إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض فيها مالا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فهذه الآيات:

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ (40))

وقال:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ (152))

(سورة البقرة)

إذا ذكرك الله، فهل نال إنسان في الأرض عزاً كرسول الله ؟ ليس هناك على الإطلاق، اذهب إلى المدينة، قف أمام قبره في أيام الحج تجد ملايين كثيرة من شتى بقاع الأرض يقفون أمامه ويبكون، وقد مضى على وفاته ألفٌ وخمسمئة عام تقريباً، ماذا ترك ؟ الله تعالى قال:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

إذا الله رفع ذكرك:

((يا ابن آدم! إن ذكرتني في نفسك؛ ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في ملأ؛ ذكرتك في ملأ من الملائكة (أو قال: في ملأ خير منه)))

[البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

المؤمن محسوب على الله أما غير المؤمن محسوب على بشر:

بصراحة يا أخواننا الكرام، لا يليق بالمؤمن إلا أن يتعامل مع الله، ولا يليق بك أن تبيع نفسك لغير الله، ولا يليق بك أن تُجَيَّرَ لغير الله، ولا يليق بك أن تكون محسوباً على غير الله، هناك عالم توفي رحمه الله أجرى عملية جراحية بلندن، فلما سألوه بالإذاعة البريطانية: ما هذه المكانة الكبيرة التي حباك الله بها ؟ فلم يجب إجابة دقيقة، فلما ألحوا عليه بالسؤال، قال: " لأنني محسوبٌ على الله ". المؤمن محسوب على الله، أما غير المؤمن محسوب على بشر، فكل إنسان يكون لغير الله فقد احتقر نفسه، لم يعرف قدره، أنت لله، فالمؤمن لا ينافق، ولا يزوِّر، ولا يتكلم كلاماً لا يقتنع به، المؤمن رجل حق وصدق، إذاً:

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ (40))

وقال:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ (152))

(سورة البقرة)

وقال:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(سورة محمد: الآية " 7 ")

ينتظر الله منك هذه المبادرة، أن تقترب، وأن تتحرك، وأن تعمل شيئاً لكي يعطيك كل شيء، الثمن دائماً يتناسب مع المبيع إلا مع الله لا يتناسب، سنوات معدودة ؛ تأكل، وتشرب، وتتزوج، وتعمل، وتنام، وتستريح، لكنك تصلي خمس صلوات، تغض بصرك، وتنفق جزءاً من مالك، بالمئة اثنين ونصف للزكاة، وتعمل أعمالاً ضمن حركتك المحدودة جداً، هذه الأعمال المحدودة هي ثمن الجنة، ثمن جنة عرضها السماوات والأرض.

(قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26))

(سورة يس)

لذلك قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً))

[أحمد عَنْ أبي ذرٍّ]

الدنيا دار من لا دار له ولها يسعى من لا عقل له:

سلطان العارفين إبراهيم بن الأدهم كان ملكاً، وترك المُلك زهداً به، وصار عارفاً بالله، قال كلمة ـ هو وحده يصدق لأنه كان ملكاً ـ قال: **" لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف "**، لأنه كان ملكاً وصار عارفاً بالله وحده مصدق، لو قالها غيره لقيل له: هل صرت ملكاً لكي تتكلم بهذا الكلام ؟ أما هو كان ملكاً، قال: **" لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف "**.

يا أيها الأخوة الكرام، الدنيا لا قيمة لها ؛ تغر وتضر وتمر، الدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له، ولو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء، من يضحك أخيراً يضحك كثيراً.

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34))

(سورة المطففين)

الآن الكفار أقوياء، متغطرسون، عندهم عجب، عندهم كبر، وعندهم شعور بالتفوق، وأن العالم كله تحت سيطرتهم، وأنهم يحطمون ويضربون أي مكان:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34))

(سورة المطففين)

وقال:

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40))

وقال:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34))

(سورة المطففين)

المؤمن هو من يخاف بعقله:

أخواننا الكرام، لا يمكن لإنسان يخاف الله أن يخيفه الله من عبد أبداً، إذا كنت تخاف الله أمَّنَكَ، أما إذا لم تخف الله أخافك من أضعف خلقه:

(وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40))

يملك الإنسان بالدنيا حرية اختياره، ما معنى مخيَّر ؟ أي لك أن تفعل كل شيء، لك أن ترتكب المعاصي كلها إلى أمد منظور دون أن يصيبك شيء، هذا الاختيار، فيمكنك أن لا تصلي، وألا تصوم، وأن تفعل كل الموبقات من غير أن يحدث لك شيء ؛ القلب منتظم، والضغط منتظم، وكل الأجهزة تامة، وأنت في كل المعاصي والآثام هذا الاختيار، اعملوا ما شئتم، كل شيء بحسابه، أما هذا الذي يخشى الله بالغيب فهو المؤمن، طبعاً كل إنسان يخاف بعينه، وإذا خاف الإنسان بعينه هبط إلى مستوى الحيوان، أما الإنسان الراقي فيخاف بعقله، الذي يخاف بعقله هو المؤمن، الدنيا ليس فيها أية فوارق، تجد الكافر هذه الأيام مثل المؤمن، مثل الفاسق، مثل الفاجر، كلهم في البيوت يأكلون ويشربون، لكن المؤمن خائف من يوم القيامة فتجده مستقيماً، الكافر يعيش لحظته، وهذا الأحمق يعيش لحظته فقط لا يفكر في المستقبل، قال لهم:

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ (41))

كل شيء ثمين يجب أن تعرف قيمته كآيات الله سبحانه:

صار أحد اليهود صحابياً جليلاً اسمه عبد الله بن سلاَّم يقول: والله حينما رأيت رسول الله عرفته كما أعرف ابني، بالمناسبة أوضح معرفة، وأقوى معرفة، وأسرع معرفة، أوضح، وأقوى، وأسرع هي معرفة ابنك، لا يوجد أب بالأرض إذا رأى ابنه يقول له: أنت ما اسمك ؟ هذا مستحيل، هذه ليست واردة على الإطلاق، ابنه، قال الله:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

(سورة البقرة: آية " 146 ")

لأن أوصاف النبي جاءت في التوراة والإنجيل دقيقة يقول: **" والله إني لأعرفه أنه رسول الله كما أعرف ابني "** ، هذا ابن سلام قد آمن برسول الله، قال الله تعالى:

(وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآَيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41))

هذه الآية في الحقيقة مخيفة، مرة اقتنيت كتاباً فوجدت فيه أربعة أدعية، لما قرأت هذه الأدعية والله اقشعر جلدي، أول دعاء: **" اللهم إنـي أعوذ بك أن يكون أحد أسعد بما علمتني منّي ".**

إنسان يتاجر بالدين ؟! يجعل الدين تجارة ؟ هو ليس ملتزماً، ولا مطبقاً، ولا منضبطاً، ولا طائعاً ؛ ويدعو الناس إلى الطاعة، والالتزام، والتطبيق، هذا أشقى إنسان، هذا اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً.

حتى أوضّح لكم الأمر تماماً: هل من الممكن أن يشتري أحد ما سبيكة ذهب وزنها كيلو غرام يعملها مجرفة بالبيت ؟ هل من المعقول أن تجعل هذه المادة الثمينة الغالية أداة رخيصة بالبيت ؟ هل من الممكن أن تشتري كمبيوتراً غالياً جداً فتعمله طاولة ؟ أنت اشتريت به ثمناً قليلاً، هل من الممكن أن تستخدم لإشعال المدفئة ورقة من فئة الألف ليرة مثلاً ؟ أهذا معقول ؟ فكل شيء ثمين يجب أن تعرف قيمته.

الدين هو منهج الإنسان للوصول إلى الجنة وعلى الإنسان ألا يتاجر به:

هذا الدين منهج الإنسان للوصول إلى الجنة، هل من الممكن أن أتاجر فيه ؟ قال الإمام الشافعي: **" والله لأن أرتزق بالرقص أهون من أن أرتزق بالدين"** ، دع الدين بالعلياء، دعه صافياً، دعه بعيداً عن وحل الأرض، إذا أردت الدنيا فللدنيا أسبابها، أما الدين فلا تجعله في الوحل أبقه في السماء، هذه الآية دقيقة جداً:

(وَلَا تَشْتَرُوا بِآَيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41))

يمكن للإنسان أن يتاجر بالدين، يمكن أن يستخدم القرآن لمصالحه، ويمكن أن يستخدم العلوم الدينية لمصالحه، ولكن هذا الإنسان هو أشقى الناس .

بالمناسبة: إذا لعب الإنسان بدين الله يفرمه الله فرماً، فهذا الدين دين الله عزَّ وجل لا تقربه بسوء، فإذا أراد الإنسان أن يتاجر به، أو أن يُضِل الناس، فالله كبير وعقابه أليم وشديد.

ادعى شخص من الباكستان النبوَّة، وقال: **" خاتم الأنبياء ليس معناه أنه آخر الأنبياء، أي أن كلامه يصدِّق من يأتي بعده "**، وادَّعى أنه نبي، وكانت هناك جائحة كبيرة جداً من مرض الكوليرا بالباكستان، وزعم أنه لن يُصَاب بالكوليرا لأنه نبي، فالذي حدث أنه أُصيب بالكوليرا ومات داخل المرحاض، أي أن الله عزَّ وجل فضحه:

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ(44)لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(45)ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(46)فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(47))

(سورة الحاقة)

لمجرَّد أن يتاجر الإنسان بالدين يفضحه الله، ويذلّه، ويكشفه للناس، فإيَّاك أن تقترب من هذا الدين العظيم بسوء، هذا اتركه لله، هذا اخدمه ولا تحاول أن تعيش على أنقاضه، ولا تطعن بأهل الحق، سبحان الله الناس لا يحلو لهم شيء إلا الطعن بأهل الحق، لأنه نوع من عدم التوازن، معه عدم توازن، فأنت من الممكن إذا لم يكن لديك توازن أن تستعيد توازنك بطاعة الله، أن تستعيد توازنك بالإقبال على الله، أما أن تستعيد توازنك بتحطيم المؤمنين !! فهذا عمل قذر ولا يليق بالإنسان أن يفعله.

لا بدَّ من أن يمتحن الله عزَّ وجل الإنسان والمؤمن هو الذي ينجح في الامتحان:

قال تعالى:

(وَلَا تَشْتَرُوا بِآَيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً (41))

أي أن أحدهم باع نفسه لله لسنوات محدودة فكان الثمن الجنة، الآن بالعكس، باع الجنَّة واشترى بها الدنيا.

بالمناسبة: لا بدَّ من أن يمتحن الله عزَّ وجل الإنسان، يضعه أحياناً أمام خيار صعب ؛ إما الآخرة أو الدنيا، إما أن ترضي الله، وإما أن تأتيك المصالح تماماً، فالإنسان قلَّما ينجو من امتحان صعب، قلَّما ينجو من ابتلاء، قلَّما ينجو من خيار صعب، إنه أمام مفترق طرق، فالمؤمن هو الذي ينجح في الامتحان، معاذ الله، سأضرب لكم أوضح مثل: طبيب ناشئ، أي عنده مشوار طويل، لا يوجد معه شيء؛ لا بيت، ولا عيادة، ولا شيء، يعمل طبيباً في قرية، قُتِل إنسان وكانت الجريمة مُحْكَمَة، وقالوا له: خذ عشرة ملايين واكتب وفاة طبيعيَّة، إنه يحِل كل مشاكله بهذه الملايين، هذا المقتول معه مئتا مليون ضحَّى القاتل بعشرة ملايين، فإذا كتب الطبيب وفاة طبيعيَّة ماذا فعل ؟ اشترى بدينه ثمناً قليلاً، هناك أشخاص لو وضعت له مال قارون لا يخالف قناعاته إطلاقاً، هذا هو المؤمن إنه رجل مبدأ.

سمعت قصَّة منذ يومين من أخ كريم و حكيتها بعد صلاة الفجر وهي: أن هناك أسرة على وشك الموت من الجوع، الأب مُقعَد، والأم تخدمه، والأولاد صغار، وليس لديهم أي دخل، والجوع شديد جداً، ذهب أحد الأولاد إلى الفرن ليشتري خبزاً فرأى شخصاً يحمل كميَّة كبيرة من اللحم، تقارب خمسة كيلو، فقال للفران: أريد صفيحة، ولما سأله: متى أحضر لأخذهم ؟ قال له: تعال الساعة الواحدة والنصف، خطر في بال هذا الولد أن يحضر الساعة الواحدة والربع ويأخذ الصفيحة لأهله، قال له: أعطنا الصفيحة، لم ينتبه الفرَّان إليه، وأعطاهم له، دخل إلى البيت فقالت له أمه: يا ماما هذا

لا يجوز، هذا الطعام ليس لنا، لبست وأخذت ابنها واعتذرت من الفرّان، وقالت له: جاؤونا خطأً، وأرجعتهم، الله عزَّ وجل كافأهم، فصاحب الطعام عرف بالقصَّة وجاء إلى هذا البيت ولم يترك شيئاً ينقصه أبداً، أكمله تماماً، القضية قضية قِيَمْ، قضية أن تعرف الله، أن تخشى الله.

أخطر إنسان هو الذي يُفتي بخلاف ما يعلم:

هنا المؤمن يظهر في الدنيا:

(وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42))

هناك طُرْفَة، أحد سماسرة البيوت دخل وصلّى العشاء باتجاه الشمال، ليوهمهم أن هذا البيت اتجاهه قبلي، فمن أجل أن يبيع البيت باع دينه، من أجل أن يبيع هذا البيت باع دينه كلّه، وهذا يحدث كل يوم، طبعاً هذا مثل حاد، يمكن لإنسان أن يحلف يمين كذب، أو أن يشهد شهادة زور، ممكن لمصلحة مُعَيَّنة أن يستعصي في بيت قد استأجره، ويقول لك: أنا القانون معي، أي أنه باع دينه بعرضٍ من الدنيا قليل، هذا معنى:

(وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً (41))

بالمناسبة: أحياناً يفتي الإنسان فتوى فيأخذ ثمنها باهظاً، ولكنها فتوى باطلة، لذلك أخطر إنسان هو الذي يُفتي بخلاف ما يعلم، الذي يُفتي وهو لا يعلم مُحاسَب، أما الذي يُفتي بخلاف ما يعلم هذا اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً، أنت تفاجأ أن لكل معصية فتوى، الآن في العالَم الإسلامي أيّ معصية لها فتوى كاملة، فلا توجد مشكلة، ولكن لم يبق شيء في الدين، إذا كان الربا مسموحاً، فتوى رسميَّة ، إذا كان هذا مسموحاً، وهذا مسموح، فما الذي بقي محرَّماً ؟!

وجود كتب كثيرة همّها تشويه الدين:

قال تعالى:

(وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42))

العمليَّة عمليَّة تزوير، الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمورٌ مشتبهات، يأتي المنافق ويجمع شيئاً من الحق وشيئاً من الباطل كيف ؟ يقول لك: يا أخي الله عزَّ وجل قال:

(لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران: آية " 130")

معنى هذا ـ حسب مفهومه ـ إذا أخذ الإنسان أضعافاً قليلة فهو ليس مؤاخذاً، دخل من الباب:

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ(99))

(سورة الحجر)

أنا تيقَّنت والحمد لله، إذاً انتهت العبادة، فيُحضر آيات، ويُحضر أحاديث، توجد كتب كثيرة همها تشويه الدين، الآن قراءة معاصرة للقرآن الكريم، السلوك الإباحي مغطَّى بكل آيات القرآن الكريم ، إذا قرأ الواحد الكتاب لا يوجد فيه شيء حرام أبداً، يمكن للفتاة أن يراها أبواها كما خلقها الله، بنص الكتاب، هذه قراءة معاصرة !! ألم ينتبه العلماء القُدامى إلى هذه النقطة ؟! فهناك من يستخدم القرآن، ومن يستخدم السُنَّة، ومن يستخدم الدين لأهداف معيَّنة:

(وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42))

الازدواجيَّة أخطر شيء يصيب أهل الدين:

هذا الذي يُفتي بخلاف ما يعلم، هذا الذي يسكت عن الحق إرضاءً لجهةٍ ما، لذلك قال الله عزَّ وجل :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب: آية "39 ")

ذكر الله عزَّ وجل بهذه الآية صفة واحدة، وهذه الصفة جامعة مانعة، هذا الذي يدعو إلى الله إذا خشي غير الله فتكلَّم بالباطل إرضاءً له، وإذا خشي غير الله سكت عن الحق إرضاءً له، سكت عن الحق ونطق بالباطل ماذا بقي من دعوته ؟ انتهت دعوته، هذه أخطر صفة للداعية أن لا يخشى إلا الله:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ (44))

هذا أخطر شيء بالدعوة، وأخطر شيء يصيب أهل الدين الازدواجيَّة، أي هناك نصوص وهناك طقوس وعبادات، أما المعاملة فهي شيءٌ آخر، عندما تنفصل المعاملة عن العبادة انتهى الدين، يوجد في الدين عبادة تعامليَّة، وعبادة شعائريَّة، وهما متكاملتان، والعبادة الشعائريَّة لا قيمة لها إلا بالتعامليَّة، فإذا ألغينا التعامليَّة ألغينا الدين كلَّه، هنا:

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44))

المُثُل العُليا تشدُّ الناس إلى الدين أما الكلام فلا يؤثِّر:

لو سألتني لماذا تألَّقت دعوة هؤلاء الأنبياء العِظام ؟ ولماذا سارت دعوتهم في الآفاق ؟ لأنهم طبَّقوا. كان هناك عهد لسيدنا رسول الله مع اليهود أن يأخذ نصف تمرهم في خيبر، فكلَّف سيدنا ابن رواحة ليقدِّر التمر، فذهب إليهم، خطر في بالهم أنهم إذا أعطوه هديَّة ثمينة قد يخفَّض التقييم، فجمعوا له من حلي نسائهم حلياً كثيراً وقدَّموها له، أن ارأف بنا أي التمسنا، فقال: **" والله جئتكم من عند أحبِّ الخلق إليَّ، ولأنتم أبغض خلق الله إليَّ "**، وهناك رواية: **" لأنتم كالقردة والخنازير**

عندي ومع ذلك ما كنت لأحيف عليكم، وهذا الذي تعطونني إياه هو سُحتٌ، ونحن لا نأكل السُحت
"، فقال اليهود: **" بهذا قامت السماوات والأرض، وبهذا غلبتمونا "**، أي إذا بقي الدين صلاة وصوماً فقط وكل شيء مُباح انتهى الدين، ولكن يجب أن تجد الدين في التعامل اليومي، عاهد أحد الصحابة الكفار في أثناء الهجرة ألا يقاتلهم، وعندما وصل النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره فرح به، بعد حين سار رسول الله في غزوة فنسي هذا الصحابي وأحب أن يخرج مع الصحابة للغزوة عليهم رضوان الله، فقال له صلى الله عليه وسلم: **" ارجع أنت ألم تعاهدهم ؟ "**:

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44))

لذلك يتعلم الناس بعيونهم لا بآذانهم، ولغة العمل أبلغ من لغة القول، والذي يشدُّ الناس إلى الدين المُثُل العُليا، أما الكلام فلا يؤثِّر، الكلام لا يُحرِّك ساكناً، جاء الأنبياء بالكلمة فقط، ولكن بالكلمة التي يؤكِّدها الواقع، فلو سألتني: ما سر نجاح دعوة الأنبياء، وإخفاق دعوة الدعاة في أيامنا ؟ لأنه لا توجد عند النبي ازدواجيَّة أبداً، فالذي قاله فعله، والذي فعله قاله، فالانسجام تام بين أقواله وأفعاله، ينبغي على المؤمن أن تكون سريرته كعلانيَّته، وظاهره كباطنه، وما في قلبه على لسانه، وخلوته كجلوته، لا توجد عند المؤمن ازدواجيَّة، هذا الانسجام يجعل الدعوة تنتشر في الآفاق، وهذا الدين الآن إن أردنا له النجاح لا بدَّ من أن نطبِّقه، وأن نعقلنه، وأن نُبَسِّطه، يجب أن يُبَسَّط، ويجب أن يُعَقلن أي يتوافق مع العقل، ويجب أن يُطبَّق، طبِّق وكن عاقلاً، عقلنه، وطبِّقه، وبَسِّطه ينتشر الدين.

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (23- 95):تفسير الآيات 43-46 ، الإيمان بالآخرة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-01-01

بسم الله الرحمن الرحيم

يمكن أن نجمع الدين كله بكلمتين ؛ اتصال بالخالق، وإحسان للمخلوق :

مع الآية الثالثة والأربعين :

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43))

الإنسان له علاقتان ؛ علاقة مع الخلق، وعلاقة مع الحق، العلاقة مع الحق الاتصال به عن طريق الاستقامة على أمره، وعلاقته مع الخلق الإحسان إليهم، فإذا أردت أن تجمع الدين كلَّه ففي كلمتين: اتصالٌ بالخالق وإحسانٌ إلى المخلوق، وإن أردت أن تبحث عن علاقةٍ بينهما، فهناك علاقة ترابطيَّة بينهما، فكل اتصالٍ بالخالق يعينك على أن تُحْسِنْ إلى المخلوق، إنك بهذا الاتصال تشتقُّ من كمال الله، وكل إحسانٍ إلى المخلوق يعينك على الاتصال بالخالق، أي أن كلاً من الاتصال بالخالق والإحسان إلى المخلوق سبب ونتيجة، يُعَبَّر عن هذا بالعلاقة الترابطيَّة، كلٌ منهما سبب ونتيجة، فالإحسان يجعلك تثق برضاء الله عنك فتُقْبِلُ عليه، والاتصال يجعلك تصطبغ بصبغة الكمال فتُحسن إلى المخلوقات، فإذا أردنا أن نضغط الدين كلَّه في كلمتين نقول: اتصال بالخالق، وإحسان للمخلوق.

أما الكفر فهو إعراض عن الخالق، وإساءة إلى المخلوق، إن أردت أيضاً وصفين جامعين مانعين لأهل الكفر، إعراضٌ عن الله وإساءةٌ إلى الخلق، فالمؤمن يبني حياته على العطاء والكافر يبنيها على الأخذ، المؤمن بالإحسان والكافر بالإساءة، المؤمن بالاستقامة والكافر بالانحراف، المؤمن بالصدق والكافر بالكذب، المؤمن بالإنصاف والكافر بالجحود، هوية المؤمن مجموعة قيم أخلاقيَّة وهوية الكافر مجموعة نقائص أخلاقيَّة، والكافر على نوعين ؛ كافر ذكي وكافر غبي، الكافر الذكي يخفي نقائصه ويضع أقنعة مزيَّفة على وجهه، هو يغُشُّك، يغريك أنه على حق، وهو كافر منحرف، والكافر الغبي يُظّهر نقائصه صراحةً، على كلٍ كلمة.

المؤمن بين خيارين صَعبين إما الدنيا وإما الآخرة:

قال تعالى:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ (43))

هي الدين كلُّه، أي أحسنوا إلى المخلوقات واتصلوا بي، أو اتصلوا بي كي تُحْسِنوا إلى المخلوقات، والإحسان إلى الخلق ثمن الجنَّة وهي السعادة الأبديَّة، نحن مخلوقون لدار إكرام ثمنها الإحسان للخلق، فلذلك حينما تؤمن بالآخرة لك ميزان آخر، ميزان آخر بخلاف موازين الدنيا، مثلاً إذا أُتيح لك مغنم كبير ولم تأخذه يتهمك أهل الدنيا بالجنون، أما أهل الإيمان فيضعون الدنيا تحت أقدامهم ابتغاء مرضاة ربِّهم، ولله حكمةٌ بالغة حينما يضع المؤمن بين خيارين صَعبين، إما الدنيا وإما الآخرة، إما مصالحه الماديَّة وإما طاعة ربِّه، أما أن تتوافق مصالحك الماديَّة توافقاً تامَّاً مع طاعة الله هذا شيء لا تحلم به أبداً، مستحيل، مستحيل أن تجد أن كل مصالحك وكل رغباتك موفَّرةٌ في طريق الجنَّة، لا بد أن تضحِّي، لا بد من أن توضع في خيارٍ صعب إما الدين وإما الدنيا، إما طاعة الله وإما مكاسب الدنيا، هذا معنى قوله تعالى:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ (43))

أمَّا معنى:

(وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43))

أي أنك ينبغي أن تكون ضمن جماعة، لأن الجماعة رحمة والفرقة عذاب:

((عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ إِنَمَا يَأْكُلُ الذِئبُ القاصيَّة))

[النسائي عن أبي داود]

النبي معصومٌ بمفرده بينما أمَّته معصومةٌ بمجموعها :

هناك منافسة ضمن الجماعة، وهناك تصحيح مسار دائماً ضمن الجماعة، وهناك رغبة بالتفوُّق، هل سمعت بكل حياتك مسابقة بلا جماعة، هل يمكن لإنسان أن يركض وحده ويقول لك: أنا كنت الأول، على من فزت بالأول ؟ المسابقة فيها مجموع، هناك فريق، فلمَّا قال الله تعالى:

(سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ)

(سورة الحديد: من آية " 21 ")

معنى هذا أنك ضمن جماعة، كلمة مسابقة تعني أنك ضمن جماعة:

(وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43))

الجماعة رحمة، والنبي عليه الصلاة والسلام طمأننا :

((إِنَّ أُمَّتِي لا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلالَةٍ))

[ابن ماجة عن ابن مالك]

النبي معصومٌ بمفرده بينما أمَّته معصومة بمجموعها:

((إِنَّ أُمَّتِي لا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلالَةٍ))

[ابن ماجة عن ابن مالك]

إذا تكلَّم الإنسان وفق الحق والكل ساكتون هذا اسمه إجماع سكوتي ، الآن كتاب يُطْرَح في الأسواق صحيح، أدلَّته قويَّة، وفق منهج الله، وفيه روح الدين الإسلامي، تحقَّقت فيه مقاصد الشريعة، لا تجد أحداً يحكي عليه، ولكنهم يثنون عليه، الثناء على هذا الكتاب دليل أن الناس تلقَّوْه بالقبول، أما لو كان فيه انحراف عقائدي لهاجمه الناس، فسكوت الناس عن شيء صحيح هذا اسمه إجماع ولكنَّه سكوتي، إجماع سلبي، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ أُمَّتِي لا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلالَةٍ))

[ابن ماجة عن ابن مالك]

على المؤمن أن يكون مع جمهور المؤمنين لا مع مطلق الجمهور:

قال تعالى:

(وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43))

أي أن صومكم يوم تصومون، لا يوجد انفراد، فطركم يوم تفطرون، كن مع المجموع، حتى إذا قرأت في الكتب كن مع الجمهور لا مع الآراء الشاذَّة النادرة القليلة، هناك آراء شاذة، لها أدلَّة ضعيفة، كن مع الجمهور ؛ مع جمهور العلماء، لأن الجمهور رحمة، طبعاً جمهور العلماء وليس الجمهور العادي:

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة الأنعام: من آية " 116 ")

كن مع جمهور المؤمنين لا مع مطلق الجمهور:

((لا تكونوا إمَّعة))

[الترمذي عن حذيفة]

من هو الإمَّعة، قال: " إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت "، هذا ليس صحيحاً، يجب أن تكون لك استقامتك، ويجب أن لا تعبأ بقول الناس إذا كانوا على انحرافٍ لا يرضي الله عزَّ وجل:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43))

يتوهم الإنسان بالعُزلة أوهاماً مضحكة، يبني قصوراً من الأوهام، ولكنه يتحجم عندما يقيم مع الآخرين، وهذا التحجيم صحِّي، قد تتوهَّم أنك أكبر مؤمن، فعندما تجلس مع مؤمن أكبر منك ترى أن عملك لا شيء أمام عمله، إخلاصك أقل من إخلاصه، طموحك أقل من طموحه، تتحجَّم، فهذا التحجيم ضروري جداً للإنسان، هذا التحجيم منطلق العطاء، منطلق التفوّق، أما لو أنك توهَّمت أنك في مستوى رفيع جداً، وأنت بعيد عن المجتمع هذا الوهم غير صحيح، هذا يُقْعِدُكَ عن طلب العُلا.

من فوائد الجماعة :

من فوائد الجماعة أنها رحمة ؛ أولاً تصحِّح لك المسار، ثانياً تحفزك على التفوُّق، ثالثاً تأخذ بيدك إذا تعثَّرت، إذا كان للإنسان أخوان كرام يأخذون بيده إن أخطأ، ويعيدونه إلى الصواب إن شرد، يجتهد اجتهاداً مغلوطاً فيصحِّحون له اجتهاده، ولذلك صلاة الجماعة تعدل صلاة الفرد بسبع وعشرين ضعفاً، السبب ؟ الصلاة هي الصلاة، السبب هو الاجتماع، وكم من أخ يأتي إلى بيتٍ من بيوت الله فينزل على قلبه من السّكينة والراحة النفسية والطمأنينة، يلتقي بإخوانه، ينسى همومه، هذه ساعات النفحات الإلهيَّة؛ نفحات تعين على مصاعب الحياة:

(وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43))

كن مع المجموع، اتبع لا تبتدع، اتضع لا ترتفع، الورع لا يتَّسع، النقطة الدقيقة جداً:

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44))

أي أن العلم في الإسلام وسيلة وليس هدفاً، سهل جداً أن تتكلَّم عن الأخلاق، وسهل جداً أن تتحدَّث عن العبادات، ومن السهل جداً أن تجلس والناس يتحلَّقون حولك وتحدِّثهم، لكن البطولة أن تكون إماماً لهم، فيجب أن يكون الإمام أمام المؤتَمّين لا وراءهم، يجب أن يكون الإمام في الأمام قدوة:

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ (44))

أن تأمر الناس بالبر قضيَّة لا تكلّف شيئاً، وسهلة جداً، لاحظ الناس إذا أصيب إنسان بمصيبة كل من حوله يقولون له: بسيطة، لا توجد مشكلة، طوّل بالك، سهل عليك أن تُصبِّره، ولكن لو وقعت معك هذه المصيبة قد تفعل أكثر مما فعل، فالتصبير سهل، والكلام سهل، أما أن تكون في مستوى كلامك هذا الشيء الذي يجعلك بطلاً.

الكلمة الطيّبة بضاعة الأنبياء والكلمة الخبيثة تنتشر لكنَّ ما لها من قرار :

عظمة الأنبياء أن الذي قالوه فعلوه، وأنهم ما أمروا بأمرٍ إلا كانوا سبَّاقين إليه، ولا نهوا عن شيءٍ إلا كانوا أبعد الناس عنه، لم يكن في حياتهم ازدواجيَّة أبداً، لا تجد في حياتهم تناقضاً بين أقوالهم وأفعالهم، حينما ينطلق الإنسان من مصداقيَّة يعيد للكلمة تألُّقها، وقد ذكرت في درسٍ سابق: بماذا جاء الأنبياء ؟ بالكلمة، جاؤوا بكلمة صادقة غيَّرت مفاهيم الحياة، نشروا الحق في العالَم، الأنبياء بمصداقيّتهم أعطوا الكلمة قدسيَّتها، كلمة، أما الطُغاة فجاؤوا بأسلحة فتَّاكة، جاؤوا بأجهزة دقيقة جداً، بطائرات فتَّاكة، جاؤوا بمخترعات مذهلة، لكنَّهم مع كل هذه الإنجازات ما قدَّموا للإنسان السعادة، بل قدَّموا له الشقاء، فالأنبياء أعطوا كل شيء من خلال كلمةٍ صادقة، لذلك قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(24)تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(25))

(سورة إبراهيم)

الكلمة الطيّبة هي بضاعة الأنبياء، والكلمة الخبيثة تنتشر لكنَّ ما لها من قرار، ما لها أساس علمي ، ما لها أساس واقعي:

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ (44))

((أوحى الله إلى عيسى "عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني ".))

[أحمد عن مالك بن دينار]

حينما يُطبِّق الإنسان ما يقول يجعل الله لكلامه قوَّةً تأثيريَّةً عجيبة:

إنها وقاحة بالإنسان أن ينصح بشيءٍ لا يفعله، فدعوة الغني المُتْرَف إلى التَقَشُّف دعوةٌ مضحكة، ودعوة المنحرف إلى الاستقامة دعوة مخجلة، ودعوة الإنسان اللاأخلاقي إلى الخُلق دعوة ساخرة، وهذا ما جعل الناس ينفرون من الدين، إن صحَّ التعبير :

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(1)وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً(2)فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً(3))

(سورة النصر)

حينما تنشأ مسافة كبيرة جداً بين أقوالهم وأفعالهم يخرج الناس من دين الله أفواجاً، وحينما لا يرون المصداقيَّة في الدعاة يخرج الناس من دين الله أفواجاً، وحينما لا يرون في الداعية المَثَل الأعلى يخرج الناس من دين الله أفواجاً:

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (44))

يا أيها الرجل المُعَلِّم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ

***

يجب أن يكون الإنسان صادقاً مع نفسه، وحينما يُطَبِّق ما يقول يجعل الله لكلامه قوَّةً تأثيريَّة عجيبة حينما ينطلق من واقع يفعل فعل السحر في كلماته، تجد الدعاة إلى الله في التاريخ لهم أعمال كالجبال.

الصفة الجامعة المانعة في مَنْ يدعو إلى الله عزَّ وجل ألا تأخذه في الله لومة لائم :

يروى أن عالِماً جليلاً كان له تلميذ، وهذا التلميذ له عبد، هذا العبد عندما رأى سيِّده يحترم شيخه احتراماً لا حدود له رجاه أن يعطي إشارةً لتلميذه أن يُعْتِقه، فقال له الشيخ: **" إن شاء الله أفعل هذا**

"، مضى شهر، وشهران، وثلاثة أشهر ولا توجد هناك أي حركة، من شدَّة ما رأى محبّة هذا التلميذ لشيخه، اعتقد العبد أن الشيخ لو أعطاه إشارة أن أعتق هذا العبد يعتقه على الفور، والشيخ وعده لكن لم يحصل شيء، ثم زاره مرَّةً ثانية وذكَّره فقال له الشيخ: **" إن شاء الله أفعل هذا "** ، ولم يحدث شيء خلال أشهر، ثم زاره مرَّةً ثالثة، وقد مضى على طلبه سنة، فقال له: **" أفعل هذا إن شاء الله "** ، بعد أيَّام استدعاه سيده وأعتقه تنفيذاً لتوجيه شيخه، فلمَّا التقى العبد بالشيخ قال له: **" يا سيدي كلمة منك تدعو سيدي إلى إعتاقي فلماذا تأخَّرت كل هذه المدَّة ؟ " قال له: " يا بني حمَّلتنا فوق ما نطيق، لقد وفَّرت من مصروف البيت مالاً أعتقت به عبداً، ثم أمرت سيدك أن يعتقك "**، أي أنا ما أمرته أن يعتقك إلا بعد أن كنت قدوةً له.

لو أن الدعاة لا يتكلَّمون كلمة واحدة إلا وطبَّقوها لكنَّا في حالٍ آخر غير هذا الحال. قلت لكم في الدرس الماضي قوله تعالى :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً(39))

(سورة الأحزاب)

أي أن هذا الذي يبلّغُ رسالات الله ينبغي أن يخشى الله وحده، فإذا خشي غير الله فسكت عن الحق إرضاءً لمن خشيه ونطق بالباطل إرضاءً لمن خشيه، ماذا بقي من دعوته ؟ انتهت دعوته، لذلك الصفة الجامعة المانعة في مَنْ يدعو إلى الله عزَّ وجل ألا تأخذه في الله لومة لائم.

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (44))

أكبر وسيلة فعَّالة في التربية أن تأمر ابنك بما تفعله لا بما لا تفعله:

ذكرت لكم من قبل: كيف أن الله عزَّ وجل استخدم الأسلوب التربوي الفَعَّال في الحديث عن أمراض بني إسرائيل، مع أن هذه الأمراض في مُجْمَلِها قد تلبَّسنا بها، فنحن مُعَرَّضون أن نصاب بأمراضهم تماماً، حدَّثني شخص كطرفة، قال لي: في أحد المعاهد الشرعية رجل له باع طويل في إلقاء الدروس، ألقى درساً عن التواضع ببيان رائع ووصف دقيق جداً، ولكنه بعد ما خرج من الدرس كان جالساً بغرفة المدرِّسين بدرجة من الاستعلاء لا تُحْتَمَل !!! هو أتقن درس التواضع لكنَّه لم يتواضع، الناس يتعلَّمون بعيونهم لا بآذانهم، ماذا يرى ؟ يجب أن ترى التواضع، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال:

((... وعليّ جمع الحطب ـ سيد الخلق ـ قالوا له: نكفيك ذلك، قال: أعلم أنكم تكفونني، ولكنَّ الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

[ورد في الأثر]

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (44))

هذا الكلام موجَّه للآباء في الدرجة الأولى، أكبر وسيلة فعَّالة في التربية أن تكون أنت قدوته، أكبر وسيلة فعَّالة في التربية أن تأمر ابنك بما تفعله لا بما لا تفعله، فبالتعليم إذا ضُبط طالب يدخِّن يُعَاقب عقاباً شديداً، وأستاذه يدخِّن أمامه، وإذا دخَّن الطالب يعاقبه، وهو المثل الأعلى، أخطر شيء يفعله الآباء أنهم لا يطبِّقون توجيهاتهم، إذاً سقطت الكلمة كقيمة، الأنبياء جاءوا بالكلمة، فإن لم تُطَبَّق سقطت هذه الكلمة، وعندئذٍ لا جدوى منها، والدليل يقولون لك: كلام بكلام، وإذا تلاسن اثنان يقول لك: بلا فلسفة، لأن الكلمة سقطت، ولم يعد لها قيمة، يمكن أن تتكلَّم كلاماً ليس له معنى، وتتكلَّم كلاماً كلّه كذب، وتتكلّم كلاماً غير واقعي، وتتكلَّم كلاماً لا تفعله أنت، وتتكلَّم كلاماً أنت بعيدٌ عنه بعد الأرض عن السماء، فالكلام حينما يبتعد عن الواقع وعن التطبيق لم يكن له قيمة، لذلك الآن أزمَّة المسلمين في العالم أن العالم لا يقنع بالكلام، أعطه مجتمعاً إسلامياً طُبِقَ فيه الإسلام وقُطِفَت ثماره كلها لكي يسلم، يأتي الذين أسلموا من الكتب إلى الشرق الأوسط فيرون العكس، يحمدون الله على أنهم أسلموا قبل أن يأتوا إلى هنا، الإسلام بالكتب سهل، كلام جميل ودقيق، يأتي إلى هنا يجد أن هناك كذباً، وانحرافاً، وتقصيراً، وازدواجيَّة، و نِفاقاً.

حينما يتصل الإنسان بالله تصطبغ نفسه بالكمال :

قال تعالى:

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ (44))

المنهج بين أيديكم، الكتاب بين أيديكم، افعل ولا تفعل بين يديك في متناول كل إنسان، الأمر والنهي سهل جداً:

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ (45))

الآية دقيقة جداً، حينما يتصل الإنسان بالله تصطبغ نفسه بالكمال، يضعف الجهد في حمل النفس على طاعة الله، صارت الاستقامة سهلة، شخص نظيف جداً لا يحتاج إلى معاكسة لنفسه من أجل تنظيف جسمه، هو نظيف، يمارس النظافة مع راحةٍ نفسيَّة، أما إذا كان بعيداً عن النظافة، ويوجد عليه ضغط من أبيه أن غسِّل، واعتنِ بنفسك، صار عليه عبء شديد، فالإنسان قبل أن يصل إلى الله عزَّ وجل، أو قبل أن يصطبغ بصبغة الكمال يحتاج إلى صبر، يحتاج إلى مجاهدة، هناك مثل أوضح من ذلك:

إذا كان الإنسان قبل أن يتوب متعلّقاً ببعض الأغنيات، ثم هو تاب إلى الله وامتنع عن سماع الغناء كلّياً، لكن نفسه تتوق لهذه الأغنية، فلو سمعها في مركبةٍ عامَّة تجاوب معها تجاوباً عجيباً، هو لا يسمعها بقصد، ولكنه سمعها عَرَضَاً، لكن بعد حين، بعد سنوات، بعد أن تصطبغ نفسه بالكمال يحتقر هذه الأغنيات، ويشمئز منها، ويترفَّع عنها، هذا الإنسان مرَّ بمرحلة المجاهدة يوم كانت نفسه بعيدةً عن مثله الأعلى، ثم انتقل إلى مرحلة الانسجام يوم أصبح مصطبغاً بالكمال.

إذا كان بينك وبين الكمال مسافة استعن بالله والصبر إلى أن تصل إليها:

ربنا عزَّ وجل قال:

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ (45))

الاتصال بالله يكسبك الكمال وعندها لا تحتاج إلى مجاهدة كبيرة، فالصادق الحليم فعلاً لا يحتاج إلى بذل جهد في الحلم، أما الذي يتحلّم، **" إنما العلم بالتعلُّم، وإنما الحلم بالتحلُّم "**، يقول لك الذي يتصنَّع الحلم: كنت أغلي من داخلي كالمرجل ولكني ضبطت أعصابي، هذا يتحلّم، وليس حليماً، إذاً يوجد جهد كبير بالضبط، ومعنى هذا هناك مسافة بينك وبين الكمال، ولكنه أمر جيد على كل حال، جيد جداً أن تحمل نفسك على الكمال عن طريق التصنُّع، لكن بعد حين عندما تتصل بالله عزَّ وجل وتصطبغ النفس بالكمال صار الحلم عندك سهلاً جداً، صار جزءاً من طبيعتك، صار جزءاً من جبلّتك، فأنت حليم بحكم سجيَّتك الطيّبة الطاهرة، الآية دقيقة، فإذا كان بينك وبين الكمال مسافة استعن بالله والصبر إلى أن تصل إليها، فإذا وصلت إليها يعينك اتصالك بالله عزَّ وجل المحكم على تطبيق هذا المنهج الكامل:

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ (45))

الصلاة كبيرة، كبيرة على المنافق :

(وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إلا وَهُمْ كُسَالَى)

(سورة التوبة: من آية " 54")

كبيرة عليه، يصعب عليه أن يصلي، قد يمضي ساعات طويلة في كلام فارغ أما أن يصلي التراويح فهي صعبة عليه، لا يحتمل، أنا والله أعرف أناساً في التراويح كأنهم في جنَّة، في جنَّة من جنَّات القُرب، واقف يستمع إلى القرآن الكريم وكأن الله يحدِّثنا، قال: **" إن أردت أن تحدِّث الله فادعه، وإن أردت أن يحدِّثك الله فاقرأ القرآن "**، أنت حينما تقرأ القرآن أو تستمع إليه تشعر وكأن الله يحَدِّثك، فالتراويح فيها راحة للنفس، والفرق بين صلاة المنافق وصلاة المؤمن أن صلاة المنافق أرحنا منها، والمؤمن أرحنا بها، هذا هو الفرق بين (من) وبين (الباء)، المنافق يقول: أرحنا منها، والمؤمن يقول: أرحنا بها.

الصلاة كبيرة إلا على الخاشعين:

قال تعالى:

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45))

الإنسان المتفلّت يُطلق بصره في الحرام، ماله حرام، عمله سيِّئ، فإذا وقف ليصلي تجد أنه محجوب عن الله عزَّ وجل، فصلاته حركات ليس لها معنى بالنسبة له، أحياناً تجد صلاة سريعة جداً

غير معقولة إطلاقاً، فالصلاة السريعة أو الصلاة التي لا يوجد فيها خشوع سببها الحجاب، فإذا صلى الإنسان ولم يشعر بشيء، قرأ القرآن ولم يشعر بشيء، ذكر الله ولم يشعر بشيء، فعنده مشكلة كبيرة جداً، إذا انقطع عند مريض خروج البول هذه ليست مشكلة عرضيَّة ولكنها علامة كبيرة جداً، هذا عنده مشكلة، عنده فشل كلوي وسيعاني معاناة كبيرة، يوجد في الجسم أعراض يمكن أن يقول الناس: ليس فيها شيء، مع أنها خطيرة جداً، وتوجد أعراض مؤلمة ولكنَّها غير خطيرة، فإذا صلى الإنسان ولم يشعر بقربه من الله عز وجل، وقرأ القرآن لم يشعر أيضاً، وذكر الله وما شعر بشيء، فمشكلته كبيرة جداً، أي أن الطريق مقطوع، وهو واقع بحجاب شديد.

هذه الصلاة كبيرة إلا على الخاشعين، إذا تحرّى الإنسان الحلال فوجهه أبيض، وخدم الخلق وأحسن إليهم وأنصفهم، وما أكل مالاً حراماً، وما ابتزَّ أموال الناس، وما استغلَّ جهلهم فوجهه يبقى دائماً أبيضاً، هناك نقطة لا ينتبه إليها أحد، قد تكون شاطراً، وقد تحقّق نجاحاً كبيراً جداً في الحياة بأساليب غير أخلاقيَّة، وعندما يسلك الإنسان طريقاً غير أخلاقي يحدث عنده انهيار داخلي، فتجد ردود فعله عنيفة جداً وغير متوازنة، لأنه عندما خالف فطرته عذَّبته فصار عنده انهيار داخلي، الذي يراعي راحة نفسه الأخلاقيَّة، يراعي أنه منسجم تماماً مع نفسه هذا مؤمن، فهذه الصلاة كبيرة إلا على الخاشعين، من هم هؤلاء الخاشعون ؟

المفتاح الدقيق للآيـة أن تؤمن بالآخرة :

قال:

(الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ (46))

كل عمل يعمله يتصوَّر أنه واقفٌ بين يدي الله عزَّ وجل، لماذا فعلت كذا ؟ لماذا أعطيت ظلماً ؟ لماذا منعت ؟ لماذا طلَّقت ؟ لماذا غدرت ؟ لماذا كذبت ؟ لماذا احتلت ؟ لماذا اغتصبت هذا البيت ؟ لماذا لم تنصح فلاناً ؟ أما إذا كان كل يومه أخطاء ومعاصي وآثاماً فأي صلاة هذه ؟! نقول له : صل، ولكن استقم من أجل أن تتصل بالله عزَّ وجل:

(وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

المفتاح الدقيق للآية أن تؤمن بالآخرة، أن تؤمن أنه لا بد أن تقف بين يدي الله عزَّ وجل ليسألك: لماذا فعلت هذا ؟ دخلت زوجة سيدنا عمر بن عبد العزيز عليه وهو يبكي في مصلاَّه، فقالت له: " **ما يبكيك؟ قال لها: " دعيني وشأني "، ألحَّت عليه ما يبكيك؟ فلمَّا ألحَّت عليه قال: " يا فلانة إني نظرت إلى الفقير البائس، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير، وابن السبيل، والمرأة الأرملة، والشيخ الفاني ـ ذكَّر أصنافاً من المعذَّبين في الأرض ـ كل هؤلاء سيسألني الله عنهم جميعاً."**

إذا تعثرت بغلة في العراق قال: **" لو تعثَّرت بغلة في العراق لحاسبني الله عنها: " لِمَ لَمْ تُصْلِح لها الطريق يا عمر ؟ "** ، عمر حاسب نفسه على بغلة تعثَّرت في العراق، لِمَ لمْ يصلح لها الطريق.

عندما تدخل الآخرة بحساباتك اليوميَّة تنعكس كل موازينك:

عندما يؤمن الإنسان بالآخرة يتصورَّ أنه سوف يُسأل عن كل عمل، هذا الإنسان إذا صلّى فصلاته مقبولة، وصلاته مجدية، وصلاته طيّبة، وصلاته مسعدة لأن وجهه أبيض، سأحضر مثالين واضحين: رجل في الحي محترم جداً، يحتل أعلى منصب في الجيش فرضاً، قائد فرقة، وله ابن، وعنده جندي غر التحق بالخدمة قبل يومين، هذا الجندي الغر لا يستطيع أن يقابل لواء ولا في المنام، توجد عنده مئة رتبة يقابلها قبله ؛ لو وجد هذا الجندي ابن هذا اللواء يغرق في مسبح وأنقذه، وفي اليوم الثاني يدخل ويقابله بكل جرأة بلا استئذان، يقول للحاجب: قل له فلان ويدخل على الفور لأنه عمل عملاً طيّباً، العمل الطيب يلغي الروتين كلّه، يلغي طريق التسلسل المقابلات. أما لو كان ابنه معه باللعب وضربه ضرباً مبرِّحاً، وعطبه، وهو لا يعرف أنه ابن معلّمه، وعرف في اليوم التالي أنه ابن معلّمه وقال له: تعال عندي، كيف يدخل عنده في المكتب ؟ لا يستطيع أن يدخل عنده.

هذه القصَّة كلها، قصة كل الخلق وعباد الله عزَّ وجل، غشّهم ولكن الله حجبك عنه، قد تبتز مالهم بأسلوب ذكي، هناك ألف أسلوب ذكي لابتزاز الأموال، ولكن الله كاشفك وأنت كاشف نفسك:

(بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(15))

(سورة القيامة)

قد تصبح غنياً كبيراً بالكذب والاحتيال، قد تبيع بيعة سيِّئة جداً بأعلى سعر، قد تستغل جهل إنسان، وقد تأكل مالاً بالحرام، أعطى أحدهم لإنسان عشرين مليوناً ومات بحادث على الفور، ولا أحد يعلم، ولا توجد ورقة، بعد حين سمع هذا الأخ الذي معه المبلغ درساً من الدروس في جامع العثمان عن الأمانة، أرسل لي ورقة كتب فيها: والله رددت عشرين مليوناً لورثة صديق لي، وهم لا يعلمون عنها شيئاً، خاف من الله، عندما تدخل الآخرة بحساباتك تنعكس كل موازينك، عندما تدخل الآخرة بحساباتك اليوميَّة تنعكس كل موازينك، أما إن لم تدخل الآخرة في حساباتك تعد نفسك ذكياً لو أكلت مالاً حراماً، توجد ألف قصَّة، مليون قصَّة، إنسان اغتصب شركة، واغتصب بيتاً، يرى نفسه أنه ذكي، وكّل محامياً قوياً، قدَّم وثيقة مزوَّرة، ويعد نفسه بطلاً، لأنه استطاع أن يغتصب، ولكنه أمام الله عزَّ وجل محتقر، لماذا يتصل المؤمن بالله ؟ لأنه لم يعمل شيئاً أبداً، ينام على فراش وثير من استقامته، أما المنافق ينام على شوك من ذنوبه وأخطائه.

البطل الذي يحل مشكلته مع الله وليس مع عبد الله:

يوجد فندق في ألمانيا ذكرت عنه كثيراً مكتوب على السرير: **" إذا لم تستطع النوم فالعلَّة ليست في فراشنا بل في ذنوبك "** ، العلّة بالذنوب، إذا عمل الإنسان عملاً سيِّئاً، كسب مالاً حراماً، أخطأ

مع فتاة ـ فرضاً ـ باع بيعة سيئة جداً بسعر عالٍ جداً، إنه حلَّ مشكلته الماديَّة ولكن مشكلته مع الله لم تُحَل، هو في انهيار.

قال له: **" بعني هذه الشاة وخذ ثمنها "** ، **قال: " ليست لي "، قال له: " خذ ثمنها "** ، **قال: " والله إني لفي أشدِّ الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها: ماتت أو أكلها الذئب لصدَّقني، فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله ؟!! "**

توجد حالات كثيرة لاسيما عند أصحاب المصالح، قد يحفر عشرة أمتار ويقول لك: حفرت أربعين متراً، يضع القمصان أثناء غيابك ويعطيك حساباً عالياً، هو حلَّ مشكلته الماديَّة ولكنه لم يحلَّها مع الله ؟ البطل الذي يحل مشكلته مع الله وليس مع عبد الله، هنا:

(الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (46))

إنك لن تستقيم إلا إذا آمنت باليوم الآخر، إن أردت كلاماً دقيقاً، واضحاً، جلياً، بسيطاً، علمياً، واقعيَّاً عن أسباب الاستقامة الحقيقية فهو إيمانك أن الله سيحاسبك تقول لي: ضمير، هذا كلام فارغ، وحينما تؤمن أن هناك حساباً لن تعصي الله أبداً، وحينما تؤمن أن هناك حساباً وأن الله لا تخفى عليه خافية، وأن الله سيسأل الناس جميعاً:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

انتهى الأمر، قضية إيمان بالآخرة، إيمان بأنك لا بد من أن تقف بين يدي الله عزَّ وجل، ولا يخفى على الله شيء، وسيعرض الله عليك كل أعمالك مصوَّرة، المخالفة مع صورتها، والصورة مسكتة، تجاوز شخص القوانين فبعثوا له المخالفة فقال: أنا لم أكن في المكان الفلاني، فعندما رأى الصورة ـ صورة سيَّارته ـ والتاريخ، والسرعة، الصورة مسكتة، لذلك في الآخرة توجد صور المخالفات، شريط:

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً(49))

(سورة الكهف)

لماذا اتصلوا بالله ؟

(وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (46))

بسم الله الرحمن الرحيم

انطلاق الأسلوب الحكيم في هذا القرآن الكريم من التنبيه غير المباشر للمسلمين:

مع الآية السابعة والأربعين وهي قوله تعالى :

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47))

أيها الأخوة الكرام، بادئ ذي بدء ينطلق الأسلوب الحكيم في هذا القرآن الكريم من التنبيه غير المباشر للمسلمين، فالمسلمون وقد جاءهم كتابٌ من عند الله معرَّضون لأمراضٍ كأمراض بني إسرائيل، فالمقصود من الحديث عن بني إسرائيل في القرآن الكريم هو المسلمون لأنهم أهل كتابٍ مثل بني إسرائيل، ولأن الأمراض المُهلكة التي حلّت ببني إسرائيل يمكن أن تَحُلَّ بهم تماماً، وهذا الشيء واضح جداً:

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80))

يعتقد المسلمون بشفاعة النبي، افعل ما شئت، ما دمت من أمة محمدٍ فالنبي الكريم يشفع لك، يفهمون الشفاعة فهماً ساذجاً، ويقعدون عن العمل، وكأنَّ هذه الشفاعة حلّت لهم كل مشكلة، لو تتبعت الأمراض الوبيلة المُهلكة التي ألمَّت ببني إسرائيل لوجدت المسلمون قد تلبسوا بمعظمها، إذاً هذا أسلوبٌ حكيم، أسلوبٌ أشدُّ تأثيراً، يمكن لأمراضهم أن تنتقل إليكم، هم انحرفوا فهلكوا، وأنتم إذا انحرفتم هلكتم مثلهم، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ قَالَ: نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ))

[البخاري عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّه عَنْها]

إن لم نتناهَ عن منكرٍ فعلناه وقعنا في أمراض بني إسرائيل:

لكن ما الذي سبَّب هلاك بني إسرائيل ؟ قال: كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه، بربكم أليس هذا المرض الذي كان سبب هلاكهم واقعاً بنا جميعاً ؟ كلٌ يجامل أخاه، لا أحد يأمر بالمعروف وينهى

عن المنكر، يجامله، يمدحه مع أنه يعلم أنه على باطل، يُثني عليه، ويثني على ذكائه وحكمته، يعلم أنه لا يصلي، مع أنه يعلم أنه لا يصلي أحياناً مجاملات بالاحتفالات، بعقود القِران، والمتكلّم يعلم علم اليقين أن هذه الأسرة متفلّتة، وغير منضبطة بمنهج الله عزَّ وجل، فإذا لم نتناه عن منكرٍ فعلناه وقعنا في مرض بني إسرائيل ؛ الأمل هذا مرضٌ مهلكِ:

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (6) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7))

(سورة الجمعة)

طول الأمل أيضاً وضعف اليقين مرضان مهلكان أهلكا المسلمين، متأمِّل في الدنيا فقط ولم يُدْخِل الآخرة في حساباته إطلاقاً، هذا مرَض أيضاً.

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ (18))

(سورة المائدة: من آية " 18 ")

نحن كذلك ندَّعي أننا أمَّة مختارة، ندعي أننا خير أمةٍ أُخرجت للناس، والله يعذّبنا كل يوم، ما مرَّ بتاريخ المسلمين وقت أشدُّ إيلاماً من هذه الفترة، إذاً المرض نفسه، الأمراض نفسها.

ذكر الله أمراض بني إسرائيل لتكون واعظاً لنا :

يا أيُّها الأخوة الكرام، ما ذكر الله أمراض بني إسرائيل في هذا القرآن الكريم إلا لتكون واعظاً لنا من أن تزل أقدامنا فنقع في أمراضٍ قد وقعوا هم بها أيضاً، وكما قال الله عزَّ وجل :

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ (40))

قال بعض العلماء: " النعمة أن أوصاف نبينا عليه الصلاة والسلام جاءت في كتبهم ليؤمنوا به، وهذه نعمة "، أي أنه أعانهم على أنفسهم بأن جاءت في كتبهم أوصاف النبي التفصيليّة، والدليل ؛ الآن أنا أسألكم: ما هي المعرفة الفطريَّة، البديهيَّة، السريعة، التي لا تحتاج إلى برهان، ولا إلى دليل، ولا إلا تَذَكُّر ؟ إنها معرفة الأب بابنه، هل يوجد أب في الأرض يدخل إلى البيت ويقول لابنه: ما اسمك يا بني؟ لا تجد إنساناً يفعل ذلك، إنه يعرفه من صوته، من مشيته، من ظهره، قال الله عزَّ جل :

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ (146))

(سورة البقرة: من آية " 146 ")

مع ذلك كفروا به، لماذا كفروا به ؟ بغياً، وعلواً، واستعلاءً، لذلك أخطر شيء في الحياة أن تعصي الله كِبراً، كم من إنسان يعلم أن هذه الجهة على حق وتأبى نفسه أن يكون منها، يرى نفسه أكبر من ذلك، المؤمن يخضع للحق .

تولّى المسلمون اليوم عن تطبيق منهج الله كما فعل بنو إسرائيل من قبل:

الشيء الثاني :

(وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47))

هذا التفضيل لا يعني أنهم متفوِّقون، أحياناً يفضِّل الأب ابنه المقصِّر بعشرة مدرِّسين خاصين، هو فضَّله على بقية أولاده المتفوِّقين، فهذا التفضيل تفضيل تقصير، هم قتلوا الأنبياء، ماذا فعلوا ؟ قال :

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ (83))

(سورة البقرة: من آية " 83 ")

لمْ تفعلوا كل ذلك:

(إلا قَلِيلا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ(83))

(سورة البقرة: من آية " 83 ")

تولوا عن تطبيق منهج الله كما تولّى المسلمون عن تطبيق منهج الله الآن، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا الحديث من دلائل نبوَّة النبي:

((يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))

[سنن أبي داود عن ثوبان]

كأن النبي عليه الصلاة والسلام بيننا، هذا الذي حدث، جاءت ثلاثون دولة لتحارب بلاد المسلمين، وتنهب ثرواتهم وأموالهم، وتدمِّر أسلحتهم، وتضعفهم، وتكسر شوكتهم، وتحتلَّ أرضهم، وتستبيح المُحَرَّمات.

معنى كلمة (فضلتكم):

أيها الأخوة الكرام:

(فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47))

أي خصصتكم بأنبياء كثيرين ليعلّموكم، شيءٌ آخر :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246))

(سورة البقرة)

هذه آية ثانية، تولّوا لم يقاتلوا:

(لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (70))

(سورة المائدة)

قتلوا أنبياءهم، إذاً هم مفضَّلون لتقصيرهم، مفضَّلون لانحرافهم، مفضلون لمعاصيهم، فقد يقول الأب لابنه: يا بني أخوتك درسوا بلا أساتذة خاصين، إنني فضَّلتك على كل أخوتك بعشرة مدرِّسين ولم تنجح!! بالضبط هذا هو المعنى.

من أسباب هلاك بني إسرائيل :

قال تعالى:

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78))

(سورة المائدة)

حينما تدخَّل أحد أصحاب النبي ـ وهو حِبُّ رسول الله سيدنا أسامة بن زيد وكان النبي يحبُّه حبَّاً شديداً ـ في شأن المخزوميَّة التي سرقت ليشفع لها كي لا تُقْطع يدها، غضب النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشدَّ الغضب، وقال:

((أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ؟ ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[البخاري عن عائشة رضي الله عنها]

هذا أحد أسباب هلاك بني إسرائيل أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد.

عشرات المعجزات رآها بنو إسرائيل بأعينهم ومع ذلك كفروا:

قال تعالى:

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138))

(سورة الأعراف)

ما فكَّروا، ما عقلوا، ما وحَّدوا، كل هذه المعجزات ؛ شُقَّ البحر لهم، أراهم العصا وقد أصبحت ثعباناً مبيناً، أراهم يده وقد جعلها الله بيضاء للناظرين، عشرات المعجزات رأوها بأعينهم ومع ذلك كفروا:

(اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138))

(سورة الأعراف)

وقال:

(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4))

(سورة الإسراء)

ترون بأعينكم كيف أنهم يتآمرون على أقوى قوَّة في العالم، ويمرّغون من يقبع على سدَّة الحكم فيها في الوحل، خلقوا له مشكلة لا تزال آثارها حتى الآن لأنه أخذ موقفاً شبه منصف:

(وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا(4))

(سورة الإسراء)

هذا في القرآن.

تجمُّع اليهود في فلسطين ورد في القرآن الكريم:

قال تعالى:

(وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (104))

(سورة الإسراء)

تجمُّع اليهود في فلسطين ورد في هذه الآية

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ)

أي وعد الآخرة ؟ قال تعالى :

(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (5))

(سورة الإسراء)

هذا غزو بختنصَّر لليهود واستباحة أموالهم ونسائهم، وكان هذا قد وقع:

(وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولا(5)ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا(6))

يقال الآن أن الإعلام في العالم بيدهم، وأكثر الأموال بيدهم، والبنوك بأيديهم، والاقتصاد بأيديهم، والجامعات أكثرها بأيديهم.

بالنصوص القطعية الثبوت والدلالة في القرآن والسنَّة سوف ينتصر المسلمون على اليهود:

قال تعالى:

(وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولا(5)ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا(6)إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ (7))

الوعد الثاني:

(لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ)

المسلمون:

(وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ (7))

المسجد الآن بأيديهم:

(وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا(7))

(سورة الإسراء)

بالنصوص القطعية الثبوت والدلالة في القرآن والسنَّة سوف ينتصر المسلمون عليهم إن شاء الله، ونرجو الله أن نرى ذلك قبل أن نموت، وسوف يُجمَّع اليهود في هذه البلاد المقدَّسة لتكون إن شاء الله نهايتهم، فهم قد تجاوزوا كل حدٍ معقول في عدوانهم وغطرستهم واستهتارهم بالقِيَم.

تسوى الحقوق يوم القيامة ويؤخذ للمظلوم من الظالم:

قال تعالى:

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48))

يوم القيامة يُحل مليار مشكلة، ويجيب عن كل سؤال يظهر أمامك، هناك معلومات يصعب على العقل أن يصدِّقها، مثلاً هل من المعقول أن يموت خمسمئة ألف طفل كل سنة من شعب واحد وهو العراق وبالمقابل هناك في بلاد الغرب تجرى عمليَّات زرع دَسَّام وزرع شريان وقلوب للكلاب وزرع مفاصل؟!! وهناك طبيب نفسي لمعالجة الكآبة عند الكلاب، وطبيب أسنان لزرع الأسنان لديهم، ومقبرة للكلاب، ويأكلون من اللحم ما يأكله الشعب الهنديُّ بأكمله ـ الذي يعد تسعمئة مليون ـ هذا ظلم شديد، هم يعيشون كذلك وملايين مملينة يموتون من الجوع.

ذكرت لكم من قبل أنه أُطلِقَ النار على عشرين مليون رأس من الغنم ودُفِنت تحت الأرض للحفاظ على أسعار اللحم في العالَم مرتفعة، تتلف محاصيل الحمضيات في أمريكا للحفاظ على أسعارها المرتفعة، وعندما بدأ الزنوج يتسلّلون إلى أماكن إتلافها ليأكلوها سمَّموا هذا المحصول في العام القادم لئلا يأكل منه أحد، حجم مشتقات الحليب التي تُتلف كحجم أهرامات مصر من أجل الحفاظ على الأسعار مرتفعة، وترون وتسمعون المجاعات في الصومال، وفي بنجلاديش، وفي السودان، وفي جنوب السودان، هم كالوحوش، فلذلك تسوى الحقوق يوم القيامة ويؤخذ للمظلوم من الظالم، يقول الله عزَّ وجل:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

أمثلة من الواقع عن استهزاء الغرب بالدول النامية:

معامل أدوية ضخمة جداً إذا فسدت طبخة دواء بيعت إلى الدول النامية، دواء فاقد الفعالية، يشتريه الناس الفقراء بأعلى سعر علماً أنه غير صالح لأن صانعيه لا يتلفونه، الدخَّان الذي يصدِّروه لنا أسوأ أنواع الدخان، يحوي أعلى نسبة نيكوتين ويباع بأعلى سعر، ونحن نُقْبِلُ على بضاعتهم، هذا شيء مخيف جداً .

مرَّة خُصص في بلدنا أسبوع لمكافحة التدخين، وذكر وزير الصحَّة في برنامج أذيع في ذلك الأسبوع فقال: اتصل بي صديق من أمريكا وأعلمني أن كل الدُخان المصدَّر إلى الشرق الأوسط هو من أسوأ أنواع الدخان في العالَم، ونسب النيكوتين فيه عالية جداً، هكذا يبيعونك .

شيءٌ آخر أيضاً، هناك بعض الشركات الأجنبية تزور كل المنتجات الغذائيَّة التي انتهى مفعولها وتُبَاع تهريباً لدول المنطقة، فانتبهوا أيها الأخوة، لا تفرح بالتهريب، هذا كلام علمي ودقيق، البضاعة النظامية خاضعة للتحليل ـ تحليل دقيق جداً ـ هذا أعرفه معرفةً تامَّة، هناك تحليل دقيق جداً، البضاعة المهرَّبة قد تكون منتهية المفعول، هناك معامل في بعض البلاد التي لا تعرف الله عزَّ وجل تقلِّد البطاقات النظاميَّة بشكل مذهل فكل بضاعة انتهى مفعولها ؛ من أجبان، ألبان، معلَّبات، وكل شيء انتهي مفعوله يزوِّر المعمل هذا المعمل ؛ تاريخ انتهاء المفعول، وتأتيك البضاعة بشكل غير نظامي وأنت فرح بها، وتقول: أخذناه أقل بمئة، ما هذا والله ؟ أنت هل تعرف أن هذه البضاعة منتهية المفعول، فلذلك يوم القيامة هذا تسوى فيه الحقوق .

(وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48))

العبرة أن تكون عند الله مقبولاً ومستقيماً ومحسناً يوم الحساب:

ذكرت مرَّة أنه وصل إلى مصر بعض الحلويات من إسرائيل تهريباً، فإذا فيها مادَّة تثير الجنس، تمت ثلاث عشرة حادثة زنا في جامعة واحدة، في ليلة واحدة، بسبب علكة تم توزيعها، وهذا الشيء ذُكِر في صحفنا، أنا أذكر شيئاً مذكوراً بالصحف، يصدِّرون موادَّ تصيب الرجال بالعُقم أحياناً، إذا كانت بضاعة مهرَّبة قد تأتي من محلات مشبوهة، قد يكون فيها مواد مؤذية جداً، مواد تجعل الإنسان عقيماً فيصبح بلا نسل، مواد تثير الجنس، أو مواد قد انتهى مفعولها، فالإنسان عليه أن يكون دقيقاً فيما يدخل إلى جوفه، المؤمن دقيق جداً فيما يُدخل إلى فمه وفيما يخرج من فمه، كلامي دقيق، فيما يدخل وفيما يخرج، فتظل صناعاتنا المحليَّة ـ ولو كانت أقل اتقاناً ـ ولكنها خالية من الغش، فالأمر معقول جداً قمح، وسكَّر، وزبدة من إنتاج بلدنا، أما شيء لا نعرف كيف وصل لعندنا، وبأي طريقة وصل، وغير خاضع للتحليل هذا شيء مخيف جداً.

على كلٍ هذا الذي يبني مجده على أنقاض الآخرين، هذا الذي يبني غناه على إفقارهم، يبني صحَّته على مرضهم:

(وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48))

تُحَل بعض المشكلات في الدنيا بطريقةٍ أو بأخرى، أما في الآخرة عند قيّوم السماوات والأرض لا يمكن أن تُحَلَّ مشكلة إلا بشكلها الصحيح، هو يوم العدل، يوم الإنصاف، يوم الدينونة، يوم الجزاء، يوم الحساب الدقيق، يوم تنال فيه حقَّك الكامل، فالعبرة أن تكون عند الله مقبولاً، والعبرة أن تكون عند الله مستقيماً، والعبرة أن تكون عند الله محسناً:

(وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا (48))

الله عزَّ وجل كامل كمالاً مطلقاً لا يقرِّب إلا الإنسان الكامل:

((يا فاطمة بنت محمد ـ كلُّكم آباء أو أكثركم آباء، والبنت غالية جداً ـ أنقذي نفسكِ من النار أنا لا أغني عنك من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد والدارمي عن أبي هريرة]

عم سيدنا رسول الله أبو لهب:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2))

(سورة المسد)

توجد نقطة في هذا الموضوع دقيقة جداً، الله عزَّ وجل كامل كمالاً مطلقاً، لا يقرِّب إلا الإنسان الكامل، بخلاف الأقوياء، الأقوياء يقرِّبون من يعلن ولاءه لهم فقط، وقد يكون أسوأ إنسان، قد يكون مسيئاً للمجتمع، يقربونه ما دام أعلن ولاءه، أما الله عزَّ وجل لا يقرِّب مخلوقاً إلا إذا كان كاملاً:

" يا رسول الله مثِّل بهم كما مثَّلوا بعمِّك حمزة "، قال عليه الصلاة والسلام: "لا أمثِّل بهم فيمثِّل الله بي ولو كنت نبيَّاً ".

عظمة الدين أنه لا يمكن أن يقرِّبك الله، ولا أن يتجلَّى على قلبك، ولا أن ينظر لك بالعطف والرحمة إن لم تكن محسناً، لذلك عندما فتح الفرنجة القدس ذبحوا سبعين ألف إنسان مسلم في ليلة واحدة، أما عندما فتحها صلاح الدين رحمه الله تعالى فما سفك دماً حراماً أبداً، أمَّنهم وسمح لهم أن يبيعوا متاعهم وأن يقبضوا ثمنه، وأن يخرجوا بما تحمله دوابُّهم من متاع، ولم يؤذهم، وحتى الآن يأتي الفرنجة إلى دمشق، ويقفون أمام قبره محترمين، فقد كان إنساناً عظيماً، كان بإمكانه أن يكيل لهم الصاع بعشرة، سبعون ألف إنسان تمَّ ذبحهم في ليلة واحدة، حسبما تروي كتب التاريخ حينما فتح الفرنجة القدس، أما عندما فتحها صلاح الدين فقد كان رحيماً.

أدلة من القرآن والسنّة أن الإنسان يوم القيامة يُحاسَب عن كل شيء:

تعرفون القصَّة الشهيرة أن أماً ضاع ابنها، فوقف سيدنا صلاح الدين وقال: **" لا أجلس حتى يعود ابنها إليها "**، وهي من أهل الكتاب، المسلم رحيم، المسلم يرجو رحمة الله عز وجل، المسلم مُقيَّد بألف قيد :

((الإِيمَانُ قَيَّدَ الْفَتْكَ لا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

[سنن أبي داود عن أبي هريرة]

المؤمن مقيَّد، الإنسان بنيان الله وملعونٌ من هدم بنيان الله، هذا الذي يخوِّف الإنسان ويبتز ماله يصيبه بمرض، هل تصدِّقون أن مساعدات غذائيَّة جاءت من أمريكا إلى الصومال، ونصف الباخرة نفايات ذريَّة ألقيت في سواحل الصومال، هل تصدِّقون ذلك ؟ طريقة من طرق التخلُّص من النفايات الذريَّة، نرسل باخرة مساعدات غذائيَّة نصفها غذاء، ونصفها نفايات ذريَّة ذات إشعاع تُلْقَى في سواحل الدول المتخلِّفة، فلذلك يوم القيامة يُحاسب الإنسان عن كل شيء:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

وقال:

(وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48))

لا تُحل مشكلة هناك:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

ورد في الحديث الصحيح أن النبي يقول يوم القيامة:

((أَلا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ مِنْكُمْ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ أُنَادِيهِمْ أَلا هَلُمَّ فَيُقَالُ إِنَّهُمْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ سُحْقًا سُحقًا))

[أحمد عن أبي هريرة]

صلاتك يجب أن تتوج استقامتك وأخلاقك العالية:

يا أخواننا الكرام، صدِّقوني والله إني لكم ناصحٌ أمين، وأنا أنصح نفسي قبلكم، الدين ليس أن تصلي فقط، الصلاة أقل ما في الدين، الصيام أقل ما في الدين، الدين أن تكون صادقاً، أن تكون أميناً، أن تكون عفيفاً، أن تكون ورعاً، أن تؤدِّي الحقوق، أن تعطي كل ذي حقٍ حقَّه، الدين أن تبيع بيعاً شرعياً، الدين أن لا تبيع بضاعة فاسدة، هل يمكن لإنسان أن يحك تاريخ انتهاء مفعول دواء ليبيعه لمريض ؟! والله أنا كل حياتي كنت أظن أن الدواء المنتهي مفعوله لا ينفع، ثم ثبت لي بشيء مخيف

أنه يؤذي، لأن هذه المواد الكيماوية إذا فكّكت قد تصبح مواد سامَّة، لو كان لا ينفع خسر ثمن الدواء فقط ولم يشف، أما حينما يؤذي !عندما يبيح الإنسان لنفسه أن يغيِّر تاريخ انتهاء مفعول دواء، أو يبيح لنفسه أن يبتز مال إنساناً، يوهم إنساناً، يخدع إنساناً، يغش إنساناً، هذا ولو صلّى:

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ (142))

(سورة النساء: من آية " 142 ")

يخادعون الله بالصلاة، اعتبر أن صلاتك يجب أن تتوج استقامتك، أن تتوِّج أخلاقك العالية، أن تتوِّج صدقك وأمانتك، إحسانك للخلق، لو فهم المسلمون الدين فهماً عميقاً والله لكنَّا في حال غير هذا الحال:

((خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُ مِئَةٍ وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلافٍ وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[أبي داود عن ابن عبَّاس]

الصلاة وحدها لا تكفي بل يجب أن تكون رادعاً لك عن الفحشاء والمنكر:

انتبهوا أيُّها الأخوة، ليست القضية أن تصلي فقط، أكثر الناس يقول لك: فلان صاحب دين، فما الدليل ؟ إنه يصلي، لا، لا تكفي، طبعاً :

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45))

(سورة العنكبوت: من آية " 45 ")

وقال:

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49))

كان البلاء كبيراً جداً والله عزَّ وجل نجَّاهم من فرعون ودمَّر ما كان يصنع فرعون وجنوده، وكتب لهم السلامة والحياة بعد أن ساهم فرعون في إضلالهم، وتذبيح أبنائهم، واستحياء نسائهم.

ماذا نستفيد من الآيات التالية ؟

قال تعالى:

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52))

ماذا نستفيد من هذه الآيات ؟ ليفتح الواحد منا دفتراً ويسجِّل، قال:

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

(سورة إبراهيم: من آية " 5 ")

يوم نجَّاك الله عزَّ وجل من مرض عويص، يوم نجاك من حادث، يوم أنجحك في الجامعة، يوم سمح لك أن تسكن في بيت لوحدك، يوم زوَّجك، يوم أعطاك حرفة جيدة، هذه كلها من نعم الله العُظمى، علّمنا الله من خلال هذه الآيات: واذكروا:

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ (49))

وقال:

(وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ (50))

وقال:

(وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى (51))

وقال:

(ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ (52))

الإنسان من حينٍ لآخر يجب أن يذكر نعم الله المتتالية عليه، هذه النعم تجعله يحبُّ الله عزَّ وجل:

((أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي.))

[الترمذي والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما]

علو الإنسان في الأرض لا يعني أن الله راضٍ عنه:

أيها الأخوة، كما قلت قبل قليل لا زلنا في موضوع بني إسرائيل والأمراض التي أهلكتهم، وعلو الإنسان في الأرض لا يعني أن الله راضٍ عنه، نقطة مهمَّة، طبعاً:

(وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (6))

(سورة الإسراء)

أصواتهم مرتفعة، والإعلام بيدهم، هذا معنى:

(أَكْثَرَ نَفِيرًا)

ومع ذلك علوِّك في الأرض لا يعني أن الله يحبُّك إطلاقاً، الله أعطى الملك لفرعون وهو لا يحبُّه، قال فرعون:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24))

(سورة النازعات)

قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (38))

(سورة القصص: من آية " 38 ")

أعطى المال لقارون، وهو لا يحبه، فالإنسان لا يفرح أو لا يعظِّم أصحاب الأموال وأصحاب القوَّة والسلطان، لأن هذا لا يعني أن الله يحبُّهم، فذلك قد يعني العكس، أعطى الله المُلك لمن يحب وأعطاه لمن لا يحب، أعطاه لسيدنا سليمان أيضاً، وأعطى المال لسيدنا ابن عوف وسيدنا عثمان، فلا المُلك مقياس ولا المال مقياس المقياس طاعة الرحمن، فإذا كنت في طاعة الله فأنت أسعد الناس، وانتظر من الله كل خير، وتفاءل، وكن مع الله عزَّ وجل بالشكر لهذه النِعَم الجزيلة، وإن شاء الله في درسٍ قادم نتابع هذه الآيات .

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (25- 95):تفسير الآيات 48-54، ساعة الموت هي ساعة الفصل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-01-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا انحرف المؤمن عن منهج الله تقتضي رحمة الله أن يسوق له بعض الشدائد كي يعيده إليه :

مع الآية الواحدة والخمسين وهي قوله تعالى :

(وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51))

وقبل هذه الآية :

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50))

أيها الأخوة، بشكلٍ مختصرٍ مُرَكَّز خلق الله الإنسان ليسعده في الدنيا والآخرة، فإذا انحرف عن منهج الله تقتضي رحمة الله أن يسوق له بعض الشدائد كي يعيده إليه، هذا كل ما في الأمر:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21))

(سورة السجدة)

وقال:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (30))

(سورة الشورى)

من أشد أنواع القهر أن تُساق المصيبة على يد إنسانٍ مثلك يقهرك:

لذلك العِلاجات التي يسوقها الله عزَّ وجل لعباده مُنَوَّعةٌ وكثيرةٌ، وعلى درجات، وعلى مستويات، لعلَّ من أشدِّها أن يبتليهم الله عزَّ وجل بظالمٍ يُذَبِّحُ أبناءهم ويستحي نساءهم يؤكِّد هذا المعنى قوله تعالى:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ (65))

(سورة الأنعام: من آية " 65 ")

الصواعق، والصواريخ:

(أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)

(سورة الأنعام: من آية " 65 ")

الزلازل، والألغام:

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 65 ")

لعلَّ من أشدِّ المصائب أن يَقْهَرَ إنسانٌ إنساناً، إذا أتت المصيبة من الله مباشرةً فهي تُقبَل بشكلٍ أو بآخر، أما أن تُساق المصيبة على يد إنسانٍ مثلك يقهرك، فذاك أشد أنواع القهر، ولذلك استعاذ النبي عليه الصلاة والسلام بالله من:

((أعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال.))

[أبو داود عن أبي سعيد]

وقد ورد عن سيدنا علي: **" واللهِ والله مرَّتين لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز في يومٍ عاصفٍ بريشتين، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتَّى يصيرا أبيضين، أهون عليَّ من طلب حاجةٍ من لئيمٍ لوفاء دين "، قيل: " ما الذل ؟ "، قال: " أن يقف الكريم بباب اللئيم ثمَّ يردُّه ".**

تيمورلنك سُئل مرَّة: **" من أنت ؟ " فأجاب إجابة رائعة قال: " أنا غضب الرَّب".**

الأقوياء في الأرض عصيٌّ بيدِ الله ينتقم بهم ثم ينتقم منهم :

حينما يغضب الإنسان يصيح، ويشتم، ويضرب، وينفعل، ويرتجف، ولكن ماذا يفعل الله جلَّ جلاله حينما يغضب ؟ يسوق تيمورلنك، يسوق فرعون:

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50))

((أنا مالك الملوك، وملك الملوك، قلوب الملوك بيدي، وإن العباد إذا أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد إذا عصوني حولت قلوبهم عليهم بالسخط والنقمة فساموهم سوء العذاب، فلا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على الملوك، ولكن اشغلوا أنفسكم بالذكر والتضرع أكفكم ملوككم)).

[أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء]

الأقوياء في الأرض عصيٌّ بيدِ الله ينتقم بهم ثم ينتقم منهم:

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (129))

(سورة الأنعام)

الظالم قهراً يُسلَّطُ على ظالم نفسه كي يقومه.

من أشدِ أنواع البلاء أن يُؤَمَّر المترفون ويُمَكَّن الطغاة والظالمون:

قال تعالى:

(إنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6))

(سورة القصص)

إذا عصاني من يعرفني سلَّطت عليه من لا يعرفني:

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا (16))

(سورة الإسراء: من آية " 16 ")

وفي قراءة:

(مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا (16))

لعلَّ من أشدِ أنواع البلاء أن يُؤَمَّر المترفون، أن يُمَكَّن الطغاة والظالمون، هذا علاجٌ إلهي وهو من أقسى أنواع العلاج، الطبيب مثلاً يعطي المريض دواء عيار خمسة عشر، فيقول له: والله لم أستفد، يقول له: ارفع العيار، في خمسمئة، في ألف، في نصف مليون، في مليون، هذا العذاب الصُعُد، يعطى المستوى الأعلى والعيار الأشد إذا لم يؤثر المستوى الأقل.

استحق اليهود غضب الله وعقابه لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه :

أيُّها الأخوة الكرام، يقول الله عزَّ وجل وهو يخاطب بنو إسرائيل وقلت لكم كثيراً في مطلع هذه السورة: نحن مُرَشَّحون أن نقع بالأمراض التي وقع بها بنو إسرائيل، وقد يقال: وقعنا بها، استحق اليهود غضب الله وعقابه لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه، ما قولكم ؟ لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه، قال عليه الصلاة والسلام:

((كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن المنكر ؟ قالوا : يا رسول الله، وإنَّ ذلك لكائن ؟ قال : نعم، وأشدُ، كيف بكم إذا أمرتُم بالمنكر، ونهيْتم عن المعروف ؟ قالوا: يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن ؟ قال: نعم، وأشدُّ، كيف بكم إذا رأيتُمُ المعروفَ منكراً والمنكرَ معروفاً)).

[أخرجه زيادات رزين عن علي بن أبي طالب]

هذا مَرَضٌ خطير يوجب الهلاك، وقد يقع به بعض المسلمين، يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف . والله الذي لا إله إلا هو من خلال هذه الدعوة المتواضعة لعشرين أو ثلاثين عام تقريباً، والله سمعت آلاف القصص، يأمر بنته أن تُسْفِر وأن تختلط، ينهاها عن أن تصلي، في بيوتات المسلمين

يرفض أن يحجِّب زوجة ابنه، لا بد من أن يسير الابن على سير أبيه في التفلُّت، وفي الاختلاط، وفي كسب المال الحرام.

من أمراض اليهود الذين استحقوا عليها الهلاك أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد.

امرأةٌ سرقت فجاء حِبُّ رسول الله يشفع لها عند رسول الله، فغضب النبي أشدَّ الغضب وقال: " يا أسامة أتشفع في حدٍّ من حدود الله ؟ " قال: " اغفر لي ذلك يا رسول الله"، فقال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وأيم اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا)).

[مسلم عن عائشة]

إذاً هذه الأمراض التي ذكرها الله في سورة البقرة والتي تلبَّس بها بنو إسرائيل، هذه الأمراض من المحتمل جداً أن نقع بها، وقد وقعنا بها، لذلك يبيِّن الله لنا أمراض من سبقونا في أسلوبٌ تربويٌ رائع، وأنتم أيها المؤمنون يمكن أن تقعوا في هذه الأمراض.

الناس رجلان قويٌّ ونبي فالقوي يملك الرقاب بقوَّته والنبي يملك القلوب بكماله:

قال تعالى:

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ (49))

آل فرعون أي من كان على منهج فرعون، من كان على شاكلة فرعون، ليس معنى آل فرعون أقرباءه، فآل النبي من سار على منهجه، فهل يُعَدُّ أبو لهب من آل النبي ؟ لا، هل يعدُّ أبو جهل من آل النبي ؟ لا، ولكن يُعَدُّ سلمان الفارسي من آل بيت النبي، ويعدُّ صُهَيْبُ الرومي من آل بيت النبي، ويعد بلال الحبشي من آل بيت النبي، كل من آمن بالنبي وسار على نهجه واتبع سنَّته القوليَّة والعمليَّة فهو من آله، وكل من شاكل إنساناً وسار على نهجه فهو من آله .

كما قلت لكم من قبل: الناس رجلان قويٌّ ونبي، فالقوي يملك الرقاب بقوَّته، والنبي يملك القلوب بكماله، وكل الناس تبعٌ إما لقوي أو لنبي، فالموظَّف مثلاً مهما تكن وظيفته متواضعة بإمكانه أن يفعل شيئاً يُزْعِجُكَ، إذاً هو استخدم قوَّته، فحينما تملك الرقاب بقوَّتك فأنت من أتباع القوي، وحينما تملك القلوب بكمالك فأنت من أتباع النبي.

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ (49))

لذلك:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8))

(سورة القصص)

أنت لن تنجو من عذاب الله إذا فعلت أمراً لا يُرضي الله وقلت: أنا عبد مأمور، من قال لك ذلك ؟ من قال لك إنك عبدٌ مأمور ؟ العبد هو عبد الله فقط، ولا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، أن تقول: أنا عبد مأمور وتفعل في الناس ما تفعل هذا كلامٌ مردودٌ عليك، وله بحثٌ طويل في الفقه، لا مجال إلى تفصيلات جُزئياته في هذا الدرس، على كلٍ إن لم تكن قانعاً بهذا الذي تفعله اترك هذا العمل.

البطل هو الذي يهيِّئ جواباً لله عزَّ وجل لا لعبد الله:

قد يقول موظَّف: أنا أعمل بالتموين ويجب عليَّ أن أكتب في اليوم عشرة مخالفات، لعلَّ هذا الإنسان مظلوم، لا يوجد عبد مأمور، افعل قناعتك وانتظر أن يحاسبك الله عزَّ وجل، البطل الذي يهيِّئ جواباً لله عزَّ وجل لا لعبد الله، بل لله:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9))

(سورة التكوير)

يقول: أنا عبد مأمور، لا لست بعبد مأمور، وهذه كذبة تكذبها أنت، الذين هم فوقك لا يرضيهم أن تفعل ما تفعل، لكن أنت تفعل ما تفعل لتبتز أموال الناس وتقول: أنا عبد مأمور، كلام فارغ أنت وحدك المسؤول، إذا لم يعجبك العمل فدعه، أما أن تؤذي الناس وتقول: أنا عبد مأمور، لأن الله عزَّ وجل يقول:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8))

(سورة القصص)

وقال:

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ (49))

هناك إذلال، فليس هناك حالة ذل أشد من أن يُنْتَهَكَ عرض الإنسان أمامه، شيء فوق طاقة البشر.

إيَّاك أن تصل مع الله إلى طريق مسدود فيأتي العقاب الأليم :

قال تعالى:

(يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ (49))

ما قال الله تعالى: ويستحيون فتياتكم، بل إنه قال: نساءكم، من أجل المُتْعَة:

(وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49))

لذلك الدعاء القرآني :

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ (286))

(سورة البقرة: من آية " 286 ")

والله أيُّها الأخوة هناك مصائب لا يحتملها الإنسان، فوق طاقته، لا تعمل عملاً تصل مع الله إلى طريقٍ مسدود، تصوَّر إنساناً وُضع ليُشْنَقَ أمام مئة ألف إنسان، مجرم ارتكب جريمة قتل، أو ارتكب جريمة زنا وجريمة قتل فاستحقَّ أن يُعْدَم أمام الناس جميعاً، هو وصل لطريق مسدود قبل أن يُوضَع الحبل في رقبته ليُشْنَق، إذا أحب أن يصبر فليصبر أو لا يصبر، إذا أحب أن يتوسَّل فليتوسَّل، أحب أن يستعطف فليستعطف، أحب أن يبكي فليبكِ، أحب أن يضحك فليضحك، ولكن الطريق صار مسدوداً، إيَّاك أن تصل مع الله إلى طريق مسدود بأن ترتكب جرماً، أن تنتهك عرضاً، أن تأخذ مالاً حراماً فيأتي العقاب الأليم:

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ (286))

(سورة البقرة: من آية " 286 ")

العقاب أنواع ؛ هناك أمراض مستعصية، أنا أقسم لكم لو أن إنساناً وصل إلى أعلى درجة في الدنيا وأصابه مرضٌ عضال، وعُرِضَ عليه أن يكون في أقل درجة وأن يعافى من هذا المرض، هل يتردَّد لحظة في قبول ذلك ؟ لو كان ملكاً وأصابه مرض عُضال وعرض عليه أن يكون موظَّفاً بسيطاً ضارب آلة كاتبة، هل يتردَّد في قبول هذه الوظيفة المتواضعة جداً على أن يشفى من مرضه ؟ إنه لا يتردَّد، فالذي عافاه الله في نعمةٍ كبرى، المعافى هو في نعمةٍ لا تقدَّر بثمن، قد يصل الإنسان إلى أعلى مرتبة في الحياة ومعه مرض عضال، ماذا يفعل ؟ أطبَّاء العالم كلّهم تحت تصرُّفه وماذا يفعل ؟ هذا قهر الله عزَّ وجل.

الإنسان حينما يعرف الله في الوقت المناسب ويستقيم على أمره ويخافه يحفظه وينصره:

أيُّها الأخوة الكرام:

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ (286))

(سورة البقرة: من آية " 286 ")

هناك أشياء لا تُحتمل، والإنسان حينما يعرف الله في الوقت المناسب، ويستقيم على أمره، وحينما يخافه يرفع الله له ذكره، ويحفظه، وينصره، ويوفِّقه، ويقرِّبه، ويسلِّمه، ويسعده، ويعطيه عطاءً كبيراً:

(وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49))

هل تحتمل مرضاً عُضالاً ؟ هل تحتمل فقراً مُدقعاً يحملك على أن تُنَقِّب في الحاوية ؟ هل تحتمل أن تتخلَّى عنك زوجتك وأولادك وأن يلقوك في الطريق ؟ هل تحتمل ذلك ؟ هل تحتمل أن تكون في غيابة السجن سنوات وسنوات ؟ قل:

(رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا (286))

(سورة البقرة: من آية " 286")

إذا كنت لا تحتمل فاستقم على أمر الله، المستقيم له معاملة خاصَّة، والمستقيم له حفظ من الله، والمستقيم له توفيق من الله، والمستقيم له هداية من الله عزَّ وجل، والله جلَّ جلاله يَسْلُكُ به سبل السلام، سبل الأمان، سبل السعادة، سبل الرِفْعَة، سبل التوفيق.

إذا وجد الإيمان فإن المعركة بين الحق والباطل لا تطول لأن الله مع الحق:

شاهد بنو إسرائيل بأعينهم كيف أن البحر انشقَّ طريقاً يبساً:

(وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50))

مُعجزات مُدهشة، صار البحر طريقاً:

(وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50))

الله يتدخل أحياناً، وإذا تدخَّل الله تنتهي كل مشاكلنا، ولكن أنت اطلب منه موجبات رحمته، إذا فعلت موجبات رحمته أوجب ذلك أن يتدخَّل الله لصالحك، وتوجد بعض الشواهد في حياتنا، شيء لا يُحتمل صرفه الله عزَّ وجل من عنده، أنا كنت دعوت في خطبة قبل أسابيع: **" اللهمَّ انصرنا على أنفسنا حتى ننتصر لك فنستحقَّ أن تنصرنا على عدوِّنا ".**

لأن المعركة بين حقَّين لا تكون، الحق لا يتعدَّد، وبين حقٍ وباطل لا تكون لأن الله مع الحق، وبين باطلين لا تنتهي لأن الله تخلَّى عن الطرفين، الأقوى هو الذي ينتصر، الأذكى ينتصر، ينتصر الذي عنده سلاح أكثر فاعليَّة، ينتصر الذي عنده معلومات أكثر، ينتصر الذي عنده أقمار، ينتصر الذي عنده رصد، ينتصر الذي عنده ليزر، اختلف الوضع، إذا ابتعد الفريقان عن الله عزَّ وجل يكون هناك ترتيب آخر، يكون الفوز نصيب الأقوى والأذكى والذي عنده سلاح أكثر جدوى، أما إذا وجد الإيمان فإن المعركة بين حقٍ وباطل لا تطول لأن الله مع الحق.

أغرق الله فرعون ولكنه نَجَّاه ببدنه إلى الشَاطئ لكي يجعله عبرة:

قال تعالى:

(وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50)).

أغرق الله فرعون، ولكنه نَجَّاه ببدنه إلى الشَاطئ، لأنه إذا أغرقه واستقرَّ في أعماق البحر لما صدَّق أحدٌ أنه غرق، لأنه عندهم الإله، قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)).

(سورة النازعات)

وقال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (38)).

(سورة القصص: من آية " 38 ")

ولكنَّ الله أراد أن يجعله عبرةً:

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ (92)).

(سورة يونس: من آية " 92 ")

ما قال الله: لتكون آية أي لمن حولك، لكنه قال:

(لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً (92)).

(سورة يونس: من آية " 92 ")

المُعجزات الحِسِّيَّة وحدها لا تكفي ما لم يبحث الإنسان عن الحقيقة:

هناك شخص يقرا القرآن في أمريكا، وهو حديث عهدٍ بالإسلام، يقرأ القرآن متفحِّصاً، فلمَّا وصل لهذه الآية قال: هنا خطأ، كيف يقول الله عزَّ وجل:

(لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

فاتصل بعالم من علماء المسلمين في فرنسا، فأجابه أن: فرعون موسى موجود في متحف مصر، نفسه موجود، فرعون الذي غرق في عهد موسى مُحَنَّط، وقد أُخِذَ إلى فرنسا لترميم جثَّته، وعاد، وفي فمه آثار فطور بحريَّة، وفي فمه آثار ملوحة، وكل علامات الغَرَقَ بادية على جسمه، وهذا معنى الآية الكريمة:

(لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً (92)).

(سورة يونس: من آية " 92 ")

وقال:

(وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً (51)).

وعد الله عزَّ وجل موسى مع النقباءِ وعلية القوم ليعطيهم المَنْهَج، ماذا فعل قومه في غيبته ؟ اتخذوا من الذهب الذي أخذوه من بيوت فرعون عِجْلاً جسداً، وعبدوه من دون الله، ماذا نستنتج ؟ هذا الذي رأى أن البحر أصبح طريقاً يبساً كيف يعبُدُ عجلاً من دون الله ؟ نستنبط من هذا أن المُعجزات الحِسِّيَّة وحدها لا تكفي ما لم يبحث الإنسان عن الحقيقة، الكون بما هو عليه من دون خَرْقٍ للعادات يُعَدُّ معجزةً وأيَّة معجزة، أما هذا الذي يطلب خرقاً العادات، هذا الذي يطلب كرامة !!! هناك طُلاب عِلْم كثيرون يبحثون عن كرامة، عن منام، عن شيء فيه خرق للعادات !! هذا النظام المستقر، الشمس والقمر، والليل والنهار، المجرَّات، الجبال، السهول، البحار، النباتات، الأطيار، الأسماك، أنواع الخضراوات، المحاصيل، نظام النبات، هذا كلُّه لم يلفت نظرك، خَلَق الإنسان ! تبحث عن معجزة ! تبحث عن خرقٍ للعادات !!

أشد أنواع الظلم أن تشرك بالله:

هؤلاء الذين رأوا البحر أصبح طريقاً يبساً، حينما نجَّاهم الله عزَّ وجل اتخذوا من الذهب عجلاً له خوارٌ وعبدوه من دون الله:

(ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51)).

إن أشدُّ أنواع الظُلْمِ أن تعبد غير الله، أشد أنواع الظلم أن تشرك بالله، أشد أنواع الظلم أن تعبد إلهاً صنعته بيدك، وهذا ما تجده في كثير من البلاد إلى الآن، تدخل إلى معبد في الهند تجد صنماً ارتفاعه ثلاثون متراً وأمامه أنواع منوَّعة من الفواكه، تسأل: لمن هذه الفواكه ؟ يجيبونك: هو يأكلها في الليل، والحقيقة أن الكُهَّان يأكلونها في الليل، هذا تراه الآن في عصر النور والحضارة كما يدَّعون.

حينما يؤمن الإنسان بالله يكون قد احترم نفسه، الإنسان حينما يكون عاقلاً يوحِّد، يكون قد عرف قيمته كإنسان، يكون قد كرَّم نفسه، أما حينما يتخذ صنماً ليعبده طبعاً هذا هو الشرك الجَلِيّ، لكنَّ المسلمين والمؤمنين قد يقعون في شركٍ خفي، حينما يتوهَّمون أن المال يحلّ كل مشكلة، لا، المال لا يحل المشكلات، فإذا اختل نمو الخلايا اختلت في النمو، المال لا يحل المشكلات، وأن تكون في أعلى درجة في الحياة لا تحل مشكلة، الله عزَّ وجل هو الفعَّال، هو القهَّار، هو واهب الحياة، هو المُحيي، هو المُميت، هو الحافظ، هو الناصر، هو الموفِّق، هو الرافع، هو الخافض، هو المعطي، هو المانع، هو الرازق، هو المعز، هو المذل.

إن الشرك لظلمٌ عظيم، وحينما تتجه لغير الله أو تعتمد على غير الله فقد وقعت في ظلمٍ شديد.

من الشرك أن تعتمد على شيءٍ آخر غير الله عزَّ وجل :

قال تعالى:

(ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51)).

تصوَّر إنساناً لديه قضيَّة خطيرة جداً، مثلاً لو أخذ الموافقة فهو يربح مئات الملايين، وهذه الدائرة فيها مدير عام الأمر مُناط به وحده، وفيها موظَّفون، وفيها حُجَّاب، وفيها حارس، فإذا وقف هذا الإنسان الذي معه المعاملة أمام الحارس أو الحاجب فترجَّاه، وتضعضع أمامه، وبذل ماء وجهه، وعلَّق عليه الآمال، ثم خاب ظنُّه به، هذا الشرك، هذا الذي تضعضعت أمامه عبدُ مثلك، هذا الذي بذلت ماء وجهك أمامه عبدٌ مثلك، هذا الذي توهَّمت أنه يحلُّ هذه المشكلة لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ضراً ولا يجلب نفعاً، فإذا كان الله يأمر سيد الخلق أن يقول لقومه:

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَدَاً (21))

(سورة الجن)

سيد الخلق، وفي آية أخرى :

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً (188))

(سورة الأعراف: من آية " 188 ")

((يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسكِ من النار أنا لا أغني عنك من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه)).

[أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد والدارمي عن أبي هريرة]

إذاً أشدِّ أنواع الظلم أن تعبد إلهاً آخر غير الله عزَّ وجل، أو أن تعتمد على شيءٍ آخر غير الله عزَّ وجل، ثمَّ يقول الله عزَّ وجل :

(ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52))

أهمية التوبة:

أيها الأخوة الكرام، صعبٌ جداً أن تتصوَّروا ديناً من دون توبة، لأن أقل ذنب من دون توبة يقودك إلى أكبر ذنب ثم إلى النار، أما مع التوبة فأكبر ذنب يعفو الله عنك:

((لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

[حديث قدسي]

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53)).

(سورة الزمر)

وقال:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49)).

(سورة الحجر)

هكذا:

(ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ (52)).

ماذا فعل هؤلاء ؟ فعلوا أشدَّ أنواع الذنوب، أشركوا بالله، عبدوا عجلاً من دون الله، صنعوه بأيديهم وعبدوه من دون الله ومع ذلك باب التوبة مفتوحٌ على مِصراعيه، تصوَّر لو لم يكن هناك توبة ليئس الإنسان من أقل ذنب، لو ارتكب الإنسان ذنباً بسيطاً ولا توجد توبة لسمح لنفسه أن يرتكب ذنباً أكبر، وهكذا إلى أن يفعل كل الذنوب والآثام، وينتهي إلى النار، لكنَّ رحمة الله كبيرة.

الله تعالى رَحِمَ أمَّة محمدٍّ فجعل توبة المؤمنين لا تقتضي أن يقتل بعضهم بعضاً إذا أذنبوا:

قال تعالى:

(وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53)).

ثمة توبة، وعفو، وكتاب، وسُنَّة، وعلماء، ودعاة، ومعالجة نفسيَّة، ومعالجة سلوكيَّة، وكل شيء من أجل أن تعرف الله، ومن أجل أن تتصل به، ومن أجل أن تطيعه:

(وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54)).

أيها الأخوة، هذا مما حُمله بنو إسرائيل لأنهم عبدوا العجل من دون الله، وهذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ (286)).

(سورة البقرة: من آية " 286 ")

أي أن الله أمر الذين لم يعبدوا العجل أن يقتلوا من عبد العجل جزاء ارتكابهم أكبر ذنب في الدين، وهو أن تُشرك، لكن الله عزَّ وجل رَحِمَ أمَّة محمدٍّ صلى الله عليه وسلَّم فجعل توبة المؤمنين لا تقتضي هذا القتل، يكفي أن تقول: يا رب لقد تبت إليك، يقول لك: عبدي وأنا قد قبلت، هذه رحمة كبيرة، ولكن بني إسرائيل كُلِّفوا أن يقتلوا أنفسهم، أن يقتل بعضهم بعضاً، أن يقتل الذين لم يعبدوا العجل الذين عبدوا العجل.

إيَّاك أن تعتمد على جهةٍ غير الله فيخيبُ ظنُّك بها وهذا من رحمة الله بالإنسان:

قال تعالى:

(وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ (54))

ما الذي يحصل الآن ؟ إذا أشرك الإنسان ماذا يحصل له ؟ الله عزَّ وجل يخيِّب ظنَّه بهذا الذي عَبَدَهُ من دون الله، اعتمد على ماله، يسوق الله له مصيبةً لا يحلُّها المال، اعتمد على إنسان قريب قوي يلهم الله هذا القريب أن يتخلَّى عنه، يقف منه موقفاً لئيماً، هذه معالجة الله، اعتمد على زوجته وظنَّ أنها تسعده إلى أبد الآبدين، فإذا هي تعاملها أسوأ معاملة، اعتمد على ابنه، يسافر ولا يرسل رسالة إلا مرَّة كل سنتين، وقد يتجنَّس ويتزوَّج وينسى أباه، إيَّاك أن تعتمد على جهةٍ غير الله فيخيبُ ظنُّك بها وهذا من رحمة الله بالإنسان، اعتمد على الله، لا على مال، ولا على جاه، ولا على أتباع، ولا

على أهل، ولا على زوجة، طبِّق منهج الله واعتمد على الله ولا تعتمد على مخلوقٍ سوى الله فهذا نوعٌ من أنواع الشرك.

كل إنسان خاف الله فيما بينه وبين الله أمَّنه الله فيما بينه وبين الناس :

قال تعالى:

(فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ((54)

يقودنا هذا المعنى إلى معنى آخر وهو أن الله جلَّ جلاله يسوق لك أحياناً شدَّةً شديدةً من أجل أن ترمِّم خللاً خطيراً.

أيُّها الأخوة، من نِعَم الله الكبرى أن شرعنا الإسلامي لا يقتضي من أجل أن تتوب إلى الله أن تقتُل نفسك ولا أن تُقتَل، وهذه رحمة بأمة محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، ولكن المؤمن العاقل يبتعد عن ذنبٍ خطير، ففي الحياة الآن أمراض غير القتل، فيها أمراض عُضالة، وفيها عاهات، وحوادث سير، فيها فقر مدقع، وفيها تشتيت أسرة، هناك أحياناً ذُل، وأحياناً قهر، أو فقد حُرِّية، فعند الله معالجات منوَّعة كثيرة جداً، فالمؤمن العاقل هو الذي يحتاط للأمور قبل وقوعها، ويخاف من الله فيما بينه وبين الله، وكل إنسان خاف الله فيما بينه وبين الله أمَّنه الله فيما بينه وبين الناس، هذه قاعدة ؛ مستحيل ثم مستحيل ثم مستحيل أن تخاف الله فيما بينك وبينه ثم يخيفك من أحد، ولكنه يطمئِنُك.

" أمنان وخوفان، لا يجتمع أمن الدنيا وأمن الآخرة، إن خِفت الله في الدنيا أمَّنك يوم القيامة، وإن أمِنتَ عذاب الله في الدنيا أخافك يوم القيامة ".

هذا كلام دقيق وخطير، كلام مصيري، وليس الأمر على مستوى أن تقول: والله الدرس ممتع، لا، لا، لا فالأمر أخطر من ذلك، الدرس خطير يتعلَّق بالمصير، المصير الأبدي، وساعة الموت هي ساعة الفصل، وهذه تنتظرنا جميعاً ولا أحد ينجو من هذه الساعة، فبقدر معرفته بالله، وبقدر طاعته، وبقدر إخلاصه، وبقدر عمله الصالح ينجيه الله عزَّ وجل من هذه الساعة العصيبة.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (26- 95):تفسير الآيات55-61، نِعم الله على بني إسرائيل ، المصائب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-02-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

لا تحتمل طبيعة الإنسان أن ترى الله عز وجل في الدنيا:

مع الآية الخامسة والخمسين، وهي قوله تعالى:

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55))

قال المفسِّرون: هؤلاء هم السبعون الذين اختارهم موسى معه في المناجاة، حينما رأوا بعض المعجزات طلبوا من موسى عليه السلام أن يروا الله جهرةً، والشيء الثابت هو أن الله سبحانه وتعالى هذه سُنَنَه لا تدركه الأبصار في الدنيا، في الدنيا لا يستطيع الإنسان أن يرى الله جهرةً، ما رآه لا رسولٌ، ولا نبي، ولا صدِّيقٌ، ولا ولي، لأن طاقة الإنسان لا تحتمل رؤية الله عزَّ وجل، عندما قال سيدنا موسى:

(رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً (143))

(سورة الأعراف: " 143 ")

إذا كان تجلّي الله عزَّ وجل للجبل جعله دكّاً فهل يحتمل الإنسان ؟ لا تحتمل طبيعة الإنسان أن ترى الله، لكن في الآخرة:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23))

(سورة القيامة)

((كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا))

[البخاري مسلم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه]

هناك أحاديث كثيرة جداً عن أن الإنسان إذا رأى الله عزَّ وجل يوم القيامة وهو في الجنة يبقى في نشوة الرؤية خمسين ألف عام.

زيادة على الجنَّة يسمح الله تعالى للمؤمنين يوم القيامة أن يروا وجهه الكريم:

رؤية وجه الله الكريم هي المعنيَّة بقوله تعالى :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

(سورة يونس: " 26 ")

زيادة على الجنَّة يسمح الله لهم أن يروا وجهه الكريم، فعند أهل السُنَّة والجماعة لا يُرى الله جل جلاله في الدنيا ؛ ولكن النصوص الثابتة، وعلى رأسها القرآن، ومن بعدها السُّنة تؤكِّد أن المؤمن يرى ربَّه جهاراً وعياناً يوم القيامة كما يرى الإنسان البدر في الدنيا، والجزاء الذي ينتظر المؤمن يفوق حدَّ الخيال:

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17))

(سورة السجدة)

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

قال تعالى:

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55))

يروي بعض المفسِّرين: أنَّهم صعقوا، ولكن الله امتنَّ عليهم أنه أحياهم من جديد بعد أن صعقوا ليتابعوا مسيرتهم مع سيدنا موسى.

الإنسان يرى في الدنيا آثار اسم الجميل في مخلوقاته :

قال تعالى:

(ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56))

لو أردنا أن نتوسَّع قليلاً، الاتصال بالله عزَّ وجل هو قمَّة السعادة في الدنيا، ولكنه اتصال على نحوٍ أراده الله، اتصال إقبال، اتصال توجُّه، اتصال مناجاة، اتصال استغفار، اتصال استعانة، اتصال إنابة، اتصال دعاء، هذا الاتصال المسموح في الدنيا، ولكن يوم القيامة هناك اتصال مباشر، هناك رؤية، فإذا كنت تستمتع أيها الأخ الكريم في الدنيا برؤية جبلٍ أخضر فيه مَسْحَةٌ من جمال الله، أو رؤية جنَّةٍ خضراء، أو رؤية بحرٍ ساكن بزرقةٍ تُحَيِّر الألباب، أو رؤية وجه طفلٍ صبوح فيه من الجاذبيَّة والتألُّق ما لا يوصَف، هذه كلُّها مخلوقاتٌ أخذت من جمال الله مسحات، فكيف لو أتيح للإنسان المؤمن يوم القيامة أن يرى أصل الجمال ؟ أنت ترى في الدنيا آثار اسم الجَميل في مخلوقاته، ألم تر في باقة وردٍ تناسب الألوان، الروائح الشذيَّة، الأزهار تمثِّل جانباً من جمال الله، المناظر الطبيعيَّة الخلاَّبة تمثِّل منظراً من جمال الله عزَّ وجل، الوجوه الصَبوحة تمثِّل مظهراً من جمال الله عزَّ وجل، هذا الجمال الذي أودعه الله في الدنيا لحكمةٍ تربويَّة، لأنه إذا حدَّثنا عن جمال

الآخرة وعن الجنَّات التي تجري من تحتها الأنهار، وعن الحور العين، والأولاد المُخَلَّدين، وعن الطعام الطيِّب، وعن الفواكه التي بين أيديهم، وعن هذا اللقاء الطيِّب بين المؤمنين على سررٍ متقابلين، وعن رؤية وجه الله الكريم، إذا حدَّثنا ربنا عن هذا الجمال، وعن هذا الكمال، وعن هذا النعيم المُقيم في الجنَّة، فلولا هذه المرتكزات الجماليَّة في الدنيا لما فهم الإنسان معنى الجمال، ما فهم الإنسان معنى جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار ، فالجمال في الدنيا جمال ابتلاء، يعطي الله إنساناً جمالاً، وقد يعطيه جمالاً أقل، وقد يعطيه دمامة أحياناً، فالدنيا دار ابتلاء، قد تجد إنساناً في قمّة الصلة بالله وليس له وجهٌ صَبوح، هذا شيء موجود، قد تجد إنساناً في أعلى درجة من الكمال وليس له شكلٌ يلفت النظر.

الجمال في الدنيا موزَّع توزيع ابتلاء :

تروي كتب التاريخ عن أحد التابعين الكبار وهو الأحنف بن قيس أنه كان قصير القامة، أسمر اللون، غائر العَيْنَين، ناتئ الوجنتين، أحنف الرجل، مائل الذقن، ليس شيءٌ من قبح المَنْظَر إلا هو آخذٌ منه بنصيب، وكان مع ذلك سيد قومه، إذا غضبَ غضب لغضبته مئة ألف سيف لا يسألونه فيمَ غضب.

الجمال في الدنيا موزَّع توزيع ابتلاء، قد تجد امرأةً صالحةً مؤمنةً تقيَّةً طاهرةً عفيفةً بوضع جمالي دون الوَسَط، وقد يكون هذه المرأة في الجنَّة في أعلى عليين، هذه نقطة مهمَّة جداً أن الله سبحانه وتعالى وزَّع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء ـ والدنيا مؤقَّتة ـ وسوف توزَّع هذه الحظوظ في الآخرة توزيع جزاء، دقِّق في قوله تعالى:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ (21))

(سورة الإسراء: "21")

إنسان يعمل أستاذ في الجامعة وإنسان يعمل أستاذاً في التعليم الابتدائي في قرية، مسافة كبيرةٌ جداً بين الوظيفتين، إنسان يعمل رئيس أركان الجيش وجندي في خدمةٍ إلزاميَّةٍ في مكانٍ صعبٍ باردٍ موحش، طبيب جرَّاح وممرِّض ناشئ مثلاً، مدير مؤسَّسة وحاجب، ورئيس غرفة تجارة وبائع متجوِّل:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ (21))

(سورة الإسراء: "21")

لكن:

(وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (21))

(سورة الإسراء: "21")

الحظوظ موزَّعة توزيع ابتلاء والعبرة أن تنجح في مادَّة امتحانك مع الله:

قال تعالى:

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55))

(سورة الإسراء)

مرتبة الدنيا لا تعني شيئاً وقد تعني العكس، لأن المترفين في ثماني آيات كُفَّار:

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (33))

(سورة المؤمنون: " 33 ")

الدنيا لها وضع خاص، قد تجد:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ))

[مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

وقال:

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ (55))

(سورة التوبة: " 55 ")

الدنيا دار ابتلاء وليست دار استقرار، ليست دار جزاء، الحظوظ موزَّعة توزيع ابتلاء، هناك غني وفقير، هناك جميل ودميم، وهناك ذكي وأقل ذكاء، هناك صحيح ومريض، هذه الحظوظ موزَّعة توزيع ابتلاء، العبرة أن تنجح في مادَّة امتحانك مع الله، هذه هي العبرة.

مادَّة امتحانك مع الله ما أنت فيه من إيجابيَّات ومن حظوظ مُنِحْتَ إيَّاها أو حُرِمْتَ منها:

الفتاة التي وهبها الله مسحة من الجمال، نجاحها في أن تكون لزوجها فقط، وأن تكون متواضعة لزوجها، وأن تكون ذات تَبَعُّلٍ جيدٍ لزوجها وأولادها، أما إذا مُنَحْت المرأة بعض الجمال وتطلعت إلى عملٍ في الحقل الفني كي يستمتع بجمالها كل الناس، هذه رسبت وتلك نجحت، وقد تكون امرأةٌ ذات جمالٍ متوسِّط، أو أقلَّ من وسط ؛ لكنَّها صائمةٌ مصليَّةٌ، تائبةٌ عابدةٌ، راكعةٌ ساجدةٌ، تحسن تبعُّل زوجها وأولادها، هذه نجحت في امتحان الجمال المتوسِّط، هذا من حيث الجمال .

من حيث المال، الغني له امتحان مع الله والفقير له امتحان، القوي له امتحان والضعيف له امتحان، الصحيح له امتحان والمريض له امتحان، مادَّة امتحانك مع الله وما أنت فيه، مادَّة امتحانك مع الله ما أنت فيه من إيجابيَّات، من حظوظ مُنِحْتَ إيَّاها، وما حُرِمْتَ منه مادَّة امتحانك مع الله:

(إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5))

(سورة الدخان)

حقيقة الحياة الدنيا أن الدنيا دار ابتلاء لا دار استواء ومنزل ترحٍ لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، الرخاء مؤقَّت والشقاء مؤقَّت، كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله

تعالى كلما دخل دار الخلافة يتلو دائماً آية من كتاب الله وكأنها [آية الشِعَار إن صحّ التعبير]، وهي قوله تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (207))

(سورة الشعراء)

الغفلة وطول الأمل من أشدِّ الأمراض خطورةً على المؤمن:

قد تملك، قد تصل إلى أعلى منصب في العالَم وتستمتع به أشدَّ الاستمتاع، الدنيا كلُّها بين يديك، كل مالها، ونسائها، وطعامها، وشرابها، وقصورها، ومُتَعِها بين يديك، ولكن قد تأتي ساعةٌ تخفق جميع العمليَّات ولا بد من لقاء الله عزَّ وجل، فبمَ تلقى الله عزَّ وجل ؟

((يا بشير لا صدقة ولا جهاد فبم تدخل الجنة ؟))

[أحمد عن بشير بن الخصاصية]

هذا الموت الذي قُهِرَ الإنسان به ـ سبحان من قهر عباده بالموت ـ كل مخلوقٍ يموت ؛ صحيح ومريض، قوي وضعيف، ملك ونبي، مُجرم، فقير وغني، كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزَّة والجبروت، و:

الليل مهما طال فلا بدَّ من طلوع الفجر
والعمر مهما طال فلا بدَّ من نزول القبر

***

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلةٍ حدباء محمولُ
فإذا حملت إلى القبور جنازةً فاعلم بأنَّك بعدها محمولُ

***

أيها الأخوة كلام دقيق، الإنسان حينما يُدْهَش، أو حينما يندم يكون قد استعمل عقله استعمالاً غير صحيح، هل الموت مفاجأة ؟ أبداً، الموت مصير كل حي، ما الفرق بين المؤمن وغير المؤمن ؟ المؤمن يستعدُّ له طوال حياته، طوال حياته يستعد له فإذا جاء الموت لا يُفاجأ، ولا يندم على ما فعل، يقول سيدنا علي : " والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي "، وصل إلى أعلى درجة، فأنت حينما تفاجأ بشيء، أو حينما تندم على شيء، معنى ذلك أن العقل لم يستعمل بشكل جيِّد، أهل الدنيا في غفلة، أكبر مرض يصيب الناس الغفلة عن الله، يعيش وقته، إذا مال الناس إلى الشهوات يميل معهم، مال الناس إلى متعٍ رخيصة يميل معهم، وضعوا الصحون يضعها، ألبسوا نساءهم هذه الأزياء يفعل كما يفعلون، هذا الإنسان الذي يعيش لحظته بلا تفكير ويغفل عن هذه الساعة التي لا بد منها ؛ ساعة المصير، هذا إنسانٌ أحمق، إنسان غافل:

(وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (205))

(سورة الأعراف)

الغفلة وطول الأمل من أشدِّ الأمراض خطورةً على المؤمن.

النعمة الأولى التي أنعم الله بها على بني إسرائيل أنه بعثهم من بعد موتهم :

إذاً وصلنا في موضوع الحظوظ إلى أنها موزَّعةٌ في الدنيا توزيع ابتلاء، وسوف توزَّع في الآخرة توزيع جزاء.

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56))

يعد الله عزَّ وجل لبني إسرائيل النِعَمَ التي أنعم بها عليهم ويذكرهم بها، من هذه النِعَم ؛ النعمة الأولى ـ في هذا الدرس طبعاً ـ أنه بعثهم من بعد موتهم، الله تعالى لا يدمِّر من أول خطأ ولا يُهلك من أول خطأ إنه يعفو.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ (53))

(سورة الزمر: " 53")

الإنسان قد لا يغفر، قد يُخطئ الإنسان مع ملك فيقطع رأسه، هذا شأن ملوك الأرض، ولكن شأن ملك الملوك ليس كذلك:

(ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ (52))

(سورة البقرة: " 52 ")

وقال:

(ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ (56))

يُروى أن رجلاً سيق إلى سيدنا عمر متلبّساً بسرقة فقال: **" والله يا أمير المؤمنين إنها أول مرَّةٍ أفعلها في حياتي "** ، قال له: **" كذبت إن الله لا يفضح من أول مرَّة "**، فكانت المرَّة الثامنة، فالله عزَّ وجل يعطي مهلة، هناك خطأ، هناك معصية، هناك تقصير يعطي مهلة إلى أن يُصِر على ذنبه

ربنا عزَّ وجل عفوٌ كريم يعفو ويسامح ولكن حينما يصرّ العبد على خطئه يأتي الردُّ الإلهي:

حدَّثني رجل فقال لي: لي أبٌ باعه طويل في تجارة المواشي والأغنام، والسمن والصوف، فلمَّا أراد أن يتقاعد من عمله باختياره وكَّلني أن أكون مكانه في هذا العمل، وكنت شاباً جاهلاً، ركبت السيارة، وذهبت إلى البادية لأشتري الصوف، ومعي ميزان ضخم، أردت أن أحتال على هذا الإنسان البدوي الساذج، كان كلّما وزن جَرَّة أقول له رقماً فيه كسور، ثلاثة وعشرين كيلو وثمانمئة غرام، طرب هذا البدوي لهذا الوزن الدقيق علماً أنه حذف عشرة كيلو، طرب هذا البدوي لهذا

الوزن الدقيق، لكنه شعر بِحِسِّه العام عندما انتهى الوزن أن هذه الكميَّة ثمنها خمسة وعشرين ألفاً، فوجد أن ثمنها أربعون ألفاً، فقال له باللغة البدوية: " ترى برقبتك إذا لعبت عليَّ "، قال لي: بعدما غادرت هذا المكان شعرت بخوف، بخطأ، هل أرجع لأطلب السماح منه، أمضي، ماذا أفعل ؟ قال لي: بقيت في صراع مع نفسي من مكان شراء الصوف إلى مكان بعد الضمير تقريباً، قال لي: خطر في نفسي، خاطر داخلي، بالتعبير الدارج: " حط بالخرج "، قال لي: ما أتممت هذا الخاطر إلا رأيت نفسي وسط بركةٍ من الدماء، انقلبت السيارة، وتناثرت البضاعة، وسال السمن من أوعيته، وأنا وسط الدماء !! هذا معنى قوله تعالى:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

ما دام الإنسان بين الخوف والرجاء، والاستغفار والتردُّد، فهناك بحبوحة، أما إذا اتخذ قراراً قطعياً يأتي الرد الإلهي .

المعنى الذي نستنبطه من هذا أن ربنا عزَّ وجل عفوٌ كريم، يعفو ويسامح، ويعطي فرصة للاستغفار، ولكن حينما يصرُّ العبد على خطئه يأتي الردُّ الإلهي، هذا معنى قوله تعالى:

(ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56))

إذا قننّ الله لا عن عجز ولا عن تعذيب ولا عن بُخل ولكن عن تأديب فقط:

من النِعَم التي امتنَّ الله بها على بني إسرائيل:

(وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ (57))

شمس الصحراء لا تُحتمل، كانت تسير معهم غيمة أينما ساروا، يقال أحياناً: **"إذا أحبَّ الله قوماً أمطرهم ليلاً وأطلع عليهم الشمس نهاراً "** ، تأتي أحياناً نسمات لطيفة في الصيف تلغي مكيِّفات ثمنها ألف مليون يقول: كم متراً غرفتك ؟ أنت تحسبها، أربعة بثلاثة باثنين ونصف، يقول لك: إذاً تحتاج لاثنين طن ليتم التكييف الجيد، ثمن الطن مئة ألف وهذه الغرفة لا يتم تكيفها بطن واحد، تأتي نسمات لطيفة من عند الله عزَّ وجل تلغي عمل المُكَيِّفات كلها، أحياناً نستورد أعلافاً بألوف الملايين، موسم مطير واحد يغني عن كل هذا الاستيراد، قد نستورد بألوف الملايين قمحاً لنأكله، موسم مطير واحد يُغني عن كل هذا الاستيراد، فالله إذا أعطى أدهش، وهو على كل شيء قدير.

كلام دقيق جداً، إذا قننّ الله لا عن عجز، ولا عن تعذيب، ولا عن بُخل ؛ ولكن عن تأديب فقط، قرأت مرَّة بالأخبار أنه: في ليلة مطيرة واحدة نزل في رأس الخيمة مئتان وخمسة وعشرون ميليمتراً، أي تعادل أمطار دمشق طول العام، يوجد حتى الآن أربعون ميليمتراً من أصل مئة وعشرة في السنة الماضية، الموسم مئتان واثنا عشر، أربعون ميليمتراً، وإذا لم يكرمنا الله عزَّ وجل بأمطار قد تجد الينابيع كلُّها جافَّة ونضطر أن نشتري الماء شراء:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (30))

(سورة الملك)

هو الله عزَّ وجل، هذا أول درس .

من نعم الله أن تجد الهواء تستنشقه والماء العذب الفرات تشربه :

الدرس الثاني:

(وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57))

من نعم الله أن تجد الهواء تستنشقه، أن تجد الهواء غير الملوَّث تستنشقه، وأن تجد الماء العَذْبَ الفُرات تشربه، استوردت دولة مجاورة ماءً من العدو، فباعها ماء المجاري ـ الماء المالح ـ وحدثت تسمُّمات، وامتلأت المستشفيات بالمصابين، وبيعت قارورة الماء الصالح للشرب بمئةٍ وخمسين ليرة، فأنت حينما تفتح الصنبور في البيت، وتشرب كأس ماء صافٍ، هذه نعمة لا تُقدَّر بثمن، لكن الإنسان لا يعبأ بالشيء المتوافر، استعاذ النبي من هذه الحالة، كان عليه الصلاة والسلام يقول: **" يا رب أرني نعمك بكثرتها لا بزوالها ".**

تذكر نعمة الله حينما تفتح صنبور الماء، وتشرب ماءً عذباً فراتاً، سكنت في الحج في بيت في مكَّة المكرَّمة، وفي أثناء دخولي إلى البيت وجدت مستودعاً للمياه في مدخل البناء، لم يعجبني وضع الماء، قيل لي: هذا للاستعمال المنزلي فقط ولكن لا بد أن تشتري ماءً للشرب، ثمن القارورة ثلاثة ريالات، أي حوالي ثلاثين ليرة، يشربها العطشان مرَّة واحدة، إنك تفتح الصنبور، فتشرب أول كأس، وثاني كأس، وثالث كأس، ورابع كأس، يجب أن نعرف نعمة الله علينا، هذا الماء له ثمن باهظ وحينما تتعطَّل محطَّات التَحْلِيَة يُحمَل الماء إلى البيوت حَمْلاً هذه من نعم الله العُظمى، هناك ماء وهواء وطعام ومعك قوت يومك.

نعمة الهدى والصحَّة والكفاية هذه نعمٌ إذا توافرت فقد حيزت لك الدنيا بحذافيرها :

أخواننا الكرام، كلمةٌ من القلب: حينما يمتنُّ الله على الإنسان بالهدى، حينما يعبد الإنسان الله ويعرف أن هناك جنَّة، وأن هناك ناراً، وأن هناك حساباً، وأنه هو المخلوق الأول، حينما يعرف ربَّه، ويعرف نفسه، ويعرف سرَّ وجوده، وغاية وجوده، ويمتِّعه الله بالصحَّة، هو في نعمة لا تقدر بثمن ، فلو أن إنساناً يملك البلاد كلها، وأصابه مرض عُضال تراه يتمنَّى أن يعود مواطناً عادياً بأجر زهيد على أن يعافى من المرض، أليس كذلك ؟ فكل إنسان معافى هذه نعمةٌ لا تقدَّر بثمن، فنعمة الهدى، ونعمة الصحَّة، ونعمة الكفاية، هذه نعمٌ إذا توافرت فقد حيزت لك الدنيا بحذافيرها.

هناك قصَّة قلتها على المنبر اليوم وهي تروى عن سيدنا عمر بن عبد العزيز، وتروى لملكٍ آخر، ملك سأل وزيره: **" من الملك ؟ "، قال له: " أنت "، قال له: " لا، الملك رجلٌ لا نعرفه ولا يعرفنا، له بيتٌ يؤويه، وزوجة ترضيه، ورزقٌ يكفيه، لأنه إن عرفنا جَهدَ في استرضائنا، وإن عرفناه جهدنا في إحراجه "**، فكل إنسان عنده قوت يومه، وله مأوى، وله بيت، وله زوجة، وهو راضٍ عن الله هو ملكٌ من ملوك الدنيا، وأسعد أهل الأرض، والله عزَّ وجل إذا أعطى أدهش، قد يعطيك سكينةً يتمنَّاها الملوك.

هناك كلمة لا أنساها: ملك اسمه إبراهيم بن الأدهم، ترك الملك زُهداً به وصار عارفاً بالله، لأنه كان ملكاً وصار عارفاً بالله أنا أصدِّقه وَحْدَهُ، قال: **" لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف"**، لأنه يعرف ما هم عليه الملوك، كان ملكاً وصار عارفاً بالله، فأي إنسان مؤمن يعرف الله يعرف منهجه، يعرف أن الله قد وعده الجنَّة، يعرف ما يجب وما لا يجب، ما ينبغي وما لا ينبغي، ما يجوز وما لا يجوز، مُنضبط، وَقَّافٌ عند حدود الله، له عملٌ طيِّب، أجرى الله عزَّ وجل على يده عملاً طيباً، هذا الإنسان أسعد أهل الدنيا ؛ ولو كان في التعتيم، ولو كان في الظلال، ولو لم يعرفه أحد، إذا دخل إلى مجلس هؤلاء الأتقياء الأخفياء:

((إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا.))

[ابن ماجه عن معاذ]

أتقياء أخفياء هم عند الله في أعلى مرتبة.

النعمة الثانية التي أنعم الله بها على بني إسرائيل أنه ظلّل عليهم الغمام:

امتن الله عزَّ وجل على بني إسرائيل بأن ظلل عليهم الغمام:

(وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57))

المعنى: هذه النِعَم التي أنعم الله بها عليهم، المَن والسلوى طعام نفيس جداً، لا مجال للحديث عنه لأنه لا يوجد منه الآن، طعام نفيس امتنَّ الله به على بني إسرائيل، وظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى:

(كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ (57))

إذا استمتع الإنسان بهذه النعم دون أن يشكر الله عليها لا يُعدُّ ظالماً لله ولكنه يظلم نفسه، قس على ذلك، أي إنسان الله أعطاه، تمتَّع بهذا العطاء، تمتَّع بصحَّة، تمتَّع بمال، تمتَّع بزوجة، تمتَّع بأولاد، تمتَّع بكل شيء، وعدَّ نفسه شاطراً وذكياً أنه وصل إلى شيء نفيس في الحياة ونسي الله فهو أكبر ظالم لنفسه لأنه لم يشكر، النبي عليه الصلاة والسلام كانت تَعْظُمُ عنده النعمة مهما دقَّت، إذا شرب

كأس ماء، تعظم عنده النعمة مهما دقَّت، إذا أفرغ هذا الكأس، الطرق كلها سالكة، والأجهزة تعمل بانتظام، هذه نعمة لا تقدَّر بثمن، إذا أكل هذه نعمة لا تقدر بثمن، إذا خرج هذا الطعام نعمة لا تقدَّر بثمن، إذا كانت الأجهزة تعمل بانتظام نعمة لا تقدر بثمن:

(وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57))

لا يوجد في الدنيا حرمان ولكن يوجد تنظيم:

لا زالت النِعَم تترا على بني إسرائيل:

(وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً (58))

متواضعين، باب بيت المَقْدِس:

(وَقُولُوا حِطَّةٌ (58))

أي يا رب اغفر لنا ذنوبنا، حُطَّ عنَّا خطايانا:

(نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ (58))

للمذنبين:

(وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58))

إحساناً، فكل واشرب، وتزوَّج، وأسِّس عملاً، ونَل شهادة عُليا، وأنجب أولاداً وربهم، افعل ما تشاء من المباحات على شرط أن تعبد الله، أن تقف عند حدوده، أن تأتمر بأمره، أن تنتهي عما عنه نهى، أن تحبَّ الله ورسوله، لا يوجد في الدنيا حرمان ولكن يوجد تنظيم، كل الشهوات التي أودعها الله بالإنسان لها قنوات نظيفة، أية شهوةٍ أودِعَت في الإنسان لها قناةٌ نظيفةٌ تسري خلالها، فأنت حينما تعرف الله تفعل كل شيء لكن وَفْقَ منهجه.

المؤمن يتبع هوى نفسه وفق منهج الله أما الكافر فيتبع هوى نفسه بغير هدى من الله :

ورد آية بهذا المعنى عن إتباع الهوى بغير هدىً من الله:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50))

(سورة القصص)

الكافر يتبع هوى نفسه من غير هدىً من الله، أما المؤمن فهو يتبع هوى نفسه وفق منهج الله، فالشهوات التي أودعها الله في الإنسان لها قنوات نظيفة:

(وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ (58))

القرية هي بيت المقدس في أرجح الأقوال:

(فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً (58))

خضوعاً لله، عندما فتح النبي الكريم مكّة المكرَّمة دخلها خافض الرأس، حتى كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عزَّ وجل:

(وَقُولُوا حِطَّةٌ (58))

يا رب حُطَّ عنا ذنوبنا:

(نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ (58))

للمذنبين:

(وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58))

ما أكثر من يُبَدِّل في القرآن قولاً غير الذي قاله الله عزَّ وجل :

قال تعالى:

(وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59))

عندما يصير الدين شكلاً، فُلكلوراً، تقليداً، ورقصاً، أو يصير الدين دوراناً ومع ارتداء ثوب كبير، أو غناء، أو طرباً، أو احتفالات، أو إلقاء كلمات، أو مؤتمرات دون أن يُطبَّق المنهج الإلهي، إذا أصبح الدين كذلك فهذه أمَّةٌ تودِّعَ منها:

(فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ (59))

أهكذا ذَكَرَ أصحاب رسول الله ربَّهم وهم يرقصون ؟ أهكذا كانت ثيابهم ؟ قد يبلغ قطر ثوبه ثلاثة أمتار، أفَعَلوا هذا تطبيقاً لمنهج الله عزَّ وجل ؟

(فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ (59))

تكاد تجد أكثر المعاصي مُغَطَّاة بفتاوى، لم يبق شيء من الدين، بقي فقط فلكلوراً، تُراثاً، يقول لك: التراث الإسلامي، الدين أقواس، تيجان، زخرفة إسلاميَّة، لوحات إسلاميَّة، قرآن مُزَخرف، مسجد مزخرف، شكل بدون مضمون، لا يوجد منهج مُطبَّق، المنهج غربي، التقاليد والعادات كلها غربيَّة ؛ في الطعام والشراب، والاختلاط، والفنون، والغناء، والأفلام، كله غربي، ولا يوجد شيء إسلامي إلا المسجد والزخارف وبعض الثياب، هذا لا يجوز:

(فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ (59))

ما أكثر من يُبَدِّل في القرآن قولاً غير الذي قاله الله عزَّ وجل، علماً أن الدين توقيفي والشرائع منتهية.

الدين لا يقبل الزيادة لأن أية زيادةٍ فيه تُعدّ اتهاماً له بالنقص:

قال تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً (3))

(سورة المائدة: " 3 ")

الدين لا يقبل الزيادة لأن أية زيادةٍ فيه تُعدّ اتهاماً له بالنقص، والدين لا يقبل الحذف فأيُّ حذفٍ منه اتهامٌ له بالزيادة، هو دين الله عزَّ وجل، كمال مُطلَق:

(فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59) وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا (60))

أقول لكم كلمة: والله الذي لا إله إلا هو لو خرج أهل بلدةٍ إلى مكانٍ فسيح متذلّلين خاضعين، يسألون الله السُقيَا، والله الذي لا إله إلا هو من الثابت أن الله يُمْطِرُهم مطراً يملأ آبارهم، ليعرّفهم ربُّهم أن الذي تدعونه بيده المطر، هذا الشيء يحصل في العالم الإسلامي، الاستسقاء عبادة، صلاة الاستسقاء عبادة ولكنها لا تنجح بشكل فردي إلا أن تكون جماعيَّة، يجب أن يخلع الناس كِبْرَهُم، يخلعوا عنجهيَّتهم، أن يخضعوا لله عزَّ وجل، أن يسألوه السقيا، فإذا سألوه السقيا بتواضع وتذلُّل وتَخَشُّع أمدَّهم الله بالأمطار الغزيرة التي تملأ آبارهم، وتحيي أراضيهم، وتنقذ نباتاتهم من الجفاف.

عندما يستهدف الإنسان الدنيا وليس له رسالة في الحياة يملّ كل شيء :

قال تعالى:

(وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60))

كل واشرب من غير كِبْر، من غير غطرسة، من دون معاصي وآثام، تزوج من دون اختلاط، تزوج وحجِّب زوجتك، اجعل القرآن في بيتك، افعل الطاعات، الذي حصل:

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ (61))

أفخر أنواع الطعام، توجد هنا لفتة دقيقة جداً، الإنسان إذا استهدف الدنيا يَمَلُّ منها، إذا استهدفها ونسي رسالته، لم يعد له هدف، يعيش ليأكل ويستمتع، يمل كل شيء، والدليل أن هؤلاء الشاردين في أوروبا وأمريكا ملّوا كل شيء، لذلك يوجد انحرافاتٌ خطيرة سببها المَلَل والسَأم، ملوا المرأة فتوجَّهوا إلى الجنس المثلي، مُدن بأكملها، أكبر مدينة أو من المدن الجميلة جداً خمسة وسبعين بالمئة من بيوتها شاذُون، ذكور ذُكور، إناث إناث، السبب هو الملل، أنت عندما تستهدف الدنيا وليس لك رسالة في الحياة تملُّ كل شيء، تبحث عن الجديد ولو كان قذراً، تبحث عن التجديد ولو كان انحطاطاً، تبحث عن التغيير ولو كان نحو الأسوأ، هذا شأن الإنسان.

صفات من ضُرِبَت عليهم الذِلَّة والمسكنة وباؤوا بغضبٍ من الله :

لمؤمن هدفه الله عزَّ وجل لا يمل النعم التي بين يديه لأنها وسائل وليست غاية، النعم التي بين يديك تملُّها إن أصبحت غايات، وترتاح لها، وتستعين بها، ولا تَمَلُّها إذا جعلتها وسائل، فلذلك المَن والسلوى قال:

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ (61))

هؤلاء الذين ضُرِبَت عليهم الذِلَّة والمسكنة وباؤوا بغضبٍ من الله، كيف بهم إذا أصبحوا مستكبرين ؟ معنى ذلك أن هؤلاء الذين استكبروا عليهم أقل منهم، هؤلاء الذين ضُرِبَت عليهم الذلّة والمسكنة وباؤوا بغضبٍ من الله يتجبَّرون على من هم أضعف منهم، هذا معنى مزعج جداً.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ((61)

هذه صفاتهم ؛ يعصون الله، يعتدون على حقوق الآخرين، يقتلون الأنبياء بغير حق، طبعاً لا يوجد قتل بالحق، هذا ليس قيداً احترازياً بل هذا قيد وصفي، أي دائماً وأبداً الذين يقتلون الأنبياء بغير حق، لأن الأنبياء دعاة إلى الله عزَّ وجل، هذه صفاتهم التي أنبأنا الله بها في القرآن الكريم.

في درسٍ آخر إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62))

مصائب الكفّار ردعٌ وقصمٌ لكن مصائب المؤمنين دفعٌ ورفعٌ:

سؤال هام عن المصائب:

سائل يقول: تذكر في أحاديثك أن هناك مرضاً عُضالاً يُعَدُّ عقوبةً من الله ؟

الجواب:

أيها الأخوة إن كلامي دقيق جداً، المرض نفسه، مرض عضال يصيب إنساناً غير مؤمن فيكون عقاباً، ويصيب إنساناً مؤمناً فيكون ترقية إلى الله عزَّ وجل، هذا الشي ثابت، المؤمنون لهم مصائب، والكفّار لهم مصائب، مصائب الكفّار ردعٌ وقصمٌ، لكن مصائب المؤمنين دفعٌ ورفعٌ.

حدَّثنا أخ طبيب كان بمستشفى، جاء مريض مصاب بورم خبيث يُشهدُ الله أنه مؤمن، قال لي: شيء يحيِّر العقول، كلما دخل إنسان لعيادته الكلمة الأولى له: أشهد أنني راضٍ عن الله، يا ربِّ لك الحمد

.

أقسم هذا الطبيب وهو من إخواننا الكرام وهو حيٌّ يرزق: أنك إذا دخلت إلى غرفته وجدت وجهه كالنور، روائح طيِّبة، إذا قرع الجرس، يتهافت كل من الأطبَّاء والممرضين على خدمته، وبعد أربعة أو خمسة أيام توفي بأجمل حالة، بطيب ورضى، ولحكمةٍ بالغةٍ بالغة أرادها الله، عَقب هذا المريض جاء مريضٌ آخر مصاب بنفس المرض، لم يترك نبياً إلا وسبَّه، طباع شرسة، روائح نتنة، ثم مات .

إذا قلت لكم: مرض، فإني أقصد إنساناً متفلّتاً، عاصياً، يبيح الزنا والخمر، أنا أقصد هذا المرض لهذا الإنسان عقاب، والله لا تجد ولا شخصاً منا وعنده ضمانة أن لا يصاب بهذا المرض، قد يصاب ويكون بأعلى درجة عند الله عزَّ وجل، لي صديق أصيب بنفس المرض، تقول زوجته عنه: سنتان ولم تسمع منه إلا كلمة " **الحمد لله** "، اشتهت أن تسمع كلمة أنين منه، فلعل هذا المرض يكون سبباً لدخول الجنة.

المصائب أنواع:

المصائب أيها الأخوة أنواع ؛ مصيبة ردع، مصيبة قصم، هذا لغير المؤمن أما المؤمن رفع ودفع، فبعض الصحابة فقدوا أبصارهم، وبعض الصحابة جُرحوا، النبي شُجَّت وجنته، كُسرت ثناياه، فإذا حكيت لكم عن مرض ـ والله هذا السؤال مهم جداً ـ فأنا ما قصدت أن المرض وحده مشكلة، لا، بل المشكلة أن يكون الإنسان شارداً عن الله، شارداً، غارقاً.

تحدَّثت مرة عن إنسان يملك محلاً ضخماً جداً، يمارس الفحشاء فيه، ويعلق لافتة على باب المحل كتب فيها: نحن في الصلاة، احترق المحل، جدده، وعاد إلى معصيته ووقاحته، احترق مرة ثانية ؛ إذا احترق محل المؤمن فليست هناك أي مشكلة أبداً، فهناك حكمة بالغة من ذلك، هناك صحابي سُرقَ ماله، فقال: **" يا رب إن كان هذا الذي أخذه عن حاجة فبارك له فيه، وإن كان أخذه بطراً فاجعله آخر ذنوبه".**

هل من الممكن أن يسرق مال المؤمن ويحترق محلّه ؟ ممكن، فهناك حكمة نحن لا نعرفها، يمرض مرضاً شديداً، والله هناك أمراض تصيب المؤمنين يرقون بها إلى أعلى عليين، أعرف أناساً والله لا تؤثِّر فيه ولا مليون خطبة، أصابه مرض عضال وكان سبباً لعودته إلى الله عزَّ وجل، فأنا عندما أقول: مرض عضال، فلا أقصد أن كل واحد أصيب بمرض عضال معاقب، لا والله، فلا أحد منا يخلو من مرض، لا يوجد ضمانة عند إنسان أن لا يصاب بمرض، والمرض صار مشكلة كبيرة هذه الأيام، فأتمنى عليكم أن تنتبهوا للطعام، فهناك مواد بلاستيكيَّة، ومواد مسرطنة، ومبيدات، وأشياء كثيرة، فانتبه للطعام، نسبة المرض مرتفعة عشرين ضعفاً عن السابق، لا تمر جمعة إلا وأسمع عن عدة أشخاص ممن حولي أصيبوا بالأمراض.

أنا لا أقصد أن كل إنسان أصيب بهذا المرض إذاً فهو معاقب، لا، فأنا أتحدَّث عن إنسان متفلّت، ليس له منهج، يفعل الزنا جهاراً، يشرب الخمر، يتحدّى الإله، هذا الإنسان مرضه بالطبع عقاب، أما إنسان مؤمن ؛ اسمعوا هذه الآية وهي خاصة بالمؤمنين :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157))

(سورة البقرة)

أشد الناس بلاءً الأنبياء :

النبي سيد الخلق قال:

((لقد أخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أوذيت في الله وما يؤذي أحد ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال.))

[حماد بن سلمة عن أنس]

دائماً أيها الأخوة الكلام له سياق ولِحاق وسِباق، ذكرت مرة قصة عن امرأة اعتدت على أخيها، اشترى معها بيتاً بالتمام والكمال والتساوي، ودفع كامل المبلغ، وكانت قوية جداً، فأخرجته من البيت ظلماً وعدواناً، ولديه من الأولاد أربعة عشر ولداً، نصفهم يبيتون في بيت جدهم، والنصف الآخر عند بيت جدتهم، قال لي ابن أخيها: أصيبت عمتي بمرض خبيث، فقلت: والله هذا عقاب إلهي، وتوفيت بعد شهر، وورثها أخوها الوحيد، وعاد إلى البيت مع أولاده.

هناك حالات واضحة، فهذه الحالة عقاب إلهي مثل الشمس، فهل كل مؤمن صار معه مرض كان عقاباً ؟ أعوذ بالله أن أقول هذا الكلام، فلا يوجد إنسان خالٍ من مشكلة في حياته، الحديث الشريف :

((إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءَ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ))

[أحمد مسلم عن أبي عُبَيْدَةَ بْنِ حُذَيْفَةَ عَنْ عَمَّتِهِ فَاطِمَةَ]

أنا حينما أذكر إنساناً يعصي الله جهاراً، ينتهك حرمات الله، يتحدَّى الإله ويأتيه مرضٌ عضال هذا المرض في الأعم الأغلب هو عقاب من الله، أما المؤمن له حساب آخر، وهذان المريضان اللذان دخلا المستشفى بنفس المرض، واحد ارتقى بمرضه إلى أن أصبح في أعلى عليين ؛ والثاني هوى به إلى أسفل السافلين، فالعبرة حالتك مع الله عزَّ وجل.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (27- 95):تفسير الآية 62، الانتماء الشكلي لا قيمة له عند الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-02-12

بسم الله الرحمن الرحيم

في القرآن الكريم آيتان تقتربان من الآية التالية:

مع الآية الثانية والستين وهي قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62))

هناك في القرآن الكريم آيتان تقتربان من هذه الآية ؛ الآية الثانيـة في سورة المائدة:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(69))

(سورة المائدة)

هناك الآية الثالثة من سورة الحج وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(17))

(سورة الحج)

الإنسان يجمع بين المتناقضين فيه نفخة من روح الله وقبضة من تراب الأرض:

أيها الأخوة الكرام، كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، سيدنا آدم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام تلا الحق على أولاده، وأولاده تلوا الحق على أحفادهم، وهكذا، لكن الذي حصل أن النفوس تنحرف، والشهوات تستعر، والمصالح تتضارب، فالإنسان مُركب من عقل ومن شهوة، لو كان مركباً من عقلٍ فقط لم تكن هناك أية مشكلة، لكنه ركب من عقلٍ وركب من شهوةٍ، في حين أن المَلَك ركب من عقلٍ فقط، هو يذكر الله دائماً، والحيوان ركب من شهوةٍ فقط وهو ليس مكلفاً، الإنسان نوعٌ عجيب، فيه نفخةٌ من روح الله، وفيه قبضةٌ من تراب الأرض، فيه حاجات عُليا، ونوازع عليا، وفيه شهوات سُفلى، هو المخلوق الأول، بطولته أنه يجمع بين المتناقضين، هناك شهوة تحرِّكه، وهناك قيمٌ يصبو إليها، فيه نفخة من روح الله وقبضة من تراب الأرض، تراب الأرض يشدُّه إلى الأرض:

(وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ)

(سورة الأعراف الآية: 176)

والنفخة من روح الله تشده إلى الله وإلى القيَم، الذي ترونه جميعاً أن الإنسان يقلق إذا انغمس في شهوته، يبحث عن شيءٍ مفقود لو أعطى نفسه هواها، لو انغمس في إمتاع نفسه بالشهوات المادية إلى قمَّةِ رأسه يشعر أن هناك شيئاً يخالفه، يختل توازنه، ولا يستعيد توازنه إلا إذا عرف الله، فلذلك ربنا عزَّ وجل خلق الإنسان من نسل آدم، وأسكن سيدنا آدم في الجنة، وأعطاه درساً له ولذريته من بعده، أعطاه درساً بليغاً، وبيَّن الله عزَّ وجل لسيدنا آدم ولذريته من بعده:

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ(6))

(سورة فاطر)

لكن الإنسان بعد أن تأتي رسالات الأنبياء قد ينسى وقد ينحرف، وقد يُفَرِّغ الرسالة من مضمونها.

حينما لا يطبق الدين تطبيقاً كاملاً لا تقطف ثماره:

حينما جاء الدين الإسلامي أيها الأخوة، كان فيه زخم روحي شديد، مضمون كبير، قيَم رائعة، سلوك منضبط، إخلاص شديد، ولكن مع مُضي الزمن أصبح الدين شكلاً وفُرِّغَ من مضمونه شيئاً فشيئاً، لذلك ربنا عزَّ وجل يبعث على رأس كل مئة عام من يجدد لهذه الأمة دينها، يصبح الدين شكلاً، يصبح فلكلوراً، يصبح رقصاً، يصبح أناشيد، يصبح غناء، يصبح مظاهر فخمة، شهادات عُليا، ألقاباً علمية، مؤتمرات، مكتبة، ولا يوجد التزام، وحينما لا يطبق الدين تطبيقاً كاملاً لا تقطف ثماره، هذا شأن الإنسان حينما يميلُ إلى الشهوة على حساب القيم.

الشيء المفروض أن الإيمان فطري، والله عزَّ وجل بدأ البشرية بنبيٍ عظيم هو سيدنا آدم، وينبغي أن يَسري الحق من جيلٍ إلى جيل، لكن الذي حصل أنه حدث انحراف، مع الانحراف يأتي الأنبياء والرُسُل العظام من قبل المولى جلَّ وعلا ليصححوا مسار البشرية فصار هناك يهود، سمي اليهود يهوداً لأنهم اتبعوا يهوذا أحد أولاد سيدنا يعقوب، أو لأنهم هادوا إلى الله أي تابوا إليه هذه أصل التسمية، علماً أن الواقع الحالي لا ينتمي لهذه التسمية، إما أنهم تابوا إلى الله أو أنهم اتبعوا يهوذا، والنصارى:

(قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية: 52)

سمي الذي اتبعوا المسيح نصارى، والذي اتبعوا سيدنا موسى سموا يهوداً.

الإنسان حينما ينسى منهج الله يتولّد في نفسه عداوةٌ وبغضاء:

يقول الله عزَّ وجل :

(إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ)

(سورة الأعراف الآية: 156)

الآية دقيقة جداً ونحن في أمس الحاجة إلى معناها، فهذا الذي يملك إيماناً فطرياً بسيطاً، أو الذي آمن وانتمى إلى الإيمان شكلاً لا مضموناً، وهذا الذي انتمى إلى الدين اليهودي شكلاً لا مضموناً، وهذا الذي انتمى إلى الدين النصراني شكلاً لا مضموناً، تصور أربع محلات تجارية لا يوجد فيها بضاعة إطلاقاً، لكن توجد لافتات، لافتة كتب عليها مطرزات، لافتة كتب عليها أجواخ، لافتة كتب عليها ألبسة جاهزة، لافتة كتب عليها مواد غذائية، ليس في هذا المحل مواد غذائية، ولا ألبسة جاهزة، ولا مُطَرَّزات، ولا أجواخ، لا شيء فيها، ولكن توجد لافتات متباينة، وهناك صراع، وتعصُّب ديني، وحروب دينية، أما المضمون فارغ، النقطة الدقيقة جداً جداً أن الإنسان حينما ينسى منهج الله يتولّد في نفسه عداوةٌ وبغضاء، قال تعالى:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة المائدة الآية: 14)

الآية تتحدث عن الذي ينتمي إلى الإيمان انتماءً شكلياً، ما الانتماء الشكلي ؟ حياته غربية، لا يوجد قيد في كسب المال، لا يوجد عنده انضباط، لا يوجد عنده منهج، إنفاق ماله بلا منهج وبلا ضابط، علاقاته مع النساء بلا منهج وبلا ضابط، يمضي وقت فراغه في أعمال سخيفة، ومتابعة أشياء لا تسمن ولا تغني من جوع، نمط حياته نمط غير إسلامي، لكنك تراه في المسجد يوم الجمعة، وقد علّق في بيته آية الكرسي، وتراه يلبس الجديد في أيام العيد، ويهنِّئ ويبارك، البروتوكولات جيدة، الطقوس جيدة، الأعمال الاستعراضية جيِّدة، المظاهر جيدة، أما المضمون فهو غير إسلامي، فهذا الذي ينتمي إلى الدين انتماءً شكلياً، وهذا الذي ينتمي إلى اليهودية انتماءً شكلياً، وهذا الذي ينتمي إلى النصرانية انتماءً شكلياً.

الانتماء الشكلي إلى الدين مظاهر وطقوس وعبادات جوفاء لا معنى لها:

قال الله عزَّ وجل:

(وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً)

(سورة الحديد الآية: 27)

هكذا وُصِفَ أتباع سيدنا عيسى، كتبوا على عُملتهم ثقتنا بالله لكنهم ماذا يفعلون ؟ يرتكبون من الجرائم في العالم ما يندى له الجبين، يبنون ثروتهم على نهب ثروات الشعوب، يبنون قوتهم على

تدمير أسلحة الشعوب، يبنون رخاءهم على إفقار الشعوب، فالانتماء شكلي والدليل أن أعمالهم بخلاف ما وصفوا به:

(وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً)

(سورة الحديد الآية: 27)

إذاً الانتماء شكلي، مظاهر، طقوس، عبادات جوفاء لا معنى لها، وقد تكون العبادات غناء وموسيقى وما شاكل ذلك:

(وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ(35))

(سورة الأنفال)

صار إحياء ليلة القدر برقص، أليس كذلك ؟ فهذا الدين قد فُرِّغ من مضمونه.

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ (62))

الصابئون حَكَّموا عقلهم فرفضوا بعض النصوص، أو انتقلوا من دينٍ إلى دين، أو أصبحوا بلا دين، إنسان لا يتبع سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام، ولا السيد المسيح، ولا سيدنا موسى، يقول لك: أنا عقلاني، أو أنا علماني، والأصح جَهْلاني، ليس له علاقة بالأديان، عقله هو دينه، وعقله الحَكَم .

العقل لا قيمة له من دون وحيٍ يرشده:

هناك نقطة مهمة جداً أيها الأخوة حتى أثبت لكم أن العقل وحده لا يكفي، يوجد عند طبيب العيون لوحة متدرجة في الدقة، فقبل آخر سطر إذا عرف اتجاه الـ (C) أو الـ (E) باللغة الإنكليزية، يكون نظره حاداً، يقول له الطبيب: يمين، يسار، فوق، تحت، إذا عرف قبل آخر سطر يأخذ عشرة على عشرة، إذا عرف آخر سطر يعطى اثنا عشر على عشرة، فأدق العيون هي التي تكشف اتجاه هذه الحروف في آخر سطر، لو أن إنساناً يملك عينين حادتين وهناك منظر جميل أمامه ولكن لا يوجد ضوء، ما قيمة العينين ؟ صفر، أجلس في غرفة إنساناً أعمى وإنساناً له عينان حادتان، أطفئ المصباح ألا يستويان ؟ يستويان تماماً، معناها لا قيمة للعين من دون ضوءٍ يكون وسيطاً بينها وبين المرئي.

قس على ذلك العقل، والعقل لا قيمة له من دون وحيٍ يرشده، من هو العالم الغربي ؟ عالم قائم على العقل فقط، العقل قدَّم إنجازات مادية مذهلة، ولكنه هبط هبوطاً اجتماعياً وأخلاقياً مُريعاً، وما يُعانون منه من مرض الإيدز، ومن الجريمة، ومن التفكك الأسري، وانحلال الأسرة، وشيوع المخدرات شيء لا يحتمل، إنسان يتحرَّك وفق عقله فقط لا وفق منهج الله عزَّ وجل، والعقل قد ينتهي بالإنسانية إلى الدمار، بسبب استخدام العقل وحده.

أخواننا الكرام، الخلق هو سياج العقل، العقل قوة كبيرة، ما الذي يمنع صاحب العقل الكبير أن يصنع مادةً تؤذي الناس ؟ الآن العلماء الكبارُ الكبار يصنعون القنابل الجُرثومية، والقنابل الكيماوية، يبنون تفوَّقهُم على تدمير البشرية، فما الذي يمنع العقل من أن يدمِّر العالم كله ؟ هو القيم الأخلاقية، ولا أخلاق بلا دين، معناها الدين أساس الأخلاق، والأخلاق أساس ضبط العقل، العقل يحتاج إلى وحي، والعقل مقياس غير صحيح من دون وحي، الآن الدليل، العقل مرتبط بواقع، لو أنهضنا إنساناً قبل مئة عام من قبره، وقلنا له: هذه الكتب ـ أربع جدران من الأرض إلى السقف كلها مجموعة بقرص ليزري واحد ـ لا يصدق كلامنا، أما الآن فهو شيء واقع، هناك الآن أقراص ليزرية فيها ألف كتاب بقرص ليزري واحد، العقل لا يصدق قبل مئة عام أنه من الممكن أن نبعث رسالة إلى أقصى قارة في العالم بثانية واحدة، الآن عن طريق الفاكس ترسل رسالة إلى أقصى مدينة في أمريكا، بغرب أمريكا على المحيط الهادي بثانية، لم يكن العقل يصدق أن يحدث شيء في مكان يراه العالم كله بالأقمار الصناعية، العقل لم يكن يصدق سابقاً، معناها العقل مرتبط بالواقع ولا يحق له أن يكون حكماً على النقل، النقل هو الحقيقة المطلقة التي من عند الله عزَّ وجل.

من هم الصابئون ؟

من هم الصابئون ؟ هم الذين حَكَّموا عقولهم في النصوص فرفضوا ما لا يروق لهم وقبلوا ما راق لهم، صابئ أي أنه انسلخ من الدين، احتكم للعقل، أي علماني بالتعبير الحديث، العلماني هو إنسان صابئ انسلخ من الدين وصار له مقاييس أخرى.

على كلٍ الآية مخيفة، هذا الذي ينتمي إلى الإسلام شكلاً، أو إلى الإيمان العامي الفطري شكلاً، وهذا الذي ينتمي إلى اليهودية شكلاً، وهذا الذي ينتمي إلى النصرانية شكلاً، وهذا الذي ينتمي إلى عقله ويحَكّم عقله في كل نقل، في المعنى الضمني لهذه الآية :

(فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ)

(سورة النحل الآية: 71)

وقال:

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ (62))

من هؤلاء جميعاً المقبول منهم:

(مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(62))

حقيقة الإيمان أن تؤمن بأن الله موجود:

حقيقة الدين، جوهر الدين أن تؤمن بالله، يمكن لكل واحد أن يقول: أنا مؤمن بالله ؟ ولكن حقيقة الإيمان أن تؤمن بأن الله موجود، وأنه في السماء إلهٌ وفي الأرض إله، وأن هذا الذي تستمع إليه من أحداث من تدبير الله، ويد الله فوق أيديهم، ويد الله تعمل في الخفاء، وما من إلهٍ إلا الله.

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً(26))

(سورة الكهف)

وقال:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

وقال:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف الآية: 54)

وقال:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(2))

(سورة فاطر)

وقال:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد الآية: 11)

حينما تؤمن بالله الواحد الأحد لا يمكن أن تُقْدِم على معصية ولو أعطوك ملء الأرض ذهباً :

حينما تؤمن أن الله هو الفعَّال، يقول لك: هناك في كل بلد رجل قوي، قد يكون ظاهراً وقد يكون غير ظاهر، من هو الرجل القوي في كل بلد ؟ لا يوجد إلا الله هو القوي، هو الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الباقي على الدوام، بيده الأمر،

بيده مقاليد السماوات والأرض:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود الآية: 123)

وقال:

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)

(سورة الحديد الآية: 3)

وقال:

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة الحديد)

لا يقع شيءٌ في الكون إلا بإذنه، هذا هو الإيمان، يبنى على هذا الإيمان أشياء كثيرة، حينما تؤمن أن الله وحده هو الفَعَّال لا تنافق لأحد، حينما تؤمن أن الله وحده هو الفعال لا تبتغي رزقاً بمعصية، مستحيل، حينما تؤمن بالله الواحد الأحد لا يمكن أن تُقْدِم على معصية ولو أعطوك ملء الأرض ذهباً لأنك تعلم أنك خاسر لا محالة، معنى تؤمن أي أن يتغلغل الإيمان إلى أعماق الإنسان فيغير كل صفاته، وكل مبادئه، وكل قيمه، وكل أهدافه، الإيمان يصنع إنساناً جديداً، يعد المؤمن الفوز بالعطاء لا بالأخذ، أكثر الناس يشعرون براحة حينما يأخذون، حينما يتملكون لا حينما يعملون عملاً صالحاً.
الإيمان الحق يعكس موازين الإنسان، الإنسان له موازين مادية، لكن حينما يؤمن بالله تختلف موازينه.

الإنسان له موازين مادية لكن حينما يؤمن بالله تختلف موازينه:

الإيمان الحق يعكس موازين الإنسان، الإنسان له موازين مادية، لكن حينما يؤمن بالله تختلف موازينه.

مثل بسيط أضربه دائماً ؛ قال مَلِك لأستاذ: عَلِّم ابني دروساً وأنا أكرمك، إذا عرف هذا الأستاذ ما معنى مَلِك، وأن كل شيء بيده، وأقل عطاء له بيت وسيارة، المستحيل أن يطلب من الابن أجرة الدرس، يقول لتلميذه ابن الملك: لا، والدك يحاسبني، أما إذا لم يعرف من هو الملك، فطالب الابن بأتعابه، أعطاه على الدرس ألف ليرة مثلاً ولكنه أضاع على نفسه عطاءً كبيراً .

أنت حينما تؤمن أن الأمر بيد الله وحده لا ترجو سواه، لا تتضعضع أمام غيره، ولا تعلق أملاً على إنسانٍ آخر، فالإيمان شيء يغيِّر نمط الإنسان، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم :

((لن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفاً مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

أي اثنا عشر ألف مؤمن لن يغلبوا في الأرض، وإذا كان مليار ومئتا مليون مغلوبين، مغلوبين على أمرهم، ليس أمرهم بيدهم، ليست كلمتهم هي العُليا، أعداءهم يتحدَّونهم، لأنه:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (59))

(سورة مريم)

هذا هو الكلام الدقيق.

إذا لم تؤمن أن هناك يوماً هو يوم الجزاء والحساب لن تستقيم في سلوكك :

قال تعالى :

(مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ (62))

أركان الإيمان خمسة، لماذا في معظم الآيات الكريمة قرن ربنا الإيمان بالله بالإيمان باليوم الآخر ؟ أي أنَّك إذا لم تؤمن بأن هناك يوماً تسوى فيه الحسابات، تسترد فيه الحقوق، يُنْصَف المظلوم من الظالم، يؤخذ الحق من القوي إلى الضعيف، إذا لم تؤمن أن هناك يوماً، هو يوم الجزاء، يوم الدينونة، يوم الحساب، لن تستقيم في سلوكك:

(مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62))

هناك انتماءات شكلية للأديان، وهناك جوهر الدين الذي أراده الله عزَّ وجل، جوهر هذا الدين أن تؤمن بالله، وأن تثق به، وأن تعتمد عليه، وأن تتوكل عليه، وأن تعلّق عليه الآمال، وأن تطيعه، وأن تحبه، وأن تُقبل عليه، وأن تعمل لليوم الآخر، هذا هو الدين، تجد المؤمن أمره عجيب يركض بلا أجر، لا يريد شيئاً، يشتغل أربعاً وعشرين ساعة، يعمل ليل نهار، يقدِّم ولا يأخذ، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا، إنسان كل حياته عطاء، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يصلي الليل لا تتسع غرفته لصلاته ونوم زوجته، فكانت تنحرف يساراً كي يصلي، أنتم ترون هذه الأبهة الواسعة شيء يأخذ بالألباب، سيد هذه الأمة كان بيته صغيراً جداً لا يتسع لصلاته ونوم زوجته.

تخلَّى الله عن المسلمين لأنهم عصوه:

الأنبياء العظام أعطوا ولم يأخذوا، وهناك من يأخذ ولا يعطي، والمؤمن بين بينَ يأخذ ويعطي، ولكن لا بد من أن تعطي، إذا آمنت بالآخرة لا بد من أن تعطي، ماذا قدمت؟

((يا بشير لا صدقة ولا جهاد فبم إذن تدخل الجنة ؟))

[أحمد عن بشير بن الخصاصية]

هذا السؤال الدقيق، ماذا قدمت للمسلمين ؟ أي عملٍ فعلته في سبيل الله ؟ أي عمل فعلته تقرُّباً إلى الله ؟ هذه نقطة دقيقة جداً، قد تلاحظ مسلماً غير منضبط، طعامه، شرابه، لقاءاته، سهراته، اختلاطه، كسب ماله، أين يمضي وقت الفراغ ؟ أجهزة اللهو في بيته، نساءه متبرجات كاسيات عاريات، وازن بين أسرة تنتمي للإسلام شكلاً، وأسرة تنتمي للنصرانية شكلاً، وأسرة تنتمي لليهودية شكلاً، وإنسان علماني تجدهم مثل بعضهم، هناك تشابه ولكن هناك تعصب، هناك تشابه،

أما لو تمسك هؤلاء بالدين الحقيقي لالتقوا و لاجتمعوا لأن المنهج واحد والأصل يوحِّد، فلذلك لا يريد الله عزَّ وجل الانتماء الشكلي، لا يريد التعَصُّب.

تجد أحياناً طالباً دفاتره أنيقة جداً ولكنه استحق بكل المواد أصفاراً، كل دفتر مغلف وفوقه نايلون، وبطاقة، ولوحة، ونشَّافة، وشريطة، ويأخذ صفراً بالمذاكرات، فهذه الأشياء الشكلية لا تقدِّم ولا تؤخر، لا تكفي العناية بالمساجد لوحدها فقط، دخلت مسجداً في الدار البيضاء في المغرب كلف تشييده ألف مليون دولار، شيء يفوق حد الخيال، بني فوق البحر، من يجلس في الحرم يرى البحر، استوحي هذا المسجد من قوله تعالى:

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)

(سورة هود الآية: 7)

تجد البحر من تحته، نعتني بالمساجد لكن البيوت خَرِبَة، البيوت جحيم، العلاقات كلها علاقات ربوية، العلاقات بين الجنسين علاقات بغي وعدوان، يبدو في هذا الوضع كما لو أن الله تخلَّى عن المسلمين لأنهم عصوه:

((إذا عصاني من يعرفني سلَّطت عليه من لا يعرفني.))

[ابن أبي الدنيا عن الفضيل بن عياض]

الإيمان المنجِّي هو الإيمان الذي يحملك على طاعة الله وعلى التخلُّق بالخلق الإسلامي:

أيها الأخوة، هذه آية أساسية جداً :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا (62))

الإيمان الشكلي:

(وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى (62))

والعلمانيون معهم:

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ (62))

الإيمان المنجِّي، هو الإيمان الذي يحملك على طاعة الله، هو الإيمان الذي يحملك على التخلُّق بالخلق الإسلامي:

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ (62))

المؤمن يهيئ جواباً لله عن كل حركة، كل سكنة، كل عطاء، كل مَنع، كل وَصل، كل قطع، كل رضا، كل غضب، ماذا سيقول لله عزَّ وجل يوم القيامة لو سأله: لم طلَّقت ؟ لم غضبت ؟ لم أعطيت ؟ لم منعت؟ لم فعلت ؟ لم تركت ؟

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً (62))

آمن بالله وباليوم الآخر فاستقام وعمل صالحاً، قال: هؤلاء هم الذين وضعوا أيديهم على جوهر الدين، تصور إنساناً بدوياً لا يقرأ ولا يكتب، راعياً، قال له سيدنا عمر: **" بعني هذه الشاة وخذ ثمنها "** ، قال له: **" ليست لي "** ، قال له: **" قل لصاحبها ماتت"** ، قال له: **" ليست لي "**، قال له: **" خذ ثمنها "**، قال له: **" والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله ؟ "** .

الذين فرَّغوا الدين من مضمونه بقي لهم من الدين الانتماء الشكلي:

أيها الأخوة، صدقوني لو وصل المسلمون لمستوى هذا الراعي الأمي لكانوا في حالٍ غير هذه الحال، ليست القضية بالدراسات العُليا ولا بالألقاب العلمية القضية بالاستقامة، هذا الأعرابي وضع يده على جوهر الدين، والذين فرغوا الدين من مضمونه جعلوا الدين تقاليد، عادات، مظاهر، ألقاباً، افتخاراً، الذين فرَّغوا الدين من مضمونه بقي لهم من الدين الانتماء الشكلي، هذا الانتماء الشكلي لا قيمة له عند الله أبداً.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً (62))

هؤلاء الذين يحبُّهم الله عزَّ وجل، إذاً هذه الآية دقيقة، أي إنسان ينتمي لهذه الأديان لو انسلخ من هذا الانتماء الشكلي و:

(آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62))

هذه الآية آية البقرة .

سبب رفع كلمة " الصابئون " في الآية التالية:

الآية الثانية قال:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ)

(سورة المائدة الآية: 69)

هنا مشكلة، " إنّ " حرف مشبَّه بالفعل تنصب الاسم وترفع الخبر.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

الذين اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسم إنّ .

(وَالَّذِينَ هَادُوا)

معطوف، أما:

(وَالصَّابِئُونَ)

وقال:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ)

للفت النظر ورد في الآية كلمة

(الصَّابِئُونَ)

مرفوعة، أي أن هذا الذي احتكم لعقله ـ مع أنه عقله مربوط بالواقع وعقله يحتاج إلى وحي ـ فهذا وقع في ضلالٍ كبير.

جميع الاتجاهات الدينية في العالم الله وحده هو الذي سيفصل بينهم يوم القيامة:

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(69))

(سورة المائدة)

هذا التطمين الثاني، الأولى :

(فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62))

هنا :

(فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(69))

(سورة المائدة)

الآن لو أخذنا مجموع الاتجاهات الدينية في العالم ؛ هناك وثنيون، هناك بوذيون، وهناك سيخ، وهندوس، وعُبَّاد النار، وعُبَّاد الشمس، وعُبَّاد البَقر، وعُبَّاد المَوج، وعُبَّاد الفَرج، و عُبَّاد لا نهاية لهم، قال:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا (17))

(سورة الحج)

من هو على الحق منهم ؟ قال:

(إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(17))

(سورة الحج)

كلٌ يدَّعي أنه على حق، وكل مِلَّة، وكل اتجاه، وكل مذهب، وكل دين، وكل طائفة، وكل جماعة تدعي أنها على الحق، لكن من هو الذي سيفصل بينهم ؟ هو الله عزَّ وجل، الله عزَّ وجل يعلم السر وأخفى.

صفات الضالين في العالم أربع:

هناك اتجاهات كلها ضالة لكن بشكل أو بآخر صفات الضلال بالأرض أربع:

أول صفة: تأليه الأشخاص، كثيراً ما تجد أدياناً كل شيء هو الذي يقوله رئيس الدين، لا يوجد منهج، قد يكون مثلاً رئيس مجوعة دينية، قد يكون ديناً أرضياً، الذي يقوله هو التشريع، لا يوجد تشريع بل تأليه للأشخاص.

الثانية: اعتماد النصوص الموضوعة والضعيفة .

الثالثة: تخفيف التكاليف .

الرابعة: النزعة العدوانية.

هذه صفات الضالين في العالم، أما نحن المبادئ عندنا أقوى من الأشخاص:

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(17))

(سورة الحج)

إذا أراد الإنسان أن يتبع الدين اتباعاً حقيقياً يجد الكثير من المبادئ والتعليمات يجب أن تُطبق:

في الإسلام، النبي عليه الصلاة والسلام :

(إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي)

(سورة الأعراف الآية:203)

سيدنا الصديق قال: **" إنما أنا متبع ولست بمبتدع، إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوِّموني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم."**

حتى في الدعوات الدينية إذا قال الشيخ فرضاً: **" يا بني أنت ما دمت معنا فلا تخف "**، فمن أنت ؟ ذُكِرت قصة في أحد الكتب أن أحدهم توفي وعندما جاءه الملكان ليسألاه عن دينه وعن ربه وعن نبيه، تلقيا ضربة أخرجتهم من القبر، قيل لهما: **" هذا مريدي، أمِثل هذا يُسأل !! "** ، فهذا كلام مضحك، قال تعالى مخاطباً نبيَّه:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(15))

(سورة الأنعام)

سيد الخلق حبيب الحق:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(15))

يا رسول الله: **" مَثِّل بهم "** قال: **" لا أمثل بهم فيمثِّل الله بي ولو كنت نبياً "**، هناك خوف من الله، هناك انضباط، لذلك إذا أراد الإنسان أن يتبع الدين إتباعاً حقيقياً يجد عنده مئات الألوف من المبادئ والتعليمات، وافعل ولا تفعل، هذه كلها ينبغي أن تطبق.

الإيمان الذي لا يحمل صاحبه على طاعة الله لا قيمة له إطلاقاً:

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(17))

(سورة الحج)

الملخص: الانتماء الشكلي لا قيمة له عند الله، جوهر الدين أن تؤمن بالله موجوداً وواحداً وكاملاً، وأن تؤمن بالله إيماناً يحملك على طاعته، إذا قال إنسان لك: أنا مطلع على مقالات عن أضرار الدخان وتراه يدخن، فأنت لن تصدقه، هذا جاهل، ما دام مطلعاً على مقالات عن أضرار الدخان ويدخن فمعلوماته لم تحمله على ترك الدخان، إذاً هذه المعلومات لا قيمة لها إطلاقاً، أما عندما يطلع الإنسان على مضار الدخان ويقلع عن التدخين نقول: معلوماته التي قرأها عن الدخان حَمَلَتْهُ على ترك الدخان، هذه معلومات مجدية ـ طبعاً من باب التمثيل ـ وحينما تؤمن بالله إيماناً يحملك على طاعته، وعلى تحرِّي الحلال، وعلى ترك الحرام، وعلى خدمة الخَلق، هذا الإيمان هو المجدي، وإلا أي إيمان لم يحمل صاحبه على طاعة الله لا قيمة له، بعضهم يسميه تندراً [إيمان إبليسي]، لأن إبليس قال:

(فبعزتك (82))

(سورة ص)

آمن بالله رباً وآمن به عزيزاً، وقال له:

(فأنظرني إلى يوم يبعثون (79))

(سورة ص)

آمن بيوم البعث، وإبليس قال له:

(خلقتني من نارٍ (76))

(سورة ص)

آمن أنه خالق، فآمن بأنه خالق وعزيز ورب وآمن بيوم البعث، ومع ذلك هو إبليس، فالإيمان الذي لا يحمل صاحبه على طاعة الله لا قيمة له إطلاقاً، صفر.

العبرة أن تملك الحقيقة لأن الله يفصل بين الناس يوم القيامة:

ثلاث آيات أيها الأخوة ؛ في البقرة آية، في المائدة آية، في الحج آية:

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62))

هذه آية البقرة. أما آية المائدة فهي:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(69))

(سورة المائدة)

آية الحج :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(17))

(سورة الحج)

العبرة لا أن تقنع الناس بباطلك، العبرة أن تكون عند الله على حق ـ دققوا في هذه الكلمة ـ قد تقنعني أن معك كيلو من الذهب وهو من التنك، ما قيمة هذا الإقناع ؟ أنت الخاسر الأول لا سمح الله، وقد تملك كيلو ذهب وأنا متوهِّم أنه تنك معدن خسيس، لا قيمة لهذا الوهم فأنت الرابح الأول، العبرة أن تملك الحقيقة لأن الله يفصل بين الناس يوم القيامة.

المؤمن الصادق يحاول أن يوفِّق بين قناعاته وبين مقاييس القرآن الكريم:

أنا لم أر فئة إلا وتدعي أنها على حق، أي فرقة، أي نموذج في العالم كله، كل جماعة تدَّعي أنها على حق، وهي الصفوة المختارة ـ الصفوة النار ـ هكذا، أما المؤمن الصادق يحاول أن يوفِّق بين قناعاته وبين مقاييس القرآن الكريم، العبرة كما قال النبي الكريم:

((ابتغوا الرفعة عند الله))

[أخرجه ابن عدي في الكامل عن ابن عمر]

العبرة أن تكون عند الله على حق، وأن تكون عند الله مرضياً :

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(15))

(سورة القيامة)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (28- 95):تفسير الآيات 63 - 66، الشدائد هي النعم الباطنة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-02-19

بسم الله الرحمن الرحيم

من الحكمة أن تُعْرَض علينا أمراض الذين من قبلنا كي نتعظ بغيرنا فلا نقع فيما وقعوا فيه:

مع الآية الثالثة والستين وهي قوله تعالى :

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63))

يتابع الله جلَّ جلاله الحديث عن بني إسرائيل، وقد بيَّنت لكم من قبل أن كل الأمراض التي وقع فيها بنو إسرائيل قد تزل قدم المسلمين فيقعوا في مثلها، فلذلك من الأسلوب الحكيم أن تُعْرَض علينا أمراض الذين من قبلنا كي نتعظ بغيرنا فلا نقع فيما وقعوا فيه، كل امتنانٍ من الله على بني إسرائيل في عهد موسى هو امتنانٌ على ذريَّتهم في عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلَّم، لأن الكاف للخطاب:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ (63))

هذا الميثاق هو التكليف الذي كُلِّفتم به، هذا العهد بطاعة الله، هذا العهد بإقامة العدل في الأرض .

أيها الأخوة، أرسل النبي عليه الصلاة والسلام سيدنا عبد الله بن رواحة ليقدِّر تمر خَيْبَر، حيث كان هناك اتفاقٌ بين النبي عليه الصلاة والسلام ويهود خيبر أن يأخذ نصف غلَّتهم من التمر، فكلَّف النبي الكريم عبد الله بن رواحة ليُقَدِّر التمر، أرادوا أن يرشوه، أرادوا أن يعطوه حلياً من حليٍّ نسائهم ليكون التقدير أقلَّ مما ينبغي فيربحون، فقال هذا الصحابي الجليل قولته الرائعة: **" والله لقد جئتكم من عند أحبِّ الخلق إلي ـ أي من عند رسول الله ـ ولأنتم أبغضُ إليَّ من القردة والخنازير، ومع ذلك لن أحيف عليكم "** ، فقال اليهود: **" بمثل هذا قامت السماوات والأرض، وبمثل هذا غلبتمونا ."**

الإنسان مخيَّر ولكن الله عزَّ وجل يسوق له الشدائد ليحمله على التوبة:

دقّقوا إذا أقمنا الحق نغلب أعداءنا ـ بمثل هذا قامت السماوات والأرض، وبمثل هذا غلبتمونا ـ قال تعالى:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى (8))

(سورة المائدة: الآية " 8 ")

وقال:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ (63))

لا يزال ربنا عزَّ وجل يمتنُّ على بني إسرائيل، يمتنُّ على آبائهم في عهد موسى وهو امتنانٌ حكميٌّ على ذرِّيتهم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ، لولا هذا الميثاق، ولولا هذا التكليف ما عرفتم سرَّ وجودكم، فهذا من فضل الله عزَّ وجل.

توجد نقطة دقيقة جداً: الإنسان مخيَّر قولاً واحداً، لكن لماذا يسوق الله عزَّ وجل له الشدائد ؟ ليحمله على التوبة، هل هذه الشدائد التي يسوقها الله للمُقصِّرين تُلغي اختيارهم ؟ الجواب: لا، الإنسان مخيَّر، ولكن الله أحياناً يرسل مصيبة، هذه المصيبة تقع فيما لو رفضنا منهج الله، فإذا قبلناه أُزيحَتْ عنا، هذا لا يتناقض مع التخيير في الدين، ولكن هذا من تربية الحكيم العليم، فهذا الأب الذي يشتدُّ على ابنه في سنين الدراسة ليكون علماً من أعلام الأمَّة، هذه القسوة وهذا الخيار الصعب الذي وضع الأب ابنه فيه إما أن تدرس وإما أن أحرمك من كذا وكذا، هذا لم يلغ اختيار الابن ولكن دفعه إلى أن يختار الأفضل.

ربنا عزَّ وجل يدفعنا إلى أن نختار الأفضل:

إذاً ربنا عزَّ وجل يدفعنا إلى أن نختار الأفضل، يؤكِّد هذا المعنى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ(38)إِلا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً)

(سورة التوبة)

فإن أصررتم:

(وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ (39))

(سورة التوبة)

وما ذلك على الله بعزيز:

(وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً (39))

(سورة التوبة)

وما ذلك على الله بعزيز، معنى ذلك أن الحكيم المربي لو أن هذا الذي أمامه اختار الأسوأ، واختار الهلاك، واختار الضلال، لا بد للمربي الحكيم أن يدفعه إلى أن يختار الصواب، حينما يسوق ربنا جلَّ جلاله الشدائد للمقصِّرين كي يدفعهم إلى الطاعة، وكي يدفعهم إلى الاستقامة، وكي يدفعهم إلى الصُلح مع الله، هذا أسلوب الحكيم، هذا أسلوب المربي الرحيم، هذا لا يُلغي الاختيار، الابن مخيَّر أن يدرس أو لا يدرس، ولكن الأب يقول له حرصاً عليه: إن لم تدرس فأمامك كذا وكذا، ليجعله في خيار صعب، لولا أن الله يسوق لعباده من الشدائد ما يسوقه لهم لما كان معظم الناس في طريق الإيمان سائرين.

الشدائد إذا حملت الإنسان على الطاعات انقلبت إلى نِعَمٍ باطنة:

ربنا عزَّ وجل نتق الجبل بمعنى زعزعه من مكانه وجعله فوقهم، فإما أن يطبِّقوا منهج الله وإما أن يقع عليهم، أي أنه ألجأهم إلى طاعة الله، من هنا قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

((عجِبَ ربُّنا من قومٍ يُقادون إلى الجنَّة بالسلاسل.))

[أحمد والبخاري من ابن مسعود]

أقبِلْ على الله بسلاسل الإحسان لا بسلاسل الامتحان:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(21))

(سورة السجدة)

قال المفسِّرون: نتق الله جبل الطور الذي كلَّم به موسى عليه السلام، نتقه أي زعزعه من مكانه وجعله فوقهم كالظُلَّة، فإن لم يستقيموا على أمر الله أهلكهم بطريقةٍ أو بأخرى، والله أعلم، فمعنى هذه الآية، هذا الجبل ـ كما قال بعض المفسِّرين ـ جبل الطور نُتِقَ أي زُعْزِعَ من مكانه وهدَّدهم بالهلاك إن لم يستقيموا على أمر الله، كم من إنسان أصيب بمرض عضال فتاب توبة نصوحاً، حمله هذا المرض أو حمله شبح هذا المرض على طاعة الله والصُلح معه، اسم هذا المرض يوم القيامة يبعث في نفس هذا المؤمن الذي اهتدى إلى الله عزَّ وجل كل سعادةٍ وسرور، إذا حملت الشدائد الإنسان على الطاعات انقلبت إلى نِعَمٍ باطنة وهذا معنى قوله تعالى:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً (20))

(سورة لقمان)

يجب أن تفهم الشدائد التي يسوقها الله للمسلمين اليوم كهذا الفهم تماماً، الشدائد التي يسوقها الله للمسلمين اليوم في كل بقاع الأرض يجب أن تدفعنا إلى طاعته.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً)

(سورة القصص: الآية "4")

سُنَّة الله في خلقه:

هؤلاء الغربيون الذين يعيشون على أنقاض الشعوب، الذين يدمِّرون الشعوب، ينهبون ثرواتهم، يدمِّرون أسلحتهم، يجيعونهم كما ترون، هؤلاء ينطبق عليهم هذا المبدأ:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ(4)وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ(5)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ(6))

(سورة القصص)

هذه سُنَّة الله في خلقه:

((إذا عصاني من يعرفني سلَّطت عليه من لا يعرفني.))

[ابن أبي الدنيا عن الفضيل بن عياض]

هذا أسلوب الحكيم، هذا أسلوب المُربي الرحيم، تُساق الشدَّة من أجل أن تعرف الله:

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ(17)وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ(19)فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ(20))

(سورة القلم)

من قصَّر بالعمل ابتلاه الله بالهم:

القصَّة معروفة، حينما انطلقوا إلى بساتينهم ليجنوا الثمر ويحرموا حقَّ الفقير:

(فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ(27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ(29))

(سورة القلم)

قال تعالى :

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

(سورة القلم)

أي عذابٍ في الأرض يساق للإنسان هو لهذه العلَّة، لعلَّة أن يهتدي الإنسان، لعلَّة أن يعرف الله، لعلَّة أن يتوب إلى الله، لعلَّة أن يستقيم على أمر الله، لعلَّة أن يعرف سرَّ وجوده، أن يعرف غاية وجوده، لعلَّة أن يسعى إلى الآخرة، لعلَّة أن يسعى إلى جنَّةٍ عرضها السماوات والأرض، والله الذي لا إله إلا هو أكاد أقول إن معظم المسلمين، الصالحين، التائبين، الذين يعرفون الله، الذين اهتدوا إلى الله كانت هدايتهم بسبب شدَّةٍ ساقها الله إليهم، وهذه الشدَّائد هي النِعَمُ الباطنة، إما أن تأتي ربك طائعاً، وإما أن يحملك على أن تأتيه مكروهاً، اختر أحد الحالين ؛ إما أن تأتيه طائعاً، وإما أن يحملك على أن تأتيه مكرهاً، وهذا لا يتناقض مع الاختيار، ولكن يجسِّد رحمة الله عزّ وجل، ويجسِّد حرصه على سعادة الإنسان.

الأب الذي يُسَيِّب أولاده، لا يتعلَّمون، لا يعملون، فإذا كبروا وكانوا في المؤخِّرة، وكانوا مع الحُثالة هؤلاء يلومون آباؤهم، والأب الذي يتشدَّد على أولاده ليحملهم على طاعة الله، ويحملهم على أن يكونوا شخصياتٍ فذَّةً في المستقل هؤلاء يشكرونه طوال حياتهم على شدَّته معهم، هذا معنى الآية:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ (63))

من أجل ماذا ؟ قال :

(خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ (63))

هذه الآية دقيقة جداً، أي أن هذا الطور الذي رُفِعَ عليكم، هل هناك طورٌ آخر في حياة المسلمين ؟ طبعاً، كل واحد له طور، شبح مرضٍ هو طور، شبح مشكلةٍ في الأسرة، شبح فقد مالٍ طور، شبح مرضٍ طور، شيء قوي، شيءٌ يُهَدِّدك، يهدِّد سلامتك، يهدِّد رزقك، يهدِّد سعادتك، يهدِّد أمنك طور، من قصَّر بالعمل ابتلاه الله بالهم.

مداخل الشيطان على الصالحين:

طبعاً هذه الآية بالمعنى الضيِّق، كان جبل الطور سبب حمل بني إسرائيل على أن يسيروا في منهج الله، هذا أسلوب الحكيم، أسلوب الرحمن الرحيم:

(خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ (63))

طبِّق أمر الله بقوَّة، طبِّقه بحذافيره، ماذا يفعل الشيطان مع الإنسان ؟ الشيطان يُغرِي الإنسان بالكفر، فإن لم يكفر يغريه بالشرك، فإن لم يشرك يغريه بالابتداع، فإن لم يبتَّدع يغريه بالكبائر، فإن لم يقترفها يغريه بالصغائر، فإن لم يفعلها يغريه بالمُباحات، فإن ابتعد عنها يغريه بالتحريش بين المؤمنين، وهذه مداخل الشيطان على الصالحين، وكل مصيبة مخيفة هي طور، وكل بلاء متوقَّع طور، ونقص الأمطار طور، آن أوان الزهر، والأمطار تسعة وخمسون ميليمتراً من مئتين واثني عشر، قد تجفُّ الآبار، قد لا نجد ماءً نشربه، قد يهلك الحرث والنسل هذا طور، شدَّة يسوقها الله للعباد ليحملهم على التوبة، كلَّما اتسعت رقعة الفسق والفجور قلَّ ماء السماء، كلَّما قلَّ ماء الحياء قلَّ ماء السماء، وكلَّما اتسعت الصحون على السطوح ضاقت صحون المائدة، وكلَّما رخُص لحم النساء غلا لحم الضأن، هكذا، هذا طور أيضاً بالمعنى الواسع، شدَّةٌ يسوقها الله للذين آمنوا وقصَّروا في طاعته.

آيات دالة على مكانة الكفار الذين ينعمون بثروةٍ فلكيَّةٍ:

قد يقول أحدكم: فما بال هؤلاء الغربيين الذين ينعمون بثروةٍ فلكيَّةٍ، قال: هؤلاء ينطبق عليهم قول الله عزَّ وجل:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً (44))

(سورة الأنعام)

هؤلاء ينطبق عليهم :

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ)

(سورة آل عمران)

هؤلاء ينطبق عليهم قول الله عزّ وجل :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم)

الناس في القبر سواسية مهما علا شأن الإنسان في الدنيا وكبر اسمه:

هل توازن بين شابين ؛ أحد الشابين ليس له من يرعاه، يعيش في الطرقات، يسرق، ويرتكب الفواحش، ويُودَع في السجون، وليس له أبٌ يربيه، ولا رادعٌ أخلاقي، ولا علمٌ يمنعه ؛ وابن يتلقَّى شدَّة بالغة من أبيه ليكون متفوِّقاً، ليكون مستقيماً، هل تتوهَّم أن حالة هذا الشاب المتفلّت أسعد من حالة هذا الشاب المُنضبط ؟ لا، هذا ينتظره مستقبلٌ باهر.. دقّقوا في هذه الآية:

(أفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

أيستوي هذا مع هذا ؟

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

وقال:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلا(77)أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُّمْ الْمَوْتُ)

(سورة النساء)

مهما كبُر اسم الإنسان، ومهما علا شأنه، ومهما مَلَك يُقال له في القبر: يا عبد الله، أيضاف على هذا الاسم لفظ آخر ؟ يا عبد الله اعلم أن الجنَّة حق والنار حق، ويوم القيامة حق وما إلى ذلك، أيطلق عليه لقب كما كان يُطلَق عليه في الدنيا ؟ هل يخاطب لميتٍ في القبر حين التلقين وإن كان التلقين لم يرد عن رسول الله، بألفاظ كبيرة، بألفاظ السيادة ؟ أبداً، يا عبد الله، وهذا هو الموت الذي هو مصير كل حي.

فضل العالِم على العابد:

قال تعالى:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ (63))

لعلَّ بعض المفسِّرين يقول: إنك إن ذكرت ما فيه أخذته بقوَّة، لا تكن عابداً فحسب، كن عابداً عالماً:

((فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ))

[رواه الترمذي عن أبي أمامة]

((فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ))

[ابن ماجة عن الوليد بن مسلم]

قد يفور الإنسان أحياناً ثم يهمد، قد يُقبل ثم يدبر، قد يأتي طائعاً ثمَّ يتراجع، أما إذا بنى سلوكه على العلم، وعلى الدليل، وعلى العقيدة الصحيحة لن ينتكس، ولن يتراجع، هناك مئات من طلاب العلم، مئات من روَّاد المساجد أقبلوا، وانخرطوا، وبذلوا، فتنتهم امرأةٌ عن دينهم، فتنتهم وظيفة مغرية عن دينهم، لأنه لا يوجد لديهم أساس متين، لا تصمد العواطف أمام المغريات، ولا أمام الضغوط، ولا أمام الإغراءات، المؤمن القوي لا يزحزحه عن إيمانه لا سبائك الذهب اللامعة، ولا سياط الجلاَّدين اللاذعة، سيدنا بلال وضِعَت صخرةٌ عليه، اكفر، وهو يقول: أحدٌ أحد.

إنعام الله على بني إسرائيل بنعم كثيرة :

إذاً:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63))

لعلّكم تتقون العذاب في الآخرة، لعلّكم تتقون عذاب الدنيا، لعلّكم تتقون الهلاك، لعلّكم تتقون سَخَط الله عزَّ وجل، لعلّكم تتقون جهنَّم التي هي أكبر عقابٍ يناله الإنسان في الكون:

(ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ (64))

أصبح البحر طريقاً يبساً أمامكم، عصا سيدنا موسى أصبحت ثعباناً مبيناً، نزع سيدنا موسى يده فإذا هي بيضاء للناظرين، كل هذه الآيات وقالوا :

(اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ)

(سورة الأعراف: الآية " 138 ")

ثمَّ عبدوا العجل من بعد ذلك ومع ذلك فالله أرحم الراحمين، وهو الغفور الرحيم، وهو التوَّاب الرحيم، وهو قابل التوبة عن عباده:

(ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64))

كل عمل الإنسان في الدنيا هو سببٌ لدخول الجنَّة وليس ثمناً لها:

أيها الأخوة، الجنَّة هي العطاء الحقيقي:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا مَتَاعُ الْغُرُورِ(185))

(سورة آل عمران)

الفوز الحقيقي بلوغ الجنَّة، الفوز الحقيقي النجاة من النار هذا هو الفوز الحقيقي، والجنَّة التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، هذه الجنة هي بفضل الله، فكيف نجمع بين قوله تعالى:

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(32))

(سورة النحل)

وبين قول النبي صلَّى الله عليه وسلَّم في الحديث الصحيح:

((لا يَدْخُلُ أَحَدُكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، قَالُوا: وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: وَلا أَنَا إِلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ وَفَضْلٍ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ))

[أحمد عن أبي هريرة]

التوفيق بين الآية والحديث هو أن للجنَّة ثمناً وأن لها سبباً، إيمانك بالله، واستقامتك على أمره، وعملك الصالح سببٌ لدخولك الجنَّة، وليس ثمناً لها، بيت قيمته مئة مليون، إذا دفعت ثمن مفتاحه عشرة ليرات، ودخلت البيت وسكنته بفضلٍ من الله عزَّ وجل فهل تقول: أنا اشتريت المفتاح يا أخي، أنا دخلته بهذا المفتاح ؟ هذا ثمن المفتاح ولكنك لم تدفع ثمن البيت ؛ بل دفعت ثمن المفتاح فقط، فكل عمل الإنسان في الدنيا هو سببٌ لدخول الجنَّة، وليس ثمناً لها، الجنَّة برحمة الله، الجنة محض فضلٍ، وكل عملك سبب لدخولك الجنَّة، والسبب شيء والثمن شيءٌ آخر.

الأقوياء في الأرض عصيٌّ بيد الله يؤدِّب بهم من يشاء من عباده:

وعد والدٌ ابنه أن يشتري له درَّاجة غالية الثمن إذا نجح، فهذا الطفل لمَّا أخذ جلاءه ناجحاً توجَّه إلى بائع الدرَّاجات مباشرةً وقال له: أعطني دراجة وخذ هذا الجلاء، البائع لا يعطيه، لا بد من أن يدفع الأب ثمن هذه الدراجة، أنت قدَّمت السبب الذي اشترطه الأب عليك ولكنك لم تقدِّم الثمن، الثمن يدفعه الأب، أنت قدَّمت السبب، فلذلك لو أنك عرفت الله، لو استقمت على أمره، لو أطعته، لو أنفقت مالك هذه كلُّها أسباب، أما الثمن هو فضل الله عزَّ وجل:

(ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64))

كل واحد منَّا لم يتوله الله بالعناية لو نشأ على معصية لاستمرَّ عليها حتَّى الموت، لكن ربنا عزَّ وجل رب العالمين رحيم بعباده، عندما يغلط الإنسان يأتي العقاب، يأتي الردع، يأتي الحزن، يأتي الخوف، يأتي القلق، يأتي المرض، هذه كلُّها أدواتٌ تأديبيَّة، حتى إن الأقوياء في الأرض عصيٌّ بيد الله يؤدِّب بهم من يشاء من عباده:

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(129))

(سورة الأنعام)

وقال:

(ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ (64))

هناك آيات كثيرة:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً (21))

(سورة النور)

وقال:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً(113))

(سورة النساء)

إذا حملت المعرفة الإنسان على طاعة الله فهذا أكبر فضلٍ يناله الإنسان في الدنيا:

إذا نوَّر الله عزَّ وجل قلب الواحد ومنحه شيئاً من المعرفة، وهذه المعرفة حملته على طاعة الله فهذا أكبر فضلٍ يناله الإنسان في الدنيا، قال الله عزَّ وجل :

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة: الآية " 269 ")

الذي معه ألف مليون دولار، قال الله عزَّ وجل :

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: الآية " 77 ")

ألف مليون قليل:

(وَمَا أُوتِيتُم مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ(60))

(سورة القصص)

وقال:

(آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ)

(سورة طه: الآية " 71 ")

سحرة فرعون:

(إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى(71)قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72)إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(73))

(سورة طه)

الدنيا لا تستقيم لأحد أبداً:

كلامٌ دقيق:

(وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(73))

إذا خيِّرت أن تركب سيَّارةً فخمة لربع ساعةٍ فقط، أو أن تُمْنح دراجة غالية الثمن ماذا تختار ؟ أن تركب هذه السيارة ربع ساعة أو أن تمنح هذه الدراجة تملُّكاً ؟ إنَّك تختار الدراجة، إذا خيِّرت بين أن تركب هذه السيارة ربع ساعة، وبين أن تمتلك مثلها ملكيَّة ثابتة، هل تتردَّد ثانية ؟ أما إذا خيِّرت أن تركب هذه الدراجة ربع ساعة، وبين أن تتملَّك أكبر وأغلى سيَّارة، إذا تردَّد الإنسان ربع ثانية يكون مجنوناً

(وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

المثال للتوضيح، الآخرة فيها نعيم مقيم وإلى الأبد، الدنيا مشحونة بالمتاعب، إنَّ هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، لا تستقيم لإنسان، يؤتى الصحَّة يخسر المال، يؤتى المال من دون صحَّة، صحَّة ومال الزوجة سيئة، زوجة جيدة لا يوجد مال، زوجة جيدة لا يوجد أولاد، يوجد أولاد ولكن الدخل قليل، دخل وأولاد وزوجة يوجد مرض، هذه الدنيا لا تستقيم لأحد أبداً.

لكل شيءٍ إذا ما تمَّ نقصانُ فلا يغرَّ بطول العيش إنسانُ

***

قال تعالى:

(ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64))

ما ورد في القرآن من أيام الأسبوع إلا الجمعة والسبت:

أيها الأخوة:

(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65))

الأيام ؛ الأحد تعني واحد، الاثنين اثنين، ثلاثاء ثلاثة، أربعاء أربعة، خميس خمسة، جمعة ستَّة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ)

(سورة الجمعة: الآية " 9 ")

سُمِيَّ هذا اليوم يوم جمعة كي نجتمع، كي يأتي الإنسان إلى المسجد، كي يصغي إلى الحق، كي يعرف سرَّ وجوده:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الجمعة: الآية " 9 ")

ما ورد في القرآن من أيام الأسبوع إلا الجمعة والسبت، يوم السبت عند اليهود يوم انقطاعٍ عن العمل، يوم عبادة، وعندنا نحن المسلمين يوم الجمعة يوم عبادةٍ واجتماعٍ، يقول عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَ مِرَاتٍ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ))

[سنن أحمد عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

إذاً: من ترك الجمعة ثلاث مرات من دون عذر نكتت نكتة سوداء في قلبه.

الإنسان بين رحمة الله في المسجد وبين فضل الله خارج المسجد:

الله عزَّ وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا(9))

يخاطب المؤمنين:

(إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ(9))

حصراً:

(فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ(9))

(سورة الجمعة)

ما أرادك الله عزَّ وجل أن تبيع وتشتري في أوقات العبادة، ولا أمرك في أوقات الراحة أن لا تعمل، أرادك أن تعبدَه، وأن تعمل لدنياك، لذلك:

(فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ)

(سورة الجمعة: الآية " 10 ")

كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل المسجد يدعو ويقول:

((إذا دخَل أحدُكم المسجد، فلْيَقُلْ: اللّهمَّ افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللّهمَّ إني أسألك من فضلك))

[مسلم عن أبي حميد]

أنت بين رحمة الله في المسجد، وبين فضل الله خارج المسجد.

أشكال القوة :

المؤمن أيها الأخوة يأتي إلى المسجد ليتلقَّى تعليمات خالقه، ويعود إلى المسجد ليقبض الجائزة، وجودك هنا لمهمَّتين، كيف أن الشركات الضخمة لها مندوبو مبيعات يأتي المندوب الساعة الثامنة ثم يأتي مساءً ليقدِّم كشف الحساب ويأخذ العمولة، فكل مسلم صادق إذا توهَّم أن مجرَّد مجيئه إلى المسجد هو العبادة فهذا خطأ كبير جداً، تأتي إلى المسجد لتتعرَّف إلى الله وإلى منهجه، وإلى افعل ولا تفعل، فإذا عُدَّت لتصلي في المسجد كي تقبض الجائزة، أما أن تتوهَّم أنه لمجرَّد حضورك في

المسجد فقد كنت عابداً، لا، لا بد أن تطبِّق الدين في الطريق، في المتجر، في البيت، معك التعليمات، التطبيق هناك، هنا أخذ التعليمات وقبض الجائزة، وفي البيت، والطريق، والعمل، والمتجر، والسفر، والإقامة هناك تنفِّذ هذه التعليمات، فالإنسان ينبغي أن يعمل وأن يتعبَّد كما ورد في الأثر:

((ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا من ترك آخرته لدنياه، إلا أن يتزوَّد منهما معاً، فإن الأولى مطيَّة للثانية))

[ورد في الأثر]

قال تعالى:

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ(26))

(سورة القصص)

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ))

[مسلم عن أبي هريرة]

القوَّة قوة مال، والقوة قوة علم، والقوة قوة مركز، إذا كنت في مركزٍ قوي بإمكانك أن تنفع المسلمين:

(اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ(55))

(سورة يوسف)

إذا كنت ذو حجمٍ مالي كبير يمكن أن تحل مشكلات آلاف المسلمين ؛ تزوِّج الشباب، تطعم الفقراء، تبني المساجد، تبني المدارس الشرعيَّة، تبني المستشفيات، وإذا كنت عالماً وانتفع الناس بعلمك فهذه قوَّة:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(3))

(سورة البقرة)

حينما تجعل من يوم العبادة يوم عمل فقد عصيت الله عزَّ وجل لأن هذا يوم عيد:

العلم قوَّة، والمال المشروع قوة إذا اكتسبته من طريقٍ مشروع، والعلم الشرعي معرفة الله عزَّ وجل ومعرفة منهجه قوة، والمركز الذي لا يُبْنَى على معصية الله بل يُبْنَى على طاعة الله هو قوة أيضاً، لذلك أرادنا الله جلَّ جلاله أن نعمل وأن نتعبَّد في الوقت نفسه، أمسك النبي عليه الصلاة والسلام يد ابن مسعود، وكانت خشنة من العمل فقال:

((إنَّ هذه اليد يحبُّها الله ورسوله))

[ورد في الأثر]

سيدنا عمر يقول: **" إذا رأيت الرجل ليس له عمل يسقط من عيني "**، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى))

[البخاري عن حكيم بن حزام]

كن منتجاً، كن منفقاً، لكن لا تجعل من يوم العبادة يوم عمل: **" إنَّ لله عملاً في الليل لا يقبله في النهار، وإن لله عملاً في النهار لا يقبله في الليل."**

حينما تجعل من يوم العبادة يوم عمل فقد عصيت الله عزَّ وجل، يوم الجمعة، يوم صلاة الجمعة المسلم الصادق يهيِّئ البيت تهيئة خاصَّة، هذا اليوم ليس يوم تنظيف ولا حل مشكلات، ولا أن يقوم البيت ولا أن يقعد يوم الجمعة، هذا يوم عيد، يجب أن تهيِّئ الأهل والأولاد ليكونوا معك في صلاة الجمعة ليتلقَّوا وليؤدوا هذه العبادة التعليميَّة التي جعلها الله حدّاً أدنى لطلب العلم، كما يقال: محواً للأميَّة، محواً لأميَّة الدين، قد يحمل الإنسان أعلى شهادة وهو في الدين أمي، والدليل: كما أن أكبر عالِمٍ في الدين إذا أعطي تخطيط قلب نقول: هذا أمي في هذا التخطيط، يجد خطوطاً هكذا، أما إذا قرأ الطبيب التخطيط يفهم الشيء الكثير، بينما أكبر عالِمٍ في الدين يُعدُّ أمياً في الطب، وبالمقابل قد يحمل إنسان أعلى شهادة وهو في الدين أميّ.

حجَّ مسؤول من بلد عربي، وكان يحتل منصباً رفيعاً في وزارة، ففي طريق العودة قال: والله الحج جيد، لكن ليت القائمين على هذه الشعيرة يجعلونه على مدار السنة دفعاً للازدحام، معنى هذا أنه جاهلٌ في الدين جهلاً مطبقاً، فقد يكون الإنسان مثقَّفاً أعلى ثقافة، وهو في الدين أمي، لذلك ينبغي أن تطلب العلم الديني وأن تعمل لكسب رزقك.

هناك من يجتهد ليحل كل شيء إلى أن أصبح الدين شكلاً بلا مضمون:

أما ماذا فعل اليهود يوم السبت يوم العبادة ؟ أنشؤوا أحواضاً وفتحوها يوم السبت حتى إذا أتت الحيتان يوم سبتهم أغلقوها مساءً، واصطادوها يوم الأحد !!! حيلة شرعيَّة، وهذا يشبه الحيل الشرعية التي يفعلها بعض المسلمين، لعلَّها الآن تقلَّصت لضعف الدين أساساً، كان يضع زكاة ماله برغيف خبز، يهبها لفقير، والفقير لا يدري أن الرغيف فيه خمسة آلاف ليرة، ثم يقول له: هل تهبني هذا الرغيف الذي هو بخمس ليرات ؟! يقول له: أتمنَّى، يقول لك: أنا دفعت زكاة مالي للفقير، هذا شيء مضحك، وعلى هذا تقاس أشياء كثيرة جداً، نغير الأسماء فتصير المحرَّمات مباحات، نقوم بتعليلات، اجتهادات، نقول: هذا القرض ليس القصد منه الاستغلال بل هو قرض استثماري وليس فيه تحريم، من قال لك ذلك؟!!

هناك من يجتهد ليحل كل شيء إلى أن أصبح الدين شكلاً بلا مضمون، شكلاً بلا منهج، كل شيء مباح، توجد الآن فتاوى لكل شيء، كل شيء مباح ؛ التمثيل، والغناء، والاختلاط، لم يبق في الدين شيء محرَّم، تحت إطار التطور، المرونة، أين الدين ؟ الدين توقيفي، الدين دين الله عزَّ وجل، الدين

ما جاء به الكتاب والسنة، أما أن نفلسف، وأن نكون مرنين، وأن نطوِّر إلى أن نبيح كل شيء، فهذا الشيء ليس من الدين في شيء .

قال العلماء عن هؤلاء الذين احتالوا حيلاً شرعيَّة: لو أنك لا سمح الله ولا قدَّر فعلت المعصية ولم تقولبها بحيلةٍ شرعيَّة لكان أفضل، إنك حينما قولبتها بحيلةٍ شرعيَّة لا تتوب منها، تظن أنك على حق، أما حينما تفعلها مجرَّدةً من حيلةٍ شرعيَّة تتوب من هذا الذنب، فأخطر شيء أن يكون عندك مجموعة فتاوى غير صحيحة لمعاصٍ كبيرة وأنت مرتاح على أن هناك فتاوى فيها، هذه الفتاوى لا تُقبَل عند الله عزَّ وجل، لذلك أنا أقول لكم دائماً: لكل معصية فتوى، أنت ماذا تريد فتوى أم تقوى ؟ الفتوى موجودة إذا أردت، تجد فتوى لكل معصيةٍ مهما تكن كبيرة، هناك من يفتي بها، والذي يفتي بها جعل من نفسه جسراً إلى النار.

آراء بعض المفسرين في الآية التالية:

حدثني أحد علماء دمشق الأجلاَّء أنه كان في حضرة عالمٍ في بلدٍ عربي مسلمٍ ـ في حضرة عالِمٍ وكان يُحتضَر، في وقت النَزع ـ قال لي: والله شاهدته بأمِّ عيني رفع يديه إلى السماء هكذا وقال: يا رب أنا بريء من كل فتوى أصدرتها في الموضوع الفُلاني ـ موضوع الفوائد والأموال ـ وهو في النزع الأخير، ولكن ما الفائدة من هذه التوبة وهو على فراش الموت ؟ هناك من يُفتي بأشياء حَرَّمها الله، ثلاثة وثمانون ملياراً أودِعَت في البنوك عقب فتوى، ثلاثة وثمانون ملياراً في بلد عربي عقب فتوى ليست كما يريد الله عزَّ وجل.

على كلٍ هذا الذي يعرف الأمر ولا يعرف الآمر يتفنَّن في التفلُّت من الأمر، أما الذي يعرف الآمر ويعرف الأمر يتفانى في طاعة الآمر:

(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65))

تريد أن تبيع هذه السلعة بعقدين، بعقد مع الزيادة وعقد بلا زيادة، قرأت مقالة طريفة جداً، بكم هذه السلعة ؟ تقول له: مثلاً بألف، يسألك ماذا تطبخ اليوم ؟ تقول له: فاصولياء، انتهى أول مجلس، والثاني دخل، ما دام دخل فالموضوع غريب، عندما قال: ماذا تأكل اليوم ؟ صار المجلس جديداً، انتهى أول مجلس، وصار المجلس الثاني، وسعر هذه السلعة بألف وخمسمئة، فهو بطريقةٍ أو بأخرى دخل في موضوع آخر ليغير سعر السلعة عند تأجيل الدفع، الله عزَّ وجل ناظرٌ، سميعٌ، عليمٌ، بصير.

(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65))

قال بعض المفسِّرين: جعلهم الله قردةً، وهذا المَسخ لا يتناسل وانقرضوا، فإذا قلت: هل مازال هناك يهود ؟ ليسوا جميعاً كانوا عصاةً فَمُسِخَ الذي عصى، هذا رأي.

الرأي الثاني مُسِخوا قردةً وخنازير وعبدة الطاغوت، ما معنى ذلك ؟ عورة القرد ظاهرة، ولها لون فاقع خاص، عورته ظاهرة وشكله قبيح، وهمُّه شهوته، إذا رأيت إنساناً عورته ظاهرة، ولا يبالي بسمعته، وهمُّه فرجه وبطنه فهو قرد بالمفهوم السلوكي والقيَمي، قال بعض العلماء: مسخوا قردة أي بأخلاق القردة، ووقاحة القردة، ودمامة القردة، وعدم حياء القردة، فإذا مشى إنسان مع زوجته بثيابٍ فاضحة لا تخفي منها شيئاً أليس قرداً ؟ بل إن الذين يرفضون نظرية دارون بعضهم آمن بها مجدَّداً لكنَّها معكوسة، كان إنساناً فصار قرداً لا يستحي، ولا يخجل، ولا ينصاع لأمر، ولا لقيمة، ولا لخُلُق، فالذين قالوا: مسخوا قردةً حقيقيين لهم أدلّتهم، والذين قالوا: مسخوا بأخلاقهم وقيمهم قردةً لهم أدلّتهم أيضاً، القرآن حمَّال أوجه لك أن تفهمه هكذا أو هكذا ضمن قواعد وأصول.

تعريف بسيط للقردة والخنازير وعبدة الطاغوت :

على كلٍ إذا كانت عورة الإنسان مكشوفة ولا يستحي بها وهمُّه بطنه وفرجه هذا قرد بالمعنى السلوكي، وهناك من مسخ خنزيراً لا يغار على عرضه، أو يرضى الفاحشة في أهله، والله قال لي إنسان رأى بأم عينه: دخل إلى بيت إنسان وقال له: هذه زوجتي، وهذه أختي، وهذه أخت زوجتي، وأعطى الأسعار، أسعار دقيقة، هذا خنزير، هذا الذي لا يغار على عرضه أو يرضى الفاحشة في أهله هذا خنزير.

عبدة الطاغوت هم الذين ما عبدوا ربهم، أي أنهم خافوا من دون مبرِّر، عصوا ربَّهم وأرضوا مخلوقاً، من أرضى الناس بسخط الله سخط عليه الله وأسخط عليه الناس، فالناس مُسِخوا إما قردة عورتهم ظاهرة وهمُّهم بطنهم وفرجهم، وإما خنازير لا يغارون على أعراضهم، وإما عبدة طاغوت يخضعون، قال له: **" يا بني الناس ثلاثة ؛ عالمٌ ربَّاني، ومتعلِّمٌ على سبيل نجاة، وهمجٌ رعاع أتباع كل ناعق لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤوا إلى ركنٍ وثيق فاحذر يا كميل أن تكون منهم ".**

(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65))

خاسئين أي مهزومين، وأكبر هزيمة أن تُهْزَم أمام نفسك، هذه أكبر هزيمة، مهزوم عند نفسك.

لا عقوبة بلا تجريم ولا تجريم بلا تشريع :

قال تعالى:

(فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66))

النكال العقاب الشديد، لمَّا جعلهم قردة خاسئين كان هذا تنكيلاً بهم، أي أنه أوقع العقاب بهم ليكون لمن حولهم، ولمن بعدهم، ولكل مؤمنٍ ردعاً وموعظة، لذلك قالوا: لا عقوبة بلا تجريم، ولا تجريم بلا تشريع، الله شرَّع فلمَّا خالفوا صار هناك جرم، وعندما صار الجرم وجب العقاب، كلام دقيق:

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر]

لا عقوبة بلا تجريم ولا تجريم بلا تشريع، هناك نص، وهناك مخالفة، وهناك عقوبة، هكذا شأن العدل، هكذا شأن الحق جلَّ جلاله، فجعلنا هذا المسخ قردة وخنازير:

(فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا (66))

لمن حولها:

(وَمَا خَلْفَهَا (66))

لمن بعدهم:

(وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66))

أكثر الأحكام الشرعية تصون المال والعرض :

أجروا إحصاءً فيدرالياً في عام خمسة وستين وتسعمئة وألف، حيث قُسِّمت جرائم الاغتصاب والقتل والسرقة على الثواني، فوجدوا أنه في كل ثلاثين ثانية تُرْتَكَبُ جريمة قتلٍ، أو سرقةٍ، أو اغتصاب، أما حينما طُبِّق حكم قطع اليد في بعض البلاد الإسلاميَّة رأيت العجب العجاب، هل من الممكن لصرَّاف أن يدع كل أمواله على الطريق وأن يذهب ليصلي في المسجد ؟ ممكن ؟ هذا كان يحدث، لأنه طُبِّق حكم قطع اليد، سُئل الإمام الشافعي من قِبَل شاعر، قال: يدٌ بخمس مئينٍ ـ أي خمسمئة من الذهب ـ:

يدٌ بخمس مئينٍ عسجد وديت ما بالها قُطِعَت في ربع دينار

****

إذا قُطِعَت في حادث سير فديَّتها خمسمئة دينار ذهبي، لو أن سائقاً أرعنَ أصاب إنساناً وقُطِعَت يده، ديَّتها خمسمئة دينار ذهبي، قال: ما بالها قُطِعَت في ربع دينار ؟

أجابه الإمام الشافعي :

عزُّ الأمانة أغلاها وأرخصها   ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

***

فقال ابن الجوزي لما سئل عن ذلك:

لمَّا كانت أمينة كانت ثمينة فلمَّا خانت هانت.

***

لذلك أكثر الأحكام الشرعية تصون المال والعرض، ما الفساد ؟ الفساد هو حرية كسب المال بلا رادع، وحرية ارتكاب الموبقات والشهوات، لذلك هناك جلد، وهناك رجم، وهناك قطع يد، أخطر شيء في الحياة صون الأعراض وصون الأموال.

(فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (29- 95):تفسير الآيات 67 - 74، صفات البقرة كما وردت في القرآن الكريم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-02-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر الله تعالى بأشياء ونهى عن أشياء وسكت عن أشياء وذلك لحكمة بالغة:

مع الآية السابعة والستين وهي قوله تعالى:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً (67))

أولاً إن الله عزَّ وجل أمرنا في كتابه أو من خلال سنة نبيه بكل شيء يقربنا إليه ونهانا عنه كل شيءٍ يبعدنا عنه، إن في كتابه أو في سنة رسوله، وهناك أشياء سكت عنها الشرع لا أمراً ولا نهياً، إذاً هي حيادية لا تُقرِّب ولا تُبعِّد، كلون هذه الطاولة، لو أن هذا اللون أخضر، لو أنه أزرق، لو أنه أبيض، لو أنه بُنِّي، لون هذه الطاولة لا يقرِّب ولا يُبَعِّد حيادي، لذلك إن الله أمر بأشياء ونهى عن أشياء وسكت عن أشياء، فالذي أمر به يُقرِّب، والذي نهى عنه يُبْعِد، والذي سكت عنه لا يُقرِّب ولا يُبَعِّد.

حينما يسكت الشرع عن شيء ينبغي أن يحترم الإنسان سكوت الشرع عنه، لا أن يسأل عنه، سكت عن شيء لحكمة بالغة، كما أن هناك حكمة بالغة من الأمر هناك حكمةً بالغة من النهي، هناك حكمةٌ بالغةٌ بالغة من الشيء الذي سكت الله عنه، لذلك ما أَضَلَّ الله قوماً بعد إذ هداهُم إلا أوتوا الجَدَل في المسكوت عنه، فالمسلمون أو بعض المسلمين مقصرون تقصيراً شديداً، ومع ذلك يحشرون أنوفهم في جُزْئِيَّات، وفي خلافيَّات، وفي قضايا لا تقدم ولا تؤخر، ويجعلون من هذه الموضوعات الصغيرة موضوعات كبيرة، ويختصمون، ويختلفون، ويتناقشون، ويتباغضون، ويتعادون، ويتهم بعضهم بعضاً، والقضية صغيرة جداً هامشية لا تقدِّم ولا تؤخر.

لذلك أيها الأخوة القرآن الكريم دقيق، مثلاً ذكر القرآن قصة وأغفل بعض التفاصيل، أغفل مكانها وزمانها، أغفل أسماء أشخاصها، أغفل بعض التفاصيل السابقة واللاحقة، حيثُما سكت القرآن عن شيءٍ فاسكت أنت عنه لأنه لا فائدة منه، لا جدوى منه، حينما تحاول أن تبحث عن هذه التفاصيل تفسد على الله حكمته، لأن الله عزَّ وجل أراد نموذجاً متكرراً، لم يرد قصة وقعت ولن تقع مرة ثانية، هو أراد نموذجاً، أراد نموذجاً تقتدي به، فأنت حينما تبحث عن التفاصيل وعن الجزئيات، أنت تفسد على الله حكمته، أراده الله نموذجاً متكرراً فجعلته قصة وقعت ولن تقع بعد اليوم.

الله عزَّ وجل يعطينا درساً بليغاً في تعنت بني إسرائيل:

الأكمل بالمؤمن والأولى أن يأتمر بما أمره الله به، وأن ينتهي عما نهاه عنه، والذي سكت عنه هو مباح، لا تُضَيِّق عليك الخناق، لا تضيق عليك الوثاق، استفد من بحبوحة الله، فالله عزَّ وجل يعطينا درساً بليغاً، درساً بليغاً في التعنُّت، تعنت بني إسرائيل، درساً بليغاً في انغماسهم بالجزئيات والتفاصيل التي سكت عنها الشرع، قال الله عزَّ وجل:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً (67))

بقرة نكرة، أية بقرة، أيَّة بقرةٍ صالحةٍ لتنفيذ هذا الأمر:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً (67))

لكن لماذا ؟ أنت حينما تتلقى أمر من مساوٍ لك تسأله لماذا ؟ قال لك زميلك في الدائرة: افعل كذا، تقول له: لماذا ؟ دائماً وأبداً حينما تتلقى أمراً من مساوٍ لك، من ندٍ لك تسأله عن الحِكمة، وعن العِلَّة، وما السبب، ولماذا ؟ أما حينما تتلقى أمراً ممن فوقك ممنوعٌ أن تسأله لماذا ؟ أنت مريض لا تعلم في الطب شيئاً، دخلت إلى طبيب وأعطاك أمراً، يجب أن تأتمر بهذا الأمر، أنت جندي في معركة حاسمة والقائد العام أصدر أمراً عليك أن تأتمر، فكيف إذا كنت عبداً لله عزَّ وجل وخالق السماوات أعطى أمراً، قال علماء العقيدة: علَّةُ أي أمرٍ في الكتاب والسنة أنه أمر.

ذهب رجل من أهل العلم إلى أمريكا، والتقى بعالمٍ أسلم حديثاً، ودار الحديث حول لحم الخنزير، أفاض هذا العالم المَشْرِقي في الحديث عن علة التحريم، وعن أضرار لحم الخنزير، وعن الدودة الشريطية، وعن الآثار النفسية التي يتركها هذا اللحم في نفس الآكل، ومضى يتحدَّث لساعاتٍ طويلة عن حكمة تحريم لحم الخنزير، فما كان من هذا العالم الغَرْبي المُسْلِم حديثاً إلا أن قال: كان يكفيك أن تقول لي: إن الله حرمه.

الأمر يُقيَّم بالآمر:

ذات مرة في برنامج سألوا دكتورة في جامعة من جامعات البلاد العربية عن رأيها في التعَدُّد، فقالت: كيف يكون لي رأي في التعدد وقد أباحه الله عزَّ وجل ؟!!

الأمر الإلهي هو من خالق السماوات والأرض، الأمر يُقَيَّم بالآمر، من هو الآمر ؟ هو الله، الحكمة المُطلقة، والعلم المطلق، والخبرة المطلقة، والرحمة المطلقة، والعدل المطلق، فحينما يقول الله:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة التحريم: الآية " 8 ")

أي يا من آمنتم بي خالقاً، يا من آمنتم بي إلهاً، يا من آمنتم بي مربياً، يا من آمنتم بعلمي، يا من آمنتم بحكمتي، يا من آمنتم بقدرتي، يا من آمنتم بلُطفي، يا من آمنتم برحمتي، يا من آمنتم بعدلي، أنا

آمركم بكذا وكذا، لذلك المؤمن الصادق لمجرَّد أن يتلقى أمراً من الله عزَّ وجل ينصاع إلى تنفيذه من دون أن يسأل عن الحكمة والعِلّة، إذا سأل بعد التنفيذ ليعلّم الناس فلا مانع، إذا سأل عن الحكمة والعلة ليكون داعية ليقنع الناس لا يوجد مانع، أما أن يعلّق تنفيذ الأمر على معرفة الحكمة، الكلمة الخطيرة الآن إنه عندئذٍ لا يعبد الله يعبد نفسه.

إنسان يصوم لكي ينزل وزنه، يصوم ليصون أجهزته، هذا لم يصم عند الله، ولا يمكن أن يقبل صومه عند الله، هو يصوم في صحَّتِهِ، وأناسٌ كثيرون ملحدون يصومون لصحتهم، العبادة انصياع لله عزَّ وجل، أما أنا حينما أُصلي من أجل تليين عضلاتي، أصلي من أجل تليين مفاصلي، أنا أصلي من أجل أن أحافظ على رشاقتي هذه ليست صلاة، اذهب إلى نادٍ رياضي وليِّن عضلاتك، لا تدخل أمراً بأمر، اجعل الدين خالصاً لله عزَّ وجل، الصلاة صلاة، الحج حج، الصيام صيام.

الذي ينفذ أمر الله طاعة له وامتثالاً لأمره يصل لأعلى درجة وهي العبودية لله:

أية آيةٍ في القرآن الكريم تفتتح بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة التحريم: الآية " 8 ")

كأن الله عزَّ وجل يقول: يا عبادي الذين آمنتم بي، آمنتم بي خالقاً، آمنتم بي مربياً، آمنتم بي مسيراً، آمنتم بعلمي، بقدرتي، برحمتي، بعدلي، بقوتي، بإنصافي، بعدلي، فأنت بمجرد أن يأتيك أمرٌ من فوق يجب أن تنصاع له، أما إذا جاءك أمر من مساوٍ لك تسأله: لماذا ؟ لك أن تسأله، لكن ليس لك أن تسأل الله عزَّ وجل قبل أن تنفذ الأمر، هناك نقطة دقيقة جداً، أنت حينما تنطلق لتنفيذ أمر الله عزَّ وجل طاعة له، وعبودية له، وامتثالاً له حققت أعلى درجة يبلُغها الإنسان وهي درجة العبودية لله عزَّ وجل، الآن يكافئك الله عزَّ وجل بعد أن أقبلت على أمره ونفَّذته بحذافيره، طاعةً له وانصياعاً وتقرُّباً، يكشف لك عن حكمة هذا الأمر، فتجمع بين العِلم والعبادة معاً، يعطيك مرتبة العُبَّاد الصادقين، ويعطيك مرتبة العُلماء المتفهمين، لذلك المقولة الأولى: عِلّةُ أية أمرٍ أنه أمرٌ من الله عزَّ وجل، هذا الكلام سُقتُهُ من أجل فكرةً واحدة، وهي أن الله عزَّ وجل يقول:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً (67))

أين التعليل ؟ لا يوجد تعليل، وليس هناك تعليل، ولا ينبغي أن تبحث عن التعليل، لأنه من عند الله، استعمل عقله حتى وصل إلى طبيب من أعلى مستوى علماً وفهماً وإخلاصاً وتديناً وصلاحاً وقدرةً وسمعةً وخبرةً، هداك عقلك إلى هذا الطبيب، دخلت العيادة لا يمكن أن تسأله، انتهى دور العقل، جاء دور النَقل، جاء دور التَلقِّي، عقلك حصان ركبته إلى باب السلطان، فلما وصلت إلى باب السلطان دخلت وحدك، لأنه إله، إله يأمر، أنت أمام طبيب يحمل شهادة عُليا من بلد متقدم جداً تخجل أن تسأله: لماذا ؟ علم واختصاص وخبرة، أنت لا تسأل لماذا إلا لمن يساويك.

المؤمن الصادق أمام مرحلتين ؛ مرحلة معرفة الله عزَّ وجل ومرحلة معرفة أمره ونهيه:

هذا الذي لا يقبل على أمر الإله إلا إذا فهم حكمته هو لا يعبد الله أبداً بالتأكيد إنما يعبد نفسه، وأي إنسان حتى المُلحد لو اتضح له الخير في أمر ما فإنه يطبِّقه، هل يطبقه تعبداً ؟ أنا قرأت مرة مقالة عن أستاذ جامعي لا يؤمن بالله إطلاقاً، قال: هو ينام باكراً، ولا يشرب الخمر، ويربِّي أولاده على الصدق، هو يعبد الدنيا، يعبد مصالحه، يعبد ذاته، تقتضي عبادة ذاته أن يكون صادقاً فصدق، تقتضي عبادة ذاته أن يكون أميناً فكان أميناً، هذه ليست عبادة، العبادة أن تُقبل على تنفيذ أمر الله عزَّ وجل، وربنا عزَّ وجل جعل أمثلة كثيرة جداً، فمثلاً الله عزَّ وجل أعطى أمراً إلى نبيٍ كريم إلى أبي الأنبياء إبراهيم، أعطاه أمراً لا يمكن أن يُقْبَل بالعقل، قال له: اذبح ابنك، وابنه نبي:

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

(سورة الصافات: الآية " 102 ")

هذه العبودية، أيعقل أن النبي الكريم وهو في الطائف يُتَهم ويسخر منه ويكذَّب، ويناله أذى من أهل الطائف تراه يقول:

((إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر، وفي سنده ضعف]

معاني العبودية لله، والاستسلام لله، والانصياع لله، وتنفيذ أمر الله، وطاعة الله هذه المعاني تملأ القلب سعادةً، أنا عبد علي أن أنفذ .

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ(66))

(سورة الزمر)

أما هذا الذي لا يُنَفِّذ كي يفهم، ولا يفهم إلا بعد التعنُّت، هذا لا يعبد الله عزَّ وجل إنما يعبد نفسه، فالمؤمن الصادق لمجرَّد أن يرى أمراً لله ينفذه، تعرَّف إلى الله، فكِّر في الكون، حقق معرفةً عالية بالله، إذا عرفت الله المعرفة الكافية الآن مهمَّتك التلقِّي، المؤمن الصادق أمام مرحلتين ؛ مرحلة معرفة الله عزَّ وجل، ومرحلة معرفة أمره ونهيه، المرحلة الأولى أن تتعرف إلى الله معرفة تحملك على طاعته، والمعرفة الثانية أن تعرف أمره ونهيه من أجل التقرُّب منه، فالمؤمن الصادق الكامل لا يعنيه شيءٌ بعد معرفة الله إلا معرفة الأمر والنهي ليطبِّق.

إذا كان الآمر إلهاً والمأمور مخلوقاً ينبغي ألا تسأل بل تنفذ والله يكافئك على التنفيذ:

أيها الأخوة، هذا تمهيد لقصةٍ جرت مع بني إسرائيل، ومرةً ثانية، وثالثة، ورابعة أقول: كل أمراض بني إسرائيل يمكن أن نقع بها نحن المسلمين، وفي الأعمِّ الأغلب وقد وقعنا في معظمها، الآن يقول رجل في ندوة تلفزيونية: إنه لا ينبغي أن نقطع يد السارق يجب أن نبحث عن ردع آخر

!! إله عظيم ذكر قطع اليد في القرآن الكريم، ألا يعلم هذا الإله أنه ستأتي ظروف على البشرية يستنكر فيها قطع اليد؟ يعلم، فلماذا أمر ؟ لو أن الله عزَّ وجل قال: فاردعوهما، السارق والسارقة فاردعوهما، إذاً لك أن تبدِّل وأن تغير ولكنه قال:

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا)

(سورة المائدة: الآية " 38 ")

سُئل الإمام الشافعي من قبل أحد الشعراء قال له:

يدٌ بخمس مئينٍ عسجد وديت ما بالُها قُطِعَت في ربع دينار

***

قال:

عز الأمانة أغلاها وأرخصها ذُل الخيانة فافهم حكمة الباري

***

لما كانت أمينة كانت ثمينة فلما خانت هانت.

هناك في الحقيقة مراحل، المرحلة الأولى: مرحلة الإيمان بالله، إذا حدث اعتراض على أمر الله أو البحث عن الحكمة من هذا الأمر كي أطبق معنى ذلك أن المرحلة الأولى غير صحيحة، أما إذا كانت المرحلة الأولى صحيحة تنصاع إلى تنفيذ الأمر مباشرةً، فلا يُسأل عن السبب والعلة إلا مساوٍ، ما دام الآمر يساويك في المقام والعلم والقدرة والمكانة والمرتبة تسأله، أما إذا كان الآمر إلهاً والمأمور مخلوقاً عبداً ضعيفاً محدوداً ينبغي ألا يُسأل، ينبغي أن تبادر إلى التنفيذ، والله يكافئك على التنفيذ بأن يكشف لك عن حكمة هذا الأمر فتجمع بين ميزة العُبَّاد وميزة العلماء .

كلام الأنبياء بالمثاقيل وما من كلمة قالها نبي إلا لحكمة بالغةٍ بالغة:

قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً (67))

السبب الذي جاء في آخر القصة هو أن رجلاً ثرياً من بني إسرائيل قتله ابن أخيه وحمل الجثة وألقاها في قريةٍ ثانية ليوهم أن أهل هذه القرية هم الذي قتلوا هذا الثري، والقصة طويلة جداً، نشبت اتهامات باطلة، ونشبت اختلافات، وحدثت صراعات، وكادت أن تقع فتنة كبيرةٌ جداً، لأن هذه التهمة كُلَّما وجِّهت إلى جهةٍ تُرَدُّ إلى الجهة الثانية، فقالوا: أنقتتل وفينا نبي ؟ فلما سألوا سيدنا موسى عن هذا الأمر، جاء الأمر الإلهي:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً (67))

اذبحوها، وما أضل الله قوماً بعد إذ هداهم إلا أتاهم الجَدَل، قال: بقرة، تُجْزِئُكُم أية بقرة، أي بقرة على الإطلاق، مهما يكن سنها، أو لونها، أو عمرها، أو خصائصها، أو وزنها، أو حجمها، أو وظيفتها، بقرة:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً (67))

أيعقل من نبيٍ يأتيه الوحي من الله، من نبيٍ معه معجزات، من نبيٍ يُعَدُّ رسولاً لله عزَّ وجل، أيعقل أن يستهزئ ؟ أيعقل أن يلهو ؟ كلام الأنبياء بالمثاقيل، ما من كلمةٍ قالها النبي عليه الصلاة والسلام إلا لحكمةٍ بالغةٍ بَالغةٍ بالغة، الله عزَّ وجل قال:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى(4))

(سورة النجم)

((قَالَ كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرِيدُ حِفْظَهُ فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ وَقَالُوا: تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَوْمَأَ بِإِصْبَعِهِ إِلَى فِيهِ وَقَالَ: اكْتُبْ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنْهُ إِلا حَقٌّ))

[الدارمي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

" ثلاثة أنا فيهن رجل وفيما سوى ذلك أنا واحد من الناس ؛ ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حقٌ من الله تعالى، ولا صلَّيت صلاةً فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها، ولا سرت في جنازة فحدثت نفسي بغير ما تقول حتى أنصرف منها ".

مواقف تدل على عدل سيدنا محمد وحكمته:

قال تعالى:

(قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً (67))

قال أعرابي لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: " اعدل يا محمد "، فقال عليه الصلاة والسلام:

((وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ))

[مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

((قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْسِمُ قَسْماً أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ قَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ))

[مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

تروي كتب السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى في بداية معركة بدر توجيهاً لأصحابه، قال: لا تقتلوا عمي العباس، تأمل أحد الصحابة في هذا الكلام وقال: **" أحدنا يقتل أباه وأخاه وينهانا عن قتل عمه ؟! "** صار في نفسه شيء من كلام النبي عليه الصلاة والسلام، ثم اتضح أن

عم النبي عليه الصلاة والسلام كان مُسلماً، وكان العباس عينه في قريش، وكان يأتيه بكل أخبار قريش في الوقت المناسب، لو أن رسول الله عليه الصلاة والسلام صرَّح فقال: إن عمي مسلم، لأنهى مهمته، ولو أن العباس رفض أن يشارك في هذه الغزوة لكشف نفسه، ولو سكت النبي لقتلوه، فلا يوجد كلام أدق ولا أحكم من أن يقول النبي: لا تقتلوا عمي العباس، فقط من دون أي تعليل، لأن أي تعليل يفسد الأمر، فهذا الصحابي الذي قال: " أحدنا يقتل أباه وأخاه وينهانا عن قتل عمه "، فلما كشف له الأمر، قال: " والله بقيت أتصدق عشر سنين لعل الله يغفر سوء ظني برسول الله "، نبي، هؤلاء الأنبياء قمم، قمم البشر، قممٌ في الإحسان، في الورع، في المعرفة، في الاستقامة.

أمراض بني إسرائيل نفسها وقع فيها المسلمون اليوم:

قال تعالى:

(قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً (67))

هل من المعقول أن يتحدث نبيٌ كريم هازئاً ؟

(قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67))

لا يستهزئ إلا جاهل، الجاهل وحده يستهزئ .

(قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ (68))

أية بقرةٍ يريد ؟ الله عزَّ وجل أمره واضح، قال:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً (67))

لا تستغرب أحياناً نجد في بدء رمضان مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((صَوْمُكُمْ يَوْمَ تَصُومُونَ))

[أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

انتهى الأمر، أنا في بلد إسلامي وهناك قاضٍ شرعي، وهناك ولي أمر المسلم، والولي وكَّل وزير أوقاف، والوزير سأل القاضي، ومع ذلك بعضنا يجادل: صيامنا ليس صحيحاً، لا صحيح، لا ليس صحيحاً، لماذا عندما رَكَّبت هذا الصحن لم تسأل ولا شيئاً عنه ؟ تمرر أكبر واحدة بدون سؤال، والآن توقف الأمر عند واحد رمضان، تجد أول يوم برمضان عندنا مليون سؤال، هل صيامنا صحيح ؟ هناك ناس لم يصوموا اليوم، وناس صاموا، هذه أمراض بني إسرائيل نفسها، النبي قال:

((صَوْمُكُمْ يَوْمَ تَصُومُونَ))

[أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

انتهى الأمر:

((وَفِطْرُكُمْ يَوْمَ تُفْطِرُونَ))

[أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

انتهى الأمر، أنت في بلد مسلم ويوجد قاضٍ شرعي وخبراء وعلماء، وبتّوا في الأمر، هذا اسمه حشر أنف، على كلٍ أنت لا تُسْأل عن ذلك، أنت عليك أن تصوم وانتهى الأمر.

الإنسان حينما يبتعد عن جوهر الدين يقع في الشكليَّات:

تجد الجهود الإسلامية كلها مستهلكة الآن في الخصومات، هناك خلاف كبير جداً في أميركا حول جهة القبلة، هناك طريقان للكعبة، طريق مباشر، طريق يدور الدورة الكاملة حول الأرض، أيهما أصح ؟ طاقات المسلمين مبذولة في الخلافيات فقط، يقول لك: هذا الجامع منحرف ثلاث درجات والصلاة لا تصح فيه، من قال لك: إن القبلة هي الكعبة ؟ لا، القبلة جهة الكعبة، القبلة ما بين المشرق والمغرب جهة الجنوب، هذه القبلة، الكعبة قبلة من في الحَرَم، والحرم قبلة أهل مكة، ومكة قبلة المسلمين، خط، ينسى كل مشكلات المسلمين ويتوقف عند خلاف حول ثلاث درجات في الجامع ويقول: الصلاة ليس مضبوطة، هذه تماماً كقصة البقرة، يوجد في الفاتحة أربع عشرة شدَّة إن لم تضبطهم صلاتك باطلة، أعوذ بالله، ألغيت صلاة الناس كلها، لا يملك إنسان القدرة على أن ينطق بالحروف تماماً، ليس كل إنسان أكمل، لو أسلم إنسان غير عربي وعنده لكنة معنى ذلك أن صلاته غير صحيحة، باطلة.

دخل إنسان مرة على هذا المسجد والقصة منذ عشرين سنة، قال: كل واحد لا يلبس طاقية على رأسه صلاته باطلة، تكلمها جهاراً، تكلمها وارتاح ـ أنا كنت ألبس طاقية والحمد لله ـ هذه تشبه قصة البقرة نفسها، المرض نفسه، تركنا الأشياء الكبيرة، تركنا معرفة الله، تركنا طاعته، تركنا كسب الحلال والإنفاق الحلال، تركنا تربية أولادنا، تركنا إتقان ديننا، وإعداد القوة لأعدائنا، تركنا أساسيات الحياة ونتابع أموراً شكلية ثانوية ثلاثة درجات انحراف القبلة، وصيامنا صح ولم يصح، وتدخل بمتاهات لا تنتهي، فالإنسان حينما يبتعد عن جوهر الدين يقع في هذه الشكليَّات.

الخطر المُداهم للإسلام لا من أعداء المسلمين بل من أدعيائه :

قال:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً (67))

أية بقرةٍ تصح، قال له: أين أمشي بالجنازة، أريد الرأي الدقيق، أمامها، أم خلفها، أم عن يمينها، أم عن شمالها، يا أخي أنا في حيرة ؟ قال: لا تكن في النعش وسر أينما شئت، فحينما تستنفذ جهود المسلمين في قضايا ثانوية جداً جِداً لا تقدم ولا تؤخر هذا ما يرضي الشيطان، تركنا أن نُعِدَّ العدة لأعدائنا، تركنا أن نصلح أمورنا، تركنا أن نزوّج شبابنا، تركنا أن نربّي أولادنا، تركنا أن نتعرَّف

إلى ربنا، تركنا أن نطبق منهجه، تركنا أن يكون بيتنا إسلامياً، قبلنا أن نغذّي شبابنا تغذيةً غربية، قبلنا أن نغذي بناتنا تغذيةً غربية، وحصرنا المشكلة في زاوية القبلة فقط، هل المشكلة هنا.

أمراض المسلمين في المشرق منقولةٌ إلى المغرب نفسها، أينما ذهبت في بلاد الغرب مشكلات المسلمين والخصومات بين الجماعات الإسلامية والفرق والطوائف هي نفسها وهذا مما يرضي أعداءنا، وهذا لصالح أعداء المسلمين، والخطر المُداهم للإسلام لا من أعداء المسلمين بل من أدعيائه.

أيها الأخوة، قبل سنة أو سنتين تقريباً وقف خطيب في مسجد من مساجد بلدة من بلاد المسلمين، وقال: كل إنسان يصرف مئة ليرة صحيحة بأربع قطع نقدية ذات الخمسة والعشرين وقع في الربا، النبي قال:

((يداً بيد سواء بسواء))

[رواه مسلم من حديث عبادةِ]

هل من المعقول أن توقع الناس جميعاً ـ لو صرف مئة ليرة ـ بالربا، فاته أن الخمسة والعشرين ضرب أربعة تساوي مئة، سواء بسواء، أربع قطع خمسة وعشرون يساوي قطعة واحدة مئة، عد هذه قضية، وهذه مشكلة، وهذه الطامة الكبرى، هل من الممكن أن تدخل الناس كلهم في النار لأنه صرف مئة ليرة لأربعة من فئة الخمسة و العشرين؟ إذا وصلنا لهذا المستوى بالفهم معناها أنه أمامنا مراحل فسيحة جداً بيننا وبين أن نكون في المستوى الذي أراده الله عزَّ وجل، من منا يصدق أن الإنسان إذا صرف مئة ليرة بأربعة من فئة الخمسة و العشرين وقع بالربا ! أي ربا هذا ؟

((يداً بيد سواء بسواء))

[رواه مسلم من حديث عبادةِ]

مئة مع مئة، مئة أربع قطع ومئة قطعة واحدة ما المشكلة ؟ حينما تُبَدَّد جهود المسلمين في قضايا ثانوية جداً، هامشية جداً لا تقدم ولا تؤخر، ونسكت عن أخطر قضية في الدين ؛ نسكت عن الدخل الحرام، نسكت عن الأعمال التي لا ترضي الله عز وجل، عن علاقات حرام، عن دخل حرام، عن إنفاق حرام، عن بيت غير إسلامي، عن بيت يُغَذَّى بالثقافة الغربية، بالإباحية، ويدعي صاحبه أنه مسلم، هذه أخطاء كبيرة جداً، فلذلك كل مرض ذكره الله عن بني إسرائيل نحن مُرَشَّحون أن نقع به، لأن فهم أهل الكتاب للدين فهم غير صحيح، فهمهم للدين فهم فلكلوري، فهم استعراضي، فهم أسطوري، لم يفهموه فهماً عميقاً، لم يفهموه منهجاً لله عزَّ وجل.

صفات البقرة كما وردت في القرآن الكريم:

قال تعالى:

(قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ (68))

ليست مسنة:

(وَلَا بِكْرٌ (68))

ولا صغيرةً:

(عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ (68))

أي عمرها معتدل:

(فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68))

أي اذبحوها وانتهوا:

(قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا (69))

نريد اللون:

(قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69))

وقال:

(قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ (70))

نريد أن تعيِّنها لنا بالذات:

(إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ (71))

أي لا تحرث، الذلول هي البقرة التي عوِّدت على الحراثة:

(لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ (71))

أي ليست للحراثة:

(وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ (71))

ليست لإخراج المياه:

(مُسَلَّمَةٌ (71))

خالية من كل عيب:

(لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71))

من يربي أولاده تربية صالحة ويترك أمرهم لله يتولَّى الله جلَّ جلاله بعليائه تربيتهم :

هذه البقرة لرجل صالح جداً من بني إسرائيل، ترك هذه البقرة واستودعها عند الله أمانةً لابنه، وتركها طليقة في البراري، فلما كبر ابنه جاءته طواعيةً، فلما انطبقت صفات هذا الأمر الإلهي

عليها قيل: أنه طلب ملء جلدها ذهباً، هناك قصتان، قصة البقرة التي انطبقت عليها الصفات لرجل صالح تركها لابنه، لذلك ورد في الأثر القدسي:

((أن عبدي أعطيتك مال فماذا صنعت فيه ؟ يقول: يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، فيقول الله له: ألم تعلم بأني الرزاق ذو القوة المتين ؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم ـ يسأل عبد آخر ـ أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ يقول: يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين، لثقتي بأنك خير حافظاً، وأنت أرحم الراحمين، فيقول الله له: أنا الحافظ لأولادك من بعدك))

[ورد في الأثر]

كل إنسان صالح، دخله حلال، وربَّى أولاده تربية عالية لا يقلق عليهم من بعده لأن الله جلَّ جلاله بعليائه يتولّى تربيتهم، هذا الدرس بليغ، رجل صالح دخله حلال، ترك بقرة، استودعها عند الله لابنه، فلما كبر ابنه جاءته البقرة، انطبقت عيها صفات الأمر الإلهي، فطلب ثمنها ملء جلدها ثمناً، وكان هذا الأمر، قال:

(قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71))

أي فعلوا هذا متباطئين، متكاسلين.

قصة البقرة دليل على يوم البعث وأن الله عزّ وجل يبعث من في القبور:

الآية الكريمة:

(خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ)

(سورة البقرة: الآية " 63 ")

وقال:

(وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا (72))

كل واحد اتهم الآخر أنه قتل، وكادت تقع فتنة كبيرة:

(وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا (73))

خذوا قطعة من هذه البقرة المذبوحة، واضربوا بها الميت، يقف ويقول: قتلني فلان، هذه دليل على يوم البعث، وأن الله عزّ وجل يبعث من في القبور، جعلها الله آية من آياته، إنهم حينما أنكروا البعث، وأنكروا يوم القيامة، أراهم الله آية ناطقة:

(فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73))

أراد الله عزّ وجل أن تكون آية صارخة، جامعة، مانعة على يوم البعث ويوم القيامة.

الرحمة في القلب بحسب اتصالك بالله:

قال تعالى:

﴿ اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ (74)﴾

هذا قلب النفس يا أخوان، يمتلئ رحمة، وحناناً، ووفاءً، وإخلاصاً، وإشراقاً، وتألُّقاً، وقد يمتلئ قسوةً وجفاءً، الرحمة في القلب بحسب اتصالك بالله:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾

(سورة آل عمران: الآية " 159 ")

برحمةٍ اكتسبتها من الله عزَّ وجل كنت ليِّناً لهم يا محمد:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾

(سورة آل عمران: الآية " 159 ")

قصة رمزية، رمزية فقط، أن سيدنا موسى مر بامرأة تخبز على التنور، وقد وضعت ابنها على طرف التنور، وكلّما وضعت رغيفاً تضم ابنها وتشمه وتقبله، قال: " يا رب ما هذه الرحمة ؟ قال: هذه رحمتي وضعتُها في الأمهات، وسأنزعها، فلما نزع الله الرحمة من قلب الأم بكى الطفل فألقته في التنور "، وانتهى الأمر، وفي حياة الحيوان هناك حالات ؛ الهرة تعتني بأولادها فإذا جاعت أكلتهم، فالرحمة التي في الخلائق من عند الخالق.

كل إنسان بعيد عن الله له قلبٌ كالصخر:

قال تعالى:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً (74)﴾

كل إنسان بعيد عن الله له قلبٌ كالصخر، كالصخر وحده، فهذا إنسان عمر ابنته ست أو سبع سنوات، أجمل سن للبنات، هي كالوردة، أخذها وجاء إلى بئر فدفعها في البئر وأهال عليها التراب، آخر كلمة قالتها: يا أبتاه يا أبتاه، عندما سمع النبي القصة بكى بكاءً شديداً، قال له: أعدها علي، هكذا كان العرب بالجاهلية:

﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ(8)بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ(9)﴾

(سورة التكوير)

الذي يتحمل أن يضع بنتاً كالوردة في التراب، ويدفنها، هذا وحش، وهؤلاء الذين يدمِّرون الشعوب ؛ شعب يموت من الجوع، كل سنة خمسمئة ألف طفل يموت جوعاً ولا ذنب له، هؤلاء قلوبهم من ماذا ؟ هم وحوش، فهذا الوضع الجديد الذي جد في العالم كشف الأقنعة، لم يعد هناك قناع، الدول

الغربية البعيدة عن الله وحوش تبحث عن مصالحها فقط، ولو دمَّرَت عشرات الشعوب، ولو عاشت على أنقاض البشر، هذا شأن الكافر، كل إنسان بعيد عن الله وحش، وحش بكل ما في هذه الكلمة من معنى:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ(8)بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ(9))

(سورة التكوير)

أمثلة عن وحشية الإنسان البعيد عن الله تعالى:

تسمع عن المذابح بإفريقيا، خمسمئة ألف إنسان ذبحوا في يومين، كل يوم أخبار عن مذابح في العالم، البشر وحوش، ما يجري في البوسنة، كم مقبرة جماعية كشفوا ؟ ما الذنب ؟ لأنه مسلم فقط، يقول لك: تطهير عرقي، الوحشية قائمة مستمرة، ما دام هناك كفر هناك وحشية، هذا شأن الإنسان، عندما يتصل بالله يمتلئ قلبه رحمة، قال له:

((إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))

[متفق عليه عن عائشة]

عندما فتحت القُدس في قبل الفرنجة، ذبح سبعون ألف إنسان في ليلة واحدة، لما فتحها سيدنا صلاح الدين شكت له امرأةٌ أن ابنها قد فقد، وقف ولم يجلس حتى أعادوا لها طفلها، هذا الإسلام، الإسلام رحمة، الآية دقيقة جداً:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

(سورة آل عمران: الآية " 159 ")

الرحمة بسبب اتصالك بالله، كل إنسان قريب من الله رحيم، البعيد قاسٍ ولو كان ملمَّعاً، ومصافحته رقيقة، ابتسامته عريضة، هذه أشياء ظاهرية لا تقدِّم ولا تؤخِّر، أما عند الحاجة تجده وحشاً، فلذلك وصف الله عزَّ وجل هؤلاء قائلاً:

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ (74))

ماذا يلقي اليهود على الطرقات في جنوب لبنان، إنهم يلقون لُعَباً كلها ألغام، طفل برئ يجد لعبة يأخذها يفقد بصره، ألهم ثأر مع الصغار ؟ الصغير ملك من أي ملة كان، من أي فئة، وهذا قرأته في الصحف، هذه الأيام يلقون اللعب المفخخة حتى يأخذها طفل صغير بريء فتنفجر أمامه، هذا الذي يفعلونه كل يوم.

الإسلام ليس قضية صلاة شكلية الإسلام اتصال بالله وانضباط:

قال تعالى:

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74))

وقال:

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)

(سورة الحشر: الآية " 21 ")

وقال:

(وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74))

أيها الأخوة، كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله، البطولة أن تطيع الله، البطولة أن تتَّصل به، البطولة أن يمتلئ قلبك رحمة تجاه الخلق عامة، هذا المؤمن، قالوا: **" ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب "**، رحمة ما بعدها رحمة، إنصاف ما بعده إنصاف، هكذا، مئتين وخمسين مليون مسلم بإندونيسيا أسلموا بالمعاملة فقط.

أيها الأخوة، الإسلام ليس قضية صلاة شكلية، الإسلام اتصال بالله، الإسلام انضباط، الإسلام قلب رحيم، الإسلام تفوُّق، هذا هو الإسلام، تخلَّف المسلمون لأنهم فهموا الدين فهماً طقوسياً، فهموه عبـادات جوفاء، ما اتصلوا بالله الاتصال الصحيح لأنهم ما أطاعوه الطاعة التامة.

(وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (30- 95):تفسير الآيات 75 - 77 ، صفات المنافقين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-03-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

الله تعالى يخفف عن نبيِّه ويسري عنه لئلا يتسرَّب إلى نفسه شيء من الضيق أو الإحباط:

مع الآية الخامسة والسبعين وهي قوله تعالى:

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75))

أيها الأخوة الكرام، لأن الله عزَّ وجل يعلم أن هؤلاء اليهود سيكون لهم مواقف مع المسلمين متعبة ومزعجة في مستقبل الأيام، الله سبحانه وتعالى يعزِّي ويسلّي ويسري عن رسوله صلى الله عليه وسلم، فيقول له: يا محمد لا تطمع بإيمانهم، لأنهم أنزل عليهم التوراة، وقرؤوه، وعقلوه، وحرَّفوه وهم يعلمون ما يترتب على من يحرف كلام الله، فهؤلاء شاردون، هؤلاء بعيدون، لأن الإنسان إذا دعا إلى الله وقابله المدعو بالتكذيب والسخرية والإعراض يتألَّمُ أشد الألم، فلئلا يتسرَّب إلى نفس النبي عليه الصلاة والسلام شيءٌ من الضيق أو من الإحباط الله عزَّ وجل يخفف عن نبيِّه، ويسري عنه، ويجعله يطمئن إلى أن المدعو إذا لم يؤمن، وإذا لم يستجب، وإذا لم يلتزم فهذا لا يعبِّر عن عدم صدق الداعية، لأن الله عزَّ وجل ما كلّفه أن يحملهم على الإيمان.

الله تعالى ما كلّف نبيه الكريم أن يحمل الناس على الإيمان بل أن يبلغهم فقط:

قال تعالى:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (272))

(سورة البقرة: من آية " 272 ")

لست عليهم بحفيظ:

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (86))

(سورة هود)

لست عليهم بوكيل:

(قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (66))

(سورة الأنعام)

وقال:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22))

(سورة الغاشية)

وقال:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (56))

(سورة القصص: من آية " 56 ")

النبي عليه الصلاة والسلام عليه البلاغ أما هذا الإنسان يستجيب أو لا يستجيب، لا يستجيب لجهله، أو لا يستجيب لخبثه، أو لاحتياله هذا شيءٌ آخر.

الدقة العلمية في القرآن الكريم:

الله عزَّ وجل كأنه يطمئن المسلمين إلى آخر الزمان أن هؤلاء اليهود متعبون، وأنهم مُشاكسون، وأنهم يزوِّرون الكُتُبَ المقدسة، وأنهم يردون دعوة أنبيائهم، وأنهم قتلوا أنبياءهم بغير حق، وأنهم مجرمون فلا تبتئسوا أيها المؤمنون لمواقفهم، هم من نوعٍ خاص

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ)

فهل تنتظر من إنسان مجرم أن يكون رحيماً حينما يقتل وحينما يسفك الدم ؟ كيف تنتظر منه أن يكون رحيماً ؟ فالآن يلقون من الطائرات دمى، لُعَب مفخخة، من يلتقط هذه اللعب ؟ طفل صغير برئ، يلتقطها، فتتفجر أمامه وتقضي عليه، هذا تاريخهم الطويل، تاريخهم العنصري والإجرامي، تاريخهم في قتل أنبيائهم، وفي حمل العالم على الفساد، فهناك من يقول: إن أكثر ألوان الفساد في الأرض من صنع اليهود ؛ هذا الأدب الإباحي، وهذه الأفلام الخلاعية، وهذه المحطّات الفضائية وراءها اليهود، إنهم مفسدون في الأرض.

أيها الأخوة، لأن الله عزَّ وجل يعلم ما سيكون، يعلم معاناة المسلمين من هؤلاء اليهود الذين اتخذوا العنصرية منهجاً لهم وأرادوا أن يعيشوا على أنقاض شعوب العالم، وأرادوا أن يبنوا مجدَهم على سلامة هؤلاء الشعوب، لذلك ربنا عزَّ وجل يُبَيِّن ويقول: (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ) فهل تطمع من إنسان قاطع طريق أن يرحم الناس ؟! تطمع من إنسان يحارب العلم أن يتعلم ؟! تطمع من إنسان يحارب العمل الصالح أن يكون صالحاً:

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ (75))

أيها الأخوة، في القرآن موضوعيةٌ مذهلة، أليس من اليهود من آمن برسول الله وكانت تفيض عينه خُشوعاً، عبد الله بن سلام آمن برسول الله، لولا كلمة منهم ما الذي يحصل ؟ إنسان من اليهود قرأ في التوراة أوصاف النبي وهو ينتظر مجيئه، فلما بعثه الله عزَّ وجل بادر إلى الإيمان به، وإلى نصرته، وكان من أقرب أصحابه إليه، لولا كلمة

(مِنْهُمْ)

هذا يحدث ارتباك عند هذا اليهودي

(وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ)

هذه الدقة العلمية في القرآن الكريم:

(وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا(36))

(سورة الإسراء)

النسبية في القرآن الكريم:

هناك من يتوهَّم أن هناك أبيضاً وأسوداً، ولكن في الحقيقة هناك آلاف الألوان الرمادية بين الأبيض والأسود، فهناك شيء نسبي، وهل النسبية في القرآن الكريم ؟ دقق :

(هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ)

(سورة آل عمران: من آية " 167 ")

الموقع نسبي، قال تعالى:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ (5))

(سورة الروم)

لكن هؤلاء الروم أهل الكتاب ؛ ولكن عقيدتهم لا تلتقي مع عقيدة المسلمين، تلتقي معها في بعض الجوانب، إذاً هؤلاء المؤمنون يتمنَّون أن ينتصر أهل الكتاب على الوثنيين، إذاً لعل أهل الكتاب أقرب إلى المؤمنين من الوثنيين، فالذي يؤمن أن لهذا الكون خالقاً ولكن له شريك هذا أفضل من الذي يقول: ليس لهذا الكون خالقٌ إطلاقاً، معنى ذلك الألوان متعددة وما بين الأبيض والأسود ملايين الألوان الرمادية، والإنسان كلما كان دقيقاً كلما جاء حُكْمُهُ موضوعياً، فكلمة

(مِنْهُمْ)

لو لم تكن هذه الكلمة وهي ثلاثة حروف، لو لم تكن هذه الكلمة في هذه الآية وقرأ الآية عبد الله بن سلام، بماذا يشعر ؟

(وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ (75))

دائماً لا تُعَمِّم، التعميم من العمى.

على الإنسان ألا يعمم أو يطلق الأحكام القطعية بل يجب أن يكون موضوعياً في أحكامه:

كل إنسان يقول لك: هلك الناس ؟ لا، بعض الناس لم يهلكوا، أو يقول: الناس لا يوجد فيهم خير، لا:

((الخير في وفي أمتي إلى يوم القيامة))

[سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة]

((أمتي كالمطر لا يُدْرَى أوله خير أم آخره))

[الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه]

((إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ ـ قَالَ أَبُو إِسْحَقَ: لا أَدْرِي أَهْلَكَهُمْ بِالنَّصْبِ أَوْ أَهْلَكُهُمْ بِالرَّفْعِ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه]

الذي وصفهم بالهلاك وهم ليسوا كذلك، إيَّاكَ أن تعمم، إياك أن تطلق الأحكام القَطْعِيَّة، كن موضوعياً في أحكامك، الله عزَّ وجل قال عن فرعون:

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآَخِرَةِ وَالْأُولَى (25))

(سورة النازعات)

قد يقول قائل: لِمَ لَمْ يقل الله عزَّ وجل: فأخذه الله نكال الأولى والآخرة، فهذا هو الترتيب المنطقي ؟ لماذا قدم الآخرة على الأولى ؟ لأن فرعون قال في الآخرة:

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى(24))

(سورة النازعات)

جازماً، وفي الأولى قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص: من آية " 38 ").

في تَحَفُّظ، أي أنه بحسب علمي

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

فالله عزَّ وجل بدأ بالآخرة لأنها أشد كفراً وأشد عتواً، فكلمة:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

غير

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

فأنت دائماً وأبداً حينما تُطْلِق الأحكام، هناك من يقول: هؤلاء ليس فيهم خير، هؤلاء القوم مجرمون، هذه أحكامٌ مُضْحِكَة، التعميم من العمى، لا يطلق الأحكام المُطْلَقَة على الناس، وعلى البُلدان، وعلى الشعوب، وعلى الأمم، وعلى الأقاليم، وعلى الأمصار إلا جاهل.

الله عزَّ وجل يُسلِّي نبيه ويخفف عنه من شدة تكذيب اليهود له:

بالمناسبة ؛ الدين كالهواء للإنسان، هل يستطيع أحد أن يحتكر الهواء ؟ لا أمة، ولا شعب، ولا عَصر، ولا مِصر، ولا إقليم، ولا جماعة، ولا طائفة، ولا فئة، ولا مذهب، أبداً، فهذا الدين دين الله، لا يستطيع أحد أن يحتكره، فإيَّاك والأحكام المُطلقة، إياك والأحكام العنيفة، إياك والأحكام الحادَّة، إياك أن تُطْلِقَ الحكم دون تحفظ، والآية الكريمة:

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ (75))

فريقٌ منهم (من) للتبعيض، أي بعضهم، وبعضهم الآخر آمن برسول الله، وكانوا من أقرب الناس إليه، وكانوا من أرقى أصحابه، وعلى رأسهم عبد الله بن سلام، وله قصة إن شاء الله إذا أمكنني في الدرس القادم أسمعكم إيَّاها، إذاً:

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ (75))

دائماً الإنسان الخبيث حينما لا يستطيع رَدَّ النَص يحرفه، القرآن قطعي الثبوت، لا يستطيع أحدٌ أن يقول: هذه ليست آيةً في كتاب الله، أكيد، لأن الحديث الشريف ظني الثبوت، هناك من يرُدُّ الأحاديث الصحيحة، ومن رد الحديث المتواتر فقد كفر، ومن رد الحديث الصحيح فقد فسق، لذلك كأن الله عزَّ وجل يُسلِّي نبيه ويخفف عنه من شدة تكذيب اليهود له قال: يا محمد لا تحزن عليهم، لا تبالي بتكذيبهم، عليك البلاغ وعلينا الحساب.

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

هم أتعبوا نبيَّهم، وكذبوا أنبياءهم، وقتلوا أنبياءهم، وفعلوا كل شيء.

القرآن قطعي الثبوت والحديث ظني الثبوت:

الآن كما قلت لكم في درسٍ في هذه السورة: إن الأمراض التي وقع فيها اليهود نحن مرشَّحون أن نقع بها، هم بدَّلوا وغيروا، ونحن معنا كتاب قطعي الثبوت، الحديث ظني الثبوت، فهناك من يردُّ حديثاً لا ينسجم مع هوى نفسه ؛ لكن هذا المنحرف، هذا المبتدع لا يستطيع أن يرد آيةً، فماذا يفعل ؟ يأتي إلى تأويلها، ما دامت آيات القرآن الكريم كلها قطعية الثبوت فلا سبيل إلى تكذيب آيةٍ منها، والقرآن كله قطعي الثبوت، إذاً هناك من يلجأ إلى اللعب بالتأويل، فيؤول، فمن أراد أن يبيح لنفسه الربا قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً (130))

(سورة آل عمران)

يقول: إن الله نهانا عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة، ولم ينهنا عن أكله بنسبٍ ضئيلة، أليس هذا تحريفٌ لكلام الله، لو سألت عالم الأصول لقال لك: إن هذا قيداً وصفياً وليس قيداً احترازياً، هذه قضية دقيقة بالتفسير، هناك أوضح من ذلك:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا (33))

(سورة النور).

لو أن الفتاة لم ترد التحصن هل يباح للأب أن يكرهها على الزنا ؟ مستحيل وألف مستحيل، ما معنى هذه الآية ؟ أي

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ)

اللاتي يردن التحصُّن والزواج، العلماء قالوا: هذا قيد وصفي وليس قيداً احترازياً.

مشكلة ليِّ أعناق النصوص وقع به المسلمون إلى درجة أنك لا تجد شيئاً حراماً:

إذاً كلمة

(أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً)

هذا قيد وصفي، أي أن من شأن الربا أنه أضعاف مضاعفة، مثلاً يقول لك: لا توجد آية تحرم الخمر، أعوذ بالله، لا يوجد أن الخمر حرام، أو محرمةٌ عليكم، ولكن يوجد كلمة

(فاجتنبوه)،

فالاجتناب أشد أنواع التحريم، لو أن الله عزَّ وجل حرم علينا الخمر لكان من الممكن أن نتاجر به، حرم علينا شربها، أما حينما أمرنا أن نجتنبها، لذلك أمرنا أن نبتعد عن بيعها، وعن شرائها، وعن حملها، وعن نقلها، وعن عصرها، وعن كل شيءٍ يتصل بها، فآية الاجتناب أبلغ من آية التحريم، إذاً يلوون أعناق النصوص، فيقول لك: الخمر ليست محرمة.

(فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ)

(سورة النساء)

فُهمَت هذه الآية على غير ما أراد الله عزَّ وجل، هذا من ليّ أعناق النصوص، ومن تحريف الكَلِم عن مواضعه.

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ)

(سورة الحج).

لا يصلون، لأن الله لم يمكنهم في الأرض، كلامٌ مضحك، هذه مشكلة ليِّ أعناق النصوص، هذه مشكلة التبديل والتغيير، والتزوير والتحوير، وهذا وقع به المسلمون إلى درجة أنك لا تجد شيئاً حراماً في النهاية، يقول لك: الفائدة ليست حراماً، فهذه عائدة وليست فائدة، تضع المال في مصرف

ربوي، وتتلقى فائدة ربوية، والوصف أنها عائدة وليست فائدة، أليس هذا تزويراً لكلام الله عزَّ وجل ؟ ألم يقل الله عزَّ وجل:

(فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة: من آية " 279 ")

لأن كل معصيةٍ لها مستوى، الذي يشرب الخمر يضر نفسه، والذي يزني يؤذي معه فتاةً، والذي يأكل الربا يُسْهِمُ في انهيار مجتمع بأكمله، لأن هذه الكتلة النقدية في الأصل ينبغي أن تكون بين أيدي الناس جميعاً، موزعةً بين أيدي الناس، فبأيَّة طريقةٍ إذا اجتمعت في أيدٍ قليلة وحُرِمَت منها الكثرة الكثيرة كانت الكوارث، والحروب، والمنازعات، والشقاء البشري، فقد قرأت البارحة إحصاءً: أن ثلاثة أرباع موارد الأرض، الخمس قارَّات، الثروات الباطنية، كل ما في الأرض من ثروات يملكها عشرون بالمئة من سكان العالم، ثلاثة أرباع ما في الأرض يملكها عشرون بالمئة من سكان العالم، لذلك تمتلئ الأرض ظلماً وعدواناً حتى يأتي أخي عيسى فيملؤها قسطاً وعدلاً .

تحريم ربنا الربا ليضمن أن يعيش الناس جميعاً في سعةٍ وأمنٍ وبحبوحة :

أيها الأخوة، من أجل أن تبقى هذه الكتلة النقدية بين أيدي الناس جميعاً حرَّم الشرع أن يَلِدَ المالُ المال، المال يَلِد بالأعمال، فإذا حصرنا كسب المال بالأعمال توازنت الأمور، ووزعت هذه الكتلة النقدية بين أيدي الجميع، بين أيدي كل من يعمل، أما إذا استطاع أحدنا بماله فقط أن ينمِّيه نماءً فاحشاً من دون عمل عن طريق الربا ما الذي يحصل ؟ تتجمع الأموال كلها في أيدٍ قليلة وتحرم منها الكثرة الكثيرة، لذلك أكثر الثورات والحروب العالمية وراء سوء توزيع الثروات، طبعاً هذا شيء ثابت، فلما حَرَّمَ ربنا الربا حرمه ليضمن أن يعيش الناس جميعاً في سعةٍ وفي أمنٍ وفي بحبوحة، فهذا الذي يُبَدِّلَ ويغيِّر:

(وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ (75))

إلى أن تصل إلى درجة أن لكل معصيةٍ فتوى ؛ الغناء، والرقص، والتمثيل، كل معصية لها فتوى، ما هذا الدين المرن ؟ صار كالغاز، الدين غاز، في أي مكان يدخل، ينبغي أن تقول: أنا مسلم فقط، افعل ما تشاء، لك أن تكسب المال الحرام، ولك أن تضع المال في المصارف الربوية، ولك أن تلتقي مع من تشاء، فإذا وصل الدين إلى هذا المستوى انتهى الدين، الدين منهج، الدين صُلب لا يسيخ ولا يتبخَّر، فلذلك النقطة الدقيقة أنه حينما يريد أناسٌ من أعداء الدين أن يضعضعوا قيمة الدين، والذين معهم كتاب قطعي الثبوت ماذا يفعلون ؟ يبدلون في التأويلات، أي أنهم يأتون بتأويلات ما أنزل الله بها من سلطان، فحينما يواجهون نصاً قطعي الثبوت، قرآناً قطعي الثبوت، ماذا يفعلون ؟ يلوون أعناق النصوص، يحرِّفون، يبدِّلون، يزورون.

الإنسان مُخير بدليل أن أقرب أقرباء النبي لم يؤمن به:

الحقيقة هناك من يُفتي بجهل، هذا إنسان جاهل، ولكن الذي يفتي بخلاف ما يعلم هذا إنسان يرتكب في الدين جريمة كبيرة، يفتي بخلاف ما يعلم، يعلم الحكم الشرعي ولكنه يغير ويبدل ويلوي أعناق النصوص كي يصل إلى فتوى ما أنزل الله بها من سلطان، لذلك الفتوى جِسْرٌ إلى النار، والإنسان إذا كان جباناً في الفتوى فهو بسبب ورعه وخوفه من الله عزَّ وجل.

النبي عليه الصلاة والسلام يطمع بهداية الناس جميعاً، لأنه حمل هذه الدعوة، وكل داعية صادق يطمع بهداية الناس جميعاً، ويبذل كل ما في وسعه، ولكن حينما يَصُدُّ الناس عن النبي، وحينما لا يستجيب الناس لهذه الدعوة، هذا لا يقدح في نزاهة الداعية، ولا يقدح في إخلاصه ولا في صدقه، لأن الإنسان مُخير، بدليل أن أقرب أقرباء النبي لم يؤمن به، عمه أبو طالب لم يؤمن به، أبو جهل، أبو لهب، أعمامه لم يؤمنوا به:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1)مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(2))

(سورة المسد)

من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((يا عباس عم رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، أنقذا نفسيكما من النار، فإني لا أغني عنكما من الله شيئاً))

[مسلم عن أبي هريرة]

((من يبطئ به عمله لا يسرع به نسبه))

[شعب الإيمان عن ابن عباس]

((لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

[أحمد عن أبي هريرة]

إنك لا تستطيع هداية من أحببت كما أنك لا تُسأل عن ذلك:

لو وقفنا وقفة متأنية عند كلمة:

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ (75))

الإنسان متى يطمع ؟ حينما تتطلع إلى ما لا تملك، حينما تتطلع إلى ما لم تُكلَّف، حينما تتطلع إلى ما ليس في مقدورك، فأنت بهذا تطمع، أحياناً الإنسان الذي تقدمت به السن يطمع أن يكون شاباً، لكن هذا مستحيل، عقارب الزمن لا ترجع إلى الوراء، الفقير يطمع أن يكون غنياً، إلا أن الإنسان إذا أراد أن يوسِّع حركته في الدنيا، فبذل جهداً كبيراً كي يوسِّع هذه الحركة هذا لا يطمع، أما حينما يبني رفاهية ورَغَدَ عيشه على حركة الآخرين ؛ على جهدهم، على كسبهم، على كد يمينهم، وعرق جبينهم هذا ظالمٌ لنفسه، فأنت إذا بذلت جهداً كبيراً وحصَّلت دخلاً واستمتعت به لك حساب آخر من

نوع ثان، أنك ضيَّعْتَ الوقت فيما لم تخلق له، أما حينما تريد أن تعيش حياةً ناعمة راغدةً على حساب الآخرين هذا ليس من حقك، هذا أصل الطمع، أن تتطلع إلى ما ليس لك، أن تتطلع إلى ما لم تكلف به، أن تتطلع إلى ما يفوق قدراتك، هذا أصل الطمع، لو وقفنا عند أصله بشكل موضوعي، فأنت حينما تتطلع إلى ما لا تملك، أو إلى ما ليس لك، أو إلى ما لا تقدر عليه، فأنت وقعت في الطمع والطمع ليس خلقاً محموداً، أما في الهداية فهذا موضوع ثان، المؤمن يطمع بهداية الناس جميعاً مع أنه لم يُكلَّف بذلك، ليس عليك هداهم:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ (56))

(سورة القصص).

إنك لا تستطيع هداية من أحببت كما أنك لا تُسأل عن ذلك، لا تستطيع ولا تُسأل، فحينما طمع النبي بهداية كل الخلق ؛ بهداية المشركين، وهداية أهل الكتاب هذا من كماله، ومن رحمته، ومن قربه من الله عزَّ وجل، ولكن حينما أعرض عنه اليهود ولم يستجيبوا، وبدلوا، وزوروا، وكذبوا، هنا ليس عليه مسؤولية ولم يكلف بما لا يطيق

الكافر واضح والمؤمن واضح أما المنافق فمخيف:

أيها الأخوة، ثم يقول الله عزَّ وجل بعد أن قال:

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76))

إخواننا الكرام، المؤمن انسجم مع فطرته وانسجم مع الكون، في الكون حقيقة كُبرى هي الله، فالمؤمن انسجم مع نفسه، مع فطرته، ومع حقيقة الكون الأولى، الكافر انسجم مع نفسه، ولم ينسجم مع حقيقة الكون الأولى، أما المنافق لم ينسجم لا مع نفسه ولا مع حقيقة الكون الأولى، المؤمن انسجم مع نفسه وفطرته ومع حقيقة الكون الأولى، مع الله، والكافر انسجم مع نفسه، ولم ينسجم مع حقيقة الكون، أما المنافق يقول بما لا يؤمن، ويؤمن بما لا يقول، لا مع نفسه كان صادقاً، ولا مع الحقيقة العظمى في الكون كان صادقاً، لذلك:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ (145))

(سورة النساء)

الدليل: الكافر واضح، والمؤمن واضح، أما المنافق مخيف، له ظاهر وله باطن، له كلام يعلنه وله معانٍ يُبَطِّنُهَا، له موقف مع المؤمنين، يقول لك: أعطيه جمله، يسايره، وله موقف مع الكفار والمُلحدين، فلذلك:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا (76))

معرفة اليهود للنبي كمعرفة الإنسان لابنه ومع ذلك كابروا وأنكروا رسالته :

اليهود عندهم في توراتهم أوصاف النبي كاملةً، وكانوا يتحدَّوْنَ العرب بهذه الأوصاف، سيأتي نبيٌّ منكم ونحن سنكون أول من يؤمن به، فلما حَدَّثَ هؤلاء اليهود بعضهم بعضاً:

(قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76))

كأن الله عزَّ وجل لا يعلم، بالمناسبة لا يوجد معرفة بالأرض أقوى ولا أرسخ ولا أثبت ولا أوضح ولا أسهل من معرفة الأب لابنه، فهل سمعتم في كل حياتكم أن أباً قال لابنه: ما اسمك أنت يا بني ؟ مستحيل، مستحيل، قال:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 146 ")

معرفة اليهود للنبي كمعرفة الإنسان لابنه، ومع ذلك ركبوا رؤوسهم وكابروا وأنكروا رسالته، فلذلك:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76))

وصف الله عز وجل المنافقين في عدة آيات:

أيها الأخوة، هؤلاء اليهود منافقون، وشأن المنافق أنه ليس مع المؤمنين وليس مع الكافرين، حالة نادرة، لا ينسجم لا مع نفسه ولا مع الحقيقة، لذلك وصفهم الله عزَّ وجل في آيات أخرى، قال:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ(14))

(سورة البقرة)

وقال:

(وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ)

(سورة آل عمران: من آية " 119 ")

وقال:

(وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ(61))

(سورة المائدة)

المناظرة الرائعة التي عرضها الله عزّ وجل لنا في القرآن الكريم:

طبعاً هنا:

(لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ (76))

الحُجَّة ؛ المناظرة، والله عزّ وجل عرض لنا بالقرآن الكريم مناظرة رائعة، قال:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ)

(سورة البقرة: من آية " 258 ")

عنده جنود، أمر جندياً أن يقتل رجلاً، ثم أمره أن يَكُفَّ عن قتله، قال: إن شئت قتلته ـ أمته ـ، وإن شئت عفوت عنه ـ أحييته ـ أنا أحيي وأميت، إذا كنت تَدَّعي أن الله يحيي ويميت، فأنا أحيي ويميت ـ هذا النمرود ـ الله علمنا فن الحوار، وفن المناظرة، فقد صار تأويلات، هو أوَّل الحياة بأنها عفو، وأوَّلَ الموت بأنه إعدام، مع أن الموت ليس إعداماً:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169))

(سورة آل عمران).

قيل: المتأوّلان لا يتفقان إلى يوم القيامة.

تتمة المناظرة كما عرضها القرآن:

إذا أردت أن تناظر إنساناً وكل إنسان يفهم النص كما يحلو له فالطريق مسدود، فسيدنا إبراهيم وجد أن هذا الطريق مسدود:

(إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ)

(سورة البقرة: من آية " 258 ")

لأن هذا الطريق صار فيه تأويل، القصد بالحياة منح الحياة، والموت إنهاء الحياة، النمرود فهم الحياة العفو والموت القتل فتركه في هذا الطريق المسدود وسلك طريقاً آخر:

(قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ)

قال:

(فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ)

(سورة البقرة: من آية " 258 ")

لا يمكن لإنسان أن يقلب الحق إلى باطل بكلمة:

هؤلاء اليهود قالوا:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ (76))

أي أنكم تعطون للعرب حجج:

(لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ (76))

يوم القيامة:

(عِنْدَ رَبِّكُمْ (76))

أنتم تقدمون أوصاف النبي كما جاءت في توراتكم، صار معهم حجة، وكأن الله لا علاقة له بهذا الموضوع إطلاقاً، أرأيتم إلى إيمانهم ؟ فالقضية إذا كان ذكر الشيء وهذا ما يقع به المسلمين أحياناً، فهل من الممكن لإنسان بكلمة أن يقلب الحق إلى باطل ؟ مستحيل، لو قلنا عوائد فوائد، بَدَّلنا كلمة فوائد بكلمة عوائد فهل ألغي الربا ؟ إذا تكلمنا كلمة ألغي الزنا أي إذا قلنا لمرة واحدة: أجرة، مُتْعَة، فهل صار بذلك الزنا مباحاً ؟ فهل من الممكن أن تنقلب الأمور بكلمة أو بحرف ؟ مستحيل، فلذلك ربنا عزَّ وجل قال:

(أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76))

الآن اسمع الآية الكريمة:

(أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77))

أرأيت إلى ضعف الإيمان، كأن الله في السماء ولا يرى شيئاً في الأرض، شيء مضحك، فكثيراً ما تجد في الفتاوى أشياء مضحكة جداً، كأن يقول لك: بكم سعر هذا الشيء ؟ يقول لك: بألف نقداً، وبألف وخمسمئة تقسيطاً، صارت هناك مشكلة، فيقول: بألف نقداً، ماذا طبخت اليوم ؟ يقول لك: فاصولياء، وألف وخمسمئة تقسيطاً، وما دام في فاصولياء بين السعرين لم يبق في أي مشكلة، شيء مضحك، هذا نفسه وقع عندنا، دخلت كلمة غريبة، فصار هناك مجلسان، فأُلغيت الحُرْمَة.

أغلب ما فعله اليهود نفعله نحن اليوم:

قال تعالى:

(أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ (77))

قديماً كان يضع زكاة ماله برغيف خبز ويهبها للفقير، ثم يقول للفقير: بعني هذا الرغيف بخمس ليرات، ويكون في داخل رغيف الخبز خمسة آلاف ليرة، أعطى رغيف الخبز للفقير، فبذلك يكون قد دفع زكاة ماله، ثم استرده بخمس ليرات، وكأن الله لا يعلم، اليهود فعلوا هذا أيضاً:

(تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ)

(سورة الأعراف: من آية " 163")

فَجَمَّعوا الحيتان يوم السبت وصادوها يوم الأحد، وبذلك لم نخالف في شيء، والمسلمون وقعوا في حِيَلٍ شرعيةٍ لا تقل عن هذا، يجب أن يجلس مع زوجة أخيه، القضية سهلة، يحضر طفلة صغيرة عمرها سنة وترضعها زوجة أخيه، أصبحت أمها، يعقد عقده على هذه الطفلة، أصبحت زوجة أخيه حماته على التأبيد، يطلقها فيستطيع بذلك أن يجلس مع زوجة أخيه، وانتهت العملية، هذا الذي فعله اليهود نفعله نحن اليوم، فلذلك أكثر أنواع هذه الفتاوى سببها:

(أوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77))

من ضعف الإيمان أن يظن الإنسان أن الحيل الشرعية مقبولة عند الله تعالى:

من ضعف إيمانهم يظنون أنهم يأتون بحيلٍ شرعيةٍ مقبولةٍ عند الله عزَّ وجل ؛ قبل أن يحول الحول على المليون يدفعه عربوناً لأيّ بيت، بعد ذلك يلغي العقد، وألغي الحول، فاسترد المليون، أو يريد ألا يورِّط أحداً يكتب سندَ دينٍ وهمي بخمسة ملايين، فصار الميت مديناً، وكل شيء نقدي انتهى، أو يطلّق زوجته على فراش الموت حتى ينتهي، ويتخلص من ميراثها، وهناك آلاف آلاف الفتاوى كلها باطلة، كلها أساسها أن الذي يفعل هذا لا يعلم أن الله يعلم، يظنه لا يعلم:

(أوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77))

أيها الأخوة في درسٍ آخر نتابع هذه الآيات، وهي قوله تعالى:

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ(79))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (31- 95):تفسير الآيات 78 - 81 ، مفهوم الأمي وأهمية الفتوى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-03-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عزَّ وجل جعل وعاء النبي نظيفاً فارغاً لئلا يختلط وحي السماء بثقافات الأرض:

مع الآية الثامنة والسبعين، والحديث عن بني إسرائيل يجعلنا نأخذ الموعظة لأنهم أهل كتاب، وجميع المنزلقات التي وقعوا فيها يمكن أن نقع فيها نحن المسلمين، وبيَّنت لكم في دروسٍ سابقة كيف أن معظم الأمراض التي وقعوا فيها وقع فيها المسلمون، وهذا من أسلوب الحكيم، يقول الله عزَّ وجل :

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ (78))

الأميُّون جمع أُمِّيّ، والأمي المنسوب إلى الأم، أي هكذا ولدته أمه من دون أن يكتسب أي علم، إنسان ولدته أمه هكذا، لم يكتسب علماً، ولا ثقافةً، ولا خبرةً، بقي على فطرته التي وِلِدَ عليها، لم يتلقَّ العلم، لكن في هذه الآية إشكال بسيط هو: أننا نفتخر أن نبيِّنا عليه الصلاة والسلام أمّي، وهذه حقيقةٌ لا بد من توضيحها، الأميَّة في رسول الله صلى الله عليه وسلَّم كمالٌ مُطْلَق، لأن الله سيوحي إليه، كل إنسان طالب علم يفتخر بأستاذه، هذا يقول لك: أنا خريج الجامعة الفُلانيَّة، هذا يقول لك: أنا أستاذي فلان، فإذا تباهى أكبر علماء الأرض بأساتذتهم الكبار، فالذي علَّم النبيَّ عليه الصلاة والسلام هو الله:

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى(5)ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى(6))

(سورة النجم)

إذاً لو أن النبي عليه الصلاة والسلام تَلقَّى من ثقافة عصره ما تلقَّى، لو أنه اطلع على ثقافة الهند، وثقافة فارس، وثقافة الروم، وحَصَّلَ علوماً جَمَّة ثمَّ جاءه الوحي، كلَّما نطق بكلمةٍ يسأله أصحابه: يا رسول الله هذه من ثقافتك الشخصيَّة أم من وحي السماء ؟ جعل الله عزَّ وجل وعاء النبي نظيفاً فارغاً لئلا يختلط وحي السماء بثقافات الأرض.

الأميَّة في حقِّ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كمال لأن الله هو الذي تولَّى تعليمه:

قال:

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ(48))

(سورة العنكبوت)

إذاً الأمية كمال عند النبيُّ وحده، لأن الله هو الذي تولّى تعليمه، هو الذي أوحى إليه، هو الذي ألقى عليه القرآن الكريم عن طريق جبْريل، لأن الله عزَّ وجل أراد من هذا النبي أن يكون مشرِّعاً، وأن يكون قلبه مهبطاً لتجليَّات الله، وأن يكون قلبه وعاءً لعلم الله الذي جاءه عن طريق القرآن الكريم، فاقتضت حكمة الله جلَّ جلاله أن يكون نبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم أمِّياً، الأميَّة في حقّه كمال، لأن الله هو الذي تولَّى تعليمه، هو الذي علَّمه، لئلا يختلط وحي السماء بثقافات الأرض، لئلا يُسأل كل مرَّةٍ: يا رسول الله أهذا من عندك أم من عند الله ؟ أهذا من ثقافتك ؟ أهذا من دراستك ؟ أهذا من تحصيلك ؟ أهذا من اطلاعك على ثقافات الأرض أم من وحي السماء ؟ لئلا يكون هذا جعل الله نبيَّه أميَّاً.

أما نحن فليس هناك وحيٌ يعلّمنا، فإذا كنَّا أميين أي جاهلين فالأميَّة فينا نقصٌ، والأميَّة في حقِّ النبي كمال، فلنستثن النبي عليه الصلاة والسلام لأن أميَّته تعني أن كل الذي ينطق به إن هو إلا وحيٌ يوحى:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى(4))

(سورة النجم)

((يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ أَشْيَاءَ أَفَأَكْتُبُهَا ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا ؟ قَالَ: نَعَمْ فَإِنِّي لا أَقُولُ فِيهِمَا إِلا حَقّاً))

[أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه]

أما الأمي المنسوب إلى أمِّه، هكذا ولدته أمه من دون علم، لم يتعلَّم، لم يطلب العلم، لم يطَّلع على ثقافات العصر، لم يطلب العلم الشرعي، أمي أي غير متعلّم.

الأمية بحق الإنسان العادي صفة نقص أما بحق النبي عليه الصلاة والسلام فهي كمال :

إذاً الأمية بحق الإنسان العادي صفة نقص، أما بحق النبي عليه الصلاة والسلام هي كمال لأن الله علَّمه.

يأتي إنسان الآن يحمل ليسانس في الشريعة، يتناول عدداً من أحاديث رسول الله يضبطها، ويشرحها، ويستنبط الأحكام منها، ويقدِّمها أطروحةً، فينال لقب دكتور، هذا الدكتور نال هذا اللقب لأنه فهم بعض أحاديث رسول الله:

يا أيها الأميُّ حسبك رتبة في العلمِ أن دانت لك العلماء

***

فالنبي عليه الصلاة والسلام موضوعٌ آخر، أما الأميَّة بحقِّ الناس صفة نقصٍ فيهم، أي أنه لم يتعلَّم، ما طلب العلم فهو جاهل لذلك قالوا: **" العوام لأن يرتكبوا الكبائر أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون "**. و:

((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ))

[ابن ماجة عن أنس بن مالك رضي الله عنه]

على كل شخصٍ مسلم ذكراً كان أو أنثى:

((النَّاسُ عَالِمٌ وَمُتَعَلِّمٌ وَلا خَيْرَ فِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ))

[الدارمي عن أبي الدرداء رضي الله عنه]

((اغدُ عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً، أو محباً، ولا تكن الخامسة فتهلك))

[الجامع الصغير عن أبي بكرة رضي الله عنه]

" إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم " و **" العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلَّك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً "** و **" يظلُّ المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظنَّ أنه قد عَلِمْ فقد جَهل ".**

فضل العالِم على العابد:

أيها الأخوة، حينما يطلب الإنسان العلم تُلبِّى الحاجة العُليا فيه، الإنسان له حاجات دُنيا ؛ يأكل ويتزوج ويثبت ذاته، هذه حاجاته الدنيا ؛ لكنَّ حاجته العُليا أن يطلب العلم ولا تؤكّد أنك إنسان إلا بطلبك العلم.

((فَقِيهٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ))

[الترمذي عن ابن عبَّاس]

العابد مقاومته هشَّة، امرأةٌ تفتنه، دِرْهَمٌ يفتنه، تهديدٌ يفتنه، أما العالِم فهو لا يتأثَّر لا بسبائك الذهب اللامعة، ولا بسياط الجلاَّدين اللاذعة: **" أحدٌ أحد "**، فالعلم أساس.

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ (78))

أي أنهم غير متعلمين، يخلطون الحق بالباطل، والخير بالشر، والسُنَّة بالبدعة، ويتَّبعون الأهواء يقول لك: سحروني، يصحب السحرة، يصحب الدجَّالين، يصحب المخرِّفين، يدخل في ضلالات، في تُرّهات، هذا شأن الجاهل يعزو الأمور إلى غير الله عزَّ وجل، يقيم للناس مقاماً كبيراً وهم ليسوا كذلك لأنه جاهل.

قال لي أحد الأخوة الدعاة: كنت أُلقي درساً أتحدَّث عن فساد الزمان، وعن الفتيات اللواتي يخرجن وحدهن بلا ضابط ولا رادع، وقد يأتين في ساعةٍ متأخِّرة، أين كانت هذه الفتاة ؟ قال: كانت مع الحبيب، قال لي: نصف الحاضرين ما فهموا ماذا قلت، فصلوا على الحبيب !! إمام يقرأ آية فيها كلمة (ولا الضالين)، قال الجميع: آمين، هذه آية، ولم ينتهِ، ليست هي نهاية الفاتحة بل هي آية أخرى فيها (ولا الضالين) فقالوا: آمين.

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ (78))

أحياناً يسمع الإنسان القرآن:

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً (78))

(سورة الزمر: الآية "71 ")

فيقول وهو غير منتبه: اللهم اجعلنا منهم.

لا نستحق أن نكون من بني البشر إلا إذا طلبنا العلم:

قال تعالى:

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ (78))

أي يقول لك: نحن عبيد إحسان ولسنا عبيد امتحان، لا يسعنا إلا عفوه وكرمه، وكلما شاهد معاصيَ كبيرة يقول لك: كله ترتيب سيدك، كأن الله يأمر بهذه المعاصي، كلام ليس له معنى، وإذا رأى إنساناً وسع الله عليه يقول لك: الله يعطي الحلاوة لمن لا أسنان له، معنى هذا أن الله ليس بحكيم، كل كلامه فيه تجاوز، أحياناً كلامه فيه كفر وهو لا يشعر، فمشكلة الجاهل مشكلة كبيرة جداً.

والله أيها الأخوة لا نستحق أن نكون من بني البشر إلا إذا طلبنا العلم، و طالب العلم إنسان كبير جداً عند الله، أنت حينما تأتي إلى بيتٍ من بيوت الله تطلب العلم، تسلك طريقاً ينتهي بك إلى الجنَّة:

((مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ بِهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقاً مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضاً لِطَالِبِ الْعِلْمِ))

[الدارمي عن أبي الدرداء رضي الله عنه]

قصَّتان ذكرتهما كثيراً ؛ أذكر قبل ثلاثين عاماً تقريباً أو خمسة وعشرين عاماً ؛ رأيت إنساناً يبكي في هذا المسجد، قلت له: خيراً إن شاء الله ؟ فقال لي: زوجتي تخونني، قلت له: مع من ؟ قال لي: مع رجل من جيراني. كيف تعرَّفت عليه ؟ قال لي: زارنا مرَّة فقلت في نفسي: إنها تجلس وحيده في البيت فقلت لها: يا أم فلان تعالي واجلسي معنا إنه كأخيكِ. جاهل، هذا هو الجهل، دفع الثمن باهظاً.

إنسان ركبت معه امرأة فسألها: إلى أين تريدين الذهاب يا أختي ؟ فقالت له: خذني أينما تشاء، ظنَّ أنها مغنمٌ كبير، أُصيب بمرض الإيدز، وأخذ منها مبلغاً من الدولارات المزيَّفة ودخل به السجن.

فالإنسان عندما يطلب العلم يصبح عنده حارس.

يا بني العلم خيرٌ من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق.

هناك قيم مرجِّحة بين الناس ولكن الله في القرآن الكريم جعل قيمة العِلم وحدها المرجِّحة:

والله أيها الأخوة ـ بالمناسبة ـ هناك قيم مرجِّحة بين الناس، المال له قيمة كبيرة جداً عند الناس، والغني محترم، والقوي محترم، والوسيم محترم، والفصيح محترم، من له قدرة على إقناع الناس محترم، هذه كلها قيم مرجِّحة بين الناس، ولكن الله في القرآن الكريم جعل قيمة العِلم وحدها المرجِّحة، قال :

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر)

أين الثرى من الثُريَّا ؟ وجعل قيمة العمل قيمة مرجِّحة، قال:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام: الآية " 132 ")

وقال:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

(سورة المجادلة)

هؤلاء الأنبياء العِظام الذين هم قِمَمُ البشريَّة، بِمَ نالوا هذا المقام ؟ بالعلم:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً (14))

(سورة القصص)

قد يعطي الله عزّ وجل المُلك لمن لا يحب ويعطيه لمن يحب، أعطاه لسليمان الحكيم وأعطاه لفرعون، ولكن العلم والحكمة لا يعطيهما إلا لمن يحب:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً (14))

(سورة القصص)

يعطي المال لمن يحب أعطاه لسيدنا عثمان بن عفَّان، ولسيدنا عبد الرحمن بن عوف، ويعطي المال لمن لا يحب أعطاه لقارون، ولكن العلم والحكمة لا يعطيهما إلا لمن يحب.

العلم بالله والعلم بأمر الله علمٌ ممتعٌ نافعٌ مسعد في الدنيا والآخرة:

أيها الأخوة، أدعوكم إلى طلب العلم، أدعوكم إلى الحِرْص عليه، أدعوكم إلى تلبية الحاجة العُليا في الإنسان، أدعوكم إلى تلبية ما يؤكِّد إنسانيَّتكم ألا وهو العلم، والعلم الذي أقصده أن تعرف الله وأن تعرف منهجه، لأنَّكَ إذا عرفت الله وعرفت منهجه وصلت إلى السلامة والسعادة.

بالمناسبة: كل علمٍ ممتع، ولكن ما كل علمٍ ممتع نافع، الآن العلم الممتع النافع قد لا يُسعد، قد تنال درجة عليا في اختصاص نادر ويأتيك من هذا الاختصاص ملايين، هذا علمٌ ممتعٌ نافع نفعك في الدنيا، وقد لا يكون مسعداً لك في الدنيا والآخرة، لكن العلم بالله، والعلم بمنهج الله، العلم بالله والعلم بأمر الله علمٌ ممتعٌ نافعٌ مسعد في الدنيا والآخرة. أنت حينما تأتي إلى بيتٍ من بيوت الله لطلب العلم،

أنت بهذا تسلك طريقاً إلى الجنَّة، وحينما تطلب العلم تكون أثيراً عند الله عزَّ وجل، وحينما تطلب العلم تضع لك الملائكة أجنحتها.

للإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى قصَّة مثيرة، هي أن الذي جعله يطلب العلم أنه قرأ نصَّاً في الأحاديث، أنه:

((من طلب العلم تكفل الله له برزقه))

[الجامع الصغير عن زياد بن الحرث الصدائي]

أي يسَّر الله له سُبُلَ الدنيا، إنسان يطلب العلم، يطلب أن يعرف الله، يطلب أن يسعد في الدنيا والآخرة، ييسِّر الله جلَّ جلاله له سبل العلم في الدنيا وسبل السلامة والسعادة، أما الآية الكريمة :

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ (78))

أي أن بعضهم الآخر ليسوا أميُّين، بعضهم الآخر يعلمون الحقيقة ويعرفون النبيَّ كما يعرفون أبناءهم، الآن دخلنا في موضوع ثانٍ، أنت حينما تعلم قد يكون هذا العلم حُجَّةً عليك، العلم حُجَةٌ لك أو عليك، حينما تعلم ولا تعمل أصبح العلم حجَّةً عليك، وحينما تعلم وتعمل أصبح العلم حجَّةً لك:

وعالمٌ بعلمه لم يعملن معذَّبٌ من قبل عبَّاد الوثن

***

" تعلَّموا ما شئتم فو الله لن تؤجروا حتَّى تعملوا بما علمتم " و " كل علمٍ وبالٌ على صاحبه ما لم يعمل به " و " العلم ما عُمِل به فإن لم يُعْمَل به كان الجهل أولى "

العلم ما عُمِلَ به فإن لم يُعْمَل به كان الجهل أولى:

أضع بين أيديكم هذه الحقيقة، لو أنك علمت علم اليقين أنك لو تعرَّضت لأشعَّة الشمس لشُفِيَ جسمك من مرضٍ جلدي، وأن هذا المرض لا يُعَالَج إلا بالتعرُّض لأشعَّة الشمس، لو أنك قبعت في غرفةٍ مظلمةٍ وأشعَّة الشمس ساطعة خارج الغرفة، وقلت: أنا مؤمنٌ بأن الشمس ساطعة، أنت تكلَّمت الحقيقة ؛ ولكنك لم تنتفع بهذه الحقيقة لأنك لم تخرج لأشعَّة الشمس، ولا قيمة لإيمانك بهذه الحقيقة ولو أنك قلت الحقيقة، فأنت إذا أقررت أن الله خلق الكون ولم تأتمر بما أمر، ولم تنتهِ عما عنه نهى وزجر، ما قيمة هذا الإيمان ؟ أنت حينما تعتقد بما جاء في القرآن ولا تعمل به، ما قيمة هذا الاعتقاد ؟ سمَّاه بعض العلماء إيماناً إبليسياً، لأن إبليس قال:

(فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(82))

(سورة ص)

وقال له:

(خَلَقْتَنِي)

(سورة ص: الآية " 76 ")

وقال له:

(أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الأعراف)

آمن بالله خالقاً، وآمن به عزيزاً، وآمن باليوم الآخر، ولكنه لم يطع الله عزَّ وجل، فالعلم ما عُمِلَ به فإن لم يُعْمَل به كان الجهل أولى، وأخطر شيء ينزلق إليه المسلمون أن يعدّوا العلم هدفاً بذاته لأن العلم وسيلة وليس هدفاً، الهدف أن تعمل به، الهدف أن ترتقي به إلى الله عزَّ وجل .

إنكار بعض اليهود على النبي رسالته حفاظاً على مكاسبهم الدنيوية:

بعض هؤلاء اليهود يعلمون أن النبيَّ رسول الله، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ولكن حفاظهم على مكاسبهم، وحفاظهم على رئاستهم لأتباعهم، وحفاظهم على شهواتهم، وعلى هذه المكاسب الكثيرة التي حَصَّلوها بمكانتهم الدينيَّة جعلتهم يركبون رؤوسهم، وينكرون على النبي رسالته.

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ (78))

بعضهم الآخر ليسوا أميُّين، البعض الآخر إن عملوا بما علموا نجوا كعبد الله بن سلام، جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأعلن إسلامه وكان يبكي خُشوعاً من خشية الله، فالذين يعلمون الحقيقة إن استجابوا لها نجوا، وسلموا، وسعدوا، وإن لم يستجيبوا لها كان علمهم حجَّةً عليهم، أما الخط العريض في المجتمع أميُّون، قال سيدنا علي: **" يا كُميل الناس ثلاثة ؛ عالمٌ ربَّاني، ومُتَعَلِّمٌ على سبيل نجاة، وهمجٌ رعاع أتباع كل ناعق، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركنٍ وثيق، فاحذر يا كميل أن تكون منهم ".**

فاليهود منهم أميون، ومنهم غير أميّين، وهؤلاء غير الأميين منهم من استجاب لعلمه فسلم وسعد، ومنهم من حافظ على مكاسب الدنيا فشقي في الدنيا والآخرة. لذلك قالوا: هناك من يُفْتِي بعلمٍ، وهناك من يفتي بغير علمٍ، وهناك من يفتي بخلاف ما يعلم، فالذي يفتي بعلمٍ نجا، والذي يفتي بغير علمٍ هَلَكَ، ولكن الذي يفتي بخلاف ما يعلم أجرم، يعرف الحقيقة ويفتي بخلافها، فهؤلاء الذين ليسوا أميين حافظوا على مكاسبهم، فركبوا رأسهم، وأنكروا نبوَّة النبي عليه الصلاة والسلام.

الاختلاف بين الناس له ثلاثة أنواع:

بالمناسبة أيها الأخوة الاختلاف بين الناس له ثلاثة أنواع:

1- الاختلاف الأول بسبب نقص المعلومات وهو اختلافٌ طبيعي لا يُمْدَح ولا يُذَم:

هناك نوعٌ طبيعيٌ جداً لا يُمْدَح ولا يُذَم، طبيعي، هو الاختلاف بسبب نقص المعلومات:

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إلا أمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا)

(سورة يونس: الآية " 19 ")

هذا اختلافٌ طبيعي لا يُمْدَح ولا يُذَم.

2- الاختلاف الثاني هو خلافٌ دنيويٌّ قذر يُذَم لأن أساسه المكاسب والمنازعات:

لكن هناك اختلافاً قذراً، وهو بعد أن أتى العلم، وبعد أن جاء اليقين، وبعد أن توضَّحت الأمور نختلف لنحافظ على مكاسبنا:

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إلا أمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا)

(سورة يونس: الآية " 19 ")

لكن هناك اختلافاً آخر :

(وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إلا الَّذِينَ أوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

(سورة البقرة: الآية " 213 ")

حينما نختلف على مكاسب، حينما نختلف على الدنيا، حينما نختلف على مناصب، حينما نختلف على زعامات بعد أن توضَّحت الأمور هذا خلافٌ دنيويٌّ قذر، وهناك خلاف محمود، الأول لا يُمْدَح ولا يُذَم، طبيعي، والثاني يُذَم لأن أساسه المكاسب، والمنازعات، والمال، والجاه.

3- الاختلاف الثالث هو اختلافٌ في التنافس وهو خلاف يُمدَح:

أما الخلاف الذي يُمْدَح هو اختلافٌ في التنافس، أي أن هذا رأى أن الذي يرضي الله أن تدعو إلى الله، وهذا رأى أن تؤلِّف الكتب، وهذا رأى أن تبني المساجد، وهذا رأى أن تُتْقِنَ العلوم، وهذا رأى أن تترك آثاراً دعويَّة وما إلى ذلك:

(وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إلا الَّذِينَ أوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ)

(سورة البقرة: الآية " 213 ")

إذاً هناك اختلاف ثالث وهو اختلاف تنافس، قال الله عزَّ وجل :

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ(26))

(سورة المطففين)

وقال:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61))

(سورة الصافات)

الذي يفتي بخلاف ما يعلم يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا قليل:

الآن هؤلاء الذين يلعبون بدين الله، هؤلاء الذين يُحِلُّون الحرام ويحرِّمون الحلال، هؤلاء الذين يتكلَّمون بما لا يعلمون، يفتون بما لا يعلمون، هؤلاء يقول الله عنهم :

(فَوَيْلٌ (79))

الهلاك والشقاء:

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79))

أحياناً تقوم مصلحة الإنسان على أن يبتدع في الدين ابتداعاً ما أنزل الله به من سلطان، يبتدع في الدين ليُحصّل المكاسب الدنيويَّة، هؤلاء الذين يبتدعون مذاهب ليس لها أصل في الدين، يبتدعون فتاوى ليس لها أصل في الدين، يُحِلُّون بعض ما حرَّمه الله عزَّ وجل، مثلاً هذه ليست فوائد إنها عوائد، فتوى تصدرها جهة معتمدة في الفتوى تبيِّن أن أكل مال الربا حلال، هؤلاء الذين يعلمون الحقيقة ويفتون بخلاف ما يعلمون، طبعاً موجودون عند اليهود، وموجودون عند كل دين:

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً (79))

أي نحاول أن نُسَهِّل للناس أمور حياتهم لمكاسب دنيوية فنصدر فتوى، هذه مسموح بها، وهذه مسموح بها، وهذه مسموح بها، لم يبق شيء من الدين. هذا الكيان المتماسك، هذه القلعة الصامدة أصبحت رملاً، تلاً من الرمل، فانتهى الدين، فأخطر شيء هذا الذي يفتي بغير علم، أو الذي يفتي بخلاف ما يعلم من أجل الدنيا، من أجل مكاسب دنيويَّة، هذا الإنسان الذي يبيعُ دينه بدُنياه، يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا قليل، بعرضٍ لا يقدِّم ولا يؤخِّر.

العلماء الصادقون أمناءٌ على الفتوى ولا يفتون إلا بما يُرضي الله ورسوله:

كلمة ينبغي أن نعلمها جميعاً وهي: أن الإنسان لا يليق به أن يكون لغير الله، لا يليق به ولا يُفْلِحُ إذا كان لغير الله، أي أن وقتك، وعلمك، ولسانك، وعضلاتك، وإمكاناتك، وحبَّك، وولاءك لله وحده، أما

لغير الله ؟! هذا الذي تعبده من دون الله لا يملك لك نفعاً ولا ضراً ؛ بل لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضَرَّاً، لا يملك، أخطر شيء في الحياة الدينيَّة الشرك، طبعاً:

((إنَّ أخْوَفَ مَا أتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ أمَا إِنِّي لَسْتُ أقُولُ يَعْبُدُونَ شَمْساً وَلا قَمَراً وَلا وَثَناً وَلَكِنْ أعْمَالاً لِغَيْرِ اللَّهِ وَشَهْوَةً خَفِيَّةً))

[ابن ماجة عن شداد بن أوس رضي الله عنه]

قال تعالى:

(فَوَيْلٌ (79))

الله عزَّ وجل يتوعَّد، من هو المؤمن ؟ هو الأمين على فتوى النبي عليه الصلاة والسلام.

الإمام أبو حنيفة أفتى فتوى فدخل السجن من أجلها ومات في السجن كما يروى، العلماء الصادقون هؤلاء أمناءٌ على الفتوى، لا يفتون إلا بما يُرضي الله عزَّ وجل ورسوله، فالآية تشير إلى إنسان استخدم الدين مَطِيَّةً للدنيا، جعل الدين في الوَحْل، جعله مطيَّةً لدنياه. فأنت اطلب الدنيا من مظانها، تريد الدنيا ابحث عن مظانها ؛ في التجارة وفي الكسب المشروع وفي أي شيء آخر، أما أن تبحث عن الدنيا من خلال الدين فهذا والله عملٌ شنيع:

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً (79))

الابتعاد عن المتاجرة بالدين:

الشيء المُلاحظ هو أنه كلَّما اشتدَّ ضغط الناس على بعض العلماء، هؤلاء العلماء بدل أن يرفعوا الناس إلى مستوى الشرع يهبطون بالدين إلى مستوى الناس، لدرجة أن إنساناً كان يدير مسبحاً مختلطاً أقام ذات مرة فيه مولداً، ودعا أناساً تكلَّموا، وأثنَوا، ومدحوا، هذا ماذا يفعل ؟ هذا يرتكب أكبر معصية، يدير مسبحاً مختلطاً نساءً ورجالاً شبه عرايا يسبحون مع بعضهم بعضاً، ومع ذلك يقيم احتفالاً بعيد المولد في المسبح نفسه، ويدعو من يتكلَّم ويثني عليه، هؤلاء الذين يمتهنون الدين، فالمشكلة أنه بدل أن نرتفع بالناس إلى مستوى الشريعة أصبحنا نهبط بالدين إلى مستوى الناس، فهذه مشروعة، وهذه فيها فتوى، وهذه فيها رأي ضعيف يُجيزها، وهذه بلوى عامَّة فماذا نفعل ؟ بعد حين صار الغناء، والموسيقى، والتمثيل، كل هذا مسموح، والاختلاط، وأكل المال الحرام، والربا، والفوائد، لم يبق شيء، حتى الصحون صارت مسموحة، مشكلة كبيرة جداً، ليست صحون المائدة ولكن صحون الأسطح، قال:

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً (79))

أيها الأخوة الكرام، كل إنسانٍ يلعب بدين الله يتوَعَّده الله عزَّ وجل بالهلاك، فإيَّاك أن تقترب من دين الله، دعه في السماء، دعه في عليائه، دعه في صفائه، دعه في نقائه، لا تستخدمه وسيلة

لمكاسب دنيويَّة، لا تشترِ به ثمناً قليلاً، لا تتاجر بالدين، لا تتخذ الدين مَطِيَّةً للدنيا، هذا فساد كبير جداً عند الله عزَّ وجل، فيجب أن تعلم من هو الطرف الآخر ؟!!

ذكر الله عزَّ وجل المعاصي بتسلسل تصاعدي:

قال تعالى:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(4))

(سورة التحريم)

أنت حينما تلعب بدين الله، أنت حينما تؤوِّل النصوص، تلوي عنق النصوص لمصلحتك، لمغانمك، لمكاسبك، أنت تشوِّه الحقيقة، بالمناسبة ذكر الله عزَّ وجل المعاصي بتسلسل تصاعدي، فذكر الفحشاء والمنكر، والإثم والعدوان، وذكر الشرك، وذكر الكفر، وجعل في قمَّة هذه المعاصي:

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(33)

(سورة الأعراف)

الإمام الشافعي رحمه الله تعالى له كلمة مُخيفة، قال: **" لأن أرتزق بالرقص أفضل من أن أرتزق بالدين ".**

لا ترتزق بالدين، دع الدين في عليائه، لا تشترِ بالدين ثمناً قليلاً، لا تحقِّق مكاسب الدنيا من خلال الدين، عندئذٍ تُلوي عنق النصوص وتعطي فتاوى غير صحيحة، وتعطي للناس تسهيلات هم في ذِمَّتك وفي رقبتك يوم القيامة، والفتوى جسرٌ إلى النار.

حدَّثني عالِم جليل في دمشق فقال لي: من غرائب الصُدَف أنني كنت في بلدٍ عربي، وفي حضرة عالِمٍ جليل احتلَّ منصباً رفيعاً جداً، وكان على فراش الموت، ولفظ أنفاسه أمامي، قُبَيْلَ أن يودِّعَ الحياة رفع يديه الاثنتين إلى السماء وقال: **" يا رب إني بريء من كل فتوى أفتيتها في حياتي عن المصارف "** ، عرف الحقيقة عند فراش الموت.

الذي يتاجر بالدين يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا قليل:

أيها الأخوة الكرام، استفتِ قلبك وإن أفتاك المفتون وأفتوك. فأنت حينما تخرج من بيتك تريد أن تبيع بيتك لو رأيت أمامك دلالاً وقال لك: ثمنه ثلاثة ملايين، هل تبيعه على الفور ؟ تسأل دلالاً ثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً، أما إذا كانت فتوى وراقت لك لا تسأل أحداً آخر، يوجد معي فتوى قرأتها في مجلَّة !! لماذا في أمور الدين تكتفي بفتوى واحدة، بعالِم واحد، بمقالة في مجلة وانتهى الأمر ؟ معك فتوى ومرتاح ولكنك لا تنجو من عذاب الله، أنت في أمر دنياك تعذِّب الخبراء، تسأل فلاناً وفلاناً،

لماذا في أمر دينك لا تسأل ؟ لماذا تكتفي بفتوى واحدة ؟ إن كنت حريصاً على دينك ينبغي أن تسأل عِدَّة مصادر.

ثم إن الإنسان حينما يسأل ويأتيه الجواب إذا كان جاهلاً، إذا كان أمياً قال: مقبول منه، لأن الأمي مذهبه مذهب من يسأله، تروى كلمة عن الشيخ بدر الدين رحمه الله تعالى ـ وقد كان من أكبر علماء الشام، طبعاً من باب التواضع ـ سألوه: يا سيدي ما مذهبك ؟ قال: **" العوام ليس لهم مذهب "**، العامِّي مذهبه مذهب شيخه، أما طالب العلم فعليه أن يقرأ الأدلَّة، هذا دليل، وهذا دليل، حينما تطلب العلم لا تُعفى من البحث عن الدليل، وحينما تأتي بالدليل والتعليل تكون طالب علمٍ شرعي، فلماذا تسأل في أمور الدنيا، وتعدِّد، وتبحث، وتناقش كي تصل إلى الحقيقة ؟ ولماذا تكتفي في أمر الدين بفتوى واحدة ؟

لذلك هذه الآية مخيفة بمعنى أن الذي يَتَّجِرُ بالدين، يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا قليل، أو الذي يُقرِّب الدين من الأقوياء والأغنياء، يقربهم منه عن طريق فتاوى ما أنزل الله بها من سلطان، هذا ماذا يفعل ؟ يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا قليل، الباخرة أحياناً تبتلع من ماء البحر قليلاً فيبلعها كلَّها، إن اتَّجَرْتَ بالدين أهلكت نفسك كلَّها، إن ابتلعت شيئاً من ماء البحر أخذك البحر كلَّك، الآية دقيقة :

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79))

الافتراء، لَيّ عُنُق النصوص، المعاصي الشائعة، تجعلها من الدين ؟! تجعل الدين يغطي كل الانحرافات، هناك كتب أُلِفَت فيها افتراءٌ على الله عزَّ وجل، تجعل السلوك الإباحي مُغَطَّىً بالقرآن، قال: هذه قراءة معاصرة ، يكتبون الكتاب بأيديهم:

(فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79))

عندما ينحرف الإنسان يحتاج إلى تنقيته من عقائد زائغة وهذا الذي فعله اليهود:

ليست الأرباح التي يجنيها من يزوِّر الدين، من يشوِّه معالم الدين، من يُمَيِّع الدين، من يُسَيِّحَ الدين، من يجعله غازاً ليكون صالحاً في كل مكان، احتفال مختلط، غير مختلط، مع الغناء والرقص والتمثيل، والربا، وأكل المال الحرام، والصحون، يقول لك: كل هذا من الدين، كل هذه الصحون لكي يرى الناس الكعبة، لا أعرف إذا كان هذا الشيء صحيحاً وليس ذلك ربحاً ؟! قال:

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79))

الويل أي الهلاك لهم، عندما ينحرف الإنسان الآن يختلَّ توازنه و لذا يحاول أن يستعيد توازنه بعقيدة فاسدة، فلو كان إنسان يأكل المال الحرام تجده متمسِّكاً بشفاعة النبي تجده يقول لك: النبي قال:

((شَفَاعَتِي لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي))

[الترمذي عن أنس رضي الله عنه]

هو مرتاح تماماً، فهذه الكبائر التي يفعلها في النهاية سيشفع له النبي، طبعاً هذا الفهم ساذج، الشفاعة حق وموجودة ؛ ولكن النبي يشفع لمن مات مخلصاً غير مشرك، فإذا مات الإنسان وهو غير مشرك يكون مات وقد حصَّل أعلى شهادة، على كلٍ هذا الذي ينحرف، سلوكه يتعلّق بعقيدة زائغة، ما دام انحرف يحتاج إلى مفهوم الشفاعة، ومفهوم ـ لا تدقّق الله لا يدقّق ـ عندما ينحرف الإنسان يحتاج إلى تنقيته من عقائد زائغة وهذا الذي فعله اليهود بعدما انحرفوا، وأكلوا المال الحرام، وأفسدوا أهل الأرض، وتاجروا بالدين، وغيَّروا، وبدَّلوا، وحرفوا، وزوَّروا، قالوا إنهم شعب الله المختار:

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً (80))

إن لم نأمر بالمعروف وننهَ عن المُنكر ونؤمن بالله الإيمان المُنَجِّي نصبح أمَّة كبقيَّة الأمم:

الآن بعض المسلمين يرتكب الكبائر ويقول لك: أمِّة محمَّد مرحومة، من قال لك ذلك ؟ الله عزَّ وجل حينما قال:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس)

علّة هذه الخيريَّة:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران: آية " 110 ")

فإن لم نأمر بالمعروف، ولم ننهَ عن المُنكر، ولم نؤمن بالله الإيمان المُنَجِّي، أين خيريَّتنا ؟ انتهت خيريَّتنا، نحن أمَّة كبقيَّة الأمم:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ (18))

(سورة المائدة)

دقّقوا:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ (18))

(سورة المائدة)

إذا كنَّا جنوداً لله فلن نُغلَب أما إذا غُلِبْنا فيجب أن نراجع أنفسنا وندقّق في جنديَّتنا لله:

عندما يقول المسلمون: نحن مسلمون، نحن أتباع النبي، نحن أتباع سيِّد الخَلق، الجواب: قل فلمَ يعذِّبنا الله بذنوبنا ؟

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

(سورة مريم)

لذلك قال العلماء: أمَّة محمَّد أمَّتان ؛ أمَّة التبليغ، وأمَّة التشريف، حينما تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله الإيمان المُنَجِّي أصبحت أمَّة التشريف، الأمَّة الخَيِّرَة

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ)

حينما تفعلون كذا وكذا، أما إن لم نفعل فنحن كبقيَّة الأمم، لا شأن لنا عند الله عزَّ وجل، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم:

((لن تُغْلَب أمَّتي من اثني عشرَ ألفاً من قلة))

[الجامع الصغير]

لن يُغْلبوا في الأرض، وقال تعالى:

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات)

إن زوال الكون أهون على الله من أن نُغْلب إذا كنَّا جنوداً لله، أما إذا غُلِبْنَا فيجب أن نراجع أنفسنا وندقِّق في جنديَّتنا لله.

أدلة من القرآن الكريم عن نصر الله تعالى لجنوده:

قال تعالى :

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة غافر: آية " 51 ")

في الدنيا:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (141))

(سورة النساء)

مستحيل:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7))

(سورة محمد)

وقال:

(وَمَا النَّصْرُ إلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(126))

(سورة آل عمران)

الأمر بيدِ الله، فلمَّا انحرفوا اختلَّ توازنهم، يحاولون الآن أن يستعيدوا هذا التوازن بعقيدة زائغة، كما هي الحال عند المسلمين، عندما انحرفوا قالوا لك: نحن أمة محمد مرحومة، نحن لنا الشفاعة عند رسول الله، هو مرتاح، تصوَّر طالباً كسولاً لم يدرس أبداً، طبعاً عندما لم يدرس أصبحت عنده مشكلة، فجاء طالب آخر وقال له: هذا الأستاذ يعطي أسئلة قبل الامتحان بأسبوع، فارتاح ارتياحاً

تاماً وقضى العام الدراسي كله في اللعب، ذهب للأستاذ وطلب الأسئلة، فعاقبه الأستاذ و قال له: لا يوجد أسئلة، اذهب وادرس.

إنسان له دعوى عند قاضٍ والحكم خطير جداً، قال له شخص: القاضي يقبل الرشوة، فهكذا ظن وتوهَّم وهماً فارتاح، فلمَّا جاء ليدفع للقاضي زجره وطرده وحكم عليه، فهذه مفاجأة كبيرة.

أدلة أخرى من القرآن الكريم عن رحمة الله تعالى ومغفرته لمن تاب واستغفر:

دقّق في قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ(5))

(سورة فاطر)

يقول لك الشيطان: الله غفور رحيم، اسمع هذه الآية :

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(49)وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ(50))

(سورة الحجر)

وقال:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر: الآية " 53 ")

يقول :

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ(54))

(سورة الزمر)

دائماً هناك تخويف مع الرجاء فعلى الإنسان أن يكون راجياً لله خائفاً منه في وقتٍ واحد:

فدائماً هناك تخويف مع الرجاء، المفروض أن يكون الإنسان راجياً لله خائفاً منه في وقتٍ واحد:

((يا عباس عم رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً))

[مسلم عن أبي هريرة]

((لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

[أحمد عن أبي هريرة]

((من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أحمد عن أبي هريرة]

قال تعالى:

(أفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ)

(سورة الزمر)

أي يا محمَّد:

(تُنقِذُ مَنْ فِي النَّار(19))

(سورة الزمر)

يقول:

((أصْحَابِي، أصْحَابِي، فَقِيلَ: إِنَّكَ لا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، قَالَ: فَأَقُولُ: بُعْداً، بُعْداً، أَوْ قَالَ: سُحْقاً، سُحْقاً لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي))

[مسند أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

الحقيقةُ المُرَّة أفضل ألف مرَّة من الوهم المريح:

مرَّة ثانية أيها الأخوة ـ وهذه نصيحة لوجه الله ـ الحقيقةُ المُرَّة أفضل ألف مرَّة من الوهم المريح، لا تعش بوهم مريح، لو معك شيك بمئة ألف دولار مزوَّر، إذا كنت لا تعرف أنه مزوَّر فأنت مرتاح تماماً لأنك تملك مبلغاً ضخماً، ثروة ضخمة، أما لو اكتشفت أنه مزوَّر، ومزَّقته، وعملت عملاً شريفاً، لكنت في حال غير هذا الحال، الحقيقة المرَّة ولو أنها مرَّة أفضل ألف مرَّة من الوهم المُريح، مسلمون كُثُر يعيشون في أوهام، في وهم أنه ليس لنا علاقة، هكذا كتب الله علينا:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)

(سورة الأنعام: الآية " 148 ")

هذا قضاء وقدر يا أخي هذا الإنسان لا يريد الله له الهداية، أعوذ بالله من هذا الكلام، الله لا يريد له أن يهتدي ، الله ما هداه، خلقه كافراً ماذا يفعل بنفسه ؟ مرتاح، ما وجدت واحداً متألِّقاً بالدين يقول: الله كتب عليه أن يكون مؤمناً، فقط إذا عصاه، بالمعاصي والفجور والآثام يقول لك: الله كتب عليَّ هذا، فلماذا عندما تكون مستقيماً ولك عمل طيِّب لا تقول: كتب الله عليَّ هذا ؟ ولكن تقول: والله انتبهت لحالي، تبت وصحوت ؟ لماذا تعزو الإيجابيات لنفسك والسلبيات تعزوها إلى الله عزَّ وجل ؟ هذا عمل غير منطقي.

المرض الذي وقع فيه اليهود وقعنا به:

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80))

لكن:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه(7))

(سورة الزلزلة)

ماذا نفعل بهذه الآية ؟ ماذا نفعل بها ؟ الجواب الإلهي :

(بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81))

هذا هو الجواب الإلهي.

الله عزَّ وجل لا يغفر إلا من بعد التوبة والإيمان والعمل الصالح:

قال:

(بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً (81))

باختياره فعل سيئة، لم يندم، ولم يَتُب، ولم يستغفر، ولم يصحِّح، بالمناسبة: أعتقد أن خمس أو أربع آيات في القرآن فيما أذكر:

(وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ(153))

(سورة الأعراف)

افتحوا في القرآن على كلمة

(مِنْ بَعْدِهَا)

تجد أن الله عزَّ وجل لا يغفر إلا من بعد التوبة والإيمان والعمل الصالح:

(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (153))

(سورة الأعراف)

الله عزَّ وجل عَدْلٌ واسم العدل سيتحقّق مطلقاً بإطلاقٍ تام يوم القيامة :

قال تعالى:

(قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ (81))

أي لم يتب منها

(أحاطت به)

(فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (82))

هذا كلام خالق الكون، الله عزَّ وجل عَدْلٌ، واسم العدل سيتحقّق مطلقاً بإطلاقٍ تام يوم القيامة:

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(47))

(سورة الأنبياء)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (32- 95):تفسير الآيات80 - 85، طرق استعادة التوازن

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-03-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان له جبلة وله تشكيل نفسي متوافق مع المنهج الإلهي:

مع الآية الثمانين وهي قوله تعالى، الآية السابقة :

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80))

أيها الأخوة الكرام، الإنسان له جِبِلّة، له فطرة، له تشكيل نفسي، هذه الجبلّة، أو الفطرة، أو الخصائص، أو التشكيل النفسي متوافقٌ مع منهج الله، بمعنى أن الله فطرك على حبِّ العدل وأمرك أن تعدل، النفس البشريَّة مفطورة على أن ترحم وأمرك أن ترحم، مفطورة على التواضع وأمرك أن تتواضع، فالإنسان حينما يطبِّق منهج الله عزَّ وجل يصطلح مع نفسه، ترتاح نفسه، هناك سعادةٌ يقطفها الإنسان من طاعة الله لا توصف بسبب أن بنيتك النفسيَّة متوافقة مع المنهج الإلهي، والدليل على ذلك:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

أنت من دون معلِّم، من دون موَجِّه، من دون مرشد، حينما تخرج عن منهج الله تعذِّبك نفسك، تحاسبك فطرتك، هذه المحاسبة، وهذا التعذيب سَمِّهِ عقدة نفسيَّة، سمه شعور بالذنب، سمه كآبة، على كلٍ أنت مؤلَّف، مُبرمج، مفطور، مجبول، مُشَكَّل وفق منهج الله.

الإنسان بعقله يتعرَّف إلى الله وبفطرته يكتشف خطأه:

ضربت اليوم مثلاً، لو جئنا بخريطة لسوريَّة، الخريطة نافرة ـ مجسَّمة ـ وجعلنا حولها إطاراً، وصببنا جبس سائل، بعد أن يجف هذا الجبس صار عندنا خريطة وقالب، توافق القالب مع الخريطة توافق مئة بالمئة، يمكن أن تقول: الخريطة هي النفس، والقالب هو المنهج الإلهي، توافق المنهج الإلهي مع فطرة النفس توافق عجيب، لمجرَّد أن تصطلح مع الله، وأن ترجع إليه، وأن تقف عند الحق، وأن تعطي، وأن ترحم، وأن تنصف، وأن تتواضع تشعر براحة غريبة، ما هذه الراحة ؟

كما لو أن سيارة مصمَّمة للطريق المُعَبَّد، سرت بها في طريق وعر فسمعت صوتاً، وسمعت اضطراباً، تعطيل، فلمَّا سارت على الطريق المعبَّد شعرت براحة لأنها مصمَّمة على هذا الطريق، الفكرة الدقيقة أنه أنت بعقلك تتعرَّف إلى الله، وبفطرتك تكتشف خطأك، الخطأ تكتشفه ذاتياً، الآية الأوضح:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً (30))

(سورة الروم الآية: " 30 ")

أن تقيم وجهك للدين أن تعطيه كل اهتمامه، كما لو أن إنساناً معه ضغط مرتفع وفحص ضغطه، تجد عيناه على المؤشِّر، متى يسمع الصوت ؟ متى يختفي الصوت ؟ تكاد عيناه تخرجان من محجريهما ليرى مكان المؤشِّر، كذلك الإنسان

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً)

أن تقيم وجهك للدين، أن تعطيه كلَّك، أن تتجه إليه بكل كيانك هذا يتوافق مع فطرتك

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

أنت هكذا مبرمج، هكذا مؤلَّف، هكذا مجبول، هكذا مشكَّل، أسماء المُسَمَّى واحد، في بنية جسميَّة؛ لك طول، لك ارتفاع، أعضاء، لون، حركات، مفاصل، قلب، رئتين، معدة، أمعاء، كبد، بنكرياس، أمعاء دقيقة، أمعاء غليظة، جلد، شعر، دماغ، هذا التشكيل المادي لك، أما أنت تنطوي على نفس، هذه النفس لها خصائص؛ تحب من أحسن إليها، تبغض من أساء إليها، تستحي بخطئها، تذوب إذا فُضِحَت:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

بنية النفس إذا خَرَجْتَ عنها تكشف لك خطأك .

الإنسان حينما يعصي الله يختلُّ توازنه:

أيها الأخوة الكرام، الإنسان حينما يعصي الله ـ دقِّق الآن هذا تمهيد ـ يختل توازنه، حدَّثني أخ فقال لي: رجل في بيروت ينطلق بمركبته بسرعة عالية جداً في الساعة الواحدة في الليل، فدهس طفلاً، الطفل أرسله أبوه ليأتيه بشيء من البقالية، طبعاً ما عرف أحد الفاعل، كُتِبَت ضد مجهول، يقول هذا الإنسان: أنه بقي أربعين يوماً لا ينام الليل، ذهب إلى طبيب نفسي، فقال له: لا بد من أن تدفع الديَّة لأهل الطفل دون أن يعلموا من الدافع كي تنام، معنى ذلك أن عند الإنسان فطرة عالية، وربنا عزَّ وجل أقسم بهذه النفس فقال:

(لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ(1)وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ(2))

(سورة القيامة)

لولا أن الله فطرك فطرةً عالية ما كنت تشعر بشيء حينما تعصيه، قد تقول لي: هناك من يعصيه ليلاً نهاراً، هذه حالة مرضيَّة نادرة، حينما تُطمَسُ فطرة الإنسان، أما في الأصل الفطرة السليمة تحاسب ذاتها حساباً دقيقاً.

هذا التقديم لفكرةٍ خطيرة هي: أن الإنسان حينما يعصي الله يختلُّ توازنه، يشعر بانهيار داخلي، يشعر أنه مكشوف، أنه خرج عن فطرته عن وعي أو عن غير وعي، قد يكون عن غير وعي، يقول لك: متضايق، لماذا أنت متضايق ؟ منقبض الدنيا لا تسعني، معي كآبة، حينما تخرج عن منهج الله لأن فطرتك متوافقةٌ مع منهج الله تشعر باضطراب، تقريباً إلى حدٍ كبير هذه السيارة مصممَّة أن تمشي على الزفت، فإذا سرت بها في الطريق الوعر آلمتك الأصوات، وآلمتك العقبات، وقد تقف، وقد ينكسر شيء فيها، لأنها لم تُصممَّ لهذا الطريق. الإنسان حينما يعصي الله، حينما يرتكب إثماً، حينما يعتدي، حينما يخرج عن منهج الله لأن فطرته متوافقة مع منهج الله يختل توازنه.

لاستعادة التوازن هناك ثلاث وسائل:

الإنسان حينما يعصي الله، حينما يرتكب إثماً، حينما يعتدي، حينما يخرج عن منهج الله لأن فطرته متوافقة مع منهج الله يختل توازنه.

الآن كيف نستعيد هذا التوازن ؟ هناك ثلاث وسائل كي تستعيد هذا التوازن؛ وسيلتان غير مشروعتين ووسيلة صحيحة.

1ـ الوسيلة الصحيحة كي تستعيد التوازن أن تصطلح مع الله:

الوسيلة الصحيحة كي تستعيد هذا التوازن أن تصطلح مع الله، وأن تتوب إليه، وأن تأتيه تائباً مطيعاً، مباشرةً تشعر براحة، لذلك التائب يشعر براحة لو وزِّعَت على أهل بلدٍ لكفتهم، حينما يشعر الإنسان أن الله يحبُّه، أن الله راضٍ عنه، أنه وفق منهج الله، أنه مطيعٌ لله، أنه عبدٌ لله، هذا الطريق السليم الصحيح كي تستعيد توازنك مع نفسك.

2ـ الطريق الآخر أن تتعلَّق بعقيدةٍ فاسدة تُغَطِّي انحرافك:

الطريق الآخر تتعلَّق بعقيدةٍ فاسدة تُغَطِّي انحرافك، فاليهود ـ بنو إسرائيل ـ حينما كذَّبوا أنبياءهم، وحرصوا على دنياهم، وأكلوا أموالهم بالباطل، ونقضوا عهد الله الذي عاهدوه عليه، اختلَّ توازنهم، فبحثوا عن عقيدةٍ فاسدةٍ تُغَطِّي انحرافهم وقالوا:

(لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً (80))

نحن شعب الله المختار:

(لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً (80))

الله عزَّ وجل ردَّ عليهم :

(قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81))

إذا سُرِقْ قلم في صف وصاحب القلم اشتكى إلى الأستاذ، والأستاذ أغلق الباب، وفتَّش الطلاَّب طالباً طالباً، ثمَّ أخرج هذا القلم من جيب أحد الطلاب، قبل أن يعاقبه، قبل أن يضربه، قبل أن يطرده، قبل أن يوَبِّخه لماذا يمتقع لونه ؟ يقول لك الإنسان أحياناً: تمنيت أن تُشَقَّ الأرض وتبتلعني، ذبت من الخجل، لماذا ؟ لأن هذه الفطرة، فيه بقية فطرة، بقية حياء، فالإنسان هكذا فُطِر، فعندما يعصي الله، يرتكب إثماً، معصية، شهوة، أو حينما يعتدي على الآخرين يختل توازنه الداخلي، يجب أن يستعيده بالصلح مع الله، بالتوبة إليه، بطاعته، هناك من يستعيده بأن يتعلَّق بعقيدةٍ زائغة.

الأمراض التي وقع بها بنو إسرائيل وقع بها المسلمين:

كما أن بني إسرائيل توهَّموا أنه لن تمسَّهم النار إلا أياماً معدودة، والمسلمون قالوا: نحن أمَّة محمّد تنالنا شفاعة النبي صلى الله عليه وسلَّم، يفهمون الشفاعة فهماً مغلوطاً، فهماً ساذجاً، افعل ما شئت والنبي يشفع لك، هذه عقيدةٌ مشابهةٌ لعقيدة بني إسرائيل، والأمراض التي وقع بها بنو إسرائيل وقع بها المسلمين، والردُّ على ذلك:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ(19))

(سورة الزمر)

((يا عباس عم رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً))

[مسلم عن أبي هريرة]

((من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أحمد عن أبي هريرة]

((لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

[أحمد عن أبي هريرة]

الطريق الثاني هو أن تتعلّق بعقيدةٍ زائغة، وذكرت في الدرس الماضي فيما أذكر طالب مقصِّر لا يدرس، وأبوه يسأله: كيف دراستك يا بني ؟ يقول له: إنني أدرس جيداً، وهو لا يدرس، يؤثر اللعب، والنُزهات، والسهر مع أصدقائه على دراسته، فلمَّا قصَّر في واجبه اختل توازنه، تضايق، قال له أحد الطلاب الكُسالى: الأستاذ يمكن أن يعطيك الأسئلة مقابل هديَّة، هذه الفكرة رائعة، هذه الفكرة

أراحته، استعاد توازنه، القضيَّة سهلة، يبقى كما هو عليه وقبل أيام يأخذ الأسئلة وينجح، فهذا الوهم المريح استعاد به توازنه.

كنت أقول لكم أيها الأخوة: الحقيقة المرَّة أفضل ألف مرَّة من الوهم المريح، لا تتعلَّق بالأوهام ولكن تعلَّق بالحقائق، ولو أن الحقيقة مرَّة واجهها بشجاعة، هناك إنسان يهرب من واقعه، يكون مريضاً فيكذِّب هذا المرض، فلا يذهب للفحص، يتفاقم المرض، أما لو أنه قَبِلَ الحقيقة المُرَّة وعالجه في البدايات كان خيراً له ألف مرة من أن ينكر وقوع هذا المرض ثمَّ يفاجأ بحالة مستعصية.

3- الأسلوب الثالث في أن تستعيد التوازن أن تطعن بالمؤمنين:

الأسلوب الثالث في أن تستعيد التوازن أن تطعن بالمؤمنين، انتبه، المنحرف إما أن يطعن في المؤمنين، وإما أن يتعلَّق بعقيدة زائغة فاسدة كي يستعيد توازنه المنهار، وكل إنسان يعتدي أو يقع بالإثم يختل توازنه الداخلي، لأنه مفطور على الكمال.

الفرق بين الفطرة والصِبغة:

النقطة الدقيقة أن تكون رحيماً هذه صبغة، وأن تحبَّ الرحيم هذه فطرة، أنت مبرمج، مفطور على أن تحبَّ الرحمة، وأن تحبَّ العدل، وأن تحبَّ اللطف، وأن تحبَّ التواضع، هكذا فطرتك، فإن كنت رحيماً، حليماً، عادلاً هذه صبغتك، الصبغة خُلُقٌ حقيقي أصيل جاءك من خلال اتصالك بالله:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران الآية: " 159 ")

الفطرة شيءٌ فطري ليس كسبياً، هكذا فُطِرْت، فلو أن اللصوص سرقوا سرقة كبيرة وأرادوا أن يقتسموها يقول له: اعدل، هو أساساً عمله كلّه غير مشروع، أما حينما يقتسم مع زملائه أفراد العصابة يتمنون العدل بينهم، هذه فطرة الإنسان، مرَّة سألوا امرأة تعمل بالفن بأوروبا: ما شعوركِ وأنتِ على خشبة المسرح ؟ قالت: شعور الخزي والعار، وهذا شعور كل أنثى تعرض مفاتنها على الجمهور، إن الحب يجب أن يكون بين الزوجين، وفي غرفٍ مغلَّقة، هذه الفطرة، الكمال يعرفه الإنسان بالفطرة؛ ولكن إما أن يتخلَّق بهذه الصفات من خلال اتصاله بالله، وإما أن تبقى رغبة وشعوراً وإعجاباً.

الله عزَّ وجل ما كلّفنا إلا بما نطيق:

إذاً أول طريق كي تستعيد توازنك أن تصطلح مع الله، الطريق الثاني أن تتعلّق بعقيدةٍ زائغة، والطريق الثالث أن تطعن بالمؤمنين، كأن تقول: لا أحد جيِّد، الناس هكذا جميعاً، فكل إنسان مقصِّر يقول لك: كل الناس فاسدين:

((إذا قال الرجل هلك الناس، فهو أهلكهم))

[الإمام مالك عن أبي هريرة]

يقول لك: الناس هالكين لكي يرتاح، كما لو سُئل طالب مقصِّر في الوظيفة: أين وظيفتك يا بني ؟ يقول له: أستاذ لم نكتب الوظيفة، أنت كم واحد ؟ لمَ قلت لم نكتب ؟ الطالب الكسول يحب أن يوسِّع دائرة التقصير كي يرتاح، فكل إنسان يعصي الله يوسِّع الدائرة، أخي الناس كلها فسدت، هذا عصر غير طبيعي، فسق وفجور ماذا نفعل هكذا الله خلقنا، نحن حظنا في هذا العصر، كلّما وسَّع التقصير، وسَّع الفسق والفجور يرتاح، مع أن الله عزَّ وجل يقول:

(لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة الآية: " 233 ")

الله عزَّ وجل ما كلّفنا إلا بما نطيق، وكل إنسان يقول: لا أستطيع أن أستقيم، هذا يردُّ القرآن الكريم، لأن الله عزَّ وجل يقول:

(لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلا وُسْعَهَا)

فالشرع كلُّه في وسع الإنسان، إذاً:

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ (79))

يزوِّرون، يغيِّرون، يبدِّلون، يلوَّون أعناق النصوص لمصلحتهم، يرتكبون جريمة أحياناً، التضليل، التزوير، التغيير، يجرّون الآية لمصلحتهم، إذا كان مرابياً يقول لك: الله ما حرَّم الربا لكنَّه حرَّم النِسَبَ العالية، والدليل:

(لا تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران الآية: " 130 ")

يجر الآية لمصلحته.

كل مقصر يلوي عنق النصوص ليغطي تقصيره ويبرره:

من لا يصلي يقول لك:

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ)

(سورة الحج الآية: " 41 ")

يلوي عُنُقَ النصوص، فإما أن تصطلح مع الله كي تستعيد توازنك، وإما أن يعتقد الإنسان عقيدة زائغة فاسدة، حتى الكتب التي تدَّعي أنها تقرأ القرآن قراءة معاصرة، وأنها تحل للمسلم كل شيء، أي أن السلوك الإباحي مغطًّى في هذه القراءات، هذا الكتاب طُبع أربع طبعات، عليه إقبال شديد لأنه مريح، تبقى على ما أنتَ عليه من تقصير وفسق وفجور، وأنت مغطًّى بتفسيرات مضحكة للقرآن الكريم، فإما أن تصطلح مع الله، وإما أن يتعلَّق الإنسان بعقيدة فاسدة أو تأويل باطل ما أنزل الله به من سلطان، وإما أن يطعن بالمؤمنين، لو تتبعت سلوك أهل الدنيا، كلّما ذُكر إنسان بخير لا يصدِّق، له مأرب، له أهداف بعيدة لا تعرفها أنت، يطعن دون أن يعلم، يقول بما لا يعلم، يطعن كي يرتاح، كالطالب الكسول يتمنَّى أن يقصِّر كل الطلاب كي يستأنس، الكل مقصِّرين، الكل غير متفوِّقين، أو أن يصطلح مع الله، عندئذٍ يستعيد توازنه، فهؤلاء:

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً (80))

كل إنسان في عالَم الذَر أخذ الله منه عهداً موثَّقاً:

هذه العقيدة الزائغة التي تعلّقوا بها كي يستعيدوا توازنهم النفسي:

(قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (82) وَإِذْ)

أينما وردت كلمة

(إِذْ)

في القرآن الكريم تعني اذكروا

(إِذْ)

أخذنا ميثاقكم، اذكروا

(إِذْ)

حين:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (83))

الميثاق هو العهد الموثَّق، وكل إنسان في عالَم الذَر أخذ الله منه عهداً موثَّقاً:

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ(172))

(سورة الأعراف)

الإنسان عاهد الله حينما خلقه ذرَّةً قبل أن يخلقه إنساناً أن يكون مع الله:

نحن عندنا في عالَم الذّر وعالَم الصور، عالَم الصور في الدنيا وعالَم الذر في الآخرة:

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً(72))

(سورة الأحزاب)

الإنسان عاهد الله حينما خلقه ذرَّةً قبل أن يخلقه إنساناً أن يكون مع الله، وألا ينسى الله عزَّ وجل، طبعاً هذا عهد لكل البشر، ما دمت أنت من بني البشر عُرِضَت عليك الأمانة وقبِلت حملها، والآية كما قلتها قبل قليل :

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً(72))

(سورة الأحزاب)

وقال:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ (83))

هذه فحوى دعوة الأنبياء جميعاً:

(أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة المؤمنين الآية: " 32 ")

وقال:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا أَنَا فَاعْبُدُونِي(25))

(سورة الأنبياء)

وقال:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ (83))

الله عزَّ وجل هو الخالق، والأب والأم كانا سبب الوجود فالعبادة لله والإحسان للوالدين :

الله عزَّ وجل هو الخالق، والأب والأم كانا سبب الوجود، الله هو الموجِد، والسبب أمُّك وأبوك، إذاً:

(لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (83))

هناك من يخطئ، فيعبد والديه لو أمراه بمعصية، العبادة لله والإحسان للوالدين:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً)

(سورة لقمان الآية: " 15 ")

وقال:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

(سورة الإسراء الآية: " 23 ")

مهما بالغت بالإحسان للوالدين فأنت تحت مظلَّة الله، أما إذا عبدتهما من دون الله، أمراك بمعصية، فهذا تجاوزٌ للحدود، الإله يُعْبَد والأب والأم يُحْسَنُ إليهما:

(لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى (83))

على المؤمن إما أن يحسن وإما أن ينطق بالكلمة الطيِّبة:

أقرب الناس؛ الأم، الأب، الأخ، الأخت، العمَّة، الخالة وهكذا:

(وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى (83))

الذي لا أبَ له ولا أم:

(وَالْمَسَاكِينِ (83))

المسكين هو الفقير:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً (83))

أي إن لم تحسن قل لهم كلاماً طيِّباً، لا تنهرهما، إما أن تحسن وإما أن تنطق بالكلمة الطيِّبة:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83))

منهج الله عزَّ وجل فيه كلمتان: افعل ولا تفعل:

منهج الله عزَّ وجل فيه كلمتان: افعل ولا تفعل، هنا افعل، اعبد الله، أحسن إلى والديك، أحسن إلى ذوي القُربى، أحسن إلى اليتامى، إلى المساكين، وإن لم تحسن ليكن كلامك طيِّباً:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً (83))

ولن تستطيع هذا إلا إذا أقمت الصلاة، لأنك بهذا الاتصال بالله تكتسب الكمال:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ (83))

يمكن أن يُجْمَعَ الدين بكلمتين؛ حركةٍ نحو الله عزَّ وجل اتصالاً، وحركةٍ نحو الخلق إحساناً، وقد قال الله عزَّ وجل على لسان سيدنا عيسى:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً)

(سورة مريم)

الدين كلّه بمجموعه لا يزيد عن كلمتين: اتصال بالخالق، وإحسان إلى المخلوق، كلَّما أحسنت إلى المخلوق صار الطريق إلى الله سالكاً، وكلَّما تَعَمَّقَ الاتصال بالله عزَّ وجل صار الدافع للإحسان بالخلق قوياً، اتصال بالخالق وإحسان للمخلوق.

الآية التالية حول ما ينبغي أن نفعل وما أمرنا الله به:

هذه الآية حول ما ينبغي أن نفعل، واذكروا:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83))

أما:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً (83))

الكلمة الطيِّبة صدقة، الكلمة الرحيمة، الكلمة المؤنسة، الكلمة التي فيها اعتذار، من عدَّ كلامه من عمله نجا، الكلمة الطيِّبة صدقة، أنت بالكلمة الطيبة تؤلّف القلوب، بالكلمة الطيبة تُلقي فيها الطمأنينة، بالكلمة الطيبة يجتمع الناس حولك، لأنه:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران الآية: " 159 ")

بما استقرَّ في قلبك من الرحمة كنت ليناً لهم، فلمَّا كنت ليناً لهم التفوا حولك وأحبوك، واستفادوا منك، وارتقيت بهم وارتقوا بك؛ لو كنت منقطعاً عن الله عزَّ وجل لكان قلبك قاسياً، والقسوة في القلب تنعكس غلظة وفظاظة، والغلظة والفظاظة تجعل الناس ينفضّون من حولك، معادلة رائعة جداً، اتصال، رحمة، لين، التفات، يقابلها انقطاع، قسوة، غلظة، انفضاض، معادلة متوازنة، فلذلك الكلمة الطيِّبة صدقة، الكلمة الطيبة وراءها رحمة، وراءها تواضع، وراءها عدل، وراءها خوف، وراءها لطف.

أيها الأخوة الكرام، منهج الله عزَّ وجل افعل ولا تفعل، وهذه الآية افعل، اعبد الله، أحسن إلى والديك، إلى ذوي القربى واليتامى والمساكين، ليكن كلامك طيِّباً فيه تأليفٌ للقلوب وتطييبٌ لها، لن تستطيع هذا إلا إذا اتصلت بالله عزَّ وجل، منعكس الصلاة الإحسان للخلق:

(ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ (83))

عن هذا المنهج:

(إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83))

الآيات التالية حول ما ينبغي ألا نفعل وما نهانا الله عنه:

الآن منهج الله عزَّ وجل لا تفعل:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ

وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ (85))

وقال:

(وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85))

أيها الأخوة، هذا مرضٌ خطير أن نؤمن ببعض الكتاب وأن نكفر ببعض، أن نفعل شيئاً وأن ندع أشياء، أن نعتقد بشيء وأن ننكر أشياء، أن نأخذ من الدين ما يروق لنا، ما هو هينٌ ليِّن، ما يعجبنا، وأن نردَّ ما لا يعجبنا، أو ما لا نرتاح إليه، أو ما يعيقُ شهواتنا، عملية الأخذ والترك، أن تصطفي وألا تصطفي، هذا مرضٌ خطير وقع به بنو إسرائيل فاستحقوا الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة

منهج الله عزَّ وجل كامل ينبغي أن نأخذه كلَّه لا أن نأخذ ما يعجبنا ونترك ما لا يعجبنا :

الآن انظر إلى المشكلة، يصلون، فالصلاة لا تكلفهم شيئاً لكنهم لا يغضون أبصارهم، يتاجرون لكنهم لا يتورَّعون عن أكل المال الحرام، يأخذون من الدين ما يعجبهم قضية احتفال، عيد مولد، أداء صلوات، صيام، أحياناً يعمل عمرة، فيركب الطائرة، وينزل في فندق فخم، يأكل ويشرب، ويطوف حول الكعبة عدة مرَّات وانتهت العمليَّة، ويحضر معه الهدايا، فالشيء الخفيف اللطيف يفعله المسلمين، أما أن تعطي حقوق الآخرين، أن تضبط شهواتك، فهذا وضع ثاني.

لذلك حينما نأخذ ما يعجبنا وندع ما لا يعجبنا، حينما نأخذ ما هو هينٌ علينا وندع ما ليس بهينٍ علينا، أخذنا بعض الكتاب وكفرنا ببعض، عملية انتقاء، هذه مهلكة، منهج الله عزَّ وجل كامل ينبغي أن نأخذه كلَّه، أما هناك أشياء لطيفة لا تقدِّم، يقول لك: الزواج سُنَّة يا أخي، طبعاً الزواج سنَّة، الزواج مريح، فالشيء الذي يتوافق مع رغبته يتمثَّل فيه، موضوع احتفال لو أننا مدحنا النبي عليه الصلاة والسلام، والله هو أعظم إنسان في الكون، لكن لو مدحناه ليلاً ونهاراً ونحن نخالف سُنَّته هل نستفيد شيئاً ؟ مستحيل.

تطبّيق منهج الله بكامله في كسب المال وإنفاقه وضبط الشهوات قضيَّة تحتاج إلى إرادة قويَّة :

أب من أعلى درجة في العلم، وله ابن معجب به إلى درجة مذهلة، لو أمضى هذا الابن كل حياته في مدح والده، ولم يطلب العلم، يبقى الابن جاهلاً والأب عالماً، فالمديح لا يُقدِّم ولا يؤخِّر، أن نفتخر بالماضي، فأساساً الإنسان حينما يفلّس في الحاضر يفتخر بالماضي، العبرة أن تجعل الحاضر كالماضي، العبرة أن تجعل الحاضر استمرار للماضي، نحن نفتخر أننا أمَّة عظيمة، نحن كنَّا أمَّة عظيمة:

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾

(سورة آل عمران الآية: " 110 ")

لكن الآن يوجد تخلُّف، تخلُّف عن ديننا وتخلُّف عن حضارة العصر، فلذلك القضيَّة أن نأخذ ما يعجبنا، الأشياء الهيِّنة اللطيفة، الفلكلوريَّة، العادات، التقاليد، إنشاد، ولائم، نزهات، موالد، هذا أمر سهل، أما أن نطبِّق منهج الله بكامله في كسب المال، وفي إنفاق المال، وفي ضبط الشهوات، هذه قضيَّة تحتاج إلى إرادة قويَّة، فهنا الآية الكريمة:

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85)﴾

أخطر شيء في الدين أهل الرأي، رأيهم مقدَّمٌ على عقيدتهم، يأخذون من الدين ما يوافق رأيهم، ويرفضون ما لا يوافق رأيهم، لهم دين خاص، يأخذ من النصوص ما يعجبه، ويرد ما لا يعجبه، أو يؤول ما لا يعجبه، يريد أن يوفِّق بين الدين وبين الدنيا، أن يجعل الدين مطيَّة لمصالحه، عملية الاختيار وأخذ ما يروق وترك ما لا يروق، أخذ السهل وترك الصعب، هذا انحراف خطير في الدين وقع فيه بنو إسرائيل فاستحقوا الهلاك.

من أجل أن تصل إلى الله لابدّ من أن تستكمل منهج الله عزَّ وجل:

المسلمون الآن دينهم أصبح فلكلورياً، مساجد، يرتدي الثوب الأبيض في الصيف، يتعطَّر، مسبحة في يده، يأتي إلى المسجد، لكن أين يسهر ؟ علاقاته كيف ؟ كسب ماله كيف ؟ فالدين عندما اختصرناه إلى صوم، وصلاة، وحج، وزكاة، ونسينا أنه مئة ألف أمر ونهي، منهج كامل، تركناه منهجاً وأخذناه عبادةً جوفاء، آمنا ببعض الكتاب، وكفرنا ببعض:

﴿ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85)﴾

هذا الدين منهج كامل، فهذه المركبة من أجل أن تمشي، أن تسير، تحتاج إلى محرِّك، وإلى عجلات، وإلى وقود، وإلى مُقْلِع، وإلى مقود، وإلى بوق، وإلى كهرباء، وإلى فرش، وإلى إضاءة، قد يتطلب عملها أربعين شرطاً، أما إذا الإنسان اشترى رفراف فقط، هذا الرفراف ليس سيارةً، هذا جزء من السيارة، اشترى مصباح فقط، مقعد فقط، عجلة، هذه أشياء لا تفيد، لا تُسَمَّى المركبة سيارة إلا إذا استوفت كل الشروط، فمن أجل أن تطير إلى الله لا بد من أن تستكمل منهج الله عزَّ وجل.

الله عزَّ وجل ذكر أمراضاً نحن مرشَّحون أن نقع فيها وفي الأعم الأغلب وقعنا فيها:

سلسلة هذه الدروس لها محور، أن الله عزَّ وجل حينما ركَّز على بني إسرائيل، وذكر أمراضهم وانحرافاتهم، وذكر تعنُّتهم وتكذيبهم أنبياءهم، هذا أسلوب الحكيم، لأن الله عزَّ وجل ذكر أمراضاً نحن مرشَّحون أن نقع فيها، وفي الأعم الأغلب وقعنا فيها، وكل درس أضعُ بين أيديكم حقيقة من واقع المسلمين تتوافق مع ما يعتقده بنو إسرائيل ومع ما يفعلونه، لكن الآية تحتاج إلى شرح طويل في درسٍ قادمٍ إن شاء الله لأن الله عزَّ وجل يقول:

(ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ (85))

هم يقتلون غيرهم، أما الآية :

(تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ (85))

في آية ثانية :

(فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

(سورة النور الآية: " 61 ")

في آية ثالثة:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة البقرة الآية: " 188 ")

آيات عديدة جداً: لا تأكل مالك، ما معنى هذه الآية ؟ لا تقتل نفسك ؟ هذه تحتاج إلى بحث لطيف محوره أن جماعة المؤمنين بمثابة الجسد الواحد، فأي عدوانٍ على أفرادها عدوان على الذات بشكل أو بآخر.

المؤمنون بمثابة الجسد الواحد:

على كلٍ المرض الخطير هو أن نأخذ من الدين ما يعجبنا وأن ندع ما لا يعجبنا، أن نأخذ ما هو هينٌ ليّن وأن ندع ما هو صعبٌ شاق، أن نأخذ ما يتوافق مع رغباتنا وأن ندع ما يعاكس رغباتنا، أن نأخذ ما يكلّفنا شيئاً وأن ندع ما يكلفنا كل شيء، هذه النظرة؛ أن تختار ما تشاء، أن تأخذ ما تشاء، هذه نظرةٌ خطيرةٌ في الدين، خطيرةٌ جداً، فلن يصبح الدين منهجاً كاملاً، من يسمي الرفراف سيارة ؟ مستحيل، من يسمي المحرِّك فقط سيارة ؟ من يسمي العجلات سيارة ؟ هذه قطع غيار، أما السيارة فيها كل شيء، وكذلك ـ وَلِلَّهِ المَثَلُ الأعْلَى ـ المنهج كامل إما أن نأخذه كلَّه؛ في كسب أموالنا، في تجارتنا، في أفراحنا، في أتراحنا، في بيوتنا، في علاقاتنا، في تربية أولادنا، في عباداتنا، في علاقاتنا بأخوتنا، أو أن نأخذ ما يعجبنا وندع ما لا يعجبنا، عندئذٍ لا نقطف ثمار الدين

إطلاقاً، لذلك قيل: **" العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلَّك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً ".**

في درسٍ قادمٍ إن شاء الله نزيد في شرح هذه الآية الكريمة التي تعلّمنا الشيء الكثير عن أن المسلمين وأن المؤمنين بمثابة الجسد الواحد:

(وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

(سورة البقرة الآية: " 188 ")

وقال:

(وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ)

(سورة النساء الآية: " 29 ")

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (33- 95):تفسيرالآيات83 - 86، معرفة المنهج الدقيق لله افعل و لا تفعل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-04-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

العهد والميثاق الذي أخذه الله تعالى على عباده في عالِم الذر:

مع الآية الثالثة والثمانين وهي قوله تعالى :

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83))

ذكرت في درسٍ سابقٍ أيها الأخوة أن كلمة

(إذ)

تعني اذكروا حين:

(وَإِذْ أَخَذْنَا (83))

أي اذكروا حين أخذنا منكم الميثاق الغليظ:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (83))

الميثاق هو العهد، والبشريَّة جمعاء حينما خُلِقوا في عالَم الذَر قال لهم الله تعالى:

(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)

(سورة الأعراف الآية: " 172 ")

أخذ الله على خلقه العهد أن يأتوا إلى الدنيا ليطيعوه، وليتعرَّفوا إليه، وليتعرَّفوا إلى منهجه، وليعملوا الصالحات لتكون الصالحات ثمناً لجنَّةٍ أبديَّة، هذا هو العهد، نحن في الدنيا من أجل أن نعرفه، ومن أجل أن نطيعه فنسلم، ومن أجل أن نعمل الصالحات فنسعد، ومن أجل أن تكون هذه المعرفة وتلك الطاعة وهذا العمل الصالح ثمن الجنَّة، خُلِقنا لجنَّةٍ عرضها السماوات والأرض:

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة رضي الله عنه]

سبب مجيئنا إلى الدنيا:

العهد أن نأتي إلى الدنيا فنتعرف إلى الله من خلال الكون، والكون كلُّه ينطق بأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، أن نأتي إلى الدنيا وأن نستخدم العقل الذي أودعه الله فينا، وأن نصغي إلى صوت

الفطرة التي فُطرنا عليها، وأن نستخدم حريَّة الاختيار في اختيار الخير، وأن نستخدم الشهوات كقوًى محرِّكة لا قوى مدمِّرة، وأن نجعل من الشرع منهجاً لنا، من أجل هذا جئنا إلى الدنيا، وهذا هو العهد الذي عاهدنا ربنا عليه، وهذا مضمون قوله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية: " 72 ")

وقال:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ (83))

كلمة جامعة مانعة هي الدين كلُّه: لا تعبدوا إلا الله، يجب أن نؤمن به إلهاً واحداً موجوداً كاملاً وأن نعبده، وأن نعبده وفق ما أمر لا وفق أمزجتنا، تسألك إحداهن: هل من الممكن أن نعمل عقد زواج صوري ليكون هذا الزوج الصوري محرم لي في الحج ؟ عجيب، تريدين أن تعبدي الله وفق مزاجك، ليس هناك محرم فأنتِ لستِ مستطيعة، استطاعت المرأة أن يكون لها محرم تحجُّ معه، طبعاً ضربت هذا المثل عَرَضَاً، يريد أُناسٌ كثيرون أن يعبدوا الله وفق أمزجتهم، لا يُعبد الله عزَّ وجل إلا بما شَرَّع:

(لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ (83))

تعريف بالعبادة:

الطاعة لله وحده، والعبادة ـ كما أقول دائماً وأعيد هذا كثيراً ـ طاعة طوعيَّة ممزوجة بمحبَّةٍ قلبيَّةٍ أساسها معرفة يقينيَّة تفضي إلى سعادة أبديَّة، معرفة، طاعة، سعادة:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء)

فحوى دعوة الأنبياء جميعاً :

(أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة المؤمنون الآية: " 32 ")

وردت هذه الآية عشرات المرَّات

(أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ(56))

(سورة الذاريات)

قرَنَ الله الإحسان إلى الوالدين بعبادته تعظيماً لقدر الوالدين:

لا يُعْبَد إلا الله، وحينما تعبد الله تعبده وفق ما شرَّع:

(لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ (83)ُ)

الوالدان هما سبب وجودك:

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً (83)ُ)

قرَنَ الله الإحسان إلى الوالدين بعبادته تعظيماً لقدر الوالدين، ولو أن في اللغة كلمةً أقلَّ من (أفّ) لقالها الله عزَّ وجل:

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً (83)ُ)

طبعاً هذه الآية افعل، والآية التي بعدها لا تفعل:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ (83))

مضمون منهج الله عزَّ وجل:

لقد تضمّنت هذه الآية العديد من العبادات بالإضافة إلى العبادة الاعتقادية في مطلبها، عبادات شعائريَّة:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ (83)ُ)

عبادات قوليَّة:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً (83))

عبادات تعامليَّة:

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ (83)ُ)

عبادة اعتقاديَّة:

(لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ (83)ُ)

هذا مضمون منهج الله عزَّ وجل: عبادة اعتقاديَّة، وعبادة شعائريَّة، وعبادة تعامليَّة، وعبادة قوليَّة.

الفرق بين الأمر التكليفي والأمر التكويني :

قال تعالى:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ (83)ُ)

الذي حصل أن هناك تولّي، هناك تقصير، هناك إعراض، أنت مخيَّر، كل الخَلق عدا الإنس والجن مسيَّرون، الشر لا وجود له إلا في عالم الإنس والجن لأنه مخيَّر، الأمر التكليفي غير التكويني، هناك أمرٌ تكليفيٌّ وهناك أمرٌ تكويني، الأمر التكليفي طريق سالك ؛ لكن في أوله لوحة كُتِبَ عليها ممنوع المرور، فأنت إما أن تسير وتخالف وتدفع الثمن الباهظ، وإما أن تأتمر فتسلم وتسعد، فالأمر تكليفي لك أن تطيع، ولك ألا تطيع، أما الأمر التكويني ليس لك خيار، الله عزَّ وجل له أمر تكليفي وله أمر تكويني، خلقك من فلان وفلانة هذا تكويني، خلقك بشكل معيَّن تكويني، خلقك بعصر معيَّن تكويني، بزمنٍ معيَّن، بمكان معيَّن، بقدراتٍ معيَّنة كلّه تكويني، قال لك: صلِّ، هذا تكليفي، اصدق تكليفي، كن أميناً تكليفي، اعدل تكليفي، غضَّ البصر تكليفي، هناك أمر تكويني هو فعل الله، وهناك أمر تكليفي هو أمر الله، فهذا أمرٌ تكليفي:

(لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ (83)ُ)

أيمكن أن تعبد غير الله ؟ ممكن لأن الأمر تكليفي:

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً (83)ُ)

أيمكن أن يكون الإنسان ابناً عاقاً ؟ ممكن:

(وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ (83)ُ)

أيمكن أن يبني مجده على نهب أموال هؤلاء..؟ ممكن:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً (83))

أيمكن أن تقول سوءاً للناس ؟ أمر تكليفي تفعل أو لا تفعل:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ (83)ُ)

يمكن أن لا تصلي، أنت مخيَّر، فالتخيير يثمِّن العمل، لولا الاختيار ما كانت هناك جنّة في الأساس.

مقوِّمات التكليف:

الجنة لأنَّك مخير، يقدم الإنسان فحصاً فينجح، يقام له احتفال تكريمي، لماذا التكريم ؟ لأنه درس وطالب آخر ما درس، الأول لأنه اجتهد والطالب الآخر ما اجتهد، الأول لأنه نجح والآخر ما نجح، هو مخيَّر يدرس أو لا يدرس، فالذي درس واجتهد ونجح يُقام له حفل تكريمي، والذي رسب يوبَّخ، فأنت مخيَّر، لا تنس أن مقوِّمات التكليف هي الكون، والعقل، والفطرة، والشهوة، والاختيار، والشرع:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83))

هذه الآية افعل، أما لا تفعل فإليك الآية :

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84))

الله عز وجل يحبنا أن نكون منتظمين ومتعاونين كالجسد الواحد:

مما يلفت النظر في هذه الآية :

(لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ (84))

مجتمع المؤمنين مجتمع واحد، وحدة، مجتمع المؤمنين في الأصل كما أراد الله عزَّ وجل كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمَّى، أنت حينما تأخذ مال أخيك ضَعَّفته، وإذا ضعَّفته ضعَّفت المؤمنين، وإذا صُنْتَ مال أخيك قوَّيته، وإذا قويته قويت المؤمنين، وأنت من المؤمنين، فأنت حينما تأكل مال أخيك ضعَّفت نفسك.

هذا مثلٌ أوضح: الآن لو أن أسرة مؤلَّفة من خمسة شباب، أعانوا أخاهم حتى صار طبيباً، وصار دخله كبيراً، هذا الدخل عاد على أخوته، أما لو جعلوا العصي في العجلات، منعوه من الدراسة، لبقي فقيراً، وصار عبئاً عليهم ـ الفكرة واضحة ـ هذا الأخ له خمسة إخوة، إذا دعموه وساعدوه وصار ذا مهنة دخلها كبير، دخلها الكبير عاد إليهم، أما إن أخذوا ماله، ومنعوه من الدراسة، بقي فقيراً، وصار عبئاً عليهم ، فعلى مستوى خمسة إخوة أنت إن أخذت مال أخيك فقد أخذت من مالك وأنت لا تدري، إن أضعفتَه أضعفت نفسك، وإن قويَّته قوَّيت نفسك، إذا دللته على القواعد الصحيَّة وعاش صحيح البدن فأنت ارتحت، إذا كان أخوك بخير فأنت بخير، أما إذا أهملت توجيهه الصحي فارتكب أخطاء صحيَّة كبيرة وأصابه مرض عضال فأنت المسؤول، أنت مكلَّف بمعالجته، هذا شيء واضح جداً في الأسرة.

إذا أهمل الإنسان صحة أولاده سيتكلَّف أموالاً طائلة في معالجتهم، لأنه مسؤول عنهم، لو انتبه لصحة أولاده لارتاح، فكأن الله عزَّ وجل يقول لنا: أنتم بمثابة الجسد الواحد فإن أكلتم أموالكم ضعَّفتم أنفسكم، إن سفكتم دماءكم ضَعَّفتم أنفسكم، إن أخرجتم إخوانكم من بيوتهم ضعَّفتم أنفسكم، أي أن الله عزَّ وجل أرادنا أن نكون جماعة، وأرادنا أن نكون متعاونين، متباذلين، متناصرين، متضامنين، متناصحين، ولا يحبُّنا الله عزَّ وجل إلا بهذا النظام والتعاون، قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

(سورة المائدة الآية: " 2")

التناقض بين الطبع والتكليف هو ثمن الجنَّة:

أخواننا الكرام، الإنسان له طبعٌ وله تكليف، طبعه فردي، والتكليف تعاوني، أمرك الله أن تتعاون مع أخيك، فأنت بقدر إيمانك بالله وبقدر طاعتك له تتعاون، وبقدر ضعف إيمانك وبقدر تفلُّتك

تتنافس، فالمتعاون مؤمن والمتنافس عاصٍ، لأن التعاون تكليف والفرديَّة طبع، والتناقض بين الطبع والتكليف هو ثمن الجنَّة، مثل هذه الآيات في القرآن :

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة البقرة الآية: " 188 ")

طبعاً ليس معنى الآية أن تأخذ من جيبك الأيمن مبلغاً من المال تضعه في جيبك الأيسر، لا ليس هذا هو المعنى، هذا المال مال أخيك هو مالك من زاويةٍ واحدة، من زاوية ضرورة الحفاظ عليه، فلأن تمتنع من أكله من باب أولى، إذا أعارك أخوك سيَّارته فهي سيارتك بمعنى أنه يجب أن تقودها بعنايةٍ فائقة، وكأنها سيارتك، هي ليست لك بل هي له، ولكن سنقول مؤقتاً هي سيارتك، أي عامِلها كأنها سيارتك، اعتنِ بها، قُدها بلطف، بعناية فائقة، فإذا قلنا: هذه السيارة سيارتك ليس المعنى أنها سيارتك، المعنى أنه ينبغي أن تقودها وكأنَّها سيارتك، من زاوية العناية بها، فإذا قال الله عزَّ وجل:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة البقرة الآية: " 188 ")

أي لا تأكلوا مال إخوانكم، ولكن سُمِّيَ مال أخيك مالك من زاوية وجوب العناية به والحفاظ عليه وكأنَّه مالك، هذه نقطة دقيقة جداً، إذا كان الشيء ليس لك فقد تكسِّره، تهمله، تتلفه، تحطِّمه، هذا سلوك الكفَّار ؛ أما المؤمن مال أخيه هو ماله، من زاوية الحفاظ عليه، يعتني بحاجات أخوانه، يعتني بآلاتهم، ببيوتهم، لو أسكَنوك في بيت وكأنه بيتك، ولو أعاروك مركبة وكأنَّها مركبتك، أعطاك مالاً كي تستثمره وكأنَّه مالك، لا تجعل مالك دون ماله ـ الفكرة دقيقة ـ فلو أن تاجراً أتاه مال للاستثمار، وكان صنف البضاعة غير معروف، فوضعه في هذا الصنف المجهول، فهل يربح ؟ أم لا يربح ؟ يقول لك: إذا ربح أُدْخِل رأس مالي الشخصي، أما إذا لم يربح فيمسك ماله لنفسه، ويقول: ما في نصيب، يقول لك: لم أشارك بمالي لأنه ما في نصيب، وهذا ترتيب الله سبحانه، أشار النبي إلى هذه الناحية فقال: **" ولا تجعل مالك دون ماله ".**

يجب أن تتعامل مع مال إخوانك وكأنه مالك وذلك من زاوية وجوب الحِفاظ عليه وصونه:

لا تجعل مال الإنسان اليتيم وسيلة تجسُّ بها نبض السوق، لا، بل يجب أن تتعامل مع مال أخوانك وكأنه مالك، وذلك من زاوية وجوب الحِفاظ عليه وصونه، طبعاً فلأن تمتنع عن أكله من باب أولى، من باب أولى ألف مرَّة، فاحذر:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة البقرة الآية: " 188 ")

وقال:

(وَلا تَلْمِزُوا أنفُسَكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: " 11")

لن تجد إنساناً يحتقر نفسه لكنه يحتقر أخاه، يطعن بأخيه، فإن طعنت بأخيك طعنت بنفسك، أنا أضرب أمثلة للتوضيح ـ لو أن إنساناً يجلس في لقاء يحوي خمسين أو ستين شخصاً، وقال: أبي فعل كذا أمراً قبيحاً، وأبي خالٍ من الأخلاق، وأبي قليل الدين مثلاً، فقد طعن بنفسه من دون أن يشعر، إذا كان هذا حال أبيك فأنت على هذه الشاكلة، فإذا ذمَّ الإنسان أقرب الناس له كأنه ذمَّ نفسه وهو لا يشعر.

بعض مما يحبه الله عز وجل:

قال تعالى:

(وَلا تَلْمِزُوا أنفُسَكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: " 11")

لم يقل: ولا تلمزوا إخوانكم، ولكنه قال: هذا أخوك سمعته من سمعتك لذلك :

((من أساء بأخيه الظن فقد أساء بربه))

[كنز العمال عن عائشة]

و:

((من أكرم أخاه المؤمن فإنما أكرم الله))

[رواه الأصبهاني عن جابر والعقيلي عن أبي بكرة]

الله عزَّ وجل يحب السَتر، يحب التعاون، يحب التضامن، التكاتف، التناصر، التسامح، يحب التزاور، هذا الذي يحبُّه الله عزَّ وجل، أنا آتيكم بأمثلة:

(وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

(سورة البقرة الآية: " 188 ")

وقال:

(وَلا تَلْمِزُوا أنفُسَكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: " 11")

وقال:

(لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ (84))

أربع آيات أو خمس آيات في القرآن الكريم فيها استفهام كبير، بالظاهر لأنه لا يوجد إنسان يقتل نفسه، أما إذا قتلت أخاك تُساق إلى المحكمة فيُحكَم عليك بالإعدام، معنى هذا أنت قتلت نفسك وأنت لا تدري، وقد قيل: **" القتل أنفى للقتل ".**

ينطلق المؤمن من حقيقة كبرى أنّ كلّ الخلق عيال الله:

عندما نقتل القاتل فقد ردعنا ألف إنسان مجرم كان كل منهم ينوي أن يقتل، فالمعاني دقيقة جداً، أول آية افعلوا، الآية الثانية لا تفعلوا:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ (84)ُ)

اذكروا أيضاً:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ (84)ُ)

إذاً يظل المسلم بخير ما لم يسفك دماً، أي إذا عاش الإنسان حياة مديدة ولم يصدر عنه أذى لإنسان هذا وسام شرف كبير، طبعاً القتل فما دون، تجريح، أو غيبة، أو نميمة، أو ابتزاز أموال، أو طعن بالأعراض، أو بالأنساب، أي أن تكون بعيداً عن إيذاء الخلق، وقد ورد في الحديث:

((اثنان لا تقربهما ؛ الشرك بالله والإضرار بالناس))

[سلسلة الأحاديث الضعيفة]

تصوَّر أباً له أولاد، فالذي يعتدي على أحد أولاده كأنه اعتدى على الأب، أن تعتدي على ابن هو عدوان على الأب، لذلك ينطلق المؤمن من حقيقة كُبرى كل هؤلاء الخلق عيال الله، فبقدر محبَّتك لله تنفع عياله، بقدر محبَّتك لله تُحسن إليهم، بقدر محبَّتك لله تلقي في قلوبهم الأمن والسكينة، بقدر محبَّتك لله تسعدهم، بقدر محبَّتك لله تعطيهم.

الإنسان الآخر ـ الطرف الآخر ـ بقدر بعده عن الله يبتزُّ أموالهم، بقدر بعده عن الله يُرْعِبُهم، بقدر بعده عن الله يخوِّفهم، بقدر بعده عن الله يطعن بهم.

الإنسان يحجب عن رب العباد عندما يؤذي العباد وذلك أكبر عقاب من الله للإنسان:

خدمة الخلق قربى إلى الرب وإيذاء الخلق بعدٌ عن الله عزَّ وجل، إنني أعتقد أن إنساناً يرى طفلاً في الطريق فيصفعه صفعاً شديداً ثمَّ يلتقي بأبيه في البيت التالي فإنه سينتابه خجلٌ شديدٌ، وخاصة إذا كان الطفل لم يفعل شيئاً، إنك لا تستطيع أن تتصل بالله إذا آذيت خلق الله عزَّ وجل، والحقيقة الإنسان يحجب عن رب العباد عندما يؤذي العباد وذلك أكبر عقاب من الله يعاقب به الإنسان، أكبر عقاب على الإطلاق:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15))

(سورة المطففين)

أنت حينما تؤذي عباد الله، حينما تبتزُّ أموالهم، حينما تحتال عليهم، حينما تنتهك أعراضهم، حينما تلقي في قلوبهم الخوف، حينما تحمِّر وجوههم، حينما تسحقهم، حينما تبني ثروتك على إفقارهم، حينما تبني مجدك على أنقاضهم، حينما تبني عزَّك على إذلالهم، أنت عندئذٍ أخذت أكبر عقاب من الله وهو أن الله عزَّ وجل حجبك عنه وطردك من رحمته، فكن عبد الله المظلوم إذا كان الطريق إلى

الله سالكاً ولا تكن عبد الله الظالم إذا كان الطريق إلى الله مقطوعاً، أيهما أفضل أن يكون الطريق إلى الله سالكاً ولك حقٌ عند أخيك ؛ أم أن تأخذ ما ليس لك والطريق إلى الله مسدود ؟ الإيمان يحل هذه المشكلة، المؤمن يعد للمليون قبل أن يأخذ ما ليس له، قبل أن يحتال على إنسان آخر، قبل أن يخيف إنساناً ما، قبل أن يسبِّب الأذى لإنسان، قبل أن يُحرج إنساناً، قبل أن يفضح إنساناً، قبل أن يكون سبباً في هلاك إنسان.

هنيئاً لمن كان مفتاحاً للخير والبر والويل لمن كان مفتاحاً للشر:

قال تعالى:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84))

أخذ ربنا عزَّ وجل العهد على بني إسرائيل أن يعبدوه، وأن يحسنوا إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين، وأن يقولوا للناس حسناً، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وأخذ عليهم العهد أيضاً ألا يسفك بعضهم دماء بعض، ورد في بعض الأحاديث أنه من علامات قيام الساعة موتٌ كعقاص الغنم لا يدري القاتل لمَ يقتل ولا يدري المقتول فيما قُتِل

ما معنى أن يخرج ربع مليون إنسان من بلدهم خوفاً على دمائهم ؟ هذا الذي يجري في العالم الآن:

((تُمْلَأُ الْأَرْضُ جَوْراً وَظُلْماً، فَيَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي يَمْلِكُ سَبْعاً أَوْ تِسْعاً فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلاً))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

تقوم القيامة ولا تقعد من أجل جندي أو جنديين، ومن أجل مئات بل ألوف بل بضعة ملايين يُقتلون، يموتون جوعاً، يُطردون من ديارهم لا يحرِّك أحد ساكناً أبداً:

قتل امرئٍ في غابةٍ جريمة لا تغتفر وقتل شعبٍ آمنٍ مسألة فيها نظر

***

هكذا تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً، هنيئاً أيها الأخوة، هنيئاً لمن كان مفتاحاً للخير، هنيئاً لمن كان مفتاحاً للبر، والويل لمن كان مفتاحاً للشر، هذا الذي ينام وفي رقبته جرائم القتل والتشريد والجوع كما يفعل أعداؤنا، ينامون والشعوب تئنُّ من الجوع، والشعوب تئنُّ من الظلم، والشعوب تئنُّ من ضيق ذات اليد وهم ينفقون على كلابهم ألوف الملايين، يطعمون كلابهم من اللحم ما لا تأكله شعوب بأكملها، لذلك:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

(سورة إبراهيم)

سلاح من الله تعالى لمواجهة كيد الكافرين :

يجب أن أقول هذه الآية شفاءً للصدور:

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46))

(سورة إبراهيم)

الله يُبَيِّنُ عِظَم مكرهم، أعطاك سلاحاً في مواجهة كيدهم، فقال:

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

(سورة آل عمران الآية: " 120 ")

هذا قرآن، كلام الواحد الديَّان، كلام خالق الأكوان:

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

(سورة آل عمران الآية: " 120 ")

متى وصل إلينا مكرهم ؟ وصل عندما لم نتق ولم نصبر، لم نتق الله ولم نطعه ولم نصبر على ترك منتجاتهم أبداً، نحن متعلّقون بمنتجاتهم، لو امتنعنا عن شراء حاجاتهم، لو صبرنا واتقينا الله عزَّ وجل لكفَّ الله عنا كيدهم

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

آية قرآنيَّة.

كفاك على عدوِّك نصراً أنه في معصية الله:

قال تعالى:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84)ُ)

إخواننا الكرام، هناك مقولة أتمنَّى أن تكون واضحة عندكم: كفاك على عدوِّك نصراً أنه في معصية الله، فالحياة تنتهي بالموت، هنيئاً لمن مات طائعاً لله، والويل ثمَّ الويل لمن مات عاصياً لله.

ذكرت لكم من قبل أن رجلاً من الناس كان يطوف حول الكعبة وهو يقول: ربي اغفر لي ذنبي ولا أظنُّك تفعل، وكان وراءه رجل فقال له: يا هذا ما أشدَّ يأسك من رحمة الله، قال له: ذنبي كبير، لو أنك تعرف ذنبي، قال له: ما ذنبك ؟ قال له: كنت في حملة قمع فتنة ـ هذه القصَّة قديمة وقعت في العصور العبَّاسيَّة ـ فلمَّا قُمِعَت أبيحت لنا المدينة، قال: فدخلت أحد البيوت، فرأيت فيه رجلاً وامرأةً وولدين، فقتلت الرجل، وقلت لامرأته: اعطني كل ما عندكِ، فأعطتني كل ما عندها، فقتل غلامها الأول، قال: فلما رأتني جاداً في قتل الثاني أعطتني درعاً مذهبة ؛ من الذهب، أعجبتني، ودهشت بها، فإذا عليها بيتان من الشعر قرأتهما، فوقعت مغشياً عليّ، مكتوب على هذه الدرع المذهبة:

إذا جار الأمير وحاجباه وقاضي الأرض أسرف في القضاءِ

فويلٌ ثـمَّ ويلٌ ثـم ويلٌ لقاضي الأرض من قاضي السماءِ

***

يقول لك: تطهير عرقي، تقتل إنساناً بلا سبب فقط لأنه مسلم !! هذا الإنسان ميِّت، ضميره ميت، قال

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9))

(سورة التكوير)

روى رجل في الجاهليَّة للنبي الكريم قصَّة عندما كان جاهلياً، وصف له ابنته الجميلة جداً في ريعان الصِبا، أخذها بيده إلى مكان بعيد ثم دفنها وهي حية:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9))

(سورة التكوير)

أدلة من القرآن الكريم عن انتقام الله تعالى:

إذا كان الإنسان قادراً على إيذاء الناس، هؤلاء الذين يُقتِّلون المسلمين والله لا تجد مسلماً إلا وهو يتألَّم ألماً شديداً، مستحيل أن تجد مسلماً ولا يتألَّم، بل يتألَّم ألماً لا يحتمل وهو يسمع الأخبار، هؤلاء الذين يهجِّرونهم، يشرِّدونهم، يجيعونهم، يقتلونهم غدراً، لذلك:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم)

وقال:

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)

(سورة إبراهيم)

وقال:

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197))

(سورة آل عمران)

وقال:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً(15)وَأَكِيدُ كَيْداً(16)فَمَهِّلْ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً(17))

(سورة الطارق)

هنيئاً لمن كان مفتاحاً للخير، أيها الأخوة طيبوا نفساً، إذا نمت مساءً وما من إنسان متعلِّق بك، لست متسبِّباً بإيذاء إنسان، ولا بقتل إنسان، ولا بإفقار إنسان، ولا بإذلال إنسان، ولا بفقد حريَّة إنسان، لست متسبِّباً بالأذى لأحد، فإنك لو أكلت أخشن الطعام فأنت أسعد الناس، لو سكنت في أضيق بيت فأنت أسعد الناس، لو عانيت لا سمح الله كل الأمراض أنت أسعد الناس بشرط ألا تكون متسبِّباً بإيذاء مخلوق، ولا بإفقار مخلوق، ولا بإخافة مخلوق، ولا بالإساءة لمخلوق.

واقع اليهود:

واقع اليهود قاتلهم الله:

(ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85))

اليهود في عهد النبي عليه الصلاة والسلام وهم بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، فريقٌ منهم عاهدوا الأوس، وفريق كانوا مع الخزرج، لخطَّةٍ رسموها من أجل أن تكون العداوة دائمة بين الفريقين، ومن أجل أن يعيشوا على عداوة الفريقين، انحاز بعضهم إلى الأوس وبعضهم إلى الخزرج، وكانوا في الوقت نفسه يثيرون الأوس على الخزرج، والخزرج على الأوس، يعيشون على أنقاض الأوس والخزرج، مكر شديد جداً، فريق من اليهود مع الأوس، وفريق مع الخزرج، وكل فريق يُحَمِّس الطرف الآخر لقتال صاحبه، فإذا نشبت حربٌ بين الأوس والخزرج مع حلفائهم من اليهود، ووقع بعض اليهود أسرى، يعمدون إلى فدائهم، حيلة ماكرة جداً في محاولة إفناء الفريقين الأوس والخزرج وبسط سيطرتهم على محيطهم.

(ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ (85))

إنهم متفقون اتفاقاً، نصفهم مع الأوس ونصفهم مع الخزرج، ويبثون الحراس بين هؤلاء لقتال هؤلاء وبين هؤلاء لقتال هؤلاء، فإن نشب القتال، طبعاً الأوس قاتلوا مع أنصارهم اليهود والخزرج قاتلوا مع حلفائهم اليهود، فإذا نشب قتال بين اليهود قتلوا أنفسهم، قتلوا أبناء جلدتهم، فمن لم يُقتَل أخذوه أسيراً ثمَّ افتدوه بعد أن يكونوا قد وصلوا إلى مآربهم في الوقيعة بين الفريقين العربيين.

من أخطر أمراض اليهود أنه يعجبهم من الدين ما هو يسير:

قال تعالى:

(ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ (85))

بالمعركة القذرة التي أججتموها أنتم بين الأوس والخزرج:

(وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ (85))

يقول لك: تكتيك، خطَّة ذكيَّة، الخطَّة الذكيَّة تسمَّى ذكيَّة إذا كانت وفق منهج الله فإن لم تكن وفق منهج الله فهي خطَّة قذرة:

(أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ (85))

هذا من أخطر أمراض اليهود وأنا أؤكِّد لكم أن المسلمين وقعوا في هذا المرض، يعجبهم من الدين ما هو يسير، الشيء الجميل، مثلاً السفر، الحفلات، الاحتفال بذكرى المولد، الشيء السهل، أما الانضباط ؛ ضبط الشهوات فلا يعجبهم، كسب المال الحلال فلا يعجبهم، يريد كسب مال كثير ولو من طريق مشبوه، فالذي يعجبه يأخذ منه، أحياناً يصوم في يوم عاشوراء، أو الخامس عشر من شعبان، وهو تارك لأشياء مهمَّة جداً في الدين، ومرتكب مخالفات كبيرة جداً في الدين، فقضية صيام يوم في السنة سهل جداً، قضية سفر إلى العمرة سهل أيضاً، مع أن العمرة واجبة مرة في العمر، لكن إذا لم يكن منضبطاً إطلاقاً لا قبل ولا بعد فلا جدوى من العمرة، أما ركوب طائرة، وطواف سبع أشواط فقضية سهلة جداً، فإذا أخذ الإنسان من الدين ما يعجبه، وأخذ الشيء اللطيف المريح، ذكرى مولد يا أخي، يقول لك: كم كان هناك من التجلي في المولد يا أخي، لكن البيت عنده ليس منضبطاً إسلامياً، ولا الدخل منضبط، ولا العلاقات منضبطة، ولا يوجد التزام إطلاقاً يقول لك: صار هناك تجلٍّ كثير، أي تجلٍّ هذا ؟

الذي يأخذ من الدين ما يعجبه ويدع ما لا يعجبه هذا وقع في مرض من أمراض اليهود:

قال تعالى:

(أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ (85))

تأخذ من الدين ما يعجبك وتدع ما لا يعجبك، يقول لك: الزواج سُنَّة يا أخي، أعجبه الزواج من الدين كله، أنا أقبلت على الزواج لأنه سُنَّة يا أخي، الشيء المريح الذي يعجبه أخذه، وبالغ به، وأثنى عليه ؛ أما إذا قلت له: غض بصرك، فإنه يقول لك: أين أذهب بعيوني ؟ وإن قلت له: هذا الدخل فيه شبهة اتركه، فإنه يقول لك: هذا الدخل كبير ويصعب تركه، أحد الأشخاص عنده مطعم يبيع فيه الخمر قال لي: إن شاء الله الإثم والوزر برقبة شريكي وليس ذنبي أنا ؟ أنا لا أقعد في المحل ولكن شريكي هو الذي يبقى فيه ويديره، يعجبه دخل كبير من مطعم يبيع خمراً مع أنه يصلي في المسجد، وأنا أضرب أمثلة وهي ليست على سبيل الحصر وقد يكون هناك آلاف من الأمثلة الأخرى، هذا الذي يأخذ من الدين ما يعجبه ويدع ما لا يعجبه، هذا وقع في مرض من أمراض اليهود:

(أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85))

وقع المسلمون في هذا المرض.

سبب خسارة المسلمين و خذلانهم:

مليار ومئتا مليون مسلم ليست كلمتهم هي العُليا، وليس أمرهم بيدهم، وأعداؤهم لهم عليهم ألف سبيلٍ وسبيل، هذا هو السبب:

(أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85))

إذا لم يُقِم المسلم الإسلام في بيته، ولم يضبط بناته، ولم يضبط أولاده، وإذا لم يحرَّر دخله، وإذا لم يكن عمله صحيحاً مشروعاً، ومهنته شريفة منطبقة على الشرع والمنهج، فكيف يسمي نفسه مسلماً ؟! أعجبه من الدين الصلاة، الصلاة سهلة جداً، أعجبه من الدين الصيام، طبق الأمور الشعائريَّة بحذافيرها، صلَّى وصام وحجَّ وزكَّى لكن حياته غير إسلاميَّة، بيته غير إسلامي، عمله غير إسلامي، دخله غير إسلامي، إنفاقه غير إسلامي، بيته غير منضبط، بناته غير منضبطات، فما قيمة هذا الذي أخذه مما هو هينٌ عليه، والذي تركه مما هو شاقٌ عليه ؟!!

الخاسر في النهاية هو من كسب الدنيا الفانية وضيّع الآخرة الباقية:

قال تعالى:

(أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85))

وقال:

(أُولَئِكَ (86))

هؤلاء الذين كُلّفوا ولكنهم لم يفعلوا ما كلّفوا به، ونُهوا لكنهم فعلوا ما نهوا عنه:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآَخِرَةِ (86))

الآخرة تعني الأبد، والحياة الدنيا تعني سنوات معدودة، اشترى الحياة الدنيا بملاذّها وشهواتها بالآخرة الأبديَّة:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآَخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (86))

أفضل كلمة تقال لمن كسب الدنيا فقط: كسب الدنيا الفانية وضيَّع الآخرة الباقية، الآن أعداء المسلمين في العالم كله كسبوا الدنيا، أقوياء جداً، أغنياء جداً، الأمور كلها بأيديهم، كسبوا الدنيا تماماً ؛ لكنَّهم ضيَّعوا الآخرة، فما دامت الآخرة حقاً فالمؤمن على ما يعاني أفضل عند الله ألف مرَّة من هؤلاء الذين كسبوا الدنيا وخسروا الآخرة :

(إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر الآية: " 15 ")

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (34- 95):تفسير الآية 87، الأخذ بالأسباب والتوكل على الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 09-04-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

كثرة الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى بني إسرائيل لا تعني أنهم مفضَّلون بل مشاكسون:

مع الآية السابعة والثمانين وهي قوله تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (87))

أيها الأخوة الكرام، بادئ ذي بدء حينما يسأل سائل: لماذا أرسل الله أنبياءً كُثُراً لبني إسرائيل ؟ هذه الظاهرة عليهم لا لهم، من باب التمثيل والتقريب، الطالب الكسول قد يأتيه أبوه بعشرات الأساتذة، والذي معه مرضٌ عُضال قد يأتي له أقرباؤه بعشرات الأطبَّاء، فكثرة الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى بني إسرائيل لا تعني أنهم مفضَّلون ؛ بل تعني أنهم مشاكسون، هذه حقيقة أولى، هذه ليست لهم بل هي عليهم، لأن الله عزَّ وجل يقول:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ (87))

الكتاب هو التوراة، وهو كتاب بني إسرائيل الأول.

الفرق بين النبي والرسول:

قال تعالى:

(وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ (87))

النبوَّة شيء والرسالة شيءٌ آخر، الرسول معه كتابٌ من عند الله، معه رسالة، معه رسالةٌ جديدة تنسخ الرسالة السابقة، أما النبي يرسله الله عزَّ وجل كما يرسل الرسول ؛ ولكن النبي يُرْسَل ليشرح رسالة سابقة، فسيدنا لوط، وسيدنا زكريَّا، وسيدنا يحيى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (78))

(سورة غافر: من آية " 78 ")

هؤلاء جاؤوا ليشرحوا لأقوامهم كتاب الله عزَّ وجل، ليشرحوا التوراة، فسيدنا موسى نبيُّهم الأول، أنزل الله عليه التوراة، والأنبياء الذين جاؤوا من بعده شرحوا لأقوامهم مضمون هذا الكتاب،

فالرسول معه كتابٌ من السماء، أما النبي فقد أرسله الله للمؤمنين ليشرح لهم كتاباً سابقاً، كل رسولٍ نبي وليس كل نبيٍ رسول.

لكن الشيء الذي ينبغي أن نقف عنده وقفةً متأنيَّة هو: أن كمال الله عزَّ وجل يقتضي إرسال الرسل، حينما يخلق الله خلقه دون أن يعلمهم بسرِّ خلقهم، دون أن يعلمهم بمنهجه الذي يؤدي إلى سلامتهم وسعادتهم فهذا يتناقض مع كماله، فحينما تُعَطّلُ مفهوم الرسالة فقد وصفت الله بما لا يليق به، وأوضح مثل ؛ أب جالس في بيته وابنه الصغير اقترب من المدفأة، هل يبقى ساكتاً ؟ هل يبقى جالساً ؟ أم ينطلق لينصحه ويبعده ؟ وقد يقوم من مكانه ليأخذه، فمن مستلزمات كمال الله عزَّ وجل ألا يترك عباده معطّلين عن الأمر والنهي.

إرسال الأنبياء والرُسُل من لوازم كمال الله:

النقطة الدقيقة أن هذا الكون المادي الذي هو تحت سمعنا وبصرنا ينطق بعظمة الله، ينطق بوجوده، وينطق بوحدانيَّته، وينطق بكماله، هذا الكون ينطق بكمال الله، ومن مستلزمات كمال الله ألا يدع عباده معطَّلين عن الأمر والنهي والمعرفة، لا بد من أن يبلّغهم، خلقهم في الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً هو ثمن سعادتهم الأبديَّة في الآخرة، خلقهم في الدنيا ليتعرَّفوا إلى الله، ليتعرَّفوا إلى منهجه، ليتعرَّفوا إلى سرِّ وجودهم وغاية وجودهم، ما من قومٍ إلا وأرسل الله لهم نبياً لقوله تعالى:

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ(7))

(سورة الرعد)

إرسال الأنبياء والرُسُل من لوازم كمال الله، كما أن من بديهيَّات الأبوَّة أن ينصح الأب ابنه، وأن يأمره، وأن ينهاه، فإذا بقي ساكتاً والأخطار محدقة بالابن هذا ليس أباً، المثل مُبَسَّط وواضح، فالله عزَّ وجل ما كان ليخلق الخلق ثمَّ يدعهم هكذا في جهالةٍ جهلاء:

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً)

(سورة البقرة: من آية " 213 ")

فاختلفوا:

(فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ)

(سورة البقرة: من آية " 213 ")

على كلٍ فالله عزَّ وجل قال:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

حيثما جاءت (على) مقترنة بلفظ الجلالة تعني أن الله جلَّ جلاله ألزم ذاته إلزاماً، فالله عزَّ وجل عليه أن يهدي خلقه.

الكون تجسيدٌ لأسماء الله الحسنى ومظهرٌ لصفاته الفُضلى:

كيف يهدي الله تعالى خلقه ؟ أول شيء هداهم بالكون :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ(190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(191))

(سورة آل عمران)

وقال:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

هداهم بالكون، والكون تجسيدٌ لأسماء الله الحسنى ومظهرٌ لصفاته الفُضلى، فإذا أردت أن تعرف الله فتفكَّر في خلق السماوات والأرض، كل شيءٍ خلقه الله له وظيفتان ؛ وظيفةٌ كبيرةٌ جداً أن تعرف الله من خلاله، ووظيفةٌ صغيرة أن تنتفع به في الدنيا، الوظيفة الصغيرة تنتهي عند الموت ؛ لكن الوظيفة الكبيرة ـ وظيفة الإرشاد ـ هذه تستمرُّ معك إلى أبد الآبدين، هذا الكلام ينطلق من قول النبي عليه الصلاة والسلام لمَّا رأى هلالاً قال:

((هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ))

[أبو داود عن قتادة]

هلال خيرٍ أنتفع به في الدنيا، ورَشَدٍ يُرشدني إلى الله عزَّ وجل، هذا الذي يأكل، ويشرب، ويتزوَّج، ويتنعَّم، ويرى الربيع، والخريف، والشتاء، والصيف، ويأكل من الفواكه أنواعاً كثيرة، ولا يفكِّر في هذا الخلق، عطَّل أكبر وظيفةٍ لهذا الخلق، وكان انتفاعه بما خلق الله له انتفاعاً محدوداً جُزئياً ينتهي عند الموت.

الإنسان دائماً تحت التوجيه وتحت التبيين والتبليغ:

أيها الأخوة الكرام عرَّفنا الله عزَّ وجل بذاته من خلال خَلْقِهِ، ثمَّ عرَّفنا بذاته من خلال كلامه، أرسل الكُتُب، كل رسولٍ جاء بكتاب، وكل نبيٍّ شرح هذا الكتاب، إذاً كلامه يدلُّنا عليه، وخلقه يدلُّنا عليه، ثمَّ عرَّفنا بفعله، قال:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11))

(سورة الأنعام)

ثمَّ عرَّفنا من خلال الفطرة، فطرك فطرةً خاصَّةً بحيث لو انحرفت عن منهج الله تضيقُ نفسك، الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس، والبر ما اطمأنَّت إليه النفس، إذاً عرَّفك بذاته من خلال خلقه، وعرَّفك بذاته من خلال أفعاله، وعرَّفك بذاته من خلال كلامه، وعرَّفك بذاته

من خلال الفطرة التي فُطِرْت عليها، وعرَّفك بذاته من خلال الملائكة الذين يُلْهمونك الصواب دائماً، وعرَّفك بذاته من خلال الأنبياء والرسل والدُعاة الصادقين، فالإنسان دائماً تحت التوجيه وتحت التبيين والتبليغ:

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ(7))

(سورة الرعد)

هناك رسل، ونبيُّنا سيِّد الرسل، وهناك رسل من أولي العَزم، وهناك رسل آخرون، وهناك أنبياء، وهناك صِدِّيقون، وهناك علماء عاملون، وهناك دعاةٌ طيِّبون، هؤلاء كلُّهم مسخَّرون لتعريف الناس بالحق، أما أن تُخْلَق وأن تُتْرَك من دون تعليم، من دون توجيه، من دون تبليغ، من دون بيان، فهذا يتناقض مع وجود الله ؛ بل إن الله عزَّ وجل يقول :

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً(15))

(سورة الإسراء)

ما دام الله قد أسمعك الحق فهذه بشارةٌ لك أن الله عَلِمَ فيك الخير:

قال بعض العلماء وليس كلُّ العلماء: الرسول هو العقل ـ من بعض التفسيرات ـ على كلٍ هناك آية حاسمة:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 23 ")

إذا وجِد إنسان بأقصى الدنيا وفيه ذرَّةٌ من خير لا بد من أن يسمعه الله الحق بطريقةٍ أو بأخرى، فأنت حينما ساقك الله إلى مكانٍ تستمع فيه إلى الحق هذه نعمةٌ كبيرة

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ)

فما دام الله قد أسمعك الحق فهذه بشارةٌ لك أن الله عَلِمَ فيك الخير، لأن هناك ضلالاتٌ في الأرض لا تُحْتَمَل.

هناك من يعبد النار، هناك من يعبد الأصنام، هناك من يعبد الحيوانات القميئة، هناك من يعبد موج البحر، إلى ما هُنالك، هناك من يعبد الشمس، هناك من يعبد البقر، هناك من يعبد الحَجَرَ، وإذا شرَّفنا الله بعبادته فهذه نعمةٌ كُبرى لا توصف:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ (87))

هناك شيء ثان مهمٌ جداً في هذا الموضوع وهو أن المتكلِّم يحاسب على كلامه، والمستمع يحاسب على سماعه، ماذا فعلت فيما سمعت ؟ المتكلِّم يحاسب: هل طبَّقت الذي تكلَّمت به ؟ أما المستمع يحاسب من نوع آخر: ماذا فعلت بالذي استمعت إليه ؟ وكأن الله عزَّ وجل لا يعدُّ السماع سماعاً إلا إذا تبعه تطبيق.

الإدراك الصحيح يقتضي انفعالاً صحيحاً والانفعال الصحيح يقتضي سلوكاً معيَّناً:

قال تعالى:

(وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ(21) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ(22))

(سورة الأنفال)

يقول: سمعت وهو لا يسمع، لأن السماع الحقيقي يقتضي الاستجابة، ودائماً وأبداً هناك قانون يربط علاقتك بالمُحيط، أنت حينما يصحُّ إدراكك تنفعل، وحينما تنفعل تتحرَّك، إدراك، انفعال، حركة، أبداً.

أنت في بستان رأيت أفعى كبيرة، وبحسب مفاهيمك العلميَّة والحياتيَّة الأفعى قد تقتل ـ لدغتها قاتلة ـ فأنت حينما أدركت أنها أفعى حقيقيَّة لا بد من أن تضطرب، واضطرابك لا بد من أن يدفعك إلى عملٍ ما ؛ إما أن تقتلها، وإما أن تولي هارباً منها، فعلامة صحَّة الإدراك عمق الانفعال، وعلامة عمق الانفعال الحركة السريعة، فهذا الذي يرى أفعى كبيرة مخيفة ولا يضطرب، إما أنها ليست بأفعى، أو أن إدراكه غير صحيح.

الذي لا يتأثَّر بالحقائق المخيفة هذا إنسان عنده خلل في إدراكه، فأنت حاسب نفسك، الإدراك الصحيح يقتضي انفعالاً صحيحاً، والانفعال الصحيح يقتضي سلوكاً معيَّناً، طبعاً نحن حياتنا بضعة أيام، الإنسان بضعة أيام كلَّما انقضى يومٌ انقضى بعضٌ منه، وأيامنا معدودة، والأسابيع معدودة، والأشهر، والسنوات، فإذا جاء يوم القيامة مُفْلِسَاً يقال له: ماذا كنت تعمل ؟

(أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(84))

(سورة النمل)

طبعاً الجواب:

(وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ(45)وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ(46)حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ(47)فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ(48))

(سورة المدثر)

لا يوجد عمل يسمو في الحياة عن أن تعرف منهج الله:

أيها الأخوة، هذا كلامٌ مصيري، هذا كلامٌ له أبعاده، هذا كلامٌ متعلّقٌ بالحياة الأبديَّة، هذا كلامٌ متعلّقٌ بما بعد الموت، والموت حق، ولا يستطيع أحدٌ أن ينكر حدث الموت، وأنت في لحظةٍ واحدة تصبح خبراً بعد أن كنت شيئاً:

(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً(1))

(سورة الإنسان)

ثمَّ يأتي العدم فيجعله منسياً، هذه الأيام المعدودة، والأسابيع المعدودة، والشهور المعدودة، والسنوات المعدودة، أساس سعادتك الأبديَّة أو الشقاء الأبدي لا سمح الله ولا قدَّر، فهل من الممكن لإنسان أن تأتيه رسالة ولا يفتحها ؟ هل من الممكن لإنسان أن يمزِّق الرسالة قبل أن يفتحها ؟ قد تسأل إنساناً: هل اطلعت على القرآن ؟ يقول لك: والله لا يوجد عندي وقت، القرآن وحي السماء إلى الأرض هل اطلعت عليه ؟ هل فهمت معانيه ؟ هل وقفت على مضمونه ؟ وعرفت أحكامه ؟ هل عرفت حلاله وحرامه ؟ هل عرفت وعده ووعيده ؟ هل عرفت سرَّ خلق الإنسان في الأرض ؟ هل عرفت غاية وجود الإنسان في الأرض ؟

(أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(84))

(سورة النمل)

كنَّا نخوض ونلعب، ليس هناك من عمل يعلو في الحياة على أن تعرف الله، لا يوجد عمل يسمو في الحياة عن أن تعرف منهج الله، عن أن تعرف المنهج الدقيق افعل ولا تفعل، لأن كل واحد منا يحرص على سلامته وعلى سعادته حرصاً لا حدود له.

الله عزَّ وجل يمتحن المؤمنين امتحاناتٍ عديدة:

قال تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ (87))

أنت عندما يأتيك كتاب هذا الكتاب لكل المسلمين، فيه أمر، فما هو موقفك من الأمر ؟ فيه نهي، فيه وعد، فيه وعيد، فيه تشريع، فيه حلال، فيه حرام، فيه مواعظ، فيه قصص الأقوام السابقة، فيه المستقبل البعيد، ما موقفك من هذا القرآن ؟ الموقف العامِّي يقول لك: تباركنا ويقبِّله، وهذا غير كافٍ بل إن هذا القرآن منهج، هل أحللت حلاله ؟ هل حرَّمت حرامه ؟ هل صدَّقت وعده ووعيده ؟ والله الذي لا إله إلا هو إن صدَّقت إنساناً قوياً من بني جلدتك يفعل ما يقول فإنك لا يمكن أن تخالفه أبداً، فهل تصدِّق أن الله عزَّ وجل بيده كل شيء ؟

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

(سورة هود: من آية " 123 ")

الله عزَّ وجل يمتحن المؤمنين، يمتحنهم امتحاناتٍ عديدة، قد يمتحنهم بأنه يقوي الكفَّار عليهم، هل ينسون ربَّهم ؟ هل يؤلِّهون غيره ؟

هناك أسلوب في البلاغة يذكر الكل ويقصد البعض ورد في الآيات التالية:

ذكرت مرة قوله تعالى:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ)

وصفٌ دقيق:

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

(سورة يونس: من آية " 24 ")

توهَّم بعض أهلها، قد تقول لي: الله قال في الآية: أهلها، وأنت تقول بعض أهلها، والجواب: هذا أسلوب في البلاغة يذكر الكل ويقصد البعض، أوضح دليلٍ عليه:

(يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ)

(سورة البقرة: من آية " 19 ")

هل يمكن ذلك ؟ بل يضع واحدة فقط، فذكر الكل وأراد البعض:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

كل بقعةٍ في الأرض تحت استطلاع أقمارهم، وكل بقعةٍ في الأرض في القارَّات الخمس تحت مرمى طائراتهم:

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ)

آيات من الذكر الحكيم تطمئننا أن الأمر كله بيد الله وحده:

نحن في هذه الأيَّام في أشدِّ الحاجة إلى القرآن ليطمئننا أن الأمر بيد الله وحده:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من آية " 123 ")

ليطمئننا أن:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل)

(سورة الزمر)

ليطمئننا أن:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: من آية " 54 ")

ليطمئننا أنه:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

ليطمئننا أنه:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: من آية " 84 ")

ليطمئننا أن:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من آية " 10 ")

ليطمئننا أن يدَ الله تعمل وحدها، وكل ما تقع العين عليه من قِوى الشر إنما هي عصيٌ بيد الله عزَّ وجل، يؤكّد هذا المعنى قول الله عزَّ وجل:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

آيات أخرى من الذكر الحكيم نحن في أمس الحاجة إليها لتطمئننا:

نحن في أمسِّ الحاجة إلى هذه الآيات:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ(42))

(سورة إبراهيم)

وقال:

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ)

(سورة آل عمران)

وقال:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44))

(سورة الأنعام: من آية " 44 ")

هذه حقائق مريحة، قد ترى قِوى الشر متمكّنة، قِوى الشر تفعل ما تريد، قِوى الشر تُنْزِل أشدَّ العقاب في إنسانٍ يبدو لك بريئاً، لئلا يختلَّ التوازن ينبغي أن تعرف الحقيقة: وهي أن الأمر بيد الله.

الحق عند الشاردين عن الله هو القوة:

قال تعالى:

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا (59))

(سورة الأنعام)

إذا وقع صاروخ !! أيهما أقرب إلى الفهم ورقة من أوراق الخريف أم صاروخ ؟ كم ورقة تسقط في الخريف ؟ الأشجار كلُّها تتساقط أوراقها في الخريف وهو سبحانه يعلمها جميعها، فالصاروخ أولى وأقرب للفهم:

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا (59))

(سورة الأنعام)

إذا وقعت شَظِيَّة أو وقعت قنبلة يعلمها، والأمر بيده، لكن الله عزَّ وجل قال:

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ (4))

(سورة محمد: من آية " 4 ")

قلت اليوم: الحق عند الشاردين عن الله هو القوة فقط فأنت على حقٍ لأنك قويّ، هذا الحق عند الشاردين عن الله، والحقُّ عند المؤمنين هو ما جاء به القرآن الكريم وما جاءت به السُنَّة الصحيحة، هذا هو الحق، ماذا فعل سيدنا صلاح الدين رحمه الله تعالى بأهل القدس حينما فتحها ؟ هل ذبحهم ؟ إنه لا يستطيع لأن لديه منهجاً، بل بالعكس شكت امرأةٌ له فقد ولدها فوقف ولم يجلس حتى أُعيد لها ولدُها، أما حينما فتح الفرنجة القدس ذبحوا سبعين ألفاً في ليلةٍ واحدة، المؤمن مقيَّد بالحق، والحق ما جاء به الكتاب.

الحق في الإسلام هو ما جاء به القرآن والسُنَّة:

إخواننا الكرام، بعدما فتحت بلاد سَمرقَنْد وصل إلى أهلها أن فتحها لم يكن شرعيَّاً، لأن فتح البلاد وفق المنهج الإلهي يجب أن تعرض عليهم الإسلام، فإن أسلموا فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، فإن لم يسلموا تَعْرِضُ عليهم الجزيَّة ؛ إن دفعوها فهم في أمان، فإن أبوا دفع الجزية يقاتَلون، فيبدو أن الجيش الإسلامي الذي فتح سمرقند بدأ بالقتال، لم يعرض الإسلام على أهلها ولم يعرض عليهم الجزية، فبعض أهل سمرقند عرفوا هذه الحقيقة، فأرسلوا خلسةً وفداً إلى عمر بن عبد العزيز يشكون إليه أن فتح بلادهم لم يكن وفق الشرع، الشيء الذي لا يصدَّق أن هذا الخليفة الراشد أرسل قصاصة صغيرة، ورد فيها هكذا: إلى قائد جيش المسلمين في سمرقند، اخرج من سمرقند، انتهى الأمر، بلد فُتِحَت بالحديد والنار، هكذا، هذا الوفد ما صدَّق، فهل يعقل أن تنسحب دولة محتلَّة لأرض بمجرد كتاب يصل للقائد، وتخرج منها ؟ فأخذوا هذا الكتاب وهم بين مصدِّقٍ ومكذِّب، ثمَّ تجرَّؤوا وأعطوا هذا الكتاب لأمير المسلمين في سمرقند، فقبَّل الكتاب، وأمر بإخراج الجند من سمرقند، فلمَّا رأوا هذا، قالوا: نحن قبلنا بكم وأسلمنا.

الحق في الإسلام هو ما جاء به القرآن والسُنَّة، قوي أو ضعيف هذا موضوع آخر، أما الحق عند الشاردين: إذا كنت قوياً فأنت على حق، فهل من الممكن أن تطرد إنساناً ليس له ذنب، وتأخذ هويَّته، وتجعله بلا هويَّة، تأخذ مركبته، وتجعله في العراء وهو يبلغ من العمر ثمانين أو تسعين سنة، وأطفال صغار ما ذنبهم ؟

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9))

(سورة التكوير)

الحق يحتاج إلى قوة كي تدعمه وأن نكون أقوياء هذا أمرٌ تكليفيّ وليس أمراً تكوينياً:

الحق ما جاء به الكتاب والسُنَّة، أما الحق يحتاج إلى قوة كي تدعمه، وأن نكون أقوياء هذا أمرٌ تكليفيّ وليس أمراً تكوينياً، من قال: كل هذا ترتيبه، هذا كلام ساذج:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 60 ")

الآن العلم قوَّة، الآن المعركة معركة علم فقط، فأمام قائد الطائرة شاشة يظهر عليها إشارة ضرب، تظهر المنشأة الضخمة، أو المعمل الضخم على الشاشة، ومهمة قائد الطائرة أن يضع هذه الإشارة فوق المنشأة فقط، ثم يضغط زراً فتدمر، أين الشجاعة ؟ أين الإقدام ؟ ألغي كله، الأسلحة الحديثة ألغت كل قيم الفروسيَّة والبطولة، قد يكون إنسان من أجبن الناس، وينتصر بأزرار، فلذلك الأرض:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)

(سورة يونس: من آية " 23 ")

أيها الأخوة الكرام، لا بد من أن يُظهر الله آياته في العالمين، الله هو القوي، هو المتصرِّف، هو الفعَّال، لا يقع شيءٌ في كونه إلا بإذنه وأمره دقّقوا:

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا (59))

(سورة الأنعام)

قصة أم سيدنا موسى وقصة سيدنا يوسف دلائل من القرآن على أنه ما من إلهٍ إلا الله:

قال تعالى يتحدث عن أم سيدنا موسى:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ)

(سورة القصص: من آية " 7 ")

هذا أول أمر:

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

(سورة القصص: من آية " 7 ")

هل قال: إذا خفت عليه ضميه إلى صدركِ، ضعيه في سريركِ، لا، لم يقل هذا، بل قال:

(فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ(7))

أمران، ونهيان، وبشارتان، لأن الصندوق بيد الله عزَّ وجل.

إخوة سيدنا يوسف عندما وضعوه في الجُب:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(15))

(سورة يوسف)

وقال:

(قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(90))

(سورة يوسف)

الشرق والغرب وقعا في الخطأ لأنهم توهموا أن الأسباب تخلق النتائج:

كل هذه القصَّة من أجل آيةٍ واحدة:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

هذا هو الإيمان، التوحيد، ليس إلا الله، ما من إلهٍ إلا الله، مهما رأيت قِوى الشر تتغطرس، مهما رأيت قِوى الشر تتعالى، مهما رأيت قِوى الشر تبطش:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من آية " 10 ")

هذا الإيمان، ومن دون هذا الإيمان يُسْحَق الإنسان، من دون هذا الإيمان يختل توازنه:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ (87))

ربنا عزَّ وجل لحكمةٍ بالغةٍ جعل لكل شيءٍ سبباً، فكل شيء له سبب، لكن أيها الأخوة الحقيقة الدقيقة هي: أن هذا السبب لا يخلق النتيجة، النتيجة من خلق الله تعالى ولكنها اقترنت بهذا السبب، وكل إنسان يتوهَّم أن الأسباب تخلق النتائج فقد أشرك، لذلك الشرق والغرب وقعا في الخطأ، الشرق عصى، والغرب أشرك، كيف ؟ الغرب أخذ بالأسباب واعتمد عليها وألّهها وعبدها من دون الله فأشرك، والشرق لم يأخذ بها فعصى، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

[أبو داود وأحمد عن عوف بن مالك]

أمثلة من الواقع عن أناس أخذوا بالأسباب واعتمدوا عليها فأشركوا وخسروا :

يجب علي أن أتحرَّك وآخذ بالأسباب وبعدها أتوكَّل على الله عزَّ وجل، فالطريق المثالي طريق ضيِّق، هناك وادٍ على اليمين وهناك وادٍ على اليسار ؛ وادٍ آخر، عن اليمين وادي الشرك، وعن اليسار وادي المعصية، أنت إن أخذت بالأسباب واعتمدت عليها فقد أشركت، هناك قصص كثيرة جداً:

الباخرة تيتانيك، وهي أضخم باخرة صُنِعَت في القرن التاسع عشر، بُنِيت هذه الباخرة في عام 1912، وقالوا في نشرتها أو كتيبها: هذه الباخرة لا يستطيع القَدَر أن يغرقها، لأنها صُنِعَت من

جدارين، وبين الجدارين أبوابٌ كثيرة، فأي مكان خُرقت فيه أُغلِقت الأبواب الجانبيَّة، فمنعت تسرُّب الماء إليها، لذلك لم يعتنِ صانعوها بقوارب النجاة فيها، وفي أول رحلة لها من أوروبا إلى أمريكا، وعليها أثرياء العالَم، وحِلِيِّ النساء ببضعة عشرات الملايين ارتطمت بجبلٍ ثلجي فشطرها شطرين، ولم يستطع أحدٌ أن يُنجدها لأنهم ظنوا أن إشارات الاستغاثة هي أصوات الاحتفالات، فما أنجدها أحد، ومات معظم ركّابها، قال بعض القساوسة: إنَّ غرق هذه الباخرة درسٌ من السماء إلى الأرض.

أُرْسِلت مركبة فضائيَّة سميت المتحدي ـ challenger- وطبعاً كل شيء على الكمبيوتر، وجرى عدٌّ تنازلي، وضبط إلى أقصى الحدود، فيها سبعة رواد فضائيين مع امرأة، وبعد إطلاقها بسبعين ثانية كانت كتلة من اللّهب، وانتهى الأمر.

أرسل اليهود قبل عامين طائرتين لاعتقال بعض المسلمين ليلة القدر في لبنان، كان على الطائرتين ـ فيما علمت من الأخبار الموثوقة ـ مئةٌ وخمسةٌ وعشرون ضابطاً من نُخبة ضبَّاطهم ؛ كلهم من الكوماندوس، حيث كلف تدريب كل ضابط مئات الألوف بل الملايين، يتقنون اللغات، والمصارعة اليابانية، والقتال بالسلاح الأبيض وما إلى ذلك، الطائرة العلويَّة وقعت فوق السفليَّة، والطائرتان وقعتا فوق مستعمرة، وما مُنِيَ اليهود منذ أن أنشؤوا دولتهم حتَّى الآن بخسارةٍ أبلغ من هذه الخسارة، مئة وخمسة وعشرون ضابطاً من نخبة ضبّاطهم، استمعوا إلى الصندوق الأسود فإذا فيه آخر ما قاله الطيار في الطائرة العلويَّة قال: **" أنا أسقط ولا أدري لِمَ أسقط "**، أما أهل الإيمان فبعضهم قال: ألم يقل الله عزَّ وجل:

(سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ(5))

(سورة القدر)

أنت في بيت الله أنت في سلام، فلمَّا أرادوا أن يأخذوا الناس من المساجد، وأن يستغلوا ليلة القدر، بطش الله عزَّ وجل بهم، قصص كثيرة، طبعاً هذه بعض القصص، وأحياناً يُمكّن الله عزَّ وجل الكافر من خططه، يمكّنه لحكمةٍ يُريدها، وقد لا يمكنه.

كل شيءٍ وقع أراده الله وكل شيءٍ أراده الله لابدّ واقع:

الشيء الدقيق جداً في هذا الدرس: أن كل شيءٍ وقع أراده الله، ما دام وقع فإن الله أراد وقوعه، لو دخل لص إلى بيتك، لا تقل: هكذا يريد الله، لا، يجب أن تقاومه، ليس معنى إذا سمح الله له بالدخول أن تبقى ساكتاً، وأن ترحِّب به، وأن تعطيه ما يريد، لا يجب أن تقاومه، أن تقبض عليه، أن تبلغ عنه الجهات المسؤولة، لكن اطمئن أن كل شيءٍ وقع فقد أراده الله وكل شيءٍ أراده الله لا بد واقع، وإرادة الله متعلّقةٌ بالحكمة المطلقة، والحكمة المُطلقة متعلّقة بالخير المُطلق، إن أخذت بالأسباب لا تعتمد عليها بل اعتمد على الله، لو كان عندك مركبة وأردت أن تسافر فهل ستقول: أنا فحصت كل

أجزاء المركبة، والجاهزيَّة عالية، ولن يحدث معي شيء ؟ هذا شِرك، لو كنت تركب أحدث مركبة قد يُصيبها الخلل، أما إذا قلت: أنا أخذت بالأسباب وتوكّلت على الله، هذا هو الموقف المِثالي.

دقّقوا أيها الأخوة، يجب أن تأخذ بالأسباب وكأنَّها كل شيء، ويجب أن تعتمد على الله وحده وكأنها ليست بشيء، هكذا فعل النبيُّ في الهجرة، سيدنا عيسى جاء من دون أب فقد ألغى الله السبب، وكذلك العقيم فقد عطّل الله السبب، زوجةٌ شابَّة وزوجٌ شاب لا يُنجبان، وامرأةٌ تنجب بلا زوج، فالسبب ملغي في حالة سيدنا عيسى، أما في حالة المرأة العقيم السبب معطّل، هناك سبب ولكن ليس هناك إنجاب، وقد لا يكون هناك سبب لكن هناك إنجاباً، وهذا من أجل أن لا نؤلّه الأسباب، فالله عزَّ وجل يخرق العادات، لماذا يخرقها ؟ ليلفتنا إليه، فالأمر بيده، إرادة الله طليقة لا يحدُّها شيء.

ما أخَّر المسلمين إلا موقف التواكل :

أيها الأخوة الكرام، أريد أن أنهي الدرس بهذه الحقيقة المهمَّة جداً قضية الأسباب والنتائج، مرَّةً ثانية: الغرب ألّه الأسباب واعتمد عليها، والشرقيون لم يأخذوا بالأسباب فعصوا الله، هؤلاء اعتمدوا عليها فأشركوا ونحن لم نأخذ بها فعصينا، الموقف الكامل أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثمَّ تتوكَّل على الله وكأنّها ليست بشيء هذا الموقف الصحيح، لذلك ما الذي جعل المسلمين متخلّفين ؟ لأنهم ما أخذوا بالأسباب، أوضح مثل: تفَّاحة غير مغسولة يقول لك: كل وسمِّ الله، لا يضر مع اسمه شيء، سمِّ الله ولا تخف، هذا كلام غير شرعي، خذ بالأسباب، اغسلها وتوكّل على الله، قد تغسلها بالصابون ويكون فيها دواء جهازي مسرطن ضمن التفَّاحة، أنت اغسلها وتوكّل على الله:

((قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ قَالَ: اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ))

[الترمذي عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ]

اجمع بينهما، ففي دراستك، في عملك، في تجارتك، في سفرك اضبط المركبة وقل: توكّلت على الله، أما أنك لم تراجعها ولم تفحصها منذ اثنتي عشرة سنة وتسير بسرعة مئة وعشرين، فيمكن أن يفلت الميزان، ويقضى على كل من فيها !! يقول لك: ترتيب الله وقضاؤه وقدره، لا، هذا جزاء التقصير، سمح الله بهذا ؛ ولكن هذا جزاء التقصير.

الابن مريض ويقول لك: سلّمته لله، هذا موقف غير إسلامي أبداً، هذا موقف فيه جهل، خذه إلى أحسن طبيب وأعطه العلاج، وبعدها قل: يا ربي سلّمته لك، وادفع صدقة، ما أخَّر المسلمين إلا هذا الموقف موقف التواكل:

" من أنتم ؟ "، قالوا: **" نحن المتوكّلون "** كان سيدنا عمر صريحاً فقال لهم: **"كذبتم، المتوكّل من ألقى حبَّة في الأرض ثمَّ توكّل على الله ".**

لم يدرس طيلة العام أما نجحت ؟ لا والله ما في نصيب أنجح هذه السنة، هذا الكلام لا معنى له، لا، أنت مقصِّر، بالتجارة، بالدراسة، بكل حركاتك، بصحَّتك، بعلاقاتك، خذ كل الأسباب وكأنَّها كل شيء، وتوكَّل على الله وكأنَّها ليست بشيء، هذا الموقف الكامل.

يحتاج النصر بالمعركة إلى إيمان وإلى إعداد:

العرب في ماضيهم المتألِّق أخذوا بالأسباب، أنشؤوا أسطولاً بحرياً فحاربوا، وفتحوا جزراً ضخمة، معنى هذا أنه كان عندهم علم، الآن خصومنا وأعداؤنا اعتمدوا العلم وألَّهوه، نحن رفضناه، اعتمدنا على إيماننا، ولكن ما نجح إيماننا من دون إعداد، يحتاج النصر بالمعركة إلى إيمان وإلى إعداد، قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 60 ")

وسّع كلمة معركة كثيراً، صار الاقتصاد الآن معركة، العالَم يسير بطريق البقاء للأقوى ؛ الأقوى علماً، والأقوى تطبيقاً، فأنت الآن كمسلم يجب أن تكون متألّقاً، والتألّق يحتاج إلى علم، الإمام الشافعي يقول: **" إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم"، " العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلَّك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً "** .

إنني أتمنَّى أن يكون المسلم متألِّقاً، الأول في الدراسة، والأول في التجارة، لأن لك في الحياة رسالة، أنت سفير المسلمين، تمثِّل المسلمين بدءاً من مظهرك، بدءاً من اختصاصك، من دراستك، من عملك، أنت قدوة ومثل:

((أنت على ثغرةٍ من ثُغر الإسلام فلا يؤتينَّ من قِبَلِك))

[ورد في الأثر]

الإسلام منهج أخلاقي:

والله أنا أفتخر كثيراً بمسلم صناعي، مسلم متفوّق، ولكن أحترم الكل والله، لأن النبي قال:

((وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ))

[مسلم عن أبي هريرة]

أحترم أي مؤمن:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ))

[الترمذي عن أنس بن مالك]

والله لقلامة ظفر مؤمن فقير ضعيف أفضل عند الله من ملء الأرض من الكفَّار، قلامة ظفره، قد يكون ضعيفاً، قد يكون مستخدماً، حاجباً، ولكنني أتمنى أن يكون المؤمن متألّقاً، ادرس، خذ شهادة، كن الأول بتجارتك، بعملك، بعلاقاتك، لأنك تمثّل الدين، لو أرسلت الدولة سفيراً فمن تبعث ؟ هل

تبعث إنساناً جاهلاً باللغة ؟ لا يحمل شهادة، أمياً ؟ هل من الممكن هذا ؟ مستحيل، بعض الدول ترسل سفيراً يحمل ثلاث شهادات ليسانس، هناك مدرسة خاصَّة للسفراء ليدرسوا العلوم، والآداب، والحقوق، وينتقون من أذكى الناس، لأنه يمثِّل أمَّة، فأنت تمثِّل الإسلام، كل مسلم يمثِّل الإسلام، أنت سفير المسلمين، فإذا كانت مواعيدك غير دقيقة، هندامك غير حسن، علاقاتك غير منضبطة، حساباتك غير صحيحة، أهذا هو المسلم ؟ ألا يستحي أحدنا أن يكون الإنسان البعيد عن الدين منضبطاً وذو الديِّن غير منضبط ؟ حاسبته: أين دفاتر وسجلات الحساب ؟ لا يوجد سجلات فالحساب تمام، لا ليس كذلك، بيِّن، ما دمت أنت نظيفاً فبيِّن الوثائق والفواتير والأسعار، تجد غير ذي الدين منضبطاً وهذا شيء مؤلم جداً والمؤمن فيه تسيُّب، أنا أريد مؤمناً منضبطاً، مؤمناً واضحاً.

أدق شيء أقوله في هذا الدرس: الإسلام منهج أخلاقي، هكذا قال سيدنا جعفر للنجاشي: **" كنَّا قوماً أهل جاهليَّة ؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار، ونقطع الرحم، حتَّى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته ـ انظر إلى نعرف أمانته ـ وصدقه وعفافه ونسبه، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحِّده، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء "**. هذا هو الإسلام.

أجمل ساعة هي سَاعة الصُلح مع الله:

الإسلام أن تكون صادقاً، الإسلام أن تكون أميناً، الإسلام أن تكون عفيفاً، الإسلام أن تربي أولادك، الإسلام ألا تستخدم معيارين بل معيار واحد، هذا هو الإسلام، أما الصلاة فهي عبادة شعائريَّة، وقد تكون فارغة، فالصلاة فرض ولكنك إذا أديتها ولم تنهك هذه الصلاة عن الفحشاء والمنكر لم تقطف ثمارها، إذا صُمت رمضان ولم يقرِّبك إلى الله عزَّ وجل فأنت خائب خاسر:

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

[البخاري عن أبي هريرة]

إذا أنفقت مالك ولم تبغ به وجه الله فلا خير منه، والله قال:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ (53))

(سورة التوبة)

إذا أديت العبادات التعامليَّة كما أرادها الله في الأصل انعكست في العبادات الشعائريَّة، فالصلاة صلة، وقد أعجبتني عبارة إنسان حين قال لي: صار لديّ خط ساخن مع الله، الإنسان أحياناً يفتح الهاتف فلا يجد خطاً بل الخط مقطوع، أما إذا سمعت صوت طنين معنى هذا الخط ساخن، فقال لي: صار لي خط ساخن مع الله، صرت أناجيه لأنني تبت له، واستقمت على أمره، أجمل ساعة هي

سَاعة الصُلح مع الله، والإنابة إليه، والتوبة إليه، والإقبال عليه، وأنت حينما تتعرَّف إلى الله تجده، قال عليه الصلاة والسلام:

((ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحبّ إليك من كل شيء))

[مختصر تفسير ابن كثير]

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (35- 95):تفسير الآيتان 87 - 88، نظام السببية
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-04-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

كثرة الأنبياء التي أرسلها الله إلى بني إسرائيل ليست شهادةً لهم بل شهادة عليهم:

مع الآية السابعة والثمانين والتي بعدها، يقول الله عزَّ وجل في القرآن الكريم:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (87))

أيها الأخوة الكرام، كثرة أنبياء بني إسرائيل ليست شهادةً لهم ؛ بل هي شهادة عليهم، لأن الطالب المقصِّر يحتاج إلى عددٍ كبيرٍ من المدرِّسين، ولأن صاحب المرض المستعصي يحتاج إلى عددٍ كبيرٍ من الأطبَّاء، فكثرة الأنبياء التي أرسلها الله إلى بني إسرائيل ليست شهادةً لهم بل هي شهادةٌ عليهم.

الشيء الآخر هو: أنه من لوازم كمال الله عزَّ وجل ألا يدع عباده من دون توجيه، من دون تكليف، من دون تبيين، قال الله عزَّ وجل:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

(على) إذا جاءت مع لفظ الجلالة تفيد الإلزام الذاتي، فكأن الله عزَّ وجل قال: يا عبادي عليّ أن أهديكم.

لا يمكن أن تتناقض إرادة الله عزَّ وجل:

ما دام الله عزَّ وجل يقول:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

لا يمكن أن تتناقض إرادة الله عزَّ وجل، هذه حقيقة مهمَّة جداً، ما دام الله عزَّ وجل قال:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (27))

(سورة النساء: الآية "27")

وقال:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

إذاً لا يمكن أن يكون من إرادته الأخرى ما يمنع الهُدى، إنسان بسيط، طموحه أن يكون ابنه متعلّماً، هذا طموح الأبِ، هل يعقل أن يمنع ابنه من تأدية الامتحان ليرسُب ؟ مستحيل، ما دام طموح هذا الأب وأمله أن يكون ابنه متعلّماً، والابن يدرس، هل يعقل أن يمنع الأب ابنه أن يؤدِّيَ الامتحان ؟ تناقضت إرادة الأب، أراد له أن يكون متعلّماً، ثمَّ أراد أن يمنعه من دخول الامتحان، تناقضت الإرادات، فهذا لا يُقْبَل بحقِّ الإنسان فهل يُقْبَل بحق الواحد الديَّان ؟ مستحيل، لا تتناقض إرادة الله عزَّ وجل

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

نظام الكون أساسه السببيَّة:

قال تعالى:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: الآية "119")

خلقنا ليرحمنا، يستحيل أن يريد بنا العذاب، أراد لنا السعادة، والسلامة، والجنَّة، فأن يريد غير ذلك معناه أنه تناقضت إرادة الله عزَّ وجل، وهذا مستحيلٌ في حقِّ الله عزَّ وجل، إذاً:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ (87))

بيَّنت لكم في الدرس الماضي ـ وهو مركز ثِقَلٍ في هذا الدرس ـ أن مشيئة الله شاءت أن يكون لكل شيءٍ سبب، نظام الكون أساسه السببيَّة، بل إن عقل الإنسان بُنِيَ على نظام السببيَّة، أنت لا تفهم شيئاً بلا سبب، كما أنك لا تفهم شيئاً بلا هدف، كما أنك لا تقبل التناقض هذا هو العقل، العقل جهاز مَعرفي، جهاز إدراكي، لا يفهم إلا وفق هذه المبادئ، وقعت في دمشق مثلاً جريمة، واتُهِمْ بها إنسان، لو أثبت هذا الإنسان بالدليل اليقيني أنه كان في حلب فهو برئ، لأنه لا يُعْقَل أن يكون الإنسان في دمشق وحلب في وقتٍ واحد، هذا هو العقل، هو يرفض التناقض.

العقل يرفض أن يحدث شيء بلا سبب، إنسان يغادر منزله ويغلق أبواب البيت ويطفئ الكهرباء، فإذا رجع بعد أيَّام ووجد أن الكهرباء متألّقة لماذا يضَّطرب ؟ لماذا ينفعل ؟ لماذا يقلق ؟ لو أنه عندما عبَّر عن قلقه قالت له زوجته: أطفئ المصابيح وأطفأها، لما انتهى مصدر قلقه لأن القضيَّة أخطر من ذلك، القضية من دخل إلى البيت في غيابنا ؟ لا يقبل أن تتألّق المصابيح من دون فاعل، هذا هو العقل، العقل لا يقبل شيئاً من دون سبب، لا يقبل شيئاً من دون هدف.

أساس نظام عقل الإنسان السببيَّة:

يرى الإنسان أحياناً ظواهر لا تعنيه، ولا تتصل بحياته إطلاقاً، ولا تتعلّق بكل مصالحه ؛ فقد تجد شاحنة تحمل وقوداً سائلاً، وتجر سلسلة من الحديد وراءها، لماذا ؟ أنت موظّف ليس لك علاقة بالنفط إطلاقاً، ولا بالشاحنات، ولا بالميكانيك، لماذا تبحث عن العلّة وعن الهدف ؟ فإذا قيل لك: هذه من أجل أن تفرِّغ الصواعق، قد تأتي صاعقة فتحرق هذه المركبة، فإذا كان لها اتصال مع الأرض تُفَرَّغ هذه الصاعقة دون أن تتأذَّى المركبة، فالآن فُهم الشيء، الإنسان أحياناً تحل مشكلته الماديَّة، لكن لا تحل مشكلته العقليَّة.

كنت مرَّة أضرب هذا المثل: إذا وضعت قُرْصاً من البلور المقاوم للحرارة في إناءٍ فالحليب لا يفور، المشكلة حُلَّت، ضع هذا القرص في قعر الوعاء، وأوقد النار تحته، واذهب، فالحليب لا يفور أبداً، المشكلة حُلَّت، ولكن كيف ؟ حلت عن طريق العقل ؟ فقد عرفت أن هذا القرص يجمِّع الفُقّاعات ويخرجها من مكانٍ ضيِّق باندفاعٍ شديد، فتثقب هذه الطبقة التي هي السبب في فوران الحليب، توضَّح الأمر.

هذا العقل أعظم منحة إلهيَّة للإنسان، هو أداة معرفة الله، خُلِقَ هذا الإنسان، وأعطي هذه القوَّة الإدراكيَّة ليتعرَّف إلى الله بها، فأساس نظام عقل الإنسان السببيَّة.

مرَّة ثانية: أنت لا تفهم شيئاً بلا سبب، ولا تفهم شيئاً بلا هدف، أحد العلماء الغربيين آمن وكان أحد أسباب إيمانه بالله البقرة، قال: هذا الحليب الذي تعطيه البقرة، تعطي كمية حليب أضعافاً مضاعفة عما يحتاجه وليدها، يحتاج وليدها إلى كيلوين من الحليب في اليوم، وهي تعطينا أربعين كيلواً، معنى ذلك أن هذا الحليب خُلِق من أجل الإنسان، إن الذي خلق البقرة هو الذي خلق الإنسان، وهذا هو الغذاء الكامل، ولا بد أن يتوفر للإنسان مما يفيض عن حاجة وليدها.

لو فكّر الإنسان عن طريق نظام التغذية، أو عن طريق مبدأ الغاية، أو عن طريق مبدأ عدم التناقض لوصل إلى الله عزَّ وجل، فعندما تقتني سيارة، وتكون في أقصى مكان في العالم، وتحتاج سيارتك قطعة من الشركة الصانعة، هذه القطع تأتي إلى بلدك بعد حين، تضعها في المكان المناسب، فما دام المصنع واحداً فالقياسات كلها واحدة.

طبيب يدرس الطب في أمريكا، والدواء مصنَّع في كندا، والمريض في اليابان يأخذ هذا الدواء فيسكن ألمه، لولا أن بنية الأشخاص في العالم واحدة، مكان الأجهزة واحد، مكان الشرايين واحد، مكان الأعصاب واحد، ليس هناك معنى لتدريس الطب في العالَم هناك وحَدَة وهناك تباين، من حيث البُنية هناك تطابق تام بين كل البشر، لو أن شركة صنعت مليون سيارة، فكل الأجهزة وقطع الغيار واحدة في أي مكان فإذا اشتريت منه تأتي في المكان الصحيح لأن الصانع واحد، فالقياسات كلها واحدة، إذاً قضية مبدأ السببيَّة، ومبدأ الغائيَّة وعدم التناقض، هذه بُنية العقل البشري.

ربنا جلَّ جلاله من حينٍ إلى آخر عن طريق المعجزات يعطّل الأسباب أو يُلغيها:

لماذا خلق الله في هذا العقل البشري نظام السببيَّة ؟ من أجل أن تصل إليه، لو أن عقلك يقبل شيء من دون سبب لقبل الكون من دون إله، لو أن نظام العقل يقبل أن يوجد شيء بلا سبب من باب أولى أن تقبل هذا الكون من دون إله، لكن لأن عقلك لا يقبل شيئاً من دون سبب إذاً أنت لا تقبل الكون من دون مكوِّن، ولا خَلْقاً من دون خالق، ولا نظاماً من دون منظِّم، ولا حكمة من دون مُحْكِم، ولا علماً من دون عالِم، هذا الذي أراده الله عزَّ وجل، إذاً كل شيء له سبب.

لكن هناك منزلق خطير وهو: أن تظن أن السبب هو خالق النتيجة، استغنيت عن الله عزَّ وجل، فهذا المبدأ من أجل أن تصل إلى الله، لكن يمكن أن ينحرف الإنسان فيؤلّه السبب، إذا ألّه السبب استغنى عن المسبِّب، لذلك فإن ربنا جلَّ جلاله من حينٍ إلى آخر عن طريق المعجزات يعطّل الأسباب، أو يُلغي الأسباب، السبب موجود ولا توجد نتيجة، أو هناك نتيجة بلا سبب، سيدنا عيسى عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام كانت ولادته معجزة، من أمٍ بلا أب، معنى ذلك أن السبب يرافق النتيجة ولا يخلقها، مشكلة العالَم في كلمتين ؛ فريقٌ في الغرب ألّه الأسباب فأشرك، وفريقٌ في الشرق لم يأخُذ بالأسباب فعصى، الغربيّون أخذوا بالأسباب وألّهوها فعبدوها من دون الله، ظنوا أنهم إذا كانوا أقوياء إذاً فالمستقبل لهم ولم يعبؤوا بالدين، عصوا، وفجروا، وظلموا، وطغوا، وبغوا، لأن معهم قوَّة، القوَّة سبب، والسبب له نتيجة السيطرة، فلماذا طاعة الله عزَّ وجل ؟ وفي الشرق من توكّل تواكلاً غير شرعي، لم يأخذ بالأسباب، فوقع في معصية عدم الأخذ بالأسباب:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً(83)إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً(84)فَأَتْبَعَ سَبَباً(85))

(سورة الكهف)

الموقف الكامل الذي ذكرته في الدرس الماضي والمسلمون اليوم في أمسِّ الحاجة إليه: أن يأخذوا بالأسباب وكأنَّها كل شيء، وأن يتوكّلوا على الله عزَّ وجل وكأنَّها ليست بشيء، لئلا يقعوا في وادي الشرك حينما تؤلّه الأسباب، ولئلا يقعوا في وادي المعصية حينما لا يؤخذُ بالأسباب، القضيَّة الكبرى في وجود سيدنا عيسى هي خلقه من دون أب، ليعلمنا الله عزَّ وجل أن السبب ليس هو الخالق، الخالق هو الله.

معاكسة شهوتك ثمن جنَّة ربِّك:

العقيدة الصحيحة هي أن السبب يترافق مع النتيجة فقط، من أجل تنظيم الحياة، ومن أجل الوصول إلى الله، لكن السبب لا يخلق النتيجة إطلاقاً، فسيدنا عيسى ولِد من دون أب، وحوَّاء ولِدَت من دون

أم، وأحياناً أب وأم يُنجبان، وأحياناً أخرى زوج شاب وزوجته شابَّة ولا ينجبان، جعلهما الله عقيمَين، إذاً لدينا ثلاث حالات: سبب بلا نتيجة، نتيجة بلا سبب، سبب بنتيجة:

﴿ وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ (87) ﴾

قال علماء التفسير: كان جبريل عليه السلام معه دائماً، مؤيده:

﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (87) ﴾

هناك مشكلة، المشكلة هي أن ثمن الجنَّة هو التناقض بين التكليف والطَبع، الإنسان يشتهي أن ينام، والتكليف يأمره أن يستيقظ، فإذا عاكس رغبته في النوم وصلَّى الفجر يرقى عند الله، طبع الإنسان يقتضي أن يملأ عينيه من محاسن النساء، والتكليف يأمره بغض البصر، فإذا عاكس شهوته وغضَّ بصره يرقى عند الله، يقتضي طَبع الإنسان أن يأخذ المال، والتكليف يأمره أن ينفق المال، فإذا عاكس شهوته وأنفق المال يرقى عند الله، أن تعاكس شهوتك هو ثمن جنَّة ربِّك، بدليل قول الله عزَّ وجل:

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى(40)فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى(41) ﴾

(سورة النازعات)

أنواع المعاصي:

قال تعالى:

﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (87) ﴾

طبعاً التكذيب جريمة، إنسان معه دليل، إنسان أرسله الله ليسعدك، لينقذك من الشقاء، ليجعلك معافىً سليماً سعيداً في الدنيا والآخرة فكذَّبته، وأشد من التكذيب القتل:

﴿ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (87) ﴾

المعاصي نوعان: معاصي استكبار، ومعاصي غَلَبَة:

((الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار))

[الجامع الصغير عن ابن عبَّاس رضي الله عنه]

العبد عبدٌ والرب رب، ليس من شأن العبد أن يستكبر، ليس من شأن العبد أن يُعَظَّم، فمن رأى نفسه عظيماً واستكبر أن يطيع الله عزَّ وجل فقد وقع في ضلال كبير، إنسان مثقَّف ثقافة عالية جداً، يحتل مركزاً علمياً مرموقاً، لا يصوم رمضان، هو أرقى من أن يصوم مثلاً، لا يصلي هذا منعه الكبر أن يصلي، كنَّا مرَّة في تشييع جنازة، وطبيب من ألمع أطبَّاء دمشق، وهو شخص يحتل منصباً رفيعاً في الجامعة لم يدخل ليصلي، هو أكبر من أن يصلي لله عزَّ وجل ؟! هكذا يرى نفسه !!!

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

(سورة الإنسان)

هل يذكر يوم كان طفلاً صغيراً في بطن أمِّه، يوم خرج لا يفقه شيئاً:

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً)

(سورة النحل: الآية " 87 ")

بعد أن ارتقى، وحمل شهادة عالية أهو أكبر من أن يصلي في مسجد ؟!

قد يخطئ الإنسان أما حينما يستكبر فهو قد قطع ما بينه وبين الله :

قال تعالى:

(فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (87))

وقال:

(أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ (87))

لذلك أيها الأخوة أضرب لكم هذا المثل الذي ضربته لكم كثيراً: إنسان جاءه ضيوف وعنده كيلو لبن، والضيوف كُثُر، يمكن أن يضيف لهذا الكيلو من اللبن خمسة كيلو من الماء، ويجعله شراباً طيباً مستساغاً بارداً في الصيف، لكن هذا الكيلو من اللبن لو أضفت له قطرة من زيت الكاز يفسد، يتحمَّل خمسة أضعافه ماء ولا يتحمَّل قطرة نفط أبداً، تلقيه في المُهملات، لذلك قد يخطئ الإنسان أما حينما يستكبر فهو قد قطع ما بينه وبين الله، حينما يستكبر سار في طريقٍ مسدود.

حينما يفتقر الإنسان إلى الله يأتيه من الله المَدَد:

أخواننا الكرام، لدينا درس بليغ جداً، درس بدر ودرس حنين، والذين وقع عليهم الدَرسان أصحاب رسول الله، في بدر قال:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران: الآية " 123 ")

إذا قلت مستغيثاً: يا الله، يقول لك الله: لبَّيك يا عبدي، فأنت حينما تفتقر إلى الله يأتيك من الله المَدَد، وحينما تفتقر إلى الله يمنحك الله قوَّته وهو القوي، وحينما تفتقر إلى الله يمنحك الله غناه وهو الغني، وحينما تفتقر إلى الله يمنحك الله حكمته وهو الحكيم، وحينما تفتقر إلى الله يمنحك الله رحمته وهو الرحيم، أما حينما تقول: أنا، أنا ابن فلان، أنا أحمل الشهادة الفُلانيَّة، نقطة دم لا تزيد عن حجم رأس دبوس لو تجمَّدت في مكان ما من دماغك لنسيت كل معلوماتك، وأصبح مكانه في مشفى الأمراض العقلية، حينما تقول: أنا، تخلَّى الله عنك، مَنْ الذين تخلَّى الله عنهم إلى حين ؟ أصحاب رسول الله:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ(25))

(سورة التوبة)

أصحاب النبي وهم الذين بذلوا أرواحهم رخيصة في سبيل الله، تخلَّى الله عنهم لأنهم قالوا: نحن.

كلمات مهلكات وردت في القرآن الكريم:

قال العلماء: أربع كلمات مهلكات، أنا، ونحن، ولي، وعندي، قال إبليس:

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

(سورة الأعراف: الآية "12")

وقال قوم سبأ:

(نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ)

(سورة النمل: الآية " 33 ")

فأهلكهم الله، وقال فرعون:

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)

(سورة الزخرف: الآية " 51 ")

فأهلكه الله، وقال قارون:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: الآية " 78 ")

فأهلكه الله عزَّ وجل ؛ فكلمة أنا، ونحن، ولي، وعندي، كلماتٌ مُهْلِكَات، إذا قلت: الله، تولاَّك، وإذا قلت: أنا، تخلَّى الله عنك، لذلك أكبر معصية الكبر، أن تستكبر، أن تنسى أنك من حوينٍ منويٍ، تستحي به لو أنه على ثوبك، نسيت أنك خرجت من عورة، ودخلت في عورة، وخرجت من عورة، نسيت أنك خُلِقت من ماءٍ مهين.

((بئس العبدُ عبد عَتَّا وطغَى، ونسَيَ المبتدأ والمنتهى))

[الترمذي عن أسماء بنت عميس]

حجمك عند الله بحجم عملك:

نسي الإنسان أنه سوف يوضَع في حفرةٍ كائناً من كان، يدخل إلى هذه الحفرة أغنى أغنياء الأرض، وأقوى ملوك الأرض، وأحكم حكماء الأرض، وأذكى أذكياء الأرض في النهاية، وسيُشَيَّع إلى مثواه الأخير، يوضَع في القبر لا يقال له: يا صاحب الجلالة، يقال له: يا عبد الله، سمعتم هذا بآذانكم، هكذا مصير الإنسان: عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك ولم يبقَ لك إلا أنا وأنا الحيُّ الذي لا يموت.

أعقل إنسان فينا من يعمل لهذه الساعة التي لا بد منها، آتية لا ريب فيها، آتيةٌ وكأنَّك وصلت إليها، يقول الله عزَّ وجل ـ دقّقوا في هذه الآية ـ:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل: الآية " 1 ")

معنى هذا أنه لم يأتِ بعد، ما معنى هذه الآية:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

أي نحن محكومون جميعاً بالموت مع وقف التنفيذ، كنت قبل يومين أمشي في أحد أسواق دمشق المزدحمة، قلت لصاحبي: أرأيت إلى كل هؤلاء الناس، بعد مئة عام لن تجد واحداً منهم فوق سطح الأرض، بل في مقبرة باب الصغير، أو في الجبل، تقرأ على الشاهدة المرحوم توفَّاه الله يوم كذا، الفاتحة، كلُّنا هكذا، هذا الجَمع في هذا المسجد بعد مئة عام، والله أعلم لن نجد واحداً منهم على سطح الأرض، سنصير كلُّنا أخباراً.

قرأت مرَّة كتاباً عن قصَص العرب، مؤلَّف من أربع أجزاء، كتاب ممتع جداً، بعد أن انتهيت من قراءته كانت لي منه موعظةٌ كبيرة، أن هؤلاء الذين عاشوا قبل مئات السنين، الأقوياء ماتوا، والملوك ماتوا، والضعفاء ماتوا، والكفار ماتوا، والأغنياء ماتوا، والفقراء ماتوا، والحكماء ماتوا، والحمقى ماتوا، كل هؤلاء الذين قرأت عنهم في أربعة أجزاء الكتاب هم تحت أطباق الثرى، لا ينفعهم إلا عملهم فقط، فحجمك عند الله بحجم عملك لذلك:

(أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (87))

كل إنسانٍ خلقه الله عنده استعدادٌ كامل أن يهتدي إلى الله وأن يسعد في الدنيا والآخرة:

آية اليوم:

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ (88))

أيها الأخ الكريم، حينما تعتقد أو تتوهَّم أن الله خلق إنساناً وجعله لا يهتدي فهذا خطأٌ شنيعٌ في العقيدة، كل إنسانٍ خلقه الله، خلقه وعنده استعدادٌ كامل أن يهتدي إلى الله وأن يعرفه، وأن يسعد في الدنيا والآخرة، أما أن الله قد خلق الإنسان كافراً فهذا مستحيل، إذا خلق الله عزَّ وجل الإنسان كافراً فلمَ يعذِّبه؟ ما ذنبه ؟

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له: إياك إياك أن تبتل بالماء

***

إذا قدَّر عليه المعصية فلمَ يعذِّبه ؟ إذا خلقه مؤمناً فلمَ يدخله الجنَّة ؟ نحن في أنظمة حياتنا الدنيا هل من الممكن أن نعطي طالباً الأسئلة، قبل يومين، أو نعطيه أوراق الإجابة مكتوباً عليها الجواب الكامل بخط الأستاذ، ونقول له: اكتب اسمك ورقمك، فأخذ الدرجة الأولى على كل طلاَّب البلد، ثم

أقمنا له حفلاً تكريميَّاً عظيماً لأنه نال الدرجة الأولى على كل الطلاَّب، ليس لهذه الحفلة معنى إطلاقاً، هو لم يدرس إطلاقاً، قدَّم الأوراق مكتوبة بخط الأستاذ، فنال الدرجة الأولى، فأُقيم له حفلٌ تكريمي، هذا الحفل لا معنى له إطلاقاً، شيء مضحك.

طالب آخر مُنِع من أداء الامتحان فوبَّخناه أشدَّ التوبيخ، هذا التوبيخ لا معنى له، إنسان من بني البشر يترقَّع أن يفعل ذلك، مدير مدرسة جمع الطلاَّب في أول يوم من أيام العام الدراسي، وقرأ عليهم أسماء الناجحين في آخر العام سلفاً، وأسماء الراسبين، وقال: انطلقوا وادرسوا، فلن يدرس أحد، ولم يعد للدراسة معنىً عندئذٍ.

حينما تؤمن أن الله خلق فيك الهدى من دون سببٍ منك، فأنت إذاً لا تعرف الله أبداً، أنت وصفت الله عزَّ وجل بما لا يليق به .

خلل كبير أن تعتقد أن الله أجبرك على الطاعة أو على المعصية:

إذاً:

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ (88))

غُلف، نحن لم نهتد، أخواننا الكرام هذا ما يقوله معظم المسلمين: الله سبحانه لم يكتب لي الهدى، فلماذا؟ يقول لك: سبحان الله، الله خلقنا ليعذبنا، وأيضاً يسبح الله عليها.

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ (88))

من قال لك كذلك ؟ لماذا شربت الخمر ؟ قال: والله يا أمير المؤمنين إن الله قدَّر عليَّ ذلك، ليس بيدي ـ طاسات معدودة بأماكن محدودة، ترتيب سيدنا ـ هكذا يقول لك. فقال سيدنا عمر: **" أقيموا عليه الحد مرتين، قال له: مرةً لأنك شربت الخمر، ومرةً لأنك افتريت على الله، ويحك إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار ".**

الله لم يجبرك، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القُدرة، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعصَ مغلوباً ولم يطع مكرهاً.

الخلل الكبير لمجرد أن تعتقد أن الله أجبرك على الطاعة أو على المعصية، عفواً لا يقول الناس إن الله أجبرنا على الطاعة، بل يقول أحدهم: أنا أطعت الله، أما متى يعتقدون بالجبر ؟ حينما يعصون الله عزَّ وجل، فيقول: الله ما أراد لي الهدى، كلام شيطان، كلام يتناقض مع القرآن.

آيات من القرآن الكريم تبين أن الله أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً:

قال تعالى:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

(سورة الإنسان)

وقال:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ (148))

(سورة البقرة)

وقال:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148))

(سورة الأنعام)

الخَرَصُ أشد أنواع الكذب، هذا الذي يقول: إن الله لم يشأ لي الهداية، يكذب على الله:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء: الآية " 27 ")

وقال:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل)

وقال:

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

(سورة النحل: الآية " 9 ")

أي على الله بيان سبيل القَصد.

إذا عزي الإضلال إلى الله عزّ وجل فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري:

الإنسان حينما يعزو ضلاله إلى الله عزّ وجل فقد ضل سواء السبيل، فإذا وجدت في القرآن آية يُستَدلُ منها أن الله أضل الإنسان فهذا هو الإضلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري، لا بد من توضيح المثل:

طالب في الجامعة لم يداوم إطلاقاً، ولم يؤدِّ امتحاناً، ولم يلتق بالأستاذ، والجامعة قدَّمت له عشرات الكتب التي تدعوه فيها إلى أن يعود إلى الجامعة، لم يداوم، ولم يؤدِّ امتحاناً، ولم يشترِ كتاباً، ولم

يستجب للإنذارات، فَرُقِّن قيده، وبعد أن رُقِّنَ قيده قال: إن هذه الجامعة أرادت لي ألا أدرس، ترقين قيدك في الجامعة تجسيدٌ لرغبتك تنفيذٌ لإرادتك، هذا هو المعنى فقط.

لذلك إذا عزي الإضلال إلى الله عزَّ وجل فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري .

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ (88))

أي نحن لا نهتدي، فرد عليهم: لا، ولكن قال تعالى:

(بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ (88))

هناك ثلاث آيات مهمات جداً، أساس هذه الآية:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(67))

(سورة المائدة)

وقال:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(51))

(سورة المائدة)

وقال:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(6))

(سورة المنافقون)

من تلبَّسَ بالفسق لا يهديه الله عزَّ وجل، لأن فسقه حجابٌ بينه وبين الله، ومن تلبَّس بالظلم فالله عزَّ وجل لا يهديه لأن ظلمه حجابٌ بينه وبين الله، ومن تلبَّس بالكفر فالله عزَّ وجل لا يهديه لأن كفره حجابٌ بينه وبين الله.

الله عزَّ وجل يسيِّر كل المخلوقات عدا الإنس والجن :

قال تعالى:

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ (88))

أي أبعدهم بكفرهم، وهذه الباء باء السببية، بسبب كفرهم، أي أن الإنسان إذا ابتعد عن الكفر، وابتعد عن الظلم، وابتعد عن الفسق، فهو معرضٌ لهداية الله عز وجل .

أيها الأخوة الكرام حقيقةٌ مهمة جداً في هذه الآية وهي: أن الإنسان مخيَّر، هذه هويَّته عند الله، هو مخلوق مخيَّر، فلو أن الإنسان اختار الكفر لا يجبره الله عزَّ وجل على الإيمان، ولكن يدعوه إلى الإيمان، دون أن يجبره لأنه مخير، تصور أن صيدلياً أتى بطالب وظيفة ليعمل في صيدليَّته، أراد أن يمتحنه، هل هو أهل ليبيع أدوية ؟ وضع له بعض الأدوية على الطاولة، وقال له: وزِّع هذه الأدوية حسب الخزانات، هنا مثلاً أدوية معيَّنة للسُعال، هنا أدوية مضادة للإنتان، هنا أدوية سُمِّية، هنا أدوية معينة، فالآن يمتحنه، الآن الطور طور امتحان، فلو أمسك طالب الوظيفة هذا دواء سُمِّياً

ووضعه مع دواء مثلاً من نوع آخر، إذا منعه من الحركة فهو لم يمتحنه، هو الآن في طور الامتحان، الممتحن حُر، هل من الممكن أن يقف مراقب فوق كل طالب ويقول له: غلط، اكتب هكذا ؟ هذا لم يعد امتحاناً معنى امتحان أن معه ورقة وقلم ويكتب ما يشاء، فإما أن ينجح أو أن يرسب.

كثيرون لا يستوعبون قضية الاختيار، لو أن الإنسان اختار الكفر فإن الله عزَّ وجل لا يجبره على الإيمان، ولو أجبره لم يعد إنساناً، صار خشبة، لأن الله عزَّ وجل يسيِّر كل المخلوقات ما عدا الإنسان، والمَلَك يسيره، أما الإنسان مخيّر وحده مع الجن، إذا اختار الفسق لا يجبره على الاستقامة، لكن الله يدعوه إلى الاستقامة، يزينها له، يرَغِّبه فيها، يبين له ثمارها الطيبة، ولكن لا يجبره عليها، إذا اختار الإنسان الظلم لا يجبره الله عزَّ وجل على العدل، يقول الله عز وجل:

(كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (20))

(سورة الإسراء)

لو أراد الله تعالى أن يجبرنا على شيءٍ لأجبرنا على الهدى:

خلقنا الله عزَّ وجل مخيَّرين، لو أراد أن يجبرنا على شيءٍ ما لما أجبرنا إلا على الهدى، ولو شئنا أن نجبركم، وأن نلغي اختياركم لآتينا كل نفسٍ هداها، فعندما تريد الجامعة أن تنجِّح كل الطلاب فالقضية سهلة جداً، تعطيهم أوراقاً مطبوعاً عليها الجواب الكامل، فقط اكتب اسمك ورقمك، فالنتيجة: نجح كل الطلاب، الكل امتياز، هذا النجاح ليس له قيمة إطلاقاً، لا عند رئاسة الجامعة ولا عند الناس ولا عند الطلاب أنفسهم، هذا نجاح مضحك.

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ (13))

(سورة السجدة)

أنت مخيَّر، ولأنك مخير لك أن تفعل أو ألا تفعل، لك أن تصلي أو ألا تصلي، لك أن تكون صادقاً أو كاذباً، لك أن تؤمن أو تكفر، لك أن تستقيم أو تفسق، لك أن تُنفق أو أن تظلم، افعل ما تشاء، كل شيء بثمنه، العظمة في الجامعة لا أن ينجح كل الطلاَّب، لا أبداً، العظمة في الجامعة أن تأتي النتائج وفق المُقدمات، أن ينجح المتفوق وأن يحتل منصباً رفيعاً في الجامعة، وأن يطرد الكسول من الجامعة، روعة الجامعة تناسب النتائج مع المقدمات فقط، فالله عز وجل خلق الخلق ودعاهم إليه، وأمرهم أن يؤمنوا به، ورغَّبهم في الإيمان، وحذرهم من الكفر، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، هم مخيَّرون.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا (46))

(سورة فصلت)

وقال:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3))

(سورة الإنسان)

الهدى بيد الله لا يمنحه لظالم ولا لفاسق ولا لكافر:

الإنسان مخيَّر ولو ألغي اختياره ما عاد إنساناً، فالله عزَّ وجل يقول الهدى موجود، ولكن شاءت حكمة الله عزَّ وجل أن يقول لك: الهدى بيدي، لكن لا أمنحه لا لظالمٍ ولا لفاسقٍ ولا لكافر.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(67))

(سورة المائدة)

وقال:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(51))

(سورة المائدة)

وقال:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(6))

(سورة المنافقون)

يهدي من يشاء، يشاء من ؟ من لم يكن ظالماً يهديه الله عزَّ وجل، من لم يكن كافراً يهديه الله عز وجل، من لم يكن ظالماً يهديه الله عزَّ وجل.

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ (88))

يقول بعضهم: نحن لسنا مُهيَّئين للهدى، ما خلقنا الله مهتدين، هذا كلام الشيطان الرجيم، كلام الجهل، كلام الحُمق، كلام الغباء.

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ (88))

كفرهم سبب لعنهم، واللعن هو الإبعاد:

(فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ (88))

في درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (36- 95):تفسير الآيتان 89 - 96، مخالفة بني إسرائيل لتعاليم دينهم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-04-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

معرفة بني إسرائيل بالقرآن الكريم من خلال التوراة:

مع الآية التاسعة والثمانين وهي قوله تعالى :

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ (89))

الكتاب الذي جاءهم من عند الله والذي يصدق ما عندهم في التوراة هو القرآن الكريم.

(وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا (89))

كانوا يغيظون أهل يثرب بأنه سيأتي نبيٌ، وسيؤمنون به.

(وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ (89))

قال تعالى: إنهم يعرفون النبي:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

(سورة البقرة الآية: 146)

فهل من معرفةٍ سريعةٍ، بديهيةٍ، عفويةٍ، فطريةٍ، صادقةٍ، أكيدةٍ، ثابتةٍ، كأن يعرف الإنسان ابنه ؟!

قال تعالى:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

(سورة البقرة الآية: 146)

أقذر أنواع الخلافات بين الناس هو الاختلاف على المصالح والأهواء والمكاسب:

أيها الأخوة الكرام، لا بد من أضع بين أيديكم هذه الحقيقة: الاختلاف عند نقص المعلومات شيءٌ طبيعي، كان الناس أمةً واحدةً فاختلفوا، أما الاختلاف عند توافر الحقائق قد يعزى إلى الحسد، أو البغي، أو المصالح، والأهواء، والنزعات وما إلى ذلك، قد نختلف لا لأن الحق معي أو معك، الحق واضح، ولكن قد نختلف لمصالح، لأهواء، لمطالب، لغرائز، لحظوظ، لمكاسب قد نختلف، هذا أقذر أنواع الخلافات بين الناس.

(وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

(سورة آل عمران الآية: 19)

العلم بين أيديهم، فإذا أردنا أن نلتفت إلى المسلمين اليوم ؛ الإله واحد، والنبي واحد، والقرآن واحد، والتشريع واحد، فلمَ هذا الاختلاف ؟! إنه اختلاف البغي، والحسد، اختلاف تضارب المصالح، اختلاف الأهواء، اختلاف المكاسب، اختلاف الزعامات، هذا سبب خلاف المسلمين فيما بينهم، لذلك:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ (89))

التوراة، والإنجيل، والقرآن، من مصدرٍ علويٍ واحد، إذاً :

(لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)

(سورة البقرة)

الدعوة واحدة:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِي(25))

(سورة الأنبياء)

فحوى دعوة الأنبياء واحدة، أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله وأن تعبده.

الدين كله كلمتان ؛ توحيد الألوهية وعبادة الإله الواحد:

العقيدة توحيد، والعمل عبادة:

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة هود الآية: 9)

هذه الآية:

(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

تكررت عشرات المرات، الدين كله كلمتان ؛ توحيد الألوهية، وعبادة الإله الواحد، لذلك الخلاف خلاف المصالح، دققوا الآن:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ (89))

أي أن الحقائق التي في توراتهم هي نفسها في القرآن الكريم:

(وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ (89))

من أجل أن يكيدوا للعرب من أهل يثرب الأوس والخزرج، كانوا يتباهون بأنه سيأتي نبيٌّ وسيكونون أول من يؤمن به، قال:

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89))

يمكن أن يقبل الله عزَّ وجل منك عذراً إن كنت لا تعلم، لكن إذا علمت ليس لك عذر أبداً، العلم خطير، حجة لك إن طَبَّقْتَهُ، وحجة عليك إن لم تطبقه، هذا الذي يعلم ولا يعمل، هذا الذي يعرف وينحرف هذا غضب الله عليه، ومعنى قول الله عزَّ وجل :

(غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ(7))

(سورة الفاتحة)

المغضوب عليهم هم الذين عرفوا وانحرفوا، هل من مسلمٍ على وجه الأرض لا يعلم أن الصلاة حق، وأن الصيام حق، وأن الحج حق، وأن الزكاة حق، وأن الصدق حق، وأن الأمانة حق، وأن الوفاء بالوعد حق، وأن الحفاظ على العهد حق، وأن الإنصاف حق ؟ هذه أشياء بديهية، فلماذا يأكل المسلمون أموال بعضهم بعضاً ؟ لماذا يرفعون أمرهم إلى القضاء وفي القضاء عشرات بل مئات الألوف من القضايا ؟ لماذا يأكل بعضهم مال بعض ؟ لماذا يعتدي بعضهم على أعراض بعض ؟ هذا الذي عرف وانحرف له عند الله جزاءٌ كبير.

على الإنسان أن يكون معه حجة لله عز وجل يوم القيامة عن كل عمل يقوم به في الدنيا:

تجري الآن مناقشة دقيقة جداً، خالق الكون الذي منحنا المنطق يقول لهؤلاء: أنتم تدَّعون أنه إذا جاء نبيٌّ سوف تسبقون الناس إلى الإيمان به، فقد جاءكم هذا النبي وجاء بكتابٍ مصدقٍ لما في كتابكم التوراة، لِمَ كفرتم به ؟ مصالح.

لذلك أيها الأخوة الإنسان إما أن يستجيب للحق، وإما أن يستجيب للهوى، حقٌ أو هوى، خيرٌ أو شر، آخرةٌ أو دنيا، إحسانٌ أو إساءة، إن لم تكن على أحد الخَطّين فأنت على الثاني حتماً، إن لم تكن مع أهل الآخرة فأنت من أهل الدنيا، إن لم تكن مصدقاً بالحق فأنت قد قبلت الباطل، إن لم تكن مُنصفاً فأنت ظالم، إن لم تكن رحيماً فأنت قاسي.

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89))

إن الذي يلفت نظري هو كيف يتوازن المسلم المعاصر ؟ كيف يعلم أن هذا حرام، وهذا حرام، وهذا حرام، وهذا حرام، وكيف يقترف هذه الحُرُمات ؟ كيف ينام متوازناً ؟ كيف يغمض له جفن ؟ كيف يبيت والله ليس راضياً عنه ؟ يقول سيدنا عمر رضي الله عنه:**" عجبت لثلاث، عجبت لمؤملٍ والموت يطلبه، وعجبت لغافلٍ وليس بمغفول عنه، وعجبت لضاحك ملء فيه ولا يدري أساخطٌ عنه الله أو راضٍ ؟!! ".**

طبعاً هذا درسٌ لنا أيها الأخوة، فهل معك حجة لله عزَّ وجل ؟ أحياناً يسألني أخ: ماذا أفعل ؟ دائماً جوابي إليه: هل معك حجة لله عزَّ وجل يوم القيامة ؟ أي أنك إذا منحت ابناً بيتاً استثناءً من دون إخوته، أمعك حجة ؟ يقول: هذا ابني عاجز، هذا كلام مقنع، هذه حجةٌ لك يوم القيامة، حينما تخص ابناً عاجزاً مشلولاً، عنده عاهة، ببيت يؤجره ليأكل من أجرته استثناءً، وفي حياتك، وهبةً، معك إلى الله حجة، أما لأنه ابن زوجتك الجديدة وقد ضغطت عليك، أما ابن القديمة لا تعبأ به، سوف تحاسب يوم القيامة حساباً شديداً . يقول لي موظف: أأكتب هذا الضبط ؟ أقول له: هل معك جواب إلى الله

يوم القيامة ؟ دعك من رؤسائك، أمعك جواب إلى الله ؟ إن كنت ظالماً لهذا الإنسان سوق يقتص الله منك، واتقوا دعوة المظلوم ولو كان كافراً، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب.

حساب الأغنياء يوم القيامة:

إخواننا الكرام، أتمنى على كل أخٍ مؤمن دائماً وأبداً أن يهيِّئ لله جواباً، لو أنه سألك: لماذا طلّقتها ؟ لماذا سلبتها مالها ؟ لماذا أخرجت هذا الشريك من الشركة ؟ لماذا لم تعطِ هذا الابن ما أعطيت أخوته ؟ لو أن الله سألك ماذا تجيب ؟ هل معك حُجَّة ؟

يروى أن سيدنا عمر بن عبد العزَّيز، كان يصلي في مصلاه ويبكي، دخلت عليه زوجته فاطمة، قالت له: **" يا أمير المؤمنين ما الذي يبكيك ؟ قال: " دعيني وشأني "**، قالت: **" قل لي وربك ما الذي يبكيك؟ "** ، قال: **"دعيني وشأني "**، فلما ألحَّت عليه، قال: **" بعد ما ولّيت هذا الأمر فكرت في الفقير الجائع، والبائس الضائع، وذي العيال الكثير والدخل القليل، وفي ابن السبيل، وفي الشيخ الكبير، وفي المرأة الأرملة، وفي الطفل الصغير، وفي، وفي ـ عدد لها عشرات الحالات المؤلمة في مجتمعه ـ قال: فعلمت أن الله سيسألني عنهم جميعاً، وخفت ألا تثبت لي حجة عند الله فلهذا أبكي ".**

أهم شيء أن يكون معك حجة لله عزَّ وجل، لمَ أهملت هذا الولد حتى خرج عن منهج الإسلام ؟ لمَ امتنعت عن تزويجه وأنت قادر أن تزوِّجه ؟ زنا، لعل هذا الزنا في صحيفتك، إذا كنت قادراً لمَ لم تزوجه ؟ لمَ لم تختر لابنتك إنساناً مؤمناً ؟ آثرت المال على الإيمان فضيَّع دينها وأخرجها عن استقامتها، أرضيت أن يأخذ ابنتك إنسان غني فيخرجها عن دينها ؟ إذا سألك الله بماذا تجيب ؟ لمَ لم ترب ابنتك ؟ هذه البنت التي تظهر كل مفاتنها في الطريق، سوف يسأل أبوها يوم القيامة: كيف سمحت لها أن تخرج هكذا ؟ هل نظرت إلى ثياب خروجها ؟ فأمامنا مليون سؤال.

((يحشر الأغنياء أربع فرق يوم القيامة ؛ فريق جمع المال من حرام وأنفقه في حرام حسابه في ثانية واحدة يقال: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حرام عنده ملهى وأنفقه في حلال اشترى بيت وتزوج فيقال: خذوه إلى النار ـ الزواج وشراء البيت إنفاق مشروع، أما الملهى دخله غير مشروع ـ وفريق جمع المال من حلال تجارة مشروعة وأنفقه على الموائد الخضراء والليالي الحمراء فيقال: خذوه إلى النار ـ حسابه سريع، شديد لكنه سريع، فلو قتل إنسان قتيلاً فرضاً واعترف بالجريمة وعن عمد وإصرار يحكم بالإعدام بجلسة واحدة، الحكم قاسي ولكنه سريع، لأنه لا توجد حاجة للمناقشة، اعترف، وعن سابق إصرار وتصميم، فيقال: خذوه إلى النار ـ ثلاث فرق حسابهم سريع جداً، أما الفريق الرابع فريق جمع المال من حلال وأنفقه في حلال، قال: هذا قفوه واسألوه.))

[ورد في الأثر]

قفوه فسألوه هذا السؤال ؛ هل ضيع فرض صلاةٍ ؟ هل قال من حوله: يا رب لقد أغنيته بين أظهرنا فقصَّر في حقنا ؟ النبي الكريم ببلاغةٍ معجزة قال: تركته ومازال يسأل ويسأل. الغني عنده مليون سؤال، هذا الذي جمع المال من حلال وأنفقه في حلال.

على المؤمن أن يهيِّئ لله جواباً عن كل شيءٍ يفعله:

هناك سؤال أيها الأخوة: فأنت في كل عمل، كل حركة، كل سكنة، كل نظرة، كل ابتسامة، كل عبوس، كل عطاء، لو قبَّلت طفلاً وتركت الطفل الثاني، لو خصصت ابناً ولم تَخُصَّ الثاني، لو مِلت مع زوجةٍ وأغدقت عليها كلها شيء وأهملت الثانية، أخشن طعام للثانية، أسوأ بيت للثانية، أقسى معاملة للثانية، هل هيأت لله جواباً ؟ أمعك جوابٌ إلى الله عزَّ وجل ؟

أخواننا الكرام، هذا أهم شيء بالدرس، هيِّئ لله جواباً عن كل شيءٍ تفعله ؛ عن كل حركةٍ وسكنةٍ، ونظرة وابتسامةٍ، وإنفاقٍ وإقتارٍ، ومنعٍ وعطاءٍ، ووصلٍ وقطعٍ، وودٍ وجفاءٍ، يجب أن تهيِّئ لله جواباً، قال لي أخ يعمل في التموين: هل يسمح لي أن أكتب ضبطاً ؟ قلت له: أكتب ما شئت، وأرسل إلى السجن ما شئت ومن شئت، لكنك إذا كنت بطلاً يجب أن تهيِّئ لله جواباً عن كل ضبط، لماذا كتبت هذا الضبط ؟ أكنت ظالماً له ؟ الله سيقتص منك.

أنا الذي أراه أيها الأخوة، أن كل ذكائك، وكل عبقريتك، وكل تفوّقك في أن تكون أديباً مع الله، وقافاً عند كلامه، مؤدياً لحقوق العباد، ومطبقاً لمنهجه العظيم، فالله عزَّ وجل يقول:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89))

فأنا أقول: يمكن أن يقبلك الله إذا كان معك عذر، أما الشيء واضح، الحلال بيِّن، الحرام بيِّن، وتجد معظم الناس يأخذون ما ليس لهم ظلماً، وعتواً، واستكباراً، ومكابرةً، يركبون رؤوسهم، لكن الله عزَّ وجل كبير، وسوف ينتقم منهم.

أشد الناس حسرةٍ وندماً يوم القيامة من باع آخرته بدنياه:

قال تعالى:

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً (90))

بغياً أي حسداً:

(أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (90))

أي أنه اشترى الكفر، دفع ثمن الكفر الجنة، أسوأ صفقة في التاريخ، ما من إنسانٍ أشد حسرةٍ وندماً يوم القيامة كالذي باع آخرته بدنياه، فمصالحه مع الكفر، أحياناً مصالحه مع المعصية، مصالحه أن يكون مع إنسان كأن يكون شريك صاحب مطعم يبيع خمر مصلحته أن يبقى شريكاً في هذا المطعم، يقول لك: دخل كبير يدره علينا، والآخرة ؟ هذا مثل بسيط، واحد شريك بمطعم خمسة نجوم يبيع خمراً، والدخل كبير جداً والمكاسب بشكل عام صارت ضعيفة، فإذا كان له شركة بمطعم يبيع الخمر، فإذاً آثر هذا الدخل الكبير على الآخرة !!!

يجب أن تؤثر طاعة الله على طاعة الأقرباء وعلى مصالحك الشخصية:

أخواننا الكرام، هناك آية والله أنا أسميها قاصمة الظهر:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخوانكمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

(سورة التوبة الآية: 24)

أي إذا كان الأب أو الابن أو الزوجة أو العشيرة أغلى عليك من طاعة الله، كأن يضغط أبوك عليك أن تعصي الله فاستجبت لضغطه وعصيت الله، إذا الزوجة ضغطت عليك لتؤمن لها شيئاً لا تملك ثمنه فأكلت مالاً حراماً وأرضيتها، إذا آثرت الأب، أو الزوجة، أو الأخ، أو الابن، أو العشيرة على طاعة الله:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخوانكمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ)

(سورة التوبة الآية: 24)

أي عند التعارض، إذا كان الإنسان يسكن بيتاً مريحاً جداً، اغتصبه اغتصاباً، إذا كان هذا البيت الجميل، المريح، والذي أجرته رمزية، أغلى عليك من الجنة، هنا المشكلة

(وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا)

تجارة محرمة، طريقة بالتعامل غير صحيحة، بضاعة محرَّمة، شراكة محرّمة، أسلوب محرّم.

ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه:

قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخوانكمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ)

(سورة التوبة الآية: 24)

هذه أهم الأقرباء:

(وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

أحب إليكم من أمر الله في قرآنه، ومن سُنَّة النبي في سنته، هذا معنى

(مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(24))

(سورة التوبة)

ما دام أي شيء من هذه الأشياء ؛ زوجة، أب، ابن، أخ، قريب، عشيرة، أو مال وفير من شُبُهَة، أو بيت مريح مُغْتَصَب، أو تجارة رابحة ولكنَّها محرَّمة، إذا كانت هذه الأشياء أحب إليك من طاعة الله، وطاعة رسوله، وجهاد في سبيله، فالطريق إلى الله غير سالك، مسدود:

(فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(24))

(سورة التوبة)

بالمقابل أيها الأخوة، والله الذي لا إله إلا هو، أعيد هذا القسم ثانيةً: والله الذي لا إله إلا هو، أعيد القسم ثالثة: والله الذي لا إله إلا هو، ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوَّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه. الآمر ضامن، والله زوال الكون أهون على الله من أن يضيِّع شاباً آثر طاعة الله على دُنياه، من أرضى الناس بسخط الله أسخط الله عليه الناس وسخط عنه الله، ومن أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه ورضي عنه الناس، إذا آثرت آخرتك على دنياك ربحتهما معاً، والله، وإذا آثرت دنياك على آخرتك خسرتهما معاً.

لن يصل الإنسان إلى الله إلا إذا استوى عنده التبر والتراب:

قال تعالى:

(بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ (90))

هذه النفس الثمينة التي جعلها الله أمانة بين يديك، حيث قال:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا(10))

(سورة الشمس)

أنت تضيع قيمة نفسك بالدنيا، إنسان يحجبُ نفسه عن الله بعرضٍ من الدنيا قليل والله لو عرفت ما عند الله، والله لا تبيع هذه الصلة بملء الأرض ذهباً، والله لن تصل إلى الله إلا إذا استوى عندك التِبر والتراب، التِبر في المعصية كالتراب، اركله بقدمك، ولكن إذا علم الله منك هذا الصدق، والله الذي لا إلا هو لن يخَيِّبك، تأتيك الدنيا وهي راغمة.

(بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ (90))

أحياناً الإنسان من أجل دنياه، إرضاءً الناس، من أجل أن يظهر، من أجل أن يفتخر، يعصي الله عزَّ وجل، من أجل أن يعيش حياة فيما يبدو ناعمة يأكل المال الحرام، يطعم أولاده المال الحرام.

قد ينصر الله الكافر العادل على المُسلم الظالم لأن الله عَدْل:

قال تعالى:

(بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً (90))

(بغياً)

مفعول لأجله، أي كفروا بما أنزل الله على النبي الكريم من قرآن كريم بدافع الحسد فقط، ذات مرة أرسل النبي عليه الصلاة والسلام عبد الله بن رواحة إلى يهود خيبر ليقيِّمَ تمرهم ـ حسب الاتفاقية ـ فأرادوا أن يغروه ببعض المال فلعله يخفض التقدير، أرادوا أن يرشوه بحلي نسائهم، فقال عبد الله بن رواحة: **" والله قد جئتكم من عند أحب الخلق إلي ـ من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ولأنتم عندي أبغض إلي من القردة والخنازير، ومع ذلك لن أحيف عليكم "**، هذا هو العدل، فقال اليهود: بهذا قامت السماوات والأرض، وبهذا غلبتمونا.

قد ينصر الله الكافر العادل على المُسلم الظالم، لأن الله عَدْل، مثل أضعه بين أيديكم: إنسان نظيف جداً إلى درجة عالية جداً، وله عدوٌ لدود نظيف مثله، وله صديقٌ بهلول، يكيل له المديحَ جزافاً ولكنه قذر، قلبك مع من ؟ أنت نظيف جداً، لك عدو نظيف مثلك، لك صديق بهلول منافق يمدحك بلا حدود، ولكنه قذر، أنت مع مَن ؟ مع الذي بينك وبينه قاسم مشترك، أليس كذلك ؟ لذلك قد ينصر الله الكافر العادل على المُسلم الظالم .

(بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90))

لدينا عذاب أليم، ولدينا عذاب عظيم، ولدينا عذاب مهين.

تناقض بني إسرائيل مع أنفسهم:

قال تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آَمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا (91))

دقق الآن كيف أن الله عزَّ وجل يخاطبهم: أنتم ترفضون أن تؤمنوا بما جاء من عند الله عزَّ وجل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، بمن تؤمنون ؟ بما أنزل عليكم، فدقق الآن:

(نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ (91))

وهو القرآن الكريم:

(وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91))

هل في توراتكم أن النبي يُقتَل ؟ إن كنتم تزعمون أنكم متبعون لكتابكم ولن تتبعوا إلا كتابكم، فهل في كتابكم ما ينُصُّ على أن النبي يقتل ؟ أرأيت إلى هذا التناقض ؟ لو مشى الإنسان عارياً ـ وما

أبشعه ـ كان أهون من أن يتناقض مع نفسه، يقول لك أحدهم: والله أنا سألت إمام جامع و قال لي: ليس فيها شيء، وانتهت عنده المسألة، هكذا بهذه البساطة ؟ أمتأكد من علمه ؟ أمتأكد من اختصاصه ؟ لماذا إذا أردت أن تبيع بيتك تسأل خمسين دلالاً، ولماذا تكتفي في شؤون الدين بإنسان عابر، إنسان التقيت به صدفة وسألته فأفتى لك وانتهى الأمر، ولا تعيد هذا السؤال على أحد، بينما من أجل بيع بيتٍ تسأل مئة دلال، ولا تبيع البيت إلا بعد بحثٍ ودرسٍ وتمحيص ودراسة واستقراء، وما إلى ذلك ؟ فهذا تناقض.

أمثلة عن كلام يفتريه المقصِّرون على الله :

يقول لك أحدهم: أخي هناك فتوى بمصر تجيز الربا، وهذه فتوى رسمية !! بيتك سعره الرسمي ثلاثمئة ألف وهو ثمنه اثني عشر مليوناً، أتبيعه بسعره الرسمي ؟ لماذا تقبل فتوى رسمية ولا تبيع بيتك بالسعر الرسمي ؟ هذا تناقض، فالإنسان دائماً يتناقض، يقول: نشأت ببيئة هكذا، لماذا يرفض ابن التاجر أن يكون تاجراً، قد يكون عالماً، فيقول لك مَلَلت من المال، ولماذا يرفض ابن العالم أن يكون عالماً ؟ يقول لك: مللت من العلم أريد تجارة، أريد أموالاً، لماذا غيَّرت بيئتك ؟ لمَ لم تقل أنا نشأت هكذا وسأبقى هكذا؟

هذا كلام يفتريه على الله المقصِّرون، بإمكانك أن تفهم كل شيء، وأن تبدل كل شيء، وأن تعتقد بأي عقيدة، وأن تلتزم بأي شيء مقتنعاً به، مرة دعيت إنساناً لحضور درس، فأجاب والله لا أقدر للأسف، أنا أحضر مع والدي بالجامع الفلاني، ولم يسم لي اسم هذا الجامع، وهو يشتغل بتهريب الأقمشة، أنت تقدر على تهريب الأقمشة، ولا تقدر أن تحضر درس تهريب ؟!!

يقول الله عزَّ وجل: أنتم كما تقولون لا تؤمنون إلا بما أنزل عليكم، هل أنزل عليكم أن تقتلوا أنبياءكم ؟

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا (91))

نحن لا نعترف بالقرآن، بل بالتوراة، الله عزَّ وجل سار معهم، قال:

(وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91))

توجد في الآية كلمة رائعة وهي كلمة

(من قبل)

أي لن تستطيعوا أن تقتلوا هذا النبي، اطمئنّوا لن تستطيعوا.

أمثلة عن حفظ الله تعالى لسيدنا محمد من القتل:

أراد أحدهم قتل النبي عليه الصلاة والسلام، جيء به مخفوراً إليه، وهو يرتجف خوفاً، ظن أنه سيقطع رأسه كما هي العادة، قال له: " لن تراع، لن تراع، لن نخيفك، ولو أردت ذلك لما سُلّطت علي.

قال أحدهم في إحدى المعارك: أين محمدٌ، لا نجوت إن نجا، خرج النبي له بنفسه هكذا، وأمسك رمحاً ووكزه به وكزةً فكاد يموت منها وولى هارباً، بعدما كان يظهر شجاعة كبيرة، فقيل له: مالك تراجعت ووليت هارباً قال: والله لو بصق علي لقتلني.

كان عمير بن وهب جالساً مع صفوان بن أمية، قال لصفوان: والله لولا أطفالٌ أخاف عليهم العنت من بعدي، ولولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها، لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه، صفوان رآها فرصة ذهبية لا تقدر بثمن، فقال: أما أولادك فهم أولادي ما امتدَّ بهم العمر، وأما ديونك فهي علي بلغت ما بلغت فامض لما أردت.

سقى سيفه سماً ومضى إلى المدينة ليقتل محمداً، رآه سيدنا عمر في الطريق ، فقال: **" هذا عدو الله عُمَير جاء يريد شراً "**. قيَّدَهُ بحمَّالة سيفه وساقه إلى النبي وقال: **" يا رسول الله هذا عدو الله عمير بن وهب جاء يريد شراً "**. فسيدنا النبي قال له: **" يا عمر أطلقه "**، فأطلقه، **" ابتعد عنه "** ، ابتعد، قال: **" ادن مني يا عمير "**، فاقترب، قال له: **" سَلِّم علينا "** ، قال: عمت صباحاً، قال له: **" قل السلام عليكم "** ، قال: لست بعيدَ عهدٍ بسلامنا، هذا سلامي، بغلظة، قال له: **" ما الذي جاء بك إلينا ؟ "**، قال: جئت أفك ابني من الأسر، قال له: **" وهذه السيف التي على عاتقك ؟ "**، قال: قاتلها الله من سيوف، وهل نفعتنا يوم بدر، قال: **" يا عمير ألم تقل لصفوان: لولا ديون ركبتني، وأطفال أخشى عليهم العنت، لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه ؟ "** ، وقف، وقال: واللهِ، إنك لرسول الله، والله هذا الذي جرى بيني وبين صفوان لم يسمعه أحدٌ إلا الله وأنت رسوله، وأسلم.

بقي صفوان ينتظر الخبر السار قتل محمد، كان يخرج إلى ظاهر مكة كل يوم ليتلقى أخبار القتل من الرُكْبَان ففوجئ بعد أيام طويلة أن عميراً قد أسلم، فالله عزَّ وجل قال:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة الآية: 67)

فهذا حفظ الله عزَّ وجل، لن يستطيع أحد أن يغتال النبي، لأنه إذا اغتاله تحدَّى الله عزَّ وجل، وأُنهيت الدعوة.

النبي الكريم لمصداقية الوحي عنده لما أخبره الله أنه يعصمه من الناس صرف حراسه :

قال تعالى:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة الآية: 67)

معنى هذه الآية: لن يستطيع أحد أن يغتاله، لكن ماذا نفعل بقوله تعالى :

(أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ)

(سورة آل عمران الآية: 144)

قال العلماء: النبي لا يقتل إلا إذا أدَّى مهمته كاملة بعد انتهاء التبليغ. قال تعالى:

(فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ (91))

كان سبب إسلام إحدى النساء في ألمانيا أن النبي عليه الصلاة والسلام لما جاءه الوحي:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة الآية: 67)

صرف حَرَسَهُ، معنى ذلك هو يصدِّق الوحي تصديقاً لا حدود له، لو كانت القضية قضية رؤيا أو أحلام أو شيء مفتعل، لما جاء قوله تعالى :

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة الآية: 67)

يبقى معتمداً على حُرَّاسِهِ، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام لمصداقية الوحي عنده، لما أخبره الله أنه يعصمه من الناس صرف حراسه.

خالف بنو إسرائيل تعاليم دينهم فأصبحوا كالوحوش:

قال تعالى:

(فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91))

طبعاً هذه حجة عليهم، فذات مرة دخل على النبي صلى الله عليه وسلم رجل يبدو أن له شأناً، قال له: " من الرجل ؟ "، قال: عدي بن حاتم، رحب النبي به وانطلق به إلى البيت. في الطريق استوقفته امرأةٌ مسنة ضعيفة وقف معها طويلاً يكلمها في حاجتها، قال: والله ما هذا بأمر ملك، علم أنه نبي، في البيت ألقى إليه وسادةً من أدمٍ محشوة ليفاً، قال: **" اجلس عليها "**. قلت: بل أنت. قال: **" بل أنت "** ، قال: فجلست عليها وجلس هو على الأرض، قال: **" إيه يا عدي بن حاتم ألم تكُ ركوسياً ؟ قال: بلى ـ الركوسي دين بين النصرانية واليهودية ـ قال: "** أو لم تكن تسير في قومك بالمِرباع تأخذ ربع أموالهم؟ " قال: بلى. قال: " فإن ذلك لم يكن يحل في دينك " أي كيف تخالف دينك ؟ هؤلاء الذين يقتلون الشعوب، قال الله:

(وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً)

(سورة الحديد الآية: 27)

أين هي الرأفة والرحمة ؟! والله قلوبهم كالوحوش، بل الوحوش أرحم.

الكون بوضعه الراهن أعظم معجزة فمن لم يؤمن به لن يؤمن بخرق قوانينه:

قال تعالى:

(وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ (92))

أي هل من المعقول أن تمشي مع نبي عظيم ووراءك فرعون بقوته وجبروته، وجيشه وأسلحته، وقسوته وظلمه، وأمامك البحر، الأمل بالنجاة صفر :

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِي(62))

(سورة الشعراء)

هؤلاء اليهود رأوا بأم أعينهم كيف أن البحر أصبح طريقاً يبساً، وساروا مع موسى في البحر، وتبعهم فرعون، فلما خرجوا من البحر عاد البحر بحراً، عاد الطريق اليبس بحراً، فغرق فرعون، هل من آيةٍ أعظم من هذه الآية ؟ هل من آيةٍ أعظم في الدلالة على صدق هذا النبي العظيم من هذه الآية ؟ وبعد أن خرجوا من البحر قالوا: يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، نريد إلهاً نعبده من دون الله.

إذاً المعجزات الحسِّية لا تقدِّم ولا تؤخِّر، هذا الكون بوضعه الراهن أعظم معجزة فمن لم يؤمن به ؛ بقوانينه، وسننه، وعظمته، لن يؤمن بخرق قوانينه، فأكبر شاهد: أيعقل أن ترى البحر أصبح طريقاً يبساً وأنت تمشي مع نبيّك ؟ فلما خرجوا من البحر عاد الطريق اليبس بحراً، هل من آيةٍ أعظم من ذلك ؟ فلما خرجوا يقول هؤلاء: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ؟!!

السماع عند الله عزَّ وجل هو الاستجابة:

قال تعالى:

(وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ (92))

أصبحت العصا ثعباناً مبيناً، نزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين، ضرب البحر بعصاه فإذا هو طريقٌ عظيم، ومع هذا كله تمنوا أن يكون لهم عجلاً يعبدونه من دون الله:

(وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (92))

ظالمون لأنفسكم:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ (93))

العهد على الطاعة:

(وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ (93))

هذه من آيات الدالة على عظمته، أي هددناكم بأن يقع الجبل عليكم إن لم تؤمنوا فآمنتم:

(خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا (93))

السماع عند الله عزَّ وجل هو الاستجابة، السماع الذي يريده الله منك أن يعقبه استجابة، لا أن يعقبه تجاهلٌ، يا أيها الذين آمنوا:

(وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ(21))

(سورة الأنفال)

أنت إذا قلت لأحد: انتبه توجد عقرب على كتفك، يلتفت إليك بهدوء شديد وبراحة نفسية، ويقول لك: أنا شاكر جداً لهذه الملاحظة، وأرجو الله عزَّ وجل أن يكافئك عليها، وضعه الهادئ وعدم اكتراثه بكلمة عقرب معنى ذلك أنه ما سمع ما قلت له أبداً، لو سمع ما قلت له لخرج من جلده خوفاً ولقفز من على الأرض، فالاستماع هو الاستجابة.

عندما أعرض بنو إسرائيل عن الله عزَّ وجل تشربت نفوسهم حُبَّ الدنيا:

قال تعالى:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا (93))

(عَصَيْنَا)

معطوفة على

(قَالُوا)

(قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا (93))

وقال:

(قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا)

(سورة المؤمنون الآية: 106)

غلبنا على أمرنا، لذلك إنسان يعصي الله أحياناً لا لجهلٍ بالأمر والنهي ولكن لضعفٍ في نفسه، ولغلبة شهوته على قناعته.

(قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ (93))

لما أعرضوا عن الله عزَّ وجل تشربت نفوسهم حُبَّ الدنيا، والعجل من ذهب يمثّل الدنيا، وعندما يكون الإنسان بعيداً عن الله عزَّ وجل تكون الدنيا كل همه ومبلغ علمه، وحب الدنيا يدخل إلى

خلاياه، قال لي أحدهم مرة: والله إذا سمعت صوت امرأة تمشي ما من قوة تمنعني عن النظر إليها، انظر فالمؤمن يغض بصره وهو مطمئن.

يتوهم أناسٌ ساذجون ضيِّقو الأفق أن الجنة لهم وحدهم وهذا الوهم قالته اليهود:

أيها الأخوة الكرام هناك الآن ثلاث آيات :

(قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآَخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً (94))

أي لكم وحدكم، توهم اليهود أن الجنة لهم وحدهم، كمثل أعرابي جاء النبي عليه الصلاة والسلام وقال: **" اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً "**، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لقد حجرت واسعاً))

[البخاري عن أبي هريرة]

يتوهم أناسٌ ساذجون ضيِّقو الأفق أن الجنة لهم وحدهم، وهناك جماعات إسلامية تتوهم أن الجنة لها وحدها وأن ما سواهم على غير الحق، هذا وهم مضحك، هذا الوهم قالته اليهود:

(قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآَخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً (94))

أي لكم وحدكم:

(مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94))

ما وقع بين اليهود والنصارى وقع بين المسلمين كل فرقةٍ تكفِّر الأخرى وهم يتلون كتاباً واحداً :

قال تعالى:

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(111))

(سورة البقرة)

وقال:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ)

(سورة البقرة الآية: 113)

كتاب واحد، وهذا الذي وقع بين المسلمين كل فرقةٍ تكفِّر الأخرى وهم يتلون كتاباً واحداً، ومعهم سُنَّةٌ واحدة، هذا مرض ؛ مرض العداوات، مرض البغضاء، مرض المشاحنات، مرض أن تقيم مجدك على أنقاض الآخرين، مرض أن تسفّه كل رأيٍ إلا رأيك هذا مرض خطير، هذا فتَّ في عضد المسلمين، هذا الذي مزّق المسلمين، هذا الذي أضعفهم، هذا الذي جعلهم شذر مَزَر.

ادّعاء اليهود بأنهم أبناء الله وأحباؤه غير صحيح وإلا لما عذبهم الله بذنوبهم:

قال تعالى:

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46))

(سورة الأنفال)

وقال:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة الآية: 18)

وقال:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

(سورة المائدة الآية: 18)

معناها ادعاؤكم غير صحيح، لو أن الله قبل دعواكم لما عذَّبكم:

(بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة الآية: 18)

أمة محمد المفضلة على أمم العالمين هي أمة الاستجابة لا أمة التبليغ:

هناك من يقول الآن: نحن من أمة محمد عليه الصلاة والسلام، وهي أمة مرحومة، أمة محمد المفضلة على أمم العالمين هي أمة الاستجابة لا أمة التبليغ، لقد حل العلماء هذا الإشكال، هناك أمة الاستجابة وأمة التبليغ، فالذين استجابوا لله وللرسول لما دعاهم، هؤلاء قال الله عنهم:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران الآية: 110)

هذه الأمة علة خيريَّتها:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية: 110)

إن لم نؤمن بالله حق الإيمان، ولم نأمر بالمعروف، ولم ننه عن المنكر، فنحن لسنا من أمة الاستجابة، إننا من أمة التبليغ، نحن كأية أمة من الأمم، ليس لنا أي شأنٍ عند الله عزَّ وجل.

الفرق بين المحسن والمسيء:

قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94))

والحقيقة :

(وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ (95))

المستقيم يرجو لقاء الله، المحسن يتمنَّى لقاء الله، المحسن يشتاق إلى الله ؛ لكن الظالم، الفاسق، الفاجر، الذي بنى مجده على أنقاض الناس، بنى ماله على إفقار الناس، هذا لن يتمنى لقاء الله لأن الله سيعذبه وقتها.

(وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95))

بالعكس :

(وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ (96))

قرأت موضوعاً عن شخص يعمل بالفن، بالغناء، اعتنى بصحته عناية فائقة، صدقوا أنه لم يركب طائرةً في حياته خوفاً من أن تسقط هذه الطائرة، ولا تناول طعاماً ثقيلاً قبل النوم، ما أكل إلا الفاكهة، ولا تناول اللحم الأحمر بل اللحم الأبيض، واعتنى بنفسه عناية من الصعب أن توصف لكم، فإذا هو يموت.

(وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ (96))

إنسان محكوم بالإعدام مهما طالت مدة التوقيت الإعدام ينتظره، مهما طالت هذه المدة.

(وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96))

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات .

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (37- 95):تفسير الآيات 97 - 101، الحق لا يتجزأ

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-04-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

الحق لا يتجزّأ والباطل لا يتجزّأ :

مع الآية السابعة والتسعين وهي قوله تعالى :

(قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97))

أيها الأخوة الكرام، أراد الله في هذه الآية الكريمة أن يبيِّن لنا حقيقةً خطيرة في العقيدة وهي : أن العداوة لا تتجزّأ، وأن الولاء لا يتجزّأ .

أنت مع من ؟ إن كنت مع الله فينبغي أن تكون مع رسوله، وإن كنت مع رسوله فينبغي أن تكون مع أصحابه الكرام الذين أثنى عليهم النبي عليه الصلاة والسلام، إن كنت مع أصحابه الكرام فأنت مع أهل الحق، هناك معركة أزليَّة أبديَّة بين الحق والباطل، فلا بد من أن تكون موالياً للحق متبرِّئاً من الباطل، أما أن تقول : أنا أحب النبي ولا أحب أصحابه، أو أنا أؤمن بالله وأكره جبريل، هذه التفرقة لا وجود لها، الحق لا يتجزّأ والباطل لا يتجزّأ .

أنت مع من ؟ إن كنت مع الحق فأنت مع الكل، وإن كان هذا الإنسان الشارد مع الباطل، فهو مع أعداء الدين جميعاً، إما في خندق أهل الإيمان وإما في خندق أهل الكُفْران، إما مع الحق وإما مع الباطل، والدليل أن في الحياة اتجاهين، إن لم تكن على أحدهما فأنت على الآخر قطعاً، والدليل على ذلك قول الله عزّ وجل :

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص الآية : 50)

المعركة بين الحق و الباطل أزليَّة أبديَّة ولا بدّ من الولاء والبراء :

قال تعالى :

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ)

(سورة يونس الآية : 32)

بعد الحق هناك ضلال، لأنه بين نقطتين لا يُرسَم إلا مستقيمٌ واحد، فمهما وصلت بين النقطتين تأتي كل هذه المستقيمات فوق بعضها البعض، الحق لا يتجزَّأ أما الباطل فيتعدَّد، لأن الخطوط المُنحرفة والمنحنية والمنكسرة كثيرةٌ جداً، وقد أشار ربنا عزَّ وجل إلى هذه الحقيقة حين قال :

(يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ (257))

(سورة البقرة)

الظلمات جمع :

(إِلَى النُّورِ (257))

(سورة البقرة)

النور واحد :

(وَأَنَّ هَذَا صرا طي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام الآية : 153)

الحق لا يتعدَّد، الباطل كثير جداً ؛ هناك باطل اعتقادي، وباطل سلوكي، هناك باطل انحرافه خمس درجات، عشر درجات، مئة درجة، وهناك إلحاد، الباطل يتعدَّد، وهناك معركة أزليَّة أبديَّة بين الحق والباطل، ولا بد من الولاء والبراء، إن واليت الله يجب أن توالي رسول الله، أعداء الدين ينفذون إلى التفرقة، فهو يقول : أنا أريد القرآن ولا أريد السُّنَّة . من قال لك ذلك ؟ إذا كان القرآن الكريم يقول :

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر الآية : 7)

أنت إن رفضت سُنَّة النبي رفضت القرآن، القرآن، وسنة النبي العدنان، وسيرة صحابته الكرام، وسيرة السلف الصالح من المؤمنين والعلماء العاملين، هذا هو الحق ؛ والباطل هو كل انحرافٍ عن منهج الله ورفضٍ لأوامره وهو كفرٌ، فهذه التفرقة تفرقةٌ لا وجود لها، مفتعلة .

الناس رجلان ؛ رجلٌ عرف الله فسعد ورجلٌ غفل عن الله فشقي :

ذكرت اليوم : أن الناس رجلان فقط، إنسانٌ عرف الله، فانضبط بمنهجه ـ سار على منهجه ـ وأحسن إلى خلقه، فاتصل به وسعد في الدنيا والآخرة ؛ ورجلٌ غفل عن الله، فتفلَّت من منهجه، وأساء إلى خلقه، فشقي في الدنيا والآخرة . ولن تجد رجلاً ثالثاً، يؤكّد هذا ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلّم:

((فَالنَّاسُ رَجُلانِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ))

[الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه]

هذه حقيقة .

(قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ (97))

الذي يؤمن برسول الله يجب أن يؤمن بالسيِّد المسيح عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام، الذي يؤمن بالإسلام يجب أن يؤمن أن الله عزَّ وجل أنزل كتبه على أنبيائه السابقين، وأن هذه الرسالات فحواها واحدة، ومضمونها واحد .

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

المؤمن الصادق ليس عنده انتقاء الانتقاء من ضلالات أهل الرأي :

كل الأنبياء جاءوا بهذه الحقيقة :

(أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ (32))

(سورة المؤمنون)

الدين كلُّه معرفة أنه لا إله إلا الله وعبادة الله عزَّ وجل وفق ما أمر، هذا الدين، الأمور واضحة كلها عند المؤمن، الأمور كلها منسجمة متناسقة، فهذه التفرقة هي من صنع الشيطان :

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ (159))

(سورة الأنعام)

قال الله عزَّ وجل في مُحْكَم كتابه :

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

(سورة الفتح الآية : 18)

خالق الكون في عليائه رضي عنهم ؛ الذين كانوا مع النبي عليه الصلاة والسلام في الحديبية، وقد وضعوا أيديهم بيد النبي عليه الصلاة والسلام، وبايعوه على بذل أرواحهم في سبيل الله رضي الله عنهم، وفيهم أبو بكرٍ وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين، فمن هذا الذي لا يرضى عنهم إذا كان خالق الأكوان في عليائه قد رضي عنهم ؟!

فالمؤمن الصادق لا يفرِّق بين أحدٍ من رسله، ولا يفرِّق بين أحدٍ من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام وليس عنده انتقاء، الانتقاء من ضلالات أهل الرأي، النَصُّ أولاً، وفهمك للنص الصحيح يبنى عليه عقيدة ثانياً، أما أن أبدأ بالرأي وأبحث له عن نصٍ يؤيِّده وأُدخل نصاً لا يؤيِّده هذا ليس هو الدين، هذه ضلالات أهل الرأي ؛ الرأي أولاً والنص ثانياً والنص في خدمة الرأي، فالنصُّ الذي يخدم هذا الرأي أقبله، وأعظِّمه، وأرفع مكانته، والنص قطعي الدلالة والثبوت، والذي لا يؤيِّد هذا الرأي أهمله أو أكذِّبه، صار هناك ألف دين، إذا بدأنا بالرأي يوجد ألف دين، أما إذا بدأنا بالنص فهناك دين واحد .

إن أردت جوهر الدين فعُد إلى أصوله كتاب الله وسُنَّة رسوله :

الشيء الذي ينبغي أن يكون هو أن هذا الإسلام الذي جاء به القرآن والذي جاء به النبي العدنان يجب أن يستمر كما بدأ إلى يوم القيامة، كيف يستمر ؟ يستمر بأن نمنع أن نزيد عليه أو أن نحذف منه، فإذا سمعتم كلمة تجديد، فالتجديد يعني أن نزيل عن الدين ما علق به مما هو ليس منه، هذا هو التجديد، وأوضح مثل هو : حينما نأتي ببناءٍ حجريٍ قديم، تراكمت عليه الأتربة والغبار حتى أصبح أسود اللون، فإذا أزلنا هذه الطبقة المسودَّة من على الحجر الأبيض الناصع، أرجعناه إلى نصاعته وبياضه وجماله، فهذا هو التجديد في الدين، إذا أردنا أن نجدِّد البناء ليس معنى ذلك أن نضيف عليه غرفةً، ولا أن نحذف منه طابقاً، التجديد أن نعيد له لونه الصافي، أن نزيل عن هذا البناء كل ما أضيف عليه، وأوضح مثل : اذهب إلى نبعٍ صافٍ عذبٍ زلال، واذهب إلى مصبِّ هذا النبع تجده أسوداً كالليل، من كثرة ما أضيف على هذا النهر من مياهٍ مالحةٍ سوداء . فإن أردت جوهر الدين فعُد إلى أصوله ؛ إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله :

((تركت فيكم شيئين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتي))

[أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة]

فهذه التفرقة في العداوة هذه ليست من الدين في شيء، فاليهود لا يحبون سيدنا جبريل، يعادونه، يقول الله عزَّ وجل :

(قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ (97))

سيدنا جبريل مَلَك عظيم، بل هو رئيس الملائكة، وأنزل هذا القرآن على قلب النبي بإذن الله، هو عبدٌ مأمور، مخلوقٌ مأمور، فكيف تعاديه أنت ؟ وما ذنبه ؟

خصائص الفرق الضالّة :

أيها الأخوة حقيقةٌ ناصعة أضعها بين أيديكم : ما من فرقةٍ ضالَّةٍ في الإسلام على مدى الحِقب، خلال التاريخ الإسلامي كله، ما من فرقةٍ ضالةٍ إلا وفيها أربع خصائص : أولاً تأليه الأشخاص، ثانياً اعتماد النصوص الموضوعة والضعيفة، ثالثاً تخفيف التكاليف، رابعاً النزعة العدوانيَّة، فإن وجدت فئةً تؤلِّه شخصاً، أو تعتمد نصَّاً ضعيفاً أو موضوعاً، أو تخفِّف التكاليف لدرجة أنها تجعل من الدين نمطاً يشبه النمط العصري الإباحي، أو ذات نزعةٍ عدوانيَّة فهي فرقة ضالَّة، والإسلام شامخٌ كالطود، وكل الانحرافات في الإسلام أصبحت في مزبلة التاريخ، وتلاشت كبيت العنكبوت، وبقي الإسلام بأصوله الصحيحة، ونصوصه الصحيحة، وقيمه الخالدة شامخاً كالجبل .

نحن أيها الأخوة مأمورون أن نرجع إلى أصل الدين، فأنا أعادي جبريل ولا أعادي النبي !! جبريل ليس له علاقة، هو أنزل هذا الكتاب على قلب النبي بإذن الله، هو مخلوقٌ مأمور، فافتعال العداوات

من شيَم أهل الضلالة، نحن عندنا طرفان الحق والباطل ؛ الله عزَّ وجل، ونبيُّه الكريم، وصحابته الكرام، والعلماء العاملون الصادقون، وأولياء الله الصالحون هؤلاء طرفٌ واحد، ومن أنكر شيئاً من كلام الله، أو من نبوَّة رسول الله، أو من حديث رسول الله، هذا الإنكار ينقله إلى الخندق الآخر .

أيها الأخوة الكرام :

(قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97))

حلاوة الإيمان :

المؤمن عنده ما يسمَّى بالولاء والبراء، هذا المعنى مستقى من أحاديث كثيرة، من أبرزها قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه]

هذا الحديث ينقلنا إلى موضوعٍ لا بد من أن نعالجه ـ دقيق جداً ـ هناك حقائق الإيمان، وهناك حلاوة الإيمان، الذي يشدُّك إلى الدين ليست حقائق الإيمان فحسب بل حلاوة الإيمان، والذي يبعدك عن الدين أن تفتقر إلى حلاوة الإيمان، حلاوة الإيمان شيءٌ يذوقه المؤمن وقد لا يستطيع أن يصفه، إن أردت أن تُسَمِّيَهُ سكينة فهو السكينة التي تتنزَّل على قلب المؤمن، قال تعالى :

(ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة التوبة الآية : 26)

إن أردت أن تسميه نوراً يقذفه الله في قلب المؤمن فهو كذلك، إن أردت أن تسمي حلاوة الإيمان هذا التجلّي الذي يتجلّى الله به على قلوب عباده المؤمنين هو كذلك، إن أردت أن تسمي حلاوة الإيمان هذا الذوق الرفيع الذي يعيش فيه المسلم، هذا الذوق الرفيع الذي يذهله عن كل شيء، فمن عرف الله زهد فيما سواه هذه حلاوة الإيمان، هذه التي تشدُّه إلى الدين، هذه التي تجعله يدفع الغالي والرخيص والنفس والنفيس، هذه التي تجعله كالمِرْجَل لا يهدأ، هذه التي تجعله يقدِّم كل شيءٍ لله عزَّ وجل، هذا الذي يرفعه إلى أعلى عليين، هذا الذي يجعله في مراتب الصدِّيقين، حلاوة الإيمان .

ثمن حلاوة الإيمان ثلاثة أشياء :

1 ـ أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما :

أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، طبعاً قد يقول أحدكم والكلام سهل جداً : أنا أحب الله ورسوله أكثر من كل شيء، كلامٌ بسيطٌ سهلٌ يدَّعيه كل إنسان، ولكن علماء الحديث قالوا : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما عند التعارض ؛ فمثلاً أنت في أمسِّ الحاجة إلى المال، وعُرِضَ عليك مبلغٌ كبير تُحَلُّ به كل مشكلاتك، ولكن هذا المبلغ فيه شبهةٌ للدين إن أخذته لا يرضى الله عنك، فإذا وضعته تحت قدمِك وقلت : الله هو الغني، حينما تعارض هذا المبلغ من المال مع النَص، آثرت طاعة الله على قبض هذا المبلغ، الآن أثبتَّ لنفسك وللناس أن الله ورسوله أحبُّ إليك مما سواهما، عندئذٍ تذوق حلاوة الإيمان، قال تعالى :

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخوانكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ (24))

(سورة التوبة)

كل من حولك :

(أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ (24))

(سورة التوبة)

كأن فعلت عملاً لا يرضي الله بل هو يرضي زوجتك، فعلت شيئاً لا يرضي الله بل يرضي أباك، فعلت شيئاً لا يرضي الله بل يرضي ابنك، فعلت شيئاً لا يرضي الله بل يرضي أخاك، أي أنك آثرت إرضاء هؤلاء المخلوقين على إرضاء خالق الأنبياء والمرسلين عندئذٍ أنت لا تُحِبُّ الله ولا ترجو رحمته، هنا المشكلة .

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخوانكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا (24))

(سورة التوبة)

تسكن بيتاً، وبإمكانك أن تبقى فيه إلى نهاية حياتك بالقوانين، لأنك محمي بالقانون، لكن لك بيتاً آخر وبإمكانك أن تحلَّ مشكلة صاحب البيت ليزوِّج به ابنه، وأنت لك بيت قد يكون أقل مستوى، لكن ألا تفعل هذا إرضاءً لله عزَّ وجل ؟ فإذا كانت المساكن التي ترضونها، والتجارة التي تخشون كسادها مشبوهة، الاقتصاد في المعيشة خيرٌ من بعض التجارة، فإذا كانت تجارة المواد محرَّمة، أو طريقة التعامل محرَّمة، أو فيها شبهات، الاقتصاد في المعيشة خيرٌ من بعض التجارة .

من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه بعد أن تثبت طاعته :

قال تعالى :

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخوانكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(24))

(سورة التوبة)

أي إذا كان شيء من هذه الأشياء أغلى عليك من الله فالطريق إلى الله ليست سالكة، الطريق مُغْلَق .

أيها الأخوة، هذه حقيقة :

((ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ...))

[مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه]

أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما عند التعارض، لكن صدِّقوا أيها الأخوة أنه :

((ما ترك عبد شيئاً لله لا يتركه إلا له إلا عوضه الله منه ما هو خير له منه في دينه ودنياه))

[رواه أبو نعيم عن ابن عمر رضي الله عنه]

لكن متى ؟ بعد أن تستقر، بعد أن يبدو صدقك، بعد أن يبدو إصرارك على طاعة الله، بعد أن تضحي بالغالي والرخيص والنفس والنفيس .

أتمنَّى أن أضع بين أيديكم حقيقة مهمَّة جداً تتضح من هذا المثل : إنسان يبيع الخمر في مطعم، تاب إلى الله توبة نصوحاً، أليس الله قادراً على أن يجعل دخله اليومي عشر أضعاف حينما كان في المعصية ؟ ممكن، فلماذا يقلُّ دخله إلى الثُلث ؟ ليدفع ثمن طاعته، ليشعره الله عزَّ وجل أنه ضحَّى في سبيل مرضاة الله، لو أعطاه الغلَّة مضاعفة لأصبحت الاستقامة تجارةً رابحة أقبل عليها الكفَّار، الإنسان يريد ربحاً كثيراً، لو ألغى أحدهم الخمر فتضاعفت الغلَّة، فيأتي كافر فاسق ويلغي الخمر كذلك وهذا شيء يلفت النظر .

أحد المطاعم في مدينة من مدن سوريا، كتب صاحب المطعم : **" شرب الخمر ممنوعٌ بأمر الرب والرزق على الله "** ، على هذا المطعم إقبال منقطع النظير، فجيران هذا المطعم ـ المطاعم الأخرى ـ أصحابها ليسوا مسلمين كتبوا نفس العبارة ليستقدموا الزبائن .

بعد أن يدفع المؤمن ثمن الطاعة يرقى عند الله عز وجل :

لو أن الله عزَّ وجل حينما يضحي الإنسان، حينما يلتزم، فجأةً يعطيه عشرة أضعاف، لأصبحت الاستقامة تجارةٌ في الدنيا أقبل عليها الكفَّار، لذلك حينما ترفض بيع الخمر يقلُّ الدخل، فأنت إذا

صبرت على قلة الدخل، وعلى دخل قليل جداً لكنَّك أرضيت خالق الأكوان، بعد حين، بعد أن تثبت على هذا يعوِّض الله عليك أضعافاً مضاعفة، هذه نقطة مهمَّة جداً .

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا)

(سورة التوبة الآية : 28)

عندما منعتموهم من دخول المسجد الله الحرام ضعفت تجارة السياحة، لم يعد هناك سياح، فنادق فارغة، دور اللهو فارغة، المطاعم فارغة، فهذه السياحة دخل كبير جداً، قال :

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

(سورة التوبة الآية : 28)

كلمة

(فَسَوْفَ)

وليس الآن، بعد أن تدفعوا ثمن هذه الطاعة، تدفعوها جليَّة واضحة، ترقون بها عند الله عزَّ وجل .

أريد من هذا الكلام أيها الأخوة أنه : ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوَّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه .

فلذلك أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما عند التعارض .

2 ـ أن يحبَّ المرء لا يحبُّه إلا لله :

أن يحبَّ المرء لا يحبُّه إلا لله، هذا هو الولاء والبراء، يجب أن تحبَّ المؤمنين ولو كانوا ضعافاً، ولو كانوا فقراء، ولو كانوا في الدرجة الدنيا في المجتمع، ويجب أن تكره الكفَّار أعداء الله ولو كانوا أقوياء، ولو كانوا متألِّقين في الدنيا، لا تعجبك أموالهم، ولا أجسامهم، ولا أولادهم، هذا هو المؤمن .

يجب على المؤمن أن يكون من أولياء الحق :

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

(سورة المائدة الآية : 54)

لا أن تكون بالعكس، قاسٍ جداً على المؤمن أما أمام الكافر القوي فأنت ضعيف جداً، مسالم جداً، هذا الذي يقسو على المؤمنين قسوة لا مبرِّر لها، ويستخذل أمام الأقوياء ويضعف، فهذا إنسان بعيد عن أن يكون مؤمناً .

أيها الأخوة الكرام، ساقني إلى هذا الكلام أن هذه الآية الكريمة تبيِّن أن الحق لا يتجزَّأ، يجب أن توالي الحق، أن تكون من أولياء الحق، مثلاً ـ وهذا المثل خطير ـ إن الذين يحبون فقط، ما فعلوا شيئاً، ما تكلَّموا ولا كلمة، ولا غمزوا، ولا لمزوا، ولا أشاروا، ولا نطقوا ببنت شفة، لكن :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا (19) ﴾

(سورة النور)

أي ظهرت فاحشة، ارتاح، فإذا ارتحت لفاحشة شاعت بين المؤمنين، فاعلم علم اليقين أنك لست مؤمناً، وأنك في خندق المنافقين، لأن الله عزَّ وجل يقول :

﴿ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا(120) ﴾

(سورة آل عمران)

هل في الأرض كلّها أمٌ تتمنَّى فضيحة ابنتها ؟ لا، لا تجد، إلا أماً واحدة وهي ليست أم هذه البنت، تدَّعي أنها ابنتها وهي ليست كذلك، فأنت حينما تفرح لفاحشةٍ شاعت بين المؤمنين فأنت في خندق المنافقين قطعاً، وسأعطيك مقياساً دقيقاً، حينما تفرح من أعماق أعماقك بقوَّة أخيك، وصحَّة أخيك، وغنى أخيك، ونجح أخوك بشهادة عالية، تزوَّج، اشترى بيتاً، وفِّق في دعوة، وأنت أعنته، هذه والله علامة إخلاصك وإيمانك، أما إذا نافسته، وحسدته، وطعنت به حسداً من عند نفسك وبغياً وعدواناً، فهذه علامة أهل النِفاق .

أهل الإيمان وحدةٌ لا تتجزأ والخصومات بين المؤمنين دليل سقوطهم من عين الله :

أنا أُركِّز في هذا الدرس على أن أهل الإيمان وحدةٌ لا تتجزَّأ، والخصومات بين المؤمنين، والعداوات بين المؤمنين دليل سقوطهم من عين الله، لا تجد قوماً الإله عندهم واحد، النبي واحد، الكتاب واحد، السُنَّة واحدة، الهدف واحد، ثم يختلفون لماذا العداوة ؟ ما الذي يضعف المسلمين اليوم ؟ تشتُّتهم، تفرَّقهم، عداواتهم، طعنهم، يطعن بعضهم ببعض، هذا والله دليل عدم إخلاصهم، ولو كنت مخلصاً لله لعاونت أخاك ولم تنافسه، وأقول لكم هذه الحقيقة وأعيدها كثيراً : هناك دعوةٌ خالصةٌ إلى الله، وهناك دعوةٌ إلى الذات مغلَّفةٌ بدعوةٍ إلى الله، دعوة إلى الذات لكنها مغلَّفةٌ بدعوةٍ إلى الله، الدعوة إلى الله من خصائصها الاتباع لا الابتداع، **" إنما أن متَّبع ولست بمبتدع "** ، من خصائصها التعاون لا التنافس .

لفت نظري أخ كريم، كان مسافر في بلد وعاد، وهو أهل أن يكون داعية، قلت له : أتحبُّ أن أُهَيِّئ لك منبراً ؟ قال : لا أنا أعاونكم، نحن واحد . هذا الذي ينكر ذاته ويعاون أهل الحق له أجرٌ كأجرهم، القضيَّة قضية تحقيق رسالة وليست قضية منافسة، ولا قضية مكاسب، ولا قضية مناصب، قضية أن تكون في خدمة الحق .

بالمناسبة أؤكِّد لكم أيها الأخوة، لا تقلق على دين الله أبداً، إنه دين الله، والله عزَّ وجل متكفِّلٌ بنصرة دينه ـ إن للكعبة ربَّاً يحميها ـ ولكن اقلق ما إذا سمح الله لك أو لم يسمح أن تكون جندياً للحق، اقلق على هذه، واسأل نفسك أيها الأخ : ماذا قدَّمت لله غداً ؟ قد تكون كل أعمال المؤمن ونشاطاته لخدمة نفسه ؛ عمله، بيته، مكانته، تأسيس بيته وراحته . ولكن ماذا فعلت في سبيل الله ؟

ما الذي فعلته من أجل أن يرضى الله ؟ لو أن الله أوقفك بين يديه يوم القيامة يقول لك : يا عبدي ماذا صنعت من أجلي ؟ يا رب اشتريت بيتاً، وسكنت في البيت، يا رب اشتغلت وحصَّلت دخلاً كبيراً أتاح لي أن آكل أطيب الطعام، وأن أرتدي أجمل الثياب، وأن أسافر . ولكن هذا من أجلك فماذا فعلت من أجلي ؟ لا بد من ساعة تأمُّل ذاتيَّة، يسأل الواحد نفسه : ماذا فعلت من أجل الله ؟

الله عزَّ وجل لن يقبل دعوى محبَّته من دون دليل :

والله أيها الأخوة في أعماق أعماقي أشكر أخوة كثيرين، هذا أخ طبيب يقول لك: أعالج أي إنسان يأتي من طرفك مجاناً وهذه بطاقتي وهذا توقيعي، هذا قدَّم الذي عليه، اختصاصه طب، أراد أن يقدِّم اختصاصه لكل فقير، تجد صاحب مخبر يقول : أي إنسان يأتي من طرفكم وتعرفه فقيراً أنا أحلّل له من دون مقابل، فبذلك أدَّى الذي عليه، صاحب مصلحة يقول : أنا أقدِّم خبرتي لبيت الله إذا توجد خدمة فأنا جاهز، وهذا رقم هاتفي، فأنت اسأل نفسك : أنا ماذا قدَّمت في سبيل الله ؟ أنا ألاحظ أحياناً أخاً منذ خمسة وعشرين سنة ما غاب درساً واحداً، وقد كنت أتمنَّى أن يقدِّم شيئاً، أبداً إنه مستمع من الطراز الأول فقط ولا يقدِّم شيئاً، قدِّم لله عزَّ وجل دون أن أعلم .

قدم لله شيئاً من أجل أن يرضى، يا رب عاملت زوجتي معاملة طيِّبة لعلَّك ترضى عني، ربَّيت أولادي كما تريد، يا رب تحرَّيت الحلال وكان قليلاً، ورفضت الحرام وكان كثيراً، يا رب آثرت طاعتك على الدنيا وما فيها . قدِّم شيئاً لله عزَّ وجل، فالاستماع جيِّد لكن لا يكفي .

كنت قبل ساعةٍ في عقد قِران، والمنشدون أنشدوا إنشاداً طيِّباً في مدح رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فكان تعليقي على إنشادهم بأن قلت : الإنشاد طيِّب، وأن تمدح النبي شيءٌ عظيم، وشيء يثلج الصدر، ولكن لو أن ابناً جاهلاً لا يقرأ ولا يكتب، وله أبٌ عالِمٌ كبير، أمضى هذا الابن كل حياته في مدح أبيه أمام الناس، هل يرتقي ؟ أبداً، المديح طيِّب يثني على أبيه ولكن هو لا يدرس .

مرَّةً في العمرة صليت في مصلَّى النبي عليه الصلاة والسلام وبكيت كثيراً والله، ثمَّ جاءني خاطر فقلت: لو أن إنساناً يحمل أعلى الشهادات في العالَم، وله مئة مؤلَّف، وعنده مستخدَم ـ حاجب ـ ففي غيبة هذا العالِم الكبير جاء هذا الحاجب وقفز وجلس على كرسيِّ سيده . هل يرقى ؟ لا والله لا يرقى، أما إذا نال أقل شهادة سار في طريق سَيِّدِهِ، أخذ كفاءة، أخذ الثانوية، دخل جامعة، إذا بدأ يدرس سلك في طريق سيده، أما في غيبة سيده قعد مكانه، أمسك الهاتف كما يمسكه، ارتدى ثوباً أبيضاً كما يرتدي، هذا شيء لا يقدِم ولا يؤخِّر، أنا لست ممن يحارب التبرُّك، لا، ولكنني أريد أن لا نكتفي بمدح الرسول، نكتفي أن نمدحه فقط ولا نطبِّق سُنَّته، والله عزَّ وجل لن يقبل دعوى محبَّته من دون دليل، قال :

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية : 31)

الوحي نوعان ؛ وحيٌ متلو هو القرآن ووحيٌ غير متلو هو سُنَّة النبي العدنان :

أيها الأخوة، محور هذا الدرس أن الحقّ لا يتجزَّأ، الحق وحدة كاملة، فإن كنت محبَّاً لله ينبغي أن تكون محباً لرسول الله، هناك دعوة واضحة جداً : نكتفي بالقرآن ولا نريد السنَّة، إنها تعبّر عن مرحلةٍ مضت، إنها فهمٌ مرحلي لحُقْبَةٍ معيَّنة، هذه دعوة رائجة الآن : نكتفي بالقرآن ولا نريد السُنَّة، مع أن الله عزَّ وجل يقول :

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى(4))

(سورة النجم)

هناك وحيٌ متلو هو القرآن، ووحيٌ غير متلو هو سُنَّة النبي العدنان .

3 ـ يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُلقى في النار :

يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُلقى في النار، أي ما دامت الأمور جيِّدة فأنا مع الحق، الأمور صعبة ترك الجامع، ترك الالتزام، ترك الصلاة، هذا على حرف، هذا الذي :

(يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ)

(سورة الحج الآية : 11)

هذا ليس من الذين يحبهم الله عزَّ وجل :

(قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ (97))

الكتب السماويَّة يؤيِّد بعضها بعضاً، فالإنجيل يؤيِّد التوراة، والقرآن يؤيِّد التوراة والإنجيل، وما في التوراة والإنجيل والقرآن موضوعٌ واحد .

الحب في الله عين التوحيد والحب مع الله عين الشرك :

قال تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

هذا يقودنا إلى موضوع آخر هو أن هناك حباً في الله وحباً مع الله، فإذا نقلتك محبة أهل الإيمان إلى محبة النبي فهذا حبٌ في الله، وإذا نقلتك محبة النبي إلى محبة الله فهذا حبٌ في الله، إذا نقلتك محبَّتك للقرآن إلى محبتك لله هذا حبٌ في الله، إذا نقلتك محبتك لبيت الله الحرام إلى محبة الله فهذا حبٌ في الله محبة، كل شيءٍ ينقلك إلى الله حبٌ في الله، أما إذا نقلك الشيء إلى البعد عن الله فهذا حبٌ مع الله، الحب في الله عين التوحيد، والحب مع الله عين الشرك، ونعوذ بالله أن نحبَّ مع الله أحداً .

زاد العلماء على ذلك : الحبُّ مع الله، لو أن إنساناً بعيداً عن الله أعطاك عطاءً كبيراً فأحببته لعطائه فهذا شرك، لو أن الذي يحب الله تضايقت منه وكان على حق فكرهته فهذا شرك، ينبغي أن تحبَّ المؤمنين ولو أزعجوك، وينبغي أن تكره الكفَّار والمنافقين ولو أكرموك، هذا هو الولاء والبراء .

(فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97) مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98))

إذا عادى الإنسان الملائكة فهو يعادي الله عزَّ وجل، عادى الرُسُل فهو يعادي الله عزَّ وجل، عادى جبريل فهو يعادي الله عزَّ وجل، عادى ميكال :

(فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98))

ذم العرب باستمرار وبغضهم مفارقة للدين :

خاطب رسول الله أحد الصحابة باسمه، وهو سلمان الفارسي، فقال له :

((يَا سَلْمَانُ لا تَبْغَضْنِي فَتُفَارِقَ دِينَكَ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ أَبْغَضُكَ وَبِكَ هَدَانَا اللَّهُ ؟ قَالَ : تَبْغَضُ الْعَرَبَ فَتَبْغَضُنِي))

[الترمذي عن سَلْمَانَ رضي الله عنه]

مشكلة كبيرة جداً أن تذم العرب باستمرار، يجب أن تذم الأناس الشاردين عن الله، الأمم التي تبدو في عينك متحضِّرَة وهم وحوش، ألا تراهم ماذا يفعلون في العالَم ؟ وحوش من أعتى أنواع الوحوش، الميِّزة لما يجري في العالَم الآن هي أن هذه الأقنعة المزيَّفة سقطت، وهذا العالَم الراقي المتقدِّم الذي فيه حقوق الإنسان وقيم وحضارة وعلم أصبح الآن بالوحل، الذي يفعله بنو البشر الشاردون عن الله عزَّ وجل، يفعلون شيئاً تندى له البشريَّة، تستحي والله أن تنتمي إلى الجنس البشري مما يجري في بلاد أخرى، هذا الإنسان البعيد عن الله وحش، والله حينما نقول : وحش، يجب أن تعترض علينا الوحوش لأننا نسبُّهم بهذا، والله أشرس من الوحوش، الدين يسمو بالإنسان، يجعله في أعلى مرتبة، إذاً :

(مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98))

عداوة فقرة من فقرات الحق تنقلك إلى عداوة الله عزَّ وجل، هناك شيء مؤلم جداً أتمنَّى أن لا يكون إطلاقاً، يدخل إنسان إلى مسجد، قد يؤذيه أخ كريم عن قصد أو عن غير قصد، فمن ضعف إيمان الثاني يفارق الدين كُله، يقول لك : أهل الدين غلط، فهذا غلط كبير، المفروض إذا كان الإنسان في مسجد أن يكون سفير المسلمين، يجب أن يعلم علم اليقين أنه ربَّما إذا أساء لإنسان أن تسبِّب هذه الإساءة للطرف الثاني أن يفارق الدين كله، أنت مهمَّتك أن تحبِّب، مهمتك أن تقرِّب، مهمتك أن تَدْعَم، مهمتك أن تكون مثلاً أعلى، فانتبه، أنت على ثغرةٍ من ثغر الإسلام فلا يؤتينَّ من قِبَلِك .

عداوة الملائكة والأنبياء وأهل الإيمان نوعٌ من أنواع الكفر :

بالمناسبة : ألف تصرُّف ذكي مخلص يشدُّ إنساناً إلى جهة أو إلى شيء، تصرُّف أحمق واحد يبعدك عن هذا الشيء، فقبل أن تسئ لمؤمن عد للمليون، انتبه قبل أن تقسو عليه فأنت تمثِّل الإسلام، كل واحد منكم في محيطه يمثِّل الدين، أنت محسوب على أسرتك وعلى من حولك أنك شيخ، يقول لك : (فلان تشيّخ)، طلب العلم، صار في الجامع الفلاني . فأنت كل حركاتك وسكناتك مرصودة تحت الأضواء الكاشفة، إذا أخطأت تسبِّب السمعة السيئة لمن حولك ولجامعك، فالآيتان اليوم :

(مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98))

هذا كفر، عداوة الملائكة، عداوة الأنبياء، عداوة أهل الإيمان نوعٌ من أنواع الكفر، وقد قال عنه العلماء: كفرٌ دون كفر .

أيها الأخوة الكرام، محور هذا الدرس أن الحق لا يتجزَّأ، وأن الاتباع والولاء هو الذي ينبغي أن نفعله كمؤمنين، ثم إن عداوة جزءٌ من الدين تجرُّك إلى عداوة الدين كله ـ هذه حقيقة خطيرة ـ ثم يقول الله عزَّ وجل :

(وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99))

هناك علاقة بين التكذيب والفسق وبين الإيمان والاستقامة، سأدلُّك على الطريق، لمجرَّد أن تستقيم على أمر الله تتقبَّل الحق، تتقبَّل الحق بشغفٍ شديد، ويسعدك الحق لأنك مستقيم، ولا تقبل الحق بقدر الفسق .

المؤمن الصادق يتوب توبة واحدة أما ضعاف المؤمنين كلّما عقد توبةً نقضها :

قال تعالى :

(وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ (99))

آيات بيِّنات، واضحات، نيِّرات، مُقنعات، باهرات :

(وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99))

مثلاً يقول لك إنسان دخله ربوي : هذا الدين لا يتناسب مع العصر، يقول لك : هناك آيات غير معقولة، أمعقول أن يجمد الإنسان ماله ؟ لماذا بدأ يشكُّ في مصداقية كلام الله؟ لأنه انطلق من الربا، إنسان يعيش الاختلاط بكل بشاعته لا يقبل آيات الحجاب أبداً، يرفضها، يقول لك : هذا الحجاب بدعة جاءتنا في العهد العثماني، استمع إلى حجج الفَسَقَة كلهم يتناغمون، كلهم يرفضون الحق، لأنهم إذا رفضوا الحق دافعوا عن أنفسهم، توازنوا، لو قبل معك الحق وهو غير مستقيم انكشف واختل توازنه، صار عنده مشكلة، فلا بد أن يرفض الحق كي يعيد التوازن، فلذلك :

﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99) أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ (100) ﴾

المؤمن الصادق يتوب توبة واحدة، أما ضعاف المؤمنين كلّما عقد توبة نقضها، تغلبه نفسه :

﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾

(سورة المؤمنون الآية : 106)

إذا كان الإيمان قوياً تضعف الشهوة لكن ما دام الإيمان ضعيفاً فالشهوة قويَّة :

قال تعالى :

﴿ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (100) ﴾

لأن إيمانه ضعيف وشهوته قويَّة، أما إذا كان الإيمان قوياً تضعف الشهوة، ما دام الإيمان ضعيفاً فالشهوة قويَّة، الإنسان مندفع ومع اندفاعه يحتاج إلى مقود، هو الشرع، إذا لم يكن هناك مقود فالحادث حتمي، اندفاع بلا مقود فالحادث حتمي، فكل إنسان عنده شهوات يندفع إلى تحقيقها، ووقوعه في حادث مروِّع أمر حتمي إذ لم يوجد عنده منهج يسير عليه :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) ﴾

كانوا يستفتحون على الذين آمنوا، سيأتي نبيٌّ، وسنؤمن به، ونتفوّق عليكم :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ (89)﴾

(سورة البقرة)

وقال :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا (102) ﴾

وهذه الآيات إلى الدرس القادم إن شاء الله .

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (38- 95):تفسير الآيات 101 - 102، السحر والدّجل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-05-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

الحق صِرف والباطل متنوِّعٌ:

مع الآية الثانية بعد المئة، وقد سبق هذه الآية قوله تعالى:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101))

نبذوا واتبعوا، وأي إنسان لا بد من أن يدرك وأن يتَّبع، فالمؤمن ترك الباطل واتبع الحق، والكافر ترك الحق واتبع الباطل، والويل ثمَّ الويل ثم الويل لمن أعرض عن الحق واتجه إلى الباطل، لمن نبذ كتاب الله المُنَزَّلَ من عند الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ حبل الله المتين، صراطه المستقيم، طريق سعادة الإنسان، منهجه القويم ـ واتبع أهواء الناس .

أنت أيها الأخ الكريم لا بد من أن تدع شيئاً وأن تأخذ بشيء، فالمؤمن ـ كما قلت قبل قليل ـ نبذ أقوال البشر، وأهواء البشر، وخرافات البشر، وتخرُّصات البشر واتبع ما أنزل إلى النبي عليه الصلاة والسلام من عند الله، هناك حقٌ صِرف، وباطلٌ متنوِّعٌ .

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام الآية: 153)

الحق لا يتعدَّد:

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلَالُ)

(سورة يونس الآية: 32)

لا يرسم بين نقطتين إلا مستقيمٌ واحد، وأي خطٍ مستقيم يأتي فوق الخط المستقيم، الحق لا يتعدَّد، وحينما تستقيم على أمر الله تلتقي مع أخيك حتماً، لقاء حتمي ما دمت أنت على صراطٍ مستقيم وأخوك على صراط مستقيم فالخطان المستقيمان يتطابقان، أية تفرقةٍ بين مؤمنين هذا يعني أن أحدهما على حق والثاني على باطل .

مثل بسيط: لو أن هناك طريقاً مستقيماً ينتهي بهدف وله بداية، وانطلق اثنان على هذا الطريق بسرعةٍ واحدة، وباتجاه هدفٍ واحد، لقاؤهما حتمي، إلا في حالةٍ واحدة هي أن يسلك الأول هذا الطريق باتجاه هذا الهدف، وأن يدَّعي الثاني أنه على هذا الطريق وهو ليس كذلك، إذاً لا يلتقيان .

الحق لا يتعدد:

المعركة بين حقين لا تكون، مستحيل، لأن الحق لا يتعدَّد، وبين حقٍ وباطل لا تطول لأن الله مع الحق، وبين باطلين لا تنتهي لأن الله تخلّى عنهما معاً، فالأقوى ينتصر، والأكثر حيلة ينتصر، والأذكى ينتصر.

لذلك: هم نبذوا واتبعوا، تركت ملّة آبائي واتبعت الحق، فأنت لا بد من أن تسأل هذا السؤال: ما الذي تركته في سبيل الله ؟ وما الذي أقبلت عليه في سبيل الله ؟ الإنسان قد يدع حرفة فيها معصية لله، هل تركت شيئاً في سبيل الله ؟ هل أعرضت عن نظريَّةٍ باطلة؟ عن تفسيرٍ سخيف ؟ عن اتجاهٍ استحوذ على الناس، هل أعرضت عن بلوى عامَّة عمَّت الناس جميعاً ولم تعبأ بها ؟ هل أنت مع المجموع ؟ قال عليه الصلاة والسلام:

((لا تكونوا إمَّعة))

[الترمذي عن حذيفة]

من هو الإمعَة ؟ أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت . سؤال وجيه وخطير: ما الذي تركته في سبيل الله وما الذي اتبعت ؟

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28))

(سورة الكهف)

وقال:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

(سورة لقمان الآية: 15)

الولاء والبراء من خصائص المؤمن:

هل عندك ما يسمَّى بالبراء والولاء ؟ هل توالي المؤمنين ولو كانوا ضعافاً، ولو كانوا فقراء ؟ وهل تتبرَّأ من الكفار والمنحرفين ولو كانوا أقوياء وأغنياء ؟ الولاء والبراء من خصائص المؤمن، لا بد من أن تتبرَّأ وأن تتولّى، ولا تكن كالذي يتولّى أهل الكفر لما عندهم من دنيا، لما عندهم من مكاسب، لما عندهم من عطاء، ويعرض عن أهل الإيمان لضعفهم، النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال لعدي بن حاتم وكان ملكاً، قال له: **" لعلّه إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من حاجتهم "** . كان الصحابة فقراء جداً، أما الصناديد والأقوياء، وأصحاب الوجاهة، والبأس، والقوة، والأمر، والنهي، كانوا كفاراً:

(وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ (27))

(سورة هود)

إنك حينما تدع أهل الكفر ولو كانوا أقوياء، وتؤوي إلى أهل الإيمان ولو كانوا ضعفاء فقد واليت وتبرَّأت .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ (13))

(سورة الممتحنة)

وقال:

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ (51))

(سورة المائدة)

لكن ضعاف الإيمان يوالون من حادَّ الله ورسوله، لما عندهم من دنيا، لما عندهم من مكاسب، يقول لك: شركة رابحة جداً تبيع الخمر، فيقول: أنا مضطر ماذا أفعل ؟ قد يوظِّف ماله في شركة ترتكب المعاصي، وقد يعمل في مهنة تقوم على معصية الله ابتغاء دُنيا يصيبها، أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه .

المؤمن يعتزُّ بدينه وبإسلامه وبسنة نبيِّه عليه الصلاة والسلام:

أول شيء بالدرس أنه لا بد من تركٍ ولا بد من تمسُّك، لا بد من إعراضٍ ولا بد من إقبال، ما الذي تركته في سبيل الله ؟ وما الذي أقبلت عليه في سبيل الله ؟ هل انتقلت من خندقٍ إلى خندق ؟ هل انتقلت من موقعٍ إلى موقع ؟ هل انتقلت من نمط معيشةٍ إلى نمطٍ آخر؟ هل انتقلت من طريقةٍ يألفها الناس وفيها بلوى عامَّة إلى طريقةٍ يحبها النبي عليه الصلاة والسلام وهي نادرةٌ .

((إن الدين بدأ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء))

[الترمذي عن أبي ملحة رضي الله عنه]

((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "طوبى للغرباء" . قيل: ومَن الغرباء؟ قال: "قوم صالحون قليل في قوم سوء كثير مَن يعصيهم أكثر مِمَّن يطيعهم))

[رواه الطبراني من حديث عبد الله بن عمر]

قال تعالى:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101))

نبذوا واتبعوا، المؤمن ينبذ طريقة أهل الكفر، قيَمَ أهل الكفر، مبادئ أهل الكفر، الأنماط المعيشيَّة لأهل الكفر، المؤمن لا يرضى أن يقلِّد أهل الكفر في بيته، هناك بيوتات المسلمين ـ مع الأسف الشديد ـ يقلِّدون أهل الكفر في أكثر احتفالاتهم، ونشاطاتهم، وسفرهم، وإقامتهم، بل إن نصف كلماتهم ليست عربيَّة، المؤمن يعتزُّ بدينه ويعتزُّ بإسلامه، ويعتزُّ بسنة نبيِّه عليه الصلاة والسلام .

قدِّم شيطان الإنس على شيطان الجن لأن خطره أشد:

أيها الأخوة:

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ (102))

الشياطين هم عصاة الجن، والجنُّ فيهم المؤمنون وفيهم الكافرون:

(وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً(11))/p>

(سورة الجن)

الشياطين هم العصاة من الجن الذين عصوا الله عزَّ وجل، فالجن منهم كفار ومؤمنون، والمؤمنون منهم طائعون وعصاة، وكل من عصى الله عزَّ وجل وخرج عن منهجه فهو شيطان ولو كان إنساناً، والدليل:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ)

(سورة الأنعام)

قُدِّم شيطان الإنس على شيطان الجن لأن خطره أشد، إنسان يسكن إلى جوارك، زميلك في عملك، رفيقك في دراستك، جارك في بيتك، يحمل شهادة كما تحمل، يعيش كما تعيش لكنَّه شيطان يدعوك إلى المعصية، يدعوك إلى العَصْرَنَة، يدعوك إلى التحلُّل من كل منهج سماوي، يدعوك إلى كسب المال الحرام، يتَّهمك بالجنون إن لم تكسب مالاً حراماً، إن قنعت بالحلال ولو كان قليلاً ولم تطمع بالحرام ولو كان كثيراً يتَّهمك بالجنون، هذا شيطان الإنس، وقُدِّم شيطان الإنس على شيطان الجن لأن شياطين الجن يحتاجون إلى دروسٍ من شياطين الإنس .

المعركة بين الحق والباطل مستمرَّة:

قال تعالى:

(وَاتَّبَعُوا (102))

قد يقول قائل: لقد كان سياق الآية أن يقول الله عزَّ وجل: واتبعوا ما تلت الشياطين على مُلك سليمان ـ ما تلت الشياطين، لكن الله عزَّ وجل يقول:

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو (102))

معنى هذا أن المعركة بين الحق والباطل مستمرَّة إلى يوم القيامة، ليست هذه قصَّةٌ وقعت وانتهت، شياطين الإنس والجن يتلون الباطل، يلقون الباطل:

(وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (26))

(سورة إبراهيم)

الكلمة الباطلة تطير في الآفاق، وقد يدين مئاتُ الملايين بدينٍ باطل، وقد يعبدُ خمسمئة مليون البقرة، يعبدونها من دون الله، وقد يعتقد مئات الملايين أن إلهَهُم هو المال:

(أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الجاثية الآية: 23)

المعركة بين الحق والباطل مستمرَّة:

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ (102))

بعد أن بُعث النبي الكريم أي شيطانٍ أراد أن يسترقَ السمع أتبعه شهابٌ ثاقبٌ فأحرقه:

أيها الأخوة، فيما مضى كان للشياطين مقاعد للسَمع، يستمعون إلى الأوامر التي تحملها الملائكة إلى الأرض، وكانوا يلقون إلى أوليائهم الكفار بعض هذه الأوامر، هذا ورد في القرآن الكريم:

(وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ)

(سورة الجن الآية: 9)

لكن بعد بعثة النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً(8))

(سورة الجن)

أي شيطانٍ أراد أن يسترقَ السمع أتبعه شهابٌ ثاقبٌ فأحرقه، فلذلك لجأ الشياطين إلى السِحر، ومن سحر فقد كفر، السحر مأخوذ من السَحَر، والسَحَر قُبَيْلَ الفجر، أي بين الظُلمة والضوء الصور تختلط، الساحر مهمَّته أن يُخَيِّل للمسحور شيئاً لا علاقة له بالواقع، أن يرى شيئاً لا وجود له:

(يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى(66))

(سورة طه)

إنها لا تسعى ولكنهم سُحروا:

(سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ(116))

(سورة الأعراف)

من خلال هذه الآيات يتضح أن السحر هو أن تسيطر على المسحور فتجعله يرى شيئاً لا وجود له

السحر أن تسيطر على المسحور بحيث تجعله يرى ما لم يُرَ:

حدَّثني صديق ذهب إلى الهند، رواها لي مباشرةً: أنه رأى ساحراً أمسك بحبلٍ وقذفه إلى الأعلى، فعلِقَ في الأعلى، أمر غلامه أن يصعد على هذا الحبل، فصعد على هذا الحبل حتى غاب عن الأنظار، أمره أن يرجع فلم يرجع فتبعه، فإذا برأسه يقع مقطوعاً وبيديه، لقد غضب الساحر من غلامه الذي لم يرجع، كان هناك سائح يصوِّر، صوَّر هذا المشهد بكل تفاصيله، فلمَّا أراد أن يظهر هذا الفيلم لم يجد شيئاً

(سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ(116))

السحر أن تسيطر على المسحور بحيث تجعله يرى ما لم يُرَ، إذا مشى الإنسان في الظلام وكان خائفاً يرى أشباحاً تتحرَّك، ليس في البيت شيء، لكن الظلام الدامس، والخوف الشديد، وضعف النفس جعلا الإنسان يرى أشخاصاً يتحرَّكون، علماء النفس يضعون بقعة حبر فيراها كل إنسان بشكل، القضيَّة نفسيَّة، يُعبَّر عنه في علم النفس بالتنويم المغناطيسي، أي يستطيع المنوِّم أن يُري المنَوَّمين أشياء لا وجود لها إطلاقاً والآية واضحة:

(سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ(116))

(سورة الأعراف)

وقال:

(فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى(66))

(سورة طه)

هي لا تسعى، الساحر يستطيع أن يسحر عيون المسحورين ولكن أحداً لا يستطيع أن يسحر عينيه

الدعاء والاستعاذة بالله هما ما يبطل السحر وليس الدجل:

سحرة فرعون حينما رأوا العصا أصبحت ثعباناً مبيناً هم سحروا لكنهم لم يُسْحَروا:

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ(46)قَالُوا آَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ(47)رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ(48)قَالَ آَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ(49))

(سورة الشعراء)

إلى آخر الآيات حتى قالوا:

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72)إِنَّا آَمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(73))

(سورة طه)

أخواننا الكرام، شائعٌ جداً في العالم الإسلامي أن هناك شيوخاً، لهم عمائم خضراء، يتعاونون مع الجن ليفكوا السحر، ليحبِّبوا الزوجة إلى زوجها، هذا كلُّه دجلٌ ما بعده دجل، ليس إلا الله، وليس إلا الدعاء، وليس إلا أن تستعيذ بالله عزَّ وجل، هؤلاء السحرة يُدَجِّلون وقد يكون لهم مظهر ديني، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((من سحر فقد كفر))

[مجمع الزوائد عن عمران بن حصين]

أدلة من القرآن الكريم عن أهمية الاستعاذة بالله:

قال تعالى:

(وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنْ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنْ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً(6))

(سورة الجن)

الساحر يعيش فقيراً ويموت فقيراً، ويقنع الناس أنه يفعل ما يريد، قرأت كتاباً فيه بعض الجرائم المُعَلَّلة، رجل يعمل في حقل مكافحة الجريمة، من خلال خبراته ألَّف كتاباً فيه بعض القصص عن بعض الجرائم الواقعيَّة ؛ إحدى المسجونات امرأةٌ تعمل في السحر، اعترفت أنها ترشد المرأة إلى أن تطيع زوجها، طبعاً تدخلها أولاً إلى غرفة مظلمة، والبخور، وترتدي هذه المرأة السواد، وشعرها مُضطَّرب، تحيطها بجو كهنوتي، ثم تأمرها أن تطيع زوجها، وأن تتزيَّن له، وأن تخدمه، الذي أمرتها به هو سببٌ علمي لمحبَّة زوجها لها، لكن هذه المرأة الغبيَّة تتوهَّم أن الساحرة استطاعت أن توفِّق بينها وبين زوجها، علماً أن الأوامر الجزئية التي أعطتها إيَّاها هي كافيةٌ كي تحبِّب المرأة بزوجها والعكس، فيجب أن نتحرَّر من هذه الأوهام أيها الأخوة، ليس القضاء على الشيطان إلا:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ(36))

(سورة فصلت)

وقال:

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ(201))

(سورة الأعراف)

وقال:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ(1)مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ(2))

(سورة الفلق)

وقال:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ(1)مَلِكِ النَّاسِ(2)إِلَهِ النَّاسِ(3)مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ(4))

(سورة الناس)

الذي يخنُس، يرتدُّ سريعاً، معك سلاح خطير، يكفي أن تستعيذ بالله بقلبٍ حاضر فينتهي عمل الشياطين جميعاً .

قدرة الشيطان على الحركة السريعة و التشكّل:

قال العلماء: الشيطان له قدرة على الحركة السريعة، وعلى التشكُّل، فقد يتشكّل بشكل إنسان، أو بشكل حيوان، أو جماد، أو نبات، على كلٍ حينما يتشكّل بهذه الصورة تحكمه قوانين الصورة . ورد في بعض الأحاديث أن النبي رأى شيطاناً فأراد أن يربطه بسارية المسجد ليطلع عليه الصحابة،

لكنه اختفى سريعاً . أي إذا تشكَّل الشيطان بشكل تحكمه قوانين هذا الشكل، قال العلماء: لو تشكَّل الشيطان إنساناً وأطلقت عليه النار لمات فوراً، تحكمه قوانين هذه الصورة، فلذلك بصورة سريعاً ما يظهر ويختفي، أما هو حقيقته:

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ)

(سورة الأعراف الآية: 27)

على كلٍ معك سلاح فتَّاك:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ(1)مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ(2))

(سورة الفلق)

الآن قلّما تجد من يشكو من الشياطين، لأن شياطين الجن تتعلّم من شياطين الإنس، الآية معكوسة الآن، لعلَّ شياطين الجن يستعيذون من شياطين الإنس .

كل علاقةٍ بين الإنس والجن هي علاقة إضلال وتزوير :

قال تعالى:

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ (102))

كان ذلك على عهد المَلِكِ سليمان النبي، قالوا في كتب بني إسرائيل: أن سليمان أنشأ ملكه على السحرة والشياطين، سليمان ارتدَّ عابد وثن، وسمح للوثنين أن ينشئوا معابدهم، كلامٌ ترويه كتب بني إسرائيل لا أساس له من الصحَّة خرافاتٌ وأضاليل وأكاذيب:

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ (102))

قالوا: أن سليمان مُلكه في خاتم، استطاع إنسان أن يأخذ هذا الخاتم ففقد ملكه، قصص لا يحسن بنا أن نعيدها وأن نذكرها لأنها لا وجود لها، أنبياء يرتدون إلى عُبَّاد صنم، أنبياء ينشؤون معابد للأوثان، أنبياء يزنون ببناتهم، هكذا في التلمود، إن ما جاء في التلمود وما جاء في كتب بني إسرائيل عن الأنبياء شيء لا يقبل إطلاقاً .

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ (102))

سليمان ما كفر:

(وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ (102))

الشياطين يعلّمون الناس السحر، يتعاونون مع الإنس لإبطال الحق وإظهار الباطل، يتعاونون مع الإنس لشيوع المعصية، فكل علاقةٍ بين الإنس والجن هي علاقة إضلال، كل علاقةٍ بين الإنس والجن هي علاقة تزوير، هي علاقة صرف الناس عن الله عزَّ وجل، وعن دين الله، وعن كتاب الله

كل شيء لم يرد في السنَّة ينبغي ألا نفعله لأنه لا نفع منه:

بالمناسبة: حقيقة دقيقة جداً، ما من شيءٍ يقرِّبنا إلى الله عزَّ وجل إلا أمرنا النبي به، وما من شيءٍ يبعدنا عن الله عزَّ وجل إلا نهانا النبي عنه، فإذا كان التعاون مع الجن نافعاً، وينفعنا، ويفيدنا، ويقرِّبنا لكان الأولى أن يأمرنا النبي به، والنبي عليه الصلاة والسلام في قول العلماء: لا يؤخِّر بيان الشيء عن وقته ". لأنه معصوم، نبيٌّ مرسل، فهل من الممكن أن يكون هناك نفع مع الجن بالتعاون معهم، والنبي عليه الصلاة والسلام لم يأمرنا بذلك ؟! هو أمين على وحي السماء، أمين على هذه الرسالة، إذاً كل شيء لم يرد في السنَّة ينبغي أن لا نفعله لأنه لا نفع منه:

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ (102))

أنا أقول لكم: السحر منتشر في بلاد المسلمين، وقد ذكر لي أخ ـ جزاه الله خيراً ـ أنه شاهد مناظرة في بعض بلاد الخليج، بين علماء مسلمين وبين سحرة، فظهر دجلهم، وكذبهم، وجهلهم بشكلٍ فاضح .

الساحر ليس على شيء أما المؤمن معه كتاب الله، معه منهج الله، معه سُنة رسول الله .

وأنا أحذِّر أيها الأخوة، بيوت فيها ساحرة، فيها امرأة آخَتِ الجنَّ، ترغِّب الناس في أشياء مقابل أجور باهظة، مقابل دجل . سمعت أنه إذا فتاة فاتها قطار الزواج تلجأ إلى بعض المُنَجِّمات، تأخذ منها مبلغاً ضخماً، عندها بعض الشباب، تأمر شاب أن يخطبها، فتتقوَّى عقيدة هذه المرأة بهذه الساحرة المدجِّلة، ثم لسببٍ يفتعله الشاب يبتعد عنها ويطلِّقها .

الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، هؤلاء الذين يتعاونون مع الجن لا يصلون، ولا يصومون، ومعظمهم يرتكب الزنا، فتجد إنسان يسمح لزوجته تذهب إلى منجِّمة أو منجِّم، أو إلى كاهن ليختليا، هناك فضائح وقصص يندى لها الجبين . ليس إلا هذا القرآن، وليس إلا هذه الآيات، وكل إنسان معه سلاح فتَّاك ضد الشيطان ؛ استعذ بالله .

للآية التالية تفسير وجيه ودقيق:

قال تعالى:

(وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ((102)

هذه الآية لها تفسيرٌ وجيه دقيق لا بد من أن أقرأه لكم دقيقاً .

أيها الأخوة، الذي ذهب إليه المحقّقون أن هاروت وماروت كانا رجلين متظاهرين بالصلاح والتقوى في بابل، وهي مدينة بالعراق على نهر الفرات، وكانا يعلّمان الناس السحر، وبلغ حُسن

اعتقاد الناس بهما أن ظنوا أنهما ملكان من السماء، حتى المُبطل له وجه إيجابي، والتمثيل سهل جداً، فهذان الرجلان كانا يبدوان للناس على أنهما رجلان صالحان، حتى أن الناس اعتقدوا أنهما ملكان من السماء، وما يعلّمانه للناس هو بوحيٍ من الله، هكذا يوهمون الناس، أن ما يعلّمانه للناس هو بوحي من الله، وبلغ مكر هذين الرجلين ومحافظتهما على اعتقاد الناس الحسن فيهما أنهما صارا يقولان لكل من أراد أن يتعلّم منهما السحر:

(إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ (102))

إيَّاك أن تكفُر، هذا فتنة، أي إنما نحن أولو فتنة نبلوك ونختبرك أتكفر أم تشكر، وننصح لك أن لا تكفر. فكل إنسان دجَّال يجب أن يظهر بمظهر المنطق والصلاح، وهذا فرعون نفسه قال :

(مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ(29))

(سورة غافر)

كل إنسان لا بد أن يكون الكلام الذي يقوله مقبولاً، يقولان هاروت وماروت ذلك ليوهما الناس أن علومهما إلهية، وصناعتهما روحانيَّة، وأنهما لا يقصدان إلا الخير، وقد سمعت آلاف المرَّات: يا أخي هذا إنسان آخى الجن المؤمنين، هدفه طيِّب، هدفه خير ؛ هدفه التوفيق بين الأزواج، هدفه اتساع الرزق، دائماً يغطي الساحر والرجل المتعامل مع الجن نفسه بقرآن، بحديث، بصلاح، بلفَّة خضراء مثلاً، بيته فيه مظاهر كهنوتيَّة، أوراد معيَّنة، تمتمات معيَّنة ـ قال: وأنهما يوهمان الناس أن علومهما إلهية وصناعتهما روحانية، وأنهما لا يقصدان إلا الخير كما يفعل ذلك الدجالون كل زمان ـ هذا شيء متكرِّر ـ والله هذه القصَّة التي وردت في القرآن الكريم قبل ألف وخمسمئة عام تتكرَّر كل يوم، إنسان اتخذ مهنة الدجل، ومهنة ابتزاز أموال الآخرين، ويستغل عقول البُسطاء والجهلة، ويوهمهم أوهاماً كثيرة، وأن معه جن، والجن يفك السحر .

هاروت وماروت يوهمان الناس أن السحر نزل عليهما من الله فجاء القرآن مكذّباً لهما:

امرأة قُتِل زوجها فجاء من يقول لها: ادفعي مئة ألف ونجمعكِ مع زوجكِ ليقول لكِ من قتله . يستغلون حاجة الناس أحياناً، إذاً كما يفعل ذلك دجاجلة كل زمان قائلين لمن يعلمهم الكتابة للمحبَّة والبغض على زعمهم: نوصيك أن لا تكتب لجلب امرأةٍ متزوجة إلى رجل غير زوجها، نحن نستطيع أن نجعل كل امرأة تميل إلى أي رجل ولكن ننصحك لا تكفر، لا تجعل امرأةً متزوِّجة تميل إلى غير زوجها، إلى غير ذلك من الأوهام والافتراءات ولليهود في ذلك خرافاتٌ كثيرة، حتى أنهم يعتقدون أن السحر نزل عليهما من الله، هاروت وماروت يوهمان الناس أن السحر نزل عليهما من الله وأنهما ملكان جاءا لتعليمه للناس، فجاء القرآن مكذِّباً لهم في دعواهم نزوله من السماء، وفي ذم السحر ومن يتعلّمه أو يُعلّمه، فكل الآية مفتاحها حرفين:

(وَمَا أُنْزِلَ (102))

نافية:

(وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ (102))

اللذان يدَّعيان أنهما ملكان .

لا يستطيع أحد على وجه الأرض أن ينالك بسوء إلا أن يأذن الله وهذا اطمئنان إلهي:

قال تعالى:

(وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ (102))

وكانا يقولان للناس:

(وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ (102))

تعقيبٌ إلهي:

(وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (102))

هذا الاطمئنان الإلهي، لا يستطيع كائنٌ من كان على وجه الأرض أن ينالك بسوء إلا أن يأذن الله عزَّ وجل، فكلمة

(ما)

هنا نافية، طبعاً هذا تفسير محترم جداً:

(وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ (102))

على أصح الأقوال، ولفظ الملكين واردٌ حسب العُرف الجاري . الآن مثلاً قد يأتي أستاذ للأدب في الجامعة يقول: آلهة اليونان، فهل هناك آلهة في اليونان ؟ هذا اسمه تعبير العُرف، أحياناً ينتحل إنسان صفة فيحاكم، يأتي في التقرير الصفة التي انتحلها، ادَّعى أنه طبيب، فهل هو طبيب ؟!!

كل نشاطات شياطين الجن التفريق بين الزوجين وكل أعمال الخير التوفيق بين الزوجين :

كلمة :

(وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ (102))

هذا في رأي المفسِّر أنه جرى على مجرى استخدام التسمية العرفيَّة . ولفظ (الْمَلَكَيْنِ) واردٌ بحسب العرف الجاري بين الناس في ذلك الوقت، كما يردُ ذكر آلهة الخير والشر في كتابات المؤلِّفين عن تاريخ اليونان والمصريين وغيرهم، وكما يرد في كلام المسلم في الرَّد على الفرق الضالَّة:

(فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ (102))

من قبيل التمثيل وإظهار الأمر في أقبح صورة، أي بلغ من أمر ما يتعلَّمون من ضروب الحيل وطرق الإفساد أن يتمكَّنوا به من التفريق بين أعظم مجتمعٌ في الأرض مجتمع الزوجين .
بالمناسبة: كل نشاطات شياطين الجن التفريق بين الزوجين، وكل أعمال الخير التوفيق بين الزوجين . وأنا أقول دائماً في عقود القران: إذا بني الزواج على طاعة الله تولّى الله في عليائه التوفيق بين الزوجين، وإذا بني على معصية الله تولّى الشيطان التفريق بينهما.

ما ورد في كتب بني إسرائيل عن هاروت وماروت نفاها الله عز وجل في القرآن من أصلها:

أما ما ورد في كتب بني إسرائيل عن هاروت وماروت، هناك أحاديث عجيبة، زعموا أنهما كانا ملكين من الملائكة، الآن القصَّة الكاذبة، القصَّة المزوَّرة، ما ورد في كتب بني إسرائيل، ما أشاع بنو إسرائيل، الأولى هي الصحيحة، فهذه القصَّة نفاها الله عزَّ وجل من أصلها:

(وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ (102))

هذان الرجلان هاروت وماروت اللذان زعما أنهما ملكين يعلمون الناس السحر بوحيٍ من السماء، ويفرِّقون بين المرء وزوجه، ويقولون للناس: لا تكفروا إنما نحن فتنة، هذه القصَّة بقضِّها وقضيضها لا أصل لها، أما كيف وردت في كتب بني إسرائيل، قال:
زعم اليهود أن هاروت وماروت كانا ملكين من الملائكة، وأنهما لمَّا نظرا إلى ما يصنع أهل الأرض من المعاصي أنكرا ذلك، وأكبراه ودعوا على أهل الأرض، فأوحى الله إليهما: إني لو ابتليتكما كما ابتليت به بني آدم من الشهوات لعصيتموني ـ معنى هذا أنه عندما ابتلى الله تعالى الإنسان بالشهوات الإنسان معه حق أن يعصيه . انظر إلى هذا الكلام المخيف !! ـ فقالا: يا رب لو ابتليتنا لم نفعل، هل يمكن لمخلوق أن يردَّ على الخالق بعكس ما يريد ؟ الإله يقول: لو ابتليتكما كما ابتليت بني آدم لعصيتماني . فيردان على الله: لا يا رب لا نعصيك، فأهبطهما إلى الأرض، وابتلاهم الله بشهوات بني آدم فمكثا في بلدةٍ كانت فيها فاجرة تسمَّى الزُهرة ـ امرأة فاجرة ـ فدعواها إلى الفاحشة وواقعاها بعد أن شربا الخمر، وقتلا النفس، وسجدا للصنم ـ هكذا وردت القصَّة في كتب بني إسرائيل ـ وعلَّماها اسم الله الأعظم ـ لهذه الفاجرة، الزانية، المومس ـ الذي كانا به يعرُجان إلى السماء، فتكلَّمت المرأة بهذا الاسم وعرجت إلى السماء، فمسخها الله تعالى وصيرها نجم الزُهرة . هذه القصَّة التي نفاها الله عزَّ وجل:

(وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ (102))

(ما)

نافية . ثم إن الله تعالى عرَّف هاروت وماروت ـ سنتابع القصة حسب ما وردت في رواية بني إسرائيل ـ قبيح ما فيه وقعا، ثم خيَّرهما بين عذاب الآخرة آجلاً، وبين عذاب الدنيا عاجلاً، فاختارا عذاب الدنيا، فجعلهما في بابل منكوسين في بئرٍ إلى يوم القيامة، وهما يعلّمان الناس السحر وهما

في البئر، ويدعوان إليه، ولا يراهما أحدٌ إلا من ذهب إلى ذلك الموضع لتعلُّم السحر خاصَّةً . وهذه القصَّة من اختلاق اليهود وتقوُّلاتهم، ولم يقل بها القرآن قط وإنما ذكرها التلمود، في الإصحاح الثالث والثلاثين، وجاراه جهلة القُصَّاص من المسلمين فأخذوها عنهم، وقد وردت هذه القصَّة الباطلة في بعض كتب التفسير، في بعض الكتب طبعاً .

بنود تفنيد قصة هاروت وماروت عند الإمام الرازي:

الإمام الرازي رحمه الله تعالى فنَّد هذه القصَّة الباطلة، التي لا تستقيم من وجوهٍ كثيرة فقال: ذكروا في القصَّة أن الله جلَّ جلاله قال لهما ـ لهاروت وماروت ـ: لو ابتليتكما بما ابتليت به بنو آدم لعصيتماني . فقالا: لو فعلت ذلك بنا يا رب لما عصيناك، وهذا منهم تكذيبٌ لله تعالى وتجهيلٌ له، وهذا من صريح الكفر، هذا أول بند .

ثانياً: أنهما خُيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وذلك فاسد، بل كان الأولى أن يُخيَّرا بين التوبة وبين العذاب .

ثالثاً: إنهما يعلّمان الناس السحر في حال كونهما معذَّبين في بئر في بابل، ويدعوان إليه، وهما يعاقبان، هذا شيء غير مقبول عقلياً .

رابعاً: أن السحر لو كان نازلٌ عليهما لكان مُنَزِّله هو الله، وهذا غير جائز في حق الله عزَّ وجل لأن السحر كفر وعبث ولا يليق بالله تعالى إنزال ذلك:

(وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ (102))

يدلُّ على أن تعليم السحر كفر، فهل يعقل أن الله يعلمهما السحر كي يعلّمانه للناس ؟ فلو ثبت في الملائكة أنهم يعلمون السحر لزمهم الكفر وهذا باطل، ثم إنه لا يجوز في الأنبياء أن يُبعثوا لتعليم السحر، فكذلك في الملائكة من باب أولى . مستحيل لملك أن يعلّم السحر، من سحر فقد كفر، ثم إن السحر لا يضاف إلا إلى الكفرة والفسقة والشياطين المردة فكيف يضاف إلى الله تعالى وينهى عنه، ويتوعَّد عليه بالعقاب ؟ وهل السحر إلا الباطل المموَّه، وقد جرت عادة الله إبطاله كما قال في قصة موسى عليه السلام:

(مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ)

(سورة يونس الآية: 81)

إذاً عندنا قصَّة مكتوبة في التلمود باطلة لا أصل لها، افتراء من اليهود على الله عزَّ وجل، فجاء القرآن الكريم ونفى هذه القصَّة من أصلها، نفاها بحرفٍ واحد فقال :

(وَمَا أُنْزِلَ (102))

على ما توهَّمهم الناس أنهما ملكين، نفى الله عزَّ وجل هذه القصَّة من أصلها .

أمثلة عن بعض ما يتلوه القصَّاصون من حكاياتٍ باطلة ودَجَل وكرامات وقصص سخيفة:

نعيد الآيات :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) ﴾

نبذوا كتاب الله واتبعوا هذه الخرافات:

﴿ مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا (102) ﴾

كم مسلم الآن ينبذ كلام الله وسُنَّة رسوله ويتَّبع ما يتلوه القصَّاصون من حكاياتٍ باطلة، وخرافاتٍ سخيفة، ودَجَل، وكرامات، ومنامات، شيء غير معقول . واحد تفقَّد أخاه وكان في مجلس عند شيخ، وجد ماء مسفوحاً على الأرض فقال له: هذا أخوك صار كالماء من شدة حبه لنا، ذاب . فهذه كلمات غير مقبولة، غير معقولة .

واحد دُفِن فلمَّا جاء الملكان رُفِسا رفسة أطاحت بهما خارج القبر، لأن شيخه عندما جاء الملكان قال لهما: أمثل هذا يُسأل ؟ هذا من إخواننا .

تجده يترك كلام الله وكلام النبي المعصوم، وكل حياته قصص، وخرافات، وأوهام، ومنامات، وكرامات، هذا وقع فيه مسلمون كثيرون .

ملخص سريع لما ورد في الدرس :

قال تعالى:

﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ (102) ﴾

الشياطين هم الذين كفروا، هم الذين يعلّمون الناس السحر:

﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (102) ﴾

هذا تعقيبٌ إلهي، أي اطمئنوا لا يستطيع السحرة أن يفعلوا شيئاً، لا يستطيع مخلوقٌ كائناً من كان أن يَمَسَّك بأذىً إلا بإذن الله:

﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ (102) ﴾

من سحر فقد كفر:

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا(6)﴾

(سورة الجن)

وقال:

(وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (39- 95):تفسير الآيتان 103 - 104، السعي للدار الآخرة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-05-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

اتباع بني إسرائيل سبيل السحر أودى بهم إلى الكفر:

مع الآية الثالثة بعد المئة، وهي الآية بعد قوله عزَّ وجل:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101))

نبذوا كتاب الله، نبذوا منهج الله، نبذوا وحي السماء، نبذوا الصراط المستقيم، نبذوا حبل الله المتين

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103))

استنبط العلماء أنهم حينما اتبعوا ما تتلو الشيطان على ملك سليمان اعتقاداً، وحينما سلكوا سبيل السحر سلوكاً فقد كفروا .

من علم عن طريق السحر أن الجن لهم إرادةٌ مستقلة عن إرادة الله فقد كفر:

قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا (103))

إذاً هم كفروا، النبيُّ عليه الصلاة والسلام وهو أول مخلوقٍ فهم كلام الله عزَّ وجل أعلى فهم قال:

((من سحر فقد كفر))

[مجمع الزوائد عن عمران بن حصين]

قال تعالى:

(وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ (102))

من اعتقد أنه يمكن أن ينتفع عن طريق السحر فقد كفر، من علم عن طريق السحر أن الجن لهم إرادةٌ مستقلةٌ عن إرادة الله فقد كفر، ولو أن الإنسان آمن بهذا فقد كفر:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا (103))

ما من كلمةٍ تفعل فعلها في نفس المؤمن كهذه الكلمة، خالق الكون يقول لك: لو أنك فعلت كذا وكذا لكان خيراً لك . هذه نصيحة من ؟ نصيحة خالق السماوات والأرض، نصيحة العليم، نصيحة الخبير، نصيحة الفعَّال، نصيحة من إليه الأمر كله، نصيحة من إليه يرجع الأمر كله، نصيحة من إليه مصيرنا .

الكفر بمعناه الضيق:

قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا (103))

أيها الأخوة الكرام، أي مؤمن آمن بالله حق الإيمان وانصاع إلى أمره وقرأ هذه الآية يقشعر جلده، خالق الكون ينصح هذا المخلوق الضعيف، الذي هو لا شيء أمام الله عزَّ وجل، هذا الخالق العظيم ينصح هذا المخلوق الصغير:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا (103))

هم بهذا قد كفروا، كفروا حينما اتبعوا ما تتلو الشيطان على ملك سليمان، لعل كلمة الكفر هنا أخذت معنى واسعاً جداً، فأنت حينما لا تعبأ بكلام الله، لو سُئِلت وقلت: هذا كلام الله على العين والرأس، هذا القرآن الكريم . أما حينما لا تطبق أحكامه، ولا تأخذ بأوامره ونواهيه، ولا تقيم له وزناً في حياتك اليومية، في العلاقات اليومية ؛ في البيع والشراء، في الزواج، في كل شؤون الحياة، حينما لا تعبأ بكلام الله عزَّ وجل فهذا نوع من الكفر به، هذا الكفر الذي سمَّاه النبي **" كفرٌ دون كفرٍ ".**

الكفر بمعناه الضيِّق أن تنكر وجود الله عزَّ وجل، أو أن تنكر أسماءه الحسنى، أو أن تنكر فرائضه التي افترضها الله على البشر، ولكنك حينما لا تعبأ بمنهج الله، ولا تقيم له وزناً في حياتك اليومية، ولا تأخذ به في شؤونك إنما تقرأ القرآن كما يقول عامة الناس: للتبرك . يقرؤون قرآن وفي بيوتهم المُنكرات، وفي تجارتهم المخالفات، فأنت حينما لا تعبأ بكلام الله عزَّ وجل، ولا تُحَكِّمُهُ في حياتك، ولا تأخذ به في كل شؤون حياتك اليومية فهذا نوعٌ من الكفر، طبعاً هذا كفر صريح، بواح .

((من سحر فقد كفر))

[مجمع الزوائد عن عمران بن حصين]

((من أتى كاهناً فصدقه بما قال فقد كفر))

[مجمع الزوائد عن عمران بن حصين]

و من أتى ساحراً فلم يصدقه لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، ولا دعاء أربعين ليلة، نطبق هذا الحكم على كل ما من شأنه أن يخبرك بالمستقبل، المنجمون والمنجِّمات، وقارؤوا الفنجان، وحظك هذا الأسبوع، والأبراج، والفلكي الذي يتنبأ، هذا كله ما أنزل الله به من سلطان، لأنه لا يعلم الغيب إلا الله، سيِّد الخلق وحبيب الحق لا يعلم الغيب .

الولي هو من آمن بالله إيماناً يحمله على طاعته:

قال تعالى:

(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ)

(سورة الأعراف الآية: 188)

أيها الأخوة الكرام، هذه آياتٌ حاسمات، والله الذي لا إله إلا هو أعداد كثيرة من المسلمين يعتقدون بالمنجمين، وبالسحر، وبالجن، يقول لك: " هذا شيخ مؤاخ للجن، ويخرج لك السحر "، وكله دجل في دجلٍ، وكذب بكذب، وخرافة بخرافةٍ، وابتزاز مالٌ بابتزاز مالٍ، أبداً، ليس عندنا إلا هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وسُنَّة النبي عليه الصلاة والسلام التي هي بيانٌ لما في القرآن .

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا (103))

وقال:

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(62)الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(63))

(سورة يونس)

لمجرد أن تؤمن بالله إيماناً يحملك على طاعته فأنت من أولياء الله، وينطبق عليك تعريف الولي:

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(62)الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(63))

(سورة يونس)

الإيمان الإبليسي:

قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ (103))

دقق الآن، لا قيمة للإيمان بالله إن لم يثمر العمل الصالح والاستقامة على أمر الله وقد نسمِّيه إيماناً إبليسياً، لأن إبليس قال:

(رَبِّ)

(سورة الحجر الآية: 36)

آمن به رباً:

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص الآية: 82)

آمن به عزّيزاً:

(خَلَقْتَنِي)

(سورة ص الآية: 76)

آمن به خالقاً:

(فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الحجر الآية: 36)

آمن بالآخرة ولكنه رفض أن ينفّذ أمر الله عزَّ وجل، فالإيمان النظري لا قيمة له ولكن الإيمان هو الذي يحملك على طاعة الله ويقودك إلى العمل الصالح . الإيمان منه نظري ومنه عملي، منطلقات نظرية، تطبيقات عملية، فكر، تطبيق، اعتقاد، عبادة، شيء عَقَدِي، وشيء سلوكي .

تعريف الثواب:

قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا (103))

إيمانهم وتقواهم يصعد إلى الله عزَّ وجل:

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ (10))

(سورة فاطر)

حينما يصعد عملٌ طيبٌ خالصٌ إلى الله عزَّ وجل يعود عليك منه، هذه المثوبة، ثاب أي رجع، العمل الصالح المبني على إيمان صحيح، الخالص لله عزَّ وجل له عند الله ثواب، ثواب حدِّث ولا حرج، يلقي الله على قلبك السكينة، وهي أثمن شيءٍ يملكه الإنسان على الإطلاق .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه) .

إذا ألقى الله في قلبك السكينة، وألقى في قلبك الطمأنينة، وألقى في قلبك السعادة، وألقى في قلبك اليقين، وتعلّقت بما عنده، وزهدت بما فيما أيدي الناس، ورجوت رحمته، وخفت من عذابه هذا هو الثواب .

الثواب عمل صالح، صالحٌ في إجراءاته، صالحٌ في نيَّته، أساسه إيمانٌ صحيح هذا يصعد إلى الله عزَّ وجل ويعود سكينة، وطمأنينةً، وسعادةً، ورضىً، وتوفيقاً، ونجاحاً، وفلاحاً، وسعادةً في الدنيا والآخرة، هذا الثواب . ثواب: مِن ثاب، أي رجع، رفع إلى الله عملٌ طيبٌ وفق منهج الله عزَّ وجل، طيبٌ أي خالص لوجه الله، أساسه إيمانٌ صحيح، امتلأ قلبك غنى وطمأنينةً وأمناً وسعادةً .

تعريف الإخلاص وعلاماته:

إخواننا الكرام، لعل أحدكم يسأل: هل هناك من علامة واضحةٍ، من ضابطٍ واضح للمخلص ؟

الإخلاص هو عبادة القلب، العبادات الشعائرية والتعاملية والآداب الإسلامية محلها الجوارح، أما القلب عبادته الإخلاص لله عزَّ وجل، من علامة الإخلاص أنك إذا عملت عملاً صالحاً شعرت بهذه السكينة، وتلك الطمأنينة، وهذه السعادة، وذاك الرضا، وهذا الأمن، أي وصلك ثواب هذا العمل، هذا العمل صعد إلى السماء، عرجتْ به الملائكة إلى السماء فعاد إليك منه هذه السعادة التي قال عنها بعض العارفين بالله: **" والله لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف ".**

هذه علامة الإخلاص، أنت مرتاح، أنت مرتاحٌ جداً وقد تكون في أخشن حياة، مرتاحٌ وأنت في بيت صغير، مرتاحٌ ولك دخلٌ محدود، مرتاحٌ ولا شأن لك بين الناس، مغمور، في التعتيم، مرتاح ولك زوجةٌ من الدرجة الخامسة، مرتاح، مرتاحٌ ومن حولك يزعجونك ولكنك مرتاح، أي جاءك ثواب عملك الصالح، عرجت الملائكة بعملك الصالح في شكله وفي نواياه والمبني على إيمانٍ صحيح، هذا العمل عرجت به الملائكة إلى السماء فعاد لك منه هذه السكينة، هذا معنى الثواب .

يقال: لك ثواب . فما معنى الثواب ؟ لك ثواب أي يعود عليك نتائج هذا العمل، ثوابٌ أو عقاب، فهذه أحد علامات الإخلاص أنك عقب عملٍ صالحٍ خالصٍ لله عزَّ وجل تشعر بسعادة، وكأنك لست مع الناس، قد يأتي على الناس كابوس، هموم، همومٌ كالجبال، مَلل، سأم، ضَجَر، ضيق، شيء لا يحتمل، أما أنت فإنك متميز وكأنك في جنة، وقد قالوا: في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة . ويؤكد هذا:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

(سورة محمد)

ذاقوا طعمها في الدنيا . قال أحد العلماء: **" ماذا يفعل أعدائي بي ؟ بستاني في صدري، إن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يفعل أعدائي بي ؟ " .**

إن عرفت الله تعلم وإن لم تعرفه فأنت لا تعلم:

أيها الأخ الكريم، إن لم تقل ـ ولا أبالغ ـ: أنا أسعد الناس بهذه المعرفة، وأسعد الناس بهذا الاتصال، فهناك مشكلة في إيمانك وفي عملك .

أحد الأخوة الكرام حج بيت الله الحرام، فلما ذهبنا لتهنئته بالعودة قال كلمةً لا أنساها ـ والقصة منذ عشرين سنة ـ قال: يا أستاذ ليس في الأرض من هو أسعد مني، إلا أن يكون أتقى مني .

أن تقول: أنا أسعد الناس إلا أن يكون أحدهم أتقى مني هذا هو الدين، الدين اتصال بالله، الدين أن تشعر أنك متصل مع خالق الكون، مع المُطْلق ؛ في علمه، في قدرته، في جماله، في رعايته، أنت مع المطلق، والخلق كلهم مع المحدود، الإنسان محدود ماذا يفعل بك ؟ أما الله عزَّ وجل فهو على كل شيء قدير، الأورام الخبيثة تتراجع أحياناً بلا سبب، الأمراض المستعصية التي ليس لها في الطب علاج تتراجع أحياناً عند بعض المؤمنين حينما يصدقون في دعائهم، أنت مع المطلق، مع القدرة المطلقة، مع العلم المطلق، مع الرحمة المطلقة، مع اللُّطف المطلق، مع العطف المطلق، أنت مع المطلق، دققوا في هذه الآية :

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آَمَنُوا وَاتَّقَوْا (103))

إله يقول لك: يا عبدي لو فعلت كذا لكان خيراً لك .

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103))

إذاً هم لا يعلمون، وفي آيات أخرى أثبت الله لهم العلم، قال :

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (7))

(سورة الروم الآية: 7)

بجمع الآيات نستنتج أنك إن عرفت الله تعلم، فإن لم تعرفه أنت لا تعلم .

العلم والجهل هما العاملان الحاسمان في السعادة والشقاء:

يمكن أن نفرِّق بين العقل والذكاء . قد تنال أعلى شهادة في الأرض، وقد تكون ألمع عالمٍ في الأرض، قد تكون عالم رياضيات، عالم فيزياء، عالم كيمياء، قد تكون مثل أينشتاين الذي عرف النسبية، أنت ذكيٌّ فقط، لا يسمى الإنسان عاقلاً إلا إذا عرف الله، العقل شمولي، الذكاء جزئي، قد تتفوق في اختصاصٍ محدود، ولكنك إن عصيت الله فأنت لا تعرفه، لذلك مرَّ النبي عليه الصلاة والسلام بمجنون فسألهم سؤال العارف: من هذا ؟ قالوا: هذا مجنون، قال: لا هذا مبتلى، المجنون من عصى الله .

هذا هو المجنون، فبأية حال كنت، في أي بيتٍ تسكن، بأي دخلٍ يأتيك، بأية أسرةٍ تعيش إذا كنت مع الله فأنت أسعد الناس، وإن لم تكن مع الله لو سكنت أفخر بيتٍ في الأرض، ولو ملكت مال قارون، ولو عشت عمر نوح، ولو أوتيت كل شيء فهذا الإنسان شقي لأنه ابتعد عن مصدر السعادة ألا وهو الله عزَّ وجل:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103))

إذاً هم لا يعلمون . العلم والجهل هما العاملان الحاسمان في السعادة والشقاء، والدليل ماذا يقول أهل النار وهم في النار ؟

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(سورة الملك)

لأن فطرة البشر واحدة، كل واحدٍ منكم وأنا معكم يحب وجوده، ويحب سلامة وجوده، ويحب كمال وجوده، ويحب استمرار وجوده، هذه القاعدة تنطبق على خمسة مليارات إنسان في الأرض . ما من إنسان على وجه الأرض إلا وهو يحب سلامته وسعادته، لماذا يشقى الناس ؟ أخطؤوا طريق سعادتهم، أخطؤوا الطريق، أخطؤوا الهدف . أنت آلة معقدة جداً، أنت أعقد آلة في الكون، والتعقيد تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز، ولهذه الآلة صانع حكيم، ولهذا الصانع تعليمات، فانطلاقاً من حرصك على سلامة هذه الآلة، وعلى حسن مردودها، وعلى الانتفاع بها تتبع تعليمات الصانع .

إذا كنت مع الله كان الله معك:

قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103))

هذا التاريخ أمامكم، هؤلاء الذين وقفوا مع النبي، ناصروه، وأيَّدوه، وعززوه، ووقروه هم في أعلى عليين . تلهج الألسن من ألفٍ وخمسمئة عام بالثناء عليهم، وهؤلاء الذين ناصبوا الحق العداء، ووقفوا في خندقٍ آخر أين هم ؟ هم في مزابل التاريخ، التاريخ المعاصر، التاريخ قبل المعاصر، والتاريخ القديم هناك حقائق ثابتة، إذا كنت مع الله كان الله معك، إذا اتبعت منهج الله سعدت في الدنيا والآخرة، إن خالفت كلام الله عزَّ وجل شقيت في الدنيا والآخرة .

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ (103))

(خَيْرٌ)

اسم تفضيل، الخير كل الخير، الذكاء كل الذكاء، الفلاح كل الفلاح، النجاح كل النجاح، التفوق كل التفوق، العقل كل العقل في طاعة الله، مستحيل وألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، مستحيل وألف مستحيل أن تعصيه وتربح، ولكنك لا ترى الربح والخسارة بعد ساعة، لا، فبعد ساعة انتهى الاختيار، تراها بعد حين، حينما يعلم الله صدقك، وثباتك، وإخلاصك يفتح لك التوفيق، ويعطيك ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا (104))

الآية تحتاج إلى دقة فهم فهي دقيقة جداً،

(راعنا)

أي ارعنا ولنرعك، من العناية، الراعي هو الذي يعتني بغنمه، يحوطهم برعايته، يهتمُّ بطعامهم وشرابهم، وصحتهم، ونومهم، ودفئهم، وسلامتهم، وسعادتهم .

الكلمة التي تحتمل معنيين الأول جيد والثاني غير جيد الأولَى أن نبتعد عنها:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا (104))

كان المؤمنون يخاطبون النبي عليه الصلاة والسلام ويقولون: يا رسول الله راعنا أي ارعنا نحن أتباعك، انصحنا، دُلّنا على الخير . كان الصحابة الكرام في أعلى درجات الأدب حينما قالوا للنبي عليه الصلاة والسلام: راعنا . أي ارعنا، أي أحطنا برعايتك، دلّنا على الخير يا رسول الله .

لكن لكلمة (راعنا) في لغة اليهود معنىً قبيح، لغة سباب، أي اسمع لا أسمعك الله، بلغة اليهودي، فاليهود كانوا يسبون النبي بقلوبهم، فلما سمعوا أصحاب رسول الله يقولون: راعنا . قالوا: جاءتنا فرصة كي نسبه علانية فكانوا يقولون: يا رسول الله راعنا، علم سيدنا سعد ذلك فقال: **" والله ما سمعت واحداً يقول للنبي راعنا إلا ضربت عنقه "**، اختلف الوضع .

(وَقُولُوا انْظُرْنَا (104))

استنبط العلماء أنه إذا احتملت كلمة معنيين، المعنى الأول جيد والثاني غير جيد الأولى أن تبتعد عنها، مر سيدنا عمر بقومٍ فقال: " السلام عليكم يا أهل الضوء "، وكره أن يقول: **" السلام عليكم يا أصحاب النار "** ، لأن كلمة أصحاب النار تعني أنهم من أهل جهنم، فكل كلمةٍ تحتمل معنيين، الأول جيد، والثاني سيئ، فالأولى أن نبتعد عنها، جاء النهي لأن اليهود استغلوا كلمة راعنا وهي لفظٌ لا يليق بالنبي عليه الصلاة والسلام، كانوا يسبونه في قلوبهم، فلما قال أصحاب النبي: يا رسول الله راعنا، أي ارعنا، خذ بيدنا إلى الله، دلنا على الله، أكرمنا بصحبتك . هذا هو المعنى، لذلك استغل اليهود هذا، فجاء النهي، نهي المؤمنين على أن يقولوا هذا الكلام .

طلب موجبات الرحمة أولَى من طلب الإعفاء من الحساب:

قال تعالى:

(وَقُولُوا انْظُرْنَا (104))

هذا معنى يستنبط منه أن كل كلمةٍ تحتمل معنيين، وأنت تريد المعنى السليم ابتعد عنها، هذا سمَّاه العلماء سد الذرائع، فقد تفعل شيئاً لا غبار عليه، ولكنه قد يقود إلى ما هو محرم، فقد تزرع العنب في مكان لا يباع إلا للخمَّارات، فبذلك تكون زراعة العنب محرمة سداً للذريعة، قد تسب إنساناً فيسب الله، سُباب هذا الإنسان محرَّم، من هو الذي يسب أباه؟ يسب أبا الرجل فيسب أباه، فالتحريم تحريم سد ذريعة، هذا حكم شرعي، أنه إذا احتملت كلمة معنيان، فالأولى أن تبتعد عن استخدامها، وأن تستخدم كلمة تحتمل معنى واحداً، وهذا من بلاغة الإنسان وفصاحته .

هناك معنى آخر ـ سأحاول أن أوضحه لكم ـ لو أن شاباً له أب أستاذ رياضيَّات وهو أستاذه في الصف، هو في الصف الحادي عشر ووالده أستاذه، وعنده مذاكرة في اليوم الثاني، هذا الابن أمامه خياران ؛ إما أن يسأل أباه أن يوضح له بعض المسائل، وإما أن يقول له: أعطني أسئلة الامتحان . أيهما أولى ؟ أن يسأله، لا تقل: راعني قل: انظرن . هذا معنى آخر، أي أنَّك إن أردت رحمة الله قدم موجباتها، لأن النبي عليه الصلاة والسلام لعلو أدبه مع الله عزَّ وجل كان يقول:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ))

[الترمذي عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه]

قال لأحد أصحابه الكرام:

((أَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ))

[مسلم عن ربيعة بن كعب رضي الله عنه]

اطلب موجبات رحمة الله، لا تطلب أن يعفيك الله من الحساب، اطلب موجبات الرحمة لا تطلب الأمور من طريق غير صحيح، هذا معنى آخر، على كلٍ القرآن حمَّال أوجه

فالمعنى الأول: لا تتكلم كلمة تحتمل معنيين، أسلوب غش الكلام محرم . تسعة أعشار الناس مزاحهم فيما بينهم كلمة مغشوشة، ظاهرها ليس فيه شيء، ولكنه يقصد معنى آخر قذراً، ويبتسم ويغمز، ويلمز، هذا محرَّم . فاختر كلمةً واضحةً نقيةً جليَّة، وهذا من الفصاحة، فالكلام الذي يحتمل معنيين فيه متاهات كثيرة جداً .

والمعنى الثاني: أنك بدلاً من أن تطلب العفو دون الموجبات، اطلب من الله ورسوله أن ينظرا إليك نظرة شكرٍ لاستقامتك، هذا أولى من أن تطالب بالعفو، وأوضح مثل الطالب . لئن سأل والده أن يوضِّح له المنهج أولى ألف مرة من أن يسأله أن يعطيه سؤال الامتحان، هذا سلوك لا يليق .

لكلمة (راعنا) في الآية التالية ثلاثة معانٍ:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا (104))

معنى

(رَاعِنَا)

صيغة مشاركة، وهناك معنى ثانٍ قال عنه العلماء أنه: سوء أدب، أي ارعني وأرعاك انصحني وأنصحك . هذا بين الناس لا بين الناس ورسول الله، النبيُّ يؤخذ منه فقط ولا يُملى عليه شيء .

المعنى الآخر إذاً: راعنا فيها مشاركة، أي:

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ(9))

(سورة القلم)

بالتعبير العامي: **" حك لي لأحك لك، أي حلها برمة لنحلها نحن برمة "** .

هذا لا يليق بخطاب النبي عليه الصلاة والسلام، النبي مشرع، والنبي معصوم يؤخذ منه فقط، تُتَّبع سنَّته فقط:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ (1))

(سورة الحجرات)

هذا هو المعنى، إذاً صار عندنا ثلاثة معانٍ، فإذا كنا قد فهمنا راعنا، ارعنا ولنرعك، دلنا ولندُلَّك، أعطنا ولنعطك، إذاً المعنى جعلتم دعاء النبي كدعاء بعضكم بعضاً، اعتقدت أنه يخطئ ويصيب، عملت مساومة، هذا المعنى ذكره القرطبي .

المعنى الثاني ارعنا على سبيل التعظيم، وسبيل طلب المغفرة، قد يكون الصحابي في أعلى درجة من الأدب، ولكن هذه الكلمة لها لغة أخرى يستغلها اليهود ليقلدوا الصحابة بها، وهم يقصدون سَبَّ النبي عليه الصلاة والسلام فجاء النهي عنها .

إذاً أول معنى: خطاب الناس شيء وخطاب رسول الله شيءٌ آخر، المعنى الثاني: ابتعد عن كل كلمة تحتمل معنيين، إذاً كل المزاح المغشوش هذا محرَّم، عوِّد نفسك أن تقول كلمة الحق واضحة جليةً نقية، أما مجتمعات التسيب والتقصير والمعصية، هناك آلاف الألغام في حديثهم، المعنى الثالث: اطلب موجبات رحمة الله عزَّ وجل ولا تطلب أن يستثنيك من الحساب .

مقياس الناس شيء ومقياس القرآن شيءٌ آخر:

قال تعالى:

(وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105))

أي أن إرادة الله عزَّ وجل طليقة لا يمكن أن تخضع هذه المشيئة العليَّة لمخلوق، هم لا يّقسِمون رحمة الله عزَّ وجل:

(اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)

(سورة الأنعام الآية: 124)

هو يعلم وحده من هو الأهل ؟ مقياس الناس شيء، ومقياس القرآن شيءٌ آخر:

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآَنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(31))

(سورة الزخرف)

العظمة عند الناس، هي عظمة المال وعظمة الشأن والقوة، أما الرفيع عند الله عزَّ وجل هو المخلص، المنيب، المحب، التائب، المقبل .

كلمة (مثوبة) لها معنيان:

أيها الأخوة، قبل أن أتابع هذه الآية هناك معنى في الآية السابقة لا بد من أن نقف عندها وقفة، كلمة

(مثوبة)

معنى آخر ؛ من الثَوْب:

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً (26))

(سورة الأعراف)

هذه الثياب تواري سوءات الإنسان، قال :

(وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ (26))

(سورة الأعراف)

إذاً كلمة الثياب لها معنى آخر، المعنى الأول: ثيابٌ مادية من قطنٍ وحرير أو من قطنٍ وصوف يرتديها الإنسان فيستر بها عورته، بينما ثوب التقوى يستر به جسمه من النار:

(وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ (26))

(سورة الأعراف)

أي أن أجمل ثوب أن تكون مطيعاً لله، أجمل ثوب ترتديه أن تكون صادقاً، أجمل ثوبٍ ترتديه أن تكون أميناً، أجمل ثوب ترتديه أن تكون عفيفاً . قد يرتدي الإنسان أجمل الثياب، ثياباً جميلة جداً وهو منحرف الأخلاق بذيء اللسان، قلت مرة لأخواننا: كان أحدهم يرتدي ثياباً أنيقة جداً وكلامه بذيء جداً . فقال له أحدهم: **" إما أن تتكلم مثل لبسك أو أن تلبس مثل كلامك "**، هناك تناقض .

ثوب التقوى ثوبٌ عظيم، قد ترتدي ثوباً متواضعاً، لكن استقامتك، وعفتك، وأمانتك، ترفع بهما رأسك، تجد المستقيم ملكاً، وقد تكتشف فضيحة لإنسان في أعلى مرتبة فيسقط في الوحل، هذا وحيد القرن الذي يقصف العالم ـ رئيس أكبر دولة حالياً ـ دخل بفضيحة لا تنتهي، فضيحة قذرة جداً، فأي ثوبٍ جميل لا يغنيك، قد يرتدي أجمل الثياب، أغلى ثياب في العالم قد يرتديها، ولكنه مفضوح، وقد وضع له موقع على الإنترنت وكان التقرير ألفي صفحة، صار في الوحل .

على المؤمن أن يرتدي ثياب التقوى ويبتغي الرفعة عند الله تعالى:

قال تعالى:

(وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ (26))

(سورة الأعراف)

فأنت لو كنت أي إنسان، بأي وظيفة، معلم ابتدائي، ضارب آلة كاتبة، حاجباً حسب مراتب المجتمع، الحاجب المستقيم مَلِك، والله مرة كنت في مؤتمر، وقد سمعت بالفندق قرآناً يتلى مع

الفجر، أطللت من الشرفة، فإذا عامل الحديقة يصلي الفجر بصوتٍ جميل، فخطر في بالي خاطر، لعل هذا العامل في الحديقة عند الله خير من كل نزلاء الفندق وهذا ممكن . ابتغوا الرفعة عند الله عزَّ وجل .

(وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ (26))

(سورة الأعراف)

إذاً يجب أن ترتدي ثياب التقوى، " كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الرحم، ونسيء الجوار، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته وصدقه وعفافه ونسبه " . شخص أمين، صادق، عفيف، لا يوجد إنسان يهدده بصورة فيقوله له: انتبه سنبرز الصورة . لا توجد عنده مشكلة أبداً، لا يوجد إنسان يهدده بكشف الأمر: أنت مختلس . لا بل كل ماله حلال، لا يوجد علاقة غير نظيفة، بيته نظيف من الداخل والخارج، سره كعلانيته، جلوته كخلوته، لا يوجد عنده ازدواجية بالحياة، هذا ينام مرتاح البال .

ذكر لي أخ كان بألمانيا أن كُتب على السرير في الفندق، وهو فندق فخم من فنادق النجوم الخمس: إن لم تستغرق في النوم فالعلّة ليست في فُرُشِنا بل في ذنوبك . إذا لم ترتح بالنوم فهذا ليس من الفرش، فرشنا وثيرة، لكن العلة في ذنوبك .

فكن ابن من شئت، بأي مكانة، بأي مرتبة، بأي دخل، بأي شكل أنت ملك إذا كنت مستقيماً، يروى أن الأحنف بن قيس كان قصير القامة، أسمر اللون، مائل الذقن، ناتئ الوجنتين، غائر العينين، ضيِّق المنكبين، أحنف الرجل، ليس شيءٌ من قبح المنظر إلا وهو آخذ منه بنصيب، وكان مع ذلك سيِّدَ قومه، إذا غضب غَضب لغضبته مئة ألف سيف لا يسألونه فيمَ غضب، وكان إذا علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه .

المُلك الحقيقي أن تصل إلى مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر:

أقول: كن أي إنسان في أي درجة علمية، في أي حرفة، وفي أي بيت، وفي أي حي، بأفقر أحياء دمشق، إذا كنت مستقيماً وأميناً وصادقاً فأنت ملك .

(وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ (26))

(سورة الأعراف)

قلت لكم مرة: أراد أحد أغنياء هذه البلدة الطيبة أن ينشئ مسجداً، فكلّف أحد إخواننا أن يبحث عن أرض مناسبة، فوجد أرضاً مناسبة بأحد أحياء دمشق، وهي مناسبة جداً لمسجد، فقال لصاحب المشروع أن الأرض جاهزة تعال انظر إليها، فالأرض مناسبة وسعرها مناسب، كم ثمنها ؟ ثلاثة ملايين ونصف، فكتب صاحب المشروع شيكاً بمليونين لصاحب الأرض وصاحب الأرض آذن مدرسة، وقد ورثها قبل شهر، دخله أربعة آلاف ليرة وعنده ثمانية أولاد وهو فقير فقراً مدقعاً، فقال

له: لماذا مليونين فقط ؟ قال له: مليونين دفعة أولى، والمليون ونصف عند التنازل بالأوقاف، فقال له مستغرباً: لماذا التنازل ؟ قال له: لأنها ستكون مسجداً . قال له منتفِضاً: مسجد !! انتفض، فأخذ الشيك ومزَّقه، قال له: أنا أولى منك أن أقدمها لله .

يقول هذا الإنسان الغني عافاه الله: والله ما صغرت في حياتي أمام إنسان كما صغُرت أمام هذا الإنسان. فالثلاثة ملايين ونصف لا يشكلون واحداً بالألف من حجمه المالي أما هذا الآذن قدَّم كل ما يملك وهو في أمس الحاجة لهذه الأرض، كَبُرَ عليه أن يشتريها منه إنسان ويجعلها مسجداً، قال له: أنا أولى منك أن أقدمها لله .

هذا ثوب الإيمان، ثوب العفة، ثوب التقوى، ثوب الصلاح، ثوب الصدق، ثوب الأمانة، هذا الثوب الجميل هذا الذي لا يفنى، يموت الإنسان ويبقى ذكره العطر مئات السنين، يبلغ العالم الإسلامي الآن مليارا ومئتي مليون، والصحابة الكرام، العلماء الأعلام، القادة الكبار، يُذكرون كل يوم ملايين المرَّات بالثناء الطيِّب، هذا هو المُلك .

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً(20))

(سورة الإنسان)

هذا المُلك الحقيقي أن تصل إلى مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر .

لا تعبأ بمراتب الدنيا اعبأ بمرتبةٍ عند الله تعالى :

دققوا في هذه الآية:

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ (26))

(سورة الأعراف)

وقال:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ (103))

المعنى الثاني: أنك إن آمنت واتقيت لبست ثوباً جميلاً هو أجمل ثياب الأرض، المؤمن شريف، عفيف، ذِكره حسن، لو أنه مات تبكي عليه السماء والأرض والدليل قول الله عن الكفار:

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ (29))

(سورة الدخان)

المعنى المخالف: المؤمن تبكي عليه السماء والأرض . فأنت لا تعبأ بمراتب الدنيا، اعبأ بمرتبةٍ عند الله، دخل رجل على النبي فقال عليه الصلاة والسلام:

((أهلاً بمن خبرني جبريل بقدومه، قال: أو مثلي ؟! قال: نعم يا أخي خاملٌ في الأرض علمٌ في السماء))

[ورد في الأثر]

فلا تعبأ بمراكز الدنيا، ليس لها معنى إطلاقاً .

العبرة أن يسعى الإنسان للدار الآخرة :

قال تعالى:

(انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ (21))

(سورة الإسراء)

مراتب الدنيا لا معنى لها وقد تعني العكس، وهي مؤقتة .

(وَلَلْآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً(21))

(سورة الإسراء)

درجاتها أكبر، وتفضيلها أشد، ودائمة إلى أبد الآبدين، فلذلك العبرة أن يسعى الإنسان للدار الآخرة، أن يسعى لمقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر .

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ(185))

(سورة آل عمران)

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (40- 95):تفسير الآيتان 105 - 106، لا نسخ في العقائد بل في الأحكام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-05-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

الشارد عن الله عزَّ وجل لا يتمنَّى الخير للمؤمن بينما المؤمن يتمنَّى الخير لغيره:

مع الآية الخامسة بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105))

أيها الأخوة الكرام، يتضح في هذه الآية أن الشارد عن الله عزَّ وجل لا يتمنَّى الخير للمؤمن، بينما المؤمن يتمنَّى الخير لغيره، وذلك لأن المؤمن منضبطٌ بمنهج الله، وقد سَمَت نفسه باتصالها بالله فصار يحب الخير لكل الخلق، المؤمن يتمنَّى الخير لكل الخلق حقيقةً .

في قصة سيدنا عمر مع عمير بن وهب شاهد على ذلك: " كان عمير من ألدِّ أعداء النبي أراد قتل النبي، فلمَّا وصل إلى المدينة وقد توشَّح سيفه، أخذه عمر وقيَّده بحمَّالة سيفه وساقه إلى النبي، فقال: **" يا رسول الله هذا عمير جاء يريد شراً "** ـ والقصَّة معروفة عندكم ـ قال: **" دعه يا عمر ـ أطلقه ـ اقترب مني يا عمير، ما الذي جاء بك إلينا يا عمير ؟ "** ، قال له: **" جئت لأفدي ابني "** ، فقال له: **" وما هذه السيف التي على عاتقك ؟ " قال: " قاتلها الله من سيوف وهل نفعتنا يوم بدر ؟ "، قال له: " ألم تقل لصفوان: لولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها، ولولا أولاد أخشى عليهم العنت من بعدي لذهبت وقتلت محمداً، وأرحتكم منه ؟ " فوقف عمير وقال: " أشهد أنَّك رسول الله، لأن هذا الذي قلتُه لصفوان لا يعلمه أحدٌ إلا الله وأنت رسوله "** . وآمن .

تعليقي على القصة أن سيدنا عمر قال: **" دخل عميرٌ على النبي الكريم والخنزير أحبُّ إليَّ منه، وخرج من عنده وهو أحبُّ إليَّ من بعض أولادي "**، المؤمن يتمنى الخير لكل الخلق، وإذا كره الكافر يكره عمله، لا يكره ذاته بل يكره عمله، بينما الكافر ـ كما ترون وكما تسمعون ـ لا يتمنَّى الخير للمؤمن.

لك أن تفعل الخير مع كل الناس ولكنك لا تود إلا من تحب لأن الود متعلق بالحب:

قال تعالى:

(مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ (105))

(من)

في اللغة تفيد استغراق أفراد النوع، جُزئيات النوع، أي لو قلت لي: ألك رغبة أن تشاركني في تجارةٍ عريضة ؟ أقول لك: لا مال عندي، ما عندي هذا المال، تطلب مني ملايين لا مال عندي، أما إذا قلت لك: ما عندي من مالٍ أي ولا ليرةٍ واحدة،

(من)

تفيد استغراق أفراد النوع:

(مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ (105))

الحقيقة لك أن تصنع المعروف مع أهله ومع غير أهله، وقد ورد في الأثر:

((اصنع المعروف إلى من هو أهله، وإلى غير أهله، فإن أصبت أهله أصبت أهله، وإن لم تصب أهله كنت أنت أهله))

[رواه ابن النجار عن علي] .

لك أن تفعل الخير مع كل الناس، ولكنك لا تود إلا من تحب، الود متعلّق بمن تحب، فالمؤمن يتمنَّى الخير لكل الخلق، بينما غير المؤمن لا يتمنى ولا يحب الخير للمؤمن مهما قلَّ .

المؤمن يتمنى الخير لغير المؤمن وبغضه له بغضٌ لعمله لا لذاته:

قال تعالى:

(لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ (22))

(سورة المجادلة)

كلامي دقيق، قلت: المؤمن يتمنى الخير لكل الخلق، ولكن المؤمن ما يكون له أن يتودَّد لغير المؤمن . التودُّد أساسه الحب، فإذا كان الله لا يحب الكافرين، ولا يحب الفاسقين، ولا يحب الظالمين فكيف تحبُّ من لا يحبُّه الله ؟ يقول الله عزَّ وجل:

(لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ (22))

(سورة المجادلة)

النقطة الثانية :

(مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ (105))

لا يتمنَّون الخير لكم، ولا يحبونكم . بل إنهم لا يحبونكم في الأصل، مع أن المؤمن يتمنى الخير لغير المؤمن، وبغضه له بغضٌ لعمله لا لذاته، وبمجرَّد أن يعود الشارد عن الله إلى الله يحبه المؤمن، لمجرَّد أن يؤمن غير المؤمن يصبح له ما للمؤمنين وعليه ما على المؤمنين .

الخير لا يخضع لرغبة الخلق بل هو بيد الله يعطيه لمن يشاء باستحقاقٍ وبطلب:

هناك لفتة في الآية دقيقة :

(مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ (105))

الخير من الله، لا من الغرب ولا من الشرق، وحينما توقَّعنا الخير من الشرق خاب ظنُّنا، وإذا توقَّعنا الخير من الغرب سيخيب ظنُّنا، الخير من الله وحده، هذه حقيقة .

أيها الأخوة، الخير الذي من عند الله وحده لا يخضع لرغبة أحد، فأنت إذا تمنيت الخير لفلان أو لم تتمن له الخير لا تمنِّيك يعطيه الخير ولا عدم تمنيك يمنع عنه الخير.

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر)

أي إذا أراد الله أن يكرمك وأراد أهل الأرض مجتمعين عكس ذلك ما استطاعوا، وإذا أراد الله بقومٍ سوءً فلا مردَّ له لو أن معك أهل الأرض جميعاً ما انتفعت بهم، الله وحده هو الذي يعطي وهو الذي يمنع، هو الذي يرفع وهو الذي يخفض، وهذا هو التوحيد، وما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد، الخير لا يخضع لرغبة الخلق، الخير بيد الله يعطيه لمن يشاء باستحقاقٍ وبطلب .

(أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ)

(سورة الزخرف)

وقال:

(وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ (105))

آيات من الذكر الحكيم دالة على أن الخير بيد الله يختص به من يشاء:

كلامٌ دقيقٌ أيها الأخوة، رحمة الله من الله وحده، والخير وهو رحمة الله يختص به من يشاء . قال تعالى في آياتٍ كثيرة :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(6))

(سورة المنافقون)

وقال:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(67))

(سورة المائدة)

وقال:

(وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ (105))

الشيء الثاني: رحمة الله لمن طلبها:

(أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ (218))

(سورة البقرة)

رحمة الله لمن طلبها وقدّم موجباتها وهي محجوبة عن الكافرين والظالمين والفاسقين:

رحمة الله لمن قدَّم موجباتها، رحمة الله محجوبة عن الكافرين، ومحجوبة عن الظالمين، ومحجوبة عن الفاسقين، ورحمة الله لمن طلبها:

(أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ (218))

(سورة البقرة)

رحمة الله للمحسنين:

(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56))

(سورة الأعراف)

رحمة الله للطائعين، رحمة الله للمُصلّين، رحمة الله للعابدين، رحمة الله للمُخلصين، رحمة الله للتائبين، فربنا عزَّ وجل قال :

(وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ (105))

هذه آية محكمة جاءت تفصيلاتها في آياتٍ كثيرة، إنه لا يهدي القوم الفاسقين ولا الكافرين ولا الظالمين، بل يُعطي رحمته لمن يطلبها، ويعطيها لمن دفع موجباتها، كان عليه الصلاة والسلام في أعلى درجات الأدب وهو يقول:

((اللَّهُمَّ إني أسألُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ))

[من الأذكار النوويّة عن أم سلمة]

وقال:

(وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105))

تقنين الله تقنين تأديبٍ وتربيةٍ لا تقنين عجزٍ وبخل:

يقول الله عز وجل في الحديث القدسي:

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

[مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه]

أي لو أن البشر جميعاً من لدن آدم إلى يوم القيامة، كل هؤلاء البشر وقفوا على صعيدٍ واحد، وسألني كل واحدٍ منكم مسألته ؛ واحد يريد خمسة أطنان من الذهب، خذ، ألف قصر خذ، مليون سيارة خذ .

((مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه]

إذا كان يبدو لكم أن في الأرض تقنيناً ؛ الأمطار قليلة، المكاسب قليلة، المطالب كثيرة، هناك فقر، نقص مياه، ونقص مواد غذائيَّة، لا يمكن أن يكون تقنين من الله عزَّ وجل إلا تقنين تأديب، أما أن يكون تقنين الله عزَّ وجل تقنين عجزٍ، أو تقنين بُخْلٍ هذا لا يليق بحضرة الله عزَّ وجل:

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ)

(سورة الشورى الآية: 27)

هذه حقيقة في التوحيد، قرأت في مجلَّةٍ علميَّة أنه تمَّ اكتشاف سحابةٍ عن طريق مراصد تعمل بالأشعَّة تحت الحمراء، هذه السحابة يمكن أن تملأ محيطات الأرض كلَّها ستين مرَّةً في الأربع والعشرين ساعة، أي أن كل أربعة وعشرين ساعة هذه السحابة فيها مخزون من الماء ما يملأ محيطات الأرض مجتمعة ستين مرَّة في اليوم:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21))

(سورة الحجر)

اعتقد هذا، تقنين الله تقنين تأديبٍ وتربيةٍ لا تقنين عجزٍ وبخلٍ، إذاً:

(وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105))

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

[مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه]

لهذا الحديث روايات عدَّة: ذلك لأن عطائي كلام ـ كن فيكون ـ وأخذي كلام، أخطر ما في الحديث:

((فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلّ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ))

[رواه مسلم عن أبي ذر]

الله عزَّ وجل أجلّ وأعظم من أن يكلك إلى مخلوق مثلك فالأمر كله بيده وحده سبحانه:

أيها الأخوة الكرام الآية أصبحت :

(مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ (105))

المؤمن يتمنى الخير لكل الخلق، وإيمانه يقيِّده عن أن يفتك بأحد:

((إنَّ الْإيمَانَ قَيْدُ الْفَتْكِ، لَا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

[مسند أحمد عن ابن الزبير]

لا يحب غير المؤمن الخير مهما كان قليلاً للمؤمنين، وهم يفتكون بهم ـ كما ترون ـ هذه حقيقة، لكن رحمة الله لا يمكن أن تكون بمشيئة أحد من خلقه، أي أن الله عزَّ وجل أجل وأعظم من أن يكلك إلى مخلوقٍ مثلك، ولو أنه وكلك إلى مخلوقٍ مثلك كيف يأمرك أن تعبده ؟ قال تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

(سورة هود الآية: 123)

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كلّه بيده .

من الشرك أن تعقد الآمال على غير الله أو أن تتوجه إلى غيره :

قال تعالى:

(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ (105))

رحمته تابعة لمشيئته، والخير من الله وحده، لا يوجد خير في الأرض إلا من الله، وكل مسلم يعقد الآمال على غير الله سيخيب ظنُّه، وكل مسلم يتوجَّه إلى غير الله لينال منه الخير سيخيب ظنه، وهذا نوعٌ من الشرك:

(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ (105))

هذه المشيئة مفصَّلة في آيات أخرى، رحمة الله عزَّ وجل محجوبة عن الفاسقين، محجوبة عن الكافرين، محجوبة عن الظالمين، محجوبة عن المتكبِّرين، محجوبة عن المشركين، لمن هي مبذولة ؟ لمن يطلبها، لمن يقدِّم موجباتها، لمن يكون صادقاً، لمن يكون مخلصاً، لمن يكون تائباً، لمن يكون متطهِّراً .

(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105))

النسخ في اللغة أن تنقل النص لنسخةٍ ثانية وهذا المعنى ليس مطلوباً في هذه الآية :

أيها الأخوة، الآية التي بعدها :

(مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106))

النسخ في اللغة أن تنقل النص لنسخةٍ ثانية، استنسخت هذا الكتاب أي كتبت نسخة ثانية عنه، هذا المعنى الأول، هذا المعنى هنا غير وارد:

(إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(29))

(سورة الجاثية)

نستنسخ أي كل أعمالكم مسطَّرة عندنا:

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ)

(سورة إبراهيم)

الاستنساخ بمعنى أن كل أعمال الإنسان محفوظة عند الله عزَّ وجل، سوف تُعرض عليه يوم القيامة عرضاً تفصيلياً:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً(14))

(سورة الإسراء)

سمعت أن أحدث وسائل التحقيق مع المتهم توفيراً للوقت وإقامة للحُجَّة أن تعرض عليه فيلماً يصورِّ انحرافه وجريمته، يسكت، هل كنت في هذا الطريق مخالفاً لنظام السير ؟ لا لم أكن، خذ هذه الصورة، الصورة مسكتة، هذه صورة مركبتك، وهذا رقمها، وهذا التاريخ، فربنا عزَّ وجل يعرض على الإنسان كتاب أعماله .

آيات من القرآن عن كل صغيرة وكبيرة تعرض على الإنسان في كتاب أعماله يوم القيامة:

قال تعالى:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً(14))

(سورة الإسراء)

وقال:

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ (49))

(سورة الكهف)

كتاب الأعمال:

(لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً (49))

(سورة الكهف)

يوجد في بعض البلاد المتقدِّمة صفحة بالكمبيوتر لكل مواطن، تسجَّل عليه مخالفة السير، ويسجل عليه تخلفه عن دفع دين، شيء محيِّر، فكل حركاته، وسكناته، وأعماله، ومخالفاته مسجَّلة عليه، إذا أراد أن يسافر لا يسافر حتى يسدد، إن أراد أن يبحث عن وظيفة عليه أن يسدِّد، صار عند الإنسان بحكم التقدُّم التكنولوجي ـ إن صحَّ التعبير ـ تسجيل لكل شيء . فكيف بالواحد الديَّان ؟!!

لا تكن وعاءً للعلم بل كن واعياً له فهناك فرق كبير بينهما:

قال تعالى:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً(14))

(سورة الإسراء)

وقال:

(لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً (49))

(سورة الكهف)

الاستنساخ أي أخذ صورة عن كتاب، كتابة نسخة ثانية . هذا المعنى ليس مطلوباً في هذه الآية .

قيل للإمام الغزالي رحمه الله تعالى: إن فلاناً حفظ كتاب الأم ـ كتاب دقيق جداً بالفقه ـ تبسَّم الإمام الغزالي وقال: **" زادت نسخة "** ، كونوا للعلم وعاةً، لا تكن وعاءً للعلم بل كن واعياً له، فرقٌ كبير بين أن تكون واعياً وبين أن تكون وعاءً، إذا كنت وعاءً زادت نسخة، والنسخة الأصلية أدق منك بكثير، إذا حفظت الكتاب بصماً فالكتاب الأصلي أدق منك ولكن المطلوب أن تكون واعياً أحكامه، وعلى كلٍ هذه المعاني ليست مطلوبةً في هذه الآية .

النسخ بالمعنى الثاني إلغاء الحكم، ضوء الشمس ينسخ الظلام، ألغى الظلام، الظلام ينسخ ضوء الشمس، الإلغاء، آيةٌ منسوخة أي توقَّف حُكمها .

بادئ ذي بدء اعترض اليهود على المسلمين كيف أن القبلة تحوَّلت من مكَّة إلى بيت المقدس، ثم رجعت إلى مكَّة، ما هذا التبديل ؟!!

الاختلاف بين الناس على أنواع ثلاثة :

بالمناسبة هناك موضوع دقيق جداً هو أن الاختلاف بين الناس على أنواعٍ ثلاثة:

1ـ اختلافٌ طبيعي وهو لا محمود ولا مبغوض:

اختلافٌ طبيعي سببه نقص المعلومات:

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا (19))

(سورة يونس)

وقال:

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ (213))

(سورة البقرة)

هذا الخلاف طبيعي لا يُمدح ولا يُذَم، خلاف نقص المعلومات حلُّه المعلومات، فنحن بيوم وقفة سمعنا صوت مدفع، نتساءل: هل هو صوت مدفع أم هو تدمير بالجبل ؟ طريق فيه صخرة ففجَّروها أم مدفع العيد ؟ وقعنا في اختلاف، اختلفنا، سمعنا في الأخبار أن غداً العيد، هذا الخبر الصادق حسم الخلاف:

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا (19))

(سورة يونس)

وقال:

(فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ (213))

(سورة البقرة)

بهذه البعثة ـ ببعثة النبيين ـ حُسِمَ الخلاف .

2- اختلاف الحسد والبغي وهو اختلاف مبغوض:

الآن بعد أن جاء النبيون وأنزلت عليهم الكتب اختلف الناس، هذا اختلاف قذر، اختلاف الحسد والبغي:

(وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ (19))

(سورة آل عمران)

دقّق . قد نختلف لنقص المعلومات ونحن صادقون، ونحن مخلصون، ونحن أحباب، لكننا اختلفنا في هذا الموضوع لنقصٍ في معلوماتنا، ولكن قد نختلف ونحن آثمون، ونحن بعيدون عن الله عزَّ وجل، قد نختلف بسبب الحسد، والبغي، وجلب المكاسب، وتحطيم الخصوم، هذا اختلافٌ قذر لا يحبه الله عزَّ وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ (159))

(سورة الأنعام)

هذا دليل عدم الإخلاص، حينما تختلف مع أخيك والكتاب واحد، والسُّنَّة واحدة، والمنهج واحد، والإله واحد فهذا اختلاف بغيٍ وعدوانٍ وحسد، وهذا خلافٌ يبغضه الله عزَّ وجل، قال تعالى :

(فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ (213))

(سورة البقرة)

3- اختلاف التنافس وهو خلاف محمود:

الخلاف الثالث خلاف محمود، خلاف التنافس، هذا يعتقد أن أفضل شيء تعليم العلم، هذا يعتقد أن أفضل شيء تأليف الكتب، هذا يعتقد أن أفضل شيء الدعوة إلى الله، هذا يعتقد أن أفضل شيء بناء المساجد، هذا اختلاف محمود، قال تعالى:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ(26))

(سورة المطففين)

وقال:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61))

(سورة الصافات)

هذا اختصَّ في التفسير، وهذا في الفقه، وهذا في الحديث، وهذا في العقائد، وهذا في خدمة الخلق، وهذا في إطعام الجائعين، وهذا في تأسيس الجمعيات الخيريَّة، هذا كلّه مقبول، اختلاف التنافس محمود، اختلاف الحسد مبغوض، الاختلاف الطبيعي اختلاف لا محمود ولا مبغوض .

النسخ بالمعنى الثاني إلغاء الحكم وهو المقصود في الآية التالية:

يبدو أن أهل الكتاب اختلفوا مع المسلمين، السبب أنهم رأوا أن الذي جاء للمسلمين من خيرٍ عن طريق رسول الله عليه الصلاة والسلام ليس عندهم مثله، هم تمسَّكوا بما عندهم وحسدوا المؤمنين فاختلفوا معهم، بدؤوا يترصَّدون لهم، ويطعنون بدينهم، ويشكّكون في مصداقية نبيِّهم عليه الصلاة والسلام، قال ربنا عزَّ وجل:

(مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا (106))

هناك موضوع دقيق، قال بعضهم: لا نسخ في القرآن، انطلاقاً من أنه ينفي البداءة عن الله عزَّ وجل، ما البداء ؟ طبيب وصف دواء لمريض، بعد أن وصف له الدواء واشترى المريض هذا الدواء، وبدأ يأخذ منه بعض الحَبَّات بدا للطبيب أن هذا الدواء لا يصلح له، ولا بد من دواءٍ آخر، فأمره أن يلغي الدواء الأول وأن يأخذ الدواء الثاني . إذا كان النسخ بهذا المعنى فلا وجود له في القرآن، لأنه لا يمكن أن يبدو لله شيءٌ لم يكن بادياً له من قبل، هذه صفات البشر وليست صفات خالق البشر .

أما أن يأمر الطبيب المريض أن يأخذ حبَّات أسبرين لتمييع الدم، بعد هذا قرَّر الطبيب إجراء عملية قلب مفتوح لهذا المريض فأعطاه أمراً بإلغاء تناول الأسبرين . حدَّثني طبيب قلب جرَّاح فقال لي: حدث خطأ من مريض أنه أخذ الأسبرين ولم يبلّغ . نجحت العمليَّة نجاحاً باهراً، ولكن أثناء الخياطة ـ خياطة القلب ـ كان الدم يخرج من الجُرح بشكلٍ غير معقول أثناء النبض، مما أدى لموت المريض، لأن الدم مائع . فالطبيب الذي يأمرك بأن تأخذ حبَّات الأسبرين من أجل تمييع الدم، ثم يقرِّر أن يجري عملية قلبٍ مفتوح، يعطي أمراً معاكساً، يجب أن توقف الأسبرين . في مرحلةٍ من المرض لا بد من تمييع الدم، فلمَّا أردنا إجراء عمليَّة لا بد من إلغاء التمييع وإلا يموت المريض، فهذا الطبيب أمر ثم نسخ الأمر أي ألغاه، وقد يعود إليه مرَّة ثانية بعد العمليَّة . هذا المعنى هو نفسه المقصود في القرآن .

الحكمة من نسخ التوجُّه إلى بيت الله الحرام وأن يحل محله التوجُّه إلى بيت المقدس:

يقول الله عزَّ وجل :

(مَا نَنْسَخْ مِنْ آَيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا (106))

هناك ثلاث حالات، آيةٌ يلغى حكمها، وآية يأتي مكانها حكم آخر من مثلها، وآية يلغى حكمها ويأتي حكمٌ آخر خيرٌ من الأول، ما تفصيل ذلك ؟

لماذا أمر الله عزَّ وجل المسلمين بالتوجُّه لبيت المقدس ونُسِخَ التوجُّه إلى الكعبة، طبعاً إذا توجَّه المصلي إلى بيت المقدس ليس هناك جُهد إضافي، وبالمقابل لا يخفَّف عنه بجهدٍ آخر، العمليَّة هكذا أو هكذا، نحو مكَّة أو نحو بيت المقدس، ولكن الله أراد من هذا النسخ ـ نسخ التوجُّه إلى بيت الله الحرام، وأن يحل محله التوجُّه إلى بيت المقدس ـ هذا الأمر من أجل أن يعلم الخلق جميعاً أن الدين الإسلامي هو دين أهل الأرض، وهو خاتم الأديان، لذلك الأديان السماويَّة مركزها في بيت المقدس . والمسلمون توجَّهوا لبيت المقدس ؛ أولاً هذا الدين يستوعب كل الأديان، وثانياً بعدئذٍ ينبغي أن تتبعه الأديان كلها .

هذا النسخ لعلَّةٍ إيمانيَّةٍ محضة، ليس هناك مكان مقدَّس ولكن هناك أمرٌ إلهيٌ مقدَّس، القدسيَّة لا في المكان ولكن في الأمر الإلهي، وأراد الله أن يمتحن المؤمنين، هناك من يتعلَّق بالمكان وهناك من يتعلَّق بخالق المكان، فهذا امتحان، أنت مع المكان أم مع خالق الأكوان ؟ فالمؤمنون الصادقون أُمروا بالتوجُّه إلى بيت المقدس فتوجَّهوا له، ثم أُمروا أن يعودوا إلى الكعبة المشرَّفة فعادوا إليها، انتهى الأمر، أنا مع خالق الأكوان ولست مع المكان لعلَّةٍ إيمانية ولحقيقة قرآنية وهي أن القدسية في الأمر وليست في المكان، وهم لم يتكلَّفوا شيئاً إضافياً، ولا وضع عنهم تكليفٌ معيَّن .

المعنى الأول لكلمة (خير منها):

قال تعالى:

(مَا نَنْسَخْ مِنْ آَيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا (106))

نغفل نسخها:

(نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا (106)).

كيف تكون خيراً منها ؟ فالصحابة في أول إقبالهم على هذا الدين الجديد:

(إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ (65))

(سورة الأنفال)

أي واحد لعشرة، إذا كان الصحابي تولَّى من ساحة المعركة والعدد كان تسعة يحاسب بأكبر معصية وهي التولي في الزحف . ثم قال الله عزَّ وجل :

(الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مئة صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ (66))

(سورة الأنفال)

كان الواحد لعشرة صار واحد لاثنين، فعندما دخل الناس في دين الله أفواجاً، هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام ليسوا في مستوى الصحابة الأوَل، فالصحابة الأوَل كان قياسهم واحد لعشرة، أما الداخلين في الدين بعد حين واحد لاثنين، فالخير المُطلق للصحابة واحد لعشرة، والخير المطلق لمن جاء بعدهم واحد لاثنين، صار هناك نسخ، الأول خير والثاني خير، الأول خير لهؤلاء النخبة المتفوِّقين السابقين، والحكم الثاني خير للاحقين .

المعنى الثاني لكلمة (خير منها) :

هناك معنى ثانٍ: قال الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران الآية: 102)

وفي آية أخرى:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ (16))

(سورة التغابن)

حقَّ تقاته أي أن تبذل كل ما في وسعك، **" يا أبا بكر ماذا أبقيت لنفسك ؟ " قال: " الله ورسوله "** بعد هذا:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ (16))

(سورة التغابن)

البذل والعطاء بقدر ما تستطيع، ما كلَّفك الله عزَّ وجل ما لا تطيق، فالحالة الأولى للأوائل خير

(اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

أي ابذل كل شيءٍ في سبيل الله . الحالة الثانية بقدر ما تستطيع .

هناك نقطة دقيقة: مسيلمة الكذَّاب الذي ادَّعى النبوَّة كانت دعوته في وقتٍ مبكِّر، قبض على صحابيين وقال للأول: **" أتشهد أني رسول الله ؟ " قال: " ما أسمع شيئاً ". فقتله . وقال للثاني: " أتشهد أني رسول الله ؟ " قال: " أشهد أنك رسول الله " .**

ماذا كان تعليق النبي عليه الصلاة والسلام ؟ تعليقٌ رائع، قال:

أما الأول فقد أعزَّ دين الله فأعزَّه الله، وأما الثاني فقد قبل رخصة الله " .

الأول أعزَّ دين الله والثاني مقبول، الثاني قَبِلَ هذه الرخصة ـ لكن واحد قبض بالدولار والثاني بالتركي ـ الاثنان لهم أجر، أما الأول فقد أعزَّ دين الله فأعزَّه الله، وأما الثاني فقد قبل رخصة الله عزَّ وجل .

علّة أي أمرٍ أنه أمر من الله عزَّ وجل:

أيها الأخوة، الشيء الدقيق علّة الأمر أنه أمرٌ صادرٌ عن الله، علّة أي أمرٍ أنه أمر . سمعت أن أحد علماء هذه البلدة الطيِّبة كان في أمريكا، وجرى نقاشٌ وحوارٌ بينه وبين عالمٍ قد أسلم حديثاً، وطُرح موضوع لحم الخنزير، فهذا العالِم أجاد وأطال وأحسن في شرح حكمة تحريم لحم الخنزير، وبعد أن انتهى قال له ـ لهذا العالِم الذي أسلم حديثاً كلمة رائعة ـ قال له: **" يا أستاذ كان يكفيك أن تقول لي إن الله حرَّمه "** . يكفي هذا، إذا كان خالق السماوات والأرض قد حرَّم شيئاً كل الشر فيه، من دون تفاصيل.

امرأة تعمل في الجامعة في مصر ـ اختصاصها أعتقد علم نفس ـ سألوها: ما قولك في تعدُّد الزوجات ؟ فقالت: **" كيف أدلي برأيٍ وقد سمح الله به ؟ "** هذا هو المؤمن .

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب الآية: 36)

علّة أي أمرٍ أنه أمر من الله عزَّ وجل .

السجود لآدم، التعظيم، لأن الله أمر أن يسجد الملائكة له، التعظيم لورود الأمر بالسجود، وأنت حينما تعظِّم الحجر الأسود لأن الله أمرنا أن نعظِّمه عن طريق النبي عليه الصلاة والسلام، فدائماً التقديس لأمر الله في السجود لا لآدم بالذات، لا يوجد مكان مقدَّس، ولا زمان مقدس، ولا شخص مقدَّس لكن أمر الله هو المقدَّس، وأنت تنصاع لأمر الله فقط .

هناك حكمة ثانية: أن البيوت ـ بيوت الله عزَّ وجل في بقاع الأرض ـ قد أُنشئت باختيار الخلق، مثلاً، الذين بنوا هذا المسجد ـ جزاهم الله خيراً ـ اختاروا هذا المكان، والذين بنوا المسجد الأول اختاروا هذا المكان، فكل المساجد في الأرض باختيار الخلق، لكن البيت الحرام باختيار الرب .

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران)

الله عزَّ وجل أمر كل هؤلاء المساجد التي أنشئت باختيار الخلق أن تتجه إلى المسجد الذي اختاره الله عزَّ وجل، هذا للتعبير عن وحدة المسلمين، وعن وحدة المَصدر، المصدر هو الله عزَّ وجل .

الآيات المنسوخة تعليمٌ لنا أنك إذا دعوت إلى الله فخُذ الأمر بالتدريج لا تأخذه بالشدَّة والعُنف :

قال تعالى:

(مَا نَنْسَخْ مِنْ آَيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106))

إذا نُسخَت آية أُلغي حكمها كلياً فلحكمةٍ بالغة، ونُسخت وحلَّ محلَّها آيةٌ مساويةٌ لها فلحكمةٍ بالغة، أو نُسخت وحلَّ محلها آيةٌ فيها خيرٌ أكثر، فيها خيرٌ أكثر للذين جاءوا من بعدهم .

الآن أنت قد تعطي سؤالاً يُعَد مثالاً لشعبة عاديَّة، يمكن أن تلغي السؤال الأول وتعطي سؤالاً آخر أصعب بكثير لشعبة متفوّقة، السؤال الأول للشعبة المتفوّقة يُحتقر، الطالب سيحتقر كل الامتحان، إذا قلت لك: ما مجموع اثنين وثلاثة ؟ خمسة، صفّقوا له، ما هذه صفقوا له ؟ إذا كانت شعبة رياضيات متفوّقة اثنين وثلاثة خمسة صفقوا له !! لا بد من سؤال دقيق فيه تحدي، أحيان تقتضي المرحلة هذا الحكم، والمرحلة الثانية تقتضي حكماً آخر، هذا تعليم لنا .

كيف حرم الله الخمرة التي هي كلُّها شر ؟ جُمِع الشر كله في بيت وأُرتج عليه فكان مفتاحه السُكر، يروى ـ قصَّة رمزيَّة ـ أن إنساناً خُيِّر بين أن يزني، وبين أن يقتل، وبين أن يشرب الخمر، توهَّم أن أهون شيء شرب الخمر فاختارها، فزنى، وقتل بعدها، هذه الخمرة التي هي أم الخبائث كيف حرَّمها الله ؟ بالتدريج، قال تعالى:

(تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً (67))

(سورة النحل)

أي مادَّة مسكرة:

(وَرِزْقاً حَسَناً (67))

(سورة النحل)

معنى هذا أن السَكَر رزق غير حسن، هذه أول إشارة، ثم يقول الله عزَّ وجل :

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ (43))

(سورة النساء)

كان مسموحاً للإنسان أن يشرب بين الصلوات، ثم قال الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(90))

(سورة المائدة)

هذا نسخ تدريجي، كذلك طبعاً لا يجوز أن يعود الحُكم الذي نُسِخ الآن، ولكن بقاء هذه الآيات المنسوخة تعليمٌ لنا أنك إذا دعوت إلى الله فخُذ الأمر بالتدريج لا تأخذه بالشدَّة والعُنف . دعا أحدهم عدداً من غير المسلمين إلى الإسلام فأسلموا، كلهم رجال، أمرهم أول شيء بالطهور، فرفضوا الدخول في هذا الدين !!! خذ الأمر بالتدريج .

القرآن نزل بالتدريج والتحريم بدأ بالتدريج وهذه حكمة الله عزَّ وجل :

قال تعالى:

(مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106))

أي أن الله قادر أن يعطي الأحكام الشديدة دفعة واحدة، القرآن نزل بالتدريج، نزل منجَّماً، والتحريم بدأ بالتدريج، وهذه حكمة الله عزَّ وجل، أي خذ الأمر بالتدريج ، لذلك تحتاج الدعوة إلى الله ـ كما

يقولون ـ إلى التدرُّج لا إلى الطَّفرة، إلى التربية لا إلى التَعْرِيَة، الإحسان قبل البيان، القدوة قبل الدعوة، الأصول قبل الفروع:

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (107))

ألم تعلم يا محمَّد ؟ ألم تعلم أيها المؤمن ؟ الأمر كلَّه بيد الله، فأنت تتلقَّى هذا المنهج من رسول الله وهو قمة في الكمال، قمة في الآية التي لم تُنسخ، وقمة الكمال في الآية التي نُسِخَت ولم يأتِ مكانها بديل، وقمَّةٌ في الآية التي نُسخت وجاء البديل مساوياً لها، وقمة في الآية التي نُسخت وجاء البديل أفضل منها نسبياً، كما ذكرت، أصحاب النبي المتفوِّقون، السابقون واحد مقابل عشرة، هذه الآية نُسخت، دخل الناس بعدئذٍ في دين الله أفواجاً، علم أن فيكم ضعفاً صار واحد مقابل اثنين .

الاستقامة حَديَّة أما العمل الصالح نِسبي:

أصحاب النبي:

(أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران الآية: 102)

دخل الناس في دين الله أفواجاً:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ (16))

(سورة التغابن)

أي بالإنفاق، أما بالترك فالحد واحد:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

(سورة هود الآية: 112)

الاستقامة حَديَّة، والعمل الصالح نِسبي، لو جاء مسلم في آخر الزمان يجب أن يستقيم على أمر الله كما استقام النبي العدنان، أما في البذل والعطاء الصحابة الكرام

(حَقَّ تُقَاتِهِ)

نحن

(مَا اسْتَطَعْتُمْ)

بالبذل والعطاء، بقدر طاقة الإنسان . أوضح مثل: مستودع إحكامه حَدِّي، أما إملاؤه نسبي، لا بد من أن يكون محكماً، لا يوجد بالإحكام حل وسط، محكم يعني محكم، أما إملاؤه بقدر ما معك، تملأ فيه مئة لتر، مئتي لتر، ألف لتر، فالعمل الصالح نسبي بقدر ما تستطيع، أما الاستقامة حديَّة .

فحوى دعوة الأنبياء جميعاً واحدة ولكن التشريعات متفاوتة:

أهم شيء في هذا الدرس أنه لا نسخ في العقائد، مستحيل، النسخ في الأحكام فقط، العقائد لا تتبدَّل ولا تتغيَّر، حتى الأديان في جوهرها واحد:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

تبيِّن هذه الآية أن فحوى دعوة الأنبياء جميعاً واحدة، ولكن التشريعات متفاوتة، كل ديانةٍ تنسخ التي قبلها، لكن هل يعقل أن تكون التي قبلها غير جيِّدة ؟ لا هي لأهلها ولأصحابها قمَّة في الكمال . فدائماً تعطي ابنك سؤالاً وهو في الصف الثالث الابتدائي غير الصف السادس، غير الصف السابع، غير الصف العاشر، غير دكتوراه بالرياضيات، كل مستوى له منهج، فالأديان السماويَّة متساوية في العقائد والتوحيد، والدليل:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

أما المناهج فمختلفة . سيدنا موسى نزل عليه تشريع، وجاء السيد المسيح، ثم جاء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فالتشريع الإسلامي خاتم الشرائع السماويَّة، وإن الدين عند الله الإسلام .

الشيء الثاني: لا نسخ في العقائد ولا نسخ في الأخبار عن الله عزَّ وجل، فإذا أخبرنا الله عزَّ وجل عن شيء مستحيل أن ينسخ هذا الخبر، فالنسخ ممنوع في العقائد والأخبار، مسموح توقيفاً عن الله عزَّ وجل في التشريعات .

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (41- 95):تفسير الآيات 107 - 111، مرض الإعراض وأعراضه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-05-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن الكريم يعلّمنا الوصف الدقيق:

مع الآية الثامنة بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109))

أيها الأخوة الكرام:

(وَدَّ كَثِيرٌ (109))

تفيد كلمة (كثيراً) أنهم ليسوا جميعاً كذلك، هذه دقَّة، وهذا وصفٌ موضوعي، والقرآن الكريم يعلّمنا هذا الوصف الدقيق . لا تقل: أهل هذه المدينة كلُّهم كاذبون . هذا كلام الجُهال، لا تقل: أهل هذه الصنعة كلهم منافقون، دقّق في أحكامك . لو قلت: إن أهل هذه الصنعة كلُّهم منافقون، كلُّهم يكذبون . وقعت في خطأٍ كبير، إن قلت: أكثرهم كذا . هذا كلام دقيق، فدقق في هذه الكلمة:

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (109))

أي أن أكثرهم هكذا، لكن هناك استثناءاتٌ قليلة .

الطرف الآخر وهو الكافر يبحث عن التناقض عند المؤمن ليكبِّره وليشكِّك المؤمن في أصل دينه :

قال تعالى:

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً (109))

أي أن الطرف الآخر يبحث عن نقاط الضعف عند المؤمنين، يكتشف تناقضاً وهمياً في أفكاره أو ليكتشف بعض الأخطاء غير المقصودة في سلوكهم، فيكبِّرها ويقيم النكير عليها، وهو يودُّ أن يشكِّك المؤمنين في أصل دينهم، ذكرنا فيما مضى من الدروس: أنه حينما توجَّه المسلمون إلى بيت المقدس، ثم عادوا بقبلتهم إلى بيت الله الحرام، قال اليهود: إذا كانت القبلة إلى بيت المقدس هي الحق، فلماذا عُدتم إلى بيت الله الحرام ؟ وإن كانت القبلة إلى بيت الله الحرام، فحينما توجَّهتم إلى بيت المقدس فصلاتكم باطلة .

دائماً وأبداً الطرف الآخر يبحث عن التناقض، ليكبِّر هذا التناقض، ليشكِّك المؤمن في أصل دينه، وقد ردَّ الله عليهم بأنه:

(مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا (106))

(سورة البقرة الآية: 106)

بيَّنت في درسٍ سابق أن النسخ هو حكمٌ مرحلي يأتي بعده حكمٌ يتناسب مع المرحلة الثانية . فالطرف الآخر ينتظر بالمرصاد، يبحث عن تناقض، يبحث عن خطأ، هذا المعنى يقودنا إلى آيةٍ مناسبةٍ جداً يجب أن تشرح الآن، الآية الكريمة:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

(سورة الممتحنة الآية: 5)

حينما يقصِّر المؤمن في عمله، حينما يتناقض في كلامه، حينما يكتب تصريحاً كاذباً للحج فرضاً، حينما يهمل عمله، حينما يعد ولا يفي، ماذا يفعل ؟ يفعل جريمة . ما هي الجريمة ؟ الطرف الآخر يتمسَّك بكفره، يتشبَّث به، يقول: أنا على الصواب، وأنت الخطأ، أنا على حق وأنت الباطل لأنك قصَّرت معه، فأي مؤمن يُعدّ سفيراً للمسلمين:

((أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك))

[ورد في الأثر]

أنت مسلم وتمثِّل هذا الدين العظيم، فحينما تُدلي بتصريحٍ كاذب فقد كذبت والمؤمن لا يكذب:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلالِ كُلِّهَا إلا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أحمد عن أبي أمامة]

تمسّك المؤمن بالقيم ووضوحه في الفكر والتزامه في السلوك يحدث عند الطرف الآخر خللاً:

أنت حينما تعد ولا تفي بوعدك أنت بهذا جعلت الطرف الآخر يتشبَّث بكفره، ويحتقر ما أنت عليه، وينتقل احتقاره إلى دينك، فقبل أن تدلي بتصريح، قبل أن تُخلف الوَعد، قبل أن تقدِّم صنعة غير متقنة، قبل أن تقدِّم شيئاً تافهاً، قبل أن تسلك سلوكاً غير صحيح عدَّ للمليون لأن الطرف الآخر يبحث عن خطأ، يضع أعمالك تحت إضاءةٍ شديدة، الأضواء كلُّها مسلَّطة على المؤمن، فإذا أخطأ كُبِّرَ هذا الخطأ وصار خطأً يمسُّ هذا الدين العظيم .

دقّق أنك لو تعاملت مع غير المسلم وأخطأت، لا يقول: فلان أخطأ معي، بل يقول: هكذا الإسلام، يُغفل اسمك ويظهر الإسلام، لو أنك لا سمح الله ولا قدَّر أخطأت في حق مسلم يقول: فلان أخطأ معي . لا يذكر الدين .

ربنا عزَّ وجل يعرض علينا نموذجاً من تمنيّات هؤلاء القوم، يتمنون أن يردوكم بعد إيمانكم كافرين، ماذا يفعلون ؟ يشكّكونكم في أصل دينكم، يشكّكونكم في الوحي، الوحي أصل الدين . فكيف تؤمرون أن تتجهوا إلى بيت المقدس ثم ترجعون إلى مكة المكرَّمة، أيهما هو الأصح ؟ إن كان الصواب أن تتجهوا إلى بيت المقدس، فلماذا تحوَّلتم عنه إلى بيت الله الحرام ؟ وإذا كان الصواب أن تتوجَّهوا إلى بيت الله الحرام، فلماذا تحوَّلتم عنه إلى بيت المقدس ؟ الجواب:

(مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا (106))

(سورة البقرة الآية: 106)

ماذا يفيدنا هذا الدرس ؟ لو وسَّعنا هذا الموضوع يفيدنا أن الطرف الآخر يُعادي الحق، ويبحث عن ثغرات ليكبِّرها ويجعل منها قضيَّة، فأنت كمؤمن ينبغي أن لا تعطي الطرف الآخر حُجَّةً عليك، ينبغي أن لا تعطي الطرف الآخر شيئاً يتمسَّك به . لذلك المؤمن الصادق يُحدث اختلال توازن عند الطرف الآخر، مؤمن، صادق، أمين، مُتقن، متفوِّق في عمله، يفي بوعده، يفي بعهده، لا يخون ولا يكذب، هذا التمسُّك بالقيم وهذا الوضوح في الفكر وهذا الالتزام في السلوك يحدث عند الطرف الآخر خللاً ولعلَّه يؤمن بهذه الطريقة .

إذا ابتعد الإنسان عن الحق وعصى الله يختل توازنه وهناك ثلاث حالات لاستعادة توازنه:

هناك معركةٌ أزليَّةٌ أبديَّةٌ بين الحق والباطل، فالمؤمن حينما يخطئ على مرأى من كافر، يدفع الكافر إلى التشبُّث بكفره، يُعين الشيطان على الكافر، المؤمن حينما يخطئ مع الكافر يعطي الدليل للكافر أن يبقى كافراً، أما حينما يرى الكافر من المؤمن صدقاً، وأمانةً، واستقامةً، ودقَّةً، وإتقاناً، وورعاً يختل توازنه فيُسلم .

متى يدخل الناس في دين الله أفواجاً ؟ حينما يرقى المؤمنون، ومتى يخرج الناس من دين الله أفواجاً ؟ حينما يقصِّر المؤمنون، بتقصيرنا يخرج الناس من دين الله أفواجاً، وبصدقنا واستقامتنا وقوة حجَّتنا يدخل الناس في دين الله أفواجاً . المؤمن مقرِّب وليس مبعِّداً، محبِّب وليس منفِّراً، هذه مهمة المؤمن، هناك من يدعو إلى الله، وهناك من ينفِّر الناس من الله عزَّ وجل، وهذه الكلمة التي يقولها معظم الناس دائماً: هؤلاء أصحاب الدين هكذا، هناك من يقول: إن كل إنسان له صلة بالدين يخطئ، حتى يشفي غليله .

الحقيقة هذا يقودنا إلى موضوع نفسي، الإنسان بفطرته ينبغي أن يكون مؤمناً، فالإنسان مبرمج، مولّف ـ بتعبيرات حديثة ـ مجبول ـ بتعبير قرآني ـ مفطور على حب الحق، وعلى طاعة الله، فإذا ابتعد عن الحق وعصى الله عزَّ وجل يختل توازنه، هذا الاختلال مُزعج، كيف يستعيد هذا الاختلال ؟ هناك ثلاث حالات ؛ حالة واحدة صحيحة وحالتان مرضيَّتان .

1- الحالة الصحيحة أن يصطلح مع الله ويتوب إليه ويستسلم لأمره ويطيعه:

الحالة الصحيحة أن يصطلح مع الله، وأن يتوب إليه، وأن ينيب إليه، وأن يستسلم لأمره، وأن يطيعه، وكل إنسان حينما يتوب يشعر أن جبالاً قد أزيحت عن كاهله، يشعر أن استقراراً قد ملأ قلبه، يشعر بالأمن والطمأنينة، يشعر بالثقة والرجاء، هذه طريقة من طرق أن تستعيد التوازن .

2- أن تطعن بالمؤمنين لتوهم نفسك أن الناس جميعاً هكذا:

الطريقة الثانية: أن تطعن بالمؤمنين، من أجل أن توهم نفسك أن هؤلاء المؤمنين ليسوا كذلك، هذه طريقة مرضيَّة . إما أن تصطلح مع الله فتتوازن، وإما أن تطعن بالمؤمنين لتوهم نفسك أن الناس جميعاً هكذا ؛ لا يوجد واحد جيِّد . هذه طريقة مرضيَّة ولكنها ليست صحيحة .

3- أن تتعلَّق بفكرٍ ضال يُغطِّي انحرافك:

الشيء الثالث: أن تتعلَّق بفكرٍ ضال يُغَطِّي انحرافك، كمثل شخص منحرف يتشبَّث بمفهوم الشفاعة الساذجة، أن افعل ما شئت، فالنبي الكريم سيشفع لك، فكرة مريحة جداً، أنت تفعل ما تشاء ؛ تأكل المال الحرام، تعتدي على من تشاء وأنت متوهِّم أن النبي عليه الصلاة والسلام سيشفع لك يوم القيامة ويدخلك الجنَّة، هذه الفكرة مريحة للمقصِّرين يتعلَّق بفكرٍ خاطئ، بعقيدةٍ ضالَّة، بفهمٍ مريض سقيم، التعلق بهذه المفاهيم يريح من اختل توازنه، أو الطعن بالمؤمنين يريح من اختل توازنه ؛ ولكن الصواب أن تعود إلى الله، وأن تصطلح معه، وأن تطبِّق منهج الله عزَّ وجل، عندئذٍ تستعيد توازنك وتسعد .

كلَّما توسَّع التقصير يرتاح المُقصِّر:

قال تعالى:

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً (109))

ذلك ليستعيدوا توازنهم، هم حينما كفروا اختل توازنهم، لأنهم خالفوا فطرتهم، خالفوا جبلَّتهم، فلمَّا رأوا المؤمنين ملتزمين، منيبين، محبِّين، متعاونين، سعداء فهذا الشيء مقلق، فتمنوا أن يختل توازنهم وأن يعودوا كفَّاراً .

حدَّثني رجل يعمل في التجارة كان مُسرفاً في المعاصي، ذهب إلى بيت الله الحرام وحجَّ وتاب إلى الله، فلما عاد إلى بلده كان في جَلْسةٍ مع أصدقائه القُدامى ـ وهذا خطأٌ كبير ـ قال له أحدهم: اشرب . قال: أنا تبت إلى الله . قال له: كم كلَّفتك الحجَّة ؟ قال له: حوالي خمسين ألفاً، قال له: هذه خمسون ألفاً واشرب .

هذا سلوك يومي، يريد المنحرف أن يجعل كل الناس منحرفين، الكذَّاب يريد أن يجعل كل الناس كاذبين، الذي يخون الأمانة يريد أن يحمل الناس جميعاً على خيانة الأمانة، هذه حقيقة، فالمنحرف يودُّ أن ينحرف الناس معه كي يستأنس، كي يشعر أن كل الناس هكذا .

لذلك أحياناً تسأل طفلاً: أين الوظيفة ؟ يقول وهو لا يشعر: لم نكتبها يا أستاذ . أنت كم واحد ؟ يريد أن يوسِّع التقصير، فكلّما توسَّع التقصير يرتاح المُقصِّر، كل الناس هكذا، والإنسان عندما يبحث عن تغطية لخلله يبحث عن القصص المنحرفة، زيد فعل كذا، لمَ لمْ تبحث عن القصص الأخرى ؟ يأتي بقصَّة أن فلاناً انحرف، وفلاناً انحرف، وفلاناً انحرف ليرتاح، كأنه بهذا يشعر أن الناس كلهم هكذا، مع أن هناك أدلَّةً قويَّةً جداً بالمقابل، فلان استقام، وفلان استقام، وفلان صدق .

الله جلّ جلاله يجعل من المؤمن داعية دون أن يشعر:

بالمناسبة هناك معنى دقيق جداً وهو: أن الله جل جلاله يجعل من المؤمن داعية دون أن يشعر . قد يضيِّق عليه دخله إلى درجة أنه قد لا يكفيه، يأتيه عرضٌ مُغرٍ ولكن هذا العرض فيه شبهة فيرفض، حينما يرفض المؤمن هذا العرض المغري وهو في أمس الحاجة إلى المال، صار هذا المؤمن داعية وهو لا يشعر، داعية بسلوكه، صار مضربَ المثل . فكل ما ساقه الله للمؤمن ووقف منه هذا الموقف الكامل دعوةٌ إلى الله دون أن يشعر .

تجد مؤمناً ينفق من ماله القليل الشيء الكثير، إنفاق ماله دعوة، مؤمن يصبر، صبره دعوة، مؤمن يُضحي، تضحيته دعوة، مؤمن يتعرَّض

لضغطٍ شديد، هذا الضغط الشديد مع ثباته على الحق دعوة، فأنت قد تدعو إلى الله بلسانك، ولكن الله أحياناً يجعل منك داعيةً دون أن تشعر .

أحياناً ينحاز أب وأم إلى ابنهما الضال ويقسوان على ابنهما البار بدافعٍ من الشيطان، يرحبون بابنهم الضال، يكرِّمونه، يعطونه، يتباهون به ؛ يضعون ابنهما البار الديِّن في التعتيم، لا يعبؤون به، يقسون عليه، فهذا البار مع أن والديه يقسوان عليه يبرَّهم، صار دعوة . فأنت لا تعجب، قد يجعل الله منك داعيةً وأنت لا تشعر .

أحياناً يدخل إنسان السجن وهو مظلوم لحكمةٍ أرادها الله، أدخل الله عزَّ وجل نبيَّاً كريماً للسجن، فإذا هو في هذا السجن يصلي، ويذكر الله، ويعرِّف بالله، تكون له مهمَّة هناك، فجعل الله منه دعوةً، دخل السجن وجعل منه دعوةً هناك . فلا بد من أن يجعل الله منك داعيةً بشكلٍ أو بآخر، صبرك دعوة، عفَّتك دعوة، أمانتك دعوة، والمؤمن لا بد من أن يكون نبراساً لبقيَّة الناس، ويجب أن يوطِّن نفسه على أنه تحت الأضواء، وأن كل من حوله ممن شرد عن الله عزَّ وجل يتربَّص به، وينتظره على موقف، فكلَّما كان إيمانك قوياً تحرَص على أن تكون مستقيماً .

النبي عليه الصلاة والسلام علّمنا بأقواله وأفعاله الشيء الكثير:

علّمنا النبي عليه الصلاة والسلام بأقواله وأفعاله الشيء الكثير، فقد كان عليه الصلاة والسلام مع زوجته صفيَّة ؛ فمرَّ صحابيَّان جليلان فقال لهما:

((عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ))

[البخاري عن صفية]

كن واضحاً، وضِّح الأمور، فدائماً وضِّح الأمور لدرجة أن الناس لا يرتابون في سلوكك . قال لها ذلك مع أنهما صحابيان جليلان:

((قالا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ))

[البخاري عن صفية]

قال تعالى:

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ (109)).

فهم حينما يحسدون المؤمنين، لا لأنهم ينقِّذون توراتهم وكتابهم المقدَّس، بل هذا الحسد من عند أنفسهم، هم يخالفون دينهم، دينهم يأمرهم أن يتبعوا النبي الكريم، لأن الله عزَّ وجل يقول:

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (19)).

(سورة آل عمران الآية: 19)

علامات النبي موجودة في كتبهم، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم، توراتهم وإنجيلهم يأمرانهم أن يتبعوا النبي :

(وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ (6)).

(سورة الصف الآية: 6)

إن تمنيت عمل الآخرة فهذه غِبطة وإن تمنيت ما عند أهل الدنيا فهذا حسد:

لكن هذا الحسد من عند أنفسهم، ما الحسد ؟ هذه جبلّة في الإنسان، هل هي مذمومة دائماً ؟ لا، فهي جبلّة حياديَّة، خصيصة حياديَّة، الإنسان مجبول على أن يتمنَّى ما عند الآخرين دون أن يزول عنهم، أي أنه يغار، يتمنَّى ما عند الآخرين هذه جبلّة، هي في الأصل حياديَّة، إن وُظِّفت في الحق سميت الغِبْطَة .

أنت كإنسان ترى إنساناً أعلم منك في الدين تتمنَّى أن تكون مثله، ترى إنساناً حافظاً لكتاب الله تتمنَّى أن تكون مثله، ترى إنساناً أجرى الله على يديه الخيرات تتمنَّى أن تكون مثله، هذه جبلّة جُبِلَ عليها الإنسان، حينما صرفها للخير ارتقى بها إلى أعلى عليين، فإذا تَمَنَّيت أن تكون من أهل الدنيا هذا حسد، إن صُبَّت هذه الخصيصة على الدنيا كانت الحسد، وإن صُبَّتْ على الآخرة كانت الغبطة .

جبلّة حياديَّة لا تُمدح ولا تذم، تُوظَّف في الخير أو في الشر، أي أن تتمنى ما عند الآخرين، أما الحسد وهو الجانب السلبي، الجانب المنهي عنه حينما ترى إنساناً غنياً تتمنى أن يزول المال عنه:

(حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ (109))

تتمنَّى بعد ذلك أن يتحوَّل المال إليك، هذه أقل سوءاً، وقد تفعل بيدك ما تصرف ماله إليك، هذه صارت جريمة، حينما تتمنى أن تزول النعمة عن أخيك هذا حسد، بصرف النظر عن تحوِّلها إليك أو عدم تحوُّلها إليك، وحينما تفعل بنفسك ما يزيل النعمة عن أخيك فهذه جريمة، أما حينما تتمنى أن تكون عالماً كعلم أخيك، حافظاً كحفظ أخيك، لك عملٌ طيبٌ كعمل أخيك هذه غِبْطَة، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((لا حَسَدَ إِلا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ))

[الترمذي عن سالم عن أبيه رضي الله عنه]

إن تمنيت عمل الآخرة فهذه غِبطة، وإن تمنيت ما عند أهل الدنيا فهذا حسد، والحسد والغبطة خصيصتان جُبل عليهما الإنسان .

الاختلاف إما اختلاف طبيعي أو اختلاف مَرَدُّهُ الحسد أو اختلاف التنافس وهو محمود عند الله :

قال تعالى:

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ (109)﴾

معنى ذلك أن الاختلاف ـ كما ذكرت في درسٍ سابق ـ قد يكون بسبب نقص المعلومات، هذا اختلاف طبيعي، وقد يكون بسبب الحسد، اليهود يعرفون النبي كما يعرفون أبناءهم، وفي كتابهم المقدَّس علامات النبي، وإشارات النبي:

﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ (6) ﴾

(سورة الصف الآية: 6)

ومع ذلك كفروا به، وكذَّبوه، وحاربوه، وعادَوْهُ حسداً من عند أنفسهم، وهذا ينطبق على حياة المسلمين، هناك من الخصومات ومن العداوات ما يعود سببه إلى الحسد وحده فقط، وهذا مقياس دقيق أيها الأخوة، إذا أكرم الله أخاك المؤمن بشيء هل تعاديه ؟ حينما تعاديه فقد حسدته، وحينما تعاديه وضعت نفسك في صف المنافقين:

﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾

(سورة التوبة الآية: 50)

أما إذا باركت له ذلك تكون قد وضعت نفسك في خندق المؤمنين، علامة المؤمن أنك تسعد بخيرٍ ساقه الله لأخيك، المؤمنون كالجسد الواحد، أي إذا اغتنى أخوك تسعد بهذا، وصل أخوك لمنصب رفيع تسعد بذلك، حينما تعاديه وضعت نفسك في صف المنافقين، وحينما تبارك له وتطمئن لما أصابه من خير وضعت نفسك في صف المؤمنين .

لذلك الاختلاف هو إما اختلاف طبيعي، أو اختلاف مَرَدُّهُ الحسد، أو اختلاف التنافس وهو اختلاف محمود عند الله .

﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾

(سورة البقرة الآية: 213)

أخطر مرض هو الإعراض عن الله وكل شيء يزعجك من الكافر هو أعراض الإعراض:

قال تعالى:

﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ (109)﴾

المؤمن فوق هذه الخصومات، اعفُ عنهم، موقف المؤمن دائماً كموقف طبيب الأمراض الجلديَّة من مريض مصاب بمرض جلدي، هل يحقد عليه أم يُشفق عليه ؟ بالضبط المؤمن أمام المنافقين أو الكافرين لا يحقد عليهم بل يشفق عليهم، كما لو كنت طبيباً اختصاصياً بالأمراض الجلديَّة وجاءك

مريض مصاب بمرض جلدي خطير ومزعج ومنفّر إنك لا تحقد عليه أبداً بل تشفق عليه، وهذا حال المؤمن الطيِّب، لذلك:

(فاعْفُوا (109))

عن هؤلاء، لأنهم مرضى، الجاهل مريض، الجاهل منحرف، الجاهل حقود، حقده من إعراضه عن الله.
بالمناسبة هناك مرضٌ ـ الكلام دقيق ـ مرض واحد له مئات الأعراض، فالأعراض ليست أمراضاً ولكنها أعراض مرض واحد، المرض الواحد الخطير هو الإعراض عن الله، وكل شيء يزعجك من الكافر هو أعراض الإعراض، الحسد من أعراض الإعراض، والكِبر من أعراض الإعراض، والبَغي من أعراض الإعراض، والعدوان من أعراض الإعراض، والكذب والاحتيال من أعراض الإعراض، الإعراض عن الله له آلاف الأعراض .
لذلك هذه الأعراض لا تعالج ينبغي أن يعالج الإعراض عن الله بالتوبة إليه والصلح معه . فالإعراض معه حسد، ومعه بغي، وعدوان، وكبر، وتسلُّط، واحتيال، ومكر، وخديعة، وغطرسة، واعتزاز، حينما تقبل على الله تزول عنك كل أعراض الإعراض فإذا أنت المسامح، العفو، الكريم، اللطيف، الرحيم، المؤمن، الطيب، البسيط.

يجب ألا تعالج أعراض الإعراض بل عالج مرض الإعراض وهذا هو الأصل:

الطبيب الماهر حينما يأتيه مريض ارتفعت حرارته، الطبيب غير الماهر يعطيه خافضاً للحرارة، ولكن الطبيب الماهر يبحث عن السبب الخفي لارتفاع الحرارة، فإذا كان التهاباً عالج الالتهاب فانخفضت الحرارة .
أنت كطبيب لا تعالج أعراض الإعراض بل عالج مرض الإعراض، عالج المرض تزول هذه الأعراض، أما إذا عالجت العرض فقط فإنه لا يشفى لأن الأصل موجود، أعطيته خافض حرارة، فإذا انتهى مفعول هذا الدواء، عاد العرض إلى ما كان عليه ـ أي عادت الحرارة إلى ما كانت عليه ـ أما إذا عالجت أصل المرض زالت الأعراض بشكلٍ طبيعي، فأنت يجب أن لا تعالج أعراض الإعراض بل عالج مرض الإعراض هذا هو الأصل .

لو أن إنساناً تطعمه فيشتكي، تطعمه فيتسوَّل، ما عرف الله، لو عرف الله عزَّ وجل واستقام على أمره لأغناه الله، ورفع رأسه، وأعطى بدل أن يأخذ، فمهما عالجت هذا المُقصِّر مع الله عزَّ وجل، كلَّما أعطيته يسأل: هل من مزيد ؟ أما إذا دللته على الله، واصطلح معه، وأناب إليه رزقه الله رزقاً حسناً، فأعطى بدل أن يأخذ .

(فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا (109))

أي أزيلوا أثر هذا الشيء من نفوسكم، العفو أن لا تحاسبه على خطئه، ولا تعاقبه، أما الصفح أن تزيل هذا من نفسك .

أمر الله عزَّ وجل أن ينصر المؤمنين ولكن في وقتٍ لا يعلمه إلا الله:

قال تعالى:

(حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ (109))

أمر الله عزَّ وجل أن ينصر المؤمنين، لكن هناك وقتاً لا نعلمه:

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ (46))

(سورة يونس الآية: 46)

أمر الله نصر المؤمنين، إظهار الحق، إبطال الباطل، ولكن قد تكون الأمور مختلطة، فأنت مؤمن، وهناك إنسان آخر غير مؤمن يأكل، ويشرب، ويعيش، ويتكلَّم، ويقول ما يشتهي، متى يُفْصَلُ بين المؤمنين وغير المؤمنين ؟ في وقتٍ يعلمه الله:

(إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (17))

(سورة الحج الآية: 17)

وقال:

(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109))

أي إنه قدير أن يظهر الحق، ولكنه يظهره في وقتٍ مناسب . ألم يكن الله عزَّ وجل قادراً على أن يرسل النبي عليه الصلاة والسلام في مكانٍ ليس فيه أي كافر ؟ ممكن، لو جعل الله كل هؤلاء الكفار في قارة ثانية، وجاء النبي إلى مكة، كلهم مؤمنون، كلهم آمنوا به، وليست هناك هجرة، ولا يوجد بدر، ولا أحد، ولا الخندق، لا يوجد شيء أبداً، كلهم ذائبون في محبته لم تعد هناك جنة . الطرف الثاني له فضل عليك، الطرف الثاني عندما يكيد لك وأنت تصبر ارتقيت، عندما يكيد لك وأنت تبحث عن الحقيقة ارتقيت، عندما

يكيد لك وأنت تقف أمامه بكل ما تملك ارتقيت، فشاءت حكمة الله أن يتصارع الحق والباطل في كل مكان وفي كل زمان وهذا مما يقوي الحق، أما لو غاب الطرف الثاني يضمُر الطرف الأول.

الذي يمدحك مدحاً ساذجاً يجعلك لا ترقى أما الذي ينتقدك يجعلك ترقى:

إذا لم تكن هناك حركة، كأن تصاب يد بكسر ويوضع لها الجبس، بعد حين تضمُر العضلات، فلو لم يكن طرف آخر يناوئ، ينتقد، يطعن، فأنت تهمد، هناك حكمة إلهيَّة لأن الحياة تتوقد بهذه المعركة . أحياناً يُطبَع كتاب فيه ضلالات كثيرة جداً، هذا الكتاب مثل اللقاح الذي يعطي للجسم جرثوماً مُضعَّفاً، مما يجعل أجهزة الجسم تعمل ليلاً نهاراً لتصنع المصل المضاد لهذا الجرثوم، صار هناك مناعة، هذه المناعة ما كان لها أن تكون لولا هذا اللُقاح، فاللقاح مفيدٌ جداً في إحداث المَناعة، قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ(112)وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ(113))

(سورة الأنعام)

هذا الكتاب الضال يحدث حركة، عاد المؤمن إلى العلماء وسألهم، اجتهد العلماء وردّوا عليه، هذا الكتاب الضال ومع ما فيه من ضلالات عمل حركة مُنْعِشَة، لو لم يكن هناك طرف آخر فإنه يحدث ضمور، سكون، همود، تلاشي، هذه حكمة الله، لا تحزن إذا كان الإنسان يناوئك، هذا يرقى بك، بالمناسبة الذي يمدحك مدحاً ساذجاً يجعلك لا ترقى، أما الذي ينتقدك يجعلك ترقى، لذلك قال بعض الشعراء:

عداتي لهم فضلٌ عليَّ ومنَّةٌ فلا أعدم الله لي الأعاديا

* * *

هذا العدو يراقبك، ينتقدك، يقف لك بالمرصاد أنت ماذا تفعل ؟ تضبط أمورك، تضبط كلامك، تضبط كل شيء، فهذا الضبط سببه الطرف الآخر . على كلٍ كما قال الإمام الغزالي: **" ليس في الإمكان أبدع مما كان "** .

بطولتك أن تكون مع الله وعلى الحق وما دمت على الحق فلا بدّ من أن يظهر الحق:

قال تعالى:

(فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109))

الله عزَّ وجل هو الحق، والحق لا بد من أن يُحقّ، على الله جلَّ جلاله أن يُحق الحق، قل ما شئت، ادَّعِ ما شئت، اتهم من شئت، الله متكفّل أن يحق الحق وأن يبطل الباطل، هذا على الله عزَّ وجل، وكلّما جاءت

(على)

مع لفظ الجلالة أي أن الله عزَّ وجل ألزم نفسه بذلك:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل)

وقال:

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

(سورة النحل الآية: 9)

وقال:

(حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109))

قدير أن يأتي بأمره في كل وقت، ولكن له حكمة لا نعلمها، أي أن بطولتك أن تكون مع الله وأن تكون على الحق، ما دمت على الحق لا بد من أن يظهر الحق .

الباطل لا بدّ من أن يزهق مهما كان عظيماً وكبيراً ومتعدِّداً:

قال الله عزَّ وجل:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

(سورة الإسراء)

الباطل لا بد من أن يزهق مهما كان عظيماً، ومهما كان كبيراً، ومهما كان متعدِّداً، مهما كان عظيماً وكبيراً ومتعدِّداً:

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)

(سورة الإسراء)

الزهوق صيغة مُبالغة، أي لا بد من أن يزهق، لا بد من أن يكون في الوَحل، فرعون لمَّا غرق قال هو نفسه:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ(90))

(سورة يونس الآية: 90)

قال تعالى:

(آَلْآَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس الآية: 91)

وقال:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110))

الفرض المتكرِّر الذي لا يسقط بحال هو الصلاة:

إخواننا الكرام، الشهادة ينطق بها مرَّةً في العمر، تقول: أشهد أنه لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله حينما تعلن إسلامك، والزكاة تسقط عن الفقير وتؤدَّى في العام مرَّةً، والصيام يسقط عن المريض والمسافر ويؤدَّى في العام مرَّةً، والحجُّ يسقط عن المريض وعن الفقير ويؤدَّى في العمر مرَّة، هذه أركان الإسلام ؛ شهادة أن لا إله إلا الله والصيام والحج والزكاة، أما الفرض المتكرِّر الذي لا يسقط بحال هو الصلاة، قال تعالى:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ (110))

أي أقم الصلاة:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

(سورة العلق)

الصلاة قرب:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14))

(سورة طه)

الصلاة ذكر:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت الآية: 45)

أدلة من القرآن والسنّة على أن الصلاة طهور ونور وعقل:

قال النبي الكريم: الصلاة طهور تطهِّرك من كل الأدران، و:

((الصَّلَاةُ نُورٌ))

[رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري]

تلقي في قلبك نوراً ترى فيه الحق والباطل .

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة الملك)

وقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد الآية: 28)

الصلاة نور، الصلاة حبور، سعادة:

((أرحنا بها يا بلال))

[أبو داود عن سالم بن أبي الجعد]

الصلاة عقل:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ (43))

(سورة النساء)

معنى هذا أن الصلاة عقل، وقد قيل: **"ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها ".**

كيف تقيم الصلاة ؟

الصلاة عُروج .

((الصلاة معراج المؤمن))

[من شرح الجامع الصغير]

عروج إلى الله عزَّ وجل، الصلاة مناجاة:

((لو يعلم المصلي من يناجي ما انفتل))

[عبد الرزاق ومحمد بن نصر عن الحسن]

فالصلاة مناجاة، والصلاة عروج، والصلاة حبور، والصلاة نور، والصلاة طهور، والصلاة ذكر، والصلاة قُرب، والصلاة عقل:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ (110))

لم يقل: وَصَلّوا، بل قال:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ (110))

عندما يقام بناء فهو يحتاج بشكل أو بآخر إلى رخصة، يحتاج إلى حفر أساسات، يحتاج إلى هيكل إسمنتي، إلى كسوة، إلى أثاث، فكيف تقيم الصلاة ؟ بطاعتك لله أولاً، بغض بصرك عن محارم الله، بالصدق، بالأمانة، حينما تكون كما أراد الله تقف فتصلي .

المؤمن موصول بالله باستقامته وطاعته وصدقه وأمانته وإخلاصه:

قال تعالى:

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ (31))

(سورة الأعراف)

طبعاً الآية لها معنى ضيِّق ولها معنى واسع، حينما تأتي بطاعةٍ لله إلى المسجد، حينما تأتي بعملٍ صالح، حينما تأتي صادقاً، حينما تأتي أميناً، حينما تأتي متواضعاً، حينما تأتي محسناً وتصلي يصبح الخط ساخناً مع الله عزَّ وجل . لو كان عند أحدنا هاتف ولكنه بدون حرارة ماذا يفعل به ؟ ينزعج انزعاجاً شديداً لأنه لا يوجد خط، أنت أمام كتلة من البلاستيك، أما حينما ترفع السمَّاعة فتسمع ونَّة (صوتاً) أي أن الخط ساخن، الخط مفتوح، المؤمن معه خطٌ ساخنٌ إلى الله باستقامته، وطاعته، وصدقه، وأمانته، وإخلاصه، خطُّه مع الله مفتوح وساخن، أي فيه حرارة، ولذلك العبرة أن تصلي الصلاة التي أرادها الله عزَّ وجل:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ (110))

طبعاً هذه على الأغنياء، معنى هذا أنك مكلَّف أن تكسب المال لسدِّ حاجتك، وسد حاجة أهلك، ولعلَّك تكسب المال لسد حاجة الفقراء، أنت حينما تؤدي زكاة مالك تسُد حاجة الفقراء، فكأنك مكلَّف أن تكسب المال لسد حاجتك الشخصيَّة وحاجة أهلك ومن تعول، فإذا فاض مالك عن حاجتك عليك أن تدفع زكاة مالك أي تسد حاجة الفقراء، فكل إنسان يكسب المال وينفق من هذا المال في سبيل الله يرقى عند الله عزَّ وجل:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ (110))

صار لك عمل متعلّق بالمجموع، تعاونت مع المؤمنين، كسبت مالاً يسد حاجتك وحاجة أهلك وحاجة فقراء المسلمين .

التجارة التي لا تبور هي أن تتاجر مع الله والله تعالى أرادنا أن نربح معه:

قال تعالى:

(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110))

المؤمن يضع اللقمة في فم زوجته تكون له يوم القيامة كجبل أُحُد، أي أن الله عزَّ وجل أرادنا أن نربح معه .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(10)تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(11))

(سورة الصف)

التجارة التي لا تبور هي أن تتاجر مع الله . مثل بسيط: مَلِك قال لمعلّم: أعطِ ابني دروساً وأنا أحاسبك. فهذا المعلّم ضيّق الأفق، بعد أن أعطى الابن درساً قال له: أعطني أجرته . أعطاه الابن خمسمئة ليرة، والسعر مئتان فأعطاه خمسمئة، لكن الأب كان سيعطي هذا المعلّم بيتاً ومركبة وكل شيء أراده . فهو طمع بعطاء العباد، أما المؤمن الصادق يطمع بما عند الله . سأل النبي الكريم أحد الصحابة فقال له:

((" يا ربيعة سلني فأعطيك " فقلت: أنظرني حتى أنظر، وتذكرت أن الدنيا فانية منقطعة فقلت: يا رسول الله أسألك أن تدعو الله أن ينجيني من النار ويدخلني الجنة . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: "من أمرك بهذا؟" قال: قلت: ما أمرني به أحد ولكني علمت أن الدنيا منقطعة فانية وأنت من الله بالمكان الذي أنت منه فأحببت أن تدعو الله. قال: "إني فاعل فأعني بكثرة السجود))

[رواه الطبراني عن ربيعة بن كعب]

مهما بدا لك الخير قليلاً فله عند الله أجرٌ كبير:

أنت حينما تخدم عباد الله لوجه الله لك عند الله أجرٌ لا يعلمه إلا الله، أما حينما لا تتحرَّك حركة إلا بالأجرة ليس لك عند الله من شيء .

(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ (110))

(من)

تفيد استغراق الأجزاء الصغيرة، فهل هناك أقل من أن يجد إنسان قشَّة صغيرة على أرض المسجد فيضعها في جيبه ؟ أقل من أن تجد نملة تسير على المغسلة فانتظرت حتى خرجت، ولم تغرقها بالماء، هذا عمل صالح .

(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ (110))

أطعمت هرَّةً، سقيت كلباً، غفر الله لامرأة لأنها رأت كلباً يلهث ويأكل الثرى من العطش، ملأت خفَّها ماءً وسقت الكلب فغفر الله لها . فالله عزَّ وجل يكافئك على أدق الأشياء، حتى في البيت كل عمل طيب تفعله ترقى به عند الله .

(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ (110))

مهما بدا لك الخير قليلاً فله عند الله أجرٌ كبير، وهذا مصداق قوله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

الله عز وجل بصير بالنوايا التي وراء عملك:

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110))

دقِّق ؛ بصير بحجم عملك، بصير بالنوايا التي وراء عملك، بصير بحجم التضحية التي ضحيت بها من أجل هذا العمل، الوقت ثمين:

(وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ(20))

(سورة المزمل الآية: 20)

أحياناً يكون الإنسان في أشد الحاجة الماديَّة إلى المال، يعطي أخاه مبلغاً من مصروفه الشخصي، الله يقدِّر كل ذلك:

(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110))

هو العليم بسر هذا العمل، العليم بالنيَّة التي وراء هذا العمل:

((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ))

[متفق عليه عن عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ]

إنسان أحب امرأة، فاشترطت عليه أن يهاجر حتى يتزوجها، فهاجر من مكة إلى المدينة، فُسُمِّيَ عند الناس مهاجر أم قيس، هو هاجر من أجل أن يتزوَّج هذه المرأة لذلك ورد في الحديث:

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ))

[متفق عليه عن عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ]

أعمال تُذهِب فضل الطاعة:

إنسان قال لك: إذا انضممت للمؤمنين فسيزيد ربحي لأنهم سيصبحون زبائني جميعاً، فمجيئه إلى المسجد هذا بنية أن يزداد ماله، اختلف الوضع، يقول لك: أنا أصوم لأحسِّن صحَّتي . اختلف وضع الصيام، أنا أصلي لكي تتقوَّى عضلاتي لأن الصلاة رياضة .

هذه كلها أعمال تذهب فضل الطاعة:

(إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110) وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى (111))

قال اليهود: لن يدخل الجنَّة إلا من كان يهودياً . توهموا أن الجنة لهم وحدهم، والنصارى قالوا: لن يدخل الجنَّة إلا من كان نصرانياً . والمسلمون يقولون: لن يدخلها إلا من كان مسلماً . هذا ادعاء، قال:

(تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ (111))

الأماني بضاعة الحَمْقَى، فكل طالب من القُطر يتمنَّى أن ينجح، التمني سهل لا يكلف شيئاً .

(تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111))

أين العمل الذي يؤهِّلكم لدخول الجنَّة ؟ أين التضحية التي ضحيتم بها ؟ أين الالتزام الذي التزمتم به ؟ يقول لك أكثر المسلمين الآن بسذاجةٍ مضحكة: الحمد لله نحن مسلمون، نحن من أمة محمَّد .

((يا عباس عم رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً))

[مسلم عن أبي هريرة]

((لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

[أحمد عن أبي هريرة]

((من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أحمد عن أبي هريرة]

الأماني بضاعة الحمقى:

الله عزَّ وجل قال:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1))

(سورة المسد)

أبو لهب عم النبي:

(مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(2))

(سورة المسد)

وقال:

(تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111))

أين البرهان ؟ أكثر الناس يقول: أنا إيماني أقوى من إيمانك . لكن بيتك كله معاصي، عملك كله معاصي، مالك كله حرام، هذا الكلام فارغ إذاً:

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111))

الآية التي نشرحها إن شاء الله في الدرس القادم:

(بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-06-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

أن تحكم على نفسك أنك على حق وأن الجنة لك وحدك فهذا من باب التألّي على الله:

مع الآية الحادية عشرَة بعد المئة وهي قوله تعالى :

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111))

هذا هو ما قال عنه العلماء: التألّي على الله، كان النبي عليه الصلاة والسلام في بيت أحد أصحابه الذين توفَّاهم الله عزَّ وجل، فقالت امرأةٌ: هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله فقال عليه الصلاة والسلام:

((وما يدريك أن الله أكرمه ؟ أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم))

[أخرج أحمد والبخاري والنسائي وابن مردويه عن أم العلاء رضي الله عنها]

هذا هو موقف العبوديَّة مع الله عزَّ وجل، أما أن تحكم على نفسك أنك على حق وحدك، وأن الجنة لك وحدك، فهذا من باب التألّي على الله .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلْ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ (49))

(سورة النساء الآية: 49)

كأن الله ذمَّهم حينما وصف فِعْلَهُم بأنهم يزكُّون أنفسهم، هذا في النصوص الإسلاميَّة:

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى (111))

أي إن اليهود قالت: لن يدخل الجنَّة إلا من كان يهودياً، وأن النصارى قالت: لن يدخل الجنَّة إلا من كان نصرانياً، والمقصِّرون من المسلمين يقولون مثل قولهم: الجنَّة للمسلمين وحدهم، هذا افتراءٌ على الله، أو تألٍّ على الله عزَّ وجل، ردَّ الله عزَّ وجل عليهم فقال :

(تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ (111))

الأماني بضاعة الحمقى، تمنَّ ما شئت .

رَبَط الله جلَّ جلاله الرجاء بالسعي أما التمني فلا يقدِّم ولا يؤخِّر:

قال تعالى:

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا (19))

(سورة الإسراء)

رَبَط الله جلَّ جلاله الرجاء بالسعي، أما التمني فلا يقدِّم ولا يؤخِّر ولا يرقى بالإنسان عند الله أبداً، بل إن كل إنسانٍ كائناً من كان يتمنَّى أن يكون غنياً جداً، وكل طالبٍ كائناً من كان يتمنى أن يكون ناجحاً، إذا تمنى النجاح ولم يدرس، وإذا تمنى الغنى ولم يعمل، وإذا تمنى أن يكون عالماً ولم يطلب العلم، فهذه بضاعة الحمقى:

(تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ (111))

الله جلَّ جلاله لا يتعامل مع التمنِّيات، بل إن الله عز وجل ذم الذي يتمنَّى فقط، المؤمن يطلب ويسعى وسعيُه علامة صدقه في طلبه، وعملُه الطيِّب علامة صدقه في طلبه، وإخلاصه علامة صدقه في عمله.

تقييم الناس من أقوالهم هو تقويمٌ باطل لأن الإنسان لا يقيَّم إلا من أعماله:

قال تعالى:

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى (111))

دمج ربنا عزَّ وجل القولين في قولٍ واحد، لأن أساسها وقالت اليهود: لن يدخل الجنَّة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنَّة إلا من كان نصرانياً، فدمج القولين في قولٍ واحد:

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى (111))

كل إنسان يتوهَّم أنه على حق وحده وما سواه على باطل، وأن الجنَّة له وحده وأن ما سواه إلى جهنَّم، فهذا ضيقٌ في الأفق، وهذا تحجيرٌ لرحمة الله عزَّ وجل:

(تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111))

إذا قال الإنسان: أنا مؤمن . عليه أن يقدِّم بُرهاناً، إذا قال: أنا ملتزم، أين التزامك ؟ أنا ورع، أين ورعك ؟ أنا مسلم، أين إسلامك ؟ أنا تقي، أين تقواك ؟ أنا محسن أين إحسانك ؟

بالمناسبة من السهل جداً أن يقيَّم الناس من أقوالهم، فهذا تقويمٌ باطل، الإنسان حقيقةً لا يقيَّم إلا من أعماله، فقد يكون له كلامٌ كالعسل وفعلٌ كالأثل وكالصبر، فهذه الازدواجيَّة تجدها عند معظم الناس، إذا حدَّثك تُعجب بكلامه فإذا عاملك يسقط كلامه عندك، وحينما يكون الناس ذوو كلام طيِّب وفعل قبيح يسقطون من عين الله، اجلس الآن في أي مجلس تجد فيه تبادل مديح، فإذا تفرَّق هؤلاء من

المجلس طعن بعضهم ببعض إنه نفاق، هذا الذي تمدحه في وجهه لماذا تذمُّه في غيبته ؟ ولماذا تمدحه وأنت تعلم أنه ليس على حق ؟ لماذا تمدحه وتعلم أنه فاسق ؟

((إن الله ليغضب إذا مدح))

[أخرجه ابن أبي الدنيا وابن عدي وأبو يعلى والبيهقي من حديث أنس بسند ضعيف]

من وقَّر مبتدعاً فقد أعان على هدم الدين .

الازدواجية والنفاق من أمراض المسلمين اليوم:

إنسان مبتدع جاء بشيء ليس من الدين لماذا تبجِّله وتعظِّمه وتبدي أعلى درجات الاحترام له ؟ فأنت بهذا كنت مِعْوَلاً هدم الدين، فهذه الازدواجية وهذا النفاق من أمراض المسلمين اليوم:

﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) ﴾

أنا أُصدِّق طبيباً إذا نصحني أن أدع الملح مثلاً منعاً لارتفاع الضغط ، لمَ لا تنصاعُ لنصيحة خالق الأكوان ؟ قال الإمام الغزالي: **"يا نفسُ لو أن طبيباً منعكِ من أكلةٍ تحبينها لا شكَّ أنكِ تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله ؟ إذاً ما أكفركِ، أيكون وعيد الطبيب أشد عندكِ من وعيد الله ؟ إذاً ما أجهلكِ ".**

كأن الله عزَّ وجل يقول: هذه دعوى فأين البرهان ؟ تدَّعون أن الجنَّة لكم وحدكم ولكن ما برهانكم على ذلك ؟ وما العمل الذي إذا فعلتموه ارتقيتم عند الله عزَّ وجل ؟ وأنت لاحظ عندما يكون إنسان شارداً تائهاً غافلاً عن الله يناقش مؤمناً، يقول له: أنا إيماني أقوى من إيمانك، أنا إيماني بقلبي ! لكنه في سلوكه ليس منضبطاً أبداً، ثم يدعي أن إيمانه بقلبه، أخرج ديناً جديداً، يقول: العبرة بالقلب، والمرأة الساقطة تقول كذلك، فلا يوجد إنسان ساقط بسلوكه إلا ويدعي أن إيمانه بقلبه هذه دعوى، كأن لسان حال هؤلاء يقول: يا رب ألا يدخل الجنة أحد ؟ هؤلاء تمنوا دخولها ولا يدخلونها، ألا يدخل الجنَّة أحد ؟ قال الله عزَّ وجل:

﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ (112) ﴾

أي طبَّق أمر الله مخلصاً، الوجه يعبَّر به عن الذات، أنا أبتغي بهذا العمل وجه الله، أي أبتغي ذات الله عزَّ وجل، أشرف شيء بالإنسان وجهه، فأنت تقول: أبتغي وجه الله عزَّ وجل، أي أبتغي ذات الله عزَّ وجل .

خُلُقُ المؤمن:

قال تعالى:

﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ (112) ﴾

أي وجدته مطيعاً لله، وجدته وقّافاً عند كلام الله، وجدته مؤتمراً بما أمر الله منتهياً عما نهى الله عنه، يرتاد بيوت الله، يبتعد عن أماكن اللهو، ويجعل دخله حلالاً، ويبتعد عن الدخل الحرام، ويُقيم الإسلام في بيته، أي أنه من فرقه إلى قدمه ينطق بإسلامه، إذا حدَّثك فبالقرآن والسنة، وإن نظر ضبط بصره وغَضَّه عن محارم الله، وإن استمع لا يستمع إلى منكر، إن نطق لا ينطق إلا بالحق، إن تكلَّم ذكر الله وإن سكت فكَّر في خلق الله، وإن رأى أدرك العبرة مما يرى .

أحياناً يقول لك إنسان: والله مؤمن ورب الكعبة ؛ بكلامه، وجلسته، ومشيته، ونظرته، وحديثه، ومواقفه، وعلاقاته، ومعاملاته، وبيته، وعمله هو مسلم إسلاماً خالصاً فقد سُئلت السيدة عائشة عن خلق رسول الله فقالت:

((كان خُلُقُه القرآن))

[مسلم عن عائشة رضي الله عنها]

قال بعضهم: " القرآن كونٌ ناطق، والكون قرآنٌ صامت والنبي عليه الصلاة والسلام قرآنٌ يمشي " . المؤمن وقَّاف عند كتاب الله، يأتمر بما أمر، وينتهي عما عنه نهى وزجر، ولا يفعل إلا ما يرضي الله:

(بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ (112))

(وَهُوَ مُحْسِنٌ)

هذه الكلمة مطلقة، محسن في كل شيء ؛ محسن في عمله المهني، محسن في بيته، محسن في أفراحه، الفرح لا يستخفُّه، محسن في أحزانه، الحزن لا يسحقه، إنفاقه ولو كان غنياً ينفق الدرهم في مكانه الصحيح، محسن في كسب ماله لا يُخادع الناس، ولا يغشُّهم، ولا يحتال عليهم، ولا يأكل المال الحرام، ولا يأكل المال بالخِداع، فكلمة

(مُحْسِنٌ)

مطلقة . لذلك حينما يموت المؤمن تبكي عليه السماء والأرض، والكافر إذا مات لا تبكي عليه السماء ولا الأرض .

الاستسلام لأمر الله هو الاستقامة والإحسان هو العطاء:

قال تعالى:

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ (29))

(سورة الدخان الآية: 29)

إنه محسن، متقن بعمله، صادق بكلامه، إذا وعد وفى، إذا حدَّث صدق، وإذا عامل أنصف، قال: هذا الذي أسلم وجهه لله وهو محسن هذا الذي يدخل الجنَّة، الجنَّة لمثل هؤلاء . وهذا درس لنا، أخلص لله عزَّ وجل، وطبِّق أمره، وأحسن .

يوجد في هذه الآية شيء تطبيقي وشيء إنشائي، أنت مستسلم لأمر الله، طبَّقت أمر الله وأنت محسن أي أن هناك عطاء، أنت قدَّمت شيئاً معنى محسن أي أنك قدَّمت شيئاً، فالاستسلام هو الاستقامة، والإحسان هو العطاء، وكل واحد منا لو سأل نفسه هذا السؤال: يا نفس ماذا قدَّمتِ ليوم القيامة ؟ ماذا قدَّمت للمسلمين ؟ ما العمل الذي يمكن أن تعرضيه على الله عزَّ وجل ؟ هذا سؤال دقيق . هناك إنسان يعيش لذاته، وهناك إنسان يعيش للآخرين، فقيمتك عند الله تساوي عملك الصادق، وأنت في الدنيا هنا من أجل العمل الصالح .

(أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ (112))

استقام على أمر الله، نفَّذ الأمر وانتهى عما عنه نهى الله عزَّ وجل، هذه الاستقامة، وهو محسن أعطى؛ أعطى من ماله، أعطى من وقته، أعطى من علمه، أعطى من جهده، أعطى من خبرته، أعطى المسلمين، نصحهم ما غشَّهم، ما كذب عليهم .

(بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ (112))

إسلام الطاعة وإسلام الإخلاص، أي أنه أطاع الله مخلصاً ثمَّ أعطى مما أعطاه الله، هل هناك إنسان ليست له ميِّزة ؟ هل هناك إنسان ليست له حرفة ؟ أو أنه لا يفهم شيئاً ؟ المؤمن الصادق يقدِّم جزءاً من اختصاصه، ومن حرفته، ومن خبرته، مما مكَّنه الله منه لوجه الله عزَّ وجل، فالطبيب يعالج المرضى الفقراء لوجه الله، والمحامِي المؤمن يتولَّى قضايا لأناس فقراء لوجه الله، والتاجر المؤمن يؤدي زكاة ماله وينصح المسلمين، وما من حرفةٍ تستعصي عن أن تكون لوجه الله، ما من حرفةٍ تستعصي عن أن تعمل من خلالها العمل الصالح .

من فضل الله تعالى علينا أنه لا يغيِّر إن لم نغيِّر:

قال تعالى:

(فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ (112))

يا لطيف !!

(وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112))

دقِّق، لا خوفٌ عليهم في المستقبل إذ لا يوجد شيء مقلق، فالمستقبل لصالحك، وخطَّك البياني صاعد:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة الآية: 51)

من فضل الله إن لم تغيِّر لا يغيِّر، فهذه الآية :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد الآية: 11)

أي أنك إذا كنت مرتاحاً ـ بالتعبير الدارج ـ لا تغيِّر حتى لا يغيِّر . وإذا كنت غير مرتاح غيِّر كي يغيِّر.

والله هذه الآية تكفي أيها الأخوة، فإذا كنت مرتاحاً تعيش في بحبوحة، ليس لديك أي مشكلة، ولكنك قلق أن يزول عنك هذا الواقع المريح، لا تغيِّر كي لا يغيِّر، بل ستكون على أحسن، أما إذا كنت تعاني من مشكلة غيِّر حتى يغيِّر .

أي عملٍ صالحٍ هو قرضٌ لله عزَّ وجل والذي سيردُّ لك هذا القرض هو خالق الأكوان:

هذا الذي:

(أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ (112))

له أجره عند ربه، فماذا تفهم منها ؟ إذا قال لك طفل صغير: أجرك عندي، ماذا يعطيك ؟ وما الذي معه حتى يعطيك ؟ أما إذا قال لك ملك: أنا سأكرمك . الملك لا يعطي مئة ليرة ولكنه يعطي أقل شيء بيتاً، يعطي مركبة فخمة جداً، ويعطي أقل شيء منصباً رفيعاً، إذا قال لك الله عزَّ وجل ملك الملوك:

(فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ (112))

ذكرت اليوم في الخطبة أن الله عزَّ وجل حينما يقول:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

(سورة البقرة الآية: 245)

أي عملٍ صالحٍ على الإطلاق ؛ لأي إنسان، ولأي حيوان، ولأي نبات، فلو سقيت نباتاً، ولو أطعمت عصفوراً، أو أطعمت هرَّةً، أو رحمت إنساناً أي إنسان، ولو تكلَّمت كلمة طيِّبة، أو ابتسمت في وجه أخيك، أي عملٍ صالحٍ على الإطلاق هو قرضٌ لله عزَّ وجل، والذي سيردُّ لك هذا القرض هو خالق الأكوان:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

(سورة البقرة الآية: 245)

أجمل ما في المؤمن أنه لا يندم على شيءٍ فاته قط:

هناك أخوان كرام تعاملوا مع الله بالإحسان إلى خلقه فرأوا من الله عزَّ وجل إكراماً لا يصدَّق، أنت تكرم عبادي والله عزَّ وجل يجزيك على إكرامك هذا أعظم الجزاء .

(بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ (112))

في المستقبل:

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112))

على الماضي . أجمل ما في المؤمن أنه لا يندم على شيءٍ فاته قط، وسيدنا الصدِّيق فيما يوصف به أنه ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط، لأنه يا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وإذا وجد العبد الله عزَّ وجل وجد كل شيء، وإذا فقد الله فقد كل شيء، فإذا وصلت إلى الله يصبح كل شيء سهلاً .

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ (113))

والكتاب واحد:

(وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ (113))

بربكم أليس هذا واقع المسلمين ؟ كتاب واحد، نبيٌّ واحد، سُنَّةٌ واحدة، هدفٌ واحد، ومنهج واحد، وإله واحد والمسلمون فرق وطوائف، كلٌ يدعي أنه وحده على الحق، وكلٌ يطعن بالآخرين .

الاختلاف أنواع:

شيءٌ ذكرته قبل دروسٍ كثيرة: أن هدف ذكر قصة بني إسرائيل في القرآن لكي نأخذ حذرنا، فكل مرضٍ وقع فيه بنو إسرائيل نحن مرشَّحون أن نقع فيه، وهذا مرض من الأمراض ؛ الفرقة، والمنازعة، والطعن، والتكفير، والاتهام بالشرك:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ (113))

كتابٌ واحد، ونبيٌ واحد، ومنهجٌ واحد والناس متفرِّقون .

لذلك أيها الأخوة ذكرت هذا مرَّاتٍ كثيرة هناك اختلافٌ أساسه نقص المعلومات، وهذا الاختلاف سهل جداً يعالج بالمعلومات، الاختلاف الناجم عن نقص المعلومات ينتهي إذا توافرت هذه المعلومات . وهناك اختلافٌ أساسه الحَسَد، والبَغي، وتنازع المصالح والمراكز، وهذا الاختلاف أساسه الحَسَد .

(وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ (19))

(سورة آل عمران الآية: 19)

الاختلاف الثالث اختلاف محمود، اختلاف التنافس:

(فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ (213))

(سورة البقرة)

إذا كانت القضيَّة أن نصل إلى أعلى درجة في الجنة، وأنا اعتقدت أن العمل الصالح وحده، وهذا اعتقد أن طلب العلم وحده، وهذا اعتقد أن تعليم العلم وحده، وهذا اعتقد أن حفظ السُنة وحدها، كلام طيِّب، هذا التنافس محمود، فهناك إذن تنافس طبيعي لا يحمد ولا يذم، وتنافسٌ مذموم وهو تنافس الحسد، والبغي، والعدوان، وتنازع المصالح والمراكز، وتنافس محمود هو التنافس على بلوغ أعلى درجات الجنَّة .

الله عز وجل هو الحكم يوم القيامة وكلمته هي الفاصلة:

قال تعالى:

(فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ (213))

(سورة البقرة)

اختلفوا وهم جميعاً ضمن الحق، أي جانبٍ في الدين أقوى، أي جانبٍ أقرب إلى الله عزّ وجل يلزمه .

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (113))

لم يكن عند كفَّار العرب في الجاهليَّة توراة، ولا إنجيل، ولا أنبياء، ولكنهم كانوا يعبدون الأوثان، ومع ذلك قالوا مثل قول هؤلاء، شيء محيِّر، وأحياناً إن أهل كتاب ومعهم كتاب وجاءهم رسول، يتهمون الآخرين كما يتهمون الذين لا يعلمون أنهم ليسوا على شيء:

(كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ (113))

من الذي سيحكم بينهم ؟ الله عزّ وجل، ومن الذي كلمته هي الفاصلة ؟ ومن الذي يقول: أنتم على حق وأنتم على باطل وانتهى الأمر ؟ هو الله عزّ وجل، فلذلك لنا وقفة يوم القيامة، أنت ادّع ما شئت، وامدح نفسك بما شئت، وأسبغ على شخصك كل صفات القداسة، كلام بكلام، لكن الله متكفِّلٌ أن يفصل بينك وبين الآخرين يوم القيامة، جعل الله عزّ وجل يوم القيامة يوم الفصل، ويوم الدينونة، ويوم الحق .

(فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113))

والله عزّ وجل هو الحكم، وهو يعلم السرّ وأخفى، يعلم حقيقة العمل، الإنسان أحياناً يأخذ مظهراً استعراضياً، يبدو أمام الناس أنه ولي وهو ليس كذلك، فمن يكشف الحقيقة ؟ الله جلّ جلاله .

أظلم الناس من يمنع الناس عن أن يصلوا إلى الله ويعبدوا ربهم:

قال تعالى:

(فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113) وَمَنْ أَظْلَمُ (114))

هذا اسمه استفهام إنكاري، أي ليس في الأرض إنسانٌ أشدّ ظلماً من هذا الذي يفعل كذا، فهو أشد ظلماً لنفسه وأشد ظلماً للخلق، يظلم نفسه ويظلم الآخرين، من هو ؟

(مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا (114))

أي أن أظلم الناس من يمنع الناس عن أن يصلوا إلى الله، ويمنع الناس أن يصلُّون، ويمنع الناس أن يعبدوا ربهم، ويمنع الناس أن يستقيموا، قال بعضهم: هذه متعلِّقة ببيت الله الحرام حينما منعوا

المسلمين من أداء العمرة، وقال بعضهم: للذي خرَّب بيت المقدس ـ بختنصَّر ـ وبعضهم قال: أي مسجد .

وبعضهم قال: أي منعٍ لدعوةٍ إلى الله، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً))

[مسلم عن أبي هريرة]

أي مكان في الأرض مسجد، فالذي يمنع الناس أن يسجدوا لله عزَّ وجل، وأن يخضعوا لله، ويطبِّقوا أمر الله عزَّ وجل، إما أن تؤخذ بمعناها الواسع أي كل إنسان حال بين الناس وبين ربهم، منعهم أن يصلوا، ومنعهم أن ينطقوا بكلمة الحق، ومنع دعوةً إلى الله عزَّ وجل .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ (114))

المساجد مُفَتَّحة في هذه البلدة الطيِّبة والحمد لله، والدروس عامرة، وهذه نعمة والله الذي لا إله إلا هو لا تعدلها نعمة، بلاد عربيَّة كثيرة لا تستطيع أن تدخل المسجد لأن فيها شدَّة بالغة، انظر إلى المساجد هنا والحمد لله ممتلئة، والدعوات ناجحة والحمد لله، والبيوت عامرة، والأبواب مفتَّحة، وهذه نعمة كبرى يجب أن نحافظ عليها، وأن نحافظ عليها بوعينا، وأن نجعل هذه المساجد لله وحده

حينما يحول الإنسان بين الناس وبين طاعتهم لله فهو بذلك يحارب الله ورسوله:

قال تعالى:

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً(18))

(سورة الجن)

هذا المكان لله وحده، لا ينبغي لمن في المسجد أن يطرح فيه موضوعاً آخر، موضوعاً متعلِّقاً بالدنيا، فهذا المسجد بيت الله عزَّ وجل، وما دام الإنسان جعله لله وحده لا شيء عليه أبداً، لا أحد يحاسبك إذا كنت تدخل هذا المسجد تبتغي به وجه الله، إذا كانت كل الموضوعات متعلِّقة بالدين فقط .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ (114))

هذا الذي يمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، إذا اعتبرنا أن الأرض كلها مسجد فمعنى هذا أن الذي يمنع أن يُذكر الله، يمنع أن يُقرأ القرآن، يمنع أن يصلي الإنسان، وأن يحجِّب الإنسان امرأته، فهذا الذي يمنع أن تطبَّق أحكام الشريعة، مَنْ يحارب هذا الإنسان ؟ إنه يحارب خالق الأكوان . هل يستطيع جندي غِر أن يحارب أكبر دولة في العالم الآن بمنطق العصر ؟ حينما يحول الإنسان بين الناس وبين طاعتهم لله يحارب من ؟ إنه يحارب الله ورسوله، فمن هو الطرف الآخر ؟ خالق الأكوان .

بالمناسبة إذا وقف إنسان أمامكم باتجاه الشمس ونفخ نفخة متوهِّماً أنه سيطفئها ـ الشمس التي يزيد حجمها عن حجم الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرَّة، وحرارتها على السطح ستة آلاف درجة، وطول لسان لهبها مليون كيلو متر، وحرارة مركزها عشرون مليون درجة ـ توجَّه إنسان على الأرض نحو الشمس ونفخ عليها نفخة ليطفئها، ألا يحتاج إلى مستشفى للأمراض العقليَّة ؟!!

الذي يحاول أن يلغي الدين هذا يريد أن يطفئ نور الله بفمه:

قال تعالى:

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ (8))

(سورة الصف)

آية بليغة جداً، أي أن هذا الذي يحاول أن يلغي الدين، وأن يحارب الدين، ويحارب الله ورسوله، وأن يمنع الناس من دخول مساجد الله عزَّ وجل، ويمنع الصلاة مثلاً، ويمنع أن تقام شعائر الله عزَّ وجل، هذا ماذا يفعل ؟ هذا يريد أن يطفئ نور الله بفمه، وقد أراد آلاف الأشخاص إلغاء الدين فماتوا والدين باقٍ لأنه دين الله، وأنا أقول لكم أيها الأخوة: لا تقلقوا على دين الله أبداً، إنه دين الله، والله عزَّ وجل قادر أن ينصره على يد أي إنسان، والله سبحانه قادر أن ينصر دينه على يد أعدائه وهم لا يشعرون، فما الذي ينبغي أن تقلق له؟ فيما إذا سمح الله لك أن تنصره أو لا، وإذا منحك الله شرف نصره أم لا، اقلق على هذا .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا (114))

سآتيكم بمثل بسيط: قد يكون عندك صانع في المحل طلب أن يصلي فلم تسمح له وقلت له: لا تصل عندنا . وهذه يفعلها معظم الناس، معظم المسلمين، لا يسمح له أن يصلي ـ لا صلاة عندنا لأن لدينا أعمالاً ونحن في موسم ـ فهذا تنطبق عليه الآية . وكذلك الأب الذي يمنع ابنه من حضور درس علم كذلك تنطبق عليه الآية:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا (114))

قالوا: خرابها إما هدمها أو تعطيل الصلاة فيها . الآن في تركيا جامع ضخم من أضخم جوامع تركيا حُوِّلَ إلى متحف، ممنوع الصلاة فيه، هو ليس جامعاً، مُنعت فيه الصلاة، مُنعت أن تقام شعائر الله عزَّ وجل فيه، يأتيه الزوار من كل حدبٍ وصوب، وهذا المسجد كان معبداً من وقت نبوَّة رسول الله عليه الصلاة والسلام، إنه قديم في مدينة اسطنبول، مُنِع أن تُقام الصلاة فيه، فإما أن تُمنع الصلاة فيه وإما أن يُهدم، والبلاد التي تؤمن بلا إله هدمت بيوت الله كلها .

قبلة المريض جهة راحته وقبلة الخائف جهة أمنه وقبلة المسافر جهة دابَّته:

قال تعالى:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114))

لأنهم حاربوا الله ورسوله، يعاقبهم الله عزّ وجل بخزيٍ في الدنيا، وعذابٍ عظيمٍ في الآخرة . فمن هو الشقي ؟ الشقي الذي حارب الله ورسوله، ومن أنت حتى تحارب الله ورسوله ؟ بمنطق الأحداث هل من الممكن لإنسان أعزل أن يحارب أقوى جيش في العالَم ؟ الله عزّ وجل بثانية واحدة يجعله جثّة هامدة، يقول لك: توقَّف قلبه فجأةً أو خثرة في الدماغ:

(وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115))

سواءٌ اتجه المسلمون إلى بيت الله الحرام فثمَّ وجه الله، أو حينما اتجهوا إلى بيت المقدس فثمَّ وجه الله، وإذا صليت في ليلةٍ غائمةٍ ولم تهتدِ إلى القبلة، فصليت باجتهادك، ثم تبيَّن لك أن هذا الاجتهاد غير صحيح فالصلاة مقبولة، فثم وجه الله، ولو كنت مسافراً فقبلتك جهة دابَّتك، ولو كنت خائفاً فقبلتك جهة أَمْنِكَ، أو مريضاً لا سمح الله فقبلتك جهة راحتك، فقبلة المريض جهة راحته، وقبلة الخائف جهة أمنه، وقبلة المسافر جهة دابَّته، يمكن أن تركب طائرة من الجنوب إلى الشمال، وتصلي صلاة النفل وأنت على المقعد باتجاه الشمال، لأن قبلتك جهة الطائرة، فالدين يسر، قال تعالى:

(فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ (115))

أي سيان اتجهتم إلى بيت الله الحرام أو إلى بيت المقدس، وما كان النجاشي يتجه إلى بيت الله الحرام حينما كان يصلي، فلما أراد النبي أن يصلي عليه صلاة الغائب، قالوا: " أتصلي على إنسان لا يتجه إلى القبلة ؟ " فجاءت الآية:

(فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ (115))

الآية لها معانٍ كثيرة، أنت اجتهدت ولم يكن معك بوصلة، لا تعرف أين القبلة، فاجتهدت اجتهاد، ثم تبيَّن لك أن الاجتهاد غلط، فالصلاة مقبولة، فثم وجه الله، هناك إجابات كثيرة من خلال هذه الآية

مُلْكُ المشرق والمغرب لله عزَّ وجل:

اليهود أعجبهم أن يتجه المسلمون إلى بيت المقدس، فلما أمروا أن يتوجَّهوا إلى بيت الله الحرام نعوا عليهم ذلك، فجاءت الآية الكريمة :

(وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ (115))

هذا اختصاص، أي أن مُلْكُ المشرق لله عزَّ وجل، فمن الذي خلق الشرق ؟ لولا أن هناك شمساً تشرق لما كان هناك شرق، فمن الذي خلق الشمس أساساً ؟ كلمة مشرق من أين جاءت ؟ من أرض تدور حول الشمس، فمن خلق الشمس ؟ الله جلَّ جلاله فله المشرق، ومن خلق الغروب ؟ الله جلَّ جلاله فله المغرب . وبعد ذلك هناك مشارق ومغارب، ففي كل ثانية هناك شروق في الأرض، وفي كل ثانية هناك غروب، فإذا ركب الإنسان طائرة وكانت سرعتها ألفاً وستمئة كيلو متر في الساعة يبقى مع الشمس دائماً، لا يبقى هناك غروب لأنه سار بسرعة الأرض حول الشمس والذين يسافرون إلى أمريكا يجدون أن الوقت طويل جداً على الساعات لأنه يسير مع الشمس، أحياناً تخرج من دمشق الساعة الثانية تطير خمسة وعشرين ساعة فتصل قبل المغرب لأميركا لأنك تسير مع الشمس، فمن الذي خلق المشرق ؟ هو الله عزَّ وجل، ومن الذي خلق المغرب ؟ هو الله عزَّ وجل .

من الذي خلق المشرقين ؟ فإذا كان بيت أحدنا مرتفعاً يلاحظ أن الشمس تشرق في الشتاء من مكان وفي الصيف من مكان آخر، فالنهاية القصوى في الشتاء والنهاية القصوى في الصيف هذان المشرقان، وإذا كان بيته على البحر يلاحظ كذلك أن غروب الشمس في الصيف من مكان وفي الشتاء من مكان آخر، فالمكان الأقصى في الصيف مغرب والمكان الأقصى في الشتاء مغرب، صار هناك مغربان ومشرقان، وكل مكان في الأرض فيه شروق وفيه غروب، فالمشرق جهة الشرق، والمغرب جهة الغرب، فهناك مشرقان الحد الأقصى والأدنى في الشرق، ومغربان الحد الأقصى والأدنى في الغرب، وفي كل يوم مشرق خاص، وفي كل مكان له شروق خاص .

شروق الشمس في دمشق غير بيروت فهناك الفرق خمس دقائق، وغير تدمر، وغير بغداد، وغير القاهرة، وغير تونس، هذا في الأساس هو فرق الساعة، فالخمس ساعات فرق شروق فمعنى هذا كل يوم له شروق وكل مكان له شروق، والله هو رب المشارق والمغارب .

القبلة ليست نقطة ولكنها خط:

هناك نهاية أي مكان أقصى للشروق، أي مكان أدنى للشروق فهذان مشرقان . وهناك جهة الشرق وجهة الغرب فهذا مشرق ومغرب:

(وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115))

رحمة الله واسعة، وعلمه واسع، وأحياناً يخلق الإنسان مشكلة بلا مبرِّر، يقول لك: الجامع مائل ثلاث درجات فالصلاة فيه باطلة، من قال لك ذلك ؟ لا يقول هذا إلا جاهل، الكعبة ليست نقطة ولكنَّها جهة، الكعبة جهة الجنوب بالنسبة إلى دمشق، أما عين الكعبة لمن كان في بيت الله الحرام، تلاحظون أن هناك خطوطاً زرقاً دائريَّة حول الكعبة، ما دمت في بيت الله الحرام فقبلتك عين الكعبة، فينبغي أن تكون الخطوط دائريَّة، أما في مكة بيت الله الحرام هو القبلة وليست الكعبة، أما

أنت في الشام فالقبلة في جهة الجنوب وانتهى الأمر، فالقبلة ليست نقطة ولكنها خط، هذه تلغي كل المشكلات، قد تحدث خصومات في بعض بلاد الغرب وفي أمريكا بالذات لوجود طريقين للكعبة، طريق من هنا ـ من الشرق ـ وطريق من هنا ـ من الغرب ـ وفرق درجات بسيطة، وخصومات، وجدال، وعداوات من أجل:

(فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ (115))

العقل له مهمة قبل النقل أن يتأكَّد من صحة النقل ومهمَّة بعد النقل أن يفهم النقل:

هناك من يُعَقِّد الأمور والدين يحتاج إلى تبسيط . وقد ذكرت لكم مرَّة أن إنساناً أسلم ودرس على يد شيخ يعلِّمه أحكام الفقه، فأبقاه في أحكام المياه ستة أشهر حتى خرج من جلده وترك الدين، والتقى بعالم آخر فقال له: الماء الذي تشرب منه توضَّأ منه، لخَّص له ستة أشهر بكلمة واحدة، نحن بحاجة إلى تبسيط للدين، وإلى تطبيق، أي ألا تحتقر العقل، العقل أساس، وأن لا ينفرد العقل بالدين، العقل له مهمة قبل النقل ومهمَّة بعد النقل، فقبل النقل أن يتأكَّد من صحة النقل، وبعد النقل أن يفهم النقل .

(وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ (116))

سبحانه أن يتخذ ولداً، هو غنيٌّ عن الصاحبة والولد، الإنسان يتخذ ولداً ليكون استمراراً له بعد الموت، ولكن الله عزَّ وجل حيٌّ باقٍ على الدوام، وينجب الإنسان ولداً ليعينه إذا كبر:

(إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ (4))

(سورة مريم)

وهن العظم أي ترقُّق العظام، وهذا يحتاج إلى مشي للوقاية منه ويحتاج إلى مواد كلسيَّة، فالإنسان في النهاية يترقَّق عظمه ويصبح هشاً، والإنسان يتخذ ولداً، أو ينجب ولداً كي يعينه إذا تقدَّمت به السن، والله عزَّ وجل منزَّه عن أن تكون له صاحبة، والإنسان مفتقر إلى زوجته، وهي مفتقرةٌ إليه، ومفتقر إلى ولد يعينه إذا كبر، ويكون استمراراً له إذا مات ولكن الله عزَّ وجل منزَّه عن كل هذه المعاني:

(وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ (116))

هو منزَّه عن هذا، والتسبيح هو التنزيه والتمجيد والخضوع، وأنت متى تسبِّح الله عزَّ وجل ؟ إذا نزَّهته ومجَّدته وخضعت له:

(بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (116))

هناك أقوامٌ كثيرون رأوا معجزاتٍ حسيَّةً فلم يؤمنوا فالذي لا تهزُّه آيات الكون لا يهزُّه خرقُها:

أيها الأخوة:

(وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ (118))

لتكون علامة تثبت صدق رسالته، ولكن ألا يكفي هذا القرآن المعجز ؟ إنهم يطالبون بشيء لا يقبله العقل، نبيٌ كريم معه كتابٌ معجز، ومعه شرحٌ لهذا الكتاب، وهناك معجزات كثيرة جاء بها:

(وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ (118))

هل يحتمل الإنسان أن يكلّمه الله ؟ قال سيدنا موسى لله عزّ وجل:

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً)

(سورة الأعراف الآية: 143)

وقال:

(كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ (118))

الأقوام السابقة رأوا البحر أصبح طريقاً يبساً، ومع ذلك قالوا :

(قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ(138))

(سورة الأعراف)

هناك من رأى ناقة خرجت من الجبل، ومن رأى نبياً كريماً وهو سيدنا إبراهيم عليه السلام ألقي في النار فلم يحترق، ومن رأى يد سيدنا موسى أصبحت مصباحاً منيراً:

(فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ(108))

(سورة الأعراف)

هناك أقوامٌ كثيرون رأوا معجزاتٍ حسيَّة فلم يؤمنوا، فالذي لا تهزُّه آيات الكون لا يهزُّه خرقُها .

قلوب الشاردين عن الله ومواقفهم وأقوالهم متشابهة:

قال تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118))

أي أن قلوب الشاردين عن الله متشابهة، وأقوالهم متشابهة، ومواقفهم هيَ هي، والكافر هو هوَ، والمنافق هو هوَ في كل زمان ومكان:

(تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً)

أي أن الحق لابس رسالته، الحق هو الشيء الثابت والهادف، والحق شيء ثابت إلى أبد الآبدين، وهادف نبيل، فأنت يا محمد أُرسلت بالحق، وهو الشيء المُستقر، الثابت، الهادف، النبيل، المقدَّس .

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً (119))

للمؤمنين:

(وَنَذِيراً (119))

للكافرين:

(وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (119))

أنت مبلّغ فقط، أما المنحرف فلا تحاسب عنه، هو يحاسب عن نفسه فقط .

ليس في الإسلام مجاملات ولا أنصاف حلول فالحق حق والباطل باطل:

قال تعالى:

(وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى(120))

أي ليس في الإسلام مجاملات، ولا مداهنة، ولا أنصاف حلول، هذا ليس وارداً، ولا حلاً وسطاً، ولا تجميل مشكلة، فالحق حق والباطل باطل:

(وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى(120))

هدى الله الذي جاءني هو وحده الهدى:

(وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120))

أحياناً يجتهد الإنسان اجتهاداً خاطئاً أن يجامل الشاردين عن الله عزَّ وجل، فيقول في نفسه: آخذ شيئاً مما عندهم، واستفيد منهم . كلمة دقيقة ومثل بليغ: إذا بلعت السفينة من ماء البحر شيئاً فالبحر سوف يبتلعها كلَّها، فليحافظ المؤمن على استقامته، وعلى طهارته، وعلى صفاء قلبه، وعلى طاعته لله عزَّ وجل، والله هو الفعَّال، لا تقدِّم شيئاً من دينك أبداً إذا كان من الممكن أن تبذل دنياك لدينك فهذا الشيء جيد وهذه مداراة مقبولة ومرغوب بها، أما أن تبذل دينك لدنياك فأنت الخاسر الأكبر .

(وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (43- 95):تفسير الآيات121 - 124، العلم والعمل هما المقياس يوم الفصل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1999-06-11

بسم الله الرحمن الرحيم

تلاوة الكتاب حق تلاوته أي أن تحسن قراءته وفهمه وتدبّره والعمل به:

مع الآية الواحدة والعشرين بعد المئة وهي قوله تعالى :

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121))

أي إن هؤلاء الذين آتيناهم الكتاب إذا تلوه حق تلاوته، إذا تلوه كما أُنزل عليهم من دون تحريفٍ أو تغيير، إذا تلوه حق تلاوته يؤمنون بمحمدٍ صلى الله عليه وسلَّم، لأن هذه الرسالات متتالية، وكل رسالةٍ تنسخ الرسالة السابقة، والذي آمن بالله عزَّ وجل ينصاع إلى أمره وإلى الإيمان بما جاءه مجدَّداً عن الله عزَّ وجل .

طبعاً قد تُفهم الآية وحدها بمعنىً آخر، تلاوة الكتاب حق تلاوته أي أن تحسن قراءته، وأن تحسن فهمه، وأن تحسن تدبُّره، وأن تحسن العمل به، فإن قرأته وفهمته وتدبَّرته فقد أحسنت تلاوته، ومعنى التدبر أي أين أنت من هذه الآية ؟ هل أنت مطبقٌ لها، قد تفهمها ولكن يجب أن تقول: ما علاقتي بها، هل أنا مطبقٌ لها ؟ هل أنا مقصرٌ في تطبيقها ؟ هل أنا مغطَّى بهذه الآية ؟ هل هذه الآية تعنيني ؟ التدبر أن تنظر ما علاقتك بهذه الآية من أجل أن تأخذ موقفاً . القرآن الكريم من دقة نظمه أن الآية إذا نُزعَت من سياقها لها معنى مستقل، فإذا وضعت في سياقها لها معنىً آخر، مثلاً حينما قال الله عزَّ وجل:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

(سورة الطلاق)

جاءت هذه الآية في سورة الطلاق، أي من يتق الله في تطليق زوجته يجعل الله له مخرجاً في إرجاعها، طلّقها طلاقاً سنياً، طلقها طلقةً واحدة، وطلقها في طهرٍ ما مسها فيه، ولم يطلّقها في حيض، ولم يطلقها في موضوعٍ لا علاقة لها به، وأبقاها عنده، هذه المشكلة بعد أيام تلاشت، فأرجعها وحُلَّت المشكلة، فمن اتقى الله في تطليق زوجته يجعل الله له مخرجاً إلى إرجاعها . وهذا هو المعنى السياقي .

لو نزعت الآية التالية من سياقها فهي قانون:

قال تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

(سورة الطلاق)

لو نزعت هذه الآية من سياقها فهي قانون، من يتق الله في كسب ماله يجعل الله له مخرجاً من إتلافه، ومن يتق الله في اختيار زوجته يجعل الله له مخرجاً من الشقاق الزوجي، ومن يتق الله في تربية أولاده يجعل الله له مخرجاً من عقوق الأولاد، ومن يتق الله في التوحيد يجعل الله له مخرجاً من الشرك، من يتق الله في الإيمان يجعل الله له مخرجاً من الكفر، فهذه الآية يمكن أن تُكتب عليها مجلَّدات، إذا نُزعت من سياقها قوانين، وإذا وضعت في سياقها لها معنى سياقي ـ هذا مثل طبعاً ـ فربنا عزَّ وجل قال:

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ (121))

كيف نتلو هذا القرآن حق تلاوته ؟ حينما نحسن قراءته، وبعد أن نحسن قراءته نبحث عن معناه، ويمكن أن يكون حضور درس في تفسير كتاب الله نوعاً من أنواع تلاوته حق التلاوة، فهل هناك كتابٌ في حياتك يعلو على هذا الكتاب ؟ وهل هناك كتابٌ يحدِّد مصيرك الأبدي كهذا الكتاب ؟ هو كلام الله عزَّ وجل، ولا شيء يعلو على أن تفهمه كما أراده الله عزَّ وجل، فطلب العلم فريضة على كل مسلم، فمن تلاوته حق التلاوة أن تعرف معانيه، ثم من تلاوته حق التلاوة أن تنظر أين أنت من هذه الآيات ؟ فهل تنطبق عليَّ آيات الذي يظلم نفسه، أم آيات المُقتصد، أم آيات السابق للخيرات ؟ قال الله عزَّ وجل:

(فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ)

(سورة فاطر الآية: 32)

إن الذي يفعل ما أُمر وقد يقصِّر، ويدع ما نُهي عنه وقد يقع هذا ظالم لنفسه، والذي يفعل ما أُمر ولا يقصر، والذي يدع ما نهي عنه ولا يقع فهذا مقتصد، والذي يدع المحرَّمات ثم ينتقل إلى ترك الشبهات، يدع المحرمات الكبيرة، ثم يدع المعاصي الصغيرة، ثم يدع الشُبهات استبراءً لدينه وعرضه، ثم يدع المكروهات التنزيهية، ثم يدع الحلال إذا أفضى به إلى الحرام، ثم يفعل النوافل هذا سابقٌ بالخيرات، فإذا قرأ الإنسان هذه الآية فلينظر أين هو من هذه الآية ؟ لا سمح الله ولا قدَّر هل أنت مع الذي ظلم نفسه، أم أنت مع المقتصد، أم أنت مع السابق بالخيرات ؟

معنى التدبر:

نقطة دقيقة أيها الأخوة، دائماً اسأل نفسك هذا السؤال: أين أنا من هذه الآية ؟ هل تنطبق عليَّ هذه الآية؟ اقرأ فواتح سورة البقرة ففيها وصفٌ للمؤمنين الصادقين، وفيها وصفٌ للكافرين، وفيها

وصفٌ للمنافقين، إن استبعدنا آيات الكافرين يا ترى هل تنطبق عليَّ بعض صفات المنافقين ؟ هذا هو التدبُّر، قرأت الآية ولكن ما الذي ينبغي أن تفعله حينما تنتهي من قراءتها ؟ أن ترى ما إذا كنت مطبقاً لها أو لست كذلك .

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ (121))

يقرؤونه قراءةً صحيحة، ويفهمون معانيه كما أراد الله عزَّ وجل وفق علم الأصول ـ المعنى الدقيق ـ ثم ينظرون ما علاقتهم بهذه الآية ؟ هذا هو التدبر، وبعدئذٍ يطبقون هذا القرآن، والذي لا يطبق هذا القرآن لعلَّ الحديث الذي قاله النبي عليه الصلاة والسلام ينطبقٌ عليه:

((ورب تال للقرآن و القرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

((مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنِ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ))

[الترمذي عن صهيب]

أما هنا المعنى السياقي في هذه الآية أن فئةً من الذين أوتوا الكتاب يتلونه حق تلاوته، فحينما تلوه حق تلاوته آمنوا بمحمدٍ صلى الله عليه وسلَّم:

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ (121))

يؤمنون بمحمدٍ صلى الله عليه وسلَّم، وهناك نفرٌ من اليهود آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلَّم وكانوا من أصحابه الكبار كعبد الله بن سلام، وكانت أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق .

إذا عُرِض عليك الحق ورفضت دعوة الله عزَّ وجل فأنت محتقرٌ لنفسك:

قال تعالى:

(أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ (121))

أي من يكفر بمحمدٍ صلى الله عليه وسلَّم، أي من يكفر برسالته التي جاءته من عند الله عزَّ وجل:

(فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121))

أيها الأخوة الكرام: الإنسان مخيَّر، والإنسان حينما يرفض شيئاً من الدنيا يرفضه احتقاراً له، قد يُعرض عليك بيتٌ لا يعجبك فترفض شراءه، وقد تُعرض عليك شراكةٌ لا تغنيك فترفض قبولها، طبعاً فأنت ترفض هذه التجارة لأنها لا تغنيك، وترفض شراء هذا البيت لأنه صغيرٌ في نظرك، حقير، لكن إذا عُرض عليك الحق ورفضت دعوة الله عزَّ وجل فأنت محتقرٌ لنفسك، تحتقر نفسك:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ (130))

(سورة البقرة)

الدين وحده إذا رفضته فأنت محتقرٌ لنفسك، ما عرفت قيمة نفسك، ولا عرفت حقها، ولا عرفت أنك المخلوق الأول الذي كرَّمه الله بهذا الدين .

المعنى السياقي للآيات التالية:

قال تعالى:

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ (121))

طبعاً حق التلاوة هكذا:

(أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ (121))

برسول الله صلى الله عليه وسلّم:

(وَمَنْ يَكْفُرْ (121))

برسول الله:

(وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ (121))

هذا المعنى السياقي:

(فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ (122))

النعمة التي يقتضيها المعنى السياقي، هذه النعمة أن الله عزَّ وجل ذكر لهم في التوراة والإنجيل أنه سيأتي نبيٌ من بعد سيدنا موسى وعيسى اسمه محمد:

(وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ (6))

(سورة الصف)

هو أحمد الخلق كافة، فهذه نعمة أن الله طمأنهم بكتبهم أنه سيأتي نبيٌ عظيم من بعد أنبيائهم، إذا آمنوا به فسيرقون إلى أعلى عليين:

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (122))

إن آمنت برسول الله واتبعته ووقّرته ونصرته فأنت من المفلحين:

أيها الأخوة آية نستأنس بها في هذا الموضوع، يقول الله عزَّ وجل :

(وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا (156))

(سورة الأعراف)

وقال دقّق:

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ(156)الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ (157))

(سورة الأعراف)

فالذين آمنوا بهذا النبي الأمي:

(فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ(157))

(سورة الأعراف)

آياتٌ دقيقة جداً، إن آمنت برسول الله ؛ برسالته، بهذا القرآن الذي جاء به، بسُنته المبينة لهذا الكتاب، واتبعته، ووقَّرته، ونصرته، وعزَّرته فأنت من المفلحين .

الله عزَّ وجل سيسألنا يوم الفصل عن كل أعمالنا صغيرها وكبيرها:

أيها الأخوة، ثم يقول الله عزَّ وجل :

(وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (123))

أيها الأخوة، هذا هو اليوم الذي تسوَّى فيه الحسابات، هذا هو يوم الدين، هذا هو يوم الفصل، هذا يوم القارعة، هذا يوم الحاقَّة، هذا يوم الطامَّة الكبرى، هذا يوم النبأ العظيم، الناس في الدنيا مختلفون ؛ أقوياء وضعفاء، أغنياء وفقراء، طلبوا العلم وزهدوا في العلم، استقاموا وانحرفوا، صدقوا وكذبوا، أكلوا المال الحلال أو أكلوا المال الحرام، عفوا أو اعتدوا على أعراض بعضهم بعضاً، هؤلاء الناس بعجزهم وبجرهم، وبانحرافهم واستقامتهم لا بد من أن يقفوا يوماً بين يدي الله عزَّ وجل ليحاسبوا عن أعمالهم كلها، صغيرها وكبيرها .

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ(8))

(سورة الزلزلة)

العاقل كل العاقل، والذكي كل الذكي، والفالح كل الفالح، والفائز كل الفائز، والمتفوِّق كل المتفوِّق هو الذي يُعد لهذا اليوم عدته، هو الذي يدخل هذا اليوم في حساباته اليوميَّة، ويجب عليه قبل أن ينطق بكلمة، وأن يعطي، وأن يمنع، وأن يعادي، وأن يقطع، وأن يصل، وأن يبتسم، وأن يعبس، وأن يغضب، وأن يرضى يجب أن يقول: ماذا سأجيب الله يوم القيامة ؟ ولذلك فالأبوَّة مسؤوليَّة، والعمل مسؤوليَّة، والحرفة مسؤوليَّة، والله عزَّ وجل سيسألنا عن كل أعمالنا صغيرها وكبيرها .

يوم القيامة يحاسب كل إنسان عن عمله:

قال تعالى:

(يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا (49))

(سورة الكهف)

كتاب أعمال الإنسان:

﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً(49)﴾

(سورة الكهف)

نحن الآن في بحبوحة في الدنيا، لك أن تحسن ولك أن تسيء، لك أن تصدق ولك أن تكذب، لك أن تبالغ ولك أن تقلّل من أهمية الشيء، هذا لا ينفعك عند الله شيئاً، لا بد من أن تُسأل لماذا فعلت ؟ ولماذا قُلت ؟ ولماذا ضخَّمت ؟ ولماذا قلّلت ؟ ولماذا اتهمت ؟ ولماذا اغتبت ؟ ولماذا أعطيت ؟ ولماذا منعت ؟

﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً (123) ﴾

يوجد في الدنيا تكتُّلات، فهناك جماعات، وهناك إنسان له أتباع، وله مكانة، وسيطرة، وغني كبير، وقوي يحتل منصباً رفيعاً بإمكانه أن يفعل كل شيء، هذا في الدنيا ؛ ولكن في الآخرة:

﴿ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً (123) ﴾

أدلة من القرآن الكريم والسُّنة الشريفة أنه لا تجزى نفس عن نفس شيئاً:

يقول الله عزَّ وجل :

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ (19) ﴾

(سورة الزمر)

يا محمد يا سيد الخلق:

﴿ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19) ﴾

(سورة الزمر)

((يا عباس عم رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً))

[مسلم عن أبي هريرة]

((لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

[أحمد عن أبي هريرة]

((من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أحمد عن أبي هريرة]

لو أنك استطعت أن تستخلص، أو أن تأخذ من فم رسول الله وهو سيِّد الخلق وحبيب الحق فتوى لصالحك أو حكماً ولم تكن محقاً فإنك لا تنجو من عذاب الله:

((لعلَّ أحدكم ألحن بحجَّته من الآخر فإذا قضيت له بشيء فإنما أقضي له بقطعةٍ من النار))

[الجامع لأحكام القرآن عن أم سلمة]

أيها الأخوة، هذه الآية دقيقة :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (123) ﴾

هذه الآية رقمها ثلاثة وعشرون بعد المئة من سورة البقرة، واضحة، ولنا وقفة معها بعد قليل .

لا تُقبل يوم القيامة شفاعة الشفيع ولا حتى الجزاء النقدي:

هناك آية رقمها ثمانية وأربعون في سورة البقرة نفسها، يقول الله:

(وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً (48))

(سورة البقرة)

تماماً كالآية السابقة:

(وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ(48))

(سورة البقرة)

هناك فرقٌ بين الآيتين، الآية التي نحن بصددها:

(وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ (123))

الآية الأولى :

(وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ(48))

(سورة البقرة) .

لو أن ملكاً غضب على رجل ـ ولله المثل الأعلى ـ غضباً شديداً، وجاء إنسان ليشفع له، هذا الإنسان الذي أراد أن يشفع له عند هذا الملك قال: لا يقبل منه شفاعة، شفاعته مرفوضة . فإذا أردنا أن نقدِّم الجزاء النقدي وهذا الجزاء لا يُقبل، ترفض في هذا اليوم شفاعة الشفيع، والبديل الذي هو الجزاء النقدي غير مقبول . أما في هذه الآية فهذه النفس الظالمة لا يقبل منها عدلٌ، أي لو أنها أيضاً عادت إلى الدنيا واستقامت:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

قال:

(كَلا)

(سورة المؤمنون الآية: 100)

هذا هو العدل، لو بحثت عن شفيع لا تجد، آية تشير إلى النفس الجازية، والآية الثانية تشير إلى النفس المجزية عنها، النفس الظالمة لو بحثت عن عدلٍ ينجيها من عذاب هذا اليوم فقالت:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون) .

قال:

(كَلا)

أمامها بديل آخر، لو بحثت عن شفيع ليس هناك من شفيع، أما النفس التي أرادت أن توسَّط وأن تشفع شفاعتها غير مقبولة، ولو طالبنا بالجزاء النقدي فالجزاء النقدي مرفوض، هذا هو اليوم الصعب، هذا:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

(سورة المدثر)

المقاييس ووسائل التقييم كلها تتبدل يوم القيامة :

قد تقف البنت أمام ربها يوم القيامة تقول: يا رب لا أدخل النار حتى أُدخل أبي قبلي . فالإنسان قبل أن يفعل شيئاً، وقبل أن يتجاوز، وقبل أن يطغى، وقبل أن يبغي على أخيه المؤمن، وأن يكذب، وأن يغتاب، قبل أن يطعن، وأن يتهم، قبل أن يقلّل من قيمة إنسان، وأن يضخِّم إنساناً آخر يجب أن يسأل نفسه: ماذا سأجيب الله يوم القيامة لو سُئلت لمَ فعلت هذا ؟

(وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ (123))

نكرة، أي أية نفسٍ كائنة من كانت:

(لَا تَجْزِي نَفْسٌ (123))

أي نفسٍ كائنة من كانت ولو كانت نفس رسول الله:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ(19)).

(سورة الزمر)

وقال:

(لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ (123))

هذه النفس التي استحقّت العذاب مهما كانت مكانتها في الدنيا كبيرة:

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

كل المقاييس تُبدَّل، وسائل التقييم كلها تتبدَّل، الناس في الدنيا يعظمون الغني، ويعظّمون القوي، أما في الآخرة فالذي استقام على أمر الله، والذي أحسن إلى خلق الله هو الذي يحتل مكانةً رفيعةً عند الله يوم القيامة .

الآية التالية من أدق آيات العدل :

هذه الآية أيها الأخوة من أدق آيات العَدل:

(وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً (123))

مهما كنت، ومهما توسَّطت، لا تستطيع نفسٌ أن تفعل نفعاً مع نفسٍ أُخرى، أي كما قال الله عزَّ وجل :

(قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً(21))

(سورة الجن)

الأبلغ من ذلك:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

(سورة الأعراف الآية: 188)

لذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام يوم القيامة:

((إنهم مني فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول سحقا سحقاً))

[الجامع لأحكام القرآن عن سهل بن سعد رضي الله عنه]

(وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ (123))

هناك مخالفات في الدنيا تسوَّى بمبلغ من المال، هذه المخالفة ثمنها فرضاً مئة ألف، أو مليون، ولكن لو أن إنساناً ارتكب خيانة عظمى لا بد من أن يُعدم ـ مثلاً ـ فهذه مخالفة لا ينفع فيها الجزاء النقدي، فالإنسان حينما يقف أمام ربنا عزَّ وجل، مهما كان شأنه كبيراً في الدنيا، ومهما كان الشفيع كبيراً، لا الشفيع ينفعه ولا التعويض المالي ينفعه:

(وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً (123))

الإيمان الحقيقي باليوم الآخر يعكس كل الموازين التي أمامك:

أيها الأخوة، أحد أكبر أركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر، والله الذي لا إله إلا هو حينما تؤمن بهذا اليوم إيماناً حقيقياً تنعكس الموازين كلها أمامك، قبل الإيمان بهذا اليوم ترى ذكاءك في الأخذ، أما إذا آمنت بهذا اليوم ترى الذكاء في العطاء، قبل الإيمان بهذا اليوم ترى مكسباً كبيراً إذا استفدت من جهود الآخرين هذا، أما بعد أن تؤمن بهذا اليوم فترى الفوز عندما تبذل جهدك من أجل الآخرين، فالناس الآن يفرحون بمكسب حرام، وبمال حرام، يعد نفسه ذكياً وشاطراً حينما يأخذ ما ليس له، وحينما يوهم الناس أنه على شيء وهو ليس على شيء، هذا نوعٌ من ضعف التوحيد وضعف الإيمان بالله، اتقوا هذا اليوم، هذا اليوم:

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ(18))

(سورة الحاقة)

يعرض كل شيء، وكل شيء له حساب :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

المؤمن دائماً عنده هاجس مستمر، هل هذا العمل شرعي ؟ وهل يرضى الله به عني ؟ وهل موقفي صحيح ؟ هل أنا مؤاخذ ؟ هل أعد ظالماً ؟ هل أعد متجاوزاً لحدودي ؟ هذا الصراع اليومي، الساعي، بين المؤمن ونفسه دليل قوة إيمانه، ولذلك يتقلّب المؤمن باليوم الواحد على أربعين حالاً، بينما المنافق يستقر أربعين سنة على حال واحد، المؤمن يتقلّب باليوم الواحد أربعين حالاً من شدة خوفه من الله، والمنافق يستقر على حال واحد أربعين سنة .

لا يوجد شيء يكافئ دخول النار:

قال تعالى:

(وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ (123))

أي لا يوجد شيء يكافئ، لو أراد الإنسان أن ينقذ نفسه من النار بملء الأرض ذهباً، ولو أن الأرض كلها ذهب وكانت بيد إنسان استحق النار، لو أنفقها كلها لا ينجو من عذاب الله:

(وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ (123))

لا يوجد أي شيء يكافئ دخول النار:

(وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ (123))

لو أنه ابن نبي:

(فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ(45)قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ(46))

(سورة هود)

وقال:

(وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (123))

عدل الله مطلق والخلق كلهم سواسية عنده سبحانه :

عمُّ سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام عمه أبو لهب:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1))

(سورة المسد)

يجب أن تؤمن بعدل الله المُطلق، وأن الخلق كلهم عند الله سواسية، قال سيدنا عمر كلمات بليغات لسيدنا سعد، من هو سيدنا سعد ؟ هو من أقرب أصحاب رسول الله إلى قلبه، النبي عليه الصلاة والسلام ما فدَّى أحداً من أصحابه إلا سعداً، فقال له:

((ارم سعد فداك أبي وأمي))

[أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه]

أن يقول نبيٌّ عظيم لصحابي جليل: فداك أبي وأمي:

((ارم سعد فداك أبي وأمي))

[أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه]

كان إذا دخل على النبي عليه الصلاة والسلام يداعبه من شدة محبَّته له، ويقول:

((هذا خالي فليرني امرؤ خاله))

[الجامع الصغير عن جابر رضي الله عنه]

ماذا قال له عمر بعد وفاة رسول الله ؟ قال له:" يا سعد ـ دقّقوا ـ لا يغرَّنك أنه قد قيل خال رسول الله فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له" . أي أنه لا يوجد بينك وبين الله إلا طاعتك له، فبطاعتك له ترقى إلى أعلى عليين مهما يكن نسبك، ومهما تكن مكانتك، ومهما تكن شهادتك، ومهما يكن حجمك الاجتماعي أما إن عصيت الله عزَّ وجل فإنك تهوي إلى أسفل سافلين .

مقياس ربنا عزَّ وجل يوم القيامة هو العلم والعمل :

قال تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: 13)

هذا مقياس ربنا عزَّ وجل:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: 13)

((لا منكم، ولا منكم، سلمان منّا أهل البيت))

[الحاكم والطبراني عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1))

(سورة المسد)

أين النسب ؟ انتهى النسب، سلمان الفارسي منا آل البيت، عم النبي القرشي الهاشمي:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(1))

(سورة المسد)

هذا هو المقياس الدقيق، يوجد عندنا مقياس واحد العلم والعمل:

(يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ(11))

(سورة المجادلة)

وقال:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا(132))

(سورة الأنعام) .

ليس في القرآن من قيمة معتمدة في الترجيح بين خلقه إلا العلم والعمل، ترقى بعلمك، فرتبة العلم أعلى الرُتب، وترقى بعملك، ما سوى ذلك ؛ من نسب، ومكانة، ووسامة، وذكاء هذه مقاييس الدنيا .

أدوات اللغة واستعمالاتها:

قال تعالى:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ (124))

لدينا كلمة (إذا) وكلمة (إذ)، (إذ) ظرف فقط، أي واذكر حين فقط، وإذ ابتلى أي واذكر حين ابتلى إبراهيم ربه بكلمات، أما (إذا) ظرف متضمنٌ معنى الشرط:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(1))

(سورة النصر)

(إذا) تعني إن، وتعني حين، وتعني سوف، إعرابها التفصيلي ظرفٌ لما يستقبل من الزمن، خافضٌ لشرطه، منصوبٌ بجوابه مبني على السكون، في محل نصب مفعول فيه ظرف زمان . (إذا) فيها معنى الشرط، ومعنى الظرف، ومعنى الاستقبال، الفرق بين (إذا) وبين (إن)، (إن) لشيءٍ محتمل الوقوع، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا (6))

(سورة الحجرات)

هذا الفاسق قد يأتي وقد لا يأتي، أما (إذا) لتحقق الوقوع:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(1))

(سورة النصر)

أي لا بد من أن يأتي نصر الله، وأدوات اللغة دقيقة جداً، (إذا) لتحقق الوقوع، (إن) لاحتمال الوقوع، (إذ) غير (إذا)، (إذ) حين، أي واذكر يا محمد حين ابتلى إبراهيم ربه بكلمات، طبعاً ابتلى من الابتلاء والابتلاء ليس شراً، الابتلاء امتحان، كمثل إنسان دارس دخل الامتحان، فنال الدرجة العُليا، وصار طبيباً كبيراً، أو مهندساً كبيراً، أو له مكانة اجتماعيَّة عالية، فكلمة ابتلاء لا تعني أنها مصيبة، ابتلاء امتحان، أي مطلق الامتحان قد تنجح وقد لا تنجح:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ (124))

وقال:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت) .

لا بد من أن تُبتلى، سُئل الإمام الشافعي: **" أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ " فقال رضي الله عنه: " لن تُمكَّن قبل أن تُبتلى " .**

امتحن النبي الكريم بامتحانات عدة فصبر وتواضع لله سبحانه:

وطِّن نفسك أيها المؤمن أنه لا يُسمح لك بدخول الجنة إلا إذا امتُحنت الامتحانات كلها، هناك امتحان الضعف، النبي امتحن بالضعف بالطائف فقال:

((ربي أن ينزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى))

[كنز العمال عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه]

هذا امتحان القهر، كذَّبوه، وسخروا منه، وأساءوا إليه وقال :

((اللهمَّ اهدي قومي إنهم لا يعلمون))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن عبيد بن عمير مرسلا]

امتحن امتحان القهر فصبر، وامتحن امتحان النصر فتواضع، ودخل مكَّة فاتحاً دخلها مطأطئ الرأس حتى كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عزَّ وجل، بينما التاريخ يشهد أن كل الفاتحين يتغطرسون، ويسفكون الدماء، ويستبيحون الحُرمات، أما هو فقال:

((مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ))

[أبي داود عن العباس رضي الله عنه]

((ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: أقول كما قال أخي يوسف: اذهبوا فأنتم الطلقاء))

[الجامع الصغير عن أنس بن مالك رضي الله عنه]

هذه واحدة . الآن امتحن امتحان الفقر، دخل بيته صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: **" أعندكم شيء نأكله ؟ " قالوا: لا، قال: فإني صائم .**

هل هناك بيت من بيوتات المسلمين لا يوجد فيه شيء إطلاقاً تأكله ؟ مستحيل . امتحن امتحان الفقر فصبر، امتحن امتحان الغنى فشكر .

لمن هذا الوادي يا رسول الله ؟ قال: **" هو لك "** . قال: أتهزأ بي ؟ قال: **" لا والله هو لك "** . قال: **" أشهد أنك رسول الله تعطي عطاء من لا يخشى الفقر" .**

امتحن بموت الولد فقال :

((إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ ما يُرْضِي رَبَّنا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ))

[الأذكار النووية عن أنس رضي الله عنه]

امتحن امتحان فقد الولد، وامتحن امتحاناً قد لا يحتمله معظمكم ؛ أن يقال عن زوجته إنها زانية، هذا امتحان الإفك، وانقطع الوحي أربعين يوماً وهو صابر، هذا امتحان شديد .

امتحن امتحان الهجرة، وامتحن بمؤامرات حيكت ضدَّه، وبشعراء هَجَوْهُ، قال عليه الصلاة والسلام:

((لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، وأخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال))

[الجامع الصغير عن أنس رضي الله عنه]

الثواب على قدر المشقة:

قال تعالى:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ(142))

(سورة آل عمران)

وقال:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

هل هناك جامعة في الأرض تقدِّم لها طلباً من سطرين تقول فيه: يرجى منحي درجة الدكتوراه بمرتبة امتياز وشكراً . توقيع، وطابع، وفي اليوم الثاني تأخذ دكتوراه، هل تستطيع أن تفعل هذا ؟ يقول لك: ثلاثة وثلاثين سنة دراسة لأحصل على الدكتوراه، سهرت حتى الساعة الثانية ليلاً ـ كم كتاباً قرأ ؟ وكم كتاباً ألَّف ؟ وكم موضوعاً أعدَّ ؟ وكم ساعة داوم ؟ هل هناك جهة بالأرض تعطي شهادة بلا امتحان ؟ هل هناك مدرسة في الأرض لا يوجد فيها امتحانات ؟ فهذه الجنة التي عرضها السموات والأرض تريدها بلا عمل ؟ بركيعاتٍ جوفاء، بدريهماتٍ تلقيها في يدي فقير وانتهى الأمر وأنت مقيم على كل الشهوات ؟!

الجنة تفرض علينا مراجعة حساباتنا لأننا الآن في دار امتحان:

أخواننا الكرام نحتاج إلى مراجعة حساباتنا، هذه الجنة:

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ(59)وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ(60)وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ(61))

(سورة النجم)

كلام مُخيف، مصير أبدي، الآن الطائع والعاصي يعيشان، يأكلان، ويشربان، وينامان، يسكنان في بيوت، ولهما مراكز، وعندهما تجارة، فالآن الأوراق مختلطة لأننا في دار امتحان، أما يوم القيامة:

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)

(سورة يس)

قفوا في مكان واحد، نحن في الدنيا أثناء العام الدراسي كل الطلاب يرتدون اللباس النظامي، ويدخلون الصفوف ويستريحون، ويلعبون، ويضحكون، أما عند النتائج فطالب يكاد يرقص من الفرح، وطالب يبكي من شدة الألم، في الدنيا توجد امتحانات لذلك:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ (124))

(ابتلى)

هو الامتحان ولا بد من أن نُمتحن، دقّق، قل ما شئت، أعطِ نفسك الحجم الذي تريد، لكن الله متكفِّلٌ أن يُحَجِّمك، أن يضعك في ظرفٍ دقيق دَقيق يكشف لك حجمك الحقيقي .

يمتحن الإنسان في اليوم مئات المرات فإما أن ينجح وإما أن يرسب عند الله تعالى:

أنت مثلاً تقول: أنا لا آخذ درهماً حراماً . صح، ترفض الألف والألفين، والعشرة آلاف، جاءك مليونان تفكّر، وتقول: عندي أولاد . رسبت في الامتحان . فالإنسان يمتحن والدنيا كلها امتحان، وأنت ممتحن في اليوم مئات المرات، باليوم الواحد ممتحن بالغنى والفقر، وبالزوجة والولد .

قال لي أخ: عندي قطعة بمبلغ ضخم، ثمنها خمسة وعشرون ألفاً ما كانت تباع السنة الأولى، والثانية، والثالثة، والرابعة، والخامسة، من جرد إلى جرد، وبعد ذلك جاء إنسان وطلبها . قال لي وأنا على السُلَّم أريد أن أعطيه إياها: أهي أصليَّة ؟ هي ليست أصليَّة أنا تزلزلت ولكنني قلت له: لا ليست أصليَّة . قال له: أنزلها . نجح، تكلَّم الحقيقة ونجح، مادام الشاري عرف أنها ليست أصليَّة وقبلها فالبيع شرعي، أما لو كذب عليه ـ قال لي: والله أعلم علم اليقين أنه لن يعلم حقيقتها ـ فلو قلت له: أصليَّة، لا يوجد عنده وسيلة تكشف أنها ليست كذلك، ولكنه خاف من الله، فأنت ممتحن في اليوم آلاف المرَّات .

قال لي أخ من إخواننا الكرام: عندي موظَّف مهندس دخله أقل من حاجته بكثير، عشرة آلاف، ثمانية آلاف، سبعة آلاف، وجد ثمانمئة ألف في كيس أسود في أحد أحياء دمشق، فقال لي: ما زال يبحث عن صاحبها حتى أعطاها له، وهو بأمس الحاجة لهذا المبلغ . هذا امتحان، دقّق أنت ممتحنٌ كل يوم، فإما أن تنجح وإما أن ترسب عند الله عزَّ وجل، أنت قل عن نفسك ما شئت، أعطِ نفسك أكبر هالة لكن الله متكفّل أن يعيدك إلى حجمك الحقيقي .

قد يضعك في ظرف فتغضب وأنت تحدّث الناس عن الحلم سنوات وسنوات، أنت لماذا غضبت ؟ قد تحدِّث الناس عن الورع، فلماذا ارتكبت ؟ وقد تحدث الناس عن السخاء، فلماذا بخلت ؟ وقد تحدث الناس عن التواضع، فلماذا استعليت ؟ الله عزَّ وجل يضع الإنسان في ظرف يحجِّمه فيه .

الكلمة في القرآن تعني الأمر أو تعني الجُملة أما الكلمة في اللغة فتعطي معنىً ناقصاً :

قال تعالى:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ (124))

ما هي هذه الكلمات ؟ المفسِّرون لهم في هذه الكلمات بعض التوجُّهات:

أولاً: في اللغة مفرد وفيها جملة، المفرد لا يفيد معنى تاماً، تقول مثلاً: تفاحة هذا معنى غير تام، أما تفاحة حلوة المذاق، فهذا معنى تام، تفاحة كبيرة، معنى تام، أي الصفة والموصوف، المبتدأ والخبر، الفعل والفاعل، هذه جملة . المفرد لا يفيد معنى تاماً، وإن كان هناك مفارقة كنت أضربها للطلاب كمثل: كان عندنا مؤسَّسة اسمها إعادة تسيير الخط الحديدي الحجازي، لو قلت مثلاً: المدير العام لمؤسَّسة إعادة تسيير الخط الحديدي الحجازي في القطر العربي السوري . كم كلمة ؟ ثلاث عشرة كلمة ولكنها في اللغة مفرد، لأنك ما أفادت معنىً، ثلاث عشرة كلمة جاءت متتابعة وهي في اللغة مفرد، ماذا حلَّ به ؟ عُزل ؟ كُوفئ ؟ عُوقب ؟ أما حرف القاف لوحده جملة، قِ، من وقى، يقي، قِ، فِ، الفاء فقط جملة من وفى، يفي، فِ، هي فعل أمر والفاعل ضمير مستتر، فالجملة تعطي معنىً تاماً، أما المفرد فيعطي معنىً ناقصاً، إذن مبتدأ وخبر جملة، فعل وفاعل جملة، أما كلمة لو جئت بعشرات الأوصاف لها ولكن لا حلَّ لها ؟ المدير ؛ مدير رئيس مجلس إدارة مؤسَّسة إعادة الخط الحديدي الحجازي في القطر العربي السوري . كم كلمة ؟ باللغة مفرد لأنها لم تفد معنىً تاماً، أما كلمة (قِ) تفيد معنىً تاماً .

هذا في اللغة، أما في القرآن الكلمة تعني الجملة، أو تعني الأمر، مثلاً :

(وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً(4) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلا كَذِباً(5))

(سورة البقرة)

وقال:

(وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً (116))

(سورة البقرة)

هذه عند الله كلمة واحدة، إذاً الكلمة في القرآن تعني الأمر أو تعني الجُملة قال تعالى:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ (124))

في كل سورة من السور الأربع التالية عشر صفات للمؤمنين:

الكلمات قالوا: هناك أربع سور:

(التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ(112))

(سورة التوبة)

هذه كلمات عَشر، وفي سورة المؤمنون:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(2)وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(3)وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ(4)وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(5)إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(6)فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ(7)وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ(8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(9)أُوْلَئِكَ هُمْ الْوَارِثُونَ(10)الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(11))

(سورة المؤمنون)

وقال:

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً(35))

(سورة الأحزاب)

وهذه عشر كلماتٍ أُخَر، هذه العشرة الثالثة، والعشرة الرابعة:

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ(22)الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ(23)وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ(24)لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ(25)وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ(26)وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ(27)إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ(28)وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(29)إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(30)فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ(31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ(32)وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ(33)وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(34)أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ(35))

(سورة المعارج)

يقول ابن عبَّاس رضي الله عنهما: **" إن هذه الكلمات في هذه السور الأربع، وكل سورة فيها عشر صفات للمؤمنين " .**

الإمام يجب أن يكون قدوة لمن حوله ومثلاً أعلى يُحتذى:

قال تعالى:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ (124))

أو بأوامر، أو بامتحانات، ألقي في النار فهذا ابتلاء، وأمر أن يضع زوجته وابنه في وادٍ غير ذي زرع فهذا امتحان ثانٍ، أمر أن يذبح ابنه هذا امتحان ثالث:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ (124))

بعد أن أتمَّهن:

(قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً (124))

معنى الإمام أنه أمام، إذا كان في الأمام صار إماماً، وإذا كان أمام من حوله في الورع، والاستقامة، والإخلاص، والتقوى، والحب صار إماماً، فالإمام يجب أن يكون أمام كل من حوله، وأن يكون قدوةً لهم، ومثلاً أعلى يحتذى .

محبة الله عزّ وجل دليلها اتباع الرسول الكريم:

إخواننا الكرام ما دام الموضوع طُرق:

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

(سورة يس)

وقال:

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً(9))

(سورة ا

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (44- 95):تفسير الآيات 125 - 128، مقام إبراهيم عليه السلام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-06-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا عزَّ وجل لحكمةٍ أرادها اتخذ بيتاً له هو البيت الحرام:

مع الآية الخامسة والعشرين بعد المئة وهي قوله تعالى :

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125))

أيها الأخوة الكرام ربنا عزَّ وجل لحكمةٍ أرادها اتخذ بيتاً له هو البيت الحرام، ومن قصد هذا البيت ابتغاء وجه الله يلقى فيه شعوراً لا يعرفه إلا من ذاقه، هذا الشعور المُسعد يجعله يتمنَّى أن يعود إليه، ما معنى ثاب ؟ أي رجع، ما من إنسانٍ زار بيت الله الحرام حاجاً أو معتمراً، لأنه قصد وجه الله، وزار بيت الله، وأراد أن يلبِّي دعوة الله، لأنه آثر أن يلبي دعوة الله على البقاء في بلده، وعلى مصالحه، وعلى بيته، وعلى زوجته، وعلى أولاده، لأنه آثر أن يلبي دعوة الله على دنياه فقصد البيت الحرام حاجاً أو معتمراً، لأنه تفرَّغ لهذه العبادة البدنية، المالية، الشعائرية التي لا تؤدَّى إلا في مكانٍ خاص، وفي زمانٍ خاص، وبمناسك خاصة، لذلك ربنا عزَّ وجل بشكلٍ استثنائي يلقي في قلب الحاج أو المعتمر سعادةً وسكينة وأمناً ورضاً لا يعرفه إلا من ذاقه، وإلا من زار هذا البيت مخلصاً.

معنى قول الحاج لبيك اللهم لبيك:

وإذا أراد الإنسان أن يحج بيت الله الحرام ولم يكن مستقيماً، وكان ماله حراماً وقال: لبيك اللهم لبيك . يناديه منادٍ: أن لا لبيك ولا سعديك وحجك مردودٌ عليك . ولكن من يلبي هذه الدعوة مخلصاً لا يبتغي الرياء ولا السمعة، يبتغي وجه الله الكريم، يلقي الله في قلبه من السعادة ما يحمله على أن يعود إليه مرة ثانية .

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً (125))

إذا زار الإنسان مكاناً جميلاً جداً وسعد في هذا المكان أيَّما سعادة يقول: إن شاء الله نعيد الكرَّة في العام القادم . وهذه قاعدة، فكلمة مثابة أي أن هذا البيت لما يلقي الله في قلب حاجِّه و معتمره من السعادة يتمنى أن يعود إليه دائماً، والإنسان دائماً يصلي في بلده ويصوم، وفي البلد متاعب وأعمال

ومشاغل ومشكلات، أما حينما يترك بيته، ومكتبه، وعمله، وتجارته، ويدفع الأموال، ويمشي في الطرقات، ويركب السيارات، ويتحمل المشاق، ووعثاء السفر، يبتغي وجه الله، فلا يعقل إلا أن يكرمه الله إكراماً لا يعرفه إلا من ذاقه:

((إن بيوتي في الأرض المساجد وإن زوارها هم عمارها فطوبى لعبدٍ تطهر في بيته ثم زارني وحق على المزور أن يكرم الزائر .))

[أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود]

إذا زار الإنسان بيت الله في بلده يلقي الله في قلبه من الطمأنينة والسكينة والشعور بالأمن ما لا يعلمه إلا الله، ولذلك التجلي الإلهي في بيت الله الحرام تجلٍ مركّز جداً، فعندما فرَّغ الإنسان نفسه لهذه العبادة يتولى الله تفريغ قلبه ـ نقطة دقيقة ـ هو فرَّغ قلبه مادياً ؛ ترك بيته، ووطنه، ومكتبه، وتجارته، وزوجته، وأولاده . أنت حينما تفرِّغ جسمك ونفسك من متاعب الدنيا يتولى الله تفريغ قلبك من سواه، واسأل أي حاج أو معتمر كان مخلصاً في حجَّته أو عمرته يقول لك: والله وأنا هناك ما ذكرت شيئاً من هموم دنياي كلها لأنها نُزعت مني . أنت فرَّغت نفسك لطاعتنا ونحن نفرغ قلبك لمشاهدة كمالنا .

وهذا معنى قول الحاج: لبيك اللهم لبيك . كأن الله يقول له: تعال يا عبدي، تعال كي تذوق طعم القُرب، تعال كي تذوق طعم الأمن، تعال كي تذوق جمال المُناجاة . فالإنسان ذاق الدنيا، ذاق طعامها وشرابها، ونساءها، وعزَّها، وسلطانها، والمناظر الجميلة، والحدائق الغناء، والبيوت الفارهة، والمركبات الأنيقة، وكأنه يُقال له: تعالَ ذق شيئاً آخر، تعالَ اتصل بأصل الجمال، تعال اتصل بأصل الكمال، تعال اتصل بأصل النوال في بيت الله الحرام، وهذا الكلام الذي أقوله وأنا أعني ما أقول الذي سعد بحجةٍ مقبولةٍ أو عمرة مقبولةٍ يعرف معنى هذا الكلام، أنت هناك في عالم آخر.

الحج دعوة من الله وأنت تلبي هذه الدعوة والعمرة زيارة:

قال تعالى:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا (125) ﴾

كيف أن الله عزَّ وجل جعل بين الزوجين المودة والرحمة ؟ وكيف أن الله عزَّ وجل جعل بين المؤمنين هذا الود:

﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ (63).﴾

(سورة الأنفال)

هذا الود بين المؤمنين، وتلك المودة بين الزوجين من خلق الله عزَّ وجل، وهذه السعادة التي تعمر قلب الحاج والمعتمر من خلق الله عزَّ وجل، أما حينما يحج الناس للسمعة والرياء والتجارة

والمصالح والتباهي والتسوّق فقط، فهذا لا يذوق طعم الحج، لذلك الحج دعوة من الله وأنت تلبي هذه الدعوة، والعمرة زيارة، الله عزَّ وجل في الحج دعاك وأنت في العمرة زرته .

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا (125))

هذا الأمن أيها الأخوة قد يفقده أغنى الأغنياء، وقد يفقده أقوى الأقوياء، ولكنه عطاءٌ إلهي خاصٌ بالمؤمن .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام)

المشرك من شأنه الخوف والقلق والمؤمن من شأنه الأمن والاطمئنان :

بالمناسبة فالله عزَّ وجل قادر أن يخلق الأمن في أخطر الظروف ؛ وقادر أن يخلق الخوف في آمن الظروف، فالأمن من خلق الله يلقيه في قلب المؤمن،

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا)

وحدهم،

(وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

ضربت مرة مثلاً للتوضيح: قد تسافر إلى بلد مضطراً في وقت مبكر، والعجلة الاحتياطية معطوبة، تسير ساعتين وأنت في أشد حالات القلق، لأنه لو عطبت عجلة من إحدى العجلات الأربع لوقفت السيارة، فلو أن ابنك أصلح هذه العجلة المعطوبة ولم تدرِ أنت لا يوجد حينئذ عندك مبرر للقلق ولكنك تقلق، إذاً لا يوجد علاقة للقلق مع الوضع المادي، العجلة جيدة وجاهزة ولكنك لم تعلم أنها جاهزة، فكنت قلقاً جداً، والعكس صحيح لو أن العجلة معطوبة وأنت لا تدري فأنت في راحة كبيرة، فمن الممكن أن يخلق الله أمناً في ظرف يدعو للقلق، ويمكن أن يخلق القلق في ظرف يدعو للأمن، ومعنى هذا أن الأمن بيد الله عزَّ وجل، إنك عندما تكون معه، قد يكون هناك أخبار سيئة جداً، وقد تكون كل الطرق مغلقة، وأخطار تهدد الإنسان، وتجد أحياناً خمسين سيفاً مسلّطاً على رقبة الإنسان، رغم هذه الظروف الصعبة جداً يخلق الله عزَّ وجل أمناً في قلبك تسعد به، وأحياناً تكون قوياً جداً ومعك ملايين مملينة، وقوياً جداً من نواحٍ أخرى وصحتك بأعلى درجة، والقلب فارغ من الأمن .

(وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ(43))

(سورة إبراهيم.)

فالله يخلق الأمن:

(ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ (154))

(سورة آل عمران .)

أحياناً يلقي الله في قلب الإنسان الخوف، أما القانون: أنه لمجرد أن يشرك الإنسان بالله يلقي الله في قلبه الخوف، يقذف الله الرعب في كل قلبٍ أشرك به . فالمشرك من شأنه الخوف والقلق ؛ والمؤمن من شأنه الأمن والاطمئنان .

التوحيد هو الذي يحمل على الأمن والاستقرار والتوازن والسعادة:

في الجسم جهاز مناعة ـ أي جهاز المناعة المكتسب وهو أخطر جهاز في الجسم مع أنه ليس له مركز قيادي ـ فجهاز الدوران قائده القلب، وجهاز الأعصاب قائده الدماغ، وجهاز التصفية قائده الكلية، بينما جهاز المناعة المكتسب ليس له قيادةٌ داخل الجسم، له رعايا أي الكريات البيض، فهذه الكريات بعضها استطلاعي، وبعضها تصنيعي، وبعضها قتالي، وبعضها خدمي، مهمة بعض هذه الكريات البيض أن تستطلع بنية الجرثومة الداخلة، تأخذ شفرتها الكيماوية، وتعود بها إلى مركز العُقد الليمفاوية كي يصنع المصل المضاد لهذه الجرثومة، وبعضها يحمل هذا السلاح ويقاتل، وبعضها ينظّف أرض العركة من الجثث .

إذاً هناك عنصر استطلاعي، وعنصر تصنيعي ـ معامل الدفاع ـ وعنصر قتالي، وعنصر خدمات، وسلاح الهندسة، الهندسة خدمات، القيادة ليست في داخل الجسم، هذا كتاب أُلّف عن هذا الجهاز الخطير، وذكر المؤلف هذه الحقيقة لكن ماذا يقول المؤمن ؟ قيادة هذا الجهاز بيد الله . أي إذا أراد الله أن يشفيك من مرضٍ ما، قوّى هذا الجهاز، وإذا أراد أن يصاب الإنسان بمرض، ضعَّف هذا الجهاز، ما الذي يقوي هذا الجهاز ؟ الأمن، والطمأنينة، والاستقرار، والتوازن، والسعادة . وما الذي يحمل على الأمن والاستقرار والتوازن والسعادة ؟ التوحيد .

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ(213))

(سورة الشعراء.)

أتحب أن تكون معذباً ؟ أتحب أن يكون قلبك منخلعاً من الخوف ؟ وأن تكون متشائماً سوداوي المزاج، تخاف من كل شيء ؟ سبيله الشرك، أتحب أن تكون آمناً مطمئناً واثقاً بالمستقبل، واثقاً من عطاء الله ؟ إذا كان الله معك فمن عليك وإذا كان عليك فمن معك ؟

حقيقة العبادة:

أخواننا الكرام، كلمة لعلها خطيرة: هذا الذي تعبده إن لم تره قادراً على أن يحميك من كل شيء لا تعبده . يجب أن تعبد من يقدر أن يحميك من كل شيء، وهذه حقيقة العبادة، تعبد الله وتخاف غيره

؟! تعبد الله وينخلع قلبك لتهديد إنسانٍ لا يقوى على نصرة نفسه، ولا على نفع نفسه ولا ضرها ؟! هذا الذي تعبده ينبغي أن تثق أنه يحميك، الآمر ضامن .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام)

أنت حينما تؤمن أن الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، فما من شيء مخيف يتحرك إلا بأمر الله، ولا يوجد شيء يخيفك وهو طليق، ما معنى التوحيد ؟ ما معنى عندها لا بها ؟ كلمة جامعةٌ مانعة قالها علماء التوحيد، أي لا يقع شيء إلا عند إرادة الله لا عند الشيء الفعَّال في الشيء . فالنار لا تحرق بذاتها، بل تحرق إذا أراد الله أن تحرق، والأفعى لا تلدغ بذاتها، تلدغ إذا أراد الله لها أن تلدغ، وكل شيءٍ ولو توهَّمت أن فيه قوةً فاعلة، فهذه القوة الفاعلة لا تفعل شيئاً إلا إذا أراد الله عزَّ وجل، أي لا يليق بالله عزَّ وجل أن يقع في ملكه ما لا يريد . والكافر يجب أن يعلم علم اليقين أنه لن يسبق الله، فما معنى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(4))

(سورة العنكبوت)

لا يمكن أن يفعل الكافر شيئاً ما أراداه الله ولا أن يتفلّت من عقاب الله:

وما معنى يسبقونا ؟ أي لا يمكن أن يفعل الكافر شيئاً ما أراداه الله، ولا يمكن أن يتفلّت الكافر من عقاب الله، ولا يستطيع الكافر أن يسبق الله، لا بفعل شيءٍ ما أراده، ولا بالتفلّت من عقاب الله، فإذا وجدت كافراً يقصف ويدمِّر، فكيف تفسِّر ذلك ؟ يجب أن تقول: إن خطة الله عزَّ وجل استوعبت خطة هذا الكافر، أي أن الله عزَّ وجل سمح له أن يفعل شيئاً لحكمةٍ أرادها، فقط، إن رأيت كافراً يفعل كما يتوهَّم هو ما يريد، هو يفعل ما يريد الله، فالله عزَّ وجل وظف له جريمته، ووظف له شره، وقسوة قلبه في الخير المُطلق، لذلك الآية الكريمة:

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة الأنعام.)

((الظالم عدل الله في الأرض، ينتقم به ثم ينتقم منه))

[الطبراني في الأوسط عن جابر رضي الله عنه.]

والإنسان مخيَّر أن يفعل ما يشاء لكن لا على من يشاء هو بل على من يشاؤه الله، فالإنسان حينما يريد أن يأخذ مالاً بغير حق، يُسلَّط على إنسانٍ يأخذ ماله لحكمةٍ أرادها الله .

مثل يوضح ذلك: أرادت امرأة غير ملتزمة أن تتوظف، فطُلِب منها شهادة صحية، فذهبت كي تصور صدرها، فإذا بالنتيجة أنها مصابةٌ بمرض السُل، بكت وأبكت، ويئست، إلى أن تابت إلى الله

وتحجَّبت وصلَّت، ثم ذهب أخوها إلى المستشفى كي يتأكد من هذه النتيجة فإذا هي قد أعطيت خطأً لها، فخطأ الموظف وظَّفه الله لتوبة هذه المرأة .

سمعت عن امرأة مختصة بالرياضيات، ألزمتها مديرة مدرسةٍ في إحدى دول الخليج أن تدرِّس مادة التربية الإسلامية لعدم وجود شواغر وهي لا تفقه من الدين شيئاً، وهذه المديرة ألزمتها إلزاماً فإن لم تستجب ألغت عقدها، فاستجابت، فتحت كتاب التربية الدينية أول صفحة آيات الحجاب، فلما قرأتها بكت، وكانت توبتها عن طريق هذه الآيات التي ألزمتها بها المديرة التي لا تعرف من أمر التربية شيئاً، أيعقل أن تكلّف مديرة امرأة تحمل ليسانس رياضيات لتدريس التربية الدينية ؟! هكذا كان.

آيات من القرآن تؤكد أن كل مخلوقٍ بيد الله:

أنت مخير أن تفعل ما تشاء لكن لا على من تشاء، بل على من يشاؤه الله عزَّ وجل، اطمئن فهذا أكبر باعث للطمأنينة والأمن، لا يوجد أحد متفلت بل كل مخلوقٍ بيد الله.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(62))

(سورة الزمر.)

وقال:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف الآية: 54.)

وقال:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف.)

وقال:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(2))

(سورة فاطر.)

حينما لا تملك علماً كعلم الله ينبغي أن تعلم أن الله عادل:

يجب أن ترى أن يد الله تعمل وحدها في الخفاء، فحينما ترى أن كل شيءٍ تسمعه هو من فعل الله عزَّ وجل:

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً(49))

(سورة الكهف)

من الصعب أن تصل إلى إثبات عدالة الله بعقلك إلا في حالة واحدةً مستحيلة: أن يكون لك علمٌ كعلم الله، وهذا مستحيل، أما حينما لا تملك علماً كعلم الله ينبغي أن تعلم أن الله عادل . ففي قصة سيدنا موسى مع الخضر شواهد على ذلك، فهذه السفينة التي خُرقت ظلماً، خرقت لتنجو من المُصادرة، وهذا الجدار الذي بُني مجاناً بما يبدو أنه حُمق، لكنه بني ليحفظ ثروة طفل يتيمٍ كان أبوه صالحاً، وهذا الطفل الذي قُتل مبكّراً قتل ليرحم الله أبويه لأنه سيكون شقياً، فالأب يشقى بشقاء ابنه، الله عزَّ وجل علمك أن هناك شيئاً ظاهراً وشيئاً باطناً، نعم الله عزَّ وجل طائفتان ؛ طائفةٌ من النعم الظاهرة وطائفةٌ من النعم الباطنة وهي المصائب.

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى (125))

طبعاً هذه الآية تفهم فهماً بسيطاً أن سيدنا إبراهيم صلى في هذا المكان فصلوا أنتم في هذا المكان، تجد في الحج ازدحاماً غير معقول، أثناء الطواف المنسجم، لأن أُناساً يصرون على أن يصلوا في مقام سيدنا إبراهيم، مما يعرقل السير، ويؤذي المسلمين إيذاءً شديداً، مع أن كل مسلمٍ يحج بيت الله الحرام أو يعتمر في هذا البيت، بإمكانه أن يصلي هاتين الركعتين في أي مكانٍ من الحرم، ولكن عدم التفقُّه في الدين جعله يزعج هؤلاء المسلمين، المعنى الأبعد:

(وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى (125))

بماذا قام إبراهيم ؟ قام بالإخلاص، اجعل من الإخلاص سبباً لاتصالك بالله.

الإخلاص هو أحد خصائص النبي إبراهيم عليه السلام :

ماذا فعل سيدنا إبراهيم ؟ بنى البيت، اجعل من عملك ..

(وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً (79))

(سورة الأنعام)

وقال:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأنعام الآية: 162.)

فهذا الإخلاص هو أحد خصائص هذا النبي الكريم، تتخذ من الإخلاص سبب اتصالٍ لك بالله عزَّ وجل، بنى البيت، فبناؤه للبيت عمل شاق يبتغي به وجه الله، فاجعل من عملك الصالح سبباً لاتصالك بالله عزَّ وجل، سيدنا إبراهيم عبد الله عبادة مطلقة، فأكثر الأوامر معقولة، إذا قال لك الله عزَّ وجل: اصدق، فالصدق لمصلحتك، وكن أميناً وعفيفاً ومتقناً، فكل أمر إلهي يعود نفعه عليك بشكلٍ واضح، إلا أن يقول الله لإنسان: اذبح ابنك وابنه نبي . هذه غير واضحة، وغير مقبولة، ولا تنسجم لا مع الرحمة، ولا مع العدل، ولا مع المنطق، لكن هذا النبي الكريم تلقى هذا الأمر بالانقياد لثقته المطلقة بحكمة الله .

(يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ (102))

(سورة الصافات.)

مما يدعو إلى الإعجاب بهذا الأب العظيم، النبي الكريم، أبو الأنبياء، المستسلم لأمر الله، والذي لا يقل عن هذا إعجاباً قول ابنه:

(فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102))

(سورة الصافات.)

الله عزَّ وجل يقول لك: اصدق، فلا تصدق، كن أميناً، لا تكون كذلك، صل . أمره بذبح ابنه وهذه أعلى درجة في العبودية .

لن يكون الإنسان عبداً لله عزَّ وجل إلا إذا رضي بقضاء الله وقدره:

بالمناسبة أيها الأخوة كلما اتضح الأمر ضعفت فيه قيمة العبودية، وكلما غمُض الأمر ارتقت فيه قيمة العبودية، فإذا قال أب لابنه: نظف أسنانك، إنها قوام وجهك وابتسامتك، وأسنانك الطبيعية لا يعدلها شيء . فهذا الأمر واضح جداً، يا بني لا تتأخر عن عملك يصغر حجمك، تُلام وتوبخ، أعطى الأب ابنه آلاف الأوامر كلها منطقية ومعقولة، لكن قال أب لابنه مرة: لا تأكل معنا، والابن جائع والطعام لذيذ، وطعام والده طعام طيب، والطعام لوالده والابن ابن، وهو جائع، فلثقة هذا الابن بأبيه المطلقة قال له: سمعاً وطاعةً يا أبي، حاضر . هذا دليل الثقة .

ألا يحق لله عزَّ وجل ـ في التعبير الدارج ـ أن يسوق لك شيئاً أو أن يعطيك أمراً وأنت لا تفهم حكمته ؟ أنت مستقيم وطاهر ولكن حصلت مشكلة، اقبلها من الله، فهذه المصيبة مصيبة العبودية لله عزَّ وجل، أيعقل أن يُعذب النبي في الطائف، وأن يُسخر منه، ويُكذَّب ؟ وقيل: إنه ضُرب، قال:

((أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بي غضبك، أو ينزل بي سخطك لك العتبى حتى ترضى))

[رواه ابن هشام في السيرة النبوية عن ابن إسحاق]

أنت لن تكون عبداً لله عزَّ وجل إلا إذا رضيت بقضاء الله وقدره، وقد كان رجل يطوف حول الكعبة وهو يدعو: يا رب هل أنت راضٍ عني ؟ كان وراءه الإمام الشافعي فقال له: يا هذا هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك ؟ قال: يا سبحان الله كيف أرضى عن الله وأنا أتمنى رضاه ! قال: إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله .

أي أن بطولتك أن ترضى عن الله وأنت بالفقر أو بالمرض لا سمح الله، وقد حدث مشكلة، فهذه المشكلة هي امتحان، فإنسان يحضر مجالس علم من عشرين سنة مات ابنه فترك الصلاة، لم يرض عن الله، لكن العظمة أن تكون في المصيبة وأنت راضٍ عن الله: يا رب لك الحمد.

مرتبة الصبر هي أعلى المراتب:

لي صديق توفي رحمه الله، أصيب بمرض عضال سنتين، تقول زوجته: والله ما سمعت منه إلا يا رب لك الحمد على ما ابتليت . وتوفي على هذا الحال، فمرتبة الصبر لا تعدِلها مرتبة .

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة الزمر)

هنا :

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى (125))

المعنى العميق اتخذ من هذا النبي قدوةً لك، واجعله قدوةً لك بإخلاصه وتوحيده:

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً (81))

(سورة الأنعام)

هذا كلام سيدنا إبراهيم، كان موحداً، كان مخلصاً، كان له عمل طيب وشاق، بنى البيت الحرام وصبر على حكم الله:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ (48))

(سورة الطور)

إن أردت أن تصل إلى الله فاجعل من خصائص النبي إبراهيم عليه السلام سبباً إلى الله :

توكل سيدنا إبراهيم توكلاً مطلقاً، عندما يسافر الإنسان يهيئ في البيت كل شيء، وكل ما لذ وطاب موجود، والهاتف موجود، والأعوان موجودون، ويقول: يا رب توكلت عليك . هذا جيِّد، ولكن سيدنا إبراهيم أمر أن يضع زوجته وابنه في وادٍ غير ذي زرع . قالت: يا إبراهيم إلى من تدعنا ؟ الله أمرك بهذا ؟ قال: نعم . قالت: إذاً فلن ينسانا . هل لديك إمكانية أن تضع زوجة وابناً في العراء لا ماء ولا طعام ولا شراب ولا نبات ولا ظل، وتمشي ؟ إلى أين أنت ذاهب، توكل إبراهيم عليه الصلاة والسلام التوكل المطلق، وعبد الله العبادة المطلقة، فإن أردت أن تصل إلى الله فاجعل من هذا النبي الكريم، ومن إخلاصه، وأعماله، وتوكله، وتعبُّده، وصدقه طريقاً إليه .

فكر سيدنا إبراهيم في الكون، فرأى النجم أولاً فلما أفل قال: لا أحب الآفلين . ورأى القمر بازغاً فقال: هذا ربي . ورأى الشمس، ثم قال :

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79))

(سورة الأنعام)

مقام إبراهيم تعبُّده لله عزَّ وجل، ومقام إبراهيم توكُّله، وتفكُّره، وعمله الصالح، فإن أردت أن تصل إلى الله فاجعل من خصائص هذا النبي سبباً إلى الله عزَّ وجل .

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125))

الطائفين الإنسان يطوف، فعندما يصل إلى بغيته يعكف، فلما عرف عظمة الله عزَّ وجل ركع له وسجد، فالطواف ثم العكوف ثم الركوع والسجود هذه أحوال السالكين إلى الله عزَّ وجل، يطوف حول كماليات الله، ثم يستقر على تعظيم الله وعبادته، ثم يرى في النهاية أنه يجب أن يخضع وأن يستعين به، إياك نعبد وإياك نستعين، والقرآن كله جُمع في الفاتحة، والفاتحة جُمعت في إياك نعبد وإياك نستعين، بالنهاية يجب أن نعبده، ويجب أن نستعين به على عبادته.

فضل خدمة بيوت الله:

قصة جانبية عن أحد الأخوة الذين يخدمون بيوت الله ـ توفي رحمه الله من عشر سنوات ـ ما رأيت في الشام كلها مسجداً بنظافة المسجد الذي يقوم عليه، أتحدَّى أن يكون في بيوت الشام كلها بيت أنظف من هذا المسجد، شيء عجيب ؛ نظافة السجاد، المرافق، الرخام كأنه قد رُكِّبَ حديثاً، قال لي هذا الإنسان الذي يخدم هذا البيت بيت الله عزَّ وجل: أنا شعاري هذه الآية:

(وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ (125))

هؤلاء الذين يقومون على خدمة بيوت الله هذا عمل عظيم، أنتم قد لا تنتبهون ترون السجاد نظيفاً، الأرض نظيفة، الجدران نظيفة، البلور ممسوحاً، المرافق العامة جميلة، هناك جنود مجهولون يخدمون هذا البيت، خدمة من أعلى مستوى لوجه الله تعالى، هؤلاء من قدوتهم ؟ هذا النبي الكريم:

(وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125))

إنسان قدم للمسجد شيئاً، إنسان قدَّم مظلة، إنسان قدم مرفقاً عاماً، قدم برَّاد ماء، قدم تكبير صوت، قدم مصلى مثلاً، إذا جاء إنسان لبيت الله ورأى نفسه مرتاحاً، والأمور جيدة، والمسجد مريحاً، والصوت واضحاً، التدفئة جيِّدة، التكييف جيداً، وفيه تهوية أحياناً، هذه أشياء ـ وإن كنت قد دخلت في التفاصيل ـ لها عند الله أجر كبير جداً، والدليل هذه الآية:

(وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125))

مراحل السلوك إلى الله عزَّ وجل :

هناك أُناسٌ لهم شأن عند الله كبير قد لا تعلمونهم أنتم، يعملون ساعاتٍ طويلة في خدمة بيوت الله، في تنظيفها، وفي ترتيبها، وفي العناية بها، فهؤلاء قدوتهم في هذا العمل هذا النبي الكريم .

أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه تميم الداري كان في الشام فرأى قناديل جميلة جداً، فاشتراها لمسجد رسول الله، لم يعلم النبي بذلك، ركب هذه القناديل في وقت بين الصلاتين، ثم

شدها بحبال وأشعلها، فدخل النبي عليه الصلاة والسلام فرأى المسجد متألقاً فقال: من فعل هذا ؟ قالوا: تميم الداري، قال: نور الله قلبك يا تميم كما نوَّرت الإسلام ـ عَدَّ النبي الكريم بيت الله هو الإسلام ـ لو أن لي بنتاً لزوجتكما، فقال أحد أصحابه: أنا عندي بنت . قال له: زوجها إياه، ماذا فعل هذا الإنسان ؟ قام بخدمة لهذا المسجد، فأنا أريد من هذا الكلام أن يتحمَّس كل الناس لخدمة بيوت الله، جعلها في أعلى درجة من الراحة كي تجذب الناس إليها .

كنت مرة عند طبيب فقال لي: والله أنا أحب سماع دروسك إلى أعلى درجة، ولكنني مرة سجدت وراء إنسان له جوارب رائحتها لا تحتمل، فتركت الدروس من أجل هذا. أنا تألمت أشد الألم، إذا لم يكن الإنسان نظيفاً، وكان معطراً، أنت تقطع إنساناً عن الله عزَّ وجل، فكل إنسان يأتي إلى بيتٍ من بيوت الله يجب أن يكون بأعلى درجة كي يجذب الناس إليه، حتى الأطفال يجب أن يكونوا مكرَّمين في بيوت الله حتى ينشأ عنده محبة للمسجد، هذا الكلام تعليق على قول الله عزَّ وجل:

(وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ (125))

هذا البيت نُسب إلى الله عزَّ وجل، إلى ذات الله:

(بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125))

طاف، وعكف، وركع، وسجد، مراحل السلوك إلى الله عزَّ وجل .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً (126))

إذا نقضنا عهدنا مع الله ورسوله سلط علينا عدواً يأخذ ما في أيدينا :

هنا يوجد نقطة دقيقة قال تعالى :

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً (97))

(سورة آل عمران).

قال العلماء كلاماً رائعاً: هذه الآية ليست أمراً تكوينياً، بل هي أمرٌ تكليفي، أي أن الله عزَّ وجل أمرنا أن نجعله آمناً، قال: ينبغي أن يكون آمناً . اجعلوه آمناً يا عبادي، أوكل أمنه إلينا . فماذا يستنبط من هذا الحكم ؟ أي أن هذا بيتٌ من بيوت الله فإياك أن تفعل شيئاً تجر لهذا البيت شبهة، أو استفهام، أو مشكلة، لأن هذا البيت:

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً(18))

(سورة الجن.)

لا تعمل عملاً تسبب إشكالاً لرواد المسجد، لا تثر شبهة، ولا تعمل فيه عملاً لا يرضي الله عزَّ وجل، ادخله وأنت مخلص لربك، لذلك :

(رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً (126))

أي مكة المكرَّمة:

(وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ (126))

هذه دعوة سيدنا إبراهيم . إذا ذهب أحدنا إلى مكة لزيارة بيت الله الحرام ورأى ما يعرض في المحلات من أنواع الفواكه يصدِّق هذه الآية:

(وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ (126))

هناك أنواع من الفواكه لا تعلم اسمها، فواكه العالم كله تساق إلى بيت الله، حتى أن هذه الثروات التي أوجدها الله في بلادهم هي من إكرام الله لحجاج بيت الله الحرام، جعلهم أغنياء ليعتنوا بالحجاج، هي مجيَّرة لصالح الحجاج، أما إذا نقض المؤمنون عهد الله وعهد رسوله عندئذٍ يسلط الله عليهم عدواً يأخذ ما في أيديهم، وهذا من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام، إذا نقضنا عهدنا مع الله ورسوله سلط علينا عدواً يأخذ ما في أيدينا، أما هذه الثروات التي أكرمنا الله بها فهي من أجل أن نعتني بالحجاج.

وجود بلد آمن من نعم الله الكبرى:

قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً (126))

أعظم دعاء أن يكون البلد آمناً، الحروب مدمرة، والحروب الأهلية مُهلكة، وجود بلد آمن من نعم الله الكبرى، ولا يجوز أن تقيم في بلدٍ لا أمن فيه، هذا حكم شرعي . وكلمة أقولها لكم والله لا أبتغي بها شيئاً: لي صديق جاء بطائرة إلى دمشق، قال لي: سمعت رسالة في الطائرة باللغة الإنكليزية موجهة للركاب، تقول: إنكم قدمتم إلى أمن بلد في العالم ـ أي سوريا ـ بإمكانك أن تتجول أنت وزوجتك إلى ساعةٍ متأخرة من الليل دون أن تخشى شيئاً . هذه النعمة نعرفها جميعاً، بلدنا آمن والحمد لله، ونرجو الله أن يديم علينا هذا الأمن .

(اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ (126))

لكن سيدنا إبراهيم: يا رب هؤلاء عبادك المؤمنون، هم يستحقون هذا الإكرام:

(وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ (126))

المؤمنون فقط .

ليس الملك مقياساً ولا المال مقياساً المقياس أن تكون طائعاً لله:

قال الله عزَّ وجل :

(قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126))

أي أنك إذا وجدت كافراً غنياً جداً، قوياً جداً، ويتمتع بصحة من أعلى درجة وهو يعصي الله، وينتهك حرمات الله ويؤذي الناس فلا يختل توازنك، هذا هو الجواب:

(رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آَمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126))

أمتعه قليلاً ؛ ساعات، سنوات، بضع سنوات، أمتِّعه بها ثم أقصمه، فالله عزَّ وجل يعطي كل إنسان، لكنه لا يُقبل على قلب كل إنسان، يعطي كل إنسان ولكن الله يحب المؤمنين، ويرزق كل إنسان لكنه يتجلى على الصادقين، ويعطي المال لكل إنسان ولكنه يقرِّب الطائعين، فالعطاء ليس مقياساً، وأعطى الله المُلك لمن لا يحب أعطاه لفرعون، أعطى المال لمن لا يحب أعطاه لقارون، وحتى أكون دقيقاً: أعطاه لمن لا يحب ولمن يحب، سيدنا عثمان وسيدنا عبد الرحمن من أغنياء الصحابة، يعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب، ويعطي الملك لمن يحب سيدنا سليمان، ولمن لا يحب فرعون، إذاً ليس الملك مقياساً ولا المال مقياساً، المقياس أن تكون طائعاً لله، وإن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين.

متاع الدنيا قليل :

قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آَمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً (126))

أمتِّعه أيضاً، خالق الكون يقول: قليلاً:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ (77))

(سورة النساء.)

ألا يوجد ملوك مثل ملوك الحديد والصلب بأمريكا، ملوك البترول، ملوك ماتوا وتركوا كل شيء، هذا المتاع القليل:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً(77))

(سورة النساء.)

خالق الكون يقول لك: يا عبدي متاع الدنيا قليل .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ (38))

(سورة التوبة)

الدنيا دار من لا دار له ولها يسعى من لا عقل له :

دقق الآن:

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

أتقبل ؟ أترضى أن تأخذ من ملك الملوك درهماً واحداً ؟

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ (77))

(سورة النساء.)

لا تعبأ بالدنيا، والله إن أسعد الناس بها أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها، والله الذي لا إله إلا هو، الدنيا تغر، وتضر، وتمر، هي دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له . وقفت دابة ـ حمار ـ في أيام الحر الشديد في مكان فجلس إنسان لم يحتمل الحر ولا أشعة الشمس المحرقة في ظل هذا الحمار يستمتع بظله، قام ليشرب فجاء رجل فجلس مكانه، فتنازع معه قال له: هذا محلي، فأجابه الآخر: لا ليس محلك، تلاسنا، وبعد ذلك تشادّا، ثم تضاربا، ثم سار الحمار، يختصمان على ظل الحمار!

اسأل إخواننا القضاة كم دعوى شطبت بموت أحد الطرفين ؟ استمرت الدعوى ثماني عشرة سنة، ثم مات أحد الطرفين فانتهت الدعوى، إذ لا أحد ينتبه للموت، الموت ينهي كل شيء ؛ ينهي غنى الغني، وقوة القوي، ووسامة الوسيم، وفقر الفقير، وضعف الضعيف، وقهر المقهور، كله ينتهي بالموت، ولذلك الدنيا دار من لا دار له ولها يسعى من لا عقل له، قال:

(وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126))

آيات من القرآن الكريم تظهر أن متاع الدنيا قليل:

انتبه أيها الأخ:

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197) لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ.)

(سورة آل عمران)

وقال:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم.)

وقال:

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47))

(سورة إبراهيم.)

وقال:

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (55).)

(سورة التوبة)

هذا كلام ربنا، فلا يختل توازنك إذا وجدت شخصاً قوياً وكافراً، فهؤلاء الذين يقصفون العالم وهم يأخذون بنواصي الشعوب، يدمرون الشعوب، ويسلبون ثروات الشعوب، ويفقرون العالم، وهؤلاء لا يمكن أن تنجح خططهم إلى ما لا نهاية، فنجاح خططهم إلى ما لا نهاية يتناقض مع وجود الله، وما رفع الناس شيئاً إلا وضعه الله عزَّ وجل.

خط المؤمن البياني صاعد صعوداً مستمراً إلى الأبد عكس خط الكافر البياني :

هناك تجارب سابقة ؛ هناك قلاع للكفر تهاوت كبيت العنكبوت، أليس كذلك ؟ فأنت كن مع الله:

كن مع الله تر الله معك   واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه   ثم من يعطي إذا ما منعك

* * *

أنا أريد من أخواننا الكرام معنويات عالية:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146))

(سورة آل عمران)

أنت مع خالق الكون فلا تخشَ أحداً، ولا تخضع، ولا تيئس، ولا تخنع، فاليأس كفر، والقنوط من رحمة الله كفر، قال:

(قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126))

خط المؤمن البياني صاعد صعوداً مستمراً إلى الأبد، والموت نقطة على هذا الخط ولا يزال صاعداً ؛ أما خط الكافر البياني فصعود حاد ثم سقوط مريع، صعود وسقوط.

العبرة لا بعظم العمل بل بقبوله عند الله:

قال تعالى:

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127))

العبرة لا بعظم العمل بل بقبوله عند الله:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً (23).)

(سورة الفرقان)

هناك إنجازات حضارية يشيب لهولها الولدان، ومع ذلك لا قيمة لها عند الله، لأنه ما ابتغي بها وجه الله عزَّ وجل . والله أيها الأخوة هناك حديثٌ شريف يقصم الظهور :

((لأعْلَمَنَّ أقْوَاماً مِنْ أمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضاً فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُوراً، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أنْ لا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لا نَعْلَمُ، قَالَ: أمَا إنَّهُمْ أخوانكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أقْوَامٌ إذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا)).

[ابن ماجة عن ثوبان رضي الله عنه.]

لا يوجد إخلاص، إذ له موقف معلن وموقف خاص، وله خلوة وله جلوة، وله سريرة وعلانية، وله باطن وظاهر .

فيا أيها الأخوة: ربنا تقبل منا . العبرة بعملٍ يقبله الله، والله عزَّ وجل يقبل من الأعمال ما كان خالصاً له، أحد كبار العلماء يقول: " العمل لا يقبل إلا بشرطين ؛ إلا إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة " . فإذا كان خالصاً ومخالفاً للسنة لا يقبل، وإذا كان موافقاً للسنة وليس خالصاً لا يقبل، ولا يقبل إلا إذا كان خالصاً وصواباً، ربنا تقبل منا والعبرة بالقبول، ورب درهمٍ سبق ألف درهم، ودرهمٌ تنفقه في حياتك خيرٌ من مئة ألف درهم ينفق بعد مماتك، والعبرة بالإخلاص، و يا معاذ أخلص دينك يكفك القليل من العمل.

إنما الأعمال بالنيات:

زيد الخيل رجل من أجمل رجال الجاهلية، كان إذا ركب الحصان اقتربت رجلاه من الأرض، طويل، صبوح الوجه، مشرق، جاء النبي عليه الصلاة والسلام مسلماً، عندما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ما اسمك ؟ فقال: أنا زيد الخيل، قال: بل أنت زيد الخير))

[المعجم الكبير عن عبد الله بن مسعود.]

غيَّر له اسمه، ثم دعاه إلى البيت، وأعطاه متكأً فقال: " والله لا أتكئ في حضرتك يا رسول الله " . متى تعلم الأدب ؟ إنسان أحياناً يمد رجله يجلس مرتاحاً، ويجلس جلسة فيها كبر، ويباعد بين رجليه، وله جلسات غير مقبولة إطلاقاً، وليس فيها أدب . فهذا الإنسان متى تعلم الأدب ؟ قال له: " **والله لا أتكئ في حضرتك "، قال له النبي: " يا زيد ما وصف لي رجلٌ فرأيته إلا رأيته دون ما وصف إلا أنت يا زيد "، قال له: " أعطني ثلاثمئة فارس لأغزو بها الروم " . فقال عليه الصلاة والسلام: " لله درُّك أي رجل أنت ؟** " كان النبي لا يضنُّ بالمديح على أصحابه، ثم ودع النبي، وسافر إلى بلده، وتوفي في الطريق، قضية يومين ثلاثة فقط، ما فعل شيئاً وأصبح من الصحابة الكبار، نوى أن يغزو الروم:

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى))

[البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.)

وهناك رجل له مال ببلد بعيد، والمال موضوع بطريقة غير شرعية، فتناقش مع صهره مناقشة حادة استمرَّت حتى الساعة الثانية عشرة ليلاً، إلى أن قنع هذا الإنسان أن هذه الطريقة في كسب المال حرام، فقال له: إن شاء الله غداً أتصل بأخي أطلب منه أن يسحب هذه الأموال من هذه الجهة ـ مؤسسة في بلاد الخليج ـ اتصل صباحاً فلم يُتح له والقصة قديمة، اتصل مساءً فلم يتح له، اتصل صباحاً لم يتح، ست مرات ثم يئس، فقال: أنا أعود إلى بلدي بعد شهر وأسحب الأموال . فسافر إلى بلده بعد شهر، فاستقبله أخوه في المطار، وقال له: هذه الشركة العملاقة قد فلَّست فوقع مغشياً عليه . كل أمواله فيها، ملايين مملينة

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (45- 95):تفسير الآيات 128 - 130، المؤمن والعمل الصالح

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-06-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

العبرة في العمل قبوله لا حدوثه :

مع الآية الثامنة والعشرين بعد المئة، وهي قوله تعالى :

(رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128))

وقبلها يقول تعالى :

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127))

العبرة في العمل قبوله لا حدوثه، لأن العمل قد لا يُقبل:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً (23))

(سورة الفرقان)

ثلاث علامات تؤكد الإخلاص:

أصل الإخلاص قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)) .

[البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه]

فالعمل عند بعض العلماء لا يُقبل إلا بشرطين ـ وهذا كلام دقيق وخطير ـ لا يقبل إلا إذا كان صواباً، أي ما وافق السنة، وخالصاً أي ما ابتغي به وجه الله . وهناك تخليطٌ كثير بين عملٍ وافق السنة ولم يبتغَ به وجه الله، أو عملٍ ابتغي به وجه الله ولم يوافق السنة، العبرة أن يأتي عملك موافقاً للسنة مبتغياً به وجه الله حتى يُقبل:

(رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا (127))

العمل حينما يُقبل يمتلئ قلب صاحبه ثقة بالله عزَّ وجل، وسكينةً، وسعادةً، وإن العمل إذا قُبل ألقى الله في روع المؤمن أنه قد قُبل عملك يا عبدي:

(رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127))

عملٌ قليلٌ مع الإخلاص خيرٌ من عملٍ كثيرٍ من دون إخلاص، وذكرت مرَّةً ـ وهنا موضع الإشارة أو موضعٌ مناسبٌ لشرح هذه القضيَّة ـ ثلاث علامات تؤكّد لك إخلاصك:

1- أنْ يستوي عندك الجهر والسر:

العلامة الأولى: أنْ يستوي عندك الجهر والسر، أيْ الجلوة والخلوة، والباطن والظاهر، والسريرة والعلانية، فإذا استوى الداخل والخارج، أو المعلن والمخبَّأ، والسريرة والعلانية، أيْ إذا استوى ظاهرك مع باطنك، وخلوتك مع جلوتك فهذه إشارة من إشارات الإخلاص لله عزَّ وجل .

2- استواء استحسان العمل أو عدم استحسانه:

الشيء الثاني: ألا يتأثر الإنسان المؤمن المخلص أبداً لرد فعلٍ سيئ لعمله الصالح، وهو لا يبتغي مديح الناس، ولا ثناءهم، ولا استحسانهم، ولا يستجدي عطفهم، بل هو يبتغي بعمله وجه الله عزَّ وجل، والإنسان حينما يبتغي بعمله وجه الله ينبغي له أن لا يعبأ بأحد، الحديث الصحيح:

((إذَا لَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ))

[البخاري عن أبي مسعود رضي الله عنه]

أيْ إذا لم تستح من الله، وإذا كان الله عزَّ وجل قصدك، وأنت تُرضي الله عزَّ وجل، وأنت واثقٌ من أن هذا العمل مطابقٌ للسنة، وأنك تبتغي به وجه الله فلا تعبأ بأحد .

3- السكينة في القلب:

الحالة الثالثة من علامات الإخلاص: أن العمل الصالح إذا كان خالصاً ارتفع إلى السماء وعادت منه سكينة على قلبك . فالسكينة في القلب، واستواء السر والعلانية، واستواء استحسان العمل أو عدم استحسانه، ثلاث علاماتٍ تؤكّد أن العبد مخلصٌ لله عزَّ وجل .

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127))

علة وجودك على وجه الأرض بعد أن تؤمن بالله هو العمل الصالح:

الناحية الثانية أيها الأخوة، منهج الله عزَّ وجل فيه ترك وفيه بذل، فإنسان ترك الغيبة، وترك النميمة، وابتعد عن الكذب والاحتيال فسلم، لقد بذل من ماله، وبذل من وقته وجهده وإمكاناته وخبرته فسعد، وأنت بالاستقامة على أمر الله تسلم، وبالعمل الصالح تسعد، وأوضح دليل:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (110))

(سورة الكهف)

بل إن علة وجودك على وجه الأرض بعد أن تؤمن بالله هو العمل الصالح، لأنه حينما يأتي ملك الموت لا يندم الإنسان إلا على عمل صالح فاته:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

العمل الذي ينتهي عند الموت من أعمال الدنيا، والذي يستمر بعد الموت من أعمال الآخرة، فلو حسَّن الإنسان بيته هذا عمل مباح، لكن هذا العمل ينتهي عند الموت عندما يغادر الإنسان البيت إلى القبر، فهذه الزينة لا يمكن أن تنتقل معه أبداً، بل تبقى في البيت، أما حينما يدعو إلى الله، ويعمل عملاً صالحاً، ويدعْ ولداً صالحاً من بعده هذا العمل يستمر بعد الموت، فهذا مقياس دقيق دائماً وأبداً، عند كل عمل اسأل نفسك: هل ينتقل معي هذا العمل إلى القبر أم يبقى في البيت ؟ فالذي يبقى لا تحفل به كثيراً، والذي ينتقل معك إلى القبر احرص عليه . **" يا قيس إن لك قريناً يُدفن معك وأنت ميت وتدفن معه وهو حي، إن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك ألا وهو عملك " .**

المسلم الحق ينطلق إلى تطبيق الأمر لعلةٍ واحدة هي أنه أمر إلهي:

يُؤتى بأناسٍ يوم القيامة لهم أعمالٌ كجبال تهامة، ولكن الله يجعل هذه الأعمال هباءً منثوراً، فقلق الصحابة الكرام قلقاً كبيراً، وقالوا: **" يا رسول الله جلِّهم لنا، أي صفهم لنا "** . قال:

((إنهم يصلون كما تصلون، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها))

[سنن ابن ماجه عن ثوبان]

كل شيء معلن موافق للشرع أما في السر فليس هناك خوفٌ من الله عزَّ وجل .

(رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128))

بشكل مختصر المسلم إنسان مستسلم لله عزَّ وجل، مستسلم في طاعته لله عزَّ وجل، وفي عباداته، والإنسان الذي يفعل ما يراه لصالحه، ويعلِّق تطبيق أي أمرٍ على ما إذا كان هذا الأمر نافعاً له أو ضاراً هذا لا يعبد الله إنما يعبد ذاته، فالمسلم الحق ينطلق إلى تطبيق الأمر لعلةٍ واحدة هي أنه أمر إلهي، وما دام الله قد أمر ينبغي له أن يُطاع، والآمر جلَّ جلاله هو خالق الكون .

عندما يكون الإنسان مع طبيب يثق بشهاداته العالية، وخبراته المتراكمة، وورعه إذا قال له توجيهاً، لا يفكر أن يسأله لأنه إنسان متفوق، فكيف مع الواحد الديان ؟! فنحن نبحث عن علَّة الأمر، ونبحث عن حكمة الأمر وهذا الشيء يقوي الدعوة، فإن أردت أن تكون داعية ينبغي لك أن تعلم حِكَمَ الأمور، ولكن المسلم الصادق حينما يثبت له أن هذا أمر الله عزَّ وجل لا يتردَّد ثانية في تطبيقه، ولا يعلِّق تطبيق هذا الأمر على معرفة حكمته .

الحكم الإلهي المقطوع به مجرَّد التفكير في فعله أو عدم فعله ضعفٌ في الإيمان:

شاع الآن منهج جديد بين المسلمين، منهجٌ ليس من صُلب هذا الدين، وهو أنه لماذا أمرنا الله بكذا ؟ أقنعني !! أليس هذا الأمر في آيةٍ قرآنيةٍ ؟ ألا تؤمن أنت أن هذا القرآن كلام الله عزَّ وجل ؟ وأن هذا القرآن قطعي الثبوت ؟ وهذه الآية قطعيَّة الدلالة ؟ فأنت عليك أن تطبِّق، لكن الله جلَّ جلاله إكراماً لمن كان عبداً له، طائعاً، منصاعاً، مستسلماً، يكشف له حكمة هذا الأمر، فيجمع العبد عندئذٍ بين فضل العابد الذي استسلم لأمر الله، وعلم العالم الذي فقه حكم الله عزَّ وجل:

(رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ (128))

وقال:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب الآية: 36)

إن خيارك في المباحات، أسافر أو لا أسافر، أشتري هذا البيت أو لا أشتري هذا البيت، أعمل في التجارة أو في الوظيفة، أوافق على هذه الفتاة أن أتزوجها أو لا أوافق، أما إذا كان هناك حكم إلهي مقطوعٌ به مجرَّد التفكير في فعله أو عدم فعله ضعفٌ في الإيمان.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب الآية: 36)

هذا المؤمن الصادق:

(رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ (128))

حينما ينحرف الإنسان عن منهج الله يدفع الثمن باهظاً:

الله جلَّ جلاله هو الحكيم، وهو العليم، وهو الرحيم، وأسماؤه كلُّها مُطلقة ؛ فالحكمة مطلقة، والعلم مطلق، والرحمة مطلقة، فأوامره لا بد من أن تنطوي على حكمةٍ، وعلى رحمةٍ، وعلى عدلٍ .
وحينما ينحرف الإنسان عن منهج الله يدفع الثمن باهظاً .

بلد من بلاد آسيا فيه كثافة سكانيَّة عالية جداً، فاتخذوا قراراً بعيداً عن منهج الله أنه ينبغي أن يكون لكل أسرة طفلٌ واحد، فما الذي حدث ؟ إن جاءت البنت قتلوها خِفية، إن جاء الذكر سجَّلوه، ففي السجلات ولد واحد . تواجه الصين الآن مشكلةً وهي أن هناك خمسين مليون شاباً لا فتاة لهم، فصار هناك أزمة فتيات، فنشأت عصابات لخطف الفتيات في سن الزواج، لأن هذا القانون خلاف منهج الله عزَّ وجل .

اقترح في بلد آخر أنه إذا طلَّق الإنسان زوجته تتملَّك نصف ثروته فوراً، كاد الزواج أن يُلغى في هذا البلد، فصار الأب يقدِّم لخاطب ابنته سند أمانة بمبلغ فلكي يقول له: إن طالبناك بنصف ثروتك تطالبنا بهذا الثمن، تعال تزوَّج .

أُلغي الزواج الآن في بلاد الغرب كليّاً، فأُلغي الزواج الكنسي والمدني، وصار هناك مساكنة . حينما نشرِّع بخلاف منهج الله تنشأ مشكلات لا تنتهي، ملأ هذا الاكتشاف العالم صياحاً وضجيجاً لهذه النعجة، التي كانت عن طريق الاستنساخ، وكأن هؤلاء العلماء تحدوا قدرة الله عزَّ وجل، مع أن بُنية الخليَّة لا تزال سراً، والذي حدث الآن أن أعراض الشيخوخة ظهرت في وقت مبكر جداً جِداً على هذه النعجة، قال الله عزَّ وجل:

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً(2))

(سورة الإنسان)

خلقُ الله هو الكامل، ومنهجه هو الكامل، وأنا انتقلت من أشياء تشريعيَّة إلى أشياء خلقيَّة . الآن بعد أن تفنَّن العالم في هذه المبيدات الكيماويَّة، وجد أن المشكلات لا تنتهي فمن هذه المُبيدات ؛ ملوحة التربة، وأكثر المواد مُسرطن . عادوا الآن إلى السماد الطبيعي الذي صمَّمه الله عزَّ وجل للنبات، السماد الطبيعي هو الأول الآن، ولكن بعدما دُفع الثمن باهظاً . المكافحة الحيويَّة هي الأولى الآن، وبعد أن ارتفعت نِسَب السرطان إلى عشرين ضعفاً تقريباً، وجدوا أن التصميم الإلهي هو المكافحة الحيويَّة والسماد الطبيعي، والإنسان كلّما غيَّر خلق الله عزَّ وجل وقع في سوء عمله .

أخطر شيء ينبغي للمسلمين أن يعالجوه تربية أولادهم :

قال تعالى:

(رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ (128))

الله هو الصانع، والصانع هو الجهة الوحيدة التي ينبغي لها أن تتبع تعليماتها، فأنت أعقد آلة في الكون، والله عزَّ وجل هو الصانع الحكيم، وهذا المنهج تعليمات الصانع، وينبغي أن يتبع الإنسان تعليمات الصانع حرصاً على سلامته وعلى سعادته:

(رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ (128))

هل من الممكن أن يسعد إنسان وابنه شقي ؟ مستحيل . كنت أقول مرَّةً في بلدٍ غربي: لو وصلت إلى أعلى منصبٍ في العالم، وإلى أكبر ثروةٍ وأعلى شهادةٍ في العالم، ولم يكن ابنك كما تتمنى فأنت أشقى الناس .

فأخطر شيء ينبغي للمسلمين أن يعالجوه تربية أولادهم، فأنت تجد أحياناً امرأة محجَّبة وابنتها متفلّتة في الطريق، وتجد الأب يصلي والابن لا يعتقد بهذا الدين إطلاقاً، فحينما يرى الأب ابنه منحرفاً شارداً يشقى بانحرافه، وحينما ترى الأم ابنتها تائهة ضالّة تشقى بشقائها، الأب يشقى بشقاء ابنه، والأم تشقى بشقاء ابنتها، فلذلك دائماً:

(رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا (128))

تربية الأولاد من أولويات الحياة:

قال تعالى :

﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي (124)﴾

(سورة البقرة)

تربية الأولاد من أولويات الحياة وينبغي لنا أن يكون هذا العمل في المرتبة الأولى في حياة المسلمين اليوم والسبب أن هناك صوارف لا تنتهي ؛ تصرف ابنك عن دينه، وعن قيَمه، وعن ماضي أمَّته، وعن سبيل سلامته، وعن سبيل سعادته . صوارف كثيرة جداً، وعقبات كثيرة، عقبات وصوارف، ونحن في آخر الزمان ؛ والفتن مستعرة، والضلالات منتشرة، والشُبهات تملأ الجوانح، والمُغريات قد لا يحتملها ضعيف الإيمان:

((الْمُتَمَسِّكُ يَوْمَئِذٍ بِدِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ))

[أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه]

شمَّة واحدة الآن تجعل هذا الفتى مدمن مخدرات، فيلم واحد يصرفه من الدين إلى الزنا، فهناك صوارف كثيرة، وعقبات كثيرة، وضغوط هائلة، فنحن الآن في أمس الحاجة إلى تربية أولادنا، إلى أن يأتوا إلى المساجد، فرحِّبوا بالصغار في المساجد واعتنوا بهم، فإن الصغير سبب سعادة الكبير، ولا يمكن أن يسعد الإنسان وابنه شقي، هذا تعليق:

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ (128)﴾

أنا أرى أن أي أب يرى ابنه صالحاً مستقيماً، يعرف الله ويخاف الله يدخل إلى قلبه سعادة واللهِ لا يعرفها إلا من ذاقها .

الولد الصالح ثروة لا تقدر بثمن:

أب قد لا يملك من حطام الدنيا شيئاً لكنه يملك ولداً صالحاً، وهذا الولد الصالح لا يقدَّر بثروة الدنيا كلها، والإنسان حينما يموت ينقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، وعلمٍ ينتفع به، وولدٍ صالحٍ يدعو له .

قرأت مرَّة تفسير آية فوجدت فيها دقَّة بالغة، فجعلتها محور لخطبة، خطبت هذه الخُطبة وفق تفسير هذه الآية، فوجدت لهذه الخطبة صدى طيِّباً جداً، وتأثَّر الأخوة الكرام بها تأثراً بالغاً، وأنا انتبهت أن هذا الذي ألَّف هذا التفسير قبل ألف عام أين هو الآن ؟ لعلَّه عظام في قبره، ولكن إلى متى يستمر تأثير هذا العمل الذي فعله ؟ إلى يوم القيامة . فهؤلاء الذين تركوا مؤلَّفات راقية جداً، إذ هذه الكتب العملاقة التي أُلِّفت وتنتقل الآن من جيل إلى جيل إلى جيل، وهذه صدقة جارية، فهذا علم ينتفع به . أو ولد صالح يدعو له، فهناك ولد لا يقدَّر بثمن وهذا معنى قوله تعالى:

(رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً)

(سورة الفرقان)

وقال:

(وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ (128))

ما شعور إنسان ذهب إلى بلاد الغرب فوجد حياة ناعمة جداً، حياة كل شيء فيها ميسَّر، لكن أمامه خطر أنه قد يخسر ابنه . وقد يجد ابنه ليس مسلماً، ولا ينتمي إلى أمته، وهذا أكبر ثمن يدفعه من أراد أن يعيش مع هؤلاء:

(وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ (128))

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق :

الآن:

(وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا (128))

الله عزَّ وجل جعل إليه ألف سبيلٍ وسبيل من رحمته بنا، فقد تجد إنساناً قوياً جداً بيده مقاليد الأمور ولكن لا سبيل إليه، ولا تستطيع أن تتصل به، ولا أن تقابله، ولا أن تعرض له، ولا أن تسأله، لكن الله عزَّ وجل جعل إليه ألف سبيلٍ وسبيل ؛ فالصلاة سبيل، والصيام سبيل، وغض البصر سبيل، وأنت في البيت لك إليه عشرات السُبل، فالزواج الصالح سبيل إلى الله، والأبوَّة الكاملة سبيل إلى الله، والأمومة الكاملة كذلك سبيل إلى الله، والبنوَّة الطيبة أيضاً، وهناك ضمن الأسرة آلاف الطُرق إلى الله عزَّ وجل، وهناك ضمن العمل آلاف الطرق، فأن تنصح المسلمين، وأن تكون صادقاً معهم، وأن ترحمهم، وأن تقدِّم لهم خدمة سبل إلى الله، والآن أن تكف شهواتك عما لا يرضي الله سبيل إلى الله .

فهذه سبل الطاعة العامَّة، وهناك مناسك مكثَّفة ؛ فالصلاة، والزكاة، والحج، كلها مناسك، تذهب إلى بيت الله الحرام، وتطوف حول البيت، وتسعى بين الصفا والمروة، وتذهب إلى جبل عرفات فتشعر بسعادة لا توصف، فهذا سبيل إلى الله .

الله عزَّ وجل جعل لك مناسك، فقال لك: صَلِّ خمس مرات، أيْ أن عندك خمس شحنات في اليوم، وصلِّ يوم الجمعة في المسجد واستمع إلى الخطبة، فهذه شحنة أسبوعيَّة ووجبة دسمة، تعالَ في العام صم ثلاثين يوماً فهي دورة مكثَّفة، وفي العمر حجَّ إلى بيت الله الحرام، فهذه المناسك طرق إلى الله سالكة، جعل الله عزَّ وجل الطرائق إليه بعدد أنفاس الخلائق، قال بعضهم: **" الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق "** .

إذا أنقذ الإنسان نملة وهو يتوضَّأ فهذا سبيل إلى الله، وإذا أطعم هرَّة جائعة فهذا سبيل إلى الله، وإذا وضع على السطح طعاماً للطيور فهو سبيل إلى الله، وإذا نصح مسلماً فأيضاً سبيل إلى الله، وإذا

كفَّ أذاه عن إنسان فإنه سبيل إلى الله، ففي كل لحظة هناك آلاف السبل إلى الله عزَّ وجل، وإذا رحم زوجته أو أمه وأباه وإذا أخلص في عمله وإذا نصح المسلمين فكلها سبيل إلى الله .

أجمل ما في القرآن أنك حينما تصطلح مع الله يطوى الماضي بكلمة " تب علينا ":

المناسك بمعناها العام هو أي عمل يرضي الله، بمعناها الخاص الضيق العبادات المكثَّفة التي أُمرنا بها، والمنسك هو الطريق، أيْ يا رب أرني الطريق إليك، فهناك طريق قد يكون إلى جهنَّم ؛ أو إلى النار، وإلى الدمار والعقاب، ونحن في الحياة المدنية إذا هرَّب الإنسان مُخَدِّرات فهذا طريق إلى السجن ثلاثين سنة، وإذا قتل فطريق إلى الإعدام، وإذا نال شهادة عُليا ونفع بها أمته تحتفل به أحياناً، فصار طريقاً للسمو بالحياة المدنية، والله عزَّ وجل قال:

(وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا (128))

يا رب دلَّنا على الطريق الذي نصل به إليك، وبعضهم يقول: يا رب دلني على ما يدلني إليك، والآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ (35))

(سورة المائدة)

هذه مُطلقة، فالعمل الصالح وسيلة، والاستقامة وسيلة، وأن تلتقي بأهل الحق وسيلة، وأن تؤاخي أخاً صالحاً في الله يعينك على أمر دينك وسيلة . **" لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حاله، ولا يدلُّك على الله مقاله "**، يجب أن يكون لك أخ مؤمن تثق بعلمه، وورعه، واستقامته وذلك وسيلة:

(وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا (128))

أجمل ما في القرآن أنك حينما تصطلح مع الله يطوى الماضي بكلمة: تب علينا، وانتهى الأمر .

((لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

[حديث قدسي] .

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

(سورة الزمر الآية: 53)

التوبة شيء لا يقدَّر بثمن:

تصوَّر لو لم يكن هناك توبة في هذا الدين، فما الذي يحصل ؟ قد يتضاعف الفجَّار والفسَّاق والعصاة إلى مليار ضعف، غلط غلطة فلم يجد توبة، فلا يوجد أمل، بل يستمر في غلطه، وأساء فلا توجد توبة فيستمر في الإساءة، عَق أمه وأباه فلا توجد توبة فيستمر في العقوق، وأكل مالاً حراماً فليس هناك توبة فيستمر، فلو ألغينا التوبة من هذا الدين لرأيت الفجَّار والعصاة والهلكى ومن يستحق النار ملايين مملينة، بل أرقاماً فلكيَّة:

((لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

[حديث قدسي]

وانتهى الأمر، والصلحة بلمحة، والذي أكرمه الله عزَّ وجل بتوبة يعلم ما سأقول، التائب من الذنب كمن لا ذنب له، فالتائب يشعر أن جبالاً قد أُزيحت عن كاهله . الآن بالحياة المدنية إذا كان بيت الإنسان مصادراً، أو محجوزاً، ومحلُّه التجاري محجوز، وسيَّارته محجوزة، وعنده أراضٍ محجوزة، وعنده مستودعات كلها محجوزة، وعليه ثمانون مليوناً مثلاً، وكل شيء يملكه محجوز، فلو أتيح له أن يلغي هذا الحجز وأن يعود إلى تملُّك كل أمواله بكلمة، فهل يتردَّد ثانية واحدة فيها ؟ كل ما عليك ينزاح من عن كاهلك بكلمةٍ واحدة: يا رب لقد تبت إليك . فيقول الله: عبدي وأنا قد قبلت . التوبة شيء لا يقدَّر بثمن:

(وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ (128))

توَّاب صيغة مبالغة، أي يتوب عليك مهما كبرت ذنوبك، ومهما كثرت، فلو كان عليك مليار ذنب، أو أكبر ذنب نوعاً، وأكبر كَمٍ من الذنوب فإذا قلت: يا رب أنا تبت . يقول لك: يا عبدِ وأنا قد قبلت .

التوبة علم وحال وعمل:

لكن التوبة علم وحال وعمل ؛ علم، لا يمكن أن تتوب إلا إذا علمت أنك مذنب، ولا تعلم أنك مذنب إلا إذا طلبت العلم، وأوضح مثل: لو أن إنساناً لا يقرأ ولا يكتب، وقرأ إنسان أمامه نصف صفحة، لم يقرأ كلمة واحدة بشكل صحيح، وهذا لا يعرف، فيقول: ما شاء الله ما هذه القراءة ! أما لو كان لديه علم باللغة العربية لعد له ثمانين غلطة بالصفحة، فأنت لا تعلم الذنب إلا إذا طلبت العلم، أساس الصحَّة العلم، فأنت لا يمكن أن تعالج ضغطك العالي إلا بحالة واحدة هي أن تعرف أنك مصاب بضغط عالٍ، فإن لم تقس ضغطك فكيف تعالج هذا الضغط المرتفع ؟ إنك لا تعرف . فلا بد من طلب العلم كي تعلم أنك مذنب، وإن علمت أنك مذنب وعرفت ما ينتظر هذا المذنب من عقاب فالآن تتوب، والتوبة إقلاع فوري وعزم أن لا تعود وإصلاح للماضي، فهذه التوبة، عمل متعلّق بإصلاح الماضي:

(تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا (160))

(سورة البقرة)

هناك عمل متعلّق بالسابق إنه إصلاح، عمل متعلّق بالحاضر إنه إقلاع، وعمل متعلّق بالمستقبل هو عزيمة، أنا أعزم أن لا أعود، وأقلع من تَوِّي، وأصلح ما مضى فهذا السلوك . والحال شعور بالندم على ما اقترف من ذنب، وهذا الحال . وحينما يطلب الإنسان العلم يعلم موقعه من هذا الدين:

(وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128))

لذلك قال تعالى :

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

(سورة النساء)

طموح سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يبقى الحق مستمراً:

قال:

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ (129))

هو أبو الأنبياء عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، طموح هذا النبي أن يبقى الحق مستمراً:

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129))

قال عليه الصلاة والسلام: **" أنا بشارة أخي عيسى ودعوة أبي إبراهيم "** . فسيدنا إبراهيم دعا أن يبعث الله في هذه الأمة التي من نسله ـ نحن من نسل إسماعيل ـ رسولاً:

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ (129))

الآية العلامة، يتلو عليهم ما يدلُّ عليك، والكون كله يدل على الله عزَّ وجل . لذلك الآيات أنواع ثلاثة: آيات كونيَّة، وآيات قرآنيَّة، وآيات تكوينيَّة . فيُعرف الله عزَّ وجل من آياته الكونيَّة أي من خلقه، ومن آياته التكوينيَّة أي من أفعاله، ومن آياته القرآنيَّة أي من كلامه، فكلامه يدل عليه، وأفعاله تدل عليه، وخلقه يدل عليه .

قرية في بلد في شمال إفريقيا على الساحل الأطلسي يأتيها السُياح من كل حدبٍ وصوب، فيها من الفسق والفجور ما لا يوصف، ففيها نوادي العُراة، وفنادق فسق وفجور، وخمور، ونساء، وزنا، وكل شيء فيها، أصبحت بثلاث ثوانٍ أثراً بعدَ عين، وعندي صورة لفندق ارتفاعه ثلاثون طابقاً، غاص في الأرض وبقي منه الطابق الأخير، وعلى الطابق الأخير اسم الفندق، فكأن هذا الطابق الأخير هو الشاهدة على هذا القبر، وهذه من أفعال الله عزَّ وجل:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

خلق الله يدل عليه وأفعاله تدل عليه وكلامه يدل عليه :

أفعال الله تدل عليه، وأنت أحياناً تستمع إلى مجموعة قصص ترى أن الله كبير، وأن الله يحاسب حساباً دقيقاً جداً، وأن الله مُطَّلع على النيَّات، فهذه أفعاله، وهذا كلامه، وهذا الكون خلقه .

قال لي أخ طبيب البارحة: نحن في بلد ـ في أمريكا ـ قريب من شيكاغو، تصل الحرارة إلى سبعين تحت الصفر . إنه رقم دقيق، فقلت له: في هذا المكان برد لا يحتمل، يرتدي الإنسان ثياباً صوفيَّة

داخليَّة مضاعفة، ومعاطف فرو، ويرتدي قفّازات، ويرتدي جوارب صوف، وحذاء مبطَّناً بالفرو، وقبعة، كل شيء بإمكانه أن يغطيه، ولكن كيف يمشي في الطريق ؟ لا بد من أن يكشف عينيه، وحرارة الهواء سبعون تحت الصفر، فيوجد ماء في العين، والماء يتجمَّد بالدرجة صفر، ونحن نعلم أن درجة حرارة الفريزر تكون عشرين تحت الصفر، أما سبعون ؟!! فالمفروض أن يتجمَّد ماء العين فجأةً، ومعنى هذا يجب أن يفقد كل سكان هذه البلاد أبصارهم !! فمن أودع في ماء العين مادةً مضادةً للتجمُّد ؟ الله عزَّ وجل، وهذه حكمة بالغة .

الماء شأنه كشأن أي عنصر ينكمش بالتبريد، إلا أن الماء له ميزة على كل عناصر الأرض، إذ يزداد حجمه في الدرجة زائد أربعة، ولولا هذه الخاصَّة في الماء لما كنا في هذا المجلس، ولما رأيت أحداً على سطح الأرض، وقد لا تصدقون ذلك، لا يمكن أن تقوم حياة في الأرض إذا استمر الماء في انكماشه عند التبريد، لأنه كلّما تجمَّد الماء تزداد كثافته، ويقل حجمه، والوزن ثابت، تزداد كثافته فيغوص إلى الأعماق، وبعد حين تصبح جميع البحار متجمِّدة، وإذا تجمَّدت انعدم البحر، إذا انعدم البحر انقطعت الأمطار، وإذا انقطعت الأمطار مات النبات، وإذا مات النبات مات الحيوان، وإذا مات النبات والحيوان مات الإنسان، فبهذا القانون البسيط تستمر الحياة على وجه الأرض . فخلقه يدل عليه، وأفعاله تدل عليه، وكلامه يدل عليه .

لولا أن الرسول بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيِّد البشر :

قال تعالى:

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ (129)﴾

معنى

﴿ مِنْهُمْ ﴾

لو جاء الرسول مَلَكاً وقال: يا أيها الناس غضوا أبصاركم . فيجيبوه: أنت تقدر عليها لأنك مَلَك، ونحن لسنا بمَلائكة بل نحن بشر . أما النبي فبشر مثلنا، ولولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيِّد البشر، فالرسول بشر يجوع كما نجوع، ويخاف كما نخاف، ويشتهي كما نشتهي، ولولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيِّد البشر قال:

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

[أحمد والترمذي وابن ماجة وابن حبان عَنْ أَنَسٍ]

حجَّة قائمة:

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ (128)﴾

(سورة البروج) .

وقال:

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ (129))

حدَّثني أخ فقال لي: يوجد في كل مصلحة، وفي كل حرفة أناس مستقيمون وهؤلاء حجَّة على غيرهم، تجد حرفة أغلب أهلها منحرفون إلا عدداً قليلاً متمسِّكون بالأمر والنهي، فهؤلاء حجَّة:

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ (129))

الدالَّة عليك .

حينما نقصِّر في معرفة الله من خلال آياته ينعكس هذا التقصير على الطاعة:

أيها الأخوة، حينما نقصِّر في معرفة الله من خلال آياته ينعكس هذا التقصير على الطاعة، أي أنك إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر ـ دقق ـ تفنَّنت في مخالفة الأمر، وإذا عرفت الأمر وعرفت الآمر ذبت في طاعة الآمر، فلا بد من أن تعرف الله قبل أن تعرف أمره:

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ (129))

كي يعرفوك:

(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ (129))

الأمر والنهي كي يعبدوك:

(وَالْحِكْمَةَ (129))

منه التفسير، الإمام الشافعي قال: الحكمة هي السُّنة . لأن النبي فسَّر القرآن وبيَّنه:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (44))

(سورة النحل)

فالكتاب هو القرآن، والحكمة السُّنَّة المبيِّنة .

صفات المؤمن:

مثلاً قال الله تعالى:

(وَآتُوا الزَّكَاةَ (13)).

(سورة المجادلة) .

لكن الله لم يفصل زكاة الإبل، وزكاة البقر، وزكاة الركاز، وزكاة الأموال، وزكاة العروض والتجارة، ونصاب الزكاة، وعلى من تجب الزكاة، ومصارف الزكاة، فهذه فسَّرها النبي كلها . فالسنة مفسِّرة للقرآن الكريم، فأنت بالكون تعرفه، وبالقرآن والسنة تعبده، والدين كله أن تعرفه وأن تعبده، أن تعرفه موجوداً واحداً كاملاً، وأن تعبده:

(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ (129))

تلا عليهم آياته فعرفوه، وعلّمهم الكتاب والحكمة فعبدوه، فلما عبدوه اتصلوا به، ولما اتصلوا به زكت نفوسهم وصار لديهم طهر، وصار عندهم عفاف، وحصل هناك تواضع، وتحول هناك رحمة، وعاد إنصافاً، وغدا تجَمُّلاً، وأصبح حكمة، فتجد المؤمن يُشتهى، وتجده لطيفاً، دقيق الشعور، دقيق الكلام، حاد النَّظر، حكيماً في تصرُّفاته، صادقاً في أقواله، شديداً في أفعاله وهذا من تأديب الله له .

((أدَّبني ربي فأحسن تأديبي))

[الجامع الصغير عن ابن مسعود رضي الله عنه]

مثل للتوضيح: أنا شاهدت جوهرة بمتحف في استنبول ـ ماسةً ـ مكتوباً بجانبها ثمنها مئة وخمسون مليون دولار، فلو ضرب هذا الرقم بخمسين فالناتج مبلغ فلكي، فلو أتينا بقطعة من الفحم بالحجم نفسه من سوق الفحامة من بائع للفحم، فكم ثمنها ؟ أساس الماس فحم، فالمؤمن ماسة وغير المؤمن فحم، وهو إنسان ؛ رأس، وجسم، ويدان، ورجلان، وسمع، وبصر ولكنه فحمة، لا شيء منه إطلاقاً، لأنه ليس على شيء ؛ ولا على خُلُق، ولا قيَم، ولا ورع، ولا إحسان، ولا منطق أبداً، فبين المؤمن والكافر مسافة كبيرة جداً، وقد قال النبي:

((مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ))

[صحيح عن أبي موسى]

الإنسان الحي يتقد حيويَّة وشباباً، ولكن الذي يجثم على الأرض بدون حراك فموضوع آخر، هل العينان اللتان تبرقان مثل عين الميت الجامدة ؟ هل قطعة لحم مشوية ولها رائحة عَبِقة وأنت جائع كقطعة لحم متفسِّخ ؟ الاثنتان لحم ولكن هناك مسافة كبيرة جداً، ذُكر للنبي الكريم شخص وشخص فقال: هذا يعدل ملء الأرض من هذا .

الفرق بين المؤمن وغير المؤمن:

إنه كلام دقيق، فلو حسبنا حجم الأرض وحسبنا حجم إنسان معتدل، وقسَّمنا حجم الأرض على حجم هذا الإنسان، الأرض بأكملها، الكرة الأرضيَّة بمحيطاتها الخمس، لو أنها مجوفة كم عدد الناس الذين تتسع لهم ؟ كلام النبي لا ينطق عن الهوى، وهناك إنسان واحد يساوي عند الله ما يعادل الأرض ممتلئة بالأشخاص، المؤمن عند الله كبير، حينما يموت الكافر، قال عنه تعالى:

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ)

(سورة الدخان)

المعنى المخالف أن المؤمن حينما يموت تبكي عليه السماء والأرض وكله خير، وكله إنصاف، وأدب، وانضباط، ورحمة، وذوق، ولطف، هذا هو المؤمن . وغير المؤمن بالتعبير الذي يحلو لي أن أصفه به **" دابَّة متفلتة "**، جنَّ البقر في أوروبا، فاضطروا أن يحرقوا خمسة عشر مليون بقرة، ثمن البقرة مئات الألوف، فكيف تُحرق ؟ لأنها جُنَّت . وحينما أطعموها طحين اللحم اختل نسيجها،

وصار لها سلوك طائش ومخيف، وهناك حدَّثني أخ من إخواننا فقال لي: إن صديقاً له عنده بقرة جنَّت ـ في ريف دمشق ـ فقتلت رجلين وكادت تقضي على الثالث، فأطلق عليها النار وقتلها. إذا جُنَّت البقرة تقتلها، وإذا انحرف الإنسان تجده وحشاً . تسمع أحياناً عن أعمال وحشيَّة فيما نسمع من أخبار لا يصدقها العقل ؛ قتل، واغتصاب، وتعذيب، وإذلال، ونهب، وسلب، وليس له ذنب ولكن لأنه مسلم فقط، هم وحوش، إذا عرف الإنسان الله عزَّ وجل تجده مَلَكاً، وإذا لم يعرفه فهو وحش، واللهِ قد يعترض الوحوش علينا والله لأن الوحش يأكل ليشبع فقط، وحشيَّته ليشبع فقط، أما الإنسان فقد يدمِّر بلا سبب .

معنى التزكية:

قال تعالى:

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ)

هذه التزكية، بالقرآن الكريم:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

(سورة الشمس)

إله خالق الكون يقول :

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

أن تكون زكي النفس، النبي الكريم وصفه ربه فقال:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

كان فصيحاً، وكان متكلِّماً، ومجتهداً، وقائداً، وخطيباً، وعالماً، فما أثنى الله عليه إلا بخُلقه العظيم ـ وتقريب للتوضيح ـ أب اشترى لابنه سيارة، ثم عمل حفلة ضخمة تكريماً لابنه لأنه صار يملك سيارة، فهذا كلام مضحك، وهذه ليست منه ولكنها منك، أما إذا نجح وكان الأول، فعمل له حفل تكريم، فهذا كلام طيب لأن النجاح بتفوُّق هو من جهده، فأي ميِّزة تأخذها من الله فهذه منه وليست منك، جعلك وسيم الصورة، وقوي البُنية، وابن رجل غني فصرت تملك أموالاً طائلة فهذا ليس منك، أما الخُلُق العظيم فهو منك فقط:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

هذه ويزكيهم:

(إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129))

إذا رفض الإنسان الدين فهو يحتقر نفسه:

أيها الأخوة، هناك نقطة مهمَّة جداً، يرفض الإنسان في الأعم الأغلب شيئاً احتقاراً له، عرضوا عليك بيتاً سعره غالٍ ومساحته صغيرة ترفضه، إنك احتقرت هذه المساحة الصغيرة على السعر المُرتفع، وعرضوا عليك تجارة ربحها ضئيل جداً ترفضها، وعرضوا عليك وظيفة راتبها قليل جداً فلا ترضاها، والإنسان في الأعم الأغلب يعاف ما يحتقره إلا في حالة واحدة ؛ إذا رفض الدين فهو يحتقر نفسه .

إنسان لديه إمكانيات عالية جداً عرضوا عليه دراسة جامعيَّة عُليا تنتهي له بمنصب مرموق عجيب، ولكنه فضل أن يشتغل مثلاً كانس قمامة في الطرقات، عندما رفض دخول الجامعة، والوصول إلى مرتبة علمية عالية جداً، واختار أن يكنس القمامة مع أنه يملك إمكانات عالية جداً، علماً أن أي عمل شريف لو كانت عنده إمكانات عالية وهناك عرض مغرٍ، وتعويضات، وضمانة لكل مصروفه في الدراسة الجامعيَّة، وعنده إمكانيات ورفض، وقبل أن يشتغل كانس قمامة، فمعنى هذا احتقر نفسه، واحتقر إمكاناته، وانصرف عن مؤهَّلاته، وهناك أشياء إذا رفضها الإنسان يكون قد احتقر ذاته، قال:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ (130))

أنت مخلوق لله فرفضت هذا العرض وقبلت أن تكون محسوباً على إنسان عادي، مُجَيَّراً لإنسان أو لجهة وأداة قذرة بيد جهة وليست أداة عاديَّة، ارتضيت لنفسك لتكون أداة لإيقاع الأذى بالناس، وأنت خلقك الله عزَّ وجل لتكون له نقياً، طاهراً، قوياً، عزيزاً، كريماً:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ (130))

خلقك الله عزَّ وجل لتكون له، ففي الأثر القدسي:

((خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيى بخلقهن أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كل حين ؟ لي عليك فريضة ولك عليَّ رزق فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزَّتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلِّطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي وكنت عندي مذموماً، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلَّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد))

[ورد في الأثر]

خلقنا الله عز وجل لنكون في جنة عرضها السماوات والأرض:

كلام دقيق يا أخوان، خلقك الله عزَّ وجل لتكون له، لتكون عزيزاً، وكريماً، وطاهراً، وفي جنةٍ عرضها السماوات والأرض، فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر،

وأنت أردت أن تكون أداةً قذرةً طَيِّعَةً بيد جهةٍ منحرفةٍ، قد توقع الأذى بالناس وليس لك مصلحة إلا تنفيذ رغبة إنسان، فهل هذا ممكن ؟ قد يكون في عملك إيقاع الأذى بالآخرين، ولكن المؤمن محسوبٌ على الله . يقول لك البعض: نعيش لنأكل، وفي كلام أرقى: نأكل لنعيش، وفي أرقى: نعيش لنعرف الله، ونحيا لنعرفه، ونسمو إليه، ونسعد بقربه، لندخل جنَّته، فالإنسان حينما يرضى أن يكون لغير الله فقد احتقر نفسه .

ضربت مثلاً سابقاً: لدينا قطرميز بلور كبير، ثمنه عشرون ليرة، وكأس كريستال، ثمنها ألف ليرة، وجوهرة ثمينة، ثمنها مئة وخمسون مليون دولار وقلنا لإنسان: اختر واحدة . فاختار أكبر شيء وأخذه، فهو جاهل ومحتقر لذاته، فالذي اختار القطرميز وترك التي ثمنها مئة وخمسون مليون دولار محتقر لنفسه:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ (130))

إذا قبلت العرض أن تكون بالجنة، وتكون مع الله عزَّ وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

(سورة مريم)

فليس وداً مع شخص عادي جداً، لا، مع خالق الكون، هو أكبر بكثير، وأنت في الجنة، فإذا رفض الإنسان عرض الإله أن يكون في الجنة، وأن تكون له، واختار أن تكون لغيره، وأن يكون أداة قذرة بيد إنسان منحرف فهذا منتهى الحقارة في الإنسان:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130))

لعطائنا، في الدنيا اصطفيناه، وفي الآخرين من الصالحين لعطائنا .

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (46- 95):تفسير الآيات131 - 137، الدين استسلام لله وخضوع له

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-07-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

الدين في أصله استسلامٌ وخضوع لله عزَّ وجل:

مع الآية الواحدة والثلاثين بعد المئة، وهي قوله تعالى :

(إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131))

التي قبلها :

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130))

اصطفاه لأنه :

(إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131))

أيها الأخوة، الدين في أصله وفي جوهره استسلامٌ لله عزَّ وجل وخضوع، ولكن هذا الخضوع لمن ؟ للخالق، الخضوع للقوي، الخضوع للعليم، للرحيم، للعدل، للخبير، للطيف، وهذا الذي يخضع لغير الله إنسانٌ أحمق، لأنه يخضع لضعيف، وخسيس، ولئيم، وعاجز، وجاهل، وأصل الدين أن تخضع لله، بل إن العبادة في أصلها غاية الإذعان مع غاية الحب، ولا يليق بالإنسان أن يخضع لغير الله، ولا أن يُحسَب على غير الله، ولا أن يستسلم لغير الله، لأن الإنسان خُلِقَ لله، فأنت في الأصل مخلوق لله عزَّ وجل، وإذا صحَّ أن نقول: إن الماء للتراب، والتراب للنبات، والنبات للحيوان، والحيوان للإنسان، والإنسان لمن ؟ هو لله عزَّ وجل .

((خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك))

[من شرح الجامع الصغير عن ابن مسعود]

من جهل حقيقة إنسانيّته ورسالته وسرّ وجوده فقد احتقر نفسه:

حينما يكون الإنسان لغير الله يحتقر إنسانيَّته، ويحتقر هويَّته، والمقام الرفيع الذي أحلَّه الله به:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)

(سورة الإسراء) .

يخاطب الله عباده بنسبة تشريفٍ له:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

(سورة الزمر)

وقال:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(49))

(سورة الحجر)

رفع الله جلَّ جلاله من قدر الإنسان إلى أعلى مكان، فحينما يجهل الإنسان حقيقة إنسانيّته، وحقيقة رسالته، وحقيقة سرّ وجوده فإنما يحتقر نفسه:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ (130))

(سورة البقرة)

الإسلام أن تستسلم للمطلق:

أيها الأخوة الكرام:

(إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ (131))

(سورة البقرة)

دقّق، أحياناً تأخذ فكرةً عن طبيبٍ متفوّقٍ جداً ؛ عالمٍ، ورع، مسلمٍ، مخلصٍ، يعطيك تعليمات، راقب نفسك، فقلّما تحاول أن تفكّر في حكمة هذه التعليمات لأنك مؤمنٌ أنه متفوّق في علمه، وفي ورعه، وفي اختصاصه، وفي نصحه، فأنت مع إنسان تستسلم، فكيف مع الواحد الديَّان ؟ الاستسلام لله شيء مسعد، وكل هذا الكون يشهد لله عزَّ وجل بالعظمة، ويشهد له بالحكمة، والرحمة، والعلم، والعدل، فإذا استسلمت لله حقّقت كل مصالحك . فالإنسان له مصالح، وأكبر هذه المصالح السلامة والسعادة، فإذا استسلمت إلى خالقك وطبَّقت منهجه فهو الصانع الحكيم، وتعليماته هي تعليمات الصانع، والجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها . أما أن يستسلم الإنسان لإنسان، أيْ لمخلوق ضعيف، إذ يستسلم لما يبدو له أنه قوي وهو في الحقيقة ضعيف !!

يقال: إن أحد الوزراء سأل أمير المؤمنين وقد طلب كأس ماءٍ منه، فقال: يا أمير المؤمنين بكم تشتري هذا الكأس لو مُنِع منك ؟ قال: **" بنصف ملكي "** ، قال: ولو منع إخراجه ؟ قال: **" بنصف ملكي الآخر".**

الإنسان ضعيف إذ كل ملك هذا الخليفة لا يساوي كأس ماءٍ يشربه ويخرجه . وكان عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيت الخلاء، يقول:

((الحمد لله الذي أذهب عني الخبث، أذهب عني ما يؤذيني، الحمد لله الذي أذاقني لذّته ـ الطعام ـ وأبقى فيَّ قوّته، وأذهب عني أذاه))

[من شرح الجامع الصغير عن أنس بن مالك]

الإنسان ضعيف، فأنت حينما تكون لإنسان فأنت ضعيف لضعيف، وفقير لفقير، وجاهل لجاهل، أما إذا استسلمت للمُطلق ـ دقق ـ فضعفك يقوى بقوَّته، وجهلك يزول بعلمه، وحيرتُك تتلاشى بهداه، والإسلام أن تستسلم للمطلق، قد يقول أحدكم: كيف أستسلم؟ فهذا القرآن، وهذه تعليمات المُطلق، وتعليمات الخالق، وتعليمات الإله، لتفعل ولا تفعل، لمجرَّد أن تطبِّق هذا الأمر والنهي فأنت استسلمت لله عزَّ وجل.

الكون وحده يعتبر دليلاً قاطعاً على عظمة الله عزَّ وجل:

قال تعالى:

(إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131))

دقِّق:

(أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131))

الأب طبيب، وباعه طويل في الطب، ومتفوِّق، وعانى ابنه من قضيَّة في صحَّته، فالأب يقول له: لا تأكل هذا الطعام، ودع شُرب الماء، واترك الملح ـ مثلاً ـ كل ثقة الطفل بأبيه، وكل ثقته بعلم أبيه، أفلا يكفي هذا الكون دليلاً قاطعاً على عظمة الله عزَّ وجل ؟ وأمر من هذا ؟ أمر الخالق .

ذكرت هذه القصَّة كثيراً ولكنها مناسبة الآن ؛ عالم ذهب إلى أمريكا، وأجرى حواراً مع عالم مسلم أمريكي حول لحم الخنزير، فالعالِم الذي من بلدنا أفاض، وشرح، وبيَّن الحكم، والعلل، والجراثيم، والدودة الشريطيَّة . فابتسم هذا المسلم الأمريكي وقال له: كان يكفيك أن تقول لي إن الله حرَّمه . لأن كل علم الله في هذا التحريم، ولأن كل رحمة الله في هذا التحريم، وحكمته وخبرته أيضاً، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

أنا لا أريد أن أكثر من الأمثلة، ولكن لو كان لديك جهاز كمبيوتر وأصابه خلل، فأنت تذهب به إلى الخبير، فيقول لك: يجب أن تُغَيَّر هذه القطعة ـ فإذا كنت واثقاً طبعاً ـ تقول له: افعل ما تريد . فأنت مع الخبراء مستسلم، ومع الأقوياء مستسلم، ومع العلماء أيضاً، فالله يأمرك أن تكون مستسلماً له، فالعلم كلُّه، والحكمة كلها، والرحمة كلها، والقدرة كلها، واللطف كله، والخبرة كلها إن استسلمت لله استسلمت للمُطلق .

حينما تخضع لأمر إلهي تخضع لأنه أمر الله عز وجل:

قال تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) ﴾

هذا هو الدين، إنّه خضوع ؛ إنك حينما تخضع لأمر إلهي، تخضع لأنه أمر الله عز وجل، قال علماء الأصول: **" علّة كل أمرٍ أنه أمر "** . ويكفي أنه أمر وانتهى الأمر، وهذا يقودنا إلى قول سيدنا الصديق حينما أنبأه أهل قريش أن صاحبك يقول: إنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد في ليلته . كلام غير مقبول، لا توجد مواصلات، ولا طائرات، ولا حوَّامات، ولا مركبات سريعة، ولا قطار سريع، ولا يوجد إلا الجمال، فشهر ذهاب وشهر إياب، أما أن يذهب إنسان ويصلي في بيت المقدس ويعود **!!** أرادوا أن يؤكّدوا له أن صاحبك يقول كلاماً غير معقول: إن صاحبك يزعم أنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد في ليلته **!!** فماذا كان جواب سيدنا الصديق ؟ قال: **" إن قال هذا فقد صدق "**، أرأيت الاستسلام ! أنت حينما تؤمن بالله وأنا أدعوك إلى الاستسلام بعد أن تؤمن بالله، وبعد أن تؤمن بما عنده، وبما ينتظر الإنسان من إكرامٍ لو استقام على أمره، وبما ينتظر العاصي من عقاب إذا خرج عن منهجه:

﴿ قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(سورة يونس)

على الإنسان أن يستسلم لعلم الله وقدرته:

إذا كان بُعد بعض المجرَّات أربعة وعشرين ألف مليون، هناك مجرَّات تبتعد ثلاثمئة ألف مليون سنة ضوئيَّة، والضوء يقطع في الثانية ثلاثمئة ألف كيلو متر، فكم تبعد هذه المجرَّات ؟ إذا كانت درب التبانة ـ هذه مجرَّتنا ـ وهي مجرَّة معتدلة ليست كبيرة ولا صغيرة، من بين مئة ألف مليون مجرَّة ـ هذا الرقم الأخير ـ ومجرَّتنا إحدى هذه المجرَّات، تحوي مجرّتنا ما يقترب من مئة ألف مليون نجم، والمجموعة الشمسيَّة بأكملها ما هي إلا نقطةٌ على خريطة هذه المجرَّة، ويقال لك: إن الإنسان غزا الفضاء، أي قطع بالفضاء الخارجي ثانية ضوئية واحدة، فوصول الإنسان للقمر قطع ثانية ضوئية فقط، والشمس ثماني دقائق، والمجموعة الشمسيَّة ثلاث عشرة ساعة، والمرأة المُسلسلة مليونا سنة ضوئيَّة، وأقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئيَّة، ونجم القطب أربعة آلاف سنة ضوئيَّة، ثم هناك خمس ملايين، ثم هناك أربعمئة مليون، ثم هناك ثلاثمئة ألف مليون سنة ضوئيَّة:

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

(سورة غافر)

ينبغي لك أن تستسلم لعلمه، وأن تستسلم لقدرته، ونحن عندنا قِوى ضغط من صنع الإنسان، إذا دخلت الأرض النقطة السوداء ـ أو الثقوب السود ـ أصبحت بحجم البيضة، تصوَّر إذا ذهبت إلى

حلب تحتاج خمس ساعات، ويزداد سَأَمُكَ من طول الطريق، وسوريا لا تتسع لكتابة اسمها على خارطة صغيرة، سوريا خمسة حروف لا تتسع كل بلاد سوريا على خارطة صغيرة ليكتب عليها اسمها بين الدول الكبيرة، وهذه الدول العملاقة، القارات الخمس التي هي خُمس البحر، وهذه الأرض إذا دخلت إلى ثقبٍ أسودٍ في الفضاء أصبحت بحجم البيضة، فهذه قدرة، وما قولك بهذه القدرة ؟ قدرة تضغط الأرض إلى حجم بيضة بالوزن نفسه ؟! قوة، ورحمة، وعلم، وخبرة، يدعوك الله إلى أن تستسلم له ؛ للقوي، والغني، واللطيف، والخبير، والعليم، والعدل هذا هو الموضوع:

(إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131))

الإنسان يحب أن ينقل خبراته إلى أولاده وأن يكونوا استمراراً له:

رب العوالم، العوالم جمع عالَم، والعالَم ؛ عالم النبات، وعالم الحيوان، وعالم الأسماك، وعالم الأطيار، ففي الحيوانات وحيدة الخليَّة أنواع منوَّعة، وفي البحار مليون نوع من الأسماك، ومئات الألوف من الأطيار، وملايين من أنواع النباتات، فكل هذه العوالم ربُّها الله هو الذي أوجدها، وهو الذي أمدَّها، وهو الذي يسيِّرها .

(وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132))

نشكر أختاً كريمة تحضر معنا الدروس من أكثر من ربع قرن، لها ابنةٌ وزوج ابنةٍ ليسا مؤمنين، يؤمنون بأنه لا إله، فكانت هذه المرأة تدعو ابنتها وزوج ابنتها إلى حضور هذه الدروس، سنوات وسنوات، فاستجابا لها في النهاية وحضرا بضعة دروس، ثم وافت المنيَّة زوج ابنتها، فقال لأولاده وهو على فراش الموت: **" كل شيءٍ سمعتموه مني كان باطلاً، الدين هو الحق "** . ففي حياة الإنسان شخص واحد يتمنَّى أن يفوقه، هو ابنه، وعواطف الأب تجاه ابنه شيء ثابت، فالإنسان يحب أن ينقل خبراته إلى أولاده، وأن يكون ابنه استمراراً له، يحب أن يكون ابنه أحسن الناس، فهذه من جبلَّة البشر، ولذلك قال سيدنا إبراهيم:

(وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ (132))

يعقوب وصَّى أيضاً بنيه:

(يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ (132))

لا يعقل أن يخلق الله عزَّ وجل كوناً بإعجازٍ مذهل، ثم يدع خلقه من التوجيه والتعليمات، فلا بد من أن يرسل الله لنا رسله، ولا بد من أن يكون هؤلاء الرسل موزَّعين في بقاع الأرض كلها، وفي الأزمان كلها .

الإنسان حينما يصدق في طلب الحقيقة يسوقه الله إلى منابعها:

الأنبياء، والرُسل، والدعاة، والعلماء موزَّعون توزيعاً جغرافياً، وتوزيعاً زمنياً مُحْكَماً، وإن الله يبعث على رأس كل مئة عام من يجدد لهذه الأمة دينها، فالله عزَّ وجل يهيِّئ طبعاً في البدايات أنبياء ومرسلين، ثم قد هيَّأ دعاةً مخلصين ينطقون بالحق لئلا يكون الناس معطّلين عن الأمر والنهي، والإنسان حينما يصدق في طلب الحقيقة يسوقه الله إلى منابعها، والدليل قوله تعالى:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال الآية: 23)

أنت حينما تسمع الحق فهذه بشارةٌ لك أن الله قد علم فيك خيراً، فهناك شعوب تعبد البقر، وشعوب تعبُد الحجر، وأخرى تعبد النار، وثالثة تعبد الشهوة، ورابعة تعبد المال، فإذا شرَّفك الله بأن تعبده وأن تُصْغِي إلى الحق فهذا من نعم الله الكبرى .

(وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132))

لذلك أنا ألِحُّ على أخواني الكرام أن يعتنوا بتربية أولادهم، لأن الابن استمرار لأبيه، ولأن شعور الأب حينما يرى ابنه طائعاً لله، عارفاً بالله، وقّافاً عند حدود الله شعورٌ لا يوصف، ولا يعرفه إلا كل أبٍ حريصٍ على هداية أولاده، فالله جلَّ جلاله يعلّمنا:

(وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132))

الإنسان معه منهج دقيق إذا طبَّقه يسلَمْ ويسعد في الدنيا والآخرة:

حينما يسقط الإنسان في الدنيا تصبح وصيَّته دنيويَّة، فكم من إنسان على فراش الموت وصَّى أولاده بمتابعة البناء، وبيع الصفقات، وجمع الأرباح، وتوزيع الثروات، وكلها متعلّقة بالدنيا، أما أب يجعل وصيَّته الأولى تقوى الله عزَّ وجل:

(وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132))

أنت إنسان معك منهج دقيق لو طبَّقته لسَلِمْتَ وسعدت في الدنيا والآخرة، فمنهج الله بين يديك، هذا الكتاب وهذه السُنَّة طريق قويم وصراطٌ مستقيم وحبلٌ متين ونورٌ مبين .

(فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132))

بالمناسبة هل يمكن أن تأمر إنساناً بما لا يستطيعه ؟ مستحيل، لكن هنا نهي:

(فَلَا تَمُوتُنَّ (132))

هل الموت بيدي يا رب ؟! أأنا الذي أقرِّر الموت حتى أنك تنهاني عن ألا أموت إلا وأنا مسلم ؟ هناك معنى لطيف جداً هو إذا كان الموت ليس بيدك فلا بد من أن تكون مسلماً دائماً، حتى إذا فاجأك الموت أخذك وأنت مسلم وهذا هو المعنى . وبما أن الموت ليس بيدك ولا تقدر على ردِّه، وقد أخفى الله عنك ساعة الموت، فيجب أن تكون دائم الاستعداد له فتصوَّر إنساناً يعرف وقت موته، فهو لا يتوب إلا قبل موته بساعة، أو بخمسة أيام، ولكن لا أحد يعرف متى الموت .

إذا كنت لا تملك ردَّ الموت فينبغي لك ألا يأتيك الموت إلا وأنت مُسلم:

أذكر أن شخصاً ذكر لي همومه المعاشيَّة، وذكر لي أنه سيسافر إلى بلد إعارة في التدريس، وسيقيم هناك خمس سنوات، ولن يأتي إلى هذا البلد، وسيتَّجه كل صيف إلى مكان ؛ صيف إلى بريطانيا، وصيف إلى إيطاليا، وصيف إلى فرنسا، وصيف إلى اسبانيا وسيعود، ثم يتقاعد من عمله الوظيفي، ثم يفتح محلاً تجارياً يبيع فيه التُحَف، وبعد أن يكبر أولاده سيجعل من هذا المكان مكاناً للندوات واللقاءات بينه وبين أصدقائه، ومازال يتكلَّم عن مشاريعه المستقبليَّة ساعةً بأكملها . وكأنني أذكر الذي تكلَّمه يزيد عن عشرين عاماً .

خرجت من عنده وعدت إلى بيتي، وفي المساء نزلت إلى السوق لأشتري بعض الحاجات، وأنا في طريق العودة إلى البيت رأيت نعوته على الجدران في اليوم نفسه، فلا أحد يعلم متى يموت .

شابٌ متَّقفٌ يحمل شهادة عُليا، يسهر مع أصدقائه كل سبت، فقال لهم مداعباً: أنا سأعيش طويلاً . فسألوه: لماذا ؟ قال: أنا وزني خفيف، ولا أدخِّن، وأمشي، وأكلي معتدل، ولا أحمِّل نفسي الهموم . وهذا كله كلام صحيح وعلمي، فهذه أسباب طول العمر، والاجتماع كل سبت، فما جاء السبت القادم إلا وهو تحت الثرى، لا أحد يعرف متى الموت فقد يكون بعد ساعة .

دعيت مرَّة لاحتفال عيد المولد في جامع الحنابلة، وفي دخولي للمسجد رحَّب إنسان بي ترحيباً غير معقول، وجلست، بعد ربع ساعة لاحظت ارتباكاً في الحفل، فسألت عن السبب ؟ فقيل لي: إن هذا الذي استقبلك توفي . ولم يكن به أي شيء، فقبل خمس دقائق يرتدي أجمل حلة، وأبهى ثياب، وهو أحد أعضاء الجمعيَّة التي أقامت هذا الاحتفال، فذهبنا إلى المستشفى فوجدناه قد انتهى، فمن يعلم متى سيموت ؟ الموت يأخذ الشباب، ويأخذ الصغار، والكبار، والأصحَّاء، والمرضى، والأقوياء، والأغنياء، وبالدوحة أمير البحرين مات بعد مقابلة بدقيقتين، فحالات الموت مرعبة ومفاجئة، فإذا كنت لا تملك ردَّ الموت فينبغي لك ألا يأتيك الموت إلا وأنت مُسلم .

﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132) ﴾

الموت يأتي فجأةً والقبر صندوق العمل :

كنت أشرح هذه الآية بمثل طريف، لو فرضنا أن بطاقة طائرة ثمنها خمسمئة ألف فرضاً، ونظام هذه الشركة أنك إن تخلّفت عن ركوب الطائرة لا تردُّ لك قيمة البطاقة بشكل مؤكد، والبطاقة بنصف مليون، والشركة هي التي تأخذك من البيت، ولا تنتظر إلا دقيقة واحدة، متى تأتي ؟ من الساعة الثامنة صباحاً وحتى الثامنة مساءً، فضمن هذين الوقتين تأتي سيارة الشركة، فماذا تفعل أنت ؟ سعر البطاقة خمسمئة ألف، ولن تسترد ثمنها، ولن تنتظر إلا دقيقة، والوقت من الثامنة صباحاً حتى الثامنة مساءً، لا شك أن الحريص على ثمن هذه البطاقة يقف بجانب الباب من الساعة الثامنة صباحاً، هذا معنى الآية:

(فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132))

الموت يأتي فجأةً ؛ فقد يأتي وأنت في السفر، وقد يأتي وأنت في الحضر، أو في الليل، أو في النهار، أو قبل العُرس، مهندس يشرف على بناء، وكان عرسه مساءً، مدَّ رأسه من النافذة أثناء عمله، فسقطت قطعة حجر على رأسه فقتلته فوراً، وقد وزِّعت الحلويات التي اشتريت بأرقام فلكيّة على المعزِّين مساءً، وصُمدت زوجته بثياب العرس في تعزية النساء، فمن يصدِّق قبل العرس أنه سيموت ؟ إنسان بعد أن نال الدكتوراه بأيام جاءه ملك الموت، فالموت يأتي فجأةً والقبر صندوق العمل، وهناك قصص كثيرة جداً .

كان أحد أخواننا يشيد بناء، وبعد أن انتهى كل شيء في البناء لم يبق إلا جهاز كهربائي، فرُكِّب الجهاز وجاء الأثاث، وفي صبيحة اليوم التالي كان من المفترض أن يأتي صاحب البيت، فوافته المنيَّة مساءً ولم يسكن البيت . فقد لا تسكن البيت، وقد لا تستفيد من الشهادة، أو نسافر ولا نعود، أو نعود ولا نسافر مرة ثانية، فالموت يأتي فجأةً والقبر صندوق العمل، هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132))

من السُنَّة أن يكتب الإنسان وصيَّة يُصَدِّرها بنصح أولاده من بعده:

في آية أخرى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(102))

(سورة آل عمران الآية: 102)

وقال:

(أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133))

ذكر العلماء: أن من السُّنَّة أن يكتب الإنسان وصيَّة يُصَدِّرها بنصح أولاده من بعده .

(مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133))

هذا هو التوحيد، وما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد .

كل عمل ابنك في صحيفتك:

إنها كلمة قالها الأبناء، ولكن هذه الكلمة مُحَصِّلة توجيهات مديدة وطويلة ومتعدِّدة، فالأب الذي يكون وراء أولاده ومعهم دائماً ينصحهم ويعلِّمهم، هذا والله شهدته مرَّةً إذ هناك أولاد متميزون في تديُّنهم، وسبب هذا التميز في التديُّن أن آباءهم كانوا حريصين حرصاً لا حدود له على تربيتهم وعلى توجيههم، فالله عزَّ وجل يلحق عمل الأبناء بالآباء:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الطور الآية: 21)

أي أن كل عمل ابنك في صحيفتك، ولذلك :

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

الأعمال الصالحة أولاً منوَّعة، ولكن أجلَّ هذه الأعمال على الإطلاق هي التي تستمر بعد موت الإنسان . فإنسان ترك أثراً علمياً كبيراً جداً، وإنسان ترك علماً، وآخر ترك كتاباً، وثان ترك دعوة، وثالث ترك معهداً، فهذه الدعوات الجليلة التي تستمر بعد موت الإنسان هي من أَجَلّ الأعمال، إنها صدقةٌ جارية لا نهاية لها، فتصور أنه يمضى مئة سنة، وألف سنة، وألفا سنة، وآلاف مؤلَّفة، وكل من استفاد من هذا الكتاب في صحيفتك، وكل من استفاد من هذا العلم في صحيفتك .

كنت في مؤتمر في القاهرة قبل أيام في الأسبوع الماضي، فألقى مندوب نيجيريا كلمة باللغة العربيَّة الفُصحى، وبعمقٍ شديد، ثم علمت أن هذا المندوب درس في دمشق، ثم صار مُفتي نيجيريا، فتأثَّرت تأثراً بالغاً، إنسان طالب علم درس في دمشق، قد لا يؤبه له، وقد صار مصيره مفتياً لبلد إسلامي كبير، ألقى كلمة كانت رائعة، وقد تأثَّرت تأثراً بالغاً . فهذا الذي يعلِّم طلاب العلم، هذا الذي يرعى طلاب العلم، وهذه نقطة مهمة، فالأعمال العظيمة هي التي تستمر بعد موت صاحبها ؛ وبالمقابل شر الأعمال هي التي تستمر بعد موت صاحبها، فإنسان أسَّس ملهى ومات ـ والأصح قد فطس ـ كل من ارتاد هذا الملهى، وكل من شارف على الزنا في هذا الملهى، أو من شرب الخمر في هذا الملهى في صحيفة الذي أنشأ هذا الملهى . فهذه نقطة مهمة ؛ فالأعمال العظيمة هي التي تستمر بعد موت صاحبها .

خيارنا مع الإيمان خيار وقت فقط لا خيار قبول أو رفض :

حدَّثنا أحد الدعاة إلى الله فقال: إن طالب علم من بلد إسلامي، تعلَّم في معهده، وحصَّل الشهادة وسافر، وطُرق باب هذا العالم بعد عشرين سنة، فإذا سيارة ضخمة جداً فيها مئة طالب علم كلهم طلاب لهذا التلميذ، زار أستاذه وهو في طريقه إلى الحج، فلما رأى الشيخ هذا الطالب الذي علَّمه، وكان من حصيلة هذا الطالب هذا الجَمع الغفير من طلّاب العلم بكى . فالإنسان عليه أن يترك عملاً لا ينتهي عند موته بل يستمر، إنها صدقة جارية، فإنسان أنشأ مسجداً، وإنسان أنشأ معهداً شرعياً، فهذه الأشياء صروح باقية، فالمعاهد قلاع صامدة للعلم، وهناك أعمال والعياذ بالله تستمر بعد موت صاحبها كدور اللهو، ودور الموبقات فهذه كلها تستمر، وإنسان ترك مؤلَّفاً يدعو إلى الإلحاد وأثناء موته يؤمن، والدليل أكفر كفّار الأرض فرعون حينما جاءه الموت قال:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ (90))

(سورة يونس)

إذاً نحن خيارنا مع الإيمان خيار وقت فقط لا خيار قبول أو رفض، لأنه مهما كان الإنسان بعيداً عن الدين فحين الموت يُكشف عنه الغطاء :

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22))

(سورة ق)

عرفت الحقيقة ولكن بعد فوات الأوان:

(أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133))

الآية التالية هي آية التاريخ :

هذه ثمرة، فهل عند الإنسان إمكان أن يكون أولاده كذلك، فلو سألهم أجابوا، لو طلب منهم أن يعبِّروا عن إيمانهم لقالوا ؟ هذا من نعم الله الكبرى، قال :

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134))

هذه الآية أيها الأخوة مهمَّة جداً، فهذه آية التاريخ:

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ (134))

أي مضت وانسلخت عن وقتها:

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134))

هذا الذي يستقدم قضايا من التاريخ، ويجعلها سبب خلاف معاصر، هذا إنسان بعيد عن الحقيقة، فكل أمةٍ لها عملها ولنا أعمالنا، فهؤلاء الذين مضوا إن كانوا في أعلى عليين، فهذه مكانة احتلوها بعملهم وإخلاصهم، لا ينفعهم أن نمدحهم، ولا يؤثِّر عليهم أن نذمَّهم، وكل إنسان مضى له عند الله

مكانة ثابتة هي مُحَصِّلة عمله، واستقامته، والتزامه، وإخلاصه، فله مكانة لا يرفعها مدح المادحين ولا يخفضها ذم الذامِّين، إذاً كن مطمئناً، فتقييم الأشخاص من شأن الله عزَّ وجل، فما بال بعض المسلمين يستنبئون التاريخ، فلان على حق أم فلان ؟ فلان أعظم عند الله أم فلان ؟ هذا ليس من شأنك بل هذا من شأن الله عزَّ وجل، وفِّر وقتك .

نُخبة البشر هم الذين يعيشون المستقبل :

قال تعالى:

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ (134))

أي لها كَسْبُهُا وعملها الذي مكّنها الله منه باختيارها:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ (134))

ولن تُسأل أمة عن أمة:

(وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134))

هل من الممكن أن نوفِّر وقتنا ونتجه نحو المستقبل ؟ قال العلماء: " هناك من يعيش الماضي، وهناك من يعيش الحاضر، لكن نُخبة البشر هم الذين يعيشون المستقبل " . أخطر حدث في المستقبل هو الوفاة، وأخطر حدث بعد الولادة هو الموت، فالإنسان أمامه حدث خطير هو مغادرة الدنيا، بحسب الظاهر من كل شيء إلى لا شيء، إلى قبر، من بيتٍ فاخر إلى قبرٍ مظلم، ليس معك في القبر إلا عملك إن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، فهذا الشيء المُجدي، أما الماضي فما لي وللماضي ؟ ما مضى فات والمؤمَّل غيب ولك الساعة التي أنت فيها، الأولى أن يفكِّر الإنسان في مستقبله، والأولى أن يعُد عمره عداً تنازلياً لا عداً تصاعدياً، اركب مركبة واذهب إلى حمص تصلها بمئة وخمسين كيلو متر، وبعدها بمئة وأربعين، مئة وثلاثين، مئة وعشرين، مئة وعشرة، مئة، تسعين، ثمانين، سبعين، ستين، خمسين، أربعين، ثلاثين، عشرين، عشرة، خمسة، حمص ترحِّب بكم، نازلين . فلو أحصينا عمرنا بهذه الطريقة اختلف الأمر .

البطولة لا أن تبحث في عمل الآخرين بل أن تبحث في عملك أنت :

الآن قضينا أربعين، فكم بقي يا ترى ؟ على المستوى المتوسِّط بالستين، فمعترك المنايا بين الستين والسبعين، فإنسان يموت وعمره خمس وخمسون، أو أربع وأربعون، أو تسع وثلاثون، أما الأغلبيَّة فبين الستين والسبعين، فإذا مضى من عمر أحدنا أربعون سنة، كم بقي له على المتوسط ؟ نصف ما مضى، وصل إلى الخمسين فبقي عشر، ووصل إلى الخامسة والخمسين بقي خمس، وبعد هذا

ينتظر الصباح والمساء، فإذا نام لا يستيقظ، وإذا استيقظ لا ينام، يخرج من بيته كل يوم قائماً، ومرَّة واحدة أفقياً، وكلّما خرج عاد إلا مرَّة واحدة يخرج ولا يعود، والموت مصير كل حيّ، فلذلك:

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ (134))

مضت ونحن سنمضي، وبعد مئة عام في الأعم الأغلب لن يكون واحد منا في هذا المجلس على قيد الحياة، بل كلنا تحت الأرض بلا استثناء، وهؤلاء الذين في القبور كانوا أشخاصاً، ولهم هموم، ولهم مشكلات، وعندهم أعمال، وعندهم إنجازات، وسكنوا في بيوت جميلة، وأكلوا طعاماً طيباً، وتزوَّجوا النساء أين هم الآن ؟ أحياناً تجد جمجمة مثلاً بمتحف، أو بمخبر علمي طبيعي، فمن صاحب هذه الجمجمة ؟ ماذا كان يعمل ؟ لا نعرف، يوجد في أمريكا حفرة مثل الجب فيها كتلة تساوي خمسة طن كلها جماجم، وكان هناك اعتقاد واهم أن فيها كنوزاً فمئات وآلاف الأشخاص ألقوا بأنفسهم ليخرجوا الكنز، فماتوا ولم يجدوه وجماجمهم تشهد عليهم، وهذا هو الإنسان .

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134))

هذه المقابر حول دمشق، هذا مات بالثمانين، وبالتسعين، وبالسادسة والثمانين، وبالخامسة والثمانين، وبالخامسة والتسعين، هذا عميد أسرته، وهذا الشاب، وهذا الطبيب، وهذا المهندس، فهذه المقبرة فيها كل الناس، وكل إنسان له عمله، فالبطولة لا أن تبحث في عمل الآخرين ـ دقّق في هذا الكلام ـ البطولة أن تبحث في عملك أنت، لأن عملك أنت هو الذي تُسأل عنه بالضبط .

الحنيف هو المائل لله عزّ وجل عما سوى الله:

قال تعالى:

(وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135))

سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء، والعرب من نسل إسماعيل، واليهود من نسل إسحاق، وهو أبو الأنبياء، وقد آمن ببعض الآيات رأى كوكباً قال: هذا ربي، ثم رأى القمر بازغاً قال: هذا أكبر، ثم رأى الشمس، ثم وجَّه وجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً ولم يك من المشركين .

(وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا (135))

أي أن اليهود قالوا: كونوا هوداً تهتدوا . والنصارى قالوا: كونوا نصارى تهتدوا , قال :

(قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135))

الحنيف هو المائل لله عزَّ وجل عما سوى الله بالضبط، وهذا معنى:

(وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ)

(سورة آل عمران)

الإنسان الحنيف قلبه معلّقٌ بالله وعمله خالصٌ له وسلوكه منضبطٌ بشرعه تعالى .

مضمون دعوة الأنبياء واحدة:

قال تعالى:

(قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136))

أيْ أنَّ فحوى دعوة الأنبياء واحدة، أي مضمون دعوة الأنبياء واحدة:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِي(25))

(سورة الأنبياء)

توحيدٌ وعبادة:

(قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا (137))

توحيدٌ وطاعة، توحيد الإله عقيدةً، والطاعة سلوكاً .

هناك اثنينية إما أن تكون على الحق وإلا فأنت على الباطل حتماً:

قال تعالى:

(فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ (137))

أي بالتوحيد والطاعة والاستسلام لمنهج رسول الله عليه الصلاة والسلام:

(فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا (137))

عن هذا المنهج:

(فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ (137))

(سورة)

هناك اثنينية إما أن تكون على الحق، وإلا لا سمح الله ولا قدَّر فأنت على الباطل حتماً:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ (50))

(سورة القصص)

وقال:

(فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ (137))

شقاقٍ عن الحق، ومعاداة للحق، ومُجافاة له، وبُعد عنه:

(فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ (137))

حينما يبتعد الإنسان عن الله عزَّ وجل يختل توازنه:

عندما يبتعد الإنسان عن الحق أو يودُّ أن يؤذي الحق، ويكيد له، ويسفّه أهله، ويبتعد عنه ويحيك المؤامرات لأهله ويطعن بهم، هذه معركةٌ أزليَّةٌ أبديَّة بين الحق والباطل .

(فَإِنْ آَمَنُوا بِمِثْلِ مَا آَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ (137))

إنه بُعْد، ومعاداة، وبُغض، فمن كان هذا حاله لا بد من أن يقف موقفاً معادياً للحق، فكل إنسان كافر، أو بعيد، أو معرض، لا بد من أن يعادي أهل الحق ولو بالطعن، أو بتقليل الشأن، أو بالغَمز، أو باللمز، أو بالاتهام الباطل، أو بترويج قصَّة لا أصل لها وليست ثابتة، ولكن ليشفي غليله كي يستعيد توازنه .

ذكرت هذا من قبل: وحينما يبتعد الإنسان أيها الأخوة عن الله عزَّ وجل يختل توازنه، لأن هذا المنهج منهج ربَّاني والإنسان مجبول على هذا المنهج، وهناك توافق عجيب بين هذا المنهج وبين فطرة النفس البشريَّة، فإذا ابتعد الإنسان عن هذا المنهج يختل توازنه، فكيف يستعيده ؟ يستعيده بحالةٍ صحيحة وحالتين مرضيَّتين، الحالة الصحيحة أن يصطلح مع الله فيستعيد توازنه، الحالة المرضيَّة الثانية والثالثة يستعيده حينما يطعن بأهل الحق حتى يرتاح، ويطعن بأهل الحق ليستعيد توازنه، أو يتعلّق بنظرية فاسدة وبعقيدة زائغة يستعيد بها توازنه، فإذاً ينتج من اختلال توازن الكافر معركة بين الحق والكفر، وهذه المعركة ثابتة أزليَّة أبديَّة، فلذلك:

(وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ (137))

الله هو الفَعَّال، وهو القدير، فلا تخافوا، يا أخوان إنها كلمة أقولها من أعماقي: لا تقلقوا على هذا الدين ولو رأيتم أهل الأرض كلهم يأتمرون عليه، فلا تقلقوا ولو أن القوى القويَّة في العالم تناهض هذا الدين، ولو أن أهل الأرض اجتمعوا على أن يسفّهوا هذا الدين ما استطاعوا لأنه دين الله عزَّ وجل، فالله كن فيكون، ولكن اقلقوا إذا سمح الله لكم أن تكونوا من أنصاره أم لم يسمح ؟ أمنحكم الله شرف نصرته أم لم يمنح ؟ وهنا القلق:

(فَإِنْ آَمَنُوا بِمِثْلِ مَا آَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138))

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (47- 95):تفسير الآيات 138 – 141 ، الفطرة والصبغة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 09-07-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

انسجام الفطرة مع معرفة الله والإيمان به وطاعته:

مع الآية الثامنة والثلاثين بعد المئة وهي قوله تعالى :

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138))

كلمة الصبغة بالحديث عن الفطرة، فالفطرة طبيعة النفس البشرية وخصائصها، والجِبِلَّة التي جُبلت عليها، فالنفس لها خصائص، وتقريبٌ لهذه الخصائص .

((يا داود ذكر عبادي بإحساني، فإن القلوب جبلت على حبِّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها))

[ورد في الأثر]

الإنسان يحب الأكمل، ويحب الأجمل، ويحب النوال، فهناك خصائص للنفس البشرية، والذي يعنينا من هذه الخصائص أن هذه النفس مجبولة ومفطورةٌ، وبالتعبير الحديث مبرمجة وفق الشرع تماماً، والذي خلق النفس الإنسانية هو الذي أنزل الكتاب وكلَّف النبي بشرحه وتبيين ما فيه، وتطابق النفس البشرية مع منهج الله تطابقٌ تام .

إن من فطرة النفس البشرية أنها تحب الكمال، والرحمة، والعدل، والجمال، والنوال، فالإنسان حينما يصطلح مع الله، ويطبق منهج الله، يهتدي إلى فطرته، وينسجم في سلوكه مع فطرته، فالله عزَّ وجل أودع فيك حب العدل وأمرك أن تعدل، فإن عدلت توافق سلوكك مع فطرتك، وأودع فيك حب الرحمة وأمرك أن ترحم، وحب الكمال وأمرك أن تكون كاملاً، وحب الإحسان بأن تكون محسناً، أي أنه أمرك وحبب إليك هذا في أصل فطرتك، هذا هو الانسجام بين الفطرة وبين التكليف، فالفطرة منسجمة مع معرفة الله والإيمان به وطاعته .

إقامة وجهك للدين حنيفاً هو جبلتك وفطرتك عينها:

إذا ابتعد الإنسان عن الله ابتعد عن فطرته، فشعر بالغُرْبَة، وباختلال التوازن، وبالوَحْشَة، وبالعُزلة، وبالضيق، وكأن الدنيا مقفولة عليه، وكأن الأبواب كلها موصدةٌ في وجهه، ولذلك الشعور الذي ينتاب المؤمن حينما يتعرف إلى الله ويصطلح معه شعورٌ لا يعرفه إلا من ذاقه، لأنك مفطور

على أشياء والشرع أمرك بهذه الأشياء تماماً، وتطابقت الفطرة مع الأمر الإلهي فارتاحت النفس، وهذا أدق معنى، قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً)

(سورة الروم الآية: 30)

أي أقم وجهك بكل ما أوتيت من قوة، وفهم، وطاقات، واجعل وجهك نحو الدين، وتوجه إلى الله، توجه إلى منهجه، أطعه، وتقرَّب إليه،

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً)

أن تقيم وجهك للدين حنيفاً، هو نفسه ما أنت مفطورٌ عليه:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

(سورة الروم) .

إقامة وجهك للدين حنيفاً هو جبلتك وفطرتك عينها، هذه المركبة مثلاً مصممة لتمشي على طريقٍ مُعَبَّد، أما المدرعة فهي مصممة لتمشي على طريقٍ وعر، والمركبة المصممة لتمشي على طريقٍ معبَّد، حينما تمشي بها على طريقٍ وعر تكسِّرها، أما إذا سرت بها على طريقٍ معبدة تختفي الأصوات وترتاح النفس، فأنت ماذا فعلت ؟ أنت استعملتها وفق أصل تصميمها .

الآن، أنت مفطور على حب الكمال، وحب العدل، وحب الإحسان، وحب الرحمة، فإذا عدلت وأحسنت ورحمت، فماذا فعلت ؟ اهتديت إلى فطرتك، وصار هناك انسجام، وحصل راحة، لذلك من أسباب السعادة التي يشعر بها الإنسان أنه اهتدى إلى فطرته، فانسجم معها، ولذلك فالمؤمن يشعر بشيء لا يوصف، ما هذا الشيء ؟ أنه مرتاحٌ من داخله، وأنه متوازن، وأن خط بيانه صاعد صعوداً مستمراً .

الفرق بين الفطرة والصبغة:

إلا أن الفطرة شيء، والصبغة شيءٌ آخر، فالفطرة أنت مفطورٌ على حب الكمال، والجمال، والنوال، والإحسان، والعدل، والعطاء، فأنت مفطور هكذا، ولذلك فالإنسان مهما كان انتماؤه، ومهما تكن هويته أو تقصيره فإنه يحب العدل، بل إن اللصوص بعد أن يسرقوا يصرِّحون بأنه لا بد من اقتسام هذا المال المسروق بالعدل، لأن هذه فطرة، وأي إنسان حتى لو كان كافراً، أو مُلحداً، مفطور على حب العدل، والإحسان، والرحمة، والعطاء، والكمال، والجمال، والنوال، ولكن الفرق الدقيق بين الفطرة والصبغة، فالإنسان في أصل فطرته صفحة بيضاء مبرمجة على حب الإحسان والعدل والرحمة والإنصاف والكرم، لكن أن تحب العدل شيء، وأن تكون عادلاً شيءٌ آخر، وأن تحب الرحمة شيء، وأن تكون رحيماً شيءٌ آخر، أن تحب الإحسان شيء، وأن تكون محسناً شيءٌ آخر، وأن تحب أن تعطي شيء، وأن تعطي حقيقة شيءٌ آخر، فما الفرق بين الفطرة والصبغة ؟

أي إنسان كائناً من كان، وبالمناسبة حينما تأتي كلمة إنسان معرفة بأل فهو أصل الإنسان، والإنسان قبل أن يعرف الله وقبل أن يتصل به وقبل أن يُصَنَّع هو مفطورٌ على حب الكمال، أما إذا عرف الله عزَّ وجل، واتصل به، واشتق من كمالاته، انتقل من الفطرة إلى الصبغة، إذ كان يحب العدل فأصبح عادلاً، كان يحب الحلم فأمسى حليماً، وكان يحب الرحمة فغدا رحيماً، وكان يحب العطاء فصار معطياً، ولذلك أي إنسان قد خلق وفق فطرة الله، وكل مولودٍ يولد عل الفطرة، حتى ولو كان مجوسياً، هذا من خلق الله عزَّ وجل .

لذلك اذهب إلى أي مكان في العالم، إلى عُبَّاد الأوثان، والنار، والأصنام، وأحسن إليهم يحبوك، فهذه فطرة الإنسان، ولا أدل على ذلك من الطفل الصغير، والأطفال في العالم كله يتشابهون، لأنهم فطرة الله التي فطر الناس عليها .

إلا أن هذه الفطرة أيها الأخوة قد تنطمس بالشك، وبالشرك، وبطاعة الكُبراء، وباتباع الشهوات، فيعلو على هذه الفطرة ما يسمَّى بالران، لكن الفطرة تذبل ولا تموت، وتكمن ولا تزول، والشدائد أحياناً تزيل عنها هذه الطبقة الغريبة وتعود إلى أصل كمالها .

على كلٍ فموضوع الفطرة موضوع مهم جداً، لأن أصل ديننا دين الفطرة:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

أكبر ثمرة من ثمار الإيمان حينما تتوافق حركتك في الحياة مع أصل فطرتك:

النفس البشرية مجبولة ومصممة على أنها تعلم أنها فاجرة إذا فجرت، وتعلم أنها متقية إذا اتَّقت:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

ويقول الله عزَّ وجل :

(كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ(11))

(سورة عبس)

ما معنى تذكرة ؟ أنت إذا ذهبت إلى بيروت ورأيت صخرة الروشة، فلما اطلعت على صورتها تذكرت المشاهدة السابقة، والقرآن كله تذكرة يذكرك بأصل فطرتك، ولذلك أيها الأخوة يعيش المؤمن بحالة من السعادة لا توصف، وأساسها هذا الانسجام مع فطرته، فالإنسان يحب العفَّة، فإذا كان عفيفاً فعلاً شعر بالراحة، ويحب الإنصاف، فإذا كان منصفاً يشعر براحة، وكل السعادة التي تأتي للإنسان أساسها أنه تحرَّك وفق فطرته وانسجم معها واهتدى إليها .

مثل للتوضيح: إذا أعطي الإنسان وردة ذات رائحة فوَّاحة يطرب لها، بينما تجد بعض الحيوانات تأكل النجاسات، والإنسان يكره رائحة ويحب رائحة، هناك حيوان على عكس الإنسان يحب رائحة لا يحتملها الإنسان، معنى ذلك هناك تصميم لمخلوقات تعيش في المجاري، تطرب لما فيها من

روائح كريهة، إذاً هي مبرمجة برمجة أُخرى، والإنسان مبرمج برمجة ثانية، أنت حينما تشم وردةً ذات رائحة فواحة، وتطرب لها، لا لأنها فوَّاحة بل لأن أصل فطرتك مبرمج على هذه الرائحة، فصار هناك انسجام، وحينما تشم رائحة كريهة، لماذا هي كريهة ؟ لأنك مبرمجٌ على عكسها . فمن أين تأتي الراحة ويأتي النفور ؟ من أصل الفطرة، ولو أن الإنسان مبرمج على الظلم وظلم يرتاح، ولو أنه مبرمج على أن يكون قاسياً، فكلما قسا يرتاح، ولكنه مبرمجٌ ومفطورٌ على العدل، والإحسان، والعفة، والعطاء، فأكبر سعادة يشعر بها المؤمن حينما يهتدي إلى أصل فطرته، وحينما ينسجم مع فطرته، وحينما تتوافق حركته في الحياة مع أصل تركيبه، فهذه أكبر ثمرة من ثمار الإيمان، المؤمن متوازن، مرتاح .

أكبر جائزة لك في الدنيا قبل الآخرة أن تهتدي إلى فطرتك:

حينما خرج الكافر عن منهج الله خرج عن أصل فطرته، فصار عنده عذاب داخلي لا يحتمل، وعنده ما يسمى باختلال التوازن، وبالانهيار الداخلي، لأنه يأخذ ما ليس له، وعنده تأنيب داخلي . هو يعتدي على أعراض الناس، ويكذب عليهم ويحتال، ويتوهَّم أنه يجمع المال الكثير لكنه في الحقيقة من أشقى الأشقياء، إذاً أن تهتدي إلى فطرتك هذه أكبر جائزة لك في الدنيا قبل الآخرة . ما هي جنة الدنيا ؟ إذاً: في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة . جنة الدنيا هي جنة السكينة، والاصطلاح مع الفطرة، والعودة إليها، والتناغُم مع بنية النفس، وهذه هي الفطرة .

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً (30))

(سورة الروم)

إقامة وجهك للدين حنيفاً ينطبق على فطرتك انطباقاً تاماً:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

(سورة الروم)

لذلك ما يعانيه المؤمن وما يشعر به من راحة، هي بسبب أنه انسجم مع أصل خلقه، فكل مولودٍ يولد على الفطرة:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

وقال:

(كَلا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (12))

(سورة عبس)

الآن بعد أن تتعرف إلى الله، وبعد أن تصطلح معه، وتستقيم على أمره، وتتصل به، يحدث ما يسمَّى باشتقاق الكمال من الله، ومن خلال اتصالك به، كنت تحب العدل فلما اتصلت به أصبحت عادلاً عدلاً داخلياً . ونحتاج إلى توضيحٍ آخر:

لو طبيباً صادف أثناء سيره في الطريق حادث سير، ووجد إنساناً جريحاً يحتاج إلى إسعاف، وكان يعرف بعض الناس، فاضطر أن يقف موقفاً إنسانياً، وهو مقطوع عن الله فرضاً، وليس له اتصال بالله، ويحب الرحمة ولكنه ليس رحيماً، لكن هذا الموقف اضطره أن يقف موقفاً إنسانا، فهذا فعله فعل الصبغة، ونفسه ليست كذلك، نفسه على الفطرة أما فعله ففعل الصبغة .

الفطرة والصبغة والسلوك الذكي:

قد يكون عملك رحيماً ولست رحيماً، وقد تضطر أن تحكم بالعدل، لأن هذا القرار سوف يُراقب من مستويات عليا، فمن أجل الحفاظ على منصبك تحكم بالعدل حباً بالبقاء في هذا المنصب، فهذا الذي يحكم بالعدل، يحكم بالعدل لا وفق الصبغة، ولكن وفق المَصلحة، فأن تحب العدل شيء، وأن تكون عادلاً شيء في أصل بنيتك، وأن يكون عملك عدلاً شيءٌ ثالث، تحب العدل، وتصطبغ بالعدل، وعملك عدل، وكل شيء له باب، أن تحب العدل فطرة، وأن تتمثل العدل في نفسك صبغة، وأن تقف موقفاً عادلاً لمصلحةٍ معينة هذه مصلحة، فإن وجدت في العالم الغربي علاقة طيبة، صدقاً في المعاملة، وإتقاناً في الصنعة، هذه مصلحة، والفطرة في أصل الخلق، أما الصبغة للمتصل بالله حصراً، وأما السلوك الذكي هذا يفعله كل ذكي في العالم .

قد تجد في بلاد الغرب معاملة طيِّبة، وقد تجد صدقاً وأمانة، لأن هناك ضبطاً شديداً بلغ درجة تفوق حد الخيال، فأي غلطٍ مهما كان صغيراً مضبوط . تدخل إلى سوق فيه بضائع بألوف الملايين وهناك خمسة أشخاص على مدخل هذا السوق، كل شيء تحمله من البضائع عليه لصاقة مبرمجة، إن لم تدفع ثمنه أصدر صوتاً مزعجاً، فاتهمت من خلال الصوت بالسرقة، فملايين في هذا السوق يدفعون ما عليهم لا لأنهم ينطوون على كمال، بل لأنهم يعلمون أنهم لو لم يدفعوا لفضحوا، هذا السلوك مدني ذكي وليس له علاقة بالفطرة ولا بالصبغة إطلاقاً، صار هناك ضبط إلكتروني عالياً جداً في بلاد الغرب، إنه ضبط شديد، هذا الضبط ألغى الفطرة والصبغة، فلم تعرف من الأمين . ولا يمكن أن تحمل سلعة وتخرج بها إلا ويصدر صوت من القوس يتهمك بالسرقة، إذاً الكل يدفعون، من هو الأمين منهم ؟ لا نعلم، صار هنا ضبط إلكتروني، وهذا صار سلوكاً ذكياً، أما حينما انقطعت الكهرباء في مدينة نيويورك فتمت مئتا ألف سرقة في ليلة واحدة، وحينما اضطرب حبل الأمن في لوس أنجلوس تكاليف التخريب ثلاثون مليار دولار ؛ سرقة محلات، وحرق محلات، وتكسير واجهات، فالفطرة شيء، والصبغة شيءٌ آخر، والسلوك الذكي الذي يعيشه الغرب شيءٌ ثالث إذ علاقة له لا بالفطرة ولا بالصبغة، فهذا موضوع ثالث، أما نحن المؤمنين فنتعامل مع شيئين مع فطرةٍ فطرنا عليها ومع صبغةٍ تمت من خلال اتصالنا بالله عزَّ وجل .

المؤمن خريج مدرسة الحق:

الآية الكريمة:

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138))

لو أنك تجولت في أطراف الدنيا فهل تجد كالمؤمن تواضعاً، ورحمة، وإنصافاً، وورعاً، وإحساناً، وصدقاً، ووفاءً، صبغة الله، أحياناً قد تعجب، مثلاً إذا وجدت شاباً أخلاقه عالية جداً وكان هناك مدرسة من أعلى مستوى يعيش الطالب فيها ليلاً ونهاراً، ويتلقَّى أعلى درجة من العلوم والآداب والتوجيهات، والتوجيه الديني، والنصح، والنظافة، والعادات والتقاليد، فإذا رأيت هذا الطالب وأعجبك أدبه، وذكاؤه، وعلمه، وتحصيله، وأخلاقه، وهِندامه الحسن، تقول: هذا خريج هذه المدرسة . والمؤمن خريج مدرسة الحق، فمن المستحيل أن ترى مؤمناً يكذب، أو أن ترى مؤمناً يحتال، أو يقسو، أو يظلم، أو يأخذ ما ليس له، الورع مع الأدب، ومع الإحسان، والتواضع، والعفو، وكل هذه الكماليات هي من أثر اتصال هذا المؤمن بالله عزَّ وجل هذه هي الصبغة، فالصبغة شيء موجود، والفطرة صفحة بيضاء لكنها مبرمجة على حب الكمال، فأن تحب الكمال فهذا فطرة وأن تكون كاملاً صبغة، وأن تسلك سلوكاً كاملاً من أجل مصلحتك ذكاء لا فطرة ولا صبغة، وأن تسلك سلوكاً كاملاً لمصلحةٍ ماديةٍ ذكاء .

ليس في الأرض كلها جهةٌ يمكن أن تمنح الإنسان كمالاً كما يمنحه الله عزَّ وجل:

الإسلام منهج موضوعي، بمعنى لو طبَّقه إنسان ملحد لقطف ثماره، فإن رأيت في بلاد الغرب تفوُّقاً فلأن كل إيجابيات هذه البلاد إسلامية، لا عن طاعةٍ لله ولا عن حبٍ له ولا عن تعبدٍ له، ولكن من أجل المصلحة، فإذا كانت مصلحتهم في الصدق يصدقون، وإن كانت مصلحتهم في الكذب فهم أكبر كذَّابين في الأرض، وإن كانت مصلحتهم في الرفق في الإنسان يرفقون، وإن كانت مصلحتهم في قتل شعبٍ بأكمله يقتلون، إنه سلوك مصلحي فقط، فهذا شيء صارخ في الغرب، مصلحة فقط، القيَم كلها تحت أقدامه، فمن أجل أن يطعموا كلابهم اللحم يقتلون الشعوب بأكملها، فإذا تحدثوا عن حقوق الإنسان يجب أن نضحك فقط لأنهم ينتهكون كل حقوق الإنسان .

مرة ثانية: أن تحب الكمال فطرة، وأن تكون كاملاً صبغة، أما أن تسلك سلوكاً كاملاً لمصلحة تريدها فهذا نوع ثالث، هذا ما تراه في عالم الغرب، فهم في بعض المواقف إنسانيين، وفي بعض المواقف وحوش كاسرة يبحثون عن حقوق الإنسان وهم أكبر من ينتهك هذه الحقوق، ويتحدَّثون عن الحُرِّية وهم الذين يصادرونها في العالم كله، فدرسنا اليوم:

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138))

هذا استفهام إنكاري، ليس في الأرض كلها جهة يمكن أن تمنح الإنسان كمالاً كما يمنحه الله عزَّ وجل :

(وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138))

مواقف تظهر رحمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام:

وجد بعض الأنصار على سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام في أنفسهم، فجاء زعيمهم سعد بن عبادة وقال: يا رسول الله إن قومي وجدوا عليك في أنفسهم، لأنك لم تعطهم من الغنائم في حنين . قال: يا سعد أين أنت منهم ؟ قال: ما أنا إلا من قومي، قال: اجمع لي قومك فجمعهم، فقال: **يا معشر الأنصار جدةٌ وجدتموها علي في أنفسكم، من أجل لعاعةٍ تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، يا معشر الأنصار أما إنكم ـ سيدنا رسول الله في أعلى درجات قوته، دانت له الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها، وكلمته نافذة، وتحت إمرته عشرة آلاف سيف، فئة من أصحابه وجدوا عليه في أنفسهم، وكان بإمكانه كما يفعل البعض أن يلغي وجودهم، أو أن يهدر كرامتهم، أو يهملهم، أو يعاتبهم بصالحهم، ماذا فعل ؟ جمعهم وقال ـ أما إنكم لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم، أتيتنا مكذباً فصدقناك، وطريداً فآويناك، ومخذولاً فنصرناك، يا معشر الأنصار، ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي ـ لم يقل فهديتكم قال فهداكم الله بي ـ وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف بين قلوبكم، يا معشر الأنصار أوجدتم علي في لعاعةٍ من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم ؟ "** . فبكى الأنصار حتى أخضلوا لحاهم . وقال: اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار، ولو سلك الأنصار شعباً وسلك الناس شعباً لسلكت شعب الأنصار .

هذا الموقف فيه رحمة، وفيه عفو، ومسامحة، وذكاء، وسياسة، وامتصاص نقمة . وكنت أقول دائماً: كان الله في عون كُتَّاب السيرة، هذه القصة أين مكانها ؟ مع رحمته، أم مع عدله، أم مع وفائه، أم مع تسامحه، أم مع حسن سياسته ؟! هذه صبغة الله .

أرسل سيدنا حاطب بن بلتعة كتاباً إلى قريش، قال: " إن محمداً سيغزوكم فخذوا حذركم " . هذا الكتاب يُسمى في أنظمة العالم كله خيانة عظمى، جزاؤه الإعدام، فجاء الوحي النبي عليه الصلاة والسلام أن فلاناً قد أرسل كتاباً إلى قريش . فأرسل صحابيين أو ثلاثة ليأتوا بالكتاب من إمرة+ في الطريق إلى مكة، فتح النبي الكتاب " من حاطب بن بلتعة إلى أهل قريش إن محمداً سيغزوكم فخذوا حذركم " . جئ بحاطب رآه عمر قال: **" يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق "** . قال: لا يا عمر إنه شهد بدراً، تعالَ يا حاطب، ما حملك على ما فعلت ؟ قال: والله يا رسول ما كفرت ولا ارتددت، ولكنني لصيقٌ في قريش، وأنا موقنٌ من نصرك، وأردت بهذا الكتاب أن أحمي

أهلي ومالي عندهم، فاغفر لي ذلك يا رسول الله "، فقال عليه الصلاة والسلام: إني صدقته فصدقوه، ولا تقولوا فيه إلا خيراً .

هذا صبغة، هذا موقف كامل، قال المُعَلِّقون على هذه القصة: عمر رآها خيانةً عظمى، فأراد أن يقتله، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام رآها لحظة ضعفٍ طارئة ألمَّت بهذا الإنسان فأنهضه وأخذ بيده . فأنت حينما تعيش مع إنسان موصول بالله، تجد من العطف والرحمة والعدل والود والتواضع والإحسان وإنكار الذات الشيء الذي لا يصدق، ولذلك :

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً (138))

مواقف وأعمال لمؤمنين تفوق حدّ الخيال:

الحياة مع المؤمنين جنة الدنيا، وإذا عشت مع مؤمن فكأنك في الجنة:

((لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِناً، ولا يأكُلْ طعَامَكَ إلا تَقِيّ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري]

أخوان كُثُر يجلسون مع بعضهم بعضاً ويقولون وهم صادقون: كأننا في جنة . فهناك ود، وحب، وتواضع، ومؤاثرة، وعطاء، وبذل، أما إذا جلست مع أهل الدنيا فتجدهم كالذئاب، ينام أحدهم بعين ويفتح العين الثانية خوفاً من غدر صاحبه، والحياة معهم متعبة، ومقلقة، وكل واحد لغم قد ينفجر، فهناك مشكلة في كل تعامل، تحتاج إلى يقظة غير طبيعية، وتخاف من كل شيء، تخاف من الكذب في السِعر، وفي النوع، ومن الاحتيال، ومن تصريح كاذب، ومن توقيع كاذب، كله في غدر، وهؤلاء هم أهل الدنيا؛ فعش مع المؤمنين، قال لي أخ: والله أرجعت لأسرةٍ عشرين مليون ليرة، لا تعلم عنها شيئاً يبدو أن الأب أعطاه إياها ليعمل بها في التجارة، ومات بحادث فجأةً، ولم يخبر بها أحداً، فما الذي دفع هذا الإنسان ليعطي هذا المبلغ للورثة لأصحاب هذا المبلغ دون أن يكون مداناً ؟

هناك مواقف عدة مشرفة، سمعت بواشنطن عن سائق سيارة مسلم، ركبت معه سيدة ونسيت محفظتها وفيها مبلغ كبير جداً وحلي، فسلم هذه المحفظة للشرطة، وسمعت من أخ كريم هناك أن حاكم واشنطن أقام احتفالاً لتكريم هذا السائق، فجمع طلاب المدارس وسألهم: ماذا تفعلون إذا وجدتم محفظة فيها هذا المبلغ وهذه الحلي ؟ فقالوا بصوت واحد: نأخذها . قال: ولكن هذا المسلم لم يأخذها أرجعها إلى أصحابها .

وأخ من إخواننا له معمل، وعنده مهندس يشكو ضيق ذات اليد، وجد ثمانمئة ألف ليرة ملقاة في كيس أسود خطأً في حي القدم، فأرجعها لأصحابها . هذه الصبغة، ورع وعفة، والله تجد من المؤمنين صفات تفوق حد الخيال، وهم موجودون في كل زمان .

حكى لنا أخ عن رجل ثري أراد أن ينشئ مسجداً، فكلف أحد إخواننا أن يبحث له عن أرض مناسبة، وجد أرضاً بحي من أحياء دمشق مناسبة جداً، قال له: هذه مساحتها مناسبة . والسعر

مناسب واتفقوا على ثلاثة ملايين ونصف، فجاء صاحب المشروع المحسن الكبير حتى يرى الأرض ويعطي بعض ثمنها لصاحبها، فحرر شيكاً بمليونين وأعطاه لصاحبها، فقال له: صاحبها أين الباقي ؟ قال: عند التنازل. قال له: التنازل لماذا ؟ قال: لأن هذه الأرض سوف تكون مسجداً، فالتنازل في الأوقاف . فقال له: مسجد !! أمسك الشيك ومزقه، وقال: أنا أولى منك أن أقدمها لله عزَّ وجل . وهذا الذي ملّك الأرض من شهر، يعمل مستخدماً في مدرسة ابتدائية، ودخله أربعة آلاف في الشهر وعنده ثمانية أولاد، ولا يملك من الدنيا إلا هذه الأرض، ورثها مؤخراً فقدمها لله مسجداً . فمن يفعل مثل ذلك ؟ هذه الصبغة .

ترى أعمالاً من المؤمنين تفوق حدّ الخيال، بذل، وتضحية، وتواضع، وإكرام، وإنكار للذات، والإنسان يسعد بكماله أضعاف ما يسعد بلذّاته . أمسك سيدنا عمر تفاحة قال: أكلتها ذهبت، أطعمتها بقيت ". إن أكلتها استمتعت بطعمها لثوانٍ معدودات، أما إن أطعمتها سعدت بهذا العمل على طول الزمن، الآن المحسنون، من حوله يصفونه بالتعب، وهو في قمة السعادة، وعمله الطيب يسعده، فالإنسان عندما يتعرف على الله عزَّ وجل يصطبغ بالكمال، إن اصطبغ بالكمال صار في خدمة الخلق وصار مع الحق، واشتق من الله كمالاً، فهو الذي يرقى به إلى الله .

أنواع الاختلاف:

قال تعالى:

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139))

أي أن ربنا عزَّ وجل رب الجميع، والشيء المؤلم هذه الخصومات بين أهل الأرض ؛ فإلهنا واحد، وربنا واحد، والأنبياء الذين أرسلهم الله عزَّ وجل على أعلى درجة من الكمال، وأتباعهم يتقاتلون، وأكثر الحروب الأهلية بين الأديان، وأصحاب هذه الرسالات في أعلى درجة من الكمال والحب، وأتباعهم يتقاتلون فلماذا ؟ هذا موضوع ثان .

1ـ اختلاف طبيعي أساسه نقص المعلومات:

نحن عندنا اختلاف أساسه نقص المعلومات وهذا اختلافٌ طبيعي :

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً (213))

(سورة البقرة)

اختلفوا، خلاف نقص المعلومات علاجه بسيط، أن تأتي المعلومات الصحيحة، فلو فرضنا أن اليوم هو التاسع والعشرون+من رمضان، وسمعنا صوت مدفع العصر نقول: أثبتوا أن غداً العيد أم هناك انفجار في الجبل لأنهم يحفرون طريقاً ؟ صار هناك خلاف ناجم عن نقص معلومات، فتحنا المِذياع

فإذا بالقاضي الشرعي يثبت أن غداً العيد، صوت مدفع ثان، فمعنى ذلك أن الخلاف كان موجوداً بسبب نقص المعلومات، فلما جاءت المعلومات الدقيقة والصحيحة زال هذا الاختلاف .

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ (213))

(سورة البقرة)

معنى ذلك هناك خلاف طبيعي لا يمدح ولا يذم، علاجه المعلومات الدقيقة، ولكن أحياناً تكون المعلومات واضحة جداً ؛ إلهٌ واحد، وكتابٌ واحد، ورسولٌ واحد، ومنهجٌ واحد والمسلمون فرقٌ وجماعات، وطوائف، ومذاهب، واتجاهات، وكلهم يطعن بالآخر وهذا اختلاف من نوع قذر .

2ـ خلافٌ قذر أساسه الحسد والبغي والعدوان:

قال تعالى:

(وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

(سورة آل عمران الآية: 19)

هذا اختلاف بغي، وحسد، ومنافسة، ولذلك هناك دعوةٌ إلى الله خالصة، ودعوةً إلى الذات ساقطة، والدعوة إلى الذات من خصائصها الابتداع، ومن خصائصها التنافس، وجحود ما عند الآخرين، والنزعة العدوانية، وأية فرقةٍ ضالةٍ إلى يوم القيامة تؤله الأشخاص، وتخفف التكاليف، وتعتمد نصوصاً موضوعة، وذات نزعة عدوانية، وأية فرقةٍ ضالةٍ تنطبق عليها هذه الخصائص .

فالخلاف فيما بين المسلمين أنواع ثلاثة، الخلاف الأول خلاف طبيعي، حيادي لا يمدح ولا يذم، والخلاف الثاني خلافٌ قذر أساسه الحسد والبغي والعدوان والتنافس والمصالح .

3ـ خلافٌ محمود أساسه التنافس:

هناك خلاف ثالث محمود، خلاف التنافس:

(فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ (213))

(سورة البقرة)

إنسان تصوَّر أن أعظم عمل في حقل الدين أن يكون مفسراً، وإنسان آخر أعظم عمل عنده أن يكون محدِّثاً، وثالث أن يكون مفكراً في عقيدة الدين، ورابع أن يكون محسناً، وخامس أن يكون داعية، وسادس أن يكون مؤلفاً، فيختلف العلماء فيما بينهم اختلاف تنافس، قال الله عزَّ وجل:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ(26))

(سورة المطففين)

وقال:

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة يونس)

معنى ذلك هناك اختلاف تنافس وهذا ممدوح، اختلاف تناحر وهذا اختلاف قذر، واختلاف نقص معلومات وهذا اختلاف طبيعي .

تقويم الأشخاص من شأن الله تعالى:

قال تعالى:

(قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ)

لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، أي أن كل إنسان احتلَّ عند الله مكانة، بمعرفته، واستقامته، وعمله الصالح، ونيته . فهذه المكانة لا يرفعها مديح أحد ولا يخفضها ذم أحد، وتقويم الأشخاص من شأن الله تعالى، ولذلك لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، وكفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله، وأكبر نصر تحرزه على عدوك أن تكون أنت في طاعة الله وهو في معصية الله، ولذلك لا تعاقب من عصى الله فيك بأكثر من أن تطيع الله فيه .

قال أحدهم لعالم: إنني أشفق عليك مما يقوله عنك الناس ظلماً وافتراءً . فقال: هل سمعت مني عليهم شيئاً ؟ قال: لا . قال: عليهم فأشفق، أنا أطعت الله فيهم فلم أتكلم ولا كلمة، وهم عصوا الله فيَّ فنهشوا لحمي واغتابوني .

سأل أحدهم عالماً: هل اغتبتني ؟ قال: ومن أنت حتى أغتابك، من أنت ؟ لو كنت مغتاباً أحداً لاغتبت أبي وأمي، لأنهم أولى بحسناتي منك . فيجب أن توقن أنك إن اغتبت أخذ الذي اغتبته من حسناتك يوم القيامة:

(وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ (139))

الحمد لله على وجود الله ـ كلمة دقيقة جداً ـ الله موجود، ويعلم كل شيء، ومطلع على كل شيء، ويعلم السر وأخفى، يعلم ما تُسر ويعلم ما يخفى عنك، ويعلم حجم كل عمل، العمل ؛ حجمه، تضحيته، نياته، أهدافه، مؤدَّاه .

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2))

(سورة التغابن)

لذلك من عرف نفسه ما ضرَّته مقالة الناس به:

(وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى (140))

الانتماء الشكلي:

الانتماء الشكلي مشكلة، إذا كانت هوية الإنسان أنه مسلم، وأن أباه مسلم، وأمه مسلمة، ولم يكن مطيعاً لله عزَّ وجل، فما قيمة هذا الانتماء الشكلي ؟ إذا كان انتماؤك إلى المؤمنين المسلمين انتماء

شكلياً، وانتماء الشخص الآخر إلى دين ثان انتماء شكلي، وانتماء فلان إلى دينٍ ثالث انتماء شكلي، وإنسان لم ينتم إلى أي دين .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا (62))

(سورة البقرة)

انتماء للإسلام شكلي:

(وَالَّذِينَ هَادُوا (62))

(سورة البقرة)

انتماء لليهودية شكلي:

(وَالنَّصَارَى (62))

(سورة البقرة)

انتماء للنصرانية شكلي:

(وَالصَّابِئِينَ (62))

(سورة البقرة)

من لم ينتم إلى أحد، هم عند الله سواء .

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ (62))

(سورة البقرة)

من آمن بالله من هؤلاء إيماناً حقيقياً، وإيماناً دقيقاً عميقاً أساسه البحث والتأميل والتصديق والعمل والإقبال:

(وَعَمِلَ صَالِحاً (62))

(سورة البقرة)

هذا هو الناجي:

(وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(62))

(سورة البقرة)

مثلاً أربعة محلات تجارية لا يوجد فيها بضائع إطلاقاً، ولكن عليها لافتات مختلفة في كلماتها وإضاءاتها، اختلاف اللافتات لا يقدم ولا يؤخر، العبرة بالبضاعة، ولا توجد بضاعة، ولذلك الشيء المؤلم في معظم بلاد العالم حروب أهلية على أساس ديني، وهذا الذي يطهر عرقياً، سلوكه، وعقليته، ومخالفاته كالذي يُطَهِّرُهُ، انتماء شكلي، والعبرة أن يكون الإنسان مسلماً حقيقة .

أكبر المعاصي أن تقول على الله بخلاف ما تعلم :

قال تعالى:

(أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ (140))

هم على مِلة سيدنا إبراهيم:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأنعام)

وقال:

(قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ (140))

ربنا عزَّ وجل في تسلسل تصاعدي للمعاصي بدأ بالفحشاء والمنكر، وثنى بالإثم والعدوان، ثم جاء الشرك، ثم جاء الكفر، في تسلسل تصاعدي، وجعل الله على رأس هذه المعاصي الكبيرة:

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

لذلك الإمام الغزالي رحمه الله تعالى قال: **" لأن يرتكب العوام الكبائر أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون "** . فهذا الذي يقول على الله ما لا يعلم، ما قولك إذا وازنته بمن يقول على الله بخلاف ما يعلم ؟ أن تقول على الله ما لا تعلم فوق الفحشاء والمنكر، وفوق الإثم والعدوان، وفوق الشرك والكفر، أما أن تقول على الله بخلاف ما تعلم فهذه جريمة .

الآثم و المجرم :

قال تعالى:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ (140))

كتم شهادة، اليهود يعرفون النبي عليه أتم الصلاة والتسليم كما يعرفون أبناءهم، هل في الأرض معرفة سريعة، فطرية، يقينية، بديهية، لا تخطئ كمعرفة الأب لابنه ؟! وهل في الأرض أب يقول لابنه: ما اسمك يا بني ؟ وأين هويتك ؟ ومن أمك ؟ مستحيل .

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

(سورة البقرة الآية: 146)

ومع ذلك كتموا هذه الشهادة، لذلك :

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ (140))

لذلك الذي يفتي وهو لا يعلم آثمٌ عند الله، أما الذي يفتي بخلاف ما يعلم مجرمٌ عند الله، تعرف حقيقة وتتكلم عكسها ؟! تعرف أن إنساناً على حق وتطعن فيه حتى تفك عنه إنساناً ولتغيظ إنساناً !! إنسان مستفيد من جهة، تقول له هذه السورة وتعلم أنت أنه على حق ومرشده على حق، فتنزل له هذه السورة كي تشفي غليلك !! هذه جريمة .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140))

الله عزّ وجل مطلع لا تخفى عليه خافية :

الله عزّ وجل مطلع، لا تخفى عليه خافية:

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (18) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِي(19) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِي(20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِي(25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِي(26) يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي(28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِي(29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ(32))

(سورة الحاقة)

وقال:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140))

أشقى الناس هم الذي يقفون في خندقِ مناهضٍ للدين :

أخي الكريم، أنت حينما تتصدَّى للدين، أو تحارب المؤمنين، أو تطعن بهم وأنت موقنٌ أنك لست على حق وهم على حق، هل تعلم من هو الطرف الآخر ؟ قال تعالى:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(4))

(سورة التحريم الآية: 4)

ما معنى هذه الآية ؟ هل من المعقول:

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(4))

كلهم ضد هاتين المرأتين، علماء التفسير قالوا: ليس هذا هو المعنى، المعنى أنك حينما تريد أن تطعن بالدين، أو أن تحارب أهل الحق، اعلم من هو خصمك ؟ اعلم من هو الطرف الآخر ؟ أشقى الناس هم الذي يقفون في خندقِ مناهضٍ للدين، هذا أشقى إنسان، والمعركة خاسرة:

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ (32))

(سورة التوبة)

هل تستطيع أن تنفخ في الشمس فتطفئها ؟ لسان لهبها يزيد طوله عن مليون كيلو متر، وبعد أيام سوف يشاهد من يسكنون في الشمال الشرقي من بلدنا الكسوف الكامل، تغيب الشمس كلياً لدقيقتين فقط، ويمكن أن يرى الإنسان خمسة كواكب ؛ زهرة، وعطارد، والمريخ، والمشتري، وزحل أثناء الكسوف، ويمكن أن يرى الناس الانفجارات على سطح الشمس، وألسنة اللهب التي تمتد إلى مليون كيلو متر في الكسوف، ومع ذلك الشمس آيةٌ من آيات الله عزّ وجل . وبالمناسبة يحذر الأطباء من

التحديق في قرص الشمس في أثناء الكسوف، إلا بنظارةٍ خاصة مصنعةٍ لهذا الهدف، أعتقد أنها غير موجودة، فالأولى أن نعرض عن التأمل في قرص الشمس، وهنا في دمشق في الأعم الأغلب الكسوف جُزئي، أما في الشمال أي في الجزيرة على ما أعتقد أنه يمكن أن يرى الناس الكسوف الكلي، أي تغيب الشمس وتظلم الأرض هناك، ويمكن أن نرى النجوم ظهراً حقيقةً لا مجازاً في هذا الوقت .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140))

أنت حينما تعلم أن الله يعلم تستقيم أمورك .

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (141))

وكل إناءٍ بالذي فيه ينضحُ .

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (48- 95):تفسير الآيات 142 - 147 ، الدين الإسلامي هو دين الوسطية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-07-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى حينما كلّف الإنسان حمل الأمانة جعله مخيراً:

مع الآية الثانية والأربعين بعد المئة وهي قوله تعالى :

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142))

أيها الأخوة الكرام، في هذه الآية نقاطٌ كثيرة، من أبرز هذه النقاط أن الله سبحانه وتعالى حينما كلّف الإنسان حمل الأمانة جعله مخيراً:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة الآية: 148)

وقال:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (29))

(سورة الكهف)

وقال:

(لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام)

تؤكد هذه الآيات كلها أن الإنسان مخيَّر، وإذا سعد الإنسان بهذا الاختيار فلأن الله شاء له أن يختار، إذا اختار طاعة الله عز وجل والتقرب منه استحق دخول الجنة .

الإنسان مخير في حدود ما كُلِّف:

لولا أن الله سمح له أو أذن له أن يكون مختاراً لما اختار، وهذا معنى قوله تعالى :

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)

(سورة التكوير)

لولا أن الله شاء لكم أن تكونوا أصحاب مشيئة حرة لما شئتم، إذاً لأن الإنسان حمل الأمانة، وكلف طاعة الله عز وجل، كان مخيراً من أجل أن يثمن عمله، ولكن الله طليق الإرادة، أي شيءٍ يعطيك إيَّاه يأخذه منك في أية لحظةٍ، فالإنسان في الأساس مسير حينما يولد، مسير في أمه وأبيه،

وعصره وزمانه، ومكانه وقدراته، وما إلى ذلك مما ليس له اختيارٌ فيه، وهذه الأشياء التي سُيِّرت فيها هي أكمل شيءٍ إليك، ليس في إمكانك أبدعُ مما أعطاك، ثم أنت مخيَّر في حدود ما كُلّفت .

أنت مخير في دائرة التكليف افعل ولا تفعل، أمرك أن تصلي، بإمكانك أن تصلي وأن لا تصلي، أمرك أن تكون صادقاً، بإمكانك أن تصدق أو أن تكذب، أمرك أن تغض البصر، بإمكانك أن تغض وأن تطلق، أنت مخير في حدود ما كلفت، ولكن ولأن الله رب العالمين، من أجل أن يربيك تربية تقيك دخول النار، لو أنك اخترت اختياراً غير صحيح لأدبك الله عز وجل .

مع التأديب يُسْلَب الإنسان اختياره ليؤدَّب أو ليكافأ :

كيف يؤدبك الله ؟ يأخذ من كل ذي لبٍ لبَّه، ثم يسوقه إلى مصيبة، أنت الآن مسيرٌ، مسيرٌ بدفع ثمن اختيارك، فكنت مسيراً حينما ولدت، من قبل أمك وأبيك، فكونك ابن فلانة وابن فلان، أنت فيهما مسيراً، وولدت في دمشق مثلاً، وفي عام كذا، أنت فيه مسير، وقدراتك كذا وكذا أنت فيه مسير، ثم حُمِّلْتَ الأمانة، وحملت أن تكون مخيراً فيما كلفت، حينما تستخدم هذا الاختيار بشكلٍ غير صحيح يأتي التأديب رحمة بك، مع التأديب يُسْلَب الإنسان اختياره ليؤدَّب أو ليكافأ، وهذا هو معنى قول النبي الكريم:

((إن الله تعالى إذا أحب إنفاذ أمر سلب كل ذي لب لبه))

[الجامع الصغير عن ابن عباس]

لماذا حولت القبلة الآن من مكة المكرمة إلى بيت المقدس ؟ لأن قريش قالت: هذه الكعبة ليست بيت الله إنها بيتنا وبيت آبائنا وأجدادنا . والأصنام من حول الكعبة، فلحكمةٍ أرادها الله عز وجل أمر بتحول القبلة من مكة المكرمة إلى بيت المقدس .

وقال اليهود: يعارض ديننا ويتَّجه إلى قبلتنا . أراد الله عز وجل أن يكون الإسلام شاملاً لكل الأديان، فتوجه إلى بيت الله الحرام:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران)

ثم أمر بالتوجه إلى بيت المقدس، المكان الذي جاءت فيه نبُّوات سيدنا موسى وعيسى، ثم حولت القبلة إلى مكة المكرمة ثانية، فهؤلاء الذين رأوا أن القبلة حولت من مكان إلى مكان، هم عند الله سُفَهاء، علم الله عز وجل أنهم سيقولون، قال:

(سَيَقُولُ (142))

حينما نزلت هذه الآية هل قالوا ؟ لم يقولوا، السين للاستقبال:

(سَيَقُولُ (142))

هؤلاء الذين سيقولون وصفهم الله عز وجل بأنهم سفهاء .

تعريف السفيه :

من هو السفيه ؟ السفيه هو الذي يبدد ماله أو قدراته بلا جدوى . أوضح مثل لو أن إنساناً أمسك ألف ليرة وأحرقها أمامك بلا سبب، وبلا هدف هو سفيه، وأنا مضطر أن أسوق الموضوع إلى فرع ثم أعود إلى أصل الموضوع، مُرَكَّب في الإنسان أن الوقت أثمن من المال، بدليل أن الذي ـ لا سمح الله ولا قدَّر ـ يصاب بمرضٍ عضال، وهناك عملية جراحية في بلدٍ بعيد، ربما أمدت في عمره بحسب قول الأطباء سنواتٍ معدودات، يبيع بيته وكل ما يملك ليجري هذه العملية التي يأمل أن يعيش من خلالها سنواتٍ معدودات، ما معنى ذلك ؟ أن الوقت أثمن من المال، فالذي يُبدد المال يُتَّهم بالسفه، والذي يبدد الوقت هو أشد سفاهة .

هذا الذي يجلس يُمضي ساعاتٍ وساعات وراء المسلسلات التي لا طائل منها، هذا الذي يمضي ساعاتٍ وساعات في حديثٍ فارغٍ لا جدوى منه، هذا الذي يمضي ساعاتٍ وساعات في لعب النَرد، هذا يُعَدُّ أشد سفهاً من الذي يبدد المال لأنه يبدد الوقت الذي هو أثمن من المال، السفيه إنسان غير عاقل، إنسان يتلف الجوهر ويبحث عن الفحم، يُهمل اللؤلؤ ويأخذ الأصداف، السفيه لا يلتفت إلى النفيس ويتَّجه إلى الخسيس، هذا هو السفيه .

ثم إن الإنسان حينما يرفض شيئاً يعبِّر عن احتقاره له، إن رفض بيتاً فلأنه صغير، أو لأنه في منطقةٍ ليست مناسبة، أو لأن اتجاهه نحو الشمال، إن رفضت عملاً فلأن دخله قليل، إن رفضت فتاةً لأن أخلاقها لا تُعجبك، إنك حينما ترفض تحتقر هذا المرفوض، إلا في شيءٍ واحد حينما ترفض الدين فإنك تحتقر نفسك:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ (130))

(سورة البقرة)

السفيه هو الذي يردُّ النفيس ليأخذ الخسيس، هو الذي يرد الثمين ليأخذ الرخيص، هو الذي يزهد في الآخرة ليأخذ الدنيا الفانية هذا سفيه، وكل إنسانٍ ما عرف الله سفيه ولو كان أذكى الأذكياء ولو حمل أعلى الدرجات، السفاهةُ أن تعرض عن النفيس وتتبع الخسيس .

إذا كان الإنسان مع الشيطان فهمُّه الانتقاد:

هؤلاء الذي أشركوا، والذين ابتعدوا عن الله، والذين شردوا عنه، والذين غرقوا في المعاصي والآثام، هؤلاء عند الله سفهاء، والسفيه دائماً يعترض، وينتقد، ويطعن . اجلس في أي مجلس تجد أن همّ الناس الوحيد أن يطعنوا في الدعاة إلى الله، أن يطعنوا بالمؤمنين، ليس له هم إلا الطعن، لأنه حينما يطعن يتوهم أنه يستعيد توازنه، هو حينما خرج عن منهج الله، وحينما عصى الله عز وجل، وخالف قوانين فطرته اختل توازنه الداخلي، فحينما يتَّهم المؤمنين الصادقين باتهاماتٍ باطلةٍ لا

أصل لها هو يستعيد توازنه، فهؤلاء السفهاء رأوا أن القبلة تحوّلت من مكة المكرمة إلى بيت المقدس ثم إلى مكة المكرمة:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا (142))

لماذا رجعوا إلى مكة المكرَّمة ؟ بربكم لو أن هؤلاء الناس الذين وصفوا بأنهم سفهاء، وأنهم سيقولون كذا وكذا، لو أنهم سكتوا ماذا فعلوا ؟ لو سكتوا لأبطلوا القرآن، من أجل أن تعلم أن إرادة الله طليقة، يفعل ما يشاء، وصفهم الله مُسبقاً بأنهم سفهاء، وأنهم سوف يقولون كذا وكذا، وبالفعل هكذا قالوا:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا (142))

إذا كان الإنسان مع الشيطان يكون همُّه الانتقاد، لسانه لا يفتر، ينتقد دائماً، يجد متعة في النقد، عمل تخريبي، عمل شيطاني، عمل فيه أذى، ليس له همٌّ ثان إلا أن ينتقد زيداً وعبيداً وفلاناً وعلاناً، هو لا يقدم شيئاً ولا يفعل شيئاً، هذا النموذج قذر، مُنحط، نموذج يكرهه الله عز وجل، ماذا قدَّمت ؟ لا يقدّم شيئاً، ينتقد كل شيء، من هذا القبيل :

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ (142))

ليس هناك مكان مقدس لذاته إلا أن يقدّسه الله عز وجل :

ليس هناك مكان مقدَّس لذاته ـ هذه نقطة مهمة جداً ـ ليس هناك مكان مقدس لذاته إلا أن يقدَّسه الله عز وجل، فالله عز وجل أمر الإنسان وهو سيِّد المخلوقات أن يقبِّل الحجر الأسود، والتسلسل كما تعلمون ؛ جماد، نبات، حيوان، إنسان . أمر الله أشرف مخلوق أن يقبل أقل مخلوقٍ رتبة، وفي منسكٍ آخر أمره أن يرجم حجراً في الجمرات التي هي رمزٌ لإبليس، لا يوجد مكان مقدس، الله عز وجل يقدس الشيء أو يهدر كرامة الشيء، ولذلك سواء توجَّه المسلمون إلى بيت المقدس، أم إلى مكة المكرمة، هم يتوجَّهون إلى الله عز وجل، وليس هناك مكان مقدس في ذاته .

(قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142))

يهديه الله عز وجل إلى طريقٍ مختصر، المستقيم هو أقصر طريق بين نقطتين، يهدي من يشاء مرضاة الله عز وجل، من يشاء رحمة الله، من يشاء محبة الله، من يشاء الفوز بالجنة والنجاة من النار .

(مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142))

أيها الأخوة، لو أن الله عز وجل قال: تحوّلوا عن مكة المكرمة للعلة الفلانية، وتوجهوا إلى بيت المقدس للعلة الفلانية، هذا الأمر فقد قيمته التعبُّدية، حينما أعطيك أمراً لمصلحتك الواضحة الصارخة أقول لك: افعل كذا من أجل كذا . أنت تقبل على تنفيذ هذا الأمر، لا حباً بالآمر، ولكن

حباً بذاتك، فقد الأمر قيمته المعنوية، وقيمته التعبُّدية . يقول لك أحدهم: أنا أصلي لأنني قرأت مقالة أن الصلاة فيها رياضة . ليس له أجر فيها، ولا قيمة لهذه الصلاة إطلاقاً، أو أن يقول: أنا أصوم لأنني شعرت أن الصيام أريح لجسمي، أحس براحة، أحس بخفة، وأجد أمعائي تحسنت، ونشاطي ازداد، فأنا أصوم والحمد لله . هذا ليس صيام تعبُّد، هذا صيام رجيم، هذا صيام مصلحة .

لو أن الأمر الإلهي جاء معللاً لفقد قيمته التعبُّدية، توجَّهوا إلى بيت المقدس للعلة الفلانية، توجهوا إلى مكة المكرمة للعلة الفلانية، إلهٌ عظيم يحب أن يرى انصياعنا لأمره، لذلك قال علماء الأصول: علة كل أمرٍ أنه أمر .

أمر الله هو المقدس :

لا أنسى هذا الموقف الذي وقفه إنسان غربي أسلم بعمق، حين التقى بعالمٍ من علماء دمشق، وطرح موضوع لحم الخنزير، وهذا العالم أفَاض وأفاضَ، وشرح وأطال وأطنب في مضار لحم الخنزير، فابتسم هذا الإنسان الغربي المسلم وقال: كان يكفيك يا أستاذ أن تقول لي إن الله حرمه . يكفي، كلام الله، إلهٌ عظيم هو العلم، والخبرة، والرحمة، والحكمة، هو الخالق، يقول لك: لا تفعل هذا . انتهى الأمر .

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142))

ليس للأمكنة قداسة بذاتها، إلا أن يأمرك الله أن تشد الرحال إليها، أمرنا النبي عليه الصلاة والسلام وهو لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيٌ يوحى، أن نشُدَّ الرحال إلى مكة المكرمة ، وإلى بيت المقدس، وإلى المدينة المنورة:

((لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إِلَى ثلاثةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَسْجِدِ الأقْصَى))

[البخاري عن أبي هريرة]

نرجو الله سبحانه وتعالى أن يتاح لنا في القريب العاجل أن نزور المسجد الأقصى. لا يوجد مكان مقدس في ذاته أمرنا الله عز وجل أن نشُد الرحال إليه، فالتقديس هو لأمر الله، أمر الله هو المقدس، قال الله عز وجل: دعوا مكة لأن قريشاً يقولون إنها بيتنا وليست بيت الله، إنه بيتنا وبيت آبائنا وأجدادنا . وفيها ما لا يحصى من الأصنام، لذلك قال الله عزَّ وجل: دعوا مكة المكرمة واتجهوا إلى بيت المقدس، ولعل في هذا الاتجاه الجديد حكمةً بالغة ذلك أن الإسلام هو خاتم الأديان، أو خاتم الشرائع إن صح التعبير، وأن هذا الدين يستوعب كل الشرائع السابقة، فلذلك نحن نقدس بيت الله الحرام، ونقدس بيت المقدس الذي هو مهبط الرسالات السماوية، ومسرى نبينا عليه الصلاة والسلام .

لكن هذه الآية فيها إعجاز، أي أن الله عز وجل طليق الإرادة، وفي أية لحظةٍ يسلب ما أعطاك إياه، فلو فكر هؤلاء الناس السفهاء لحظةٍ، هم وصفوا بأنهم سفهاء، وسوف يقولون كذا وكذا، لو سكتوا لأبطلوا القرآن، ولكنهم لا يستطيعون .

مخاطبة الله عز وجل الأمة العربية :

قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً (143))

يخاطب الله الأمة العربية :

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً (143))

هذا الموضوع يحتاج إلى بعض التفصيل، أمة وسطاً أي وسطاء بين الله وخلقه، وهذا تكريمٌ عظيم:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ(104))

(سورة آل عمران: 104)

وقال:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران الآية: 110)

من أدق معاني كلمة

(كُنْتُم)

في هذه الآية، أي أن كلمة " كنتم " في هذه الآية تعني أصبحتم، أي عندما جاءتكم هذه الرسالة على رسول منكم من هذه الأمة العربية .

علة الخيرية:

قال تعالى:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران الآية: 110)

عِلَّة الخيرية أنكم:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية: 110)

لو أن هذه الأمة تركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لعادت بشراً ممن خلق الله عز وجل :

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة: من آية " 18 ")

أشرف مرتبة تنالها الأمة العربية أنها أمة وسط :

حينما نعصي، وحينما يهون أمر الله علينا، نهون على الله، وهذا ما ترونه وكأن الله تخلّى عنا، لأن أمر الله هان علينا فهنا على الله:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

(سورة مريم)

وقال:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً (143))

أي أنتم وسطاء بين الله وبين خلقه:

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ(151)فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ (152))

(سورة البقرة)

فَاذْكُرُونِي أي أنتم وسطاء، أي كما هديتكم كونوا هداةً للخلق، وهذه أشرف مرتبة تنالها الأمة العربية، أن الله سبحانه وتعالى أنزل كتابه بلسانٍ عربي مبين، وجعل هذه الأمة وسطاً، أو وسطاء بين الله وبين خلقه، لـذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لسيدنا سلمان الفارسي:

((يَا سَلْمَانُ لا تَبْغَضْنِي فَتُفَارِقَ دِينَكَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ أَبْغَضُكَ وَبِكَ هَدَانَا اللَّهُ ؟ قَالَ: تَبْغَضُ الْعَرَبَ فَتَبْغَضُنِي))

[الترمذي عن سلمان]

ديننا يأمرنا أن نعيش الواقع بقيَمٍ مثالية:

يجب أن لا يسترسل الإنسان في تعداد مثالب هذه الأمة، ليس هذا مقبولاً عند الله نرجو الله أن يصلح الناس جميعاً، وأن نكون وسطاء لله بين الله وبين خلقه، وأن نعيد لهذه الأمة مجدها، لأن النبي عليه الصلاة والسلام جاء في الجاهلية إلى أمة كانت تأكل الميتة، وتعبد الأصنام، وتسيء الجوار، وتقطع الرحم، وتكذب، وهي غارقة في الخمور والربا، وغارقة في الزنا، كانت عشر أنواع من الانحرافات في الزواج متفشية فيها، كما قال سيدنا جعفر: **" كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الرحم، ونسيء الجوار، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته وصدقه وعفافه ونسبه، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحِّده، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء " .**

إذاً أمة وسطاً، أي وسطاء بين الله وبين خلقه . تحدثت في خطبةٍ قديمة عن الوسطية في الإسلام، وهو موضوع دقيق جديد جدّاً، ومفصَّل، ومبوَّب، أرجو أن تعودوا إليه الوسطية في الإسلام .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً (143))

هناك أممٌ آمنت بآلهةٍ متعددة، وهناك أممٌ أنكرت وجود الله، ونحن المسلمون آمنا بلا إله إلا الله:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً (143))

هناك أممٌ غرقت في المادة إلى قمة رأسها، وهناك أممٌ عاشت مثالية خيالية غير واقعية، هؤلاء تطرَّفوا، وهؤلاء تطرَّفوا، أما نحن والحمد لله فديننا دين الواقع، ودين الفطرة، بل إن ديننا يأمرنا أن نعيش الواقع بقيَمٍ مثالية، قال عليه الصلاة والسلام:

((أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[البخاري عن أنس بن مالك]

ديننا دين الفطرة والوسطية:

نحن ديننا دين الفطرة، دين الوسطية، الإنسان مأمور أن يعبد الله وأن يسعى لرزق يومه، ما من شهوةٍ أودعها الله فينا إلا فتح لها قناةً نظيفة تسري خلالها، دين وسطي، الأمة التي تطرفت عادت الآن إلى وسطية الإسلام بضغط من الواقع، عادت شعوب الإسلام الآن مُكرهة . الأمةُ التي تطرفت عادت الآن إلى وسطية الإسلام بضغطٍ من الواقع السيئ الذي نتج عن هذا التطرُّف، لا عن تعبُّدٍ ولكن عن رجوع إلى مصالحها .

مثلاً الاتحاد السوفيتي حرم الخمر قبل أن ينهار، كثير من القوانين الآن تصدر مطابقة لتعليمات الشرع، مثلاً منعت بعض الجامعات في أمريكا الاختلاط، لأنهم وجدوا أن عدد اللقطاء في الحدائق أصبح لا حدود له، فحرمت الاختلاط، سمعت أن بعض البلاد في أوروبا حرَّمت الخمر، الخمر مثلاً محرم في السويد، لا يستطيع الإنسان هناك أن يشرب الخمر إطلاقاً إلى أن يذهب إلى الدنمارك، فالآن الشعوب المتطرفة يميناً أو يساراً عادت إلى الإسلام لا عن تعبُّدٍ، ولا عن طاعةٍ لله، ولكن عن مصلحةٍ، فديننا دين وسطي بين تعدد الآلهة وبين إنكار الآلهة، بين إنكار النبوة أو بين أن يتهم الأنبياء كما في العهد القديم بالفسق والفجور والزنا وما إلى ذلك، أنبياؤنا عبادٌ مكرَّمون:

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33))

(سورة آل عمران)

بعض معاني الوسطية:

هناك من لا يعمل وهو زاهدٌ في الدنيا، وهناك من يعمل وينسى كل شيء، نحن أُمرنا أن نعمل وأن نعبد الله وأن نصلي خمس صلواتٍ كل يوم، في أي موضوع وصفه الإسلام كان وسطياً، إذا

ضربك إنسان على خدك الأيمن، في بعض الأديان يجب أن تدير له خدك الأيسر ليضربك عليه صفعة ثانية، ولكن الله عز وجل قال:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39)وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(40))

(سورة الشورى)

هناك وسطية، لو عدتم إلى هذه الخطبة الوسطية في الإسلام لوجدتم فيها كل شيء، بحث مطوَّل جداً:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً (143))

وسطاء من جهة، والوسط دائماً مركز الدائرة، المركز في الوسط والمحيط يساوي الأطراف، فالإسلام في الوسط، مكان تقاطع الأفكار، لا يوجد تقاطع في التطرف، أما الوسط فيه تقاطع، هذا المعنى رياضي أيضاً، الشمس لا تكون في أشد سطوع إلا وهي في وسط النهار، فالوسط اعتدال، والوسط قوة، والوسط عَدْل، والوسط توسط بين شيئين متطرفين، هذه كلها من معاني الوسطية:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً (143))

ديننا دين متوازن:

ديننا متوازن، بين عدم الزواج كلياً، وبين الزنا من دون قيد أو شرط، لدينا زواج، وفي حالات خاصة مسموح بثانية وثالثة ورابعة:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً (143))

ترك العمل تطرُّف، والانغماس بالعمل تطرف:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً (143))

وقال:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ (37))

(سورة النور)

وقال:

(لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ (143))

تشهدون لهم الحق:

(وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً (143))

أعظم داعية هو الذي يتكلم من خبرات يعيشها :

أرسل الله عز وجل هذا النبي الكريم الذي هو سيِّد الأنبياء والمرسلين لهذه الأمة المباركة، وكلَّف هذه الأمة كما أن النبي شهد لها بالحق أن تشهد للناس بالحق . الذي يرى ويتكلم عما رأته عينه يكون كلامه بليغاً جداً، أما إذا سمع فقط !! إذا شخص لم يذهب إلى بيروت إطلاقاً، وقلنا له: صف لنا بيروت، يقول: والله قرأت عنها أنها على الساحل، قرأت عنها أنها محاطة بجبال خضراء، ما أدري مبلغ هذا الكلام من الصحة . أما لو عاش إنسان في بيروت وقلت له: صف لنا بيروت . يتكلم بطلاقة وبوضوح، وبقوة تأثير عجيبة، ينقل لك خبراته، فلذلك إذا أراد الإنسان أن يدعو إلى الله، يجب أن لا تتكلم بشيءٍ لست قانعاً به، لا تتكلم بشيءٍ لست واثقاً منه، لا تتكلم بشيءٍ لا تراه رأي العين، حينما تشهد اشهد للناس، لذلك أعظم داعية هو الذي يتكلم من خبرات يعيشها، من حقائق يلمَسها، من أفكار هو قانع بها، هذه هي الدعوة .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً (143))

هذه الأمة العربية التي شرفها الله وكرَّمها، ونقلها من رعاة الغنم إلى قادة الأمم، وأمرها أن تكون وسطاً بين الله وبين خَلقه، ماذا حل بها ؟

مرة كنت في أمريكا، وسمعت خطبة لإنسانٍ باكستاني، قال في هذه الخطبة شيئاً لطيفاً، وهو يخاطب المصلين وأكثرهم من الأمة العربية ـ توجد جالية عربية كبيرة جداً في مدينة هناك ـ قال: أنتم سادتنا نحن بكم هدانا الله عز وجل، لولاكم لكنا عباداً للأصنام، عُباداً للنيران ـ ذكر من فضل هذه الأمة على بقية الشعوب ما يشعر الإنسان بأن هذه الأمة أعلى الأمم ـ قال: ما لكم نسيتم هذه المُهمة، ما لكم نسيتم هذا الشرف العظيم الذي منحكم الله إياه، أنتم في بلاد تبيعون الخمر، أهكذا كان آباؤكم وأجدادكم ؟! بعد أن أثنى على هذه الأمة الثناء العطر، ذكر مثالبهم في بلاد الغرب، فأنت يجب أن تفتخر أنك تنتمي إلى أعظم أمة، إلى أمةٍ أنزل الله القرآن الكريم بلسانها .

واقع الأمة المؤلم:

قال تعالى:

(إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(3))

(سورة الزخرف)

وقال:

(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ(195))

(سورة الشعراء)

تنتمي إلى أمةٍ هي الوسيطة بين الله وبين خلقه، وسيطة، ومتوسطة، ومعتدلة، وقوية، ونيِّرة، وعادلة، هذه معاني الوسطية كلّها .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً (143))

إنك حين ترى واقع الأمة المؤلم، لماذا تتألم ؟ أين كنا وأين أصبحنا ؟ فبعض المسلمين أو أكثرهم فتنوا بالغرب، فعاشوا حياة الغرب، ونسوا دينهم، والأمانة التي حملهم الله إيَّاها، وعاشوا في انفصامٍ في شخصيتهم، يعتزون بدينهم وبماضيهم، ويضربون في هذه الحضارة المتوهِّجة التي نسوا فيها أوامر ربهم، هذه حالة صراع، وحالة انفصام شخصية، تصيب كل إنسان لم يقو إيمانه بحيث يتجاوز كل هذه العقبات والصوارف، بل جعله إيماناً وسطاً، إيماناً ضعيفاً جذبته هذه القوى من يمينٍ أو من شمال .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ (143))

التحول للقبلة امتحان عبودية:

التحول للقبلة امتحان عبودية، إذا كان الأب جالساً على المائدة، والطعام نفيس، وابنه جائع، ولهذا الأب يدٌ طويلة في تربية ابنه وفي إكرامه، قال له: يا بني لا تأكل . فإذا كان هذا الابن يعرف قدر أبيه، وحكمة أبيه، ومحبة أبيه، ورحمة أبيه ينصاع للأمر ولو لم يفهم الحكمة . بطولتك أن تنصاع للأمر ولو لم تفهم الحكمة، لماذا ؟ لأن الحكمة إذا توضَّحت تماماً فقد الأمر قيمته التعبُّدية، وأقبلت عليه طمعاً بمصلحتك الشخصية، لكن الله يُريدك عبداً له، لذلك من حين لآخر تأتي أوامر قد لا تفهمها أنت:

(إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ (143))

الإنسان غير المهتدي، المتعلق بالتقاليد والعادات لا يحتمل، فيقول لك مثلاً: هذه الكعبة بيت الله، لماذا انصرف عنها المسلمون إلى قبلة اليهود ؟!

(وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143))

زوال الكون أهون عند الله من أن تدع شيئاً لله دون أن تأخذ شيئاً أثمن منه:

الله عز وجل خلقنا ليسعدنا، وخلقنا لنصل إليه، وخلقنا كي نعرفه، فهل يعقل أن يكون من أفعال الله ما يبعدنا عنه ؟ مستحيل، أب همه الأول أن يكون ابنه متعلماً، فهل من المعقول أن يمنعه يوم الامتحان من تقديم الامتحان ؟ هذا يتناقض مع هدف الأب كلياً .

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ (143))

والله أيها الأخوة، والله الذي لا إله إلا هو، هذه عبارة أستخدمها كثيراً: زوال الكون أهون على الله من أن تتودد إلى الله ثم يضيّعك، من أن تؤثر جانب الله على مصالحك ثم يضيعك، زوال الكون أهون عند الله من أن تدع شيئاً لله دون أن تأخذ شيئاً أثمن منه:

((ما ترك عبد لله أمراً لا يتركه إلا لله إلا عوضه الله منه ما هو خير له منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

هذا كلام مستحيل، مستحيل أن تخاف من الله وأن يخيفك من أحد، مستحيل وألف مستحيل أن تقلق على مصيرك في الآخرة وأن تضيّع الآخرة:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ (143))

هذه

(وَمَا كَانَ اللَّهُ)

أيها الأخوة أشد أنواع النفي في القرآن، أنا مثلاً أسأل إنساناً: هل سرقت هذا المبلغ ؟ إذا قال لك: لا . هو قد يكون سارقاً، ولكنه لم يسرق هذا المبلغ، أما إذا قال لك: ما كان لي أن أسرق . إذ قلت له: هل أنت جائع ؟ يقول لك: لا . الجوع ليس عاراً، أما إذا قلت له: هل أنت سارق ؟ يقول لك: كلا . أداة ردعٍ ونفي، أو ما كان لي أن أسرق، أي هذا ليس من شأني، ولا من طبيعتي، ولا من مكانتي، ولا من رغبتي، ولا أرضاه، ولا أفعله، ولا أفكر فيه، ولا أقر عليه، هناك تقريباً عشر أفعال منطوية في كلمة: وما كان الله .

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ (143))

مستحيل أن تستوي حياة المؤمن مع حياة الشارد عن الله لأن هذا يتناقض مع وجود الله :

لا تخف، ما دمت تطلب الحقيقة، ما دمت تخطب ود الله عز وجل لن يضيعك الله عز وجل، وهناك آلاف القصص التي لا تنتهي عن إنسان آثر جانب الله فكسب الدنيا والآخرة، ولا تنسوا هذه العبارة أرددها كثيراً: من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، ومن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً .

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ (143))

تقبل عليه، تخطب وده، تصطلح معه، تطيعه، تخدم له عباده، تخاف من سخطه، تخاف أن تعصيه، ويعاملك مثل الناس ؟!! والله هذا يتناقض مع وجود الله:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية الآية: 21)

أتكون حياتك كحياة الشارد عن الله ؟! مستحيل، حياتك، عملك، صحتك، زواجك، سمعتك، مستقبلك، مكانتك، مستحيل أن يستوي هؤلاء مع هؤلاء هذا يتناقض مع وجود الله:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية الآية: 21)

مستحيل أن يعامَل المؤمن كالكافر :

قد يقول قائل: المعاملة بالآخرة فقط، لا، لا، بالدنيا أيضاً، والدليل :

(سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية الآية: 21)

هذه الآية وحدها أيها الأخوة والله تملأ قلبكم أمناً وطمأنينة، تملأ قلبكم ثقة بالله عز وجل، من سابع المستحيلات، مستحيل وألف مستحيل أن يعامَل المؤمن كالكافر، المستقيم كالمنحرف، الصادق كالكاذب، الأمين كالخائن، المحسن كالمسيء، مستحيل .

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية الآية: 21)

أيها الأخوة الكرام:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ (18))

(سورة السجدة)

وقال:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

(سورة القلم) .

وقال:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

لا يستوي المحسن مع المسيء:

قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ (143))

شخص يسكن بأطراف المدينة، ركب أول سيارة، وثاني سيارة، وأمضى ساعة على الطريق، وبقي ساعة جالساً على ركبتيه في المسجد، لا يوجد كأس من الشاي، ولا يوجد ضيافة، ولا أي

شيء، ثم يعود إلى البيت، استهلك من وقته ثلاث ساعات، هل يستوي مع إنسان يجلس وراء جهاز اللهو يتابع المسلسلات، أهذا كهذا ؟! هل يستوي من يأتي مجلس علم مع لاعب النرد حتى الساعة الثانية مساءً معقول ؟ إنسان يجلس في بيت الله يستوي مع إنسان في جلسة مختلطة ؛ نساء كاسيات عاريات وغمز ولمز هذا مع هذا ؟ إنسان يخشى المال الحرام، يركل بقدمه مئات الألوف لشبهة فيها، وهناك إنسان يأخذ المال من أي طريق وبأي طريقة ! هذا كهذا مستحيل، والله لو استويا لكان الدين كله باطلاً، مستحيل وألف مستحيل أن يستوي المحسن مع المسيء، الورع مع المتساهل، كل شيء بحساب دقيق.

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ (143))

أإنسان يغض بصره عن محارم الله كالذي يملأ عينيه من الحرام ؟ أهذا كهذا عند الله عز وجل ؟ إن توهَّمت أنهما متساويان أنت بهذا تشكك في عدل الله، وفي رحمة الله، وفي حكمة الله، مستحيل، كن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك .

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ (143))

النبي عليه الصلاة والسلام منصاع لأمر الله لكنه يتمنى أن تكون القبلة في مكة المكرمة:

امرأة تخشى الله، تحجبت محبة لله، يقول الغافلون عنها: لا أحد يخطبها ؛ أما المتفلّتة والفاسقة والفاجرة والتي تعرض مفاتنها على الناس هذه التي تخطب . هل هذا كلام ؟ هذا كلام إبليس، امرأةٌ طائعةٌ لله ترجو الله واليوم الآخر لها عند الله مكانة كبيرة جداً، هذه يهيِّئ الله لها من يكرمها، ومن يحفظها، ومن يقودها إلى الجنة . هناك كلام شيطاني، إذا لم نعمل معصية نخسر، هذا كلام الشيطان بعينه، إذا لم يكن هناك اختلاط لا تُخْطَبُ البنت، هكذا عند الناس، مثلاً إذا لم تظهر مفاتنها لا أحد يعرفها .

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ (143))

إذا لم نكذب لا نعيش وعندنا أولاد، هكذا كلام الناس، إذا لم نغش لا نعيش، يجب أن نكون مثل الناس ماذا نفعل ؟ الناس كلها تغش ونحن مع الناس، هذا كلام الشيطان:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ (18))

(سورة السجدة)

وقال:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143))

النبي عليه الصلاة والسلام منصاع لأمر الله، لكن عواطفه كانت أن تكون القبلة في مكة المكرمة:

(قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ (144))

النبي عليه الصلاة والسلام كان يقلّب وجهه في السماء منتظراً الوحي:

أي ينتظر الوحي من السماء، يا رب أنت حوّلت القبلة إلى بيت المقدس هل من عودةٍ إلى بيت الله الحرام ؟ كان عليه الصلاة والسلام يقلّب وجهه في السماء منتظراً الوحي:

(قَدْ نَرَى (144))

نرى فعل مضارع، أي الآن:

(قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا (144))

تتفق مع عواطفك، لما خرج من مكة المكرمة، قال عليه الصلاة والسلام:

((اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَخْرَجْتَنِي مِنْ أَحَبِّ الْبِقَاعِ إِلَيَّ فَأَسْكِنِّي في أَحَبِّ الْبِلَادِ إِلَيْكَ))

[الجامع الصغير عن ابن عبد البر]

فسكن في المدينة المنورة، فمكة المكرمة من أحب البلاد إلى رسول الله .

(فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ (144))

هذه القبلة تجمع المسلمين في اتجاهٍ واحد، أينما ذهبت ؛ إلى بلاد أمريكا، إلى أوروبا، إلى آسيا، إلى اليابان، يجب أن تتوجه نحو بيت الله الحرام .

مكة المكرمة هي الوسط الهندسي لليابسة :

بالمناسبة مكة المكرمة وسط هندسي لليابسة، لو أخذنا العالم القديم ورسمناه على الخارطة وأخذنا أبعد مُدن هذا العالم وجعلناها نقاطاً على محيط العالم، ووصلنا بين هذه المدن فكانت أقطاراً، أقطار العالم القديم تتقاطع في مكة المكرمة، أي أن مكة تبعد عن أقصى مدينة في آسيا، وأستراليا، وأوروبا، وإفريقيا ثمانية آلاف كيلو متر، ولو ضمن العالم الجديد أمريكا الشمالية والجنوبية، فجعلنها خارطة مسطحة، وأخذنا أقطار العالم الجديد مع القديم، لتقاطعت هذه الأقطار في مكة المكرمة، فمكة تبعد عن أطراف العالم القديم مع الجديد ثلاثة عشر ألف كيلو متر بالضبط، هذا في بحث قُدِّم للجامعة حول أن مكة المكرمة هي الوسط الهندسي لليابسة .

(فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ (144))

لكن ليست القبلة هي الكعبة بالذات، وإنما هي جهة الكعبة، بالجهة تحل مليون مشكلة، أما لو أن القبلة هي الكعبة بالذات لاحتجنا في كل مسجد إلى قياس دقيق جداً، وقد تختل القبلة زاوية درجة أو درجتين، أما القبلة هي خط، خط مكة المكرمة، فهي نحو الجنوب .

(وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144))

ورد في التوراة أنه سيأتي نبيٌ للمسلمين هو محمدٌ بن عبد الله، وسوف تتحول القبلة عن مكة المكرمة إلى بيت المقدس، وتعود إلى مكة المكرمة .

(وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144))

إن أراد الإنسان أن يؤمن فأي شيءٍ يدلّه على الله :

أيها الأخوة، هؤلاء الذين أوتوا الكتاب، والذين عرفوا من خلال كتابهم المقدَّس أن القبلة سوف تتحول إلى بيت المقدس، ومع ذلك أنكروا على النبي الكريم أن يتجه إلى قبلتهم، فقالوا: تُعارض ديننا وتتجه إلى قبلتنا . ومشركو مكة المكرمة أنكروا على النبي ذلك لأن هذه الكعبة بيت آبائهم وأجدادهم .

(وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144))

الإنسان الذي يعلم الحقيقة ويتكلم خلافها هذا مجرم، الذي تكلم بلا علم آثم، أما الذي يتكلم بخلاف ما يعلم فهذا مجرم .

(وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ)

لمن الآيات ؟ لمن يريد أن يؤمن، أما حينما لا يريد الإنسان أن يؤمن، لو التقى بالأنبياء جميعاً واحداً وَاحداً، وشاهد كل معجزاتهم واحداً وَاحداً لا يؤمن، الإنسان يؤمن إذا أراد أن يؤمن، إن أراد أن يؤمن أي شيءٍ يدلُّه على الله، وإن رفض أن يؤمن لو جلس في أكبر قاعدة في الفضاء الخارجي، ورأى المجرَّات المئة ألف مليون مجرة بشكل مدهش لا يؤمن، لو رأى الخلايا في جسم الإنسان تحت مجهر إلكتروني لا يؤمن، لو رأى الآيات التي لا تعد ولا تحصى لا يؤمن، لأنه كآلة بالغة التعقيد ـ آلة تصوير ـ ولكن لا يوجد فيها فيلم، فمهما لقطت هذه العدسة من مناظر رائعة، هو لم يرد الحقيقة وقلنا لا يوجد عنده فيلم، لا يصور شيئاً، وأصغر آلة تصوير، وأرخص آلة تصوير مع الفيلم تلتقط صورة، فالقضية قضية أن تريد الحقيقة أو لا تريدها، إن أردتها وجدتها في كل شيء، وإن عزفت عنها لن تجدها في أكبر شيء .

الكون بحدّ ذاته معجزة فإن لم تؤمن به في وضعه الراهن الطبيعي فلن تؤمن إذا خُرقت نواميسه:

قال تعالى:

(وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ (145))

أي أن الذين شاهدوا البحر صار طريقاً يبساً، هل هناك من آيةٍ أعظم من ذلك . فلما خرجوا من اليم قالوا:

(قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ(138))

(سورة الأعراف)

الذين رأوا الناقة تخرج من الجبل، الذين رأوا إبراهيم في النار لم يحترق، رأوا المعجزات ومع ذلك لم يؤمنوا، فالكون بحد ذاته معجزة، فإن لم تؤمن به في وضعه الراهن الطبيعي لن تؤمن إذا خُرقت نواميسه .

(وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ (145))

هناك أشياء متناقضة كيف نجمعها ؟ يقول لك: وحدة الأديان . لا يمكن، أشياء كلها متناقضة:

(وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ (145))

الآيات التالية تخاطب أمة محمد عليه الصلاة والسلام:

هذا كلام الله عز وجل:

(وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145))

طبعاً مستحيلٌ أن يتبع النبي أهواءهم، ولكن هذه الآية لأمته من بعده، أي يا أمة محمد، ولئن اتبعت أهواءهم، هوى الكافر أن تكون على شاكلته، هوى الكافر أن تكسب المال الحرام، هوى الكافر أن تكون المرأة مُتعةً للجميع، هوى الكافر أن تعيش الدنيا فقط، هوى الكافر أن تتكتل تكتُّلات مصلحة، ليست على حق .

(وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145))

أي يا أمة محمد إياكم أن تتبعوا أهواء الكفار، لا يقودوكم إلا إلى الشر، إلا إلى الضياع، إلا إلى التفتُّت، إلا إلى التشرذم، إلا إلى الفقر .

(وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ (146))

بعض علماء التفسير قال: يعرفون النبي كما يعرفون أبناءهم . وبعض علماء التفسير قالوا: يعرفون تحول القبلة كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك أنكروا .

(وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146))

كتم الحق جريمة:

(لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147))

الممترين أي المتشككين .

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (49- 95):تفسير الآيات 148 - 153، حرية الاختيار

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-07-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

منح الله الإنسان والجانَّ من بين كل المخلوقات حرية الاختيار:

مع الآية الثامنة والأربعين بعد المئة وهي قوله تعالى :

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

أيها الأخوة الكرام، منح الله الإنسان والجانَّ من بين كل المخلوقات حرية الاختيار، لأن الله سبحانه وتعالى عرض:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

(سورة الأحزاب)

كان الإنسان ظلوماً جهولاً إذا خان الأمانة ولم يحملها، سخَّر الله للإنسان ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه لأنه قبِلَ حمل الأمانة، ولأنه قبل حمل الأمانة جعل الله الكون كله تجسيداً لأسماء الله الحسنى، ومظهراً لصفاته الفُضلى، ولأنه قبل حمل الأمانة منحه نعمة العقل أداة معرفة الله، ولأنه قبل حمل الأمانة أعطاه شهوةً من أجل أن تدفعه صابراً أو شاكراً إلى الله عزَّ وجل، فهي قوى محرِّكة، ولأنه قبل حمل الأمانة منحه حرية الاختيار كي يُثَمَّن عمله، ولأنه قبل حمل الأمانة فطره فطرة عالية تدلُّه على خطئِه، ولأنه قبل حمل الأمانة أنزل الله على رسوله كُتُبًا هي منهجٌ تفصيليٌ لحياته .

عندما قبِلَ الإنسان حمل الأمانة منحه الله الكون وسخَّره تسخيرين :

ما دام الإنسان قد قبِلَ حمل الأمانة منحه الله الكون، وسخَّره تسخيرين ؛ تسخير تعريفٍ، وتسخير تكريم، ومنحه نعمة العقل، ومنحه نعمة الفطرة، ومنحه الشهوة التي تدفعه إلى الله عزَّ وجل، ومنحه حرية الاختيار ليثمن عمله، ومنحه أيضاً شرعاً حكيماً دقيقاً ومنهجاً تفصيلياً، لكن أبرز ما في حياة الإنسان أنه مخيَّر:

(وَلِكُلٍّ)

من بني البشر:

(وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

لا ينبغي أن نفهم أبداً أنَّ هو تعود على الله عزَّ وجل، لأن سياق الآية ينفي هذا المعنى:

(هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

لو أن الوجهة هي لله، ليس هناك تناسب بين أول الآية وبين آخرها، الوجهة بيدكم:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ)

الإنسان مولّيها، أي أنك تتمتَّع في الدنيا بحرية الاختيار، ولكن هذه الحرية تعد بشكلٍ أو بآخر سبب سعادتك الأبدية، أنت حُر، ما معنى حر ؟ أي أن بإمكانك أن تؤمن أو أن لا تؤمن، بإمكانك أن تكون صادقاً أو كاذباً، بإمكانك أن تكون مستقيماً أو منحرفاً، بإمكانك أن تكون محسناً أو مسيئاً، بإمكانك أن تكون مخلصاً أو خائناً، بإمكانك أن تكون منصفاً أو جاحداً، بإمكانك أن تصلي أو أن لا تصلي، أن تأتي إلى المسجد أو أن تذهب إلى المَلْهى، أن تغضَّ بصرك أو أن تُطْلِقَ بصرك، أن تأخذ ما ليس لك أو أن تكتفي بما هو لك، أن تكون ولداً باراً أو أن تكون ولداً عاقاً، أن تكون شريكاً مخلصاً أميناً أو أن تكون شريكاً خائناً خبيثاً، أن تكون أباً منضبطاً مربياً لأولادك أو أن تكون أباً مسيِّباً لهم

معنى حرية الاختيار:

معنى حرية الاختيار أنه بإمكانك أن تفعل أو أن لا تفعل، أن تكون هكذا أو هكذا. متى يأمرك الله عزَّ وجل ؟ لا يأمرك إلا لأنه خيرك، فمثلاً هل من الممكن أن نبني جدارين على عرض إنسان تماماً، نأخذ عرضه تماماً ثمانية وستين سنتيمتراً، ثم نبني جدارين ونقول له: امش في هذا الطريق، ثم خذ اليمين . يقول لك: أيُّ يمينٍ هذا ؟ أنا في ممر إجباري، لا أستطيع أن أحيد لا يمنة ولا يسرةً .
أما ما دام هناك أمر إلهي افعل، ونهي إلهي لا تفعل، إذاً أنت مخيَّر .

أثمن شيء في مقوِّمات التكليف هو حرية الاختيار، بهذه الحريَّة يمكنك أن تختار طاعة الله، يمكنك أن تختار كتاب الله ؛ تقرأه وتعلّمه، يمكنك أن تختار طريق الجنة، يمكنك أن تكون في الجنة إلى أبد الآبدين، كل هذا بسبب أنك مخيَّر .

إذا نال طالب الشهادة الثانوية وقلنا له: بإمكانك أن تذهب إلى أي مكان في العالم وتلتحق بأعلى جامعة، وتعود في أعلى منصب، وفي أبهج حياة، بإمكانك فأنت مخير . لأن الإنسان مخيَّر فسُبُل السعادة الأبديَّة مفتَّحة أمامه:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

دخلت إلى غرفة فيها مليون قطعة ذهبيَّة، ومليون قطعة ذهبية من عيار أقل، ومليون قطعة ذهبية من عيار أقل، ومليون قطعة نحاسيَّة مُغَمَّسة بالذهب، ومليون قطعة نحاسية بلا ذهب، ومليون قطعة من أخس المعادن، قلنا لك: اختر ما شئت . أنت مخير، فالذي أخذ قطعة الذهب ذات العيار العالي

يكون ذكياً . هو مخيَّر، كلمة مخير كلمة كبيرة جداً، لك أن تختار ما تشاء، لك أن تختار أطيب شيء، وأثمن شيء، وأدوم شيء:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

الدنيا كلها صفر مقارنة بالآخرة :

أنت مخير، بإمكانك أن تكون زوجاً كاملاً أو زوجاً ناقصاً، أماً كاملةً أو أماً مهملة، معلماً مخلصاً أو معلماً مُسَيِّبَاً، أبداً:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

هل من الممكن أن تقول لراكب في السيارة في المقعد الخلفي: احرف المركبة إلى اليمين رجاءً ؟ يقول لك: أبيدي المقود ؟! قل للسائق . لمن توجِّه الكلام كي تنحرف المركبة لليمين ؟ لمن بيده المقود . يقول الله عزَّ وجل:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

على من تعود هو، على الله أم على الإنسان ؟ تتمة الآية :

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

لو أن الوجهة بيد الله لما كان من معنى لقوله تعالى :

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

يمكن أن تصل إلى الجنان عن طريق حرية الاختيار، إلى الأبد، ولا تنسوا ـ وإن كان الشيء ذكرته سابقاً ـ أن هذا المصحف لو وضعنا واحداً في طرفه، وكل ميليمتر صفر، عندنا تقريباً أربعين صفراً، أربعين ضرب عشرة أربعمئة صفر، كم هذا الرقم ؟ واحد أمامه أربعمئة، أول ثلاثة ألف، ثاني ثلاثة مليون، ثالث ثلاثة ألف مليون . فواحد هنا وكل ميليمتر صفر لآخر المسجد، واحد هنا وكل ميليمتر صفر إلى حمص، واحد هنا وكل ميليمتر صفر إلى حلب، إلى أنقرة، إلى موسكو، إلى القطب الشمالي، حول الأرض واحد وأمام كل ميليمتر صفر لأربعين ألف كيلو متر، واحد في الأرض وكل ميليمتر صفر إلى الشمس، مئة وستة وخمسين مليون كيلو متراً، لو نُسِب أكبر رقم تتصوَّره إلى اللانهاية فهو صفر، صفر، الدنيا كلها صفر:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي وابن ماجه عن سهل بن سعد]

أكبر خسارة يحققها الإنسان حينما يخسر الأبد :

قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ).

(سورة البقرة الآية: 126)

أنت مخيَّر، ولأنك مخيَّر يمكن أن تكسب الأبد، وأكبر خسارة يحققها الإنسان حينما يخسر الأبد .

هذه الدنيا **" عرضٌ زائل يأكل منه البر والفاجر، والآخرة وعدٌ صادق يحكم فيه ملكٌ عادل "** .

الغني يموت، والفقير يموت، والقوي يموت، والضعيف يموت، والقوي يموت، والضعيف يموت، والوسيم يموت، والدميم يموت، والمستَغِل يموت، والمستَغَل يموت، وكل إنسان سيموت، كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزَّة والجبروت، والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بد من دخول القبر .

وكل ابن أنثى وإن طالت سلامتـــه يوماً على آلةٍ حدباء محمـــولُ

فإذا حملـت إلى القـبـور جنـازةً فـاعلم بأنك بعدهـا محمـولُ

***

هنا الدقَّة .

الحرية الثمينة التي هي سبب السعادة الأبدية ليست مستمرَّة ولكنها منقطعة:

قال تعالى :

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

أي يا عبادي استغلوا هذه الفرصة، أنتم مخيَّرون، وباختياركم يمكن أن تختاروا الأبد الجنة التي عرضها السماوات والأرض، يمكن أن تسلموا وأن تسعدوا إلى أبد الآبدين عن طريق حرية الاختيار ؛ ولكن هذه الحرية الثمينة التي هي سبب سعادتكم الأبدية ليست مستمرَّة، ولكنها منقطعة .

إذا أدخلناك لغرفة وقلنا لك: خذ ما تشاء من هذه القطع الذهبيَّة والألماسيَّة، ولكن لربع ساعة فقط، فإذا انشغلت بقراءة مقالة في مجلَّة، والذهب أمامك، والألماس أمامك، وكله بأسعار فكليَّة، والوقت محدد لمدة ربع ساعة فقط، فإذا انتهت هذه الدقائق الخمسة عشر تسحب من الغرفة إلى خارجها، انتهت الفرصة، الفرصة لسعادة أبديَّة، ما دمت مخيراً فأنت في بحبوحة، فإذا جاء ملك الموت انتهى الاختيار، وعدت مقهوراً، لأن ربنا عزَّ وجل يقول:

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)

(سورة الفاتحة)

أنت في الدنيا مخيَّر، وتملك أن تختار هذا أو هذا، أما حينما يأتي الموت ينتهي اختيارك:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

يقول عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً))

[الترمذي عن أبي هريرة]

الاختيار مؤقّت:

إذا لم يرد الإنسان الآخرة ولا أن يكون عابداً لله ؛ بل أراد الدنيا، ماذا ينتظره ؟ قال عليه الصلاة والسلام :

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فقراً مُنْسِياً ـ قد يأتي فقرٌ غير متوقّع ـ أَوْ غِنًى مُطْغِياً أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً أَوْ هَرَماً مُفَنِّداً أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً أو الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أو السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعاً، قد سمعت مرَّة بالعمرة طرفة وهي واقعيَّة، الذي رواها لي شهد وقائعها بنفسه، إنسان بدوي يسكن في شمال جدَّة عندما توسَّعت جدَّة وصلت إلى قرب أرضه، نزل وباعها إلى مكتب تجاري، خدعه واشتراها بربع قيمتها، وأنشأ بناءً ضخماً، الشريك الأول وقع من أعلى طابق فنزل ميِّتاً، والشريك الثاني دهسته سيارة، فانتبه الشريك الثالث وعرف سر هذه المصائب، لأنهم خدعوا صاحب الأرض، وأخذوها بربع ثمنها، فبحث عن صاحب الأرض ستة أشهر إلى أن عثر عليه، أعطاه ثلاثة أمثال ما كان قد دفعه له، فقال له البدوي: **" ترى أنت لحقت حالك "** .

كل واحد منا يجب أن يتدارك ما فاته الآن هناك فرصة، القلب ينبض، كل شيء يمكن إصلاحه، يمكن أن ترد كل المظالم إلى أصحابها، يمكن أن تطلب السماح من كل من اغتبته، يمكن أن تفعل كل شيء ويعفو الله عنك، ما دمت مخيراً، ما دمت في الحياة الدنيا، ما لم تغرغر:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

الإنسان مخير، وهذا الاختيار مؤقَّت، فرصة ذهبيةٌ لا تعوَّض، مثلاً إذا ظهر إعلان بالجريدة: أنه من يحب أن يشتري سيارة بمئة ألف ـ مر سيدس مثلاً ـ ومعكم أربعة أيام للاكتتاب . ستجد تقريباً مليون شخص ينتظرون فوق بعضهم، لأنها فرصة لا تعوض، بمئة ألف لا توجد مرسيدس ؛ فرضاً:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

حينما يأتي الموت ينتهي الاختيار:

الآن حينما يأتي الموت ينتهي الاختيار:

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا)

في قلعة، في بيت فخم، في أعلى منصب، في صحة، في مَنَعَة، في قوة، في أتباع:

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا)

لا تأمن الموتَ في طرفٍ ولا نفـس وإن تمنَّعت بالحجَّاب والـحرس
فما تزال سـهام الموت نافذةً في جنب مدرعٍ منـها ومترس
أراك لست بوقَّافٍ ولا حـذرٍ كالحا طب الخابط الأعواد في الغلـس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكهـا إن السـفينة لا تجري على اليبس

***

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا)

قبل العرس بيوم:

(يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً)

بعد نيل الدكتوراه، قبل أن تعلنها للناس، ولو بأصعب وضع:

(يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً)

انعدام الحاجز الذي يمنع الموت من الدخول علينا:

الآن في أي مكانٍ تكون، وفي أية مكانةٍ تكون، كل مخلوقٍ يموت ؛ ملك يموت، خفير يموت، غني يموت، فقير يموت، صحيح يموت، حاكم يموت، محكوم يموت، نبي يموت، كافر يموت، لا يستثنى من هذا الموت أحد:

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً)

ليس هناك حاجزٌ يمنع لك الموت من الدخول، يروى أنه في عهد سيدنا سليمان كان يجلس عنده شخص، فرأى أحدهم يحدِّق فيه تحديقاً غير طبيعي، قال: يا سليمان من هذا الذي يحدق بيَّ ؟ قال: هو ملك الموت ـ فانخلع قلبه، وقال له: خذني إلى طرف الدنيا الآخر ـ من شدة الخوف ـ هكذا تروي القصة الرمزية ـ أرسله إلى الهند على بساط الريح فقبضه ملك الموت بعد يوم هناك، فلما التقى سليمان بملك الموت قال له: يا ملك الموت لماذا كنت تحدِّق فيه ؟ قال: لأنه معي أمر بقبض روحه في الهند، ما الذي جاء به إلى هنا ؟

الإنسان يذهب أحياناً وفي المطار يتوفى، فرصة العمر ذهب إلى أمريكا ـ بنظر الناس طبعاً، قد تكون جهنم وبئس المصير ـ ذهب إلى هناك جاءه ملك الموت في المطار، قبل أن يدخل المدينة:

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا)

في الطائرة ؛ كان ذاهباً ليحضر احتفال هو وزوجته وأخت زوجته وقعوا في البحر وماتوا:

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً)

بطائرة، بسيارة، بباخرة، بالبحر، بالبر، في مكتبه، في غرفة نومه، في الحرب، في السير، في احتفال، في المسجد . قبل عدة أشهر بعدما انتهت الخطبة، قال بعض الأخوة: رجل جالس في القاعة مات أثناء الخطبة . وهو في الجامع:

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً)

الإنسان هو المخلوق الأول خُلِق لجنةٍ عرضها السماوات والأرض:

في أية مكانةٍ كنت، وفي أي مكانٍ كنت، لا يوجد مكان يستعصي على الله عزَّ وجل:

(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

نحن الآن نتمتَّع بحرية الاختيار، وهذه الحرية قد تكون سبباً لسعادة أبديَّة، يجب أن نستغلّها، يجب أن نعرف من نحن، فالإنسان هو المخلوق الأول، خُلِق لجنةٍ عرضها السماوات والأرض:

((ابن آدم خلقتك لنفسي وخلقت كل شيء لك فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك))

[من شرح الجامع الصغير]

((عبدي خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن، أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين، لي عليك فريضة، ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً، أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد))

[ورد في الأثر]

(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

حينما تؤمن بقدرة الله عزَّ وجل تقف عند حدوده:

قال الله عزَّ وجل :

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة الأعراف)

المتانة صفة تقاوم قِوى الشَد، والقساوة صفة في العناصر تقاوم قِوى الضغط، فالألماس قاسي، أما الفولاذ متين، حبل من الفولاذ قطره ميليمتر يحمل مئتي كيلو، لذلك كل المصاعد الكهربائية والتليفريكات كلها بحبال الفولاذ، قال الله:

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة الأعراف)

أي مهما ظننت أنك قوي، وطليق، وذكي، تصبح بثانية واحدة في قبضة الله، فالإنسان لو تجمَّدت قطرة صغيرة، كمية من الدم لا تزيد عن رأس دبوس في بعض شرايين المخ لشلَّت قِواه، أو لفقد بصره، أو فقد النُّطق، أو فقد الحركة .

(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

حينما تؤمن بقدرة الله عزَّ وجل تقف عند حدوده:

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

المكان لا يقدس بذاته بل يقدسه الله عزَّ وجل :

قضية تحويل القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام تركت هَزَّةً في أوساط مكة، ذلك لأن المكان لا يقدس بذاته، بل يقدسه الله عزَّ وجل، وقد ذكرت لكم في الدرس الماضي أن الله أمرنا أن نقبِّل الحجر الأسود، لا لأنه عظيمٌ في ذاته، بل لأن الله أمرنا أن نقبِّله فصار عظيماً، وأمرنا أن نرجم حجراً آخر رمزاً لإبليس، فالشيء لا يكون مقدساً في ذاته، ولكن يقدس لأمر الله فيه، نحن عندنا دائماً قواعد: في عندنا أمر مصلحي وأمر إيماني، أحياناً تتحقَّق مصلحتك في هذا العمل فتفعله، فأنت نفَّذت أمراً مَصلحياً، أُمرت أن تشتري هذه العملة لأنها سوف ترتفع مثلاً هذا أمر مصلحي .

الأمر الإيماني لا علاقة له بمصلحتك إطلاقاً، الله عزَّ وجل أمرك، وكل أمر إلهي علَّته أنه أمر إلهي، أمر خالق الكون، فكل ما تعرف عن الله عزَّ وجل من عظمةٍ، وحكمةٍ، وعدلٍ، ورحمةٍ، ورأفةٍ في هذا الأمر . فقريش كانت تقول: هذه الكعبة ليست بيت الله بل هي بيت آبائنا وأجدادنا . وكانت مزروعةً بالأصنام التي تُعبد من دون الله، فربنا عزَّ وجل أراد أن يُهمل هذا البيت مؤقَّتاً، وأن يصرف الناس عنه إلى بيت المقدس، فلمَّا آن الأوان أن يعودوا إلى بيت الله الحرام، جاء الأمر بتحويل القِبلة، فهذا أمر إيماني، أي يجب أن نطبِّقه بصرف النظر عن فهمنا له .

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)

الحق ما يأمره الله عزَّ وجل . هذا أمر إلهي، إلهي إذاً حق، فمثلاً أحب مريض أن يأكل أكلاً معيناً فقال له والده، أو قريبه: الطبيب قال لك هكذا ؟ يقول: نعم . انتهى، شيء بديهي، أقال الطبيب لك هذا ؟ إذا كان الطبيب قال، والطبيب موثوق، وعلمه بدرجة عالية، وهو الخبير بجسم الإنسان فالأمر انتهى، هذا الشيء نفعله نحن مع بعضنا دون أن نشعر، أسألت الخبير وقال هكذا ؟ نعم . أين

أخذت الآلة ؟ للوكالة. أهكذا نصحوك أن تعمل؟ نعم، انتهى الموضوع، فبتصليح الآلات، بمعالجة الأجسام، إذا كنت واثقاً من الخبير وأعطاك أمراً تنفذه طواعية وأنت مرتاح، لأنه خبير، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

تحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة المكرَّمة أمر إيماني لحكمةٍ يراها الله عزَّ وجل:

قال تعالى:

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)

أمر إيماني، فما معنى قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (70))

(سورة الأحزاب)

وقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً (6))

(سورة التحريم الآية: 6)

أي يا من آمنتم بي، يا من آمنتم بعلمي، يا من آمنتم بخبرتي، يا من آمنتم بحكمتي، يا من آمنتم برحمتي، يا من آمنتم بعدلي، يا من آمنتم بحبي لكم افعلوا كذا . هذا أمر إيماني، أي كلَّ ما تعرف عن الله عزَّ وجل في هذا الأمر، إذا الخبير قال انتهى الأمر، إذا الرحيم قال انتهى الأمر، إذا العليم قال انتهى الأمر :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

هذا الأمر الإيماني، فتحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة المكرَّمة أمر إيماني لحكمةٍ يراها الله عزَّ وجل:

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)

الحق هو الشيء المستقر الذي لا يتزعزع :

الله هو الحق، وأمره حق، وكتابه حق، ورسوله حق، ووعده حق، ووعيده حق، والجنة حق، والنار حق . الحق الشيء المستقر الذي لا يتزعزع، الشيء الهادف، الشيء النبيل:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

(سورة التغابن الآية: 3)

أي أن الحق لابس خلق السماوات والأرض، فالحق الشيء الذي لا يزول . حق الشيء استقر، والأمور لا تستقر إلا على الصحيح . الآن خذ كرة وضع بداخلها قطعة رصاص ودحرجها، لا

تستقر إلا وقطعة الرصاص في أسفلها ـ بحسب قانون الجاذبيَّة ـ قد تدور، وقد تنطلق من مكان إلى مكان، ولكنها حينما تستقر لا تستقر إلا وقطعة الرصاص نحو الأرض:

(وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

هذه البلبلة، وهذا الانتقاد، وهذا الإرجاف في المدينة، هذا كله بعلم الله عزَّ وجل . الكافر دائماً عدوٌ للحق، يخلق الفِتن، ويثير الضلالات، ويثير الشهوات والشُبهات، ويعترض، وينتقد، ويطعن، ويتساءل، ويحرج .

توجُّه المسلمين في العالم كلّه إلى القبلة:

قال تعالى:

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ)

توجُّه المسلمين في العالم كلّه إلى القبلة هذا الشيء يدل على أن المسلمين لهم إلهٌ واحد، وبيتٌ واحد يعبدون الله فيه، ونبيٌ واحد، وكتابٌ واحد، وهم على قلبٍ واحد، هذا هو الأصل أو هذا ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون في العالم كله، أما حينما يختلفون، ويضعُفون، وحينما يتنازعون فيفشلون، هذا وضعٌ غير طبيعي .

(لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ)

أي إنكم حينما تنساقون لأمر الله، وتذكرون أن الله يأمر وينهى، وما المؤمن إلا خاضع لهذا الأمر، ومحكوم به، أسقطتم حُجة المعترضين بهذا .

(إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ)

أي أن هذا الذي يقحم نفسه في أن يكون في خندقٍ معادٍ للحق، هذا ظالم كبير، فأكبر ظلم أن تناوئ أهل الحق، أو أن تعترض على حكم الله، أو أن تشكك الناس بكمال الله، أو أن تشكك الناس بأحقّية الدين، أو أن تطعن برسول الله عليه الصلاة والسلام .

سمعت أن هناك الآن أسئلة في الإنترنت: ما دام النبي كاملاً لمَ يقول الله له: فاستغفر لذنبك . إذاً هو مذنب، استنباطات شيطانية، مع أن الذنب الذي قال عنه العلماء في هذه الآية: أنه كلما أقبل على الله انكشفت له حقيقةٌ إلهية لم تكن معروفةً عنده، فيستحي من رؤيته السابقة، وهذا هو ذنبه، هو في رقي مستمر، فكلما كشف له حقيقةٌ عن الله عز وجل استحيا برؤيته السابقة، هذا معنى ذنب رسول الله عليه الصلاة والسلام .

الأمر بيد الله عز وجل :

أشقى الناس هو الذي يضع نفسه مناوئاً للحق، معادياً لأهل الحق، طاعناً في دين الله، مفنّداً لبعض ما في كتاب الله، هذا إنسان شيطان .

(إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ)

حينما نصبوا أنفسهم أعداء للحق هؤلاء ظلموا أنفسهم . جندي بسيط، أو نفر بسيط يهاجم أقوى دولة، وهي تنهيه بثانية، تنهي وجوده كله، عندما يطمح الإنسان أن يناوئ دولة قوية وهو لا يملك أيّ سلاح، معنى ذلك أنه ينتحر، فهذا إنسان ظالم، ظلم نفسه أشد الظلم، هذا فيما يتعلق بالبشر، فكيف يكون الإنسان عدواً لله، عدو خالق السماوات والأرض، عدو أنبياء الله، عدو كتب الله ؟ فهذا ظالم فقال :

(إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي)

مهما بدوا لكم أقوياء هم ضعفاء، هم: كن فيكون زل فيزول .

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً)

(سورة يس الآية: 29)

إذا أراد أحدنا قتل حشرة صغيرة، فهل يحتاج إلى استنفار ؟ كلها ضربة واحدة، حشرة صغيرة لو أردت أن تقتلها فلا تحتاج منك إلا ضربة واحدة، هذا هو المعنى بالضبط:

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً)

(سورة يس الآية: 29)

تصور لعبة السيارات الكهربائية، كل واحد يركب سيارة ويسوقها بقوة، ويضرب رفيقه، وأنت معك قاطع الكهرباء، لو أنزلته لقطعت الكهرباء ولجمد كل السائقين بمكانهم، حركة صغيرة أوقفت كل حركة، هكذا الأمر بيد الله عز وجل .

في بعض معامل الحديد، رافعات مغناطيسية كهربائية، فمثلاً قطعة مسطحة فرضاً خمسة بخمسة، محاطة بوشيعة كهربائية، فحينما يسري تيار الكهرباء في الأسلاك، يتشكل مغناطيس كهربائي يحمل مئة طن، فينقل الحديد من مكان إلى مكان، أما هذه المئة طن لو ضغط عامل الرافعة على الزر أقل من ربع مليمتر وقطع الكهرباء، كله يقع . فتصور هذا المثل، قول الله عز وجل كن فيكون زل فيزول .

الهدى من تمام النعمة التي أنعم الله بها على الإنسان:

الذي يعادي الله عز وجل، يعادي الدين، يقف له موقف المشكّك، يطعن بأهل الحق، يصور الدين شيئاً قديماً متخلّفاً، يحاول أن يغري الناس بالدنيا، أن يزهدهم بالآخرة، هذا يتصدى للحق، قال :

(إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ)

مهما بدوا أقوياء هم ضعفاء، هم بكلمة ينتهون:

(فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

قال العلماء: تمام النعمة الهدى ؛ فالصحة نعمة، والكفاية نعمة، والزوجة نعمة، والبيت نعمة، والسمعة الطيبة نعمة، ولكن هذه النعم كلها زائلة بالموت، تمامها أن تهتدي إلى الله، لأنك إن اهتديت إليه سعدت في الدنيا والآخرة .

(وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

إلى الجنة، إن أتممت نعمتي عليكم وصلتم إلى الجنة، ثم يقول الله عز وجل :

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ)

منكم، أولاً من بني البشر، ثانياً من قبيلتكم، تعرفون صِغَرَهُ، يوم كان طفلاً صغيراً، ثم شبابه، ثم كهولته، كيف كان أميناً وصادقاً، وكيف كان عفيفاً، كل هذه المكارم الأخلاقية التي كان بها دليل أنه كان صادقاً مع الله .

في الآية التالية اتصال بالله وتزكية وهناك منهج تفصيلي أي كتاب وسنة:

قال تعالى:

(رَسُولاً مِنْكُمْ)

أولاً من بني البشر، ثانياً من أمتكم عربي، من بلدتكم، تعرفون نسبه وحسبه .

(يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا)

الدالة على الله عز وجل :

(وَيُزَكِّيكُمْ)

يطهركم من الشرك، من الشك، من الشهوة، من الكذب، من الفجور، من إساءة الجوار، من انتهاك الأعراض، من الحقد، من الشح، يزكيكم أساس الدين التزكية .

(يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)

الكتاب هو القرآن، والحكمة هي الحديث، صار هناك في الدعوة آيات كونية، أو تكوينية، هذه دالة على الله عز وجل، وهناك اتصال بالله وتزكية، وهناك منهج تفصيلي؛ كتاب وسنة، هذا من أدق الآيات:

(يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)

النبي الكريم جاء وهدانا إلى الله فعلينا أن نشكر الله عز وجل وندل الناس عليه:

أنتم ماذا ينبغي أن تفعلوا بعد هذا الفضل العظيم ؟ قال :

(فَاذْكُرُونِي)

أي كما جاء النبي وهداكم إلى الله، ينبغي أن تشكروا الله عز وجل، وأن تدلوا الناس على الله:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)

لذلك :

((إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في مَلأٍ ذكرته في مَلأٍ خيرٍ منه))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

قال:

(فَاذْكُرُونِي)

أي :

(أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران الآية: 102)

قال: **" أن تذكره فلا تنساه، وأن تطيعه فلا تعصيه، وأن تشكره فلا تكفره "**، هذا معنى:

(أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران الآية: 102)

أهم شيء في الدين التزكية:

قال تعالى:

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً)

وقال:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة آل عمران)

طبعاً هناك آيتان، هذه الآية :

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آَيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)

إخواننا الكرام، أهم شيء في الدين التزكية، لأنه عندما أثنى ربنا عز وجل على النبي عليه الصلاة والسلام قال:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم)

الخلق الحسن ذهب بخيري الدنيا والآخرة .

لن نستطيع التقرب إلى الله إلا بكمالٍ مشتقٍ منه من خلال اتصالنا به:

العبرة أن تكون عفيفاً، صادقاً، أميناً، مُنصفاً، حليماً، عفواً، رحيماً، متواضعاً، بهذا تتقرَّب من الله، وما معنى قوله تعالى:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف الآية: 180)

أي أنكم لن تستطيعوا أن تتقرَّبوا إلى الله إلا بكمالٍ مشتقٍ منه من خلال اتصالكم به:

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152))

لذلك يقول الله عز وجل :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء الآية: 147)

أي أنك حينما تؤمن، وحينما تشكر، حققت الهدف من وجودك .

إذا آمنت وشكرت حققت الهدف من وجودك:

هذه الآية دقيقة جداً :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

(سورة النساء الآية: 147)

منحك الله عز وجل الوجود، منحك الكون، منحك الزمن، منحك الحرية، منحك العقل، منحك الفطرة، منحك الشرع، منحك الشهوة، منحك الاختيار، هذا ينبغي أن تشكره عليه .أو بمثل آخر، قدم لك إنسان هدية آلة ثمينة، فأنت بين الإعجاب بصنعته ـ هي من صنعه ـ وبين أن تشكره على أنها هدية، ينبغي أن ينتابك شعورين ؛ شعور الامتنان وشعور التعظيم، أنت حينما تؤمن وتشكر حققت الغاية من وجودك، بل إن الله قد سخَّر لك الكون تسخيرين ؛ تسخير تعريف، وتسخير تكريم، رد فعل التعريف أن تؤمن، ورد فعل التكريم أن تشكر، فإذا آمنت وشكرت حققت الهدف من وجودك .

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153))

هذه معيةٌ خاصة ؛ معهم بالنصر، والتأييد، والحفظ، والتوفيق، هذا الذي يصبر يعرف الله، الصبر معرفة، تماماً كما لو جلس إنسانٌ على كرسي طبيب الأسنان، وكان إنساناً بالغاً عاقلاً راشداً، وعنده مشكلة بقلبه لا تسمح للطبيب أن تعطيه مخدراً، أبلغه ذلك، سوف يقلع هذا السن، وهناك ألمٌ شديد، ولكن التخدير يؤذي قلبه، فلأن هذا المريض عاقل، وراشد، ويعرف مصلحته، يثق بالطبيب، تحمَّل هذا الألم، فالتحمُّل دليل معرفة، فمعنى الصبر أنك تعرف الله، تعرف حكمته، وتعرف رحمته، وتعرف عدله، وتعرف أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، لهذا تصبر .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ)

الصبر صبر، أما الصلاة إقبال، فإذا حرمت الدنيا ووصلت إلى الله، هذا الوصول ينسيك كل الدنيا، استعن بالصبر، الصبر سلبي، ولكن أداء الصلاة إيجابي، أنت حرمت نفسك من هذا الكأس، لكن هناك شراباً أطيب، تركت شيئاً لله فجاءك خيرٌ منه .

(اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

معهم معية خاصة، معهم بالحفظ، والتوفيق، والتأييد، والنصر .

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (50- 95):تفسير الآيات 154-155 ، امتحان الله للمؤمن ولوازمه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-07-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

الأموات أحياء بكل معاني هذه الكلمة :

(وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)

هم أحياءٌ بكل معاني هذه الكلمة، بكل خصائص الحياة، بكل أبعاد الحياة، بكل أسباب الحياة، بكل ثمار الحياة، أحياء، لذلك الخطأ الشنيع أن تقول: فلان فقيد، هو لم يُفقد هو بكيانه، بخبراته، بمعنوياته، بذاكرته، لكن الذي يختفي وعاؤه الذي كان فيه، هذا الجسد، تماماً لو خلع أحدكم ثيابه وارتدى ثياباً جديدة، هل يفتقد ؟ هو بجسمه، وشحمه، ولحمه، وعظمه، ودمه، وحواسه، وعقله، وفكره..

(وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)

أنتم ماذا ترون ؟ ترون الجسم قد فني، ترون اللحم قد تفسَّخ، ترون القوام قد وضع في القبر، ولكن هل ترون نفسه ؟!!

حالة الإنسان بعد الوفاة :

النبي عليه الصلاة والسلام عقب معركة بدر، نادى كبار المشركين الذين قتلوا: **يا أمية ابن خلف، يا عتبة، يا فلان، يا شيبة ـ بأسمائهم واحداً وَاحداً ـ هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، لقد كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس "، قالوا: " يا رسول الله أتخاطب قوماً جيفوا؟!" قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ". هم يسمعونني.**

درس بعض العلماء حالة الإنسان بعد وفاته ـ هناك في العالم حالات نادرة جداً ـ كإنسان توقف قلبه لدقائق ثم عادت له الحياة، التقوا به، هذا الذي مات مؤقتاً قال شيئاً لا يصدق: **" رأينا نفوسنا فوق أجسامنا محلقة في الهواء، وتذكرنا كل أعمالنا، وقيَّمناها كلها بمقدار خدمة الناس."**

أي أن مئات من الناس الذين ماتوا موتاً مؤقتاً، على اختلاف مللهم ونحلهم ودياناتهم وأعراقهم وأجناسهم أمروا بالحقائق التي جاء بها الأنبياء.

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

[سورة ق الآية: 22]

الخيار مع الإيمان خيار وقت :

والأدق من ذلك أن الذي يعد أكفر كُفَّار الأرض الذي قال:

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات الآية: 24]

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص الآية: 38]

هذا نفسه قال عندما جاءه الموت:

(قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

[سورة يونس الآية: 90]

الخيار مع الإيمان خيار وقت، إما أن تؤمن قبل فوات الأوان فتنتفع بإيمانك، وإما أن تؤمن بعد فوات الأوان فلا تنتفع بإيمانك، ولكنك بالنهاية لا بد من أن تؤمن، ولكن متى ؟ البطولة أن تؤمن وأنت حيٌ ترزق، والغباء والحمق أن تؤمن بعد فوات الأوان.

البطولة أن تضحك أخيراً :

ما قولكم بطالب أدى امتحاناً فنال صفراً في المواد كلها، ورسب، وبعدها رجع إلى البيت، وقرأ أجوبة كل الأسئلة، تقدم بطلب إلى وزير التربية: أنه يرجى إدراجي مع الناجحين، لأنني عرفت كل الأسئلة وأجوبتها بالتمام والكمال. متى عرفتها ؟ بعد الامتحان، مستحيل. فالخيار مع الإيمان خيار وقت:

(وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)

دقق في كلام سيدنا علي: يا بني مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة.

ذكرت اليوم في كلمة ألقيتها، أن الإنسان حينما يولد، كل من حوله يضحك وهو يبكي وحده، مفارقة، هو يبكي، وكل من حوله يضحك فرحاً بقدومه، أما حينما يموت كل من حوله يبكي، فإذا كان بطلاً يضحك وحده، ومن يضحك أخيراً يضحك كثيراً، ومن يضحك أولاً يبكي كثيراً.

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

[سورة المطففين الآية: 34]

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ*إِنِّي جَزَيْتُهُمْ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمْ الْفَائِزُونَ)

[سورة المؤمنون]

لا تستقيم على أمر الله إلا بالإيمان :

الآية الأخرى:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

[سورة المطففين الآية: 34]

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

[سورة آل عمران الآية: 169]

(وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)

أيها الأخوة، المشكلة أنك إن لم تؤمن باليوم الآخر، وإن لم تؤمن بهذه الحياة الأبدية التي لا نهاية لها، إن لم تؤمن بهذه الحياة، وإن لم تؤمن بيومٍ يدفع الإنسان ثمن كل أعماله، إن لم تؤمن بيوم الحساب، إن لم تؤمن بيوم الجزاء، إن لم تؤمن بيوم الدينونة، إن لم تؤمن بيوم القيامة، إن لم تؤمن بيوم الفَصل، إن لم تؤمن بالحاقَّة، إن لم تؤمن بالقارعة، إن لم تؤمن بيوم الطامَّة الكبرى، لا تستقيم على أمر الله.

إذا آمن المواطن أنه لا بد أن يحاسب في موضوع ما ينضبط، إذا أيقن أنه لا تخفى على واضع القانون خافية، ولا بد من أن يضبطه، وأن ينزل به أشد العقاب، يستقيم، فكيف مع الله عز وجل ؟!

الابتلاء امتحان وليس شراً :

أيها الأخوة، الآية الثانية :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

لا بد من كلماتٍ بين يدي هذه الآية، الابتلاء ليس شراً، كيف أن الناس يفهمونه شراً لا أدري، الابتلاء امتحان، ما هو الشر ؟ أن تسقط في هذا الامتحان. فإذا نال شخص أعلى شهادة، تربَّع على أعلى منصب بسبب شهادته، وله دخلٌ خيالي بسبب شهادته، هذه الأيام العصيبة التي دخل فيها الامتحان هل يراها شراً ؟ لولا هذا الامتحان لما نال هذه الشهادة، ولما كان في هذا المنصب، ولما كان له هذا الدخل الكبير، هل يعد هذا الإنسان الامتحانات التي خاضها شراً ؟ أعوذ بالله، بل هي خيرٌ محض.

الابتلاء هو الامتحان، لماذا الامتحان ؟ من لوازم الإعداد الابتلاء، إنك عندما تعد طالباً ليكون طبيباً لا بد من أن تمتحنه، إنك حينما تعد إنساناً ليكون قائداً عسكرياً لا بد من أن تمتحنه، إنك حينما تعد إنساناً ليكون محامياً لا بد من أن تمتحنه، كلمة إعداد من لوازمها الامتحان.

الامتحان من لوازم الإعداد:

نحن في حياةٍ دنيا، أهم ما في هذه الحياة أنها إعداد لحياة عليا، هذه الحياة الدنيا المحدودة القصيرة المفعمة بالمتاعب، هي إعداد لحياة عُليا أبدية لا نغص فيها ولا نصب، إذاً لا بد من الامتحان. فأول نقطة بالدرس أن الامتحان من لوازم الإعداد، وما دمنا نُعَدُّ في هذه الحياة لليوم الآخر ؛ لجنة عرضها السماوات والأرض إذاً لا بد من أن نمتحن، والدليل قوله تعالى:

(وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون الآية:30]

هذا من سنن الله في خلقه، إيَّاكم أن تتوهموا أنه يمكن أن تعيشوا حياةً مديدة من دون ابتلاء، وكل إنسانٍ له مادة امتحان مع الله، قد تمتحن بالخير:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً)

[سورة الأنبياء الآية: 35]

وقد تمتحن بالشر، قد تمتحن بالعطاء وقد تمتحن بالأخذ، قد تمتحن بالغنى وقد تمتحن بالفقر، قد تمتحن بالصحة وقد تمتحن بالمرض، قد تمتحن بالوسامة وقد تمتحن بالدمامة، قد تمتحن بالقوة وقد تمتحن بالضعف، لا بد للمؤمن من مادة امتحانٍ مع الله، إما أن تمتحن فيما أعطاك، وإما أن تمتحن فيما سلبك، على كلٍ امتحان.

آيات من الذكر الحكيم تبين أن الإنسان ممتحن في كل أطوار حياته :

قال تعالى:

(وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون الآية:30]

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت الآية: 2]

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)

[سورة آل عمران الآية: 142]

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

[سورة آل عمران الآية: 92]

إذاً يجب أن توطّن نفسك على أنك ممتحن في كل أطوار حياتك ؛ أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي ـ رسب في الامتحان ـ قال: ألم تعلم أني الرزاق القوي المتين، إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم. سأل عبد آخر: أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ قال: يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين لثقتي بأنك خيرٌ حافظ وأنت أرحم الراحمين. قال: يا عبدي أنا الحافظ لأولادك من بعدك.

الامتحان من خصائص الحياة الدنيا :

أيها الأخوة... يجب أن نؤمن جميعاً أن الامتحان من خصائص الحياة الدنيا، كما يجب أن يؤمن أي طالب في العالم أن الامتحان من خصائص المدرسة، هل رأيتم أو سمعتم في العالم كله جامعة بلا امتحان ؟ مستحيل، هل هناك جامعة تنتسب إليها وبعد مضي زمن محدد تمنح الدكتوراه من دون امتحان ؟ أنت تقدم طلباً فتُمنح الدكتوراه، مستحيل، من لوازم التعليم في العالم كله الامتحان، والإعداد في العالم كله من لوازمه الامتحان، فإذا كانت الدنيا دار ابتلاء، دار إعداد للآخرة فمن لوازمها الامتحان:

(وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون الآية:30]

الامتحان ليس شراً ولا خيراً، خير إذا نجحت فيه وشر إذا رسبت فيه، حيادي، أنت مخير، لا خير ولا شر، كما قلت قبل قليل: إنسان ينعم بدخل فلكي، لأن معه شهادة نادرة، لأنه دخل امتحانات صعبة ونجح فيها، هل يعد الامتحان شراً له ؟ بالعكس، كل هذه المكانة مع كل هذا الدخل لأنه نجح في الامتحان، وإنسان رسب في الامتحان، الامتحان شر له، فالامتحان صفة مطلقة لا خير ولا شر، ليس خيراً ولا شراً، الامتحان شر إذا رسبت فيه، وخير إذا نجحت فيه.

المؤمن رابح في جميع الأحوال :

قد تبتلى بالخير:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً)

[سورة الأنبياء الآية: 35]

وقد تبتلى بالشر. قد تبتلى فيما أعطاك وقد تبتلى فيما منعك، لذلك ورد في بعض الأدعية: **" أن يا رب ما رزقتني مما أحب فاجعله عوناً لي فيما تحب، وما زويت عني ما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب".** في الحالتين المؤمن رابح:

((عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ إِنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبُّ حَمِدَ اللَّهَ وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ.))

[أحمد عن صهيب].

((إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ وَكَانَ خَيْرًا وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ وَكَانَ خَيْرًا))

[أحمد عن صهيب].

قال بعض العلماء: **بستاني في صدري، فماذا يفعل أعدائي بي ؟ "** أي أن سعادتي من داخلي، أما أهل الدنيا سعادتهم من مركباتهم، من بيوتهم، من دخلهم، من صحتهم. سعادة أهل الإيمان تنبع من داخلهم، والسعادة مستقرة ومستمرة ومتنامية، ولكن اللذات مؤقتة، ومتدنية، ومتلاشية، لذلك جعل الله عز وجل من خصائص الحياة الدنيا الابتلاء، قد تعطى المال وتسلب منك بعض الصحة، ماذا تقول ؟ تعطى الصحة ويؤخذ منك المال، تعطى الصحة والمال ولك زوجة لا ترضيك، تعطى زوجة ترضيك وأولاداً ليسوا كما تريد، أولادٌ كما تريد الدخل لا يعجبك، الدخل يعجبك هناك مشكلات بالصحة، الصحة طيبة ولكن هناك مشكلات بالعمل:

(وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون الآية:30]

حياة المؤمن فيها تأديب وابتلاءٌ وإكرام :

حينما توطّن نفسك على أن هذه الدنيا دار ابتلاء تسعد بها، فإذا وطّنت نفسك على أن هذه الدنيا دار نعيم تشقى بها، إن أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها، وإن أشقاهم فيها أرغبهم فيها:

(وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون الآية:30]

سئل الإمام الشافعي: يا إمام أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ قال: لن تُمَكَّن قبل أن تبتلى.

حياة المؤمن لا تخلو من تأديب إذا أخطأ، ولا تخلو حياته من ابتلاء إذا هو استقام، مستقيم ويبتلى، ماذا يقول ؟ ولا تخلو حياته من إكرام إذا هو صبر في الابتلاء، أي أن الله أدبه فتاب، تاب واستقام، ابتلاه وصبر الآن إكرام، كأن حياة المؤمن فيها تأديب وابتلاءٌ وإكرام، بمراحل ثلاث متداخلة أو متمايزة.

لماذا الابتلاء ؟ هنا السؤال دقيق، هذه الآية دقيقة جداً، هذه الآية خاصةٌ بالمؤمنين، هذه الآية خاصةٌ بمصائب المؤمنين. مصائب الكفار مصائب ردعٍ، أو مصائب قصمٍ، لكن مصائب المؤمنين مصائب دفعٍ إلى الله، ورفعٍ في الدرجات، دفع ورفع، فهناك فرق.

مثال يبين أن مصائب المؤمن مصائب دفع ورفع ومصائب الكافر مصائب قصم وردع :

ذكر لي أحد إخواننا الأطباء الذين يعملون في مستشفى، أنه جاء مريض مصاب بورم خبيث في الأمعاء، يقول لي الطبيب: ما رأيت في حياتي مريضاً راضياً عن ربه متفائلاً صابراً شاكراً كهذا المريض، كلما دخل عليه زائر يقول له: اشهد أنني راضٍ عن الله، يا رب لك الحمد على هذا المرض. قال لي: إذا قرع الجرس يتنافس الأطباء على الدخول عليه والممرضين في خدمته، ما سمعوه يتأوه ولا يتألم علماً أن آلام هذا المرض لا تحتمل، بل رأوه صابراً مستبشراً ورائحته طيبة عطرة. قال لي: والله عشنا عدة أيام ونحن في جنة مع هذا المريض ـ المصاب بورم خبيث في الأمعاء ـ ثم توفاه الله عز وجل. قال لي: لحكمةٍ بالغةٍ بالغة، ولدرسٍ بليغ أراد الله أن يلقنه لمن في المستشفى، جاء مريض آخر بالمرض نفسه ـ ورم خبيث بالأمعاء ـ قال لي: لم يبقَ هناك نبي لم يسبه، كلمات الكفر لا تخلو من شفتيه، رائحته نتنة، عصبي المزاج، هرب الممرضون من خدمته، تحاشى الأطباء أن يدخلوا عليه، ثم مات ـ المرض واحد ـ المرض نفسه ؛ شخص كان مبعث جذب للناس، مريض مبعث راحة لهم، وكان متفائلاً ومستبشراً، والآخر بالعكس.

قرأت بحثاً علمياً فيه شيء لا يصدق عنوانه (بوابّات الألم) يذكر أن الآلام التي نحس بها تبدأ من الأعصاب الخارجية ـ أعصاب الحس ـ أعصاب حسية بالدرجة الأولى، تنقل هذه الأعصاب الإحساس إلى النخاع الشوكي، ثم إلى قشرة الدماغ، هناك بوابات على هذا الطريق الطويل ـ طريق الآلام ـ من يتحكم بهذه البوابات ؟ لو أن هذه البوابات أغلقت لانقطع الألم. قال العلماء: يتحكم بهذه البوابات الحالة النفسية للمريض. فإذا كان مؤمناً قد لا يتألم أبداً.

العطاء أحد أكبر أعمال المؤمن في الحياة :

السؤال الآن: لماذا الابتلاء ؟ نحن كما تكلمنا قبل قليل يحتاج التعلم للامتحان، ويحتاج الإعداد إلى امتحان، الدنيا إعداد للآخرة إذاً لا بد له من الامتحان.

هناك معنى آخر نحن بحاجة إليه: المؤمن جاء إلى الدنيا ليعمل عملاً صالحاً ـ كلام دقيق ـ طبعاً حينما يؤمن بالله، ويستقيم على أمره، ليس هناك في حياته شيءٌ يعلو على عملٍ صالحٍ يفعله ليكون ثمن الجنة. ماذا فعلت يا عبدي ؟ ما الثمن الذي دفعته لدخول الجنة ؟ الثمن هو عمل صالح، هو الإنفاق. قال تعالى:

(الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *)

[سورة البقرة]

إن أحد أكبر أعمال المؤمن في الحياة العطاء، الكافر عمله الأخذ، لدى النملة جهاز ضخ وجهاز مص، فإذا التقت بأختها النملة الجائعة، عندها جهاز ضخ ؛ يضخ لأختها النملة الجائعة خلاصة الغذاء، لدى النملة الجائعة جهاز مص، النملة تأخذ وتعطي، تمص وتضخ، الكافر يمص فقط، لا يضخ على الإطلاق، فلماذا الابتلاء ؟ أي أنك مخلوق لجنة عرضها السماوات والأرض، ثمنها العمل الصالح.

هناك معركة أزلية أبدية بين الكفر والإيمان :

هناك في الأرض مؤمن وكافر، ما معنى مؤمن وكافر ؟ أي أن هناك معركة بين الكفر والإيمان، بين الحق والباطل، بين الخير والشر، معركة أزلية أبدية من آدم إلى يوم القيامة، قد يقوى الكفار أحياناً، قد يجوع المؤمن، أحياناً تكون المقدَّرات بيد الكفار لحكمةٍ أرادها الله، المال بيدهم، الأعمال بيدهم، ولكن المؤمن لا يعصي الله عز وجل، لأن طاعة الله عنده فوق كل شيء، المؤمن في حياته الدنيا، بحسب معركة الحق والباطل الأزلية الأبدية، قد يحتاج إلى أن يجوع، فإذا ابتلاه الله عز وجل بالجوع، كيف يواجه هذه المعركة الشرسة ؟ مثلاً: إنسان دخله كبير، فجأةً يتلاشى دخله، فإذا عوَّد أهله على الحياة الخشنة من حين لآخر، والدخل قل، فهو يستطيع أن يعيش حياة خشنة إذا قلَّ الدخل، أما إذا لم يعود نفسه ولا أهله على الحياة الخشنة، ماذا يفعل ؟ إما أن يأكل الحرام، وإما أن يمالئ السُلطان، النبي قال:

((اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم))

[كشف الخفاء عن عمر]

أي وطن نفسك على الجوع، فإذا كنت بموقف صعب خُيِّرت بين أن تبيع دينك وبين أن تعيش حياة راقية، لا، لا أبيع ديني، أعيش حياة خشنة وأحافظ على ديني، فالله عز وجل أثنى على الأقوياء، والأقوياء هم الأغنياء، بالمعنى الدقيق والعلماء، لكن إذا كان طريق القوة المالية أن ترتكب الحرام، كلا فالفقر وسام شرف، وإذا كان طريق الغنى أن تفعل الحرام، الفقر وسام شرف، الضعف وسام شرف، والفقر وسام شرف.

الحكمة من وجود معركة بين الحق والباطل :

المشكلة أن المؤمن مخلوق لعملٍ صالحٍ جليل يجعله في جنة ربه إلى أبد الآبدين، هذا العمل الصالح يقتضي أن تخوض معركة الحق والباطل. لماذا هيأ الله أعداء للنبي صلى الله عليه وسلم سيد الخلق وحبيب الحق ؟ لو خلق الله أعداء النبي بأمريكا مثلاً لكان أريح، كلهم هناك في قارة بعيدة، لا يوجد إلا أصحابه، دعا إلى الله فآمنوا به، وذابوا محبةً به، وانتهى الأمر، ليس هناك هجرة، ولا بدر، ولا أحد، ولا خندق، ولا يوجد منافقون، ولا يوجد شيء أبداً، لكن دون معركة لا

توجد جنة، دون خصومات لا توجد جنة، ما الذي يرقى بالمؤمن ؟ الطرف الثاني يعاكسه فيرقى المؤمن.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ)

[سورة الأنعام الآية: 112]

حكمة بالغة، فأولاً: المؤمن في حياة إعدادية لحياة أخرى، وهو في مدرسة، ولا بد من أن يخوض معركة الحق والباطل، مستحيل، لا بد من أن تخوض معركة الحق والباطل، إذاً أراد الله عز وجل أن يهيِّئك لهذه المعركة فابتلاك بشيءٍ من الخوف، أحياناً يهددك إنسان، يلوح لك شبح مصيبة فتخاف، قد تخاف على صحتك، قد تخاف على دخلك، قد تخاف على سلامتك، قد تخاف على زوجتك وأولادك، فالخوف جزء من حياة المؤمن.

الخوف بيد الله ويمكن إزالة أسبابه بالتوحيد والإيمان :

قال تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ)

قد يأتي عدوٌ لك فيتهددك، هو بيد الله، فربنا عز وجل أراد أن تقوى معنوياتك، وأن تتدرب على تحدي الخوف، وأن تزيل أسبابه بالتوحيد والإيمان، فربنا عز وجل قال :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ)

هذا الخوف ينتهي من حياتك:

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج]

المتصل لا يخاف، المتصل أقوى إنسان لأنه مع الواحد الديَّان، المتصل بالله أقوى إنسان لأن الله عز وجل قال:

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

[سورة غافر الآية: 60]

معركة بين سيارات كهربائية ـ ألعاب الأطفال بالأعياد ـ يوجد مع المشرف حركة، فإذا قطع الكهرباء وقف كل شيء، فإذا كانت علاقتك مع هذا المشرف، واقترب خصم قطع الكهرباء فجمد كصنم بأرضه.

علاقة المؤمن طيبة مع ربه، هو ربَّاني، مستجاب الدعوة، وأكبر خصم له في قبضة الله، **" فإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ "**

علاج الخوف الصبر حتى يحكم الله :

يجب أن نؤمن أن الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات إعدادات وتدريبات على خوض معركة الحق والباطل، الصحابة الكرام أكلوا ورق الشجر في أثناء القطيعة التي فرضها عليهم المشركون، والآن ترون دولاً قوية جبارة طاغية تجعل شعباً محروماً من كل شيء، خمسمئة ألف طفل يموتون كل عام جوعاً في العراق، فالمعركة شرسة، يجب أن توطّن نفسك على أن الحق والباطل يتصارعان دائماً، فأنت داعية، وأنت مؤمن، وأنت لك باع طويل في خدمة الخلق، قد تحتاج إلى أن تكون صابراً، قد تخاف، علاج الخوف أن تصبر حتى يحكم الله:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

[سورة آل عمران الآية: 146]

الخوف والجزع نقاط ضعف لصالح إيمان المؤمن :

يدربك الله على أن تخوض معركة الحق والباطل، وأن تنجح في هذه المعركة، فهو يعطيك شيئاً من خوف، مثل للتوضيح: قد يهجم جرثوم على جسم فيفتك به، وينهي حياته، لكن كي نهيئ الجسم إلى مقاومة هذا الجرثوم نعطيه جرثوماً مضعفاً، خفيفاً، فالأجهزة المناعية تهيئ مصلاً مضاداً لهذا الجرثوم، فإذا حدثت هجمة شرسة قوية ، فالسلاح جاهز، ماذا فعلنا حينما حقننا تحت الجلد جراثيم مضعَّفة ؟ دربنا الجسم على صنع مصل مضاد لهذا الجرثوم.

كذلك الله عز وجل يخوفك، حتى إذا جاء الخوف الحقيقي تكون صامداً، لا تنهار، وأساس الإنسان أنه يخاف، يخاف لمصلحته، لأن أمنه عند الله، فإذا خاف يلجأ إلى الله، الإنسان سريع العطب، شديد الخوف، هكذا قال الله عز وجل:

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

[سورة المعارج]

قلبه مقطوع، كثير الجزع:

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)

[سورة المعارج]

هذه نقاط ضعف لصالحه، لصالح إيمانه.

التخويف من الله عز وجل علاج :

الإنسان يخاف فإذا لاح له شبح مصيبة أكبَّ على أعتاب الله، أقبل على الله، لاح له شبح مصيبة فالتجأ إلى الله، لو كان لا يخاف لم يلتجئ، فالخوف سبب لجوئه إلى الله وكل السعادة عند الله، ولكي يجلبك الله لعنده خوفك.

قال لي إنسان: كان الموسم جيداً جداً، وضعت خمسمئة ألف لكي أقضي شهراً بأمريكا لأتمتع على مزاجي، ولا يوجد عندي شيء حرام ـ هكذا قال لي بالضبط ـ وصل إلى هناك، شعر بآلام في الظهر فراجع طبيباً، قال له: سرطان بالنخاع الشوكي. فانهار، قطع رحلته، وعاد إلى بلده، يتردد من جامع إلى جامع، وتاب توبة نصوحاً، ثم تبين بعد ذلك أن التشخيص خطأ وأنه ليس مصاباً بشيء، الله عز وجل خوَّفه، لو أن الإنسان لا يخاف، هذا التخويف من الله عز وجل علاج.

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ)

هذا خوف لمصلحتك، فهو جعلك تماماً كآلة غالية جداً، ثمنها ثلاثين مليوناً، والكهرباء مضطربة، يقول لك: عندنا الكهرباء مئتين وعشرين، تأتي أحياناً مئة وخمسين، أحياناً تأتي مئة وعشرة، أحياناً قد تأتي مئتين وسبعين، فتحرق جميع الآلات، لذلك تجدهم يضعون في الآلات مصهراً ـ يسموه الفيوز ـ عبارة عن وصلة ضعيفة جداً، إذا كان التيار شديداً تنصهر وتقطع الكهرباء، فتحمي الآلة، فثلاثين مليوناً حفظتهم بهذا الفيوز، الإنسان هكذا بالضبط، يوجد عنده فيوز هو الخوف، متى جاءه شبح مصيبة ينهار رأساً فينقطع، فيدعو الله عز وجل، يتوب لله، لو لم يخف لا يتوب.

الخوف يرقى بالمؤمن :

صدقوني أيها الأخوة ولا أبالغ، إذا دخلت جامعاً ورأيت فيه خمسة آلاف شخص أربعة آلاف منهم أتوا إلى الله بعد مشكلة، بعدما خوفهم الله عز وجل، خوفهم فركضوا إليه، أحب أحدهم أن يداعبني ذات يوم فقال لي: ما ملخص دعوتك ؟ قلت له: كلها كلمتين إما إن تأتيه ركضاً لوحدك، أو أن يأتي بك ركضاً، بمصيبة:

((عجب ربنا من قومٍ يقادون إلى الجنة بالسلاسل))

[رواه أحمد والبخاري عن أبي هريرة]

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ)

يكون الإنسان خائفاً على صحته فيأخذ احتياطات، فحص تام، نبض، ضغط، فجأة يأتيه شيء من حادث سير، ما كان يخطر بباله، كلما أخذت أمناً، أخذت احتياطات ونسيت الله، فتفاجأ من باب لم تكن تحسبه، كلما أخذت احتياطاً من جهة تجد أن عند الله خيارات كثيرة، تأتي مشكلة لم تحسبها أبداً من جهة ثانية، يمكن أن يدمر الإنسان لأتفه الأسباب.

هل تصدق أن الإسلام كله وعظمته مبني على خيط عنكبوت ؟ خيط العنكبوت هذا على غار ثور منع المشركين أن يقتحموا الغار والنبي داخله، لو انتهت حياة النبي لانتهى الإسلام وقتها. فسلامة وعظمة هذا الدين وهو كالطود الشامخ ألفاً وخمسمئة عام سببه خيط عنكبوت.

أيها الأخوة، هذه مصائب المؤمنين، الخوف هذا يرقى بهم، وهناك كذلك خوف أرقى من هذا، فقد ورد: رأس الحكمة مخافة الله، حينما تخاف أن تنقطع صلتك بالله، فتتمسك بأهداب الشرع هذا خوف راقٍ جداً، ليس خوفاً من مصيبة، بل خوفاً من أن تنقطع عن الله، حريص على هذه الصلة مع الله، هذا الخوف الذي يرقى بك إلى الله عز وجل.

الله يعرف مأخذ كل إنسان وما يزعجه :

على كلٍ الخوف طبيعي، سيدنا موسى:

(فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ)

[سورة القصص]

كان جالساً مرتاحاً في قصر فرعون ولا يوجد عنده أية مشكلة، ولكنه محتاج إلى أن يرقى، فتورط مع القبطي، وكزه فقضى عليه، قال:

(قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنْ النَّاصِحِينَ)

[سورة القصص]

خوفه الله عز وجل، فركض إلى سيدنا شعيب، استقبله، زوجه ابنته، وعاد إلى فرعون رسولاً معه آيات، هذا الرُقي والقفزة العالية جداً سببها الخوف، لو لم يخف لما خرج من قصر فرعون.

ارتقى سيدنا يوسف بالسجن، لماذا ارتقى ؟ لأنه مكث بالسجن، قال لي أحدهم: خلوة مع الله. ماذا يفعل أعدائي بي ؟ إن حبسوني فحبسي خلوة، وإن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن قتلوني فقتلي شهادة.

هناك شخص يهزه الخوف، أخبرني أحدهم عن شخص عنده سيارة ركبها أخوه فحطمها في حادث، وثمنها عدة ملايين - والقصة قديمة - لغبائه الشديد لم يتنازل ليراها، بل قال لهم: بيعوها. إذاً هذا محصن ضد المال، لا يهمه، لكن الله عز وجل خوفه من موضوع ثانٍ، قابل شخصاً، قسا عليه بالكلام، شعر بوخزة في قلبه، ركض لعند الطبيب، فقال له الطبيب: الوضع غير طبيعي !! من أين أخافه الله ؟ من قلبه، الله يعرف من أين مأخذك، يعرف مفتاح كل واحد منا ؛ إنسان مفتاحه المال، إذا أضاع راتبه يجن، وإنسان مفتاحه معنوياته، إذا أهين ينهار، وآخر معنوياته مزرعته، إذا أتتها موجة صقيع فخسر كل الموسم ينهار، فربنا عز وجل قال:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ)

الله يعرف مأخذ كل إنسان وما يزعجه، هذه اسمها مصيبة لأنها تصيب الهدف.

الجوع يؤدب الإنسان :

قال تعالى:

(وَالْجُوع)

أنا أقول الآن: الذي يسرف في الطعام والشراب أو يشتري طعاماً لا حاجة له به وهناك أناس يموتون من الجوع هذا يتركب جريمة، الذي يلقي الطعام في القمامة هذا مجرم، هذه النعمة ثمينة جداً هناك من يشتهيها، عندما يجوع الإنسان يعرف ما معنى الجوع.

رجل أسلم في أمريكا، وصام أول رمضان، وكان الصيام صعباً جداً عليه لأنه كان ملحداً ثم أسلم وحسن إسلامه، فجلس أول يوم في رمضان في بعض البلاد شمال أمريكا والنهار يقرب من ستة عشر ساعة، وكان الحر شديداً في أيام الصيف، حوالي الساعة الثانية عشرة لم يستطع إكمال يوم عمله، فترك الجامعة وعاد إلى البيت، استلقى على الفراش حتى المغرب، يقول بكتابه ـ وقد كان يتفرج على الرائي، وفيه أخبار عن شعوب بنجلاديش والفقر هناك ـ فقال هذه الملاحظة: أنا جعت ولكنني سآكل الآن، أما هذا الذي يجوع ولا طعام عنده ؟! ألا ترون هؤلاء الجياع في السودان، في الصومال، يموتون من الجوع، قال: أنا أجوع وهالني الجوع ولكن سوف آكل بعد قليل، أما هذا الذي يجوع وليس عنده ما يأكل!!

الجوع يؤدب الإنسان، فقد تجد شخصاً في رمضان، شخصية مهمة جداً ؛ عالم جليل مثلاً، تاجر كبير، بمنصب رفيع، صام أول يوم والدنيا صيف، الساعة الثانية عشر ظهراً كل خواطره كأس من الماء، كأس شراب عرق سوس، أين عظمة الإنسان ؟ كل خواطره على كأس ماء، إذا رأى شراباً بارداً تذوب نفسه له لأنه صائم، الصيام يعرفك بحجمك، عبد ضعيف، أنت تتوقف كل مشاعرك على كأس ماء تشربه، إذا جاع الإنسان أيضاً كذلك يحس بألم الجوع.

الامتحان يفرز الناس إلى مؤمن و غير مؤمن :

إخوتنا الكرام، هدف الامتحان أحياناً الفرز، عند إخواننا المهندسين قاعدة اسمها التحميل، مثلاً شرفة فيها خطوط تشعر أن الصبة غير صحيحة، فماذا يفعل المهندس ؟ يحملها، فيأتي بعشرين برميلاً يملأهم بالماء، فإذا وقعت يبني مكانها، فإذا صمدت معناها أنها جيدة، عملية فرز. فأحياناً ربنا عز وجل يعمل امتحاناً، فالإنسان إما أن يسقط وإما أن يرقى، وكل فترة فيها امتحانات، وحتى الصحابة امتحنوا ؛ بالخندق:

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا *)

[سورة الأحزاب الآية: 10]

قال أحدهم:"أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ". كأنه كفر.

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

[سورة الأحزاب الآية: 11]

أما الذين آمنوا، قال بعضهم: **" ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً "**. لكن:

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا)

[سورة الأحزاب الآية: 23]

نحن ممتحنون، والامتحان يفرزنا جميعاً، مرة قال لي أخ كان بمصر: حدث زلزال في القاهرة، فالأطباء امتحنوا ؛ بعضهم ركب سيارته إلى الإسكندرية وكان لا علاقة له بالزلزال إطلاقاً، وبعضهم عمل الوقت كله في المستشفى لخدمة المصابين. فانظر لهذا الزلزال كيف فرز الأطباء فرزاً كاملاً، واحد أظهر أنانيته وطلبه للسلامة، ابتعد عن مكان الزلزال ؛ والثاني بقي في المستشفى ليلاً نهاراً بشكل مستمر يعالج المصابين من الزلزال. يرسل الله مصيبة فيفرز الناس.

الله عز وجل يدربنا على أن نواجه الباطل بقوة و صبر :

لذلك أيها الأخوة البطولة بالامتحان، المركبة من أي نوع، من أي جنس، تمشي بطلاقة في المنحدر حتى من دون محرك، أما في الصعود لا تصمد إلا المركبة القوية، كيف تمتحن المركبات ؟ بالصعود، هل سمعت إنساناً امتحن مركبة بالنزول ؟ يكون مجنوناً، لا بد من الصعود لكي يمتحن المحرك تماماً، قد يمتحن الله عز وجل ناساً بالرخاء، فتجدهم كلهم شاكرين، يقول لك التاجر: الله ذو فضل عظيم. ما دامت الغلة جيدة، أما إذا وقف السوق وعليه دفع، فماذا يتكلم ؟ هل يرى هذا من الله ؟ هل يقول: يا رب لك الحمد ؟ سيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبة قال: **" الحمد لله ثلاثاً ؛ الحمد لله إذ لم تكن في ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ ألهمت الصبر عليها "**.

أرجو الله سبحانه وتعالى في درسٍ قادم أن نتابع هذه الآية، هذه آية المصائب، مصائب المؤمنين بالذات، فالله عز وجل يدربنا على أن نواجه الباطل بقوة وبصبر، لو جعنا في جوع، لو خوفونا في خوف وفي جوع، نقص بالأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين، أحياناً إنسان يملك بستاناً يقول لك: لا أقبل ضمانه أقل من مليونين. تأتيه موجة صقيع خلال أربع ثوان يصبح كله أسوداً.

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ)

[سورة القلم الآية: 19]

يا ترى أيهما أغلى عندك هذه الغلة أم الله عز وجل ؟ إذا كان البستان أغلى من الله كفر الإنسان، إذا كان الله غالياً عليك تقول: يا رب لك الحمد، أنا راضٍ بما فعلت..

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنـهم معدلٌ وإن عدلوا

والله وإن فتنوا في حبهم كبدي باقٍ على حبهم راضٍ بما فعلوا

***

الخوف والجوع والنقص في الأموال والأنفس والثمرات تدريب على العمل الصالح :

يقول سيدنا علي: **الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين "**. وكل إنسان يصبر، والله هناك آية قرآنية يقرأها الإنسان فيقشعر جلده:

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا)

[سورة ص الآية: 44]

قد تكون مؤمناً مستقيماً ودخلك لا يكفيك عشرة أيام، وأنت صابر تضغط المصروف، فهذه بطولة، أن ترى أحدهم كتلة كفر ومعه ملايين ولا تتأثر إطلاقاً، هذه دنيا تغر وتضر وتمر، كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله:

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ*مَتَاعٌ قَلِيلٌ)

[سورة آل عمران]

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم الآية: 42]

أنت راضٍ، فهذا الخوف، والجوع، والنقص في الأموال والأنفس والثمرات، تدريب على العمل الصالح، تدريب على النجاح في الحياة الدنيا، تدريب للفوز بالآخرة، وفي درسٍ آخر نتابع هذا الموضوع.

بسم الله الرحمن الرحيم

فلسفة المصائب :

أيها الأخوة المؤمنون ... مع الدرس الواحد والخمسين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الخامسة والخمسين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

أول نقطة: مطلق الألم، أيُّ شيءٍ يؤلمك ؛ نقصٌ في المال، نقصٌ في الصحة، ذريةٌ ليست كما ترضى، زوجةٌ ليست كما ترضى، دخلٌ قليل، وضعٌ مهين، أي شيءٍ يؤلمك، أي شيءٍ يتعبك، أي شيءٍ تتحسَّر من أجله ؟ لمَ هذه الآلام ؟ لمَ لا تكون الحياة كلها أموالاً، وكلها جمالاً، وكلها راحة، وكلها أمناً ؟ لمَ الخوف ؟ لمَ الفقر ؟ لمَ المرض ؟ لمَ الموت ؟ لمَ الهم ؟ لمَ الحزن ؟ سؤال كبير في العقيدة سأوضحه قليلاً:

السيارة لمَ صُنِعَتْ ؟ من أجل أن تسير، أليس فيها مكابح ؟ مكابحها تتناقض مع سبب صنعها ، صُنعت لتسير وفيها مكابح تمنع سيرها، هل المكابح شرٌ أم خير ؟ هي خير، المكابح من أجل سلامتها، وسلامة أصحابها، واستمرار عملها .

فإذا فهمنا أنّ الألم، مطلق الألم، أي شيءٍ يؤلمك، أية مصيبةٍ تزعجك، أي همٍ يسيطر على قلبك، أي خوفٍ، أي فقرٍ، أي فقد حريةٍ، أي بيتٍ مُتْعِب، أية زوجةٍ متعبة، أي ولدٍ متعب، أي خوفٍ ممن هو أعلى منك، مُجمل الآلام التي يعاني منها الإنسان هي بمثابة مكابح في مركبة، لولا هذه المكابح ما سَلِمت لا هي ولا صاحبها، هذا معنى قوله تعالى:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[سورة لقمان الآية: 20]

مكابح السيارة من أجل سلامتها . مثل آخر، طفلٌ صغير، كل سعادته مع أمه، كل شبعه مع أمه، كل ريِّه مع أمه، كل أمنه مع أمه، كل نظافته مع أمه، كل ثيابه النظيفة مع أمه، كل شعوره بالسعادة إذا كان مع أمه، فإذا ترك يد أمه وشرد عنها، لا بد من كلبٍ ينبح عليه حتى يعيده إلى أمه، هذه حالة ثانية، هذه فلسفة المصائب .

المصيبة جزء أساسي من العقيدة :

قضية المصيبة جزء أساسي من العقيدة، إن لم تفهمها كما أرادها الله، أسأت الظن بالله عزَّ وجل، وسوء الظن بالله من الكبائر، وقد تحدثت في الخطبة اليوم أن الكبائر نوعان ؛ كبائر ظاهرة، وكبائر باطنة، الكبائر الظاهرة مثلاً كشرب الخمر، السرقة، التولي من الزحف، الغيبة، النميمة، هذه كبائر ظاهرة، لكن كونها ظاهرة يمكن أن تتخلَّص منها، فهي واضحة . أما الكبائر الباطنة كسوء الظن بالله، الأمن من مكر الله، اليأس من روح الله، هذه كبائر باطنة، خطيرة جداً، فسوء الظن بالله سببه أن لا تفهم المصيبة على ما أرادها الله..

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة الآية: 21]

العذاب الأكبر في جهنم، والعذاب الأدنى في الدنيا، السجن عذاب أدنى، الضرب عذاب أدنى، الذل عذاب أدنى .

صحابي سأل النبي عليه الصلاة والسلام أن يدعو له أن يذهب عنه النوم، قال: **" إني نؤوم "**، فسيدنا عمر قال: **" ويحك يا رجل فضحت نفسك ". قال له: " دعه يا عمر فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة "**. فالعذاب الأكبر في جهنم، والعذاب الأدنى في الدنيا، العذاب الأدنى ملطَّف، مخفَّف، قال الله عزَّ وجل:

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ)

[سورة يونس الآية: 107]

العذاب الأدنى في الدنيا أما العذاب الأكبر فهو في الآخرة :

ماذا تفعل حينما تريد أن تمتحن حرارة المكواة ؟ تضع لعاباً على أصبعك، وتضع أصبعك على المكواة لأقل وقت، أقل من ثانية وبأقل مساحة، أقل مساحة، وأقل وقت، ومع لعاب، هذا المَس:

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ)

[سورة يونس الآية: 107]

تأتي آلام، يقول لك: الآلام ليست مستمرة ولكنها متقطِّعة، فالعذاب الأدنى هو في الدنيا، أما العذاب الأكبر فهو في الآخرة:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة الآية: 21]

العذاب الأدنى من أجل أن يرجعوا، من أجل أن يسعدوا، من أجل أن يَسْلَموا، من أجل أن يدخلوا جنة عرضها السماوات والأرض ..

((و عزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه ، إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده ، أو إقتاراً في رزقه ، أو مصيبة في ماله أو ولده ، حتى أبلغ منه مثل الذر ، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

مثل ثالث، طفل في الصف الرابع، قال لأبيه مرةً واحدة: لا أحب المدرسة، قال: دعها يا بني، لأول كلمة ترك المدرسة، نام إلى الظهر، وارتاح، لا وظائف، ولا دوام، ولا أي شيء، لعب مع رفاقه، كل يوم من محل إلى محل، من مسبح إلى مسبح، من سينما إلى سينما، كبر، فوجد نفسه متخلف عن أصدقائه ؛ لا عمل، ولا حرفة، ولا مهنة، ولا زواج، ولا بيت، شريد في الطرقات، فقير، جائع، قليل الشأن . نقم على والده وقال له: يا أبت لِمَ وافقتني حينما طلبت منك أن أدع الدراسة ؟ لِمَ لمْ تضربني ؟ لِمَ لم تشدِّد علي ؟ لِمَ لم تزجرني ؟

المصائب تهدي الناس إلى طريق الصواب :

لو ترك الله عزَّ وجل الناس على هواهم بلا مصائب !! يقول لك: لا توجد مياه، صحيح، المكاسب قليلة والمطالب كثيرة، صحيح، هناك في حياة المؤمن أحياناً مليون مشكلة، لو لم تحدث ولا مشكلة، واسترسل في الدنيا، ونسي الله، وغفل عنه، إلى أن قادته غفلته إلى جهنم، هذا أفضل أم أن يسوق الله للإنسان بعض المصائب ؟

أنا أضرب بعض الأمثلة، وعندي قصص كثيرة جداً وكلها واقعيَّة، من هذه القصص ؛ رجل له وظيفة، وآتاه الله عزَّ وجل شكلاً جميلاً، وله زوجة تروق له، ودخل كافٍ، وهو في ريعان الشباب، ولكنه بعيد عن الدين بُعد الأرض عن السماء، له ابنةٌ يكاد عقله يذهبا من شدة تعلُّقه بها، كان بعيداً عن الدين بعداً غير معقول، كان يسخر أحياناً من أحاديث رسول الله، أصيبت ابنته بمرضٍ خبيث في دمها، ما ترك طبيباً إلا وقابله، وعرض عليه ابنته، قال لي: فحصها ستة وثلاثون طبيباً، ثم باع بيته، وسافر بها إلى بريطانيا، لا يوجد أمل، بذل من أجلها كل ما يملك ـ ورم خبيث في الدم ـ ثم قال لي: خطر في بالي خاطر لعلَّه ملائكي، لو أنك تبت إلى الله أنت وزوجتك، وحجَّبت زوجتك وصليتما معاً، لعل الله يشفيها ـ خاطر ملائكي ـ قال لي: استجبت لهذا الخاطر، وتبت إلى الله، واصطلحت معه، وحجَّبت زوجتي، وسرت في طريقٍ آخر ـ طريق الرحمن ـ تراجع هذا المرض شيئاً فشيئاً. بعد حين زارني في المكتب وقال لي: أدعوك لعقد قِران ابنتي، لم أنتبه أية ابنة له، لبَّيت هذه الدعوة وألقيت كلمة، وأنا أخرج من مكان الحفل سألته: هل هذه هي ؟ قال لي: هي هي، شفاها الله وزوَّجها، ماذا فعل هذا المرض ؟ ضيف جاء، حمل الأب والأم على الطاعة، والتوبة، والصلح مع الله ثم غادر ..

(أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ*وَلا يَسْتَثْنُونَ*فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ*فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ)

[سورة القلم]

لولا المصائب لاستحق الغافلون النار :

عنده بساتين، يقول لك: أنا لا أضمّنها بثلاثة ملايين . ثمار يانعة، وحان قِطافها، أسعارها غالية جداً، لكن:

(أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ*وَلا يَسْتَثْنُونَ)

لا يعطون أحداً من الفقراء شيئاً، لو تركهم ربنا على ما هم عليه لاستحقوا النار

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ).

صقيع، أحياناً يكون الصقيع لمدة دقيقة، أعرف صقيعاً استمر أقل من دقيقة، نصف دقيقة فقط، أتلف كل المحاصيل:

(فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ*أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَارِمِينَ)

[سورة القلم]

فلما رأوها صعقوا:

(قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ)

[سورة القلم الآية: 26]

هذا ليس بستاننا، فلما تأكدوا أنه بستانهم قالوا:

(بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ* قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ* قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)

[سورة القلم]

المصائب رحمة مبطنة من الله :

الآن دقّق، دقّق في هاتين الكلمتين:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

[سورة القلم الآية: 33]

أي أن أي عذابٍ أسوقه لعبادي من أي نوع ؛ عذاب مادي، عذاب معنوي، فقر، قهر، مرض، حرب أهليَّة، اجتياح، أي عذابٍ أسوقه لعبادي ؛ من أي نوع، من أي جنس، في أي مكان، في أي زمان كهذا العذاب، قال:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

[سورة القلم الآية: 33]

أيها الأخوة ... المصيبة رحمة من الله، لكنها رحمة مبطّنة، أما النعم الظاهرة فهي الصحة، والمال، والجمال، والزوجة، والأولاد، والمسكن الواسع، والمركب الوطيء، والرزق في بلدك، هكذا قال النبي: **" من سعادة المرء في الدنيا أن تكون زوجته صالحةً، وأولاده أبراراً، ومسكنه واسعاً، ومركبه وطيئاً، ورزقه في بلده "**.هذه هي النعم الظاهرة، أما النعم الباطنة ؛ مرض قد يقودك إلى باب الله، فقر قد يقودك إلى باب الله، حجز حرية قد تقودك إلى باب الله، مرض ابن قد يقودك إلى باب الله، هكذا، يجب أن نفهم حكمة المصائب .

مثل خامس: أنت مدير مؤسسة، وأردت أن تضع ابنك في المؤسَّسة، لو عيَّنت إنساناً غريباً تقول له: عندك انتداب لمدة ستة أشهر، فإما أن أقول لك: استمر، أو ليس لنا مصلحة أن تكون بيننا . فهذا الغريب كلما أخطأ سجل الخطأ خطأ، كلّما أخطأ سجَّل، إلى أن تراكمت هذه الأخطاء فصرفه، لا يناسبنا، لو أن لهذا المدير ابناً، وكان معه في العمل، كلّما أخطأ خطأ يسجله عليه أم يحاسبه عليه ؟ يحاسبه، هذا غلط افعل كذا، السبب وجود رحمة، رحمة الأب تقتضي ألا يدع ابنه بلا توجيه، كلما أخطأ يوجِّهه إلى الصواب .

الله عزَّ وجل نصب الكون ليدل عليه، وأرسل النبي ليبلغنا الرسالة، وأنزل كتاباً منهجاً لنا، وانتهى الأمر، فافعل ما تشاء، لو أن الناس شردوا عن الله واستحقوا النار، أهذا أفضل، أم أن يعاقبهم الله عزَّ وجل كلّما أخطؤوا ؟ كلّما أخطؤوا ساق لهم بعض المصائب كي يتوبوا، أيهما أفضل ؟!

في المصائب معانٍ كثيرة :

أيها الأخوة ... هناك معانٍ كثيرة في المصائب، على كلٍ الله عزَّ وجل رب، والرب هو الذي يحيط المربَّى بالعناية والتربية، فالله عزَّ وجل كما أنه يربي أجسامنا ؛ يسوق لنا الأمطار، يسوق لنا الخيرات، يُنبت الزرع، يمدَّنا بالهواء، بالماء، بالطعام، بالشراب، هذه تربية أجسام، وهو أيضاً يربي نفوسنا .

أحد أخواننا يملك معملاً بسيطاً متواضعاً، زاره شخص من المسجد قال له: أريد أربع قطع ألبسة داخلية، وهو يبيع بالجملة، قال لي: أنا أبيع أربعمئة قطعة، فهل أبيع أربع قطع ؟! فقال له: أنا لا أبيع مفرَّقاً، قال له: لا تؤاخذني، أقسم لي أنه في خلال ثلاثة وثلاثين يوماً ما دخل محله مشترٍ، أدَّبه الله، الآن يبيع قطعة واحدة، هذا تأديب نفسي، عن طريق تأمين الطعام والشراب، أو تقليل الطعام والشراب، الآن الناس يشكون قلة المطر، شح المياه، الآبار نشفت، قال لي أخ: حفرت بئراً منذ عشر سنوات على طريق المطار، ستة أمتار وجدت الماء، قال لي: حفرت ستين متراً احتياطاً، وأنزلت المضخة خمسين متراً، قال لي: بعد حين جفت كلياً، حفرت مئة وثلاثين متراً، حفر من ستة أمتار إلى مئة وثلاثين متراً، أي أن منسوب المياه الجوفية غار، وإذا ما أنزل الله عزَّ وجل أمطاراً

فإن هذه البلاد ستجف، الله عزَّ وجل حرَّك الأمطار، وحرَّك الأرزاق كي يؤدبنا، وإذا قنَّن فهو تقنين تأديب لا تقنين عجز، تقنين تربية لا تقنين بُخل:

(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ)

[سورة الحجر الآية: 21]

قرأت مقالة علميَّة: اكتشف علماء في أوروبا من خلال مراصد عملاقة تعمل بالأشعَّة تحت الحمراء، اكتشفوا سُحُب في الفضاء الخارجي، إحدى هذه السحب ـ دقّقوا ـ تملأ محيطات الأرض كلّها ستين مرَّة بالمياه العذبة، يقول لك: حرب مياه، أزمة مياه في العالَم، هو تقنين تأديب لا تقنين عجز، سحابة واحدة يمكن أن تملأ محيطات الأرض ستين مرَّة في اليوم الواحد:

(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ)

[سورة الحجر الآية: 21]

ليس في الكون فساد إلا من قِبَل الإنس والجِن :

قال العلماء: لا يجوز أن تقول: الله ضار، مع أن الضار من أسمائه الحسنى، فماذا أقول ؟ تقول: ضارٌ نافع، إنه يضر لينفع، لا يجوز أن تقول: الله قابض، مع أنه قابض، والقابض من أسماء الله الحسنى، يجب أن تقول: قابضٌ وباسط، يقبض ليبسط، لا ينبغي أن تقول: الله خافض، مع أن خافض من أسماء الله الحسنى، يجب أن تقول: خافضٌ رافع . يخفض ليرفع، يضر لينفع، يذل ليعز، يضعك في موقف صعب فتبكي من شدة القهر، حينما تبكي ترجع إلى الله وتصطلح معه، فيعزَّك، أذلّك ليعزَّك، منعك ليعطيك، خفضك ليرفعك، ضرَّك لينفعك، هكذا فعل الله عزَّ وجل.

شيءٌ آخر: هناك الآن فساد في البر والبحر وفي الجو أيضاً يوجد فساد، تدار الخمور في الطائرات، وتُعرض أفلامٌ لا ترضي الله في الطائرات، فظهر الفساد في البر والبحر، فساد في البواخر، فساد في البر، اصعد على جبل قاسيون، وانظر ما على السطوح، تعلم حجم الفساد في بلدنا:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

[سورة الروم الآية: 41]

هناك من يقول: لكي يشاهد الصلاة بمكَّة فقط . الله أعلم، لكن قد يظهر الفساد في البر والبحر، ولا يحدث شيء، ممكن:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

[سورة الروم الآية: 41]

ليس في الكون فساد إلا من قِبَل الإنس والجِن .

تعريف الفساد :

ما هو الفساد ؟ الفساد كائن مخيَّر فيه شهوات، هناك منهج، تحرَّك بدافعٍ من شهواته بلا منهج لأنه حر، هذه كل القصة، السكر مثلاً مادة مهمة جداً، والملح مادة مهمة جداً، والمساحيق البيضاء ـ المنظّفات ـ مهمَّة جداً، اطبخ طبخةً غالية جداً وضع لها مسحوق غسيل، هل تؤكل ؟ انتهت، علماً أن المواد كلها مفيدة، هذا سوء استخدام، ضع السكر مع الطبخ لا تأكله، ضع الملح في الحلويات لا تأكلها، ضع كيلو سكر في محرّك يكلّف إصلاحه ثلاثين ألفاً، ما هو الشر ؟ الشر سوء استخدام، ما هو المنهج؟ ضع السكر في الشاي، والملح في الطبخ، ومسحوق الغسيل لتنظيف الصحون، هذا التوجيه، كل شيء له استعمال، فالإنسان إذا كان أعمى يضع شيئاً مكان شيء، يضع السكر في الطبخ، والملح في الحلويات، فيفسد الطعام والحلويات معاً:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

[سورة الروم الآية: 41]

هذه الباء باء السبب، أي بسبب الناس ظهر الفساد، ما هو الفساد ؟ أن تخرج الشيء عن طبيعته ؛ هذا الماء لا لون له، ولا طعم له، ولا رائحة ، هذا الماء إفساده أن يكون ملوثاً، أو أن يكون كريه الرائحة، أو أن يكون عكراً، هذا هو الفساد، إخراج الشيء عن طبيعته:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة الروم الآية: 41]

كان من الممكن أن يذيقهم ومن الممكن أن لا يذيقهم:

(لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

السبب أن يرجعوا إلى الله عزَّ وجل .

مطلق المصائب سببها أن نعود إلى منهج الله سبحانه :

إذاً الإنسان أودعت فيه الشهوات، أعطي حرية الاختيار، أعطي منهجاً، فتحرَّك وفق شهوته بلا منهج، قال تعالى:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص الآية: 50]

فالفساد هو اتباع الهوى بغير هدىً من الله:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة الروم الآية: 41]

كل المصائب، مُطلق المصائب، مطلق الألم، كل شيء سلبي في الحياة

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ):

أحدهم أحبَّ أن يداعبني فقال لي: ما ملخَّص دعوتك في هذا المسجد ـ عمرها ثلاثون سنة ـ ؟ قلت له كلمتين سأذكرها باللغة الدارجة: إما أن تأتي لله عز وجل ركضاً، أو أن يأتي بك ركضاً، هو يعرف كيف يأتي بك، فانتبه، يمكن أن يقبل الإنسان على الله باختياره، فإن لم يفعل فهناك مصائب تسوقه إلى باب الله عزَّ وجل .

موسم طيِّب، أرباح طائلة، أخذ خمسمئة ألف، وسافر إلى بلد غربي لكي يتمتع ـ هكذا قال لي ـ ذهب، شعر بآلام في ظهره، زار الطبيب فقال له: سرطان في النخاع الشوكي، أصيب بانهيار، ورجع، لم يكمل، كان لديه خطة طويلة، رجع، وصار يتردد من جامع إلى جامع حتى تاب، تاب بسبب خطأ، ثم ظهر أن التشخيص خطأ . يمكن أن يبعث الله عزَّ وجل مصيبة وهميَّة أو حقيقيَّة، كل شيء بيده .

يسوق الله لك من الشدائد ما يردعك عن موقف غير جيد لأن الله يحبك :

هذا الدرس عن حكمة المصيبة، يجب ألا تنزعج من المصيبة، المصيبة باب إلى الله، ساقه الله عزَّ وجل إليك، هناك آية واضحة جداً:

(إلا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ)

[سورة التوبة الآية: 39]

أي إذا أخذت موقفاً غير جيد، ولم تكن مع رسول الله، الله عزَّ وجل يحبك، فسوف يسوق الله لك من الشدائد ما يردعك عن هذا الموقف لأن الله يحبك:

(إلا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ)

أول الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ*إِلا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً)

[سورة التوبة]

وإذا أصررتم:

(وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ)

[سورة التوبة الآية: 39]

هذه سنة الله في خلقه، إذا ارتكب الإنسان موقفاً غلطاً، ساق الله الشدائد، وهو إما أن يرتدع؛ وإما أن يتمادى في غيِّه، عندئذٍ:

(وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً)

[سورة التوبة الآية: 39]

أنواع المصائب :

شيء آخر عن المصيبة والله أعلم، هناك مصائب الكفار، ومصائب المؤمنين، ومصائب الأنبياء.

1 ـ مصائب الأنبياء مصائب كشف :

مصائب المعصومين كشف، يوجد من نفسه كمال لا يبدو إلا بحالات نادرة جداً، إذا شخص مثلاً ـ لا سمح الله ولا قدَّر ـ قال لزوجته: أحبك حباً لا حدود له، فمرضت، ثم تغيرت أخلاقه، تبرَّم، تكلَّم كلاماً قاسٍ، غاب عن البيت، معنى هذا أنه لا يحبها، هو كان يحب نفسه، فلما كانت في خدمته عبَّر لها عن محبته، فلما أصبحت عبئاً عليه تبرَّم منها . لو أنها مرضت مرضاً شديداً، وقام بخدمتها أياماً طويلة دون أن يتكلَّم كلمة قاسية، هذا المرض الذي أصاب زوجته كشف عن كماله، معنى هذا أنه كان صادقاً في كلامه .

سيارة قوة محركها سبعون حصاناً، لا تظهر لك حقيقتها في طريق سوي، لا بد من طريق صاعد وهي محمَّلة بالركاب والمتاع، وتنطلق بسرعة مئة وثمانين ـ لأن قوة محركها سبعون حصاناً ـ فالأنبياء مصائبهم مصائب كشف، هذا سيد الخلق وحبيب الحق يذهب إلى الطائف مشياً على قدميه ـ ثمانين كيلو متراً ـ إلى أن وصل إليهم، دعاهم إلى الله بالحسنى فكذَّبوه، وسخروا منه، وأغروا صبيانهم أن يؤذوه، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلَّم إلا أن قال:

((اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، إن لم تكن ساخطا علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الكريم، الذي أضاءت له السماوات، وأشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تحل علي غضبك أو تنزل علي سخطك، ولك العتبى حتى ترضى))

[من كنز العمال: عن عبد الله بن جعفر]

مصائب كشف، عندك إمكانيات عالية جداً لا تظهر إلا بظرف استثنائي، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل))

[الجامع الصغير عن سعد]

2 ـ مصائب المؤمنين مصائب دفع ورفع :

أما مصائب المؤمنين، هي مصائب دفع، كانت سرعته بطيئة، لاح له شبح مصيبة فركض، فهي تسريع، ودفع له، وإذا كان مسرعاً رفعته، فمثلاً: سيارة تسير على الخمسين، وبإمكانها أن تسير على المئة، وبذلك توفر الوقت، ويمكن استثمارها لطلب ثان، فأول نوع من المصائب رفع سرعة،

هي الآن تحمل طناً واحداً، وبإمكانها حمل خمسة أطنان، وأجرة حمل كل طن أجرة كبيرة جداً، فحملناها بدلاً من الطن خمسة أطنان، هذه مصائب رفع، دفع ورفع، تسريع ورفع الأجرة، وصلت بوقت مبكر وكسبت أجر أكبر، مصائب دفعٍ ورفعٍ .

3 ـ مصائب العصاة والمذنبين مصائب قصم وردع :

مصائب الأنبياء مصائب كشفٍ، مصائب المؤمنين مصائب دفع ورفع، ومصائب العصاة والمذنبين قصم وردع، إذا كان فيه بقية خير يردع بها، إذا لم يكن فيه خير يقصم:

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آَمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

[سورة هود الآية: 36]

أرجو أن يكون واضحاً لديكم أن حياة المؤمن لا تخلو من تأديبٍ وابتلاءٍ وتكريم، هناك مرحلة تؤدَّب فيها إذا حدث تقصير، وفي مرحلة تمتحن الاستقامة التامة، وفي مرحلة تكرَّم، ويغلب على الظن أن حياة المؤمن تستقر على التكريم، يعتورها تأديب، ويعتورها ابتلاء، ولكنها تستقر على التكريم .

الابتلاء حيادي :

قال تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ)

ذكرت في الدرس الماضي أن الابتلاء هو الامتحان، والامتحان حيادي ؛ لا خير ولا شر، الشر الرسوب في الامتحان، والخير النجاح في الامتحان، وبيَّنت لكم لو أن إنساناً حقَّق شهادة عُليا وأغدقت عليه أموالاً طائلة فساعات الامتحان الصعبة ذكريات طيبة أم سيئة ؟ طيبة، بعد الدخل الكبير بسبب الشهادة، والشهادة بسبب الامتحان، والامتحان كان صعباً، لكنه نجح به، فلما نجح انقلب هذا الامتحان الصعب إلى خبرة مسعدة لأنه نجح، فلو رسب انقلب إلى خبرةٍ مؤلمة، فالابتلاء لا هو خير ولا هو شر، هو حيادي، النجاح بالابتلاء خير، والرسوب شر ..

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ)

سمَّاها الله عزَّ وجل مصيبة . إذا كانت كلية الإنسان متوقفة عن العمل، والطبيب فتح البطن، واستأصل الكلية الواقفة، يكون قد أصاب، أما إذا استأصل التي تعمل وترك الواقفة، يكون قد أخطأ الهدف، فالله عزَّ وجل سمَّى هذه الشدة التي يسوقها لنا مصيبة، لأنها تصيب الهدف .

المصائب في أي مكان :

المتكبر يحتاج إلى عذاب مهين، والمسرف يحتاج إلى نقص مال، هذا يحتاج إلى مرض، هذا يحتاج إلى ولد عاق، هذا يحتاج إلى زوجة لا ترحم، هذا يحتاج إلى إنسان أعلى منه يسومه سوء العذاب، كل إنسان له مفتاح، هناك إنسان يُقبل على الله بالفقر، وإنسان يقبل بالإهانة، فكل واحد له مفتاح، وأينما ذهبت في العالم، قد يتوهم إنسان أن المشاكل سببها أنه يعيش في دولة من دول العالم الثالث فقط . لا، فمن الممكن أن تكون بأرقى دولة من حيث الحياة العامة، ومع ذلك فإن الله عنده أدوية من نوع ثان، حوادث سير، ينقطع عموده الفقري فيصير مشلولاً، له عند الدولة كرامة عالية جداً، وله حقوق، ولكن ماذا فعل فيه الحادث ؟ يعطونه تأميناً ولكنه عطب، يوجد عند الله صيدلية في أي مكان في العالم، بكل مكان لدى الله أدوية فعَّالة، أينما ذهبت .

قال لي شخص: كنت أركب مع صديق ببلد غربي، نزلت السيارة في حفرة منخفضة تحوي سنتيمترين فقط من الماء، أصاب رذاذُ هذا الماء إنساناً، فنظر نظرة باشمئزاز، قدَّم السائق شكوى للبلدية، فحواها أن هناك حفرة عمقها سنتيمترين، فيها ماء، والماء أصاب ماراً، فهذا الراكب قال لصديقه: ماذا تستفيد من هذه الشكوى ؟ فقال: غداً ترى، جاء اعتذار من البلدية، وصيانة للسيارة كاملة على حساب البلديَّة، ورمَّموا الحفرة. فإذا كنت في بلد تحترم فيها حقوق الإنسان إلى هذه الدرجة، والإنسان استحق التأديب، يوجد عند الله دواء هناك، أدوية مخيفة، مثل هذه الأمراض الوبيلة التي ليس لها حل، الذين يموتون في العالم بأمراض الأورام الخبيثة وأمراض القلب عدد فلكي، فالإنسان مهما كان في مَنَعَة لا بد من أن يغادر الدنيا، الله عنده أدوية ؛ أدوية بالصحَّة، أدوية بالمال، أدوية بالزوجة، أدوية بالأولاد، أحياناً مرض عضال بطفل يجعلك تنفق كل ما تملك من أجله ولا تستفيد .

إذاً المصائب في أي مكان .

على الإنسان أن يؤمن بقضاء الله وقدره :

قال تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ)

انظر كلمة (شيء) فيها لطف إلهي ، هناك مع المصيبة لطف ..

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ)

أي نقص الأموال:

(وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ)

الإنسان من الممكن أن يفقد ابنه، ولكن إذا كان مؤمناً بالله فهو يعلم علم اليقين أن له أجلاً لا يزيد ولا ينقص، يرى أن هذا قضاء وقدر، وهو راضٍ عن الله عزَّ وجل ..

(وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ)

أحياناً تأتي جوائح على الثمرات، ذبابة بيضاء، يذهب المحصول كله، ذلك لحكمةٍ يريدها الله عزَّ وجل..

(وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

إذا قنط الناس من رحمة الله تأتي أمطار غزيرة جداً، تغلب على الناس تفسيرات سوداوية أن خطوط المطر انتقلت، ونحن منطقة جافة، ولن تعود الأيام إلى ما كانت عليه، والجفاف مستمر، ومتنامٍ . فالناس بعد أن يئسوا تأتي أمطارٌ لا يعلمها إلا الله .

الله عزَّ وجل يحرِّك الأمطار والأرزاق تأديباً للعباد :

والله ذكر لي مرَّة أحد أصدقائي، وهو عضو بلجنة حوض دمشق، معلومات عن انخفاض المياه في حوض دمشق، شيء مخيف، والله لم أستطع أن أقف من شدة المعلومات المزعجة، أي أن الشام انتهت، لا بد أن نغادرها جميعاً، لا يوجد أمل، في العام الثاني ـ أذكر هذا ولا أنساه والله ـ نسبة الأمطار كانت ثلاثمئة وخمسين ميليمتراً في دمشق، زيادة عن المعدل السنوي تقريباً بمئة وأربعين ميليمتراً، مياه عين منين وصلت إلى الشام، مياه عين الصاحب تفجَّرت، وثلاثون نبعاً في الغوطة تفجَّرت بعد أن غابت عنا ثلاثين سنة، الله عزَّ وجل قادر بكل لحظة أن يرسل أمطاراً غزيرة .

مرَّة قرأت خبراً أن في إمارة رأس الخيمة هطلت أمطار في ليلة واحدة تساوي أمطار دمشق في العام كله ـ في ليلة واحدة ـ الله إذا أعطى أدهش، لا توجد قاعدة، القاعدة أن الله عزَّ وجل حرَّك الأمطار وحرَّك الأرزاق تأديباً للعباد:

(وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة الجن]

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ و الْأَرْض)

[سورة الأعراف الآية: 96]

الله تعالى إذا أعطى أدهش :

يوجد في منطقة من مناطق دمشق تقريباً ثلاثين مزرعة، كل مزرعة فيها بئر، هناك رجل صالح عنده مزرعة وفيها ماء، كلما دخل أصحاب الأغنام ـ الرعاة ـ إلى مزرعة ليسقوا الغنم طُردوا منها، هذا الرجل الصالح بنى للغنم مشرباً ليشربوا منه براحة تامة، بنى مشرباً طويلاً، صار الرعاة

يدخلون مع أغنامهم ويشربون، يقسم لي بالله العظيم: أن ثلاثاً وثلاثين مزرعة حوله جفَّت آبارها إلا بئره، ما نضب أبداً . أي أن الله عزَّ وجل إذا أعطى أدهش، وهذا كله بمقياس:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ و الْأَرْضِ)

[سورة الأعراف الآية: 96]

فـ ..

(الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

إن الصابر إنسان يعرف الله، الصابر إنسان يشبه مريضاً عند طبيب أسنان، قال له: والله لا أستطيع أن أعطيك مخدراً لأن قلبك لا يتحمل، يجب أن تتحمَّل الألم، فطبيب محترم، وشهادته عالية، وهو خبير ونصح المريض، فلما أراد أن يقلع السن، تمسَّك المريض بالكرسي تماماً، وتحمَّل الألم وشكر الطبيب، أما لو كان طفلاً لشتم الطبيب، أما كون هذا الإنسان راشد فصبر، فكل إنسان يعرف الله تجده صابراً، يعرف أنه توجد حكمة بالغة، والله عزَّ وجل ساقها له برحمته، فالصابر يعرف الله، والذي لا يصبر لا يعرف الله، أنت بين يدي طبيبٍ ماهرٍ رحيم يجب أن تتحمَّل بعض الألم، إن كنت تعرفه طبيباً ناجحاً .

الإنسان ملك الله عز وجل :

قال تعالى:

(وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ)

نحن مِلْكُ الله عزَّ وجل، يعطينا أو يمنعنا، يرفعنا أو يخفضنا، يعزُّنا أو يذلُّنا، أنا عليَّ أن أطيعه وهو عليه الباقي، أنا كعبد علي أن أطيعه ..

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر الآية: 66]

ليس عليَّ أيُّ شيءٍ آخر، هو بحكمته يعطيني أو يمنعني، يرفعني أو يخفضني، يقرِّبني أو يبعدني، هو يفعل ما يشاء، أنا عليَّ أن أطيعه وكفى..

(وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

إذا باع الإنسان بيته ـ كلام دقيق ـ بالسعر المُقابل تماماً، وقبض ثمنه عداً ونقداً، ورغب الذي اشتراه أن يزيل حائطاً بين غرفتين، هل يحق للبائع أن يتدخَّل ؟ ألم تبعه أنت ؟ هل لك علاقة ؟ إذا أراد أن يُنشئ غرفة إضافية هل للبائع علاقة ؟ هل يستطيع أن يتدخَّل ؟ لا، يقول له: هذا صار مالي، بيتي، ألم تقبض ثمنه كاملاً ؟ فاسمع هذه الآية:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)

[سورة التوبة الآية: 111]

ألم تبع ؟ بعد ما بعث الله عزَّ وجل نفسك ومالك هو حر، يقربك، يبعدك، يغنيك، يجعل دخلك محدوداً لا يكفيك أربعة أيام، فأنت تتلوى من الضائقة المالية، أو يجعلك ذا دخل غير محدود هو يعرف ..

((إن من عبادي لمن لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو بسطت له لأفسده ذلك))

[كنز العمال عن أنس]

مستقيم على دخل محدود، إذا كثر دخله يغير، الله عزَّ وجل يعرفه، هناك إنسان على الفقر يلج ويعصي، هناك حكمة إلهيَّة .

من لم تُحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر :

قال تعالى:

(الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ)

المصيبة بمكانها الصحيح، بحجمها المُناسب، بالوقت المناسب، بالقدر المناسب، بالعيار المناسب، عيارات دقيقة جداً عند الله عزَّ وجل..

(الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

نحن لله، ما دمتَ بعت وفوَّضت، فلك الجنة، دعني أفعل بنفسك ما أشاء، فأنت عليك أن تستسلم لله عزَّ وجلّ، قالوا:

(إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

راجعون إلى الله بهذه المصيبة، لذلك قالوا: **" من لم ُتحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر " .**

الإنسان حينما لا يتَّعظ بالمصيبة صار هو المصيبة، هو نفسه مصيبة، المصيبة من أجل أن يرتدع، وأن يتَّعظ، فإن لم يتعظ، ولم يرتدع فقد صار هو مصيبة ..

(الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ)

الرضا بالمصيبة والصبر عليها:

نحن مِلْكٌ لله، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام سنَّ لنا في التعزية أن نقول: **" إن لله ما أعطى وله ما أخذ "، أنت ليس لك شيء، مرَّة سألوا أعرابياً معه قطيع إبل: لمن هذه الإبل ؟ قال: " لله في يدي "** هي لله بيدي، الله وكلني بها أما هي لله . الله عزَّ وجل رزقه قبل، مرض فقَبل صابراً، هذا فعل الله عزَّ وجل، هو الحكيم، هو الخبير، أنا ليس لي شيء ..

(إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

بهذه المصيبة ..

(أولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ)

هؤلاء الذين يصابون بمصيبةٍ ويرونها من الله عزَّ وجل، ويرضون عن الله بها، هؤلاء:

(أولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ)

من كان سروره بالنقمة كسروره بالنعمة فقد رضي عن الله :

كان أحدهم يطوف حول الكعبة ويقول: **" يا رب هل أنت راضٍ عني؟ " وكان وراءه الإمام الشافعي فقال: " يا هذا هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك ؟ " قال: " يا سبحان الله! من أنت يرحمك الله ؟ " قال له: " أنا محمد بن إدريس "، قال له: " كيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه؟ " قال: " إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله " .**

البطولة بالصعود وليست بالنزول، كل إنسان على الرخاء يقول لك: الله مفوضها، نحن شاكرون لله . لكن إذا ضيّق الله عليك فماذا ستفعل ؟ يا رب لك الحمد، لذلك آية قرآنية إذا قرأتها يقشعر جلدك:

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً)

[سورة ص الآية: 44]

الله ناظر إليك، إذا ساق لك مصيبة وصبرت فقلت: يا رب لك الحمد، يا رب أنا راضٍ عن فعلك .. أيها الأخوة ... هذه الآية تتحدَّث عن مصائب المؤمنين، مصائب الدفع والرفع، والمصيبة لها حكمةٌ بالغة، ولها هدفٌ نبيل، وتنتهي بالمؤمن إلى الله عزَّ وجل، فنرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون عند حسن ظن ربنا بنا وإذا ساق لنا مصيبة فنسأله أن نتقبَّلها بالرضا، والقبول، والتسليم، والتفويض .

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (52- 95):تفسير الآيات 158-162 ، الاتصال بالله أساس الأمن والسعادة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-08-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة المكرمة هي الوسط الهندسي للعالمين القديم والجديد معاً :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الثاني والخمسين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الثامنة والخمسين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

[سورة آل عمران الآية: 96]

قال علماء الجغرافيا: مكة المكرَّمة هي الوسط الهندسي للعالم القديم والجديد معاً، العالم القديم ؛ آسيا، إفريقيا، أوقيانوسيا، وأوروبا، أطراف العالم القديم، أيّ طرف من هذه الأطراف يبعد عن مكّة ثمانية آلاف كيلو متر، إذا أضفنا العالم الجديد، وهو أمريكا الشمالية والجنوبية، أيّ طرف من أطراف العالَم الجديد يبعد عن مكة المكرَّمة ثلاثة عشر ألف كيلو متر، فمكة المكرمة هي الوسط الهندسي للعالمين القديم والجديد معاً.

هي أول بيتٍ وضع للناس، لأن الله عزَّ وجل خلق الإنسان بطبيعةٍ ماديَّة، فالإنسان إذا أراد أن يتقرَّب إلى الله يذهب إلى بيت الله، صار هناك هدف، الله عزَّ وجل قدَّس هذا المكان، المكان ليس مقدساً بذاته إلا أن يقدسه الله عزَّ وجل. فأمرنا أن نقبِّل الحجر الأسود، وأمرنا أن نضرب رمز الشيطان بالحجر، فرمز الشيطان محتقر نرجُمه، والحجر الأسود مقدسٌ نقبِّله، لا لعلةٍ فيه بل لأن الله أمرنا أن نفعل ذلك.

ربنا عزَّ وجل اتخذ هذا البيت الحرام ليكون وسيلةً لإقبال العباد على الله عزَّ وجل :

إذاً الله عزَّ وجل اتخذ هذا البيت بيتاً له وقال: تعالوا إلي، أقبلوا علي، تقول أنت: لبيك اللهمَّ لبيك، هذا الشيء يقودنا إلى الحج، الإنسان يصلي في بلده، وزوجته أمامه وأولاده، وعمله قريب من بيته، أما حينما يحج بيت الله الحرام لا بد من ترك بيته، وترك زوجته، وترك أولاده، وترك منصبه،

وترك مكانته، وترك عمله، وأن يتوجَّه إلى بيت الله الحرام متفرِّغاً لله عزَّ وجل، فإذا فرَّغ نفسه لله عزَّ وجل، فإن الله جل جلاله يفرغه مما سواه مكافأةً له على هذا التفرُّغ، فسأل أي حاجٍ ذهب إلى بيت الله مخلصاً، أي مشكلةٍ يعاني منها، أي همٍ في بلده يمحوه الله عنه ما دام في الحج.

إذاً الله عزَّ وجل من أجل أن تدفع ثمن لقائه اتخذ بيتاً، وقال: تعال إلي، من أجل أن تدفع ثمن لقائه.

مثل بسيط: لو أن طالباً والده أستاذ رياضيات متفوّق، والأب أعطى ابنه درساً طبعاً بلا ثمن، لأن الدرس مجاناً، قد ينتبه وقد لا ينتبه، قد يستفيد وربما لا يستفيد، أما حينما يدفع الطالب مما قد جمَّعه في صيفٍ بكامله ثمن دروس أستاذ رياضيات، كله آذانٌ صاغية، لأنه دفع ثمن هذا الدرس من ماله الشخصي.

الإنسان حينما يترك بيته، ويترك أهله، وأولاده، وعمله ويؤثر تلبية دعوة الله على كل حظوظه من الدنيا، دفع ثمن هذا اللقاء، لذلك الله اتخذ بيتاً وقال: تعالوا إلي، أي تعال يا عبدي لأريحك من همومٍ كالجبال، تعال يا عبدي لتذوق طعم القرب مني، تقول له: لبيك اللهمَّ لبيك، فربنا عزَّ وجل اتخذ هذا البيت الحرام ليكون وسيلة لإقبال العباد على الله عزَّ وجل.

إبراهيم عليه السلام له موقفان انفرد وتفوق بهما :

طبعاً هذه مقدمة، أما الذي أريد أن أقوله لكم: سيدنا إبراهيم أبوا الأنبياء، وقد قال الله عزَّ وجل:

(وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى)

[سورة البقرة الآية: 125]

أي اتخذوا من أعمال إبراهيم طريقاً إلى الله، اتخِذوا من الأعمال الجليلة التي قام بها إبراهيم طريقاً إلى الله عزَّ وجل، ماذا فعل إبراهيم؟ إبراهيم عليه السلام له موقفان انفرد بهما، أو تفوق بهما.

1- التوكُّل المُطلق على الله :

الموقف الأول: التوكُّل المُطلق على الله. طبعاً نحن نتوكّل على الله، ولكن نأخذ بكل الأسباب، أنت حينما تسافر يكون البيت ممتلئاً بالطعام والشراب، وكل الأشخاص يلبّون طلباتك في غيبتك، ووضعت عندهم المال الكافي، وهناك هاتف، وكل شيء ميسَّر، وصيت أناساً كثيرين لتلبية طلبات عائلتك في غيبتك، أما أن يأتي هذا النبي الكريم بزوجته هاجر وابنه، ويضعهما في وادٍ غير ذي زرع ويذهب، تقول: **" آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يضيعنا الله عزَّ وجل".**

هناك ثقة بالله ليس لها حدود، أنت حينما تثق بالله لا بد من أن يكون الله معك، هذه المرأة والأم، تعرفون من الأم، أية أم، إذا أم زوجة نبي كريم ليس هناك شراب تشربه، ماء لا يوجد، آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لن يضيعنا الله أبداً. وضعها بين الصفا والمروة، هما مكانان مرتفعان في موقع مكة، في أول بيتٍ وضع للناس، فمن شدة حرصها على ابنها، وعلى سلامته، أين الماء؟

راحت تسعى بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء، ولكن مسعاها لم يجدِ شيئاً، طفلها الصغير ضرب بقدمه الأرض ـ أحياناً تحفر خمسمئة متر لا تجد ماء ـ فانفجر من تحت قدمه نبع زمزم.

ربنا عزَّ وجل علّمنا بهذا الدرس أنك إذا توكلت على الله حقَّ التوكُّل كان الله معك، ولن يضيعك، طبعاً هذا توكُّل مطلق، لكن بالطبع نحن لسنا أنبياء، نحن مأمورون أن نأخذ بكل الأسباب وأن نتوكل على الله رحمةً بنا، أما إنسان يضع زوجته وابنه في وادٍ غير ذي زرع، حيث لا ماء، والإنسان بلا ماء يموت في أيام معدودة، أعتقد في ثلاثة أيام ينتهي، وبلا هواء أربع دقائق، أو ثلاث دقائق، فلذلك علّمنا الله عزَّ وجل من هذا الدرس أنك إذا وثقت به عزَّ وجل كان معك.

لكن عندنا حكم شرعي، وعندنا موقف شخصي، فالذي فعله هذا النبي الكريم موقف شخصي، ولكن علّمنا مُطلق التوكل، لأن الله عزَّ وجل خلق الكون على نظام السببية، فلما أراد أن يكون البحر طريقاً يبساً لم يجعله طريقاً يبساً إلا بسبب:

(أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ)

[سورة الشعراء الآية: 63]

ضرب البحر بالعصا فصار طريقاً يبساً، فوُجد الطود، فربنا عزَّ وجل حينما يريد أن نصنع شيئاً بفعله مباشرةً يجعله بسببٍ أرضي، فنظام السببية نظام أساسي، إنك تؤمن بالله عن طريق نظام السببية، كل شيء له سبب، من هو المسبب الأول؟ إنه الله، فحتى هذا النبع الذي هو الآن نبع ماء زمزم، كان بسبب أن هذا الطفل الصغير من شدة عطشه، ضرب برجله الأرض فانبجس هذا النبع العظيم، وهذا النبع يحيِّر العقول، فمجموع الأمطار التي تهطل في مكة وما حولها لا تكفي لهذا النبع، وكلكم يعلم كيف أن هذا النبع يلبي أربعة ملايين حاج، وينتقل هذا الماء إلى المدينة المنوَّرة ـ شيء عجيب ـ أرض قاحلة، أرض جافَّة، لا نبات فيها ولا ماء، هذا النبع مستمر، وهو آيةٌ من آيات الله الدالَّة على عظمته.

2- العبوديَّة الكاملة لله عزَّ وجل :

الدرس الثاني هو أن هذا النبي علّمنا العبوديَّة الكاملة لله عزَّ وجل؛ حينما أمره أن يذبح ابنه، إنه شيء ليس في طاقة البشر، أنْ يؤمر إنسان بذبح ابنه الذي بلغ معه السعي، الطفل الصغير حينما يصبح فتًى، وعلَّمه، وربَّاه، وهذَّبه، وصار يساعده، الآن اذبحه، أيضاً هذا درس في الانقياد لله عزَّ وجل ليس له حدود، الله عزَّ وجل قال:

(وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى)

[سورة البقرة الآية: 125]

أي إن أردت أن تصل إلى الله فبادر إلى طاعته، وأعلن عبوديتك له، ثم توكَّل عليه:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

[سورة النمل الآية: 79]

قضية التوكل غائبة عن الناس، تجد كل إنسان عنده هموم تسحقه، فأين الله؟ كل شيء بيد الله عزَّ وجل، توكل على الله، كن معه وتوكل عليه، أطعه وتوكل عليه، بادر إلى العبودية له وتوكل عليه.

قدسية الصفا والمروة :

أيها الأخوة... فهذه المرأة الكريمة ـ زوجة سيدنا إبراهيم ـ التي سعت بين الصفا والمروة، وكان من سعيها أن تفجَّر نبع زمزم، هذا درس علَّمنا ربنا إياه من خلال هذه القصة، وعلَّمنا أيضاً كيف أن الله سبحانه وتعالى حينما امتحن إبراهيم عليه السلام بأن أمره بذبح ابنه، كيف أن هذا النبي العظيم بادر إلى هذا الأمر دون تردُّد:

(يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ)

[سورة الصافات الآية: 102]

ثم ماذا حدث بعد ذلك؟ الذي حدث أن العرب في الجاهليَّة جعلوا على الصفا صنماً، وعلى المروة صنماً، وصاروا يسعون بين الصفا والمروة تعظيماً لهذين الصنمين، فحينما جاء الإسلام عزف المسلمون عن السعي بين الصفا والمروة لأنه سعيٌ بين وثنين، لكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعيد لهذا المكان قدسيَّته فقال:

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ)

ما معنى (من شعائر الله)؟ الشعائر جمع، مفرد شعيرة، هي مكان ولكن هذا المكان له خصوصية، في هذا المكان ينبغي أن تنتابك مشاعر خاصَّة، فإن أتيت بيت الله الحرام صادقاً، منيباً، مخلصاً، أنت في هذا المكان بين الصفا والمروة لا بد من أن تشعر بشيء، بحالٍ من القرب، بل إن الإنسان حينما يحج بيت الله الحرام يبدأ بالطواف، كطواف المُحب حول محبوبه، ويسعى بين الصفا والمروة كسعي المُشتاق إلى حبيبه، حالات نفسيَّة، هذا معنى الشعائر، أي أنت يجب أن تشعر بشعورٍ مقدسٍ وأنت فيها، وكل إنسان حجَّ بيت الله الحرام وما شعر بشيء ؛ بل إن النبي عليه الصلاة والسلام في بعض ما روي عنه أنه من وقف في عرفات ولم يغلب على ظنه أن الله غفر له فلا حجَّ له.

أهمية التوكل :

الذي يعجب أن الإنسانَ يذهب إلى الحج، ويعود، ويحدثك عن كل شيء إلا الحج، يحدثك عن المبيت، وعن الطرق، وعن المشاريع العمرانيَّة، وعن تأمين الماء البارد، وعن تأمين الطعام، والمواصلات، وكيف وصل إلى الديار المقدسة، وكيف غادر هذه الديار، وأي رحلة ركب، وكم

انتظر، شيء عجيب يحدثك عن كل شيءٍ إلا الحج، لكن وأنت في الطواف ماذا شعرت؟ وأنت بين الصفا والمروة ماذا شعرت؟ وأنت على عرفات ماذا شعرت؟ أيعقل أن يقول لك الله عزَّ وجل: تعال واترك أهلك، وبيتك، ومالك، وعملك واجلس هنا هكذا بلا شعور، بلا إحساس، بلا إقبال، بلا شيء ثمين تملكه وأنت في الحج؟

فلذلك الله عزَّ وجل أراد أن يزيل وثنية هذا المكان المقدس وقال:

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ)

دعوكم من الأصنام التي كانت في الصفا وفي المروة، وهذان المكانان قدَّسهما الله عزَّ وجل لأنهما يشيرا إلى التوكُّل الذي علَّمنا إياه سيدنا إبراهيم.

هل هناك إنسان الآن لا توجد عنده قائمة هموم؟ ليس من إنسان إلا وعنده قائمة من الهموم، لماذا لا تتوكل على الله؟ لماذا لا تضع هذه الهموم عند الله عزَّ وجل؟ لماذا لا تكتفي أن تطيعه وعلى الله الباقي؟ هذا حال مريح جداً، الله عزَّ وجل خلقنا، وبيده كل شيء، وهو على كل شيء قدير، وكل شيء يغيره، وكل شيء يبدله، فأنا علي أن أطيعه، وعلى الله الباقي، أي أنك دبِّر ألاَّ تدبِّر، لا أقول: تتواكل، لا، ولكن لا تجعل الهم يسحق الإنسان، فحياة الإنسان معقدة جداً، ولا سيما في هذه الأيام، الحياة صعبة، الحاجات كثيرة، المكاسب قليلة، ثمة منافسة، وخوف، وقلق، وحرمان أحياناً، وشعور بالضياع، هذا علاجه التوكُّل..

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ)

الشعور بالأمن هو أثمن شعورٍ يسعد الإنسان :

درس التوكل علمنا إيَّاه ربنا من خلال قصة هاجر زوجة سيدنا إبراهيم..

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ)

فالله عزَّ وجل قال:

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً)

[سورة آل عمران الآية: 97]

أي أن الله عزَّ وجل يُلقي في قلب الحاج من الأمن ما لا يوصف، الشعور بالأمن شعور لا قدَّر بثمن، بل إن الشعور بالأمن يعد أثمن شعورٍ يسعد الإنسان، الله عزَّ وجل قال:

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ)

[سورة محمد الآية: 5]

رفع صلاح البال إلى مستوى الهدى:

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً)

[سورة آل عمران الآية: 97]

هناك آيات كثيرة جداً:

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى)

[سورة البقرة الآية: 125]

السعادة في الحج تكون من خلال الاتصال بالله عزّ وجل :

فأنت حينما تحج بيت الله الحرام تتمنى أن تعود إليه كل عام، من السعادة التي ألقاها الله في قلبك، الحقيقة في نقطة دقيقة جداً هي: إن اللذَّة الماديَّة لها شرائط، والسعادة الروحيَّة لها شرائط، الله عزَّ وجل جمَّد كل أسباب اللذَّة الجسميَّة، فهي بلاد حارة، جعل الحج في وقت محدد، إذاً كل هؤلاء الناس سيأتون إلى هذا المكان في وقتٍ واحد، أربعة ملايين إنسان لا بد من أن ينتقلوا من عرفات إلى مِنى في وقتٍ واحد، أصعب عقدة في الحج النفرة، أربعة ملايين لا بد من أن يطوفوا حول الكعبة.

جاء وفد لتنظيم الحج، فقدَّم تقرير مطول للقائمين على الحج هناك، فكان من بنود هذا التقرير أن يكون الحج على خمس دورات في السنة، بعيد عن جو الحج، على خمس دورات في السنة، فالله عزَّ وجل جعل كل أسباب الراحة الجسمية معطّلة في الحج، ومع هذه الأسباب المعطلة هناك سعادة تفوق حدّ التصور لمن كان صادقاً في حجه، هذا الشيء دقيق.

لو أن المكان جميل، والهواء عليل، والطعام طيب، والمناظر خلاَّبة، والحج على مدار العام، صار الحج فيه راحة، والأوراق اختلطت، يا ترى أنت كنت سعيداً بهذه المناظر، وهذا الطعام، والهواء العليل، أم بإقبالك على الله؟ أراد الله أن تكون السعادة في الحج من بابٍ واحد إنها الاتصال بالله.

فكل أسباب السعادة الأرضيَّة معطلة، في وادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرَّم، الحر لا يُحْتَمَل، الازدحام لا يُحْتَمَل، فالله عزَّ وجل أراد أن تعرف أنك إذا اتصلت به وأنت في أصعب الظروف تكون أسعد الناس، وحينما تنقطع عنه وأنت في أجمل الظروف تكون أشقى الناس، هذه السكينة التي يلقيها الله في قلب المؤمن يسعد بها ولو فقد كل شيء، ويشقى بفقدها ولو مَلَكَ كل شيء، فكأن الحج وسيلة فعَّالة من أجل أن تتصل بالله عزَّ وجل، فرَّغك، قال: تعالَ إليَّ، دع بيتك، دع مكانك المريح، لك غرفة خاصة، لك مقعد وثير بين زوجة وأولاد وبنات وأصهار، بعملك ومكتبك، دعك من الدنيا وتعالَ إليَّ، تعالَ وارتدِ هذين الثوبين الخشنين، عاري الرأس، حافي القدمين، أو شبه حافي القدمين، تعالَ طُف حول الكعبة، اسعَ بين الصفا والمروة، انتقل إلى عرفات، ابتهل، ادعُني، توجَّه إلي، هذه السعادة.

السعادة التي يمتلكها الحاج في اتصاله بالله هي دليل أن الإنسان لا يطمئن إلا بذكر الله :

لذلك إذا جلست مع حاج حجَّ حجاً مبروراً، وقبل الله حجَّه، تشعر أنك في جنة، فما هذه الجنة؟ السفر صعب، ترك الأهل أصعب، والإنفاق شديد، والحر شديد، لكن السعادة التي يمتلكها الحاج في اتصاله بالله، مع كل الظروف الصعبة التي تحيط به، هي دليل أن الإنسان لا يطمئن إلا بذكر الله..

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ)

حجَّ البيت أي قصد البيت، اعتمر زار:

(وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ)

[سورة البقرة الآية: 196]

هذا الموضوع لا بد من أن يقودنا إلى الحج، الحقيقة الصلاة شحنة تعينك على أن تصل إلى الصلاةِ الثانية، شحنة قصيرة ؛ الصبح، الظهر، العصر، المغرب، العِشاء، خمس أوقات، كل وقت يضمن لك السلامة والسعادة إلى وقتٍ آخر، ولكن شحنة يوم الجمعة هذه شحنة أطول تكفيك أسبوعاً بأكمله، لكن شحنة الصيام هذه تكفيك مدى العام، أما شحنة الحج هذه مدى العمر، فالحاج إذا ذهب إلى بيت الله الحرام، وعاد منه، فيجب أن يعود إنساناً آخر، يجب أن يعود متقد الفؤاد، لأن صار له هذا القرب من الله عزّ وجل، إلا أن الناس حينما يتأخرون في دينهم، يحجون رياءً وسمعةً أو للتجارة، أما الذي يحج بيت الله الحرام مخلصاً فيرى ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

الله اتخذ هذا البيت ـ للذي ببكة ـ بيتاً له، أمر عباده المؤمنين أن يأتوه زائرين وحاجين، والله يتولّى بذاته مكافأتهم وإكرامهم، قد يقول الحاج: ماذا حصل لي؟ أنت حينما حججت بيت الله الحرام حصل لك القُرب، ومع القرب الأمن، ومع الأمن السلامة، ومع السلامة السعادة، أنت حينما زرت بيت الله الحرام ذقت طعم القرب من الله، عندئذٍ تزهد في الدنيا كلها.

أراد الله أن يجعل الصفا والمروة مكانين لعبادته وطاعته وشعيرتين من شعائر المسلمين:

قال تعالى :

(فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا)

لأن المسلمين في أول عهدهم كانوا يتحرَّجون أن يطّوفوا بين الصفا والمروة، لأنه كان على الصفا صنم، وعلى المروة صنم، فربنا عزَّ وجل أراد أن يجعل من هذين المكانين اللذين دُنِّسا بالصنمين، أن يجعلهما مكانين لعبادته وطاعته، وشعيرتين من شعائر المسلمين..

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا)

يطوَّف: أي سبعة أشواط، لأن هناك فرق بين كَسَرَ وكسَّر، كسر القطعة إلى قطعتين، أما كسَّرها أي إلى قطع كثيرة، فأن يطوَّف أي أن يكون طوافه كثيراً، والنبي اختار سبعة أشواط تجسيداً لكلمة يطوَّف بهما..

(وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)

ثم يقول الله عزَّ وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)

الكبائر وأنواعها :

ذكرت قبل أسبوعين أن هناك كبائر، والكبائر مهلكة، وكلكم يعلم أن الكبائر هي التي توعَّد الله على مرتكبها وعيداً مخيفاً، أو لعنه، أو هي الأعمال التي توجب إقامة الحَد، على كلٍ هناك خلاف بين العلماء في تعريف الكبيرة، لكن من أدق أنواع التعاريف للكبيرة: أنه العمل الذي يستحق فاعله وعيداً من الله عزَّ وجل، أو لعناً، أو غضباً، أو توجب حداً.

فهناك كبائر ظاهرة وهناك كبائر باطنة، الظاهرة كشرب الخمر، وتعلُّم السحر مثلاً، والعلماء عدَّدوها إلى سبعين كبيرة، ولكن الكبائر الباطنة أخطر من الظاهرة بكثير، من هذه الكبائر الباطنة ذكرتها قبل أسبوعين، وهي الأمن من مكر الله، هذه كبيرة، إذا كان الإنسان مقيماً على معصيةٍ، ولا يبالي بها، والله يمدَّه بالمال والقوة، فإذا كنت على معصية، وكان ثمة عطاء من الله لك، ولم تخف، فأنت قد أمنت من مكر الله، الله عزَّ وجل لا يجعل من هذه النعمة نعمة إنما هي نقمة، إنما هي استدراج، فهذه كبيرة من الكبائر الباطنة، الأمن من مكر الله، هناك كبيرة أخرى من هذه الكبائر الباطنة هي اليأس من روح الله، وثمة كبيرة ثالثة هي سوء الظن بالله، وتحدثت عن هذا في الدرس الماضي.

واليوم تحدثت عن كبائر أربعة أو خمسة، من هذه الكبائر كتمان العلم، أي أنت معك معلومات حقيقيَّة، صحيحة من الكتاب والسنة، كنت في موقف، الحاضرون في أمسّ الحاجة لهذه المعلومات، ولكنك إن ألقيتها ضعضعت مركزك، فكتمتها، فكتمان العلم كبيرةٌ من الكبائر التي توجب لعنة الله والناس والملائكة أجمعين..

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ)

بعضهم قال: هم اليهود الذين كتموا صفة النبي في التوراة الله عزَّ وجل وصف رسول الله في التوراة وصفاً دقيقاً، لدرجة أن اليهود يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك كتموا هذه الأوصاف من أجل عداوةٍ، أو حسدٍ، أو بغضاء مع المسلمين، فكتمان العلم من أكبر الكبائر، فالله عزَّ وجل توعَّد هؤلاء الذين يكتمون..

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)

لا سبيل إلى الشعور بالأمن إلا بطاعة الله عز وجل :

مرَّة حضرت مؤتمراً عن الأسرة مدة يومين ـ أول يوم فيه خمس جلسات، وثاني يوم فيه خمس جلسات ـ وقد تمنيت على المحاضرين أن يتكلّموا كلمة عن الدين، وعن الإسلام، أو عن الله عزَّ وجل، وهذا موضوع خطير متعلّق بالدين، وبمنهجنا الاجتماعي، فهناك الآن رغبة بعزل الدين عن الحياة، حقائق الدين مشرقة، حقائق الدين صارخة، حقائق الدين مُسعدة، حقائق الدين غذاء لنا، ومع ذلك الآن تطرح أي موضوع بمعزل عن الدين، ولا كلمة، الكلام كله مادي، كله بعيد عن هذا الدين القويم، يقول لك: قيم روحية، الحس الأخلاقي. أي حس أخلاقي هذا؟

الشيء الحقيقي أن تؤمن بالله أن الله سيحاسب، وتؤمن وباليوم الآخر وتنضبط، أما بحس أخلاقي، يقول لك: قيم روحيَّة ـ شيء جميل! ـ ومشروبات روحية، مثل بعضها، في عزل للدين، حتى المثقف ثقافة عالية حر التفكير، علماني يعتّم على الدين تعتيماً كاملاً، مع أنه بفطرته يعلم أنه لا سبيل إلى سعادة الإنسان إلا بالدين، ولا سبيل إلى الشعور بالأمن إلا بطاعة الله عزَ وجل، فتجد موضوعات إنسانيَّة، موضوعات فلسفيَّة، موضوعات اجتماعية، موضوعات اقتصادية تعالَج بطريقةٍ أو بأخرى بعيداً عن الدين، فهذا ينطبق على هؤلاء، هذه الآية:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)

فهذه الآية في هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله من البيِّنات، أي يعرف الحق لكن المناسب أن يكتمه، فكتمه، ما الذي يحصل؟ طريق السعادة الوحيد هو الله، فإذا أنت قطعتَ الطريق إلى الله منعت الناس من السعادة والسلامة.

طريق السلامة أن تطيع الله وأن تعرفه :

الناس رجلان مقرِّب ومُبْعِد، مُحبِّب ومنفِّر، موصل وقاطع، ليس ثمة ثالث، إما أن توصل الناس بالله، وإما أن تقطعهم عنه، إما أن تحببهم به، وإما أن تنفّرهم منه، إما أن تقنعهم بأحقيّة الدين، أو أن تقنعهم بأحقية الحياة الماديَّة، فالذي يكتم علماً مقدّساً يعرفه ويكتمه حفاظاً على مكانته، أو طلباً لسلامته، ماذا فعل؟ قطع الناس عن الله عزَّ وجل.

((يا رب ، أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال : أحب عبادي إلي تقي القلب ، نقي اليدين ، لا يمشي إلى أحد بسوء ، أحبني ، وأحب من أحبني ، وحببني إلى خلقي))

[ورد في الأثر]

فإذا كان طريق السلامة هو أن تعرف الله، طريق السلامة أن تطيع الله، توجد نقطة بالحياة؛ في عندنا مشكلات كثيرة، كل مشكلة تعد عن الجهلة بحد نفسها مشكلة، أما الحقيقة فكل هذه المشكلات أعراض لمشكلةٍ واحدة هي الإعراض عن الله، هذه اسمها أعراض الإعراض؛ ما يعاني الناس من ضيق، من خوف، من قلق، من جفاف، من كساد، هذه كلها تأديبات من الله، فأهل الدنيا يبعدون الدين عن حل هذه المشكلات، يريدون أن يحلوها بطريقةٍ مادية، والطريق هذا قد يكون مسدوداً، أما حينما تقول للناس:

(وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً)

[سورة الجن الآية: 16]

حينما تربط الناس بالله عزَّ وجل، حينما تطمئنهم أن الأمر بيد الله، لا بيد زيد ولا عُبيد، الشرك يقطع الناس عن الله:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)

[سورة النساء الآية: 116]

أكبر عقاب يعاقب الله به أعداءه أن يحجبهم عنه:

أنت عندما تبيِّن أن الأمر بيد الله عزَّ وجل، ولا توجد أي جهة أرضيَّة بيدها الأمر:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر الآية: 62]

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

[سورة الأعراف الآية: 54]

الأمر له، فهذا كلام مريح للنفس، هذا كلام مطمئن، فأنت حينما تعتِّم على حقائق الدين، تعتم على التوحيد، تعتم على أن الدين هو ملاذ الإنسان بالله، حينما تعتم على أن الدين هو المُسعد الحقيقي، حينما تعتم عن أن منهج الله هو المنهج الوحيد الموصل إلى السعادة، أنت حينما تعتم على هذه الحقائق تقطع الناس عن الله، توقعهم في الشقاء الدنيوي و الأخروي، لذلك هؤلاء المعتّمون يلعنهم الله، أي يبعدهم عنه، وأكبر عقاب يعاقب الله به أعداءه أن يحجبهم عنه..

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

[سورة المطففين الآية: 15]

(وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)

اللاعنون هم الخلق كافة، حتى البهائم، فالإنسان حينما يبتعد عن الله يقسو قلبه، فإذا عالج بهيمة قسا عليها، النبي عليه الصلاة والسلام رأى بعض أصحابه يذبح شاةً أمام أختها فوبخَّه وقال: هلا حجبتها عن أختها :

((أو تريد أن تميتها مرتين.))

[الطبراني عن عبد الله بن عباس]

الناس رجلان :

المؤمن في قلبه رحمة، فكل من في الأرض، وكل ما في الأرض يلعن الذي يُبعد الناس عن الله عزَّ وجل، ليس هناك شخص ثالث، مقرِّب ومبَعِّد، محبب ومنفِّر، واصل وقاطع، الناس رجلان؛ رجل يدعو إلى الله، ورجل يبعد الناس عن الله، الأول يدعوهم إلى طاعته، يدعوهم إلى معرفته، يدعوهم إلى اتباع سُنَّة نبيه، يقدم لهم نموذجاً حياً صادقاً مخلصاً؛ والثاني يحببهم في الدنيا، يرغبهم في متاعها، وفي مالها، يبعد عنهم شبح الآخرة، فإذاً لماذا هؤلاء:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)

يلعنهم الخلق كافة، حتى غير الإنسان، فمرَّة وجدت إنساناً يبيع السمك الطازج، يصطاد السمك، والسمك يتحرَّك حركة عشوائيَّة، يذبحه ويخرج أحشاءه، قبل أن يسكن، والله يقول:

(فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا)

[سورة الحج الآية: 36]

أي سكنتْ، رأيت إنساناً يأخذ دجاجة، يذبحها ويضعها في ماءٍ يغلي فوراً، حتى يسهل عليه نتف ريشها، هذا وحش، فهي مخلوق له روح، ذبحتَها، اِنتَظر حتى تهدأ، ثم ضعها في ماءٍ ساخن، وهي لا تزال تشعر وتحس فهذا في قلبه قسوة.

الذي يكتم ما أنزل الله يبعد الناس عن الله :

اللاعنون الخلق كافة، فالبعيد عن الله كيفما تحرَّك يؤذي، لذلك المؤمن إذا مات تبكي عليه السماء والأرض، أمّا الكافر:

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ)

[سورة الدخان الآية: 29]

لأنه مؤذٍ، فالذي يكتم ما أنزل الله يبعد الناس عن الله، عن طريق السعادة قطعهم عنه، عن طريق الأمن قطعهم عنه، عن طريق التوفيق قطعهم عن الله، عن طريق الطمأنينة قطعهم عنه، عيَّشهم بالدنيا، وبهموم الدنيا، قال: هؤلاء..

(يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ)

يبعدهم الله عن رحمته، ويلعنهم الخلق كافة..

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا)

هذه رحمة الله، دائماً في استثناء..

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

إذا كان ثمة كتمان وجب أن يكون عند التوبة تبيين، تابوا عن كتمان العلم، وأصلحوا ما أفسدوا سابقاً، وبينوا..

(فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

الدين أساس الأمن و الطمأنينة عند الإنسان :

أحد أخواننا له صديق يعاني من أزمة نفسيَّة، فأخذه إلى طبيب نفسي، فالطبيب سأله عن أحواله، قال له: هل له درس علم؟ فقيل له: نعم، فقال له: هذا السبب ـ هو درس بأوروبا، وتعلّم أن الدين يخدر الإنسان، ويعقّده، فبحسب دراسته يجب أن يكون لهذا الشاب صديقة لكي يكون سويّاً، ويجب أن يكون منفتحاً على الحياة، ويفعل كل شيء بلا قيد ليؤكد شخصيَّته ـ فهذا الأخ فهيم، قدَّم لهذا الطبيب عشرة أشرطة وكتاباً، هذا الطبيب يبدو أنه صادق، ولكن غابت عنه الحقائق، عكف على قراءة الكتاب، وسماع هذه الأشرطة، وبدَّل كلامه مئة وثمانين درجة، صار يقول: الدين يخلق صحَّة نفسيَّة عند الإنسان، الدين أساس الأمن عند الإنسان، أساس الطمأنينة، أساس التألّق، فهذه الحقائق غابت عنه، فلما عرف الحقيقة بيَّن عكسها، هذا وأمثاله يكرمهم الله عزَّ وجل..

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا)

الطبيب النفسي يعد السلوك المنحرف هو السوي، والسلوك المنحرف والتفلت من منهج الله هو الصحَّة النفسيَّة، أما الانضباط يعده عقدة، هكذا الأمر في الأطباء الذين درسوا علم نفس في جامعات أوروبا، والجامعات الغربيَّة أساسها الشخص الغربي، ليس له منهج يسير عليه إطلاقاً..

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

الدين سبب الصحة النفسية للإنسان :

لفت نظري هذا الطبيب أنه خلال تفُّهمه لحقائق الدين ـ وإن كانت سريعة ـ صار يتكلم كلاماً عكس الكلام الأول ؛ إن الدين سبب الصحة النفسية للإنسان، الدين يُحدث توازناً، يُحدث طمأنينة، يُحدث شعوراً بالأمن..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

طبعاً إذا مات الإنسان المؤمن فليس له أيّة مشكلة، أما إذا مات الكافر فله جهنم خالداً مخلَّداً فيها..

(عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

وهذا إن شاء الله نبيِّنه في الدرس القادم نبدأ به.

التفسير المطول - سورة البقرة 002 - الدرس (53- 95):تفسير الآيات 163-164 ، الآيات الكونية موضوعات للتفكر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-08-1999

بسم الله الرحمن الرحيم

الحقيقة العظمى التي ينبغي أن يُعلن عنها دائماً أن هناك إله واحد :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الثالث والخمسين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الثالثة والستين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

الله جل جلاله بعد أن قال:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ)

[سورة البقرة الآية : 159]

ما الحقيقة الكبرى التي ينبغي أن تُبيَّن، وما الحقيقة العظمى التي ينبغي أن يُعلن عنها دائماً:

(وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

كلمة

(وإلهكم)

أيُّ إنسان بفطرته يعتقد أن هناك إله عظيم، خلق الكون، هذا الاعتقاد بأن لهذا الكون خالقاً عظيماً يستوي فيه البشرُ جميعاً، حتى الوثنيين، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)

[سورة الزمر الآية: 3]

الله عز وجل ليس خالقاً فقط بل مسيِّراً:

الموضوع اليوم في هذه الآية أن هذا الإله العظيم الذي خلق السماوات والأرض، هو بيده كل شيء، ليس خالقاً فقط بل مسيِّراً، الله ليس خلاّقاً بل فعَّالاً، بيده أدقُّ التفاصيل، قال تعالى:

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا)

[سورة الأنعام الآية: 50]

كل قصص القرآن الكريم مؤدّاها أن الله عز وجل إله قيّوم فعَّال مُهيمن، لذلك قال: إلهكم أيها الناس إله واحد، في أزمان البُعد عن الله توهَّم الناسُ آلهة غير الله، الجهة التي تخافون منها والجهة التي

تعظّمونها هي جهة واحدة، هي الله، أناس عبدوا الشمس وأناس عبدوا البقر، وأناس عبدوا مظاهر الطبيعة، الذي تخافه، وترجوه، وتعتقد أن الأمر كله بيده هو الله، ولا إله آخر معه أبداً، قال تعالى:

(وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

هذا كلام خطير أيها الأخوة؛ إنسان مسلم عادي قد يتوهَّم أن زيداً بإمكانه أن يرفعه، وعُبيداً بإمكانه أن يناله بأذى، وفلاناً يعطيه وفلاناً يمنعه، هناك شِرك خفي، الجهة الوحيدة المتصرِّفة، الجهة الوحيدة الفعالة، الجهة الوحيدة التي بيدها كل شيء هي الله وحده، قال تعالى:

(وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

طبعا كلمة " واحد " أي لا ثاني له، و كلمة أحد أي لا مثيل له، ليس له شريك وليس في خلقه من يشبهه، إذا قلنا واحد، لا ثاني له لأن " واحد " وصف كمِّي، أما إذا قلنا: "أحد " فهو وصف نوعي، قد نقول: هذا الطالب هو الرابع على صفه، هو واحد لكنه الرابع، هذا وصف نوعي، أما إذا قال: جاء أربعة طلاب هذا وصف كمي، فكلمة " واحد " أي لا ثاني له، و كلمة " أحد ": أي لا مثيل له، لا يشبهه شيء.

أجمل ما في حياة المؤمن هذا التَّوجُّه إلى الله عز وجل :

قال تعالى:

(وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

أجمل ما في حياة المؤمن هذا التَّوجُّه إلى الله عز وجل، حياة المنافق، قال تعالى:

(مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ)

[سورة النساء الآية: 143]

الإنسان حينما يشرك يتوزَّع، يتمزَّق، و إرضاء الناس جميعاً غاية لا تُدرك، إرضاء الناس جميعاً مستحيل، فالذي يتعامل مع الله وحده يستريح، هذا الإله العظيم يراه، ويسمع نداءه، ويستجيب لدعائه، وهو عليم بسريرته، عليم بمخبره، وعليم ببواعثه، عليم بنواياه، لا تخفى عليه خافية، لا يحتاج إلى إيصال، ولا إلى شهادة، علاقتك مع الله عز وجل، إن أخلصت النية لله عز وجل أنت في راحة نفسية مع الخلق، قال تعالى:

(وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

الذي خلق الكون هو الفعال، هو المسيِّر، هو المتصرِّف، هو المالك، هو المعطي، وهو المانع، هو الرافع، هو الخافض، هو المعزُّ، هو المذل، هو القابض، هو الباسط، هو المُسْعِد، هو المشقي، هو المُسَلِّم، هو الحافظ، هو الذي يسوق للإنسان الشدائد، بيده كل شيء، هذا هو التوحيد، وهذا هو الدين كله.

الإنسان المؤمن يعيش في التوحيد أما غير المؤمن فيعيش في الشرك الخفي :

قال تعالى:

(وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

أي الجهة التي ينبغي أن تُعبد، والجهة التي ينبغي أن يُخاف منها، الجهة التي ينبغي أن تُرجى هي الله، و لا إله إلا الله. لذلك الإنسان المؤمن يعيش في التوحيد، والتوحيد مريح، أما غير المؤمن فيعيش في الشرك الخفي، وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ فَقَالَ:

((أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنْ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ: الشِّرْكُ الْخَفِيُّ؛ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ))

[ابن ماجه عن أبي سعيد]

أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً و لا حجراً، أن يُعبد صنمٌ في بلاد المسلمين فهذا شيء انتهى، مستحيل، ما الذي نخافه؟ أن يؤلّه بعضُنا بعضاً، أن يتّكل بعضنا على بعض، أن نعلّق الآمال على مخلوقين.

أخواننا الكرام... أصحاب النبي الكرام قالوا كلمة فتخلّى الله عنهم، قالوا: لن نغلب من قلة، نحن الآن كثيرون، هذا شرك، اعتمدوا على كثرتهم لا على الله، قال تعالى:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

[سورة التوبة الآية: 25]

إذاً أنت أيها المؤمن بين حالين؛ بين أن تقول: أنا؛ أنا بتحصيل العلم، أنا بذكائي الفطري، أنا ابن فلان، أنا أحمل شهادة نادرة جداً، أنا عملت عملاً عظيماً جبَّاراً، إذا قلت: أنا، تخلى الله عنك، أوكلك إلى نفسك، و إذا قلت: الله، تولاّك، فأنت بين التولي والتخلي، بين أن تنسب ما أنت فيه من الخير إلى ذاتك فهذا شرك خفي، يتخلى الله عنك، أي لو أن إنساناً مدحك، لماذا مدحك؟ قال بعض العلماء (ولعله صاحب الحكم العطائية) ابن عطاء الله السكندري: **"ما مدَحَك من مدحك و إنما مدح من مَنَحك"**.

رؤية المؤمن رؤية توحيدية :

إذا أعطاك الله فهماً دقيقاً، أو لساناً طليقاً، أو حكمة، أو أعطاك قدرة على كسب المال، أو أعطاك قدرة على الفهم، فإذا مدحك إنسان و كنت أنت موحِّداً، يجب أن تذوب خجلاً من الله عز وجل، لأن هذا الذي مدحك لولا أن الله منحك لما مدحك، فهو في الحقيقة يمدح من منحك، لا يمدحك أنت،

" **ما مدحك من مدحك و إنما مدح من منحك** "، فالمؤمن كلما سمع ثناء الناس عليه ذاب تواضعاً لله عز وجل، ذاب شكراً له.

أنا لا أنسى أخاً كريما تبرَّع ببيت غالٍ جدا، تبرَّع به لعمل طيِّب، أُقيم له حفل تكريم، وكل من ألقى كلمات أشادوا بإحسانه وفضله، إلا أحد أخوتنا الكرام، لفت نظره فقال له: أيها المحسن الكريم كان من الممكن أن تكون أحد المنتفعين بجمعيتنا، ولكن الله كرَّمك فجعلك معطياً لا آخذاً تأخذ.

أنت حينما تمشي في الطريق، وترى من ينقّب في الحاوية، ليأكل شيئا فاسداً من شدَّة الجوع، كان من الممكن أن تكون مكانه، اشكُر اللهَ عز وجل على أن كفاك، على أنه لم يجعلك تقف هذا الموقف الصعب، فالإنسان الموحِّد لا يرى إلا فضل الله عليه، أي إذا دخل الخلاء وأراد أن يفرغ مثانته، هذه نعمة كبيرة جداً، لو أن هذا الماء حُبِس في المثانة لاحتاج إلى عملية وإسعاف وتخدير وتنويم، لو أن هذا الكأس مُنِع عنك تشتريه بنصف ما تملك.

أحد المرضى مصاب بفشل كلوي، ذهب إلى غسيل كليته في المستشفى، قالت له الممرِّضة بعنف وبقسوة: لا تشرب ماء، الآلة معطّلة، فأنت حينما تشرب الماء كما تشتهي، كأساً واثنين وثلاثاً وأربعاً، هذه نعمة لا نعرفها إلا إذا فقدناها، مسموح لك أن تشرب ماء بقدر ما تريد، ومسموح لك أن تأكل، مسموح لك أن تمشي، مسموح لك أن تخدم نفسك بنفسك، فلذلك المؤمن حينما يرى فضل الله عليه و يستمع إلى ثناء الناس عليه، ينبغي أن يذوب خجلاً، ويجد الذين يمدحونه إنما يمدحون من منحه ولا يمدحونه هو.

هذا التوحيد أن ترى أن الله وراء كل شيء، و فوق كل شيء، ومع كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، هذه رؤية المؤمن رؤية توحيدية، فنعمة السمع ونعمة البصر ونعمة العقل الذي في رأسك.

ليس بعد نعمة الإيمان من نعمة إلا نعمة الصحة :

مرة كنا في حفل في أطراف المدينة، ضَمَّ الحفل أكثر من ألف شخص، و دُعِي لهذا الحفل أكثر علماء دمشق، إنسان مجنون تكلَّم بكلام لا يُحتمل، سبَّ سباباً لا يُحتمل، قلت: يا ربّ ما الحكمة من وجود هذا الإنسان الذي أفسد هذا المجلس كله، كأن الله عز وجل يريد أن يبيِّن لنا نعمة العقل، إنسان عقله سليم، يتكلَّم عند الضرورة، أحياناً يصمت وأحياناً يتكلم، يجلس، يقف، يمشي، هذه نعمة كبيرة جداً، لأن عندك تمييز، فنعمة العقل و نعمة البصر و نعمة السمع و نعمة الحركة، لو أن الإنسان فقَدَ حركته نرى أن خدمته أول أسبوع خدمة ممتازة، ثاني أسبوع أقل، بعد ذلك أقرب الناس إليه يتمنى موته، وقد يسمع ذلك بأذنه: " **خفف الله عنك** "، صار الإنسان بلا حركة، أصبح عبئاً ثقيلاً جداً.

إذا تحرك الإنسان، أي سمعه و بصره و أجهزته و أعضاؤه سليمة فهذه نعمة كبرى، لذلك ليس بعد نعمة الإيمان من نعمة إلا نعمة الصحة، و ليس بعد نعمة الصحة من نعمة إلا نعمة الكفاية، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِناً فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[الترمذي عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ]

قال تعالى:

(وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

هذا هو التوحيد، ما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد، علاقتك مع جهة واحدة، حسابك مع جهة واحدة، اعتمادك على جهة واحدة، أملك بجهة واحدة، و رجاؤك بجهة واحدة، هذه الجهة واحدة، كل شيء متعلّق بها، قال تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

[سورة هود الآية: 123]

كله توكيد؛ فَاعْبُدْهُ.. وما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله راجع إليه.. وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ.

ما سوى الله عز وجل إما منعَم عليه وهو الإنسان وإما نعمة وهو الكون :

قال تعالى:

(وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

لأنه كان هناك أصنام وشركاء لله عز وجل من باب التأكيد..

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

إلهكم الذي ينبغي أن تعبدوه هو الله وهو إله واحد، ومزيداً من التوكيد..

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

ما سوى الله هو الكون، إما أنه نعمة، وإما منعَم عليه، والإنسان منعَم عليه، والكون كله نعمة، عطاء، مصدره الرحمة، والإنسان يأخذ فمتى يعطي؟ إذا كان في قلبه رحمة، الإنسان يأخذ المال فمتى ينفق المال؟ إذا هناك رحمة، و الإنسان يأكل فمتى يطعِم؟ والإنسان يعالج نفسه فمتى يعالج غيره؟ إذا هناك رحمة، فما سوى الله عز وجل إما منعَم عليه وهو الإنسان، وإما نعمة وهو الكون، والله عز وجل سخَّر لنا ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، وكما يقول بعض العلماء: أساس خلق السماوات والأرض رحمةُ الله، لذلك قالوا: هو اسم الله الأعظم، أي أراد الله أن يخلق خلقاً ليسعدهم، قال تعالى:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود الآية: 119]

خلقهم ليرحمهم.

من تفلت من منهج الله سقط في وحل الشهوات :

ما يجري في الأرض الآن من مصائب فهذه محض رحمة أيضاً، قال تعالى:

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

[سورة الأنعام الآية: 147]

إذا تفلّت قوم من منهج الله سقطوا في وحل الشهوات، وعاشوا حياة الإباحية، أداروا ظهورهم لمنهج الله، سمعت تعليقاً لفت نظري: لو أن مئة طائرة من أحدث طائرات العالم قصفت منطقة ثلاثين يوماً بشكل مستمر ليلاً و نهاراً، ما استطاعت أن تخرَّب ما خرَّبه الزلزال في خمس وأربعين ثانية، قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: 12]

مئة طائرة تقصف هذه المنطقة ثلاثين يوماً ليلاً ونهاراً لا تستطيع أن تخرب ما فعله هذا الزلزال في خمس وأربعين ثانية فقط؟! هذا الذي ينسى الله عز وجل، قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً)

[سورة الإسراء الآية: 58]

أي بلد جميل، أخضر، تجارة عريضة، أموال متدفّقة، ونساء كاسيات عاريات ومحطات فضائية و تفلّت و ملاهي و قمار و زنا وفجور، من دون معالجة إلهية!! مستحيل، لا بدَّ من تدخُّل الإله فعال.

الله عز وجل موجود ومن حين لآخر يظهر آياته للناس :

قال تعالى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

[سورة النمل الآية: 61]

الأرض مستقرة، تنشئ بناء من عشرين طابقاً مستقراً، زلزال بثمان درجات من مقياس ريختر لا يُبقي شيئاً، ست درجات يكون مدمِّراً، خمس مخيف، هزَّة أرضية خفيفة، أما ثمان درجات فلا تبقي ولا تذر، قال تعالى:

(فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا)

[سورة الحجر الآية: 74]

فالله عز وجل موجود، ومن حين لآخر يظهر آياته للناس. هناك أعاصير في أمريكا أضرارها ثلاثون ملياراً، إعصار واحد، رياح سرعتها ثمانمئة كيلو متر في الساعة، قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: 12]

خلقنا ليسعدنا فلماذا الزلازل؟ ولماذا الفيضانات؟ ولماذا الأعاصير؟ ولماذا الصواعق؟ ولماذا الحروب الأهلية؟ ولماذا القهر؟ ولماذا المجاعة؟ ولماذا المرض؟ كل هذا تلخِّصه آيةٌ واحدة، قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة الآية: 21]

معنى الفساد :

قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

[سورة الروم الآية: 41]

التفاصيل مخزية، ما يجري في العالم في موضوع الرقيق الأبيض، ودور البغاء في العالم، والانحرافات الإباحية، زنا المحارم، وتبادل الزوجات، في العالم كله، قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

[سورة الروم الآية: 41]

الفساد أيها الأخوة؛ أن تخرج الشيء عن طبيعته التي خلقها الله عز وجل، هذا الماء الله خلقه لا طعم له و لا رائحة وهو صافٍ، هذه طبيعته، لو كان له رائحة كريهة معنى ذلك أنه ماء فاسد، لو كان فيه عكر لكان ماء فاسداً، الفساد أن تُخرج الشيء عن طبيعته، فتاة طاهرة نقية عفيفة، هذه الله عز وجل خلقها على فطرة سليمة، من أجل أن تكون زوجة ثم أمّاً ثم جدة، تسعِد و تسعَد، فالذي أفسدها وجعلها مومساً ماذا فعل بها؟ أفسدها وأخرجها عن طبيعتها، قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

[سورة الروم الآية: 41]

الإنسان أساسه مخلوق مخيَّر، أودعت فيه الشهوات لترقى به إلى الله وفق منهج حكيم، فتحرَّك بدافع من هواه بلا منهج، سيارة من أحدث الصناعات مصمَّمة كي تسعدك، لكن هناك مقود وتحتاج إلى سائق ماهر، فالسائق إذا شرب الخمر وغاب عن الوعي، ونزل في الوادي، وتحطَّمت السيارة، وأهلكت صاحبها، هل الخطأ في الصنعة؟ لا، في الذي يستخدم هذه الآلة، المستخدِم هو الخطأ، فالفساد أساسه الإنسان.

سبب المصائب ابتعاد الناس عن منهج الله عز وجل :

قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

[سورة الروم الآية: 41]

كان من الممكن أن لا يذيقهم الذي عملوا، لكن شاءت حكمة الله أن يذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون.

تصوَّر إباحية العالم بشيء مخيف مع وجود الإيدز، فكيف تكون هذه الإباحية من دون هذا المرض؟ في الجامعة عندنا رسموا لوحة رمزية شاب وفتاة: **" احذر الإيدز"**، في الخمسينات: **" احذر غضب الله"**، كان الناس يخافون أن يعصوا ربهم، الآن يخافون الإيدز، يبتعدون عن الزنا مخافة هذا المرض، مُسِخوا قردة و خنازير، طبعاً، المسخ قد يكون مسخاً معنوياً، بدل أن تخاف الله وأن تكون عفيفاً كسيدنا يوسف، الآن تخاف الإيدز، قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة الروم الآية: 41]

قال تعالى:

(وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

هذا الكلام كله سبب ذكره أن الله عز وجل خلق هذا الخلق كله من أجل أن يسعدنا، لكن لماذا هذه المصائب؟ لأن الإنسان ابتعد عن الله عز وجل، فلا بدَّ من شيء يُعيده إلى الله عز وجل، ثم إن هذه الألوهية والوحدانية يؤكّدها الكونُ.

إعجاز الله في الكون :

قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هل هناك في الأرض جهة غير الله تدَّعي أنها خلقت الكون؟ أبداً، لو هناك إله آخر لسمعنا رسالته، هل هناك جهة غير الله تدَّعي أنها خلقت السماوات والأرض؟ قال تعالى:

(وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)

والدليل قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

نقف عند السماوات والأرض، أحدث رقم مئة ألف مليون مجرة، في كل مجرة تقريباً مئة ألف مليون نجم، والشمس نجم، أما الأرض كوكب، والشمس نجم ملتهب، وهي تتسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض، المجموعة الشمسية كلها قطرها الزمني ثلاث عشرة ساعة، درب التبانة بمجرتنا،

قطرها الزمني، طولها الزمني مئة وخمسون ألف سنة ضوئية، والثلاث عشرة ساعة نقطة في هذه المجرة، ومجرتنا مجرة معتدلة، والحديث عن الكون لا ينتهي، فالسماوات والأرض كون كله يتحرك، لو لم يتحرك لأصبح كتلة واحدة بفعل الجاذبية، أما هذا الكون كله متحرك، حركة ينشأ عنها قوة نبذ، هذه القوة النابذة تكافئ القوة الجاذبة، إذاً الكون يتحرك بشكل متوازن.

التوازن الحركي :

مرة ضربت مثلاً: لو وضعنا لإنسان اختصاصه الفيزياء قطعتين مغناطيسيتين متساويتين متكافئتين في مكانين على سطح صقيل، وجئنا بكرة حديدية بينهما، وقلنا له: أنت مكلف أن تضعها في مكان متوسط بحيث تتكافأ قوةُ جذب كل جهة مع الثانية، تستقر، هذا فوق طاقته، لو تحركت عشر الميليمتر تنجذب إلى جهة، أما أن تضعها في مكان تستقر بحيث تتكافأ قوى التجاذب هذا فوق طاقة الإنسان، ولو أن الكتلتين غير متساويتين أصعب بكثير، ولا بد لها من حسابات دقيقة جداً، لو كانت ثلاث كتل، ولو أن هذه الكتل في فراغ، لو أنها متحركة، تصوَّر كتل متفاوتة الحجم متحركة متجاذبة، المحصلة: نظام دقيق جداً، المحصلة أن ساعة " بيغ بن " هذه أدق ساعة في العالم تُضبط على أحد النجوم، قد تقصِّر أو تقدم في العام ثانية واحدة، والنجم لا يتغيَّر، معنى ذلك أن الدقة في الحركة مذهلة، ومع التفاوت في الحجم والسرعة والمسافات والحركة الدائمة الكون مستقر، يُسمى هذا بالتوازن الحركي، قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هل هناك جهة غير الله تدَّعي أنها خلقت السماوات؟

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

نحن في المدن لا نرى السماء، قلّما نراها، لو ذهبت إلى الريف، واستلقيت على الأرض، ونظرت إلى السماء في أيام غياب القمر، المنظر مدهش، هذا النجم الأبيض مرَّ بمرحلة ثانية، والنجم الأحمر يكون نجما فتيّاً، بعد ملايين مَلايين ملايين السنين ينقلب إلى نجم أبيض، ثم إلى نجم أسود، ينتقل من نجم أحمر، إلى نجم أبيض، إلى نجم أسود، والأسود صار مقبرة، لو دخلته الأرض، لو دخلت الأرضُ ثقباً أسودَ لأصبح حجمها بحجم البيضة، مع الوزن نفسه، هذه قوى الضغط.

الأرض والشمس من آيات الله الدالة على عظمته :

قال تعالى :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أيْ إذا كان بيننا وبين أقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية، لو أردنا أن نصل إليها بسيارة نحتاج إلى خمسين مليون سنة، انظر سيدنا عيسى جاء قبل ألفي سنة تقريباً، من أجل أن نصل إلى أقرب نجم ملتهب نحتاج إلى خمسين مليون سنة ضوئية بالسيارة، نجم القطب أربعة آلاف سنة، في المجرة المسلسلة، المرأة المسلسلة مليوني سنة، هناك أربعة وعشرون ألف مليون، ما هذه المسافات؟ قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

[سورة الواقعة الآيات: 75-76]

الشمس نبع ضوئي حراري والأرض هنا، ولو أن الأرض لا تدور حول نفسها لانتهت الحياة، الوجه المقابل للشمس ثلاثمئة وخمسون درجة والوجه الآخر مئتان وسبعون تحت الصفر، لا حياة، تدور، إذاً من أين جاء تعاقبُ الليل والنهار؟ من دورانها حول نفسها، لو أنها تدور هكذا لا هكذا، الشمس هنا و الأرض هنا و تدور هكذا، أي باللغة الرياضية تدور على محور موازي لمستوى دورانها حول الشمس، أيضاً كأنها واقفة، قسم يدور هكذا مقابلاً للشمس ثلاثمئة وخمسون، وقسم مئتان وسبعون تحت الصفر، انتهت الحياة، بقي أن تدور هكذا الشمس هنا، لو دارت هكذا على محور متعامد مع مستوى دورانها هكذا صيف أبدي، وشتاء أبدي، وربيع أبدي، وخريف أبدي، لا يوجد فصول، لكن جلّت حكمة الله عز وجل فجعل الأرض تدور على محور مائل، ولما كان مائلاً صار للأرض وضعان؛ الشمس هنا، وهنا شمال الكرة الأرضية صيف، الأشعة عمودية، جنوباً شتاء، الأشعة مائلة، في الفصل المقابل انعكست الآية صار هناك فصول، إذاً لولا دورة الأرض حول نفسها على محور ليس موازٍ لمستوى دورانها لما كان ليل ولا نهار، لو دارت على محور عمودي لأُلغيت الفصول، إنها تدور على محور مائل، فصار هناك ليل ونهار.

اختلاف الليل و النهار لها معان كثيرة :

الآن.. اختلاف الليل و النهار لها معان كثيرة.

1 ـ تعاقب الليل و النهار:

أول معنى: تعاقب الليل و النهار.

2 ـ اختلاف طول الليل و النهار من فصل إلى فصل:

المعنى الثاني: اختلاف طول الليل و النهار من فصل إلى فصل من سبع عشرة ساعة إلى اثنتي عشرة ساعة، بين الشتاء وبين الصيف، الليل في الصيف قصير، والشتاء طويل، والنهار في

الصيف طويل وفي الشتاء قصير، فاختلاف الليل والنهار، تعاقب الليل والنهار، أو تبدُّل أطوال الليل و النهار، هذا من آيات الله، لو افترضنا أن إنساناً تصوَّر حركة الأرض حول نفسها وحول الشمس ومستوى دورانها ومحورها المائل لرأى شيئاً مذهلاً. من هذه الآيات، قال تعالى:

(وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ)

لماذا جعل الله البحر أربع أخماس اليابسة؟ لأن الأرض تحتاج إلى أمطار، والأمطار تحتاج إلى تبخُّر، فلا بدَّ من مسطَّحات مائية واسعة جداً، البحر همزة اتِّصال بين القارات، ولكن كيف ننتقل عبره؟ لا بدَّ من مراكب، ما الذي يمنع المراكب أن تغرق في البحر؟ الله خلق قوة في البحر اسمها قوة دفع أرخميدس، كشفها العالم أرخميدس، إذا أنت حملت وعاء فيه ماء له وزن و تشعر بوزنه، قد يكون عشرين كيلو، ضعه في بركة ماء، تجد أن نصف وزنه ذهب، لأن في الماء قوة دافعة نحو الأعلى، لولا هذه القوة لما كان هناك شيء اسمه بواخر في البحر، البواخر أداة اتِّصال بين القارات، كل الخيرات التي ترونها بسبب التبادل التجاري في العالم، لماذا المقاطعة مخيفة جداً، قد تمنع التبادل التجاري، الله جعل الأرض كلها متكاملة، فأي بلد يُقاطَع اقتصادياً يموت أهله، فالله جعل هذا البحر أداة اتصال بين القارات، وجعل فيه القوة الدافعة نحو الأعلى، وتماسك الذرَّات المائية، ينشأ عن هذا التماسك قوة دفع نحو الأعلى، الذرات المائية ترفض أن تتباعد ، ورفضها أن تتباعد بالمقابل قوة نحو الأعلى، تجد باخرة حمولتها مليون طن، الآن هناك بواخر حمولتها مليون طن، مدينة في البحر تسير، ما الذي يمنعها أن تقع في القاع؟ هذا الخلق الإلهي، قال تعالى:

(وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ)

الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله :

نتابع الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله؛ الله عز وجل ذمَّ وتوعد أولئك الذين يكتمون العلم، وقال: ينبغي أن تبيِّنوا أن إلهكم إله واحد، وأنه الرحمن الرحيم، وهذا الدليل، وهذا هو الطريق إلى الإيمان بإله واحد، قال تعالى:

(وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

قال تعالى:

(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)

[سورة الأنبياء الآيات: 30]

أي قضية الماء قضية الحياة في الدنيا، فأينما وجُد الماء وجدت الحياة، الماء فُقِد تُفقد معه الحياة، وربُّنا عز وجل ـ أقولها مرات كثيرة ـ: إذا قنَّن فإن تقنين الله تقنين تأديب لا تقنين عجز ولا تقنين بخل، الإنسان يقنِّن تقنين عجز، أو تقنين بخل، إلا أن الله إذا قنَّن يقنن تقنين تأديب، قال تعالى:

(وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة الجن الآيات: 16-17]

قال تعالى:

(وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ)

الرياح من آيات الله الدالة على عظمته :

قال تعالى :

(وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ)

أي الماء يُنبت الزرع، والزرع يأكله الحيوانُ، والإنسان ينتفع بالنبات والحيوان معاً، لذلك لو انعدم المطر لهلك الزرع والضرع، وهلك الإنسان، قال تعالى:

(وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ)

هذه الرياح من آيات الله الدالة على عظمته، أي الهواء، تحرُّك الهواء نعمة كبرى، كيف يتحرك؟ الله جعل الهواء كأيِّ عنصر يتمدَّد بالحرارة وينكمش بالبرودة، وجعل مناطق حارة في خطّ الاستواء، ومناطق باردة في القطب، فالهواء في القُطب منكمش، ضغطه عالٍ، والهواء في الاستواء ضغطه منخفض، من فروق الضغط بين القطب وخط الاستواء تنشأ حركة رياح، والهواء الثقيل يهرب إلى المكان المُخَلخَل، فهذه من نعمة الله، ومع دوران الأرض تنشأ تيارات من الهواء من الشمال إلى الجنوب الشرقي هكذا، الرياح الغربية، تأتي شمالية غربية تقريباً، هذه الرياح تسوق السحاب، والسحاب فيه أمطار:

(حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)

[سورة الأعراف الآية: 57]

قال تعالى:

(وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

ما الذي يحمل السحاب؟ وكيف أن الله عز وجل صممَّ الهواءَ أن يحمل السحاب، والهواء مصمَّم أن يحمل السحاب، المتر المكعب من الهواء يتحمَّل كمية بخار ماء معيَّنة، بحرارة معينة، فلو أن الحرارة انخفضت لعُصِر بخارُ الماء، وانقلب إلى قطرات ماء، هو السحاب بخار ماء، هناك بخار ماء شفّاف، الآن هناك بخار ماء، ولو عندنا مقياس رطوبة؛ دمشق خمس وثلاثون رطوبتها تقريباً، وفي الساحل تسعون، وفي الأماكن الجافة عشرة، كلما كان هناك جهاز يقيس الرطوبة الشفافة، السحاب رطوبة كثيفة، هذا السحاب محمول بالهواء ، والهواء من خصائصه أنه يحمل بخار الماء،

كل درجة حرارة تقابلها كمية بخار ماء محمولة، فالحرارة إذا انخفضت فجأةً، الماء يعصر بخار الماء ويقلبه إلى ذرات.

السحاب رحمة الله عز وجل :

قال تعالى:

(ِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً)

[سورة النبأ الآية: 14]

هذا النظام مَن خلقه ومَن نظَّمه ومَن قنَّنه؟ قال تعالى:

(وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

وقال :

(خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

مسخَّر حملاً، ومسخر تنقُّلاً، من ينقل السحاب من مكان إلى مكان؟ الإنسان إذا ركب طائرة يرى السُحُب من أعلى كأنها جبال بكل معاني هذه الكلمة، وديان، وجبال، وتلال، وقمم مؤنَّفة، وقمم منبسطة، هذا السحاب رحمة الله عز وجل.

الآيات الكونية هي طريق معرفتنا بالله عز وجل :

قال تعالى :

(خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

تصريف الرياح؛ رياح شرقية ورياح غربية، رياح معتطلة، نسيم عليل، عواصف هوجاء، أعاصير مدمِّرة من حيث سرعتها ومن حيث حرارتها، هناك رياح باردة جداً تسبب الزمهرير، وهناك رياح حارة، وهناك رياح دافئة، هناك رياح منعشة، تصريف الرياح سرعة وبرودةً وحرارةً واتِّجاهً، هناك اتجاه وسرعة وبرودة وحرارة:

(وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

أيها الأخوة... في القرآن ألف وثلاثمئة آية كونية، هذه طريق معرفتنا بالله عز وجل، ما بثَّ الله هذه الآيات ولا تحدَّث عنها في قرآنه إلا كي تكون موضوعات للتفكر، وفي درس آخر إن شاء الله نتابع هذا الموضوع.

بسم الله الرحمن الرحيم

النقطة التي يلتقي بها العلم بالأخلاق هي الموضوعيَّة :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الرابع والخمسين من دروس سورة البقرة، ومع الآية الخامسة والستين بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ)

أولاً كلمة: (ومن الناس) هذه (مِن) للتبعيض، عوِّد نفسك أن تتخلَّق بآداب القرآن؛ لا تُعَمِّم، لا تُطْلِق، لا تقل: كل أهل هذه البلدة شاردون، قل: بعضهم، بعضٌ منهم، كن موضوعياً في أي حكم تدلي به، النقطة التي يلتقي بها العلم بالأخلاق هي الموضوعيَّة، الموضوعية قيمةٌ علمية، وهي في الوقت نفسه قيمة أخلاقيَّة، العلم يلتقي مع الأخلاق بهذه القيمة، إن سُئلت عن إنسان اذكر ما له وما عليه، لا تذكر ما عليه فقط إن كنت خصماً له، ولا تذكر ما له إن كنت محباً له، اذكر ما له وما عليه.

رأى النبي عليه الصلاة والسلام صهره مع الأسرى، حين أُسِرَ يوم بدر، لماذا جاء؟ جاء ليحارب النبي، ولو تمكَّن لقتل النبي، قُبض عليه أسيراً، فلما نظر النبي عليه الصلاة والسلام إليه قال كلمة منصفة، قال: **" واللهِ ما ذممناه صهراً "**. هو صهر ممتاز. أرأيت إلى هذه الموضوعية.

التعميم من العمى :

تعلَّم من القرآن الكريم كيف تكون أحكامك دقيقة، لا تنظر بمنظارٍ واحد، لا تنظر من زاويةٍ واحدة، ورد في الأثر: أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما.

دائماً لا تعمم؛ التعميم من العمى، والفرق بين المثقف وغير المثقف هذه الناحية، أحكامه دقيقة، موضوعية، ليس فيها مبالغات، كل إنسان يبالغ بعيد عن الإنصاف، أمرت أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً، أمرت أن أصل من قطعني، وأعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني. قال تعالى:

(وَمِنَ النَّاس)

من الذين هادوا يفعلون كذا وكذا، من للتبعيض، لو اهتدى واحد منهم إلى الإسلام، ورأى هذه الدقة في القرآن، ترتاح نفسه، تأدَّب بآداب القرآن، لا تعمم ولا تطلق، ولا تبالغ ولا تقلل؛ بل إن الحق أكبر من أن يحتاج إلى مبالغة، هو أكبر من ذلك، الحق أكبر من أن تكذب له، الحق أكبر من أن تستحي به، الحق أكبر من أن يخشى البحث، الحق لا يخشى البحث، ولا يُستحيا به، والحق لا يحتاج إلى أن تكذب له، ولا أن تصغِّر من خصومه، ولا أن تُبالغ، الحق هو الله، وهو قويٌ بذاته. لذلك أنت كمسلم ادعُ إلى الله فقط، الحق قوة من دون أي شيء آخر، كن منضبطاً بكل القوانين والأنظمة تكن كلمتك هي القوية، الحق غذاء للنفوس.

مخاطبة الله الناس بأصول الدين ومخاطبة المؤمنين بفروع الدين :

قال تعالى:

(وَمِنَ النَّاس)

أما كلمة (الناس):

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ)

[سورة البقرة الآية: 21]

خاطب الله عزَّ وجل الناس تارةً، وخاطب المؤمنين تارةً أخرى، حتى إن بعض العلماء قال: إن الله خاطب الناس بأصول الدين، وخاطب المؤمنين بفروع الدين، كيف؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة الآية: 119]

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

[سورة النور الآية: 30]

أي يا من آمنت بالله؛ خالقاً ورباً ومسيراً، يا من آمنت به موجوداً وواحداً وكاملاً، يا من آمنت أن الأمر كله بيده، يا من آمنت أن منهجه هو المنهج الصحيح، يا من آمنت أن طاعته هي المُسعدة، إذا قال لك الله:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

أي أن كل حجم إيمانك، وكل تفاصيل إيمانك، وكل مرتكزات إيمانك يجب أن تذكرها حينما تؤمر بكذا، أي يا من آمنت بحكمتي، يا من آمنت بعلمي، يا من آمنت بقدرتي، يا من آمنت بأن المصير إلي، يا من آمنت بجنةٍ عرضها السماوات والأرض، افعل كذا ولا تفعل كذا.

مخاطبة الله عزَّ وجل المؤمنين بتفاصيل الشريعة :

إذا خاطب الله عزَّ وجل المؤمنين يخاطبهم بتفاصيل الشريعة، لأن الإنسان بعد أن يؤمن الإيمان الذي يحمله على طاعة الله يجب أن يبحث عن شيءٍ واحد فقط وهو أوامر الله ونواهيه، أما الإيمان الذي لا يحملك على طاعة الله فهو إيمانٌ لا قيمة له، لأنه إيمان لا ينجِّي، الإيمان الذي له قيمة والذي ينجيك هو الذي يحملك على طاعة الله.

مثلاً: معرفتك بأضرار الدخان لا قيمة لها إن لم تحملك على ترك الدخان، أما معرفتك بأضرار الدخان إن حملتك على ترك التدخين هذه معلومات جيدة ومنجية، وهكذا.

كل إيمانٍ لا يؤدي بك إلى طاعة الله لا قيمة له، إيمانٌ إبليسي، فهو آمن بالله عزيزاً، وآمن بالله خالقاً:

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

[سورة الأعراف الآية: 12]

(فَبِعِزَّتِكَ)

[سورة ص الآية: 82]

آمن به عزيزاً:

(أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة الأعراف الآية: 14]

آمن باليوم الآخر، ولكن مجمل هذا الإيمان ما حمله على طاعة الله، أبى واستكبر، إذاً لا قيمة لهذا الإيمان.

الإيمان الإبليسي :

كل إنسان يقول لك: أنا مؤمن والحمد لله، والله مؤمن يا أخي، تبحث في تفاصيل حياته لا ترى فيها انضباطاً، ولا ورعاً، ولا التزاماً، أنا يخطر في بالي أن هذا الإيمان إيمان إبليسي، فهو عرف وانحرف:

(غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ(7))

[سورة الفاتحة الآية: 7]

من هم المغضوب عليهم؟ هم الذين عرفوا وانحرفوا، من هم الضالون؟ هم الذين ما عرفوا وانحرفوا.

أرسل النبي عليه الصلاة والسلام فيما تروي كتب الحديث، سيدنا معاذ إلى قبيلة ليعلّمهم، فلما عاد إلى النبي قال: **" يا رسول الله إنهم كالإبل المتوحِّشة ـ بهائم ـ همهم شاةٌ وبعير... "**. وأنت قد تجد

إنساناً لا يفقه شيئاً، همه الدرهم والدينار. جلس عالِم من علماء مصر الأفاضل في حديقة بأمريكا إلى جانب أمريكي، فسأله عن بلده؟ قال له: أنا من مصر، سأله عن دينه؟ قال له : أنا مسلم، فقال له: حدثني عن دينك ـ وهو عالِم كبير، وله تفسير شهير ـ فحدثه ساعة عن الإسلام بكلام دقيق مختصر، مفيد، مع أدلة، فما كان من هذا الذي سأله أن يحدثه عن الدين إلا أن أخرج من جيبه دولاراً، وقال: أنا هذا إلهي أعبده من دون الله، قد تجد إنساناً همه الدرهم والدينار، همه بطنه، همه شهوته:

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْقَطِيفَةِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ))

[ابن ماجة عن أبي هريرة]

فهذا الصحابي قال: **" هؤلاء يا رسول الله كالإبل المستوحشة همهم شاةٌ وبعير "، لا يوجد أمل، قال له: " يا معاذ هناك أعجب منهم ـ أعجبت منهم؟ ـ " قال: " من هو يا رسول الله؟ " ـ هل هناك إنسان أوحش من ذلك؟ ـ قال له: " هذا الذي عرف ما عرفتم ثم انحرف ".**

أي إذا كان المسلم يعرف الجنة حق والنار حق، وهذا أمر إلهي، وهذه حرام، وهذه حلال، وهناك موت، وجنة، ونار، وهو غارق بالمعاصي، هذا كيف حاله؟ هذا حاله أشد من جاهل.

حينما يتجه الإنسان إلى غير الله فقد أشرك :

إذا قال الله:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ)

[سورة البقرة الآية:21]

يخاطب الناس بأصول الدين، إذا قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة الآية: 119]

أي يا من آمنتم بعلمي، وقدرتي، ووحدانيتي، يا من آمنتم بخبرتي، آمنتم برحمتي، افعلوا ولا تفعلوا. فالآية الكريمة:

(وَمِنَ النَّاسِ)

أي بعض الناس..

(مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً)

يتخذ نِدَّاً لله، قديماً أصنام، حديثاً أشخاص، أيَّة جهةٍ تعبدها من دون الله هي ليست إلهاً ـ بالتأكيد ـ لكنك جعلتها بمرتبة الإله؛ فخضعت لها، ورجوتها، وخفت من شرها، خضوع، رجاء، خوف، طاعة، هي ليست إلهاً، ولكنك عاملتها كإله، فاتخذتها من دون الله نداً، والند هو المثيل والمُشابه، وكل إنسان يطيع مخلوقاً ويعصي خالقه، يطيع زوجته ويعصي ربه، يأكل المال الحرام لتكثر ثروته

ولا يعبأ بحكم الله عزَّ وجل، ماذا فعل هذا؟ هذا اتخذ المال نداً لله، هذا اتخذ شهوته نداً لله، هذا اتخذ سمعته نداً لله، حينما يتجه الإنسان إلى غير الله فقد أشرك، لماذا..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

[سورة النساء الآية: 84]

الشرك خطأ لا يغتفر :

ضربت مرَّة مثلاً بسيطاً أنك قد تركب قطاراً إلى حلب، حيث يمكنك أن تحصل مبلغاً ضخماً جداً، والوقت مناسب، قد ترتكب في القطار عشرات الأخطاء، لكن القطار في طريقه إلى حلب، وسيصل في الوقت المناسب، قد تأخذ مثلاً بطاقة درجة أولى، وتجلس في الدرجة الثالثة خطأً، هذا خطأ، قد تجلس مع شبَّان ليسوا مهذبين فتنزعج منهم، هذا خطأ ثانٍ، قد تتلوى جوعاً ولا تعلم أن في القطار عربة مطعم، هذا خطأ ثالث، قد تجلس عكس اتجاه القطار فتصاب بالدوار، هذا خطأ رابع، لكن القطار في طريقه إلى حلب، وسيصل في الوقت المناسب، وستأخذ هذا المبلغ؛ أما الخطأ الذي لا يغتفر هو أن تركب قطار درعا، هنا لا يوجد هدف أبداً، الطريق مغلق هنا، لا يوجد قبض مثلاً.

لذلك الشرك خطأ لا يغتفر، لأن الطريق مسدود ولا يوجد شيء، اتجهت إلى غير الله لا يوجد شيء، غير الله عزَّ وجل ضعيف، فقير، قد يكون أحياناً لئيماً، لا يستجيب لك، وقد لا يسمعك، ولو سمعك قد لا يستجيب..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

[سورة النساء الآية: 84]

الدين توحيد :

يا أيها الأخوة الجاهل من يتخذ من دون الله آلهة، قديماً؛ اللات والعُزى، حديثاً؛ شخص زيد وعُبيد، وفلان وعلان، هو شخص قوي يقول لك: أنا أنتفع منه، أمره بمعصية فعصى، أمره بفعل شيء منكر ففَعَله، يراه إلهاً، هو جعله كإله، هو ليس إلهاً هو إنسان ضعيف جداً، ولكن الجهل أوهمك أن هذا الإنسان بيده نفعك أو ضرك، بيده أن يرفعك، بيده أن يخفضك، بيده أن يعزَّك، بيده أن يذلَّك، بيده أن يعطيك، بيده أن يمنعك، توهَّمت أنه يأخذ دور الإله فعاملته كإله، فخضعت له، ورجوته، وخفت منه، وعصيت الله من أجله، هذه مشكلة المشاكل.

أحياناً ابن له أب غني جداً، لكنه بعيد عن الدين كلياً، الأب يعطيه توجيهات؛ إذا لم تفعل كذا أحرمك من الإرث، إذا لم تفعل كذا لا أشتري لك سيارة، إذا لم تفعل كذا... هذا الابن لضعفه وجهله يجعل أباه إلهاً له، فحفاظاً على بيتٍ فخمٍ، وعلى مركبةٍ، وعلى زواج، وعلى دخلٍ كبير يعصي الإله ويطيع أباه، هذه مشكلة المشاكل، حينما تضعف رؤيتك، أو تنحرف رؤيتك فتتوهم أن بعض

الأشخاص يستطيعون أن يعطوك أو أن يمنعوك، أنت اتخذتهم آلهة دون أن تشعر، اتخذتهم أنداداً لله، عاملتهم كآلهة، رجوت خيرهم، وخفت من شرِّهم، وأطعتهم وعصيت الله عزَّ وجل..

((مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ))

[الترمذي عن عائشة رضي الله عنها]

الدين كله كلمة واحدة: الدين توحيد؛ لا إله إلا الله، لا مسيِّر، لا معطي، لا مانع، لا معز، لا مذل، لا مسعد، لا مشقي، لا خافض، لا رافع إلا الله، هذا هو الدين، هذه المقولة سهلة كفكرة وليست صعبة، أما أن تعيشها فأنت تحتاج إلى جهد كبير. أحياناً تقرأ قوله تعالى:

(وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب الآية: 71]

هذه آية واضحة جداً، لا تحتاج لا إلى تفسير، ولا إلى شيخ، لأنها واضحة، أما حينما تكون في بلدة، لك شاب صديق لك، كنت وإياه على مقعد واحد، فأنت تعاني من ضيق العَيش، ومن الدخل القليل، وصديقك معه الملايين، وهو غارق في الزنا، والفجور، والخمر، والنساء، والسفر؛ وأنت خائف من الله، من جامع إلى جامع، وترجو الله أن يسامحك، حينما ترى نفسك محروماً، وأن الله قد أعطاه، أنت لم تفهم هذه الآية أبداً، ولم تعشها، قراءتها سهلة، وسهل أن تشرحها لنا، أما أن تعيشها فهذا يحتاج إلى إيمان كبير، يحتاج إلى أن تشعر أنك بطاعة الله أغنى منه، وأنك بطاعة الله أقوى منه، وأنك بطاعة الله أسعد منه، ولو كنت فقيراً، هذه السكينة، أن تسعد بها ولو فقدت كل شيء. السكينة، إذا أنزل الله على قلبك السكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء؛ وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء.

المؤمن لا يخشى في الله لومة لائم :

يا أيها الأخوة الكرام:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً)

أحياناً يعمل زوجته نداً، تحمله على معصية يرضخ، يرى سلامتها أغلى عنده من علاقته بالله، أحياناً يدفعه لمعصية، أحياناً يأكل المال الحرام ليرضي أسرته من شدة الطلب والإلحاح، ماذا رأى هذا؟ هذا رأى أن سلامته في بيته مع زوجته، وأولاده أغلى عنده من طاعة الله عزَّ وجل، صحابي جليل طلبت منه زوجته طلباً. فقال: **اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلَّت إحداهنَّ على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بكِ من أجلهن، أهون من أن أضحي بهن من أجلك "**، هذا مقياس.

قالت له أمه: **" يا سعد إما أن تكفر بمحمد، وإما أن أدع الطعام حتى أموت "، فقال: " يا أمي لو أن لكِ مئة نفسٍ فخرجت واحدةً وَاحدةً ما كفرت بمحمد، فكلي إن شئتِ أو لا تأكلي "**. فأكلت بعد ذلك.

هذا هو المؤمن، المؤمن مواقف، مبادئ، يقول: لا بملء فمه، ولا يخشى في الله لومة لائم، يقول: لا، وألف لا. إذا شيء مخالف للشرع، وكان فيه معصية، أو فيه أكل مال حرام، أو فيه شهادة زور، لا، هذا المؤمن، فلو قطعته إرباً إرباً لا يعصي الله، هنا قوة المؤمن، أما..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

من دونه، لا يوجد بينهما نسبة، الله كل شيء، وهذا لا شيء، (أنداداً)، يتوهمه قوياً، يتوهم سعادته بإرضائه، سبحان الله! الإنسان يرتكب أحياناً حماقة كبيرة، ويخسر الدنيا والآخرة معاً، هذا الذي آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، وهذا الذي آثر رضا الله على دنياه ربحهما معاً.

حينما يكون الإنسان لغير الله يحتقر نفسه :

قال تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ)

ماذا يحب الإنسان بشكل علمي؟ الإنسان يحب الجمال، ويحب الكمال، ويحب النوال. إذا أعطاك إنسان مبلغاً ضخماً جداً حللت فيه كل مشاكلك، وكان هو قميءَ المنظر، ألا تحبه على دمامته؟ لا تنام الليل إلا وأنت تذكره، مع كونه دميماً، أعطاك مالاً، الإنسان يحب الكمال، ولو أن الكمال ما أصابه، يحب الكرم، يحب الشجاعة، يحب الحلم، يحب العدل، يحب الجمال، ويحب النوال.

هؤلاء يحبونهم كحب الله، أي أنهم يحبونهم حباً يشبه حب المؤمنين لله، المؤمن بصراحة لا يليق به أن يكون لغير الله، لا ينبغي للمؤمن أن يكون لغير الله، هو لله وحده..

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

[سورة البقرة الآية: 130]

حينما يكون الإنسان لغير الله يحتقر نفسه، لا يعرف قدرها، هانت عليه نفسه فكان لغير الله. أنت خلقك الله عزّ وجل إنساناً أولاً، مخلوقاً مكرَّماً، أنت لله، لا تكن تابعاً لإنسان بل كن تابعاً لله عزّ وجل.

حال المسلمين الآن :

هؤلاء يحبون الأنداد حباً يشبه حب المؤمنين لله؛ يعظِّمونهم، يخافونهم، يرجون ما عندهم، يعصون الله من أجلهم، وهذه أكبر المصائب أن تكون خطأً لإنسان:

(فاسْتَخَفَّ قوْمَهُ فأطَاعُوهُ إنَّهُمْ كَانُوا قوْماً فاسِقِينَ)

[سورة الزخرف الآية: 54]

هان أمر الله عليهم فهانوا على الله، هذا ملخَّص الملخَّص، وهو حال المسلمين الآن؛ هان أمر الله عليهم فهانوا على الله، احتفالاتهم، أعراسهم، كسب مالهم، تجارتهم، بيوتهم، صرعات العصر كلها في بيوتهم، لا يوجد عندهم شيء حرام، ولكن لديهم صلاة وصوم وحج وزكاة، هذا الإسلام العظيم الذي هو خمسمئة ألف بند، والذي هو منهج تفصيلي بقي خمسة فقط.

تجد حياته في واد، والإسلام في واد؛ بيته، أولاده، بناته، زوجته، دخله، تجارته، ولا يشعر أن هناك مشكلة، دار نشر تروِّج كتاباً كله كفر، يقول لك: هذه مصلحتي، ماذا أفعل؟ مطعم يبيع خمر، يقول لك: لا يمكن ألاّ يكون الخمر، لأنه مطعم خمسة نجوم، يقيم دعاية أحياناً كلها نساء كاسيات عاريات، وهو يصلي في أول صف، كيف يكون متوازناً؟ كيف جمعت بين النقيضين؟ قال لي شخص يصلي في الصف الأول: أنا عندي مطعم يباع فيه الخمر، ولكن هذا العمل في رقبة شريكي، فأنا ليس لي ذنب!! توازن فكره بهذه الطريقة أنه وضعها (في رقبة شريكه)، وانتهى الأمر.

عداوة الحال وعداوة المآل :

الإنسان الجاهل الغافل هو الذي يطيع مخلوقاً، ويعصي خالقاً، يطيع زوجته، ويعصي ربه، يطيع شريكه، ويعصي خالقه، يطيع أولاده، ويغضب ربه، يكسب المال الحرام ليرضي أسرته، وهذه لا تنفعه عند الله شيئاً، من هنا قال الله عزَّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ (14))

[سورة التغابن الآية: 14]

عدواً لكم يوم القيامة قال العلماء: **" هذه عداوة مآل وليست عداوة حال "، في الحال زوجته يحبها حباً جماً، وأولاده، أما يوم القيامة حينما يرى أنه استحق دخول النار بسببهم، عندئذٍ يعاديهم، حينما يوضع الرجل في النعش وتمشي الجنازة ـ هكذا ورد في الأثر ـ ترفرف روحه فوق النعش تقول: "يا أهلي يا ولدي جمعت المال مما حل وحرم، فأنفقته في حلّه وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي".**

سئل أحدهم إلى أين أنت ذاهب؟ والله بالحرف الواحد وإن كانت كلمة قبيحة، فأجاب: أنا ذاهب لأسكر على روح أبي، ترك له أموالاً طائلة، ولم يعرفه بالله عزَّ وجل، فهذا المال الذي بين يديه حمله على المعاصي والآثام، لذلك:**" أندم الناس رجلٌ دخل ورثته بماله الجنة ودخل هو بماله النار ".**

قد يورث أحدهم أولاده مالاً وفيراً، وأولاده صالحون، فدخلوا بهذا المال الجنة، هو جمعه من حرام فدخل بهذا المال النار، وقد تقف فتاةٌ يوم القيامة تقول: يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، لأنه ما عرَّفها بالله، ما حملها على طاعة الله، القضية خطيرة جداً.

أنا أعيد هذه الفكرة مرَّات عديدة، هناك كلام تستمع إليه فتتثاءب، وتنام بعده، لأنه كلام تافه، وهناك كلام تستمع إليه فلا تنام بعده الليل، لأن هذا الكلام يضعك أمام مسؤوليَّاتك..

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ *وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ *وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ)

[سورة النجم الآيات:59-61]

هناك كلام يجب أن يبكي له الإنسان.

علاقة المؤمن مع الله علاقة حب :

هذه الآية أيها الأخوة مهمة جداً:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ)

المؤمن هو الذي يحب الله حباً حقيقياً.

إخواننا الكرام... علاقة المؤمن مع الله علاقة حب، لأن الحب أساسه العطاء، منحك نعمة الوجود، أنت موجود، من أوجدك؟ منحك نعمة الوجود. أمدَّك بكل ما تحتاج؛ أمدَّك بالهواء، أمدك بالماء، أمدك بزوجة، بأولاد، ببيت، بحرفة تكسب منها رزقك، أعطاك ذاكرة، أعطاك قوة، أعطاك قلباً، رئتين، دسَّامات، كليتين، أجهزة كلها كاملة، فالمؤمن يحب الله عزَّ وجل، منحه نعمة الوجود، نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد،، ونعمة الهدى والرشاد.

إنهم يحبون هؤلاء الأنداد الصغار الحقيرين كما يحب المؤمن ربَّه، حب طاعة، حب انقياد، حب خوف، حب رجاء، لذلك إذا رأيت إنساناً يحب جهةً ما من دون الله كحبه لله ابكِ عليه، مسكين، قد ضيَّع عمره سُدى، جعل نفسه سيِّئة من سيِّئات فلان، أنت لله.

الماء للتراب، والتراب للنبات، والنبات للحيوان، والحيوان للإنسان، والإنسان لله.

الإنسان التافه يعيش ليأكل، والأقل تفاهة يأكل ليعيش، والمؤمن يعيش لمعرفة الله، يعيش لهدف كبير..

(وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ)

هنا... لماذا هم أشد حباً لله؟ المؤمن يحب الله في السراء والضرَّاء، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ لَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ وَكَانَ خَيْراً وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ وَكَانَ خَيْراً))

[أحمد عن صهيب]

حينما يحب الكافر أنداداً من دون الله حباً كحب الله، يفاجأ حينما تكشف له الحقيقة، في الدنيا أحياناً يطلبه فلا يلبِّيه، أحياناً يتنكَّر له، علماً أنه ساعات الشدَّة لا يلجأ إلا لله وحده.

مرَّة حدَّثني صديق عن طائرة تقل خبراء من بلدٍ منهار الآن، من بلد شعاره لا إله، نشأ هؤلاء الخبراء على الإلحاد، دخلت الطائرة في سحابةٍ مكهربة، ومنخفضاتٍ كثيرة فاضطربت اضطراباً كبيراً، لدرجة أنها كادت تسقط، فما كان من هؤلاء الخبراء الملحدين إلا أن قالوا: يا الله. عند الشدة لا تذكر إلا الله.

الشرك نوعان جليٌّ وخفي :

أريد أن أوضِّح لكم أن الشرك نوعان؛ جليٌّ وخفي، قلما نجد شركاً جلياً في العالم الإسلامي ـ والحمد لله ـ لكن ما أكثر ما نجد شركاً خفياً:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف الآية: 106]

هذا متكئ على إنسان غني، وهذا على إنسان قوي، وهذا يطيع مخلوقاً ويعصي خالقاً، وهذا يرى أن هذا المال خيرٌ له من طاعة الله، فيغش المسلمين، وهذا يكسب المال الحرام ليرضي زوجته وأولاده، هذا بشكلٍ قطعي اتخذ من دون الله أنداداً فحملوه على معصية الله، أحبهم كما ينبغي أن يحب المؤمن ربه فأطاعهم، وخاف من شرهم، ورجا ما عندهم، وهذه مشكلة العالم الإسلامي اليوم، مليار ومئتا مليون ليس أمرهم بيدهم، وليست كلمتهم هي العليا، ولأعدائهم عليهم ألف سبيلٍ وسبيل، لأنهم..

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم الآية: 59]

وقد لقي المسلمون ذلك الغَي.

مصير الإنسان بين يدي الله وحده :

دققوا الآن:

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

ظلموا أنفسهم، خيَّرناك مثلاً بين أن تأخذ جوهرة ثمنها مئة وخمسين مليون دولار، وبين أن تأخذ فحمة ثمنها قرشين، فاخترت الفحمة.

كنت أضرب مثلاً طريفاً: قطرميز ثمنه عشرون ليرة، بجانبه كأس كريستال ثمنها ألف ليرة، وإلى جانبه جوهرة ثمنها مئة وخمسون مليوناً، قلنا لك: انتق، فانتقيت القطرميز، لأنه الأكبر حجماً، معناها أن الوضع سيئ جداً، لا يوجد إنسان لا يحب، لكن من هو البطل؟ الذي ينتقي محبوباً لا

يموت، هو الذي ينتقي شيئاً أبدياً، أي بالتعبير العامي ـ فقط اعرف من تنتقي ـ كل إنسان يحب، وكل إنسان يبحث عن سلامته وسعادته، لكن أعلم علم اليقين أن سعادتك بطاعة الله، والشقاء بمعصيته. قال تعالى:

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

هؤلاء الذين أحبوا زوجة، أو أحبوا ولداً، أو أحبوا قوياً، أو أحبوا غنياً، فأطاعوه وعصوا ربهم..

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ)

هنا توجد نقطة مهمة، لماذا أطعت هذا؟ لأنك توهَّمت أنه قوي، وأنك إن عصيته أوقع بك الأذى الشديد الذي لا يحتمل، وأنك إن أطعته أعطاك الدنيا، لأنك تراه قوياً، قوياً في ماله، أو قوياً في عقابه، فأطعته؛ لكنك يا أيها الذي فعلت هذا لو ترى مصيرك بين يدي الله، وكيف أن هذا القوي معك في العذاب.

آيات من القرآن الكريم تبين حال الكافر يوم القيامة :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

[سورة التحريم الآية: 6]

(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ)

[سورة الأنبياء الآية: 98]

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ)

[سورة إبراهيم الآية: 22]

ماذا يفعل الإنسان؟

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ *وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة الآيات: 19-33]

فعلت من أجل الدنيا وقد زالت عنك الدنيا وبقي العذاب.

حال المؤمن وحال الكافر يوم القيامة :

قيل أن المؤمن حينما يأتيه ملك الموت، ويرى مقامه في الجنَّة يقول: **" لم أر شراً قط "، ينسى كل متاعب الحياة، والكافر حينما يرى مكانه في النار عند النزع الأخير يقول: " لم أر خيراً قط "**، فعن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه قال:

((يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْساً فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْساً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ))

[مسلم عن أنس بن ملك]

سيدنا علي يقول: **" يا بني ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنة بشر، وكل نعيمٍ دون الجنة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية ".**

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ)

حينما يرى أنه..

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ *)

[سورة الغاشية الآيات: 25-26]

فهذا الذي ركب طائرةً وفي ظنه أنها تقلُّه من نيروبي إلى أمستردام، فإذا بها تقلُّه إلى أنقرة ـ وهو مطلوب هناك ـ ماذا حصل له؟ بعيداً عن ملابسات الحادث، إنسان سيق إلى الحساب الشديد.

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ *)

[سورة الغاشية الآيات: 25-26]

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً)

هذا الذي أطعته خوفاً من بطشه، لن يستطيع أن ينقذك من النار، هو معك في النار، هذا شيء لا يحتمل..

من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه :

قال تعالى:

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً)

إذا توسعنا قليلاً، أو فهمنا الآية فهماً إشارياً، قوة الجمال عند الله، وقوة الكمال عند الله، وقوة النوال عند الله، والله هو كل شيء، فإن أحببت هذه طمعاً في جمالها، لو علمت أن السكينة التي تتنزَّل على قلبك وأنت مع الله، تفوق أضعاف أضعاف لذَّة النظر إليها، حينما تغض بصرك عن محاسن امرأةٍ لا تحل لك، يورثك الله حلاوةً في قلبك هي أضعاف مضاعفة من لذة النظر لو نظرت إليها، تركت

شيئاً لله فعوضك الله خيراً منه في دينك ودنياك. حينما تدع مالا حراماً وتقول: معاذ الله، الله هو الغني.

((إن لم تكن ساخطاً علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السماوات والأرض، وأشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تحل علي غضبك، أو تنزل علي سخطك، ولك العتبى حتى ترضى)).

[الجامع الصغير عن عبد الله بن جعفر]

إذا كان الطريق إلى القوة هو المعصية ترى الضعف وسام شرف لك، إذا كان الطريق للمال هو المعصية ترى الفقر وسام شرف، ترضى بفقرك. هل تغبط إنساناً ربى ثروة عن طريق المعصية؟ قال أحدهم: كنت أنا موظفاً بسيطاً لا يكفي راتبي يومين أو ثلاثة، فتح خمسة بيوت دعارة فصار عنده دخل فلكي مثلاً، فهل تحسده على هذا الشيء؟ مرحباً بالفقر إذا كان طريق الغنى هكذا.

المؤمن عنده نظرة ثاقبة جداً إذا كان طريق القوة أن أعيش على أنقاض الناس، أن أعيش على همومهم، أن أعيش على كوارثهم، مرحباً بالفقر إذا كان الطريق إلى الغنى معصية الله عزَّ وجلَّ، ومرحباً بالضعف إذا كان طريق القوة معصية الله عزَّ وجل.

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ*مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران الآيات: 196-197]

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم الآية: 42]

كن مع الله ترَ الله معك :

أيها الأخوة..

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً)

هذا الذي خفت منه فأطعته وعصيت الله، الله وحده القوي، ولو كنت مع الله لكان الله معك، كن مع الله ترَ الله معك:

(وقَالَ أَصْحَابُ مُوسَى)

وقَالَ أَصْحَابُ مُوسَى بالمنطق، بالمعطيات الواقعية، فرعون بقوته، وبطشه، وجبروته، وجنده، وآلياته وراء سيدنا موسى وأصحابه، والبحر أمامهم، كن واقعياً هل يوجد أمان؟ الأمن صفر.

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء الآيات: 61-62]

أمره الله عزَّ وجلَّ أن يضرب البحر فأصبح طريقاً يبساً.

سيدنا يونس في بطن الحوت، هل هناك أمل بالنجاة؟ إذا وقع أحدهم في بطن حوت، كان يركب سفينة، وغرقت، ووضعه الحوت ـ حوت أزرق ـ لقمة واحدة في بطنه، فهل هناك أمل؟

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء الآيات: 87-88]

اقرؤوا القرآن يا أخوان، هذا كلام الله، هل هناك مصيبة أشد من أن تجد نفسك فجأةً في بطن الحوت في الليل؟ في ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت، نادِ ربك وقل: يا رب..

(لا إِلَهَ إلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ)

الله تعالى خالق الأكوان وبيده كل شيء :

والله هناك أخ أصيب بمرض خبيث، ودعا الله من أعماق قلبه، وتصدَّق مما يملك، ذهب بعد أربعة أشهر إلى بلد غربي ليجري عملية ميؤوساً من نجاحها، ومعه التقارير، ومعه الصور، فحصوه، فكان كلام الطبيب أن هذه الصور ليست لهذا الإنسان ـ قصَّة واقعيَّة ـ قال لهم الطبيب في بريطانيا: هذه الصور وهذه التحاليل ليست لهذا الإنسان، مع أنها له.

فأنت تنادي خالق الكون، أنت تنادي الذي كل شيء بيده؛ نمو الخلية بيده، الدسَّام بيده، لمعة الشريان بيده، العَصب بيده، الخثرة بيده، كله بيده؛ زوجتك بيده، ابنك بيده، أقوى منك بيده، دونك بيده، كله بيده، عندما توحِّد ترتاح.

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء الآية: 213]

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ)

قال تعالى:

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء الآيات: 61-62]

الآية التالية آية توحيد :

إذا ورَّط رجلٌ شخصاً بالتهريب، فقبض عليه، أخذوه إلى السجن، كم يحقد على هذا الذي ورطه؟ لا تكن ضحية أحد، لا تكن غلط إنسان، لا تكن سيئة إنسان، لا تكن مجيَّراً لإنسان، أنت لله عزَّ وجلَّ، كن لله وحده. هذه آية توحيد:

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ* إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا)

وإذا عاتبه ألم تقل لي أنت؟ يجيبه: أين كان عقلك؟ يشمت فيه أيضاً، الحقيقة موضوع الندم شيء لا يحتمل، إنسان ورَّطك، أوقعك في شر عملك، وتبرأ منك..

(إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ* وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ)

قال العلماء: **" الحسرة حينما تقع في مشكلةٍ لا حل لها "**، أما مادام هناك أمل فليس هناك حسرة.

(كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)

لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق :

أيها الأخوة... لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، لا تكن مجيَّراً لإنسان، لا تكن ذَنْبَ إنسان، لا تكن سيِّئة إنسان، لا تكن محسوباً على إنسان، كن لله الواحد القهَّار، أطع ربك ولا تعبأ بأحد، لا تأخذك في الله لومة لائم، ليس إلا الله بيده كل شيء..

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود الآية: 123]

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله بيده، وهذا الموقف موقف فيه تخلّي، إنسان اتبعته، وعظّمته، وعصيت الله من أجله؛ وفي النهاية ما دافع عنك، ولا نجَّاك من عذابٍ مقيم، هذا ألم لا يحتمل.

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله نتابع هذه الآيات.